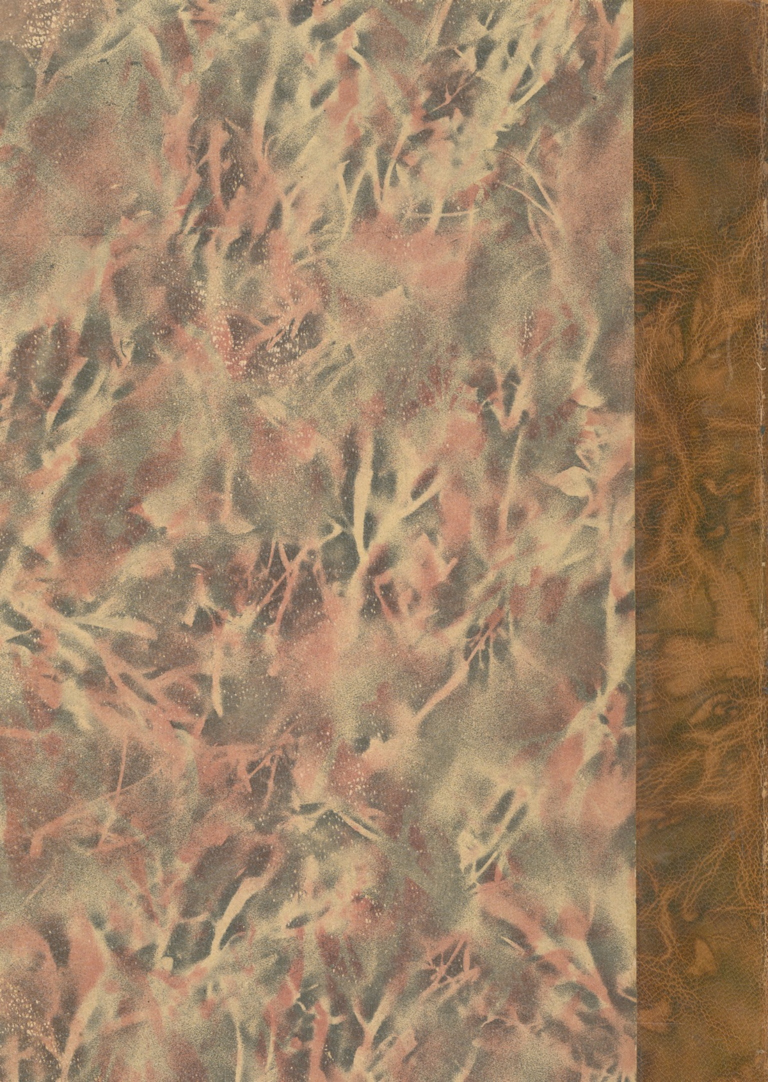
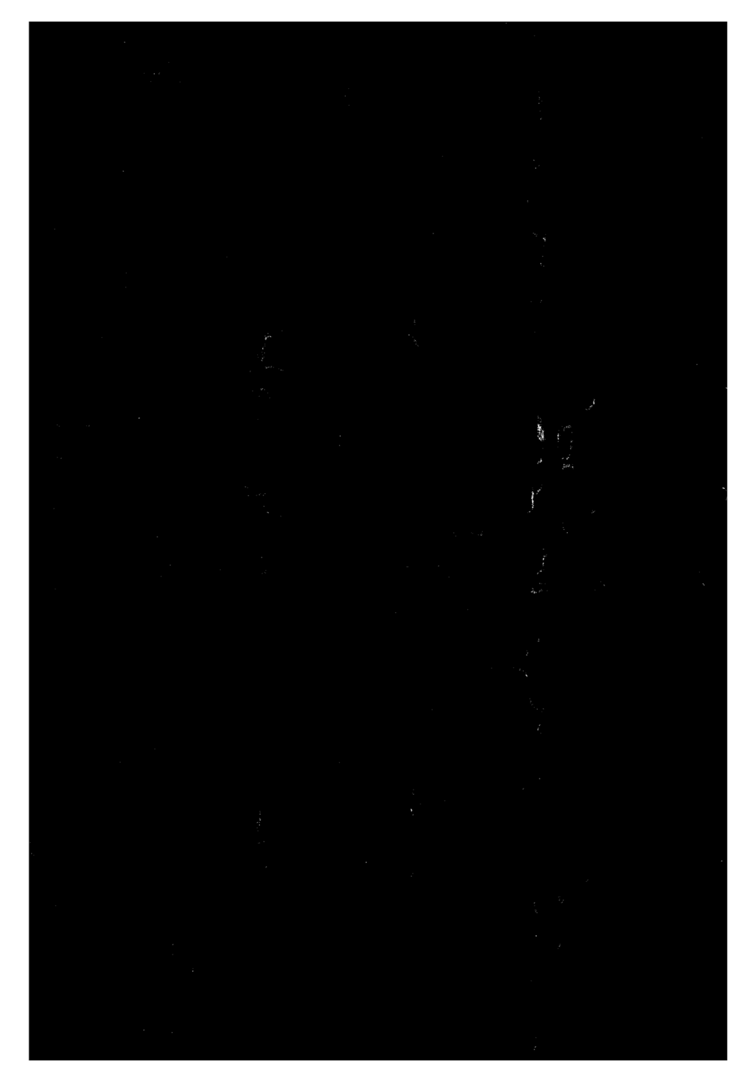




لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

كتاب السلوك

لمعرفة دول الملوك

لتقيّ الدين أحمـــد بن على المقريزى

صحّحه ووضع حواشيه

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)

مدرّس بقسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجـــزء الأوّل – القسم الأوّل

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٣٤

تصـــــدير
للقسم الأوّل من الجزء الأوّل من كتاب السلوك

يرجع تفكيرى فى وجوب نشر هذا المؤلف المعروف إلى سنة ١٩٢٧، حين كنت أعدّ بحثا لنيل الدكتوراه، من جامعة لِقَرْپُول. وقد كان موضوع ذلك البحث "العلاقات الخارجية للدولة المصرية فى القرن الخامس عشر، (Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth Century)"، أى القرن التاسع الهجرى تقريبا، فقصدتُ إلى الإحاطة بمؤلفات المؤرّخين المصريين فى ذلك القرن. لهذا استوعبت معظم الموجود من مؤلفاتهم، فى التاريخ وغيره، مطبوعة أو مخطوطة؛ وقرأت ما استطعت أيضا من مؤلفات كُتّاب القرنين الثامن والعاشر الهجريين؛ وقد خرجت من ذلك الميدان الفسيح، معتقدا ومؤمنا، بأن صاحب الصدارة بين تلك المؤلفات جميعا، من الوجهة التاريخيـة، هو كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك"، لمؤلفه المقريزى، المولود بالقاهرة سنة ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م)، والمتوفى بها سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤٢ م).

ثم كان أن تحدّثت يوما مع الأستاذ هـ . أ . ر . جِب (H. A. R. Gibb)، أستاذ اللغـة العربية بمدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن، فى مؤلفات المؤرّخين المصريين، الذين عاشوا وكتبوا فى القرن التاسع الهجرى، وفيما يعترض قارئ المخطوطات منها — وهى القسم الأكثر عددا — من العثرات والصعوبات. فسرّنى قوله إن من أولى تلك الكتب بالطبع والنشر، كتاب السلوك، إذ وافق قوله رأيى فى ذلك المؤلف[1].

حضرت بعدئذ إلى مصر، والتحقت بوظيفة مدرّس للتاريخ، فى كلية الآداب بالجامعة المصرية سـنة ١٩٣٠، فطفقت أتلمس الوسائل وأتحين الفرص، للعمـل فى نشر ذلك الكتاب، حتى علمتُ أنّ "لجنة التأليف والترجمـة والنشر" تفكر فى إخراجه، بمعاونة

(١) أنتهز هذه الفرصة لأشكر للأستاذ جب، ما أسداه إلىّ من الاقتراحات إبان بدئى العمل فى هذا الكتاب.

وزارة المعـارف العمومية . ومن هـذا نتج القسم الأول من الجـزء الأول ، الذى تخرجه اللجنة اليوم . وإنى مبادر هنا ، برجائى إلى العاملين على إحياء النصوص التاريخيـة المصرية ، أن يقولوا كلمتهم فى هـذا النحو الذى طُبع عليـه القسم الأول ، وأن يمدّونى بنقدهم وملاحظاتهم .

* * *

ليس هذا التصدير مجال الترجمة للقريزى ، أو الإفاضة فى تحليل كتابه السـلوك ؛ وحسبى هنا التعريف بهما فى كلمات قليـلة ، لأتفرغ بعدُ لبيان الطريق الذى سلكته فى إخراج هذا القسم .

أما أحمد بن على المقريزى ، فلا خلاف فى تبوئه صدارة المؤرخين المصريين ، فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى . ويكفى دليلا على هذا أن فطاحل ذلك الجيل من المؤرخين فى مصر ، كانوا تلاميذ المقـريزى ، مثل أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ، مؤلف كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة(1) ، ومحمد بن عبد الرحمن السخاوى ، صاحب كتاب التبر المسبوك فى ذيل السـلوك(2) ؛ وأن أحمد بن حجر العسقلانى ، وبدر الدين محمودًا العينى ، لم يوجها كل عنايتهما إلى التاريخ ، كما فعل المقريزى ، بل كانا محدّثين أكثر منهما مؤرخين .

ولا خلاف أيضا فى استحقاق كتاب السلوك أن يحل المحـل الأول ، بين كتب التاريخ فى عصره . وقـد كتبه المقريزى ليكون خاتمة مؤلفـاته فى تاريخ مصر : إذ ألف " كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينـة الفسطاط " ، فى تاريخ مصر من الفتح العـربى إلى قبيل تأسيس الدولة الفاطمية ؛ و " كتاب اتعاظ الحنفا بأخبار الخلفا " ، فى تاريخ مصر زمن الخلفاء الفاطميين ، (انظر ص ٩ ، حاشية ١ ، ٢) ؛ ثم رأى أن يصل " ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية ، والسلاطين المماليك التركية والجركسية " ، إلى زمنه ، فى مؤلف مستقل ، وسماه " كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك " . (انظر ص ٩ ، سطر ١ — ١٠) .

---

(1) أخرجت جامعة كاليفورنيا الأمريكية شطرا من هذا الكتاب ، فى سبعة أجزاء ، (انظر ثبت المراجع العربية ، تحت اسم ابن تغرى بردى ، صفحة س) ؛ وتدأب دار الكتب المصرية ، منذ سنة ١٩٢٩ ، فى إخراج طبعة كاملة له ، ظهر منها حتى الآن الأجزاء الأربعة الأولى .

(2) طبع هذا الكتاب فى بولاق ، سنة ١٨٩٦ .

* * *

يقع هذا الكتاب، كما رتّبه المقريزى، فى أربعة أجزاء، وتوجد منه نسخ خطية عديدة، كاملة وناقصة، بعضها مجلد فى أربعة أجزاء، وبعضها فى أكثر من ذلك . وأكبر هذه قيمة، النسخة الأصلية الأولى، التى خطها المؤلف بيده، ومن هذه يوجد الجزء الأول، من أربعة أجزاء، بمكتبة يكى جامع بالآستانة، تحت رقم (٨٨٧) .

وتحوى مكاتب الآستانة عدّة نسخ أخرى، متفاوتة فى تاريخ كتابتها، وفى عدد أجزائها : ففى مكتبة الفاتح نسخة فى إحدى عشرة مجلدة، تنقصها الأولى والعاشرة، كُتبت سنة ٨٨٠هـ، وأرقامها (٤٣٨١ — ٤٣٩٠)؛ وهى أقدم النسخ المعروفة، وتتلو النسخة الأصلية فى القيمة . وبالمكتبة نفسها نسخة أخرى، فى أربعة أجزاء كاملة، أرقامها (٤٣٧٧ — ٤٣٨٠) . وفى مكتبة أيا صوفيا نسختان كاملتان، كل منهما فى أربعة أجزاء، كتبت إحداهما سنة ٨٨٣ هـ، والثانية سنة ٨٩٤ هـ، وأرقامها (٣٣٦٩ — ٣٣٨٦) . وفى مكتبة عاشر حفيد، الجزء الأول من نسخة، ذات أربعة أجزاء، رقمها (٢٤٧) . وفى مكتبة كوپريلى جزء واحد، من نسخة مختلفة فى تقسيمها عن الصنفين الآنفين، ويرجح أنها كتبت فى ثمانية أجزاء، ورقمها (١١٣٧)[(١)].

يوجد عدا ذلك، من مخطوطات السلوك، نسخ مبعثرة فى شتى المكاتب والمتاحف الأوربية : منها بالمتحف البريطانى فى لندن، الجزءان الثانى والرابع من نسخة ذات أربعة أجزاء، (British Museum Mss. Or. 2902, 9542)؛ وفى مكتبة بودليان بأكسفورد نسخة كاملة، (Bibliotheca Bodleianae, Codicum Manuscriptorum Orientalium... Catalogus a Joanne Uri confectus, Oxonii, DCLXXXIX, DCCXXIV, DCCXXIX et DCCLI)؛ وفى مكتبة جامعة جوتا الجزء الأخير من نسخة ذات أربعة أجزاء،

---

(١) إنى مدين بهذه المعلومات، الخاصة بخزائن الآستانة، إلى الدكتور ف . هـ . رتر (Ph. H. Ritter)، وقد نقلتها من خطاب منه لزميلى وصديق الدكتور عبد الوهاب عزام، مدرّس اللغتين الفارسية والتركية، بكلية الآداب بالجامعة المصرية . وأريد أن أدوّن شكرى لكليهما هنا : فقد تولى الدكتور رتر تجهيز الصور الشمسية، التى احتجت إليها من هذه المخطوطات، وأرسلها مرفقة بتلك المعلومات المتقدّمة؛ ومهد لى الدكتور عزام السبيل للاتصال بالدكتور رتر، والاستقاء من علمه .

(Verzeichniss der für die orientalische Sammlung in Gotha von U. J. Steetzen, 1810, Leipzig, N°. 1484)؛ وفى المكتبة الأهلية بباريس نسخة كاملة فى أربعة أجزاء، ونسخة أخرى عبارة عن مجلدين من الجزء الثالث، (Bibliothèque Nationale, Paris, Fonds Arabe N°s. 1726-1728)؛ ويوجد بدار الكتب المصرية صور شمسية لهاتين النسختين الباريسيتين (تاريخ ٤٥٥، ٤٦٤)، ونسخة خطية ثالثة، منقولة حديثا من النسخة الباريسية الكاملة.

* * *

أول ما يلزم لنشر مخطوط، الحصول على صور شمسية لأكبر عدد ممكن من النسخ المعروفة منه، مع الإحاطة بأوصاف ما لم يتيسر منها. وقد وُفِّقْتُ إلى أكثر من هذا، فيما يخص نشر الجزء الأول من السلوك، إذ حصلتُ على صور شمسية من المخطوط الذى كتبه المقريزى بيده، والموجود بمكتبة يكى جامع، فلم تعدْ حاجة ماسة إلى الحصول على عدة من النسخ المعروفة. وهذه النسخة هى أصل القسم الأول المنشور هنا، وعماد ما يتلوه من بقية الجزء الأول. على أنى لم أطمئن إلى إخراج الكتاب من نسخة واحدة، رغم انتسابها إلى المؤلف مباشرة، لما حدسته فيها من الصعوبات عند أول نظرة. لذلك استعنت بالصور الشمسية للنسخة الباريسية الكاملة، الموجودة بدار الكتب المصرية، فاستهديتها فى إبانة بعض ما غمضت قراءته من الألفاظ من مخطوطة يكى جامع، واسترشدت بها فى بعض العبارات والألفاظ الزائلة، أو المحجوبة بورقة ملصقة فوقها، (انظر ص ٧٠، حاشية ٣؛ ص ١٠١، حاشية ٣، ٤؛ ص ١٠٨، حاشية ٢؛ ص ١٩٦، حاشية ١؛ وغيرها كثير).

* * *

يتعين هنا، قبل شرح الطريقة التى اتبعتها فى إخراج هذا القسم الأول من السلوك، أن أصف مخطوطة يكى جامع، وقد سميتها س فى الحواشى؛ ونسخة باريس، وقد سميتها ب؛ وأن أذكر الشذرات المطبوعة فعلا من السلوك، بلغتها أو مترجمة.

أما س فمجلد ضخم، غلافه من جلد قوى، مطبوع فى وسطه مستطيل للزينة، غير مذهب. وخط هذا المجلد نسخ متوسط، واضح القراءة؛ وعدد أوراقه ٢٥٧، لونها أبيض ضارب إلى الصفرة؛ ومقاس الورقة ٢٥ ½ × ١٦ ½ س م، أى أكبر بقليل من الصورة الشمسية المطبوعة هنا. (انظر ص ٢).

يبتدئ متن كتاب السلوك فى هــذه المخطوطة من الورقة ١٣ ا ، وينتهى عند ورقة ٢٥٣ ا . أما ما قبــل ذلك ، وما بعده ، من أوراق المجلد ، فيحتوى عبارات متنوعة ، ليس للمتن علاقة ظاهرة بهــا ، على أنها مكتوبة بخط يشــبه خط متن السلوك ، ماعدا الوارد فى ص ١ ا . ويوجد بتلك الصفحة الأولى رسم دائرة ، فى نصفها الأعلى ، بخط نسخ كبير ، وقفية نصها : "وقف سلطان أحمــد خان بن غازى سلطان محمد خان" ، وبنصفها الأسفل طغراء ، يرجح أنها لهــذا السلطان العثمانى ، الذى تولى من سنة ١٦٠٣ إلى ١٦٢٧ م . وعلى ص ١ ب فقرة فى منشأ الخوارج ، وفى أصل عادة حلق الرءوس عندهم ؛ وتستغرق هذه إلى آخر ص ٢ ا . وعلى الصفحة ٢ ب فذلكة فى أصل الجبابرة ، تنتهى فى منتصف الصفحة نفسها ، ويتلوها عبارة فى أنساب بعض قبائل العرب ، التى سكنت حَوْف مصر .

أما العبارات التى تلى آخر الجــزء الأول ، فأولهــا تعليقــة فى أنواع الطلاق ، تشــغل ص ٢٥٣ ب ومنتصــف ص ٢٥٤ ا ، ويتلوها قول فى أصــل القصــيدة المشهورة ، التى مدح الفرزدق بها على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وتبتدئ ص ٢٥٤ ب بقول آخر فى أصل القصيدة المعروفة التى أنشأها ابن زريق البغدادى ، فى زمن غربته بالأندلس ؛ ثم يتلو هــذا القول ، إلى آخر الصفحة ، اقتباسات قصيرة من أقوال بعض المحدِّثين فى أهمية الإسناد فى الحديث ، ورأى فى مدى ملكية المــالك للغلام المملوك . وتبتــدئ ص ٢٥٥ ا بفصل فى الجرح والتعديل ، ويشغل هذا الفصــل حدَّ ثلثى ص ٣٥٦ ب . وعلى بقية تلك الصفحة ، حتى ثلثى ص ٢٥٧ ا ، وهى الصفحة الأخيرة من المخطوط ، فصــل فى الترغيب فى علم الأنساب ، يتلوه ذكر وفاة أبى عثمان إسماعيل الصابونى ، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ، وإشارة إلى أحد الأئمة الشافعيــة ، لم أستطع أن أقرأ من اسمه سوى لفظى "مهران الاسفراينى" ، ويتلو ذلك كله حديث نبوى .

ليس ثمت شــك فى أن هذه النسخة من الجزء الأوّل هى الأصلية الأولى ، سَطَّرها المقريزى لنفســه ، على حد قوله فى صفحة العنوان ، وفى "حَرْد" المجلد (Colophon) (انظر

ص٣، سطر ٦ هنا، وكذلك ص٢٥٣ ا في س). وتوجد عدا هذا شواهد داخلية عدّة، للدلالة على أن المقريزى كتب هذا الجزء بيده، وتتضح هذه الشواهد من وصف خواص ترتيب المتن.

أول تلك الخواص أن كثيرا من صفحات هذا الجزء مرقوش بهوامش إضافية، مكتوبة أحيانا على جوانب الصفحات، وأحيانا على ورقة منفصـلة بين صفحتين، وفى المتن عادة إشارة بعلامة إلى المكان المناسب لهذا أو ذاك الهامش من المتن. وتلك الهوامش، بحسب ارتباطها بالمتن، على أربعة أنواع: إما فقرة متسقة مع المتن اتساقا تاما، فهى عبارة عن سقطة كتابية، تداركها للمؤلف عند المراجعة، فأثبتها حيث استطاع، وأشار إلى موضعها المناسب من صلب المتن، (انظر ص ٤، حاشية ١)؛ أو عبارة من عبارات المتن مكتوبة بأسلوب آخر، (انظر ص ٢٥٥، حاشية ١)؛ أو إضافة لا اتساق لها مع عبارة المتن، رغم علاقتها أحيانا بموضوعه، وأمثال هذه لا شك زيادات عَثَر المؤلف عليها، فيما بعد، فأثبتها حيث أراد، (انظر ص ٨، حاشية ٢؛ ص ٢٩ حاشية ٣؛ ص ٤٦، حاشية ٢؛ ص ٦١، حاشية ١؛ ص ٢٥٥، حاشية ١)؛ أو عبارة تفسـيرية للفظ لغوى، (انظر ص ٨، حاشية ١؛ ص ١٧، حاشية ٢)؛ أو عبارة للتنبيه إلى ما فى المتن من مواضيع، وهذا النوع الأخير مكتوب بخط مخالف، (انظر ص ٧٩، حاشية ١؛ ص ٢٠٩، حاشية ٢؛ ص ٢١٧، حاشية ١؛ ص ٢٢٤، حاشية ١؛ ص ٢٤١، حاشية ٣).

تدل هذه الهوامش، ما عدا النوع الرابع منها، على أن المقريزى كتب هذه النسخة من الجزء الأوّل بيـده، ثم راجعها بنفســه، فتدارك بالإثبات مافاته، وأضاف من الزيادات ما رأى أن يضيف، وفسّر من الألفاظ ما ظنّ غريبـا. غير أنه يلاحظ أحيانا خلاف طفيف بين خط المتن وخط تلك الهوامش، وهـذا يرجح أن المقريزى راجع الكتاب بعـد مضى عدّة سنين من تاريخ كتابته، بعد أن اعترى خطه شىء من الضعف والهزة.

ومن خواص س أيضا طريقة الرسم الإملائى، التى اتبعها المقريزى فى سائر هذا الجزء، إذ أهمـل الهمزات إهـالا تاما، فسهّلها بالإبدال إلى ياء فى أواسط الكلمات، وحذفها فى أواخرها، وأمثال ذلك الطايع (الطائع)، وساير (سائر)، وهولا (هؤلاء)، وعلا (علاء)، وخلفا (خلفاء). وفى هذا الجزء أيضا دأب المقريزى على إحلال الدال موضع الذال، مثـل

دخاير(ذخائر)، وهمدان (همذان)؛ وتهاون فى النقط كثيرا، حتى أن بعض الألفاظ وارد بغير نقط البتــة؛ ووقع فى بعض أخطاء نحوية ولغوية؛ كما ضبط بعض الألفاظ ضبــطا خطأ؛ وقــد أشرتُ إلى أمثال ذلك كله فى الحواشى . (انظر ص ٤، حاشـية ٢؛ ص ٧، حاشية ٥، ٨؛ ص ١٠، حاشية ٢؛ ص ١٦، حاشية ٢) .

* * *

يلى س فى القيمة العلميــة، النسخة التى كتبت عام ٨٨٠ هـ، والموجودة بمكتبة الفاتح، لأنها أقدم النسخ الخطيــة المعروفة حتى الآن، وأقربها إلى زمن المقريزى والنسخة الأصلية الأولى . ويليهــا ما كُتب بعــدها، وهكذا . أما نسخة باريس (ب) فمتأخرة بالنســبة إلى غيرها من النســخ المعروفة، لأن الجزءين الأول والثانى منها بخط المدعو منصور الأزهرى، وقد فرغ من كتابتهما فى أول سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م)، والجزءين الثالث والرابع بخط المدعو حسن العثمانى، وقد فرغ من نسخهما بمكة، فى أواخر سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٣ م) . (انظر فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية، ج ٥، ص ٢١٩) .

تشبه ب مخطوطة س فى وضوح الخط، وفى الرسم الإملائى أيضا : من تسهيل الهمزات المتوسطة، وحذف الهمزات المتأخرة؛ كما تشبهها أيضا فى الاقتصاد فى النقط، وفى الأخطاء النحوية واللغوية . والواقع أنها نسخة طبق الأصل، لا تختلف عنه فى الأسلوب أو العبارة أو ترتيب المحتويات، إلا ما نتج عن تصرف طفيف من النـاسخ، أو سهوه أو إهمـاله، أو تقصيره فى قراءة بعض الهوامش المزدحمة، أثناء النقل . ومن أمثلة ذلك صفحة العنوان، إذ ليس فى ب شىء مما هو وارد بتلك الصفحة فى س، بل يوجد بدلهـا الفقرة الآتيــة : "الجزء الأول والثانى من السلوك لمعرفة دول الملوك للشيخ الإمام العلامة الهمام الرحالة المقريزى رحمه الله تعالى وأعاد علينا من بركاته، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم". وثمت خلاف آخر بين النسختين، فى الصفحة الأولى، ففى ب بعد البسملة عبارة: "وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، قل اللهم مالك الملك ... ..." (قارن هذا بالعبارة الافتتاحية فى س). هذا ولمعرفة أنواع الخلاف الأخرى بين النسختين، انظر (ص ٢٨، حاشية ٣؛ ص ٣٩، حاشية ١؛ ص ٦١، حاشية ١؛ ص ٩٠، ١٦٩، حاشية ٤؛ ص ٩٨، حاشية ٢؛ ص ١٧٨، حاشية ٢) .

ويوجد بين النسختين خلاف من نوع آخر، لا مساس له بجوهر المتن، بل هو عرضى بحت : ذلك أن الهوامش التى فى س عبارة عن سقطات كتابية، قد تداركها المقريزى بالإثبات عند المراجعة ، أو إضافة عثر عليها فكتبها حيث يريد كما تقدم ، أدمجها كاتب نسخة ب — أو كاتب النسخة التى نقل منها — حيث تجب من المتن ، أو حيث مظنة الصواب ؛ ولم يخطئ إلا قليلا فى هذا المجهود المحمود، الذى صير ب ذات أهمية . (انظر ص ٢٨، حاشية ٣؛ ص ٦١، حاشية ١؛ ص ٩٠ ، حاشية ١ — ٤؛ ص ٩٨ ، حاشية ٢ ؛ ص ١٧٨ ، حاشية ٢) . أما ما عدا ذلك من الهوامش الواردة فى س ، كالحواشى التفسيرية التى كتبها المقريزى، وكالإشارات والتنبيهات الواردة بخط مخالف، فليست موجودة فى ب مطلقا . على أن فى ب هوامش من نوع آخر، تميزت بها هى أيضا، وهذه عبارة عن إشارات باللغة الفرنسية لكبار أحداث الحروب الصليبية، أو ترجمة إلى تلك اللغة لأسماء كبار الصليبيين، قبالة ورود أسمائهم بالمتن . (انظر ص ٩٦، حاشية ٧) .

* * *

ليست الطبعة المعروضة اليوم، أول محاولة لنشر كتاب السلوك، فقد تناوبته مجهودات المستشرقين، كل على قدر حاجته منه، منذ أواسط القرن الثامن عشر، أى قبل وصول الحملة الفرنسية إلى مصر بجيل تقريبا . وأول المبكرين إلى هذا هو (Cardonne) ، إذ نشر منه فى سنة ١٧٦١ م، شذرات باللغة العربية، فى ذيل كتاب تاريخ حياة لويس التاسع ملك فرنسا (Joinville: Vie de St. Louis; ed. Cardonne. Paris, 1761) ؛ كما نشر منه فقرات أخرى سنة ١٨٢٤ ، ضمن مختارات عربية ، متعلقة بتاريخ فرنسا ، تحت عنوان (Cardonne: Extraits de MSS. Arabes) ، فى المجموعة الفرنسية المسماة : (Petitots: Collection des Mémoires; Vol III, Paris, 1824).

بعد ذلك بإحدى وعشرين سنة ، أتم المستشرق (Quatremère) ترجمة فرنسية فى جزءين ، لشطر كبير من كتاب السلوك ، أوله سنة ٦٤٨ هـ ، وآخره سنة ٧٠٨ هـ، تحت عنوان (Quatremère: Histoire des Sultans Mamlouks etc, Paris,1837 – 1845) .

وكان اعتماده فى الترجمة على مخطوطة باريسية، كانت فى أيامه بمكتبة الملك (Bibliothèque du Roi)، تحت أرقام ٦٧٢ — ٦٧٤؛ فبدأ ترجمته من ص ١١٥ منها، وانتهى عند ص ٣١٥[١].

ثم انتقلتْ تلك المخطوطة إلى (Bibliothèque Nationale) ، وصارت أرقامها ١٧٢٦ — ١٧٢٨؛ ومنها ترجم (Blochet)، فى سنة ١٩٠٨ ، ما فاته (Quatremère) من الجزء الأوّل ، وسمى ترجمته (Blochet: Histoire d'Égypte de Makrizi)، ونشرها فى (Revue de L'Orient Latin, Tomes VI, VIII-XI). وهذه المخطوطة، التى كانت عماد الترجمتين الفرنسيتين، ليست سوى ب هنا، والتى أشرتُ إلى مبلغ استعانتى بها فى المقابلة والمقارنة[٢].

* * *

أما محاولتى التى تخرج باكورتها فى الصحائف التالية، فهى أوّل محاولة لإخراج الكتاب كاملا، بلغته التى كُتب بها . وقد اعتمدت على مخطوطة س اعتمادا كليا ، واستعنت بنسخة ب ، واسترشدت بترجمة (Blochet) . على أنى تناولت تلك الترجمة ببعض النقد ، (انظر ص ٨٠ ، حاشية ٥ ؛ ص ٩٤ ، حاشية ١ ؛ ص ١١٢ ، حاشية ١ ؛ ص ١٣٥ ، حاشية ٤ ، ٥ ؛ ص ١٣٧ ، حاشية ١ ، ٢ ؛ ص ٢١٧ ، حاشية ٢) ، ونبّهت إلى عدد قليل من أخطائها، التى كانت منشؤها اعتماد المترجم على نسخة ب فقط ، (انظر (Blochet: Op. cit. Introd. P. 53 . وقصدتُ بذلك إبراز قيمة مخطوطة س، لا النيل من نتيجة مجهود محمود ، فضله مشهود به هنا ، فى كثير من الحواشى . (انظر ص ١٠ ، حاشية ١ ؛ ص ٢٤ ، حاشية ٦ ؛ ص ٣٦ ، حاشية ٦ ؛ ص ٤٦ ، حاشية ١ ؛ ص ٥٠ ، حاشية ٣ ، ٨ ؛ ص ٦٠ ، حاشية ١ ؛ وغيرها) .

---

(١) يوافق بدء ترجمة (Quatremère) ص ٩٦ أ من مخطوطة س ، وينتهى فى أوائل الجزء الثانى منها . والسبب الذى حدا به إلى ذلك البدء، واستبعاد الصفحات الأولى من السلوك ، وهى القسم الخاص بدولة الأيوبيين فى مصر، أنه كان قد فكر فى نشره فى مجموعة فرنسية مستقلة ، اسمها (Collection des Historiens des Croisades)، كان العزم معقودا على إخراجها ، ولم ينجح المشروع . راجع (Quatremère: Op. cit. T. I. 1 Pref, P. XVIII).

(٢) توجد أيضا قطعة صغيرة من كتاب السلوك ، منشورة فى الجزء الثانى من كتاب تاريخ عمارة اليمنى ، (Derenbourg : Oumara du Yemen, Paris, 1897-1902. Tome II. PP. 650-652) ، تحت عنوان " نبذة من السلوك " . (انظر ص ٥٣ ، سطر ١٠ — ص ٥٤ ، سطر ١١) .

وقد بدأت العمل بنسخ المتن المعدّ للطبع من ب ، وقابلته عليهـا ، تمهيدا لمقابلته على نسخة الآستانة . وكان اعتقادى أن النسختين ذاتا قيمة متكافئة، بل ظننت أن نسخة باريس أهم من الأخرى ، لأن معظمها قد ترجم إلى الفرنسية، فأصبحت ذات قيمة معروفة، ونصها محترم . فلما رأيت بعــد ذلك أن مخطوطة الاستانة بقلم المقريزى ، تضاءلت أمامها نســخة باريس، وصارت فرعا ، ومخطوطة س أصلا .

ولم يكن البدء على هذا النحو المعكوس مضيعة لوقتى ، فإنى استفدت من ب استفادة واسعة، (انظر صحيفة و) ، واستطعت أن أدرك أوجه الشبه والخلاف بين المخطوطين . غير أنى لم أدأب على إثبات نتيجة المقابلة فى الحواشى، لأن أهمية س طغت على كل الاعتبارات، ولأنى توخيت ألا أحمِّل كعوب صفحات المتن أكثر من اللازم .

* * *

كتب المقريزى كتابه على نظام الحوليات، الشائع فى مؤلفات المؤرخين الشرقيين فى القرون الوسطى ، فسرد تاريخ كل ســنة على حدته ، ولم يحاول أن يصــل بين سنة وأخرى أبدا ، ولم يستوقف القارئَ فى وسط السنين إلا عند حدوث عهد جديد . وقد سار المقريزى على هذا النحو فبدأ كل سنة فى سطر جديد، وعنونها بخط أكبر من خط المتن ، و بمداد أحمر؛ وفعل مثل ذلك عنــد بدء عهد سلطان جديد . وللتوفيق بين هــذا النظام ومقتضيات الطبع الحديث أبقيتُ عناوين السنين فى مواضعها، فى أوّل سطر دائمـا، و بحروف أكبر قليلا من حروف المتن؛ ووضعتُ أوائل أسماء السلاطين فى وسط السطر، بحروف كبيرة أيضا . (انظر ص ٤١، حاشية ٦) .

وقــد أخذت حريتى فى نقط الألفــاظ ، وفى الترقيم والتقسيم ؛ كما فعلت ذلك أيضــا فى الأخطاء الإملائية البحتة، فاتبعت الرسم الإملائى الحديث . ولو كنت عمدت إلى الإشارة إلى جميع مواضع النقط الناقصة، أو الغلطات الإملائية الشائعة ، لملأت أضعاف المساحات التى شــغلتها الهوامش . على أنى نبَّهت دائمـا ، عنــد الحاجة ، إلى الألفاظ التى نقطّتها من عندى ، وعلى مسئوليتى . ولمـا كان المقريزى قد ضبط بعض ألفاظ المتن دأبت على إثبات

ضبطه دائما حيث كان ، بغير تنبيه إليــه فى الحواشى ، إلّا إذا كان هناك ما يقتضى ذلك ، أو كان الضبط خطأ ، فقد أصلحته ، ونبهت إلى أصله . على أنه كثيرا ما استلزم المتن ضبط كلمات أخرى ، لزيادة التوضيح . (انظر ص ٢٤، حاشية ٢) .

* * *

والآن ، وقد بيّنت فى هــذا التصدير المختصر ، معالم الترتيب الذى سرت عليه ، فواجبى أن أشكر لكل من عاوننى ، بالمساعدة أو بالتشجيع ، فى إخراج هــذا القسم الأوّل من كتاب السلوك . وأبدأ بالذكر "لجنة التأليف والترجمة والنشر"، وهيئتها الفنية ، لتكليفى القيام بنشره ، وإعطائى الحرية فى كيفية طبعــه وتنظيمه ، وتواصيها بالصبر إزاء البطء الذى تطلبه نوع العمل . وأشكر أيضا الأستاذ أحمد أمين ، الأستاذ المساعد بكلية الآداب بالجامعة المصرية ، ورئيس "لجنة التأليف والترجمة والنشر" ، لمـا رمقنى به من عنايته المستمرة ، إذ قرأ جميع صفحات القسم الأوّل ، قبــل اعتمادها نهائيا للطبع ، وهدانى باقتراحاته ، مرة إلى مراجعــة عبارة بالمتن ، ومرات لتعديل بعض الحواشى . وقد كان من حسن حظى أيضا أن طلبتُ إلى صــديق وزميلى أحمد الشايب ، أن يعاوننى فى أدوار المقارنة والمقابلة ، فقرأ معى النسخة التى أعددتها للطبع ، على نسخة باريس ، وعلى ثلثى مخطوطة الآستانة ، فأسديه شــكرى ؛ كما أســديه إلى صديق محمد نديم ، ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فقد حرص على طبــع الكتاب طبعة دقيقة . ولست أعدد تلك المساعدات توزيعا للمسئولية النهائية على أكتاف غيرى ، بل إعترافا بالجميل لمن قدّموها إلىّ ؛ فإن تلك المساعدات سهلت علىّ العمل فى مختلف أدواره ، وجنّبتنىَ بعض الزلل . وإنى أتقدّم إلى كل الذين ذكرت ، وإلى غيرهم أيضا ، ممن شجعونى على المضى فى العمل ، بوافر الشكر والثناء ؛ كما أرسل شــكرى مقدّما إلى كل من يطّلع على هــذا القسم ، ويدلّنى بنقده على ما عساه قد وقع من خطأ ، أو على ما يقترح من إصــلاح يساعدنى فى إخراج الأقسام التالية .

مصر الجديدة ، فى أوّل المحرّم سنة ١٣٥٣
١٤ أبريل سنة ١٩٣٤

محمد مصطفى زيادة

المراجع المذكورة فى حواشى القسم الأول

مراجـــع عربيـــة

ابن الأثير (عز الدين أبى الحسين على المعروف بابن الأثير) : كتاب الكامل فى التـاريخ ،
١٤ جزءا . طبعة ليدن (Edidit Tornberg. Lugduni Batavorum. Brill, 1863).

ابن تَغْرِى بَرْدِى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة .
طبعة جامعة كاليفورنيا . (Edited by Popper. Vols II, III, V, VI, VII ;
University of California Publications in Semitic Philology, 1909 - 1929).

ابن حوقل (أبو القاسم) : كتاب المسالك والممـالك . طبعة ليدن .
(Bibliotheca Geographorum Arabicorum, edidit De Geoje. pars secunda. Lugduni Batavorum, Brill. 1873).

ابن خلكان (شمس الدين أبو العباس محمـد) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان .
طبعة جوتنجن . (Edidit Wüstenfeld, Gottingae, Deuerlich, 1835-1840).
لهذه المؤلف ترجمة إلى الإنجليزية . انظر ثبت المراجع الأوربية، تحت اسم (De Slane) .

ابن شاهين (غرس الدين خليـل الظاهرى) : كتاب زبدة كشف الممـالك وبيان الطرق
والمسالك . طبعة باريس (Ed. Ravaisse, Imprimerie Nationale, Paris, 1894).

ابن شـداد (بهـاء الدين أبو المحاسن يوسـف) : النوادر السـلطانية والمحاسن اليوسفية .
طبعة باريس . (Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tome III, Imprimerie Nationale. Paris, 1884).

ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحى) : شـذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ثمـانية أجزاء .
(مكتبة القدسى، بجوار الأزهر، القاهرة، ١٣٥١ هـ) .

ابن مسكويه (أبو على أحمد المعــروف بمسكويه) : القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم، سبعة أجزاء . طبعة أكسفورد .

(Arabic text, edited by Amedroz, vols I–III; English translation, vols IV–VII, Margoliouth. Oxford, Basil Blackwell, 1920-1921).

ابن النديم (أبو الفرج محمد) : كتاب الفهرست . طبعة ليبزج .

(Mit anmerkungen herausgegeben von Gustav Flügel, Leipzig, Vogel, 1872).

أبو الفداء (الملك المؤيد إسماعيل) : منتخبات من المختصر فى أخبار البشر . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades. Historiens Orientaux, Tome I. Imprimerie Nationale, Paris, 1872).

أبو شامة (شهاب الدين عبــد الرحمن) : منتخبات من كتاب الروضــتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية . طبعة باريس .

(Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, Tomes IV - V, Imprimerie Nationale, Paris, 1898-1906).

أمين (أحمد): ضحى الإسلام، الجزء الأول. (لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٣).

الأنصارى (زكريا) : شرح المنهج، جزءان . (المطبعة الميمنية، قرب الأزهر . القــاهرة سنة ١٣٠٥ هـ) .

البيرونى (أبو الريحان محمد) : كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية، طبعة ليبزج .

(Herausgegeben von Sachau, Harrassowitz, Leipzig, 1923).

هــذا المؤلف مترجم أيضا إلى اللغة الإنجليزية . انظــر ثبت المراجع الأوربية ، تحت اسم (Sachau) .

حسن (حسن إبراهيم) : الفاطميون فى مصر . (المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٣٢) .

الخزرجى (على بن الحسن) : العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية . طبعة ليدن .

(E. W. J. Gibb Mem. Series, Vol III. Parts I - V, Brill, Leiden, 1906-1918).

الخوارزمى (أبو عبد الله محمد) : مفاتيح العلوم . (مطبعة الشرق، بجوار الأزهر . القاهرة، ١٣٤٢ هـ) .

الزركشى (عبد الله محمد) : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . (تونس، ١٢٨٩ هـ) .

السخاوى (محمد شمس الدين) : الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع . (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ١٨ جزءا ، رقم : تاريخ ٦٧٥) .

الطبرى (أبو جعفر محمد) : تاريخ الرسل والملوك . طبعة ليدن .

(Cum aliis Edidit De Geoje, Lugduni Batavorum, Brill, 1901.)

العينى (بدر الدين محمود): عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان . (مخطوطة دار الكتب المصرية، ٢٣ جزءا، فى ٦٩ مجلدا، رقم: تاريخ ١٥٨٤ .

القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ جزءا . (دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩) .

مبارك (على باشا) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، ٢٠ جزءا، فى أربع مجلدات . (المطبعة الأميرية، بولاق، ١٣٠٦ هـ) .

المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب التنبيه والإشراف . طبعة ليدن .

(Bibliotheca Geographorum Arabicorum, Edidit De Geoje., Pars octava, Lugduni Batavorum, Brill, 1894).

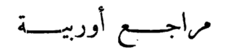
المسعودى (أبو الحسن على) : كتاب مروج الذهب، تسعة أجزاء . طبعة باريس .

(Texte et traduction par C. Barbier de Meynrad et Pavet de Courtelle, Collection d'Ouvrages Orientaux publiée par la Société Asiatique, 9 vols. Paris, Imprimerie Imperiale, 1874.

المقريزى (أحمد بن على) : كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والأمصار، جزءان . (دار الطباعة المصرية، بولاق، ١٢٧٠ هـ) .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله) : ٦ أجزاء، كتاب معجم البلدان . طبعة ليزج .

(Herausgegben Fredinand Füstenfeld, Leipzig, Brockhaus, 1866).



ALLEN (W. E. D.): A history of the Georgian People. (Kegan Paul, London 1932).

BLOCHET (E.): Histoire d'Égypte de Makrizi. (Leroux, Paris, 1908). (Extrait de la Revue de L'Orient Latin. Tomes VI, VIII–XI).

BROWNE (E. G.): An Abridged Translation of the History of Tabaristân. Compiled by Ibn Isfandiyar; translated by Browne.(E. W. J. Gibb Mem. Series. Vol. II. Leyden, Brill, 1905).

BUTCHER (MRS E. L.): The story of the Church of Egypt, 2 vols. (Smith Elder, London, 1897).

CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY: (Camb.* Med. Hist.).

DERENBOURG (H): Oumara du Yémen... 2 vols. (Leroux, Paris 1897-1902). (Publications de L'École des Langues Orientales vivantes, IVme Serie, vol. X).

DE SLANE (BARON MAC GUCKIN): Ibn Khallikan's, Biographical Dictionary. Translated from the Arabic. 4 Vols. (Oriental Translation Fund. Paris 1842–1871).

DOZY (R.): Supplément Aux Dictionnaires Arabes. (Dozy*: Supp. Dict. Ar.).

ENCYCLOPÆDIA OF ISLAM: (Enc.* Isl.).

G.—DEMOMBYNES: La Syrie à l'Époque des Mamlouks. (Geuthner, Paris, 1922).

GIBB (H. A. R.). The Damascus Chronicle of the Cursades. (Luzac, London, 1932).

HITTI (PH. K.): Memoirs of Usâmah Ibn Munkidh. (Columbia University Press, New York, 1929).

HOGRATH (D. G.): A history of Arabia. (Clarendon Press, Oxford, 1922).

KING (E. J.): The Knights Hospitallers in the Holy Land. (Methuen, London, 1931).

LAMB (HAROLD): Genghis Khan. (Thornton Butterworth, London, 1928).

(*) The astericks denote the abbreviated form, in which the authority is cited in the notes.

LANE-POOLE (S.): A History of Egypt in the Middle Ages. (Methuen. London, 1914).

LANE-POOLE (S.): The Story of Cairo. (Dent, London, 1924).

" : Muhammadan Dynasties. (Geuthner, Paris, 1925).

" : Saladin. (Putnam, London, 1926).

LE STRANGE (G.): Palestine Under The Moslems. (Watt. London, 1890).

MORIER (J.): The Adventures of Hajji Baba of Isphahan.

" : Hajji Baba in England.

(Humphrey Milford, Oxford, 1924, 1925).

PRICE (A. P.): Holbyn's Dictionary of Medical Terms. (Bell, London, 1899).

QUATREMÈRE (E.): Histoire des Sultans Mamlouks de l'Égypte. 2 vols. (Paris, 1837-1845).

RAPPOPORT (A. S.): History of Palestine. (Allen & Unwin. London, 1931).

RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES: Historiens Orientaux. Tomes I-V. (Rec. Hist. Or.). (Paris, Imprimere Nationale 1872-1906).

SACHAU (E.): The Chronology of Ancient Nations, . . . of Albîrûnî. (London, Allen, 1879). (Oriental Translation Fund).

SCOTT. (SIR. W.): The Talisman. (Nelson, London).

STEVENSON (W. B.): The Crusaders in the East. (University Press, Cambridge, 1907).

TOUSSOUN (LE PRINCE OMAR): Mémoire sur les Anciennes Branches Du Nil. Époque Arabe. (Mémoires présentés à l'Institut d'Égypte, Tome 4me. 2me F. Le Caire, 1923).

TOUSSOUN (LE PRINCE OMAR): La Geographie de l'Égypte à l'Époque Arabe. Tome 1re, 1-2. parties. (Mémoires de la Société Royale de Géographie d'Égypte. Tome, VIII, 1re, 2me parties, Le Caire, 1926, 1928).

ZIADA (M. MUSTAFA): The Mamluk Conquest of Cyprus in the Fifteenth Century. (Bulletin of the Faculty of Arts, University of Egypt. Vol. I. Part I. pp. 90-113).

تصـــحيحات

الصيغة المراد إثباتها .	سـطر	صفحة
المســتعان	١	٧
(راجع التصدير) .	١٨	٧
وأَذَنَة ؛	٢	١٦
— وقيل مرداويج بن قافيج —	١٤	٢٤
بجثتى عمه وأخيه ،	٩	٤٤
(ياقوت : معجم البلدان ،	٢٣	٥٩
ما يلى .	١٨	٧٠
(٢) مضبوطة	١٧	٧٣
(Blochet : Op. cit. p. 145. N. 3) .	١٨	٧٤
تَمَتَّعْ من شَمِيمْ عَرَارِ نجد	١١	٧٧
أبو الفتح عثمان بن السلطان	٩	١١٤
، وهى قلعة على الفرات	٢٠	١١٤
المذكور فيما يلى، (سطر ١٠) .	٢٢	١١٦
(القلقشندى :	١٩	١٢٧
المدماك ، يُسَكَّر به ،	٢٥	١٤١
من تسمى بهذا الاسم ،	٢٠	١٤٣
(٤) فى س اياز كوح ،	٢٢	١٤٨

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
١٤٩	١٩ – ٢١	والمشهور أنّ فعل فند لايتعدى بعن، وإنما يتعدى بعلى؛ ففى محيط المحيط : فنـده على الأمر بمعنى أراده منه . ولعل المقريزى استباح لنفسه استعمال هذا الفعل مقرونا بعن، ليؤدى عكس المعنى المعروف. على أن فند تستعمل بدون حرف جر، بمعنى عجز .
١٥١	٢٢ – ٢٣	(٤) بياض فى س، يشغل سطرين تقريبا، وبه آثار كتابة ممحوّة .
١٥٤	٢٠	اضطراب ترتيب الحوادث، فى تلك الترجمة،
١٥٤	٢١	فانظر ص ١٥٧ ، حاشية ٣ .
١٥٩	٢٣	(Blochet : Op. cit. p. 273. N. 2).
١٦٦	٢٣	انظر قاموس المحيط .
١٦٩	١٩	" سنه اربع وستمايه " .
١٦٩	٢٤	: A History of The Georgian People.
١٧٨	١٠	تسع عشرة قطعة
١٩٢	٢٦	كبار كتاب المـالية .
٢٢٤	٢١	رحمه الله تعالى عليه " .
٢٢٥	٢١	(٢) فى س اعمامه .
٢٣٢	١٣	(٨٣)
٢٣٩	١٥	أقل منهم فى الرتبة ،
٢٤٦	٤	يحيى بن خالد .
٢٥٠	٦	صَـــنَافِيْر
٢٦٣	١	كَمُلَ طبع القسم الأول من الجزء الأول، من كتاب السلوك للمقريزى.

السلوك لمعرفة دول الملوك

٢

الجزء الأول من كتاب

السلوك لمعرفة دول الملوك جمع فقير عفو الله أحمد بن علي بن عبد
القادر بن محمد بن إبرهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد
ابن تميم الشهير جده بالمقريزي الشافعي غفر الله له ولمن نظر فيه

سطوره لنفسه قابله وجامعه

فليعف عن زلاته ناقله وسامعه

لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديته ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل
أوليته ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هي العليا وأعاذك من عز مفقود
وعيش مجهود وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك وتوفاك إذا كانت الوفاة
أصلح لك بنعم عنك مزيد وسمو لعيد وختم بالحسنى عملك وبلغك في الأولى أملك
وسدد فيها مقاصدك وأحسن في الأخرى منقلبك إنه سميع قريب جواد
مجيب

الأكراد ينسبون إلى ... بن ... بن عمرو بن صعصعة
... بن هوازن وقيل هم من ولد ... وهم قبائل منهم
الكورانية ... والهذبانية والبشنوية
والشاهجانية والسرجية والبزولية والمهرانية
والزرزارية والكيكانية والجاك واللور والزنجلية
والروادية والدنبلية والهكارية والحميدية والورجية
والمروانية والجلالية والسنبكية والجوبي ومنهم
المروانية انهم من بني مروان بن الحكم ... ومنهم
بعض ... وله عنبسة بن أبي سفيان بن حرب

(محتويات الصورة الشمسية المواجهة وهى صفحة العنوان كما فى نسخة الأستانة)

(١٣) الجزء الأول

من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، جمْعُ فقيرِ عفوِ الله أحمد بن على بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبى الحسن بن عبد الصمد بن تميم ، الشهير جدّه بالمقريزى الشافعى ، غفر الله له وتغمد زلله بمنّه :

سطّره لنفسه * قائله وجامعه
فليعف عن زلاته * ناقله وسامعه

لا أحوجك الله إلى اقتضاء ثمن معروف أسديتَه ، ولا ألجأك إلى قبض عوض عن جميل أوليته ، ولا جعل يدك السفلى لمن كانت عليه هى العليا ، وأعاذك من عز مفقود وعيش مجهود ، وأحياك ما كانت الحياة أجمل بك ، وتوفّاك إذا كانت الوفاة أصلح لك ، بعد عمر مديد وسمو بعيد ، وختم بالحسنى عملك ، وبلّغك فى الأولى أملك ، وسدّد فيها مُضطربك ، وأحسن فى الأخرى منقلبك ، إنه سميع قريب جواد مجيب .

الأكراد ينسبون إلى كُرْد[(١)] بن مُرْد بن عمرو بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن . وقيل هم من ولد عمرو مُزَيْقِيَاء[(٢)] بن عامر ماء السماء ؛ وقيل إنهم من بنى حميد بن طارق الراجع

---

(١) هذا الاسم غير واضح كله فى س ، ولكن المراجع العربية تبتدئ آباء الأكراد به . قال ابن حوقل فى المسالك والممالك ، ص ١٨٧ : " إنهم من كرد بن مرد بن عمرو بن عامر " بدون ضبط . أما المسعودى فى مروج الذهب ج ٣ ، ص ٢٥٠ ، فقد نسبهم إلى " كرد بن مَرد (كذا) بن صعصعة بن هوازن " ، ونسبهم فى كتابه التنبيه والإشراف ، ص ٨٩ ، إلى كرد بن مرد بن صعصعة بن حرب بن هوازن . وكل هذه الأنساب محاولات من الأكراد للاتصال بالنسب العربى ، ولكن الثابت أنهم من الجنس الإيرانى (راجع Enc. Isl. Art. Kurds) . ولا يشار إلى المراجع هنا بأكثر من هذا ؛ أما مكان الطبع وزمانه ، وتعيين المخطوطات ، وسائر المعلومات الأخرى ، فهى واردة فى قائمة المراجع المذكورة فى المقدّمة .

(٢) انظر حاشية رقم (١) فى الصفحة التالية .

إلى حميــد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبــد العزى بن قصى بن كلاب[(١)] . وهم قبائل : منهم الكَوْرَانيَّة[(٢)] بنو كَوْرَان ، والهذبانية ، والبَشْنَوية ، والشاهنجانية ، والسَّرِلجية ، واليَزُولية ، والمهرانية ، والزرزارية ، والكيكانية ، والجَاك ، واللُّو ، والدنبلية ، والروادية ، والدَيْسَنية ، والهكارية ، والحُميدية ، والورنجية ، والمروانية ، والجلالية ، والشنبكية ، والجوَّبى . وتزعم المروانية أنهــا من بنى مروان بن الحكم بن أبى العاص ، وتزعم بعض الهكارية أنهــم من ولد عتبة بن أبى سفيان صخر بن حرب . وأحياء الأكراد تكثر عن الإحصاء ، غير أنهــم بجميع أحيائهم كانوا مقيمين بفارس ، فكانوا يزيدون على خمسمائة ألف بيت شَعر ، يخرج من البيت الواحد نحوُ العشرين ، وكانوا ينتجعون المراعى فى الشتاء والصيف ، وبجبال كوران[(٣)] ... .

(بقية محتويات صفحة العنوان[(٤)])

أولا — العُمَّريين (كذا) ، بمصر وأعمالها ، ينتسبون إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب . قال

---

(١) العبارة المبتدئة بلفظ " عمرو " فى الصفحة السابقة ، والمنتهية بكلمة " كلاب " هنا ، موجودة بهامش صفحة العنوان . وسبب ذلك سقطة كتابية من المؤلف ، تداركها هو بخطه عند مراجعة الكتاب ، وأشار إليها بعلامة بين سطور المتن للدلالة على مكانها المناسب لها . ونسخة س مملوءة بأشباه هــذا الهامش ؛ فما كان منها نتيجة سقطات الكتابة ، ومتسقا مع عبارة المتن أدرج فيه ، وما كان منها تفسيرا أو شرحا لعبارة المتن ، أو كان غير متسق تمـاما معه ، وضع فى حاشية فى آخر الصفحة بنصه .

(٢) معظم هذه الأسماء وارد فى المراجع الثلاثة المشار إليها فى حاشية رقم ١ ، ص ١ ؛ وقد اُكتفى هنا بضبط البعض الذى عنى المقريزى بضــبطه . وسيحافظ دائمـا على ضبط المؤلف بغير تنبيه ، إلا إذا كان هناك ما يقتضى ذلك ، أو كان خطأ فينبه إليه بعد إصلاحه . على أنه كثيرا ما يحتاج المتن إلى ضبط كلمات أخرى لزيادة التوضيح . انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، حيث بعض هذه الأسماء وارد برسم مخالف .

(٣) يلى هــذا هامش تعــذرت قراءته ، وهو بالزاوية الجنوبيــة اليسرى من الصفحة . والمقابلة بين ما كتب المقريزى هنا فى الأكراد وبين ما جاء فى المسالك والممالك لابن حوقل ، ص ١٨٦ ، يحمل على الاعتقاد بأن صاحب السلوك نقل بتصرف من ابن حوقل ، أو أنهما معا نقلا من مرجع واحد . وهــذا ما ورد فى المسالك والممالك بعد ذكر فروع الأكراد : — "ويزيدون على خمسمائة ألف بيت ، ويخرج من الحى الواحد ألف فارس ، وأقل من ذلك وأكثر ، ينتجعون فى الشتاء والصيف المراعى ، إلا القليل منهم على حدود الصرود ... ... " .

(٤) بقية محتويات صفحة العنوان هــذه هوامش مبعثرة فى نواحيها بلا ترتيب ، وليس بينهـا وبين ما هو وارد فى متن الصفحة اتساق أو ارتباط . وأحدها تاريخى ، والباقى يظهر أنه دليــل على من ملك الكتاب أو حازه أو اطلع عليــه ، وقد أُثبتت كلها فى الصلب تحت نظام عددى بحت (انظر الصورة الشمسية) . وفى س هوامش عدة بغير خط المؤلف سينبه إليها دائمـا ، أما الهوامش الواردة بخطه فليست بحاجة إلى هذه الإشارة .

الشريف النسابة محمـد بن أسعد الجوانى فى كتاب الجوهر المكنون فى القبـائل والبطون : "وهم يكذبون فى ذلك لأن أنسابهم لا نتصـل به ، وقد لقيتُ منهم جماعة وعرّفتهم كذبهم بطرائق علمية وغيرها ، وعلى قدر اتساع الأوقات" . [و] قال: "وأمرُ هؤلاء المنتمين إلى ولد عبد الله بن عمر يحتاج إلى دليل ، وإلا فهو قول من الأقاويل الداخلة فى الأباطيل" (١) .

ثانيـا — الحمد لله ، و به أكتفى من عوادى الدهر فى نُوَبه ، أقلُّ عبيد الله تعالى محمد بن أحمد بن إينال العلائى الدوادار الحنفى ، عامله ربه بخفى (٢) لطفه الجلى والخفى (٣) .

ثالثـا — بُليتُ بحظ ما ارتفع إلا اتضـع ، ولا قام إلا خرّ سريعا ووقع ، ولا اسـتوى إلا التوى ، [ولا ارتفع إلا] انحط و[هوى] ، ولا [تيسّر] إلا تعذر ، ولا تنبه إلا وعن قليل رقَدَ (٤) ، ولا نشط إلا تخبط وهبط :

لعمرك ما عدمت لواء مجد * ولا كَلَّ الجوادُ عن السباق
ولكنى بُليت بحظ سـوء * كما تُبـلى المليحة بالطلاق

رابعـا — ملكه (٥) محمد المقريزى .

خامسا — قَيْد شُدّ (٦) فى سنة ١١٣٧ [هـ] .

---

(١) هذا هوالهامش التاريخى وهو وارد فى الجهة اليمنى الجنوبية ، ولفظة العمريين واردة هكذا منصوبة ومشكلة .

(٢) س بخفى .

(٣) عبارة هـذا الهامش مكتوبة بخط مخالف . أما محمد بن أحمد بن إينال العـلائى الأصل القاهرى الحنفى ، والمولود سنة ٨٣٧هـ (١٤٣٣م) ، فهو أحد أبناء المماليك الذين جمعوا بين ولاية المناصب والاشتغال بالعلم . تولى وظيفة الدوادار للأمير برسباى قرا رأس نوبة النوب فى عهـد السلطان الملك الأشرف قايتباى . وكان شـديد العناية بقراءة النفائس من كتب العلم والتاريخ ؛ ومطالعته كتاب السـلوك ، أو امتلاكه إياه وهو الأرجح ، دليل واضح على هـذا . (السخاوى : الضوء اللامع : المجلد الثانى ، القسم الأول ، ص ٧ ؛ والمجلد الثالث ، القسم الثانى ، ص ٣٩٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢١٨) .

(٤) اعترى بعض ألفاظ هذا الهامش ماحاها ، وقد وضعت الألفاظ التى بين الأقواس المربعة على سبيل الترجيح .

(٥) هـذه الجملة مكتوبة بخط مخالف . ومحمد هـذا هو ابن أخى المؤلف (راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٨) .

(٦) عبارة تركية معناها صار تقييده فى السنة المذكورة ، وهى بخط مخالف .

سادسا — الحمد لله على نعمه ؛ أَنْهَاهُ و[كذلك ما بعده ؟] مطالعةً ، داعيا لمؤلفه بالرحمة والرضوان ، ولمالكه بالسيادة وطول العزّ ، محمد المدعو عمر بن فهد الهاشمى ، إلى [رابعه] سنة ٨٤٦ (١)

---

(١) ما بين الأقواس بياض تقريبا فى الأصل ، على أنه يوجد فى آخر القسم الثالث من الجزء الرابع من الضوء اللامع للسخاوى ما يشبه هذه العبارة فى أسلوبها . أما محمد بن فهد الهاشمى المشهور بعمر ، والمذكور فى الضوء اللامع فى حرف العين ، فهو سليل أسرة مكية مجيدة ، توارثت الاشتغال بعلم الحديث . ولد عمر هذا بمكة فى سلخ جمادى الثانية سنة ٨١٢ هـ (٨ نوفبر سنة ١٤٠٩ م) ، وتوفى بها فى ٧ رمضان سنة ٨٨٥ هـ (١٠ نوفبر سنة ١٤٨٠ م) . على أنه تنقل فى مدن مصر والشام واليمن والحجاز غير مرة ، مشتغلا بالحديث والتراجم . وقد روى عنه المقريزى فى فضل البيت الحرام . أما عن سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٢ م) المدونة آخر هذه العبارة ، فإن ابن فهد كان فيها مقيما بمكة حسبما جاء فى الضوء اللامع ، ولم يأت إلى القاهرة حتى سنة ٨٥٠ هـ (١٤٤٦ م) . ولما كان من المقرر أن المقريزى أقام بمكة حتى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) فقط ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٤٥ هـ فليس ببعيد أن كتاب السلوك حمل إلى مكة بعد ما ملكه محمد المقريزى ابن أخى المؤلف (السخاوى : الضوء اللامع ، المجلد الثالث ، القسم الثانى ، ص ٢٦٥ ، ٢٦٩) .

(٣ ب) بسم الله الرحمن الرحيم الله المستعان[١]

﴿قل اللهم، مالك الملكِ، تؤتى الملك من تشاء[٢]، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذِل من تشاء، بيــدك الخير، إنك على كل شىء قدير. تولج الليل فى النهــار، وتولج النهار فى الليل، وتخرج الحى من الميت، وتخرج الميت من الحى، وترزق من تشاء بغير حساب﴾.

فسبحان اللهِ من إلهٍ حكيم قادر، ومليك مقتدر قاهر، يعطى العاجزَ الحقير، ويمنع البطل الأيِّد الكبير، ويرفع الخامل الذليل، ويضع ذا العز المنيع والمجد الأثيل، ويعز المحتقر الطريد المجفو الشريد، ويذل أولى الحدّ الحديد[٣]، والعدِّ العديد، وأربابَ الألوية والبنود، ومالكى أزِمّة العســاكر والجنود؛ ويؤتى ملكه من لم يكن شيئا مذكورا، ولا عرف له أبا نبيهــا وجدّا مشهورا، بل نشأ كلًّا على مولاه وخادما لِســواه، تجبهه وتشنؤه النــاس، ولا يرعاه ســائر الأجناس، لا يقدِر على نفع نفســه فضلا عن الغير، ولا يستطيع دفع ما ينزل به من مساءة وضــير، عجزا وشقاء وخمولا واختفــاء؛ وينزع نعتَ[٤] الملك ممن تهابه أسد الشرى فى غِيلها، وتخضع لجلالته عتــاة الأبطالِ بِقَضِّها وقضيضهــا[٥]، وتخنع خُنْزُوانة[٦] سلطانه حماة الكماة بجمعها وجميعها، وتذِل لسطوته ملوكُ الجبابرة وأقيالها، ويأتمر بأوامره[٧] العســاكر الكثيرة العــدد، ويقتدى بعوائده الخلائق مدى الأبد. والحمد لله على حالتى منعه وعطائه، وابتلائه وبلائه، وسرائه وضرائه، ونعمه وبأسائه، أهلِ الثناء[٨] والمجد، ومستحق الشكرِ والحمــدِ، ﴿لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ ﴿بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون﴾؛ ولا إله إلا الله الواحد

---

(١) لا توجد هذه الجملة بعد البسملة فى ب (ص ٢ ب)، وإنما يوجد بدلها "وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب". (راجع المقدمة).

(٢) فى س "توتى الملك من تشا" بدون همز (راجع المقدمة).

(٣) الحد هنا البأس، والحديد الشديد.

(٤) هذه الكلمة غامضة فى س، وليس لها وجود فى ب (ص ٢ ب).

(٥) كذا فى س، ب (ص ٢ ب). والوارد فى معاجم اللغة قضها وقضيضها بالضاد، والقض الحصى الصغار والقضيض الكبار، والمعنى أنهم يخضعون جميعا.

(٦) فى س لحنزوانة. وليس لهذا اللفظ بالحاء وجود فى المعاجم، أما الخنزوانة بالخاء فمعناها الكِبر كما فى المحيط فى مادة خنز.

(٧) فى س باموامره.

(٨) فى س البنا.

الأحد ، الفرد الصمد ، الذى ﴿ لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ ؛ والله أكبر ﴿ لا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾، ولا تدرك من عظمته العقول إلا ما أخبر به عنه الرسل والأنبياء . وصلى الله على نبينا محمد الذى أذهب به دول أهل الشرك من الأكاسرة ، ومحا بشريعته عظماء الروم القياصرة ، وأزال بملته الأصنام والأوثان ، وأخمد بظهوره بيوت النيران ، وجمع له أُسود العرب وقد كانت فى جزيرتها متفرقة ، ولمّ ببركته شعثها بعد ما غبرت زمانا وهى متمزقة، (١٤) وألّف قلوبها على موالاته وطاعته، وحبّب اليها المبادرة إلى مبايعته على الموت ومتابعته ، فتواصلوا بعد القطيعة والتدابر، وتحابّوا فى الله كأن لم ينشأوا على البغضاء والتنافر ، حتى صاروا باتباع ملته ، والاقتداء بشريعته ، من رعاية الشاء والبعير ، إلى سياسة الجم الغفير(١)، وبعد اقتعاد سنام الناقة والقَعود ، وملازمة بيت الشّعر والعمود ، وأكل القيصوم والشيح ، ونزول القفر الفسيح ، إلى ارتقاء المنابر والسرير ، وتوسد الأرائك على الحرير، وارتباط المسوّمة الجياد ، واقتناء ما لا يحصى من الخدَم والعَتاد ، بما فتح الله عليهم من غنائم ملوك الأرض، الذين أخذوهم بالقوة والقهر ، وحووا ممالكهم بتأييد الله لهم والنصر، وأورثوها أبناءهم وأبناء أبنائهم، وأحفادهم وأحفاد أحفادِهم . فلما خالفوا ما جاءهم به رسولهم من الهدى ، أحلهم الرزايا المجيحة والردى ، وسلط عليهم من رِعاع الغوغاء وآحاد الدهماء من ألحقهم بعد المُلك بالهُلك، وحطّهم بعد الرفعة، وأذلهم بعد المنعة، وصَيّرهم من رتب الملوك إلى حالة العبد المملوك ، جزاء بما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من الكبائر الموبقات، واستحلوا من الحرمات ، واستهواهم به الشيطان من اتباع الشهوات ، وليعتبر أولو البصائر والأفهام، ويخشى أهل النهى مواقع نِقم الله العزيز ذى الانتقام، لا إله إلا هو سبحانه (٢) .

(١) فى هامش س العبارة التفسيرية الآتية : " الجم الغفير الجماعة ، أى ساسوا الناس جميعا " .

(٢) فى هامش س العبارة الآتية : " روى وكيع عن كامل أبى العلاء عن حبيب بن ثابت عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " يا معشر قريش ، إن هذا الأمر لا يزال فيكم حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه ، فاذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه ، فالتحوكم كما يلتحى القضيب " .

أما بعد ، فإنه لما يسر الله وله الحمد ، بإكمال كتاب عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط[١] ، وكتاب اتعاظ الحنفاء بأخبـار الخلفاء[٢] ، وهما يشتملان على ذكر من ملك مصر من الأمراء والخلفاء ، وما كان فى أيامهم من الحوادث والأنباء ، منذ فتحت و إلى أن زالت الدولة الفاطمية وانقرضت ، أحببتُ أن أصـل ذلك بذكر من ملك مصر بعدهم من الملوك الأكراد الأيوبية ، والسلاطين المماليك التركيـة والجركسية ، فى كتاب يحصرُ أخبارهم الشائعة ، و يستقصى أعلامهم الذائعة ، و يحوى أكثر مافى أيامهم من الحوادث والماجريات ، غير معتنٍ فيـه بالتراجم والوفيات[٣] ، لأنى أفردت لهـا تأليفا بديع المثال بعيـد المنال ، فألفت هـذا الديوان ، وسلكت فيـه التوسط بين الإكثار المُمل والاختصار المخل ، وسميته كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك . و بالله أستعين فهو المعين ، و به أعتضد فيما أريد وأعتمد ، فإنه حسبي ونعم الوكيل .

(٤ ب) ذكرُ ماكان عليه الكافةُ قبل قيام ملة الإسلام

اعلم أن النـاس كانوا بأجمعهم ، قبل مبعث نبينا محمد صلى الله عليـه وسلم ، ما بين عربى وعجمى ، سبع أمم كبارِهُم : الصين وهم فى جنوب مشرق الأرض ، والهند وهم فى وسط جنوب الأرض ، والسودان ولهم جنوب مغرب الأرض ، والبربر ولهم شمال مغرب الأرض ، والروم وهم فى وسط شمـال الأرض ، والترك وهم فى شمال مشرق الأرض ، والفرس وهم فى وسط

(١) ليس بدار الكتب الملكية المصرية نسخة من هذا الكتاب . على أنه موجود بمكتبة الدولة ببرلين ، ضمن مجموعة خطية رقمها ٩٨٤٥ ، فى الجزء التاسع ص٣٢٦ من كتالوج المخطوطات العربية بها . ورقم المخطوط فى هذه المجموعة ٥٠٦ .

(٢) طبع لأول مرة من نسخة وحيدة سنة ١٩٠٩ بالقدس الشريف . وقد كتب له ناشره هوجو بونز (Hugo Bunz) مقدمـــة .

(٣) يقصد المؤلف بهذا كتاب المقفى الذى أراد تأليفه فى تراجم حكام ومشهورى مصر فى ثمانين مجلدا ، ولكنه لم ينجز منه سوى ستة عشر ، ومن هذه ثلاثة بخطه محفوظة فى مكتبة ليدن بهولندة تحت رقم ١٠٣٢ ، وجزء واحد آخر منها فى باريس بالمكتبة الأهلية بالقسم العربى رقم ٢١١٤٤ ؛ وربما قصد المقريزى بهذا كتاب درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة الذى لم ينجزه كذلك . غير أن هذا الكتاب الثانى كان مقصورا على تراجم المعاصرين ، والجزء الأول منه المشتمل على الأسماء من حرف الألف إلى حرف العين موجود بمكتبة مدينة جوتا (Gotha) بألمانيا تحت رقم ١٧٧١ . انظر (Enc. Isl. Art : Makrīzi) .

هذه الممالك ، قد أحاطت بهم هذه الأمم الست[١] . وكانت الأمم كلها فى قديم الدهر ، قبل ظهور الشرائع الدينية ، صنفا واحدا مُسَمَّيْنَ باسمين سمنيين[٢] وكلدانيين[٣] ؛ ثم صاروا على خمسة أديان ، وهى الصابئة ، والمجوس ، والذين أشركوا ، واليهود ، والنصارى .

فأما الصابئة فإنها التى تعبد الكواكب ، وترى أن سائر ما فى العالم السفلى المعبر عنه بالحياة الدنيا ناشئ وصادر عن الكواكب ، وأن الشمس هى المفيضة على الكل . وهذا الدين أقدم هذه الأديان ، وبه كان يدين أهل بابل من الكَلْدَانيين ، وإليهم بعث الله نوحا وإبراهيم ، صلوات الله عليهما . وكانت الصابئة تتخذ التماثيل من الجواهر والمعادن على أسماء الكواكب وتعبدها ، فتُصلى إليها وتقرب لها القرابين ، وتعتقد أنها تجلب النفع وتدفع السوء . وبقيت منهم بقايا بأرض السواد من العراق وبحَرَّان والرها ، أدركوا الإسلام وعُرِفوا بالنبط وبالحرنانيين[٤] ، ولم يبق لهم إذ ذاك ملك منذ غلبهم فارس ، فلما كانت أيام المأمون أسقطوا عن أنفسهم اسم الكلدانيين ، وتسموا بالصابئين .

وأما المجوس فإنهم الذين يقولون بإلهين اثنين ، أحدهما فاعل الخير وهو النور ، والآخر فاعل الشر وهو الظلام ، ويقال لهم الثَنَوية أيضا ، واتخذوا لهم بيوت نيران لا تزال تَقِد أبدا ،

(١) هذا التقسيم مخالف لما تواتر فى كتب جغرافيي العرب ورياضييهم كياقوت (انظر معجم البلدان : ج ١ ، ص ٢٥ — ٣٥) . وقد اتبع المقريزى هنا التقسيم المزدكى القائم على أساس تقسيم العالم إلى سبعة أقاليم يقع السابع وهو فارس والبلاد الإيرانية فى وسطها . .(Blochet : Hist. d'Eg. P. 59, N. 1.) .

(٢) كذا فى س ب وهى مترجمة إلى (Samanéens) فى (Blochet : Op. cit. P. 60) . ويفسر هذه القاموس الفرنسى (Gra. Dict.) بأنها اسم أطلقه كتاب اليونان على بعض معتكفة الهنود تمييزا لهم عن المتريضين . وعلى هذا تكون بضم السين نسبة إلى معبد بلدة سُمَنَات الذى كان قائما بشاطئ شبة جزيرة كَثْيَاوَار بالهند (Enc. Isl. Art. Sūmānāt) . ولم يكن مذهب السمنيين مقصورا على الهند ، بل كانت خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام فى القديم على هذا المذهب ، وقد عُرِف أيضا بين المسلمين فى العصر العباسى . (أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ص ٢٤١ — ٢٤٢) . على أن هذا كله لا يوضح عبارة المقريزى ، وقد ورد فى الخوارزمى (مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) "وكان الناس على وجه الدهر سمنيين وكلدانيين ، فالسمنيون هم عبدة الأوثان ، والكلدانيون هم الذين يسمون الصابئين ..." .

(٣) فى س كلذانيين بالذال ، وقد وردت أيضا فى نفس الصفحة بالدال وهى القراءة المتواترة .

(٤) نسبة إلى بلدة حَرَّان الواقعة فى الجنوب الشرقى من مدينة الرها . وقد ساق ابن النديم هذه النسبة فى كتابه (ابن النديم : كتاب الفهرست ، ص ٣١٨ ؛ والخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص ٢٥) .

وكانت إلى هذه النيران صلواتهم وقرابينهم ، ويعتقدون فيها النفع والضر . وعلى هذا الاعتقاد كانت الأكاسرة ملوك فارس بالعراق . وولد رسول الله صلى الله عليــه وسلم فى أيام كسرى أنو شِروان . وأزال العربُ ملكَهم فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنــه ، وملكوا منهم المدائن وجلولاء وغيرها ، وقتِل يزدجِرد آخر ملوكهم فى خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنــه ، ولم يقم بعــده قائم من الأكاسرة ، وتمزق الفرس وذهب ملكهم إلى اليوم . وقد تقدّم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط ذكر ملوك الفرس فراجعه .

وأما الذين أشركوا فإنهم وإن وافقهم الصابئة والمجوس فى عبادة التمــاثيل والنار من دون الله ، فإن العرب الذين بعث الله فيهم نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم يقال لهم المشركون سِمةً لهم ، واسما لزِمهم . وكانوا يعبدون الأصنام والأوثان والطواغيت[1] من دون الله ، فيسجدون ويصلون ويذبحون الذبائح لتمــاثيل عندهم ، قد اتخذوها من الحجر والخشب وغيره ، ويزعمون أنها تجلب لهم النفع ، وتدفــع عنهم الضر . ويعتقد المشركون مع ذلك (١٥) أن الله سبحانه هو الذى خلقهم ، وهو الذى وجدهم ثم يميتهم ، وهو الذى يرزقهم ، وأن عبادتهم للأصــنام وسيلة تقربهم إلى الله سبحانه . وكانوا إذا مسهم الضر فى البحر من شدّة هبوب رياحه وعظم أمواجه ، وأشرفوا على الهلاك ، نسوا عند ذلك الأصنام التى كانوا يعبدونها ، ودعوا الله يسألونه النجاة . وقد محــا الله ، وله الحمد ، بنبينا محمدٍ صلى الله عليه وســلم ، الشركَ من العرب حتى دخلوا فى دين الله أفواجا ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، إلى أن ظهر دين الإســلام بهم على سائر الأديان ، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها ممــا تطؤه الدواب ، وتمر فيه السفن . وقد ذكرنا أيضا فى كتاب عقد جواهر الأسفاط قبائل العرب وبطونها ذِكرا شافيا فتأمله .

وأما اليهود فإنهــم أتباع نبى الله موسى بن عِمران ، صلوات الله عليــه ، وكتابهم التوراة . وكلهم أبناء ابراهيم الخليل ، ويعرفون أيضا ببنى إسرائيل ، وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، صلوات الله عليهم . وكانوا اثنى عشر سِبطا ، وملكوا الشام بأسره إلا قليلا منه إلى أن زالت

(١) فى س الطواغيث بالثاء .

دولتهم على يد بختنصر، ثم على يد طيطش[(١)]، وجاء الله بالإسلام وليس لهم مُلك ولا دولة، وإنما هم أمم متفرقون فى أقطار الأرض، تحت أيدى النصارى . وقد ذكرنا أيضا جميع ملوكهم فى كتاب عقد جواهر الأسفاط .

وأما النصارى فإنهم أتباع نبى الله المسيح عيسى بن مريم، صلوات الله عليه، وكتابهم الإنجيل . وجاء الله بالمسيح إلى بنى اسرائيل فكذبوه إلا طائفة منهم . ثم انتشر دينه بعد رفعه بدهر، فدخل فيه الروم والقبط والحبشة وطائفة من العرب، وما زالوا على ذلك حتى جاء الله بالإسلام، فقاتل المسلمون من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم هرقل آخر الملوك القياصرة وأتباعَه حتى ملكوا منه بلاد الشام وأرض مصر، وأخرجوه إلى جزائر البحر . ثم قاتل المسلمون القُوْطَ والجَلَالِقَة[(٢)]، وملكوا منهم إفريقية والأندلس وسائر بلاد المغرب، وتابعوا الحرب والقتال للروم حتى انقضى ملكهم، وقام من بعدهم الإفرنج . وقد ذكرنا فى كتاب عقد جواهر الأسفاط . وفى كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جملة من حروب الروم والفرنج للمسلمين . وإلى وقتنا هذا ملوك الفرنج ورعيتهم، وملوك أكثر بلاد الحبشة ورعيتهم، يدينون بدين النصرانية .

فهذه، أعزك الله، ديانات أهل الأرض عند (٥ ب) مبعث نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . وكانت الممالك يومئذ على خمسة أقسام : مملكة فارس ويقال لمن ملك منهم كسرى؛ ومملكة

---

(١) بختنصر واسمه فى المراجع الأوربية نبوخاد رزار (Nebuchadrezzar)، هو ملك بابل من ٦٠٤ إلى ٥٦١ ق . م . وقد خربت جيوشه بيت المقدس عاصمة اليهود مرتين، سنتى ٥٩٧ و ٥٨٦ ق . م . أما طيطش (Titus) فهو إمبراطور الدولة الرومانية من ٧٩ إلى ٨١ م، وكان قبل ذلك أحد القواد المهرة فى الدولة، وعلى يديه فُتح بيت المقدس سنة ٧٠ م، فى حكم أبيه الإمبراطور فسباسيان (Vespasian) . وقد كان طيطش وأبوه قبل أن يصبح إمبراطورا، يشتركان فى حرب اليهود منذ أواسط القرن الأول الميلادى .
(Rappoport: History of Palestine, PP. 170, 216-218).

(٢) نسبة إلى جهات جلِّقيَة (Galicia) فى الشمالى الغربى من شبه جزيرة إيبيريا . وقد ساق هذه النسبة ياقوت فى معجم البلدان (راجع ج ١، ص ٣٧٦ وج ٢، ص ١٩٠) . والجلالقة نسبة جغرافية إلى هذه الجهات، أما من حيث الجنس فمعظم سكان جليقية أيام الفتح الإسلامى للأندلس هم عنصر السويفى (Suevi)، وقد حلوا فيها منذ سنة ٤١١ م، وأسسوا بها مملكة عاشت حتى سنة ٥٨٥م، حين قضى عليها القوط فاستحالت ولاية قوطية تابعة .
(Camb. Med. Hist. Vol. II, pp. 170,259.)

الروم ويقال لملكها قيصر، وكانت الحرب لا تزال بين الروم وفارس وبيدهما أكثر المعمور؛ ومملكة الترك وكانت ملوكهم تحارب ملوك الفرس، ولم يكن لهم قط فيما بلغنا من أخبار الخليقة غلبة على الممالك؛ ومملكة الهند وَحَسْب ملوكهم ضبط ما بيدها فقط ؛ ومملكة الصين؛ وأما بنو حام من الحبشة والزنج والبربر فلم يكن لهم ملك يُعتدّ به .

ذكر القائمين بالملة الإسلامية من الخلفاء

اِعلم أن الله بعث نبينا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، صلى الله عليه وسلم، على رأس أربعين سنة من عمره ، فدعا قومه من قريش بمكة ثلاث عشرة سنة، وهاجر من مكة إلى المدينة فأقام بها عشر سنين ، وتوفاه الله وعمره ثلاث وستون سنة، وقد ذكرنا جملة سيرته فى أول كتاب عقد جواهر الأسفاط . فقام بعد وفاته ، صلى الله عليه وسلم ، بأمر الإسلام والمسلمين ، الخلفاء الراشدون مدّة ثلاثين سنة، وعدّتهم خمسة : هم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، واسمه عبد الله بن عثمان أبى قُحافة مدّة سنتين وثلاثة أشهر غير خمس ليال؛ وعمر بن الخطاب بن نُفَيْل العَدَوى مدة عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام؛ وعثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مدّة اثنتى عشرة سنة إلا اثنى عشر يوما ، وقيل إحدى عشرة سنة وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما ، وقيل ثمانية عشر يوما؛ وعلى بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم مدّة أربع سنين وتسعة أشهر وستة أيام ، وقيل ثلاثة أيام ، وقيل أربعة عشر يوما ؛ والحسن بن على بن أبى طالب مدّة خمسة أشهر ونحو نصف شهر، وقيل ستة أشهر، وبه تمت أيام الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم .

وصارت الخلافة مُلكا عَضُوضا ، أى فيه عسف وعنف، وانتقل الأمر إلى بنى أمية .

وأوّل من ولى منهم معاوية بن أبى سفيان ، واسمه صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومدّته تسع عشرة سنة وثلاثةُ أشهر، وقيل ثلاثة أشهر إلا أياما . وقام من بعده ابنه يزيد بن معاوية مدّة ثلاث سنين وستة أشهر، وقيل ثمانية أشهر، وقيل غير ذلك، وليس بشىء . فولى بعده معاوية بن يزيد بن معاوية ثلاثة أشهر، وقيل أربعين يوما . وقام بعد يزيد

أيضا عبد الله بن الزبير بن العوام بن خُويلد بن أسد بن عبد العُزّى بن قُصَى بالحجاز، وخالف عليه مروان بالشام ؛ فكانت مدّة ابن الزبير إلى أن قتل بمكة تسع سنين . وقام بعد معاوية بن يزيد بالشام مروان بن الحكم بن أبى العاصى (١٦ أ) بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، مدة عشرة أشهر . وقام من بعده ابنه عبدُالملك بن مروان، واستعمل الحجاج بن يوسف الثقفى على حرب عبد الله بن الزبير فقتله ، وأقام عبد الملك بعد قتله ثلاث عشرة سنة وأربعة أشهر إلا سبع ليال . وقام بعده ابنه الوليد بن عبد الملك مدّة تسع سنين وسبعة أشهر . وقام بعده أخوه سليمان بن عبد الملك سنتين وثمـانية أشهر وخمسة أيام ، وقيـل إلا خمسة أيام . وقام بعـده عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم سنتين وخمسة أشهر . ثم قام بعـده يزيد بن عبد الملك بن مروان مدّة أربع سنين وشهر وأيام . وقام بعـده أخوه هِشام بن عبـد الملك تسع عشرة سنة وتسعة أشهر وواحدا[(١)] وعشرين يوما، وقيل ثمـانية أشهر ونصف . وكان قد اتخذ طِرَازا له قَدْر، واستكثر منه حتى كان يحمل ما أثَّر[(٢)] فيه من طرازه على سبعمائة جمل . فهذه ثيـابه التى لبسها، فكيف بمـا كان عنده ممـا لم يلبسه ؟ فقام من بعده الوليـد بن يزيد بن عبد الملك ، ويعرف بيزيد الناقص، مدّة سنة وثلاثة أشهر، وقيل وشهرين واثنين وعشرين يوما . فبويع بعده ابنه يزيد بن الوليد، وفى أيامه اضطربت الدولة، وولى مدّة خمسة أشهر وأياما . فقام بعـده أخوه إبراهيم بن الوليد مدّة أربعـة أشهر، وقيل سبعين يوما ، ولم يتم له أمر . وقام بعده مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، ويُعرف بمروان الجعدى وبمروان الحمار . وفى أيامه ظهرت دولة بنى العباس، وحاربوه حتى قتلوه بأرض مصر، وله فى الخلافة منذ بويع خمس سنين وعشرة أشهر وستة عشر يوما . وانقرضت بمقتل مروان دولة بنى أمية .

وقامت من بعدها دولة بنى العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف مدة خمسمائة سنة وثلاث وعشرين سنة وعشرة أشهر وأيام ، فيها افترقت كلمة الإسلام، وسقط اسم العرب

---

(١) فى س واحد .   (٢) كذا فى س بهذا الضبط . وفى محيط المحيط : أثر فى الشيء ترك فيه أثرا ، فلعل المراد هنا ما استعمله الخليفة من الثياب . وقد ترجم هذا اللفظ بمعنى آثر أى اختار فى (Blochet : Op. cit. P. 67.)

من الديوان ، وأُدْخِل[(١)] الأتراك فى الديوان ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دول عظيمة جدا ؛ وانقسمت ممـالك الأرض عدّة أقسام ، وصـار بكل قطر قائم يأخذ النـاس بالعسف ويملكهم بالقهر . وكان أوّل من قام من خلفاء بنى العباس السفاح ، واسمه عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، مدّة أربع سنين وثمـانية أشهر ويوم . وكان سريعا إلى سـفك الدماء ، سَفَك ألف دم فاتبعه عمـاله فى الشرق والغرب فى فعله ، وكان مع ذلك جوادا بالمـال ، فاقتدى به فى ذلك عمـاله أيضا . ثم [وَلِى بعده] أخوه أبو جعفر المنصور ، واسمه أيضا عبد الله بن على ، فأقام مدّة إحدى وعشرين سـنة وأحد عشر شهرا . وهو أوّل من أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد على بن أبى طالب ، وكان قبـل ذلك أمرُهم واحدا ؛ وهو أوّل خليفـة قرب المنجمين ، وعمِل بأحكام النجوم ؛ وأوّل خليفة ترجمت له الكتب من اللغـات ؛ وأوّل خليفة استعمل مواليه وغلمانه فى أعماله ، وقدمهم على العرب ، فاقتـدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها ، وذهبت مراتبها . وكان قـد نظر فى العلم ، فكثرت فى أيامه روايات النـاس واتسعت علومهم . فقام بعده ابنه المهدى أبو عبد الله محمد [مدة] عشر سنين وشهر ونصف ؛ وكان سخيا جوادا ، فسلك الناس فى ذلك مسـلكه ، واتسـعوا فى معايشهم ؛ وأمعن فى قتـل الملحدين لظهورهم فى أيامه ، وانتشارِ كتبهم ؛ وهو أوّل من أمر بتصنيف كتب الجـدل فى الرد على الزنادقة والملحدين ، فصنفت فى أيامه ؛ وعمّر مسجد مكةَ والمدينةِ والقـدسِ . ثم ولِى بعـده ابنه الهـادى بالله أبو محمد موسى سنة وثلاثة أشهر ، وكان جبارا ، وهو أوّل من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمـدة المشهرة ، والقِسِى الموترة ، فاقتدى به عماله ، وكثر السلاح فى محضره . فقام بعده أخوه هارون بن محمد الرشـيد ، مدّة ثلاث وعشرين (٦ ب) سـنة [و] شهرين وثمـانية عشر يوما ، وقيـل وشهر وستة عشر يوما ؛ وكان مواظبـا على الحج ، متابعا للغزو ، واتخذ المصانع[(٢)] والآبار والبرك والقصور بطريق مكة ، وبمكة ومنى وعرفات والمدينة النبوية ،

(١) فى س ادحل بالحاء المهملة و بغير ضبط ، وفى محيط المحيط : دَحَل وأدحل دخل فى الدحْل وهو النقب الذى فه ضيق وجوفه متسع .

(٢) جمع مصنع وهو كالحوض يجمع فيه ماء المطر . والمصانع أيضا القرى والمبانى من القصور والحصون (محيط المحيط) .

وعم الناس إحسانه وعدله ، وبنى الثغور ، ومدّن المدن ، وحصن فيها الحصون ، مثل طرسوس وأدنه ، وعمّر المصيصة ومرعش[1] وغيرذلك ، فاقتدى الناس به . وهو أوّل خليفة لعب بالصوالجة فى الميدان ، ورمى بالنشاب[2] فى البرجاس ، ولعب بالكرة ، ولعب بالشطرنج ، وقرّب أرباب هذه الأمور ، وأجرى لهم الأرزاق ، فاقتدى به الناس . وكانت أيامه كأنها من حسنها أعراس . فبويع بعده ابنه الأمين محمد بن هارون ، وأقام أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام ، فقدّم الخدم ، ورفع منازلهم ، وشُغِف بهم ، فاتخذت له أمه الجوارى الغُلاميّات[3] ، فاتخذ الناس فى أيامه [ذلك] . فقام مِن بعد أخوه المأمون عبد الله بن هارون ، مدّة اثنتين وعشرين سنة منذ سُلِّم عليه بالخلافة ، ومدّةَ عشرين سنة وخمسة أشهر وثلاثة أيام ، وقيل وخمسة وعشرين يوما ، بعد قتل أخيه . وكان أولا ينظر فى أحكام النجوم ويعمل بموجبها ، ويكثر النظر فى كتب القدماء من الحكماء ؛ فلما قدم بغداد أعرض عن ذلك كله ، وقال بأقوال المعتزلة ، وقرّب أرباب العلوم ، وطلبهم من الآفاق ، وأجرى عليهم الأرزاق ، فرغب الناس فى العلوم الجدلية ، وصنف كل أحد فيها ما ينصر به مذهبه ؛ وكان كريما عفوّا ، فاقتدى الناس به فى أحواله كلها . وقام بعد المأمون أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن هارون ، مدّة ثمانى سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ؛ وهو أوّل من أدخل الأتراك الديوان ، وكان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يغلب عليه الفروسية ، ويتشبه بالعجم فى عامة أحواله ...[4] . وقام من بعده ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون بن محمد ، مدّة خمس سنين وتسعة أشهر وستة أيام . وفى أيامه كانت المحنة[5] ؛ وكان كثير الأكل ، واسع الطعام . فقام من بعده المتوكل على الله جعفر بن المعتصم ، مدّة أربع عشرة سنة وتسعةِ أشهر وثمانية أيام ؛

---

(١) فى س "واذ" ، وباقى الحروف غير ظاهر . (٢) فى س بالنساب .

(٣) كذا فى س ، ب (ص ٦ أ) . والغَلَاميَّات الجوارى يَلْبَسْنَ لباس الغلمان (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) بقية هذه العبارة لم تتيسر قراءتها تماما . على أنه من المحتمل أن تُقرأ هكذا "وكان لهم إلف به ، فكثروا فى ... ..." .

(٥) يشير المؤلف هنا إلى محنة خَلْق القرآن ، التى اشتد أوارها فى عصر المأمون والمعتصم والواثق ، والتى كان من ضحاياها فى عهد الواثق أحمد بن نصر (راجع الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ، جـ ٣ ، ص ١٣٤٣ — ١٣٥٠) .

وقتله الأتراك ، وتحكموا من حينئذ فى ممالك الدنيا[1] . وهو الذى رفع المحنة ، ونهى عن الجدل وعاقب عليه ، وأمر بإظهار رواية الحديث . وأقاموا بعده ابنه المنتصر محمد بن جعفر، فمات بعد ستة أشهر تنقص أياما . وأقيم بعـده المستعين بالله أحمد بن محمـد المعتصم، فأقام ثلاث سنين وثمـانيـة أشهر وثمانية وعشرين يوما ، وخلعـه الأتراك وعذبوه ، ثم قتلوه بعـد تسعة أشهر من خلعه . والمسـتعين أوّل من أحدث لبس الكِمَام[2] الواسعة، بجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار، وصغّر القلانس وكانت قبله طوالا . وأقيم بعده المعتز بالله محمد بن المتوكل ، ثم خلعه الأتراك وعذبوه بالضرب حتى مات ، فكانت خلافتـه مدّة ثلاث سنين وسـتة أشهر وواحد[3] وعشرين [يوما] ، وقيـل وأربعة وعشرين يوما . وهو أوّل خليفة أحدث الركوب بِحلية الذهب، — وكان مَن قبله مِن خلفاء بنى أمية و بنى العباس يركبون بالحِلية الخفيفة من الفضة فى المناطق — واتخاذ السيوف والسروج واللُّجُم، فلما ركب المعتز بحلية الذهب تبعه النـاس فى فعل ذلك . وأقيم بعده المهتدى بالله محمد بن الواثق ، ثم قتله الأتراك بعد أحد عشر شهرا وتسـعة عشر يوما . وأقيم بعـده المعتمد بالله أحمد بن المتوكلِ، فغلبه الأتراك، واستبدّ عليه أخوه الموفق بالله أبو أحمد طلحة، وخرج فى أيامه صاحب الزنج[4]، فحارب به الموفق أعواما كثيرة. ثم مات [الموفق] بعد قتلهِ صاحب الزنج ، فاختلت أمور المعتمِد وقُتِل ، وكانت مدّته اثنتين وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما . وهو أوّل خليفة قُهِر وحجر عليه و وكِّل به. فقام مِن بعدِه المعتضد أحمد بن الموفق طلحة واستبدّ بالأمر، وخرجت القرامطة فى أيامه، ومات وله فى الخلافة مدة عشر سـنين وتسعة أشهر وثلاثة أيام ، وقيـل تسع سنين وسبعة

(١) إزاء هـذه العبارة فى س هامش على ورقة منفصـلة ، وهو يشتمل على آراء متعدّدة فى أصـل بنى بُويه . ويظهر أن لاصقَ هذه الورقة قصد أن يضعها تجاه ما ورد فى الكتاب عن دولة بنى بويه، ولهذا الاحتمال أُرجئْ إيراد هذا الهـامش حتى يجىء ما فى صلب الكتاب عن هذه الدولة (انظر ص ٢٣) .

(٢) "الكِمَام جمع كُمَّة وهى نوع من القلانس" . عن هامش بهذا الضبط فى س .

(٣) فى س واحد .

(٤) أطلقت هذه التسمية على زعيم تلك الثورة العلوية، وهو على بن محمد بن عبدالرحيم، لأنه "جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ" بالبصرة (راجع الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٣، ص ١٧٤٣ — ٢١٠٣) .

أشهر واثنين وعشرين يوما . ولما مات كفن فى ثوبين قيمتهما ستة عشر قيراطا . فولى بعده ابنه المكتفى بالله على ، وجَدَّ فى حرب القرامطة وهزمهم ، وأزال دولة بنى طولون من مصر والشام ، ومات وله مدّة ست سنين وستة أشهر وستة عشر [يوما] ، وقيل تسعة عشر يوما . فأقيم من بعده أخوه المقتدر بالله جعفر ابن المعتضد ، وعمره ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام[1] ، لم يبلغ الحُلُمَ . (١٧) وهو أوّل من ولى الخلافة من الصبيان ، فغلبت على أموره النساء والخصيان ، وأكثر من قتل الوزراء وتغييرهم ، فاضطربت عليه الأمور ، فلم يقم غير أربعة أشهر . وخُلع بعبد الله بن المعتز ، ثم قُتل ابن المعتز بعد يوم وليلة . وأُعيد[2] المقتدر ، وخرجت القرامطة فى أيامه ، وأخذوا الحجر الأسود من الكعبة إلى بلادهم ؛ وخرج عليه أيضا الديلم ؛ وظهر عبيد الله المهدى بإفريقية ودعا لنفسه ، وقطع دعوة بنى العباس من بلاد المغرب وبرقة . ثم إن المقتدر خُلعَ مرة ثانية ، وأقيم بدلَه القاهر بالله محمد بن المعتضد . ثم أعيد المقتدر ، وغلب عليه أصحاب الدواوين ، ولم يجعلوا له أمرا ينفذ ، وصارت ثُمْلُ[3] القهرمانة إحدى جواريه تجلس للظالم ، ويحضرها الوزراء والقضاة والفقهاء . وفى أيامه انقطع الحج ، وكثر الهزل والمجون ، وآخر أمره أنه قتل بعد ما أقام فى الخلافة أربعا وعشرين سنة وشهرين وعشرة أيام ، وقيل وأحد عشر شهرا وأربعة عشر يوما ، عند ما خرج على الجند وقد شَغَبوا وهو متشح بالبردة النبوية ، فقتل وتلوثت بالدم . فقام من بعده القاهر بالله محمد بن المعتضد ، ثم خُلع وكُحل بمسمار ، وقد حُمى فى النار مرتين ، حتى سالت عيناه ، بعد سنة وستة أشهر وثمانية أيام . وآل أمره أن كان يقوم يوم الجمعة بالجامع ، ويسأل الناس فيقول : "يا معاشر الناس ، أنا بالأمس كنت خليفتكم ، واليوم أسألكم ما فى أيديكم" ، فيُتَصدّق عليه . وقام من بعده فى الخلافة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، وفى أيامه استولى الروم على عامة الثغور ؛ وكان مغلوبا عليه مع مواليه ، لا يقدر على شىء ، ومات بعد ست سنين وعشرة أشهر وعشرة

---

(١) فى س وشهرين . (٢) فى س "واستتر" . (٣) ضبط هذا الاسم هكذا نقلا عن ناشر ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم ، ج ١ ، ص ٨٤) . راجع أيضا الجزء الأوّل من الترجمة الإنجليزية للكتاب عينه ، ص ٩٣ ، حيث يرد اسم هذه القهرمانة مترجما (Thumal) .

أيام ، وقيل وتسعة أيام من خلافته . والراضى آخر خليفة له شعر مدوّن ، وآخر خليفة انفرد بتــدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة بنَى ، وآخر خليفة خَطَب يوم جمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ، ووصل إليه العــدماء[(١)] ، وآخر خليفة كانت نفقته وجوائزه ، وعطاياه وخدمه ، وجراياته وخزائنه ، ومطابخه وشرابه ، ومجالسه وحجابه وأموره ، جاريةً على ترتيب الخــلافة الأُوَل ، وآخر خليفة سافر بزى الخلفاء القدماء ، وقد سافر بعده المتقى والطائع . ثم قام بعده أخوه المتقى لله إبراهيم بن المقتدر ، وكان خيّرا عابدا ؛ وفى أيامه تغلب بنو حمدان على الجزيرة والشام ، وكثر الاختلافُ عليه ، فخلعه تُوزُون التركى ، وكحله كما كحل القاهر ، ثم حبسه مع القاهر وهما مكحولان ، فقال القاهر :

صرتُ وإبراهيم شَيخَىْ عمى * لا بد للشَّيخَيْن من صدْرِ[(٢)]

ما دام توزون له إمرة * مطاعة فالميــل فى الجَمْــرِ

وكان ذلك بعــد ثلاث سنين وأحد عشر شهرا ، ومات بعد خلعه بخمس وعشرين سنة . وقام من بعده لمــا خُلِــع ، المستكفى[(٣)] بالله عبدُ الله بن المكتفى ، فاستولت الديلم على البلاد ، ووقع الاختلاف عليه ، فقُبِض وكُحِل على يد معز الدولة أحمــد بن بويه ، فكانت أيامه سنة وأربعةَ أشهر ويومين . وأقيم من بعده المطيع لله الفضل بن المقتدر ، فأقام تسعاً[(٤)] وعشرين سنة وأربعة أشهر وواحدا[(٥)] وعشرين يوما ، ليس له سوى الاسم ، والمدبر للأمور معز الدولة ، و[قد] فَرَض لنفقة المطيع فى كل يوم مائتى دينار . وفى أيامه قدمت عساكر المعز لدين الله أبى تميم معــد إلى مصر ، وانقطعت الدعوة العباســية من مصر والشام . وأقام [المطيع] إلى أن خلع نفســه ، وأقام ابنه الطائع لله عبــد الكريم ، فمكث [الطائع] سبع عشرة سنة وتســعة أشهر

---

(١) فى س الندما . (٢) النَّخَة والنُّخَّة البَقَر العوامل والحُمُر ؛ وأما الصَّدر فهو مصدر من صَدَر ، فيقال صدر فلان بعيره أى شَدَّ حبلا من حزامه إلى ما وراء الكركرة (محيط المحيط) .

(٣) يلى هــذا هامش فى س ، ولمــا لم تستقم عبارته تمــاما مع المتن رؤى إيرادُه هنا وهو : "فطَلَبَ [المستكفى] الفضلَ بن المقتدر لمــا بينهما من العداوة ، ففرّ [الفضل] إلى أحمد بن بويه ، فآواه إلى أن مات توزون ، [ثم] قدم به بغــداد . وكان المستكفى يتظاهر بالتشيع وموالاة على بن أبى طــالب ، وقد كُحل أيضا ، فكُمِل صَدْر النخَّين الذى قال القاهر فى شعره" .

(٤) فى س تسعة . (٥) فى س واحد وعشرين .

وستة أيام محكوما عليه ببنى بُوَيه، ثم خُلِع وحبس فقيرا ذليلا حتى مات . وكان [الطائع] كثير الانحراف على آل على بن أبى طالب ، وسقطت الهيبة فى أيامه حتى هجاه الشعراء وطوّلوا . وقام من بعده القادر (٧ ب) بالله أحمد بن إسحاق بن المقتدر، فأقام إحدى وأربعين سنة وثلاثة أشهر، وقيل ثلاثا وأربعين سنة وثلاثة أشهر وأحد عشر يوما ، وكان دينًا(١) بارّا [بأهله](٢) وبالطالبيين . وفى أيامه عظمت الديلم والباطنية، واشتهر مذهب الاعتزال، ومذاهب الباطنية والرافضة ، وانتشر ذلك فى الأرض . وفى أيامه ظهر السلطان يمين الدولة محمود ابن سُبُكْتَكين(٣) ، وغزا الهند . وقام من بعده ابنه القائم بأمر الله عبد الله ، فثار عليه أرسلان البَساسِيرى(٤) ، وصار يُدْعَى له على منابر العراق والأهواز، فكتب القائم إلى السلطان طُغْرلْبك ابن ميكائيل(٥) بن سلجوق التركمانى، أول ملوك بنى سلجوق، فقدم بغداد وفرّ منه البساسيرى بمن معه من الأتراك، وانتمى إلى المستنصر بالله مَعَد بن الظاهر الفاطمى صاحب مصر، فأمدّه بالأموال حتى أخذ بغداد، وقطع منها دعوة بنى العباس، وخطَب للمستنصر بها نحو سنة، والقائم محبوس . ثم قدم طغرلبك وأعاد القائم إلى الخلافة، وقتل البساسيرى، وتحكم فى سائر الأمور، فلم يزل القائم فى الخلافة حتى مات، وله مدّة أربع وأربعين سنة وثمانية أشهر . وكان دِيِّنا خيِّرا كثير الصلاة، إلا أنه كان كثير الإصغاء إلى من يشير عليه . فاتفق أن وَزَرَ له رجل من سوقة بغداد يعرف بابن السلة(٦)، فحسن له مجئ الغُزّ، لأنه كان منحرفا عن الشيعة،

(١) يمكن قراءة هذه الكلمة فى س "أديبا" ، وقد اعتبرها كاتب نسخة ب هكذا (ص ٨ أ) . غير أن التدين هو الصفة التى امتاز بها القادر من معظم خلفاء العباسيين ، فقد جاء فيه "أنه سلك من طريق الزهد والورع ما تقدّمت فيه خطاه . فكان راهب بنى العباس حقا وزاهدهم صدقا، ساس الدنيا والدين، وأغاث الإسلام والمسلمين" . (انظر الروذراورى : ذيل كتاب تجارب الأمم، ص ٢٠٧) .

(٢) ليست موجودة فى س ، ولكنها فى ب (ص ٨ أ) .

(٣) هكذا ضبطها مارجليوث فى ترجمته لكتاب ابن مسكويه (القسم الأخير من كتاب تجارب الأمم، ج ٢ من الترجمة، ص ١٢٠ ، وكذلك الفهرس فى مادة (Sabuktakīn) . أما فى س فهى سُبُكْتُكِين بهذا الضبط .

(٤) فى س الفساسيرى وأحيانا بلا نقطة على الفين (راجع ابن الأثير . الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٢٩٨) .

(٥) هكذا ورد فى ابن الأثير (نفس المرجع، ج ٩، ص ٣١١) ، وهو فى س ميكال .

(٦) كذا فى س بغير ضبط ، وقد نقلها كاتب نسخة ب بتاء مفتوحة (ص ٨ أ) ، غير أنه ليس فى وزراء القائم، حسبما جاء فى ابن الأثير، من تسمّى بهذا الاسم . وهذا ما ورد فى ابن الأثير (نفس المرجع، ج ١٠، ص ٦٤ — ٦٥) : — "ووزر للقايم أبو طالب محمد بن أيوب ، وأبو الفتح بن دارست ، ورئيس الرؤساء، وأبو نصر بن جهير..." ولعلّ المقريزى قصد ابن دارست، ولا سيما أنه كان فى أوّل أمره تاجرا (نفس المرجع، ج ١٠، ص ٩) .

فكاتبهم القائم، فلما جاءوا كان من أمرهم وامرِ البساسيرى ما كان . وقام مِن بعده المقتدى بأمر الله عبد الله بن ذخيرة الدين محمد بن القائم، فلم يكن له ســوى الاسم ، لا يتعدّى حكمه بابه، والتدبير إلى مَلِك شاه بن عضد الدولة ، وأقام على ذلك تسع عشرة سنة وثمــانية أشهر غير يومين ، وقيل إلا خمســة أيام . وأُقِيم بعده ابنه المستظهر بالله أحمد، فأقام محكوما عليه خمسا وعشرين سنة، وقيل أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين[(١)] يوما، ومات. وفى أيامه أخذ الفرنج بيت المقدس من المسلمين ، واستمر ملكهم[(٢)] به . وقام مِن بعده ابنــه المسْتَرشد بالله الفضل بن أحمــد ، وقُتِل بعــد سبع عشرة ســنة وستة أشهر وعشرين يوما . فقام بعده ابنه الراشد بالله منصور، وخُلِع ثم قُتِــل، فكانت خلافته سنة تنقص عشرة أيام . وبويع [بعده] المقتفى لأمر الله محمد بن المستظهِر، فصفت له الدنيا،وسعد بوزيره عونِ الدين يحيى بن محمد بن هُبَيْرَة، وقَبَض على جمــاعة من المتغلبين ، وخرج بنفسه وحارب من ناوأه، وأقام أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وواحدا وعشرين[(٣)] يوما . فبويع [بعده] ابنه المستنجد بالله يوسف، وأقام إحدى عشرة ســنة وشهرا واحدا، ومات . فبويع [بعده] ابنــه المستضىء بأمر الله الحسن ، وفى أيامه أعيدت الخطبة العباســية بالقاهرة ومصر، بعد انقطاعها مائتين وخمس عشرة سنة، على يد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى الكردى، (١٨) ومات [المستضىء] بعــد عشر سنين تنقص أربعة أشهر . فقام بعــده ابنه الناصر لدين الله أحمد، مدّة ست وأربعين سنة وعشرة أشهر وثمــانية وعشرين يوما، وفى أيامه ابتدأ ظهور جنكزخان . ورؤى [الناصر] مرة وعليه [قباء] أبيض برسوم [ذهب] فيه، وعلى [رأسه] قلنسوة مذهبــة مطوّقة بوبر أسود من فَنَك أو نحوه يتشبه [بملوك][(٤)] الأتراك . وقام من بعده

(١) فى س واحد وعشرين . (٢) يشير المؤلف إلى ابتداء الحروب الصليبية، والتى تتوجت بفتح المسيحيين لبيت المقدس فى ٢٣ شعبان سنة ٤٩٢هـ، الموافق ١٥ يوليه سنة ١٠٩٩ م .

(٣) فى س واحد وعشرين . (٤) هذه العبارة كلها من أول "ورؤى" إلى كلمة "الأتراك" موجودة بهامش فى س بالزاوية اليمنى العليا من الصفحة . وبعض ألفاظها ضائع ، ولا يدل على بعضها الآخر سوى الحرف الأول، غير أن نسخة ب (ص ٨ ب) تحوى العبارة كاملة، ماعدا كلمة "الناصر" التى أضيفت هنا للإيضاح وما عدا كلمة "بملوك" فان كاتب نسخة ب فضل أن يقول "بزى" . أما الفنك فحيوان فروته ثمينة، قيــل هو نوع من جراء الثعلب التركى (محيط المحيط . انظر أيضا زكريا الأنصارى : شرح المنهج، ج ٥ ، ص ٢٧١) .

ابنه الظاهر بأمر الله محمد، فأقام تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ومات . فقام بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور مدّة سبع عشرة سنة غير شهر ، وقيل خمس عشرة سنة وأحدعشر شهرا وخمسة أيام؛ و فى أيامه قصد التّتار(١) بغداد، فاستخدم [الخليفة منهم] العساكر، حتى بلغت عدتها نحو مائة ألف . وقام من بعده ابنه المستعصم بالله عبد الله، بجمع الأموال، وقطع كثيرا من العساكر ، فقدم التتار بغداد ، وقتلوه فى سادس صفر سنة ست وخمسين وستمائة ، وله فى الخلافة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام . وانقرضت دولة بنى العباس بزواله، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين [وستمائة] . فأقيم [فى تلك السنة] خليفة بمصر قدِم إليها من بغداد، لُقِّبَ بالمستنصر بالله أحمد بن الظاهر بن الناصر، وسار يريد بغداد فحاربه التتار وقتلوه، قبل أن تتم له سنة منذ بويع بمصر . فصار من بعده ملوك مصر الأتراك يقيمون رجلا يسمونه الخليفة ، ويلقبونه بلقب الخلفاء، وليس له أمر ولا نهى ولا نفوذ كلمة ، بل يتردّد إلى أبواب الأمراء وأعيان الكتّاب والقضاة ، لتهنئتهم بالأعياد والشهور ، وسيأتى ذكرهم إن شاء الله .

(١) كذا فى س بغير ضبط . ويكتب المؤلف هذا الاسم فى سائر هذا الجزء أحيانا بالرسم الوارد هنا ، وأحيانا "التتر" بغير ضبط أيضا ، وأحيانا أخرى "الططر"؛ هذا وللاسم "التتر" رسم ثالث هو "التاتار" ، ولكنه غير وارد فى هذا الجزء من الكتّاب ، وكلها أسماء لمسمى واحد . (Enc. Isl. Art. Tatar) .

ذكر دولة بنى بُوَيْه الديلم[(١)]

ويقال فى أصل الديلم إن باسل[(٢)] بن ضبة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان خرج مغاضبا لأبيه ، فوقع فى أرض الديلم ، فتزوّج امرأة من العجم ، فولدت له ديلم بن باســل فهو أبو الديلم كلهم[(٣)] . وهم أفخاذ وعشائر ، ومنهــم ملوك بنى بُوَيه . وكان سبب ظهورهم أن الحسن بن على بن الحســن بن زيد بن عمر بن على بن الحسين بن على بن

(١) الديلم تسمية جغرافية للصقع الجبلى من بلاد جيلان ، الواقعة فى الجنوبى الغربى من بحر قزوين ، ويحــده فى شمــاله جيلان نفسها ، وفى شرقه طبرســتان المعروفة أيضا بمــا زندارن ، وفى جنــوبه جهات قزوين ، وفى غربه آذربيجان . والديلم أيضا تسمية جنسية لمن يسكن هــذا الصقع ، غير أن بنى بويه ليسوا من الجنس الديلمى ، بل هم فرس "نسبوا إلى الديلم حيث طال مقامهــم ببلادهم" . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٩٧) و (Enc. Isl. Arts. Dailam and Būyids) . ويوجد هامش فى س على ورقة منفصــلة بين الصفحتين ٦ ب و ٧ أ يشــتمل على بعض الروايات فى أصل بنى بويه ، وهــذا نصه : " ذكر أبو الريحان محمد بن أحمــد البيرونى ، أن أبا إسحاق إبراهيم بن هلال الصابى ذكر فى كتابه ، الذى سماه التاجى (كذا) ، أن بويه هو ابن فناخسرو (فى س فناخسره) بن تمان بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركذه بن شيرزيل الأكبر ابن شيران شاه بن شيرفنه بن سسنان شاه بن سسن خرة بن شوزيل بن سسناذر بن بهرام جور [الملك] . وذكر أبو الحسن بن على بن نانا فى كتابه ، الذى اختصر فيه أخبارهم ، أنه بويه بن فناخسرو بن تمــان ؛ ثم قال بعضهم تمــان بن كوهى بن شيرزيل الأصغر ، وأنكر بعضهــم كوهى فقالوا شــيرزيل الأكبر بن شيران شاه بن شيرفنه بن سسنان شاه بن سسن خره بن شــوزيل (فى س خيره بن شوزيل) بن سسناذر بن بهرام جور ؛ ثم اختلفوا فى بهرام ، فمن نسبهم إلى الفرس قال هو بهرام جور وساق النسب ، ومن نسبهم إلى العرب قال هو بهرام بن الضحاك بن الأبيض بن معاوية بن الديلم بن باسل بن ضبة بن أدّ . وذكر فى جملة الآباء لاهو بن الديلم بن باسل ، فقالوا وبهذا الاسم يسمى ولده اياهج . قال أبو الريحان [البيرونى] : أول من عرف من هذه القبيلة هو بويه بن فناخسرو ، وليست تلك الأمم معروفة بحفظ الانساب ، ولا مذكورة بأنها كانت تعرف ذلك من قبل انتقال الدولة إليهم" . يظهر أن المقريزى نقل هذا كله حرفيا ، باختصار طفيف فى العبارة الأخيرة فقط ، من كتاب الآثار الباقية للبيرونى (أنظر منه ص ٣٨) . وقد نشر هــذا الكتاب الدكتور أدوارد زخاو (Eduard Sachau) ، ونشره هو ثانيــا مترجما إلى الإنجليزية ، وقد استعملت النسختان لتصحيح أسماء الأعلام وتحقيق العبارة كلها (انظر الترجمة الإنجليزية ، ص ٤٥) .

(٢) فى س باسِل بثلاث نقط تحت السين . وفى نسخة س كلمات متنوعة منقوطة سينها هكذا أحيانا .

(٣) هنا حاشية تفســيرية على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٧ ب ، ٨ أ . وهذا نصها ما عدا ما بين القوسين المستديرين فى آخرها ، فانه أضيف للتوضيح اللازم : — " يقال ولد ضبة بن أد بن طابخة سعد بن ضبة ، وسعيد بن ضبة ، وباسل بن ضبة ، وهو أبو الديلم فيما يقال . قال هشام بن محمد الكلبى : حدثنى أبى قال : خرج باسل مغاضبا لأبيه ، فتزوج امرأة من العجم فولدت له ، فيقال إن الديلم ولد باسل هذا ، وهم ينسبون إليه . وقال غير ابن الكلبى : وقع بين باسل وبين أخيه سعد شر ، فاقتتلا فعضب [باسل] ووقع بالديلم ، فعظمه أهلها حتى عبدوا رجله إلى أن ذهبت الرجل ، وجعلوا له مثالا من طين فعبدوه ، فبعض من الديلم من ولده . (ومعنى "عضب" هو أنه قطعت رجله ، وهى واردة فى س بغير نقط ما خلا نقطة الضاد) .

أبى طالب الزيدى الأطروش[١] دخل الديلم، وأقام نحو أربع عشرة سنة يدعوهم إلى الإسلام، ويقتصر منهم على العُشر، ويدافع عنهم، فأسلم منهم خلق كثير، وتلقب بالناصر للحق، واجتمعوا عليه، وبَنَى فى بلادهم مساجد، وحثّهم على الخروج معه إلى طبرستان حتى أجابوه، وقاتل [بهم] أبا العباس محمد بن إبراهيم صعلوك وهزمه، وقتل من أصحابه سبعة آلاف، وعاد الى آمُل[٢] ظافرا، واستولى على طبرستان فى جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثمائة، وعاد (٨ ب) إلى بغداد. ومات الناصر — بعد [أن] ملك طبرستان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياما — فى شعبان سنة أربع وثلاثمائة، وله تسع وسبعون سنة. فبقيت بعده طبرستان فى أيدى العلوية اثنتى عشرة سنة، ثم انتقلت عنهم إلى أمراء الديلم. ولما مات الناصر ولى ابنه أبو الحُسين، فقدم جرجان وأقام بها، وصاحبُ جيشه سُرخاب بن وهسوذان[٣]، فكانت له حروب وأنباء مع عساكر السعيد نصر بن أحمد صاحب خراسان إلى أن مات سرخاب. فاستخلف أبو الحسين بن الناصر بعده ماكان بن كالى[٤] على أستراباذ[٥]، فاجتمع إليه الديلم، وقدّموه وأمروه على أنفسهم، فكانت له بتلك النواحى أخبار كثيرة إلى أن قوى أبو الحجاج مَرْدَاوِيجْ بن زِيار، وقيل — مرداويج بن قافيج[٦] — الجيلى[٧] الديلمى، وملك جرجان وغيرها من ماكان، وعاد إلى أصفهان ظافرا. ودامت الحرب بينهما عدّة سنين، فقوى مرداويج واستولى على بلد الجبل والرَّى[٨]، وأتته الديلم من كل ناحية، فعظمت جيوشه. وكان من الديلم رجل يقال له بُوَيه، وكنيته أبو شجاع، متوسط الحال، وله ثلاثة أولاد: أبو الحسَن على أكبرهم، وأبو على

(١) لم يذكر ابن الأثير اسم زيد بين آباء الحسن هذا (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٨، ص ٦٠).

(٢) مضبوطة هكذا فى س، وكذلك فى ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٦٨). وتسمى هذه المدينة الكبيرة آمل طبرستان، تمييزا لها من آمل جيحون، المعروفة باسم آمل الشط أيضا.

(٣) فى س سرخاب بن بهشودان، بغير ضبط. ولم يضبط ابن الأثير من الاسمين سوى السين بالضم فى سرخاب (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٤) هو ابن عم سرخاب بن وهسوذان (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٨، ص ٩٦).

(٥) فى س استراباد.

(٦) هذا الاسم غير واضح تماما فى س، وهو وارد فى ب (ص ١٩) كما أثبت هنا. وقد روجع ابن الأثير وابن اسفنديار وابن مسكويه والبيرونى و (Enc. Isl. Art. Mardāwidj) لتحقيقه فلم يوجد فيها. أما (Blochet: Op. cit. P. 78) فقد ترجم هذا الاسم إلى (Kafidj) مع التشكك.

(٧) نسبة إلى بلاد الجيل أو جيلان.

(٨) فى س الجيل (راجع ابن الأثير: نفس المرجع، ج ٢٨، ص ١٦٧) و (Enc. Isl. Art. Mardāwidj).

الحسن أوسطهم، وأبو الحسين أحمد أصغرهم . وكان ينتسب إلى الفُرس، ويزعم أنه أبو شجاع بويه بن فنا خسرو[١] بن تمّـان[٢] بن كوهى بن شيرزيل الأصغر بن شيركذة[٣] بن شـيرزيل الأكبر بن شـيران شاه بن شيرويه بن سسناذر شاه بن سيس فيروز بن شـيزوزيل بن سسناذر[٤] بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك[٥] . فبنو بويه من قبيلة من قبائل الديلم يقال لها شـيرزيل أوندازه[٦] . ثم إن أبا شجاع بويه رأى فى منامه كأنه يبول، فخرج من ذكره نار عظيمة استطالت وعلت حتى كادت تبلغ السماء، ثم انفرجت فصارت ثلاث شـعب، وتولد من تلك الشعب عدّة شـعب، فأضاءت الدنيـا بتلك النيران، ورأى البـلاد والعباد خاضعين لتلك النيران . فقصــه على منجم ، فقال له : "إنه يكون لك ثلاثة أولاد يملكون الأرض ومن عليها، ويعلو ذكرهم فى الآفاق كما علت تلك النار، ويولد لهم جماعة ملوك بقدر مارأيت من تلك الشعب". فقال له أبو شجاع : "أتسخر بى وأنا رجل فقـير، وأولادى هؤلاء فقراء مساكين يصيرون ملوكا ؟" فقـال المنجم : "أخبرنى بوقت ميلادهم" فأخبره ، فجعل يحسب ، ثم قبض على يد أبى الحسن على الذى لقب بعد ذلك عماد الدولة فقبلها ، وقال : "هذا والله يملك البلاد، ثم هــذا من بعده" ، وقبض على يد أخيه أبى علىّ الحسن، الذى لقب بعد ذلك ركن الدولة "ثم هــذا" ، وقبض على يد أخيهما أبى الحسين أحمد ، الذى لقب معز الدولة . فاغتاظ منه أبو شجاع وقال لأولاده : "اصفعوا هذا فقــد أفرط فى السخرية بنا" ، فصفعوه وهو

(١) فى س فناخسره، مضبوطة . (٢) كتب المؤلف هذا الاسم "اتمـام"، ولعله اتبع فى ذلك ابن الأثير الذى كتبه "تمام" . (راجع حاشية رقم ٥)، ثم أصلحه إلى ما هو وارد هنا .

(٣) ورد "شيركنده" فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ٨، ص ١٩٧) .

(٤) فى س سستاذر فى المرتين وكذلك فيزور بالزاى قبـل الواو . وفى ابن الأثير (نفس المرجــع والصفحة) "سشتان شاه ابن سيس فيروز من شيروزيل بن سنباد بن بهرام جور الملك بن يزدجرد الملك ... ..." .

(٥) تقدّمت هذه النسبة الطويلة فى ص ٢٣ حاشية رقم ١ ، مضبوطة على البيرونى المنقولة عنه فراجعها ، غير أن هناك اختلافا جوهريا بين ما هو وارد هنا وبين النص السابق ، ويظهر أن هذا الخلاف ناشئ عن اعتماد المقريزى هنا على مرجع آخر لعله ابن الأثير . وقد قوبل هذا عليه فلوحظ اختلاف فى بعض الأسماء نبه إليه (راجع ابن الأثير : نفس المرجع، ج ٨ ، ص ١٩٧) . (٦) كذا فى س، وهى بالراء بدل الزاى فى ب (ص ٩ ب) . وقد ترجمت إلى (Ondarah) فى (Blochet : Op. cit. P. 79) .

يستغيث (١٩ أ) وهم يضحكون منه ، ثم أمسكوا . فقال لهم [المنجم] : " اذكروا لى هذا إذا قصدتكم وأنتم ملوك"، وأعطاه أبو شجاع عشرة دراهم . فلما خرج الديلم مع ماكان بن كالى كان أولاد أبى شجاع من جملة قواده، إلى أن استولى مرداويج على ما بيد ما كان من طبرستان وجرجان وانهزم ماكان، قال له على والحسن ابنا أبى شجاع بُوَيْه ، وكانا ضَعفةً(١) عجزة : "نحن فى جماعة ، وقد صرنا ثقلا عليك وعيالا ، وأنت مَضيق ، والأصلح لك أن نفارقك لتخف عنك مؤونتنا(٢)،فإذا صلح أمرك عدنا اليك". فأذن لهما فسارا إلى مرداويج ، واقتدى بهما جماعة من قواد ماكان وتبعوهما . فأقبل عليهم مرداويج، وخلع على ابنَىْ بويه، وقلد عماد الدولة على بن بويه كَرَج ، فأحسن السيرة وافتتح قلاعا ظفر منها بذخائر كثيرة ، فاستمال الرجال حتى شاع ذكره وقصده الناس. فاستوحش منه مرداويج، واستدعاه فدافعه ثم سار [عماد الدولة](٣) من كرج إلى أصبهان ، وقاتل المظفر محمد بن ياقوت وهزمه، وملك أصبهان يوم الأحد الحادى عشر من ذى القعدة سنة إحدى عشرة وثلاثمائة . فعظم فى أعين الناس ، لأنه كان فى تسعمائة رجل هزم بهم ما يقارب عشرة آلاف . وبلغ ذلك الخليفة القاهر بالله محمد بن المعتضد فاستعظمه ، وخاف مرداويج عاقبته ، فأخذ يتحيل فى أخذه . وأخذ بن بويه أيضا أَرَّجَانَ من أبى بكر بن ياقوت، فى ذى الحجة سنة احدى وعشرين وثلاثمائة، وقوى بها . وبعث أخاه ركن الدولة الحسن ، فأخذ كَازَرُون . ثم ملك [عماد الدولة] شيراز فى جمادى الآخرة سنة اثنتين(٤) وعشرين ، فلما ملك شيراز وفارس كتب إلى الخليفة الراضى بالله محمد بن المقتدر ، وقد أفضت إليه الخلافة ، وإلى وزيره أبى على محمد بن على بن مقلة، يعرفهما أنه على الطاعة، ويطلب أن يُقَاطع على ما بيده من البلاد، وبذل ألف ألف درهم، فأجيب إلى ذلك . وسُيرت له الخلع واللواء ، فلبس الخلع ونشر اللواء بين يديه ، وغالط

(١) مضبوطة هكذا فى س . (٢) فى س موونتنا ، وهى فى ابن الأثير مونتنا (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٩) . ويظهر أن مرجع المقريزى فيما كتبه هنا عن بنى بويه ، هو كتاب الكامل لابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ١٩٧ وما يليها) . (٣) أضيف مابين القوسين نقلا عن ابن الأثير (نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٤) . (٤) فى س اثنى .

الرسول بالمـال ، فمات الرسول عنـده سـنة ثلاث وعشرين[1] . وعظم شأنه، وقصده الرجال من الأطراف ، فقام مرداويج وقعد ، فقدّر الله قتله على يدِ غلمانه ، يوم الثلاثاء الثالث من ربيع الأوّل سنة ثلاث وعشرين وثلاثمـائة . وسار أكثر أصحابه إلى ابن بويه ، ومضى كثير منهم إلى بُجْكُم[2] فقدم [بهم] بغـداد . ثم سار عماد الدولة بن بويه إلى كِرمان فى سـنة أربع وعشرين ، وكانت له بها حروب ظفرفيها . ثم قدم عليه أبو عبد الله أحمـد بن محمد البَرِيْدى[3] فى سـنة ست وعشرين، وأطمعه فى العراق والاستيلاء عليه ، فسار وملك عدّة بلاد ، وسيّر أخاه ركن الدولة على عساكر ، وكانت لهما أنبـاء وقصص . وجرت فى (٩ ب) بغداد حوادث عظيمة آلت إلى مسير معز الدولة أبى الحسين أحمد بن بويه إلى بغداد، فى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ، فحاربه أمير الأمراء توزون فى ذى القعدة ، وهزمه عن بغداد . فلما مات توزون قدم [معز الدولة] بغداد ، واستولى عليها فى يوم السبت حادى عشر جمادى الأوّل سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة . قال الوزير أبو على محمد بن على بن مقلة : "إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم، لأنى كاتبت الديلم وقت إنفاذى إلى أصبهان، وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد، فإن اجتنيت ثمـرة ذلك فى حياتى، وإلا فهى تُجْتنى بعـد موتى" ؛ فكان كما قال . ولمـا ملك معز الدولة بغداد خلع الخليفةَ المستكفى بالله عبـد الله ، ونهب الديلم دار الخلافة حتى لم يبق فيهـا شىء ، وأقام المطيعَ لله الفضل بن المقتـدر ، ولم يجعل له أمرا ولا نهيـا ولا رأيا ، ولا مكّنه من إقامة وزير، بل صارت الوزارة إليه يستوزر لنفسه من يريد، وشنّع هو والديلم على بنى العباس، بأنهم غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقيها . وأراد معز الدولة إبطال دعوة بنى العبـاس، وإقامة دعوة المعز لدين الله أبى تميم معـد الفاطمى ، حتى رَجَعَه أصحابه عن ذلك . وبعث نوابه فتسلموا العراق ، ولم يَبْقَ بيـد الخليفة منه شىء البتة ، إلا ما أُقطعه مما لا يقوم ببعض حاجته، وملك البصرة والموصل وعامة البلاد . ومات عماد الدولة

(١) كانت تعليمات الرسول ألا يسـلم الخلع أو اللواء إلا بعد قبض المـال ، فلما وصل خرج عماد الدولة إلى لقائه ، وطلب منه تسليمها ، فذكر له الشرط ، فأخذها منه قهرا . (ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٨ ، ص ٢٠٧) .

(٢) مضبوطة هكذا فى س . (٣) مضبوطة هكذا فى س .

أبو الحسن على بن بويه بمدينة شِيراز فى جمادى الأولى سنة ثمان وثلاثين وثلثمائة، وعهد إلى ابن أخيه عضد الدولة أبى شجاع فناخسرو (١) بن ركن الدولة أبى على الحسن بن بويه، فكانت مدّة إمارته ست عشرة سنة، ولم يترك غير بنت واحدة . وكان عماد الدولة فى حياته هو أمير الأمراء، فلما مات صار أخوه ركن الدولة أبو على الحسن بن بويه أمير الأمراء . وكان معز الدولة أبو الحسن أحمد هو المستولى على العراق والخلافة ، وهو كالنائب عنهما إلى أن مات ببغداد ، لثلاث عشرة بقيت من ربيع الآخر سنة ست وخمسين وثلاثمائة ، فكانت مدّة ملكه لبغداد إحدى وعشرين سنة وأحد عشر شهرا ويومين . وقام من بعده ابنه عز الدولة أبو منصور بَخْتِيَار ، فسار إليه ابن عمه عضد الدولة أبو شجاع فناخسرو بن ركن الدولة فى سنة أربع وستين ، وقبض عليه ثم أطلقه (٢) ، وضرب عليه الجند ، وعاد من بغداد . فمات ركن الدولة لخمس بقين من المحرم سنة ست وستين وثلثمائة ، واستخلف على ممالكه ابنه عضد الدولة ، فسار إلى العراق ثانيا وأخذ بغداد من بختيار (٣) ، وخُطب له بها ، ولم يكن قبل ذلك يخطب لأحد سوى الخليفة . وضرب [عضد الدولة] أيضا على بابه الطبول ثلاث نوبات (٤) ، ولم تجر بذلك عادة من تقدمه ، ونُعِتَ الملكَ السيد شاهنشاه الأجل المنصور ولىّ النعم تاج الملة عضد الدولة أباشجاع (٥) فناخسرو بن ركن الدولة أبى على الحسن بن أبى شجاع بويه بن فناخسرو بن تمان (٦) بن كوهى . وقُتِل بختيار فى الحرب لاثنتى عشرة بقيت من شوّال سنة سبع وستين وثلاثمائة، فكانت مدّته إحدى عشرة سنة وستة أشهر . وعظم أمر عضد الدولة (١١٠) إلى أن مات لثمان خلون من شوّال سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة، ومدّته منذ مات عمه عماد الدولة بفارس أربع وثلاثون سنة ، ملك منها بغداد خمس سنين وستة أشهر

---

(١) فى س فناخسره، وبغير ضبط هنا وفيما يلى . (٢) توجد فى س عبارة مكملة هى : "حتى زال ملكه"، ولكنها مشطوبة . (٣) فى هامش س الجملة : "ففر بختيار"، وهى ليست متسقة مع عبارة المتن، ولا سيما أن المؤلف لم يشر كعادته إلى المكان المناسب لها . غير أنه أدمجها كاتب نسخة ب (ص ١٠ ب) قبل عبارة "وخطب له بها" . (٤) مضبوطة فى س "ونعت الملك السيد ... المنصور" بضم الآخر .

(٥) فى س "أبو شجاع" . (٦) فى س تمام . انظر ص ٢٥، حاشية رقم ٢ .

واربعــة أيام . فقام من بعده ابنه صَمْصَام الدولة أبو كاليجار المرزبان[1] ببغداد ، أربع سنين وخمســة أشهر واثنين وعشرين يوما . وغلبــه أخوه شرف الدولة أبو الفوارس شــيرزيل، فى رمضان سنة ست وسبعين وثلاثمائة، ثم سَمَلَه وقام بالأمر ، فلقبه الخليفــة الطائع بشرف الدولة وزَيْنَ الملة . ومات [شرف الدولة] بعد سنتين وثمــانية أشهر وأيام ببغداد ، فى ثانى جمادى الآخرة سنة تسع وسبعين وثلاثمائة . فملك بعده أخوه بهاء الدولة أبو نصر خُرّه[2] فيروز بن عضــد الدولة ، ولقبه الطائع بهاء الدولة وضياء الملة ، ثم زاد القادر فى ألقابه غياث الأمة شاهنشاه ، ثم زاده قِوام الدين ونقله عن مولى أمير المؤمنين إلى صــفِىّ أمير المؤمنين، ومات بأرجان فى خامس جمادى الآخرة ســنة ثلاث وأربعمائة ، فكانت مدّته اثنتين وأربعين ســنة وتسعة أشهر وثمانية عشر يوما . وقام من بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع فنا خسرو، فكانت أيامه ببغداد — ســنة واحدة وستة أشهر تنقص ثلاثة أيام — على انزعاج ، لكثرة مطالب الأتراك[3] ، فخرج[4] [منها] ، وقد رتب أخاه مشرف الدولة أبا على الحسن ، وسار إلى الأهواز، واســتقر مشرف الدولة فى ملك العراق خمس ســنين وشهرين وأياما . ومات سلطان الدولة بفارس ، لأربع بقين من شوّال سنة خمس عشرة وأربعمائة ، فكانت إمارته اثنتى عشرة سنة وأربعة أشهر وأياما . ومات بعده أخوه مشرف الدولة ببغداد ، لثمــان بقين من ربيع الأوّل سنة ست عشرة وأربعمائة، فسار [أخوهما] جلال الدولة أبو طاهر فيروز خره بن بهاء الدولة من البصرة إلى بغداد ، باستدعاء الخليفة القادر ، لمــا حصل فى بغداد من مصادرات الأتراك للناس ، فلما قدمها تلقاه القادر ولقبه ركن الدين جلال الدولة . وفى أيامه انحل امر الخلافة

---

(١) كذا فى س بغير ضبط ، ولم يضبط ابن الأثير شيئا من هذه الأسماء . (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ١٦) . غير أن كاتب نسخة ب (ص ١١ أ) أورد اسم كاليجار بالنون بدل الياء فأصبحت " كالنجار " ، وتبعه فى ذلك (Blochet) فترجم الاسم كله إلى (Ṣamṣām - ad - Daūlah - Abou - Kalandjār - Al - Merzebān) راجع (Ibid : Op. cit. P. 82.)

(٢) فى س "خسره" دائما . (راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٤) .

(٣) يلى هذه الكلمة إشارة إلى هامش غير متسق مع المتن ، فرؤى إيراداه هنا وهو : "وضرب [سلطان الدولة] الطبول على بابه فى أوقات الصلوات الخمس" . (٤) فى س "وخرج" (راجع ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢٤٤) .

والسلطنة ببغداد ، وانطلقت الأيدى ، وعجز جلال الدولة عن إقامة الأمر إلى أن مات ، فى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة ، فكانت مدته ست عشرة سنة وأحد عشر شهرا . فاستدعى الجندُ ابنَه الملك العزيز أبامنصور خره فيروز ، فلم ينتظم له أمر ، واستنجد الملوك فلم يجدوه ، فكاتب عسكرُ بغداد عِزَّ الملوك أباكاليجار المرزبان بن سلطان الدولة أبى شجاع فناخسرو بن بهاء الدولة أبى نصر خره فيروز بن عضد الدولة ، ولقَّبه الخليفة القائم بأمر الله شاهنشاه عِزّ الملوك ، وحُملت إليه الخلع واللواء وخُطب له ، فسار وقدِم بغداد ، ومات سنة أربعين وأربعمائة . وملك [بعده] ابنه الملك الرحيم (١٠ ب) أبو نصر خره فيروز بن عز الملوك ، وكان [عز الملوك][1] قد سار إلى كرمان ، فهلك فى طريقه لأربع سنين من ولايته . فقام من بعده ببغداد الملك الرحيم بمبايعة الجند له ، وثار فى أيامه الأمير أرسلان البساسيرى[2] وملَك بغداد ، ثم قدم طغرلبك والسلجوقية ، وقبض على الملك الرحيم وسجنه حتى مات . فكانت عدّة من ملك بغداد من بنى بويه أحد عشر ، ومدّتهم ببغداد إلى أن انقرضوا على يد السلجوقية مائة وثلاث سنين وثلاثة أشهر وأربعة عشر يوما ، أولها يوم وصل معز الدولة إلى بغداد ، وأخرها يوم وصول طغرلبك بغداد ، ومدتهم منذ ملك عماد الدولة بلاد فارس مائة وخمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وستة أيام .

ذكر دولة السَّلجوقية

وكان ابتداء أمر السلجوقية أنهم أخلاط من الترك ، كانوا يَصيِّفُون فى بلاد البُلْغار[3] ويَشْتُون فى تركسيان ، وينهبون ما طرقوه . وكان من مقدميهم رجل يقال له دُقَاق[4] ، فوُلد له سلجوق فَنَجَب ، وقدّمه بيْغُو[5] ملك الترك ، نقوِى وكثر جمعه نخافه بيغو ، نخرج [سلجوق] بجموعه

(١) أضيف هنا بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٧٣ — ٣٧٤) .

(٢) فى س الفساسيرى .

(٣) فى حوض نهر الفولجا بالروسيا الحالية .

(٤) صحح ناشر ابن الأثير هذا الاسم إلى "تقاق" (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٢) . على أن هناك ما يحمل على تفضيل الرسم الوارد هنا (انظر Enc. Ist. Art. Seldjūks) وقد ضبطت الأعلام الواردة هنا على هذين المرجعين .

(٥) فى س "بيغو" مضبوطة ، وفى نفس السطر "بيغوا" بالضبط عينه . ورسم هذا الاسم بالياء أولا أنصار . (انظر Enc. Isl. Art. Seldjūks)

مهاجرا من دار الحرب [إلى ديار[1] الإسلام] وأسـلم وأقام بنواحى بخارى وصار يغـزو الترك ، وكان له من الولد أَرْسَلان[2] وميكائيل وموسى . ومات سلجوق بجَنْـد[3] وراء بخارى ، عن مائة وسـبعة أعوام ، وبقى ولده على ما كان عليه من غزو الترك ، فقتل ميكائيل شهيدا . وخلّف [ميكائيل] بيغو وطغرلبك وينّال وجَغْرِى بك داود[4] . ثم إنهم قربوا من بخـارى فأساء أميرها جوارهم ، فرجعوا إلى بُغراخان ملك تركسـتان وجاوروه ، وتعاهد طغرلبك وأخوه داود ألا يجتمعا عند بغراخان . وحاول على مجتمعهما فلم يطق ، فَقَبَض على طغرلبك وأرسل عسكره إلى أخيه داود ، فانهزم العسكر وأَتْبَعُوه وخلصوا طغرلبك من أسره ، وعادوا إلى جَنْد ، وأقاموا بها إلى انقراض الدولة السامانية ومُلْك أيلك خان بخارى ، فعظم عنده محل أرسلان بن سلجوق.[5] ولـما رجع أيلك خان عن بخارى ولى عليها علىّ تكين[6] فبقى معه أرسلان إلى أن عبر محمود بن سَبُكْتَكِين النهر إلى بخارى ، وهرب علىّ تكين فدخل أرسـلانُ وقومه المفازة ، وكاتبه محمود ولاطفه حتى قدم عليـه ، فقبضه ونهب أحياءه ، وأجازهم النهر وفرّقهم فى نواحى خُراسان ، ووضع عليهم الخراج ، فلحقهم جور العمال . فسار منهم جماعة أرسلان إلى أصبهان ، وحاربهم علاء الدين بن كاكَوَيْه حروبا كثيرة ، إلى أن ساروا إلى آذربيجان ، وكانوا يعرفون بين الترك بالغُز[7] . وسار طغرلبك واخوه داود و بيغو من خراسان إلى بخارى ، و جمع على تكين عسكره

(١) ما بين القوسين منقول عن ابن الأثير ، لضرورة انسجام العبارة (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٢) .

(٢) فى س بفتحة على السين فقط . (٣) فى س بفتحة على النون فقط .

(٤) فى س ”ينال وجعرو بك وداوود“ راجع (Enc. Isl. Arts. Caghrı Beg and Tughrilbeg) .

(٥) لعدم وضوح هـذه العبارة تمـاما ، مع الحـرص على إيرادها كما هى ، رؤى نقل ما يقابلهـا عن ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٣) وهى : ” واسـتقر الأمر بين طغرلبك وأخيه داوود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان ، إنمـا يحضر عنده أحدهما و يقيم الآخر فى أهله ، خوفا من مكر يمكره بهم ، فبقوا كذلك . ثم إن بغراخان اجتهد فى اجتماعهما عنده فلم يفعلا ، فقبض على طغرلبك وأسره ، فثار داوود فى عشايره ومن يتبعه وقصد بغراخان ليخلص أخاه ، فأنفذ إليه بغراخان عسكرا ، فاقتتلوا فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم ، وخلص [داوود] أخاه من الأسر ، وانصرفوا إلى جند وهى قريب بخارى ، فأقاموا هناك . فلما انقرضت دولة السامانية ، وملك إيلك الخان بخارى ، عظم محل ارسلان بن سلجوق عم داوود وطغرلبك بما وراء النهر ... ...“ . (٦) هو أخو أيلك خان (نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٣٢٣) .

(٧) ”الغُزّ (مضبوطة) لفظ يقع على ما يتوالد بين العجم فى المدن من نسائهم ؛ وقيل الغز لفظ يقع على جنس العجم كله . وقيل الغز فى جنس العجم كالمولدة فى العرب ؛ وقيل لفظة الغز تقع على الترك والتركمانى والقفشق والجنس المولد . وقيل هم كل من ولد عامور بن يافث بن نوح ؛ وقيل الغز بجنس التركمانى والتركى أقعد ؛ وقيل الغز جيل من الشام“ . عن هامش فى س ، ص ١٠ ب .

وأوقع بهم ، فعادوا إلى خراسان وخيموا بظاهر خوارزم، فى (١١ ا) سنة خمس وعشرين وأربعمائة، واتفقوا مع خوارزم شاه هارون بن التونتاش[(١)]، ثم غدر بهم وكبسهم، فساروا إلى جهة مَرْو . فأرسل إليهم مسعود بن محمود بن سبكتكين جيشا فهزمهم، واشتغل أصحابه بالغنائم فرجع [الغُزّ] وهزموهم ونهبوهم[(٢)] ، فاستمالهم مسعود بعدها وكان ببلخ ، فطلبوا منه إطلاق عمهم أرسلان الذى قبضه محمود بن سبكتكين، فشرط حضورهم فأبوا . وعادت الحرب وهزموا عساكره، وقوى أمرهم واستولوا على غالب خراسان، وفرّقوا العمال وخُطب لطغرلبك فى نيسابور . وسار داود إلى هراة ، ففرت عساكر مسعود ، وتركوا خراسان حتى أتوا غَزْنَة ، وسار مسعود من غزنة إلى خراسان فى جيوشه، ففروا[(٣)] أمامه وهو يتبعهم، حتى قلت الأزواد وطال الأمد، ودخلوا البرية ومسعود فى إتْبَاعهم مدة ثلاث سنين ، فانتقض عليه عسكره، ورجع السلجوقية وهزموهم أقبح هزيمة، وولّى مسعود وغنموا منه مالايحصى، وعادوا إلى خراسان فملكوها، وثبتت أقدامهم بها، وخطب لهم على منابرها . ووصل مسعود إلى غزنة ، واختلف عليه أمراؤه حتى قتل . وملك طغرلبك جرجان وطبرستان ، وملك بعد ذلك خوارزم، ثم سار إلى بلد الجبل[(٤)] واستولى عليها، فأسلم من الترك خمسة آلاف خَرْكاه[(٥)] وتفرقوا فى بلاد الإسلام ، ولم يتأخر عن الإسلام سوى الخطا والتتار بنواحى الصين . وبعث طغرلبك أخاه إبراهيم ينال بن ميكائيل ، فملك همذان والدِّينَوَر، ثم استوحش منه وقاتله وأخذه، فبعث ملك الروم يطلب الهدنة من طغرلبك وهاداه، وعَمَّر مسجد القسطنطينية وأقام فيه الصلاة والخطبة لطغرلبك[(٦)] . ثم سار[(٧)] طغرلبك وحاصر أصبهان حتى أخذها صلحا ، ونزلها

(١) فى س الطن طاش (راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٢٩٤، ٣٢٥). وكذلك (Enc. Isl. Art. Altūntāsh) .

(٢) فى س فتراجعوا وهزموه ونهبوه . (انظر ابن الأثير : نفس المرجع، ج ٩ ، ص ٣٢٥) .

(٣) فى س ففرا .

(٤) فى س بلاد الجيل . (راجع ابن الأثير : نفس المرجع، ج ٩ ، ص ٣٤٧ — ٣٤٩) .

(٥) كلمة فارسية معناها خيمة أو نجع .

(٦) العلاقة بين ماجرى لطغرلبك مع أخيه ينال و بين ملك الروم، أن ينال كان قد غزا البلاد الرومية سنة ٤٤٠هـ . (١٠٤٨ م .) بجمع من الغز حتى وصل بهم إلى طرابزون ، وظل يقاتل من يقابله من الجيوش الرومية و يقتل و يسبي و يغنم، حتى لم يبق بينه وبين القسطنطينية سوى خمسة عشر يوما . فلما وقعت الوحشة بين الأخوين، انتهزها ملك الروم وصالح طغرلبك على الشروط الواردة هنا . (ابن الأثير : نفس المرجع، ج ٩، ص ٣٦٠ — ٣٧٢ و ٣٨٠ـ٣٨١، وكذلك (Camb. Med. Hist. Vol. III. pp. 111, 384 - 385.) .

(٧) فى س فسار.

ونقل إليها ذخائره ، وأتاه ملك الأكراد فأقرّه على بلاده شَهْرَزُور وغيرها . ثم أنفذ رسوله إلى الخليفة القائم بأمر الله بالهدايا ، وسار يريد بغـداد ، فدخلها لخمس بقين من رمضان سنة سـبع وأربعين[1] وأربعمائة . ونُعت بالسلطان ركن الدين أبى طالب محمد طغرلبك بن ميكائيل ابن سلجوق بن قِنِق[2] بن جبريل بن داود بن أيوب بن دقاق بن إلياس بن بهرام بن يوسف بن عزيز بن أحمد بن دهقان ، وقَبض على الملك الرحيم أبى نصر وعلى قواده ، وأزال دولة بنى بُويه . ثم توجه (١١ ب) إلى نصيبين وديار بكر ، واستولى على الموصل ، وترك عليها أخاه ينال[3] إبراهيم ، فخالف[4] على طغرلبك ، وتوجه إلى همذان ، فسار إليه [طغرلبك] وقتله . ثم عاد إلى بغداد ، وقد ملكها أبو الحارث أرسلان البساسيرى ، فأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيرى ، ثم سار إلى بلاد الجبل فمات بالرىّ ، فى ثامن شهر رمضان سـنة خمس وخمسين وأربعمائة ، فكانت مدة ملكه ثمانيا وثلاثين سنة تنقص عشرين يوما ، ولم يخلف ولدا . فملك بعده ابن أخيه عضد الدولة أبو شجاع محمد أَلْب أرسلان بن جَغْرِى[5] بك بن داود بن ميكائيل بن سـلجوق ، وسار إلى حلب وأقرّ صاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس عليها ، ولقى ملك الروم وهزمه ، و بعث جيوشه فأخذت القدس والرملة من خلفاء مصر [الفاطميين] ، وحَصرت دمشق . ومات ألب أرسلان بعد ما رجع من حلب إلى ما وراء النهر ، فى ربيع الأوّل سنة خمس وستين . وملك بعده ابنه السلطان جلال الدولة أبو الفتح محمد مَلِك شاه بن عضد الدولة أبى شجاع ألب أرسـلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق تسـع عشرة سـنة وشهرا ، ومات فى نصف شوال سنة خمس وثمانين وأربعمائة ، وعمره سبع وثلاثون سنة وخمسة أشهر . وكان يُخطب له من أقصى بلاد الترك إلى بلاد اليمن ، وفى أيامه مَلَك دمشـقَ أَتْسِز[6] ، ثم أخذها منه تُتُش[7] بن ألب أرسلان ، فاستمرت بأيدى الترك ؛ و بعث ملك شاه أيضا آقسنقر قَسِيم الدولة

(١) فى س ، ب "وثلاثين" (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤١٥ — ٤٢٤) . (٢) فى س بفتح القاف وكسر النون ، (انظر Enc. Isl. Art. Seldjuks) . (٣) كذا فى س . انظر ص ٣٢ . (٤) فى س تخالف ، (راجع ابن الأثير : نفس المرجع ، ج ٩ ، ص ٤٣٩ — ٤٤٠) . (٥) فى س جعرى بك . (٦) فى س "اطسز" بغير ضبط . (٧) فى س تتش بغير ضبط ولا نقط على التاء الثانية .

فملك الموصل، وآقْسُنْقُر هذا هو والد عماد الدين زَنْكى (١) . ثم قدم ملك شاه إلى حلب وسلمها إلى آقسنقر، وعاد إلى بغداد . ومَلَك بعد ملك شاه ابنُه محمود وعمره أربع سنين، فقامت أمه تُرْكَان (٢) خاتون بتـدبيره ، فثار عليـه أخوه بَرْكِيَارُوق بن ملكشاه واستبد بالأمر ، وكانت له (٣) [أيضا] حروب مع أخويْه محمد وسَنْجَر إلى أن مات ثانى شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين، عن خمس وعشرين سنة ، منها مدّة وقوع اسم السلطنة عليه اثنتا عشْرة (٤) سنة وأربعة أشهر، قاسى فيها من الحروب واختلاف الأمور مالم يقاسه غيره. وأقيم بعده ابنه ملكشاه بن بركيارُوق (٥) ، وعُمْرُه أربع سنين وثمانية أشهر، ولَقَبُه جلال الدولة . وقام بأمره الأمير أَيَاز الأتابك إلى أن قُتِـل فى ثالث عشر جمادى الآخرة، بعد ما سلّم أمر الدولة إلى السلطان محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان . فقام محمد بأمر المملكة إلى أن مات، فى رابع عشرى (٦) ذى الحجة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، عن ست وثلاثين سنة وأربعة أشهر، منها مدّة اجتماع الناس عليه اثنتا عشرة سنة وستة أشهر، ولقى مشاقّ (٧) وأخطارا كثيرة . فأقيم بعده ابنـه محمود بن محمد بن ملكشاه، وعمره أربع عشرة سـنة ، فنازعه عمـه (١٢ ا) السلطان (٨) ناصر الدين معز الدولة أبو الحارث سَـنْجَر ابن ملكشاه بن أَلْب أرسلان وقاتله ، فانهزم منه محمود ، وخُطب لسنجر ببغداد فى سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ، وقطعت خُطبة محمود . ثم اصطلحا وجَعل سنجرُ ابن أخيه محمودا (٩) ولى العهد بعده ، وكتب إلى جميع الأعمال التى بيده بأن يخطب للسلطان محمود بعده، وأعاد عليه جميع ما أخذ من البلاد ، فخطب لها ببغـداد وغيرها . وعاد سـنجر إلى ولايته ، واستمر محمود فى السلطنة، فتنكر الحال بينـه و بين الخليفة المسترشد بالله

(١) فى الهامش : "اقسنقر هذا هو جد نور الدين الشهيد". (٢) ضبط هذا الاسم على منطوقه الإنجليزى (Tärkān) . انظر (Enc. Isl. Art. Malikshāh) . (٣) الهاء عائدة على بركياروق . (٤) فى س "اساعسر" (٥) فى س : بركيارق . (٦) فى س : "عسرين" باثبات النون، وأغلب ما ترد على هذه الصورة، وستصلح دائما بدون تنبيه . (٧) فى س : مشاقا . (٨) هذا بدء هامش طويل متسق مع المتن، ولم تكن هناك حاجة إلى الإشارة إليه لولا أنه بخط غير خط المؤلف . وأكبر الظن أن ورقة هـذا الهامش تعرضت للتلف، فكتبها أحد المتأخرين بخط نسخ جميل على ورقة أخرى، ووضعها مكان الأولى . (٩) فى س محمـــود .

واقتتلا، ثم اصطلحا فى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين. وسار محمود عن بغداد، وَوَلّى عمـاد الدين زنكى بن آقسنقر شِحْنَكِيتها[(١)]، ثم نقله إلى الموصـل، وأضاف إليه الجزيرة، فاشـتدت وطأته بهـا حتى ملك حلب أول المحرم سـنة ثنتين وعشرين، ثم ملك حماة وعدة حصون بالشام. ومات السلطان محمود فى شـوّال سنة خمس وعشرين [وخمسمائة] بهمذان عن سبع وعشرين سنة، منها ولايته السلطنة اثنتى[(٢)] عشرة سنة وتسعة أشهر وعشرين يوما. فأُقْعِد بعده فى السلطنة ابنه داود بن محمود [بن محمد][(٣)] بن ملكشاه، فنازعه عمه السلطان مسـعود، وقاتله ثم اصطلحا. وطلب مسعود من الخليفة المسترشد أن يخطب له ببغـداد، فأجاب بأن الحكم فى الخطبة إلى السلطان سنجر، [وأرسل إلى سنجر][(٤)] ألا يأذن لأحد فى الخطبة، وأن الخطبة ينبغى أن تكون له وحده، فوافق ذلك غرضَ سنجر. فاشتدّ ذلك على مسـعود، وعزم على أخذ السلطنة، فسبقه [أخوه] السلطان سلجوق شاه بن السـلطان محمد إلى بغداد، وكانت أمور آلت إلى أن يكون مسعود بن محمد بن السلطان ملكشاه سلطانا، وسلجوق شاه ولى عهـده، وقُطعت خطبة سنجر من العراق جميعه. وكان عماد الدين زنكى قد قدم نصرة لمسعود، فهزمه أصحاب سلجوق شاه هزيمة قبيحة، فلما وصل تَكْرِيت أقام له نجم الدين أيوب بن شادى الدِّزْدَار[(٥)] بها المعابرَ حتى خلص إلى بلاده، فشَـكر ذلك لنجم الدين وقرَّبه، فكان ذلك سـببا لاتصال نجم الدين به والمصـير فى جملته، حتى آل بهم الأمر إلى مُلك مصر والشام وغيرهما. واقتتل مسعود وسنجر[(٦)]، فانهزم مسعود وقُتل أصحابه، ثم أُحضر إلى سنجر فعاتبـه، وأعاده إلى كَنْجَة[(٧)]، وأجلس [ابن أخيه][(٨)] الملك طغرل بن السـلطان محمد

(١) أى رياسة الشرطة بها، ويسمى متوليها صاحب الشحنة. (Dozy: Supp. Dict. Ar.). (٢) فى س اثنا.

(٣) راجع .(Lane-Poole : Muhammadan Dynasties, Table facing P. 152)

(٤) ليس لما بين القوسين وجود فى س ولكنه فى ب (ص ١٣ ب)، وهو يطابق تماما ما ورد فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص، ٤٧٤). وربما استعان كاتب نسخة ب بهذا المرجع فى توضيح ما غمض عليه. (٥) فى س الدردار. أما الدزدار فكلمة فارسية معناها "حاكم حصن". (Enc. Isl. Art. Diz.)

(٦) فى س محمود. (٧) فى س كيخيته. انظر ابن الأثير: نفس المرجع، ج ١٠، ص ٤٧٧ و٤٨٣؛ وكنجة مدينة كبيرة، وهى قصبة بلاد أرّان (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٠٨).

(٨) فى س "واجلسه الملك طغرل". (راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٤٧٧).

فى السلطنة ، وخطب له فى جميع البلاد، وذلك فى ثامن رجب سنة ست وعشرين . فلما كان فى رمضان اقتتل الملك طغرل بن محمد هو وابن أخيه الملك داود بن محمود ، فانهزم داود ؛ فلما سمع ذلك السلطان مسعود بن محمد سار إلى بغداد، فلقيه داود ودخل معه إليها ، فى صفر سنة سبع وعشرين ، وأعيدت له الخطبة بها ولداود معه، وخلع عليهما الخليفةُ . ثم سارا لمحاربة طغرل ، فحارباه وهزماه فى شعبان، فامتدت الحرب بينهم إلى شوّال . ثم عاد طغرل بن محمد ، وأجلى أخاه مسعودا[(١)] عن بلاده فى رمضان سنة ثمان وعشرين ، فقدم [مسعود[(٢)]] بغداد فى نصف شوّال ، فأكرمه الخليفة المسترشد وأنزله وأنعم عليه . ثم قدم[(٣)] الخبر بوفاة طغرل بن محمد، فى المحرم سنة تسع وعشرين ، فسار مسعود إلى همذان واستولى عليها، و[كان قبل[(٤)] ذلك قد] نافر الخليفة، فقطع [المسترشد] خطبته من بغداد وسار لقتاله ، فبرز إليه [مسعود] ، وقاتله فى عاشر رمضان وأخذه أسيرا، وبعث إلى بغداد فقبض على أملاك الخليفة، وكسر منبره وشباكه . ثم قُتل الخليفة بيد الباطنية ، وأقيم بعده الراشد[(٥)] (١٢ أ) خليفة . فسار الملك داود بن السلطان محمود فى عسكر آذربيجان إلى بغداد ، فقدمها رابع صفر سنة ثلاثين وخمسمائة ، وأقام برنقش على شِحْنَكِيَّتها[(٦)] . وقطعت خطبة السلطان مسعود وخطب لداود ، فسار مسعود إلى بغداد وحصرها نيفا وخمسين يوما ، فكانت أمور آلت إلى عود الملك داود إلى بلاده فى ذى القعدة، و[إلى] تفرق الأمراء[الذين كانوا معه[(٧)]]،

---

(١) فى س : مسعود . (٢) انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٦ .

(٣) فى س : فقدم . (٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (نفس المرجع، ج ١١ ، ص ١٠ ، ١٤ — ١٦) . (٥) هنا ينتهى الهامش المشار إلى مبدئه فى ص ٣٤ ، حاشية رقم ٨) .

(٦) فى س رنقش . وفى ابن الأثير برنقش بازدار بدون ضبط ، وكان صاحب قزوين . (نفس المرجع ، ج ١٠ ، ص ٢٣) . راجع أيضا (Rec. Hist. Or. II. 2. pp. 88, 92). حيث رسم هذا الاسم هكذا (Berenkach) . أما البازدار فهو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . (٧) يظهر هنا بوضوح أن المقريزى كان ينقل من ابن الأثير مباشرة أو عن مرجع آخر مصدره ابن الأثير . على أن عبارة المقريزى هنا مقتضبة ، وهى بحاجة إلى توضيح أكثر ، برغم ما أضيف بين القوسين (انظر ابن الأثير : نفس المرجع، ج ١١ ، ص ٢٢ — ٢٤ ، ٢٦ — ٢٧) .

وسار الخليفة الراشد [من بغداد] إلى الموصل فى نفر يسـير مع عماد الدين[(١)] زنكى، [فلما سمع السلطان مسعود بمفارقة[(٢)] الخليفة وزنكى بغداد سار إليها]، ودخلها[(٣)] فى نصف ذى القعدة، وخلع الراشدَ وأقام المقتفى لأمر الله أبا عبـد الله محمد بن المستظهر فى الخلافة، وزوّجة أخته فاطمة على مائة ألف دينار صداقا . فسار الراشـد بالله من الموصل إلى مَرَاغة، فأتاه الملك داود فى جماعة ليرده إلى الخلافة، فسار السلطان مسعود من بغداد فى شعبان سنة اثنتين[(٤)] وثلاثين، وحاربهم وهزمهم، فحمل عليه بعض من انحاز منهم إلى تل، [فلم يثبت لهم وانهزم[(٥)]، وما زال] حتى صار إلى آذربيجـان، وقصد داودُ همذان ومعـه الراشد، وسار سلجوق شاه بن محمد إلى بغـداد ليملكها فمُنع منها، وسار مسعود ليمنع داود من أخذ الراشد ومسـيره به إلى العراق، فترك داودُ الراشد، وعاد إلى فارس، فقُتـل الراشد بيد الباطنيـة أيضا . وضاقت الأمور على السلطان مسـعود، وكثرت الخوارج عليـه : وسار عمـاد الدين زنكى إلى دمشق، وحصرها مرتين وملَكَ بعلبـك؛ وحارب السلطانُ سنجرُ بنُ ملكشاه خوارزمَ شاه أتسز بن [قطب الدين] محـمد بن أنُوشْتكين[(٦)]، فقُتـل ابن خوارزم شاه، فبعث خوارزم شاه إلى الخطا وهم بمـا وراء النهر، فأطمعهم فى البلاد وتزوج منهـم، فسـاروا فى ثلاثمـائة ألف فارس، فحاربهم سنجر، فقتلوا منـه نحو مائة ألف، وهزموه فى صـفر سـنة ست وثلاثين، فأخذ خوارزم شاه مدينـة مرو . فسار السلطان مسـعود إلى الرى، وقد اسـتقرت دولة الخطا والترك الكفار بمـا وراء النهر، وأخذ خوارزم شاه نيسـابور أيضا، وقطع خطبـة السلطان سنجر أوّل ذى القعدة، وخُطب باسمـه، وعاث أصحـابه فى خراسان وعملوا أعمالا قبيحة . ثم آل أمر أتسز[(٧)] خوارزم شاه إلى مصالحة السلطان سنجر،

(١) كانـ الخليفـة وزنكى من حلفاء داود ضد مسـعود . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٢ — ٢٣) . (٢) روى إضافة ما بين القوسين من ابن الأثير للتوضيح (نفس المرجع، ج ١١، ص ٢٦) . (٣) فى س "ودخلها السلطان مسعود" . (٤) فى س "شى" .

(٥) فى س "وهزمهم" . وهذا يخالف ما جاء فى ابن الأثير (نفس المرجع، ج ١١، ص ٤٠) . وقـد أضيف منه ما بين القوسين بتصرف طفيف . (٦) فى س اطسز . (٧) فى س اطسز . يلاحظ أن المؤلف عكس ترتيب الاسم هنا .

فى سنة ثمان وثلاثين، وأقام بخوارزم على ما كان عليه، وأقام سنجر بمرو. ومات أتابك عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل والشام، قتله بعض مماليكه (١٢ ب) فى خامس ربيع الآخر سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فسار ابنه نور الدين محمود بن زنكى إلى حلب فملكها، ومَلَكَ سيف الدين غازى بن زنكى الموصل. ومات السلطان مسعود ابن محمد بن ملكشاه بهمذان، أول رجب سنة سبع وأربعين وخمسمائة، وماتت[١] معه سعادة بنى سلجوق، فلم يقم بعده لهم راية يعتد بها. فقام بعده ملكشاه بن السلطان محمود، وخُطب له، فلما بلغ الخليفة المقتفى لأمر الله موت[٢] [السلطان مسعود] أحاط بداره ودُوْر أصحابه، وأخذ كل ما لهم، وجمع الرجال والعساكر، وأكثر من الأجناد[٣]، وجهز إلى الحلة والكوفة وواسط العساكر فأخذوها. ثم إن الأمير خاص بك[٤] قبض على ملكشاه وبعثه إلى خوزستان، واستدعى أخاه محمد بن محمود من خوزستان، وأجلسه على تخت السلطنة، فى أوائل صفر سنة ثمان وأربعين، فقَتَل محمدٌ [خاصّ بك] ثانى يوم قدومه. وملك نور الدين محمود بن زنكى دمشق فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة، واستولى شُمْلة[٥] التركمانى على خوزستان فى سنة خمسين وخمسمائة، وأزاح عنها ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد. وضعفت يد السلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان، حتى لم يبق له إلا اسم السلطنة، وأخذ الغزنيسابور بالسيف، ففر منهم سنجر فى رمضان سنة إحدى وخمسين إلى تِرْمِذ[٦]، ثم إلى جيحون يريد خراسان، ثم عاد إلى دار ملكه بمرو. وسار السلطان محمد شاه بن محمود من همذان، وحصر بغداد فى ذى الحجة منها[٧]، لامتناع الخليفة من الخطبة له، إلى أن عاد إلى

(١) فى س "ومات". (٢) فى س "موته". (٣) فى س وجهز.

(٤) كان خاص بك — واسمه الأصلى أرسلان بن بلنكرى — أقرب الأمراء إلى السلطان مسعود. وهو الذى أجلس ملكشاه على عرش عمه بالعراق. (Enc. Isl. Art. Mas'ūd)، وكذلك ابن الأثير (نفس المرجع، ج ١١، ص ١٠٥ — ١٠٧).

(٥) بدون ضبط فى س وابن الأثير، واسمه أيدغدى التركمانى وكان معروفا بشملة (ابن الأثير: نفس المرجع، ج ١١، ص ١٠٦).

(٦) فى س ترمد. والنطق المثبوت هنا هو "المتداول على لسان أهل تلك المدينة" زمن ياقوت، وغيره كثير (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٨٤٣).

(٧) يقصد المؤلف سنة إحدى وخمسين المتقدمة الذكر (انظر ابن الأثير: نفس المرجع، ج ١١، ص ١٤٠ — ١٤٢).

همذان في أخريات ربيع الأوّل[1] سـنة ثنتين[2] وخمسين، ولم ينل طائلا من بغداد . ومات السـلطان سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسـلان فى ربيع الأوّل سنة ثنتين[3] وخمسين ، و[قد] خطب له على أكثر منـابر الإسـلام بالسلطنة نحو أربعين سـنة ، وكان قبلها يخاطب بالملك عشرين سنة . واستخلف[4] بعده على خراسان الملك محمود بن محمد بن بغراخان وهو ابن أخته . ومات السـلطان محمد شاه بن محمود بن محمد فى ذى الحجة سنة أربع وخمسـين بهمذان ، عن اثنتين وثلاثين سنة ، وترك ولدا صغيرا ؛ فاختلف الأمراء بعـده : فمنهـم من أراد أن يملك ملكشاه بن محمود ، ومنهم من طلب سليمان شاه [بن محمد] ، وطلب قوم أرسلان [شاه بن[5] طغرل] . فسار ملكشاه من خوزسـتان إلى أصفهان وملكها ، فخالف[6] عليـه أهل همذان وطلبوا سليمان شاه ، فسار (١٣ أ) من الموصل أوّل سنة خمس وخمسين يريد همذان ، فقُبض عليه بها فى شوال سنة ست وخمسين ،وخُطب لأرسلان شاه بن الملك طغرل بن محمد . ومات ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بأصبهان فى أثناء السـنة ، وخُطب بعـده بهـا لسليمان شاه ، واسـتقر ملكه بتلك البلاد . ثم قتل السلطان سليمان شاه بن محمـد بن ملكشاه فى ربيع الأوّل ، وخطب بعـده لأرسلان شـاه بن طغـرل[7] بن محمـد بن ملكشاه بن ألب أرسـلان بن جغرى[8] بك داود بن ميكائيل بن سلجوق بهمذان وأعمالها . وطلب [أرسـلانُ شاه] من الخليفـة المستنجد بالله أن يخطب له ببغـداد ، كما كانت العادة فى أيام السلطان مسعود، فأهين رسوله وأعيد اليـه على أقبح حالة، فكثر الخـلاف والقتال بين عساكر السلجوقية ، فمات أرسلان فى سـنة ثلاث وسبعين وخمسمائة . وأقيم من بعـده

(١) فى ب (ص ١٥ ب) "شهر ربيع الأول" ويحدث هذا التصرف الطفيف أحيانا ، أما الغالب فى نسخة ب فهو حذف كلمة " شهر " حيث توجد ، وسينبه إلى هذا النوع الآخر من التصرف فى مكانه مرة واحدة .

(٢) و(٣) فى س ثنى . (٤) فى س استحلف .

(٥) راجع (Lane - Poole: Muhammadan Dynasties, Table facing p. 152) .

(٦) فى س لخالف . (٧) فى س " طفرىل " . (٨) فى س " حعرىك بن داود " .

ابنه طغرل[1] بن أرسلان آخر السلاطين السلجوقية، وكان تحت أمر قِزِل أرسلان إيلْدِكِز[2]، ثم استبدّ بسلطنته، وفارق قزل أرسلان. فأقام قزلُ عوضه معز الدين سنجر بن سليمان بن محمد ابن ملكشاه، وطرده ثم ظفر به وسجنه، ثم خُلِّص وقُتل فى محاربة خوارزم شاه قريبا من الرى، فى رابع عشرى ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة، وحُمل رأسه إلى بغداد فكان آخر السلجوقية، وملك بعده خوارزم شاه. فكانت مدّتهم، من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة إلى سنة تسعين وخمسمائة، مائة وثمانيا وخمسين سنة. وكان أسد الدين شيركوه بن شادى قد تقدّم عند نور الدين محمود بن زنكى، وبعثه أمير الحاج من دمشق، ثم سيره مع شَاوِر[3] بن مُجِير السعدى وزير الخليفة العاضد [الفاطمى]، على عسكر من الغز إلى مصر. وكان شيركوه هذا وأخوه نجم الدين من بلد دَوِين[4] أحد بلاد آذربيجان، وأصلهما من الأكراد، نخدما مجاهد الدين بِهْرُوز شِحْنة[5] بغداد، فجعل أيوب مُسْتَحْفِظا[6] لقلعة تكريت، فسار إليها ومعه أخوه شيركوه، وهو أصغر منه

(١) فى س "طغرىل".

(٢) فى س "قزل ارسلان ن ابل دكز"، بدون ضبط. أما هذا السلطان الأخير من سلاجقة العراق فقد تولى الملك قاصرا صغيرا، وكان صاحب أمره أوّلا الأتابك البهلوان محمد بن إيلدكز، ثم بعد وفاته أخوه قزل أرسلان، واسمه عثمان بن إيلدكز. وقد تمرّد هذا السلطان الأديب لما أيفع على قزل، وظل يدفع عن شرف الدولة السلجوقية واستقلالها بالعراق حتى مات فى ميدان القتال سنة ٥٩٠ هـ (١١٩٤ م). راجع ابن الأثير: نفس المرجع، ج ١١، ص ٣٤٦ — ٣٤٧ و ٣٧١ — ٣٧٣؛ وأيضا ج ١٢، ص ١٥ — ١٦ و ٤٩ — ٥٠ و ٦٩ — ٧٠)؛ وراجع أيضا (Enc. Isl. Art. Ṭughril, II.).

(٣) اسم هذا الوزير "أبو شجاع مجير الدين بن مجير السعدى". ومن هنا يتبين خطأ كاتب نسخة ب (ص ١٥ أ) إذ أورد الاسم على أنه "شاور بن مجير الدين السعدى".

(٤) مضبوطة هكذا فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٣٢)، وهى واقعة حسبما جاء فى نفس المرجع، فى أرّان فى آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس.

(٥) وظيفة الشحنة هى الشحنكية (انظر ص ٣٥، حاشية رقم ١). أما بهروز مجاهد الدين الغياثى، فقد كان صاحب الشحنة ببغداد مرات متعددة، بين سنتى ٥٠٢ و ٥٤٠ هـ (١١٠٨ و ١١٤٥ م). وأصله عبد رومى من دوين، ثم كانت قلعة تكريت من ضمن أملاكه، فولى عليها صديقه وابن بلده أيوب، قبيل سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م). راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ١٠، ص ٣٣٠، ٤٧٥ وج ١١، ص ٧٠ و ٢٢٥ وأيضا (Lane-Poole: Saladin, p. 5.) وكذلك (Enc. Isl. Art. Aiyūbids).

(٦) أى حاكما على تلك القلعة. (Dozy: Supp. Dict. Ar.) وانظر أيضا ص ٣٥ حاشية ٥.

سنا، نخدم الشهيد زنكى لما انهزم، فشكر(١) له ذلك . ثم إن شيركوه قتل رجلا بتكريت، فطرد هو وأخوه من القلعة(٢)، فسارا إلى زنكى فأحسن إليهما ، وأقطعهما إقطاعا حسنا ، ثم جعـل أيوبَ مستحفظا لقلعة بعلبك ، ثم ترق وصار من أمراء دمشق . واتصل شيركوه بنور الدين محمود بن زنكى، وخدمه فى أيام أبيه، فلما مَلَكَ حلب بعد أبيه، كان لنجم الدين أيوب عمل كبير فى أخذه دمشق ، فزادت مكانتهما عنده ، ولم يرأحدا يليق به أن يسـير مع شاور إلى مصر سوى شيركوه(٣) ، فبعثه إليها ومعـه ابن أخيه صـلاح الدين يوسف ، فكان من أمره ما ذكر فى أخبار العاضد(٤)، فلما مات شيركوه قام من بعـده صلاح الدين يوسف ، كما ستقف عليه فيما يأتى إن شاء الله تعالى(٥) .

(١١٤) السلطان الملك الناصر صلاح الدين(٦)

يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان بن أبى على [بن عنترة] الحسن بن على بن أحمد بن أبى على بن عبد العزيز بن هُدْبَة بن الحصين بن الحارث بن سِنَان بن عمرو بن مرة بن عوف . ومن هنا اختلف النسابون : فقيل عوف بن أسامة بن نَبْهَش(٧) بن الحـارثة [صاحب الحَمَالَة] آبن عوف بن ابن أبى حارثة بن مرة بن نُشْبَة بن غَيْظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذُبْيَان(٨) آبن بَغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قيس [بن] عيلان(٩) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . ويقال إن على بن أحمد يعرف بالخراسانى، مدحه المتنبى بقصيد منها : —

(١) انظر ص ٣٥ . (٢) وقعت هذه الحادثة سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) . (٣) بهامش الصفحة تفسير لهذا الاسم، نصـه : "معنى شيركوه اسد الغابة" . (٤) لا يوجد كثير من أخبار العاضد هنا، وليس بالنسخة المطبـوعة من كتاب اتعـاظ الحنفا بأخبار الخلفاء شىء، فإن آخر موضـوعاته قتل الخليفة الحاكم بأمر الله (انظر ص ٩، حاشية رقم ٢) . (٥) لكى يبتدىء المؤلف الموضوع التالى على ورقة جديدة، ترك بقية هذه الصفحة (١٣ أ) والتى تليها بياضا . (٦) يبدأ المؤلف فى س، والناسخ فى ب، عناوين الموضوعات الجديدة أول سطر دائما بقلم عريض، بخط نسخ، بمداد أحمر غالبا . غير أن بعضها طويل، إذ ينتهى عنوان هـذا الموضوع عند لفظ "شادى" (سـطر ٩) فى المتن، وقد اكتفى منـه بالقطعة الأولى . (٧) فى س "يبهس بن الحرث" . وبغير ضبط . (٨) فى س ذبيان بن بغيض، وبغير ضبط . (٩) ليس لهذه النسـبة، أو ما يشابهها من الأنساب العربية للأكراد، نصيب من الصحة (انظر ص ٣، حاشـية رقم ١) . ومع هذا فقـد صححت الأعلام الواردة هنا على ماورد فى ترجمة صلاح الدين بالجزء المختار من وفيات الأعيان فى (Rec. Hist. Or. III. p. 400) .

شرق الجــو بالغبار إذا سار على بن أحمد القمقام

وقيل إن مروان من أولاد بنى أمية ، زعم ذلك إسماعيل بن طغتكين بن أيوب ، وأنكر ذلك عمــه العادل أبو بكر . وذكر ابن القادسى (١) أن شادى كان مملوكا لبهروز الخادم . والحقّ أنه من الأكراد الروادية أحــد بطون الهذبانيــة ، من بلد دُوِين (٢) (٣) فى آخر آذربيجان من جهــة أران و بلاد الكرج . وكان له ابنان ، أكبرهما أيوب ثم شيركوه ، قدم بهما العراق فخدما عند بهرُوز ، فجعل أيوب على قلعة تكريت وكانت فى إقطاعه ، وقيل جعله بعد أبيه شادى ، فخدم أيوب وشيركوه عماد الدين زنكى لمـا انهزم إليها ، ثم قتل شيركوه رجلا ، فأخرجه بهروز من تكريت هو وأخاه أيوب ، وقد ولد يوسف بن أيوب تلك الليلة . فلحقا بزنكى ، واتصل أيوب بولده غازى بن زنكى ، وخدم شــيركوه محمود بن زنكى . فأقام عمــاد الدين غازى أيوبَ بن شادى على قلعة بعلبك ، وما زال يترقى [حتى صار من أمراء دمشق] .

ولِد [صــلاح الدين يوسف] بقلعة تكريت فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وكان أبوه نجم الدين أيوب واليا بها ، ثم انتقل بابنه يوسف إلى الموصل ، وصار منها إلى الشام ، فأُعطِى بعلبك ، فأقام بها مدّة . ونشأ يوسف وعليه لوائح السعادة ، وجالس مشايخ أهل العلم ، فجمع [له الشيخُ الإمام] (٤) قطب الدين أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود النيسابورى (٥) عقيدة تحوى

(١) انظر بعض أخباره فى (Blochet : Op. cit. p. 98, N. 1.) .

(٢) راجع ص ٤ ، وأيضا (Rec. Hist. Or. III. p. 399). . (٣) مضبوطة هكذا فى س .

(٤) الراجح أن المقريزى استعان بكتاب النوادر السلطانيــة والمحاسن اليوسفية لابن شــدّاد ، فى ترجمة صــلاح الدين . غير أنه قضب العبارة كثيرا ، فجعلها فى حاجة إلى كثير من الإضافة بين أقواس مربعــة ، ولهذا رؤى إيراد ما جاء فى ابن شدّاد ، وهو : "وكان [صلاح الدين] رحمة الله عليه حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيــدته عن الدليل ، بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء . وتفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه ، بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولا حســنا ، وإن لم يكن بعبارة الفقهاء . فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر الشبه ، غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه ، جارية على نمط الاســتقامة ، موافقة لقانون النظر الصحيح ، مرضية عند أكابر العلماء . وكان قد جمع له الشيخ الإمام قطب الدين النيسابورى عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليــه فى هذا الباب ..." (Rec. Hist. Or. III. p. 7.) .

(٥) بهامش الصفحة إشارة تاريخية ، ونصها : "ولد مسعود هذا فى سنة خمس وخمسمائة ، ومات بدمشق سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وكان إماما فاضلا فى علوم الديانة" .

جميع ما يحتاج إليه، فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده و يأخذها عليهـم . وكان يواظب الصلاة مع الجماعة، حتى قال يوما : "لى سنين ما صليت إلا فى جماعة" . وكان إذا مرض اسـتدعى الإمام وحده، وصلى خلفه . وصار فى خدمـة نور الدين محمود بن زنكى ، فخرج مع عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر، فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة، وقدمها . ثم عاد إلى الشام ، وقدّمها ثانيـا مع عمه، وحضر وقعة البابين[1] ، وحصره الفـرنج بالإسكندرية . ثم خرج مع عمه إلى الشام، وسار معه فى الكرّة الثالثة على كُرهٍ منه فى المسير إلى مصر، فقدمها فى سنة أربع وستين . ولمـا تقاعد شاور عن إجابة شيركوه، و إعطائه ما تقدّم به الوعد لنور الدين وللعسكر، تشاوروا على الإحاطة به والقبض عليه، فلم يجسر عليه أحد منهم إلا صلاح الدين: فإنه لمـا قدم عليهـم شاور على عادته فى كل يوم ، وساروا معـه لقصد أسـد الدين ، سار صلاح الدين إلى جانبه وأخذ بتلابيبه ، وأمر العسكر بأخذ أصحابه ، ففروا عن شاور، ونهب الغز ما كان معهم، وسِيق شاور إلى المخيم وقُتل[2] . فاستقر أسد الدين [شيركوه] بعده فى وِزارة العاضد إلى أن مات، فى ثانى عشرى جمادى الآخرة من سنة أربع وستين . فَفَوّض العاضد وزارته إلى صلاح الدين ، ونعته بالملك الناصر، فمشّى الأحوال، وبذل الأموال، واسـتعبد الرجال، وتاب عن الخمر فترك معاقرته ، وأعرض عن اللهو. ودبّر الأمر فى نوبة نزول الفرنج على دمياط أحسن تدبير، حتى رحلوا عنها خائبين، فنُهبت آلاتهم، وأُحرقت مجانيقهم[3]، وقُتل منهم خلق كثير . وتمكّن [صلاح الدين] فى مصر، فقدم عليه أبوه نجم الدين أيوب و إخوته وأهله . ثم إنه دأب فى إزالة الدولة الفاطمية وقَطْع دابرها ومحو آثارها، فأعانه الله على ذلك،

(١) تقع هذه البلدة عند مسافة عشرة أميال جنوبى المنيا ، وقد اشتبك عندها ، فى ١٨ إبريل سنة ١١٦٧م ، شيركوه مع شاور وحليفه عمورى (Amaury) ملك الدولة الصليبية ببيت المقدس ، وانتصر شيركوه عليهما بفضل قائد قلب جيشه صلاح الدين . (Lane - Poole : Saladin, pp. 88 - 89) .

(٢) بعد قتل شاور، طلب الخليفة العاضد أيضا "ولد شاور الملك الكامل ، وقتله فى الدهليز؛ وقتل أخاه" كذلك (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ١٠٠ ، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٢٠ — ٢٢٤) .

(٣) فى س "مناجنيقهم" . ويشير المؤلف هنا الى حصار الصابيين دمياط فى نوفبر سنة ١١٦٩ م، و إلى جلائهم عنها فى ديسمبر من السنة نفسها . (Lane-Poole : Saladin, pp. 103-105)

ومات العاضد وقد قطع [صلاح الدين] خطبته، وأمر الخطباء بالدعاء (١٤ب) للمستضىء [بنور الله العباسى]، فاستولى على القصر(١) وما يحويه من عاشر المحرم سنة سبع وستين . وأخذ يتأهب لغزو الفرنج ، وقد انفرد بسلطنة ديار مصر . وكتب العماد الإصفهانى بشارة تُقرأ فى سائر بلاد الإسلام بإقامة الخطبة العباسية بمصر، وبشارة ثانية تقرأ بحضرة الخليفة المستضىء بنور الله فى بغداد ، على يد القاضى شهاب الدين المطهر بن شرف الدين بن عَصْرُون . فسار [القاضى]، ولم يترك مدينة ولا قرية إلا وقرأ فيها المنشور، حتى وصل بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ودخل يوم السبت ثانى عشريه، فَعُلِّقَت أسواق بغداد بالزينة، وخلِع عليه .

وفى يوم الجمعة رابع عشره(٢) أُخرج الكامل شجاع بن شاور، من المكان الذى قُتل فيه بالقصر ودفن فيه ، فوجدت الجثة مختلطة بجثتى(٣) عمه وأخيه، فجمعوا فى تابوت حمل(٤) إلى قبر شاور، فنبش عنه وأُخرج منه، وكان فى مكان غامض، وحمل فى تابوت . وساروا بالتابوتين إلى تربة طىّ(٥) بن شاور فدفنوا بها . وفى تاسع عشره رحل السلطان الملك الناصر من القاهرة، ونزل البئر البيضاء(٦) يريد بلاد الشام، فوصل إلى الشوبك، فواقع الفرنج، وعاد على أيلة، وهلك منه نحو الخمسة آلاف رأس، ما بين جمل وفرس، فى هذه السفرة .

وفيها فُرِّقت الزكوات فى ثالث ربيع الأول على الفقراء والمساكين ، وأبناء السبيل والغارمين، ورفع إلى بيت المال سهم العاملين والمؤلفة وفى سبيل الله وفى الرقاب. وأُخذت

(١) قصور الفاطميين بالقاهرة كثيرة ، ولعل المقصود هو القصر الكبير الذى بدأ بناءه القائد جوهر الصقلى سنة ٩٦٩م. (Lane-Poole : Cairo 126-128).

(٢) أى المحرم سنة ٥٦٧ م . ويقع هذا التاريخ يوم الجمعة بالضبط .

(٣) لعل المقصود هو صبح أخو شاور ، الذى جرح جرحا بليغا مات منه فى تلك الأيام (حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر، ص٢٠٣).

(٤) فى س "وحمل".

(٥) أولاد شاور ثلاثة ، وهم : طىّ وشجاع وسليمان والأول أكبرهم ، وقد قتل سنة ١١٦٣م ، بعد قليل من سفر أبيه شاور إلى الشام ، لاستنجاد نور الدين على ضرغام. (Enc. Isl. Art. Shawar) . قارن هذا بما هو وارد فى حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر، ص٢٩٩ - ٣٠٠) .

(٦) لم يرد هذا الاسم فى معجم البلدان لياقوت ، غير أن "البيضاء" فقط "اسم لأربع قرى بمصر، الأولى من كورة الشرقية" ، والراجح أن هذه القرية هى ما قصد المقريزى هنا (ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٩٣).

الزكاة من البضائع ، وعلى ما اقتدر عليــه من المواشى والنخل والخضراوات ، وقررت السكة باسم المستضىء بأمر الله ، وباسم الملك العــادل نور الدين ، فنُقش اسم كل منهما فى وجه ، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر. وفيه قُلعت المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة التى فيها أسماء الخلفاء الفاطميين ، وكان وزنها خمسة آلاف درهم فضة نُقْرة (١) . وفيه أُنزِل الغز بالقصر الغربى ، وأخرج من كان ساكنا فيه . وَوَرَد الخبر بأن الخمور — بعــد تعطيلها ، وغلق حاناتها وقطع ذِكرها ، بالإسكندرية — أعيدت ببذل مال لديوان نجم الدين أيوب ، ففُتحت مواضعها وظهرت مناكرها (٢) . وفى جمادى الآخرة قُرِّر دينــار الأسطول (٣) بنصف وربع دينار ، بعد أن كان بنصف وثمن دينار . وفى سابعه وُلِد عثمان (٤) الملك العزيز . وفى ثالث عشريه كُشف حاصل القصر بالخزائن الخاصة ، فوجد فيها مائة صندوق كُسوة فاخرة ، ما بين مُوَشَّح ومُرَصَّع ، وعقود ثمينة ، وذخائر فخمة ، وجواهر نفيسة ، وغير ذلك من ذخائر عظيمة . وكان الذى تولى كشفها بهاء الدين قَرَاقُوش (٥) . وفيهــا كثرت عادِيَة الفار فى أكل ثمار النخل والأقصاب والأشجــار ، وانتهى الحال إلى أن أُعْتُصِر من مائة فدان مزروعة قصبا ستون أبلوجا (٦) . ومع هذا بالأسعار (٧)

(١) الفضة النقرة عبارة عن سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر ، بنسبة ثلثين من الفضة وثلث من النحاس الأحمر ، ومنها كانت تضرب الدراهم النقرة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص٤٤٣ ، ٤٦٦ — ٤٦٧) .

(٢) فى س "ففتحت مواضعه وظهرت مناكره" .

(٣) عنى الفاطميون بالأسطول ، وكان قواده فى أيامهم عشرة ومرتباتهــم من ديوان الجيش ، وهــذه تختلف من عشرين دينارا إلى دينارين وعبرتها راجعــة إلى الإقطاعات التى تعرف بأبواب الغزاة ، والتى منها رواتبهم ، ولهذا كان يصل دينارهم — أى دينار الأسطول — بالمناسبة إلى النصف . وقد اعتنى صلاح الدين أيضا بالأسطول ، فأفرد له ديوانا خاصا عرف بديوان الأسطول ، وعين له نواحى عديدة من الخراج ، كما زاد فى إقطاعاته وفى ديناره إلى ما هو مبين بالمتن (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٢ — ٤٨٣ وج ٢ ، ص ١٨٩ — ١٩٧) . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٢ ، ٤٤٠ — ٤٤٣) .

(٤) ثانى أولاد صلاح الدين . انظر أخبار سلطنته فيما يلى .

(٥) فى س ، ب (ص ١٦ ب) "قراغوش" ، وسيصحح إلى الرسم الوارد هنا فى سائر المتن بلا تنبيه . واسمه بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الرومى المــالكى ، وأصله عبــد طواش ، أعتقه أسد الدين شيركوه ، وأصــبح فى أوائل أيام وزارة صــلاح الدين حاجبا ، وقد نيطت به بعد ذلك أعمال هامة كبناء قلعــة الجبل بالقاهرة ، واستمر موضع ثقة صلاح الدين ، وولده عثمان من بعده كما ســيأتى ذكره . (Enc. Isl. Art. Karakūsh)

(٦) فى س ابلوجه ، ويفسره (Dozy: Supp. Dict. Ar.) بأنه (pain de sucre) أى قمع سكر .

(٧) فى س الأسعار .

رخيصة ، (١١٥ أ) والغلة كل ثلاثة أرادب من القمح بدينار ، والشعير كل ثمانية أرادب بدينار ، والفول كل أربعة عشر أردبا بدينار ، والسكر كل قنطار بثلاثة دنانير . وفى تاسع رجب وصلت الخلع التى نُفِّذت إلى نور الدين من الخليفة ببغداد ، وهى فَرَجِيَّة سوداء وطوق من ذهب ، فلبسها نور الدين ، وسيرها إلى الملك الناصر ليلبسها ، وكانت نفذت له خِلعة ذُكر أنه استقصرها واستنزرها واستصغرها دون قدره . فبات الواصل بالخلع برأس الطابية ؛ فلما كان العاشر منه خرج قاضى القضاة صدر الدين بن دَرْبَاس[1] والشهود والمقرئون والخطباء إلى خيمة الواصل بالخلعة ، وهو من الأصحاب النجمية ، وزُيِّنت البلد . وفيه ضُربت نُوَب الطبلخاناه[2] بالباب الناصرى ثلاث مرات فى كل يوم ، وضربت بدمشق خمس مرات كل يوم بالباب النورى . وفى حادى عشره ركب السلطان بالخلع ، وشق بين القصرين والقاهرة ، فلما بلغ باب زويلة نزعها وأعادها إلى داره ، وبرز[3] للعب الكرة . وفيها عمت بلوى الضائقة بأهل مصر ، لأن الذهب والفضة خرجا منها وما رجعا ، وعُدما فلم يوجدا ، ولَهِج الناس بما عمّهم من ذلك ، وصاروا إذا قيل دينار أحمر فكأنما ذكرت حرمة الغيور له ، وإن حصل فى يده فكأنما جاءت بشارة الجنة له . ومقدار ما يُحْدَس أنه خرج

(١) مضبوطة على منطوقها الفرنسى فى (Blochet : Op. cit. p. 105) . (٢) الطبلخاناه — بالهاء — كلمة فارسية معناها هنا فرقة الموسيقى السلطانية ، وكانت العادة أن تدق نوبة فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة السلطان فى الأسفار والحروب . والطبلخاناه أيضا المكان المخصص من حواصل السلطان لطبول الفرقة وأبواقها وتوابعها من الآلات . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٨ — ٩ و ١٣) . وانظر أيضا : (G.-Demombynes: La Syrie, Introd. P.LIV) . وفى هامش الصفحة عبارة تفسيرية لأصل نظام نوبات الطبلخاناه ، وهذا نصها : "أصل ذلك أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه لما عزم على المسير إلى العراق ، وخالف على الخليفة الناصر ، ضرب لنفسه نوبة ذى القرنين تعاظما ، وهى [فى] وقتى الشروق والغروب ، بعد ما كانت تضرب له خمس نوب فى أوقات الصلوات الخمس ، ففوضها لأولاده يضربونها فى الأقاليم التى سماها لهم على أبواب دور سلطنتهم ، فلذلك كان نور الدين يضرب بدمشق النوب الخمس . وأول يوم ضربها خوارزم شاه اختار لضربها سبعة وعشرين ملكا من أكابر الملوك وأولادهم ، وكانت آلات النوبة من الذهب" . (٣) فى س "وبم" ، وهى فى ب (ص ١٧ أ) "ثم لعب" .

من القصر ما بين دينار ودرهم ومصاغ وجوهر ونحاس وطبوس[(١)] وأثاث وقماش وسلاح مالا يفى به مُلك الأكاسرة، ولا تتصوره الخواطر، ولا تشتمل على نيله الممالك، ولا يَقدر على حسابه إلا من يقـدر على حساب الخـلق فى الآخرة . وفيها عرض السلطان العـربان الجذاميين[(٢)] ، وكانت عدتهم سبعة آلاف فارس ، فاستقرت على ألف وثلاثمائة فارس لا غير، وأُخذ بهـذا الحكم عُشر الواجب ، وكان أصـله ألف ألف دينار ؛ وكُلِّف الثعالبة [مثـل] ذلك فامتعضوا، ولوَّحوا بالتحيز إلى الفرنج . وفى ثانى عشرى رجب أقيمت الخطبة فى صلاة الجمعة بمصر والقاهرة، وقد نصبت على المنابر الأعلام السود، ولبس الخطباء ثيابا سودا أُرسل بهـا من بغداد . وجُرِس فى البلد بألا يتأخر أحد عن الجمعة وحضورها، والفريضة وأدائها؛ ومن عُثر عليه (١٥ ب) عومل بالحبس والتقييد واللوم والتفنيد ، لحضر من لا يريد الحضور . وفى ثالث عشريه خُلع على الوفد الشامى خلع مذهبات من بقايا ما أخذ من القصر، وأقيمت ضيافاتهم وأُدِرَّت أنزالاتهم. وفى شعبان وقع بَرَد فى الدقهلية والمُرْتَاحية[(٣)] كأنه الأحجار المدوّرة، فاستهلك الغلات، وأصاب منها واحد رأس ثور فمات من ساعته، وبلغ وزنهـا ما بين رطل كل بَرَدَة إلى رطلين . وفيه سارت الرسل من القـاهرة إلى نور الدين بلبس الخلع، وبتقرير ما أمر به [صلاحَ الدين] من المـال فى كل سنة . وفيه أمر السلطان بصرف أهل الذمة والمنع من استخدامهم فى أمر سلطانى ولا شغل ديوانى، فصُرف جماعة ، ولم ينصرف واحد منهم من كتابة الغز، وأُرجف بإخراجهم من البلد وأخْذ مساكنهم . فلمـا كان الخامس عشر منه صُرفت جمـاعة من وجوه [أهل] الذمة من الأشغال السلطانية ، وبقى بعضهم ، وكتّاب الغز

(١) كذا فى س والصحيح "الطبامى" جمـع "طبسى" وهو الإناء الصـغير . أما الطبوس فهى جمع طبس وهو الذئب . (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى س "الجذاميون" .

(٣) الدقهلية والمرتاحية هما الجزء الشمالى من مديرية الدقهلية الحالية ، وكانا قسمين إداريين إلى عصر المماليك البحرية ، ثم صارا قسما واحدا . وتنسب الدقهلية إلى دقهلة ، التى تقع حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٨١) على أربعة فراسخ جنوبى دمياط . وكان من حدود هذه الكورة أو القسم الإدارى الجديد فى الجنوب بلدة السمبلاوين ، وفى الشمال قرب بلدة شربين . وأما الأراضى الواقعـة على ضفتى فرع دمياط ، فيما يلى هذه الكورة إلى البحر، فكانت تسمى ثغر دمياط (P. Omar Toussoun : La Geog. de L'Egypte... Arabe, T. I. P. 221) .

على خالهم، وامتنعوا من صرفهم بأنهم قد دَربوا أمرهم، ويخشَوْن بإخراجهم ضَياعَ أمورهم . وفى حادى عشريه خرج السلطان إلى الإسكندرية ، وسبب خروجه إليها كثرة رجاله وقلة أمواله بحيث ضاق به التدبير ، فقيل له إن فى بلاد برقة أموالا[1] متسعة ، وليس بها إلا عربان غير مانعة ، فخرج لذلك . وعقد بالإسكندرية مشورا ، حضره [أبوه] نجم الدين أيوب وشهاب الدين [الحارمى] وتقى الدين[2] [عمر] ، بسبب المسير إلى بلاد الغرب، ومبادرة زرعها قبل حصاده . وكوتب مَن بمصر والقاهرة من الجند بالحضور، وتجهيز الأسواق من السَّقَطيين[3] والبياطرة وغيرهم ،وكوتب العربان بطلب الزَّكَوات والإنكار عليهم فى قطع الطريق على الجلّابين . واتضح أنه عُدم فى هذه السنة مائة ألف رأس من الغنم . واستقر الرأى على أن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن [نجم الدين] أيوب يتوجه بعسكره ومعه خمسمائة فارس أُخَر ، وتقررت حوالتهم فى النفقة عليهم على [كورة] البحيرة . وفى ذى القعدة كثرت المناسر[4]، وهجموا [على] الدروب بالسلاح والشموع، وحاربوا الناس، وأخذوا المنازل، وأحرقوا الدور بمصر . وفى ذى الحجة وصل رسول متملك الحبشة بهدية وكتاب إلى [الخليفة] العاضد، فقرئ كتابه وأخذت هديته . ووصل عسكر ملك النوبة إلى القرى المتاخمة لثغر أُسوان . وفيها ابتدأت الوحشة والنفرة بين الملك العادل (١١٦ ا) نور الدين محمود وبين السلطان صلاح الدين يوسف : وذلك لأن
١٠٥ ا نور الدين بعث إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية، والمسير بها إلى بلاد الفرنج ومحاصرة الكرك، ليجتمع هو وإياه على ذلك . فبرز [صلاح الدين] وكتب إلى نور الدين بذلك ، فخوفه أصحابه من الاجتماع بنور الدين . وكان نور الدين قد جمع عساكره، وأقام ينتظر الخبر، فلما أتاه الخبر بأنه قد برز رحل عن دمشق، ونازل الكرك وهو ينتظر قدوم صلاح الدين؛ فأتاه كتابه يعتذر عن الوصول باختلال بلاد مصر والخوف عليها، ويعلمه أنه عاد إلى القاهرة؛

(١) فى س اموال . (٢) شهاب الدين خال صلاح الدين ، وتقى الدين هو عمر بن شاهنشاه ، أى ابن أخى صلاح الدين (انظر ما يلى) . (٣) الغالب أن المؤلف يقصد بهذا الاسم صغار الباعة عموما . على أنه يحتمل أيضا أنه أراد باعة السقط والكروش . انظر (Dozy. Supp. Dict. Ar.) و (Blochet: Op. cit. p. 108) .

(٤) المنسر بفتح الميم وكسرها شرذمة من العسكر . (محيط المحيط) .

فعظم ذلك على نور الدين ، وعزم على دخول مصر وقلْع[1] صلاح الدين منها . فبلغ ذلك صلاح الدين، فخاف وجمع أهله وخواصه واستشارهم، فقال تقى الدين عمر ابن أخيه : — "إذا جاء قابلناه كلنا ، وصددناه عن البلاد"، ووافقه جماعة من أهله على ذلك . فسبَّهم نجم الدين أيوب، وأنكر عليهم ، وكان ذا رأى ومكر، وقال لابن ابنه تقى الدين : "اقعد"، وسبَّه . والتفت إلى ولده السلطان صلاح الدين وقال : " أنا أبوك، وهذا شهاب الدين الحارمى خالك ! أتظن فى هؤلاء من يحبك ويريد لك الخير أكثر منا؟" قال : "لا" . فقال [نجم الدين] : " والله لو رأيتُ أنا وخالك هـذا السلطانَ نورَ الدين لم يمكّنّا إلا أن نترجل له ، ونقبـل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك بالسيف لفعلنا . فإذا كنا نحن هكذا فكيف يكون غيرنا؟ وكل من تراه من الأمراء والعساكر، لو رأى السلطان نورَ الدين وحده لم يتجاسر على الثبات فى سرجه، وما يسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه . وهذه البلاد له ، وقد أقامك فيها نائبا عنه، فإن أراد عزلك فأى حاجة إلى المجئ؟ يأمرك بكتاب مع نجَّاب حتى تقصد خدمته، ويولى البلاد من يريد" . وقال للجماعة كلهم : "قوموا عنا، فنحن مماليك السلطان نور الدين وعبيده، يفعل بنا ما يريد " . فتفرقوا على هذا ، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بهـذا الخبر . ثم إن نجم الدين خلا بابنه صلاح الدين وقال له : " أنت جاهل قليل المعرفة ، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما فى نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد، جعلك أهم أموره وأولاها بالقصـد، ولو قصدك لم تر معك أحدا من هـذا العسكر، وأسلموك إليـه . وأما بعد هذا المجلس فإنهم سيكتبون إليه بقولى، فاكتب أنت إليه أيضـا فى المعنى (١٦ ب) وقل له : "أى حاجة إلى قصدى ؟ نجاب يجئ فيأخذنى بحبل يضعه فى عنق، فإنه إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بمـا هو أهم عنده، والأيام تندرج، والله عز وجل كل يوم هو فى شأن " . ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه ، فانخدع نور الدين وعدل عن قصده، واندرجت الأيام كما قال نجم الدين، ومات نور الدين .

(١) كذا فى س بغير ضبط .

وفيها اتخذ نور الدين محمود بالشام [الحَمَام الهَوَادى لنقل البطائق] [١] . وفيها ولى أمير الينبع خطابة الجامع العتيق، بعد موت الشريف تاج الشرف [٢] حسن بن أبى الفتوح ناصر فى المحرم .

* * *

سنة ثمان وستين وخمسمائة . فيها خرج السلطان صلاح الدين بعساكره يريد بلاد الكرك والشوبك : فإنه كان كلما بلغه عن قافلة أنها خرجت من الشام تريد مصر خرج إليها ليحميها من الفرنج، فأراد التوسيع فى الطريق وتسهيلها . وسار إليها وحاصرها ، فلم ينل منها قصدا وعاد . وفيها جهز [صلاح الدين] الهدية إلى السلطان نور الدين، وفيها من الأمتعة والآلات الفضية والذهبية والبَلُّور واليَشْم [٣] أشياء يعز وجود مثلها ، ومن الجواهر واللآلئ شيء [٤] عظيم القدر، ومن العين ستون [٥] ألف دينار ، وكثير [٦] من الغرائب المستحسنة ، وفيل وحمار عتّابى [٧] ، وثلاث قطع بَلَخْش [٨] فيها ما وزنه نيف وثلاثون مثقالا ، وكان ذلك فى شوال . وفيها خرج العبيد من بلاد النوبة لحصار أسوان ، وبها كَنز الدولة [٩] ، فجهز السلطان الشجاع البعلبكى فى عسكر كبير فسار إلى أسوان، وقد رحل العبيد عنها، فتبعهم ومعه كنز الدولة، وواقعهم وقتل منهم كثيرا، وعاد إلى القاهرة . وفيها سار الملك المعظم شمس الدولة فخر الدين تورانشاه بن أيوب، أخو [١٠] السلطان صلاح الدين، إلى بلاد النوبة، وفتح قلعة إبرِيم [١١] وسبى وغنم، وعاد إلى أسوان؛

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٤٦) لتعذر قراءته فى س ، بسبب وروده بهامش بين ملتصق الصفحتين ١٦ ب ، ١٧ أ .

(٢) فى س السرف . (٣) حجر ثمين قريب من الزبرجد (Blochet : Op. Cit. P.116)

(٤) فى س شيا . (٥) فى س ستين . (٦) فى س كثيرا . (٧) الغالب أن المؤلف يقصد نوعا من حمير الوحش ، لأن كلمة " عتابى " تطلق على صنف من قماش خشن مخطط بحمرة وصفرة ، وفراء حمار الوحش مخطط أيضا (عتابي .Dozy: Supp. Dict. Ar) . (٨) نوع من الياقوت ، والعامة تميزه من غيره بهذا الاسم ، غير أن التسمية الصحيحة هى " الياقوت البدخشى " نسبة إلى جهات بدخشان فى أقصى شرق أفغانستان (Quatremére: Maml. II. I. P. 71) وكذلك (Blochet: Op. cit. P. I10) .

(٩) اسمه أيضا " الكنز " فقط ، وهو مصرى من الصعيد ، انتزع إلى أسوان لما شرّد صلاح الدين الجنود السودانية الفاطمية بعد كشف مؤامرة الطواشى مؤتمن الخلافة . وقد جمع الكنز إليه بقايا تلك الجنود ، وحاول معهم إعادة الدولة الفاطمية (ابن شداد النوادر السلطانية ، ص ٥٦ فى .Rec. Hist. Or. Vol. III) .

(١٠) فى س " اخى " . (١١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. P. 111) .

وأقطع إبريم رجلا يعرف بإبراهيم الكردى، فسار إليهـا فى عدّة من الأكراد، وانبثوا يشنون الغارات على بلاد النوبة، حتى امتلأت أيديهم بالأموال والمواشى بعـد فقر وجهد. فوافى كتاب ملك النوبة إلى شمس الدولة وهو بقوص مع هدية، فأكرم رسوله وخلع عليه، وأعطاه زوجين من نشاب، وقال له: "قل للملك مالَكَ عنـدى جواب إلا هـذا". وجهز معه رسولا ليكشف له خبر البلاد، فسار إلى دُمقلة[1] وعاد إليه، فقال: "وجدت بلادا ضيقة، ليس بها من الزرع سوى الذرة ونخل صغير منه أدامهم؛ ويخرج الملك وهو عريان على فرس عُرْى، وقد التف فى ثوب أطلس، وليس على رأسه شعر. فلما قدمت عليه وسلمت ضحك وتغاشى، وأمر بى فكُوِيت على يدى هيئة صليب، وأنعم علىّ بنحو خمسين رطلا من دقيق. وليس فى دمقلة[2] (١٧ أ) عمارة سوى دار الملك، وباقيها أخصاص". وفيها عظم همّ [السلطان] نور الدين بأمر مصر، وأَخَذَه من استيلاء صلاح الدين عليهـا المقيمُ المقعد، وأكثر من مراسلته بحمل الأموال، ثم بعث بوزيره الصاحب موفق الدين خالد بن محمد بن نصر بن صغير[3] القيسرانى إلى مصر، لعمل حساب البلاد، وكشف أحوالها، وتقرير القطيعة على صلاح الدين فى كل سـنة، واختبار طاعته؛ فقدم إلى القاهرة وكان من أمره ما يأتى ذكره إن شاء الله.

وفيهـا مات أيوب بن شادى بن مروان بن يعقوب نجم الدين الملقب بالملك الأفضـل أبى سـعيد الكردى، والد السلطان صلاح الدين يوسف. وذلك أنه خرج من باب النصر بالقاهرة، فألقـاه الفرس إلى الأرض يوم الثـلاثاء ثامن عشر ذى الحجـة، فحمل إلى داره فى تاسع عشره وقيل لثلاث بقين منه، فقُبر عند أخيه أسد الدين شيركوه، ثم نقلا إلى المدينة النبوية فى سنة ثمانين وخمسمائة.

---

(١) كذا فى س دائما، وهى أيضا صحيحة بالنون بدل الميم (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٩٩ و ٦١١).

(٢) بين الصفحتين ١٦ ب و ١٧ أ هامش على ورقة منفصلة. وقد لصق هنالك خطأ، وموضعه المناسب حيث حوادث سنة ٥٧٥، فلينظر هناك.

(٣) فى س "صغير"، وقد صححت على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. P. 1I2).

* * *

سنة تسع وستين وخمسمائة . فيها وصل إلى القاهرة موفق الدين أبو البقاء خالد ابن محمد بن نصر بن صغير المعروف بابن القيسرانى من عند السلطان الملك العادل نور الدين، مطالبًا لصلاح الدين بالحساب عن جميع ما أُخذ من قصور الخلفاء وحصّل من الارتفاع (١) . فشق ذلك عليه وقال : " إلى هذا الحد وصلنا ؟ " وأوقفه على ما تحصل له ، وعرض عليه الأجناد، وعرفه مبالغ إقطاعاتهم وجامكياتهم (٢)، ورواتب نفقاتهم . ثم قال : " وما يُضبط هذا الإقليم العظيم إلا بالمال الكبير، وأنت تعرف أكابر الدولة وعظماءها، وأنهم معتادون بالنعمة والسعة ، وقد تصرفوا فى أماكن لا يمكن انتزاعها منهم ، ولا يسمحون بأن ينقص من ارتفاعها "، وأخذ يجمع المال . وفيها سار الأمير شمس الدولة تورا نشاه ، أخو السلطان صلاح الدين، إلى اليمن : وذلك لشدّة خوف صلاح الدين وأهله من الملك العادل نور الدين أن يدخل إلى مصر وينتزعهم منها، فأحبوا أن يكون لهم مملكة يصيرون إليها. وكان اختيارهم قد وقع على النوبة ، فلما سار إليها لم تعجبه وعاد . وكان الفقيه عُمارة اليمانى قد انقطع إلى الأمير شمس الدولة ، ومدحه واختص به، وحدثه عن بلاد اليمن وكثرة الأموال بها، وهون أمرها عنده، وأغراه بأن يستبد بملك اليمن، وتعرض لذلك فى كلمته التى أولها (٣) :

العِلْم مذ كان محتاج إلى العَلَم * وشفرة السيف تستغنى عن القَلم

ومنها : —

فَاخْلُق لنفسك ملكا لا تُضاف به * إلى سواك وأَوْرِ النار فى العَلم
هذا ابن تومرت قد كانت بدايته * ، كما يقول الورى ، لحما على وضم

(١) الارتفاع ما يحصل من الدواوين عامة . راجع الفهرس .

(٢) الجامكيات الرواتب عامة (Dozy: Supp. Dict. Ar.) وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧) أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن " جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك " .

(٣) كثير من أبيات هذه القصيدة وارد فى ترجمة عمارة اليمنى وقد قوبل الوارد هنا عليها . انظر (Derenbourg: Oumara du Yemen, T. 1. PP. 352—355, T. 2. PP. 619—620)

(١٧ ب) وكان شمس الدولة مع ذلك جوادا كثير الإنفاق، فلم يقنع بمـا له من الإقطاع بمصر، وأحب التوسع . فاستأذن صلاح الدين فى المسـير، فأذن له واسـتعد لذلك، وجمع وحشد، وسار مستهل رجب . فوصل إلى مكة فَزَارَ، ثم خرج منها يريد اليمن، وبها يومئذ أبو الحسن على بن مهـدى ، ويقال له عبـد النبى . فاستولى على زَبيـد فى سابع شوّال ، وقبض على عبد النبى ، وأخذ ما سواها من مـدائن اليمن، وتلقب بالملك المعظم، وخُطب له بذلك بعد الخليفة المسـتضئ بأمر الله فى جميع ما فتحه، وبعث إلى القاهرة بذلك . فسـير السلطان صلاح الدين إلى الملك العادل يعلمه بذلك، فبعث بالخبر إلى الخليفة المستضئ ببغداد .[(١)]

وفى سادس شعبان قُبض على أولاد العاضد وأقاربه، وأخرجوا من القصر إلى دار المظفر بحارة بَرْجَوَان، فى العشر الأخير من رمضان .

وفيهـا اجتمع طائفة من أهل القاهرة على إقامة رجل من أولاد العاضـد، وأن يفتكوا بصـلاح الدين، وكاتبوا الفرنج[(٢)] : منهم القـاضى المفضل ضـياء الدين نصر الله بن عبد الله ابن كامل القـاضى ، والشريف الجليس، ونجاح الحـامى، والفقيه عمارة بن على اليمـانى ، وعبد الصمد الكاتب، والقاضى الأعز سـلامة العَوْرِيس[(٣)] متولى ديوان النظـر[(٤)] ثم القضاء ، وداعى الدعاة عبـد الجبار بن إسماعيل بن عبـد القوى ، والواعظ زين الدين بن نجا، فوشَى [ابن[(٥)] نجا] بخبرهم إلى السـلطان، وسأله فى أن ينعم عليه بجميع ما لابن كامل الداعى من الدور

(١) قبالة هذه العبارة كلمة "انظر" بالهامش . (٢) قصة هذه المؤامرة منشورة بنصها فى كتاب تاريخ عمارة اليمنى تحت عنوان "نبـذة من كتاب السلوك..." (Derenbourg: Oumara, T. II. PP. 650—652) . وقد قوبل ما هنا عليها . (٣) بغير ضبط فى س . (٤) تقاصر منصب الوزارة بمصر منذ عصر الأيوبيين، وشارك الوزير فى أعماله وتصريفها النظار ، وتنوعت ألقاب هؤلاء بحسب الأعمال التى آلت إليهم : فناظر الجيش هو الذى يتحدث فى أموال الجيوش وينظر فى حسابها ؛ وناظر الخـاص هو الذى ينظر فى خاص أموال السلطان ؛ وناظر الدولة وعمله مشاركة الوزير فى التصرف عامة ، والنظر فى المـالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . واسمه أيضا ناظر الدواوين ، وأحيانا ناظر النظار أو الصاحب الشريف ، ومقره ديوان النظر . ويعاونه فى أعماله متولى الديوان ، وهو ثانى رتبة الناظر . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦ ، (G. — Demombynes: Op. cit. P. LXVIII) . (٥) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ج ١١ ، ص ٢٦٢ — ٢٦٤) .

والموجود كله ، فأجيب إلى ذلك ، فأحيط بهم وشنقوا فى يوم السبت ثانى شهر رمضان بين القصرين : فشُنق عمـارة وصلب فيما بين بابى الذهب و باب البحر ؛ وابن كامل فى رأس الخُرُوقيين التى تعرف اليوم بسوق أميرالجيوش ؛ والعوريس على درب السلسلة ؛ وعبدالصمد وابن سـلامة وابن المُظَّى[1] الأمير ومصطنع الدولة والحاج ابن عبـد القوى بالقاهرة ؛ وشنق ابن كامل القاضى بالقـاهـرة يوم الأربعاء تاسع عشر شوّال ؛ وشـنق أيضا شُبرُمَا[2] وأصحـابه وجماعة من الأجناد والعبيـد والحاشية وبعض أمراء صلاح الدين . وقبض [صلاح الدين] سائر ما وجد عنهـم من مال وعقار ، ولم يمكِّن ورثتهـم من شىء البتـة ؛ وتتبع من له هوى فى الدولة الفاطمية ، فقتل منهـم كثيرا وأسر كثيرا ؛ ونودى بأن يرحل كافة الأجناد وحاشـية القصر وراجلُ السودان[3] إلى أقصى بلاد الصـعيد . وقُبض على رجل يقـال له قديد بالإسكندرية ، من دعاة الفاطميين ، يوم الأحد خامس عشرى رمضـان ، وقُبض على كثير من السودان ، وكووا بالنار فى وجوههم وصدورهم[4] .

وفيهـا جهز السلطان مع الوزير ابن القيسرانى ماتحصل عنـده من المـال ، وأصحبه هدية لنور الدين : وهى خمس خَتْمات إحداها فى ثلاثين جزءا ، مغشاة بأطلس أزرق ومُضَبَّبَة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال من ذهب مكتوبة بخـط ذهب ؛ وأخرى فى عشرة أجزاء مغشاة بديباج فُسْتُقى ؛ وأخرى فى جلد بخط ابن البوّاب بقفل ذهب وثلاثة أحجار بَلَخْش ، منها حجر زنتـه اثنـان وعشرون مثقالا ، وحجر وزنه اثنـا عشر مثقالا ، وآخر عشرة مثاقيل ونصف ؛ وست قصبات زمرد إحداها[5] وزنها ثلاثة مثاقيل ، وحجر ياقوت أحمر ، وزنه سبعة مثاقيل ، وحجر ياقوت أزرق وزنه ستة مثاقيل ، ومائة عقد جوهر زنتهـا ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ، وخمسون قارورة دهن بلسان ، وعشرون قطعة (١٨ ا) بلور ، وأربع عشرة قطعة جَزْع مابين

(١) فى س المطى بغير ضبط . (٢) فى س شرما بشين منقوطة فقط ، وبغير ضبط .

(٣) فى س قديم . (٤) هنا تنتهى الفقرة المنشورة بكتاب تاريخ عمارة اليمنى (انظر ص ٥٣ حاشية ٤) .

(٥) فى س احدها .

زبادى وسَكارج[1]، وإبريق يشم[2] وطشت يشم، وسقرق[3] مينا مُذَهَّب، بعروة فيها حبتا لؤلؤ وفى الوسط فص ياقوت أزرق، وصحون وزبادى وسكارج من صينى عدتها أربعون قطعة، وعود قطعتين كبارا، وعنبر منه قطعة زنتها ثلاثون رطلا، وأخرى عشرون رطلا، ومائة ثوب أطلس، وأربعة وعشرون بَقْيارا[4] مذهبا، وأربعة وعشرون ثوبا وَشْيًا[5] حريرية بيضاء، وحلة فلفلى مذهب، وحلة مرايش[6] أصفر مذهب، وحلة مرايش أزرق بذهب، وحلة مرايش بقصب أحمر وأبيض، وحلة فستقى بقصب مذهبة، وقماش كثير[7]، قدر قيمتها بمائتى ألف دينار وخمسة وعشرين ألف دينار. وساروا بذلك، فبلغهم موت نور الدين، فأعيدت وهلك بعضها.

وفيها مات السلطان العادل نور الدين محمود بن زنكى، فى يوم الأربعاء حادى عشر شوّال، بعلة الخوانيق[8]، وكان قد تجهز لأخذ مصر من صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد خُطب له بالشام ومصر والحرمين واليمن. وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل، وعمره إحدى عشرة سنة، فخَطَب له السلطانُ صلاحُ الدين بمصر، وضرب السِّكةَ باسمه. وفيها نزل أسطول الفرنج بصقلية على ثغر الإسكندرية، لأربع بقين من ذى الحجة بغتةً[9]، وكان الذى جهز هذا الأسطول

(١) سكارج جمع سكرجة وهى الصحفة، وزبادى جمع زبدية وهى وعاء الشراب. أما الجزع فهو الخرز اليمانى، فيه سواد وبياض، وإنما المقصود هنا الآنية المصنوعة من الصينى المجزع، أى الذى فيه سواد وبياض، أو ذى الألوان المختلفة. (محيط المحيط و Dozy: Supp. Dict. Ar.). (٢) انظر ص ٥ حاشية ٣. (٣) كذا فى س بغير ضبط، وهى مترجمة مع التشكك إلى (Shakrâk) فى (Blochet : Op. cit. p. 116). على أنه يوجد نوع من النبيذ الحبشى اسمه سقرقه (Lane : Lexicon)، وربما كان المقصود هنا الوعاء الخاص بهذا الشراب. (٤) كلمة فارسية معناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل (Johnson : Dict.)، ومعناها أيضا فى (Dozy: Op. cit.) نوع من العمائم الكبار، كالتى يلبسها الوزراء وأصحاب القلم. (٥) فى س "وشى حريريه بيض". (٦) فى س "مرائش". (٧) فى ش "قماشا كثيرا". (٨) هى المرض المسمى بالذبحة، (Dozy: Supp. Dict. Ar.)، ومن أنواعه الذبحة الصدرية (Angina Pectoris). انظر (Price: Holbyn's Dict. of Med. Terms). (٩) كانت هذه الحملة البحرية ذيلا للؤامرة الثورية التى اتهم بتدبيرها الشاعر عمارة اليمنى. وقد تقدّم أن المتآمرين كاتبوا الفرنج (انظر ص ٥٣) ومن هؤلاء وليام الثانى (William II) النورماندى ملك صقلية. وهو ابن وليام الأول، وجده روجر الأول (Roger I) مؤسس مملكة النورمانديين فى صقلية منذ سنة ١١٠٣ م. بعد التغلب على دولة المسلمين بها بقليل (Camb. Med. Hist. Vol. V. pp. 184 - 207). أما عن هذه الحملة التى وصلت مراكبها إلى الاسكندرية بعد فشل المؤامرة، فالسبب فى ذلك أن ملك صقلية لم يعلم بما حاق بالمتآمرين بالقاهرة، فبعث مراكبه إلى الإسكندرية حسب الاتفاق المبيت معهم. (Lane - Poole : Saladin. p. 127)

غليالم بن غليالم بن رجّار(١) متملك صقلية ، ولى ملك صقلية بعد أبيه فى سنة ستين وخمسمائة وهو صغير، فكفلته أمه ، وتولى التدبير خادم اسمه باتر مدّة(٢) سنة، ثم فر إلى السيد أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن [صاحب البلاد(٣) المغربية] . ثم استبد غليالم بتدبير ملكه ،واحتفل فى سنة إحدى وسبعين بعمارة [هذا] الأسطول، فاجتمع له مالم يجتمع لجده رجار ، وحمل فى الطرائد(٤) ألف فارس، وقدّم على الأسطول رجلا من دولته يسمى أكيم موذقة(٥)، وقصد الإسكندرية ، ومات غليالم فى سنة إحدى وثمانين وخمسمائة . ولما أرسى هذا الأسطول على البر، أنزلوا من طرائدهم ألفا وخمسمائة فرس ،وكانت عدتهم ثلاثين ألف مقاتل، ما بين فارس وراجل، وعدّة طرائدهم ستا وثلاثين طريدة تحمل(٦) الخيل، ومائتى شينى(٧) فى كل شينى مائة وخمسون رجلا، وعدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار ست سفن ، والتى تحمل الأزواد والرجال أربعين مركبا، فكانوا نحو الخمسين ألف راجل . ونزلوا على البر مما يلى المنارة، وحملوا على المسلمين حتى أوصلوهم إلى السور، وقُتل من المسلمين سبعة . وزحفت مراكب الفرنج إلى الميناء، وكان بها مراكب المسلمين فغرقوا منها ،وغلبوا على البر وخيموا به، فأصبح لهم على البر ثلاثمائة خيمة . وزحفوا لحصار البلد ، ونصبوا ثلاث دبّابات(٨) بكباشها ، وثلاثة مجانيق

(١) كذا فى س، وبغير ضبط . انظر الحاشية السابقة . (٢) كذا فى س، وبغير ضبط . والاسم الصحيح هو . (Stephen of Perch) ولم يكن خادما، بل هو ابن عم الملكة مارجريت (Margaret) أم الملك وليام الثانى (Camb. Med. Hist. Vol. V. P. 197) . (٣) ما بين القوسين من أبى شامة (كتاب الروضتين فى .Rec. Hist. Or. Vol. IV. P.164) . (٤) جمع طزاد أو طرادة ، وهى نوع من المراكب الحربية ، أكثرشبها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكانت تستعمل غالبا فى حمل الخيول والفرسان : Dozy) Supp. Dict. Ar.) وانظر أيضا المرجع والصفحة المذكورين فى الحاشية السابقة . (٥) كذا فى س ، وبغير ضبط . وهو مترجم إلى (Akim - Moudhaka) فى (Blochet : Op. cit. p. 117) مع عدم اهتداء المترجم إلى شخصية صاحب الاسم . هذا وليس بين أسماء مجلس الملك و يليام الثانى من يشابه اسمه الرسم الوارد هنا . انظر (Camb. Med. Hist. Vol. V. p. 197) .

(٦) كذا فى س . (٧) سفينة حربية كبيرة ، يقابلها فى الفرنسية (Galère)، ومثلها الشينية ، والجمع شون وشوانى (Dozy: Supp. Dict. Ar.) . (٨) الدبابات جمع دبابة ، وكانت عبارة عن شبه برج متحرك، له أحيانا أربعة أدوار، أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص (Plomb)، وثالثها من الحديد، ورابعها من النحاس الأصفر. ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار. أما لفظ الكباش ، فمفرده كبش ، ويجمع على كبوش وأكبش ، وهو آلة متصلة بالدبابة، لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهدمها (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

كبارا تضرب بحجارة سود عظيمة . وكان السلطان على فَاقُوس ، فبلغه الخبر ثالثَ يوم نزول الفرنج ، فشرع فى تجهيز العساكر ، والقتال والرمى بالمجانيق[(١)] مستمر . فوصلت العساكر ، وفتحت الأبواب ، وهاجم المسلمون الفرنج ، وحرقوا الدبابات ، وأيدهم الله بنصره ، واستمر القتال يوم الأربعاء إلى العصر ، وهو الرابع من نزول الفرنج . ثم حملوا حملة ثانية عند اختلاط الظلام على الخيام ، فتسلموها بما فيها ، وقتلوا من الرجّالة عددا كثيرا ومن الفرسان . فاقتحم المسلمون البحر ، وأخذوا عدّة مراكب خسفوها فغرقت ، (١٨ ب) وولت بقية المراكب مُنْهَزِمةً ، وقتل كثير من الفرنج ، وغنم المسلمون من الآلات والأمتعة والأسلحة مالا يقدر على مثله إلا بعناء ، وأقلع باقى الفرنج مستهل سنة سبعين .

وفيها ، أعنى سنة تسع وستين [وخمسمائة] ، وقف السلطان صلاح الدين ناحية نَقَادَة من عمل قوص بناحية الصعيد الأعلى ، وثلثَ ناحية سَنْدَبِيسَ من القليوبية ، على أربعة وعشرين خادما لخدمة الضريح الشريف النبوى ، وضمن ذلك كتابا ثابتا تاريخه ثامن عشرى شهر ربيع الآخر منها ، فاستمر ذلك إلى اليوم . وكان قاع النيل ستة[(٢)] أذرع وعشرين أصبعا ، وبلغ سبعة عشر[(٣)] ذراعا وعشرين أصبعا .

* * *

[سنة سبعين وخمسمائة][(٤)] . وفيها جمع كنز الدولة[(٥)] والى أسوان العرب والسودان ، وقصد القاهرة يريد إعادة الدولة الفاطمية ، وأنفق فى جموعه أموالا جزيلة ، وانضم إليه جماعة ممن يهوى هواهم ، فقتل عدّة من أمراء صلاح الدين . وخرج فى قرية طود رجل يعرف بعباس ابن شادى ، وأخذ بلاد قوص ، وانتهب أموالها . فجهز السلطان صلاح الدين أخاه الملك

(١) فى س "بالمناجنيق" . (٢) فى س ست . (٣) فى س سبع عشرة .

(٤) ليس لعنوان هذه السنة وجود فى س ، ولعل السبب أن المقريزى اكتفى بكلمة "فيها" ، على أن تعود هاؤها إلى عبارة "سنة سبعين" الواردة بالسطر الثامن من هذه الصفحة . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٧٣) حيث يرد ذكر هذه الحادثة أول سنة سبعين . (٥) العبارة الآتية واردة بالهامش : "كنز الدولة هذا يرجع نسبه إلى مسروق بن معدى كرب (كذا) بن الحارث بن مسلمة بن عبيد بن ثعلبة بن يربوع بن ثعلبة بن الدؤل ، واسمه كنز الدولة" . ويلاحظ أن بعض هذه الأسماء مضبوط فى س .

العادل فى جيش كثيف ، ومعه الخطير مهذب بن مَمَّاتى[(١)] ، فسار وأوقع بشادى و بدّد جموعه وقتله ، ثم سار فلقيه كنز الدولة بناحية طود ، وكانت بينهما حروب فرّ منها كنز الدولة ، بعد ما قُتل أكثر عسكره ، ثم قُتل [كنز الدولة] فى سابع صفر ، وقدم العادل إلى القاهرة فى ثامن عشريه .

وفيها ورد الخبر على السلطان بسير الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن نور الدين إلى حلب ، ومصالحته للسلطان سيف الدين غازى صاحب الموصل ، فأهمّه وخرج يريد المسير إلى الشام . فنزل ببركة الجُب[(٢)] أول صفر ، وسار منها فى ثالث عشر ربيع الأول ، على صدر[(٣)] وأيْلَة ، فى سبعمائة فارس ؛ واستخلف على ديار مصر أخاه الملك العادل . ونزل بُصْرَى وخرج منها ، فنزل الكُسوة يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول ، وخرج الناس إلى لقائه ؛ فدخل إلى دمشق يوم الإثنين أول شهر ربيع الآخر ، وملكها من غير مدافع . وأنفق فى الناس مالا جزيلا ، وأمر فنودى بإطابة النفوس و إزالة المكوس ، و إبطال ما أُحدث بعد نور الدين محمود من القبائح والمنكرات والضرائب ، وأظهر أنه إنما جاء لتربية الصالح بن نور الدين ، وأنه ينوب عنه و يدبر دولته ، وكاتب الأطراف بذلك . وتسلم قلعة دمشق بعد امتناع ، فأنزل بها أخاه ظهير الإسلام طغتكين بن أيوب ، وبعث بالبشارة إلى القاهرة ؛ وخرج مستهل جمادى الأولى ، فنازل حمص حتى تسلمها فى حادى عشره ، وامتنعت عليه قلعتها ، فأقام على حصارها طائفة ، وسار إلى حماة فنزل عليها فى ثالث عشريه ، وبها عز الدين جُرْديك[(٤)] ، فسلمها إليه .

(١) لعله ابن مماتى صاحب كتاب قوانين الدولة (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٦) . وقد اخطأ كاتب نسخة ب (ص ٢١ أ) قراءة هذا الاسم فقال : ومعه الخطيب مهذب بماتى فارس .

(٢) متنزه بظاهر القاهرة من بحريها ، وكان صلاح الدين يبرز إليها للصيد ، و يقيم فيها الأيام ، وفعل ذلك الملوك قبله و بعده . وقد تغير اسمها زمن المقريزى — أى فى القرن الثامن الهجرى — إلى بركة الحاج ، لنزول الحجاج بها عند مسيرهم من القاهرة و إليها موسم الحج (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٨٩) .

(٣) قلعة خراب بين القاهرة وأيلة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٧٥) .

(٤) تصح كتابة هذا الاسم "جورديك" أيضا ، انظر (Rec. Hist. Or. Vol. III. Index.) . وأصل جورديك من مماليك السلطان نور الدين ، ولقبه النورى . وكان ممن رافقوا أسد الدين شيركوه إلى مصر ، وهو الذى اشترك مع صلاح الدين فى الفتك بالوزير شاور (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٤) . أما عن تفصيل موقفه بازاء مجىء صلاح الدين إلى الشام ، فانظر نفس المرجع والجزء ص ٢٧٦ ، وستأتى بقية أخباره فيما يلى .

وفى جمادى الأولى ولى ابنُ عصرون القضاء بديار مصر. وسار [صلاح الدين] إلى حلب، و بعث إلى الصالح [إسمعيل] فى الصلح مع جرديك، فأبى أصحابه ذلك، وقبضوا على جرديك وقيدوه، فبلغ ذلك صلاح الدين، وقد سار عن حماة يريد حلب، فعاد إليها. ثم سار منها إلى حلب، ونزل جبل جَوْشن (١) ثالث جمادى الآخرة، واستعدّ أهل حلب وخرجوا لقتاله، وقاتلوه قتالا شديدا إلى أول رجب. فرحل (١٩ ا) صلاح الدين يريد حمص، وقد بلغه مسير القومص (٢) ملك الفرنج بطرابلس، بمكاتبة أهل حلب، وأنه منازل لحمص. فلما قرب من حمص عاد القومص إلى بلاده، فنازل صلاح الدين قلعتها، ونصب المجانيق عليها إلى أن تسلمها بالأمان، فى حادى عشرى شعبان؛ وسار إلى بعلبك، فحصرها حتى تسلم قلعتها فى رابع رمضان، وعاد إلى حمص. وكانت بينه و بين أصحاب الصالح وقعة على قُرُون حماة، فى يوم الأحد تاسع عشره، انتصر فيها صلاح الدين، وهزمهم وغنم كل ما معهم، ولم يقتل فيها أكثر من سبع (٣) أنفس؛ وسار حتى نزل على حلب، وقطع الخطبة للصالح، وأزال اسمه عن السكّة فى بلاده، فبعث أهل [الصالح] إليه يلتمسون منه الصلح، فأجاب إليه على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام، ولهم ما بأيديهم منها، واستزاد منهم المعرة وكَفْر طَاب (٤)، وكُتبت نسخة يمين وعليها خط صلاح الدين، بعد ما حلف وعاد إلى حماة.

[وكان صلاح الدين] قد كتب إلى بغداد يعدد فتوحاته وجهاده للفرنج، وإعادته الخطبة العباسية بمصر، واستيلاءه على بلاد كثيرة من أطراف المغرب وعلى بلاد اليمن كلها، وأنه قدم

---

(١) فى س "حبل حوشن" بغير ضبط. انظر ياقوت (معجم البلدان ج ٢، ص ١٥٥).

(٢) كذا فى س بغير ضبط، والقومس تعريب حرفى للكلمة اللاتينية (Comes) التى صارت إلى (Comte) فى اللغة الفرنسية. أما الشخص المقصود هنا، فهو الكونت ريمون الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية، ولقبه الصنجيل فى بعض المراجع الإسلامية (Le comte Raymond descendant... de Saint-Agilles, Prince de Tripoli.) راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٧٧، وكذلك نفس المرجع فى (Rec. Hist. Or. Vol. I. p. 619).

(٣) فى س سبعه.

(٤) بغير ضبط فى س، وهى بلدة بين المعرة ومدينة حلب (ياقوت: معجمة البلدان. ج ٤، ص ٢٨٩).

إليه فى هذه السنة وفد سبعين راكبا ، كلهم يطلب لسلطان بلده تقليدا . وطلب [صلاح الدين] من الخليفة تقليد مصر واليمن والمغرب والشام، وكل ما يفتحه بسيفه[١] . فوافته بحماة[٢] رسل الخليفة المستضيء بأمر الله، بالتشريف والأعلام السود، وتوقيع بسلطنة بلاد مصر والشام وغيرها . فسار ونزل على بعرين ويقال بارين[٣]، وحاصر حصنها حتى تسلمه فى العشرين منه ، ورجع إلى حماة . وفيها تقرر العماد الإصفهانى نائبا فى الكتابة عن القاضى الفاضل بسعاية نجم الدين محمد بن مُصَال[٤] . وسار صلاح الدين إلى دمشق ثم رحل عنها، فنزل مرج الصُّفَّر[٥]، ووافته به رسل الفرنج فى طلب الهدنة، فأجابهم إليها بشروط اشترطها . وأذن للعساكر فى المسير إلى مصر لِجَدب[٦] الشام فساروا، ورجع هو إلى دمشق فى محرم [سنة] إحدى وسبعين، وفوّض أمرها إلى [ابن أخيه] تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

* * *

[سنة إحدى وسبعين وخمسمائة][٧] . وفيها سار شرف الدين[٨] قراقوش — أحد أصحاب تقى الدين عمر — إلى بلاد المغرب فى حادى عشر محرم فى جيش، فأخذ من صاحب أوْجِلَة[٩] عشرين ألف دينار فرّقها فى أصحابه ، وعشرة آلاف دينار لنفسه ، وسار منها إلى غيرها ؛ ثم بلغه موت صاحب أوجلة، فعاد إليها وحاصر أهلها، وقد امتنعوا عليه حتى أخذها عَنْوة، وقتل من أهلها سبعمائة رجل، وغنم منها غنيمة عظيمة، وعاد إلى مصر .

---

(١) كان الخطيب شمس الدين بن البيضاء رسول صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بأمر الله تلك المرة (Blochet : Op. cit .p. 123. N. 3).

(٢) فى س " بها " .

(٣) فى س " بعسرين " والنطق الأول الذى فى المتن هو ما تقول به العامة ، والثانى هو الصحيح . وتقع بارين بين حلب وحماة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٤٦٥) .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Rec. Hist. Or. IV. P. 130)

(٥) أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٨٨) .

(٦) فى س لجذب .

(٧) ليس لعنوان هذه السنة وجود فى س ، انظر ص ٥٧ حاشية رقم ٤ ، وراجع أيضا ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، وما بعدها) .

(٨) فى س بها الدين، وقد خلط المقريزى بين بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره وبين شرف الدين هذا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index)

(٩) مدينة فى جنوبى برقة (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ،ص ٣٩٧).

وفيهـا تجهز الحلبيون لقتال صلاح الدين، فاستدعى عساكر مصر، فلمـا وافته بدمشق فى شعبان سار فى أوّل رمضان(١)، فلقيهم فى عاشر شوال . وكانت بينهما وقعة (١٩ ب) تأخر فيها السلطان [سيف الدين] غازى صاحب الموصل، فظن الناس أنها هزيمة، فولّت عساكرهم. وتبعهم صـلاح الدين، فهلك منهـم جماعة كثيرة، وملك خيمة غازى، وأسر عالمـا عظيما، واحتوى على أموال وذخائر وفُرُش وأطعمة وتحف تجـل عن الوصف . وقدم عليه [أخوه] الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه [بن أيوب] من اليمن، فأعطاه سرادق السلطان غازى بما فيه من الفـرش والآلات ، وفرق الإصطبلات(٢) والخزائن على من معـه(٣) ، وخلع على الأسرى وأطلقهم . ولحق [سيف الدين] غازى بمن معه، فالتجأوا [جميعا] الحلب، ثم سار إلى الموصل [وهو لا يصدّق أنه ينجو، وظن أن صلاح الدين يعبر الفرات ويقصده بالموصل(٤)] . ورحل صـلاح الدين ونزل على حلب فى رابع عشر شـوّال، فأقام عليها إلى تاسع عشره، ورحل إلى بُزَاعة(٥)، وقاتل أهل الحصن حتى تسلمه . وسار إلى مَنْبِج، فنزل عليها يوم الخميس رابع عشريه، ولم يزل يحاصرها أياما حتى ملكها، وأخذ من حصنها ثلاثمائة ألف دينـار، ومن الفضـة والآنيـة والأسلحة ما يناهز ألفى ألف دينار . ورحل إلى عَزَاز(٦)، وحاصرها من يوم السبت رابع ذى القعدة إلى حادى عشر ذى الحجة، فتسلمها وأقام فيها من يثق به، وعاد إلى حلب .

وفى يوم الثلاثاء رابع عشره وثب عدّة من الإسماعيلية على السلطان صـلاح الدين، فظفر بهم بعد ما جرحوا عدّة من الأمراء والخواص(٧) . ثم سار إلى حلب فنزل عليها فى سادس عشره،

---

(١) العبارة الآتيـة واردة بهامش الصفحة فى س، ونصها : "وفى يوم الاثنين ثامن عشرى رمضان كسفت الشمس جميعها، وأظلم النهار ورؤيت النجوم" . وقد أدمجها كاتب ب (ص ٢٢ أ) فى المتن بعد لفظ "رمضان".

(٢) فى س الاسطبلات . (٣) فى س اخلع .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٢٨٣) لتوضيح العبارة .

(٥) فى س بزاعا، وهى بلدة من أعمال حلب، واقعة بينها وبين منبج . وينطق أهل حلب هذا الاسم أحيانا بكسر الباء، وأحيانا بالألف المقصورة بدل التاء (ياقوت : معجم البـلدان، ج ١، ص ٦٠٣) . (٦) فى س عزار، وهى بليدة شمالى حلب (نفس المرجع، ج ٣، ص ٦٦٧) . (٧) قصة وثوب الاسماعيلية هـذه واردة بهامش الصفحة فى س، وتلاها بالهامش أيضا فقرة طويلة عن حملة بحرية أتت من صقلية لمحاصرة الإسكندرية، =

وأقطع عسكره ضياعها، وأمر بجباية أموالها ، وضيق على أهل حلب من غير قتال ، بل كان يمنع أن يدخلها أحد أو يخرج منها[1] .

* * *

[سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة][2] . فلما كان رابع المحرّم سنة اثنتين وسبعين ركب العسكران وكانت الحرب ، فقتل جماعة من أصحاب صلاح الدين . ثم تقرّر الصلح بينه و بين الملك الصالح، على أن يكون للصالح حلب وأعمالها . ورحل [صلاح الدين] فى عاشره ، فنازل مصْيَاب[3] ، وفيها راشد الدين سنان بن سَلْمان بن محمد، صاحبُ قلاع الإسماعيلية ومقدم الباطنية ، و إليه تنسب الطائفة السنانية . ونصب عليها المجانيق والعزادات[4] من ثالث عشريه إلى أيام، ثم رحل ولم يقدر عليهم، وقد امتلأت أيدى أصحابه بما أخذوه من القرى . وفوّض [صلاح الدين] قضاء دمشق لشرف الدين أبى سعد عبد الله بن أبى عصرون، عوضا عن

= وهى فى تفاصيلها وعدد مراكبها وجنودها وأزوادها تشبه الحملة التى تقدم ورودها فى ص ٥٥ ، تحت سنة ٥٨٩ ، وليس فى المراجع المتداولة فى حواشى هذا الكتاب ما يشير إلى وصول حملة ثانية من صقلية إلى الإسكندرية ، فأكبر الظن أن المؤلف نسى ما أورده أولا عن تلك الحملة ، فكتبها مرة ثانية فى مكان غير مناسب تاريخيا . وهذا نص الفقرة بتمامه : — " وفيها وصل من صقلية إلى الاسكندرية مائتان وستون مركبا تحمل الرجال ، وستة وثلاثون طريدة تحمل الخيل ، وستة مراكب تحمل آلة الحروب ، وأربعون مركبا تحمل الزاد ، فكانت [عدة] من فيها من الرجال خمسين ألفا ، ومن الخيالة ألفا (فى س الف) وخمسمائة فارس ، فقاتلهم أهل الثغر أشد قتال ، وأتتهم العساكر من القاهرة . ثم قدم السلطان صلاح الدين فهزم الله الفرنج ، وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة ، وأحرقوا عدة من مراكبهم ، وأسروا طائفة ، وذلك فى المحرم [سنة سبعين وخمسمائة] " .

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة ، وليس لها علاقة بالمتن ، ولذا وضعت هنا ، ونصها : — " وفى سنة إحد[ى] وسبعين مات الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وَانُودِين (كذا) بن على بن أحمد بن والَال (كذا) أحد العشرة أصحاب مهدى الموحدين أبى عبد الله محمد بن تومرت بسلا . و إلى أبى حفص هذا ينسب ملوك تونس من إفريقية فيقال لهم الحفصيون " . انظر الزركشى (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ص ١٤٩) .

(٢) ليس لعنوان هذه السنة وجود فى س ، ولعل السبب هو اتصال أخبار السنة السابقة بحوادث هذه السنة ، وعدم وجود علة حقيقية للفصل .

(٣) فى س مصيات وهو خطأ ، واسمها مصياف أيضا عند العامة ، وهى بساحل الشام قرب طرابلس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) .

(٤) جمع عرادة ، وهى من آلات الحرب ، أصغر من المنجنيق ، ترمى بالحجارة المرمى البعيد (محيط المحيط) .

كمال الدين الشهرزورى بعد وفاته . وفيه أغار[1] الفرنج على البِقاع[2]، فخرج إليهم الأمير شمس الدين محمـد بن عبد الملك بن المقدم من بعلبك ، فأوقع بهم وقتل منهم وأسر . وخرج إليهـم المعظم شمس الدولة من دمشق فلقيهم بعين الجر ، وأوقع بهم ، ثم سار إلى حماة وبها صـلاح الدين ، فوافاه فى الثانى من صفر. ثم سار السلطان منها ودخل دمشق سابع عشره ، فأقام بها إلى رابع شهر (١٢٠ ا) ربيع الأول، وخرج منها إلى القاهرة، واستخلف على دمشق أخاه الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، فوصل إليها لأربع بقين منه .

وفيها أمر السلطان ببناء السور على القاهرة والقلعة ومصر، وَدَوْرُه تسعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان بذراع العمل . فتولى ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى، وشرع فى بناء القلعة، وحفر حول السور خندقًا عميقًا، وحَفر واديه وضَيَّق طريقه. وكان فى مكان القلعة عدة مساجد منها مسجد سعد الدولة[3]، فدخلت فى جملة القلعة، وحفر فيها بئرًا ينزل إليها بدرج منحوتة فى الحجر إلى المـاء. وفيها أمر السلطان ببناء المدرسة بجوار قبر الشافعى بالقرافة، وأن تعمل خزانة الأشربة التى كانت للقصر مارستانًا للمرضى، فعُمل ذلك. وسار السلطان إلى الإسكندرية فى ثانى عشرى شعبان ، ومعه ابناه الأفضل علىّ والعزيز عثمان ، فصام بها شهر رمضان،وسمع الحديث على الحافظ أبى الطاهر أحمد السِّلَفى[4] . وأمر بتعمير الأسطول بهـا ، ووقف صادر الفرنج[5] على الفقهاء بالإسكندرية. ثم عاد إلى القاهرة،فصام بها بقية رمضان . وفيهـا عاد [شرف الدين] قراقوش غلام تقى الدين إلى بلاد المغرب، وعاد فأخذ جماعة من

---

(١) فى س غار . (٢) أرض واسعة بين دمشق وبعلبك وحمص ، فيها قرى كثيرة، وأكثر شرب أهلها من عين تخرج من جبل، ويقال لها عين الجر. (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٦٩٩، ج ٣، ص ٧٦٠) .

(٣) لم يذكر المقريزى فى المواعظ والاعتبار اسم صاحب هذا المسجد كاملا (نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٢٠٢) ، ولعله سعد الدولة الطواشى مملوك الأفضل أمير الجيوش، وزير الخليفة المستنصر الفاطمى (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٠، ص ٢٤٩) . (٤) انظر ص ٢٧١، حاشية ٢ . (٥) لعل المقصود بذلك الضريبة التى كانت تفرض على تجار الفـرنج الواصلين بالمتاجر من بلادهم إلى ثغر الإسكندرية ، وكان مقدارها زمن القلقشندى ، أى فى القرن الثامن الهجرى ، خمس قيمة البضائع التى يحملونها (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٦٣) .

الجند، وخرج إلى المغرب، فأمر العادلُ الأمير خطلبا (١) بن موسى والى القاهرة بالقبض عليه، فسار إلى الفيوم وأخذه محمولا إلى القاهرة . وفيها أبطل السلطان المَكْس المأخوذ من الحجاج فى البحر إلى مكة على طريق عَيْذاب (٢)، وهو سبعة دنانير مصرية ونصف على كل إنسان؛ وكانوا يؤدّون ذلك بعيذاب أو بجدّة، ومن لم يؤدّ ذلك مُنع من الحج، وعذب بتعليقه بأنثييه؛ وعُوّض أمير مكة عن هذا المكس بألفى دينار، وألف أردب قمح، سوى إقطاعات بصعيد مصر وباليمن؛ وقيل إن مبلغ ذلك ثمانية (٣) آلاف أردب قمح تحمل إليه إلى جدّة .

* * *

[سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة] . وخرج السلطان من القاهرة، لثلاث مضين من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين، لجهاد الفرنج . وسار إلى عَسْقَلان، فسبى وغنم وقتل وأسر . ومضى إلى الرملة، فاعترضه نهر تل (٤) الصافية فى يوم الجمعة ثانى جمادى الآخرة، فازدحم الناس بأثقالهم عليه . وأشرف الفرنج عليهم، ومقدّمهم البرنس أرناط (٥) صاحب الكرك، فى جموع كثيرة . فانهزم المسلمون وثبت السلطان فى طائفة، فقاتل قتالا شديدا، واستشهد جماعة وأخذ الفرنج أثقال المسلمين، فمرّ بهم فى مسيرهم إلى القاهرة من العناء ما لا يوصف، ومات منهم ومن دوابهم كثير، وأسر الفرنج جماعة منهم الفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارى . ودخل السلطان إلى القاهرة منتصف جمادى الآخرة، فحلف لا تُضرب له نوبة حتى يكسر الفرنج،

(١) كذا فى س، وبدون ضبط، وهى فى ب (ص ٢٣ أ) خلطباى بدون ضبط أيضا، ومترجمة إلى (Khoutlobai) فى (Blochet : Op. cit. p. 129) .

(٢) ثغر تجارى عظيم فى القرون الوسطى، وهو واقع على الشاطئ المصرى للبحر الأحمر (بحر القلزم) قبالة جدّة على الشاطئ الآخر، (ياقوت معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٥١)، وهو فى س عيداب، وأكثر وروده بهذا الرسم، وسيصحح دائما بغير تنبيه .

(٣) فى ب (ص ٢٣ أ) ثلاثمايه [و] ثمانية آلاف .

(٤) حصن بنواحى الرملة قرب بيت جبرين (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٦٧) .

(٥) فى س ارباط، وهو (Le prince Arauld seigneur de Carac) واسمه الأصلى قبل أن يأتى الشام (Renaud de Chatillon) . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ فى Rec. Hist. Or. Vol. I. PP. 627,675).

وقطع أخباز(١) جماعة من الأكراد، من أجل أنهم كانوا السبب فى هـذه الكسرة . وفيها نزل الفرنج على حماة، فقاتلهم الناس أربعة أيام حتى رحلوا عنها، ونزلوا على حارم فحاصروها أربعة أشهر، ثم رحلوا إلى بلادهم . وفيها أُطلق شرف(٢) الدين قراقوش التقوى، وسار (٢٠ ب) إلى أَوْجَلَة وغيرها من بلاد المغرب . وخرج السلطان فى سادس عشرى شعبان سنة ثلاث وسبعين من القاهرة يريد الشام، واستخلف بديار مصر أخاه العادل ، فلم يزل مقيما على بركة الجب إلى أن صلى صلاة عيـد الفطر . فبلغه نزول الفرنج على حماة، فأسرع فى المسـير حتى دخل دمشق فى رابع عشرى شـوّال ، فرحل الفرنج عن حمـاة . ووافته بدمشـق رسل الخليفـة بالتشريفات . وفيهـا سار الفرنج إلى قلعة صَدْر، وقاتلوا من بهـا فلم ينالوا قصدا ، فساروا يريدون الغارة على ناحية فاقوس، ثم عادوا بنية الحشـد والعود . وفيها عصى شمس الدين بن المقدم بمدينة بعلبك على السلطان . وفيها وُلد الملك الزاهد مجـير الدين داود، شقيق الظاهر غيـاث الدين غازى بن السلطان صـلاح الدين، لسبع بقين من ذى القعدة . وفيهـا غلت الأسعار ببلاد الشام لكثرة الجدب ، واشتد الأمر بحلب . وفيها سار الأمير ناصر الدين إبراهيم، سلاح(٣) دار تقى الدين [عمر]، فى عسكر إلى بلاد المغـرب ، فوصل إلى قراقوش التقوى، وسارا إلى مدينة الرَّوْحَان(٤)، فنازلاها أربعين يومًا، حتى فتحت وقتل حاكمها، وقررا عليها أربعة عشر ألف دينار(٥)،وملكا مدينة غُدَامِس(٦) بغير قتال، وتقرر على أهلها اثنا عشر ألف

---

(١) فى س اخبار. والأخباز جمع خبز بضم الخاء وسكون الباء، ومعناه إقطاع من الأرض، ويقابله (appanage) فى أنظمة العصور الوسطى فى غرب أوربا (Dozy: Supp. Dict. Ar.) ويلاحـظ أن اشتقاق هـذه الكلمة يشبه اشتقاق مرادفها العربى، إذ أن كلمة خبز يقابلها فى اللاتينية (panis)، ومصدره (appanare) .

(٢) فى س بها الدين .

(٣) السلاح دار هو المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذى هو فى خدمته، ومن وظيفته أيضا الإشراف على السلاح خاناه، وما هو من توابع ذلك . ولفظ السلاح دار مركب من كلمتين، أولاهما عربية، ومعناها آلة القتال والثانية فارسية ومعناها ممسك، ويكون المعنى ممسك السلاح (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٦٢) .

(٤) فى س دوح فقط، وهى من نواحى برقة (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٨٢٩) .

(٥) فى س دينارا .

(٦) يصح أيضا نطق اسم هذه المدينة بفتح الغين، وهى أقصى حدود برقة، فيما يلى تونس الحالية (ياقوت : نفس المرجع، ج ٣، ص ٧٧٦) .

دينـار[1]، وسار إبراهيم إلى [جبال] نَفُوسَة[2]، فملك عدة قلاع، وصار إليه مال كثير ورجال، وسار البعث من عند قراقوش إلى بلاد السودان، فغنموا غنيمة عظيمة. وفيها ظهر العمل فى سور القاهرة، وطلع البناء، وسلكت به الطرق المؤدّية إلى الساحل بالمقس[3].

وفيهـا مات الأمير شهاب الدين محمود بن تَكَش الحارمى[4]، خال السلطان صـلاح الدين ونائب حمـاة، فى سابع عشرى جمادى الآخرة بحماة، وحمل إلى حلب فدفن بهـا، وكان شجاعا عاقلا سيوسًا ممدحًا.

* * *

[سنة أربع وسبعين وخمسمائة]. وفى أوائل شهر ربيع الآخر سنة أربع وسبعين، هجم العدو من الفرنج على مدينـة حماة، فنهض إليهم المسلمون وأسروا مقدمهـم فى جماعة، وبعثوا بهم إلى السلطان بدمشق، فضرب أعناقهم. وفيهـا جهز السلطان أخاه شمس الدولة تورانشاه إلى محاربة شمس الدين بن المقدم ببعلبك، فى جيش كثيف، فحاصرها مدة. ثم سار إليه السلطان، وأقام على الحصار حتى دخل الشتاء، فوقع الصلح وتسلمها السلطان، وسلمها لأخيه تورانشاه فى شوال. فبنى الفرنج فى مدة اشـتغال السلطان ببعلبك حصنا على مخاضـة بيت الأحزان، وهو بيت يعقوب عليه السلام، وبينه وبين دمشق نحو يوم، ومنه إلى طبرية وصـفد نصف يوم. فعاد السلطان إلى (١٢١ ا) دمشق، وقدم عليه من الديوان العزيز[5] خادم [اسمه فاضل]، فأصحبه معه للغزو، حتى وقف على الحصن، وتخطف من حوله من الفرنج،

(١) فى س اثنى ... دينارا.

(٢) تقع هذه الجبال فى أقصى الشمال الشرقى من غدامس، وهى قريبة من شاطىء البحر الأبيض المتوسط، وبينها وبين مدينة طرابلس ثلاثة أيام، وتبعد عن القيروان مسافة ستة أيام (ياقوت: نفس المرجع، ج ٤، ص ٨٠٠).

(٣) فرضة القاهرة منذ عصر الفاطميين، ومكانها قرب الأزبكية الحالية ثم تحول مجرى النيل وانحسر ماؤه، فى أواخر القرن السادس الهجرى عن بولاق الحالية، فأصبحت هذه فرضـة القاهرة منـذ الدولة الأيوبيـة. (المقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٢١، ١٣٠).

(٤) فى س الجـارمى، وقـد توفى ولده قبـله بثلاثة أيام. أبو شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٣ فى Rec. Hist. Or. Vol. IV).

(٥) الراجح أن المقصود هو ديوان الخليفة العباسى ببغداد. وقد ذكر اسم الرسول للتوضيح (نفس المرجع، ص ١٩٥ فى Rec. Hist. Or. Vol. IV).

ثم عاد إلى دمشق . فتواترت الأخبار باجتماع الفرنج لغزو بلاد المسلمين ، فأخرج [السلطان ابن أخيــه] الأمير عز الدين فَرُّخْشاه[(١)] أمامه ، فواقعه الفرنج وقعة قُتل فيها جماعة من مقدمى الفرنج وغيرهم ، منهم الهنفرى[(٢)] وصاحب الناصرة، فانهزموا وأُسر منهم جماعة . فبرز السلطان من دمشــق إلى الكسوة لنجدة عز الدين ، فوافتــه الأسرى والرءوس، فسُر بذلك وعاد إلى دمشــق . وفيهــا أغار ابرنس ملك الفرنج بأنطاكية[(٣)] على شَيْزَر، وغدر القومص[(٤)] ملك طرابلس بالتركمان . وفيها سار شمس الدولة إلى مصر بعدة من العسكر لجدب الشام فى سادس عشرى ذى القعــدة . وأغار السلطان على حصن بيت الأحزان وعاد بالغنائم والأسرى، ووالى الغارة والبعث إلى بلاد الفرنج . وفيها قوى قراقوش التقوى و إبراهيم الســلاح دار ببلاد المغرب ، وأخذا عدة حصون .

* * *

ودخلت سنة خمس وسبعين [وخمسمائة] . والسلطان مواصل الإغارة على بلاد الفرنج ، وكان نازلا على بانياس . وسَرّح العساكرَ ومقــدمها عز الدين فرخشاه بن أيوب، فأكثر من قتلهــم وأسْرهم . وفتح بيت الأحزان فى رابع عشرى ربيــع الآخر ، بعــد قتال وحصار ، فغنم منهــم مائة ألف قطعة حديد من أنواع الأسلحة ، وشيئا كثيرا من الأقوات وغيرها ، وأسر عدّة نحو الســبعمائة، وخرّب الحصن حتى سوى به الأرض، وســدّ البئر التى كانت به ، وعاد بعد ما أقام عليه أربعة عشر يوما . فأغار على طبرية وصــور و بيروت ، ثم

(١) بغير ضبط فى س . انظر نفس المرجع والصفحة بالحاشية السابقة . (٢) فى س " الهنفرى "، وهو (Honfroi) صاحب حصن بانياس جنوبى غربى دمشق . نفس المرجع والصفحة وما يليها . وانظر أيضا: (Lane-Poole: Saladin, p.157 حيث الاسم (Humphrey of Toron). (٣) اسمه (Boémund ou Bohémond II.) ويسماه أبو شامة (نفس المرجع ص ٨٩ فى Rec. Hist. Or. V) " البرنس الأنطاكى بيمند " . انظــر أيضا (Hitti : Usamah, pp. 93, 155) حيث يسمى "ابن ميمون" . (٤) انظر ص ٥٩ ، حاشية ٢ .

رجع إلى دمشق، وقد مرض كثير من العسكر ومات عدّة من الأمراء . وفى يوم[١] الأحد ثامن المحرم ركب السلطان ومعه صمصام الدين أُجُك[٢] والى بانياس فى عسكره، فلقيه الفرنج فى ألف رمح وعشرة آلاف مقاتل ما بين فارس وراجل ، فاقتتلوا قتالا كثيرا انهزم فيـه الفرنج ، وركب المسلمون أقفيتهم يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل . وعاد السـلطان إلى مخيمه ، وقد مضى أكثر الليل، وعَرَض الأسرى[٣] : فقدم أولهم بادين بن بارزان ، ثم أُود مقدم الدَّاوية[٤]، وابن القومصية، وأخو صاحب جُبَيْل فى آخرين ، فقيدوا بأجمعهم وهم نحو المـائتين وسبعين، وحملوا إلى دمشق فاعتقلوا بها . وعاد السلطان إلى دمشق، ففُدى ابن بارزان بعد سنة بمائة وخمسين ألف دينار وألف أسير من المسلمين، وفدى ابن القومصية بخمسة وخمسين ألف دينار صُورية[٥]، ومات أود فأُخذت جيفته بأسير أُفرج عنه . وقدم الخبر بأن الملك المظفر تقى الدين أوقع

---

(١) ليس للسطور التالية وجود بهـذه الصفحة من س، ولكنها واردة فى ب (ص ٢٤ ب) على ترتيب ورودها هنا . وهى عبارة عن الهامش المكتوب على ورقة منفصلة بين الصفحتين (١٦ ب، ١٧ أ) انظر ص ٥١ حاشية ٢؛ وفى هذا ما يحمل على الاعتقاد بأن كاتب ب تدارك هذه الغلطة بنفسه، أو أنه نسخ من س قبل حدوث هذا الخطأ أثناء عملية التجليد ، وهذا طبعا بفرض أن المقريزى أحل هذا الهامش محله المناسب من الأصل .

(٢) مضبوطة هكذا فى س .

(٣) بعض أسرى هـذه الواقعة من كبار الفرنج، كما جاء فى أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١٩٨ — ١٩٩ فى Rec. Hist. Or. IV.) هم "...[Odo] le grand maitre des Templiers. celui des Hospitaliers, le seigneur de Tibériade. le frère du seigneur de Djobeïl. le fils de la Comtesse [de Tripoli], le fils de Barizan (Balian II d'Iblin) seigneur de Ramla..." . قارن هذا بما جاء فى (Lane - Poole : Saladin. p. 157).

(٤) أطلق المؤرّخون المسلمون هذا الاسم على جمعية فرسان المعبد (Templiers)، كما أطلقوا لفظ الإسبتارية على جمعية فرسان الهسبتاليين (Hospitaliers) . وقد أسس الجمعية الأولى (Hugh de Payns) سـنة ١١١٩ م . لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس . أما الجمعية الثانية فيرجع تأسيسها إلى سنة ١٠٩٩م . على يد (Blessed Gerard) بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وكانت دارها (Hospice) به قبل ذلك بزمن طويل مأوى الحجاج والمرضى من المسيحيين . ثم تحوّل كل من الجمعيتين إلى هيئة حربية دينية، فكان لرؤسائهما وفرسانهما شأن كبير فى تاريخ الإمارات الصليبية بالشام . (King: Knights Hospitallers. pp. 1-33).

(٥) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الإفرنتية هى الإفرنجية ، وميزتها عن الدنانير المصرية الإسلامية فى العصور الوسطى أن صور ملوكها منقوشـة على وجوهها . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤١) .

بعسكر قلج أرسلان صاحب الروم [السلجوقية]، فهزمهم وأسر منهم جماعة . فكتب السلطان البشائر بظفره بالفرنج على مَرج عُيُون[1]، وبظفر أخيه بعسكر الروم، وسيرها إلى الأقطار فأتتـه تهانى الشعراء من الأمصار . ثم اهتم السلطان بأمر بيت الأحزان، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بهدمه فأبوا ، فراجعهم مرة ثانية فطلبوا منه ما غَرِموا عليه، فبذل لهم حتى وصلهم إلى مائة ألف دينار فلم يقبلوا . فكتب حينئذ إلى التركمان وأجناد البلاد يستدعيهم، وحمل إليهـم الأموال والخيول والتشاريف ، فقـدم إليه خلق كثير . وسار الملك المظفر من حماة ، فقدم دمشق أول شهر ربيع الآخر، وقد تلقاه السلطان . ثم سار السلطان من دمشق يوم الخميس خامسه ، فى عسكر عظيم، ونزل على حصن بيت الأحزان يوم الثلاثاء حادى عشره . وكانت قاعة صفد للداوية، فأمر بقطع كروم ضياع صفد، وحاصر الحصن ونقّبه من جهات، وحشاه بالحطب وأحرقه ، حتى سقط فى رابع عشريه، وأخذه فقتل من فيـه وأَسَرهم ، ووجد فيه مائة أسير من المسلمين، فقتل عدّة من أسرى الفرنج، وبعث باقيهم فى الحديد إلى دمشق . وأخرب الحصن حتى سـوّى به الأرض ، فكانت إقامته عليه أربعـة عشر يوما . وعاد إلى دمشق، فمدحه عدّة من الأمراء والشعراء وهنأوه بالفتح[2] .

وفى صفر ظهر قدام المقياس بمصر وسط النيـل الحائطُ الذى كان فى جوفه قبر يوسف الصديق وتابوته، ولم ينكشف قط منذ نقله موسى عليه السـلام إلا حينئذ ، عنـد نقصان المـاء فى قاع المقياس ، فإن الرمل انكشف عنـه وظهر للنـاس، وأكثر النـاس ما علموا ما هو. وفيها نافق جَلْدك[3] الشهابى بالواحات، فأخذه العادل بالأمان وسيره إلى دمشق . وفيها أغار عز الدين فرخشاه على صفد، فأكثر من القتل والسبى وأحرق، الرَّبَض[4] فى رابع عشر ذى القعدة، وعاد إلى دمشق .

---

(١) بقعة بساحل الشام، فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٨٨) .

(٢) هنا ينتهى الهامش المشار إليه فى ص ٦٨ حاشية ١ .

(٣) فى س "الشهابى"، وقد ضبط الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. P. 137)، ولعله الأمير شجاع الدين جلدك التقوى، المذكور فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر فى Rec. Hist. Or. I. P. 98) .

(٤) بغير ضبط فى س . وهو سور المدينة، وما حولها من مساكن وبيوت، ومأوى الغنم والأبقار . (محيط المحيط) .

وفيها مات الخليفة المستضىء[١] بأمر الله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله محمد، يوم الجمعة لاثنتى عشرة مضت من شوال، وكانت خلافته عشر سنين غير أربعة أشهر. واستخلف من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد؛ فخرج الشيخ صدر الدين شيخ الشيوخ عبد الرحيم بن إسماعيل من بغداد رسولا إلى الملوك وإلى السلطان [صلاح الدين]، وسار (٢١ ب) معه إلى مصر [شهاب الدين بشير الخاص] كما يأتى ذكره[٢]. وفيها ختن السلطان ابنه الملك العزيز عثمان، وسلمه إلى [صدر][٣] الدين بن المجاور معلما له. وفيها فشا الموت بمصر والقاهرة وعامة أعمال مصر، وتغيرت رائحة الهواء، ومات بالقاهرة ومصر فى أيام يسيرة سبعة عشر ألف إنسان.

* * *

ودخلت سنة ست وسبعين [وخمسمائة]. فيها سار السلطان إلى حرب عز الدين قلج[٤] أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان [السلجوقى] صاحب قونية، وعاد بغير قتال، فدخل دمشق أول شهر[٥] رجب. وفيها مات السلطان سيف الدين غازى بن السلطان قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل، فى ثالث صفر، وجلس أخوه عز الدين مسعود مكانه. فكتب السلطان صلاح الدين إلى الخليفة الناصر يسأل أن يُفَوَّض إليه، فوصل شيخ الشيوخ صدر الدين أبو القاسم عبد الرحيم، وشهاب الدين بشير الخاص، بالتفويض والتقليد والتشريف فى رجب. فتلقاهم السلطان وترجَّل لهم، ونزلوا له وبلغوه سلام الخليفة، فقبَّل الأرض، ودخل دمشق بالخلع، وأعاد الجواب مع بشير، وصحبته ضياء الدين الشهرزورى. وسار [السلطان] إلى بلاد الأرمن لقمع ملكهم[٦]،

---

(١) فى س "المستضى بالله". (٢) انظر ما يلى. (٣) مكان هذه بياض فى س، ولكنها فى ب (ص ٢٥ أ). (٤) فى س قليج، بدون ضبط، وأحيانا بغير الياء، وسيحافظ على الرسم الوارد هنا بالمتن دائما. (Enc. Isl. Art. Kilidj Arslan). (٥) فى ب (ص ٢٥ أ) أول رجب. انظر ص ٣٩، حاشية ١. (٦) اسمه (Leon, roi d'Arménie) ويسميه المؤرخون المسلمون ليفون ولافون وابن لاون. (Rec. Hist. Or. Vol. V. Index).

فأوغل فيها وأطاعه ملكهم، ثم عاد بعد ماوصل إلى بَهَسْنَا[١] وأحرق حصنا وخربه . وخرج من دمشق يريد مصر فى ثامن عشر رجب، ومعه شيخ الشيوخ [صدر الدين]، فوصل إلى القاهرة ثالث عشر شعبان . وخرج شيخ الشيوخ إلى مكة فى البحر، وعاد منها إلى بغداد .

وفيها مات الحافظ أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن سِلَفَة السِّلَفى[٢] فى يوم الجمعة خامس ربيع الآخر بالإسكندرية عن نحو مائة سـنة . ومات الملك المعظم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب بن شادى فى خامس صفر بالإسكندرية ، وحُمل إلى دمشق فدفن بهـا . وفيها ولدت امرأة غرابا . و[فيهـا] كان قاع[٣] [النيـل] ثلاثة أذرع وعشرين إصبعا، وبلغت الزيادة ستة عشرة ذراعا وثلثى ذراع .

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة . فى محـرم خرج الأمر بالحوطـة على مُسْتَغَلات[٤] العربان بالشرقية، وأُمروا بالتعـدية إلى البحيرة؛ ووقعت الحوطة على إقطاع جذام وثعلبة، لكثرة حماهم الغـلال إلى بلاد الفرنج . وكثر الفـار بالمقاثى والغلال بعـد حصادها، فأتلف شيئا كثيرا . واحترق النيل حتى صار يُخاض، وتشمر المـاء عن ساحل المقس ومصر، وربى جزائر رَمْلَة[٥] خيف منها على المقياس أن يتقلص المـاء عنه ، ويُحتاج إلى عمل غيره . وبُعـد المـاء عن السور بالمقس، وصارت قوته من بر الغرب[٦] . وخيم السلطان فى بركة الجب للصيد

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى قلعة حصينة ، فى أقصى شمال الشام ، بقرب مرعش وسميساط ، وهى من أعمال حلب (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٧٧٠) . (٢) مضبوطان عن ياقوت (معجم البلدان، ج ١ ، ص ٧٨) . وقد اعتمد ياقوت على أبى الطاهر فى كثير من معلوماته (انظر فهرس الأعلام فى معجم البلدان) .

(٣) فى س القاع . (٤) جمع المستغل بفتح الغين ، وهو كل ما أغل من أرض أو عقار أو حانوت أو سوق أو طاحون . والمستغل بكسر الغين ما يأتى من المـال أو غيره من هــذه الأشـياء (Dozy. Supp. Dict Ar.)

(٥) فى س حراير رميله . (٦) يحتمل أن يكون هذا بدء تغيير مجرى النيل الذى نشأت عنه بولاق فيما بعد، إذ يقول المقريزى فى المواعظ والاعتبار، (ج ٢ ، ص ١٣٠ — ١٣١) فى هذا الصدد : "إن المـاء انحسر بعد سنة سبعين وخمسمائة عن جزيرة تعرف بجزيرة الفيل ، وتقلص المـاء عن سـور القاهرة الذى ينتهى إلى المقس . وصارت هناك رمال وجزائر مامن سنة إلا وهى تكثر ..." . انظر ص ٦٦ ، حاشية ٣ .

ولعب الأكرة ، وعاد بعد ستة أيام . وورد الخبر بأن الأبرنس أرناط[١] ملك الفرنج بالكرك جمع وعزم على المسير إلى تيماء[٢] ودخول المدينة النبوية ؛ فخرج عز الدين فرخشاه من دمشق بعساكره إلى الكرك ، ونهب وحرق ، وعاد إلى أطراف بلاد الإسلام فأقام به ، وورد الخبر من نائب قلعة أَيْلَة بشدّة الخوف من الفرنج .

وفى صفر قدِم رسول ملك (٢٢ أ) القسطنطينية إلى القاهرة ، فوقع الصلح مع صاحبها ، وأطلق فى جمادى الآخرة مائة وثمانين أسيراً من المسلمين . وسار صارم الدين خطلبا إلى الفيوم ، وقد أضيفت إليه ولايتها ، وأفردت برسمه الخاص ، ونقل عنها مقطوعها . ثم صُرف عن ولاية الفيوم بابن شمس الخلافة ، وأُحضر خطلبا ليسير إلى اليمن . وكُتب إلى دمياط بترتيب المقاتلة على البرجين ، وسدّ مراكب السلسلة[٣] وتسييرها ليقاتل عليها ، ويدافع عن الدخول من بين البرجين بها .

وفى ربيع الأول طرق الفرنج ساحل تِنِيس[٤] وأخذوا[٥] مركبا للتجار ؛ ووصلت مراكب من دمياط كانت استدعيت من خمسين مركبا لتكون فى ساحل مصر ؛ وكمل بناء برج بالسويس[٦] يسع عشرين فارسا ؛ ورُتب فيه الفرسان لحفظ طريق الصعيد ، التى يجلب منها الشب[٧] إلى بلاد الفرنج ؛ وأمر بعمارة قلعة تنيس . ووَرَدَ تجار الكارم[٨] من عدن ، فطُلب منهم زكاة[٩] أربع

(١) فى س " ارياط " . (٢) فى س تما وهى بليد (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٠٧) فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى ، على طريق حاج الشام ودمشق . (٣) يرجع إنشاء هذين البرجين والسلسلة التى بينهما ، على سبيل الترجيح ، إلى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) فى عهد الخليفة المتوكل العباسى (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٣ — ٢٢٧) . (٤) فى س "تنيس" ، و بغير ضبط ، وهى بلدة بجزيرة صغيرة اسمها تنيس أيضا ، واقعة بالناحية الشمالية الشرقية من بحيرة المنزلة قرب بور سعيد الحالية . انظر ياقوت معجم البلدان (ج ١ ، ص ٢٨٨) . (٥) فى س " واحد " . (٦) فى هامش س قبالة هذه السطور العبارة الآتية : " انظر بناء البرج بالسويس لحفظ طريق الصعيد " . (٧) كان معدن الشب ، زمن القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، ٤٥٩) من محكرات الدولة المصرية ، يستخرج من أسوان والواحات و بلاد أخرى بالصعيد ، و يحمل منها إلى سواحل قوص وأخميم وأسيوط والبهنسى لينقل إلى الاسكندرية ، فيباع أكثره لتجار بلاد الفرنج ، حيث يستعمل فى أشياء كثيرة أهمها صبغ الأحمر . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 143. N.1) . (٨) العنبر الأصفر ، وكان لتجاره فندق خاص بهم بالفسطاط (القلقشندى : نفس المرجع والجزء ، ص ٤٦٩) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 143. N. 3) (٩) كان التجار وغيرهم يدفعون الزكاة على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب وفضة ، وعلى ما يأتون به من متجر ، وحال عليه الحول . ثم زادت كمية ما يؤخذ على المتاجر زمن القلقشندى (نفس المرجع والجزء ص ٤٦١ – ٤٦٢ ، ٤٦٨ – ٤٧٠) فأصبح "المرتب السلطانى" عشر قيمة البضائع ، "مع لواحق أخرى تكاد أن تكون نحو المرتب السلطانى أيضا" .

سنين . وكثرت بيـوت المِزْر[1] بالاسكندرية، فهُدم منها مائة وعشرون بيتا . ووصل المَفْرِد[2] فى حادى عشرى ربيع الأول بالوفاء فى سابع عشره، فأوفى [النيـل] بمصر فى سادس عشريه [الموافق] يوم السادس عشر من مسرى، ولا يعـرف وفاؤه بهذا التاريخ فى زمن متقـدّم . فركب السلطان لتخليق المقيـاس فى غده ، وخلع على ابن أبى الرَّداد فى سلخه . وفُتح الخليج فى رابع ربيع الآخر، والمـاء على خمسة عشر إصبعا من سبعة عشر ذراعا، بحضر والى القاهرة[4]. وفيه أنفق السلطان فى الأجناد البَطَّالين[3] وجردهم إلى الثغور، وأنفق فى رجال الشوانى وجردهم للغزو . وورد الخبر بكثرة ولادة الحيوان الناطق والصامت للتوأم، وأن ذلك خرج عن الحد فى الزيادة على المعهود ، وأن الغـزال فى البرية كله أتأم ، وكذَلك[5] النسـوان أتأمن أكثر من الإفراد، وكذلك الطير فإنه كثر ظهوره كثرةً ظهرت .

وفيه ماتت امرأة الصالح بن رزيك عن سن كبيرة وضعف حال وعمى، بعد الدنيا والملك الذى كانت فيه . وركب السلطان فى أول جمادى الأولى لفتح بحر أبى المنجا، وعاد إلى قلعة الجبـل، وركب منهـا إلى المخيم بالبركة . وسار متسـلم الأمير صارم الدين خطلبا إلى اليمن . وانتصب السلطان ليلا ونهارا فى ترتيب أحوال الأجناد ، واقتطع من إقطاعات العربان الثلثين ، وعُوض به مُقْطَعو[6] الفيوم ، وصارت أعمال الفيوم كلها للسلطان . وفيه قُرر ديوان الأسطول (٢٢ ب) وفيه الفيوم والحبس الجيوشى والخراجى والنطرون ، وضُمن الخراج بثمانية آلاف دينار .

(١) المزر نوع من الجعة يصنع من الذرة أو الشعير أو الحنطة . محيط المحيط . (٢) مضبوطه على منطوقهـا فى (Blochet : Op. cit. p. 193) حيث هى مترجـمة أيضـا إلى (Maximum) أى غاية ارتفاع النيل . (٣) انظر وصف حفلات تخليـق المقياس وفتح الخليج فى القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٥١٦ — ٥٢١ ، وفى المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٧٠ — ٤٧٩ ، ٤٩٣) .

(٤) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفـها و إقطاعاتها ، نتيجة غضب السـلطان أو كبر السن ، أو اضطرارا إلى الاعتكاف والاختفاء ، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد : (G. - Demombynes : Op. cit. Introd. p. XLVII. N.3).

(٥) فى س كذلكن . (٦) انظر ص ٤٥ ، حاشية ٣ .

[وفى هذه السنة (١) رُتبت المقاتلة على البرجين بدمياط] ، وجهزت خمسمائة دينار لعمارة سورها والنظر فى السلسلة التى بين البرجين . وعُمل تقدير برسم ما يحتاج إليه سور تنيس وإعادته كما كان فى القديم ، بخاء ثلاثة آلاف دينار . وكُتب إلى قوص بإبطال المكوس التى تستأدى من الحجاج وتجار اليمن . وورد كتاب إبراهيم السلاح دار من المغرب أنه فتح بلاد هَوّارة (٢) ، وزَوَاوة (٣) ، ولَوَاتَة (٤) ، وجبل نفوسة ، وغدامس (٥) ، وأعمالا طولها وعرضها خمسة وعشرون يوما ، وأنه خطب على منابرها للسلطان وضربت السكة باسمه ، وأنه إذا أنعم عليه بتقوية بلغ أغراضا بعيدة ، وسير أموالا عتيدة . وأنشئت أربع حراريق (٦) بصناعة (٧) مصر برسم من تجرد إلى بلاد اليمن ، وجردت أمراء العسكر السائرين إلى اليمن . وكَبُر (٨) فى بحر تنيس تعدّى العربان على المراكب ، وعمرت عليهم حراريق فيها ، فلم يُظفر بهم لإيوائهم إلى الهيش .

وفى جمادى الآخرة قطع الفرنج أكثر نخل العريش وحملوه إلى بلادهم ؛ وسُيرت مراكب بالزاد والعلوفات والأسلحة إلى اليمن ؛ وأسند أمر الجسور إلى والى الغربية و[والى] الشرقية ،

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٥) . (٢) بغير ضبط فى س ، وهى قبيلة من البربر سكنت جبال نفوسة . (انظر ص ٦٦ حاشية ٢ ؛ و ياقوت : معجم البلدان . ج ٤ ص ٩٩٥ ؛ و (Blochet : Op. cit. p. 145. Ns. 1, 3 . (٣) فى س زوارة و بغير ضبط ، و زواوة بلد صغير بين إفريقية والمغرب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٥٣) . (٤) فى س لمانة بفتحة على اللام والميم والنون ، وهى قبيلة من البربر أيضا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٦٧) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 143. N. 3) . (٥) انظر ص ٦٥ ، حاشية ٦ .

(٦) المفرد حراقة وتجمع على حارق أيضا ، وهى نوع من السفن الخفيفة (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، والغالب أنها كانت تستعمل فى النيل فقط ، لنقل الأجناد إلى الثغور البحرية . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) .

(٧) كان بالقاهرة ثلاث دور لبناء السفن ، تعرف كل منها بالصناعة ، وأولها صناعة الجزيرة بالروضة الحالية ، إذ أنشئت سنة ٥٤ هـ ؛ ثم صناعة مصر ، بناها محمد بن طغج الإخشيد بساحل مصر القديم ، وكانت تعرف أيضا بصناعة العمائر ؛ ثم صناعة المقس ، وهى من منشئات المعز لدين الله الفاطمى (المقريزى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ١٩٥ — ١٩٧) . (٨) كذا فى س ، بغير ضبط .

ليتوفروا على عمارتها ؛ وكُتب إلى الأمير فخر الدين نشر الملك بن فرحون والى البحيرة ومشارفها[1] بذلك .

وفى رجب استقرّت عدّة الأجناد[2] ثمـانية آلاف وستمائة وأربعين ، وأمراء مائة أحد عشر ، وطواشية ستة آلاف وتسعمائة [و] ستة وسبعين ، وقَرَاغُلَامِيَّة[3] ألف وخمسمائة وثلاثة وخمسين . والمستقرّ لهم من المـال ثلاثة آلاف ألف وستمـائة ألف وسبعون ألفا وخمسمائة دينـار ، خارج عن المحلولين[4] وعن العربان المُقْطَعِين بالشرقية والبحيرة ، والكنانيين[5] والمضريين والفقهاء والقضاة والصوفية والدواوين ، ولا يقصر [مامعهم] عن ألف ألف دينار .

ووصل الإبرنس [أرناط] إلى أيلة ، وسار عسكره إلى تبوك . وفى شعبان كثر المطر بأيلة حتى تهدمت قلعتها ، وشُرع فى بناء سور دمياط ، وذرعه أربعة آلاف وستمائة وثلاثون ذراعا ، و [شرع أيضا] فى بناء برج [بها] .

وفى شوّال مات مَنْكُورس[6] الأسـدى أحد الأمراء المـاليك ، وأخذ إقطاعه يازْكُج[7] الأسـدى . وقُبض على سيف الدولة مبارك بن منقذ بن كامل الكنانى ، نائب شمس الدولة ببلاد اليمن ، وأُخذ منه ثمـانون ألف دينار وأُفرج عنه . وسار خطلبا والى مصر واليـا على زَبِيد[8] ، وصحبته خمسمائة رجل ، و [معهم] الأمير باخل ، وقد بلغت النفقة فيهم عشرين ألف

(١) كذا بغير ضبط فى س . انظر (Blochet: Op. cit. P. 146) حيث ترجم الاسم إلى "Fakhr-ad-Dīn Nasr (?) al-Moulk-ibn-Fardjoūn" .

(٢) فى س "استقرت عدة الاجناد ثمـانية الاف وستماية واربعون امرا مايه واحد عشر طواشية ستة الاف وسبعماية ستة وسبعون قراغلامية الف وخمسماية وثلاثة وخمسون" .

(٣) جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٤) هذه الكلمة مترجمة إلى (indisponibles) أى من لا عمل لهم ولا منهم نفع ، فى (Blochet : Op. cit. p. 146) مع التشكك . غير أن المقصود هنا بالمحلولين الذين انحلت عنهم إقطاعاتهم أو رواتبهم فأصبحوا بطالين . راجع ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٢ ؛ ج ٦ ، ص ٣٠٦ ، ٣٣٨ ، ٤٨٥ ، ٦٣٧ ؛ ج ٧ ، ص ١٠٧ ؛ وكذلك المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

(٥) انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٦٧ — ٧٢) لمعرفة قبائل العربان بديار مصر منذ الأيوبيين .

(٦ و ٧) ضبط كل من هذين الأسمين على منطوقهما فى فهارس (Rec. Hist. Or. I-V.) .

(٨) فى س عشرون .

دينار ، وكُتب للطواشية بنفقة عشرة دنانير لكل (٢٣ أ) منهم على اليمن ، إن كان من الإقطاعية ، وللبطالين والمترجلة فى الشهر ثلاثة وثلاثون دينارا ، وسُيرت الحراريق — وهى خمس — وقد شحنت بالرماة . وفى سابع عشره سار السلطان إلى الإسكندرية ، فدخل خامس عشرى شوّال ، وشرع فى قراءة المُوَطَّأ يوم الخميس — ثانى يوم دخوله — على الفقيه أبى الطاهر ابن عوف ، وأنشأ بها مارستانا ودارا للغاربة ، ومدرسة على ضريح المعظم توران(١) شاه ، وشرع فى عمارة الخليج(٢) ، ونقل فوهته إلى مكان آخر . وسار منها أوّل ذى القعدة إلى دمياط ، وعاد إلى القاهرة فى سابعه . وفى تاسعه أُمر بفتح المارستان الصلاحى ، وأفرد برسمه من أجرة الرِّباع الديوانية مشاهرة مبلغها مائتا دينار ، وغلاتٍ جهتها الفيوم ، واستخدم له أطباء وغيرهم . وفى حادى عشره خرج السلطان إلى بركة الجب ، لتجريد العساكر والمسير إلى الشام ، وخرج الملك العادل فى ثالث عشره إلى المخيم ، ونزل ناحية [بركة الجب ؟] . وسومح برسوم الولاة بمصر والقاهرة ، ورسوم الفيوم ورسوم الصعيد الأعلى ؛ وأُخرجت منجنيقات إلى الخيام برسم الغزاة . وفى حادى عشره سار سيف الإسلام [طُغتكين(٣) أخو السلطان صلاح الدين] إلى أخميم ، لجباية الجَوَالى(٤) والنظر فى أمر الشب . وظفر والى قوص برجلين من أهل إسنا يدعوان إلى مذهب الباطنية . وفى ثالث عشريه عُقد نكاح بنات العادل على أبناء السلطان صلاح الدين ، وهم : غياث الدين غازى ، ومظفر الدين خِضْر ، ونجم الدين مسعود ،

(١) فى س تورنشاه .

(٢) يقصد المؤلف قناة الإسكندرية التى كانت تخرج من فرع رشيد عند بلدة زاوية البحر ، جنوبى مدينة كفر الزيات الحالية ، (P. Omar Tousson : Mem. Sur Anc. Branches Du Nil. pp. 196 et seq.) ، على أنه لا يوجد فى هذا المرجع ذكر لما أحدثه صلاح الدين بذلك الخليج .

(٣) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II. in pocket) .

(٤) "هى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة . وهى على قسمين : ما فى حاضرة الديار المصرية من الفسطاط والقاهرة ، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية فإن لهذه الجهة بها ناظرا يولى من جهة السلطان ... ... وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها ، فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره ، تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية ، كان ما يحصل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا فى ذلك الديوان" . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ — ٤٦٣) .

وشرف الدين يعقوب ؛ والصداق فى كل كتاب عشرون ألف دينار . وعَقد السلطان الهدنة مع رسول القومص ملك الفرنج بطرابلس؛ ونودى بمنع أهل الذمة من ركوب الخيل والبغال، من غير استثناء طبيب ولا كاتب . ومات الملك الصالح مجير الدين إسماعيل بن العادل نور الدين محمود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى صاحب حلب فى يوم الجمعة خامس عشرى رجب ، فقام من بعده ابن عمــه السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى . وكان موت الصالح هو المحرّك للسلطان [صلاح الدين] على السفر ، وكتب لابن أخيه المظفر تقى الدين عمر صاحب حماة وغيره من النوّاب بالتأهب، وكاتب الخليفــة الناصر يسأل ولاية حلب .

* * *

[سنة ثمان وسبعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ثمان وسبعين، والسلطان مبرز بظاهر القاهرة؛ فلما خرج الناس لوداعه، وقد اجتمع عنده من العلماء (٢٣ ب) والفضلاء كثير، وهم يتناشدون ما قيل فى الوداع، فأخرج بعض مؤدّبى أولاد السلطان رأسه من الخيمة، وقال:

تمتع من شُميم عَرار نجد فما بعد العشية من عرار

فتطير الحـاضرون من ذلك ، وصحت الطِّيَرَة ، فإن السلطان رحل من ظاهر القاهرة فى خامس المحرّم من هذه السنة، ولم يعد بعد ذلك إلى القاهرة. فسلك فى طريقه على أيلة، فأغار على بلاد الفرنج، وسار على سمت الكرك، وبعث أخاه تاج الملوك بالعسكر على الدرب. وخرج عز الدين فرخشاه من دمشق، فأغار على طبرية وعكا، وأخذ الشَقيف[1] [أَرْنُون]، وعاد بألف أسير وعشرين ألف رأس غنم ،وأنزل فيه طائفة من المسلمين. وألقى الريحُ بُطسةً[2] للفرنج إلى بردمياط ، فأسر منها ألف وستمائة وتسعون نفسا سوى من غرق . فدخل السلطان

(١) قلعــة حصينة قرب بانياس ، من أرض دمشق ، بينهـا وبين الساحل . وتسمى فى كتب المؤرخين الفرنج (Beaufort)، انظر (Rec. Hist. Or. V. Index) . وأضيف إليها اسم أرنون تمييزا لها من شقيف دركوش وشقيف دبين ، وكلها بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٣٠٩ — ٣١٠) . (٢) نوع من السفن . انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.)، وانظر أيضا (Makhairas: Chron. of Cyprus, Vol. II. p. 141)، وكذلك (Rec. Hist. Or. IV. P. 216. N. 3) . وفى محيط المحيط : البطسة مركب للحرب أو التجارة بلغة إسبانيا ، ج بطس .

إلى دمشق، يوم الإثنين لثلاث عشرة بقيت من صفر، فأقام بها يسيراً ؛ ثم أغار على طبرية، واشتدّ القتال مع الفرنج تحت قلعة كَوْكَب (١) ، واستُشْهِد جماعة من المسلمين؛ وعاد إلى دمشق فى رابع عشر ربيع الأوّل ، وخيم بالفَوّار (٢) من عمل حوران، وأقام به حتى رحل إلى حلب .

وخرج سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب بن شادى، من القاهرة إلى اليمن، بعد مسير السلطان، ووصل إلى زَبيد فملكها، وأخذ منها ما قيمته ألف ألف دينار، واحتوى على عدن أيضًا .

وخرج السلطان من دمشق يريد حلب،فنزل عليها يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، ونازلها ثلاثة أيام؛ ثم رحل إلى الفرات، نخيم على غربى البيرة، ومَدَّ الجسر، وكاتب ملوك الأطراف؛ ورحل إلى الرها فتسلمها، وسار عنها إلى حران فَرَتَّبها، وانفصل عنها إلى الرقة فلكها وما حولها؛ ونازل نصيبين حتى ملكها وقلعتها . فورد الخبر بقصد الفرنج دمشق ونهبهم القرى ؛ فسار ونازل الموصل فى يوم الخميس حادى عشر رجب، وألح فى القتال فلم ينل غرضًا؛ ورحل يريد سنجار ، فنازلها وضايقها من يوم الأربعاء سادس عشرى شعبان . ودخل رمضان فكف عن القتال، ثم تسلمها بالأمان يوم الخميس ثانية؛ وأعطاها [ابن أخيه] الملكَ المظفر تقى الدين [عمر]، ورحل إلى نصيبين فأقام بها لشدّة البرد ، وسار عنها إلى حران ؛ ثم رحل ونزل على آمد، لثلاث عشرة بقيت من ذى الحجة .

وفيها قصد الفرنج بلاد الحجاز، وأنشأ البرنس أرناط (٣) صاحب الكرك سفناً، وحملها على البر إلى بحر القُلْزُم، وأركب فيها الرجال ؛ وأوقف منها مركبين على حِرْزَة (٤) قلعة القلزم (٥) ، لمنع

(١) قلعة حصينة بالجبل المطل على مدينة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٣٢٨) .

(٢) الفوار واد بالقرب من حصن الأكراد من عمل طرابلس ، به بئر يعرف بهذا الاسم . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٧٤) . (٣) فى س ارباط . (٤) كذا فى س بغير ضبط . وهى فى محيط المحيط بكسر الحاء الموضع الحصين. (٥) الراجح أن المؤلف يقصد بلدة أيلة كما فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٣٢٣) . أما القلزم فوضع على البحر قريب من مدينة السويس الحالية ، وكان فرضة مصر والشام ، ومنه تحمل المتاجر إلى الحجاز واليمن . ثم أنه أصبح خرابا زمن ياقوت ، فتحوّلت التجارة إلى موضع السويس . (ياقوت : معجم البلدان . ج ٤، ص ١٥٨ — ١٦١) .

أهلها من آستقاء المـاء . وسارت البقية نحو عَيْذَاب، فقتلوا وأسروا ، وأحرقوا فى بحر القلزم نحو ست عشرة مركبًا؛ وأخذوا بعيذاب مركبًا يأتى بالحجاج من جدّة؛ وأخذوا فى الأسر قافلة كبيرة من الحجاج فيما بين قوص وعيذاب، وقتلوا الجميع؛ وأخذوا مركبين فيهما بضائع جاءت من ايمن؛ وأخذوا أطعمة كثيرة من الساحل كانت معـدّة لميرة الحرمين؛ وأحدثوا حوادث لم يسمع فى الإسلام بمثلها، ولا وصل قبلهم رومى إلى ذلك الموضع ؛ فإنه لم يبق بينهم وبين المدينـة النبوية سوى مسيرة يوم (١) واحد ، ومضوا إلى الحجاز يريدون المدينة (٢٤ ا) النبوية . فجهز الملك العادل، وهو يخلف السلطان بالقاهرة، الحاجبَ حسام الدين لؤلؤ إلى القلزم؛ فعمر مراكب بمصر والإسكندرية، وسار إلى أيلة، وظفر بمراكب للفرنج، فحرقها وأسر من فيها؛ وسار إلى عيذاب، وتبع مراكب الفرنج، فوقع بها بعد أيام واستولى عليها، وأطلق من فيها من التجار المأسورين ، وردَّ عليهم ما أُخذ لهم ؛ وصعد البر، فركب خيلَ العرب حتى أدرك من فرَّ من الفرنج وأخذهم ، فساق منهم اثنين إلى منى ونحرهما (٢) بها كما تنحر البُـدْن ، وعاد إلى القاهرة بالأسرى فى ذى الحجـة ، فضربت أعناقهم كلهم . وعاد الأسطول [من بحر (٣) الروم] بعد نكاية أهل الجزائر، ومعه بطسة للفرنج كانت تريد عكا، بها أخشاب ونيف وسبعون رجـــلا .

ومات عز الدين فرخشاه الملقب بالملك المنصـور فى دمشق فى أول جمـادى الآخرة . ومات الشيخ الزاهد رُوزْبِهار بن أبى بكر بن محمد بن أبى القاسم الفارِسى الصوفى (٤)، يوم الأربعاء الخـامس من ذى القعدة، ودفن بقرافة مصر . وفيها انقرضت دولة آل سبكتكين، وكان ابتداؤها سنة ست وستين وثلاثمائة ، فملكوا مائتى سنة وثلاث عشرة سنة . وأولهم محمود بن

---

(١) توجد بالهامش إزاء هذه السطور العبارة الآتية : " انظر قصد الفرنج بلاد الحجاز " ، وهى بخط مخالف .

(٢) فى س ونحرهم . (٣) الراجح أن هذه المعركة البحرية كانت قرب إحدى الجزائر الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين، ص ٢٣٥، فى Rec. Hist. Or. IV)، وابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج١١، ص٣٢٦) . (٤) انظر بعض أخباره فى (Blochet: Op. cit. p. 155. N. 1) .

سبكتكين، وآخرهم خسروشاه بن بهرام بن شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين[1] . وقام بعدهم الغُورِيّة[2]، [وأولهم عز الدين حسن، صاحب بلاد الغور] .

وفيها ورد الخبر بأن الماء الذى [فى] زُقَاق سَبْتَة[3] قَلَّ، حتى ظهرت القنطرة التى كان يعبر الناس عليها فى قديم الدهر إلى أن غلب عليها البحر وطمّها؛ فلما قل الماء فى هذه السنة عنها لم يبق عليها منه سوى قامتين، ورأى الناس آثار بنيانها، وأن مركبًا انكسر عليها .

* * *

[سنة تسع وسبعين وخمسمائة] . وأهلت سنة تسع وسبعين والسلطان على آمد، فتسلمها فى أوائل المحرّم، فقدمت عليه رسل ملوك الأطراف يطلبون الأمان . وخرج الفرنج إلى نواحى الدَّارُوم[4] ينهبون، فبرز إليهم عدة من المسلمين على طريق صدر وأيلة، فأظفرهم الله، وقتلوا وغنموا وعادوا سالمين . وفيه سار الأسطول من مصر، فظفر ببطسة فيها ثلاثمائة وخمسة وسبعون عِلْجًا[5]، قدموا بهم فى خامس المحرم إلى القاهرة . وتوجه سعد الدين كَمشبه[6] [الأسدى] وعلم الدين قيصر إلى الداروم، فأوقعوا بالفرنج على ماء[7]، وقتلوهم جميعًا، وقدموا بالرءوس [إلى]

---

(١) آخر ملوك هذا البيت هو تاج الدولة خسرو ملك، وقد جاء بعد خسروشاه المذكور هنا . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 289) .

(٢) راجع (Ibid: Op. cit. pp. 291 et seq.) .

(٣) الزقاق مجاز البحرين بين طنجة والجزيرة الخضراء فى بلاد المغرب (محيط المحيط)، وسبتة (Ceuta) مدينة حصينة بساحل مراكش قبالة جبل طارق . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٠، و Enc. Isl. Art. Ceuta) .

(٤) بغير ضبط فى س، وهى بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ، وهى بعد غزة فى الطريق إلى مصر، وبها قلعة، الواقف عليها يرى البحر . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٢٥، ٥٣٧) .

(٥) العلج الرجل الضخم من كفار العجم، وبعض العرب يطلق العلج على الكافر مطلقا، ج علوج وأعلاج (محيط المحيط) . وفى (Dozy : Supp. Dic. Ar.) هو الرجل الشهوانى المستهتر، والذى كان مسلما فتنصر، أو نصرانيا فأسلم . وقد ترجمها (Blochet : Op. cit. p. 156) إلى (Matelots) أى بحارة .

(٦) كذا فى س بغير ضبط، وهو مترجم فى (Blochet : Op.cit. p. 156) إلى (Kamsaba) . انظر أبا شامة (كتاب الروضتين، ص ٣٤٦، ٣٨١، ٣٨٢، فى Rec. Hist. Or. IV) حيث ترجم إلى (Kemchebeh) .

(٧) هذا اللفظ غير واضح فى س، وكذلك بعض الكلمة السابقة له .

القاهرة فى رابع عشريه . ورحل السلطان عن آمد، وعبر الفرات يريد حلب، فملك عَيْن تاب (١) وغيرها ، ونزل على حلب — بكرة يوم السبت سادس عشرى المحرم — وقد خرّب السلطان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى قلعتها (٢) فى جمادى من سنة ثمان وسبعين [وخمسمائة] . وتسلمها [صلاح الدين] بصلح، يوم السبت ثامن عشر صفر، على أن تكون لعماد الدين سنجار . ومات تاج الملوك بُورِى (٣) بن أيوب بن شادى فى يوم الخميس ثالث عشريه بحلب . وسار عماد الدين إلى سنجار . فولَّى السلطان قضاء حلب محيى الدين محمد بن الزكى على القرشى قاضى دمشق، فاستناب بها زينَ الدين ندا بن الفضل بن سليمان البانياسى؛ وولَّى يازكج (٤) قلعتها، وجعل ابنه الملك الظاهر غياث الدين غازى (٥) ملكا بها، ورحل عنها لثمان بقين من ربيـع الآخر . فدخل دمشق ثالث جمادى الأولى ، وأقام بهـا إلى سابع عشريه ؛ وبرز وسار إلى بَيْسَان (٦) ، فعبر [نهر] الأُرْدُن (٧) فى تاسع جمادى الآخرة، وأغار على بيسان فأحرقها ونهبها . وفعل ذلك (٢٤ ب) بعدة قلاع ، وأوقع بكثير من الفرنج . واجتمع بعين جَالُوت (٨) من الفرنج خلق كثير، ثم رحلوا، وأسر [السلطان] منهم كثيرا، وخرب من الحصون حصن بيسان وحصن عَفْربلا (٩) وزَرْعين (١٠)، ومن الأبراج والقرى عشرة . وعاد إلى دمشق لست بقين من جمادى الآخرة ، ثم خرج فى يوم السبت ثالث رجب يريد الكرك ، فنازله مدّة ولم ينـل منه غرضًا . فسار إلى دمشق ، وقد وصل إليـه

(١) فى س عنتاب ، وهى قلعة حصينة بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدلوك . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٥٩).

(٢) يتضح من (Blochet : Op. cit. p. 157. N. 3)، أن المقريزى خلط هنا بين حلب وعزاز.

(٣) انظر بعض أخباره فى (Blochet : Op. cit. p. 157. N. 4)

(٤) فى س يازكوج.

(٥) فى س ايلغازى. انظر (Blochet : Op. cit. p. 157. N. 5)

(٦) فى س بسان بغير ضبط، وهى مدينة بين حوران وفلسطين. (ياقوت معجم البلدان، ج ١، ص ٧٨٨، و Blochet : Op. cit. p. 158. N. 3).

(٧) بغير ضبط فى س. (انظر ياقوت : نفس المرجع، ج١، ص ٢٠٠، و Blochet : Op. cit. p. 158. N. 4).

(٨) قرية صغيرة بين بيسان ونابلس . (ياقوت : نفس المرجع، ج ٣، ص ٧٦٠) . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : "وكانت يومئذ بلدة عامرة، يزرع بها قصب السكر على عينها التى يقال لها عين جالوت" .

(٩) بغير ضبط فى س، وهى بلدة بغور الأردن قرب بيسان وطبرية . (ياقوت : معجم البلدان ج ٣، ص ٦٨٨).

(١٠) مضبوطة على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 159) ولعلها درين أو زرين المذكورة فى (G.-Demembynes : Op. cit. p. 243 ; Le Strange : Palestine Under Moslems. p. 441.)

أخوه الملك العادل من مصر فى رابع شعبان . فاجتمع السلطان بأخيه الملك العادل على الكرك ، وقد خرج إليه بعسكر مصر . وفى يوم الخميس خامس عشره رحل الملك المظفر تقى الدين من الكرك إلى مصر ، عوضا عن العادل ، وارتجع عن العادل إقطاعه بمصر ، وهو سبعمائة ألف دينار فى كل سنة . فجُهز إليها الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، ومعه القاضى الفاضل ، وأُنعم على تقى الدين بالفيوم وأعمالها مع القايات(١) و بوش ، وأُبقى عليه مدينة حماة و جميع أعمالها .

ووصل السلطان إلى دمشق لثمان بقين من رمضان ، وبعث بالملك العادل إلى حلب فى ثانى رمضان . فقدم الظاهر على أبيه بدمشق ومعه يازكج(٢) ؛ وقدم شيخ الشيوخ صدر الدين وشهاب الدين بشير من عند الخليفة الناصر ، ليصلحا بين السلطان و بين عز الدين صاحب الموصل ، ومعهما القاضى محيى الدين أبو حامد بن كمال الدين الشهرزورى ، وبهاء الدين بن شدّاد ، فأقاموا مدّة ورحلوا بغير طائل ، فى سابع ذى الحجة .

وفيها ظهر بقرية بُوصِير(٣) بيت هرمس ، فخرج منه أشياء ، منها كباش وقرود وضفادع بازهر(٤) ودهنج(٥) وأصنام من نحاس . وفيها قتل شرف الدين برغش(٦) على الكرك فى ثانى عشرى

(١) فى س العايات ، انظر ص ٩١ حاشية ٣ ، والقايات بالمنيا الحالية ومركزها مغاغة على حافة الصحراء الغربية ؛ و بوش فى بنى سويف ومركزها بنى سويف نفسها .

(٢) فى س زكوج . (٣) يوجد بمصر أربع قرى بهذا الاسم (Blochet : Op. cit. p. 160, N. 2) ، والراجح أن المقصود هنا بوصير قوريدس بالفيوم ، التى قتل فيها مروان بن محمد ، آخر ملوك بنى أمية سنة ١٣٢ هـ . (المقريزى : المواعظ والاعتبار : ج ١ ، ص ٣٤ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٨١) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو حجر خفيف هش ينسب إليه قوى غريبة فى مقاومة السموم ، ويسمى أيضا بادزهر ، وهو لفظ فارسى مركب من كلمتين ، الأولى باد ومعناها طارد ، والثانية زهر ومعناها سم . (محيط المحيط و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا و بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١١١) فصل طويل عن الباد زهر وخصائصه . (٥) بغير ضبط فى س ، وهو جوهر كالزمرد ، ويتكون من معدن النحاس . (محيط المحيط ، و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . و بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ص ١٠٧) أن الدهنج مسكن للسموم أيضا . (٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 161) ، وله سمى مترجم إلى (Barghash) فى (Rec. Hist. Or. I. Index) .

رجب ، فحمل إلى زُرَع[1] ودفن فى تربته . [و][2] فى سنة تسع وسبعين هذه وقعت بالوجه البحرى [قطع] برد كبيض الأوز أخربت ما صادفته من العامر ، ودمّرت الزروع ، وأهلكت كثيرا من الماشية والناس .

* * *

سنة ثمانين وخمسمائة . فى خامس المحرم توجهت قافلة بغلات وسلاح وبَدَل[3] مجرّد إلى قلعتى أيلة وصدر ، وخرج من الشرقية جماعة يخفرونها مع قيصر والى الشرقية ، فأوصلها إلى أيلة وصدر . وعاد فى خامس عشريه ، وكان العدو قد نهض إليها وعاد عنها . وأهلت [هذه السنة] والسلطان بدمشق ، فبعث إلى الأطراف يطلب العساكر ، فقدم عليه ابن أخيه تقى الدين بعساكر مصر ، ومعه القاضى الفاضل . [و] خرج السلطان من دمشق يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول إلى جِسْر الخَشَب[4] ؛ وقدم الملك العادل من حلب — ومعه نور الدين بن قرا أرسلان[5] — إلى دمشق يوم الخميس رابع عشريه ، وخرجا إلى الكُسْوة[6] . فرحل السلطان فى ثانى ربيع الآخر من رأس الماء يريد الكرك ؛ وخرج تقى الدين فى عسكر مصر ، ومعهم أولاد الملك العادل وأهله ، يوم الأربعاء مستهله ، فساروا إلى أيلة ، ووصلوا إلى السلطان فى تاسع عشره وهو على الكرك . وسارت أولاد العادل فى حادى عشريه ، فلقوا العادل وهو على الفوار فى خامس عشريه ، ووصل معهم زرافة . فاجتمعوا به وساروا إلى حلب ، ومعهم بكمش[7] بن عين الدولة الياروقى ، وعلىّ بن سليمان بن جَنْدَر[8] ، ونزل العسكر الحلبى على عَمّان مدينة

(١) بغير ضبط فى س ، وهو اسم يطلق على بلاد بفلسطين والأردن (Le Strange : Palestine Under Moslems, p. 556 ; also Index) .
(٢) فى س وقع .
(٣) لعل المقصود أنه كان بالقافلة أعداد من الخيول وغيرها ، أرسلت خصيصا لإبدال ما هنالك من المطايا . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .
(٤) موضع بظاهر دمشق ، و يعرف أيضا بمنازل العساكر . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٦٦ ، ٢٥٩ ، فى Rec. Hist. Or. IV.) .
(٥) فى س قرارسلان .
(٦) بغير ضبط فى س ، وهى أول منزلة للقوافل الذاهبة من دمشق إلى مصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٥) .
(٧) كذا فى س بغير ضبط ويرجح (Blochet : Op. cit. p. 162. N. 1) أن صحته (Bektash) .
(٨) بغير ضبط فى س . انظر (Rec. Hist. Or. I. pp. 663, 673) .

البلقاء (١) فى ثامن جمادى الأولى ، ورحل عنها فى ثانى عشره إلى الكرك . وقدم العادل وابن قرا أرسلان إلى الكرك فى سابع عشره ، وعملت المجانيق إلى ليلة الخميس حادى عشريه ، ثم رُميت تلك الليلة . ورحل العسكر كله لخبر ورد عن اجتماع الفرنج ، وساروا إلى اللَّجُّون (٢) ، ونزل الفرنج بالوالِه (٣) . ثم سار العسكر إلى ناحية البلقاء ، فنزلوا حَسبان (٤) تجاه الفرنج ، إلى نصف نهار الإثنين سادس عشريه . فرحل الفرنج إلى الكرك ، والعسكر وراءهم إلى نابلس ، فهاجمها (٥) العسكر يوم الجمعة سلخه ، وحرقوها ونهبوها ؛ وساروا فأخذوا أربعة حصون (٦) ، ونزلوا على جِينِين (٧) ، ونقبوا قلعتها حتى وقعت ، وقُتل تحتها من النقابين عدّة ، وأُخذت عنوة وغنم منها شيء كثير . ورحلوا فى ليلتهم إلى زرعين و[عين] جالوت ، وأحرقوهما فى الليل ، وعبروا الأردن يوم الأحد ثانى جمادى الآخرة ، ونزلوا الفوّار رابعه .

ودخل السلطان دمشق يوم السبت سابعه ، ومعه عساكره كلها . وقدم أخوه العادل من حلب ، وأتته العساكر المشرقية وعساكر الحصن (٨) وآمد ؛ وسار بهم يريد الكرك لأخذها من الفرنج . فنازلها فى رابع عشر جمادى الأولى ، ونصب عليها تسعة مجانيق رماها بها . وقدمت الأمداد من الفرنج ، فرحل السلطان إلى نابلس ، ونهب كلَّ ما مرّ به من البلاد ؛ وأحرق نابلس وخربها ونهبها ، وقتل وسبى وأسر ، واستنقذ عدّة من المسلمين كانوا أسرى ، وسار إلى جينين ، وعاد إلى دمشق . فقدم عليه رسل الخليفة ، وهما الشيخ صدر الدين عبد الرحيم بن اسماعيل بن أبى سعد أحمد ، و[شهاب الدين] (٩) بشير الخادم ، ومعهما خلع

(١) جهات واسعة بين دمشق ووادى القرى . انظر (Blochet : Op. cit. p. 162. N. 2)

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو بلد بالأردن ، بينه وبين طبرية عشرون ميلا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥١) . (٣) بغير ضبط فى س ، انظر (Rec. Hist. Or. IV. p. 248) . (٤) بغير ضبط فى س ، انظر (Blochet : Op. cit. p. 162.N. 4) . (٥) فى س فهجمها . (٦) فى س اربع .

(٧) فى س حينين ، وبغير ضبط ، وهى بليدة بين نابلس وبيسان . (ياقوت : معجم البلدان ج ٢ ، ص ١٨٠) .

(٨) يقصد المؤلف حصن كيفا ، وهو قلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٧٧) . (٩) انظر ص ٨٢ ، وكذلك ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٣٥) .

للسلطان والملك العادل، فلبساها. وطلب[1] [الرسولان] تقرير الصلح بين السلطان وبين عز الدين صاحب الموصل؛ فلم يتقرر بينهما صلح؛ وخرجا من دمشق، فماتا قبل وصولهما إلى بغداد.

وخلع السلطان على جميع العساكر، وأذن لهم فى المسير إلى بلادهم، بعد ما أعطاهم شيئا كثيرا، فساروا. وفى نصف شعبان سار المظفر تقى الدين بعساكر مصر يريد العود إلى القاهرة، وقُرئت وصية سلطانية، تضمنت ولاية الملك العزيز عثمان ابن السلطان لمصر بكفالة ابن عمه تقى الدين عمر، وولاية (١٢٥) الملك الأفضل [أكبر أبناء السلطان[2]] على الشام بكفالة عمه العادل صاحب حلب؛ وأنّ مدّة الكفالة إلى أن يعلم المسلمون باستقلال كل واحد بالأمر، ويستقر الكافلان فى خبزيهما وما بأيديهما، ومن عُدم من الولدين قام الأمثل من إخوته مقامه، أو من الكافلين قام الباقى منهما مقام الآخر، واستُحْلِف الحاضرون من الأمراء؛ وولى قراءة العهد بذلك القاضى المرتضى بن قريش. وسومح بهلالىّ البهنسا[3]،

(١) فى س وطلبا. (٢) انظر (Lane-Poole : Saladin. Table II., in pocket).

(٣) البهنسا مدينة بصعيد مصر الأدنى غربى النيل، وتضاف إليها كورة كبيرة، وهى عامرة كثيرة الدخل. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧١؛ والمقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٣٧ — ٢٣٨). وهى الآن قرية صغيرة قرب بنى مزار (Enc. Isl: Art. Bahnasā). والهلالى المكوس التى تجبى فوق الخراج بالديار المصرية، وفيها يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١٠٣ وما بعدها) ما نصه: "اعلم أن مال مصر فى زمننا ينقسم إلى قسمين: أحدها يقال له خراجى، والآخر يقال له هلالى. فالمال الخراجى ما يؤخذ مسانهة من الأراضى التى تزرع حبوبا ونخلا وعنبا وفاكهة، وما يؤخذ من الفلاحين هدية، مثل الغنم والدجاج والكشك وغيره من طرف الريف. والمال الهلالى عدّة أبواب، كلها أحدثوها (كذا) ولاة السوء شيئا بعد شىء ... ... وأوّل من أحدث مالا سوى مال الخراج بمصر أحمد بن محمد بن مدبر، بعد سنة خمسين ومائتين، فإنه كان من دهاة الناس وشياطين الكتّاب. فابتدع فى مصر بدعا سارت مستمرة من بعده لا تنقض: فأحاط بالنطرون، وحجر عليه بعد ما كان مباحا لجميع الناس، وقرر على الكلأ الذى ترعاه البهائم مالا سماه المراعى، وقرر على ما يطعم الله من البحر مالا وسماه المصايد، إلى غير ذلك. فانقسم حينئذ مال مصر إلى خراجى وهلالى؛ وكان الهلالى يعرف فى زمنه بالمرافق والمعاون. فلما ولى الأمير أبو العباس أحمد بن طولون إمارة مصر، وأضاف إليه أمير المؤمنين المعتمد على الله (١٠٤) الخراج والثغور الشامية، رغب وتنزه عن أدناس المعاون والمرافق، وكتب بإسقاطها فى جميع أعماله، وكانت تبلغ بمصر خاصة مائة ألف دينار فى كل سنة ... ... ثم أعيدت الأموال الهلالية فى أثناء الدولة الفاطمية عند ما ضعفت، وصارت تعرف بالمكوس. فلما استبد السلطان الناصر صلاح الدين أبو المظفر =

وهو ألف ومائتا دينار؛ وسومح بالأتبان، وما تَقْصُر عن ألفى دينـار؛ ومنع من ضمـان المزر والخمر والملاهى، وتُرِك ما كان يؤخذ من رسم ذلك للسلطان بديار مصر. وخرج السلطان من دمشق يريد البلاد الشرقية؛ فأقام بحماة بقية السنة، وكان نزوله عليها فى عشرى ذى القعدة.

وفى هذه السنة أقيمت خطبة فى سابع المحرم عند قبر سَارِيَة (١) بِلِحْف (٢) الجبل، فى غير بنيان وبغير سكان، وتم ذلك بعصبية جماعة. ثم أُحدث جامع عند قبة موسك (٣) وبقيت سـنين. وبلغ النيل ثلاث عشرة إصبعا من تسع عشرة ذراعا، فأضرَّ ذلك بالقرى، وخرج أهلها منهـا لسقوط جدرانهم. وغرقت البساتين والأقصـاب، وفاضت الآبار، وانقطعت الترع (٤)، وكثر الضرر، كما حصل فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة.

و[فى هـذه السنة] مات السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن بن على ملك المغرب، لسبع خلون من رجب. ومات إِيلْغَازِى [بن نجم الدين] بن أَلْبِى (٥) بن تَمُرْتَاش بن إيلغازى بن أُرتق الأرتقى قطب الدين (٦)، صاحب مارِدِين (٧)، فى جمـادى الآخرة. وفيها مات

= يوسف بن أيوب بملك مصر أمر بإسقاط مكوس مصر والقاهرة، فكتب عنه القاضى الفاضل مرسوما بذلك، وكان جملة ذلك فى كل سنة مائة ألف دينار ... ... (١٠٥) وذكر ابن أبى طى أن الذى أسـقطه السلطان صـلاح الدين، والذى سامح به لعدة سنين آخرها سنة أربع وستين وخمسمائة، مبلغه عن نيف (كذا) ألف ألف دينار وألفى ألف أردب، سامح بذلك وأبطله من الدواوين، وأسقطه عن المعاملين، فلما ولى السلطان الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف أعاد المكوس وزاد فى شناعتها ... ... " انظر أيضا (نفس المرجع، ج ٢، ص ٢٦٧ — ٢٦٨، والقلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٧١).

(١) بغير ضـبط فى س. وهـذا القبر من مزارات القاهرة ومشاهدها، وهو بالقـرافة، وصاحبـه سارية ابن أبى زنيم اليسانى، وهو الذى ناداه الخليفـة عمر بن الخطاب على المنبر "ياسارية الجبل!". (ياقوت : معجم البـلدان : ج ١، ٧٨٨، ج ٣، ص ٦٤٥، ج ٤، ص ٢٤٧، ٤٨٥، ٥٥٥). (٢) أى قاعدة الجبل. (محيط المحيط). (٣) بغير ضبط فى س، ولعله قبر موسك بن المجلى بن زعيم الأكراد البختية. (انظر ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ٩، ص ٤١٦). هذا وقد كان للسلطان صلاح الدين ابن خال اسمه عز الدين موسك، منشئ قنطرة الموسكى بالقاهرة، غير أنه مات بدمشق سنة ٥٨٤ هـ. (المقـريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٤٧). (انظر ص ١٠٣). (٤) فى س التراع. (٥) فى س الى. راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٣٥). (٦) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit., p. 165)

(٧) قلعة حصينة على قنة جبل الجزيرة، مشرفة على نصيبين. (ياقوت : معجم البلدان ج ٤، ص ٣٩٠).

آقسنقر الساقى، صهر قراجا الهام، بحلب فى يوم الجمعة حادى عشر رجب . وفيها رسم السلطان بتقييد أولاد [الخليفة] العاضد [الفاطمى] ومن بقى من أقاربه .

* * *

(تمة[1] سنة ثمانين وخمسمائة) . أول المحرم يوم الاثنين، فيه ابتدئ بالتدريس فى المدرسة الفاضلية بدرب ملوخيا من القاهرة . وفى خامسه توجهت القافلة بالبدل المجرد[2] إلى قلعتى صدر وأيلة مع قيصر والى الشرقية . وفى سابعه أقيمت الخطبة عند قبر سارية بالحف الجبل فى غير بنيان ولا سكان . وفى ثامنه وردت كتب السلطان من دمشق ، باستدعاء العساكر، وجمع الأموال والأسلحة والأمتعة . وفى حادى عشره كانت فتنة بين العرب الجذاميين، فخرج عسكر إلى الشرقية . وعدّى الملك المظفر إلى الجيزة بأولاده، لدعوة عملها الطواشى قراقوش[3] عند قناة طُرة[4]، وعاد من الغد . وفى ثامن عشره وردت كتب السلطان من دمشق، لاستنهاض العساكر لغزاة الكرك، وأن يستصحبوا من الراجل ما قدروا عليه . فبرزت الخيام إلى بركة الجب فى عشريه ، وخرج من الغد الملك المظفر تقى الدين النائب بمصر . وفى ثانى عشريه ورد الخبر من ناظر قوص بغرق أربع جِلاب[5]، بها ألف وثلثمائة رجل من الحجاج، هلكوا [كلهم]. وفى خامس عشريه عاد قيصر والى الشرقية من صدر، بعد أن أوصل القافلة إلى أيلة، وعاد بالقافلة العائدة ، وكان العدوّ قد نهض إليها ، ثم عاد عنها . وفى سلخه ورد الخبر بأن المؤيد سيف الإسلام مَلَكَ بلاد اليمن، واعتقل خطاب بن منقذ بزبيد .

[وأهلّ] صفر . فى رابعه ورد الخبر بوصول تابوتى نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه، إلى المدينة النبوية، ودفنهما بها . وكان قد حُمِل بهما إلى قوص، وعدّى بهما من بحر عيذاب

(١) هذا بدء هامش مكتوب على ورقتين منفصلتين فى س، بين صفحتى ٢٤ ب ، ٢٥ أ . وليس لما ورد به وجود فى ب .

(٢) انظر ص ٨٣ ، ويلاحظ أن هذه الأخبار وبعض ما بعدها قد تقدم ذكره .

(٣) فى س قراغوش، وبالهامش العبارة الآتيــة بخط مخالف : " ذكر ابن الأثير أن هذا قراقوش (كذا) بالقافين، وأنه هو الذى عمر قلعة الجبل ، والمؤلف يسميه قراغوش، والله أعلم " . انظر ص ٦٠ حاشية ٨

(٤) فى س قناطره ، بغير ضبط . انظر (P. Omar Toussoun : Op. cit. T. I. I., p. 190) .

(٥) نوع من سفن التجارة خاص بالبحر الأحمر، ومفرده جَلْبَة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

إلى المدينة، وكان سيرهما فى أوّل السنة الماضية. وفى سادسه سار الأسطول، وهو أحد وثلاثون شينيًا[(١)] وحراقة . وفى سابعه جرت فتنة بين الأشاعرة والحنابلة، سببها إنكار الحنابلة على الشهاب الطوسى تكلمه فى مسألة [من مسائل] الكلام فى مجلس وعْظه . وترافعوا إلى [الملك] المظفر بخيمه، فرسم برفع كراسى وعظ الفريقين؛ وقد أطلق كلٌّ من الفريقين لسانه فى الآخر. وفى ثامنه وقع مطر عظيم، ورعد قاصف وريح عاصف، وبرق خاطف وبرد كثير كبار[(٢)] . فحل بالعسكر المبرز بلاء شديد ، وعطبت الثمار، وتفسّخت الأشجار، وانقعر النخل، وعمت الجائحة الثمار والزروع ، التى لم تُحصد وما حصِد، وتلفت المقاثئ . وفى عاشره عقد مجلس لأصحاب الدواوين [للفاضلة ما بين] ابن شكر وابن عثمان : فتسلم ابن عثمان الدواوين، بعد أن أخذ خطه بزيادة خمسة عشر ألف دينار على الارتفاع؛ ثم صُرف بابن شكر فى ثالث عشره.

[وأهلّ] شهر ربيع الأوّل . فى ثانى عشره سار المظفر تقى الدين من بركة الجب، يريد السلطان بدمشق. وعاد ابن السلار إلى القاهرة نائبًا عن المظفر . وعاد ابن شكر ناظرُ الدواوين [إلى القاهرة ؟] فى خامس عشره، ومعه ولد المظفر، فخرج الناس لتلقيه .

[وأهل] شهر ربيع الآخر . فى عشريه قدم المظفر على السلطان [صلاح الدين] بالقرب من الكرك .

[و] فى عاشر جمادى الآخرة أُخْلت أهل بلبيس [بلدتهم] فى ليلة واحدة، وقد سمعوا بمسير الفرنج إلى فاقوس . واضطرب الناس بالقاهرة ومصر والجيزة ، فسميت الهجة الكذابة . وقدم الخبر بأن سيف الاسلام قتل خطاب بن منقذ ومثّل به[(٣)] ، واستصفى أمواله باليمن ، وقبض على ألزامه . وكان العسكر عقيب الهجة خرج إلى بلبيس، فنهبها الغلمان، وأخذ الفرنج نحو مائتين وعشرين أسيرًا، وساقوا أغنامًا لا تدخل تحت حصر .

وفى رابع عشرى شعبان قدم المظفر تقى الدين إلى القاهرة بالعسكر، بعد شدّة لحقتهم فى طريقهم . وفى ذى القعدة ورد كتاب سيف الإسلام بأنه فتح باليمن مائة وثلاثة وسبعين

(١) فى س شينى . (٢) فى س وبرد كبير كبار . (٣) فى س ومثله .

حصنًا ، وقـدم أهل خطاب بن منقـذ وأخوه محمد إلى مصر . وخرج تقى الدين [ابن] أخى[1] صلاح الدين إلى البحيرة ليكشف أحوالهـا . و[كان] معه كاتبه الرضى بن سلامة ، فاستدفع من الدواوين حساباتهم ، وسار بهـا على بغل صحبـة تقى الدين ، فأرسل الله صاعقة من السماء أحرقت البغل وما عليه من الحساب ، وعاد تقى الدين[2] .

* * *

[سنة إحدى وثمانين وخمسمائة] . وأهلت سنة إحدى وثمانين ، فسار السلطان وبلغ حران فى يوم الجمعة ثامن عشرى صفر ، فقبض على صاحبها مظفر الدين كُوكُبُرى[3] ، واستولى عليها . ورحل عنهـا فى ثانى ربيع الأول ، فوافته رسـل الملك قلج[4] أرسلان بن مسعود [السلجوقى] صاحب الروم ، باتفاق ملوك الشرق بأجمعهم على قصده ، إن لم يُعُد[5] عن الموصل وماردين . فسار يريد الموصل ، وكاتب الخليفة بما عزم عليه من حصر الموصل ، ونزل عليها وحاصر أهلها وقاتلهم . فورد الخـبر بموت شاه[6] أرمن بن سقمان [الثانى ناصر الدين محمـد بن إبراهيم] صاحب خِلَاط[7] فى تاسع ربيع الأول ، فرحل [صلاح الدين] فى آخره يريد خلاط ، ثم عاد ولم يملكها ، [وسار] إلى مَيَّافارِقين[8] فتسلمها . ثم عاد إلى الموصـل ، ونزل على دجلة فى شـعبان ، وأقام إلى رمضان ، فمرض مرضًا مخوفًا ، فرحل فى آخر رمضان ، وهو لمـا به وقد أُيس منه . فنزل بحران ، فتقرر فيها الصلح بينه وبين المواصلة فى يوم عَرَفة ، وخُطب

---

(١) فى س اخو ، وليس بالمراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يشير إلى أخ لصلاح الدين بهذا اللقب .

(٢) آخر الهـامش المشار إليـه بصفحة ٧٨ حاشية ١ . (٣) بغير ضبط فى س ، انظر ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤١) . (٤) فى س قلح . (٥) فى س بضم الياء وفتح العين ، والظاهر أن المؤلف عكس موضع الحركتين خطأ . (٦) فى س شاهر من بن سمان . وقد أضيف ما بين القوسين من (Blochet : Op. cit. p. 166) . انظر أيضا ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١١ ، ص ٣٣٨) .

(٧) بغـير ضبط فى س ، وهى قصـبة أرمينية الوسطى . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ؛ و Blochet : Op. cit. p. 166. N. 2) . (٨) بغير ضبط فى س ، وهى من مدن ديار بكر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٠٣ — ٧٠٨) .

له بجميع بلاد الموصل، وقطعت خطبة السلجوقية منها ؛ وخطب له فى ديار بكر وجميع البلاد الأرتقية، وضُربت السكة باسمه، وأَمر بالصدقات فى جميع ممالكه .

[و] فى[(١)] يوم الثلاثاء سابع ربيع الأول حدثت بمصر زلزلة ، وفى مثـل تلك الساعة كانت [زلزلة] فى بعلبك أيضا . وفيه كانت بالإسكندرية فتنة بين العوام، نهبوا فيها المراكب الرومية، فقُبض على عدّة منهم ومثل بهم[(٢)] .

ومات [فى هـذه السنة] الملك القاهر ناصر الدين محمد بن أسـد الدين شيركوه صاحب حمص، ليلة عيد الأضحى . واتهم السلطان بأنه سمه : فإنه لمـا اشتدّ مرض السلطان تحدث بأنه يملك من بعـده . ومات فخر الدولة إبراهيم بن محمد بن (٢٥ ب) إبراهيم بن أحمد بن نصر الأسوانى ابن أخت الرشيد والمهذب ابنى الزبير فيها . وهو أول من كتب الإنشاء للسلطان، ثم كتب لأخيـه العادل . ومات[(٣)] سعد الدين بن مسعود بن معين الدين بآمد . ومات الأمير مالك بن ياروق فى منبج ليلة السبت مستهل رجب ، فحمل إلى حلب ودفن بهـا . وماتت آمنة خاتون بنت معين الدين [أُنَّار]، التى تزوجها السلطان [صـلاح الدين] بعد نور الدين محمود لمـا ملك دمشق، وكانت وفاتها يوم الإثنين ثالث ذى القعدة .

[و] فيها[(٤)] خرج المظفر [تقى الدين عمر] إلى كشف أحوال الاسكندرية . وشُرع فى عمل سور على مدينة مصر بالحجر، فلم يبـق فقير ولا ضعيف إلا خُطَّ[(٥)] فيـه ساحة (؟) من درب الصفا إلى المشهد النفيسى ، واتصلت العمارة فى خط الخليج إلى درب ملوخيا[(٦)] بمصر حتى بين الكومين (؟) وبجوار جامع ابن طولون والكبش، فعُمر أكثر من خمسة آلاف موضع بِشِقاف

(١ و ٢) ما بين الرقمين وارد بهامش الصفحة فى س ، ولم يشر المؤلف كعادته إلى المكان المناسب له من المتن ، وليست فى ب (٣٠ ب) . (٣) بقية تلك الوفيات واردة بهامش الصفحة فى س ، وليس بالمتن إشارة إلى مكانها المناسب منـه ، ولا هى موجودة فى ب (٣٠ ب) . على أنه لاشـك فى وقوعها سنة ٥٨١ هـ . انظر (Enc. Isl. Art. Khātun) . (٤) الفقرة الآتية أيضا إلى آخر السنة ، واردة بهامش الصفحة فى س ، قبل بدء الكلام عن السنة التالية . وليس منها فى ب (٣٠ ب) شىء . (٥) بغير ضبط فى س ، والعبارة كلها إلى علامة الاستفهام بالمتن ، غير واضحة تماما . (٦) فى س المرخا . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ج ٢ ، ص ٣٨) .

القتز(١) والخرشتف(٢) وتراب الأرض . وتحوّل الناس لجهة جامع ابن طولون والبركة وجانب القلعة . وفى شعبان ورمضان وقع وباء بأرض مصر و[فشا] موت الفجأة ، و[كثر الوباء] فى الدجاج أيضًا .

* * *

[سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة] . وأهلت سنة اثنتين وثمانين ، وقد أبل السلطان من مرضه ، فرحل من حرّان ؛ [و] نزل حلب فى رابع عشر المحرّم ، ومر من حلب إلى حمص ، فرتب أمورها وأسقط المكوس منها . ودخل إلى دمشق فى ثانى ربيع الأوّل ، وآستدعى ابنه الأفضل عليا من مصر ، لمنافرة كانت بينه و بين ابن عمه المظفر تقى الدين ، فقدم عليه بأهله وحشمه ، لسبع بقين من جمادى الأولى . وصُرف العادل عن حلب ، وتقرّر عوضه بها الملك الظاهر غياث الدين غازى ابن السلطان ، وعوّض العادل الشرقية بديار مصر .

وصُرف المظفر تقى الدين عمر من ديار مصر ونيابتها(٣) ، فغضب لذلك ، وعبر بأصحابه إلى الجيزة يريد اللحاق بغلامه شرف الدين(٤) قراقوش التقوى ، وأخْذ بلاد المغرب ؛ وجَعَل مملوكه

(١) فى س القند ، وبغير ضبط . والقنز الخزف — محيط المحيط . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) القنز الحجارة الكبيرة .

(٢) فى س الخرنشف ، بغير ضبط ؛ والخرشتف هو ما يتحجر مما يوقد به على مياه الحمامات من الأزبال وغيرها . هــذا ومن أخطاط القاهرة خط الخرشــتف ، بين حارة برجوان والكافورى ، ويتوصل إليه من بين القصرين ، ومدخله قبو يعرف بقبو الخرشتف . وإنما سمى هذا الخط بالخرشتف لأن الخليفة المعز الفاطمى بنى فيه الاصطبلات من هذه المـادة المتحجرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٧) .

(٣) العبارة الآتية واردة فى هامش على ورقة منفصلة بين الصحفتين ٢٥ ب ، ٢٦ أ : "كان إقطاع المظفر تقى الدين عمر البحيرة جميعها وهى بأربعمائة ألف دينار ، والفيوم بثلثمائة ألف دينار ، وفاى وقايات وبوش وهى بسبعين ألف دينار ؛ ثم عوّض عن بوش بسمنود والواحات ، وهى بستين ألف دينار ، وفوة والمزاحمتين وهى بأربعين ألف دينار ، وحوف رمسيس وهو بثلاثين ألف دينار ، والمرتب فى كل شهر على الإسكندرية ألف وخمسمائة دينار" . ويلاحظ أن مدلول هــذه الأقسام الإدارية أيام الأيوبيين ليس كمدلولهـا الحالى ، فقــد تغير حكم بعضها منذ عصر المماليك البحرية ، بإضافته إلى غيره من الأعمال مع بقـاء أسمائه ، ودرس اسم بعضها الآخر ونسى : فسمنود مثلا كانت كورة بذاتهـا ، ثم أضيفت إلى عمل الغربية ؛ وكورة المزاحمتين كانت تشمل ماجاور قناة الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الأبيض المتوسط ، فضلا عن بعض الأراضى بالبر الشرقى من فرع النيل ، وكانت حاضرتهـا فوة . وكان يلى كورة المزاحمتين بالجهات الغربيــة البحيرة ، ثم حوف رمسيس . راجع القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٩ — ٤١٠ ؛ و (P. Omar Toussoun : Op. cit. T. I. 1, 2.

(٤) فى س بها الدين .

بورى [1] فى مقدّمته . فبلغ ذلك السلطان ، فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه . فقبّح الأكابر عليه مشاقته السلطانَ [2] وحذروه ، فأجاب وتوجه إلى دمشق ، فوصلها ثالث عشرى شعبان . واستمر على ما بيـده من حماة والمعرة ومنبج وأضيف إليه ميافارقين ، وكتب إلى أصحابه فقدموا عليه من مصر ، ما خلا زين الدين بورى [3] مملوكه ، فإنه سار إلى المغرب ، وملك هناك مواضع [كثيرة] . ثم قصده صاحب المغرب وأسره ، ثم أطلقه وقدمه . ووصل الأفضل علىّ بن السلطان من القاهرة إلى دمشق يوم الخميس سابع عشر جمادى الأولى ، وهو أول قدومه إليها . وسار الملك العزيز عثمان إلى مُلك مصر ، ومعه عمه العادل أتابكا . وكان خروج العادل من حلب ليلة السبت رابع عشرى صفر ، فدخلا إلى القاهرة فى خامس رمضان .

ووقع الخلف بين الفرنج بطرابلس ، فالتجأ القومص [4] إلى السلطان ، وصار يناصحه ، واستولى الإبرنس [5] ملك الفرنج بالكرك على قافلة عظيمة ، فأسر من فيها ، وامتنع من إجابة السلطان إلى إطلاقهم ، فتجهز [السلطان] لمحاربته ، وكاتب الأطراف بالمسير لقتاله .

وفيها مات بمصر عبد الله بن أبى الوحش برّى [6] بن عبد الجبار بن برى النحوى ، ليلة السبت لثلاث بقين من شوال ، ومولده [بدمشق] فى خامس رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة .

* *

[سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة] . وأهلت سنة ثلاث وثمانين ، وقد برز السلطان من دمشق لجهاد الفرنج يوم السبت أول المحرم ، وأقر ابنه الأفضل على رأس الماء [7] ، ونزل بُصرى [8] ،

(١) فى س بوزنه بغير ضبط ، انظر (Blochet : Op. cit. p. 169, N. 5.) . هذا وإصلاح الدين أخ اسمه تاج الملوك بورى (Lane-Poole : Saladin, Table II, in pocket) . (٢) فى س "فقبح الاكابر عليه مشاقه" . (٣) فى س بوزنه . (٤) هو الكونت رايمون الثالث صاحب طرابلس الذى تقدم ذكره . (انظر ص ٥٩ حاشية ٢) . (٥) هو الأمير أرنو صاحب الكرك الذى تقدم ذكره (انظر ص ٦٤ حاشية ٥) .

(٦) بغير ضبط فى س ، واسمه كما جاء فى (Enc. Isl.Art. Ibn Barrī) أبو محمد عبد الله برى بن عبد الجبار ابن برى المقدسى المصرى .

(٧) بغير ضبط فى س ، واسمها أيضا الديلى . (G. Demombynes : Op. cit. p. 244. N. 1) .

(٨) بغير ضبط فى س ، وموقعها بالشام من أعمال دمشق ، وهى قصبة كورة حوران . (ياقوت معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٥٤) .

فأقام لحفظ الحاج حتى قدموا فى آخر صـفر . فسار إلى الكرك ، فى اثنى عشر ألف فارس ، ونازلها وقطع أشجارها ؛ ثم قصـد الشّوبك (١) ، ففعل بها [مثـل] ذلك . وخرج الحاجب (٢٦ ا) لؤلؤ على الأسطول من مصر، وهو خمســة عشر شينيا ، ليسـير إلى الإسكندرية .

وخرج العـادل من القاهرة فى سابع المحرم إلى بركة الجب، وسار إلى الكرك، فمرّ على أيلة ، والتقى مع السلطان على القَرْيَتَيْن (٢) ، وعادا إلى الكرك ، فنازلاها فى ربيع الأول . وضايق [السلطان] أهلها ، ثم رحل عنها ، ونازل طبرية ؛ فاجتمع من الفرنج نحو الخمسين ألفا بأرض عكا، ورفعوا صليب الصلبوت (٣) . فافتتح السلطان طبرية عنوة فى ثالث عشرى ربيع الآخر، وغاظ ذلك الفرنج وتجمعوا، فسار إليهم السلطان، وكانت وقعـة حِطِّين (٤) ، التى نصر الله فيها دينه، فى يوم السبت رابع عشريه . وانهزم الفرنج بعـد عدّة وقائع ، وأخذ المسلمون صليب الصلبوت ، وأسروا الإبرنس أرناط صاحب الكرك والشـوبك ، وعدّة ملوك [آخرين] ، وقتل وأسر [من سائر الفرنج] مالا يعد كثرة . ثم قُدِّم الإبرنس (٥) [أرناط (٦)]، وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الدّاوية والإسبتارية (٧) . ورحل [السلطان] إلى عكا، فنازلها سلخ ربيع الآخر، ومعه عالم عظيم .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٣٢؛ انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 472. N. 1) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة كبيرة من أعمال حمص ، وتدعى حوارين ، وبينها وبين تدمر مرحلتان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٧٨) .

(٣) جاء فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١١، ص ٣٥٣) أن صليب الصلبوت هو الصليب الأعظم عند المسيحيين، وأنهم يسمونه بهـذا الاسم لأن " فيه قطعة من الخشب التى صلب عليها المسيح عليه السـلام فى زعمهم " . ولهـذا الصليب أخبار كثيرة منها، فضلا عما سيرد فيما يلى، أنه نقـل إلى جزيرة قبرص، بعد خروج الصليبيين من الشام، ثم استولى عليه المسلمون عند فتحهم لتلك الجزيرة سنة ١٤٢٦ م . على أنه بقى بقبرص ، ورآه هناك أحد الرحالة الأوربيين سنة ١٤٨٨ م . راجع (Ziada : Maml. Conquest of Cyprus, p. 102. N. 89).

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بالشام بين أرسوف وقيسارية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩١) .

(٥) فى س منهم .

(٦) يوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 173. N. 1) وصف مسهب لمقتل هذا الأمير . وقد ذكر الكاتب الانجليزى (Sir Walter Scott) فى روايته (Talisman) تفاصيل تلك الحادثة .

(٧) استثنى صلاح الدين من القتل واحدا فقط من رجال هاتين الهيئتين الدينيتين، وهو (Gorard de Ridfort) رئيس الداوية . (King : Knights Hospitallers. pp. 128-129) .

قال العلامة عبد اللطيف بن يوسف البغدادى : "كان السوق الذى فى عسكر السلطان على عكا عظيما، ذا مساحة فسيحة ، فيه مائة وأربعون دكان بيطار . وعددتُ عند طباخ واحد ثمانيا وعشرين قدرا، كل قدر تسع[1] رأس غنم . وكنت أحفظ عدد الدكاكين، لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مائة دكان ، لأن الحوائج فى الأعدال والجوالقات . ويقال إن العسكر أنتنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد، وَزَن سَمَّان أجرة نقل متاعه سبعين دينارا. وأما سوق البَزّ[2] العتيق والجديد، فشىء يبهر العقل . وكان فى العسكر أكثر من ألف حمام ، وكان أكثر ما يتولاها المغاربة ، يجتمع منهم آثنان أو ثلاثة ويحفرون ذراعين فيطلع الماء، ويأخذون الطين فيعملون منه حوضا وحائطا، ويسترونه بحطب وحصير، ويقطعون حطبامن البساتين التى حولهم، ويُحَمُّون الماء فى قدور، وصار حماما يغسل الرجل رأسه بدرهم وأكثر" .

فلم يزل [صلاح الدين] على محاصرة[3] عكا إلى [أن] تسلمها بالأمان ، فى ثانى جمادى الأولى، وآستولى على مافيها من الأموال والبضائع، وأطلق من كان بها من المسلمين مأسورا، وكانوا أربعة آلاف نفس . ورتّب فى كنيستها العظمى منبرا، وأقيم فيها الجمعة . وأقطع عكا لابنه الأفضل علىّ، وأعطى جميع ما للداوية من إقطاع وضياع للفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارى . وسار العادل بعساكر مصر إلى مَجْدَلِيَابَا[4] ، فحصره وفتحه وغنم ما فيه . وآفتتحت عدة حصون حول عكا : وهى الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ومَعْلِيَا[5] والشقيف والتُّولَع[6]

(١) هذه الكلمة مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p. 174) إلى (neuf) أى الرقم العددى تسعة .

(٢) بغير ضبط فى س ، ويطلق على الثياب والأمتعة والأسلحة . (محيط المحيط) .

(٣) فى س " فلم يزل على محاصرتها " . (٤) فى س "مجدل ياما" بغير ضبط ، انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤١٨) ، وموقعها قرب الرملة . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 175 .N. 2) .

(٥) فى س "معلنا" بغير ضبط ، وهى من نواحى الأردن بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٧٨) .

(٦) فى س "التوله" بغير ضبط ، وهى قرية بالشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) .

والطُّور[(١)]، ونهب ما فيها، وسبيت النساء والأطفال، فقدموا بما سد الفضاء. وأخذت سَبَسْطِيَّة[(٢)] ونابلس، وكتب [السلطان] للخليفة بخبر فتح هذه البلاد[(٣)]. ونزل العادل على يافا، حتى ملكها عنوة ونهبها، وسبي الحريم وأسر الرجال. ونازل المظفر تقي الدين عمر تِبْنِين[(٤)]، وأدركه السلطان فوصل إليها في حادى عشر جمادى [الأولى]، وما زال محاصرًا لها حتى تسلمها في ثامن عشره بأمان؛ وجلا أهلها عنها إلى صور، وتسلم [السلطان] العدد والدواب والخزائن. وسار فأخذ صَرْخَد[(٥)] بغير قتال، ثم رحل إلى صَيْدَاء[(٦)]، ففر أهلها وتركوها، فتسلمها السلطان في حادى عشريه (٢٦ ب). ونازل بيروت وضايقها ثمانية أيام، إلى أن طلب أهلها الأمان، فأجابهم واستولى عليها في تاسع عشريه. وأخذ جُبَيْل[(٧)]، فكان من استنقذ الله من المسلمين المأسورين عند الفرنج، في هذه السنة، ما يزيد على عشرين ألف إنسان، وأسر المسلمون من الفرنج مائة ألف أسير.

وهلك [في هذه السنة] القومص صاحب طرابلس. وقدم المركيس[(٨)] — أكبر طواغيت الفرنج — إلى صور، وقد اجتمع بها أمم من الفرنج؛ فتملك عليهم، وحصن البلد. فسار السلطان بعد فتح بيروت، وتسلم الرملة والخليل وبيت لحم؛ واجتمع بأخيه العادل، ونازلا عَسْقَلان[(٩)] في سادس عشر جمادى الآخرة، ونصبا المجانيق عليها. ووقع الجد في القتال، إلى أن

---

(١) بغير ضبط في س، وهو جبل على بعد أربعة فراسخ من طبرية. راجع (Blochet : Op. cit. p. I75. N. 9)

(٢) بغير ضبط في س، وهي من أعمال نابلس. راجع (Blochet : Op. cit. p. 176. N. I).

(٣) انظر في نفس المرجع والصفحة (N. 2) ترجمة لكتاب أرسله صلاح الدين إلى حاكم تنيس بعد وقعة حطين.

(٤) في س تبنين بغير ضبط، وهي بلدة صغيرة بين دمشق وصور، وتقع في جبال بني عامر المطلة على بلد بانياس. (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢٤)، وراجع أيضا (Blochet : Op. cit. p. 177. N. 1).

(٥ و ٦) بغير ضبط في س في الموضعين، وصرخد بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق. وصيداء مدينة على ساحل الشام من أعمال دمشق أيضا. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٠، ٤٣٩). (٧) بغير ضبط في س، وهي من أعمال دمشق، على بعد أربعة فراسخ من بيروت. (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٣).

(٨) يقصد المؤلف (Conrad, Marquis de Montferrat) الذى وصل الشام من أوربا قبل سقوط عكا بثلاثة أيام. (Stevenson : Crusaders In The East, p. 251). (٩) توجد في (Blochet : Op. cit. p.179. N. 1) تفاصيل مهمة عن أخذ السلطان ذلك الحصن، منها أن ملك بيت المقدس ورئيس الداوية نصحا لأهل البلد من الفرنج بالتسليم سريعا، فلم ينتصحوا حتى وقع الجد في القتال.

تسلم [السلطان] البلد فى سلخه، وخرج منه الفرنج إلى بيت المقدس، بعد أن ملكوه خمسًا وثلاثين سنة. وتسلم [السلطان] حصون الداوية: وهى غزة والنَّطْرُون[١] وبيت جِبْرِيل[٢]. وقدم عليه بظاهر عسقلان ابنه العزيز عثمان من مصر، و[وافته[٣]] الأساطيل [و] عليها الحاجب لؤلؤ. وكانت الشمس قد كُسفت، قبل أخذ عسقلان بيوم، حتى أظلم الجو وظهرت الكواكب، فى يوم الجمعة ثامن عشريه.

وسار السلطان — وقد اجتمعت إليه العساكر — يريد فتح بيت المقدس، فنازله يوم الأحد خامس عشر رجب، وبه حشود الفرنج وجميعهم[٤]. فنَصب المجانيق، واقتتل الفريقان أشد قتال، استشهد فيه جماعة من المسلمين. وأيد الله بنصره المسلمين، حتى تمكنوا من السور ونقبوه، وأشرفوا على أخذ البلد. فسأل الفرنج حينئذ الأمان، فأُعطوه بعد امتناع كثير من السلطان، على أن يعطى كل رجل من الفرنج عن نفسه عشرة دنانير مصرية، سواء كان غنيًّا أو فقيرا، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل طفل من الذكور والإناث دينارين. ثم صولح عن الفقراء بثلاثين ألف دينار. وتسلم المسلمون القدس، يوم الجمعة سابع عشرى رجب، وأُخرج من فيه من الفرنج، وكانوا نحو الستين ألفا[٥]، بعد ما أسر [منهم] نحو ستة عشر ألفا، ما بين رجل وامرأة وصبى، وهم من لا يقدر على شراء نفسه[٦]. وقبض [السلطان] من مال المفاداة[٧] ثلاثمائة ألف دينار مصرية، سوى ما أخذه الأمراء، وما حصلت فيه الخيانة.

(١) بغير ضبط فى س، وهو حصن كان للداوية قرب الرملة بجنوب فلسطين، واسمه أيضا الأطرون. (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣١٠)؛ وانظر أيضا (Rec. Hist. Or. I. pp. 57 ، 697). (٢) بغير ضبط فى س، وهو بليد بين بيت المقدس وغزة، ويسمى أيضا بيت جبرين. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص٧٧٦).

(٣) أضيف ما بين القوسين للتوضيح، وبعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ٣١٦، فى (Rec. Hist. Or. IV. (٤) فى س "حمايعهم".

(٥) فى س الف. (٦) توجد فى (Blochet : Op. cit p. 179. Ns. 1, 2) نبذة طويلة عن أخذ صلاح الدين لبيت المقدس، وهى من كتاب سير الآباء البطارقة، وبها تفصيلات أخرى نادرة. (٧) قبالة هذه السطور فى ب (ص ٣٢ أ) العبارة الآتية: "Les Mahometans prennent Jerusalem sur les francs". ويوجد فى نسخة ب كثير من أمثال هذه الحاشية بالفرنسية، ولاسيما قبالة أسماء كبار الصليبيين، وربما كتبها المستشرق (Quatremère) أو (Blochet) بعده، حين ترجم كل منهما جزءا من السلوك إلى الفرنسية.

والتحق من كان بالقـــدس من الفرنج بصور، وتسامع المسلمون بفتح بيت المقـــدس، فأتوه رجالا وركبانا من كل جهة لزيارته، حتى (٢٧ ا) كان من الجمع ما لا يحصر. فأقيمت فيه الجمعة يوم الرابع من شعبان، وخطب القاضى محيى الدين بن الزكى بالسواد خطبة بليغة، دعا فيها للخليفة الناصر والسلطان صـــلاح الدين؛ وانتصب بعد الصلاة زين الدين بن نجا، فوعظ الناس. وأمر السلطان بترخيم المحراب العُمرى القـــديم؛ وحُمل منبر[1] مليح من حلب، ونصب بالمسجد الأقصى، وأزيل ما هناك من آثار[2] النصرانية؛ وغسلت الصخرة بعدة أحمال ماء ورد، وبخرت وفرشت؛ ورتب فى المسجد من يقوم بوظائفه، وجعلت به مدرســة للفقهاء الشافعيـــة. وغُلقت كنيســة قمـامة[3]، ثم فُتحت، وقُرر على من يرد إليهـا من الفرنج قطيعة يؤديها. وخرجت البشائر إلى الخليفة بالفتح، وإلى سائر الأطراف. ورحل السلطان عن القدس لخمس بقين من شعبان يريد عكا؛ وسار العزيز عثمان إلى مصر فكان آخر العهد به. وسار العادل مع الســـلطان، فنزلا على عكا أوّل شهر رمضان؛ ثم رحل [السلطان] منهـا؛ ونزل على صور فى تاسـعه، وكانت حصينة، وقد استعدّ الفرنج فيهـا، فتلاحقت العساكر بالسلطان، ونصب على صور عدّة من المجانيق وحاصرها. واستدعى [السلطان] الأسطول من مصر، فقدم عليه عشر شوانى، وصار القتال فى البر والبحر، فأخذ الفرنج خمس شوانى. ووردت مكاتبة الخليفة على السلطان، وفيها غلظة وإنكار أمور، فأجاب بالاعتذار، ورحل عن صور فى آخر شوّال. وعادت العساكر إلى بلادها، وأقام الســلطان بعكا، وسار العادل

(١) لمـا أمر صلاح الدين بعمل منبر للسجد الأقصى، قيل له: "إن نور الدين محمودا كان قد عمل بحلب منبرا، أمر الصناع بالمبالغة فى تحسينه وإتقانه، وقال هذا قد عملناه لينصب بالبيت المقدس، فعمله النجارون فى عدّة سنين، لم يعمل فى الإسلام مثله، فأمر [صلاح الدين] بإحضاره، فحمل من حلب ونصب بالقدس". (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ١١، ص ٣٦٥).

(٢) فى س "وارال".

(٣) أطلق المسلمون هـــذا الاسم على كنيسة القيامة ببيت المقدس منذ عصر صدر الاســلام (Le Strange : Palestine Under Moslems. p. 202.)

إلى مصر ، فطرق الفرنج قلعة كوكب ، وقتلوا بها جماعة من المسلمين ، ونهبوا ما كان بها . وأتته على عكا رسل الملوك بالتهنئة من الروم[١] والعراق وخراسان بفتح بيت المقدس .

وفى هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة[٢] ، اجتمع الشمس والقمر والمريخ والزهرة وعطارد والمشترى وزحل و[أظفار[٣]] الذنب ، فى برج الميزان ، أربع عشرة ساعة ؛ فاجتمع المنجمون كلهم ، وحكموا بكون طوفان الريح ، وأنه كائن وواقع ولا بد ، فتنقلب الأرض من أولها إلى آخرها ، وأنه لا يبقى من الحيوان شيء إلا مات ، ولا شجرة ولا جدار إلا سقط . وكان[٤] معظم هذه الحكومة عن بلاد الروم[٥] . وأرجفوا بأنها هى القيامة ، فاتخذ قوم الكهوف والمغائر فى الجبال ، وبالغوا فى الاعتداد لهول ذلك اليوم . وقال القوم : "كتب القدماء كلها أحالت على هذا الاجتماع ، وإن فيه دمار الدنيا" . وكان ذلك فى مسرى ، وفى جمادى الآخرة للسابع والعشرين منه ، [وهو] يوم الثلاثاء مع ليلة الأربعاء إلى يوم الأربعاء . فلم تهب ريح ، ولا تحرك نيل مصر ، وهو فى زيادته فى مسرى ؛ ومن العادة أن تهب الريح من العصر إلى العشاء فى وجه الماء ، ليقف بإذن الله ، فتكون فيه الأمواج . فلم يحدث تلك الليلة ، ولا ثانى يوم ولا قبلها بيوم ، شيء من ذلك . وطلع الناس بالسُرُج الموقدة على السطوحات لاختبار الهواء ، فلم تتحرك نار ألبتة . وكان أشد الناس إرجافا بهذه الكواكب الروم ، فأكذبهم الله ، وسلّط عليهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ،

(١) بعد فتح بيت المقدس ، أرسل صلاح الدين إلى إمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق الثانى بعثا ، ليخبره بما تم على يديه من الفتوح ، وليسلم إليه مائة وتسعين رجلا من رعايا الدولة البيزنطية ، كانوا قد وقعوا فى يده أثناء حروبه ضد الصليبيين . ونتج عن هذا البعث أن عقد الإمبراطور والسلطان حلفا سنة ٥٨٥ هـ . (١١٨٩ م) ، كانت من آثاره عداء عواهل غرب أوربا للدولة البيزنطية . (Blochet : Op. cit. p. 183. N. 1) . وراجع أيضا (Camb. Med. Hist. IV. pp. 483, 603) .

(٢) هنا مثل جديد من أمثلة الخلاف بين النسختين س ، ب اذ اكتفى كاتب النسخة الثانية (٣٢ ب) بقوله "وفيها" بدل هذه العبارة كلها .

(٣) فى س الذنب ، وأظفار الذنب كواكب صغار قدام الذنبين ، وهما كوكبان أبيضان ، بين العوائذ والفرقدين . (محيط المحيط) .

(٤ و ٥) هذه العبارة مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p. 184) إلى : "ce fut surtout de Roum (ar-Roum) qui fut maltraité par ce phénomène surnaturel . ."

فأخذ كبارهم وكسرهم ، وملأ الأرض من الأسرى شرقا وغربا ، وأخذ القـدس . وأصاب جماعة ممن كان يُرْجف بهذه الريح آفات ، ما بين موت بعضهم واعتلال بعضهم .

وفيها خرج فى سادس عشر جمادى الآخرة قفل شامى إلى مصر، وهو أوّل قَفْل سلك بلاد الساحل، بلا حق يدفعـه ولا مكس يؤديه . وفيهـا سار قراقوش التقوى ، واسـتولى على القيروان، وحاربه ابن عبد المؤمن سلطان المغرب على ظاهر تونس فانكسر منـه ، وأقيمت الخطبة فى ربيع الأوّل بتلك البلاد للسلطان صـلاح الدين . فجمع ابن عبد المؤمن ، و واقع قراقوش وهزمه ، ففر قراقوش فى البرية .

وفيها أمر [السلطان] بأن تبطل النقود التى وقع الاختلاف فيها وتضرر العامة بها ، وأن يكون ما يضرب من الدنانير ذهبا مصريا ، ومن الدراهم الفضة[1] الخالصة ، وابطل الدراهم السود لاستثقال الناس الميزان[2] ، فَسَرَّ الناس ذلك .

* * *

(٢٧ ب) سنة أربع وثمانين [وخمسمائة] . فيها نازل السلطان حصن كوكب أياما ، ولم ينل منها شيئا ، فأقام الأمير صارم الدين قايماز النجمى فى خمسمائة فارس عليها ، ووكل بصفد الأمير طغرل الخـازندار فى خمسمائة فارس ، و بعث إلى الكرك والشوبك الأمير سـعد الدين كشبه[3] الأسـدى . واستُدعى الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى من مصر ، فاستخلَف على عمارة سور القاهرة ، وقدم والسلطان على كوكب ؛ فندبه لعمارة عكا ، فشرع فى تجديد سورها وتعلية أبراجها ، بمن قدم به معه من مصر من الأسرى والأبقار والآلات والدواب .

وسار السلطان يريد دمشق ، فدخلها سادس ربيـع الأول ، وقد غاب عنها سـنة وشهرين وخمسة أيام ، كسر فيهـا الفرنج ، وفتح بيت المقـدس . فلازم الجلوس فى دار

(١) الدراهم الفضة هى النقرة (انظر ص ٤٥ ، حاشية ١) . أما الدراهم السوداء فأسماء على غير مسميات ، كدينار الأسطول والدينار الجيشى (انظر ص ٤٥ حاشية ٣) . وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نقرة (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٤٣) .

(٢) فى س بالميزان بكسر الباء .

(٣) فى س كشبا . انظر ص ٨٠ ، حاشية ٦ .

العدل بحضرة القضاة ، وكتب إلى الجهات باستدعاء الأجناد للجهاد . وخرج بعد خمسة أيام على بعلبك ، فوافاه عماد الدين زنكى بن مودود صاحب سنجار على أعمال حمص ، فنزلا على بحيرة قُدُس (١) . وبعث [السلطان] ابنه الظاهر وابن أخيه المظفر صاحب حماة لحفظ طريق أنطاكية ، وسار أول ربيع الآخر وشن الغارات على صافيتا (٢) وتلك الحصون [المجاورة] . وسار فى رابع جمادى الأولى على تعبية (٣) لقاء العدو ، فأخذ أَنْطَرْسُوس (٤) ، واستولى على ما بها من المغانم ، وخرب سورها وبيعتها ، وكانت من أعظم البيع ، ووضع النار فى البلد فأحرق جميعه . وسار يريد جَبَلَة (٥) ، فنازلها لاثنتى عشرة بقيت منه ، وتسلمها بغير حرب . ثم أخذ اللاذقية بعد قتال ، وغنم الناس منها غنيمة عظيمة . وسار إلى صِهْيَوْن (٦) ، فقاتل أهلها إلى أن ملكها ، فى ثانى جمادى الآخرة . واستولى على [قلعتى] الشُّغْر و بَكَاس (٧) وعدّة حصون ، وأسر من فيها ، وغنم شيئا كثيرا . فلما فتح بَغْراس (٨) ، بعث الإبرنس (٩) ملك أنطاكية يسأل الصلح ، فأجيب إلى ذلك ، على شريطة أن يطلق من عنده من الأسارى المسلمين ، وهم ألف إنسان . وعاد صاحب سنجار إلى بلده ؛ وسار السلطان إلى حلب ، فأقام بها ثم سار

---

(١) ورد هذا الاسم فى (Blochet : Op. cit. p. 187. N. 1) بهذا الضبط ، ولكن ياقوت فى (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥١٦) ضبطه بفتح القاف والدال ، ومن هذه البحيرة يخرج نهر العاصى .

(٢) لم يرد ذكر هذا البلد فى معجم البلدان لياقوت ، وهو قرب بلدة عرقة (بكسر العين) آخر عمل دمشق . شرق طرابلس . انظر (G.-Demombynes: Op. cit. p. 117. N. 2)

(٣) كذا فى س بغير ضبط ، وهى صحيحة لغة ، على أن تعبئة أكثر شيوعا . (محيط المحيط) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الشامية الساحلية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٨٨) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بساحل الشام ، من أعمال حلب قرب اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٥) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى حصن من أعمال حمص ، قرب ساحل البحر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤٣٨) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهما قلعتان حصينتان قرب أنطاكية ، على رأس جبلين بينهما واد كالخندق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٣٠٣) .

(٨) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة فى لحف جبل اللكام ، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٤) .

(٩) كان أمير أنطاكية فى ذلك الوقت (Boémond III) . (Rec. Hist Or. III. Index)

عنها ، ودخل إلى دمشق فى آخر شعبان . وما زال كمشـبه[١] محاصرا للكرك حتى تسلم قلعتها ، ومعها الشو بك والسّلع[٢]، وعدّة حصون هناك، فى رمضان . فلما وردت البشرى بذلك على السلطان سار من دمشق، ونازل صفد حتى ملك قلعتها [بالأمان[٣]، فى رابع] عشر شوّال، ولحق من كان فيها من الفرنج [بصور . ثم سار[٤] إلى كوكب] وضايقها حتى تسلمها، فى نصف ذى القعدة (٢٨ ا) بأمان، وأرسـل أهلها إلى صور . فكثر بها جموع الفرنج، وكاتبوا إفرنج صقلية والأندلس، وكتب السلطان إلى الخليفة الناصر بخبر هـذه الفتوح ، ورحل فنزل فى صحراء بيسان .

وفيها ثار بالقاهرة اثنا عشر رجلا من الشيعة فى الليل، ونادوا : "يا ل على! يال على!" وسـلكوا الدروب وهم ينادون كذلك ، ظنا منهم أن رعية البلد يلبُّون دعوتهـم ، و يقومون فى إعادة الدولة الفاطمية ، فيخرجون من فى الحبوس، و يملكون البلد . فلما لم يجبهم أحد تفـرّقوا .

وسار السلطان إلى القدس، فحلّ به فى ثامن ذى الحجة، وسار بعد النحر إلى عسقلان ؛ وجهز أخاه العادل إلى مصر لمعاضدة الملك العزيز، وعوضه بالكرك عن عسقلان، وكان قد وهبها له . ثم نزل بعكا .

+ + +

[سنة خمس وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة خمس وثمـانين، فسار السلطان عن عكا ، ودخل دمشـق أوّل صفر ، فورد عليـه فى ثانى عشره ضياء الدين عبد الوهاب ابن سكينة ، رسول الخليفـة الناصر ، بالخطبة لأبنه ولى العهد، عدة الدنيا والدين أبى نصر محمد، فأقيمت له . وجُهز الرسول، ومعه ضياء الدين القاسم بن يحيى الشهرزورى ؛ وبعث معه بهدايا وتحف وأسارى من الفرنج للخليفة ، ومعهم تاج ملك الفرنج والصليب الذى كان

---

(١) فى س كشبا . (٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بوادى موسى عليه السلام، بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١١٧) . (٣ و ٤) ما بين الأقواس موجود فى ب (٣٣ ب) ، ولكنه فى س محجوب بورقة ملصوقة فوقه .

فوق صخرة بيت المقدس، وأشياء كثيرة . فدفن الصليب تحت عتبة باب النُّوبى [ببغداد] (١)، وديس عليه، وكان من نحاس مطلى بالذهب .

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث ربيع الأول، ونازل شقيف أرنون وهو منزعج، لانقضاء الهدنة مع صاحب أنطاكية، ولاجتماع الفرنج بصور، واتصال الأمداد بهم . فكانت للمسلمين مع الفرنج فى بلادهم الساحلية عدّة وقائع، قتل فيها من الفريقين عدّة؛ وكثر القتل فى المسلمين، واشتدّت نكاية الفرنج فيهم . فرحل السلطان إلى عكا، وقد سبقه الفرنج ونزلوا عليها . ونزل السلطان بمرج عكا، وصار محاصرا للفرنج، والفرنج محاصرين للبلد . وتلاحقت به العساكر الإسلامية، والأمداد تصل إلى الفرنج من البحر . فلم يقدر السلطان على الوصول إلى البلد، ولا استطاع أهل عكا أن يصلوا إلى السلطان . وشرع [السلطان] فى قتال الفرنج من أول شعبان، إلى أن تمكن من عكا، ودخلها فى ثانيه، فما زالت الحرب قائمة إلى رابع رمضان . فتحول إلى الخرّوبة (٢)، وأغلق من فى عكا من المسلمين أبوابها؛ وحفر الفرنج خندقا على معسكرهم حول عكا من البحر إلى البحر، وأداروا حولهم سورا مستورا بالستائر (٣)، ورتبوا عليه الرجال؛ (٢٨ ب) فامتنع وصول المسلمين إلى عكا . وقدم العادل بعسكر مصر فى نصف شوال؛ وقدم الأسطول من مصر إلى عكا فى خمسين قطعة، وعليه الحاجب لؤلؤ فى منتصف ذى العقدة، فبدد شمل مراكب الفرنج، وظفر ببطستين للفرنج . فاستظهر المسلمون الذين بعكا، وقوى جأشهم بالأسطول، وكانوا نحو العشرة آلاف . وبعث السلطان إلى الأطراف يحث الناس على الجهاد، وأرسل إلى أخيه سيف الإسلام طغتكين (٤) باليمن، يطلب منه الإعانة

(١) انظر (Blochet : Op.cit. P ·192.N. 2) ، حيث يذكر أن الملوك والقصاد كانوا يقبلون الأرض قرب ذلك الموضع، قبل دخول بغداد، إجلالا للخلافة .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى حصن بساحل الشام مشرف على عكا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٢٨) .

(٣) جمع ستارة، وهى حائط خارجى مبنى من الخشب أو غيره يحتمى وراءه المدافعون عن حصن أو سور . ويستخدم المهاجمون الستائر أيضا للوقاية من قذائف العدو (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، ويقابل هذا اللفظ فى الإنجليزية (Curtain)، وفى الفرنسية (Courtine) .

(٤) فى س طغيكن .

بالمـال، وإلى مظفر الدين قزأرسلان (١) صاحب العجم، وكتب إلى الخليفة. ووصلت الأمداد إلى الفرنج، وورد الخـبر من حلب بخروج ملك الألمـان (٢) من القسطنطينية، فى عدة عظيمة تجاوز الألف ألف، يريدون البلاد الإسـلامية، فاشتدّ الأمر على السلطان ومن معـه من المسلمين .

وتوفى فى هذه السنة حسام الدين سنقر الخلاطى (٣) ليلة الاثنين سابع عشرى رجب، والأمير حسام الدين طُمَان (٤) يوم الأربعاء ثالث عشر شعبان، والأمير عز الدين موسك بن جَكّو (٥) فى شعبان، وهو ابن خال السلطان صلاح الدين . ومات شرف الدين أبو سعد عبد الله بن أبى عصرون بدمشق، يوم الثلاثاء حادى عشر رمضان، ومولده أوّل سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة . ومات ضياء الدين عيسى الهكارى، يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة بمنزلة الخروبة .

* * *

[سنة ست وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة ست وثمانين، والسلطان بالخروبة على حصار الفرنج (٦)؛ وقدمت عساكر المسلمين من الشرق ومن بقية البلاد، فرحل من الخروبة لاثنتى عشرة بقيت من ربيع الأوّل إلى تل كَيْسَان (٧)، وتتابع مجىء العساكر. وكملت أبراج الفرنج الثلاثة، التى بنوها تجاه عكا فى مدّة سبعة أشهر، حتى علت على البلد، وامتلأت بالعدد والعدة، وطَمُّوا كثيرا من الخندق، وضايقوا البلد. واشتد خوف المسلمين، واشـتدت الحرب بين

---

(١) يذكر (Blochet: Op. cit. p. 196. No, 1.) أن ملك العجم هذا هو قزل أرسلان عثمان صاحب آذربيجان (انظر ص ٤٠ حاشية ٢) . (٢) يقصد المؤلف (Frédéric Barberousse) إمبراطور الدولة الغربية، ولحملته أخبار طويلة كما سيأتى هنا، آخرها أن فردريك سقط عن فرسه وهو يعبر نهر طرسوس (طشاى الحالى) بآسيا الصغرى، فغرق ولم يصل من جيشه إلى عكا سوى شرذمة قليلة بقيادة ابنه (Frédéric, duc de Souabe) . انظر (Stevenson. Crusaders In The East, pp. 264-265 ; Rec. Hist. Or. IV. p.452. N. 1.)

(٣) فى س الحلاطى، وبغير ضبط . انظر (Blochet : Op. cit. p. 197) . (٤) بغير ضبط فى س (نفس المرجع والصفحة) . (٥) كذا فى س (انظر نفس المرجع والصفحة) . هذا والأمير عز الدين موسك هو الذى أنشأ قنطرة الموسكى على الخليج الكبير بالقاهرة . المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٤٧) .

(٦) يوجد فى نفس المرجع والصفحة (N. 4) تفصيلات عن حصار عكا من كتاب سير الآباء البطارقة .

(٧) موضع فى مرج عكا من سواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٦٩) .

الفريقين، حتى احترقت الأبراج الثلاثة . وخرج أهل عكا منها، فنظفوا الخندق، وسدوا الثغر، وغنموا ما كان فى الأبراج من الحديد، فتقووا به . وكان بين أسطول المصريين وبين مراكب الفرنج عدة معارك، قتل فيها كثير من الفرنج . ودخل ملك الألمان [بجيوشه] إلى حدود بلاد الإسلام، وقد فنى منهم كثير، فواقعهم الملك عز الدين قلج بن أرسلان السلجوقى، فانكسر منهم، فلحق به الفرنج إلى قونية وهاجموها(١)، وأحرقوا أسواقها، وساروا إلى طرسوس يريدون بيت المقدس، واسترجاع ما أخذ منهم السلطان من البلاد والحصون، فمات بها ملكهم. وقام من بعده ابنه(٢)، فسار إلى أنطاكية . وندب السلطان كثيرا ممن كان معه على حرب عكا إلى جهة أنطاكية، ووقع فيمن بقى معه مرض كثير؛ [وأمر بتخريب سور(٣)] طبرية ويافا وأرسوف(٤) وقيسارية وصيدا [وجبيل خرب(٥) ذلك، و] نقل من كان فيها إلى بيروت . وطمع (١٢٩ أ) الفرنج فى السلطان لقلة من بقى معه، فركبوا لحربه، ونهبوا وطاق(٦) الملك العادل . وكانت للمسلمين معهم حرب، انكسر فيها الفرنج إلى خيامهم، وقتل منهم آلاف، فوهت قواهم . غير أن المدد أتاهم، ونصبوا المجانيق على عكا . فتحول السلطان إلى الخروبة، فوافى كتاب ملك الروم بقسطنطينية، يخبر بوصول المنبر من عند السلطان، و [كذلك] الخطيب والمؤذنين والقراء، وأن الخطبة أقيمت بالجامع القديم بالقسطنطينية للخليفة(٧) الناصر [لدين الله] .

وسار ابن ملك الألمان عن أنطاكية إلى طرابلس فى جيوشه، وركب منها البحر إلى عكا، فوصل إليها سادس رمضان، فأقام عليها إلى أن هلك ثانى عشر ذى الحجة، بعد ما حارب المسلمين

(١) فى س هجموها . (٢) انظر ص ١٠٣ حاشية ٢ . (٣) مابين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س، ولكنه موجود فى ب (٣٤ ب) .

(٤) بغير ضبط فى س؛ وهى مدينة على ساحل الشام بين قيسارية ويافا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٧) .

(٥) مابين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س، ولكنه موجود فى ب (٣٤ ب) .

(٦) لفظ تركى معناه الخيمة، جمعه وطاقات . (محيط المحيط) .

(٧) الغالب أن هذا الكتاب نتيجة الحلف بين السلطان والإمبراطور . انظر ص ٩٨، حاشية ١ .

فلم ينل منهم كبير غرض . ودخل الشتاء وقد طالت مدة البَيْكار(١)، وضجرت العساكر من كثرة القتال، فرحل صاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب الموصل .

وفيها تولى سيف الدولة أبو الميمون مبارك بن كامل بن منقذ شدّ(٢) الدواوين بديار مصر، وباشر الأسعد بن مماتى معه الديوان فى محرم .

* * *

[سنة سبع وثمانين وخمسمائة] . ودخلت سنة سبع وثمانين، فسار الظاهر صاحب حلب [إليها]، وسار المظفر إلى حماة . وبقى السلطان فى جمع قليل، والحرب بين أهل عكا وأميرهم بهاء الدين قراقوش و بين الفرنج . ودخل فصل الربيع، فوافت العساكرُ السلطان ؛ ووصل إلى الفرنج مددهم، فضايقوا عكا وجدّوا فى حصارها، ونصبوا عليها المجانيق . وتوالت الحروب إلى أن ملكها الفرنج، يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة، وأسروا من فيهـا من المسـلمين وكانوا ألوفا . وخرجوا يريدون الحرب، فواقعهم السلطان وكسرهم، ووقع كلامه فى الصلح و إطلاق الأسرى ولم يتم . فلما كان فى سابع عشرى رجب، برز الفرنج بخيامهم، واحضروا اسارى المسلمين، وحملوا عليهم حملة واحدة قتلوا [فيها] بأجمعهم فى سبيل الله صبرا، واليَزَك(٣) الإسلامى ينظر إليهم . فحمل المسلمون عليهم، وجرت بينهما حرب شديدة، قُتل فيها عدّة من الفريقين .

ولمـا أهل شعبان سار الفرنج إلى عسقلان، ورحل السلطان فى أثرهم، وواقعهم فى رابع عشره بأرسوف . فانهزم المسلمون، وثبت السلطان إلى أن اجتمع عليه المسلمون، وعاد إلى

(١) لفظ فارسى معناه الحرب عامة (Dozy: Supp. Dict. Ar. & Blochet: Op. cit. p. 201. N.4) . وفى (Quatremère: Maml. I. 2. p. 18. N. 19) أمثلة عديدة لأوجه استعمال هذا اللفظ منها "وصل الأمراء من التجاريد والبياكير" .

(٢) أقرب مرادف لهذا اللفظ كلمة تفتيش ، ويسمى متولى هـذه الوظيفة الشادّ ، مضافا إليها جهة الاختصاص ، مثل شاد الجوالى وشاد دار البطيخ والفاكهة وشاد مراكز البريد وشاد الزكاة . انظر (G, Demombynes : Op. cit, Index III) . وكان عمل شاد الدواوين بمصر — أيام الأيوبيين والمماليك — معاونة الوزير فى مراقبة الحسابات ومراجعتها .

(٣) لفظ فارسى معناه الطلائع . (Dozy: Supp. Dict. Ar.) وفى (Quatremére : Maml. I. 1. p. 225. N. 101) أمثلة كثيرة لوجوه استعمال هذا اللفظ ، منها "كان يزكه وطلايعه لا تنقطع عن الفرنج" .

القتـال، حتى التجأ الفرنج إلى جدران أرسوف . و رحل السلطان فى تاسع عشره، ونزل على عسقلان [يريد تخريبها، لعجزه[١]] عن حفظها ، ففرّق أبراجها على الأمراء ، ووقع [الضجيج والبكاء فى الناس[٢]] أسـفا (٢٩ ب) وغمًّا لخـرابها ، وكانت من أحسن البلاد بنـاء، وأحكمها أسوارا، وأطيبها سكنًا، فلم يزل التخريب والحريق فيها إلى سلخ شعبان .

قال الحافظ عبـد العظيم المنـذرى فى المعجم[٣] المـترجم : "سمعت الأمير الأجل أياز بن عبد الله — يعنى أبا المنصور البانياسى الناصرى — يقول : لمـا هدمنا عسقلان[٤] أعطيت أنا برج الداوية، وهـدم خُطْلُج[٥] برجا وجدنا عليه مكتوبا "عُمِّرَ على يدى خطلج" ، وهذا من عجيب الاتفاق . وشبيه بذلك ما أخبرنى [به] القاضى الأجل أبو الحسن على بن يحيى الكاتب قال : رأيت بعسقلان برج الدم، وخطلج المعزى يهدمه — يعنى فى شعبان . و رأيت عليه مكتوبا : مما أمر بعمارته السيد الأجل أمير الجيوش — يعنى بدرا [الجمالى] — على يد عبده ووليـه خطلج فى شعبان . فعجبت من هـذا الاتفاق . كيف عمر فى شعبان على يد خطلج ، وهدم فى شعبان على يد خطلج ؟ " .

ثم رحل السلطان عن[٦] [عسقلان]، وقد خربت فى ثانى رمضان ، ونزل على الرملة فخرب حصنها، و [هدم] كنيسة لُدّ[٧] ، و ركب إلى القدس جَرِيدة[٨] ، ثم عاد وهدم حصن النطرون .

(١ و ٢) ما بين الأقواس محجوب تحت ورقة ملصقة فوقه فى س ، وهو موجود كله فى ب (٣٥ أ) .

(٣) راجع ملاحظات (Blochet : Op. cit. P. 204. N. 1) عن هذا الكتاب ، حيث يقول إنه عبارة عن معجم لتراجم الرجال ، وليس معجما لغويا كما ظن حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون . ولد المنذرى سنة ٥٨١ هـ بمصر، ودرس الحديث والفقه والأدب ، وتخرج فيهـا حتى أصبح شيخ المدرسة الكامليـة التى أسسها الملك الكامل بن العادل بالقاهرة ، وكان من تلاميذه ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان ، وتوفى سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) فى س بيروت . (انظر نفس المرجع والصفحة (N. 3) .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوق سمى له فى (Rec. Hist. Or. III, IV, Indices.) .

(٦) فى س عنها .

(٧) بغير ضبط فى س . وهى قرية صغيرة قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٣٥٤) . انظر أيضا (Blochet: Op. cit. P. 205. N. 2) .

(٨) الجـريدة الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها (محيط المحيط) ، على أن المقصود من هذه العبارة هى — وهى متداولة فى كتب المؤرخين — سير السلطان على وجه السرعة ، دون أن يأخذ معـه أثقالا أو حشدا . و فى (Dozy : Supp, Dict, Ar.) أمثلة عديدة توضح هذا المعنى ، منها "فجرد الفرنجى عسكره من أثقالهم وسار جريدة" .

• وكانت بين المسلمين والفرنج عدة وقائع فى البر والبحر ، فعاد السلطان إلى القدس فى آخر ذى القعدة. وقدم أبو الهيجاء السَّمين بعسكر مصر، ووقع الاهتمام فى عمارة سور بيت المقدس وحفر الخندق .

وفيها مات علم الدين سليمان بن جندر فى آخر ذى الحجة. ومات الملك المظفر تقى الدين عمر ابن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب بن شادى صاحب حماة، وهو الذى أوقف منازل المعز بمصر مدرسة، فى ليلة الجمعة تاسع رمضان، ودفن بحماة . ومات نجم الدين محمد بن الموفق بن سعيد ابن على بن حسن بن عبد الله الخَبُوشانى (١) الفقيه الشافعى الصوفى، يوم الأربعاء ثانى عشرى ذى القعدة، ودفن بالقرافة .

وفيها سُلِّم أمر الأسطول بمصر للملك العادل ، فاستخدم فيه من قبله ؛ وأفرد برسمه الزكاة بمصر والحبس الجيوشى بالبَرَّين (٢) والنطرون والخراج وما معــه من ثمن القرظ وساحل السنط والمراكب الديوانية و إشْنِين (٣) وطَنْبَذَةَ . فاستناب العادل فى مباشرة ذلك، واستخدم فى ديوان

(١) نسبة إلى خبوشان ، قصبة كورة استوا قرب نيسابور . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٤٠٠) .

(٢) العبارة الآتيــة منقولة عن المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤) لتوضيح المقصود بالبرين ، ولضبط معرفة ماتعين لديوان الأسطول تلك الأيام ، وهى : "وعين [صــلاح الدين] لهذا الديوان الفيوم بأعمالها ، والحبس الجيوشى فى البرين الشرقى والغربى ، وهو من البر الشرقى بهتين والأميرية والمنية ، ومن البر الغربى ناحية ســفط ونهيا ووسيم والبساتين خارج القاهرة . وعين له أيضا الخراج ، وهو أشجار دن سنط لا تحصى كثرة فى البهنساوية وسفط ريشين والأشمونين والأسيوطية و الأخميمية والقوصية ، لم تزل بهذه النواحى لايقطع منها إلا ماتدعو الحاجة إليه ، وكان فيها ماتبلغ قيمة العود الواحد منه مائة دينار... وعين له أيضا النطرون ، وكان قد بلغ ضمانه ثمانية آلاف دينار . ثم أفرد لديوان الأســطول مع ماذكر الزكاة التى كانت تجبى بمصر ، و بلغت فى سنة زيادة على خمسين ألف دينار . وأفرد له المراكب الديوانية وناحية اشنــاى وطنبدى . وســلم هذا الديوان لأخيه الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب ، فأقام فى مباشرته وعماله صفى الدين عبد الله بن على بن شكر... ..." انظر الحاشية التالية ، و : (P. Omar Toussoun Op. cit. I. 1, 2) لتحقيق مواضع البلاد المذكورة . أما المراكب الديوانية فهى التى تحمــل الغلات السلطانية . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٨٢) .

(٣) فى س اشنى وطنبدى ، بغير ضــبط . واشنى هو ما تنطق به العامة ، وهى "قرية بالصعيد إلى جنب طنبذى على غربى النيــل ، وتسمى هذه وطنبذى العروســين لحسنهما وخصبهما ، وهما من كورة البهنسا" . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٢٨٥ ؛ ج ٣، ص ٥٥٠) .

الأسطول صفى الدين عبد الله بن [على بن] شكر . وأحيل الورثة الجيوشية على غير الحبس الذى لهم .

وعظمت زيادة النيل وغَرَقُ النواحى، وكثر رخاء الأسعار بمصر، فأبيع القمح كل مائة أردب بثلاثين دينارا ، والخبز البائت ستة أرطال بربع درهم ، والرطب الأمهات ستة أرطال بدرهم، والموز ستة أرطال بدرهم ، والرمان الجيد مائة حبة بدرهم، وحِمْل الخيار بدرهمين ، والتين ثمانية أرطال بدرهم، والعنب ستة أرطال بدرهم — فى شهر بابه بعد انقضاء موسمه المعهود بشهرين ، والياسمين خمسة أرطال بدرهم، وثمر الحناء عشرة أرطال بدرهم ، والبُسْر الجيد عشرة أرطال بدرهم ، ومادونه خمسة عشر رطلا بدرهم . وكثر بمصر والقاهرة التجاهر بمعاصى الله . وظفر الأسطول بمركب فيه اثنتان وعشرون ألف جُبْنَة[(١)]، كل جبنة قدر الرحى لا يقلها الراجل[(٢)] . وحصلت بمصر زلزلة، وهبت سموم حارة (١٣٠ ا) فيها إعصار ثلاثة أيام، أتلفت الخضروات التى فضلت من الغرق. وانشقَّت زَرِبْيَة جامع المقس لقوة الزيادة، وخيف على الجامع أن يسقط، فأُمِر بعمارتها .

* * *

[سنة ثمان وثمانين وخمسمائة] . وأهلت سنة ثمان وثمانين، والسلطان بالقدس مجتهد فى عمارته . وفى ثالث المحرم نزل الفرنج على ظاهر عسقلان ، لقصد عمارتها فما مُكِّنوا ، وواقعهم جماعة من الأسدية منهم يازكُج[(٣)] وغيره، وتوالت الوقائع بينهم . وفى صفر سار الملك الأفضل نور الدين علىٌّ بن السلطان إلى البلاد الشرقية، على ما كان بيد الملك المظفر تقى الدين عمر [من البلاد[(٤)] التى هى] قاطع الفرات ؛ وأطلق له السلطان عشرين ألف دينار سوى الخلع

(١) فى س "و.. حبة كل جنة قدر الرحى" .

(٢) بعض حروف هذا اللفظ متآكل فى س، ولكنه واضح فى ب (١٣٦ ا) .

(٣) فى س يازكوج . (٤) أضيف ما بين القوسين من ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ٢٩٨ — ٢٩٩، فى Rec Hist. Or. III.)، حيث العبارة مترجمة إلى (les pays au delà de l'Euphrate)، ومنها حران والرها وسميساط .

والتشريفات . ثم[١] نزل الملك العـادل أبو بكر عن كل ماله فى الشام ، ماخلا الكرك والشوبك والصَّلْت[٢] والبلقاء ونصف خاصّة بديار مصر ، وعُوض البلاد الشرقية . وسار [السلطان] من القدس فى أوائل جمادى الأولى ، وكتب بعود الملك الأفضل ، فعاد منكسر القلب إلى السلطان . ولحق العادل بحران والرها وقرر أمرهما ، ثم عاد إلى السلطان فى آخر جمادى الآخرة .

وفى[٣] [جمادى الآخرة] ملك الفرنج قلعة الداروم ، وخرج العسكر المصرى يريدون السلطان ، فكبسهم الفرنج وأخذوا جميع ما معهم ، وتبدد الناس فى البرية . وأسر الفرنج منهم خمسمائة رجل ، وأخذوا نحو ثلاثة آلاف جمل ، وعادوا إلى خيمهم وقد طمعوا ؛ فقصدوا المسير إلى القدس ، ثم اختلفوا ونزلوا بالرملة ، وبعثوا رسلهم فى طلب الصلح . فبرز السلطان من القدس

(١) فى س ونزل . ويلاحظ أن تلك التعـديلات حدثت على أثر وفاة تقى الدين عمـر ، واستيلاء ولده الملك المنصور بن تقى الدين على البـلاد الجزرية ، بغير إذن السلطان صلاح الدين . وفى هذا يقول ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٥٤) ما نصـه : "قد تقدّم ذكر موت تقى الدين عمر بن صـلاح الدين واستيلاء ولده [الملك المنصور] ناصر الدين محمـد على بلاد الجزيرة . فلما استولى عليها أرسل إلى صلاح الدين يطلب تقريرها عليه ، مضافا إلى ما كان لأبيه بالشام . فلم ير صلاح الدين أن مثل تلك البلاد تسلم إلى صبى ، فا أجابه إلى ذلك (كذا) ، فحدّث [الملك المنصور] نفسه بالامتناع على صلاح الدين ، لاشتغاله بالفرنج . فطلب الأفضل علىّ بن صلاح الدين من أبيـه أن يقطعه ما كان لتقى الدين ، وينزل عن دمشق . فأجابه إلى ذلك ، وأمره بالمسير إليها ، فسار إلى حلب فى جماعة من العسكر . وكتب صـلاح الدين إلى أصحاب البلاد الشرقية : مثـل صاحب الموصل وصاحب سنجار وصاحب الجزيرة وصاحب ديار بكر وغيرها ، يأمرهم بإنفاذ العساكر إلى ولده الأفضل . فلما رأى ولد تقى الدين ذلك علم أنه لاقوة له بهم ، فراسل الملك العادل عم أبيه يسأله إصلاح حاله مع صلاح الدين . فأنهى ذلك إلى صلاح الدين ، وأصلح حاله ، وقرر قاعدته ، بأن يقرر له ما كان لأبيه بالشام ، وتؤخذ منه البلاد الجزرية . واستقرت القاعدة على ذلك ، وأقطع صلاح الدين البلاد الجزرية : وهى حرّان والرّها وسميساط وميافارقين وحانى [لأخيه] العادل . وسيره إلى ابن تقى الدين ، ليتسلم منه البلاد ، ويسيره إلى صلاح الدين ، ويعيد الملك الأفضل أين أدركه . فسار العادل فلحق الأفضل بحلب ، فأعاده إلى أبيه . وعبر العـادل الفرات ، وتسلم البلاد من ابن تقى الدين ، وجعل نوّابه فيها ؛ واستصحب ابن تقى الدين معـه وعاد إلى صلاح الدين بالعساكر ، وكان عوده فى جمادى الآخرة من هذه السـنة" . انظر أيضا ابن شدّاد (النوادر السلطانية ، ص ٢٨٠ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، فى Rec. Hist. Or. III) .

(٢) بلد من أعمال الأردن ، على مسيرة يوم من عجلون (Blochet : Op. cit. p. 209.N. 1) .

(٣) فى س وفيه . انظر نفس المرجع والصفحة (N. 2) .

فى عاشر رجب، وسار إلى يافا لحاصرها، ولم يزل يقاتل من فيها من الفرنج إلى أن أخذ البلد عنوة، وغنم النـاس منها شيئا عظيما . وتسلم [السلطان] القلعة، وأخرج من كان فيها من الفرنج . فقدم من الفرنج نجدة كبيرة فى خمسين مركبا، فغدر أهـل يافا بجماعة من المسلمين، وعاد القتال والمراكب فى البحر لم تصل إلى البر . فسارع أهل المراكب إلى البر، وحملوا على السلطان، فرحل إلى يازُور(١) وأمر بتخريبها ، وسار إلى الرملة ومنها إلى القدس . وعزم على لقـاء الفرنج، فاختلف عليـه أصحابه، وأسمعه بعضهم كلاما جافيا، فانثنى عن ذلك . وقدم عسكر مصر لخرج إلى الرملة، ووقع الصلح بين السلطان والفرنج لثمان [بقين من(٢) شعبان]. وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر مدّة [ثلاث سنين وثلاثة(٣) أشهر]، أولها حادى (٣٠ ب) عشر شعبان — وهو أوّل شهر أيلول، على أن يكون للفرنج من يافا إلى عكا إلى صور وطرابلس وأنطاكية.

ونودى فى الوطاقات وأسواق العسكر : " ألا إن الصلح قد انتظم، فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل" . وكان يوم الصلح يوما مشهودا، عَمَّ فيه الطائفتين الفرح والسرور، لمـا نالهم من طول الحـرب . فاختلط عسكر الفرنج بعسكر المسـلمين ، ورحل جماعة من المسـلمين إلى يافا للتجارة ، ودخل خلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم . ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان إلى القدس، وسار منها إلى دمشق ، فلقيه الأمير بهاء الدين قراقوش — وقد تخلص من الأسر — على طبرية . ودخل [السلطان] إلى دمشق، لخمس بقين من شوال، فكانت غيبته عنها أربع سنين. وأذن للعساكر فى التفرق إلى بلادهم فساروا إليها، وبقى عند السلطان ابنه الأفضل علىّ والقاضى الفاضل .

وفيها انتقل سعر الفول بديار مصر من خمسة عشر دينارا إلى ثلاثين دينارا المـائة أردب، بحكم أن المُشْتَرَى لعلوفة الوُسِيَّة(٤) العادلية خمسون ألف أردب. وفيها عُثر على رجل اسمه عبد الأحد،

(١) بليدة بساحل الشام قرب الرملة . (ياقوت معجم البلدان، ج ٤، ص ١٠٠٢) .

(٢ و ٣) مابين القوسين محجوب فى س تحت ورقة ملصقة عليه، ولكنه موجود فى ب (٣٦ ب) .

(٤) لفظ مشتق من الكلمة التركية الوس، ومعناها الدار وكل ما يتبع صاحبها من حاشية وحشم وحيوان ومتاع . (Blochet: Op. cit. p. 212. N. 1) . ويفسر (Dozy: Supp. Dict. Ar.) الوسية بالمرعى المشاع .

من أولاد حسن ابن الخليفة [الفاطمى] الحافظ لدين الله، وأحضر إلى الملك العزيز بالقاهرة، فقيل له : "أنت تدعى أنك الخليفة؟" قال "نعم!" فقيل له : "أين كنت فى هذه المدّة؟" فذكر أن أمه أخرجته من القصر فتاه، ووصل إلى طنبذة[1] فاختفى بها، ثم خرج إلى مصر، فآواه رجل وشرع يتحدّث له فى الخلافة، وأنه وقع بعدة بلاد وأقطع أناسا ممن بايعه، فسُجن. وعُثر على بعض أقارب الوزير شاور، وقد ثار بالقاهرة، فسجن هو وجماعته.

وفيها انعقد ارتفاع الديوان الخاص[2] السلطانى على ثلاثمائة ألف وأربعة وخمسين ألف دينار وأربعمائة وأربعة وأربعين دينارا . ومات فيها جمال الملك موسى بن المأمون البطائحى[3] جامع السيرة المأمونية — وهو بقية بيته — فى سادس عشر جمادى الأولى بالقاهرة . وفيها وقع الشروع فى حفر الخندق من باب الفتوح إلى المقس . وكُتب بنقل جماعة من أتباع الدولة الفاطمية المحبوسين فى الإيوان ودار المظفر ليلا، بحيث لايشعر بهم أحد، حتى يوصلهم [المكلف بذلك] إلى صرخد . وفيها كُتب بإخلاء مدينة تنيس، ونَقْل أهلها إلى دمياط، وقَطْع أشجار (٣١ ا) بساتين دمياط و إخراج النساء منها. فخلت تنيس إلا من المقاتلة، وحُفر خندق دمياط ، وعمل جسر عند سلسلة البرج بها . وفيها كثرت الأراجيف بالقاهرة ومصر، وعظمت الشناعات، وارتفعت الأسعار .

---

(١) فى س طنبدى .   (٢) وظيفة الديوان الخاص هى النظر فى خاص أموال السلطان والتحدث فى جهاته ومضافاته . وأعظم بلاده وأغناها مدينة الإسكندرية ، ويليها تروجه وفوه ونستروه، ومال جميعها يحمل إلى خزانة الخاص . (القلقشندى : صبح الأعشى : ج ٣ ص ٤٥٦)، و يلاحظ أن القلقشندى يقول (نفس المرجع والجزء والصفحة) إن ديوان الخاص من منشآت السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ — ٧٤١ هـ)، على أن ذلك لا ينفى وجود إدارة من شأنها النظر فى خاص أموال السلطان أيام الدولة الأيوبية . انظر ص ٥٣ حاشية ٤ ؛ وراجع أيضا ابن شاهين (زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧ — ١٠٩)، حيث يشرح جميع منابع إيرادات ومصروفات ديوان الخاص .   (٣) ليس فى المراجع المتداولة فى حواشى هذا الجزء من السلوك شىء يذكر عن موسى هذا . على أن المعروف أن أباه المأمون ، واسمه أبو عبد الله محمد بن مختار بن فاتك البطائحى ، كان وزيرا للخليفة الآمر الفاطمى (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ)، وإليه يرجع الفضل فى تشييد الجامع الأقمر، وتكميل بناء جامع الفيلة، الذى كان يطل على بركة الحبش بالقاهرة، وإليه أيضا تنسب الدار المأمونية، بجوار درب السلسلة . (Ibn Khallikān. Biog. Dict.)، والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٦٣ — ٤٦٤؛ ج ٢، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) .

وفيها ورد الخبر فى كتاب من اليمن بأن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت بعد ما كانت عذبة : فصار أحدها أجاجا، والآخر لبنا، والآخر[1] دما . وفيها مات قلج[2] أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان صاحب قونية، وقد تغلب عليه ابنه قطب الدين — صاحب سيواس وأَقْصَرا[3] — وزاد فى أن حجر عليه . وكان موته فى شعبان، فولى قونية بعده ابنه غياث الدين كَيْخُسْرُو بن قلج أرسلان، و بقيت أخوته على ولاياتهم من عهد أبيهم، فاختلفوا . وثار عليه أخوه ركن الدين سليمان صاحب ووقاط[4]، وملك سيواس وأقصرا وقَيْسَارِيّة[5]، [وهى] أعمال أخيه قطب الدين . ثم ملك قونية من غياث الدين، ففر غياث الدين ونزل حلب .

* * *

سنة تسع وثمانين وخمسمائة . أهلت والسلطان بدمشق ، فخرج العادل إلى الكرك، وقدم من اليمن الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين فى نصف صفر[6]، فسُر به السلطان . فلما كان ليلة السبت سادس عشره، نزل بالسلطان مرض، فأمر يوم السبت ولده الأفضل أن يجلس على الطعام ، فجلس فى موضع السلطان . وتزايد به المرض إلى اليوم[7] الحادى عشر من مرضه، فحلَّف الأفضلُ الناس . واستمر السلطان فى تزايد من المرض إلى ليلة الأربعاء سابع عشرى صفر — وهى ليلة الثانى عشر من المرض — فاحتضر ومات بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء المذكور[8] . فركب الأفضل، ودار فى الأسواق، وطيَّب قلوب العامة .

---

(١) يرى (Blochet : Op. cit. p. 213. N. I.) أن هذه الأنهار هى بعض منابع النيل ، غير أنه ترجم عذبة إلى (adbat) معتبرا أنها إحدى بحيرات أواسط إفريقية .

(٢) كثيرا ما يرسم هذا الاسم فى س بالحاء المهملة .

(٣) بغير ضبط فى س ، و يطلق عليها الآن آق سراى ، وهى قرب قونية (Enc. Ist. Art. ĀḲ Sarai; Blochet: Op. cit. P. 214. N. 2.,).

(٤) كذا فى س بغير ضبط ، ولعلها توقات ، وهى قلعة حصينة تقع بين قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٩٥) .

(٥) فى س قيصرية بغير ضبط ، وكانت عاصمة ملك بنى سلجوق بآسيا الصغرى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٤) .

(٦) فى س به .

(٧) فى س يوم .

(٨) فى س عند كلمة "المذكور" إشارة كالتى يضعها المؤلف للتنبيه على مكان الهوامش المضافة ، وليس أمامها شىء من ذلك .

وكان رحمه الله كثير التواضع ، قريبا من النــاس ، كثير الاحتمال ، شديد المداراة ، محبا للفقهاء وأهل الدين والخير محسنا إليهم ، مائلا إلى الفضائل ، يستحسن الشعر الجيد و يردّده فى مجلسه . ومدحه كثير من الشعراء ، وانتجعوه من البلدان . وكان شديد التمسك بالشريعة ، سَمِــع الحديث من أبى الحسن على بن إبراهيم بن المسلم بن بنت أبى سعد ، وأبى محمد بن برّى النحوى ، وأبى الفتح محمود بن أحمد الصابونى ، وأبى الطاهر السلفى ، وابن عوف ، وجماعة [غيرهم] . وكان كريما : أطلق من الخيل بمــرج عكا لمن معه اثنى عشر ألف رأس ، سِوى أثمان الخيل التى أصيبت فى الجهاد . ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب أو موعود به ، وصاحبه ملازم فى طلبه . وتأخر عنــه الأمير أيوب بن كنان فى بعض سفراته لدين لَزِمَه ، فتقبَّل لغرمائه باثنى عشر ألف دينار مصرية . وكان ورعا : رأى يوما العماد الكاتب يكتب من دواة محلاة بالفضة فأنكرها ، وقال هــذا حرام ، فلم يعد يكتب منها عنده . وكان لا يصلى إلا فى جماعة ، وله إمام راتب ملازم ؛ وكان يصلى قبيل الصــبح ركعات إذا استيقظ . وكان يُســوى فى المحاكمة بين أكبر النــاس و بين خصــمه . وكان شجاعا فى الحروب ، يمــر فى الصفوف وليس معه سوى صبى . وقُرِئَ عليه جزء من الحديث بين الصَّفَّيْن ، وهو على ظهر (٣١ب) فرسه . وكان ذا كرا لوقائع العرب وعجائب الدنيا ، ومجلسه طاهر من المعايب ، رحمه الله وغفر له .

ولمــا مات جلس الأفضــل للعزاء ، وكثر بكاء الناس عليــه . وغسَّله الفقيــه خطيب دمشق ، وأُخرج بعد صلاة الظهر ، وصلى الناس عليه أَرسالا ، ودفن بداره التى مرض فيهــا بالقلعة ؛ ثم نُقل فى يوم عاشوراء سنة اثنتين وتســعين وخمسمائة إلى تربة بنيت له بجوار جامع بنى أمية . وكُتب [بوفاته] إلى العزيز بمصر ، وإلى العادل بالكرك . وكان عمره يوم مات نحوا[(١)] من سبع وخمسين سنة . منها مدّة ملكه بعد موت العاضد اثنتان وعشرون سنة وأيام[(٢)] . وترك من الأولاد ســبعة عشر ذكرا و بنتا واحدة صغيرة ؛ ولم يخلِّف فى خزائنه سوى سبعة وأربعين

(١) فى س نحو . (٢) فى س اثنتين وعشرين سنه واياما .

درهما، ولم يترك دارا ولا عقارا . وكان القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى صاحب سره، وبمنزلة الوزير منه .

وفيها قتل طغرل بن أرسلان بن طغرل[1] بن السلطان محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان، ابن جغرى بك داود بن ميكائيل بن سلجوق فى رابع عشرى شهر ربيع الأول ، وهو آخر من ملك بلاد العجم من السلاطين السلجوقية، وابتداء دولتهم فى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وأولهم طغرلبك بن ميكائيل[2] بن سلجوق ، فتكون مدة دولتهم مائة سنة وثمانيا[3] وخمسين سنة .

السلطان الملك العزيز عماد الدين

أبو[4] الفتح عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، وُلد بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع وستين وخمسمائة . ومات أبوه بدمشق وهو على سلطنة ديار مصر مقيم بالقاهرة، وعنده جل العساكر والأمراء من الأسدية والصلاحية والأكراد . فلما بلغه موت أبيه جلس للعزاء، وأخذ بالحزم، وقرر أمور دولته، وخلع على الأمراء وأرباب الدولة بعد انقضاء العزاء . فقام أخوه الأفضل نور الدين علىٌّ بدمشق ، وكتب إلى الخليفة الناصر يطالعه بوفاة أبيه، من إنشاء العماد الكاتب . وبعث بذلك مع القاضى ضياء الدين أبى الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله الشهرزورى[5]، ومعه عُدد والده وملابسه وخيله، وهدية نفيسة . وسار العادل من الكرك إلى بلاد المشرق، فأقام بقلعة جعبر[6]، وبعث نوابه إلى حران

(١) فى س طغريل وبغير ضبط فى الموضعين . (انظر ص ٤٠ ، حاشية ٢) .

(٢) صححت بعض الأسماء الواردة هنا بغير تنبيه وذلك لسبق ورودها والإشارة إلى رسم المؤلف لها .

(٣) فى س ثمان . (٤) فى س ابى . (٥) فى س الشهرزورى .

(٦) بغير ضبط فى س ، وفى قلعة على الفرات بين بالس والرقة قرب صفين وكانت قديما تسمى دوسر . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٨٤)، وراجع أيضا (Blochet: Op. cit, p. 217. N. 1) .

والرها . واستوزر الأفضل الوزير ضـياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير[(١)]، وفوّض إليه أموره كلها، فحسّن له إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجد أمراء غيرهم. ففارقه جماعة منهم الأمير فخر الدين جَهَارَكَس[(٢)]، وفارس الدين ميمون القصرى، وشمس الدين سنقر الكبير، وكانوا عظماء الدولة . فصـاروا إلى الملك العزيز بالقـاهرة فأكرمهم ، وولّى فخر الدين أُستاداره[(٣)]، وفوّض إليه أمره ، وجعل فارس الدين وشمس الدين على صيداء وأعمالها ، وكان ذلك لهما ، وزادهما نابلس وبلادها. وسار القاضى الفاضل أيضا من دمشق ولحق بالقاهرة، فخرج العزيز إلى لقائه (٣٢ ا) وأجلّ قدومه وأكرمه . فشرع القوم فى تقرير قواعد مُلك العزيز، والأفضل فى شـغل عنهم . وكانت مدينـة القدس مضافة للأفضل، فكتب إلى أخيـه العزيز يرغب عنها له . وكان [ذلك] من تدبير وزيره ابن الأثير، لأنها كانت تحتاج حينئذ إلى أموال ورجال لمدافعـة الفرنج . فسُر العزيز بذلك، وجهز عشرة آلاف دينار إلى عز الدين جرديك النورى متولى القدس، لينفقها فى عسكر القدس، فخطب له به . وخشى [العزيز] من نقض الهدنة بينه وبين الفرنج، فبعث عسكرا إلى القدس احترازا من الفرنج . ثم بدا للأفضل أن يعود فيما رغب عنه لأخيه من القدس ، ورجع عن ذلك ، فتغيّر العزيز من هذا ، وأخذ الأمراء فى الإغراء بينهما، وحسّنوا للعزيز الاستبداد بالملك والقيام مقام أبيه، فبلغ ذلك الأفضل .

(١) أخو مؤلف كتاب الكامل فى التاريخ . وقد ترجم له المقريزى بهامش الصفحة بعبارة نصها : "نصر الله بن محمد بن أبى البركات محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الحرانى، المعروف بابن الأثير أبى الفتح ضياء الدين، رئيس الكتاب فى زمانه. ولد بالجزيرة العمرية يوم الخميس العشرين من شعبان سنة ٥٥٨ [ﻫ]، ومات ببغداد سلخ ربيع الآخر سنة ٦٣٧ [ﻫ]، وله مصنفات منها المثـل السائر [فى آداب الكاتب والشاعر]" . ولهذين النابغتين أخ ثالث اسمه مجد الدين أبو السعادات، اشتغل بعلوم القرآن والحديث والنحو، ومن مؤلفاته كتاب النهاية فى غريب الحديث ، وهو أكبرهم سنا ، ويليـه صاحب الكامل فى التاريخ (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athir) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 218)، انظر أيضا (Rec. Hist. Or. I. p. 86) .

(٣) الأستادار هو الذى يتولى شؤون مسكن السلطان أو الأمير وصرفه ، وتنفذ فيه أوامره . وبين القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠ ، ج ٥ ، ص ٤٥٧) وبين عامة المستشرقين خلاف فى أصل هـذا اللفظ الفـارسى المركب ، فانظر (G.-Demombynes : Op. cit. Introd. p. LX. & N. 4) .

* * *

[سنة تسعين وخمسمائة]. ودخلت سنة تسعين، وقد تنافرت القلوب، وقويت الوحشة بين الأخوين. واجتمعت الأمراء الصلاحية على أن يكون الأمر كله للعزيز، فاضطربت أحوال الأفضل. وخرج العزيز من القاهرة بعساكر مصر، من الصلاحية والأسدية والأكراد وغيرهم، يريد الشام وانتزاعها من أخيه الأفضل، من أجل أمور منها أن جبيل[1] — وهو من جملة الفتوح الصلاحية[2] — كان مع رجل كردى [فقيه أقامه صلاح الدين مستحفظا بها][3]، فأرغبه الفرنج بمال حتى سلّمه لهم. وخرج الأفضل من دمشق ليستنقذه من الفرنج، فتعذر عليه، وظهر العجز عن استخلاصه. فامتعض الأمراء لذلك، وخوّفوا العزيز من عاقبة أمر الفرنج، فسار فى [صفر][4]، واستخلف أخاه الملك المؤيد نجم الدين مسعود، وترك بالقاهرة بهاء الدين قراقوش الأسدى وصيرم[5] وسيف الدين يازكج وخطلج فى تسعمائة فارس. واتفق أن الأمير صارم الدين قايماز النجمى — أحد أكابر الأمراء الصلاحية — استوحش من الأفضل لإعراضه عنه، فخرج من دمشق يريد إقطاعه، ولحق بالعزيز فأكرمه ورفع محله.

وهمّ الأفضل بمراسلة أخيه العزيز واستعطافه، فمنعه من ذلك وزيره ابن الأثير وعدة من أصحابه، وحسنوا له محاربته، فمال إليهم. وبعث إلى عمه العادل وهو بالشرق، وإلى أخيه الظاهر بحلب، وإلى المنصور بحماة، وإلى الأمجد صاحب بعلبك، وإلى المجاهد شيركوه صاحب حمص، يستنجدهم على أخيه العزيز. فوردت رسلهم فى جمادى الآخرة، يعدون بالقدوم عليه. ثم إنه برز من دمشق، ونزل برأس الماء. فلما وصل العزيز إلى القصير[6] من الغور ضاق الأفضل، ورجع من الفوار إلى رأس الماء. فادركت مقدّمة العزيز ساقته، وكادوا يكبسونه

---

(١) فى س وهى. (٢) فى س الصلاحى. (٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١١١، ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. V.).

(٤) انظر نفس المرجع والصفحة بالحاشية السابقة. (٥) كذا فى س، وبغير ضبط، وهو مترجم فى (Blochet :Op. cit. p. 219) إلى (Sarim al-Din)، على أن المقصود ليس صارم الدين قايماز النجمى المذكور فيما يلى. (٦) بغير ضبط فى س، واسمه قصير معين الدين، بالغور من أعمال الأردن. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٢٦).

فانهزم إلى دمشق، ودخلها لخمس مضين منه . ونزل العزيز فى غده على دمشق فى قوة قوية، ونازل البـلد . وكان الأفضل قد استعد لقتاله ، فقـدم العادل والظاهر (٣٢ ب) والمنصور والمجاهد والأمجد إلى دمشق . وبعث العادل إلى ابن أخيـه الملك العزيز يشفع فى الأفضل ، ويستأذنه فى الاجتماع به، فأذن له . وخرج العادل فاجتمع بالعزيز — وكل منهما راكب — وتحـدث معه فى الصلح، وأن ينفّس الخناق عن البـلد ؛ وكان قد اشتد الحصار، وقطعت الأنهار، ونهبت الثمار، والوقت زمن المشمش . فوافق العزيز عمه، وتأخر إلى دَارَيّا[1]، ونزل على الأَعْوَج[2] ؛ وسَيَّر الأميرَ فخر الدين جهاركس الأستادار — وهو يومئذ أجلّ الصلاحية — إلى العادل، فقرر الصلح على شروط، وعاد إلى العزيز . فرحل ونزل مرج الصُّفَّر[3]، فحدث له مرض شـديد ، وأرجف بموته، ثم أبل منه . وأمر بعمل نسخة اليمين ، وهى جامعة لمقترحات جميـع الملوك ؛ وحَسَم مواد الخـلاف، وأن الملك الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه ، والملك المجاهد شـيركوه ، يكونان مؤازرين للملك الأفضـل وتابعين له ، وأن الملك المنصور صـاحب حمـاة يكون فى حيّز الملك الظاهر صاحب حلب ومؤزرا له . وبعث كل من الملوك أميرا من أمرائه ليحضر الحلف ، فاجتمعوا يوم السـبت ثانى عشر شهـر رجب ، وجرت أمور آلت إلى الحلف على دَخَن . وتزوج العـزيز بابنة عمـه العـادل، وقبل العقد عنه القاضى المرتضى محمـد بن القاضى الجليس عبد العزيز السعدى . ووكل العـادل القاضى محيى الدين محمـد بن شرف الدين بن عصرون فى تزويج ابنته من ابن عمها الملك العـزيز، وعقد بينهما قاضى القضاة محيى الدين . وكَتب العماد الكاتب الكتّاب فى ثوب أطلس، وقُرئ بين يدى الملك الظاهر، وعُقد العقد عنده .

فلما كان يوم الجمعة أول شعبان، خرج الملك الظاهر غازى صاحب حلب لوداع أخيه العزيز، فركب العزيز إلى لقـائه وأنزله معه، وأكلا ثم تفرقا، بعد ما أهدى كل منهما لأخيه

(١) بغـير ضبط فى س ، وهى قـرية كبيرة من قرى دمشـق بالغوطة . (ياقوت : معجم البـلدان ج ٢ ص ٥٣٦). (٢) بغير ضبط فى س ، انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ١١٢ ، فى Rec. Hist. Or. V.).

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو من نواحى دمشق . (ياقوت . معجم البلدان ، ج ٢٤ ص ٤٤٨)، انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 221. N. 3) .

هدية سنية . ثم خرج العادل لوداع العزيز فى خواصه؛ ثم خرج الأفضل فودّعه أيضا، وهو آخر من ودّعه . ورحل العزيز من مرج الصفر فى ثالث شعبان يريد مصر، فلما كان ثالث عشره عمل الأفضل دعوة عظيمة لعمّه وبقية الملوك وودعهم. ثم رحلوا من الغد إلى بلادهم إلا العادل، فإنه أقام إلى تاسع شهر رمضان، ثم رحل إلى بلاده بالشرق .

وقدم العزيز إلى القاهرة فى (١٣٣) يوم ... ...(١) ... وأما الأفضل فإنه همّ بمكاتبة العزيز بما يؤكد أسباب الصلح، فأماله عن ذلك خواصه ، وأغروه بأخيه، ورموا جماعة من أمرائه بأنهم يكاتبون العزيز، فاستوحش منهم، وفطنوا بذلك فتفرقوا عنه . وسار الأمير عز الدين أسامة(٢) صاحب [كوكب] وعجلون عن الأفضل، ولحق بالعزيز فأكرمه غاية الإكرام، وأخذ يحرضه على الأفضل، ويحثه على المسير إلى دمشق وانتزاعها منه ، ويقول له : " إن الأفضل قد غلب على اختياره ، وحَكَم عليه وزيره الضياء [ابن الأثير] الجزرى ، وقد أفسد أحوال دولته برأيه الفاسد، ويحمل أخاك على مقاطعتك، ويحسن له نقض اليمين . فإن من شرطها صفو الوداد وصحة النية، ولم يوجد ذلك، فحنثهم فى اليمين قد تحقق، وبرئتَ أنت من العهدة . فاقصد البلاد فإنها فى يدك ، قبل أن يحصل فى الدولة من الفساد ما لا يمكن تلافيه " . وبينا هو فى ذلك إذ فارق الأفضل الأمير شمس الدين أيدمر بن السلار(٣)، ووصل إلى العزيز، فساعد الأمير أسامة(٤) على قصده . ثم وصل أيضا إلى العزيز القاضى محيى الدين أبو(٥) حامد محمد بن الشيخ شرف الدين عبد الله بن هبة الله بن أبى عصرون ، فاحترمه وولاه قضاء الديار المصرية، وضم إليه نظر الأوقاف .

وأقبل الأفضل بدمشق على اللعب ليله ونهاره ، وتظاهر بلذاته، وفوّض الأمور إلى وزيره؛ ثم ترك اللعب من غير سبب، وتاب وأزال المنكرات وأراق الخمور، وأقبل على العبادة،

(١) بياض فى الأصل . (٢) فى س سامة وبغير ضبط . راجع أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٧٠ ، ٨٦، فى .Rec. Hist. Or. I)

(٣) ترجم (Blochet : Op. cit. pp. 223) هذا الأسم إلى (Ibn as-Salat)؛ وفى فهارس (.Rec Hist. Or. I-V) شخصان بهذا الاسم (Ibn es-Sellar) . (٤) فى س سامة . (٥) فى س ابى .

ولبس الخشن من الثياب، وشرع فى نسخ مصحف بخطه، واتخذ لنفسه مســجدا يخلو فيه بعبادة ربّه، وواظب على الصيام، وجالس الفقراء، وبالغ فى التقشـف ، حتى صار يصوم النهـار ويقوم الليل . وأما العزيز فإنه قطع خبز الفقيه الكمال الكردى من مصر، فأفسد جمـاعة على السـلطان ، وخرج إلى العرب بجمع ونهب الإسكندرية ، فسار إليه العسكر فلم يظفروا به . وقطع [العـزيز] أيضا خبز الجناح وعَلْكان(١) ومجد الدين الفقيه وعز الدين صهر الفقيه، فساروا من القاهرة إلى دمشق، فأقطعهم الملك الأفضل الإقطاعات .

وفى شهر رمضان كُسِر بحر أبى المُنَجّا(٢) بعد عيد الصليب بسبعة أيام، وتجاهر الناس فيـه بالمنكرات من غير نكر عليهم . وفيـه وقعت الآفة فى البقر والجمال والحمير، فهلك منهـا كثير . وفيه كثر حمل الغلة من البحيرة إلى بلاد المغرب، لشدّة الغلاء بها . وكثرت(٣) بين الأمراء إشاعة أن إقطاعاتهم تؤخذ منهم، فقصّروا فى عمارة البلاد . وارتفع السعر بالاسكندرية، ونقص ماء النيل بعـد ما بلغ اثنين وعشرين إصبعا من سبعة عشر ذراعا، فرفعت الأسعار، وشرقت البلاد . وبلغ القمح كل أردب بدينار، وأخذ فى الزيادة، وتعذر وجود الخبز، وضجّ الناس . وكثرت المنكرات ، وغلا سعر العنب لكثرة من يعصره . وأقيمت طاحون لطحن الحشيش بالمحمودية، وحُميت بيوت المزر، وجعل عليها ضرائب ، فمنها ما كان عليه فى اليوم ستة عشر دينارا، ومنع من عمل المزر البيوتى . وتجاهر الكافة بكل قبيح، فترقب أهل المعرفة حلول البلاء .

(١) بغير ضبط فى س، انظر ابن شداد (النوادر السلطانية، ص ٣٦٥، فى Rec. Hist. Or. III) .

(٢) أسلف المقريزى ذكر بحر أبى المنجا (ص ٧٣) ، وقد أرجئ الكلام عليـه إلى هذا الموضع، لمناسـبة إسهاب المقريزى فى وصف ما حدث تلك السنة عند الاحتفال بفتحه . وكانت هذه القناة تخرج من النيل قرب بلدة شبرا الحاليـة ، ثم تمر ببلبيس ، وتلتقى فى شمالها ببحر الفرما ، الذى يسير مخترقا برزخ السويس إذ ذاك حتى مدينة الفرما على البحر الأبيض المتوسط ، غربى بور سعيد الحالية . وقد بدئ حفر بحر أبى المنجا سنة ٥٠٦ هـ فى عهد الخليفـة الآمر الفاطمى (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ)، ونيط بحفره أبو المنجا بن شـعيا اليهودى . وكان يوم فتح هـذه القناة من أيام القاهرة وأعيادها ، يشترك فيـه السلطان والأمراء والناس جميعا . على أن السلطان العزيز لم يباشر فتح القناة بنفسـه تلك السنة ، واشتدّ إفراط الناس ذلك اليوم ، إذ غلبت "المجاهرة بالمنكرات والإعلان بالفواحش ... ولم ينسلخ شهر رمضان إلا وقد شهد مالم يشهده رمضان قبله فى الإسلام ..." (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ص ٧١ و ٤٨٧)، وأيضا (P. Omar Toussoun : Anc. Branches du Nil, pl. III) .

(٣) فى س وكثر .

وفيها قدم رسول متملك القسطنطينية (١١٠٤) [1] يطلب صليب الصلبوت، فأُحضر من القدس، وكان مرصعا بالجوهر، وسُلم إليه على أن يعاد [ثغر] جبيل من الفرنج. وتوجه الأمير شمس الدين جعفر بن شمس الخلافة [بذلك].

* * *

تمة سنة تسعين وخمسمائة. [في] يوم الخميس رابع محرم عُقد مجلس بحضرة السلطان، حضره أصحاب الدواوين. وفى عاشره قدم الأمير حسام الدين ببشارة من عند الملك العادل وبقية الأولاد الناصرية، فتلقاه السلطان والأمراء، وحمل إليه سماط السلطنة، فطلب الموافقة بين الأهل. وفى سادس عشره ركب السلطان للصيد بالجيزة، ومر بباب زويلة، فأنكر بروز مصاطب الحوانيت فى الأسواق، ورسم بهدمها، فهدمت بمباشرة مُحتَسِب [2] القاهرة. ومر بصناعة العمائر [3]، فرسم بسد طاقات الدور المجاورة للنيل فسدّت.

---

(١) إمبراطور الدولة البيزنطية إذ ذاك هو (Isaac II Angelus, 1185-1195)، وقد تقدم ذكر ما كان بينه وبين صلاح الدين من العلاقات الحسنة قبل تلك السنة. انظر ص ٩٨ حاشية ١.

(٢) أفاض المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٦٣ — ٤٦٤) فى شرح وظيفة المحتسب، ولا عجب فإنه قد تولى هذه الوظيفة سنة ٨٠١ هـ (Quatremère : Maml. I. Pref. p. 1). وهذا نص ما كتبه عنها "وأما الحسبة فإن من تسند إليه لا يكون إلا من وجوه المسلمين وأعيان المعدلين، لأنها خدمة دينية. وله استخدام النواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع أعمال الدولة، كنواب الحكم. وله الجلوس بجامعى القاهرة ومصر يوما بعد يوم. ويطوف نوابه على أرباب الحرف والمعايش، ويأمر نوابه بالختم على قدور الهراسين ونظر لحمهم ومعرفة من جزاره، وكذلك الطباخون. ويتتبعون الطرقات، ويمنعون من المضايقة فيها. ويلزمون رؤساء المراكب أن لا يحملوا أكثر من وسق السلامة، وكذلك مع الحمالين على البهائم. ويأمرون السقائين بتغطية الروايا بالأكسية، ولهم عيار وهو أربعة وعشرون دلوا، كل دلو أربعون رطلا، وأن يلبسوا السراويلات القصيرة الضابطة لعوراتهم وهى زرق. وينذرون معلمى المكاتب بأن لا يضربوا الصبيان ضربا مبرحا ولا فى مقتل، وكذلك معلمى العوم بتحذيرهم من التغرير بأولاد الناس، ويقفون على من يكون سيء المعاملة، فينهونه بالردع والأدب. وينظرون المكاييل والموازين. وللمحتسب النظر فى دار العيار. ويخلع عليه، ويقرأ سجله بمصر والقاهرة على المنبر، ولا يحال بينه وبين مصلحة إذا رآها، والولاة تشد معه إذا احتاج إلى ذلك، وجاريه ثلاثون دينارا فى كل شهر". هذا ويذكر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤ ص ٣٧) أن قد كان بالقاهرة محتسب له التصرف بها وبالوجه البحرى عامة، خلا الاسكندرية، فإن لها محتسبا يخصها. وبالفسطاط محتسب ثالث مرتبته أقل أهمية من الأول، ودائرة اختصاصه الفسطاط والوجه القبلى بكماله. انظر أيضا القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣، ص ٤٨٧، ج ٥، ص ٤٥١؛ و (G.-Demombynes : Op. cit., Introd p. LXXVII. etc.). وبالمتحف البريطانى بلندن كتاب فى وظيفة الحسبة لعبد الرحمن العدوى البندارى الشيرازى اسمه نهاية الرتبة فى طلب الحسبة (Brit. Mus. Ms. Or. 9588).

(٣) اسم اطلق فيما بعد على صناعة مصر. انظر ص ٧٤، حاشية ٧، والمراجع التى بها.

وفى صفر غُيِّرت ولاة الأعمال . وفى عاشره حلف العزيز لعمه العادل . وفى ثالث عشريه عاد العزيز من الصيد بالجيزة . وفى هذا الشهر غلت الأسعار ، فبلغ كل مائة أردب ثمـانين دينـارا . وفى خامس عشره قدم فارس الدين ميمون [القصرى][1] مقطع صيداء، وسيف الدين سـنقر المشطوب ، وشمس الدين سـنقر الكبير مقطع الشقيف ، مفارقين الملك الأفضل . فدفع [العزيز] لميمون خمسمائة دينـار، ولسنقر أربعمائة دينار، وللمشطوب ثلاثمـائة دينار .

وفى ربيع الأول ٱشتد الأمر فى الزحام على الخبز لقلته فى الأسواق؛ ووقع الحريق فى عدة مواضع بالقاهرة . وفى عاشره أُخرجت خيمة السلطان للسفر . وفى ثالث عشره انحل السعر قليلا ، ووُجد الخبز فى الأسواق . وفى نصفه ورد كتاب [علم الدين][2] قيصر بأنه تسلم القدس من جرديك فى تاسعه، وتسـلم صليب الصلبوت ؛ وقُـرّر [أيضا] إعادة جبيل من الفرنج . وفى سادس عشره قـدم بدر الدين لؤلؤ بكتاب الأفضل بخبر جبيل، وسبب قدوم ميمون ورفيقيه . وفيه نزع[3] السعر، وبلغ كل مائة أردب إلى مائة وخمسة وسبعين دينارا، وعظم ضجيج النـاس من الجوع . وفى سابع عشريه وصـل صليب الصلبوت من القدس، وهو خشـبة مرصعة بجواهر فى ذهب . وفى ثامن عشريه ولى زين الدين على بن يوسف الدمشقى قضاء القضاة بديار مصر، عوضًا عن صدر الدين بن درباس ، بعناية جماعة من المماليك به ، وخُلع عليه . وفى سلخه قدم رسول الملك العادل .

وفى تاسع ربيع الآخر هدم المحتسب حوانيت وإصطبلاً كان صـدر الدين بن درباس أنشأها[4] فى زيادة الجامع الأزهر بجوار داره، ورَفَع صدرُ الدين نقض ذلك إلى داره . وقوى عزم السلطان على السفر، وبعث بهرام يقترض له مالا من تجـار الإسكندرية؛ وطلب من قاضى القضاة زين الدين أن يقرضه مال الأيتام، وكان يبلغ أربعة عشر ألف دينار، فحملت

(١) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٨٧ ، فى Rect. Hist. Or. I.) .

(٢) انظر ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٢٩ ، فى Rec. Hist. Or. III.) .

(٣) فى س نزع بغير ضبط . (٤) فى س انشاهم .

إلى الخزانة . وكتب السلطان خطه بذلك وأشهد عليه ، وأحال به على بيت المال ، وقرر استخراجه [منه] ، وأمر بحمله إلى القاضى . هذا وقد تأخر القرض الذى كان السلطان صلاح الدين أُقْرِضه فى نوبة عكا ، وهو ثلاثون ألف دينار ، فلم يوف منه إلا يسيرا . وفى سادس عشره توجه جعفر بن شمس الخلافة إلى الفرنج لإعادة جبيل . وفى يوم الخميس تاسع عشره خرج السلطان إلى مخيمه ببركة الجب ، واستناب فى غيبته بهاء الدين قراقوش (١) ، ومعه ثلاثة عشر أميرا ، ونحو سبعمائة فارس . وتوجه مع السلطان سبعة وعشرون أميرا ، فى ألفى فارس وألف من الحلقة (٢) .

وفى ثالث جمادى الأولى استقل السلطان بالمسير ، ونزل على دمشق فى تاسع جمادى الآخرة ، ورحل عنها فى ثامن عشريه بشفاعة عمه الملك العادل .

وفى تاسع رجب دخل الأفضل دمشق ، بعد أن تقرر الصلح بينه وبين أخيه الملك العزيز فى سادسه .

---

(١) فى س قراغوش .

(٢) كانت الجيوش النظامية فى مصر منذ الأيوبيين مكونة من ثلاث فئات من الغرباء والأجانب ، وأصلها كلها من الأرقاء ، وليس بينها صفات مشتركة سوى أنها من أسواق النخاسة ، بالقوقاز وآسيا الصغرى وشواطىء البحر الأسود . وأول تلك الفئات المماليك السلطانية ، وهذه عبارة عن مشتريات السلطان وأجلابه — أوجلبانه — وما يتبق عنده من مماليك من سبقه فى السلطنة . ومن هذه الفئة المماليك الخاصكية ، وتميز من بقية المماليك السلطانية بانضواء أفرادها وهم صغار فى خدمة السلطان ، فهو الذى يتولى تربيتهم وعتقهم ، ومرتبات المماليك السلطانية جميعا من ديوان المفرد . أما الفئة الثانية من الجيوش النظامية فهى أجناد الحلقة ، وهذه مكونة من محترفى الجندية ، من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهى أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة ، ومرتباتها من ديوان الجيش . والفئة الثالثة مماليك الأمراء ، وهى شبه فرقة المماليك السلطانية ، غير أن أفرادها تابعون مباشرة لأمرائهم ، ومنهم تتكون الوحدات الحربية التى يذهب بها الأمراء مع السلطان فى حروبه . هذا ولم يكن فى هذه الجيوش من العناصر المصرية أو الشامية سوى ما يلحق الحملات الحربية عادة من الفقهاء والمقرئين والصناع والأتباع وزعر العامة . (G.-Demombynes : Op. cit. Pref. p. XXX et seq.)

وفى رابع شعبان دُقّت البشائر[(١)] بالقـاهرة، فرحًا بالصلح بين الأولاد الناصرية، وزُيّنت الأسواق . وفيه انحط السعر . وقدم السلطان الملك العزيز إلى القاهرة سلخ شعبان .

وفى سابع رمضان وصل الملك المعظم توران شاه وإخوته وعيالهم من دمشق، والديوان فى ضائقة شديدة، فعجزوا عن إقامة وظائفهم ومطابخهم وجراياتهم، فنزلوا فى الدار العزيزية. ونزعت الأسعار فى المأكولات كلها. وفى تاسع عشره وصل عز الدين أسامة[(٢)] مفارقا للأفضل .

* * *

[سنة إحدى وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة إحدى وتسعين، والعزيز على عزم المسير إلى الشام . فاستشار الأفضل أصحابه، فمنهم من أشار [٣٣ ب] عليه بمكاتبة العزيز واسترضائه . وأشار الوزير [ابن الأثير] عليـه بالاعتصار بعمه العادل ، واستنجاده على العزيز، فأصغى إليه . وكثرت الإشاعة بقصد العزيز إقامة الخطبة فى دمشق باسمه، وضرب السكّة[(٣)] له . فانزعج الأفضل، وخرج من دمشق فى رابع عشر جمادى الأولى، وسار جريدة إلى عمه العادل، فلقيه بصفين . فلما نزلا ألحف الأفضل فى المسألة له أن ينزل عنده بدمشق ، ليجيره من أخيـه العزيز، فأجابه وأنزله بقلعـة جعبر . ثم سار معـه إلى دمشق أول جمادى الآخرة ، فوصل إليها فى تاسعه . ودخل الأفضل إلى حلب على البَرِّيّة[(٤)]، مستصرخا بأخيه الملك الظاهر، فتلقاه وحلف له على مساعدته . ثم رحل عنه إلى حماة، فتلقاه ابن عمه الملك المنصور محمد بن المظفر، وحلف له . ثم سار عنه إلى دمشق، فدخلها فى ثالث عشره وبهـا العادل؛ فأفضى إليه بأسراره . وعلم العادل اختلال أحوال الأفضل، وسوء تدبيره وقبيح سيرته، فانحرف

(١) كثيرا ما يذكر المؤرخون هذه العبارة بعد إيراد حادث سار، وكان يقوم بإعلان البشائر فرقة موسيقية بالقلعة، ولعلها فرقة الكوسية المذكورة فى القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩، ١٣ ؛ والبشائر أيضا الرسائل التى كان السـلاطين يبعثون بها إلى البلاد والأعمال، فى الأعياد والمواسم والحوادث السارة ، وكانوا يخلقونها عادة بالطيب . (نفس المرجع، ج ٣، ص ٥٠٩) . انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar. & Lane : Lexicon)؛ وكذلك (Enc. Isl. Art. Bashīr) .

(٢) فى س سامة .

(٣) فى س الصكة، وهى بالسين أفصح . (محيط المحيط) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى الصحراء الواقعة بين أراضى الفرات والشام . (Blochet: Op. cit. p. 230. N. 1) .

عنه ونهاه فلم ينته، إلا أنه مبالغ فى كرامة عمه، حتى أنه ترك له السنجق[١] . وصار العادل يركب بالسنجق السلطانى فى كل يوم، ويركب الأفضل فى خدمته .

فما هو إلا أن استقر ذلك إذ حدث بين الظاهر صاحب حلب وبين أخيه الأفضل وعمه العادل وحشة، من أجل ميل الملك المنصور صاحب حماة إلى العادل . فسير [الظاهر] إلى أخيه العزيز يحرضه على قصد الشام، ووعده بالمساعدة له على الأفضل، فوافق ذلك غرضه، وخرج من القاهرة[٢] بعساكره فى ... ...[٣]

فلما قارب [العزيز] دمشق كاتب الملك العادل الأمراء سرا واستمالهم، وكان الأمراء الصلاحية قد وقع بينهم وبين الأمراء الأسدية تنافس، لتقديم العزيز الصلاحية على الأسدية . فعملت حيل العادل حتى وقعت الوحشة بين الطائفتين، ونفرت الأسدية من الملك العزيز . وكاتب [العادل] العزيز سرا يخوفه من الأسدية، ويحثه على إبعادهم عنه؛ وكاتب الأسدية، يخوفهم من العزيز ويستميلهم إليه . فحاق ما مكره وتم له مادبره، وعزموا على مفارقة العزيز، وحسنوا

---

(١) لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح، والمراد به هنا الراية التى تربط به، والجمع سناجق . وهى رايات صفر صغار، يحملها السنجقدار . ويظهر أن العادة كانت أن يركب السلطان فى المواكب زمن السلم بالسناجق فقط، أما مواكب الحرب، فكان مسير السلطان فيها بالأعلام، ومنها السناجق، ثم راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب، عليها ألقابه واسمه وتسمى العصابة، ثم راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش . ويتولى أمر هذه الأعلام كلها الأمير علم . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨؛ ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٥٨) . هذا وفى ركوب الأفضل فى خدمة العادل إشارة إلى استعداده للاعتراف بعمه ملكا بدلا من العزيز . (Blochet : Op. cit. p. 230. N. 2) .

(٢) يعزو ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٧٩) ما حدث تلك السنة من الوحشة إلى عدم وثوق الظاهر صاحب حلب بحسن نية عمه العادل نحو أولاد أخيه . وابن الأثير معاصر لا يستهان بقوله، وهذه عبارته : "وكان أبلغ الأسباب فى ذلك وثوق الأفضل بالعادل، وأنه بلغ من وثوقه أنه أدخله بلده وهو غائب عنه . ولقد أرسل إليه أخوه الظاهر غازى صاحب حلب يقول له : أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يجىء علينا منه خير، ونحن ندخل لك تحت كل ما تريد . وأنا أعرف به منك وأقرب إليه، فإنه عمى مثل ما هو عمك، وأنا زوج ابنته . ولو علمت أنه يريد لنا خيرا لكنت أنا أولى به منك . فقال له الأفضل : أنت سيئ الظن فى كل أحد . أى مصلحة لعمنا فى أن يؤذينا ؟ ... ... وهذا كان أبلغ الأسباب، ولا يعلمها كل أحد" .

(٣) بياض فى س بقدر خمس كلمات، وليس فى ب (٤١ أ) أى إشارة إليه .

للأكراد والمهرانيـة موافقتهم، فانقادوا إليهم . وكان مقدّم أمراء الأكراد الأمير حسام الدين أبو الهيجاء[(١)] السمين، فاجتمع بالأكراد مع الأسدية . واتفقوا بأجمعهم على مفارقة العزيز (١٢٤ ا) والانضمام إلى العادل والأفضل، ومضايقة العزيز. و [عقدوا النية على] مكاتبة من بقى منهم بمصر، أن يستقبلوا العزيز ويحولوا بينه وبين القاهرة، فيصير [بذلك] بين الفريقين، ويؤخذ باليد .

فلما كان فى عشية الرابع من شوّال رحل الأمير أبو الهيجاء بالأكراد والمهرانية والأسدية، وهم لابسون لامة الحرب ، ولحقوا بالعادل فسرّبهم ، لأنهم معظم الجيش . فلما أصبح نهار الخامس من شوّال رحل العزيز يريد مصر، وهو متخوف من الأسـدية المقيمين بالقاهرة . وكان نائبه بها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، فلم يتغير على العزيز، ووصل إلى القاهرة فى ... ...[(٢)] فاستقر بها .

ثم إن العادل خرج بالأفضل من دمشق، ومعه العساكر يريد أخذ القاهرة ، لـما داخله من الطمع فى العـزيز . واتفق مع الأفضـل على أن يكون للعـادل ثلث البـلاد المصرية، ويكون ثلثاها للأفضـل . فأجابه إلى ذلك ورحلا من دمشـق ، وخرج [معهـم] أيضـا [المنصور] صاحب حمـاة ، وعز الدين بن المقـدم ، وسابق[(٣)] الدين [عثمان] بن الداية صاحب شَـيْزَر[(٤)] . واستخلف [الأفضـل] بدمشـق [أخاه] الملك الظافـر خضر [صاحب

(١) فى س ابا . (٢) بياض فى س وليس فى ب (٤١ ب) إشارة ما إليه . (٣) فى س سايق . انظر بعض أخباره بالحاشية التالية . (٤) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة تشتمل على كورة بالشام ، على حد قول ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٥٣) . وتقع قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم ، فى وسطها نهر الأرند (Orontes) . ولقلعة شيزر شهرة كبرى فى التاريخ، فقد كانت مقر إمارة بنى منقذ الكنانيين ، منذ ٤٧٤ هـ (١٠٨١ م) حتى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) . وبها ولد أسامة بن منقذ الشاعر ، صاحب كتاب الاعتبار، فى اليوم السابع والعشرين من شهر جمادى الثانية سنة ٤٨٨ هـ (٤ يوليه ١٠٩٥ م) ، أى قبل ابتداء الحروب الصليبية ببضع سنين . وقد خب أسامة فى تلك الحروب ووضع ، وكتابه الاعتبار المذكور ثبت لمذكرات طلية ضافية عنها ، وقد وصف فيها ابن منقذ تجاربه وأعماله . هـذا وملاحظاته عن عادات الفرنج وأزيائهـم زمن الحروب الصليبية فريدة فى بابهـا . (Hitti : Usāmah Ibn Munqidh) وقد انتهى ملك المناقذة لقلعة شيزر سنة ٥٥٢ هـ، بوفاة آخر أمرائهـا تاج الدولة ناصر الدين محمد، من جراء زلزال عنيف حاق بشيزر، فنى فيه معظم أهل بيته أيضا . وفى نفس العام استولت الإسماعيلية على شيزر، ثم أخذها منهم =

بصرى[1]] . وانضم إليهم عز الدين جرديك النورى نائب القدس . فلمـا وصلوا تل[2] العجول ، أخلع [الأفضـل] على جميع الأسدية، وعلى الأكراد الأفضلية ، وأعطاهم الكوسات[3] . وسار الأفضل إلى القدس، وتسلمه من جرديك، وأعطاه بيسان وكوكب والجَوْلان[4] والمَنِيحة[5] . ثم سار العسكر حتى نزل على بلبيس، وبها جموع الصلاحية والعزيزية، ومقدمهم فخر الدين جهاركس على الصلاحية، والأمير هكدرى بن يعلى الحميدى على طائفة الأكراد، فنازلهم العادل والأفضل .

وكانت أيام زيادة ماء النيل، والأسعار غالية والعلف متعذر. فبلغ العسكر الواصل الجهد ، وندم أكابرهم على ما كان منهم . هـذا والعزيز يمد أهـل بلبيس بالمراكب المشحونة بالرجال والعدد . فبلغ ذلك الأسدية، فركبوا إلى المراكب، وأخذوا بعضها وغرقوا بعضها . وأسروا خلقًا، وسلم ثمانية مراكب عادت إلى القاهرة . واشتدّ الحصار على بلبيس حتى كادت تؤخذ، وضاق العزيز بالقاهرة ، وقلت الأموال عنـده . وكان محبباً إلى الرعية ، لمـا فيه من حسن السيرة، وكثره الكرم والرفق . فلما نازل العادل والأفضل (٣٤ ب) بلبيس احتاج إلى استخدام الرجال، فلم يجد عنده مالا ، فبذل له الأغنياء جملة أموال، فلم يقبلها .

= السلطان نور الدين محمود بن زنكى سنة ٥٦٤ هـ ، وأقام عليها مجد الدين أبابكر بن الداية، وهو أخوه من الرضاع، ولهذا سمى بابن الداية . ومات مجد الدين سنة ٥٦٥ هـ، وخلفه على شيزر أخوه شمس الدين على بن الداية، ثم سابق الدين عثمان المذكور بالمتن . انظر (Enc. Isl. Art. Shaizar)، وكذلك أبا شامة : كتاب الروضتين ،ص ٩٥، ١٤٩ — ١٥٠، فى Rec. Hist Or. IV.، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١١ ، ص ٢٢٠) .

(١) راجع (Lane-Poole: Saladin. Table II, in pocket) . (٢) جهة بين عكا والعائدية (ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٥٣ ، حاشية ١، فى Rec. Hist. Or. III.) .

(٣) الكوسات من رسوم السلطات وآلاته ، "وهى صنوجات من نحاس شبه الترس الصغـير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص"، ويتولى ذلك الكوسى . (القلشقندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩، ١٣) . أما إعطاء الكوسات لهؤلاء الأمراء، بعـد خلع الأفضل عليهم ، فالراجح أن معناه أنه منح كلا منهم رتبة أمير طبلخاناه، فيصبح من حق الواحد منهم أن يكون له طبلخاناه خاصة تدق كوساتها على بابه . (انظر خليل بن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٣ ؛ وأيضا Quatremère : Maml. II. pp. 147.) . (٤) بغير ضبط فى س، وهى قرية — وقيـل جبل — من نواحى دمشق ، ثم من عمـل الأردن . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢، ص ١٥٩) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قرية من قرى دمشق بالغوطة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٧٣) .

وكان القاضى الفاضل قد تَنَزَّه عن ملابسة الدولة ومخالطة أهلها، واعتزل لمـا رأى من اختلال الأحوال .

وكان عبد الكريم بن على البيسانى يتولى الحكم والإشراف[١] فى البحيرة مدّة طويلة، فحصل من ذلك مالا جمًّا . ثم حدثت بينـه وبين أخيه القاضى الفاضـل مشاجرة اقتضت اتضاع حاله عند النـاس بعد احترامهم إياه، فصرف عن عمله . وكان متزوجًا بامرأة موسرة من بنى ميسر[٢]، فسكن بها فى ثغر الإسكندرية، وأساء عشرتها، لسوء خلق كان فيه . فسار أبوها إلى الإسكندرية، وأثبت عند قاضيها ضرر ابنته . فمضى القاضى بنفسه إلى الدار، فلم يقدر على فتح البـاب الذى من داخله المرأة . فأمر بنقب الدار، وأخرج المرأة وسلمها لأبيها، وأعاد بناء النقب . فغضب عبد الكريم وسار إلى القاهرة، وبذل للأمير فخر الدين جهاركس خمسة آلاف دينار مصرية، ووعد خزانة الملك العزيز بأربعين ألف دينار على ولاية قضاء الإسكندرية؛ وحمل ذلك بأجمعه إلى فخر الدين جهاركس . فأحضره جهاركس إلى العزيز، وهو حينئذ فى غاية الضرورة إلى المـال، وقال : "هذه خزانة مال قد أتيتك بها من غير طلب ولا تعب"، وعرّفه الخبر . فأطرق [العزيز] مليـا، ثم رفع رأسه وقال : "أعد المـال إلى صاحبه، وقل له إياك والعود إلى مثلها، فما كل ملك يكون عادلا ، وعرِّفه أنى إذا قبلت هذا منه أكون قد بعت به أهل الإسكندرية، وهذا لا أفعله أبدا" . فلمـا سمع هذا جهاركس وجم، وظهر فى وجهه التغير . فقال له العزيز : "أراك واجمًا ، أظنك أخذت على الوساطة شيئا" . قال : "نعم ! خمسة آلاف دينار" . فأطرق العزيز، ثم قال: "أعطاك مالا تنتفع به، وأنا أعطيك فى قبالته

(١) اختصاص وظيفة الإشراف المقصود هنا مراقبة الأمور المـالية عامة فى جهة معينة، من قبل سلطان أو أمير، ويسمى متوليها المشرف . (والقلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٥، ٦٤ — ٦٦) . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar. & Blochet : Op. cit. p. 233. N. I.) . وبالقلقشندى (نفس المرجع، ج ٥، ص ٤٥٤) وظيفة أخرى، يسمى صاحبها المشرف أيضا، وإنمـا عمله الإشراف على المطبخ السلطانى، ومراقبة الأطبخة به .

(٢) لعلها سليلة البيت الذى منـه ابن ميسر، صـاحب كتاب تاريخ مصر، الذى نشره (Henri Massé) . (انظر فهرس الكتب العربيـة بدار الكتب الملكية المصرية، ج ٥، ص ١٧) .

ما تنتفع به مرّات عديدة " ؛ ثم وقع له بخطه إطلاق جهة طنبدة[(١)] ، ومغلها فى السنة سبعة آلاف دينار . فلامه أصحابه ، وألحوا عليه فى الآقتراض من القاضى الفاضل ، فاستدعاه إلى مجلسه، بمنظرة من دار الوزارة كانت تشرف على الطريق . فعند ما عاين القاضى الفاضل استحيا منه، ومضى إلى دار الحرم ، احترامًا له من مخاطبته فى القرض . فلم يزل الأمراء به حتى أخرجوه من (١٣٥) عند الحرم. فلما اجتمع بالفاضل قال له ، بعد أن أطنب فى الثناء عليه : "قد علمتَ أن الأمور قد ضاقت علىّ ، وقلت الأموال عندى ، وليس لى إلا حسن نظرك ، وإصلاح الأمر إما بمالك أو برأيك أو بنفسك " . فقال [القاضى الفاضل] : " جميع ما أنا فيه من نعمتكم ، ونحن نقدم أوّلا الرأى والحيلة ، ومتى احتيج إلى المال فهو فى يديك " .

واتفق أن العادل — لما اشتد على أصحابه الغلاء والضيق — استدعى القاضى الفاضل برسول قدم منه على العزيز، فسيره إليه . وقد قيل إن العزيز لما جرى على المراكب التى جهزها إلى بلبيس ما جرى ، خاف على الملك أن يخرج من يده، فسيّر إلى عمه فى السر يعرفه أنه قد أخطأ ، وأنه قد عزم على اللحاق ببلاد المغرب، ويسأله الاحتفاظ بحرمه وأولاده . فرقّ له العادل، وآستدعى [القاضى][(٢)] الفاضل . فلما قرب منه ركب إلى لقائه وأكرمه ، وما زالا حتى تقرر الأمر على أن الأسدية والأكراد يرجعون إلى خدمة العزيز ، من غير أن يؤاخذهم بشىء، ويرد عليهم إقطاعاتهم، ويحلف العزيز لهم ويحلفون له ؛ وأن يكون العادل مقيما بمصر عند العزيز، ليقرر قواعد ملكه ؛ وأن العزيز والأفضل يصطلحان، ويستقر كل منهما على ما بيده . فعاد [القاضى] الفاضل، وقد تقرر الأمر على ما ذكر ، وحلف كل منهم لصاحبه على الوفاء .

وخرج العزيز من القاهرة إلى بلبيس ، فالتقاه عمه العادل وأخوه الأفضل، ووقع الصلح التام فى الظاهر . ورحل الأفضل يريد الشام ، ومعه الأمير أبو الهيجاء السمين ،

---

(١) فى س طنبدى . (٢) فى س بالفاضل فقط .

وصار الساحل جميعــه مع الأفضل . وعاد العــزيز إلى القاهرة ، وصحبته عمــه العادل ، فأنزله فى القصر من القــاهرة . وأخذ [العادل] فى إصلاح أمور مصر، والنظر فى ضياعها ورباعها ، وأظهر من محبــة العزيز شيئًا زائدًا ، وصار إليه الأمر والنهى ، والحكم والتصرف ، فى سائر أمور الدولة ، جليلها وحقيرها . وصُرف القاضى محيى الدين محمد بن أبى عصرون عن قضاء مصر، ووُلِّى زين الدين أبو[(١)] الحسن على بن يوسف بن عبد الله بن بُنْدار[(٢)] الدمشقى .

وفيها جدّد العزيز الصلح بينه وبين الفرنج . وفيها ورد كتاب ملك الروم[(٣)] ، يتضمن أن كلمة الروم اجتمعت عليه ، وأنه أحسن إلى المسلمين وأمرهم بإقامة الجامع ، فأقيمت الصلاة فيه يوم الجمعــة الصلاة مع الخطبة ، و[أنه] عمر جانبا منه كان انهدم من ماله ، فتمكن من فى القسطنطينية من المسلمين من إقامة الجمعة والجماعة بها . والتمس [ملك الروم] الوصية بالبطرك والنصارى ، وأن يُمَكَّنوا من إخراج موتاهم بالشمع الموقد ، وإظهار شــعائرهم بكنائسهم ، وأن يُفرج عن أسارى الروم بمصر . وفيها عزل زين الدين على بن يوسف [بن بندار] عن القضاء ، فى حادى عشر جمادى الأولى ، بمحيى الدين أبى حامد محمد بن عبد الله بن هبة الله بن عصرون .

* * *

[سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة اثنتين وتسعين ، ففى أولها وصل الملك الأفضل إلى دمشق ، وتفرقت العساكر إلى بلادها . ولزم الأفضل الزهد ، وأقبل على العبادة ، وصارت أمور الدولة بأسرها مفوّضة إلى وزيره ضياء الدين ابن الأثير ؛ فاختلت به الأحوال غاية الاختلال ، وكثر شاكوه . وضبط العــادلُ أمور مملكة مصر ، وغيَّر الإقطاعات ، ووفر الإرتفاعات وعمال (٣٥ ب) الأعمال ، وثَمَّر الأموال ؛ وقرب إلى العزيز الأمير عز الدين أسامة[(٤)] ، فصار صاحب سره وحاجبه ، والواسطة بينه وبين عمه . واختص الأمير صارم الدين قايمــاز النجمى بالعادل ، وصار صفوته .

(١) فى س ابى . (٢) مضبوط على سميه فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٦ ، فهرس الأعلام ، ص ٣٥٢) ، وكذلك ضبط فى القاموس المحيط للفيروزابادى . (٣) دأب الأمبراطور إسحاق الثانى على محالفة المسلمين حتى آخر حكمه سنة ١١٩٥ م . (انظر ص ١٢٠ ، حاشية ١) . (٤) فى س سامه .

[وفى] يوم السبت ثانى عشر(١) [المحرم] رفعت يد ابن أبى عصرون وأيدى نوابه من الحكم، وامر أن يعتزل فى بيته، وأن يخرج عن مصر؛ فأغلق بابه، وشرع فى تجهيز(٢) نفسه، وتوسل فى إقامتــه . وفى سابع عشريه خلع على زين الدين على بن يوسف [بن بندار]، وأعيــد إلى القضاء، عوضا عن ابن أبى عصرون .

وفى أول صفر حبَس الملك العزيز ناحية الخَــرِبة(٣) من المنوفيــة على زاوية الإمام الشافعى بالجامع العتيق بمصر، وفوض تدريسها إلى البهاء بن الجميزى .

وفى صفر وشهر ربيع [الأول] كثرت الطَّرْحَى من الأموات على الطرقات، وزادت عدتهم بمصر والقــاهرة فى كل يوم عن مائتى نفس؛ وبقى بمصر من لم يوجد من يكفنه، وأكثرهم يموت جوعا . وانتهى القمح إلى مائة وثمانين ديناراً المــائة أردب، والخبز إلى ثلاثة أرطال بدرهم . وعمد الضعفاء إلى شراء الجرار، وغدَوا إلى البحر وترددوا إليه، ليستقوا منه فى الجرار، ويبيعوها بثمن درهم الجرة . وقد لايجدون من يشتريها منهم، فيصيحون: "من يتصدق علينا بثمن هذه الجرة، ومن يشتريها منا بكسرة؟" . وزاد السعر، وضاق الخناق، وهلك الضعفاء، وفشا الموت، وأكثره فى الجياع . وصارت الأقفاص التى يحمل فيها الطعام يحمل فيها الأموات، ولا يقدر على النعوش إلا بالنوبة . وامتدت الأيدى إلى خطف ألواح الخبز، — ويضرب من ينهب، ويُشَجُّ رأسه، ويسال دمه، ولا ينتهى ولا يرمى ما فى يده مما خطفه . وعدم القمح إلا من جهة الشريف ابن ثعلب(٤)، فإن مراكبه تتواصل وتبيع بشونه(٥) .

---

(١) فى س عسره . (٢) فى س تجهيره . (٣) بغير ضبط فى س، واسمها أيضا العامرة . (P. Omar Toussoun : Op. cit. T. I. 2. p. 267.)

(٤) كان ابن ثعلب من أغنياء الصــعيد، وكان محل إقامته غالبا بلدة دروت (ديروط ؟) سربام بالصــعيد، وهى قرية كثيرة البساتين والنخل، أنشأ فيها الشريف المذكور جامعا على فم ترعة المنهى، وهى بحر يوســف الحالى . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٧٠) . انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٧١، ٢٠٥؛ و(P. Omar Toussoun: Anc. Branches Du Nil. P. 71). (٥) العبارة الآتيــة واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ٣٥ ب، ٣٦ أ، وليست لها علاقة بالمتن، وقد أوردت هنا لوقوعها =

وورد الخبر[1] فى تاسع صفر بأن تابوت الملك الناصر صلاح الدين نُقل فى يوم عاشوراء ، من قلعة دمشق إلى تربة عملت له ، فكان يوما مشهودا . وفى تاسع عشريه قدم الملك الزاهر داود [مجير الدين][2] صاحب البيرة ، وسابق الدين عثمان صاحب شيرز ، وبهاء الدين بن شداد قاضى حلب ، فخرج العادل لتلقيهم ببركة الجب ، وقدم العماد الكاتب[3] [أيضا] .

وورد الخبر بأن عربان الغرب هبطوا إلى البحيرة ، واشتروا القمح كل وَيْبَـة بدينار ، وأن بلاد الغرب قـد عدمت فيها الأقوات فى السنة الخاليـة ، وانقطعت عنها الأمطار السنة الحـاضرة . وزاد الجراد بالشام ، وعظم خطبـه . وكثرت بمصر والقاهرة الأمراض الحادة والحميات المحرقة ، وزادت وأفرطت . وغلت الأشربة والسكر وعقاقير العطار ، وبيعت بطيخة بأربعة وعشرين درهما . وصار الفروج لا يقدر عليه ، وانتهى سعر القمح إلى مائتى دينار كل مائة أردب . وغلظ الأمر فى الغلاء ، وعدم القوت ، وكثرت السُّؤّال ، وكثرت الموتى بالجوع .

= قبالة الكلام السابق . ونصها : "قال القاضى الفاضل فى مياوماته : وفى يوم الإثنين السادس والعشرين من صفر ، يعنى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ورد خبر من عدة ألسـنة ، وتضمنته كتب ، واستبعده كل سامع ، ومجه كل فهم ، فذكرناه بتخيير الشراء (كذا) . وهو أنه حضر إلى ديوان الخليفة ببغداد جماعة من حجاج خراسان ، وأخبروا بتواطئ الأخبار على ألسنة السفار ، بأن مولودا ولد فى بلغار ، كما يولد غيره من البشر ، وأنه ساعة وقوعه على الأرض ربا ونمـا نموا خارقا للعادة . وبعد ثلاثة أيام من ولادته تكلم بكلام محصل ، وخاطب كل قوم بلغتهم مدة ثلاثة أيام أخرى . وقال لمـاسئل عن كلامه قبل أوانه ، وقيل إنه ما تكلم فى المهد إلا عيسى المسيح ، فقال لى أسوة به ، ولا تتعجبوا منى ولا من خلق ، فأخى الذى يجىء بعدى يملك الدنيا وأقاليمها السبعة . وهذا آخر ما سمع منه ، ثم سكت . واستمر نموه إلى ثلاث سنين ، وبقى على حاله وصورته ، وهى صورة جميلة مرضية ، لا تقابله عين إلا ارتدت عنه ، وقد ستر وجهه عن العيون . وشعره أبيض كأنه شريط الفضة ، ولا يحمله جمل ولا فيل . وقيل له وقت كلامه : ما مركوبك ؟ ، فقال يخلق الله لى دابة تحملنى . ويأكل لحوم الخيل والغنم ذبيحة ، ولا يحل ميتة ، ويشرب لبن الخيل ، وإذا قعد كان قاعدا فى طول الرجل الطويل" . هذا ولعل مياومات القاضى الفاضل هى المسماة بالمتجددات فى (Enc. Isl. Art. Al-Kādi al-Fādil) .

(١ و ٣) هذه العبارة الواردة بين الرقين فى المتن موجودة بهامش الصفحة فى س ، غير أن المؤلف لم يشر كعادته إلى الموضع المناسب لها بالمتن ، على أنها واردة على هذا الترتيب فى ب (٤٢ أ) . (٢) آخر أولاد صلاح الدين ، حسبما جاء فى (Lane Poole : Saladin. Table II. in pocket) ومولده سنة ٥٧٤ هـ . انظر أيضا أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٠٦ ، فى Rec. Hist. Ar. V.) . (٣) انظر حاشية ٣

وخطف الخبز متى ظهر، وشوهد من يستف التراب، ومن يأكل الزبل. وازدحم الناس على الطير الذى يرمى من مطابخ السكر. وكثرت الأموات أيضا بالإسكندرية، وتزايد وجود الطرحى بها على الطرقات . وعدمت[١] المواساة ، وعظم هلاك الأغنياء والفقراء وانكشاف الأحوال . وشوهد من يبحث المزابل القديمة على قشور الترمس، وعلى نقاضات الموائد وكاسات الآدر[٢]، ومن يقفل[٣] بابه ويموت ، ومن عمى من الجوع (٣٦ أ) ويقف على الحوانيت ويقول : " أشمونى رائحة الخبز " .

واستُخدم رجل فى ديوان الزكاة، وكتب خطه بمبلغ إثنين وخمسين ألف دينار، لسنة واحدة من مال الزكاة . وجُعل الطواشى [بهاء الدين] قراقوش[٤] الشادّ فى هذا المال، وألا يتصرف فيه ، وأن يكون فى صندوق مودعًا للمهمات التى يؤمر بها . ووُقّع لابن ثعلب [الشريف] الجعفرى بخبز[٥] مبلغه فى السنة ستون ألف دينار، ودفع له كوس[٦] وعلم . وآل الأمر إلى وقوف وظيفة الدار العزيزية [عليه] من لحم وخبز، وإلى أن يتمحّل فى بعض الأوقات لاكلها، لبعض ما يتبلغ به [أهلها][٧] من خبز، وكثر ضجيجهم وشكواهم، فلم يسمع .

وفى شهر ربيع الآخر صُرف صارم الدين خطلج الغزى عن شد الأموال بالدواوين ، وسُلّم الشدّ إلى بهاء الدين قراقوش[٨]، مضافا إلى شد الزكوات، فكمل شد المال له . وفيه كثر الموت، بحيث لم تبق دار إلا وفيها جنازة أو مناحة أو مريض . واشتد الأمر ، وغلت العقاقير، وعدم الطبيب، وصار من يوجد من الأطباء لا يُخلص إليه من شدة الزحام . وصار أمر الموتى أكثر أشغال الأحياء، وما ينقضى يوم إلا عن عدة جنائز من كل حارة . وعدم من يحفر، وإذا وجد لم يعمق الحفر، فلا يلبث الميت أن تظهر له رائحة . وصارت الجبانات لا يستطاع مقابلتها، ولا زيارة قبورها . وأخذت الأسعار فى الانحلال .

(١) فى س عدم . (٢) فى س الادر بغير ضبط ، وهو بالمد جمع دار . (القاموس المحيط للفيروزابادى) .
(٣) فى س يقول لبابه . (٤) فى س قراغش . (٥) فى س بحر . (٦) انظر ص ١٢٦ ، حاشية ٣ .
(٧) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Blochet : Op. cit. P. 239) . (٨) فى س قراغش .

وفى جمادى الأولى تواترت الأخبار باختلال الحـال بدمشق ، فوقع العزم على المسير إلى الشام . ووقع الشروع فى الإنفاق فى الحاشـية ، فقبضوا شهراً واحداً . وكان قد استحق لهم أربعة عشر شهراً ، فإن المـادة قصرت عن نفقة ذلك لهم ، فأحيل بعضهم على جهات . وامتنع الجاندارية (١) من قبض شهر ، وانهى ذلك إلى العزيز ، فكتب إلى خطلبا بإخراجهم إلى المخيم ، ومن تقاعد عن الخروج قيده الطواشي قراقوش (٢) ، واستخدمه فى السور . فخرجوا بأنفس غير طيبة ، وألسنة بالشكوى معلنة . وكان المـال الذى أُنفق فى الحاشية قد اقترض من الأمراء ، وأحيل به على الجوالى لسنة ثلاث وتسعين . وخرج العزيز إلى المخيم ، وحرك الأمراء تحريكا قويا ، وسـير الحجاب (٣) إلى البلاد تحث الأجناد ، فتتابع خروج الناس . ووقع الرحيل من بركة (٣٦ ب) الجب فى ثامنه ، فرحل السلطان العادل والعزيز ، وجميع الأسدية والمماليك .

وفشت الأمراض الحادة ، فما ينقضى وقت إلا عن عدد كثير من الجنائز . وغلت الأدوية ، وبلغ الفروج إلى ثلاثين درهما ، والبطيخة إلى مائة درهم . وورد الخبر بأن قوص وأعمالهـا فيها أمراض فاشـية ، وأموات لا تُتَلاحق . وكثر الوباء والموت بالإسكندرية . وفى آخره انحلت الأسعار ، ونزلت الغـلة إلى ثمانين دينارًا كل مائة أردب ، وأبيع الخبز سبعة أرطال بدرهم . وقل السـؤال ، وارتفع الموتان ، بعد أن جُلب من قوص فراريج أبيع كل

(١) الجاندارية فئة من مماليك السلطان أو الأمير ، ومثلها الخاصكية . وهى مركبة من لفظين فارسيين أحدهما جان ومعناه سلاح ، والثانى دار ومعناه ممسك . أما الجمدار بالميم فوظف آخر ، وهو " الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه ، وأصله جاما دار ... من لفظين فارسيين ، أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه ممسك " . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) . هذا وموضوع وظيفة أمير جاندار السلطان "أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، و يدخل أمامهم إلى الديوان ... " (نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٢٠) . انظر أيضا (Enc. Isl. Art. Djāndār) ، وما هنالك من المراجع .

(٢) فى س قراغش .

(٣) مر ذكر وظيفة الحاجب أكثر من مرة ، غير أنه أرجىء شرحها إلى هنا ، وعمل صاحبها أن "ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه ، وتارة بمراجعة النائب إن كان ، و إليه تقديم من يعرض ومن يرد ، وعرض الجند وما ناسب ذلك ... " (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٩) . انظر أيضا (Enc. Isl. Art. Ḥādjib) ، وما بذيلها من المراجع .

عشرة فراريج بسبعة دنانير ، وهذا لم يسمع بمثله فى مصر قبل ذلك . وفيه نودى فى القاهرة ومصر بأن الشريف ابن ثعلب مقدم على الحاج، فليتجهز أرباب النيات (١) .

وفى جمادى الآخرة وقف الحال فيما ينفق فى دار السلطان ، وفيما يصرف إلى عياله ، وفيما يقتات به أولاده . وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق مالا يوزن له ثمن، وما يُغصب من أربابه . وأفضى هـذا إلى غلاء أسعار المأكولات، فإن المتعيشين من أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسـعار العامة بقدر ما يؤخذ منهـم للسلطان . فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة : وضُمن باب المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار، وفُسح فى إظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت ؛ ولم يقدر أحد على إنكار ذلك . وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والجوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المـال .

وفيه وصل العـادل والعزيز إلى الداروم ، وأمر باخراب حصنهـا ، فقُسِّم على الأمراء والجاندارية؛ فشق على الناس تخريبه ، لمـا كان به من الرفق للمسافرين . وانتهى الملكان إلى دمشق — وقد استعد الأفضل للحرب فى أول شهر رجب — فحاصراها إلى أن ملكاها فى العشرين منه ، بعد عدّة حروب ، خان الأفضلَ فيها أمراؤه (٢) . فلما أخذا المدينة نزل الأفضل من القلعة إليهما ، فاستحيا العادل منه ، لأنه [هو] الذى حمل العزيز على ذلك ، ليوطئ لنفسه ، كما يأتى . وأمره [العادل] (٣) أن يعود إلى القلعة ، فلم يزل بها أربعة أيام ، حتى بعث إليه العزيز أيبك فُطيْس (٤) أمير جاندار ، وصارم الدين خطلج الأستادار ، فأخرجاه وأخرجا (١٣٧ ا) عياله وعيال أبيه (٥) . وأُنزل [الأفضل] فى مكان ، وأوفى ما كان عليه من دين ، وما للحواشى من الجوامك . فبلغ ذلك نيفا وعشرين ألف دينار ، بيع فيهـا بَرْكُه (٦) وجمـاله وبغاله ، وكتبه ومماليكه وسائر

(١) فى س مقدما . (٢) راجع تفصيلات تلك الخيانة فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٠) . (٣) انظر نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة . (٤) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. P. 241) (٥) فى س ابيه ، وإذا صح هذا فقد اشترك العزيز فى إخراج أخوته ، والراجح أنهم من أم أخرى . (٦) البرك المتاع الخاص من ثياب وقماش ، وفى (Quatremére : Maml. I. I. p. 253.) أمثلة عديدة لاستعمال هـذا اللفظ ، منها "أخذ ما تخلف ... من مال ودواب وبرك" . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

ماله؛ فلم توف بما عليه، وقسا عليه أخوه وعمه لسوء حظه. ثم بعث إليه عمه العادل يأمره أن يسير إلى صرخد، فلم يجد عنده من يسير بأهله، حتى بعث إليه جمال الدين محاسن عشرة أوصلوه إلى صرخد. وأُخذت (١) من الملك الظافر مظفـر الدين خضر بصرى، وأعطيت للملك العادل، وأُمر [الظافر] أن يسير إلى حلب، فلحق بأخيه الظاهر [صاحبها].

ويقال إن العادل كان قدقرر مع الملك العزيز — وهو بالقاهرة — أن الملك العزيز إذا غلب أخاه الأفضل على دمشق وأخذها منه أن يقيم بها، ويعود العادل إلى مصر نائبا عن العزيز. فلما ملك العزيز دمشق، وأخرج أخاه الأفضل منها، انكشفت له مستورات مكائد عمه. فندم على ما قرره معه، وبعث إلى أخيه الأفضل سرا يعتذر إليه، ويقول له: "لا تنزل عن ملك دمشق". فظن الأفضل هذا من أخيه خديعة، وأعلم عمه العادل به، فقامت قيامته، وعتب [على] العزيز وأنّبه. فأنكر [العزيز] أن يكون صدر هذا منه، وحنق على أخيه الأفضل، وأخرجه إلى صرخد على أقبح صورة (٢). واختفى الوزير ضياء الدين [ابن الأثير] الجزرى (٣) خوفا من القتل، ثم لحق بالموصل.

واستقر الأمر بدمشق للعزيز فى رابع عشر شعبان: فأظهر العدل، وأبطل عدّة مكوس، (٤) ومنع من استخدام أهل الذمة فى شيء من الخدم السلطانيـة، وألزموا لبس الغِيار (٥). ثم رحل عنها ليلة التاسع منه يريد القاهرة، واستخلف عمه [العادل] على دمشق، وسار إلى القدس،

(١) فى س واخذ.

(٢) لابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٨٠) رواية أخرى فى هذا الصدد، ونصها: "... بجلس [العزيز] يوما فى مجلس شرابه، فلما أخذت منه الخمر، جرى على لسانه أنه يعيد البلد إلى الأفضل. فنقل ذلك إلى العادل فى وقته، فحضر المجلس فى ساعته، والعزيز سكران. فلم يزل به حتى سلم البلد إليه، وخرج منه، وعاد إلى مصر. وسار الأفضل إلى صرخد. وكان العادل يذكر أن الأفضل سعى فى قتله، فلهذا أخذ البلد منه، وكان الأفضل ينكر ذلك ويتبرّأ منه، والله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون".

(٣) فى س الجررى بغير ضبط، والنسبة إلى بلدة جزيرة ابن عمر، على الفرات، وهى موطن آل الأثير. (Enc. Isl. Art. Ibn al-Athir).

(٤ و ٥) العبارة التى بين الرقمين واردة فى س، ب (٤٥ ا)، غير أنها لا توجد فى ترجمة: (Blochet: Op. cit. P. 242) أما الغيار فهو الملبوس الذى تميز به أهل الذمة عن المسلمين فى القرون الوسطى، ومثله الزنار (محيط المحيط، و Dozy: Supp. Dict. Ar.).

فملكها من أبى الهيجاء [السمين]، وسلمها إلى الأمير شمس الدين سنقر الكبير ، وسار أبو الهيجاء(١) إلى بغداد .

ووصل العزيز إلى القاهرة يوم الخميس رابع شهر رمضان ، فصارت دمشق وأعمالها إقطاعا للملك العادل، وليس للعزيز بها سوى الخطبة والسكة فقط . وفى ثامن عشره(٢) ركب العزيز إلى مقياس مصر وخلّقه، ونودى فيه بزيادة ثلاثة أصابع من الذراع السابعة عشرة . وفى العشرين منه فُتح سد الخليج ، فركب العزيز لذلك، وكثر المتفرجون وازدحم الغوغاء، وحملوا العصى وتراجموا بالحجارة، وقُلعت أعين، وخُطفت مناديل . وكانت (٣٧ ب) العادة جارية بأن يوقر شهر رمضان من اعتصار الخمر، وألا يجهر بشراء العنب والجرار، ولا يحدّث نفسه أحد بفسخ الحرمة وهتك الستر . وفى هذا الشهر غلا سعر الأعناب لكثرة العصير منها، وتظاهر به أربابه لتحكير تضمينه السلطانى، واستيفاء رسمه بأيدى مستخدميه . وبلغ ضمانه سبعة عشر ألف دينار، وحصل منه شىء حمل إلى العزيز فصنع به آلات الشرب . وفيه كثر اجتماع النساء والرجال على الخليج — لما فتح(٣) — ، وعلى ساحل مصر، وتلوث النيل بمعاصى قبيحة . واستمر جلوس العزيز للمظالم فى يومى الإثنين والخميس .

وفى ثانى شوّال كان النُّوروز(٤) ، فجرى الأمر فيه على العادة من رش الماء ،

(١) يقول (Blochet : Op. cit. p. 235 .N. I.)، نقلا عن كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، إن أبا الهيجاء هذا كان مفرط السمن . فلما ذهب إلى بغداد لفت سمنه أنظار الخزافين هناك ، وصنعوا قدورا تشبه فى ضخامتها ، وأسموها أبا الهيجاء . وقد رآها أبو الهيجاء فى أسواق بغداد، فضحك منها .

(٢) فى س عشر .

(٣) فى س وتلقيب .

(٤) يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٩٣ — ٤٩٤) عن النوروز ما نصه : " وكان النوروز القبطى ... ... من جملة المواسم [بمصر]، فتتعطل فيه الأسواق ، ويقل فيه سعى الناس فى الطرقات ، وتفرق فيه الكسوة لرجال أهل الدولة وأولادهم ونسائهم ، ... ... وقال القاضى الفاضل فى تعليق المتجددات لسنة أربع وثمانين وخمسمائة ، يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطى، وهو مستهل توت ، وتوت أوّل سنتهم . وقد كان بمصر فى الأيام الماضية والدولة الخالية ، يعنى دولة الخلفاء الفاطميين، من مواسم بطالاتهم ... ... فكانت المنكرات ظاهرة فيه ، والفواحش صريحة فى يومه . ويركب فيه أمير موسوم بأمير النوروز، ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس فى طلب رسم رتبه على دور الأكابر بالجمل الكبار ، ... ... ويقنع بالميسور من الهبات . ويجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة ، وبأيديهم الملاهى . وترتفع =

واستجد[١] فيه التراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع[٢] . وتوالت زيادة النيل، فأفحش الناس فى إظهار المنكرات، ولم ينههم أحد . وفيــه وقفت وجوه المـال، وانقطعت جبـاية الديوان بمصر، وأحيــل على الجهات بأضـعاف ما فيها ، وبقيت وجوه قصرت الأيدى عن استخراجها . وانتمى[٣] العاملون[٤] إلى من حماهم، فلم يجسر صاحب[٥] الديوان على ذكر من يحميهم، فضلا عن أخذ الحق منهم ، ورفع يده عن حماية من حمـاه . وآل الأمر إلى أن صار ما يقام برسم طوارئ السلطان وراتب داره من ضمان الخمر والمزر . وكانت هذه سنة ما تقدمها أفحش منها، ولا عُلم أن همة من الهمم القاصرة انحطت إلى مثلها .

وفى رابع عشرة خرج الشريف ابن ثعلب سائرًا بالحاج ، وخيَّم على سقاية رَيْدان[٦] . وكثر

= الأصوات ، وتشرب الخمر والمزر شربا ظاهرا بينهم ، وفى الطرقات . و يتراش الناس بالمـاء ، و بالمـاء والخمر ، و بالمـاء ممزوجا بالأقذار . فإن غلط مستور وخرج من داره لقيه من يرشه ، و يفسد ثيابه ، و يستخف بحرمته . فإما فدى نفسه ، و إما فضح . ولم يجر (ص ٤٩٤) الحال فى هذا النوروز على هذا ، ولكن قد رش المـاء فى الحارات ، وأحيا المنكر فى الدور أرباب الخسارات . وقال [القاضى الفاضل] فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة : وجرى الأمر فى النوروز على العادة من رش المـاء ، واستجد فيه هذا العام التّراجم بالبيض والتصافع بالأنطاع ، وانقطع الناس عن التصرف ، ومن ظفر به فى الطريق رش بمياه نجسة ، وخرّق به . قال مؤلفه (المقريزى) رحمه الله تعالى ، إن أوّل من اتخذ النوروز جمشـيد ، و يقال فى اسمه أيضا جمشاد ، أحد ملوك الفرس الأول ، ومعناه اليوم الجديد ، وللفرس فيه آراء وأعمال على مصطلحهم ، غير أنه لا يقع فى هذا اليوم" ، الذى اتخذه القبط فى مصر عيدا لهم ، بل يقع يوم الاعتدال الربيعى ، أى ٢١ مارس من كل سنة . انظر (Blochet : Op. cit. p. 243. N. I.) .

(١ و ٢) العبـارة التى بين الرقين موجـــودة فى س ، ب (ص ١٤٥ أ) ، لكنهـا غير واردة فى ترجمـة (Blochet : Op. cit. p. 243) . (٣) فى س اتمت . (٤) جمع عامل ، وهو من يتولى تنظيم الحسابات الديوانية وكتاباتها . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) . وكان هذا اللقب يطلق فى الأصل على أمير العمل أو الجهة ، ثم نقله العرف إلى هـذا الكاتب ، وخصـه به دون غيره . ويسـمى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٥) القائمين بتلك الوظيفة بالمعاملين . (٥) حلت هذه التسمية محل لقب "متولى الديوان" . (انظر ص ٥٣ حاشية ٤ ؛ وكذلك القلقشندى نفس المرجع والجزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة ؛ و (G. - Demombynes. Pref. P. LXXII. N. I.) . (٦) جـهة قرب العباسـية الحالية بالقاهرة ، وقد ذكر ياقوت (معجم البلدان ج ٣ ، ص ١٠٠) أنها بين القاهرة وبلبيس . وكانت فى الأصل بستانا لريدان الصقلبى ، أحد خدام الخليفة العزيز بالله الفاطمى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٣٩) . وعرفت فيما بعد بالريدانية ، وعنـدها انهزم آخر جيوش المماليك الجلبانية سنة ٩٢٢ هـ ، أمام الجيش العثمانى ، بقيادة السلطان سليم الأوّل ، وصارت مصر بعد ذلك ولاية عثمانية .

القتل بالقاهرة بأيدى السكارى، وأعلن المنكر بها، فلم تنسلخ ليلة إلا عن جراح وقتل بين المعربدين . وكثر ذلك حتى خطفت الأمتعة والمآكل من الأسواق، نهارًا نادرًا وليلا راتبًا . واستقرت المظالم للطواشى قراقوش[1]، يجلس فيها بظاهر الدار السلطانية؛ وحماية الديوان وشد الأموال لفخر الدين جهاركس، مع انقباضه عنها؛ وأستادارية الدار لصارم الدين خطلج .

وفى تاسع عشره كسر بحر أبى المنجا، وباشر العزيز كسره . وزاد النيل فيه أصبعا، وهى الأصبع الثامنة عشرة[2]، من ثمانى عشرة ذراعا؛ وهذا الحد يسمى عند أهل مصر اللجة الكبرى .

وفى ثانى عشريه رحل الحاج . وتجدد ما كان قد درس ذكره ونسى حكمه فى (١٣٨) مصر، منذ عهد الخليفة الحافظ لدين الله، من سنة أربعين وخمسمائة ، من الرفايع[3] التى كان القبط يختلقونها، ويتوصلون بها إلى المصادرات، وخراب البيوت، وعمارة الحبوس، وإساءة السمعة عن سلطان الوقت . فأجمع ابن وهيب وكاتب نصرانى وغيرهما على أوراق عُملت، وانتُدب الأسعد بن مماتى والشادّ للكشف والرفع إلى فخر الدين جهاركس .

وفى ذى القعدة كثر وثوب السكارى بمن يلقونه ليلا، وضربهم إياه بالسكاكين، فلا تخلو ليلة من قتيل أو قتيلين . ولم يؤخذ لأحد بثار، ولا وقع كشف عن مقتول منهم، ولا تمكن والى القاهرة من منعهم . ووُجد فى الخليج ستة نفر قتلى مربطين، فلم يسأل عنهم، ولا وقع إنكار لأمرهم .

وفى ذى الحجة عزم العزيز على نقض الأهرام، ونقل حجارتها إلى سور دمياط . فقيل له إن المؤونة[4] تعظم فى هدمها، والفائدة تقل من حجرها . فانتقل رأيه من الهرمين إلى الهرم الصغير — وهو مبنى بالحجارة الصوان — فشرع[5] فى هدمه . وفيه سار العزيز إلى الإسكندرية، واستخلف بالقاهرة بهاء الدين قراقوش، وفخر الدين جهاركس .

---

(١) فى س قراغش . (٢) فى س عشر . (٣) جمع رفيعة، وهى الرقعة ترفع إلى السلطان لتبليغ ظلامة أو غيرها . (محيط المحيط، و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . (٤) فى س المونة .

(٥) اقتدى السلطان العزيز عثمان بأبيه صلاح الدين فى هدم الأهرام، واستخدام أحجارها فى بناء الأسوار . ففى أيام =

وتوفى فى هذه السنة القاضى الأشرف أبو المكارم الحسن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحباب قاضى الإسكندرية . وولى عوضه الفقيه أبو القاسم شرف الدين عبد الرحمن ابن سلامة فى سابع عشرى شوال . ومولد ابن الحباب سـنة سبع وثلاثين وخمسمائة، وأقام حاكما بالإسكندرية ثمـانيا وعشرين سنة . وكان كريم النفس صحيح المودة، وطالت مدته فى الحكم بالإسكنـدرية، من سنة أربع وستين إلى أن مات بهـا فى ثالث جمادى الآخرة . وفى خامس ذى الحجة مات القاضى الرشـيد ... ...[1] ابن سناء الملك . قال القاضى الفاضل فيه : "ونعم الصاحب الذى لا تخلفه الأيام، ولا يعرف له نظير من الأقوام : أمانة سمينة، وعقيدة ود متينة، ومحاسن ليست بواحدة، ومساع فى نفع المعـارف جاهدة . وكان حافظا لكتاب الله، مشتغلا بالعلوم الأدبية، كثير الصدقات، نفعه الله، والأعمال الصالحات، عَرَّفه الله بركاتها" .

وفيها حج بالناس الشريف ابن ثعلب . وخرجت المراكب الحربيـة من مصر، فظفروا ببطس للفرنج، وفيها أموال فغنموها . وفيها بنى الأمير فخر الدين جهاركس قيساريته[2] بالقاهرة . وفيها زلزلت مصر . ومات العلم عبد الله بن على بن عثمان بن يوسف المخزومى، يوم الجمعة حادى عشر جمادى الأولى؛ ومولده فى شهر رمضان سـنة تسع وأربعين وخمسمائة، [وقد] قرأ على ابن برى، وله شعر .

= صلاح الدين هدمت بعض أهرام الجيزة، على يد بهاء الدين قراقوش، وبنيت بأحجارها قلعة الجبل، والسور المحيط بالقاهرة ومصر . وكذلك فعل العزيز لبناء سور دمياط، كما فى المتن . غير أن المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ١١٤ و ١٢١) يقول إن العزيز أراد نقض الهرم الصغير لإخراج ما تحته من كنوز، وأقام عماله على ذلك شهورا، ثم تركوه عن عجز . هذا وليس بالفصـل الوارد بالمواعظ والاعتبار عن الأهرام إشارة إلى أن العزيز أراد بناء سور دمياط من أحجارها . (نفس المرجع، ج ١، ص ١١١ – ١٢٢) .

(١) بياض فى س .

(٢) يذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٨٧) هـذه القيسارية، ويقول : " رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون لم نر فى شىء من البـلاد مثلها، فى حسنها وعظمها، وإحكام بنائها . [وقد] بنى [فخر الدين] بأعلاها مسجدا كبيرا، وربعا معلقا" .

* * *

[سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة ثلاث وتسعين، وفيها أقيمت الخطبة للعزيز بحلب ، وضربت السكة باسمه، بصلح وقع بين العزيز وبين أخيه الظاهر . [وقد] تولاه القاضى بهاء الدين [أبو المحاسن] (١) بن شداد، وغرس الدين قلج، قدما من حلب إلى العزيز بالقاهرة بهدايا، فانعقد الصلح بين الأخوين على ذلك. وعادا إلى الظاهر، فخطب للعزيز فى شهر ربيع الأول ، (٣٨ ب) وضربت (٢) السكة باسمه . وفيه تحرك الفرنج على بلاد الإسلام، فخرج العادل من دمشق، وسير جيشا إلى بيروت لهدم ربضها .

وفيها مات الملك العزيز ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب ملك اليمن فى شوال، وقام من بعده بمملكة اليمن ابنه الملك المعز فتح الدين أبو الفداء إسماعيل .

وفيها فتح الملك العادل صاحب دمشق يافا عنوة، وغنم وأسر كثيراً، يقال إنهم سبعة آلاف نفس، ما بين ذكر وأنثى . وفيها سار [العادل] (٣) من يافا إلى صيداء وبيروت فأخربهما ، ونُهبت بيروت، وفرّ من كان بها . وبعث [العادل] إلى الملك العزيز يستنجده ، فسير إليه عسكراً خرج من القاهرة أول شوال ، وسار إلى بلبيس . ثم بدا للعزيز [أمر] ، ففرّق العسكر ولم يسر .

* * *

[سنة أربع وتسعين وخمسمائة] . ودخلت سنة أربع وتسعين ، فانتشر من وصل فى البحر من الفرنج (٤) ببلاد الساحل ، وملكوا قلعة بيروت ، وقتلوا عدّة من المسلمين

---

(١) موضع ما بين القوسين بياض فى س . واسم القاضى وألقابه : " الإمام العالم بهاء الدين قاضى قضاة المسلمين ، مرتضى أمير المؤمنين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد ، قاضى حلب المحروسة " . وهو مؤلف كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، المذكور بحواشى هذا الجزء . انظر (Rec. Hist. III. P. 3.) .

(٢) فى س وضرب . (٣) عبارة المقريزى عن هذه الحوادث مختصرة إلى حد مخل ، فراجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٨٤) .

(٤) يوجد فى (Blochet : Op. cit. P. 246. N 1.) ترجمة لنبذة من كتاب سير الآباء البطاركة عن وصول تلك المراكب الفرنجية إلى الشام ، وحوادث الملك العادل مع جيوشها .

فى أطراف بلاد القدس، وأسروا وغنموا شيئا كثيرا. فبعث الملك العادل إلى القاهرة يطلب من العزيز نجدة، فسارت إليه العساكر من مصر، ومن القدس وغيرها. ثم خرج الملك العزيز بنفسه، ومعــه سائر عساكر مصر لقتال الفرنج، فنزل على الرملة فى سادس عشرى صفر، وقَدِم الصلاحية والأسدية، وعليهم الأمير شمس الدين سنقر الدَّوَادار[1]، وسَرَا سُنْقُر وعلاء الدين شَقِير[2]، وعدّة من الأكراد؛ فلحقوا العادل وهو على تِبْنِين[3]. وسار العزيز فى أثرهم، فكانت بينهم وبين الفرنج وقائع شهيرة، آلت إلى رحيل الفرنج إلى صور. وركب العادل والعزيز أقفيتهم. فقتلوا منهم. وترك العزيز العساكر عند العادل، ورجع إلى القاهرة فى ثامن جمادى الآخرة، قبل انفصال الحال مع الفرنج، من أجل أن ميمون القصرى، وأسامة[4] وسرا سنقر، والجحاف، وابن المشطوب، كانوا قد عزموا على قتــله[5] فلمـا بلغه ذلك رحل إلى القاهرة فخرج النــاس إلى لقــائه، وكان يوما مشهودا. ووقعت الهدنة بين العادل وبين الفرنج لمدّة ثلاث سنين، وعاد العادل إلى دمشق.

وفى رجب تجدد للعادل والعزيز رأى فى تخريب عسقلان، وتعفية جدرانها وهدم بنيانها. فَنَدَب من القدس جماعة لتغليقها[6] وحطّ أبرجة سورها؛ فتلفت مدينة لا مثل لها، وثغر لا نظير

(١) الدوادار اسم فارسى مركب من لفظين، أحدهما عربى وهو الدواة، والثانى دار ومعناه ممسك، وصاحب وظيفة الدوادارية هو الذى يحمل دواة السلطان [أو الأمير] أو غيرهما، ويتولى أمرها مع ما يلحق ذلك من المهمات، نحو "تبليغ الرسائل عن الســلطان أو الأمير و إبلاغ عامة الأمور، وتقــديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر الى البــاب الشريف، وتقــديم البريد، ... ...". (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩؛ ج ٥، ص ٤٦٢؛ والمقريزى: المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٢٢). انظر أيضا (Enc. Isl. Art. Dawatdār).

(٢) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. P. 247؛ وابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ص ٨٩، فى Rec. Hist. Or. II. 1.).

(٣) بغير ضبط فى س، وهى بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس، بين دمشق وصور. (ياقوت: معجم البلدان ج ١، ص ٨٢٤).

(٤) فى س سامة، وبقية الأسماء مضبوطة عن المرجعين المذكورين بحاشية ٣.

(٥) اعتمد المقريزى فى حوادث هذه المؤامرة على ابن الأثير مع تعديل طفيف. (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٨٤).

(٦) فى س "لىعلىقها وحط ابرجه سورها فىلفت مدىنه..." وفى محيط المحيط: الغلق عند البنائين حجر يجعل فى وسط المدماك بسكر به، فلعل المقصود هنا أن المندو بين هدموا الأسوار بشدّ أغلاقها.

له فى الثغور، وعمارة لا تخلف الأيام ما تلف بها، لعجز الملوك عن ممانعة الفرنج بالسلاح ، واضطرارهم إلى هدم المدن وتعفية رسومها .

وفى شعبان ركب قاضى القضاة صدر الدين بن در باس لُرقبة الهلال ، (١٣٩ ا) وكلف الشهود ما بين شمعتين كل شاهد إلى شمعة . فخرجوا بالشموع، وقد كثر الجمع والشمع، واحتفل الموكب ، وثقلت على الشهود الوطأة . وفيه أمر الملك العزيز بمنع البناء فى المواضع التى كان الأمراء قد شرعوا فى بنائها على النيل، واستولوا فيها على الساحل، فخرج الجاندارية وألزموا كل من حفر أساسا بردمه، فامتثل الأمر .

وفى شهر رمضان أمر العزيز بقطع أشجار بستان البغدادية تجاه [قصر][1] اللؤلوة، وجعله ميدانا . وفيه كثر التظاهر بعصير العنب واستباحة الحرمات ، وعدم المُنكِر لهذا الأمر ، فغلا العنب حتى بلغ أربعة أرطال بدرهم . وفيه قصر مد النيل، وارتفعت الأسعار، وعدمت الأرزاق من جانب الديوان ، وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان . واستبيح ما كان محظورا من فتح أبواب التأويلات، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات : فأُخذ خط شخص يعرف بابن خالد بمبلغ ألف دينار، وصودر جماعة [آخرون]، وصار الإنفاق فى السماط السلطانى فى هذه الوجوه .

وفى يوم عيد الفطر أقيمت سُنّة العيد بظاهر البلد ، وحضر العزيز الصلاة والخطبة ، وعَمّ الأمراء وأرباب العمائم بخلعه ، وقدم سماط توسعت الهمة فيه . وفى ثالث عشره وفى النيل ستة عشر ذراعا؛ فركب العزيز فى سادس عشرة لتخليق المقياس ؛ وفتح الخليج فى ثامن عشره ، وتظاهر الناس فى هذه الأيام بالمنكرات من غير منكِر . وفى ثالث عشريه كان النوروز، فجرى الرسم فى لعبه على العادة .

---

(١) أحد مبانى الفاطميين، واسمه أيضا منظرة اللؤلؤة ، وموقعه على الخليج بالقرب من القنطرة ، ويشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ويطل من غربيه على الخليج والبساتين إلى نهر النيل . ومع أن البستان البغدادى من هذه البساتين، على سبيل الترجيح، فإن المقريزى لم يذكره فى باب بساتين القاهرة (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٦٧ ، ٤٨٧ ؛ ج ٢ ، ص ٤٢٧) .

وفى يوم السبت سابع عشر ذى القعـدة قُتل ابن مرزوق بالقـاهرة، قتله ابن المنوفى قاضى بلبيس غيلة، بدار سكنها بالفهادين(١)، وحفر له فيها ودفنه، ومملوكا صغيرا معـه، وبلّط فوقه، وجعل عليه شعيرا . فشُنق ابن المنوفى، بعد ما طيف به على جمل مصر والقاهرة .

وفى هذه السنة توجه العادل من دمشق إلى مدينة ماردين، ونازلها وأخذ ربضها . وفيها خرج الملك الكامل محمـد بن العادل من حرّان ، وقاتل عسكر المواصلة . وفيها غار الفرنج ، ونهبوا وأسروا خلقا، وانتهوا إلى عكا . فعاد العادل إلى دمشق فى رمضان؛ ثم خرج بعد شهر إلى الشرق يريد ماردين . وفيها ادّعى [معز الدين إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين](٢) مَلِك اليمن الإلٰهيــة نصف نهار ، وكتب كتابا وأرّخه من مقرّ الإلٰهية . ثم رجع عن ذلك، وادّعى الخلافة، وزعم أنه من بنى أميــة ، ودعا لنفســه فى سائر مملكته بالخلافــة ، وقطع الدعاء من الخطبة لبنى العباس ، ولبس ثيابا خضرا وعمائم خضرا مذهبــة . وأكره من كان فى مملكته من [أهل] الذمة على الإسلام، وخطب بنفســه ، وعزم (٣٩ ب) على قصد مكة، وجهز من بنى له بها دارا ، فأسرهم الشريف أبو عزيز قتادة .

* * *

[سنة خمس وتسعين وخمسمائة] . ودخلت ســـنة خمس وتسعين وخمسمائة ، والعادل مضايق مدينــة ماردين ، والمعز صاحب اليمن قد تجهز يريد مكة ، والعزيز صاحب مصر قد سار إلى الاسكندرية، من آخر ذى الحجة . فتصيد [العزيز] إلى سابع المحرم، وركض خلف ذئب فسقط عن فرسه، ثم ركب وقد حم، فدخل القاهرة يوم عاشـوراء(٣) فلم يزل لمـا

(١) يقع خط الفهادين بالقاهرة فيما بين الجوانيــة والمناخ (كذا) . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٣٦) .

(٢) فى س "وفيها ادّعى المعز بن العزيز" . ويظهر أن المقريزى خلط فى هــذه التسمية ، فليس فى ملوك اليمن ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٠) بهذا الاسم ، وقد يرجع هــذا الخلط الى أن المعز هــذا كان يسمى بالعزيز إسماعيل . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 79, 98). وقد تولى المعز هذا ملك اليمن بعد وفاة أبيه بزبيد، سنة ٥٩٣ هـ . (Blochet: Op. cit. p. 249. N. 1)

(٣) توجد فى عدّة روايات من مراجع مختلفة عن سبب موت العزيز .

به حتى مات، منتصف ليلة السابع والعشرين منه، ودفن بجوار قبر الشافعى، رحمة الله عليه. وكان عمره سبعا وعشرين سنة وأشهرا، ومدّة ملكه ست سنين تنقص شهرا وستة أيام. وكان ملكا كريما، عادلا رحيما، حسن الأخلاق شجاعا، سريع الانقياد مفرط السخاء. سمع الحديث من السلفى، وابن عوف، وابن برى، وحدّث. وكانت الرعية تحبه محبة كثيرة، وكان يعطى العشرة آلاف دينار، ويعمل سماطا عظيما يجمع الناس لأكله، فإذا جلسوا للأكل كره منهم أكله، ولا يطيب له ذلك، وهذا من غرائب الأخلاق (١).

وفيها (٢) عظمت الفتنة فى عسكر غياث الدين محمد [بن بهاء الدين سام] ملك الغورية (٣)، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر الرازى [الفقيه الشافعى المشهور]، كان قد بالغ غياث الدين فى إكرامه، وبنى له مدرسة بقرب جامع هراة، ومعظم أهلها كَرَّامية (٤). فأجمعوا على مناظرته،

---

(١) يوجد فى (Blochet: Op. cit. pp 250. N. 2) تعليل لطيف لتلك الناحية من خلق العزيز، وهو أنه كان يكره بعثرة الأموال العامة فى أغراض خاصة. (٢) بقية الأخبار الواردة هنا تحت هذه السنة منقولة بتصرف طفيف عن ابن الأثير. (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٩٩ — ١٠١) أو عن مرجع آخر مصدره ابن الأثير. (٣) انظر ص ٨٠؛ تقع بلاد الغور الجبلية بأفغانستان بين هراة وغزنة، وعاصمتها فيروزكوه. وكانت مملكة إسلامية، مستقلة بشؤونها منذ أوائل القرن الخامس الهجرى، ثم فتحها محمود الغزنوى سنة ٤١١ هـ، واستمرت تابعة للدولة الغزنوية، وصاهر ملوكها سلاطينهم حتى سنة ٥٣٦ هـ، حين قضى الغز التركمان على الدولتين الغزنوية والغورية معا. ثم جاء غياث الدين بن سام المذكور، فأسس ملكا جديدا على أنقاض الدولتين، من سنة ٥٦٩ هـ، وعاونه فى ذلك أخوه معز الدين. ومات غياث الدين سنة ٥٩٩ هـ، فخلفه معز الدين، حتى قتل غيلة سنة ٦٠٢ هـ. ولم يطل عمر الدولة الغورية بعده، بل دالت أجزاؤها للأمراء والقواد، حتى أزالها السلطان خوارزم شاه. (Lane-Pole: Muh. Dyns. pp. 176, 289-294) وكذلك (Enc. Isl. Art. Ghōrids)

(٤) الكرامية إحدى الفرق الدينية فى الإسلام. ويذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٤٩) فى باب ذكر الفرق، عنها ما نصه: "الكرامية أتباع محمد بن كرام السجستانى، وهم طوائف: الهيصمية والإسحاقية والجندية، وغير ذلك. إلا أنهم يعدون فرقة واحدة، لأن بعضهم لا يكفر بعضا. وكلهم مجسمة، إلا أن فيهم من قال هو (الله) قائم بنفسه؛ ومنهم من قال هو أجزاء مؤتلفة، وله جهات ونهايات. ومن قول الكرامية إن الإيمان هو قول مفرد، وهو قول لا إله إلا الله، وسواء اعتقد أو لا. وزعموا أن الله جسم، وله حد ونهاية، من جهة السفل، وتجوز عليه ملاقاة الأجسام التى تحته. وأنه على العرش، والعرش مماس له. وأنه محل الحوادث، من القول والإرادة، والإدراكات والمرئيات والمسموعات. وأن الله لو علم أحدا من عباده لا يؤمن به، لكان خلقه إياهم عبثا. وأنه يجوز =

وتجمعوا عند غياث الدين معه، وكبيرهم القاضى [مجد الدين][١] عبد المجيد بن عمر بن القدوة. فتكلم الإمام فخر الدين مع ابن القدوة، واستطال عليه و بالغ فى شتمه، وهو لا يزيده على أن يقول: "لا يفعل مولانا! لا آخذك الله![٢] [استغفر الله!"][٣]. فغضب الملك ضياء الدين له، ونسب الإمام [الرازى] إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة. وقام من الغد ابن عمر بن القدوة بالجامع، وقال فى خطبته: "ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول، فاكتبنا[٤] مع الشاهدين. أيها الناس! إنا لا نقول إلا ما صحّ عندنا عن رسول الله، وأما علم أرسطو، وكفريات ابن سينا، وفلسفة الفارابى، فلا نعلمها. فلأى حال يُشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذب عن دين الله وسنة نبيه؟ و بكى وأبكى، فثار الناس من كل جانب، وامتلأت البلد فتنة. فسكّتهم السلطان غياث الدين، وتقدّم إلى الإمام فخر الدين بالعود إلى هراة، فخرج إليها. ثم فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية، وتقلد الشافعى رحمه الله.

السلطان الملك المنصور ناصر الدين

محمد بن الملك العزيز عماد الدين عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وُلد بالقاهرة فى ... ...[٥] جمادى الأولى، سنة خمس وثمانين وخمسمائة، ومات أبوه وعمره تسع

= أن يعزل نبيا من الأنبياء والرسل، و يجوز عندهم على الأنبياء كل ذنب لا يوجب حدا، ولا يسقط عدالة. وأنه يجب على الله تعالى تواتر الرسل، وأنه يجوز أن يكون إمامان فى وقت واحد. وأن عليا ومعاوية كانا إمامين فى وقت واحد، إلا أن عليا كان على السنة، ومعاوية على خلافها. وانفرد ابن كرام فى الفقه بأشياء، منها أن المسافر يكفيه من صلاة الخوف تكبيرتان. وأجاز الصلاة فى ثوب مستغرق فى النجاسة. وزعم أن الصلاة والصوم والزكاة والحج، وسائر العبادات، تصح بغير نية، وتكفى نية الإسلام، وأن النية تجب فى النوافل. وأنه يجوز الخروج من الصلاة بالأكل والشرب والجماع عمدا، ثم البناء عليها. وزعم بعض الكرامية أن لله علمين، أحدهما يعلم به جميع المعلومات، والآخر يعلم به العلم الأول. انظر أيضا (الشهرستانى: الملل والنحل ص ٧٩ — ٨٥؛ والسمعانى: كتاب الأنساب، ص ٤٧٧).

(١) أضيف ما بين القوسين، وكذلك بقية الاضافات فى هذه الفقرة، من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٩٩).   (٢) فى س لا واخدك، وفى ابن الأثير (نفس المرجع والجزء والصفحة) الا وأخذك.

(٣) ابن عم الملك غياث الدين وزوج ابنته، وكان أشد الناس كراهة للفخر الرازى. انظر نفس المرجع.

(٤) بعض حروف هذا اللفظ ضائع فى س.   (٥) بياض فى س.

سنين وأشهر . وقد أوصى له أبوه بالملك من بعـده ، وأن يكون مدبر أمره الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى . فأُجلس على سرير الملك فى غد وفاة أبيـه ، يوم الإثنين حادى عشرى المحرّم، وجُعل قراقوش أَتَابَكا (١) . وحلف له الأمراء كلهم، ما خلا عماه الملك المؤيد نجم الدين مسـعود والملك المعز؛ فانهما أرادا أن تكون الأتابكية لهما، وجرت منهما منازعة، ثم حَلَفا . ووقع الخلف بين أمراء الدولة ، فطعن عدّة منهم فى قراقوش ، بأنه مضطرب الرأى ضـيق العطن، ولا يصلح لهذا الأمر . وتعصب جماعة معه، ورأوا أنه أطوع من غيره . وكثر النزاع فى ذلك ، وصاروا إلى القاضى الفاضل ، ليأخذوا رأيه؛ فامتنع من المشورة عليهم، فتركوه . وأقاموا ثلاثة أيام يمحصون الرأى ،حتى استقر على مكاتبة الملك الأفضل ، ليحضر أتابكا عوض قراقوش، بشرط ألا يرفع فوق رأسه السنجق، ولا يذكر له اسم فى خطبة (٤٠ ا) ولا سكة، وأن يدبر أمر الملك المنصور مدّة سبع سنين ، فإذا تم هـذا الأجل سلم إليه الأمر والتدبير ، و سـيروا إليه القصاد بذلك . وأقيم الملك الظافر مظفر الدين خضر بن السلطان صلاح الدين مباشر نيابة السلطنة، حتى يقدم الأفضل . فخرج الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر، فى تسعة عشرة (٢) نفسا ، متنكرا، خوفا من العادل .

وكان الأمير فخر الدين جهاركس — لما قرر أمراء مصر أمر الأفضل، وكتبوا إليه بالحضور — كره ذلك ، وكتب إلى الأمير فارس الدين ميمون القصرى صاحب نابلس، ينهاه عن الموافقة على إقامه الأفضل . فوقع الأفضل على القاصد، وأخذ منه الكتاب، وعلم ما فيه، وقال له :

(١) فى س اتابك بغير ضبط . و يتألف هـذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب، و بك بمعنى أمير . وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسـلان (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ) كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير من أمرائهم ، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صـغير . وكثيرا ما تزوج الأطابك من أم الموصى به ، فتصبح العلاقة بين السلطان و وصيه شبه أبوية . ثم أطلق هذا اللقب ، فى أيام المماليك بمصر ، على مقدّم العساكر أو القائد العام ، على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعا ، وكان يسمى أتابك العساكر . انظـر (Gibb : Damascus Chronicle. pp. 23-24) ، وكذلك (G.- Demombynes : Op. cit. Pref. pp. XXVII, LVI.) ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ١٨ ، وابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٧ (Glossary) ؛ وأيضا (Enc. Isl. Art. Ata) .

(٢) فى س تسعه عشر .

" ارجع فقد قضيت الحاجة " . وسار الأفضل ، ومعه ذلك القاصـد ، حتى وصل بلبيس ، وقد خرج الأمراء إلى لقائه ، فى خامس شهر ربيع الآخر . فنزل فى خيمة أخيه الملك المؤيد [مسعود] . وكان فخر الدين جهاركس يؤمل أنه ينزل فى خيمته ، فشق ذلك عليه من فعل الأفضل ، ولم يجد بدا من المجىء إلى عنده ، فأكرمه الأفضل . ثم لما فرغ [الأفضل] من طعام أخيـه ، صار إلى خيمة فخر الدين وأكل طعامه ، فحانت من فخر الدين التفاتة ، فرأى القاصد الذى بعثه إلى نابلس ، فدهش وخاف من الأفضـل ، وأخذ يستأذنه فى التوجه إلى العرب المخالفين ليصلح أمرهم ، فأذن له . وللحال قام [فخر الدين] واجتمع بزين الدين قراجا وأسـد الدين سراسنقر ، وسار بهما مجدّا إلى القدس ، فإذا بشجاع الدين طغرل السلاح دار سائر إلى مصر . فألفتوه عن الأفضل ، وساروا به إلى القدس ، فاتفق معهم الأمير صارم الدين صالح نائب القدس ، ووافقهم أيضا الأمير عز الدين أسامة وميمون (١) القصرى ، وقدما إلى القدس ، ومع ميمون سبعمائة فارس منتخبة . وكاتبوا الملك العادل ، يستدعونه لأتابكية الملك المنصـــور .

وأما الأفضـل فإنه سار من بلبيس إلى القاهرة ، فخرج المنصور وتلقاه ، فى سابع ربيع الآخر ، وكانت مدته شهرين و (٢) ... (٣) وتحكم الأفضل . ولما اسـتقرا بالقاهرة كتب الأفضل إلى عمه الملك العادل ، يخبره بوصوله إلى مصر ، حفظا لدولة ابن أخيه ، وأنه لا يخرج عما يأمره به . فورد جوابه بأن العزيز إن كان مات عن وصية فلا يُعدل عنها ، وإن كان مات عن غير وصية ، فيكتب الأعيان خطوطهم لك بذلك ، حتى نرى الرأى . فاستولى الأفضل على أمر مصر كله ، (٤٠ ب) ولم يبق للمنصـور غير مجرد الاسم فقـط . وعزم [الأفضـل] على قبض من بقى من الأمراء الصلاحية [بمصر] ، ففر منهم جمـاعة ، ولحقوا بفخر الدين جهاركس بالقـدس . وقبض الأفضـل على جماعة منهم الأمير علاء الدين شـقير ، والأمير

(١) فى س سامه . (٢) بياض فى س . (٣) النصف الثانى من هذا الاسم محجوب بورقة ملصقة فى س ، ولكنه فى ب (٤٨ ب) .

عز الدين البكى الفارس، والأمير عز الدين أيبك فطيس ، وخطلبا ؛ ونَهَب أموالهم . ثم برز إلى بركة الجب، فأقام أربعة أشهر، وحلّف بها الأمراء والأجناد . فبلغه عن أخيه الملك المؤيد [مسعود] أنه يريد الوثوب عليه، فقبضه وسجنه .

وبعث الملك الظاهر [غازى صاحب حلب] إلى أخيه الأفضل يحثه على سرعة (١) القدوم من مصر إلى دمشق، واغتنام الفرصة فى أمرها، [والملك العادل غائب عنها فى حصار ماردين] (٢). فقبض الصلاحية [بالشام ؟] على القاصد، وأهانوه ثم أطلقوه؛ فسار إلى الأفضل،و بلغه رسالة أخيه الظاهر. فرحل [الأفضل] من بركة الجب ثالث شهر رجب، ومعه الملك المنصور،فأقام بالعباسة (٣) خمسة أيام . واستخلف على القاهرة [سيف الدين] يازكج (٤) [الأسدى]، ثم سار إلى دمشق، فنزل عليها فى ثالث عشر شعبان . وقد بلغ العادل خروجه من مصر، وهو على حصار ماردين، فرتب ابنه الكامل محمدًا (٥) على حصارها ، وسار فى مائتى فارس إلى دمشق فقدمها فى ثمانية أنفس ، لكثرة ما أسرع فى السير، قبل منازلة الأفضل لها [بيومين] (٦)، وتلاحق به أصحابه . وقدم الأفضل فنزل الشرفين (٧) والميدان الأخضر ، وهجم بعض أصحابه [على] البلد وأحرقوا، وصاحوا : " يا أفضل يامنصور ! " . فصاحت العامة معهم بذلك ، لميلهم إلى الأفضل . فبرز إليهم العادل ، وأخرجهم من البلد، وامتنع بها . ففر من أمراء

(١) أرسل أسد الدين شيركوه ابن عم الأفضل إلى مصر رسلا تحث الأفضل أيضا على الإسراع إلى دمشق . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ج ١٢ ، ص ٩٤) .

(٢) انظر نفس المرجع والجزء، ص ٩٣ — ٩٤

(٣) قرية بين بلبيس والصالحية، وهى (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٥٩٩ — ٦٠٠) أول ما يلق القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية، وسميت باسم العباسة بنت أحمد بن طولون، فانها خرجت إلى هذا الموضع مودعة لبنت أخيها قطر الندى، بنت خمارويه بن أحمد بن طولون ، لما حملت إلى الخليفة المعتضد العباسى، وضربت هناك فساطيطها؛ ثم بنيت هناك قرية، فسميت باسمها . راجع المقريزى : (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٢٣٢ ؛ P. Omar Taussoun. Op. cit. 1. 1. P. 58 ؛ و Blochet: Op. cit. p. 254. N I.) .

(٤) فى س أيازكوح، وقد تقدم ذكره أكثر من مرة .

(٥) فى س محمد .

(٦) راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢ ، ص ٩٤) .

(٧) كذا فى س وبغير ضبط . أنظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٣٨٩، حيث ورد فى وفاة الصاحب الوزير أبى على المزدقانى ، أن من أعماله بناء المسجد على الشرف شمالى دمشق ، ويسمى مسجد الوزير .

الأفضل عدّة، فتأخر حينئذ عن دمشق إلى نحو الكسوة . فدس العادل إلى جماعة ممن فى صحبة الأفضل [بكلام منه] : "إنى أريد الرجوع إلى الشرق، وأترك الشام ومصر لأولاد أخى"، فَفَنَدوا[1] الأفضل عن الحرب . وبذل [العادل] لهم مالا، فمشى ذلك من مكره عليهم . وخذلوا الافضل، بأن أشاروا عليــه بترك القتال حتى يقــدم [أخوه] الظاهر من حلب . فأمسـك [الأفضل] عن الحرب مدة، والعادل يكاتب الأمراء ويستميلهم شيئا بعد شىء، وهم يأتونه فيبذل لهم المـال، ويوسع عليهم، إلى أن قدم الظاهر من حلب فى آخر شعبان . فقوى به الأفضل، ورحلا إلى مسجد القدم[2]، وحاربا العـادل وحاصراه، حتى غلت الأقوات بدمشق لشـدّة الحصار . فقدمت الصلاحية من القدس نصرة للعادل، فاشتد عضد العادل بقدومهم، (٤١ ا) وجهز إلى القدس من يمنع الميرة الواصـلة من مصر إلى الأفضل، فوجدوا يازكج[3] قد أخرج سبعمائة من عسكر مصر نجدة للأفضل، فقاتلوهم وكسروهم وغنموا مامعهم . وصارت أهـل دمشق فى جهد من الغلاء، واحتاج العـادل إلى القرض، فأخذ مالا من التجار . وقوى الزحف على البـلد حتى أشرف على الأخذ، وهم العـادل بالتسليم، فاتفق وقوع الخلف بين الظاهر وبين أخيه الأفضل .

* * *

[سنة ست وتسعين وخمسمائة] . وأهلت سنة ست وتسعين، والأخوان على حصار عمهما العـادل بدمشق، وقـد خربت البساتين والدور، وقطعت الأنهار، وأحرقت الغلال، وقلت الأقوات . وعزم العادل على تسليم دمشق، لكثرة من فارقه وخرج عنه إلى الأفضل، فكتب إلى ابنه الكامل يستدعيه، وكتب إلى نائب قلعة جعبر أن يسلمه مايستدعيه من المـال، وكانت أموال العادل بهـا . فسار إليه الكامل فى العسـكر الذى معه، وأخذ

(١) فى س فقدوا . والمشهور أن فعل فند لايتعدى بعن، وإنما يتعدى بعلى وفى محيط المحيط فنده على الأمر بمعنى أراده منه ولعل المقريزى استباح لنفســه استعمال هذا الفعل مقرونا بعن، ليؤدى عكس المعنى المعروف . على أن فند تستعمل بدون حرف جر بمعنى عجز .

(٢) مسجد بدمشق وبه دفن صلاح الدين . (أبو شامه : كتاب الروضتين، ص ٩٥ — ٩٦، ١٢٣، فى Rec. Hist. Or. V.) .

(٣) فى س ايازكوج .

من قلعة جعبر أربعمائة ألف دينار، وقدم على أبيه فقوى بقدومه قوّة عظيمة، ووقع الوهن فى عسكر الأفضل والظاهر، لكثرة من خامر منهم. ودسّ العادل مكيدة بين الأخوين، وهى أن الظاهر كان له مملوك يقال له أَيْبَك[(١)]، وقد شغفه حبا، ففقده وظن أنه دخل دمشق فَعُلِّق. وبلغ ذلك العادل، فبعث إليه [بكلام فيه] : " أن محمود بن الشُّكْرِى[(٢)] أفسد مملوكك، وحمله إلى الأفضل ". فقبض [الظاهر] حينئذ على ابن الشكرى، وظهر المملوك عنده، فما شك فى صدق ما قاله عمه، ونفر من أخيه وامتنع من لقائه. وكان البرد قد اشتد، فرحلا إلى الكسوة، وسارا إلى مرج الصفر، ثم سارا إلى رأس الماء. فغلت الأسعار، وقوى البرد، فرحل الظاهر على القريتين. ورحل الأفضل [بعساكره] يريد مصر، وتركوا من أثقالهم ما عجزوا عن حمله فأحرقوه، وهلك لهم عدّة مماليك ودواب. ودخل الأفضل إلى بلبيس فى خامس عشرى شهر ربيع الأوّل، فأشير عليه بالإقامة بها.

وورد الخبر بأن العادل خرج من دمشق، ونزل تل العجول، وأنه كتب الإقامات[(٣)] للعربان، واستدعى الكنانية. فجمع الأفضل الأمراء، وركب ودار على سور بلبيس، وأمر قراقوش (٤١ ب) بحفظ قلعة الجبل، وأن يهتم بحفر ما بقى من سور مصر والقاهرة، وأنه يعمق الحفر حتى يصل إلى الصخر، ويجعل التراب داخل المدينة على حافة الحفر، ليكون مثل الباشورة[(٤)]، ويستعمل الأبقار فيه، ويعمل ذلك فيما بين البحر وقلعة المقس، حتى لا يبقى إلى البلد طريق إلا من أبوابها.

---

(١) فى س ابك بغير ضبط. (٢) فى س السكرى بغير ضبط. (انظر أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ٧٦، فى .Rec Hist. Or. I). (٣) جمع إقامة، وهو ما يلزم العساكر من المؤونة والعلف. انظر .(Quatrémere : Maml. I. 1. P. 22)، حيث توجد أمثلة عدّة لاستعمال هذا اللفظ، وأوضحها " وخرجت الإقامات من الشمير والدقيق ... ". راجع أيضا (.Dozy. Supp. Dict. Ar).

(٤) الباشورة الحائط الظاهرى، أو ما يرى منه. (محيط المحيط). وتجمع على بواشير، ويقابلها فى الفرنسية كلمة (Bastion) أو (Guérite). راجع أيضا (.Dozy : Supp Dict. Ar).

وفى ثانى ربيع الآخر نزل العادل قَطْيَة [(١)] . فهمَّ الأفضل بتحريق بلبيس ، فنفرت القلوب منه ، وقطع أرزاق المرتزقة من جانب السلطان ، ومن الأحباس على مكة والمدينــة والفقهاء وأرباب العمائم ، ليُغَلِّق الذى للجند . فـا سدّ المأخوذ ، ولا انقطع الطلب من الأجناد ، وثار الضجيج من المساكين . ووصل العادل فواقعه الأفضل ، فانكسر منه وانهزم . فتبعهم العادل إلى بركة الجب ، فخيم بها وأقام ثمانية أيام . ولحق الأفضل بالقاهرة ، فدخلها يوم الثلاثاء سابع ربيع الآخر [(٢)] ، وخامر جماعة عليه ، وصاروا إلى العادل . وألجأت الضرورة الأفضل إلى مراسلة العادل ، فطلب [منه] أن يعوضه عن ديار مصر بدمشق ، فامتنع [العادل] ، وقال : "لا تحوجنى أن أخرق ناموس القاهرة ، وآخذها بالسيف . اذهب إلى صرخد ، وأنت آمن على نفسك" . فلم يجد [الأفضل] بدا من التسليم ، لتخاذل أصحابه عنــه . فتسلم العادل القــاهرة ، ودخلها يوم السبت ثامن عشر ربيع الآخر ، وخرج منها الأفضل منهزما فى ذلك اليوم . وكان الوزير ضياء الدين بن الأثير قد قدم إلى مصر ، وتمكن من الأفضل ؛ فلما تسـلم العادل القاهرة فر ولحق بصرخد . وكانت مدّة استيلاء الأفضل على ديار مصر سنة واحدة وثمانية وثلاثين يوما ، وخرج إلى بلاد الشرق فأقام بسُمَيْساط [(٣)] . وكان مدّة إقامته بالقاهرة لا يقدر أن يخلو بنفسه فى ليل ولا نهـار ، وكان الأمراء قد حجروا عليــه أن يخلو بأحد ، وكانت الضرورة ملجئة إلى موافقتهـــم .

وأقام العادل بالقــاهرة على أتابكية الملك المنصور ، وحلف له الأمراء على مساعدته ، ليقوم بأتابكية المنصور إلى أن يتأهل للاستقلال بالقيام بأمور المملكة ، فلم يستمر ذلك [(٤)] ....

(١) فى س قطيا بغير ضبط ، وهى قــرية فى طريق مصر إلى الشام ، فى وسط الرمل ، قرب الفرما . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٤٤) .

(٢) فى تلك الليلة توفى القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٠٢) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى مدينة فى طرف بلاد الروم ، على الشاطىء الغربى للفرات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٥١) . أنظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 260. N. 1.) .

(٤) بياض فى س ، يشغل سطرين تقريبا ربه آثار كتابة ممحوة .

فانتقض الأمر فى الحادى والعشرين من شوال ، وذلك أن الملك العادل أحضر جماعة من الأمراء وقال لهم: "إنه قبيح بى أن أكون أتابك صبى، مع الشيخوخة والتقدم . والملك ليس هو بالإرث، وإنما هو لمن غلب . وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر (٤٢ ا) صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى، ورعاية لحقه . فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى . فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه . فلما ملكت هذه البلاد، وطّنت نفسى على أتابكية هذا الصبى، حتى يبلغ أشده . فرأيت العصبيات باقية، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ علىّ ما طرأ على الملك الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبون إقامة إنسان آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكُتّاب، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه . فإذا تأهل وبلغ أشدّه نظرتُ فى أمره، وقمت بمصالحه . هذا والأسدية كلهم مع العادل على هذا الرأى ، فلم يجد من عداهم بداً من موافقته ، فحلفوا له ، وخلعوا المنصور فى يوم الخميس . وخُطب للعادل من الغد يوم الجمعة حادى عشرى شوّال، فكانت سلطنة المنصور سنة واحدة وثمانية أشهر وعشرين يوما .

السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب

ولما حلف له الأمراء استولى على سلطنة مصر، فى حادى عشرى شوّال ، وخطب له بديار مصر وأرض الشام وحران والرها وميافارقين ، واستحلف الناس بهذه البلاد، وضربت السكة باسمه . واستدعى [العادل] ابنه الملك الكامل ناصر الدين محمداً(١)، فحضر إلى القاهرة فى يوم [الخميس](٢) لثمان بقين من رمضان ، ونصبه نائبا عنه بديار مصر، وجعل الأعمال الشرقية إقطاعه ، كما كانت إقطاعا للعادل فى أيام السلطان صلاح الدين ، وجعله ولىّ عهده، وحلف له الأمراء .

(١) فى س محمد .   (٢) بياض فى س . ويقع أول رمضان سنة ٥٩٦ هـ يوم الخميس ١٥ يونيه سنة ١٢٠٠ م ، ويوافق الثانى والعشرين منه الخميس أيضا . (Wüstenfeld-Mahler'sche: Tabellen).

وفيها أقيمت الخطبة للعادل بحماة وحلب ، وضربت السكة باسمه . وفيها توقفت زيادة النيل، فلم يجر إلا ثلاثة عشر ذراعا تنقص[(١)] ثلاثة أصابع . وشرق معظم أرض مصر، فارتفعت الأسعار . وفيها استناب العادل بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ، واستناب ببلاد الشرق ابنه الملك الفائز، وأقر بحلب ابن أخيه الملك الظاهر [غازى بن صلاح الدين]، وبحماة الملك المنصور [بن تقى الدين عمر][(٢)] .

وفيها أخرج الملك العادل ابن ابن أخيه الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر، ومعه إخوته وأخواته [ووالدته][(٣)]، فساروا إلى الشام . ثم سيرهم إلى الرها ، فهربوا منها إلى حلب، وبقى الملك[(٤)] المنصور بمدينة الرها[(٥)]، حتى مات سنة عشرين وستمائة ، وكان [قد أصبح] أميرا عند الظاهر صاحب حلب .

ومات فى هذه السنة إبراهيم بن منصور بن المسلم أبو اسحاق المعروف بالعراقى، خطيب الجامع العتيق بمصر، فى حادى عشرى جمادى الأولى ، عن ست (٤٢ ب) وثمانين سنة . و[مات] القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على بن الحسن بن الحسن بن أحمد بن الفرج بن أحمد اللخمى ، العسقلانى مولدا ، البيسانى[(٦)] ، أبو على محيى الدين، فى سابع ربيع الآخر[(٧)] . و[مات]

(١) فى س إلا .

(٢) راجع أبا الفداء (المختصر فى تاريخ البشر، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٧ فى Rec. Hist. Or. I).

(٣) نفس المرجع ، ص ٨١ . (٤) معظم هذا اللفظ مطموس ببقعة من المداد فى س . (٥) يقول أبو الفداء (المختصر فى تاريخ البشر، ص ٨١ ، فى Rec. Hist. Or. I) إن المنصور هذا "أقام بحلب عند عمه الظاهر". (٦) كان والد القاضى الفاضل يتقلد القضاء بمدينة بيسان ، فلهذا نسبوا إليها . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٣٦٦) . هذا وبنفس المرجع والجزء والصفحة ترجمة طيبة للقاضى الفاضل منها : "قال ابن خلكان : وزر [القاضى الفاضل] للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن منه غاية التمكن . وبرز فى صناعة الإنشاء، وفاق المتقدمين ، (ص ٣٦٧) وله فيه الغرائب مع الإكثار . أخبرنى أحد الفضلاء الثقات المطلعين على حقيقة أمره، أن مسودات رسائله — فى المجلدات والتعليقات فى الأوراق — إذا جمعت ما تقصر عن مائة ، وهو مجيد فى أكثرها . وقال عبد اللطيف البغدادى : دخلنا عليه فرأيت شيخا ضئيلا ، كله رأس وقلب ، وهو يكتب ويملى على اثنين ، ووجهه وشفتاه تلعب ألوان الحركات ، لقوة حرصه فى إخراج الكلام ، وكأنه يكتب بجملة أعضائه . وكان له غرام فى الكتابة وتحصيل الكتب ، وكان له الدين والعفاف والتقى ، والمواظبة على أوراد الليل ، والصيام وقراءة القرآن . وكان قليل اللذات ، كثير الحسنات ، دائم التهجد ، ويشتغل بعلوم الأدب وتفسير القرآن . غير أنه كان خفيف البضاعة من النحو ، ولكن قوة الدراية توجب له قلة اللحن . وكان لا يكاد يضيع من زمانه شيئا إلا فى طاعة ، وكتب فى الانشاء مالم يكتبه غيره ... ..." راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Al-Kaḍī al-Fāḍil) . (٧) اعتبر : Blochet (Op. cit. p. 264) هذا تاريخ مولده ببيسان ، والمقرر أنه ولد بعسقلان فى ١٥ جمادى الثانية سنة ٥٢٩ هـ (٣ أبريل سنة ١١٣٥ م) ، انظر المرجعين المذكورين بالحاشية السابقة .

الأثير ذو الرياستين أبو الطاهر محمد بن ذى الرياستين أبى الفضل محمد بن محمد بن بنان الأنبارى[(١)] فى ليلة الثالث من ربيع الآخر، ومولده بالقاهرة سنة سبع وخمسمائة .

وفى هذه السنة ولد بالقاهرة مولود له جسد واحد، ورأس فيه وجهان ، فى كل وجه عينان، وأذنان وأنف وحاجب. ووُلد أيضا بها مولود له غرة كغرة الفرس، ويداه ورجلاه محجلتان، وأليته ملمعة . وولد بها أيضا مولود أشيب الرأس؛ ونعجة لها أربع أيادى، وأربع أرجل[(٢)] . ووُجد فى بطن نعجة ذبحت خروفٌ، صــدره ووجهه صورة إنسان ، وله أظافير الآدمى .

+ + +

سنة سبع وتسعين[(٣)] وخمسمائة[(٤)] . فيها قبض الملك العادل على أولاد أخيه [صلاح الدين، وهما الملك] المؤيد مســعود و[الملك] المعز إسحاق ، وسجنهما فى دار بهــاء الدين قراقوش بالقاهرة . [و] تسلم الأمير فخر الدين جهاركس بانياس من الأمير حسام الدين بِشارةَ ، بعد حصار وقتال . وفيها حدثت الوحشــة بين الملك العادل وبين الصلاحية ، من أجل أنه خلع المنصور بن العزيز . وكتب الأمير فارس الدين ميمون القصرى من نابلس إلى العادل بإنكار خلع المنصور، فأجابه العادل جوابا خشنا، وتكررت المكاتبة بينهما غير مرة . فكتب ميمون إلى الصلاحية يغريهم بالعادل، فلم يجد فيهم نهضة للقيام .

وفى أثناء ذلك حدثت وحشــة بين الظاهر صاحب حلب وبين عمه العادل، وسير إليه وزيره علم الدين قيصر ونظام الدين[(٥)] ، فمنعهما العادل أن يعــبرا إلى القاهرة، و[أمرهمــا]

(١) انظر ابن الأثير : تاريخ الدولة الأتابكية، ص ٨٥ ، ٨٩، فى (Rec. Hist. Or. II) .

(٢) فى س اربعة ايادى واربعة ارجل . (٣) وقع خطأ فى عنوان هذه السنة فى ترجمة (Blochet : Op. cit. p. 265) حيث كتب سنة ست وتسعين وخمسمائة، والصواب ما هنا . (انظر أبا شامة : كتاب الروضتين، ص ١٤٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.) . وقد جر هذا إلى اضطراب ترتيب الحوادث حتى أول سنة ٥٩٨ هـ . أما عن منشأ هــذا الخطأ فانظر ص حاشــية . (٤) انظر أبا شامة (نفس المرجع والجــزء والصفحة المذكورة بالحاشية السابقة) . (٥) لم يشر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢ ، ص ١٠٦) إلى ذلك الرسول الثانى ، وكل ما ورد به أن "الظاهر أرسل أميرا كبيرا من أمرائه إلى عمه العادل ..." .

أن يقيما ببلبيس، ويُحَمِّلا قاضى بلبيس ما معهما من الرسالة . فعادا مغضبين ، واجتمعا بميمون القصرى فى نابلس ، وما زالا به حتى مال إلى الأفضل وإلى أخيه الظاهر . فلما وصلا إلى حلب شق على الظاهر ما كان من عمه ، وكاتب الصلاحية ورغبهم، وكاتب ميمون القصرى . وشرع الأفضل أيضا فى مكاتبتهم وهو بصرخد ، وانضوى إلى الأفضل الأمير عز الدين أسامة[1]، صاحب عجلون وكوكب ، وحلف له . فبلغ ذلك العادل فتيقظ لنفسه، وكتب إلى ابنه المعظم صاحب دمشق بمحاصرة الأفضل فى صرخد، فجمع وخرج من دمشق . فاستخلف الأفضل على صرخد أخاه الملك الظافر خضر، وسار إلى أخيه الظاهر بحلب فى عاشر جمادى الأولى . فنزل المعظم على بصرى، وكاتب فخر الدين جهاركس وميمون القصرى، يأمرهما بالمسير إليه لحصار صرخد . فلم يجيبا ، وجمعا من يوافقهما ، وصارا إلى الظافر بصرخد . وكتبوا إلى الظاهر بحلب يحثونه[2] على الحركة وأخذ دمشق ، فوافته الكتب وعنده الأفضل، فجمع الناس وعزم على المسير . ثم سار [الظاهر]، فلم يوافقه المنصور صاحب حماة، فحاصره مدّة ، ثم رحل عنه بغير (١٤٣ ا) طائل، فنازل دمشق ومعه الأفضل، وأتته الصلاحية [هناك[3]] .

فخرج العادل من القاهرة بعساكره ، واستخلف على القاهرة ابنه الملك الكامل محمداً[4]، وسار حتى نازل نابلس . وقدّم [العادل] طائفة من العسكر، فساروا إلى دمشق ، واستولوا عليها، قبل نزول الأفضل والظاهر عليها . فقدما بعد ذلك ، وضايقا دمشق ، فى رابع عشر ذى القعدة ، واشتدّ القتال حتى كادا يأخذان البلد . فوقع بينهما الاختلاف، بمكيدة دبرها العادل ، ففترت الهمة عن القتال . وذلك أن العادل كتب إلى [كل من] الأفضل وإلى الظاهر سرًّا، بأن : "أخاك لا يريد دمشق إلا لنفسه، وقد اتفق معه العسكر فى الباطن على

(١) فى س سامه .
(٢) فى س يحثوه .
(٣) راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ١٠٥ — ١٠٧)، لتتبع هـذه الحوادث بتفصيل . والراجح أن المقريزى اقتبس الوارد هنا باختصار من ابن الأثير أو من مصدر آخر مرجعه ابن الأثير.
(٤) فى س محمد .

ذلك ". فاتفعلا لهذا الخبر، وطلب كل منهما من الآخر أن تكون دمشق له فامتنع . فبعث العادل فى السر إلى الأفضل يعده بالبلاد التى عينت له بالشرق، وهى رأس عين ، والخابور ، وميافارقين، وغير ذلك . وبذل له مع ذلك مالا من مصر فى كل سنة، بمبلغ خمسين ألف دينار. فانخدع [الأفضل] وقال للأمراء الصلاحية ومن قدم إليه من الأجناد : " إن كنتم جئتم إلىّ فقد أذنت لكم فى العود إلى الملك العادل، وإن كنتم جئتم إلى أخى فأنتم به أخبر " . وكانوا يحبون الأفضل من أجل أنه لين العريكة، فقالوا كلهم : " لا نريد سواك، والعادل أحب إلينا من أخيك" . فأذن لهم فى العود إلى العادل ، فسار إليه الأمير فخر الدين جهاركس ، والأمير زين الدين قراجا، وعلاء الدين شقير، والجحاف، وسعد الدين بن علم الدين قيصر . فوقع الوهن والتقصير فى القتال، بعد ما كانوا قد أشفوا على أخذ دمشق .

وانقضت هذه السنة والأفضل والظاهر على منازلة دمشق . وفيها تعذرت الأقوات بديار مصر، وتزايدت الأسعار، وعظم الغلاء حتى أكل الناس الميتات، وأكل بعضهم بعضا، وتبع ذلك فناء عظيم . وابتدأ الغلاء من أول العام ، فبلغ كل أردب قمح خمسة دنانير . وتمادى الحال ثلاث سنين متوالية، لا يمد النيل فيها إلا مدّا يسيرا ، حتى عدمت الأقوات . وخرج من مصر عالم كبير بأهاليهم وأولادهم إلى الشام، فماتوا فى الطرقات جوعا . وشنع الموت فى الأغنياء والفقراء، فبلغ من كفنه العادل من الأموات — فى مدّة يسيرة — نحوا من مائتى ألف إنسان ، وعشرين ألف إنسان . وأكلت الكلاب بأسرها ، وأُكل (٤٣ ب) من الأطفال خلق كثير، فكان الصغير يشويه أبواه ويأكلانه بعد موته، وصار هذا الفعل لكثرته بحيث لا ينكر . ثم صار الناس يحتال بعضهم على بعض، ويؤخذ[(١)] من قدر عليه فيؤكل، وإذا غلب القوى ضعيفا ذبحه وأكله . وفُقِد كثيرُ الأطباء، لكثرة من كان يستدعيهم إلى المرضى، فإذا صار الطبيب إلى داره ذبحه وأكله . واتفق أن شخصا استدعى طبيبا، فخافه الطبيب وسار معه على تخوف. فصار ذلك الشخص يكثر فى طريقه من ذكر الله تعالى، ولا يكاد يمر بفقير

(١) فى س ويأخذ .

إلا و يتصدق عليه، حتى وصلا إلى الدار، فإذا هي خربة . فارتاب الطبيب مما رأى ، و بينا هو يريد الدخول إليها إذ خرج رجل من الخربة ، وقال للشخص الذى قد أحضر الطبيب : "مع هذا البطء جئت لنا بصيد واحد؟". فارتاع الطبيب، وفرّ (١) على وجهه هاربا . فلولا عناية الله به، وسرعة عدوه، لقبض عليه (٢) .

وخلت مدينــة القاهرة ومصر من أكثر أهلها، وصار من يموت لا يجـد من يواريه ، فيصير عدّة أشهر حتى يؤكل أو يبلى (٣) . واتفق أن النيل توقف عن الزيادة فى سنة ست وتسعين، فخاف الناس، وقدم إلى القاهرة ومصر من أهل القرى خلق كثير . فلما حلّت الشمس برج الحمل تحـرّك هواء أعقبه وباء . وكثر الجوع ، وعدم القوت، حتى أكلت صغار بنى آدم : فكان الأب يأكل ابنه مشويا ومطبوخا، وكذلك الأم . وظفر الحكام منهم بجماعة، فعاقبوهم حتى أعياهم ذلك . وفشا الأمر : فكانت المرأة توجد وقـد خبأت فى عبها كتف الصـغير أو فخذه، وكذلك الرجل. وكان بعضهم يدخل بيت جاره فيجد القدر على النار، فينتظرها حتى تتزل ليأكل منها، فإذا فيها لحم الأطفال، وأكثر ما كان يوجد ذلك فى أكابر البيوت. ويوجد النساء والرجال فى الأسواق والطرقات، [و] معهم لحوم الأطفال . وأُحرق فى أقل من شهرين ثلاثون امرأة ، وجد معهن لحـوم الأطفال . ثم فشا ذلك حتى اتخذه النـاس غذاء وعشاء وألفوه، وقلّ منعهم منه، فإنهم لم يجدوا شيئا من القوت، لا الحبوب ولا الخضروات .

فلما كان قبل أيام زيادة النيل — فى سنة ست وتسعين [هذه] — احترق المـاء فى برمودة، حتى صار فيما بين المقياس والجيزة بغـير ماء، وتغير طعم المـاء وريحه . وكان القاع ذراعين ،

---

(١) فى س ومر . (٢) فى س والا قبض عليه . (٣) الموضـع المناسب للعبارة التالية إلى سطر ١٦ ، ص ١٥٨ — وقد وردت فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٤٣ ب ، ٤٤ أ — هو تحت سنة ست وتسعين وخمسمائة . غير أن المؤلف أشار بعلامة عند لفظ "يبلى" ، وكتب "واتفق ان النيل" بهامش الصفحة ، فى اتجاه الورقة المذكورة ، ثم بدأ الكتابة كما هنا ، مكررا الجملة الافتتاحية المشار إليها . والراجح أن المؤلف قصد بإيراد هذه الأخبار، التابعة لسنة ست وتسعين ، استقصاء أمر الوباء والمجاعة فى سنة سبع وتسعين من أوله فى العام السابق . وقد أدّى هذا الى تضليل (Blochet : Op. cit. pp. 265-271) فى ترتيب السنين . انظر ص ١٥٤ حاشية ٣ .

وأخذ يزيد زيادة ضعيفة إلى سادس عشر مسرى، فزاد إصبعا، ثم وقف . ثم زاد زيادة قوية، أكثرها ذراع، حتى بلغ خمسة عشر ذراعا وست عشرة إصبعا . ثم انحط من يومه، فلم يُنتفع به . وكان الناس قد فنوا، بحيث بقى من أهل القرية الذين كانوا خمسمائة نفر إما نفران أو ثلاثة . فلم تجد الجسور من يقوم بها، ولا القرى من يعمل مصالحها . وعدمت الأبقار، بحيث أبيع الرأس بسبعين دينارا ، والهزيل بستين دينارا . وجافت الطرقات بمصر والقاهرة وقراهما . ثم أكلت الدودة ما زُرع، فلم يوجد من التقاوى ولا من العقر ما يمكن به رده .

ودخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة والناس تأكل الأطفال، وقد صار أكلهم طبعا وعادة، وضجر الحكام من تأديبهم . وأُبيع[1] القمح — إن وجد — بثمانية دنانير [الأردب]، والشعير والفول بستة دنانير . وعدم الدجاج من أرض مصر، بجلبه رجل من الشام، وباع كل فروج بمائة درهم ، وكل بيضتين بدرهم . هذا وجميع الأفران إنما تقد بأخشاب المساكن، حتى دخلت سنة ثمان وتسعين . وكان كثير من المساتير يخرجون ليلا، ويأخذون أخشاب الدور الخالية، ويبيعونها[2] نهارا . وكانت أزقة القاهرة ومصر لا يوجد بها إلا مساكن قليلة، ولم يبق بمصر عامر إلا شط النيل . وكانت أهل القرى تخرج للحرث فيموت الرجل وهو ماسك المحراث .

وفى هذه السنة قدم غلام سنه نحو عشر سنين — من عرب الحوف بالشرقية — إلى القاهرة ، أسمر حلو السمرة ، على بطنه خطوط بيض ناصعة البياض ، متساوية القسمة ، من أعلاه إلى أسفله ، كأحسن ما يكون من الخطوط . وفيها مات [الأمير بهاء الدين] قراقوش الأسدى، فى غرة[3] شهر رجب بالقاهرة، ودفن بسفح المقطم .

* * *

سنة ثمان وتسعين وخمسمائة . فى أول المحرم رحل الأفضل والظاهر عن دمشق . فصار الظاهر إلى حلب، ومعه جماعة من الأمراء الصلاحية، منهم فارس الدين ميمون القصرى، وسرا سنقر، والفارس البكى، فأقطعهم الإقطاعات وأكرمهم . وتوجه

(١) فى س بلع . (٢) فى س و يبيعونه . (٣) فى س عره ، وقد أثبت هذا الرسم لاحتمال قراءته "عشرة".

الأفضل إلى حمص، وبها أمه وأهله عند الملك المجاهد. وقدم العادل إلى دمشق، ونزل بالقلعة؛ ثم سار منهـا إلى حماة، ونزل عليهـا بعساكره. فقام له الملك المنصور بجميـع كلفه ونفقاته، وأظهر أنه يريد حلب. فخافه الظاهر واسـتعد للقائه، وراسل العـادل وبعث إليه بهدايا جليلة ولاطفه. فانتظم الصلح بينهما: على أن يكون للعادل مصر ودمشق، والسواحل وبيت المقدس، وجميع ما هو فى يده ويد أولاده من بلاد الشرق؛ وأن يكون للظـاهر حلب وما معها، وللمنصور حـماة وأعمالها، وللمجاهد حمص والرَّحْبَة[1] وتَدْمُر[2]، وللأمجد بعلبك وأعمالها، وللأفضل سميساط وبلادها لا غير؛ وأن يكون الملك العادل سلطان البلاد [جميعها]. وحلفوا على ذلك. فخُطب للعادل بحلب، فى يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة. وأُقطع الأفضلَ قلعة النجم[3] مع سَرُوج[4] وسميساط. وجهز العادل ابنه الأشرف مظفر الدين موسى إلى [الجزيرة]، ليتسلَّم حران والرها وما معهما، ويستقر بالجزيرة؛ و[يستقر] الأوحد أيوب أخوه[5] فى ميافارقين. وتَرتب بقلعة جعبر ابنه[6] الحافظ نور الدين أرسلان. وأقر [العادل] ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى بدمشق. وعاد العادل من (١٤٤ ا) حماة إلى دمشق، وقد اتفقت كلمة بنى أيوب.

وفيها قتل المعز إسماعيل بن سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن نجم الدين أيوب: وذلك أنه لمـا ملك اليمن — بعد أبيه — خرج عليه الشريف عبد الله الحسنى. ثم خرج عليه

(١) بغير ضبط فى س، وهى التى تعرف برحبة مالك بن طوق، بينها وبين دمشق ثمانية أيام، وبين حلب خمسة أيام، وبين بغداد مائة فرسخ، وبين الرقة نيف وعشرون فرسخا. وهى بين الرقة وبغداد، على شاطئ الفرات، جنوبى قرقيسيا. (ياقوت: معجم البلدان: ج ٢، ص ٧٦٤).

(٢) بغير ضـبط فى س، وهى مدينـة قديمة مشهورة فى برية الشام، بينها وبين حلب سـتة أيام. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٨٢٨)؛ انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 272. N. 2.).

(٣) فى س قلعة نجم، بلا تعريف، وبغير ضبط. وهى قلعة جبلية مطلة على الفرات، وعندها جسر تعبر عليه القوافل من حران إلى الشام. وكانت تعرف قبلا بقلعة منبج، وعرفت كذلك بجسر منبج، فإنهـا تبعد عنها خمسة وعشرين ميلا فقط. (ياقوت: معجم البـلدان، ج ٤، ص ١٦٥). انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 273. N. 1.).

(٤) بغير ضبط فى س، وهى بلدة قريبـة من حران. (ياقوت: معجم البـلدان، ج ٣، ص ٨٥). راجع أيضا (Blochet : Op. cit. p 372. N. 2).

(٥) ضمير الهاء عائد على الأشرف موسى.

(٦) الهاء هنا عائدة على الملك العادل.

نحو ثمانمائة من مماليكه، وحاربوه وامتنعوا منه بصنعاء، فكسرهم وجلاهم عنها. فادعى الربوبية، وأمر أن يُكتب عنه ويُكاتب بذلك، وكُتب: "صدرت هذه المكاتبة من مقر الإلهية". ثم خاف [المعز إسماعيل] من الناس، فادعى الخلافة، وانتسب إلى بنى أمية، وجعل شعاره الخضرة. ولبس ثياب الخلافة، وعَمِل طول كل كُمّ خمسة وعشرين شبرا فى سعة ستة أشبار. وقَطع من الخطبة الدعاء لبنى العباس، وخطب لنفسه على منابر اليمن، وخطب هو بنفسه يوم الجمعة. فلما بلغ ذلك عمه العادل سير بالإنكار عليه، فلم يلتفت إلى قوله، وأضاف إلى ذلك سوء السيرة وقبح العقيدة. فثار عليه مماليك أبيه، لهوجه وسفكه الدماء، وحاربوه وقتلوه. ونصبوا رأسه على رمح، وداروا به بلاد اليمن، ونهبوا زبيد تسعة أيام. وكان قتله فى رابع عشر رجب، من سنة ثمان وتسعين. وقام من بعده أخوه الناصر أيوب — وقيل محمد، وترتب سيف الدين سنقر أتابك العساكر، ثم استقل سنقر بالسلطنة.

وفيها كان الغلاء بمصر، فلما طلع النيل رويت البلاد، وانحل السعر.

* * *

سنة تسع وتسعين وخمسمائة. فيها وصل الفرنج إلى عكا، وتحرك أهل صقلية لقصد ديار مصر. فقدم من حلب خمسمائة فارس ومائة راجل، نجدة إلى العادل وهو بدمشق. فورد كتاب ناصر الدين منكورس بن خَمارتِكين[1]، صاحب صهيون، يخبر بنزول صاحب الأرمن[2] على جسر الحديد[3] لحرب أنطاكية، وأن أكثر الفرنج عادوا من عكا إلى البحر، ولم يبق بها إلا من عجز عن السفر، وأن بها غلاء عظيما[4].

(١) مضبوط على منطوقه فى أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ٣٦٧، فى .Rec. Hist. Or. IV)، وقد ضبطه (Blochet: Op. cit. p. 275) بضم الخاء. (٢) صاحب الأرمن فى تلك السنة (Leon II)، أى ابن لاون الذى تقدم ذكره. راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Armenia). (٣) بلدة على نهر حماة أو العاصى، يمر بها النهر فى مجراه من حماة إلى شيزر، ثم إلى بحيرة أفامية، فدركوش بجسر الحديد، ومنها إلى أنطاكية (G.-Demombynes : Op. cit. p. 171). (٤) فى س عظيم.

وفيها نازل الأشرف موسى بن العادل ماردين مدة، ومعه الأفضل[(١)]. ثم تقرر الصلح على أن يحمل [ناصر الدين أرسلان الأرتق صاحب ماردين[(٢)]] للعادل مائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، ويخطب له بها، ويضرب السكة باسمه. فعاد الأشرف إلى حران. وفيها جهز العادل الملكَ المنصور بن العزيز [عثمان] من مصر إلى الرها بأمه وإخوته، خوفا من شيعته. وفيها شرع العادل فى بنـاء فَصِيل[(٣)] دائر على سـور دمشق بالحجر والجير (٤٤ب)، و [فى] تعميق الخندق وإجراء المـاء اليه. وقدم من عند العادل إلى القاهرة خلق لحفظ دمياط من الفرنج.

وفيها قصد الفرنج من طرابلس، ومن حصن الأكراد وغيرها، مدينة حماة. فركب إليهم المنصور فى ثالث رمضان، وقاتلهم فهزمهم، وأسر منهم وغنم، وعاد مظفرا. فورد الخبر بوصول الفرنج إلى عكا من البحر فى نحو سبعين ألفا، وأنهم يريدون الصلح مع الأرمن على حرب المسلمين. وخرج جمع من الإسبتار[(٤)] من حصن الأكراد والمرقب، فى شهر رمضان أيضا. فخرج إليهم المنصور، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأسر جماعة، وانهزم من بقى.

وفيها بلغ العادل أن الملك الأفضـل علىّ ابن أخيه كاتب الأمراء، فأمر ابنـه الأشرف [موسى] أن ينتزع منه رأس عين وسروج، وكتب إلى الظاهر أن يأخذ منه قلعة نجم، ففعلا ذلك، ولم يبق معـه سوى سميساط لا غير. فسير [الأفضل] أمه إلى العادل لتشفع فيـه، فقدمت عليه إلى دمشـق، فلم يقبل شفاعتها، وأعادها خائبـة. وكان هـذا عبرة، فإن

(١) فى س ومعه الافضل مده. (٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ١١٧؛ وكذلك Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 168). (٣) الفصيل حائط قصير دون الحصن، أو دون سور البلد. (محيط المحيط). ويقابله فى الفرنسية (Avant-Mur.)، وفى الإنجليزية (Barbecan) أو (Screen-wall). راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.). (٤) فى س الاستبار بتاء ثم باء، وتحريف الاسم هكذا شائع فى هـذا الجزء من السلوك، ولعله النطق الذى تواتر فى اللغة العربية، لخفته على اللسان. وسيصحح الى الرسم الوارد بالمتن بالباء أولا، بغير تنبيه، لقربه من الأصل منطوقة فى اللغات الأوربية.

صلاح الدين لما نازل الموصل خرجت إليه الأتابكيات[١]، ومنهن ابنة نور الدين محمود بن زنكى، يستغثن إليه فى أن يبقى الموصل على عز الدين مسعود، فلم يجبهن وردّهن خائبات . فعوقب [صلاح الدين] فى ولده الأفضل علىّ بمثل ذلك، وعادت أمه خائبة من عند العادل . ولما بلغ الأفضل امتناع عمه عن إجابة سؤال أمه قطع خطبته، ودعا للسلطان ركن الدين سليمان ابن قلج أرسلان السلجوقى، صاحب الروم .

وفيها زاد ماء النيل زيادة كثيرة، ورخصت الأسعار . وفيها انقضت دولة الهواشم بمكة[٢]، وقدم إليها حنظلة بن قتادة بن إدريس بن مطاعن من ينبع . فخرج منها مكثر بن عيسى بن فُلَيْتَة[٣] إلى نَخلة، فأقام بها ومات سنة ستمائة . ثم وصل محمد بن مكثر إلى مكة، فحاربوه وهزموه . ثم قدم قتادة أبو عزيز بن إدريس، فاستقر بمكة هو وولده من بعده أمراء إلى أعوام كثيرة .

+ + +

سنة ستمائة . فيها تقرر الصلح بين العادل وبين الفرنج، وانعقدت الهدنة بينهما، وتفرقت العساكر . وفيها نازل ابن لاون أنطاكية حتى هجم عليها، وحصر الإبرنس[٤] بقلعتها .

(١) يقصد المؤلف آل بيت نور الدين محمود بن زنكى . وعبارة المقريزى هنا أيضا تدل بوضوح على أنه اقتبس بحرية من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ١١٩) .

(٢) كان أمراء مكة، منذ سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٦ م)، من بيت أبى محمد جعفر بن موسى الحسنى الهاشمى . وكانوا تابعين للدولة الفاطمية، بشمال إفريقية ومصر، حتى استقل أبو الفتوح بن أبى محمد جعفر عنها لمدة قصيرة . ثم تغلب بنو فاتق على مكة، وانتزعوها من بنى موسى . وتلاهم فى إمارتها بيت حسنى هاشمى آخر سنة ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م)، وبقيت فى يد أمراء هذا البيت الأخير إلى سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م)، حين جاء قتادة بن إدريس المذكور فى المتن، وهو السبط العاشر من ولد موسى الحسنى الهاشمى المتقدم ذكره، والسادس عشر من على بن أبى طالب . هذا وقد بقيت مكة فى يد أمراء بنى قتادة حتى مجىء الوهابيين . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦٧ - ٢٧٥)؛ و (Hogarth: A Hist.of Arabia, pp.82 et seq.) . انظر أيضا (Enc. Isl. Arts. Mecca, Ḳatāda.) .

(٣) ضبط فى س بفتح الفاء فقط . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤ ص ، ٢٧١) .

(٤) فى س الابرنس . ويقصد المؤلف الأمير بيمند الرابع (Bohemond IV of Antioch)، وهو الذى حالف الظاهر صاحب حلب، كما فعل أبوه (Bohemond III) من قبله، ضد (Leon I) صاحب أرمينية . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. PP. 298—300) .

فخرج الظاهر من حلب نجدة له ، ففرّ ابن لاون . وفيها أوقع الأشرف [موسى بن العادل] بعسكر الموصل ، وهزمهم ونازلها ، و(١)بها السلطان نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود ابن عماد الدين زنكى أتابك بن آقسنقر . ونهب [الأشرف] البلاد نهبا قبيحا ، وبعث إلى أبيه العادل بالبشارة ، فاستعظم ذلك وما صدّقه ، وسُرَّ به سرورا كثيرا .

وفيها ملك الإفرنج مدينة القسطنطينية من الرّوم(٢) . وفيها تجمع الإفرنج بعكا من كل جهة (٤٥ ا) يريدون أخذ بيت المقـــدس . فخرج العادل من دمشق ، وكتب إلى سائر الممـالك يطلب النجدات ، فنزل قريبا من [جبـــل] الطُّور(٣) على مسافة يسيرة من عكا . وعسكر الفرنج بمرج عكا ، وأغاروا على كَفْركَنَّا(٤) ، وأسروا من كان هناك ، وسبوا ونهبوا . وانقضت هـــذه السنة والأمر على ذلك .

وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلْج(٥) أرســلان بن سليمان بن قطلومش بن بيغو أرسلان بن سلجوق صاحب الروم ، فى سادس ذى القعدة . وقام من بعده ابنه عز الدين قلج أرسلان ، وكان صغيرا ، فلم يستتب أمره . وفيها عاد الأشرف [موسى] ابن العادل إلى حران بأمر أبيه . وهم العادل برحيله إلى مصر ، فقدم عليه ابنه الأشرف ، ثم عاد إلى حران .

وفيها خرج أسطول الفرنج إلى مصر ، وعبر النيل من جهة رشيد . فوصل إلى فوّة ، وأقام خمسة أيام ينهب(٦) ، والعسكر تجاهه ليس له إليه وصول ، لعدم [وجود] الأسطول [العادلى] . وفيها

---

(١) فى س وفيها . وقد صححت حتى لا يحدث لبس مثل الذى وقع فيه كاتب نسخة ب (٣٥ ب) ، وأدّى إلى اضطراب فى ترجمته (Blochet: Op. cit P. 282. N. 2) .

(٢) لم يعن المقريزى بذكر تفاصيل هـــذا الحادث التاريخى العظيم ، كما فعـــل ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٢٤ — ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط فى س ، ويسمى أيضا جبل طابور ، وهو أقرب إلى طبرية وحطين منه إلى عكا . (انظر ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٥٥٧ ؛ و G.-Demombynes: Op. cit. p. 124. N. 4) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلد بين طبرية والناصرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٩٠) ؛ وكذلك (G.-Demombynes: Op. cit. pp. 123, 124) .

(٥) فى س قلبح فى الموضعين .

(٦) عبارة المقريزى هنا ، وفيما يلى عن الزلزال (سطر ٢ بالصفحة التالية) منقولة بنصها تقريبا عن ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٣٠) .

أوقع الأمير شرف[1] الدين قراقوش [التقوى] المظفرى ببلاد المغرب ، فقُبض عليه وحمل إلى ابن عبد المؤمن . وفيها كانت زلزلة عظيمة ، عمت أكثر أرض مصر والشام ، والجزيرة وبلاد الروم ، وصقلية وقبرس ، والموصل والعراق ، وبلغت إلى سبتة ببلاد المغرب . وفيها ملك الفرنج قسطنطينية من أيدى الروم ، فلم يزالوا بها حتى استعادها الروم منهم ، فى سنة ستين وستمائة .

* * *

سنة إحدى وستمائة . فيها تم الصلح بين الملك العادل وبين الفرنج ، وتقررت الهدنة مدة ، وشرطوا أن تكون يافا لهم ، مع مناصفات لد والرملة ، فأجابهم [العادل] إلى ذلك . وتفرقت العساكر ، وسار العادل إلى القاهرة ، فنزل بدار الوزارة ، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل ، وشرع فى ترتيب أمور مصر . وفيها مات الأمير عز الدين إبراهيم بن الجُوَيْنِى[2] ، والى القاهرة ، فى سلخ جمادى الأولى . وفيها ورد الخبر بأن الفرنج أخذوا القسطنطينية[3] من الروم . [وفيها] غارت الفرنج الإسبتارية على حماة فى جمع كبير ، لأن هدنتهم انقضت ، فقتلوا ونهبوا ، ثم عادوا . وفيها قدم الملك المنصور صاحب حماة على عمه الملك العادل بالقاهرة ، فسر به وأكرمه ، ثم رجع بعد أيام . وفيها أغار الفرنج على حمص ، وقتلوا وأسروا . فخرج العادل من القاهرة إلى بركة الجب ، ثم عاد . وفيها أغار فرنج طرابلس على جبلة واللاذقية ، وقتلوا عدة من المسلمين ، وغنموا وسبوا شيئا كثيرا .

وفيها أخذ الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر يُغْرِى الملك العادل بأبى محمد مختار ابن أبى محمد بن مختار ، المعروف بابن قاضى دارا ، وزير الملك الكامل ، حتى نقم عليه وطلبه . فخاف عليه الكامل ، وأخرجه (٤٥ ب) من مصر — ومعه ابناه فخر الدين وشهاب الدين — إلى حلب ، فأكرمهم الملك الظاهر . ثم ورد عليه من الكامل كتاب يستدعيه إلى مصر ،

---

(١) فى س بها الدين .

(٢) بغير ضبط فى س ، والجوينى نسبة إلى بلدة جوين ، وهى إحدى ثلاث بلاد بهذا الاسم . انظر (Enc. Isl. Arts. Djuwain & Djunwaini) .

(٣) فى س قسطنطيه ، ويوجد فى (Blochet: Op. cit. p. 84. N. 1.) ترجمة من الفارسية لما جاء فى كتاب جامع التواريخ لرشيد الدين عن فتح الفرنج اللاتين للقسطنطينية .

فخرج ونزل بعين المباركة ظاهر حلب . فلما كان فى ليلة الرابع والعشرين(١) من ذى القعـدة ، أحاط به نحو الخمســين فارسا فى أثناء الليل ، وأيقظوه وقتلوه . ثم قالوا لغلمانه : " احفظوا أموالكم ، فمـا كان لنا غرض ســواه " . فبلغ ذلك الظاهر فارتاع له ، وركب بنفسه حتى شاهده ، وبعث الرجال فى سائر الطرقات ، فلم يقف لقتلتــه(٢) على خبر ، فكانت هـذه القضية من أعجب ما سمع .

سنة اثنتين وستمائة(٣) . فيها قُبض على الأسعد أبى المكارم بن مهدى بن مماتى صاحب الديوان ، فى جمادى الآخرة ، وعُلق برجليه . وفيها قُبض على الأمير عبد الكريم(٤) ، أخى القاضى الفاضل ، وأُخذ خطه بعشرين ألف دينار وأدّاها . وأُخذ من(٥) [شرف الدين إبراهيم بن

---

(١) فى س الرابع عشرين . (٢) فى س لقتله . (٣) أخبار هذه السنة كلها مكتوبة على هامش الصفحة ، ويسبقها هامش مشطوب نصه : " وفيها مات ركن الدين سليمان بن قلج ارسلان بن مسعود صاحب قونية ، وملك بعده ابنه قلج ارسلان بن سليمان" . وقد تقدّمت هذه الوفاة فى ص١٦٣ (٤) فى س الاثير .

(٥) موضع ما بين القوسين بياض فى س . وكان ابن قريش هذا كاتب ديوان الانشاء ، ويغلب أنه كان موسرا ، فقد ابتنى بالقاهرة فندقا عرف باسمه ، وعن هذا الفندق وبانيه كتب المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص٩٣) فى باب ذكر الخانات والفنادق ، مانصه : "فندق ابن قريش ، استجدّه القاضى شرف الدين إبراهيم بن قريش ، كاتب الإنشاء ... [واسمه] إبراهيم بن عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش ، أبو إسحاق القرشى المخزومى المصرى ، الكاتب شرف الدين ، أحد الكتّاب المجيدين خطا وإنشاء . خدم فى دولة الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وفى دولة ابنه الملك الكامل ، بديوان الانشاء . وسمع الحديث بمكة ومصر ، وحدّث . وكانت ولادته بالقـاهرة ، فى أول يوم من ذى القعـدة ، سـنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وقرأ القرآن وحفظ كثيرا من كتاب المهذب فى الفقه ، على مذهب الإمام الشافعى . وبرع فى الأدب ، وكتب بخطه مايزيد على أربعمائة مجلد . ومات فى الخـامس والعشرين من جمادى الأولى ، سنة ثلاث وأربعين وستمائة" .

هذا وقد تقدّم ذكر والد شرف الدين هـذا فى ص ٨٥ ، واسمه القاضى المرتضى عبد الرحمن بن قريش ، وهو الذى تولى قراءة العهد الذى أوصى به السلطان صلاح الدين يوسف فى حياته لآل بيته ، سنة٥٧٩ هـ . وكان للقاضى المرتضى قيسارية بالقاهرة ، عرفت باسمه ، كما عرف الفندق الذى بناه ابنه من بعده بفندق ابن قريش . وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٨٦) تلك القيسارية ، فى باب ذكر القياسر ، وترجم أيضا لصاحبها ، بما نصه : "هذه القيسارية فى صدر سوق الجملون الكبير ، بجوار باب سوق الوراقين . ويسلك إليها من الجملون ومن سوق الأخفافيين ، المسلوك إليه من البندقانيين . وبعضها الآن سكن الأرمنيين (كذا) ، وبعضها سكن البزازين . قال ابن عبد الظاهر : =

عبد الرحمن] بن قريش خمسة آلاف دينار . وفيها باشر التاج ...[١] بن الكعكى ديوان الجيش . وفيهـا ضَرب الصاحب صفى الدين عبد الله بن علىّ بن شكر الفقيه نصرا فى وجهه بالدواة ، فأدماه[٢] .

* * *

سنة ثلاث وستمـائة . فيها كثرت الغارات من الفرنج على البلاد ، فخرج الملك العادل إلى العباسة ، ثم أَغَذَّ[٣] السـير إلى دمشق . ثم برز منها إلى حمص ، فأتتـه العساكر من كل ناحية ، فاجتمع عنـده عشرات آلاف . وأشاع أنه يريد طرابلس ، فلما انقضى شهر رمضان توجه إلى ناحيـة حصن الأكراد فنازله ، وأسر خمسمائة رجل وغنم . وافتتح قلعـة أخرى . ثم نازل طرابلس ، وعاثت العساكر فى قـراها ، ولم يزل على ذلك إلى أيام من ذى الحجـة . ثم عاد إلى حمص — وقد ضجرت العساكر — فبعث صاحب طرابلس يلتمس الصلح ، وسيّر مالا وثلاثمـائة أسير وعدّة هدايا ، فانعقد الصلح فى آخر ذى الحجة .

وفيها حدثت وحشة بين العادل و بين ابن أخيه الملك الظاهر ، صاحب حلب . فتردّدت بينهما الرسل حتى زالت ، وحلف كل منهما لصاحبه . وكثر فى هذه [السنة] تخريب العادل لقلاع الفرنج وحصونهم . وفيها عَزل الصاحبُ ابن شكر البدرَ ابن الأبيض قاضى العسكر ، وقرّر مكانه نجم الدين خليل بن المصمودى الحموى . وفيها[٤] قدم مانع بن سليمان شيخ آل دُعَيج[٥] من غُزَيَّة[٦] ، التى فيما بين بغداد ومكة[٧] .

= استجدها القاضى المرتضى بن قريش ، فى الأيام الناصرية الصلاحية ، وكان مكانها إسطبلا (...) ... وهوالقاضى المرتضى صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتّاب الانشاء فى أيام السـلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . قتل شهيدا على عكا ، فى يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى ، سنة ست وثمانين وخمسمائة . ودفن بالقدس ، ومولده فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة . وسمع السلفى وغيره" . (١) بياض فى س .

(٢) يظهر أن قلة أخبار هذه السنة فى السلوك راجع إلى وقوع معظم حوادثها بحلب ، فلتراجع فى تاريخ حلب لابن العديم . انظر (Blochet : Op. cit. p. 286. N. 1.) . (٣) أغذ السير ، وفى السير : أسرع . (محيط المحيط) .

(٤ و ٧) العبارة الواردة بين الرقمين موجـودة بهامش الصفحة فى س ، وهى فى ب (٥٥ أ) آخر أخبار السنة خطأ ، وليست فى (Blochet : Op. cit. P. 287) بتاتا . (٥) بغير ضبط فى س ، أنظر قاموس المحيط .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى فى الطريق بين مكة والكوفة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٠٠ ، ٩٢٧) .

(٧) انظر حاشية ٤ .

ومات [فى هــذه السنة] عبد الرحمن بن ســلامة قاضى الإسكندرية بها، يوم الأربعاء ثامن صفر . وفيها نفى الأشرف ...(١) بن عثمان الأعور، واعتقل أخوه علم الملك . و[فيهــا] ماتت أم الملك المعظم بن العــادل بدمشق ، فى يوم الجمعة عشرى ربيــع الأوّل ، ودفنت بسفح قاسيون .

* * *

سنة أربع وستمائة . فيها عاد الملك العادل إلى دمشق، بعد انعقاد الصلح بينه و بين ملك الفرنج بطرابلس. و [فيها] بَعَث [العادل] أستاداره الأمير أَلْدَكُز(٢) العادلى، وقاضى العسكر نجم الدين خليل المصمودى، إلى الخليفة فى طلب التشريف والتقليد، بولاية مصر والشام والشرق وخلاط . فلمــا وصلا إلى بغــداد أكرمهما الخليفة النــاصر لدين الله، وأحسن إليهما وأجابهما، وسيَّر الشيخ شهاب الدين أبا عمر بن محمد بن عبــد الله بن محمد بن عمُّويَه السُّهْرَوَرْدِىّ(٣)، ومعــه التشريف الخليفتى(٤) والتقليد، وخلعة للصاحب صفى الدين بن شكر، وخلع(٥) لأولاد العــادل : وهم الملك (٦) (٤٦ أ) المعظم، والملك الأشرف، والملك الكامل . فعندما قارب [الشيخ أبو حفص] حلب خرج الملك الظاهر بعساكره إلى لقائه، وأكرم نزله . وفى ثالث يوم من قــدومه أُمر بكرسى فنصب له، وجلس عليه للوعظ . وجلس الظاهر ومعه الأعيان، فصدع بالوعظ حتى وجلت القلوب ودمعت العيون . وأخبر [الشيخ] فى وعظه بأن الخليفة أطلق — فى بغــداد وغيرها — من المؤن والضرائب، ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار . ثم سار من حلب، ومعه

(١) بياض فى س . (٢) مضبوطة هكذا فى س .

(٣) نسبة إلى سهرورد، وهو بلد بأرض الجبال، جنوبى السلطانية، على الطريق بين همذان وزنجان . وقد خرج من هذا البلد جماعة من العلماء والصالحين، ومنهم أبو حفص عمر المذكور هنا، وكنيته فى ياقوت (معجم البلدان، ج٣، ص ٢٠٣ — ٢٠٤) أبو نصر . وهو صوفى شافعى المذهب، وكان إمام وقتــه لسانا وحالا . وقد تقدّم عند أمير المؤمنين الناصر لدين الله، حتى جعله مقدّما على شيوخ بغداد، وأرسله فى الرسائل العظيمة . وقد صنف السهروردى هذا كتابا سماه عوارف المعارف . انظر (Enc. Isl. Arts. Suhraward & Suhrawardi) . (٤) اصطلح عامة المؤرخين على هذه النسبة رغم خطئها . (٥) فى س وخلعا . (٦) توجد بين ملتصق الصفحتين ٤٥ ب، ٤٦ أ ورقة، بها نبــذة طويلة، يرجح أنها من أخبار حصار الفرنج دمياط سنة ٦١٥ هـ، وقد لصقت بين هاتين الصفحتين خطأ، فأرجئ إيراد ما بها إلى موضعه المناسب .

القاضي بهاء الدين بن شدّاد ، وقد دفع إليه الظاهر ثلاثة آلاف دينار ، برسم النِّثار[1] إذا لبس عمه العادل خلعة الخليفة . وبعث الملك المنصور من حماة أيضا مبلغا للنثار . وخرج العسكر من دمشق إلى لقائه ، ثم خرج العادل بابنيه الأشرف موسى والمعظم عيسى ، وبرز سائر الناس لمشاهدة ذلك ، فكان يوما مشهودا . ولما دخل [الشيخ أبو حفص دمشق] جلس العادل في دار رضوان ، وأفيضت عليه الخلع ، وهي جبة أطلس أسود واسعة الكم بطراز مذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب بجوهر ثقيل . وقُلد [العادل أيضا] بسيف محلى ، جميع قرابه من ذهب . وركِب حصانا أشهب بركب ذهب ، ونُشر على رأسه علم أسود ، مكتوب فيه بالبياض ألقاب الخليفة ، مركب في قصبة ذهب . وتقدم القاضي ابن شداد فنثر الذهب ، وقدم له خمسين خلعة ، ونثرت رسل الملوك بعده . ثم لبس الأشرف والمعظم خلعتيهما ، وهما عمامة سوداء ، وثوب أسود واسع الكم . ثم خُلع على الصاحب صفي الدين بن شكر الوزير كذلك . وركب العادل — ومعه ابناه ووزيره — بالخلع الخليفتية ، وقد زينت البلد . ثم عادوا إلى القلعة ، واستمرت زينة البلد ثمانية أيام . وقرأ التقليدَ الصاحب صفي الدين على كرسي ، وخوطب العادل فيه بشاهنشاه ، ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين . وكان الوزير في حال قراءته قائما على الكرسي ، والعادل وسائر الناس أيضا قيام ، إجلالا للخليفة . ثم سار الشهاب السهروردي إلى مصر ، فأفاض على الملك الكامل الخلعة الخليفتية ، وجرى من الرسم كما وقع بدمشق ، ثم عاد إلى بغداد .

وفيها أمر العادل بعمارة قلعة دمشق ، وفرق أبراجها على الملوك ، فعمروها من أموالهم . وفيها اتسعت مملكة العادل ، فلما تمهدت له الأمور قسم مملكته بين أولاده . فأعطى ابنه الملك الكامل ناصر الدين (٤٦ ب) محمدا[2] مملكة مصر ، ورتب عنده القاضي الأعز فخر الدين مقدام بن شكر . وأعطى ابنه المعظم شرف الدين عيسى من العريش إلى حمص ، وأدخل

---

(١) النثار ، بكسر النون ، ما ينثر في العرس للحاضرين ؛ وبضم النون ، ما ينتثر من المائدة فيؤكل للثواب . (المحيط) .

(٢) في س محمد .

فى ولايته بلاد الساحل الإسلامية، و بلاد الغور وأرض فلسطين، والقدس والكرك، والشوبك وصرخد . وأعطى ابنه الملك الأشرف مظفر الدين موسى البلاد الشرقية، وهى الرها وما معها من حران وغيرها . وأعطى ابنـه الملك الأوحد نجم الدين أيوب خِلاط وميافارقين وتلك النواحى . وكان الأوحد قد بعث إليه أهل خِلاط ليملكها، فسار من ميافارقين وملكها .

وفيها كَمَّل الملك الكامل محمـد بناء قلعة الجبـل، وتحوّل إليها من دار الوزارة بالقاهرة، فكان أوّل من سكنها من ملوك مصر . ونُقل إليها أولاد [الخليفة] العاضد [الفاطمى] وأقاربه، فى بيت [على] صورة حبس، فأقاموا به إلى أن حُوِّلوا منه، فى سنة إحدى وسبعين وستمائة .[1]

وفيها[2] توفى الأمير داود بن العاضـد فى محبسه، وكانت الإسماعيلية تزعم أن العاضـد عهد إليـه، وأنه الإمام من بعده . فاستأذن أصحابُه [الملكَ] الكامل أن ينوحوا عليـه ويندبوه، فأذن لهم . فبرزت[3] النساء حاسرات، والرجال فى ثياب الصوف والشـعر . وأخذوا فى ندبه والنياحة عليه، واجتمع معهم من كان فى الاستتار من دعاتهم . فلما تكامل جمعهم أرسـل الكامل إليهم طائفة من الأجناد نهبوا ما عليهم، وقبضوا على المعروفين منهم . فملأ بهم السجون، واستصفى أموال ذوى اليسار منهم . ففر من بقى، و زال من حينئذ أمر الإسماعيلية من ديار مصر، ولم يجسر أحد بعدها [أن] يتظاهر بمذهبهم .

* * *

سنة خمس وستمائة . فيها سار الكُرْج[4] ونهبوا أعمال خلاط، وأسروا وغنموا، فلم يجسر الأوحد أن يخرج إليهم من مدينة خلاط . فلما بلغ ذلك الملك العادل أخذ فى التجهيز لحرب

(١) قبالة هذه الفقرة، بهامش الصفحة فى س، ما نصه : "انظر اوّل من سكن قلعة الجبل من الملوك، ومدّة اعتقال [بقايا] الفاطميين، "وهو بخط مخالف . (٢) بقية أخبار هذه السنة واردة بورقة منفصلة بين ملتصق الصفحتين ٤٦ ب، ٤٧ أ تحت عنوان نصه : "سنة اربع وستمائه" . (٣) فى س فبرز .

(٤) فى س الكرح، بغير ضبط . والكرج أمة من المسيحيين، مساكنها بجبال القوقاز (جبال قبق)، المجاورة لتفليس . وكانت جهة أبخاز معقلهم، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥ هـ، حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٧٨، ٨٥٨) . ولم يزالوا متملكين على تفليس، وأبخاز معقلهم، حتى أغار عليهم خوارزم شاه جلال الدين، سنة ٦٢١ هـ، فاستولى على تفليس منهم .

(Allen : History Of The Georgian, People. pp. 85 - 112).

الكرج، وسار الأشرف من دمشق يريد بلاده بالشرق . وفيها قتل الملك معز الدين سنجرشاه ابن غازى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى، صاحب الجزيرة . قتله ابنه محمود، وقام فى الملك من بعده . وفيها بعث الأمير سيف الدين سنقر، أتابك اليمن ، عشرة آلاف دينار مصرية إلى الملك العادل، عليها اسمه .

وفيها مات القاضى مكين الدين مطهر بن حمدان، بقلعة بصرى فى شهر رجب . ومات هلال الدولة وشاب بن رَزِين(١)، والى القاهرة . وعُزِل الأمير سيف الدين علىّ بن كَهْدَان(٢) عن ولاية مصر، وعُزِل الأسعد بن حمدان عن الشرقية، و باشرها خشخاش الوراق . وفيها توفى قاضى القضاة صدر الدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس المارانى، يوم الأربعاء خامس رجب . و[كان قد] قدم مصر فى رابع رجب، سنة خمس وستين وخمسمائة، فتكون مدّة مقامه بديار مصر أربعين سنة .

* * *

سنة ست وستمائة . فيها خرج العادل من دمشق يريد محاربة الكرج، ومعه الملوك [من بنى أيوب : وهم الملك المنصور صاحب حماة، والملك المجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك . وأرسل إليه الملك الظاهر غازى صاحب حلب جيشا](٣) . فنزل [العادل] حران ، وأتته النجدات [مع ولديه الملك الأوحد صاحب خلاط وميافارقين، والملك الأشرف موسى ، وغيرهما](٤) . فاستولى على نصيبين، ونازل سنجار، و بها الملك قطب الدين محمد بن زنكى . فكانت بينهما عدّة وقائع ، بعث فى أثنائها صاحب سنجار إلى الخليفة الناصر [لدين الله] ، وإلى الملك [الظاهر غازى صاحب حلب ، وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب الروم ، وغيرهما](٥) يستنجد بهم على العادل . فمال إليه عدّة من الملوك ، عونا له على العادل ، ففارقه

---

(١) مضبوط على سمى له فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٤٥) . (٢) مضبوط على منطوقه فى أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١٢٤ ، ١٦٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.) .

(٣ و ٤) راجع (Blochet: Op. cit. p. 292. N. I.) ؛ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ١٨٧–١٨٩) . (٥) فى س الملوك . وقد أضيف ما بين القوسين من المرجعين المذكورين بالحاشية السابقة .

عدة ممن كان معه على حصار سـنجار، ودسوا إلى جماعة من أصحابه الدسائس، ففسـدت أحواله. وقدم عليه رسول الخليفة، [وهو هبة الله بن المبارك بن الضحاك] [(١)] يأمره بالرحيل، فقال له عن الإمام [الخليفة] الناصر: " قال لك بحياتى يا خليلى ارحل ". فعاد [العادل] إلى حران، وتفرقت العساكر عنه.

و [فيها] حصلت بين العـادل وبين [وزيره] الصاحب ابن شكر منافرة، أوجبت غضبه وسفره فى البرية. فركب المنصور صاحب حماة، ونخـر الدين جهاركس صاحب بانياس، حتى لحقاه فى رأس عين، وقدما به على العادل فرضى عنه، ومن حينئذ انحطت منزلته.

وفيها مات الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب برأس عين. وقيل إنه سُمّ، فحمل إلى حلب ليدفن بهـا. وفيها عاد الملك العادل إلى دمشق. وفيهـا ولى الأمير المكرم بن اللطى قوص، فى ذى القعدة.

* * *

سنة سبع وستمـائة. فيها ظفر الملك الأوحد بن العادل بملك الكرج، (٤٧ ا) ففدى نفسه منه بمائة ألف دينار، وخمسة آلاف أسير من المسلمين. وأن يلتزم الصلح ثلاثين سـنة، وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها. فأطلقه [الأوحد]، ورُدَّت [(٢)] على المسلمين عدة قلاع.

وفيها مات الأوحد، ومَلَكَ خلاط بعده أخوه الأشرف. وفيها تحرك الفرنج إلى الساحل، واجتمعوا فى عكا. فخرج الملك العادل من دمشق، فوقع بينه وبينهم صلح. وأخذ العادل فى عمارة قلعة الطور بالقرب من عكا، وسار إلى الكرك، فأقام بها أياما. ثم رحل إلى مصر، فدخل القاهرة، ونزل بدار الوزارة.

وفيها مات الأمير فخر الدين جهاركس. وفيها تحرك الفرنج [ثانيا]، فتجهز العادل للسفر إلى الشام. وفيها كُفت يد الصاحب صفى الدين بن شكر عن العمل. وفيها مات السلطان

---

(١) رافق ابن المبارك إلى الملك العادل رسول ثان، أتى معه من بغداد، وهو الأمير آق باش، أحد خواص مماليك الخليفة الناصر لدين الله. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ١٨٩).

(٢) فى س وردد.

نور الدين أرسلان شاه بن السلطان مسعود الأتابكى صاحب الموصل ، فى شهر رجب . وكانت مدّة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهرا . وقام من بعده ابنه الملك القاهر عز الدين مسعود، وقام بتدبيره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك، مملوك أبيه .

وفيها شرب ملوك الأطراف كأس الفتوّة(١) للخليفة الناصر، ولبسوا سراويل الفتوة [أيضا]. فوردت عليهم الرسل بذلك، ليكون انتماؤهم له . وأمر كلُّ ملك أن يسق رعيته و يلبسهم ، لتنتمى كل رعية إلى ملكها ، ففعلوا ذلك . وأحضر كل ملك قضاة مملكته ، وفقهاءها وأمراءها وأكابرها، وألبس كلا منهم له ، وسقاه كأس الفتوة . وكان الخلفية الناصر مغرما بهذا الأمر، وأَمَرَ الملوكَ أيضا أن تنتسب إليه فى رمى البندق(٢)، وتجعله قدوتها فيه .

(١) فى س الفتوة بغير ضبط ، وتكررت بنقط الفاء فقط ، وبغير ضبط أيضا . وبهامش الصفحة العبارة الآتية : " انظر كاس الفتوة وسراويلها" ، بخط مخالف . وبالحاشية التالية شرح لذلك كله . (٢) يذكر زيدان (تاريخ التمدن الإسلامى ، ج ٥ ، ص ١٥٣ — ١٥٤) نبذة عن البندق ، فى باب ألعاب الخلفاء وملاهيهم ، وقد أشار إلى أنه اقتبسها من عدّة مراجع موثوق بها ، كالمقريزى وابن الأثير وابن خلدون وأبى الفداء وأبى الفرج صاحب الأغانى ، ونصه : "البندق كرات تصنع من الطين ، أو الحجارة أو الرصاص ، أو غيرها ، وهى فارسية بلفظها واستعمالها ، و يسمونها أيضا الجلاهقات ، جمع جلاهق ... واقتبس العرب هذه اللعبة فى أواخر أيام [الخليفة] عثمان بن عفان ، وعدّوا ظهورها فى المدينة منكرا ، ثم ألفوها حتى شكلوا فرقا من الجند ترمى بها ... ... وكان رماة البندق فى العصر العباسى طائفة كبيرة ، يخرجون إلى ضواحى المدن ، يتسابقون فى رميه على الطير ونحوه ، و يعدون ذلك من قبيل الفتوة . و يغلب فى رماة البندق أن يشتغلوا بتطيير الحمام ، ولهم زى خاص ، يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ، و يسمونها سراويل الفتوة . وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها فى أواخر الدولة ، حتى إذا أفضت الخلافة إلى الناصر لدين الله العباسى ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ ، جعل لرمى البندق شأنا ، لأنه كان ولعا به ، وباللعب بالحمام المناسيب . وكان يلبس سراويل الفتوة ، وقد بلغ من رغبته فى ذلك ، حتى جعل رمى البندق فنا ، لا يتعطاه إلا الذين يشربون كأس الفتوة و يلبسون سراويلها ، على أن يكون بينهم روابط وثيقة ، نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل [الخليفة] نفسه رئيس هذه الطائفة ، يدخل فيها من شاء ، و يحرم من شاء . وكتب [الناصر] سنة ٦٠٧ هـ إلى ملوك الأطراف ، الذين يعترفون بخلافته ، أن يشربوا له كأس الفتوة ، و يلبسوا سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه برمى البندق ، و يجعلوه قدوتهم فيه ، فأجابوه إلى ذلك . فمن أراد الانتظام فى سلك هذه الطائفة يأتى بغداد ، فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه . فبطلت الفتوة فى البلاد جميعها ، إلا من لبس سراويلها منه ؛ ومنع الرمى بالبندق ، إلا من ينتسب إليه . فأجابه الناس فى العراق وغيره ، إلا إنسانا [واحدا] اسمه ابن السفت من بغداد ، [فإنه] هرب إلى الشام . فأرسل الخليفة إليه يرغبه ببذل المال ، ليرمى عنه و ينتسب فى الرمى إليه ، فلم يفعل . فلامه بعضهم على ذلك ، فقال : يكفينى فخرا أنه ليس فى الدنيا أحد لا يرمى للخليفة إلا أنا . =

وفيها قدم إلى القاهرة كليام(١) الفرنجى الجنوى تاجرا، فاتصل بالملك العادل، وأهدى إليه نفائس . فأعجب [العادل] به، وأمره بملازمته . وكان [كليام] فى باطن الأمر عَيناً للفرنج، يطالعهم بالأحوال، فقيل هذا للعادل، فلم يلتفت إلى ما قيل عنه .

ومات فيها يوسف بن الأسعد بن مماتى، فى رابع بن جمادى الأولى، بالقاهرة . ومات الأمير سياروخ(٢)، فى خامس عشر رجب .

وفيها قتل غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان [السلجوقى] صاحب قونية، [وقد حدث ذلك فى أوائل السنة، وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم، عند بلدة خونا من أعمال آذر بيجان] . وكان قد [غلبه(٣) أخوه ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان على قونيـــة، وألجأه إلى الفرار منهـــا سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة . ثم مات ركن الدين سليمان ســـنة ستمائة، وقام بعده فى قونيـــة ابنه قلج أرسلان بن ركن الدين . وعند ذلك] عاد كيخسرو [إلى بلاده]، بعد فراره إلى حلب [وغيرها] . وملك [كيخسرو] قونيـــة ثانيا، بعد خطوب جرت له، وقـــد قبض أهلها على

= وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الإسلامية الوسطى، بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أقواس البندق . ثم تفننوا فى رمى البندق بالمزاريق أو الأنابيب، بضغط الهواء من مؤخر الأنبوب، بمـا يشبه (١٥٤) أنابيب البنادق . فلما اخترعوا البارود، صاروا يرمون البنـــدق به من تلك الأنابيب، وسموا هذه الآلة بندقية، نسبة إليه . ومن قبيل رمى البندق رمى النشاب فى البرجاس، وهو غرض فى الهواء، أو على رأس رمح أو نحوه، يطلبون إصابته بالنشاب . وهى لعبة فارسية، أول من لعبها من الخلفاء الرشيد". راجع أيضا ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢٨٦ — ٢٨٧؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣١ — ٣٢؛ و (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا ويرى (Blochet : Op. cit. P. 297. N. 1.) أن النظام الذى ابتدعه الخليفة الناصر العباسى أصل هيئات وجمعيات الفروسية الأوربية فى القرون الوسطى .

(١) كذا فى س بغير ضبط، والراجح أن هذا الرسم تعريب اسم (Guillaume)، على أنه يوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥، فى Rec. Hist. Or. I.)، تحت ســـنة ٥١٨ هـ، أى فى أوائل أيام الحروب الصليبية بالشام، أن جوسلين كورتنيه، صاحب تل باشر والرها فيما بعد، وقع أسيرا فى يد المسلمين، "وأسر معه ابن خالته كليام"، واسمه الصحيح (Galeran) . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) . (٢) كذا فى س وبغير ضبط، وترجمه (Blochet : Op. cit. p. 297) إلى (Shâhrokh) . (٣) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة لتوضيح العبارة، وذلك بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I.) .

قلج أرسلان بن ركن الدين . ثم قُتل كيخسرو بعد ما استفحل أمره، وولى ابنه [عز الدين] كيكاوس بن غياث الدين .

وفيها كانت وقعة بين حاج العراق وبين أهل مكة بمنى، قُتل فيها عبد للشريف قتادة اسمه بلال، فقيل لها سنة بلال .

* * *

سنة ثمان وستمائة . فيها قبض الملك العادل على الأمير عز الدين (١) أسامة الصلاحى، نائب كوكب وعجلون ؛ واعتقله وأخذ جميع ماله، وسيره إلى الكرك، فاعتقل فيها هو وولده . وتسلم الملك المعظم قلعة كوكب وعجلون، وهدم قلعة كوكب، وعفى أثرها . وفيها توجه الملك العادل إلى الإسكندرية، لكشف أحوالها . وفيها قدم بهاء الدين بن (٤٧ ب) شدّاد (٢) من حلب إلى القاهرة، يخطب صفية [خاتون] ابنة العادل شقيقة الكامل، لابن عمها الظاهر . فأجيب إلى ذلك، وعاد مكرما . وفيها ماتت أم الملك الكامل، يوم الأحد خامس عشرى صفر، فدفنت عند قبر الإمام الشافعى . ورتب ابنها عند قبرها القراء والصدقات، وأجرى الماء من بركة الحبش (٣) إلى قبة الشافعى، ولم يكن قبل ذلك . فنقل الناس أبنية القرافة الكبرى إلى هذه القرافة من حينئذ، وعمروها .

(١) فى س سامة .

(٢) كان ابن شداد وزير الظاهر صاحب حلب منذ سنة ٥٩١ هـ ، وهو القاضى بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المشهور، صاحب كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية . ويوجد ابن شداد آخر، وهو مؤرخ أيضا، واسمه عز الدين أبو عبد الله محمد، توفى سنة ٦٨٤ هـ ، وله كتاب العلائق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة . (Enc. Isl. Art. Ibn Shaddād) .

(٣) كانت هذه البركة تعرف أولا ببركة المغافر وببركة حمير، وعرفت أيضا بإصطبل قرة . وهى من أشهر برك مصر فى القرون الوسطى، وموقعها بظاهر مدينة الفسطاط من قبليها، فيما بين الجبل والنيل . وكانت أرضها مواتا، فزرعها قرة بن شريك العبسى أمير مصر (٩١ — ٩٦ هـ) من قبل الأمويين، وأحياها وغرسها قصبا، ولهذا عرفت بإصطبل قرة، كما عرفت بإصطبل قامش أيضا . ثم تغيرت عليها الأسماء، حتى صارت تعرف ببركة الحبش، وجعلت وقفا على الطالبيين، بنى على بن أبى طالب، فاشتهرت ببركة الأشراف . وكانت بركة الحبش من أكبر متنزهات مصر، يهرع إليها الناس فى أعياد النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين . وقد بنى عندها الخليفة الآمر الفاطمى منظرة، سميت بمنظرة بركة الحبش . وكان ماء النيل يدخل إلى هذه البركة من خليج بنى وائل، مما يلى باب مصر من الجهة القبلية، وهو الذى عرف أيام المقريزى بباب القنطرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٨٦؛ ج ٢، ص ١٥٢ — ١٥٧) .

وفيها خرج العادل من القاهرة، فسار إلى دمشق، و برز منها يريد الجزيرة، فوصل إليها ورتب أحوالها، وعاد إلى دمشق، ومعه كليام الفرنجى .

وفيها انقضى أمر الطائفة الصلاحية، بانقضاء الأمير قراجا، والأمير [عز الدين] أسامة[١]، والأمير [فخر الدين] جهاركس ، وصفت حصونهم للعادل وابنـه المعظم . وفيها نقل أولاد العاضد [الفاطمى] وأقارب إلى قلعة الجبل، فى يوم الخميس ثانى عشرى رمضان. وتولى وضع القيود فى أرجلهم الأمير فخر الدين ألطونبا[٢] أبو شعرة بن الدويك، والى القاهرة . و[كانت] عدّتهم ثلاثة وستون نفسا .

وفيهـا كانت بمصر زلزلة شديدة، هدمت عدّة دور بالقـاهرة ومصر . وزلزت الكرك والشوبك، فمات تحت الهدم خلق كثير، وسقط عدّة من أبراج قلعتها . ورؤى بدمشق دخان نازل من السماء إلى الأرض، فيما بين المغرب والعشاء، عند أرض قصر عاتكة .

وفيهـا[٣] مات الموفق بن أبى الكرم التنيسى ، فى يوم الأحد سابع عشر ربيع الأول . ومات ظافر بن الأرسوفى بمصر، فى سلخ رجب . وفيها اجتمع بالإسكندرية[٤] ثلاثة آلاف تاجر، وملكان من الفرنج . فسار العادل وقبض [على] التجار، وأخذ أموالهم، وسجن الملكين .

وفيها[٥]، أعنى سنة ثمـان وستمائة، كانت فتنة بين حاج العراق وبين أهل مكة ، سببها أن حشيشيا جاء لقتل الشريف قتـادة ، فقتل شريفا اسمه أبو هارون عزيز، ظنًّا منـه أنه قتادة . فثارت الفتنة، وانهزم أمير الحـاج ، ونهب الحاج عن آخره . وفر من مكة من بمكة

---

(١) فى س سامه بفتح السين والميم . (٢) كذا فى س، وبغير ضـبط . وليس بالمراجع المتداولة بالحواشى ما يشـير بشىء يذكر إلى هـذا الأمير، على أنه يوجد فى ابن شداد (النوادر السلطانية ، ص ٣٠٦ ، فى Rec. Hist. Or. III.) من اسمه الطن با ، وقد صححه الناشر إلى التون بغا مع التشكك ، وعرفه بأنه كان عتيقا للملك العادل . (٣) يلى هذه الكلمة العبارة الآتية ، وهى مشطوبة ، لتدارك المؤلف ذكرها قبل ذلك (ص ١٧٤)، ونصها : " ماتت ام الملك الكامل بالقلعة فى يوم الاحد خامس عشرى صفر" . (٤) فى س سكـندريه .

(٥) العبارة التالية ، إلى آخر حوادث السنة ، موجودة على ورقة منفصـلة ، بين الصفحتين (٤٨ ب، ٤٩ أ). وواضح أن هذه الورقة لصقت هناك خطأ ، إذ بالعبارة الدليل الكافى لبرهنة ذلك .

من نواب الخليفـة، ومن المجاورين . فبعث الشريف قتادة ولده راجح بن قتادة إلى الخليفة يعتذر له عما جرى، فقبل عذره، وعفى عنه .

* * *

سنة تسع وستمائة . فيها نزل العادل بعساكره حول قلعة الطور، وأحضر الصناع من كل بلد، واستعمل جميع أمراء العسكر فى البناء ونقل الحجارة . فكان فى البناء خمسمائة بنّاء، سوى الفعلة والنحاتين . وما زال مقيما حتى كملت . وفيها قدم ابن شدّاد من حلب إلى دمشق بمـال كثير وخِلَع، برسم عقد نكاح صفية [خاتون] ابنة العادل، على ابن عمها الظاهر صاحب حلب، فخرج إلى لقائه عامة الأمراء والأعيان . وعقـد النكاح فى المحرم، على مبلغ خمسين ألف دينـار . ونُثِر النثار على من حضر بقلعـة دمشـق ، وذلك فى المحرم . ثم جُهِّزت إليه بحلب فى تجمل عظيم، من جملة قمـاش[1] وآلات ومصاغ، يحمـله خمسون بغلا، ومائة بُخْتِى[2]، وثلاثمـائة جمل؛ وجوارى فى المحامل، على مائة جمـل، منهن مائة مغنيـة يلعبن بأنواع الملهى، ومائة جارية يعملن أنواع الصنائع البديعة . فكان دخولهـا إلى حلب يوما عظيما . وقدّم لهـا الظاهر تقادم : منها خمسـة[3] عقود جوهر بمـائة وخمسين ألف درهم، وعصابة جوهر لا نظير لهـا، وعشر قلائد عنبر مذهب، وخمس قلائد بغير ذهب، ومائة وسـبعون[4] قطعة من ذهب وفضة، وعشرون تختا من ثياب، وعشرون[5] جارية، وعشرة خدّام .

وفيها عزل الهمام بن هلال الدولة من ولاية القاهرة، وولى فخر الدين الطُّونبا[6] أبو شعرة مملوك المهرانى فى ... ...[7] [وفيها] تغير الملك العادل على الوزير صفى الدين بن شكر، ورفع يده من الوزارة، وأبقى عليه ماله وأخرجه إلى آمد، فلم يزل بها حتى مات العادل . وفيهـا فوّض العادل تدبير مصر، والنظر فى أموالها ومصالحها، إلى ولده الملك الكامل؛ فرتب [الكامل]

(١) فى س حمله . (٢) البختى الواحد من الإبل الخراسانية، وهى جمال ضخمة، ذات سنامين وو بر أسود، تستعمل فى أسفار الشتاء، والجمع بخاتى وبخت . (محيط المحيط؛ Lane : Lexicon) . (٣) فى س خمس . (٤) فى س وسبعين . (٥) فى س وعسرين، فى الموضعين . أما التخت فقماش يصان فيه الثياب . (محيط المحيط) . (٦) انظر ص ١٧٥، حاشية ٢ . (٧) بياض فى س .

القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، ناظر الدولتين . وفيها خرج العادل من الشـام يريد خلاط، (٤٨ ا) فسار إليها ودخلها، وفيها ابنه الأشرف، [و] قد استولى على مابها من الأموال.(١)

* * *

سنة عشر وستمائة . فيها تخوّف الظاهر صـاحب حلب من عمه العادل، وأخذ فى الاسـتعداد، ثم تراسلا حتى سكن الحال . وفيهـا وَلَدَت صفية ابنـة العادل لابن عمها الظاهر مولودا، سمّاه محمدا، ولقبه بالملك العزيز غياث الدين، وذلك فى خامس ذى الحجة . فزينت حلب، واحتفل الظاهر احتفالا زائدا؛ وأمر فصـيغ له من الذهب والفضـة جميع الصور والأشكال ما وُزن بالقناطير، وصاغ [له] عشرة مُهُود من ذهب وفضة، سوى ما عمل من الأبنوس والصندل والعود وغيره . ونُسِج للصبى ثلاث فرجيات من لؤلؤ، فى كل فرجية أربعون(٢) حبة ياقوت ولَعْـل(٣) وزُمُرُّد؛ ودرعان وخوذتان(٤) وبَرْكُسْتُوان(٥)، كل ذلك من لؤلؤ؛ وثلاثة(٦) سروج مجوهرة، فى كل سرج عدّة قطع من جوهر رائع وياقوت وزمرد؛ وثلاثةسيوف، علائقها(٧) وقَبَضَاتها من ذهب مرصع بأنواع الجواهر؛ وعدّة رماح من ذهب، أسنتها جوهر .

وفيها حج الظاهر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب، فلما قارب مكة صدّه قصاد الملك الكامل محمد بن العادل عن الحج، وقالوا : "إنما جئتَ لأخذ بلاد اليمن"؛

(١) توجد قبالة هذا اللفظ، بهامش الصفحة فى س، العبارة التالية : "وفيها مات شهاب الدين بن ظهير الدين... ابن العطار بالقاهرة فى رجب . ومات الملك الاوحد [أيوب] بخلاط" . ويظهر أن المقـريزى أخطأ مكان هاتين الوفاتين، لأن الأوحد نجم الدين أيوب بن العـادل، وصاحب خلاط، توفى سنة ٦٠٧ هـ . (راجع أبا الفـداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ٨٦، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ و (Lane-Poole: Saladin. Table II, in pocket) .

(٢) فى س اربعين .

(٣) اللعل هو البلخش، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٢، ص ٩٩ — ١٠٠) . انظر ص ٥٠، حاشية ٨، وكذلك (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٤) فى س وذرعين وخوذتين .

(٥) فى س وبرك اسطوان، بفتحة على الواو فقط . والبركستوان غاشـية الحصان المزركشة، وتكون لغير الخيول، كالفيـلة . (Dozy: Supp. Dict. Ar.) . ويقابل هـذا فى الإنجليزية (Caparison)، وفى الفرنسية (Caparaçon)، وأصلهما من اللفظ الإسبانى (Caparazon)، كما جاء فى المعاجم الإنجليزية والفرنسية .

(٦) فى س ملث .

(٧) فى س ملاث .

فقال [الظاهر خضر] : "يا قوم ! قيدونى ، ودعونى أقضى مناسك الحج" . فقالوا : "ليس معنا مرسوم إلا بردك" . فردّ إلى الشام ، من غير أن يحج ، فتألم الناس لذلك .

وفيها مات الأمير فخر الدين إسماعيل والى مصر بها . وفيها دخل بنو مَرين إحدى قبائل زناتة من القفر ، ونهبوا أعمال المغرب ، وحاربوا الموحدين وهزموهم ، وكان أمير بنى مرين إذ ذاك عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة بن محمد بن ورصيص بن فكُوس (١) بن كوماط بن مرين .

* * *

[تمة] (٢) سنة عشر وستمائة . فيها حُفر خندق مدينة حلب ، فوجد فيه بلاطة صَوّان ، عليها أحرف مكتوبة بالقلم السريانى ، فترجموه بالعربية ، فإذا هو : "لما كان العالم محدثا دل أن له محدثا ، لا كَهُوَ (٣)" ، وكتب [تحت هذه الأحرف] : "لخمسة آلاف من السنين خلون من الأسطوان الصّغير (٤)" . فقُلعت البلاطة ، فوجد تحتها تسع عشرة قطعة من ذهب وفضة وصورى ، على هيئة اللِّبِن (٥) ، فاعتبرت فكان الحاصل منها ذهبا ثلاثة وستين (٦) رطلا بالحلبى ، وكان منها فضة أربعة وعشرين (٧) رطلا ، وحلقة ذهب وزنها رطلان ونصف رطل ، وصورى (٨) عشرة أرطال ونصف ، فكان الجميع زنته قنطار واحد بالحلبى (٩) .

---

(١) كذا فى س .

(٢) العبارة الآتية إلى آخر السنة ، واردة فى ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين (٤٧ ب ، ٤٨ أ) . وقد حذف كاتب النسخة ب (٥٨ ب) العنوان كعادته ، واكتفى بكتابة "وفيها حفر خندق ..." .

(٣) فى س : محدث .

(٤) أشكلت هذه الكلمة على المقريزى ، فكتب فوقها "كذا" ، وضبط كلمة الصغير بفتح الصاد ، ولم يستطع الناشر أن يصل إلى توضيحها من المراجع والوسائل التى تيسرت له . هذا وقد ترجم (Blochet: Op. cit. p. 304) العبارة كلها إلى : "Ces inscriptions étaient datées de cinq mille ans a très peu de chose prés".

(٥) كذا فى س ، وقد كتب المقريزى فوق هذا اللفظ أيضا "كذا" .

(٦) فى س وستون .

(٧) فى س وعشرون .

(٨) توجد "كذا" فوق هذا اللفظ أيضا .

(٩) وردت أخبار هذا الحفر ، وظهور البلاطة ، وما تحتها من معدن ، فى العينى (عقد الجمان ، ج ١ ، قسم ٢ ، ص ٣٤٣) ، وفى ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٩) دون أية إشارة إلى لفظى "الأسطوان" و"صورى" ، ولا إلى الكتابة السريانية .

* * *

سنة إحدى عشرة وستمائة . فيها فتر الملك المنصور بن العزيز [عثمان بن صلاح الدين يوسف] من اعتقال عم أبيــه الملك العــادل، ولحق بالظاهر صاحب حلب، [ولاذ به] هو وإخوته، فأكرمهــم [الظاهر] . وفيهــا تجمــع فرنج قبرس وعكا وطرابلس وأنطاكية، و[انضم إليهم] عسكر ابن لاون ملك الأرمن، لقصد بلاد المسلمين، فخافهم المسلمون . وكان أوّل ما بدأوا به بلاد الإسماعيلية، فنازلوا [قلعة] الخَوابِى(١)، ثم ساروا عنها إلى أنطاكية . وفيها ظفر السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقى، صاحب بلاد الروم، بالأَشْكَرِى(٢) ملك الروم . وفيها خرج الملك العادل من الشام يريد مصر، فنزل فى القــاهرة بدار

(١) بغير ضبط فى س، ويقع هذا الحصن الجبلى على خمسة عشر ميلا من أنطرسوس . (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 485, & Index).

(٢) يطلق المتأخرون من مؤرخى المسلمين هــذا الاسم على أباطرة الدولة البيزنطية، منذ أوائل القرن السابع الهجرى . ذلك أنه لمــا استولت جيوش الفرنج اللاتين، الذين عرفت حملتهم بالحرب الصليبية الرابعة، على القسطنطينية ســنة ٦٠٠ هـ (انظــر ص ١٦٣)، خلعوا إمبراطورها (Alexius III)، وأقاموا بدله واحدا منهــم، واسمه (Baldwin, Count of Flanders) . ثم ما لبث الوطنيــون من البيزنطيين أن وجدوا فى (Theodore Lascaris I)، زوج ابنــة الإمبراطور المخلوع، زعيما لهم فى حركة إخراج اللاتين، فتوجوه إمبراطورا بمدينــة نيقية سنة ١٢٠٦ م . وحكم "الأشكرى" (Lascaris) هذا إمبراطورية الروم بنيقية، حتى وفاته ســنة ١٢٢١م . (Camb. Med. Hist. IV. pp. 423, 425, 427) . وهذا الإمبراطور هو الذى قتل السلطان غياث الدين كيخسرو السلجوقى، سنة ١٢١٠م . (انظر ص ١٧٣) . ثم ظفر به عز الدين كيكاوس بن كيخسرو، كما فى المتن، وكان قد وقع فى يد التركمان، فأسلموه إليه . (أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر، ص ٨٦، ٨٧، فى Rec. Hist. Or. I). وخلف الأشكرى هذا فى إمبراطورية نيقية زوج ابنته، واسمه (John III.)، حتى توفى سنة ١٢٥٤ م . ثم حكم الإمبراطورية بعد هذا الإمبراطور ولده الوحيد (Theodore Lascaris II.)، حتى توفى سنة ١٢٥٨م . وقد ترك هذا الأمبراطور الثالث ولدا قاصرا على عرش نيقية، واسمه (John IV)، فخلعه وصيه (Michael Paleologus)، وأعلن نفسه إمبراطورا سنة ١٢٥٩ م، باسم (Michael VIII)، وهو الذى وصفه القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٢) بأنه "بطريق من بطارقة الروم، شهرته لشكرى، واسمه ميخائيل"، يقصد بذلك أنه كان (Patricius)، أى من الأشراف، وليس من رجال الدين . (انظر محيط المحيط؛ و Camb. Med. Hist. IV. pp. 503, 504, 507-509) . وهذا الإمبراطور الجديد هو الذى استرجع القسطنطينية، سنة ١٢٦١ م، من الفرنج اللاتين، وبسط سلطان الدولة البيزنطية عليها، كما كان من قبل . (Op. Cit. IV. pp. 509-516). ويلاحظ أن ميخائيل هذا ليس من بيت الأشكرى الأوّل، بل هو سليل أسرة أخرى بالقسطنطينية، غير أن اسم الأشكرى غلب على أباطرة الدولة البيزنطية عامة . (القلقشندى : نفس المرجع والجزء والصفحة) . انظر أيضا ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ١٢٦) .

الوزارة، واستمر ابنه الكامل بقلعة الجبل . و[أمر العادل أن يقيم] معه كلِّيام[1] [الفرنجى الجنوى] بدار الوزارة . وفيها ورد الخبر بموت سنقر أتابك اليمن ، واستقر بعـده الملك الناصر أيوب [صاحب اليمن فى ملكه]، وقام بأتابكيته غازى .

وفيها شرع الملك العادل فى تبليط جامع بنى أمية [بدمشق]، وكانت أرضه حُفَرًا وجُورًا[2]، وتولى العمل الوزير صفى الدين بن شكر. وفيها تعامل أهل دمشق وغيرها بالقراطيس[3] السود العادلية، ثم بطلت بعد ذلك، وفَنِيت. وفيها تولى سهم الدين عيسى القاهرة فى شوّال، وتولى جمال الدين ابن أبى المنصور وكالة بيت المـال [بهـا] . ومات سعد بن سعد الدين بن كوجيا[4] فى عشرى ربيع الآخر .

وفيها حج الملك المعظم عيسى بن العادل من دمشـق، وحج معه الشريف سالم بن قاسم بن مهنا الحسينى أمير المدينة النبوية . فعزم الشريف قتادة أمير مكة على مسكه، فلم يتمكن منه، فعاد [الشريف سالم] صحبـة الملك المعظم إلى دمشـق . فبعثه المعظم على عسكر إلى مكة ، فمات فى الطريق قبل وصوله مكة، فقام جماز بن قاسم — وهو ابن أخيه — بتدبير الجيش . فجمع قتادة، وسار إلى ينبع ولقيه، فهُزم قتادة .

* * *

سنة اثنتى عشرة وستمائة . فيها نازل الفرنج [قلعة] الخوابى، وحاربوا الباطنية، ثم صالحوهم . وفيها سير الخليفة الناصر [لدين الله] كتابه الذى ألفـه وسماه روح العارفين[5]، إلى الشام ومصر وغيرها ، ليُسْمَع . وفيها ملك الفرنج أَنْطَالِية[6] ، وقتلوا من بها من المسلمين .

(١) فى س "ومعه كلتام (كذا) بدار الوزارة" وقد أضيف ما بين القوسين لتوضيح العبارة . (انظر ص ١٧٣).

(٢) ضبط المقريزى الحرف الأول من الكلمتين بالضم . وفى محيط المحيط : الجورة هى الحفرة، وما انخفض من الأرض، والجمع جور .

(٣) معنى القراطيس هنا القضبان من الفضة، (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، غير أن وصفها بالسواد يدل على أنها من نحاس . (انظر ص ٩٩، حاشية ١) .

(٤) كذا فى س، وبغير ضبط، وهو مترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 306) إلى (Koūkiā) .

(٥) كتاب فى الحديث . انظر (Blochet : Op. cit. p. 306 .N. 3) .

(٦) فى س انطاكية، وبغير ضبط . وخطأ المقريزى واضح من بقية العبارة، بالصفحة التالية . وأنطالية ثغر حصين، بآسيا الصغرى، على شاطئ البحر الأبيض المتوسط . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٣٨٨) .

وكانت بيد الملك [غياث الدين كيخسرو، منذ فتحها سنة اثنتين وستمائة، إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستمائة. ثم استردها منهم الملك] الغالب عز الدين كيكاوس [سنة ثلاث عشرة وستمائة، بعد أن بقيت بأيدى الفرنج تلك المدة. وفى هذه السـنة أيضا سار عز الدين إلى بلاد الأرمن، وحاصر قلعة جَابان، وهزم عندها جيوش الأرمن، ورجع إلى قيصرية قبل أن يستولى على قلعة جابان. ثم طلب الأرمن الصلح، وأجابهم إليه عز الدين] (١)، (٤٨ ب) فأخذ [فى مقابل الصلح] من بلاد الأرمن قلعة لؤلؤة [ولَوْ زاد].

وفيها مات الملك المعظم أبو الحسن على بن الخليفة الناصر [لدين الله، وهو أصغر أولاده] (٢)، فلما قدم نعيه على ملوك الأطراف جلسوا فى العزاء، لابسين شعار الحزن، خدمة للخليفة.

وفيها سير الملك الكامل ابنه الملك المسعود صلاح الدين يوسف إلى اليمن، فخرج فى جيش كثيف من مصر، وسار إلى بلاد اليمن، فاستولى على معاقلها (٣)، وظفر بصاحبها الملك سليمان شاه ابن سـعد الدين شاهنشاه بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب. فسـيره تحت الحوطة إلى مصر، فأقام بالقاهرة إلى سـنة سبع وأربعين وستمائة، فخرج إلى المنصورة غازيا، فقتل شهيدا. ودانت بلاد اليمن للملك المسعود.

وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى القاهرة، فلما قرئ عليه ما أُنفق على الملك المسعود فى خروجه إلى اليمن استكثره. وأنكر [العادل] خروجه، فإنه كان بغير أمره. وأَمَرَ [العادل] بالقاضى الأعز فضُرب وقيد، واعتقل بقلعة الجزيرة، ثم حمله إلى قلعة بصرى، فسجنه بها. وفيها

(١) أضيف ما بين الأقواس للتوضيح، وهذا بعد مراجعة (Enc. Isl. Arts. Kaikaus I.& Kaikhusraw. I.). وقد ضبطت الأعلام، التى استلزمتها العبارة، على منطوقها فى هاتين المقالتين.

(٢) أفرد ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢٠١ — ٢٠٢) فصلا لوفاة أبى الحسن هذا، قال فيه إن "الخليفة حزن عليه حزنا لم يسمع بمثله، حتى أنه أرسل إلى أصحاب الأطراف ينهاهم عن إنفاذ رسول إليه يعزيه بولده، ولم يقرأ كتابا ولا سمع رسالة، وانقطع وخلا بهمومه وأحزانه، و رؤى عليه من الحزن والجزع ما لم يسمع بمثله ... وسمع الصراخ العظيم من داخل التربة، فقيل إن ذلك صوت الخليفة ...".

(٣) فى س معاقله.

نقل العادل أمواله وذخائره وأولاده إلى الكرك . وفيها وعك بدنه . وفيها أبطل(١) الملك العادل ضمان الخمر والقيان(٢) .

وفيها مات تقى الدين اللّر(٣) ، شيخ الخانقاه(٤) [الصلاحية ، دار] سعيد السعداء ، فى المحرم . وفيها

(١ و ٢) ما بين الرقين جزء من هامش بالصفحة فى س ، وبقيته تكرار لما سبق وروده عما حدث بين الشريف قتادة أمير مكة ، والشريف سالم أمير المدينة النبوية ، بجذافيره (انظر ص ١٨٠) . على أن هذا التكرار لم يخل من المنفعة ، فقد قوبلت العبارة السابقة عليه ، وهذا نصه : "وفيها حاصر الشريف قتادة أمير مكة المدينة النبوية ، وقطع نخلا كثيرا . وكان أمير المدينة النبوية عند الملك العادل بالشام ، فبعث معه جيشا ، وسار فات فى الطريق . فقام بأمر الجيش ابن أخيه جماز بن قاسم ، وسار إلى مكة ، وقاتل أهلها ، وهزم قتادة إلى الينبع ، وغنم شيئا كثيرا ، وتبع قتادة ، وحصره بينبع" .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو اسم يطلق على شعبة من الأكراد ، ويسمون اللورية . (ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٩ ، ص ٢٧٣ ، ٣٥٦ ؛ ج ١١ ، ص ١٥٧) .

(٤) فى س شيخ خانكاه . والخانقاه والرباط والزاوية ، وجمعها خوانق ورباطات وزوايا ، معاهد دينية إسلامية ، للرجال والنساء . وهى كالأديرة فى المسيحية ، ويطلق الرباط أحيانا على الدير المسيحى ، كما يقال للراهب المسيحى رابط . غير أن تلك المعاهد الإسلامية لم تكن يوما للرهبنة ، وإنما أنشئت لإيواء المنقطعين للعلم ، والزهاد والعباد . وكان غرض منشئيها والمتصدقين عليها فعل الخير واكتساب الثواب . ولفظ الرباط والزاوية عربيان ، فأصل الرباط مكان إقامة الحامية المرابطة عند ثغور العدو ، كأن الزاوية فى الأصل الركن من الدار ، أو المكان عامة . (محيط المحيط) . أما الخانقاه ففارسية ، ومعناها البيت ، وهى حديثة فى الإسلام ، — فى حدود الأربعمائة — وجعلت لتخلى الصوفية فيها للعبادة والتصوف . وأول من أحدث الخوانق فى مصر السلطان صلاح الدين الأيوبى ، وكانت الخانقاه التى أنشأها دارا تعرف أولا بدار سعيد السعداء ، نسبة إلى الأستاذ قنبر سعيد السعداء ، عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى . "وكانت هذه الدار مقابل دار الوزارة ، فلما كانت وزارة العادل رزيك بن الصالح طلائع بن رزيك سكنها ، وفتح من دار الوزارة إليها سردابا تحت الأرض ، يمر فيه . ثم سكنها الوزير شاور بن مجير فى أيام وزارته ، ثم ابنه الكامل . فلما استبد الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى بملك مصر ، بعد موت الخليفة العاضد ، وغير رسوم الدولة الفاطمية ، ووضع من قصر الخلافة ، وأسكن فيه أمراء دولته الأكراد ، عمل هذه الدار برسم الفقهاء الصوفية ، الواردين من البلاد الشاسعة . ووقفها عليهم فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وولى عليهم شيخا ، ووقف عليهم بستان الحبانية ، بجوار بركة الفيل خارج القاهرة ، وقيسارية الشراب بالقاهرة ، وناحية دهمرو (كذا) من البهنساوية . وشرط أن من مات من الصوفية وترك عشرين دينارا فما دونها ، كانت للفقراء ، ولا يتعرض لها الديوان السلطانى ؛ ومن أراد منهم السفر يعطى تسفيره . ورتب للصوفية فى كل يوم طعاما ولحما وخبزا ، وبنى لهم حماما بجوارهم ، فكانت أول خانكاه (كذا) عملت بديار بمصر . وعرفت بدويرة الصوفية ، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر ذلك بعده ... ..." (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤١٤ — ٤١٦ ؛ و G.-Demombynes: Op. cit. Pref. pp. LXXVIII et seq. & p. 34).

مات ابن سُورُوس(١) بن أبى غالب بطريق(٢) اليعاقبة ، فى يوم الخميس عيد الغطاس ، سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للشهداء — وهو الرابع عشر من رمضان — وله فى البطركية مدّة ست وعشرين سنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما . وكان أولا يتجر إلى بلاد اليمن ، فغرق [مرة] ، وجاء الخبر بأن لم يسلم سوى بحشاشته . وكان لأولاد الجَبَّاب(٣) معه مال ، فأيسوا منه . فلما اجتمع بهم أعلمهم أن مالهم سَلِم ، فإنه كان قد عمله فى مقاير من خشب ، وسمرها فى المركب ، وأحضره إليهم . فتميز عنــدهم بذلك ، حتى مات البترك مرقص بن زُرْعة(٤) . فتحدّث ابن سوروس(٥) فى البتركية للقس أبى ياسر ، وكان مقيما بالعَدَوِيّة(٦) . فحسن له بنو الجباب(٧) أن يقوم هو بأمر البتركية ، فتحدّث فى ذلك ، وزكوه فتولى . وكان معه يومئذ سبعة عشر ألف دينار مصرية ، فرّقها فى مدّة بطركيته على الفقراء ، وأبطل الدِّيَّارِيّة(٨) ، ومنع الشَّرْطُونِيّة(٩) ، ولم يأكل فى ولايته كلها لأحد من النصارى خبزا ، ولا قبل لصغير ولا لكبير منهم هدية . وكان القس داود بن يوحنا — المعروف بابن لَقْلَق(١٠) ، من أهل الفيوم — ملازما للشيخ نَشْء(١١) الخلافة أبى الفتوح بن الميقاط ، كاتب الجيوش

(١) فى س اساسوس ، وبغير ضبط ، واسمه أبو الماجد بن أبى غالب بن سوروس ، واتخــذ اسم حنا السادس لما تولى البطرقية ، سنة ٥٨٥ هـ .
(Butcher : Church of Egypt. II. pp.115. 120, 123 : Blochet : Op. cit. p. 308. N. 1.)

(٢) كذا فى س ، ويلاحظ أنها واردة ، وكذلك لفظ البطرقيــة المشتق منها ، بالتاء بدل الطاء ، فى نفس الصفحة فى س . (انظر سطر ٦ ، ٧ هنا) .

(٣) بغير ضبط فى س ، انظر (Blochet: Op. cit. p. 308. N. 1.) .

(٤) بغير ضبط فى س .

(٥) فى س اساسوس . انظر بعض أخباره فى (Butcher: Op. cit. II. pp.87-89 et seq.) .

(٦) قرية جنوبى الفسطاط ، على شاطئ النيل ، بها دير اسمه دير الطين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦٨٦ ؛ ج ٣ ، ص ٦٢٤) .

(٧) فى س الجناب .

(٨) نسبة إلى الديار ، وهو رئيس الدير ، ويظهر أن البطريق كان يفرض على الأديرة ضريبة بهذا الاسم . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥٠١) .

(٩) بغير ضبط فى س ، وفى محيط المحيط : " شرطن الأسقف الراهب ، أى رسمه قسا ، بوضع يده عليه . وهو مأخوذ من الشرطونية ، معرب خرتونيا باليونانية ، ومعناها وضع اليد ... ... " . ويتضح من قول المقريزى أن الشرطونية كانت ما يدفعه القس للكنيسة عند ترسيمه . (Dozy Supp. Dict. Ar.) .

(١٠) بغير ضبط فى س . انظر (Butcher : Op. cit. II. p. 124) .

(١١) فى س نشو .

العادلية ، و [كان][(١)] يسافر معه ويصلى به . فلما (٤٩ ا) مات ابن سوروس سأل أبو الفتوح الملك العادل أن يولى القس داود البترَكية ، فأجابه وكتب له توقيعا بذلك ، من غير أن يعلم الملك الكامل . فلم يعجب بعض النصارى ولاية داود[(٢)] ، وقام منهم رجل يعرف بالأسعد ابن صدقة ، كاتب دار التُّفَّاح[(٣)] بمصر ، وجمع كثيرا من النصارى العصارين بمصر ، وطلع فى الليلة التى وقع الاتفاق على تقدمة القس داود فى صبيحتها ، ومعه الجمع إلى تحت قلعة الجبل . واستغاثوا بالملك الكامل ، وقالوا : "إن هذا الذى يريد أبو الفتوح يعمله بطركا بغير أمرك ما يصلح . ونحن فى شريعتنا لا يقدم البطرك إلا باتفاق الجمهور عليه" . فخرج إليهم الأمر [من عند الكامل] بتطييب قلوبهم . وفى سَحَر النهار ركب القس داود ، ومعه الأساقفة — وعالم كبير من النصارى — ليقدموه بكنيسة المُعَلَّقة بمصر ، وكان ذلك يوم الأحد عيد الزيتونة . فركب الملك الكامل إلى أبيه ، وعرَّفه أن النصارى لم يتفقوا على بطركية داود ، ولا يجوز عندهم تقدمته إلا باتفاق جمهورهم . فسير الملك العادل إلى الأساقفة ليحضرهم حتى يتحقق الأمر ، فوافاهم الرسل مع القس داود ، عند زقاق كنيسة الحَمْراء[(٤)] . فأحضرت الأساقفة إلى الملك العادل ، ودخل داود إلى كنيسة الحمراء ، وانحل أمره ، وخلا الكرسى من بطريق ، تسع عشرة سنة ومائة وستين يوما[(٥)] .

---

(١) فى س اثناسوس . (٢) لم يترجم (Blochet: Op. cit. p. 309). ما يلى هذا من أخبار تلك الأزمة فى الكنيسة القبطية ، على أنها موجودة فى ب (٥٩ أ) . (٣) فى س الفاح بغير ضبط ، وكانت دار التفاح فندقا تجاه باب زويلة ، يرد إليه الفواكه على اختلاف أصنافها ، مما ينبت فى بساتين ضواحى القاهرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٣) . وكان بدمشق أيضا دار مشابهة لها ، اسمها دار البطيخ والفاكهة (G.-Demombynes : Op. cit. p. 151).

(٤) موضع هذه الكنيسة بخط قناطر السباع ، فيما بين القاهرة ومصر ، وقد بنيت سنة ١١٧ هـ ، وكانت تعرف أولا بكنيسة بومنا (يوحنا؟) . وكانت معظمة عند النصارى ، لانقطاع كثير من المتعبدين بها ، ويحمل إليها نصارى مصر سائر ما يحتاج إليه ، ويبعثون إليها بالنذور الجليلة والصدقات الكثيرة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢ ، ٥) . (٥) وافق الملك الكامل أخيرا على اعتلاء القس داود كرسى البطرقية ، وتسمى باسم كيرلس الثالث (Cyril III). انظر (Butcher : Op. cit. II. pp. 123-126, 131-132, 135-138, 139 et seq) .

وفى جمادى الأولى صرف الملك العادل زكىّ الدين الطاهر بن محيى الدين محمــد بن على القرشى عن قضاء دمشق ؛ وأُلزم جمال الدين عبــد الصمد بن محمد بن أبى الفضل الحَرَسْتَانى[١] بولاية القضاء [بها]، وله [من العمر] اثنتان وتسعون سنة . وفيها قدم إلى القاهرة من الشرق رجل معه حمار، له سنام كسنام الجمل، يرقص ويدور، ويستجيب له إذا دعاه .

* * *

ســنة ثلاث عشرة وستّمائة . فيها ولى بهاء الدين ... ...[٢] بن الجميزى خطابة القاهرة، فى ثالث عشر المحرم . وولى أبو الطاهر المحلى خطابة مصر، فى ثانى صفر . [وفيها] سار الملك العادل من القاهرة إلى الإسكندرية، فرتب أمورها وعاد . وفيها قدم البهاء بن شداد برسالة الظاهر من حلب إلى العادل، وهو بالقاهرة . فرض الظاهر فى خامس عشرى جمادى الأولى، ومات فى ليـلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة، عن أربع وأربعين سنة وأشهر، ومدّة تملكه بحلب إحدى وثلاثون[٣] سنة . وكان قد سمع الحديث وأسمعه بحلب، وكان سفاكا للدماء، شهما يقظا صاحب سياسة، وله شعر حسن . وقام من بعده ابنه الملك العزيز غياث الدين محمد، وعمره يومئذ سنتان وأشهر[٤]، بعهد [من] أبيه . وكان الملك العادل — عند مامرض الظاهر — رتب بريدا من مصر إلى حلب يطالعه بخبره، فأتاه نعيه قبــل كل أحد . فأحضر [الملك العادل] ابن شــدّاد، وقال له : " ياقاضى ! صاحبك قد مات فى ساعة كذا من يوم كذا" . فعاد ابن شدّاد إلى (٤٩ ب) حلب .

وفيها كان ابتــداء خروج التتر من بلادهم الجوانية إلى بلاد العجم . وفيها قدم الشريف قاسم من المدينة النبوية ، فأغار على جدة، فخرج إليــه الشريف قتادة أمير مكة ، وكسره يوم عيد النحر .

(١) نسبة إلى حرستا ، وهى قرية كبيرة ، فى وسط بساتين دمشق ، على مسافة فرسخ منها ، فى الطريق إلى حمص . وكان الشيخ عبد الصمد "ثقة محتاطا ، وكان فيه عسر وملل ، فى الحديث والحكومة ، ومولده سنة ٥٢٠" . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤١) . انظر ص ١٨٨ . (٢) بياض فى س . (٣) فى س ثلاثين .

(٤) فى س وأشهرا .

* * *

سـنة أربع عشرة وستمائة . فيها وصل الشيخ صدر الدين بن حَمُّوَيْه[(١)] من بغداد، بجواب رسالة الملك العادل إلى الخليفة الناصر [لدين الله] .

وفيها تتابعت أمداد الفرنج فى البحر من روما وغيرها إلى عكا[(٢)]، وفيهم عدة من ملوكهم — وقد نقضوا الصلح، وعزموا على أخذ القدس، وسائر بلاد الساحل وغيرها — فعظم جمعهم. فخرج العادل من مصر بعساكره، وسار إلى لد . فبرز الفرنج من عكا فى خلق عظيم، فرحل العادل على نابلس، ونزل فى بيسان . فقال له ابنه المعظم لما رحل : "إلى أين يا به؟" . فسبّه [العادل بالعجمية]، وقال : " [بمن أقاتل ؟] أقطعتَ الشام مماليك، وتركتَ من ينفعنى من أبناء الناس [الذين يرجعون إلى الأصول"، وذكر كلاما فى هذا المعنى[(٣)]] .

فقصده الفرنج، فلم يطق لقاءهم، لقلة من معه . فاندفع من بين أيديهم على عَقَبَة فِيق[(٤)]، وكتب بتحصين دمشق، ونَقْل الغلات من دَارِيا[(٥)] إلى القلعة، وإرسال الماء على أراضى داريا وقَصْرِ حَجَّاج[(٦)] والشَّاغُور[(٧)] . ففزع الناس وابتهلوا إلى الله، وكثر ضجيجهم بالجامع . فزحف الفرنج على بيسان — وقد اطمأن أهلها بنزول العادل عليهم — فانتهبوها وسائر أعمالها، وبذلوا فى أهلها السيف، وأسروا

---

(١) فى س صد . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٩٥ ، ١١٤ فى Rec. Hist. Or. I. ؛ وكذلك (Blochet : Op. cit. p. 311. N. 2. .

(٢) يوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 311. N. 3.) تفصيلات من كتاب مفرج الكروب لابن واصل، عن تلك الحملة الصليبية، وهى المعروفة فى التاريخ بالخامسة .

(٣) أضيف ما بين الأقواس من أبى شامة (كتاب الروضتين، ص ١٦٢، فى Rec. Hist. Or. V.) .

(٤) بغير ضبط فى س، وفيق بلدة (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٩٣٢) بين دمشق وطبرية، ويقال لها أفيق أيضا . (Blochet : Op. cit. p. 312.. N. 3.) .

(٥) بغير ضبط فى س، وهى قرية كبيرة من قرى دمشق بالغوطة، والنسبة إليها دارانى، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٣٦) .

(٦) يطلق لفظ قصر، مضافا لاسم آخر، على كثير من المواضع حول دمشق، مثل قصر أم الحاكم، وقصر بنى عامر . ويقع قصر حجاج، وهو بغير ضبط فى س، عند ظاهر باب الجابية، وهو محلة كبيرة، ترجع فى نسبتها إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٠) . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. p. 312. N. 3.) .

(٧) بغير ضبط فى س، وهى محلة بالباب الصغير، ظاهر مدينة دمشق . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٣٦) .

وغنموا ما يجل وصفه . وانبثت سراياهم فيما هنالك، حتى وصلت إلى نَوَى[(١)]. ونازلوا بانياس ثلاثة أيام، ثم عادوا إلى مرج عكا، وقد أنكوا فى المسـلمين أعظم نكاية . وامتلأت أيديهم بالأسرى، والسبي والغنائم، وأتلفوا بالقتل والتحريق ما يتجـاوز الوصف . فلم يمكثوا بالمرج سوى قليل[(٢)]، ثم أغاروا ثانيا، ونهبوا صيداء والشقيف، ورجعوا . وذلك كله من نصف شهر رمضان إلى يوم عيد الفطر .

ونزل العادل بمرج الصفر، ورأى فى طريقه رجلا يحمل شـيئا، وهو يمشى تارة ويقعد أخرى، فقال له : "يا شيخ! لا تعجل، ارفق بنفسك" . فقال له : "يا سلطان المسلمين ! أنت لا تعجل، أو أنا؟ إذا رأيناك قد سرتَ من بلادك، وتركتنا مع الأعداء، كيف لا نعجل؟".

وعند ما استقر العادل بمرج الصفر، كتب إلى ملوك الشرق ليقدموا عليـه : فأول من قدم عليه أسـد الدين شيركوه، صاحب حمص، [وهو ابن ناصر الدين محمد بن أسـد الدين شيركوه، عم السلطان صلاح الدين يوسف[(٣)]] . ثم إن العادل جهز ابنه المعظم عيسى [صاحب دمشق]، بطائفة من العسكر إلى نابلس، كى يمنع الفرنج من بيت المقدس . فنازل الفرنجُ قلعة الطور، التى أنشأها العادل، وجدّوا فى قتال أهلها، حتى تمكنوا من سورها، وأشرفوا على أخذها . فقدّر الله أن بعض ملوكهم قُتل[(٤)]، فانصرفوا عنها إلى عكا، بعد ما أقاموا عليها سبعة عشر يوما . وانقضت السنة والحال على ذلك، من إقامة الفرنج بمرج عكا، والعادل بمرج الصفر .

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى بليدة من أعمال حوران، وقيل هى قصبتها، بينها وبين دمشق منزلتان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٨١٥) .

(٢) فى س قليــلا . (٣) انظــر (Lane-Poole : Saladin, Table II, in pocket) .

(٤) كان قائد الصليبيين فى تلك الواقعة "ملك الهنكر"، وهو (André II. Roi de Hongrie)، وقد انصرف بعساكره كما فى المتن . أما "بعض ملوكهم"، الذى قتـل فى تلك الملحمة، فاسمه غير موجود فى المراجع المتـداولة فى هذه الحواشى، وغاية ما هنا لك أنه "كند كبير"، أى (grand comte) . وقد حاول ابن أخت ملك المجر، بعد انفصال الفرنج عن الطور، أن يستولى على جبل صيداء، ففاجأه المسلمون هناك وأسروه، بعد أن قتلوا معظم عساكره . (أبو شامة : كتاب الروضتين، ص ١٦٢ — ١٦٥، فى Rec. Hist. Or. V.) .

وفيها مات القاضى الأجل قاضى قضاة الشام أبو القاسم عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن على بن عبد الواحد الأنصارى الخزرجى العُبادِى(١) السعدى الدمشقى الشافعى جمال الدين بن الحرستانى، فى رابع ذى الحجة، ومولده بدمشق فى أحد الربيعين، سنة عشرين وخمسمائة . و [مات] الأمير الكبير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد الهكارى، قتله الفرنج على حصن الطور، فنقل إلى القدس، ودفن بتربته . و [مات] الشجاع محمود بن الدباغ، مضحك الملك العادل، وترك مالا جزيلا .

* * *

سنة خمس عشرة وستمائة . فيها اجتمع رأى الفرنج على الرحيل من عكا إلى مصر، والاجتهاد فى تملكها . فأقلعوا فى البحر، وأرسوا على دمياط، فى يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول — الموافق لثامن حزيران — على برجيزة(٢) (١٥٠) دمياط، فصار النيل بينهم وبين البلد. وكان إذ ذاك على النيل برج منيع، فى غاية القوة والامتناع، فيه سلاسل من حديد، عظام القدر والغلظ، تمتد فى النيل لتمنع المراكب الواصلة فى بحر الملح من عبور أرض مصر. وتمتد هذه السلاسل فى برج آخر يقابله، وكانا مشحونين بالمقاتلة، ويعرف اليوم مكانهما فى دمياط بين البرجين(٣) .

(١) مضبوط فى س بضم العين فقط .

(٢) الجيزة فى اللغة الناحية وجانب الوادى، (محيط المحيط، والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٠٥)، ولعل تلك التسمية راجعة إلى وقوع الجهات المسماة بهذا الاسم عند مجاز النهر .

(٣) تقدم ذكر اهتمام السلطان صلاح الدين يوسف بهذين البرجين، وسلاسلهما (انظر ص ٧٢، حاشية ٣)، وقد أفاض معظم المؤرخين فى وصفهما، لمناسبة استيلاء الصليبيين على أحد البرجين، كما سيأتى فيقول أبو شامة (كتاب الروضتين، ص ١٦٧ — ١٦٨، فى (Rec. Hist. Or. V. : "قلت وأذكر وأنا بدمشق، حين بلغ الناس أخذ [الفرنج] برج السلسلة . وقد شق [ذلك] على من يعرفه مشقة شديدة، منهم شيخنا أبو الحسن السخاوى، ورأيته يضرب يدا على يد، ويعظم أمر ذلك . وسمعت الفقيه عز الدين بن عبد السلام يسأله عنه، فقال : هو قفل الديار المصرية، وصدق . فإنى لما رأيته فى سنة ثمان وعشرين [وستمائة] ... بان لى صحة ما أشار الشيخ إليه . وذلك أنه برج عال، مبنى فى وسط النيل، ودمياط بحذائه على حافة النيل من غربه، وفى ناحيته سلسلتان، تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأخرى على النيل إلى البحيرة، فيمنع (كذا) كل سلسلة عبور المراكب من ناحيتها، إذا أريد ذلك، حين قتال العدو . فهو قفل البلاد بالديار المصرية، إذا أوثقت السلسلتان امتنع على المراكب العبور (١٦٨) إليها، ومتى لم يكن (كذا) السلسلة عبرت المراكب، وبلغت إلى القاهرة ومصر، وإلى قوص وأسوان، والله المستعان" . انظر أيضا ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢٠٨ — ٢١٧ ؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢١٣ — وما بعدها) . هذا وقد اعتمد المقريزى فى رواية هذه الحوادث، فى كتابه هنا، وفى المواعظ والاعتبار، على ابن الأثير، اعتمادا كليا، وحرفيا تقريبا .

وصار الفرنج فى غربى النيـــل ، فأحاطوا على معسكرهم خندقا ، وبنوا بدائره ســورا . وأخذوا فى محاربة أهل دمياط ، وعملوا آلات ومَرَمّات(١)، وأبراجا(٢) [متحركة]، يزحفون بها فى المراكب إلى برج السلسلة ليملكوه، حتى يتمكنوا من البلد . فخرج الكامل بمن بقى عنده من العسكر، فى ثالث يوم من سقوط الطائر، لخمس خلون من ربيع الأوّل . وتقدّم إلى والى الغربيـــة بجمع سائر العـــربان ، وسار فى جمع كثير . وخرج الأسطول، فأقام تحت دمياط . ونزل السلطان [الكامل] بناحية العادلية(٣)، قريبا من دمياط ، وسيّر البعوث ليمنع الفـــرنج من العبور، وصـــار يركب فى كل يوم عدة مرار من العادلية إلى دمياط، لتـــدبير الأمور و إعمال الحيلة فى مكايدة الفرنج .

وألح الفرنج فى مقاتلة أهل البرج، فلم يظفروا بشىء، وكُسرت(٤) مرماتهم وآلاتهم، وتمادى الأمر على ذلك أربعة أشهر . هذا و[الملك] العادل يجهز عساكر الشام شيئا بعـــد شىء إلى دمياط، حتى صار عند الكامل من المقاتلة ما لا يكاد يحصر عدده .

و فى أثناء ذلك ورد الخبر بحركة الملك [الغالب عز الدين] كيكاوس السلجوقى، سلطان الروم، إلى البلاد الشامية، بموافقة الملك الصالح صاحب آمد وغيره من ملوك الشام، وأنه وصل إلى مَنْبِج(٥)، وأخذ تَلّ باشِر(٦) . واتفق [كيكاوس] مع الملك الأفضل علىّ بن صـــلاح الدين

(١) جمع مرمة، وهى نوع من السفن الكبار . (انظر ما يلى، وكذلك Blochet : Op. cit. p. 315)، حيث ترجمت إلى (gros navires) . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج١، ص٢١٦) أن الصليبين هاجموا برج دمياط بعـــد أن "عملوا برجا من الصوارى على بسطة (كذا، ولعل المقصود بطسة) كبيرة، وأقلعوا بها حتى أسندوها إليه، وقاتلوا من به" .   (٢) فى س وابراج .   (٣) يسمى المقريزى (نفس المرجع والجزء والصفحة) هذا الموضع بالمنزلة العادلية، والمنزلة فقط، وواضح أنه لا علاقة بين هذه الناحية و بين بلدة المنزلة الحالية، الواقعة على بحيرة المنزلة . انظر (P. Omar Toussoun : Op. Cit. I. 2. Pl. II. b.) .   (٤) فى س كسر .

(٥) فى س منبح، و بغير ضبط . ومنبج مدينة قديمة، تقع على مسافة ثلاثة فراسخ من الفرات، وعشرة فراسخ من حلب؛ ومنها البحترى وأبو فراس الحمدانى . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٥٤ — ٦٥٦) .

(٦) بغير ضبط فى س، وهو قلعة حصينة، وكورة أيضا، فى شمالى حلب، بينها و بين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان، ج١، ص٨٦٤) .

[صاحب سميساط] أنه يسلمه ما يفتحه من البلاد ، فلم يف [كيكاوس](١) بما وعد، وسلم ما فتحه لنوابه . فتقاعد عنه كثير من الناس، وأوقع العرب بطائفة من عسكره، فقتلوا وأسروا منهم كثيرا ، ونهبوا لهم شيئا له قدر، فرجع إلى بلاده بغير طائل .

هذا والعادل بمرج الصفر ، فبينا هو فى الاهتمام بأمر الفرنج، إذ ورد عليه الخبر بأخذ الفرنج برج السلسلة بدمياط ، فتأوه تأوها شديدا، ودقَّ بيده على صدره أسفا وحزنا، ومرض من ساعته . فرحل من المرج إلى عالِقِين(٢)، وقد اشتد مرضه، فمات فى سابع جمادى الآخرة يوم الخميس . فكتم أصحابه موته، وقالوا قد أشار الطبيب بعبور دمشق ليتداوى . فحمل فى محفة، وعنده خادم، والطبيب راكب بجانب المحفة، والشَّرَبْدَار(٣) يصلح الأشربة، ويحملها إلى الخادم ليشربها السلطان، يوهم الناس بذلك أنه حى، إلى أن دخل قلعة دمشق، وصارت بها الخزائن والحرم وجميع البيوتات . فأُعلم بموته، بعد مااستولى ابنه الملك المعظم على جميع أمواله، التى كانت معه، وسائر رَخْته(٤) وثِقله ، ودَفَنه (٥٠ ب) بالقلعة . فاختبط الناس حتى ركب المعظم، وسكَّن

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Kaikaus. I.) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى قرية بظاهر دمشق . (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 391.) .

(٣) تقدم أشباه هذا الاسم المركب، عند الكلام على الأستادار والدوادار، والسلحدار والجمدار، وغيرها . ومدلول وظيفة الشربدار ظاهر، وهو الخدمة بشرابخاناه السلطان ، أو الأمير . غير أنه ينبغى التنبيه إلى أن تلك الوظيفة كانت من وظائف الخدم ، أو الحرف الصناعية . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . أما الأمير الذى يتولى سق السلطان على الموائد، ويهيمن على مد السماط وتقطيع اللحم ، وسق المشروب بعد رفع السماط ، فاسمه الساقى (نفس المرجع والجزء، ص ٤٥٤) . وكانت هناك وظيفة أخرى تتعلق بطعام السلطان ، أو الأمير ، وهى وظيفة الجاشنكير، ويقوم صاحبها بذوق المأكول والمشروب ، قبل السلطان أو الأمير، خوفا من أن يدس عليه فيه سم أو نحوه . وتتركب هذه الكلمة من لفظين فارسين ، أحدهما جاشنا ومعناه الذوق ، والثانى كير وهو بمعنى المتعاطى . (نفس المرجع والجزء، ص ٤٦٠) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهو لفظ فارسى معناه المتاع . وفى (Quatremère : Maml. I. I. p. 253) أمثلة لتوضيح استعمال هذا اللفظ ، منها أن أميرة جحت "بتجمل زايد و رخت عظيم و برك هايل" . والرختوانية هم الذين يتولون العناية بمتاع السلطان، أو الأمير، فى الأسفار . هذا ورختَ الخادمُ الحصانَ، ألبسه الرخت ، وهو — فى الغالب — البركستوان المتقدم ذكره (انظر ص ١٧٧) . والحصان المرخت، الذى عليه رخت جميل . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

أمر الناس ، ونادى فى البـلد : "ترحموا على السلطان الملك العادل، وادعوا لسلطانكم الملك المعظم . أبقاه الله" . فبكى الناس بكاء كثيرا، واشتد حزنهم لفقده .

وكان مولده فى المحرّم سـنة أربعين — وقيل سنة ثمان وثلاثين — وخمسمائة بدمشق . وسمع من السلفى وابن عوف، وعُرفت مواقفه فى جهاد العدو بثغر دمياط ، فى سـنة خمس وستين وخمسمائة، فى أيام الخليفة العاضد،وفى مدينة عكا.وملك دمشق فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وكانت مدة ملكه لها ثلاثا وعشرين سنة . وملك مصر، فى سنة ست وتسعين، فكانت مدّة ملكه لهـا (١) تسع عشرة سنة وشهرا واحدا وتسـعة عشر يوما . ورُزق فى أولاده سـعادة قلما يتفق مثلها لملك ، فبلغوا تسـعة عشر ولدا ذكرا ، سوى البنات . وهم : الملك الأوحد نجم الدين أيوب ، صاحب خلاط، وكان قصـيرا فى الغاية ، شهما مقداما، سـفاكا للدماء، مات فى حياة أبيه؛ والملك الفائز إبراهيم، والملك المغيث عمر — و[قد] توفيا أيضا فى حياته — وترك عمر ابنا سمى بالملك المغيث شهاب الدين محمود ، رباه عمـه الملك المعظم عيسى؛ والملك الجواد شمس الدين مودود، ومات فى حياته [أيضـا] — وترك الملك الجواد [ولدا اسمـه] مظفر الدين يونس بن مودود ، بقى عنـد عمـه الملك الكامل بمصر، ثم ملك دمشق وغيرها، وكان جوادا شجاعا؛ والملك الكامل ناصر الدين محمد، صاحب مصر؛ والملك المعظم شرف الدين أبو العزائم عيسى،صاحب دمشق؛وشقيقاه الملك العزيز عماد الدين عثمان، صاحب بانياس — وكان جوادا شهما — والملك الأمجد مجد الدين حسن ، ومات فى حياة أبيه بالقدس ، ودفن فى مدرسة بنيت له ، ثم نقل إلى الكرك ؛ والملك الأشرف مظفر الدين موسى،صاحب الشرق وخلاط،بعد أخيه الملك الأوحد؛والملك المظفر شهاب الدين غازى، صاحب ميافارقين ؛ وشقيقاه الملك المعز مجير الدين يعقوب ، والملك القاهر بهـاء الدين تاج الملوك إسحـاق ؛ والملك الصالح عماد الدين اسماعيل، صاحب بصرى ، ثم دمشق (٢) ؛ والملك المفضل قطب الدين أحمد ، ومات بمصر فى أيام أخيـه الكامل بالفيوم، ووصل فى تابوت

(١) فى س «ملكها لها» . (٢) فى س "ثم ملك دمشق" .

إلى القاهرة ، فى نصف رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ؛ والملك الأمجد تقى الدين عباس ، وهو أصغرهم ، وُلد فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات آخرهم ، بدمشق ، فى سنة تسع وستين (٥١ ا) وستمائة ، فى أيام الملك الظاهر بيبرس ؛ والملك الحافظ نور الدين أرسلان ، صاحب قلعة جعبر ؛ والملك القاهر بهاء الدين خضر ؛ والملك المغيث شهاب الدين محمود ؛ والملك الناصر صلاح الدين خليل .

ووزر[للملك العادل](١) صنيعة الملك أبو سعيد بن أبى اليمن بن النحال مدة يسيرة ، وكان نصرانيا فأسلم على يده ، بعد عوده مع الأفضل علىّ بن صلاح الدين إلى مصر ، فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . فلما مات [ابن النحال] استوزر [العادل] الصاحب صفى الدين عبد الله بن شكر الدَّمِيرِى ، فتجبر وسطا ، وتمكن من السلطان ، واستولى عليه ، وعظم قدره . وأوقع [ابن شكر] بعدة من الأكابر ، وصادر أكابر كتاب الدولة ، واستصفى أموالهم . ففر منه القاضى الأشرف ابن القاضى الفاضل إلى بغداد ، واستشفع بالخليفة الناصر [لدين الله] ، وأحضر كتاب شفاعته إلى العادل . وفر منه علم الدين بن أبى الحجاج ، صاحب ديوان الجيش ، والأسعد بن مماتى صاحب ديوان المال ، إلى حلب ، فأكرمهما الملك الظاهر ، حتى ماتا عنده . وصادر بنى حمدان وبنى الحباب وبنى الجليس ، وأعيان الكتاب المُسْتَوفِين(٢) ، والعادل لا يعارضه فى شىء . هذا

---

(١) فى س "ووزر له صنيعة الملك ابو ..." .

(٢) جمع مستوفى ، بكسر الفاء ، وهو حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٦) من كتاب الأموال بالدواوين ، وعمله ضبط الديوان التابع له ، والتنبيه على ما فيه مصلحته ، من استخراج أمواله ونحو ذلك . وقد تقدم أنه لما تضاءل منصب الوزارة منذ الأيوبيين ، تحول كثير من أعماله إلى النظار (انظر ص ٥٣ ، حاشية ٤) وأول هؤلاء ناظر الدولة ، أو ناظر الدواوين ، وكان أولا يعاون الوزير فى تصرفاته العامة ، وهذه تشمل سائر شؤون الدولة بمصر والشام . و يأتى بعده مستوفى الصحبة ، وهو يشارك الوزير و يعاونه أيضا فى الأمور العامة ، مثل كتابة المراسيم وتسجيلها . و يليه فى المرتبة مستوفى الدولة ، وهو كمستوفى الصحبة فى النفوذ ، و ربما اندمجت الوظيفتان أحيانا . و يلاحظ أن هؤلاء الكتاب كانوا يهيمنون على عامة الدواوين ، على أنه كان لكل ديوان ناظر ، وتحته المستوفى والشاد ، فمستوفى الخاص فى ديوان الخاص ، ومستوفى المرتجعات فى ديوان المرتجعات . وقد غلبت وظيفة هذا الأخير على وظيفة ناظر المرتجعات التى ألغيت ، وأصبح المستوفى بديوانها هو المتصرف . (G.-Demombynes : Op. cit. Index III). هذا وقد بقى اسم المستوفى فى بلاد فارس إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان يطلق على كتاب المالية . (Morier : Hajji Baba In England, pp. 17, 210.) .

وهو يتغضّب على السلطان، [واستمر على هذا الحال] إلى أن غضب [على السلطان مرة]، فى سنة تسع وستمائة، وحلف أنه ما بقى يخدمه . فأخرجه السلطان [العـادل] من مصر، بجميع أمواله وحرمه، فكان ثقله على ثلاثين جملا . وحسّن أعداؤه للسلطان أن يأخذ ماله، فامتنع [واكتفى بإخراجه إلى آمد](١) . وسار [صفى الدين] إلى آمد، فأقام عند الصالح بن أرتق . فأقام العادل من بعده القاضى الأعز فخر الدين مقدام بن شكر، ثم نقم عليـه فى سنة اثنتى عشرة وستمائة، وضربه وقيده، وأخرجه من مصر، ولم يستوزر بعده أحدا .

ومن أعجب الاتفاقات أن الملك الأفضل علىّ بن صـلاح الدين يوسف لم يملك مملكة إلا وأخذها عمه العادل منـه : فأول ذلك أن أباه أقطعـه حران والرها وميافارقين ، فى سنة ست وثمـانين وخمسمائة، فسار إليها، حتى [إذا] بلغ حلب رده أبوه ، وبعث الملك العادل بدله . ثم مَلَك الأفضل بعد أبيه دمشـق ، فأخذها العادل منه . ثم ملك مصر بعد ذلك، فأخذها منه العـادل . ثم ملك صرخد، فأخذها منه العادل، وعوضه قلعة نجم وسروج ، ثم استرجعهما منه بعد ذلك .

فلما تمهدت [للملك العادل](٢) الممالك قسمها بين أولاده ، فملك هو وأولاده من خلاط إلى اليمن . ورأى [العادل] فى أولاده ما يحب، من اتساع الممالك وكثرة الظفر بالأعداء، بحيث لم يسمع عن ملك أنه رأى فى أولاده (١٥ب) ما رآه العـادل ، فإنه اجتمع فى كل منهـم من النجابة والنبل، والكفاية والمعرفة، والفضـيلة وعلو الهمة، ما لا مزيد عليـه . ودانت لهم العباد، وملكوا خيار البلاد . وكان كثيرا ما يتردد [العادل] فى ممالك أولاده، وأكثر أوقاته يصيف بدمشق، ويشتى بمصر. وكان أكولا نهما، يأكل خروفا مشويا بمفرده ؛ وله اقتدار زائد على النكاح، ومُتّع فى دنياه بأرغد عيش، وتمكن من السعادة فى سائر أحواله . وكان حميد السيرة، حسن العقيدة، كثير السياسة، صاحب معرفة بدقائق الأمور، قد حنكته التجارب، فسعدت آراؤه، ونجحت تدبيراته . وكان لا يرى محاربة أعدائه، ويسـتعمل فى مقاصده

(١) انظر ص ١٧٦ . (٢) فى س "فلما تمهدت له ..." .

المكائد والخدع . فهادنته الفرنج لقوة حزمه وشدة تيقظه، وغزارة عقله وقوة كيده، ومكره ومداومته على المخادعة والمخاتلة ، وكثرة صبره وحلمه وأناته، بحيث إنه كان إذا سمع ما يكره يغضى عنه تجاوزا وصفحا، كأنه لم يبلغه . و[كان] لا يُخْرِج المال إلا عند الاحتياج إلى إخراجه، فيسمح حينئذ ببذل الكثير منه، ولا يتوقف فيما ينفق ؛ فإذا لم يحتج إلى إخراج المال ضنّ به وأمسكه . فثابت[1] له بذلك أغراضه كما يحب، وانقادت له الأمور مثل ما يختار . وكان يحافظ على أداء الصلوات فى أوقاتها، ويحب السنة ، ويكرم العلماء ، مع العظمة وقوة المهابة المتمكنة فى القلوب . وله صنف الإمام فخر الدين الرازى كتاب تأسيس التقديس، وبعث به إليه من بلاد خراسان .

ومات [الملك العادل] عن خمس وسبعين — وقيل ثلاث وسبعين — سنة . وترك مالا كثيرا، منه فى خزائنه — التى استولى عليها ابنه المعظم — سبعمائة ألف دينار مصرية، سوى ما كان له فى الكرك، فاحتوى عليه أيضا الملك المعظم .

وكتب [المعظم] إلى أخوته بموت أبيه، فجلس الملك [الكامل] للعزاء، فى معسكره بظاهر دمياط، وارتاع لموت أبيه خوفا من الفرنج .

السلطان الملك الكامل ناصر الدين

أبو المعالى محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب، سادس ملوك مصر [من الأيوبيين]. استقل بمملكة مصر بعد موت أبيه، بعهده إليه فى حياته ، [وكانت سلطنته بعد السابع من[2] جمادى] الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة، (٥٢ ا) عند ما وصل إليه نعى أبيه، وهو بالمنزلة العادلية على محاربة الفرنج — وقد ملكوا البر الغربى، واستولوا على برج السلسلة، وقطعوا السلاسل المتصلة به ، لتعبر مراكبهم فى بحر النيل ، ويتمكنوا من أرض مصر . فنصب الملك الكامل عوضا من السلاسل جسرا عظيما، يمنع الفرنج من عبور النيل . فقاتل الفرنج عليه قتالا كثيرا حتى قطعوه ، وكان قد أُنفق على هذا البرج والجسر ما ينيف

(١) فى س فتاتت . (٢) ما بين القوسين بياض فى س، ما خلا عبارة "من جمادى"، فإنها محجوبة بورقة ملصقة فوقها . ولكنها فى ب (٦٢ ب) .

على سبعين ألف دينـار . فأمر الكامل بتغريق عدّة من المراكب فى النيل، منعت الفرنج من سلوكه ، فعدل الفرنج إلى خليج هنـاك يعرف بالأزرق،(١) كان النيل يجرى فيه قديما . لحفروه حفرا عميقا، وأجروا فيه المـاء إلى البحر الملح ، بجرت سفنهم فيه إلى ناحيـة بُورة،(٢) على أرض جيزة دمياط، تجاه المنزلة التى فيها الكامل، ليقاتلوه من هناك . فلما استقروا فى بورة حاذوه، وقاتلوه فى المـاء، وزحفوا إليه غير مرة، فلم ينالوا منه غرضا طائلا . ولم يضر أهل دمياط ذلك، لتواصل الأمداد والميرة إليهم ، وكون النيـل يحجز بينهم و بين الفرنج، بحيث كانت أبواب المدينة مفتحة، وليس عليها حصر ولا ضيق البتة .

(٣) هذا والعربان تتخطف الفرنج فى كل ليلة ، بحيث مَنَعَهم ذلك من الرقاد، خوفا من غاراتهم . فتكالب العرب عليهم حتى صاروا يختطفونهم نهارا، و يأخذون الخيم بمن فيها . فأكمن لهم الفرنج عدّة كمناء، وقتلوا منهم خلقا كثيرا . وأدرك الناس الشتاء، فهاج البحر على معسكر المسلمين، وغرّق الخيم، فعظم البلاء، واشتد الكرب . وألح الفرنج فى القتال، ولم يبق إلا أن يملكوا البلاد . فأرسل الله سبحانه ريحا قطعت مراسى مَرَمَّة كانت للفرنج من عجائب الدنيا، فمرّت تلك المرمة إلى البر الذى فيه المسلمون فملكوها، فإذا هى مصفحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير مازنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلا .

و بعث السلطان إلى الآفاق سبعين رسولا، يستنجد أهل الإسلام على قتال الفرنج، و يستحثهم على إنقاذ المسلمين منهم و إغاثتهم، ويخوفهم من تغلب الفرنج على مصر، فإنه متى ملكوها لا يمتنع عليهم شىء من الممالك بعدها . فسارت الرسل فى شوّال ، فقدمت النجدات من حماة وحلب .(٤)

(١) انظر الحاشية التالية . (٢) مضبوطة هكذا فى س، وهو الضبط الصحيح، وهى بلدة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، فى الشمال الغربى من دمياط، ومنها السمك البورى المعروف بمصر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١، ص ٧٥٥ ؛ و Blochet: Op. cit. P. 320. N. 2.) . ومن هذا يتعين أن مجرى الخليج الأزرق بين بورة وشمالى المنزلة العادلية . وفى جنوبى المنزلة العادلية موضع اسمه بستان بورة . انظر (P. Omar Toussoun: Op. cit. I. 2. Pl. II. b.)

(٣ و ٤) ما بين الرقمين وارد بورقة منفصلة بين الصفحتين (٤٥ ب، ٤٦ أ) من س، (انظر ص ١٦٧، حاشية ٦)، وليس بالمتن إشارة، كعادة المؤلف، إلى موضع هذا الهامش . على أنه لا شك فى مناسبته هنا، فإنه موجود بنصه، وعلى ترتيبه كما هنا، ضمن حوادث حصار دمياط، بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢١٦) .

إلا أنه لما قدم على المعسكر موت العادل وقع الطمع فى الملك الكامل، وثار العرب بنواحى أرض مصر، وكثر خلافهم واشتد ضررهم. واتفق مع ذلك قيام الأمير عماد الدين أحمد ابن الأمير سيف الدين أبى الحسين على بن أحمد الهكارى، المعروف بابن المشطوب، وكان أجل الأمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية، ينقادون إليه ويطيعونه، مع أنه كان وافر الحرمة عند الملوك، معدودا بينهم كواحد منهم، معروفا بعلو الهمة وكثرة الجود، وسعة الكرم والشجاعة، تهابه الملوك، وله وقائع مشهورة فى القيام عليهم. ولما مات أبوه، وكانت نابلس إقطاعا له، أرصد ثلثها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لمصالح القدس، وأقطع ابنه عماد الدين هذا بقيتها، فلم يزل قائم الجاه من الأيام الصلاحية. فاتفق [عماد الدين] مع جماعة من الأكراد والجند على خلع الملك الكامل، وتمليك أخيه الفائز إبراهيم، ليصير لهم التحكم فى المملكة. ووافقه على ذلك الأمير عز الدين الحميدى، والأمير أسد الدين الهكارى، والأمير مجاهد الدين، وعدة من الأمراء.

فلما بلغ الكامل ذلك دخل عليهم، فإذا هم مجتمعون وبين أيديهم المصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز. فعند ما رأوه تفرقوا، فخشى على نفسه منهم، وخرج. فاتفق قدوم الصاحب صفى الدين بن شكر من آمد، فإنه كان قد استدعاه [الكامل] بعد موت أبيه.(١) فتلقاه [الكامل] وأكرمه، وأوقفه على ما فيه جماعة الأمراء، فشجعه وضمن له تحصيل المال وتدبير الأمور. فلما كان فى الليل ركب [الكامل] من المنزلة العادلية، فى الليل جريدة، وسار إلى أُشْمُوم طَنَّاح(٢)، فنزل بها. وأصبح العسكر وقد فقدوا السلطان، فركب كل أحد هواه، ولم يعرج واحد منهم على آخر. وتركوا أثقالهم وخيامهم وأموالهم وأسلحتهم، ولم يأخذ كل (٥٢ ب) أحد إلا [ما] خف حمله. فبادر الفرنج عند ذلك، وعبروا بر دمياط وهم آمنون، من غير منازع ولا مدافع، وأخذوا كل ما كان فى معسكر المسلمين، وكان شيئا

(١) بعض حروف هذه العبارة ممتآكل فى س، ولكنه فى ب (٦٣ ب). (٢) بغير ضبط فى س، وكانت عاصمة الدقهلية والمرتاحية، وتقع شرق المنصورة، وجنوبى دكرنس الحالية. (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٨٢؛ و P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 2. Pl. I. & P. 244).

لا يقـدر قدره ، وذلك لبضـع عشرة ليـلة خلت من ذى القعدة . فكان نزول الفرنج قبالة دميـاط فى يوم الثلاثاء ثانى شهر ربيـع الأوّل سـنة خمس عشرة [وستمائة]، ونزولهم فى البر الشرقى — حيث مدينة دمياط — يوم الثلاثاء سادس ذى القعدة سنة ست عشرة .

فتزلزل الملك الكامل، وهمّ بمفارقة أرض مصر، ثم تثبت (١)، فتلاحق به العسكر . وبعد يومين وصل إليه أخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق — وهو بأشموم — فى ثامن عشر ذى القعدة . فقويت به شوكته، وأعلمه بما كان من أمر ابن المشطوب، فوعده بإزالته عنه . ثم ركب المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، واستدعاه للركوب معـه للسايرة ، فاستمهله حتى يلبس خُفَّيه وثيـابه ، فلم يمهله وأعجله . فركب معـه وهو آمن ، وسايره حتى خرج به من المعسكر وبَعُد عنه . فالتفت إليه [المعظم]، وقال : "يا عماد الدين! هذه البلاد لك، أشتهى أن تهبها لنا" . وأعطاه نفقة، وأسلمه إلى جماعة من أصحابه يثق بهم ، كان قد أعدهم لهذا الأمر، وأمرهم أن يلازموه إلى أن يخرج من الرَّمْل (٢)، ويحتفظوا به إلى أن يدخل إلى الشام . فما وجد [ابن المشطوب] سبيلا إلى الامتناع ، ولا قدر على المدافعة، لأنه بمفرده بينهم . فساروا به على تلك الحالة إلى الشام، فنزل بحماة عند [الملك] المنصور، ومعه أربعة من خدمه .

ولما سار ابن المشـطوب رجع المعظم إلى أخيه الكامل ، وتقـدّم إلى أخيه الفائز بأن يمضى إلى الملوك الأيوبية بالشام والشرق رسولا عن الملك الكامل ، بسـبب إرسال عساكر الإسلام، لاستنقاذ دمياط وأرض مصر من الفرنج . وكتب الكامل إلى [أخيه] الأشرف [موسى] شاه أرمن (٣)، يستحثه على سرعة الحضور، وصدّر المكاتبة بهذه الأبيات :

يا مُسعدى ! إن كنت حقا مُسعفى * فانهض بغـير تلبث وتـوقف

(١) فى س شبت .

(٢) بغير ضبط فى س ، ويعرف برمل الفرابى أيضا ، ويطلق هـذا الاسم على الأراضى الصحراوية بين العباسة والعريش . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣) .

(٣) فى س شاهارمن ، ويقصد المؤلف به الأشرف موسى الأيوبى، صاحب مملكة خلاط ؛ وكانت هذه الإمارة الأرمينية الصغيرة قد آلت إلى الأيوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بكتمر، سنة ٦٠٤ هـ . انظر (Enc. Isl. Arts. Armenia & Begtimur) .

واحْثُث قَلُوصك مُرْقِلا أو موجِفا * بتجشم فى سيرها وتعسف
وَاطْوِ المنازل ما استطعت ولا تُنِخ * إلا على باب المليك الأشرف
وَاقْرِ السلام عليه مِنْ عَبْدٍ له * متوقّعٍ لقدومه متشوف
و إذا وَصَلْتَ إلى حماهُ فقل [له * عنى بحسنٍ][(١)] توصل وتلطف
(١٥٣)إن تأت عبدك عن قليل تلقه * ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه * بل فى القيامة فى عراص الموقف

فسار الفائز — وكان الغرض إخراجه من أرض مصر — فمضى إلى دمشق ، ورحل إلى حماة، ثم سار إلى الشرق . فانتظم أمر الكامل، وقوى ساعده، وترتبت قواعد ملكه ، وسار عنه المعظم .

هذا والفرنج قد أحاطوا بدمياط من البحر والبر ، وأحدقوا بها وحصروها ، وضيقوا على أهلها، ومنعوا الأقوات أن تصل إليهم . وحفروا على معسكرهم المحيط بدمياط خندقا ، وبنوا عليه سورا[(٢)] . وأهل دمياط يقاتلونهم أشدّ قتال، وأنزل الله عليهم الصبر، فثبتوا مع قلة الأقوات عندهم وشدة غلاء الأسعار . وأخذ الكامل فى محاربة الفرنج ، وهم قد حالوا بينه و بينها ، ولم يصل إليها أحد من عنده سوى رجل من الجاندارية . [وكان هذا الرجل قد] قدم إلى القاهرة من بعض قرى حماة ، [و] يسمى شمايل ، فتوصل حتى صار يخدم فى الركاب السلطانى جاندارا . وكان يخاطر بنفسه، ويسبح فى النيل — ومراكب الفرنج به محيطة، [والنيل] قد امتلأت به شوانى الفرنج — فيدخل إلى مدينة دمياط، ويأتى السلطان بأخبار أهلها . فإذا دخل إليها قوى قلوب أهلها، ووعدهم بقرب وصول النجدات . فحظى بذلك عند الكامل ، وتقدم تقدما كثيرا ، وجعله أمير جاندَاره[(٣)] وسيف نقمته ، وولاه القاهرة ، وإليه تنسب خزانة شمايل . وكان فى دمياط من أهلها الأمير جمال الدين الكنانى، فكتب هذه الأبيات، وألقاها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب، وهى :

---

(١) ما بين القوسين محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س، ولكنه فى ب (٦٤ أ) . (٢) فى س فبنوا .
(٣) مضبوطة هكذا فى س .

يا مالكي! دمياط ثغـر هُدِّمت * شرفاته كادت تجث أصــوله
يقريك من أزكى السـلام تحية * كالمسـك طاب دقيقه وجليـله
ويقول عن بعـــد وإنك سامع * حتى كأنك جاره ونزيـــله
يأيهـا الملك الذى ما إن يُرى * بين المـلوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى * ما ليس يمكننى لديك أقــوله
أشكو إليك عدوّ سوء أحدقت * بجميعـــه فرسانه وخيــوله
فالبر قـــد مُنعت إليه طريقـه * والبحـر عز لنصره أسـطوله
لخضـــوعه باد على أبراجـــه * وحنينــــه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأَمَّ بابك لائذا * لكنه(١) سدّت عليـــه سبيله
(٥٣ب) ورسوله فى أن تجيب دعاءه * دين الإله وخلقـــه ورسـوله(٢)
نقـــد انتهت أدواؤه وتحكمت * عـــلاته ونحـا عليه نحـــوله
وبـقى له رمق يسـير يرتجى * أن يشتفى لمـا دعاك عليـــله
فاحرس حمـاك بعزمة تشفى بها * داء لمثـلك يرتجى تعليـــله
فالله أعطـاك الكثير بفضــله * ورضاه من هــذا الكثير قليله
فالعـــذر فى نصر الإله ودينـه * ما ساغ عنـــد المسلمين قبوله
والثغر ناظـــرهُ إليك محـــدّق * ما إن يَمَلّ من الدموع هموله
ولئن قعـدت عن القيام بنصره * جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورُفِّعَت * صـــلبانه وتُلِى به إنجيـــله
وعلا صدى الناقوس فى أرجائه * وخفى على سمـع الورى تهليـله
هذا وحقك وصف صورة حاله * حقـا وجملتــه وذا تفصيـــله
وكفاك يابن الأكرمين بأنه * أضحى عليـك من الورى تعويله

(١) هذا اللفظ غير واضح فى س ، ولكنه فى ب (٦٤ ب) . (٢) كذا ورد البيت فى س، ب .

حقق رجاءً فيك يامن لم يخب * أبـدا لراجى جـوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلا صالحا * الله ضامن أجـره وكفيله

فلما وقف السلطان على هذه الأبيات أمر أهل القاهرة ومصر بالنفير للجهاد، وخرجت السنة والحال على ذلك .

وفيها استدعى الملكُ الغالب كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان، ملك الروم، بالملك الأفضل نور الدين على بن صلاح الدين يوسف — وكان بسميساط، و يخطب للملك الغالب . فلما قدم عليه أكرمه، وحمل إليه شيئا كثيرا من المال والخيل والسلاح وغيره ، وتحالفا على المسير إلى المملكة الحلبية وأخذها، بشرط أن يدفعها الملك الغالب، هى وسائر ما يفتحه، إلى الملك الأفضل، ليقيم له فيها الخطبة والسكة، و يصير فى طاعته. فإذا تم ذلك سارا إلى الشرق، وأخذا حران والرها وغيرها . فسارا بالعساكر وأخذا قلعة رعبان[1]، فتسلمها الأفضل، ومال إليه الناس، واجتمعوا على الملك الغالب، لمحبتهم فى الأفضل . ثم سارا إلى قلعة تل باشر، فحصراها حتى ملكاها، فلم يسلمها الملك الغالب للأفضل، وأقام فيها نائبا من قبله . فنفر منه الأفضل [وفترت[2]] همته ، وعلم أن هذا أول الغدر . وأعرض أهل البلاد أيضا عن [الملك الغالب[3]]، واستعد أهل حلب، واستدعوا (٥٤ ا) الملك الأشرف من بحيرة قدس، وكان نازلا عليها تجاه الفرنج . فقدم إليهم بعساكره ، وحضرت عرب طيّ وغيرها، إلى ظاهر حلب . فحسّن الأفضل للملك الغالب التوجه إلى منبج، فسارا إليها . فواقع العرب مقدّمة الملك الغالب، فانهزمت، وأَسَر العربُ وأصحاب الأشرف كثيرا منهم . فرجع عندذلك الملك الغالب إلى بلاده، وسار الأشرف، فاستولى على رعبان وتل باشر .

وفيها مات الملك القاهر عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر، صاحب الموصل، لثلاث بقين من ربيع الأول ؛ وكانت مدة

(١) بغير ضبط فى س، وهى بلدة بين حلب وسميساط، قرب الفرات . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٧٩١) .
(٢ و ٣) ما بين الأقواس محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س، ولكنه فى ب (٦٥ أ) .

ملكه سبع سنين وتسعة أشهر . وقام من بعـده ابنه نور الدين أرسـلان شاه ، وعمره عشر سنين، فدبر أمره الأمير بدر الدين لؤلؤ الأتابك، فأقرهما الخليفة الناصر .

+ + +

سنة ست عشرة وستمائة . فيها قَدِم الملك المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة — إلى الملك الكامل، نجدة فى عسكر كثيف، ومعه الطواشى مرشد المنصورى . فتلقاه السلطان وأعظم قدره، وأنزله على ميمنته، وهى المنزلة التى كانت لأبيه وجدّه، عند السلطان صلاح الدين يوسف . ووصل الفائز إبراهيم بن العادل إلى أخيه الأشرف موسى، برسالة أخيهما الكامل للاسـتنجاد على الفـرنج، فأكرمه وأمسكه عنده، فإن الغرض إنما كان إخراجه من أرض مصر .

وفيها اشتدّ قتال الفرنج، وعظمت نكايتهم لأهل دمياط، وكان فيها نحو العشرين ألف مقاتل . فنهكتهم الأمراض، وغلت عندهم الأسعار، حتى أبيعت البيضة الواحدة من بيض الدجاج بعـدّة دنانير . وامتلأت الطرقات من الأموات، وعدمت الأقوات ، وصار السكر فى عزة الياقوت، وفقدت اللحوم فلم يقدر عليها بوجه ، وآلت بالناس الحال إلى أن لم يبـق عندهم غير شىء يسـير من القمح والشعير فقط . فتسوّر الفرنج السور، وملكوا منه البلد يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان ، فكانت مدّة الحصار ستة عشر شهرا واثنين وعشرين يوما . وعند ما أخذوا دمياط وضعوا السيف فى الناس، فلم يعرف عدد من قُتل لكثرتهم .

ورحل السلطان بعد ذلك بيومين، ونزل قبالة طَلْخَا، على رأس بحر أشموم [ورأس بحر][1] دمياط، وخيّم بالمنزلة التى (٥٤ ب) عُرفت بالمنصورة . وحصن الفرنج أسوار دمياط، وجعلوا جامعها كنيسة، وبثوا سراياهم فى القرى يقتلون ويأسرون، فعظم الخطب واشـتدّ البلاء . وندَب السلطان الناس وفرّقهم فى الأرض ، فخرجوا إلى الآفاق يستصرخون الناس لاستنقاذ أرض مصر من أيدى الفرنج . وشرع السلطان فى بناء الدور والفنادق، والحمامات والأسواق،

(١) ما بين القوسين محجوب فى س بورقة ملصقة فوقه ، ولكنه فى ب (٦٥ ب) .

بمنزلة المنصورة . وجهّز الفرنج من حصل فى أيديهم من أسارى المسلمين فى البحر إلى عكا، و برزوا من مدينة دمياط يريدون أخذ مصر والقاهرة . فنازلوا السلطان تجاه المنصورة ، وصار بينهم و بين العسكر بحر أشموم و بحر دمياط ، وكان الفرنج فى مائتى ألف رجل وعشرة آلاف فارس . فقدّم السلطان الشوانى تجاه المنصورة ، وهى مائة قطعة . واجتمع الناس من أهل القاهرة ومصر وسائر النواحى، ما بين أسوان إلى القاهرة . ووصل الأمير حسام الدين يونس، والفقيه تقىّ الدين طاهر المحلى ، فأخرجا الناس من القاهرة ومصر ؛ ونودى بالنفير العام ، وألا يبقى أحد، وذكروا أن ملك الفرنج قد أقطع ديار مصر لأصحابه . فقال [؟][1] :

”يهددونا بأهــل عكا أن يملكونا وأهل يافا
ومن لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا“

يعنى أهل الريف، فإنه كان قد كثر تسلطهم، وطمعوا فى أمر السلطان، واستخفوا به، لشغله بالفرنج عنهم . وخرج الأمير علاء الدين جلدك ، والأمير جمال الدين بن صيرم، لجمع الناس مما بين القاهرة إلى آخر الحَوْف الشرقى[2]، فاجتمع من المسلمين عالم لا يقع عليه حصر.

---

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذين البيتين ، وليس بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج٢ ، ص٢١٣ وما بعدها) ذكرهما بتاتا ، فى باب حصار دمياط .

(٢) قسم العرب ، بعد فتحهم مصر، أرض دلتا النيل إداريا إلى قسمين ، وهما الحوف والريف . وكان الحوف يشمل جميع الأراضى الواقعة شرق فرع دمياط ، من عين شمس إلى دمياط والفرما . وكان الريف عبارة عن بقية أراضى الدلتا إلى الإسكندرية . ثم عدل ذلك التقسيم فى القرن الثالث الهجرى ، وصارت أراضى دلتا النيل ثلاثة أقسام ، وهى الحوف الشرقى ، والحوف الغربى ، و بطن الريف . وكان الحوف الشرقى عبارة عن الحوف القديم ، ماخلا الأراضى الواقعة شمالى بحر أبى صير ؛ والحوف الغربى هو الأراضى الواقعة غربى فرع رشيد ، ويشمل أيضا أراضى رشيد وشباس وصا ، الواقعة شرق هذا الفرع . أما بقية الأراضى الواقعة بين فرعى النيل ، وكذلك الأراضى الواقعة شمالى بحر أبى صير، فسميت بطن الريف . وقد بقى هذا التقسيم إلى منتصف القرن الخامس الهجرى، ثم تغير ذلك كله، سنة ٦٩٧ هـ ، إلى ما يشبه الأقسام الإدارية الحالية . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣ ، ص ٣٨٥ — ٣٨٦ ؛ و (P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. pp. 1-4, I. 2. p. 217.

وأنزل السلطان على ناحية شارمساح[1] ألفى فارس، فى آلاف من العربان، ليحولوا بين الفرنج و بين دمياط . وسارت الشوانى — ومعها حراقة كبيرة — إلى رأس بحر المحلة[2]، وعليها الأمير بدر الدين بن حسون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البر والبحر .

وقدمت النجدات [للملك الكامل] من بلاد الشام . وخرجت أمم الفرنج من داخل البحر تريد مدد الفرنج على دمياط ، فوافى دمياط منهـم طوائف لا يحصى لهم عدد . فلمـا تكامل جمعهم بدمياط خرجوا منها، فى حدّهم وحديدهم، وقد زين لهم سوء عملهم أن يملكوا أرض مصر ، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كلها . فلما قدمت النجدات كان أولها قدوما الملك الأشرف موسى بن العادل ، وآخرها على الساقة الملك المعظم عيسى ، وفيما بينهما بقية الملوك : وهم المنصور صاحب حماة، والناصر صـلاح الدين قلج أرسلان، والمجاهد صاحب حمص، والأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك، وغيرهم . فهال الفرنج مارأوا . وكان قدوم هذه النجدات فى (٥٥ ا) ثالث عشرى جمادى الآخرة سنة ثمان عشرة ؛ وتتابع قدوم النجدات حتى بلغ عدد فرسان المسلمين نحو الأربعين ألفا . فحاربوا الفرنج فى البر والبحر، وأخذوا منهم ست شوانى وجلاسة[3] و بطسة، وأسروا منهم ألفين ومائتى[4] رجل . ثم ظفروا أيضا بثلاث قطائع[5]، فتضعضع الفرنج لذلك، وضاق بهم المقام ، و بعثـوا يسألون فى الصلح، كما سيأتى إن شاء الله .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية بالدقهلية الحاليـة ، وتقع على فرع دمياط ، شمـالى شربين، و بينها و بين دمياط خمسة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٣٢ ؛ و (P. Omar Toussoun: Op. cit. I. I. P. 175. Pl. II. b.) . انظر أيضا الحاشية التالية .

(٢) بحر المحلة ترعة متفرعة من بحر مليج، الذى يخرج من فرع دمياط ، عند بلدة ميت عطار، قرب بنها الحالية . وكان مخرج بحر المحلة جنوبى بلدة طنت ، ثم يسير نحو الشمال الغربى ، مارا بالهياتم و بلقينة ، حتى يصب فى فرع دمياط ، قبالة شارمساح على الشاطئ الآخر (P. Omar. Toussoun: Mem. Anc. Branches Du Nil. p. 98)

(٣) واضح أن هذا اللفظ معرب كلمة (galeasse) الفرنسية . والجلاسة نوع من السفن الحربية الكبيرة ، كان شائع الاسـتعمال فى البحر الأبيض المتوسط ؛ و يقابلها فى الإيطالية (galeazza) ، ومرادفها فى الإنجليزية قريب من هذا أيضا .

(٤) فى س ومائتين رجلا .

(٥) جمع قطيعة ، وهى الفئة من الجنود، وفى (D zy: Supp. Dict. Ar.) مثل من استعمال هذا اللفظ ، نصه : "فبعث إليه الناصر بالقطائع والجيوش لقتاله" .

وفيها مات قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود، صاحب سنجار . وقام من بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه[1]، ثم قتله أخوه الأمجد عمر. ومات نور الدين أرسلان شاه، صاحب الموصل. فقام من بعده الأمير بدر الدين لؤلؤ، بأمر أخيه ناصر الدين محمود بن القاهر عز الدين، وعمره ثلاث سنين .

وفيها أمر الملك المعظم عيسى بتخريب القدس، خوفا من استيلاء الفرنج عليها ، فخربت أسوار المدينة وأبراجها كلها، إلا برج داود — وكان من غربى البلد — فإنه أبقاه . وخرج معظم من كان فى القدس من الناس، ولم يبق فيه إلا نفر يسير . ونقل المعظم ما كان فى القدس من الأسلحة وآلات القتال، فشق على المسلمين تخريب القدس وأخذ دمياط . وفيها هدم المعظم أيضا قلعة الطور، التى بناها أبوه العادل، وعفى آثارها . وفيها خرجت كتب الخليفة الناصر [لدين الله] إلى سائر الممالك، بإنجاد الملك الكامل بدمياط .

وفيها مات عز الدين كيكاوس بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ، ملك قونية ، بعد ما مَلَك أَرْزَن الروم[2] من عمه طغرل شاه بن قلج أرسلان، وملك أَنْكُورِية[3] من أخيه كيقباد[4]، فصار سلطان الروم . وقام من بعده أخوه علاء الدين كيقباد[5] .

وفيها ابتدأ ظهور التتار — ومساكنهم جبال طَمْغَاج[6] من أرض الصين، بينها وبين بلاد التركستان ما يزيد على ستة أشهر — واستولوا على كثير من بلاد الإسلام. وكانوا لا يدينون بدين،

(١) فى س هاهنشاه .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بأرمينية ، فى الشمالى الشرقى من خلاط . واسمها الأصلى فى القديم (Theodosiopolis)، ثم سماها العرب قاليقالا ، أيام الفتوح الإسلامية الأولى ، وأطلقوا هذا الاسم أيضا على الأراضى المحيطة بها . أما اسم أرزن الروم فيرجع إلى سنة ٤٤١ هـ ، حين هدم السلاجقة بلدة أرزن ، وهى قرب خلاط أيضا ، فخرج أهلها الأرمن إلى قاليقالا ، وأطلقوا عليها أرزن الروم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ؛ و Enc. Isl. Art. Erzerum) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى أنقرة الحالية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٩٠ — ٣٩١) .

(٤) فى س كى قباذ . انظر (Enc. Isl. Art. Kaikobad) .

(٥) فى س كيقباذ .

(٦) مضبوطة هكذا فى س ، وهى اسم أطلقه الترك على شمالى الصين ، وقد أخذوه من اليونانية ، ثم استعاره العرب من الترك . انظر (Blochet : Op. cit. p. 330. N. 3.) .

إلا أنهم يعترفون بالله تعالى، من غير اعتقاد شريعة . فملكوا الصين — وكان ملكهم يقال له جنكزخان[1] — ثم ساروا إلى تركستان وكاشغر، فملكوا تلك البلاد ، وأغاروا على أطراف بلاد السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان محمد بن جغرى بك داود ابن ميكائيل بن سلجوق[2] . ثم استولوا على بخارى وغيرها من بلاد العجم .

\+ + +

سنة سبع عشرة وستمائة . أهلت وانقضت ، والحرب قائمة بين المسلمين وبين الفرنج على دمياط، فى منزلة المنصورة . وفيها استولى التتر على سمرقند، وهزموا السلطان علاء الدين، وملكوا الرى وهمذان وقزوين، وحاربوا الكرج، وملكوا فرغانة والترمذ[3] وخوارزم، (٥٥ ب) وخراسان ومرو ونيسابور، وطوس وهراة وغزنة .

وفيها مَلَك الأشرف موسى بن العادل ماردين وسنجار . وفيها مات الملك المنصور ناصر الدين محمد بن عمر بن شاهنشاه[4] بن أيوب بن شادى صاحب حماة — وكان إماما مفتيا فى عدة علوم، وله شعر جيد — فى ذى القعدة، عن خمسين[5] سنة، منها مدة ملكه ثلاثون سنة . وكان ابنه الأكبر الملك المظفر تقى الدين محمود فى معسكر خاله الملك الكامل، بالمنصورة على مقاتلة[6] الفرنج . فقام بمملكة حماة الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور، وكان عمره سبع عشرة سنة . فشق ذلك على أخيه المظفر، واستأذن الملك الكامل فى العود إلى حماة، ظنا منه أنه يملكها، فإنه كان ولى عهد أبيه . فأذن له [الملك الكامل]، وسار فلقى الملك المعظم فى الغور، فخوّفه من التعرض إلى أخيه، فأقام بدمشق . ثم رجع [المظفر] إلى الملك الكامل، فأقطعه إقطاعا، وأقام فى خدمته .

وفيها كثرت مصادرة الصاحب صفى الدين بن شكر أرباب الأموال، بمصر والقاهرة، من التجار والكتّاب : وقرّر التبرع على الأملاك ، وهو مال جُبى من الناس . وأحدث [ابن شكر] حوادث كثيرة، وحصل مالا جما .

(١) فى س جنكص خان . (٢) فى س سلجق .

(٣) فى س البزمد . (٤) فى س هاهنشاه . (٥) فى س لمثين . (٦) فى س مقابلة .

وفيها قوى طمع الفرنج فى ملك ديار مصر، وعزموا على التقدم إلى المسلمين، ليدفعوهم عن منزلتهم ، ويستولوا على البلاد . فانقضت السنة وهم تجاه المسلمين على رأس بحر أشموم ودمياط . وفيها غلت الأسعار بأرض مصر، فبلغ القمح ثلاثة دنانير كل أردب، فكانت من أشق السنين وأشدها على أهل مصر .

وفيها مات الشريف أبو عزيز قتادة بن أبى مالك إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنه، سلطان مكة، فى آخر جمادى الآخرة بمكة ، عن تسعين سنة . وله شعر جيد ، وقدم مصر غير مرة ، ومعه أخوه أبو موسى عيسى، وكانت ولادته ومرباه بالينبع . وملك مكة بعده ابنه حسن بن قتادة ، فسار راجح بن قتادة مغاضبا له ،وقطع الطريق فى الموسم بين مكة وعرفة، فقبض عليه أَقْبَاش[(1)] أمير الحاج العراقى . فبعث الشريف حسن لأقباش يعده بمال ليسلمه راجحا ، فوعده راجح بأكثر من ذلك ،فعزم [أقباش] على أن يسلمه مكة ،[وتقدم لمقاتلة أميرها[(2)]]،فقُتِل [أقباش]، وفر راجح إلى الملك المسعود باليمن .

* * *

سنة ثمان عشرة وستمائة . فيها اشتدت قوة الفرنج ، بكثرة من قدم إليهم فى البحر . فتابع الملك الكامل الرسل فى طلب النجدات، فقدمت عليه الملوك كما تقدم . واشتد القتال بين الفريقين برا وبحرا، وقد اجتمع من الفرنج والمسلمين ما لايعلم عددهم إلا الله . وكانت العامة تكر على الفرنج أكثر ما يكر عليهم العسكر، وتقدم جماعة (٥٦ ا) من العسكر إلى خليج من النيل فى البر الغربى، يعرف ببحر المحلة، وقاتلوا الفرنج منه . وتقدمت الشوانى الإسلامية فى بحر النيل، لتقاتل شوانى الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع برجالها وأسلحتها .

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 336) . (٢) عبارة المقريزى هنا عن حوادث مكة مقتضبة ، وقد أضيف ما بين الأقواس من ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢، ص ٢٦١ — ٢٦٣) حيث توجد تفاصيل كثيرة . (٣) فى س بير .

[هذا] والرسل تتردّد من عند الفرنج فى طلب الصلح بشروط: منها أخْذ القدس وعسقلان وطبرية، وجبلة واللاذقية، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من بلاد الساحل. فأجابهم الملوك إلى ذلك، ماخلا الكرك والشوبك. فأبى الفرنج، وقالوا: "لا نسلم دمياط حتى تسلموا ذلك كله"، فرضى الكامل. فامتنع الفرنج، وقالوا: "لا بدّ أن تعطونا خمسمائة ألف دينار، لنعمر بهـا ما خربتم من أسوار القدس، مع أخْذ ما ذُكِر من البلاد، وأخْذ الكرك والشوبك أيضـا".

فاضطرّ المسلمون إلى قتالهم ومصابرتهم، وعَبَر جماعة من المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها معسكر الفرنج، وفتحوا مكانا عظيما فى النيل. وكان الوقت فى قوة الزيادة، فإنه كان أول ليلة من توت، والفرنج لا معرفة لهم بحال أرض مصر، ولا بأمر النيل. فلم يشعر الفرنج إلا والمـاء قد غرق أكثر الأرض التى هم عليها، وصار حائلا بينهم وبين دمياط، وأصبحوا وليس لهم جهة يسلكونها، سوى جهة واحدة ضيقة. فأمر السلطان فى الحال بنصب الجسور عند بحر أشموم طناح، فتهيأ الفراغ منها، وعبرت العساكر الإسلامية عليها، وملكت الطريق التى تسلكها الفـرنج إلى دمياط، فانحصروا من سائر الجهات. وقدّر الله سـبحانه بوصول مرمّة عظيمة فى البحر للفرنج، وحولها عدّة حرّاقات تحميها، وسائرها مشحونة بالميرة والسلاح، وسائر ما يحتاج إليه. فأوقع بها شـوانى الإسلام، وكانت بينهما حرب، أنزل الله فيها نصره على المسلمين، فظفروا بها وبما معها من الحرّاقات.

ففتّ ذلك فى أعضـاد الفرنج، وألقى فى قلوبهم الرعب والذلة، بعـد ما كانوا فى غاية الاستظهار والعَنَت على المسلمين،(١) وعلموا أنهم مأخوذون لا محالة. وعظمت نكاية المسلمين بهم، برميهم إياهم بالسهام، وحملهم على أطرافهم(٢). فأجمعوا أمرهم على مناهضة المسلمين، ظنا منهم أنهم يصلون إلى دمياط، فخربوا خيامهم ومجانيقهم، وعزموا على أن يحطموا حطمة واحدة.

---

(١) فى س "... فى غاية الاستظهار على المسلمين والعنت". (٢) كذا فى س، ب (٦٨ أ)، وبالعبارة شىء من الغموض لكثرة الضمائر، ولذا أورد ما يقابلها فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢١٥) للتوضيح، ونصه: "وعساكر المسلمين محيطة بهم، يرمونهم بالنشاب، ويحملون على أطرافهم".

فلم يجدوا إلى ذلك سبيلا، لكثرة (٥٦ ب) الوحل والمياه التى قد ركبت الأرض من حولهم . فعجزوا عن الإقامة لقلة الأزواد عندهم، ولاذوا إلى طلب الصلح ، وبعثوا يسألون الملك الكامل — وأخوته الأشرف والمعظم — الأمان لأنفسهم، وأنهم يسلمون دمياط بغير عوض.

فاقتضى رأى الملك الكامل إجابتهم، واقتضى رأى غيره من إخوته مناهضتهم، واجتثاث أصلهم ألبتة . فخاف الملك الكامل إنْ فعَلَ ذلك أن يمتنع من بقى منهم بدمياط أن يسلمها، ويحتاج الحال إلى منازلتها مدّة ، فإنها كانت ذات أسوار منيعة، وزاد الفرنج عند ما استولوا عليها فى تحصينها، ولا يُؤْمَن فى طول محاصرتها أن يفد ملوك الفرنج نجدة لمن فيها، وطلبا لثأر من قُتِل من أكابرهم . هذا وقد ضجرت عساكر المسلمين، وملت من طول الحرب، فإنها مقيمة فى محاربة الفرنج ثلاث سنين وأشهرا[١] .

وما زال الكامل قائما فى تأمين الفرنج إلى أن وافقه بقية الملوك، على أن يبعث الفرنج رهائن من ملوكهم — لا من أمرائهم — إلى أن يسلموا دمياط . فطلب الفرنج أن يكون ابن الملك الكامل عندهم رهينة ، إلى أن تعود إليهم رهائنهم . فتقرر الأمر على ذلك، وحلف كل من ملوك المسلمين والفرنج ، فى سابع شهر رجب . وبعث الفرنج بعشرين ملكا من ملوكهم رهنا ، منهم يوحنا صاحب عكا[٢]، ونائب البابا[٣] . وبعث الملك الكامل إليهم بابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وله من العمر يومئذ خمس عشرة سنة ، ومعه جماعة من خواصه . وعند ما قدم ملوك الفرنج جلس لهم الملك الكامل مجلسا عظيما ، ووقف الملوك من إخوته وأهل بيته بين يديه بظاهر البَرَمُون[٤]، فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب، فهال

---

(١) فى س واشهر .

(٢) يقصد المؤلف (Jean de Brienne, roi titulaire de Jérusalem) ، وهو قائد هذه الحملة الصليبية فى أولها . (Rec. His. Or. II, 1. P. 124. N. 4.) .

(٣) نائب البابا فى تلك الحملة هو (Cardinal Pélage) . نفس المرجع والجزء والصفحة (N. 5) .

(٤) بغير ضبط فى س ، ويوجد فى (P. Omar Toussoun : Op. cit. I. 1. Pl. II. b.) ذكر للبرمون البحرى والبرمون القبلى ، وكلاهما شمالى بحر تنيس ، بين المنصورة وشربين .

الفرنج ما شاهدوا من تلك العظمة وبهاء ذلك الناموس. وقدمت قسوس الفرنج ورهبانهم إلى دمياط، ليسلموها إلى المسلمين، فتسلمها المسلمون فى يوم الأربعاء التاسع عشر من شهر رجب. فلما تسلمها المسلمون قـدم فى ذلك اليوم من الفرنج نجدة عظيمة، يقال إنها ألف مركب، فَعُدَّ تأخرهم إلى [ما] بعد تسليمها من الفرنج صنعا جميلا من الله سبحانه. وشاهد المسلمون عند [ما] تسلموا دمياط من تحصين الفرنج لها ما لا يمكن أخذها بقوة ألبتة[1].

وبعث السلطان بمن كان عنده فى الرهن من الفرنج، وقدم الملك الصالح ومن كان معه. وتقررت الهدنة بين الفرنج وبين المسلمين مدة ثمانى سنين، على أن كلا من الفريقين يطلق ما عنده من (١٥٧ ا) الأسرى. وحلف السطان وأخوته، وحلف ملوك الفرنج، على ذلك. وتفرق من كان قد حضر للقتال؛ فكانت مدة استيلاء الفرنج على دمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما. ثم دخل الملك الكامل إلى دمياط بعساكره وأهله، وكان لدخوله مسرة عظيمــة وابتهاج زائد. ثم سار الفرنج إلى بلادهم. وعاد السلطان إلى قلعــة الجبل، فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر رمضان. ودخل الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله بن على ابن شكر فى البحر، وأطلق من كان بمصر من الأسرى، وكان فيهم من أُسر من الأيام الصلاحية. وأطلق الفرنج من كان فى بلادهم من أسرى المسلمين.

واتفـق[2] أنه لمـا رحل الفـرنج اجتمع فى ليـلة عند الملك الكامل أخـواه المعظم عيسى والأشرف موسى على حالة أنس، فأمر الأشرف جاريته ست الفخر، فغنّت على عودها: —

ولمـا طـغى فرعون عكا ببغيــه * وجاء إلى مصر ليفسد فى الأرض
أتى نحوهم موسى وفى يده العصا * فأغرقهم فى اليم بعضا على بعض

(١) كان من شروط الصلح أن تكون هدنة بين المسلمين والصليبيين لمدة ثمانى سنين، لا يستثنى منها سوى أصحاب التيجان من ملوك أوربا، فإن لهم أن ينقضوها إذا شاءوا. ولقـد كانت الحملة التى وصلت دمياط، بعد إمضاء شروط الصلح، من عند فردريك الثانى (Frederic II.) إمبراطور الدولة الرومانية المقدّسة. وكان يحق لقائدها أن يكسر الهدنة، دون أن يخل بشروط الصلح؛ غير أن وجود الرهائن لدى الكامل أخاف الصليبيين من عواقب ذلك، فسلموا دمياط حسب الشروط. (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 224),.

(٢) قبالة هذا الخبر، بهامش الصفحة فى س، لفظ "لطيفة"، بخط مخالف.

فطرب الأشرف، وقال لها : "كَرِّرِى" . فشق [ذلك] على الملك الكامل، وأمرها فسكتت، وقال لجاريته : "غَنِّ أنتِ" . فغنت على العود : —

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظروا * لما قد جرى فى وقتنا وتجددا
أعباد عيسى إن عيسى وقومه * وموسى جميعا ينصرون محمدا

فأعجب الكامل بها، وأمر لها بخمسمائة دينار، ولجارية أخيه الأشرف بخمسمائة دينار . فنهض القاضى الأجل هبة الله بن محاسن، قاضى غزة، وكان فى جملتهم، وأنشد : —

حبانا إله الخلق فتحا لنا بدا * مبينا وإنعاما وعزا مجددا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه * وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله[1] الـ * طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سلَّ عزمه * صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم تر إلا كل شِلوٍ[2] مُجَدَّلٍ[3] * ثوى منهمُ أو من تراه مقيدا
ونادى لسان الكون فى الأرض رافعا * عقيرته فى الخافقين ومنشدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبه * وموسى جميعا ينصران[4] محمدا

ويقال إن هذا المجلس كان بالمنصورة . ولما استقر الملك الكامل على تخت ملكه سارت الملوك إلى ممالكها، وعمت بشارة أخذ (٥٧ ب) المسلمين دمياط آفاق الأرض . فإن التتار كانوا قد دمروا ممالك الشرق، وكادت مصر مع الشام يستأصل شأفة أهلها الفرنج، حتى مَنَّ الله بجميل صنعه وخفى لطفه، ونَصَّر عباده المؤمنين، وأيدهم بجنده، بعد ما ابتلى المؤمنون، وزلزلوا زلزالا شديدا .

وقدمت على الملك الكامل تهانى الشعراء بهذا الفتح، فكان أولهم إرسالا شرف الدين ابن عنين، بكلمته التى أولها : —

(١) فى س باهليه .
(٢) الشلو، والشلا، الجسد أو العضو من أعضائه . (محيط المحيط) .
(٣) فى س مجندل .
(٤) كذا فى س، وقد تقدمت بصورة الجمع، فى البيت عينه، سطر ٤ .

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا * إذا جهلت آياتنا والقنـا اللدنا
غداة التقينا دون دمياط جحفلا * من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قـد اجتمعوا رأيا ودينا وهمـة * وعزما و إن كانوا قد اختلفوا سنا
تداعوا بأنصار الصليب وأقبلت * جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غـرور فارقلوا * إلينا سِـراعا بالجهاد وأرقلنـا
فـا بِرِحت سمر الرماح تنوشهم * بأطرافها حتى استجاروا بنـا منا
سقيناهُم كأسا نفت عنهم الكرى * وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا * طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
بدا الموت من زرق الأسنة أحمرا * فألقوا بأيديهـم إلينا فأحسـنا
وما برح الإحسان منا سجية * نورثها من صـيد آبائنا الإبنـا
وقد جـرّبونا قبلها فى وقائع * تعلم غمر القوم منا بهـا الطعنا
أســود وغى لولا وقائع سمرنا * لمـا لبسوا قيدا ولا سكنوا سجنا
وكم يوم حرّ ما وقينا هجيره * وكم يوم قر ما طلبنا له [illegible]
فإن نعيم الملك فى وسـطه الشقا * ينُال وحلو العيش من مره يجُنى
يسير بنـا من آل أيوب ماجد * أبى عزمه أن يستقر بنـا مغنى
كريم الثنا عار عن العار باسـل * جميل المحيا كامل الحسن والحسنى
سرى نحو دميـاط بكل سُمَيْدَع * إمام يرى حسن الثنا المغنم الأسنى
مآثر مجــد خدّرتها ســيوفه * طوال المدى يفنى الزمان ولا تفنى
وقد عرفت أسـيافنا ورقابهـم * مواقعها منا فإن عاودوا عدنا
منحناهمُ منـا حياة جـديدة * فعاشـوا بأعناق مقــلدة منـا
ولو ملكونا لاستباحوا دماءنا * ولوغا ولكنا ملكنا فأسجحنا

وقال :

قسما بما ضمت أباطح مكة * وبمن حواه من الحجيج الموقف

(١٠٨) لولم يقم موسى بنصر محمد * لرقى على درج الخطيب الأسقف

لولاه ما ذل الصليب وأهله * فى ثغر دمياط وعز المصحف

ووردت أيضا قصيدة القاضى الأجل بهاء الدين زهير بن محمد بن على القوصى، وغيره من الشعراء .

وفيها مَلَك التتر مراغة وهمذان وآذربيجان وتبريز[1] . وفيها مات الملك الصالح ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان[2] بن سقمان بن أرتق الأرتقى، صاحب حصن كيفا ؛ وقام من بعده ابنه الملك المسعود داود . وفيها ركب الملك الكامل من قلعة الجبل إلى منظرة الصاحب صفى الدين بن شكر — التى على الخليج بمصر — فى ذى القعدة، وتحدّث معه فى نفى الأمراء الذين وافقوا الفائز . وكانوا فى جيزة دمياط لعمارتها ، فكتب لهم بالتوجه من أرض مصر إلى حيث شاءوا، فمضوا بأجمعهم من الجيزة إلى الشام، ولم يتعرض [الملك الكامل] لشىء من موجودهم، وفرق أخبازهم على مماليكه . وفيها مات أمين الدين مرتفع بن الشعار، والى مصر، فى يوم الجمعة ثالث محرم . ومات متولى تونس وبلاد إفريقية الأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص عمر بن يحيى بن أبى حفص عمر بن وَنُودين[3] الهِنتاتى[4]، فى يوم الخميس أول المحرم، و [كان] قد وَلِى [تونس] من قبل الناصر أبى عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف العَسْرى[5] بن عبد المؤمن، ملك الموحدين، فى سنة اثنتين وستمائة . و [كان أبو محمد قد] قدّم أكبر بنيه، الشيخ أبا زيد عبد الرحمن بن عبد الواحد، فقام بأمر تونس، حتى قدم أخوه أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد، متوليا إفريقية من قبل العادل عبد الله بن

(١) فى س توريز، وبغير ضبط، وإبدال الباء واوا هو النطق "الجارى على ألسنة العامة". (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ٣٥٧) .

(٢) فى س قرا رسلان .

(٣) مضبوطة هكذا فى س (انظر ص ٦٢ ، حاشية ١) .

(٤) بغير ضبط فى س . انظر (Enc. Isl. Art. Hafsids)

(٥) مضبوطة هكذا فى س .

المنصور يعقوب، [ملك الموحدين]، فى خامس رمضان منها ، فاستمر [أبو محمد عبد الله] حتى قام أخوه أبو زكريا يحيى بن عبـد الواحد . [هـذا] والأمير أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص هو أوّل من قام من الحفصيين بإمرة تونس، وهو جدّ ملوك تونس الحفصيين .

* * *

سنة تسـع عشرة وستمائة . فيها قدم الأشرف موسى إلى مصر، فأقام بها عند [أخيه] السلطان [الملك الكامل] مدّة، ثم عاد فى رمضان . وفيها أوقع التتر بالكُرْج . وفيها قدم المظفر موسى على أخيه الكامل بمصر . و[فيها] قدم الملك المسعود (١) يوسف بن الكامل من اليمن إلى مكة (٢) فى ربيع الأوّل، وقد رحل عنها الشريف حسن بن قتادة، وقدم معه راجح ابن قتادة [إلى] مكة . فردّ الملك المسعود على أهل الحجاز أموالهم ونخلهم ، وما أُخذ لهم من الدور بمكة والوادى ، ثم عاد إلى اليمن بعـد ما حج، ومنع أعلام الخليفـة من التقدّم، وقدّم أعلام أبيـه على أعلام الخليفة . وبدا منه بمكة مالا يُحمد ، من رمى حمام الحرم بالبندق من فوق زمزم، ونحو ذلك . فهمّ أهل العراق بقتاله ، فلم يقدروا على ذلك عجزا عنه . واستناب [الملك المسعود] بمكة الأمير نور الدين عمر بن على بن رسول (٣)، ورتب معه ثلثمائة فارس — وكان الشريف حسن بن قتادة قد نزل ينبع . وولى [الملك المسعود] أيضا راجح بن قتادة السِّرّين (٤) وحلْى (٥) ونصف المخلاف (٦) . فجمع الشريف حسن وسار إلى مكة ، وكسر ابن رسـول، وملك منه مكة .

---

(١) تولى الملك المسعود ، واسمه صلاح الدين يوسف ، بلاد اليمن سنة ٦١٢ هـ (١٢١٥ م)، بعد المظفر سليمان . (Lane-Poole: Muh.Dyns. pp.79, 98-99.) (٢) انظر ص ٢٠٦ .

(٣) المعروف أن الملك المسعود أسند ولاية مكة ، فى تلك السنة ، إلى على بن رسول ، والد نور الدين عمر بن على ابن رسول ، المذكور هنا . (Lane-Poole: Muh. Dyns. p. 99.) (٤) بغير ضبط فى س، وهى بلد قريب من مكة ، على ساحل البحر، قرب جدّة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٩) .

(٥) مضبوطة هكذا فى س ، ويسميها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٨٧) الحال ، وهى بلدة على الحدود ، بين اليمن والحجاز ، وبقربها جبل حلى ، وقبالتها مرسى حلى . (Enc. Isl. Art. Hali.) (٦) كذا فى س ، بغير ضبط ، ولعل المقريزى قصد المخلفة ، وهى موضع أسفل مكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٤٣) . أما المخلاف فهـو مرادف الكورة ، وتسـمى كورات اليمن المخاليف ، وقد ذكرها ياقوت (نفس المرجع والجـزء ، ص ٤٣٤ — ٤٤٠ ج ٦ ، فهرس)، وعدتها تسعة وعشرون ومائة .

وفيها مات الأمير عماد الدين أبو العباس أحمد بن الأمير سيف الدين أبى الحسن على بن أحمد الهكارى، المعروف بابن المشطوب ، أحد الأمراء الصلاحية ، فى الاعتقال بحران، فى ربيع الآخر .

* * *

سنة عشرين وستمائة . فيها أخذ المعظم عيسى المعرة وسَلَمْيَة(١) ، ونازل حماة . فشق ذلك على أخيه الأشرف — وكان بمصر — وتحدث مع الكامل فى إنكار ذلك . فبعث [السلطان الكامل](٢) إلى المعظم يسأله فى الرحيل عن حماة، فتركها وهو حَنِق . وفيها حج الملك الجواد(٣) والملك الفائز من القاهرة ، وقدما عَلَم الخليفة على علم السلطان الملك الكامل فى طلوع عرفة(٤) . وفيها خرج الأشرف من مصر إلى بلاده ، ومعه خِلَعُ الملكِ الكامل والتقليد بسلطنة حلب للعزيز ناصر الدين محمد بن الظاهر غازى . فوصل إلى حلب فى شوال، وتلقاه العزيز — وعمره عشر سنين — فأفاض عليه الخلع الكاملية، وحمل الغاشِيَة(٥) بين يديه، وأقام عنده أياما، ثم (٥٨ ب) سار إلى حران .

وفيها عم الجراد بلاد العراق والجزيرة ، وديار بكر والشام . وفيها أوقع التتر بالروس . وفيها شنق سهم الدين عيسى والى القاهرة نفسه — وهو معتقل بدار الوزارة — ليلة الخميس سادس شوال .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بليدة من ناحية البرية ، من أعمال حماة ، بينهما مسيرة يومين ، "ولا يعرفها أهل الشام إلا بسَلَمْيَة" . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٢٣) .

(٢) يوجد فوق هذين اللفظين فى س كلمة "حد" .

(٣) اسمه يونس، وهو ابن مودود بن العادل بن أيوب . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) يلى هذا فى س بياض ، قدر سطر تقريبا ، فيه آثار كتابة ممحوة محوا تاما .

(٥) أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش ، الذى يوضع على ظهر الفرس ، فوق البرذعة . وكان سلاطين الأيوبيين — والمماليك بعدهم — يخرجون فى المواكب و بين أيديهم غاشية ، وفيها يقول القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧) ما نصه : "وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه (السلطان) عند الركوب فى المواكب الحفلة ، كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، رافعا لها على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا ، وهى من خواص هذه المملكة" . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

* * *

سـنة إحدى وعشرين وستّمائة . فيهـا ملك التترُ قُمَّ(١) ، وقَاشَانَ(٢) ، وهمذان . وفيها اختلف الحال بين المظفر غازى ، صاحب إربل ، وبين أخيه الأشرف . فخرج المعظم من دمشق يريد محاربة الأشرف ، فبعث إليـه الكامل يقول له : "إن تحركتَ من بلدك سرتُ وأخذته منك" . فخاف وعاد إلى دمشق . وفيهـا مات الوزير الأعز أبو العباس أحمـد ، المعروف بفخر الدين مقدام بن شكر ، فى آخر شـعبان بالقاهرة . وفيها أخذ عسكر مصر ينبع من بنى حسن ، وكانوا قد اشتروها بأربعة آلاف مثقال ، فلم تزل بيد المصريين إلى سنة ثلاثين .

* * *

سـنة اثنتين وعشرين وستّمائة . فيهـا فرّ الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود(٣) من مصر فى البحر ، خوفا من عمه الملك الكامل ، ولحق بعمه المعظم . وفيهـا تخوّف الكامل من أمرائه ، لميلهم إلى أخيه الملك المعظم . فقَبض على جماعة ، وبعث إلى الطرقات من يحفظها ، وبعث عدة رسـل إلى الملوك الذين فى خدمة أخيه الأشرف يأمرهم بالاتفاق وألا يخالفوه .

وفيها عاد السلطان جلالُ(٤) الدين بن خوارزم شاه [علاء الدين محمد بن تكش] إلى بلاده ، وقوى أمره على التتر ، واستولى على عراق العجم ، وسار إلى ماردين وأخذها ، وسار إلى خوزستان . وشاقق [جلال الدين] الخليفـة الناصر [لدين الله] ، وسار حتى وصل بعقوبا(٥) ، وبينها وبين بغداد سبعة فراسخ ، فاستعد الخليفة للحصار . ونهب جلال الدين البلاد ، وأخذ

(١) بغير ضبط فى س ، وهى من بلاد الفرس ، بالعراق العجمى ، بين إصفهان وساوة . وكان اسمها فى الأصل كُمُنْدان ، فأسقط بعض حروفها ، وعربت إلى قم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٥ — ١٧٧ ؛ و Enc. Isl. Art. Kumm) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بالعراق العجمى أيضا ، على مسيرة ثلاثة أيام من إصفهان ، وتذكر عادة مع قم ، التى تبعد عنها اثنى عشر فرسخا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٥ ؛ و Enc. Isl. Art. Kashān) .

(٣) فى س ممدود . (انظر الصفحة السابقة ، حاشية ٣) .

(٤) فى س جلا الدين ، بسائر الصفحة فى س ، وقد صححت بغير تنبيه بعد هذه المرة . انظر ابن الأثير (الكامل فى التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠٦ وغيرها) .

(٥) بغير ضبط فى س ، ويقال لها باعقوبا أيضا ، وهى من أعمال طريق خراسان ، وتبعد عن بغداد عشرة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٦٧٢) .

منها ما لا يقع عليه حصر، وفعل أشنع ما يفعله التتر. فكاتبه الملك المعظم، واتفق معه معاندة لأخيه الكامل، ولأخيه الملك الأشرف، صاحب البلاد الشرقية . فسير السلطان جلال الدين ابنَ القاضي مجد الدين — قاضي الممالك — فى الرسالة إلى الملك الأشرف، ثم إلى الملك المعظم، ثم إلى الملك الكامل، فتظاهر بأنواع الفسوق . وسار جلال الدين إلى عراق العجم، فملك همذان وتبريز،[1] وأوقع بالكرج .

وفيها مات الملك الأفضل علىّ بن صلاح الدين يوسف، صاحب سميساط، بجأة[2] بسميساط فى صفر، ومولده بمصر يوم عيد الفطر سنة خمس — وقيل ست — وستين وخمسمائة.[3] وهو أكبر أولاد أبيه، وإليه كانت ولاية عهده. وسمع [الأفضل] من ابن عوف وابن برى. واستقل بمملكة دمشق بعد موت أبيه، فلم ينتظم له أمر لقلة حظه، وأخذها منه أخوه العزيز عثمان، صاحب مصر. ثم صار [الأفضل] أتابكا للمنصور بن العزيز (١٥٩ ا) بمصر، وحصَرَ دمشق، وبها عمه [العادل]، وأشرف على أخذها منه، فقطع عليه سوء الحظ، وعاد إلى مصر، وفى أثره عمه العادل، فانتزع منه مصر، ولم يبق معه سوى صرخد. ثم قصد [الأفضل] دمشق ثانيا، مع أخيه الظاهر غازى صاحب حلب، فلم يتم أمرهما لاختلافهما، وصار بيده سميساط لا غير. فلما مات أخوه الظاهر طمع فى حلب، وخرج إليها مع السلطان عز الدين كيكاوس السلجوقى ملك الروم، فلم يتم لهما أمر. وعاد [الأفضل] إلى سميساط، فلم يزل بها يتجرع الغصص حتى مات كمدا. وكان فاضلا أديبا حليما، حسن السيرة متجاوزا، يكتب الخط المليح، جامعا لعدة مناقب، إلا أنه كان قليل الحظ. وشعره جيد: كتب إلى الخليفة الناصر [لدين الله] — لما انتزع منه دمشق أخوه العزيز عثمان وعمه العادل أبو بكر — فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، كتابا يشكو إليه اغتصابهما ميراثه من أبيه، وأوله :

مولاى! إن أبا بكر وصاحبه   عثمان قد أخذا بالسيف إرث على
فانظر إلى حظ هذا الإسم كيف لقى   من الأواخر ما لاقى من الأُوَل

(١) فى س تور يز . (٢) هذا اللفظ مطموس بمداد فى س، ولكنه فى ب (٧٠ ب) .
(٣) ولد الأفضل علىّ سنة ٥٦٦ هـ (Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket) .

وله أيضا فى معناه :

أما آن للســـعد الذى أنا طالب — لإدراكه يوما يُرى وهـــو طالبى
ترى[هل] يرينى الدهر أيدىَ شيعتى — تَمَكَّن يوما من نواصى النواصب

فأجابه الخليفة بقوله :

وافى كتابك يا بن يوســف معلنــا — بالودّ يخــبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليــا حقــه إذ لم يكن — بعـــد النبى له بيـــثرب ناصـــر
فابشر فإن غدا يكـــون حسابهم — واصـــبر فناصرك الإمام النــاصر

ومن شعره :

أيامن يسوّد شَـعره بخضـابه — لعساه من أهل الشبيبة يحصـــل
ها فاختضب بســواد حظى مرّة — ولك الأمان بأنه لا ينصـــل(١)

وقام من بعده بسمياط أخوه الملك المفضل قطب الدين موسى شقيقه ، فاختلف عليه أولاد الأفضل .

وفيها مات الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المســتضىء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوســف ، فى ثانى شهر شــوّال ؛ ومولده فى العــاشر من شهر رجب ســنة ثلاث وخمســين وخمسمائة . وله فى الخلافة ســبع وأربعون سنة ، غير ستة وثلاثين يوما . وكانت أمه أمّ ولد ، يقال لها زمرد، وقيــل نرجس(٢) . وكان شهــما أبىّ النفس ، حازما متيقظا ، صاحب فكر صائب ، ودهاء ومكر . وكان مهيباً(٣) ، وله أصحاب (٥٩ ب) أخبار — بالعراق وفى الأطراف — يطالعونه بجزئيات الأمور وكلياتها . فكان لايخفى عليه أ كثر أحوال رعيته ، حتى أن أهل العراق يخاف الرجل منهم أن يتحدّث مع امرأته ، لمــا يظن أن ذلك يطلع عليه

(١) العبارة الآتيــة مكتوبة بهامش الصفحة فى س ، بخط مخالف ، ونصها : " هذان البيتان ... ... الافضـــل " ؛ والبياض مكان ألفاظ تعذرت قراءتها . ويلاحظ أن خط هذه العبارة يشبه كثيرا خط كاتب الجملة " ملكه محمـــد المقريزى " ، الواردة بصفحة العنوان . (انظر ص ٥ ، حاشــية ٥) . (٢) لم يترجم (Blochet : Op. cit. P. 351) بعـــد هذا اللفظ شيئا ممــا هنا من أخبار الناصر لدين الله ، مع وروده بمخطوطة السلوك التى ترجم منها . وقد تعمد (Blochet) هذا الحذف ، لوجود ترجمــة ذلك الخليفة فى وفيات الأعيان ، لابن خلكان . (٣) فى س مهابا .

الخليفة، فيعاقَب عليـه . وعمل شخص دعوة ببغداد، وغسل يده قبل أضيافه ، فعلم الخليفة بذلك من أصحاب أخباره ، فكتب فى الجواب : " سوء أدب من صاحب البلد ، وفضول من كاتب المطالعة[1] " . وكان ردىء السيرة فى رعيته،ظالمـا عسوفا : خرب العراق فى أيامه، وتفـرّق أهله فى البلاد ، فأخذ أملاكهم وأموالهم . وكان يحب جمع المـال ، ويباشر الأمور بنفسه،ويركب بين الناس ويجتمع بهم، مع سفكه للدماء، وفعله للأشياء المتضادة : فيغتصب الأموال ويتصدّق . وشـغف برمى الطير بالبندق، ولَبِس سراويلات الفتوة ، وحَمّل أهل الأمصار على ذلك[2]، وعمل سالم بن نصر الله بن واصل الحموى فى ذلك رسالة بديعة . وصنف الناصر[لدين الله] كتابا فى مروياته، سماه روح العارفين، وأسمعـه [للفقهاء بمصر[3] والشام] ، وله شعر . وفى خلافته خرب التتر بلاد المشرق، حتى وصلوا إلى همذان ؛ وكان هو السبب فى ذلك : فإنه كتب إليهم بالعبور إلى البلاد،خوفا من السلطان علاء الدين محمد بن خوارزم شاه، لمـا هم بالاستيلاء على بغداد، وأن يجعلها دار ملكه، كما كانت السلجوقيـة . ولم يمت [الخليفـة الناصر لدين الله] حتى عمى، وقيـل كان يبصر بإحدى عينيـه . وقام من بعـده فى الخلافة ابنـه الظاهر بأمر الله[4] أبو[5] نصر محمد — بعهد من أبيه — يوم مات أبوه، وعمره ما ينيف على خمسين سـنة . وكان يقول " مَنْ يَفتح دكانه العصر متى يَستفتح؟[6]". ولمـا ولى

(١) فى هامش الصفحة فى س العبارة الآتية : "انظر اذا تقدم الشخص اضيافه لغسل يديه"، وهى بخط مخالف .
(٢) انظر ص ١٧٢، سطر ٤ . (٣) انظر ص ١٨٠، سطر ١٥ . (٤) لهذه التسمية سبب، وهو — كما جاء فى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢٨٧) — أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد خلع ولده أبا نصر محمد ، وهو أكبر ابنيه، من ولاية العهـد، وولى بدله ولده الصغير عليا ، لشدة حبه له . ثم حدث أن عليا توفى سنة ٦١٢ هـ ، (انظر ص ١٨١، سطر ٧)، فاضطر الخليفة إلى إعادة أبى نصر محمد إلى ولاية العهد . فلما توفى الناصر، وأصبح أبو نصر خليفة ، لقب نفسه بالظاهر بأمر الله، وقصد بذلك أن أباه أراد صرف الأمر عنه ، فظهر وولى الخلافة بأمر الله . (٥) فى س ابى . (٦) أفاض ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٢٨٧ — ٢٨٩) فى ذكر أعمال الخليفـة الجديد ، ومما قال : " ولمـا ولى [الظاهر بأمر الله] الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به عهد العمرين، فلو قيل إنه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القايل (كذا) صادقا : فإنه أعاد من الأموال المغصوبة، فى أيام أبيه وقبله، شيئا كثيرا... (٢٨٩) ... ... ومن حسن نيته للناس أن الأسعار فى الموصل وديار الجزيرة كانت غالية، فرخصت الأسعار . وأطلق حمل الأطعمة إليها، وأن يبيع كل من أراد البيع للغلة ... وأمر أن يباع من الأهراء التى له طعام أرخص مما يبيع غيره، ففعلوا ذلك، فرخصت الأسعار عندهم أيضـا، أكثر مما كانت أولا ... ... ولقد سمعت عنه كلمة أعجبتنى جدا، وهى أنه قيل له فى الذى يخرجه ويطلقه من الأموال، التى لا تسمح نفس ببعضها، فقال لهم : "أنا فتحت الدكان بعد العصر، فاتركونى أفعل الخير! فكم أعيش ؟".

أظهر العدل، وأزال عدّة مظالم، وأطلق أهل السجون، وظهر للناس، وكان من قبله من الخلفاء لا يظهرون إلا نادرا .

وفيها وصل الملك المسعود من اليمن إلى مكة، ومضى إلى القاهرة من طريق عيذاب ، فقــدم على أبيــه الكامل بقلعة الجبــل ، ومعه هدايا جليــلة . وفيها مات الوزير الصاحب صفى الدين عبــد الله بن أبى الحسن على بن الحسين بن عبد الخالق بن الحســين بن الحسن ابن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن على الشيبى، أبو محمد المعروف بابن شكر، الفقيه الدَّمِيْرِى[1] المــالكى، فى يوم الجمعة ثامن شعبان — وقيل شوّال — بالقاهرة؛ ودفن برباطه منها . وكان مولده بدَمِيْرَة، إحدى قرى مصر البحرية، فى تاسع صفر سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ؛ وسمــع من ابن عوف وغيره ، وحدّث . وكان جبارا (١٦٠) جبَّارا عاتيــا ، عانيا بتقــدمة الأراذل وتأخر الأماثل ؛ أَفْقَرَ خلقا كثيرا .

وفيها قدم الشريف قاسم الحُسَيْنى أمير المدينة ، بعســكر إلى مكة، وحصرها نحو شهر، وبها نواب الملك الكامل، فلم يتمكن منها، بل قُتل .

* * *

سنة ثلاث وعشرين وستمائة . فيها تأكدت الوحشة بين المعظم وبين أخويه الكامل والأشرف . وفيها بعث الخليفــة الظاهر بأمر الله التشاريف للملوك بنى أيوب ، على يد محيى الدين أبى المظفر بن الحــافظ جمال الدين أبى الفرج بن الجَوْزى[2] : فبــدأ بالأشرف موسى صاحب البــلاد الشرقية، وأفاض عليه الخلع الخليفتية ؛ ثم بالعزيز غياث الدين محمــد ابن الظاهر صاحب حلب، فأفاض عليه فَرَجية واسعة الكم سوداء، وعمامة سوداء مذهبة،

---

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى دميرة، وهى إحدى قريتين متقابلتين على النيل ، تسمى كل منهما دميرة ، قرب دمياط . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٦٠٢). (٢) اشتهر فى عالم التأليف من أسرة ابن الجوزى اثنان ، وهما : عبــد الرحمن بن على بن محمــد أبو الفرج جمال الدين ابن الجوزى ، الحنبلى الفقيه المؤرخ ، صاحب كتاب المنتظم والملتقط الملتزم فى التاريخ ، مات ببغداد سنة ٥٩٧ هـ ، (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi)؛ وسبط ابن الجوزى ، واسمــه شمس الدين أبو المظفر يوسف بن كزوغلو ، وهو ابن بنت عبــد الرحمن المذكور، ولد ببغداد ســنة ٥٨٢ هـ ، وتوفى بدمشق ســنة ٦٨٤ هـ ، وهو صاحب كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzi, Sibt) .

وثوبا[(١)] مطرزا بالذهب أيضا، ثم ألبس المعظم عيسى، صاحب دمشق، بدمشق. وسار إلى القاهرة بالتقليد والخلع للملك الكامل، ولأولاده الملك الصالح نجم الدين أيوب والملك المسعود، وللصاحب صفى الدين بن شكر. فبرز الملك الكامل إلى ظاهر القاهرة، ولبس الخلع الخليفتية هو وولداه[(٢)]. وكان الصاحب صفى الدين قد مات، فألبس [الكامل] الخلعة التى باسمه للقاضى فخر الدين سليمان بن محمود بن أبى غالب أبى الربيع الدمشقى، كاتب الإنشاء. وعبر [الكامل] من باب النصر، وشق القاهرة إلى أن صعد قلعة الجبل، فكان يوما مشهودا.

وفيها قبض الملك الكامل على أولاد الصاحب صفى الدين بن شكر، وأحاط بجميع موجوده، واعتقل ابنيه تاج الدين يوسف، وعز الدين محمد، فى قاعة سهم الدين، بدرب الأسوانى[(٣)] من القاهرة. ولم يستوزر [الكامل] بعد ابن شكر أحدا.

وفيها سافر الملك المسعود من القاهرة إلى اليمن. وفيها كثر وَهْمُ الملك الكامل من عسكره، فإن المعظم أرسل إليه فى جملة كلام: "وإن قصدتنى لا آخذك إلا بعسكرك". فوقع فى نفسه الخوف ممن معه، وهمّ أن يخرج من مصر، فلم يجسر. وخرج المعظم فنازل حمص، وخرب قراها ومزارعها، ولم ينل من قلعتها شيئا، لامتناعها هى والمدينة عليه. فلما طال مقامه على حمص رحل عنها، لما أصاب عسكره ودوابه من الموت. وقدم عليه أخوه الأشرف جريدة، فسر به سرورا عظيما، وأكرمه إكراما زائدا.

وفيها مات الخليفة الظاهر بأمر الله [أبو نصر] محمد بن الناصر، فى رابع عشر شهر رجب، فكانت خلافته تسعة أشهر وتسعة أيام؛ وكان حسن السيرة كثير المعروف. واستقر فى الخلافة من بعده ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، وعمره عشرون سنة؛ فوردت عليه رسل ملوك الأطراف. وبعث الملك الكامل (٦٠ ب) فى الرسالة معينَ الدين حسن بن

(١) فى س: والثوب مطرز. (٢) فى س: ولديه. (٣) يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٣٧)، فى باب ذكر الدروب والأزقة، إن درب الأسوانى "ينسب إلى القاضى أبى محمد الحسن بن هبة الله الأسوانى، المعروف بابن عتاب"، غير أنه لم يذكر شيئا عن قاعة سهم الدين.]

شيخ الشيوخ [صدر الدين] بن حمويه[١] ؛ فلما قدم بغداد قال نيابة عن الملك الكامل ، وهو بين يدى الوزير مؤيد الدين أبى الحسن محمد بن محمد القُمّى : "عبد الدولة المقدسة المستنصرية يقبل العتبات ، التى يَستشفى بتقبيل ثراها ، ويَستكفى بتمسكه من عبوديتها بأوثق عراها ، ويوالى شكر الله تعالى على إماطة ليل العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح عن شمس الهدى شفق الإشفاق ، بجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخرة والأولى" . وفيها قدم رسول علاء الدين كيقباد ، ملك الروم ، بتقدمة جليلة إلى الملك الكامل .

+ + +

سنة أربع وعشرين وستمائة . فيها سافر الأشرف إلى بلاده من دمشق ، بعد ما حلف للمعظم أنه يعاضده على أخيه الملك الكامل ، وعلى الملك المجاهد صاحب حمص ، والناصر صاحب حماة . وفيها سافر رسول [علاء الدين كيقباد] ، ملك الروم ، من مصر إلى مخدومه. وفيها تأكدت الوحشة بين الكامل وبين أخويه المعظم والأشرف ؛ وخاف [الكامل] من انتماء أخيه المعظم إلى السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، فبعث الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ [صدر الدين بن حمويه[٢]] إلى ملك الفرنج[٣] ، يريد منه أن يقدم إلى عكا ،

(١) تقدم ذكر شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه ، فى أخبار الملك العادل ، تحت سنة ٦١٤ هـ ، (انظر ص ١٨٦) . وقد توفى بالموصل سنة ٦١٧ هـ ، وترك من الأولاد أربعة ، عرف كل منهم بابن الشيخ ، وهم فخر الدين وعماد الدين وكمال الدين ومعين الدين . وذكرهم المقريزى جميعا فيما يلى ، عند ذكر وفاة السلطان الكامل ، فترجم لهم ، وقال إن أمهم — وهى ابنة القاضى شهاب الدين بن عصرون — أرضعت الملك الكامل ، فهم أخوته من الرضاعة . انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ٩٥ ، ١١٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) انظر الحاشية السابقة .

(٣) يقصد المقريزى بملك الفرنج فردريك الثانى (Frederic II.) ، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان هذا الإمبراطور قد نذر يوم تتويجه ، سنة ١٢١٥ م (٦١٢ هـ) ، أن يرافق الحملة الصليبية ، المعروفة فى التاريخ الأوروبى بالخامسة ، والتى كان غرضها الديار المصرية . غير أن أمورا داخلية عاقته ، فلم يستطع الوفاء ، وسارت الحملة بقيادة (Jean de Brienne) ، وحاصرت دمياط (انظر ص ١٨٨ ، وما بعدها) . على أن الإمبراطور لم يأل جهدا فى بث الدعوة للحملة فى أنحاء بلاده ، بل أرسل نجدة ألمانية سنة ١٢٢١ م (٦١٨ هـ) ، شاع أنه سيرافقها ، ولكنه لم يفعل . وهذه الحملة هى التى وصلت الشواطئ المصرية بعد إمضاء شروط الصلح بين الملك الكامل والصليبيين ، (انظر ص ٢٠٨ ، وما بعدها) . ولقد كان سلوك الإمبراطور مجلبة لغضب البابوات ، الذين تعاقبوا =

ووعده أن يعطيه بعض ما بيد المسلمين من بلاد الساحل، ليشغل سر أخيه[1] المعظم ؛ فتجهز الإمبراطور[2] ملك الفرنج لقصد الساحل .

وبلغ ذلك المعظم، فكتب إلى السلطان جلال الدين يسأله النجدة على أخيه الكامل ، ووعده أن يخطب له ، ويضرب السكة باسمه . فسير إليه [جلال الدين] خلعة لبسها ، وشق بها دمشق ، وقطع الخطبة للملك الكامل . فبلغ ذلك الكامل ، فخرج من القاهرة بعساكره ، ونزل بلبيس فى شهر رمضان . فبعث إليه المعظم : "إنى نذرت لله تعالى أنّ كل مرحلة ترحلها لقصدى أتصدق بألف دينار ؛ فإن جميع عسكرك معى ، وكتبهم عندى ، وأنا آخذك بعسكرك" . وكتب [المعظم مكاتبة] بهذا فى السر، ومعها مكاتبة فى الظاهر [فيها] : "بأنى مملوكك، وما خرجتُ عن محبتك وطاعتك، وحاشاك أن تخرج وتقابلنى، وأنا أوّل من أنجدك، وحضر إلى خدمتك، من جميع ملوك الشام والشرق". فأظهر الكامل هذا بين الأمراء، ورجع من العباسة إلى قلعة الجبل ، وقبض على عدّة من الأمراء (٦١ أ) ومماليك أبيه، لمكاتبتهم المعظم : منهم فخر الدين الطنبا الحُبَيْشى[3]، وفخر الدين الطن الفيومى[4] — وكان أمير جانداره؛

= على كرسى البابوية بروما ، فأراد الإمبراطور، سنة ١٢٢٧م (٦٢٤هـ) ، أن يستجلب رضا البابا القائم إذ ذاك ، وهو (Gregory IX)، فأبحر من جنوبى إيطاليا ، على رأس حملة صليبية ضخمة . غير أنه اضطر إلى العود قبل أن تبرح سفنه المياه الإيطالية ، بسبب حمى انتابته . فاعتبر البابا المرض تمارضا ، وأعلن سخطه على الإمبراطور، وصب جام غضبه عليه ، بإعلان حرمانه من الكنيسة . (Excommunication) . بل إنه لما شفى الإمبراطور، وعزم عزما أكيدا على الذهاب إلى الشام، منعه البابا من الرحيل منعا . ورغم ذلك أبحر الإمبراطور، وعلى رأسه حرمان الكنيسة ، وحملته هى المعروفة فى التاريخ الأوروبى بالسادسة . ووصل الإمبراطور عكا ، فى سبتمبر سنة ١٢٢٧ ، (شوال سنة ٦٢٤هـ) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East. pp. 307 - 310.) . هناك جاءه فخر الدين بن حمويه ، رسولا من عند الكامل ، وستأتى بقية أخبار السلطان والإمبراطور فيما يلى .

(١) عبارة السلوك هنا مشابهة لما فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٠٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، وهذا يرجح الظن بأن المقريزى اقتبس هنا من أبى الفداء، مباشرة أو عن طريق غير مباشر .

(٢) فى س الانبرطوز، وهذه قراءة غريبة للفظ (Imperator) اللاتينى ، أو ما يرادفه فى اللغات الأوربية الحديثة ، ولعل التشويه مقصود . أما الصيغة الغالبة فى كتب المؤرخين المسلمين لهذا اللفظ فهى "الانبرور" ، وهى قريبة من منطوقه فى الفرنسية والإنجليزية .

(٣) مضبوط فى س ، بضم الحاء ، وكسر الباء ، فقط . واسمه فى العينى (عقد الجمان ، ج ١٨ ، قسم ١ ، ص ٤١) فخر الدين الطبنا .

(٤) كذا فى س . واسمه فى العينى (نفس المرجع والجزء والقسم والصفحة) فخر الدين الفيومى .

وقبض أيضا على عشرة[1] أمراء من البحرية[2] العادلية، واعتقلهم وأخذ سائر موجودهم، وانفق فى العسكر ليسير إلى دمشق .

وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك الكامل، و[كان فيها] عدّة خيول، منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر . فتلقاه الكامل بالإقامات، من الإسكندرية إلى القـاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراما زائدا، وأنزله فى دار الوزير صفى الدين بن شكر . واهتمّ الكامل بتجهيز هدية سنية إلى ملك الفرنج: فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم، ما قيمته أضعاف ما سيره؛ وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية . وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن[3] منقذ الشيزرى .

وفيها وصل رسول الأشكرى[4] فى البحـر إلى الملك الكامل . فسـار المعظم من دمشـق لتخريب القدس، فخرّب قلاعا وعدة صهاريج[5] بالقدس، لمـا بلغه من حركة ملك الفرنج .

وفيها جهز الملك الكامل كمال الدين ومعين الدين، ولدى شيخ الشيوخ ابن حمويه — ومعهما الشريف شمس الدين الأرموى، قاضى العسكر — إلى المعظم . و[أَمر السلطانُ الكاملُ] أن يسير الكمال بجواب المعظم إلى [الملك] المجاهد [أسـد الدين شيركوه] بحمص، ويعرفه الحال؛ و[أن] يتوجه المعين إلى بغداد، برسالة إلى الخليفة؛ فتوجّها فى شعبان .

وفيها اتفق عيد الفطر يوم عيد اليهود وعيد النصارى . [وفيها] خُتن الملك العادل أبو بكر ابن الملك الكامل فى تاسع شوال .

---

(١) فى س عشر .

(٢) ورود لفظ "البحرية" هنا يوجب الالتفات، فالمعروف أنه لم يطلق على أجناد السلاطين الأيوبيين إلا بعد أن أسس الملك الصالح أيوب (٦٣٧ — ٦٤٧ هـ) جيشا جديدا من المماليك، أسكنهم قلعة الروضة على بحر النيل، "وسماهم بهذا الاسم ." (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦؛ و Enc. Isl. Art. Bahri) .

(٣) انظر ص ١٢٥، حاشية ٤ .

(٤) إمبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية تلك السنة هو (John III Ducas Vatatzes)، ١٢٢٢ — ١٢٥٤ م، ٦٧٩ — ٦٥٢ هـ (Camb. Med. Hist. IV. pp. 427 - 428.) . انظر أيضا ص ١٧٩، حاشية ٢ .

(٥) انظر مدى التخريب الذى أحدثه المعظم بالقدس فى (Enc. Isl. Art. Al-Kuds) .

وفيها مات الملك المعظم أبو الفتح عيسى بن الملك العادل، صاحب دمشق، يوم الجمعة سلخ ذى القعدة بدمشق؛ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى الصالحية . ومولده بدمشق، فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة[١] . وكان قد خافه الملك الكامل، فسُرّ بموته . وكان كريما شجاعا، أديبا ليِّنا، فقيها متغاليا فى التعصب لمذهب أبى حنيفة – رحمه الله – ،وشارك فى النحو وغيره. وقال له أبوه [مرة]: "كيف اخترتَ مذهب أبى حنيفة، وأهلك كلهم شافعية؟"فقال: "يا خوند[٢] ! أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم ؟ " وصنف كتابا سماه السهم المصيب، فى الرد على الخطيب [البغدادى] ، أبى بكر أحمد بن ثابت، فيما تكلم به فى حق أبى حنيفة، فى تاريخ بغداد . وكان مقداما، لا يفكر فى عاقبة، جبارا مُطَّرِحا للابس، وهو الذى أطمع الخوارزمى فى البلاد . وكانت[٣] مدة ملكه – بعد أبيه – ثمانى (٦١ ب) سنين وسبعة أشهر غير ثمانية أيام . فقام من بعده ابنه الملك الناصر داود، وعمره إحدى وعشرون[٤] سنة . وسير[٥] [الناصر] كتبه إلى عمه الملك الكامل، فجلس [الكامل] للعزاء، وسير إليه الأمير علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى بالخلعة وسنجق السلطنة ، وكتب معه بما طيّب[٦] قلبه . فلبس [الناصر] خلعة الكامل، وركب بالسنجق . ثم أرسل إليه الكامل يريد منه أن يترك له قلعة الشوبك، ليجعلها خزانة له . فامتنع من ذلك،وبهذا وقعت الوحشة بينه و بين عمه الكامل.

وفيها أمر الملك الكامل بتخريب مدينة تنيس، فخربت أركانها الحصينة وعمائرها المكينة، ولم يكن بديار مصر أحسن منها، واستمرت من حينئذ خرابا .

وفى شهر رجب من هذه السنة دعا لنفسه بتونس الأميرُ أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد ابن أبى حفص، وتلقب بالسلطان السعيد . فلم ينازعه أحد فى مملكة إفريقية، وكان قد ضعف أمر بنى عبد المؤمن .

(١) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة فى س، وهى بخط مخالف ، ونصها : " مات الملك المعظم عيسى رحمة الله تعالى عليه" . (٢) لفظ تركى أو فارسى ، وأصله خداوند بضم الخاء، ومعناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء ، والخوند فى اصطلاح عشائر لبنان من كان فى الرتبة دون الأمير، وفوق الشيخ أو المقدم . (محيط المحيط ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . (٣) فى س وكان . (٤) فى س عشرين . (٥) فى س فسير . (٦) فى س طلب .

* * *

سنة خمس وعشرين وستمائة . فيها سيَّر الملك الكاملُ شيخَ[1] الشيوخ ابن حمويه بالخلع، إلى ابن أخيه الناصر داود بن المعظم، بدمشق . فحمل الرسول الغاشية بين يديه، ثم حملها عمّاه[2] : [الملك] العزيز [عثمان صاحب بانياس]، و[الملك] الصالح [عماد الدين إسمعيل، صاحب بصرى[3]] . و[فيها] جهز [الملك الكامل] أيضا الخلع للمجاهد، صاحب حمص .

وفيها استوحش الملك الكامل من ابن أخيه الناصر داود، وعزم على قصده، وأخذ دمشق منه . وعهد [الكامل] إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده [بديار مصر]، وأركبه بشعار السلطنة، — وشق [الصالح] القاهرة، وحملت الغاشية بين يديه، تداول حملها الأمراء بالنوبة — وأنزله بدار الوزارة، وعمره يومئذ نحو اثنتين وعشرين سنة .

وفيها ظلم الأمجد بهرام شاه بن عز الدين فرخشاه — صاحب بعلبك — وتعدى، وأخذ أموال أهل بعلبك وأولادهم . فقام عدة من جنده مع العزيز فخر الدين عثمان بن العادل في تسليمه بعلبك، فسار [العزيز] إليها ونازلها . فقبض الأمجد [على] أولئك الذين قاموا معه، وقتل بعضهم، واعتقل باقيهم . ثم إن الناصر داود، صاحب دمشق، بعث إليه من رحّله عن بعلبك قهرا، فغضب وسار إلى الملك الكامل، ملتجئا إليه . فسر به [الكامل]، ووعده بانتزاع بعلبك من الأمجد وتسليمها إليه .

وفيها ظلم الناصر داود أهل دمشق، وأخذ أموالهم، واشتغل باللهو، وأعرض عن مصالح الدولة . فشق ذلك على الكامل، وجعله سببا يؤاخذه به، وتجهّز في شهر رجب للسير لمحاربته، واستناب على مصر ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ليحصل الأموال ويدبر أمور المملكة . وخرج [الكامل] من القاهرة يوم الأحد تاسع عشر شعبان — في عساكره المتوافرة — ومعه المظفر تقي الدين محمود

(١) يقصد المقريزي واحدا من أبناء شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه . (انظر ص ٢٢١، حاشية ١) .

(٢) في س ١ عمامه . (٣) أضيف ما بين الأقواس من العيني (عقد الجمان، ج ١٨، قسم ١، ص ٥٨) .

ابن المنصور، وقد وعده أن يسلمه حماة، [وكانت بيد أخيه[١] قلج أرسلان]؛ والملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل، وكان قد رباه عمه الملك الكامل بعد موت أبيه، وأقطعه البحيرة من ديار (١٦٢ ا) مصر.

فلما بلغ الناصر خروج عمه لم يمل إلى استعطافه، والتجأ إلى عمه الأشرف. فسار الكامل بالعسكر والعربان إلى تل العجول، وبعث منها إلى نابلس والقدس وأعمالها. وسيَّر [الكامل] الأمير حسام الدين أبا على بن محمد بن أبى على الهذبانى — أحد أصحاب المظفر تقى [الدين] محمود — إلى القاهرة، فاستخدمه الملك الصالح، وجعله أستاداره. فاستولت أصحاب الملك الكامل على نابلس والقدس.

وبلغ ذلك الناصر، فخلف عسكره، واستعد للحرب. وقدم إليه عمه الصالح صاحب بصرى، والأمير عز الدين أيبك من صرخد، [وأصله مملوك[٢] أبيه المعظم]، فقويت بهما نفسه. وسيَّر [الناصر] يستدعى عمه الأشرف من البلاد الشرقية، مع الأمير عماد الدين بن موسك، وفخر القضاة نصر الله بن بصاقة؛ وأرد فهما بالأشرف بن القاضى الفاضل. فأجاب [الأشرفُ] إلى معاونته، واستناب فى بلاده الملك الحافظ بن العادل، وسار [إلى دمشق]. فتلقاه [قلج أرسلان] صاحب حماة، من سلمية، بأموال وخيول، وتلقاه [أسد الدين شيركوه]، صاحب حمص، وأولاده. وقدم [الأشرف] إلى دمشق، فتلقاه الناصر فى أخريات شهر رمضان، وزين دمشق لقدومه؛ فدخل القلعة وعليه شاش علم كبير، وهو مشدود الوسط بمنديل[٣]. وقد سر الناصر به سرورا كبيرا، وحكَّمه فى بلاده وأمواله. فأعجب[٤] الأشرف بدمشق، وعمل فى الباطن على انتزاعها لنفسه من الناصر. ثم قدِم [إلى خدمة الأشرف[٥] بدمشق] المجاهدُ

---

(١) انظر ص ٢٠٥، سطر ٩، وما بعده.

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣١٦).

(٣) عبارة المقريزى هنا تشبه كثيرا ما يقابلها فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٠٣، فى Rec. Hist. Or. I.). (٤) فى س فعجب.

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٠٣، فى Rec. Hist. Or. I).

أسد الدين شيركوه بن محمد، صاحب حمص . وسار العزيز بن العادل إلى خدمة الملك الكامل، وهو فى الطريق، فسر بقدومه، وأعطاه شيئا كثيرا .

وسير الأشرف إلى الكامل الأميرَ سيف الدين علىّ بن قلج، يشفع فى الناصر، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه، ويقول : " إنا كانا فى طاعتك، ولم نخرج عن موافقتك "؛ فأكرم الملك الكامل الرسول. ثم سار الأشرف — ومعه الناصر — من دمشق، يريدان ملاقاة الملك الكامل والترامى عليه، ليصلح الأشرف الأمر بينهما . فلما بلغ الكامل مسيرهما شق عليه، ورحل من نابلس يريد العود إلى القاهرة. فنزل الأشرف والناصر بنابلس، فأقام بها الناصر، ومضى الأشرف والمجاهد إلى الكامل . فبلغه قدوم الأشرف وهو بتل العجول، فقام إلى لقائه، وقدم به إلى معسكره. ونزلا فكان الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود، وأن تكون للملك الأشرف وما معها إلى عقبة فيق؛ ويكون للكامل (٦٢ ب) ما بين عقبة فيق وغزة من البلاد والحصون، وهو الفتح الصلاحى بأسره؛ ويكون للناصر — عوضا من دمشق — حران والرقة وسروج ورأس عين، وهى ما كان مع الأشرف؛ وأن تُنزع بعلبك من الأمجد بهرام، وتعطى لأخيهما العزيز عثمان؛ و[أن] تُنزع حماة من الملك الناصر قلج أرسلان بن المنصور، وتعطى للظفر تقى الدين محمود بن المنصور؛ وأن تؤخذ من المظفر سلمية، وتضاف إلى المجاهد صاحب حمص .

وفيها مات طاغية المغل والتتر جنكزخان[1]، بالقرب من صارُو بالِق[2]، وحُمل ميتا إلى كرسى

(١) فى س جنكص قان . (٢) كذا فى س بغير ضبط، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يخبر بشىء عن هـذا البلد . على أنه ورد فى (Enc. Isl. Art. Bālik) أن لفظ بالق تركى قديم، معناه بلد، وأنه كثيرا ما يضاف إلى اسم آخر، مثل خان بالق وبشبالق، وهذا الثانى اسم بلد فى التركستان الصينى، ومعناه المدن الخمس (Pentapolis)، انظر (Ibid. Art. Bishbālik) . راجع أيضا القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٧٩ — ٤٨٠)، إذ يقول إن خان بالق عاصمة الصين، وإنها بأقاصى الشرق عند بلاد الخطا، وإنها عبارة عن مدينتين، قديمة وجديدة، والجديدة منهما اسمها ديدو . ويقول القلقشندى أيضا (نفس المرجع والجزء، ص ٤٨١، ٤٨٤) إن ببلاد الصين بلدا اسمه جالق، وإنه قاعدة بلاد الخطا . أما عن مكان وفاة جنكزخان =

ملك الخِطّا[١] . ورُتِّب بعده ابنه الأصغر عوضه خانا كبيرا[٢] ، على كرسى مملكة الخطا ، وأَخَذ إخوته الثلاثة بقية الأقاليم .

وفيها خرج التتار إلى بلاد الإسلام ، فكانت لهم عدّة حروب مع السلطان جلال الدين [خوارزم شاه] ، كُسر فيها غير مرة ، ثم ظفر أخيرا بهم ، وهزمهم . فلما خلا سره منهم سار[٣] إلى خلاط — من بلاد الأشرف — فنهب وسبى الحريم ، واسترق الأولاد ، وقتل الرجال ، وخرب القرى ، وفعل ما لا يفعله أهل الكفر . ثم عاد إلى بلاده ، وقد زلزل بلاد حران والرها وما هنالك ، و رحل أهل سروج إلى منبج . وكان [قد] عزم على قصد بلاد الشام ، لكن صرفه الله عنها .

وفيها قدم الإمبراطُور[٤] ملك الفرنج إلى عكا ، باستدعاء الملك الكامل له ، كما تقدّم ، ليشغل سرّ أخيه المعظم ، فاتفق موت المعظم . ولما وصل ملك الفرنج إلى عكا بعث رسوله إلى الملك الكامل ، وأمره أن يقول له : " الملك يقول لك كان الجيّد والمصلحة للسلمين أن يبذلوا كل شيء ، ولا أجيء[٥] إليهم . والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي — فى زمن حصار دمياط — الساحلَ كله ، و إطلاق الحقوق بالإسكندرية ، وما فَعَلْنا . وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم ، و إعادتها اليكم . ومن نائبي؟ [إن] هو إلا أقل غلمانى ، فلا أقل من إعطائى ما كنتم

= فالمعروف أنه مات قرب بلدة (Tsin-tou) ، فى أرض مملكة (Hsia) ، وهى مقاطعة (Kan-su) ، بالصين الحالية (Lamb : Genghiz Khan ; pp. 192 - 194. & Enc. Isl. Art. Čingiz-Khan.)

(١) بغير ضبط فى س ، والخطا اسم يطلق على بلاد متاخمة للصين ، يسكنها جنس من الترك . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٨٣) . و يطلق اسم الخطا أيضا على بلاد الصين جميعها فى القرون الوسطى . (Enc. Isl. Art. Khiṭā) ، وقد دفن جنكزخان بالتركستان الصينى ، فى بلدة برخان خلدون (Burkhan-Khaladun) ، عند منابع نهرى (Onon & Kerulen) ، وهى وطنه الأصلى . (Enc. Isl. Art. Čingiz-Khan : Lamb : Op. cit. pp. 243-244.)

(٢) فى س قان كبير . وقد ترك جنكزخان إمبراطورية متباعدة الأطراف ، تمتد من بحر قزوين إلى شواطئ الصين . وقسمها فى حياته بين ثلاثة من أولاده ، وهم تولى وجوشى وشغطاى . أما رابعهم — وهو أصغرهم ، واسمه أوغطاى ، — فقد آلت إليه أملاك أبيه الأصلية ، وذلك حسب العرف المغولى ، وكانت عبارة عن بلاد التركستان الصينى ، التى ورثها جنكزخان عن أبيه يسوجان . (Enc. Isl. Art. Čingiz. Khan)

(٣) فى س وسار . (٤) فى س الانبرطور . (٥) فى س اجى .

بذلتموه له ". فتحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعــه ولا محاربته ، لمـا كان تقدم بينهما من الاتفاق؛ فراسله ولاطفه، وسَفَر بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ . وشرع الفرنج فى عمارة صـيداء — وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج ، وسورها خراب — فعمروها وأزالوا من فيها من المسلمين . وخرجت السنة والكامل على تل العجول ، وملك الفرنج بعكا، والرسـل تتردد بينهما .

* * *

سنة ست وعشرين وستمائة . فيها غلت الأسعار بالساحل ودمشق، ووصلت نجدة من حلب إلى الغَوْر . و [فيها] قفز [الأمير عز الدين](١) أيدمر المعظمى إلى الملك الكامل، فأحسن إليــه . ففارق (٦٣ ا) الناصرُ داودُ من نابلس، لمّـا بلغه اتفاق الأشرف مع الكامل عليه ، وعاد إلى دمشق . فبلغ الأشرف وهو بتل العجول ذلك، فسار ليدركه، فوافاه بقصير ابن معين الدين من الغور ، تحت عقبة فيق . وأعلمه [الأشرف] — بحضور الملك الصالح إسماعيل ، والملك المغيث، والأمير عز الدين أيبـك المعظمى — أنه اجتمع بالملك الكامل للإصلاح بينهما، وأنه اجتهد وحَرِص "على أن يرجع عنك فامتنع،وأبى إلا أن يأخذ دمشق. وأنت تعلم أنه سلطان البيت وكبيرهم، وصاحب الديار المصرية، ولا يمكن الخروج عما يأمر به . وقد وقع الاتفاق على أن تسـلم إليه دمشق، وتُعوَّض عنهـا من الشرق كذا"، وذكر ما وقع الاتفاق عليه .

فلمـا فرغ [الأشرف] من كلامه قام الأمير [عز الدين] أيبـك ، [وهو أكبر أمير مع الناصر داود](٢)، وقال : "لا كيد ولا كرامة، ولا نسـلم من البلاد حجرا واحدا، ونحن قادرون على دفع الجميـع ومقاومتهم، ومعنا العساكر المتوافرة" . وأمر الملك الناصر بالركوب فركبا، وقُوِّضت الخيام، وسارا(٣) إلى دمشق ؛ وتخلف عن الناصر عمـه الصالح، وابن عمه المغيث .

---

(١) انظر ص ٢٣٤، سطر ٤ . (٢) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣١٦) . وعز الدين أيبك هو أول سلاطين المماليك البحرية بمصر، بعد شجر الدر . (أبو شامة : كتاب الروضتين، ص ٢٠٠، فى Rec. Hist. Or. V) . (٣) فى س ساروا .

ولما وصل الناصر إلى دمشق استعد للحصار، وقام معه أهل البلد، لمحبتهم فى أبيه . وسار الأشرف بمن معه ، وحاصر دمشق ، وقطع عنها أنهارها — باناس[1] ، والقَنوات[2] ، [ويزِيد[3] وثَوْرا[4]] — فخرج إليه العسكر وأهل البلد وحاربوه .

وفى أثناء ذلك كثر تردّد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والشريف شمس الدين الأرموى قاضى العسكر ، بين الملك الكامل وبين الإمبراطور[5] فردريك ملك الفرنج، إلى أن وقع الاتفاق أن ملك الفرنج يأخذ القدس من المسلمين، ويبقيها على ما هى من الخراب، ولا يجدد سورها ؛ وأن يكون سائر قرى القدس للمسلمين ، لاحكم فيها للفرنج ؛ وأن الحرم — بما حواه من الصخرة والمسجد الأقصى — يكون بأيدى المسلمين، لايدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوّام من المسلمين ، ويقيمون فيه شعار الإسلام من الأذان والصلاة؛ وأن تكون القرى التى فيما بين عكا وبين يافا ، وبين لدّ وبين القدس ، بأيدى الفرنج، دون ما عداها من قرى القدس . وذلك أن الكامل تورّط مع ملك الفرنج ، وخاف من غائلته، عجزا عن مقاومته . فأرضاه بذلك ، وصار يقول : " إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأُدُر خراب ، والمسجد على حاله ، وشعار الإسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع " . فلما اتفقا على ذلك عقدت الهدنة بينهما ، مدّة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوما، أولها ثامن (٦٣ ب) عشرى شهر ربيع الأول من هذه السنة . واعتذر ملك الفرنج للأمير فخر الدين بأنه لولا يخاف انكسار جاهه ، ما كلف السلطان شيئا من ذلك، وأنه ماله غرض فى القدس ولا غيره ، وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج .

(١) فى س نهر . (انظر حاشية ٣) . (٢) نهير من نهيرات دمشق ، وهو ثالث فروع نهر بردى السبعة ، (انظر حاشية ٣) ، ومخرجه منه عند بلدة دمّر ، وعلى همقتيه إقليم باناس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٤٨٢ ، ٤٧٦ ، ٥٥٦) . ويسمى هذا النهر أيضا نهر بانياس . (Le Strange : Palest. Under Moslems.p. 266.).

(٣) رابع فروع بردى ، ويسمى أيضا نهر القناة . أما فروع بردى الأخرى ، فهى نهر يزيد ، ونهر ثورا ، ونهر مزه — أو المزه — ، ونهر داريا ، ونهر بردى ، وهو السابع . (Le Strange : Op. cit. pp. 265-267) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٨٦ ، فى .Rec. Hist. Or. V) .

(٥) فى س الانبرطوز .

وحلف الملك الكامل وملك الفرنج على ما تقرر ؛ وبعث السطان فنودى بالقدس بخروج المســلمين منه، وتسليمه إلى الفرنج . فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل ؛ وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل،وأذّنوا على بابه فى غير وقت الأذان . فعزّ عليه ذلك، وأمر بأخذ ما كان معهم من السُّتُور والقناديل الفضة والآلات،وزجرهم. وقيل لهم: "امضوا إلى حيث شئتم" . فعظم على أهل الإسلام هــذا البلاء، واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه فى سائر الأقطار .

وبعث الإمبراطور(١) بعد ذلك يطلب تبنين وأعمالها ، فسلمها الكامل له . فبعث يستأذن فى دخول القــدس ، فأجابه الكامل إلى ما طلبــه ، وسير القاضى شمس الدين قاضى نابلس فى خدمته ، فسار معه إلى المسجد بالقدس ، وطاف معه ما فيه من المزارات(٢) . وأُعجب [الإمبراطور] بالمسجد الأقصى وبقبة الصخرة ؛ وصعد درج المنبر، فرأى قسيسا بيده الإنجيل، وقد قصد دخول المسجد الأقصى، فزجره وأنكر مجيئه، وأقسم لئن عاد أحد من الفرنج يدخل هنا بغير إذن ليأخذن ما فيه عيناه، " فإنمـا نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وقد تصدق علينا وعليكم بهذه الكنائس،على سبيل الإنعام منه،فلا يتعدى أحد منكم طوره"، فانصرف القس وهو يرعد خوفا منه . ثم نزل الملك فى دار، وأمر [شمس الدين] قاضى نابلس المؤذنين ألا يؤذنوا تلك الليلة، فلم يؤذنوا ألبتة . فلما أصبح قال الملك للقاضى : "لِمَ لم يؤذن المؤذنون على المنائر ؟" فقال له [القاضى]: "منعهم المملوك إعظاما للملك، واحتراما له". فقال له [الإمبراطور]: "أخطأتَ فيا فعلت، والله إنه كان أكبر غرضى فى المبيت بالقدس أن أسمع أذان المسلمين وتسبيحهم فى الليل"(٣) .

(١) فى س الانبرطوز . (٢) يقول (Blochet : Op. cit. P. 373. N. I.) إن المقريزى نقل تفاصيل زيارة الإمبراطور لبيت المقدس من كتاب مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب لابن واصل ، وإن هذا الأخير كتب تلك الأخبار من حديث له مع القاضى شمس الدين، الذى رافق الإمبراطور .

(٣) نقل العينى (عقد الجمان، ج ١٨، قسم ١، ص ٨٢ — ٨٣) من كتاب مرآة الزمان، لسبط ابن الجوزى، أخبارا طريفة عن زيارة الإمبراطور فردريك لبيت المقــدس، وهى على طرافتها مهمة أيضا، لاختلاف الرواية =

ثم رحل [الإمبراطور] إلى عكا . وكان هذا الملك عالما متبحرا فى علم الهندسة والحساب والرياضيات(١)، وبعث إلى الملك الكامل بعدّة مسائل مشكلة فى الهندسة والحكمة والرياضة ، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفى — المعروف بتعاسيف — وغيره ، فكتب جوابها. وعاد الإمبراطور(٢) من عكا إلى بلاده فى البحر ، آخر جمادى الآخرة . وسيَّر الكاملُ جمالَ الدين الكاتب الأشرفى إلى البلاد الشرقية وإلى الخليفة ، فى (١٦٤ ا) تسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجهم لأخذ الفرنج القدس .

وفى خامس جمادى الأولى — وهو يوم الأحد — وقعت الحوطة على دار القاضى الأشرف أحمد بن القاضى الفاضل ، وحُملت خزائن الكتب جميعها إلى قلعة الجبل ، فى سادس عشريه ، وجملة الكتب ثمانية وستون ألف مجلدة . وحُمل من داره — فى ثالث جمادى الآخرة — خشب خزائن الكتب مفصلة ، [وحملها] تسعة وأربعون جملا(٣) . و[كانت] الجمال التى حملت الكتب تسعة وخمسون جملا ، ثلاث دفعات(٤) .

= بخصوص ماحدث من المؤذنين بالقدس . ونصها : — "وفى المرآة : وجرى للانبروز (كذا) عجايب ، منها أنه لما دخل [قبة] الصخرة رأى قسيسا قاعدا عند القدم ، يأخذ من الفرنج (٨٢) قراطيس . فجاء إليه [الأنبرور] ، كأنه يطلب منه الدعاء ، فلكمه فرماه إلى الأرض ، وقال يا خنزير ! السلطان تصدق علينا بزيارة هذا المكان ، [وأنتم] تفعلون فيه هذه الأفاعيل ؟ لئن عاد[و] دخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه . قال السبط : وحكى لى صورة الحال قوّام الصخرة ؛ [قال] ، ونظر [الأنبرور] إلى الكتابة التى فى القبة ، وهى : "طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين" ، فقال ومن هم المشركون؟ وقال [الانبرور] للقوام : هذه الشباك التى على أبواب الصخرة من أجل أيش؟ قالوا لئلا يدخلها العصافير ، فقال قد أتى الله إليكم بالخنازير . قالوا ولما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذنون ، قام جميع من كان معه من القراشين والغلمان ، ومعلمه وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق ، فصلوا وكانوا مسلمين . قالوا وكان الأنبروز أشقر أمعط ، فى عينيه ضعف ، لو كان عبدا ما يساوى مائتى درهم . قالوا والظاهر من كلامه أنه كان دهريا ، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا وكان الكامل قد تقدم إلى القاضى شمس الدين ، قاضى نابلس ، أن يأمر المؤذنين مادام الأنبروز فى القدس [أن] لا يصعدوا المنائر ، ولا يؤذنوا فى الحرم . فأنسى القاضى أن يعلم المؤذنين ، فصعد عبد الكريم المؤذن فى تلك الليلة وقت السحر ، والأنبروز نازل فى دار القاضى ، فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى ، مثل قوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد) ، (ذلك عيسى بن مريم) ، ونحو هذا . فلما طلع الفجر ، استدعى القاضى عبد الكريم ، وقال له إيش عملت ؟ السلطان رسم بكذا وكذا . قال فما عرفتنى النوبة (كذا ،) . فلما كانت الليلة الثانية ، ما صعد عبد الكريم المأذنة . فلما طلع الفجر استدعى الأنبروز القاضى ، وكان قد دخل القدس فى خدمته ، وهو الذى سلم إليه القدس . فقال له يا قاضى ! أين ذاك الرجل الذى طلع بارحة أمس المنارة ، وذكر ذلك الكلام ؟ فعرفه أن السلطان أوصاه ، فقال الأنبروز أخطأتم يا قاضى ! تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلى ؟ فلو كنتم عندى فى بلادى ، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم ؟ الله الله لاتفعلوا . هذا أول ماتنقصون عندنا" .

(١) فى س الرياضى .

(٢) فى س الانبرطور .

(٣) فى س حملا بالحاء ، وقد وردت كلمة جمل ، التى تليها ، بالحاء أيضا .

(٤) فى س ثلاث دفعات .

وفى يوم السـبت ثانى عشرى رجب منها، حُملت الكتب والخزائن(١) من القلعة إلى دار الفاضل؛ وقيل إن عدّتها أحد عشر ألف كتاب وثمانمائة وثمـانية كتب، ومن جملة الكتب المأخوذة كتاب الأيك(٢) والغصون، لأبى العلاء المعرِّى، فى ستين مجلدا .

وفيهـا وصل ملك مَلَطْيَة(٣)، فكثرت غاراته وقتله وسبيه(٤) . وفيها اشتد تشنيع الملك الناصر [داود] بدمشق على عمه الملك الكامل تسليمه القدس للفرنج . فنفرت قلوب الرعية، وجلس الحافظ شمس الدين سبط ابن الجوزى بجامع دمشق ، وذكر فضائل بيت المقـدس، وحَزّن الناس على استيلاء الفرنج عليه، وبَشَّع القول فى هذا الفعل . فاجتمع فى ذلك المجلس مالا يحصى عدده من الناس، وعلت أصواتهـم بالصراخ، واشـتد بكاؤهم، وأنشد الحافظ شمس الدين قصيدة، أبياتها ثلثمائة بيت، منها :

على قبـة المعـراج والصخرة التى * تُفاخر ما فى الأرض من صخرات
مدارس آيات خلت من تلاوة * ومنزل وحى مقفـر العرصـات(٥)

فلم يُر بدمشق أكثر بكاء من ذلك اليوم .

وكان الأشرف على منازلة دمشق ، فبعث إلى الكامل يستحثه . فرحل [الكامل] من تل العجول بعد طول مقامه بها، فتلقاه فى قرية يُبْنَا(٦) [أخوه] العزيز(٧) عثمان، صاحب بانياس ،

(١) فى س "حملت الكتب من القلعة الى دار الفاضل والخزاين" . (٢) يقول ابن خلكان (وفيات الأعيان، Wüstenfeld ، ج ١، ص ٥٩) فى ترجمة أبى العلاء، عن ذلك الكتاب، ما نصه : "وبلغنى أن له كتابا سماه الأيك والغصـون، وهو المعروف بالهمزة والردف، يقارب مائة جزء، و[هو] فى الأدب أيضا . وحكى لى من وقف على المجلد الأوّل بعد المـائة ، من كتاب الهمزة والردف، وقال لا أعلم ما كان يعوزه بعد هذا المجلد ..." .

(٣) ملك ملطية فى تلك السنة هو علاء الدين أبو الفتح كيقباد بن غياث الدين كيخسرو ، ٦١٦ — ٦٣٤ هـ . (Enc. Isl. Arts. Kaikobad & Malatiya) . وملطية مدينة قديمة ، شمالى أعالى الفرات، وينطقها العامة بكسر الطاء وتشـديد الياء ، وهى بغير ضبط فى س . (ياقوت : معجم البـلدان، ج ٤ ، ص ٦٣٣ — ٦٣٥) .

(٤) هذه العبارة، من أول السطر هنا ، غير مترجمة فى (Blochet : Op. cit. p. 377)، على أنها واردة فى ب (٧٦ ب) . (٥) أخذ السبط هذا البيت الثانى من قصيدة لدعبل الخزاعى . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٠٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . ويلاحظ أن (Blochet: Op. cit. p. 378) ترجم هذين البيتين، وهذا على غير عادته ، فإنه يحذف الشعر فى ترجمته .

(٦) مضبوطة فى س بفتح النون، وهى بليدة قرب الرملة ، وبها قبر أحد الصحابة، بعضهم يقول هو قبر أبى هريرة، وبعضهم يقـول قبر عبد الله بن أبى سرح . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ١٠٠٧) . (٧) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٨٦ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

بابنه الظاهر غازى . فوصل [الكامل] العزيز بخمسين ألف دينار ، وابنه غازى بعشرة آلاف دينــار ، وقماش نفيس وخلع سنية . وأمر [الكامل] فضُرِبت[1] له خيمة عظيمة ، وحولها بيوتات ، وسائر ما يحتاج إليــه من الآلات والخيــام ، برسم أصحابه ومماليكه . ثم وصــل إليه أيضا الأمير عز الدين أيدمر المعظمى ، فدفع إليــه [الكامل] عشرة آلاف دينار — وقيــل عشرين ألف دينار — وكَتب له على الأعمال القوصــية بعشرين ألف أردب غلة ، وأعطاه أملاك الصاحب صفى الدين بن شكر ، ورباعه وحمامه .

وسار [الكامل] إلى دمشق ، فنزل على ظاهرها فى جمادى الأولى ، وجدّ هو والأشرف فى حصارها ، حتى اشتد عطش الناس فى دمشق ، لانقطاع الأنهار عنهم ؛ ومع ذلك فالحرب بينهم قائمة فى كل يوم إلى آخر رجب . فغلت الأسعار ، ونفدت أموال الناصر ، وفارقه جماعة من أصحابه ، وصاروا إلى الكامل والأشرف . فأخذ الناصر فى ضرب أوانيه من الذهب والفضة دنانير ودراهم ، وفرّقها حتى نفد أكثر ما كان عنده من الذخائر . وناصحته العامة مناصحة كبيرة ، وأبلوا فى عسكر الكامل والأشرف بلاء عظيما .

[وفى أثناء ذلك] قدم[2] القاضى بهاء الدين بن شداد ، ومعه أكابر حلب وعدولها ، من عند الملك العزيز [محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين][3] ، صاحب حلب ، لتزويج ابنة الملك الكامل بالملك العزيز . فخرج الملك الكامل من (٦٤ ب) مخيمه بمسجد القدم إلى لقائه ، وأنزله قريبا منه . ثم أحضره ، فقدّم تقدمة كانت معه من الملك العزيز . وعَقَد العقــد للملك العــزيز على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عمــاد الدين عمر بن شيخ الشيوخ[4] ، على صداق مبلغه خمسون ألف دينار ، فقبل العقد ابن شداد فى سادس عشر شهر رجب .

فضعف قلب الملك الناصر [داود] ، وقلت أمواله ؛ فخرج ليلا من قلعة دمشق فى آخر شهر رجب ، ومعه نفر يسير ، وألقى نفســه على باب مخيم الكامل . فخرج إليــه [الكامل] ،

(١) فى س فضرب . (٢) فى س فقــدم . (٣) أضيف ما بين القوسين بعــد مراجعة (Enc. Isl. Art. Halab) . وقد تولى العزيز حلب سنة ٦١٥ هـ ، وهو ابن بنت الملك العادل ، وخاله الملك الكامل .

(٤) فى س "وعقد العقد على الخاتون فاطمة ابنة الملك الكامل الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ لالك العزيز" .

وأكرمه إكراما زائدا، وباسطه وطيّب قلبه، بعد عتب كثير، وأمره أن يعود إلى القلعة، فعاد إليها. ثم بعد يومين بعث الكامل بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى القلعة — وكان يوم جمعة — فصلّى بها الجمعة، وخرج ومعه الناصر داود إلى الملك الكامل، فتحالفا. وعوّضه [الكامل] عن دمشق بالكرك والشوبك وأعمالها، مع الصلت والبلقاء والأغوار جميعها، ونابلس وأعمال القدس وبيت جبريل. ثم نزل الناصر عن الشوبك للكامل فقبلها، وصار للكامل مع الشوبك بلد الخليل عليه السلام، وطبرية وغزة، وعسقلان والرملة ولدّ، وما بأيدى المسلمين من الساحل.

وفُتحت أبواب دمشق فى أوّل يوم من شعبان، فشق ذلك على أهل دمشق، وتأسفوا على مفارقة الناصر، وكثر بكاؤهم. ثم تسلمها الملك الأشرف. وبعث الكامل قصاده لتسلم بلاد الأشرف، وهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والخادم شمس الدين صواب، وجماعة. فتسلما حران والرها وسروج، ورأس عين والرقة، وغير ذلك.

وسافر الناصر داود بأهله إلى الكرك. وسار الكامل إلى حماة، [وبها الناصر صلاح الدين قلج أرسلان بن المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب]. وقدم [مع الكامل] المظفرُ تقى الدين محمود بن المنصور محمد بن [تقى الدين](1) عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى جماعة،

(١) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣١٧ — ٣١٨). وسبب تدخل الكامل بين الأخوين، حسبما جاء فى نفس المرجع والجزء والصفحة، أن أباهما المنصور محمد صاحب حماة، كان قد حلف أكابر دولته، قبل وفاته سنة ٦١٧ هـ، على تولية ابنه الأكبر المظفر تقى الدين من بعده. فلما توفى المنصور كان المظفر عند خاله الملك الكامل، يعاونه فى مقاتلة الصليبين على دمياط (انظر ص ٢٠١، سطر ٣ — ٦، ص ٢٠٥، سطر ٩ — ١٣). وكان أخوه الناصر صلاح الدين قلج أرسلان، عند خاله الملك المعظم، صاحب دمشق. فانتهز قلج أرسلان فرصة غياب أخيه، وذهب إلى حماة، واستولى عليها وعلى قلعتها. ثم حاول المظفر أن يأخذها منه، ولم يفلح، فرجع إلى الكامل، وأقام فى خدمته. (انظر ص ٢٥٠، سطر ١٣ — ١٧). فلما سار الكامل لمحاربة الناصر داود، كان المظفر تقى الدين معه، وقد وعده الكامل أن يسلمه حماة. (انظر ص ٢٢٦، سطر ١). فلما انتهى الملك الكامل من أمر الناصر، سير إلى أرسلان جيشا، حاصر حماة عدة أيام. ثم قرر قلج تسليمها، فنزل من القلعة، وذهب إلى الكامل، وهو فى طريقه إلى حران والبلاد الشرقية، فاعتقله حتى سلمت حماة وقلعتها إلى المظفر تقى الدين. (راجع أيضا أبا الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ٩٥، فى Rec. Hist. Or. I.).

فنازل حماة حتى سلَّم صاحبها الناصر قلج أرسلان، وسيق إلى الملك الكامل وهو بسلمية، فأهانه واعتقله. وتسلم المظفرُ حماة، فكانت مدّة الناصر بحماة تسع [سنين] تنقص شهرين. وبعث الكامل بالناصر صاحب حماة إلى مصر، فاعتقل بها.

ثم سار الملك الكامل يريد البلاد الشرقية، فقطع الفرات، ودخل قلعة جعبر. ثم توجه إلى الرقة، وخافه ملوك الشرق، فعيَّد بالرقة عيد الفطر. وسار إلى حران والرها، واستخدم بها عسكرا [عدّته] نحو ألفى فارس. فقدمت عليه رسل ماردين وآمد، والموصل وإربل؛ و[حضر إليه أيضا] عدّة ملوك. وبعث [الكامل] فخر الدين بن (١٦٥ ا) شيخ الشيوخ إلى الخليفة، وأطلق ابن أخيه الملك الناصر قلج أرسلان من اعتقاله، وخلع عليه، وأعطاه بارين[1]، وكتب له بها توقيعا، وأمر أن يُحمل إليه ما كان فى قلعة حماة — وهو أربعمائة ألف درهم — وكتب إلى المظفر تقى الدين بتسليم ذلك إليه. فوصل [الناصر[2] إلى بارين] وتسلمها.

ثم ورد[3] الخبر على الكامل بأن [جلال الدين] خوارزم[4] شاه نازل خلاط، ونصب عليها عشرين منجنيقا، [وكان وصوله إليها] فى نصف شوال. و[كانت خلاط للملك الأشرف، وبها عسكره، فأرسلوا إلى الملك الكامل[5]] يسألون فى نجدة، فلم يرسل الكامل إليهم أحدا.

وورد الخبر بإقامة الخطبة فى ماردين للملك الكامل، وضُربت السكة باسمه [هناك. ثم توالت الرسل من خلاط، وكلها تطلب إلى الكامل أن يبعث الأشرف لنجدة البلد]. فبعث الكامل يطلب عساكر حلب وحماة وحمص، فخرجت عساكر حلب [إلى خلاط، ومعها الأشرف[6]]. ثم ورد[7] الخبر بأن الفرنج قد أغارت على بارين، [وأنهم نهبوا ما بها، وأسروا وسبوا[8]].

(١) فى س نفرين. انظر ص ٦٠، حاشية ٣. (٢) فى س فوصل اليها وتسلمها. راجع ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣١٨). (٣) فى س فورد. (٤) فى س الجوارزمى.

(٥) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٨ — ٣٢٠).

(٦) أضيف ما بين الأقواس من نفس المرجع والجزء (ص ٣٢٠).

(٧) فى س فورد. (٨) أضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والجزء (ص ٣١٩).

وفيها مات الملك المسعود يوسف بن الملك الكامل بمكة، عن ست وعشرين سنة، منها مدّة ملكه باليمن أربع عشرة سنة، [وهو آخر ملوك بنى أيوب ببلاد[1] اليمن] . وترك [المسعود] ابنا يقال له صلاح الدين يوسف، ولقب بالملك المسعود، كلقب أبيه . [وبقى يوسف هذا حتى[2] مات فى سلطنة عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب، صاحب مصر] . ثم ولى[3] ابنه موسى ابن يوسف بن يوسف [بن الكامل] مملكة مصر، ولقب بالأشرف، شركة مع المعز أيبك، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

فاشتدّ حزن الملك الكامل على[4] [ولده يوسف] ، وتسلم مماليكه وخزائنه وأولاده ، ولبس لشدّة حزنه البياض . وكان المسعود قد استخلف على اليمن نور الدين على بن رسول التركمانى[5]، فتغلب عليها، وبعث إلى الملك الكامل عدّة هدايا، وقال : "أنا نائب السلطان على البلاد"، فاستمرّ ملك اليمن فى عَقِبِه بعد ذلك .

* * *

سنة سبع وعشرين وستمائة . أهلت والملك الكامل بحران، والخوارزمى على خلاط، والأشرف محاصر بعلبك . وفيها قدم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من بغداد . و[فيها] ورد رسول الإمبراطور[6]، ملك الفرنج، بكتابه إلى الملك الكامل بحران، ومعه أيضا كتاب للأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ . وفيها سار الكامل من حران إلى الرقة .

وفيها استولى الأشرف بن العادل على بعلبك، بعد ما أقام على حصارها عشرة أشهر . وعُوِّض الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه[7] بن نجم الدين أيوب بن شادى،

---

(١) كره الملك المسعود المقام باليمن، لما أصابه من المرض بها، وكان قد تولاها منذ سنة ٦١٢ هـ، أى فى عهد جدّه العادل . (انظر ص ١٨١، سطر ٩ — ١٣) . ثم استدعاه أبوه الملك الكامل إليه، سنة ٦٢٦ هـ، ليوليه دمشق، وذلك بعد وفاة الملك المعظم عيسى . فسار المسعود عن اليمن قاصدا الشام، فتوفى بمكة، وهو آخر ملوك اليمن من الأيوبيين . (الخزرجى . العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٣٠ — ٤٤؛ والقلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٠) . (٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان، ج ١٨، قسم ١، ص ٩٧ — ٩٨) . (٣) فى س فولى . (٤) فى س عليه . (٥) العبارة الآتية واردة بهامش الصفحة، بخط مخالف، ونصها : "اول مدّة استيلاء اولاد رسول على مملكة بلاد اليمن" . (٦) فى س الانبرطوز . (٧) فى س شاهان شاه .

عوضا من بعلبك وأعمالها، قُصَير(١) دمشق والزَّبَدَانِى(٢)؛ فكانت مدّة ملكه بعلبك تسعا وأربعين سنة. فبعث الكاملُ الأميرَ فخر الدين عثمان الأستادار إلى الأشرف، فى مهمّات تتعلق به؛ وولّى كمال الدين بن شيخ الشيوخ نائبا بالجزيرة.

و[فيها] قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى، (٦٥ ب) صاحب الروم، على الملك الكامل؛ [وأخبره] بأنه جهز خمسة وعشرين ألفا إلى أَرْزَنْجان(٣)، وعشرة آلاف إلى ملطية، "وأنا حيث تأمر". فطاب قلب السلطان [الكامل] بذلك، وكان مهتما من أمر الخوارزمى.

وفيها سار الأشرف، صاحب دمشق، من الشام إلى جهة الشرق، فوصل إلى الكامل وهو بالرقة؛ ووصل أيضا مانع بن حديثة أمير العرب. وفيها ملك الخوارزمى مدينة خلاط، بعد حصار طويل، وقتال شديد، فى ثامن عشرى جمادى الأولى؛ فوضع السيف فى الناس، وأسرف فى القتل والنهب. فرحل الملك الكامل يريد مصر، لأمور منها أنه بلغه موت ولده [الملك] المسعود [صاحب اليمن]، فكتمه. و[كان قد] ورد عليه [أيضا]، من أم ولده العادل، كتاب تشكو فيه من [ابنه] الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأنه قد عزم على التوثب على الملك، واشترى جماعة كبيرة من المماليك الأتراك؛ وأنه أخذ مالا جزيلا من التجار، وأتلف جملة من مال بيت المال؛ "ومتى لم تتدارك البلاد، وإلّا غَلَب عليها، وأخرجنى أنا وابنك الملك العادل منها". فانزعج [الكامل] لذلك، وغضب غضبا شديدا. ثم ورد عليه الخبر بأن ابنه الصالح اشترى ألف مملوك، [فعزم على الرحيل إلى مصر]. فرتب الطواشى شمس الدين

(١) بغير ضبط فى س، وهى ضيعة بشمالى دمشق، على الطريق بينها وبين حمص، وبها خان يعرف بالقصير، قبالته مجرى ماء. ويخترق الطريق من القصير إلى دمشق سلسلة من البساتين. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٣؛ و Le Strange: Palest. Under Moslems. P. 489). (٢) بغير ضبط فى س، وهى كورة بين دمشق وبعلبك، ومنها يخرج نهر بردى، وتنطق أحيانا زبدان، وبها بلدة أسمها الزبدانى أيضا. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩١٣؛ و Le Strange: Op. cit. P. 553).

(٣) بغير ضبط فى س، وهى من بلاد أرمينية، بين خلاط وأرزن الروم، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٢٠٥).

صواب العادلى نائبا فى أعمال المشرق، وأعطاه إقطاع [أمير] مائة فارس[١]، زيادة على ما بيده من الديار المصريه، وهى أعمال أخميم بكمالها، وقاى والقايات ودِجوة[٢]، بإمرة مائتين وخمسين فارسا، فصار أمير ثلاثمائة وخمسين فارسا . ورتب [الملك الكامل] كمال الدين بن شيخ الشيوخ وزيرا .

(١) تقدّم ذكر رتبة أمير مائة عرضا (انظر ص ٧٥، سطر ٣)، وأرجىء الكلام عنها إلى هنا . وهى مرتبة حربية، خاصة بأرباب السيف، وتقرن عادة بلقب مقدم ألف ، فيقال أمير مائة مقدم ألف . والمقصود بتلك التسمية المركبة وظيفة واحدة، يكون فى خدمة حاملها مائة مملوك (فارس ؟)، وهو فى نفس الوقت مقدّم فى الحروب على ألف جندى من أجناد الحلقة . وكانت أصحاب هذه المرتبة أعلى مراتب الأمراء ، من عهد السلاجقة بالشرق إلى عهـد المماليك بمصر . وربما زاد الواحد منهـم العشرة أو العشرين مملوكا، أو أكثر من ذلك، فيكون أمير ثلاثمائة، كما ورد هنا (انظر سطر ٣)، والظاهر أن هذا كان غريبا نادرا . وكان بيد هؤلاء الأمراء، أيام المماليك بمصر، جميع المناصب العليا ، فكان منهم نائب السلطنة، ونائب الغيبة ، ونائب الوجه البحرى، والدوادار الكبير، والأسـتادار، ونائب دمشق، ونائب حلب، وما يساوى ذلك من الوظائف الكبرى .

ويلى هؤلاء الأمراء من يحمل رتبـة أمير أربعين ، ويسمون أمراء طبلخاناه، لأحقيتهم فى دق الطبـول على أبوابهم، كما يفعل السلطان وأمراء المئات ، ولكن على صورة مصغرة . ويظهر أنهم كانوا يسـمون بأمراء الطبلخاناه تمييزا لهم عمن هم أقل منهم من الرتبة، وليس لهم طبلخاناه . وقد تزيد رتبة أمير أربعين إلى أمرة سبعين أو ثمانين، أى أن يكون فى خدمته ما يساوى أحد هذين العددين . ومن الوظائف التى يجرى إسـنادها إليهم وظيفة الدوادار الثانى، ووالى القاهرة، ووالى القلعة ، ونائب الإسكندرية، ونائب طرابلس وحماة بالشام .

ويأتى بعد هؤلاء أمراء العشرات، ومن هذه الطبقة صغار الولاة ونحوهم، مثل والى الفسطاط، وشاد الدواوين، ووالى القرافة .

ثم تأتى أمراء الخمسات ، وهؤلاء كانوا قليلين، وأكثرهم من أولاد الأمراء المتوفين، تعطى للواحد منهم هذا الرتبة رعاية لسلفه، وكانوا يعتبرون من أكابر الأجناد . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤ — ٢٨، ٥٠ — ٥١، ٦٣ — ٦٧؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١١١ — ١٢٠؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٥ — ٢٢٠) . انظر أيضا (G.-Demombynes : Op. cit. Pref. PP. XXXIII et seq; P. 139). أما عن أصل هذا التقسيم العشرى، فالظاهر أن السلاجقة والأيوبيين ، والمماليك من بعـدهما، نقلوه بتعديل من أوطانهم الأولى : ففى (Morier : Hajji Baba of Ispahan, p. 31) أن قبيلة من التركمان بشمالى فارس كانت تسـتعد للغزو ، فدعى رئيسها أصحـاب العشرات وأصحاب المئات .

ومما تجب ملاحظته أن هذا التقسيم العشرى مذكور فى (Morier : Op. cit. pp. 187, 206) فى وصف بعض رتب الجيش الفارسى فى القرن التاسع عشر، مثل (Min Gashi) ومعناه مقدّم ألف، و (On Bashi)، أى مقدم عشرة، و (Penja Bashi)، أى رئيس خمسين . وهـذا التقسيم موجود أيضا فى الجيش العثمانى والجيش المصرى الحـالى .

(٢) تقدّم التعريف بقاى والقايات . (انظر ص ٨٢، حاشية ١؛ ص ٩١، حاشية ٣) . أما دجوة — بغير ضبط فى س — فعلى الشاطىء الشرق لفرع دمياط، جنوبى بنها الحالية، أى أنهـا من مديرية القليوبية . انظر (P. Omar Tousson : Op. cit. I. 1. Pl. II. a) . وكانت دجوة فى زمن ياقوت (معجم البلدان، ج، ص ٥٥٥) من أعمال كورة الشرقية، وذلك قبل أن تصبح القليوبيـة قسما إداريا منفصلا، (انظر ص ٢٠٢، حاشيه ٢) . لكن ياقوت يقول إنها على فرع رشيد، ويرجح أيضا نطقها بضم الدال .

وتوجه [الكامل] إلى مصر، فدخلها فى رجب، وتغير على ابنه الملك الصالح تغيرا كثيرا، وقبض على جماعة من أصحابه وسجنهم، وألزمهم إحضار الأموال التى فرّط فيها الملك الصالح، وخلع الصالح من ولاية العهد[١].

وفيها واقع الملك علاء الدين كيقبادُ السلطانَ جلال الدين[٢] [خوارزم شاه]، وكسره، وقتل كثيرا ممن كان معه. وخلص [جلال الدين] فى عدة من أصحابه إلى تبريز[٣]، وكان ذلك فى سابع عشرى رمضان. فملك الأشرف، صاحب دمشق، مدينة خلاط.

وفيها بلغ قاع النيل بمقياس مصر ذراعين، وانتهت زيادة ماء النيل ثلاثة عشر ذراعا وثلاثة عشر أصبعا لا غير، فارتفعت الأسعار.

وفيها قصد الفرنج حماة، فأوقع بهم المظفر تقى الدين، وقتل عدة منهم، وأسر كثيرا، وذلك فى رمضان.

وفيها (٦٦ أ) مات الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، صاحب بعلبك، ليلة الأربعاء ثامن عشر شوّال. وكانت مدة ملكه تسعا وأربعين سنة، وكان أديبا شاعرا. ومات الملك الظافر خضر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان يعرف بالمشمِّر[٤].

* * *

سنة ثمان وعشرين وستمائة. فيها عاد الأشرف إلى دمشق. وفيها انفرد العزيز صاحب حلب بالملك، وقد بلغ ثمانى عشرة سنة، وتسلم الخزائن من أتابكه شهاب الدين

(١) العبارة الآتية واردة فى س، ولكنها مشطوبة، وهى: "وعهد إلى ابنه الملك العادل أبى بكر، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، وكان الكامل يحبه ويحب أمه حبا كبيرا". وهذه العبارة واردة بالمتن (انظر سنة ٦٣٠ هـ)، فالراجح أن المقريزى تدارك ذلك التكرار، فشطبه هنا.

(٢) فى س جلال الله.

(٣) فى س توريز، وفى ابن الأثير (الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣٢٠) أن جلال الدين مضى منهزما إلى آذربيجان، فنزل عند مدينة خُوَىّ، بضم الخاء وفتح الواو. انظر (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٠٢).

(٤) يقول ابن خلكان (المختار من ترجمة السلطان صلاح الدين، ص ٤٢٧، فى Rec. Hist. Or. III) إن الظافر خضر عرف بهذا اللقب، ومعناه المستعد، "لأن أباه — رحمه الله تعالى — لما قسم البلاد بين أولاده الكبار، قال: وأنا مشمر، فغلب عليه هذا اللقب".

طغريل . فقام بتدبير الملك قياما مشكورا ،وسير القاضى بهاء الدين بن شداد إلى الملك الكامل ، بسبب إحضار صفية خاتون ابنة الكامل — [وهى] زوجة العزيز — ، فأقام بالقاهرة [حتى[1] سنة تسع وعشرين وستمائة] . وفيها قدم الأشرف من دمشق على الملك الكامل — ومعه الملك المعظم، صاحب الجزيرة — فى عاشر جمادى الأولى، فسر السلطان بقدومهما .

وفيها سار الملك الكامل إلى الإسكندرية ، وترك الأشرف بالقاهرة ، واستصحب معه صاحب الجزيرة، بعد ما أنعم عليه إنعاما موفورا .

وفيها تحرك التتر . و [فيها] قدم الملك مجير الدين بن العادل إلى القاهرة ، وكان مأسورا عند الخوارزمى . فسر به الكامل، وأكرمه هو وأخوه تقى الدين عباس .

وفيها مات السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه ، بعد ما هزمه التتر ببعض قرى ميافارقين[2] ، قتله بعض الأكراد . و [فيها] وصل التتر إلى إربل ، وقتلوا من المسلمين ما لا يحصى عددهم إلا خالقهم .

وفيها شرع الملك الكامل فى حفر بحر النيل، الذى فيما بين المقياس وبر مصر[3]، وعمل فيه بنفسه، واستعمل الملوك والأمراء والجند . فلما فرغ [من الحفر] صار فى أيام احتراق النيل يمشى من المقياس والروضة إلى بر الجيزة، واستمر الماء فيما بين مصر والروضة لاينقطع فى زمن الاحتراق ألبتة . وكان السلطان قد قسط حفر هذا البحر على الدور التى بالقاهرة ، ومصر والروضة، بالقياس[4] . واستمر العمل فيه — من مستهل شعبان إلى آخر شوال — مدة ثلاثة أشهر .

---

(١) انظر ص ٢٤٣ (سطر ١٣) .

(٢) كان جلال الدين بن خوارزم شاه آخر بيته ، وكان تغلب المغول على بلاده نذير السوء والخطر على العالم الإسلامى ، إذ بدأوا بعد ذلك يغيرون على العراق . وقد خلف البيت الخوارزمى فى كرمان ، جنوبى فارس ، أحد رجال جلال الدين ، واسمه براق حاجب ، واعترف بولايته عليها أوغطاى بن جنكزخان ، ومنحه لقب قطلغ خان . (Lane - Poole: Muh. Dyns. P. 179) .

(٣) بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، بخط مخالف : " انظر حفر النيل بين المقياس ومصر " .

(٤) كذا فى س ، بغير ضبط . انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٣٤٥) حيث ورد، فى هذا الصدد : " وقسط [الكامل] مكان الحفر على الدور بالقاهرة ومصر والروضة والمقياس " .

وفيها قدم رسول الخليفة [المستنصر بالله] بالخلع والتقليد للملك الكامل ؛ ومُيِّز بزيادات كثيرة، لم تُفعل فى حق غيره، من السلجوقية وغيرهم. و[وردت] خلع للملك* الأشرف أيضا. وفيها تسلطن عمر بن على بن رسول باليمن، ونشر دعوته.

* * *

سنة تسع وعشرين وستمائة. فيها تكمل استيلاء التتر على إقليم أرمينية وخلاط، وسائر ما كان بيد الخوارزمى. فاهتم الخليفة [المستنصر بالله] غاية الاهتمام (١)، (٦٦ ب) وسيَّر عدّة رسل يستنجد الأشرف من مصر، ويستنجد العربان وغيرهم. وأخرج [الخليفة] الأموال، فوقع الاستخدام فى جميع البلاد لحركة التتر.

و[فيها] خرج الملك الكامل من القاهرة فى جمادى الاخرة، واستخلف على مصر ابنه الملك العادل أبا بكر، وأسكنه قلعة الجبل مع أمه؛ وأخرج الصالحَ أيوب معه، وقدّم الأشرفَ — والمعظم صاحب الجزيرة — بالعساكر. ومضى الكامل جريدة إلى الشوبك والكرك، وسار إلى دمشق، ومعه الناصر داود صاحب الكرك بعساكره، وقد زوجه بابنته عاشوراء خاتون، وعقد عقده عليها بمنزلة اللُّجُون (٢). وأقام [الكامل] بدمشق يسرح العساكر، وجعل فى مقدّمتها ابنه الملك الصالح أيوب.

وورد الخبر بدخول التتر بلاد خلاط، فأسرع [الكامل] فى الحركة، وخرج من دمشق، فنزل سلمية — وقد اجتمع بها عساكر يضيق بها الفضاء —، وسار منها فى أخريات رمضان على البرية. وتفرقت العساكر فى عدّة طرق لكثرتها، فهلك منها عدّة كثيرة من الناس والدواب، لقلة الماء.

(١) يرجع اهتمام الخليفة المستنصر بأمر التتر إلى ثلاثة أمور: أولها أن غارات التتر، التى ستؤدى إلى اجتياح الدولة العباسية من بغداد، كانت قد وصلت أراضى العراق الأعلى؛ وثانيها أن بعض البلاد التى استولى عليها التتر من جلال الدين خوارزم شاه، كانت قبل ذلك من أملاك الخليفة، مثل مدينة ششتر وبلدة دقوقا؛ وثالثها أن جلال الدين كان قد عزم على الاستنجاد بالخليفة، ولم يمنعه من ذلك سوى مطاردة التتر له، واضطراره إلى الاختفاء، حتى وفاته. (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ١٢، ص ٣٢٣ — ٣٣٠).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى بلدة بالأردن. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥١).

وأتته رسل ملوك الأطراف، وهم عز الدين بيقرا[١]، ونخر الدين بن الدامغانى، رسل الخليفة المستنصر بالله، وألبسـوه خلعة السلطنة . فاستدعى [الكامل] عند ذلك رسل الخوارزمى[٢]، ورسول الكرج، ورسل حماة وحمص، ورسول الهند[٣]، ورسل الفرنج، ورسل أتابك سعد صاحب شيراز، ورسل صاحب الأندلس[٤]؛ ولم تجتمع هذه الرسل عنـد ملك فى يوم واحد قط غيره . وقدم عليه بهاء الدين اليزدى — شيخ رباط الخلاطية — من بغـداد، وجماعة من النُّخّاس[٥]، يحثونه على الغزاة .

فرحل التتر عن خلاط، بعـد منازلتها عدّة أيام . وجاء الخبر برحيلهـم والكامل بحران، فجهز عماد الدين بن شيخ الشيوخ رسـولا إلى الخليفة . وسار إلى الرها، وقدّم العساكر إلى آمد، وسار بعدهم . فنزل على آمد، ونصب عليها عدّة مجانيق . فبعث إليه صاحبها يستعطفه، ويبذل له مائة ألف دينار، وللأشرف عشرين ألف دينار، فلم يقبـل . وما زال عليها حتى أخذها، فى سادس عشرى ذى الحجة، وحضر صاحبها إليه بأمان، فوكل به حتى سـلّم جميع حصونها . فأعطى السلطان حصن كيفا لابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وفيها وردت هدية من ماردين . وفيها سار ابن شدّاد من القاهرة بالستر العالى الصاحبة غازية خاتون، ابنة الكامل وزوجة الملك المظفر، صاحب حماة؛ والستر العالى الصاحبة فاطمة، ابنة الكامل وزوجة [الملك] العزيز، صاحب حلب . وخرج معهما أيضـا الأمير فخر الدين البانياسى، والشريف شمس الدين قاضى العسكر .

(١) فى س اعرا . والرسم الوارد هنا منقول من (Blochet : Op. cit. P. 391) .

(٢) تقدّمت وفاة جلال الدين الخوارزمى، تحت سـنة ٦٢٨ هـ (انظر ص ٢٤١)، ولعـل المقريزى يقصد بالخوارزمى هنا السلطان براق صاحب، الذى استقل بكرمان بعد وفاة جلال الدين . (انظر ص ٢٤١، حاشية ١) .

(٣) كانت الهند الإسلامية (Hindustan) تابعـة للدولة الغورية، منذ سنة ٥٨٦ هـ، حين فتحها عز الدين محمد الغورى، وولى عليها مملوكه قطب الدين أيبك . ثم استقل قطب الدين هـذا بالهند الإسلامية، سـنة ٦٠٢ هـ، بعـد وفاة عز الدين وانقسام الدولة الغورية . وكذلك استقل ناصر الدين كباشا بالسـند، وهو مملوك غورى آخر . (Lane - Poole : Muh. Dyns. pp. 293—299) .

(٤) لعل المؤلف يقصد بنى نصر ملوك غرناطة، وأولهم محمد بن غالب بن يوسف بن نصر (٦٢٩ — ٦٧١ هـ) . (Lane - Poole : Muh Dyns. pp. 27—29) .

(٥) فى س النحاس .

وفيها مات الأمير فخر الدين عثمان بن قزل، أستادار الملك الكامل، [و] صاحب المدرسة الفخرية بالقاهرة، فى ثامن عشر ذى الحجة، بحران .

وفيها بعث الملك المنصور عمر بن على بن رسول، صاحب اليمن، [عسكرا إلى مكة][1]، فيه الشريف راجح بن قتادة، فملكها من الأمير شجاع الدين طغتكين، نائب الملك الكامل، فى ربيع الآخر. وفر [شجاع الدين] إلى نخلة[2]، ثم إلى ينبع، وكتب يعلم الملك الكامل بذلك . فبعث إليه [الكامل] عسكرا سار بهم إلى مكة، فقدموها[3] فى شهر رمضان، وملكوها بعد ما قتلوا * جماعة، وكان مقدم العسكر الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ .

* * *

سنة ثلاثين وستمائة . فيها أنعم الكامل على ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بحصن كيفا، وسيره إليها[4] . وعاد [هو] إلى الديار المصرية، ومعه الملك المسعود، صاحب آمد . فلما وصل قلعة الجبل أفرج عنه، وأحسن إليه، وأعطاه إمرة بديار مصر .

و [فيها] قبض [الكامل] على جماعة من الأمراء المصرية . وفيها استولى الملك المظفر، صاحب حماة، على حصن بارين[5]، وانتزعه من أخيه (٦٧ أ) الناصر قلج أرسلان . فسار [قلج أرسلان] إلى خاله الكامل، فقبض عليه، واعتقله فى قلعة الجبل حتى مات .

وفيها جهز الملك الكامل عسكرا من الغز والعربان إلى ينبع، من أرض الحجاز — عليهم علاء الدين آق سنقر الزاهدى ... ...[6] — فى شوال، وعدتهم سبعمائة . وسبب ذلك ورود الخبر

(١) ما بين القوسين محجوب بورقة ملصقة فى س، ولكنه وارد فى ب (٧٩ ب) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى المرحلة الأولى للصادر عن مكة، واسمها نخلة محمود، تمييزا لها عن نخلة الشامية، الواقعة على طريق اليمن، على مسافة ليلتين من مكة؛ وتمييزا عن نخلة اليمانية، التى تقع على الطريق بين مكة والبصرة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٧٦٩ — ٧٧٠) . (٣) فى س فقدموا .

(٤) قصد الملك الكامل بهذا أن يبعد الصالح عن مصر، فيخلو بذلك الجو له، ولولده العادل، ولى العهد من بعده . انظر (Blochet: Op. cit .p. 393. N. I.) .

(٥) فى س بغرين . (٦) بياض فى س .

بمسير الشريف راجح من اليمن بعسكر إلى مكة ، وأنه قدمها فى صفر، وأخرج من بها من المصريين بغير قتال . فقدم الزاهدى فى الموسم ، وتسلم مكة، وحج بالناس ، وترك بمكة ابن محلّى(١)، ومعه خمسون فارسا، ورجع إلى مصر .

وفيها توفى الفخر سليمان بن محمود بن أبى غالب الدمشقى، كاتب الإنشاء(٢) . فاستحضر الملك الكامل ناسخا يقال له الأمين الحلبى، كان عند الأمير عز الدين أيبك – أستادار الملك

(١) فى س مجلى ، وبغير ضبط ، وهو مترجم إلى (Ibn Mahalla) فى (Blochet : Op. cit. P. 394). انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٥٠) ؛ وكذلك الترجمة الإنجليزية للرجع نفسه ، (Vol. I. P. 97) .

(٢) يوجد فى (Blochet : Op. cit. p. 395. N. I.) ثبت لأسماء أصحاب ديوان الإنشاء بمصر، من عهد الخليفة العزيز بن المعز الفاطمى ، (٣٦٥ — ٣٨٦هـ)، إلى حكم السلطان الأشرف إينال ، (٨٥٧ — ٨٦٥هـ)، أحد سلاطين دولة المماليك البرجية . وقد كان لديوان الإنشاء النصيب الأكبر من عناية الذين كتبوا فى موضوع الأنظمة الحكومية المصرية فى القرون الوسطى ، وأهم الكتب التى ألفت فيه ، وأكثرها ذيوعا ، كتاب التعريف بالمصطلح الشريف ، لشهاب الدين بن محيى الدين بن فضل الله العمرى ، الذى تقلب فى ديوان الإنشاء بمصر، فى عهد السلطان الناصر محمد ابن قلاون (٦٩٣ — ٧٤١هـ) ، انظر (Enc. Isl. Art. Fadl Allah) ؛ وكتاب صبح الأعشى فى كتابة الانشا ، ومؤلفه شهاب الدين أبو العباس أحمد بن على بن أحمد بن عبد الله القلقشندى ، المتوفى بالقاهرة فى عاشر جمادى الثانية سنة ٨٢١هـ ، راجع (Enc. Isl. Art. kalkashandi) ؛ وكتاب المقصد الرفيع المنشا الهادى لصناعة الانشا ، لبهاء الدين محمد بن لطف الله بن عبد الله بن عبيد الله العمرى الخالدى ، وقد كتبه حوالى سنة ٨٣٦هـ ، انظر (G. - Demombynes : Op. cit. Pref. pp. V-VI.) .

أفرد القلقشندى الجزءين الأوّل والثانى من كتابه فى التعريف بهذا الديوان ، وتحديد الصفات والمؤهلات التى تلزم لصاحبه ، وفى بحث نشأته فى الإسلام إلى زمنه ، وسيقتصر هنا على الموضوع الأخير . يقول القلقشندى (ج ١ ، ص ٩١ — ١٠٤ ؛ ج ٣ ، ص ٤٩٠ — ٤٩٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦٤ — ٤٦٥) إن هذا الديوان أوّل ديوان وضع فى الإسلام : وذلك أن النبى عليه السلام ، كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه ، وقد كتب أيضا إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ؛ وممن استكتبه عليه السلام أبا بكر الصدّيق وعلى بن أبى طالب . وفى الدولة الأموية كان أمر الكتابة مفوّضا إلى كاتب ، وعرف متوليها بهذا الاسم . وممن اشتهر من كتاب الأمويين عبد الحميد بن يحيى الكاتب ، وكان فى عهد مروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين بدمشق . فلما جاءت الدولة العباسية كان ديوان الإنشاء يضاف تارة إلى الوزارة ، وتارة يعهد إلى كاتب يختص به . وفى الحالة الأولى أضيف لقب الكتابة إلى الوزارة ؛ أما فى الثانية ، فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل ، كما فى العصر العباسى الأوّل ، لقب متوليه بصاحب ديوان الرسائل ، أو متولى ديوان الرسائل ؛ وربما قيل صاحب ديوان المكاتبات ، أو متولى ديوان المكاتبات ؛ وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الانشاء ، لقب متوليه بصاحب ديوان الانشاء ، وربما جمع لفظ الديوان تعظيما =

المعظم — فى خدمته يكتب له . فلما حضر [الأمين] ليكتب بين يديه خلع عليه ، وأعاده إلى صاحبه ، فتزهّد استحياء من الناس . وبعث الكامل إلى ميا فارقين ، فأحضر الجلال بن نباتة ليستكتبه ، فلما حضر خلع عليه ، وأعاده ولم يستكتبه ، فاستكتبه الأشرف صاحب دمشق .

= لمتوليه ، فيقال صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وممن اشتهر من وزراء العباسيين وكتابهم يحى بن خالد البرمكى ، وابن المقفع مترجم كتاب كليلة ودمنة .

ولما كانت بلاد المغرب والأندلس الإسلامية بأيدى نواب الخلفاء ، لم يعن أولئك النواب بديوان الإنشاء فى ولاياتهم ، لقربهم من البداوة ، ولقصر غاية الولاة على الكتابة لديوان الخلافة . فلما هربت طائفة من بنى أمية إلى الأندلس ، وتأسست على يدهم دولة مستقلة عن الدولة العباسية ، جرى أمراؤها على سنن ما كان عليه آباؤهم بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين بنى العباس ببغداد . فأقاموا شعار الخلافة ، واتخذوا ديوان الإنشاء ، واستخدموا بلغاء الكتاب . وممن اشتهر عندهم من الكتاب أبو الوليد بن زيدون ، وابن الخطيب وزير ابن الأحمر ، صاحب غرناطة .

أما ديوان الإنشاء بمصر ، فله خمسة أدوار : الدور الأول ما كان عليه الأمر من الفتح إلى بداية الدولة الطولونية (٢٠ — ٢٥٤ هـ) ، وفيه لم يكن لنواب الخليفة عناية بديوان الإنشاء ، لاقتصار المكاتبات على ما يلزم لأبواب الخلافة . والدور الثانى ما كان عليه الأمر فى الدولتين الطولونية والإخشيدية (٢٤٥ — ٣٥٨ هـ) ، وفى خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بمصر ، وممن اشتهر من كتاب الطولونيين أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود بن عبدكان . والدور الثالث ما كان عليه الأمر زمن الدولة الفاطمية (٣٥٨ — ٥٦٥ هـ) ، وفيه صرف الفاطميون مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء ، وكان يعرف صاحبه بكاتب الدست الشريف ، ووليه فى زمنهم جماعة من أكابر الكتاب ، ما بين مسلم وذمى ، مثل الحافظ الشيخ الأجل أبى الحسن على بن أسامة الحلبى ، وأبى المنصور بن سوردين النصرانى ، وابن أبى الدم اليهودى . وقد تخرج القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى فى ديوان الإنشاء الفاطمى ، فى عهد العاضد ، آخر خلفاء تلك الدولة . والدور الرابع من ابتداء الدولة الأيوبية إلى انقراضها (٥٦٥ — ٦٤٧ هـ) ، وفيه أسند السلطان صلاح الدين كتابة الإنشاء إلى القاضى الفاضل ، وممن تولاها أيضا فى تلك الدولة بهاء الدين زهير ، فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب . والدور الخامس ما كان عليه الأمر فى دولتى المماليك البحرية والجبلية (٦٤٧ — ٩٢٢ هـ) ، وفى أوائل هذا الدور كان صاحب ديوان الإنشاء يلقب تارة بلقبه أيام الدولة الفاطمية — وربما عبر عنه أحيانا بكاتب الدرج — وتارة وليه جماعة يعبر عنهم بكتاب الدست . وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الديوان القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر ، فى أيام السلطان المنصور قلاوون ، فلقب بكاتب السر ، ونقل لقب كاتب الدست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان ، واستمر ذلك إلى زمن القلقشندى . ومن مشاهير أصحاب ديوان الإنشاء إلى عهده محيى الدين بن فضل الله العمرى ، وهو والد شهاب الدين صاحب التعريف ، ومنهم شهاب الدين نفسه ، وأخوه بدر الدين . (انظر أيضا المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٠٢ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٩٣ — ١٠٢ ؛ و (G. Demombynes: Op. cit. Pref. pp. V, LXVI.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان سلطن الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وأركبه بشـعار السلطنة، وشق به القاهرة، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة . وكان الكامل يحبه، ويحب أمه حبا زائدا .

وفى ذى القعدة وصل محيى الدين يوسف بن الجوزى (1) من بغداد، بالتقليد من [الخليفة] المستنصر [بالله] للملك الكامل .

وفيها أبطل السلطان المعـاملة بالفلوس (2) ، فى القاهرة ومصر ، فتلف مال كثير للناس .

وفيها مات الأمير حسام الدين مانع بن حديثة ، أمير العربان من آل فضـل، فأمّر الأشرف بعده ابنه مهنا (3) . وفيهـا قدم الناصر داود صاحب الكرك إلى مصر، فـنزل بدار الوزارة من القاهرة ، و ركب فى خدمة عمه الملك الكامل .

وفيها مات العزيز فخر الدين عثمان بن العادل بدمشق، يوم الاثنين عاشر رمضان. و[فيها] مات الملك المعظم مظفر الدين كوكبرى بن زين الدين على كوجك، ملك إربل، فى تاسع عشرى شعبان، عن أربع وثمانين سنة ؛ وكان يهتم بعمل المولد النبوى فى كل سنة اهتماما زائدا . فتسلم إربل من بعده نواب الخليفة، وصارت مضافة إلى مملكة بغداد .

* * *

سنة إحدى وثلاثين وستمائة . فيها قصد السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو السلجوقى، صاحب بلاد الروم، مدينة خلاط . فخرج الملك الكامل من القاهرة بعسكره، ليلة السبت خامس شعبان ، واستناب ابنه الملك العادل . فوصل إلى دمشق، وكتب إلى ملوك بنى أيوب يأمرهم بالتجهيز، للسير بعساكرهم إلى بلاد الروم .

(1) انظر ص ٢١٩ ، حاشية ٢ .

(2) كانت الفلوس فى مصر على نوعين، أحدهما المطبوع بالسكة، وثانيهما غير المطبوع . وكان الصنف الثانى عبارة عن قطع مكسرة من النحاس الأحمر، أو الأصفر، و يعبر عنها بالعتق . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٣ — ٤٤٤) .

(3) القبائل العـربية بالشام عنصر مهم فى تاريخ تلك البلاد ، انظر (Gibb: Damascus Chronicle. Introd. pp. 17-19) . وكانت ديار آل فضل ممتدة من حمص إلى جعبر، و إلى الرحبة والبصرة، على الفرات . وآل فضل هم الفخذ الأول من ربيعة بن حازم ، وقد نشأ ربيعة هـذا فى أيام الأتابك زنكى ، وهو ينتسب إلى عنيز بن سلامان ... بن طيء بن كهلان بن قحطان . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١ ، ص ٣٢٤ — ٣٢٥ ؛ ج ٤، ص ٢٠٣ — ٢٠٨) .

وخرج [الكامل] من دمشق، فنزل على سلمية فى شهر رمضان، ورتب عساكره، وسار إلى منبج، فقدم عليه عسكر حلب، وغيره من العساكر. فسار وقد صار معه ستة عشر دهليزا[١]، لستة عشر ملكا — وقيل بل كانوا ثمانية عشر ملكا. فعرضهم [الكامل] على البيرة أطلابا[٢] بأسلحتهم، فلكثرة ما أعجب بنفسه قال: "هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام". وأمر بها فسارت شيئا بعد شىء نحو الدربند[٣]، وقد جدّ السلطان علاء الدين فى حفظ طرقاته بالمقاتلة. ونزل الكامل على النهر[٤] الأزرق، وهو بأول بلد الروم. ونزل عساكر الروم فيما بينه (٦٧ ب) وبين الدربند، وأخذوا عليه رأس الدربند، وبنوا عليه سورا يمنع العساكر من الطلوع، وقاتلوا من أعلاه، فقلت الأقوات عند عسكر الكامل.

واتفق — مع قلة الأقوات وامتناع الدربند — نفور ملوك بنى أيوب من الملك الكامل، بسبب أنه حُفظ عنه أنه لما أعجبته كثرة عساكره بالبيرة، قال لخواصه: "إن صار لنا مُلك الروم فإنا نعوض ملوك الشام والشرق مملكة الروم، بدل ما بأيديهم؛ ونجعل الشام والشرق مضافا إلى ملك مصر". فحذر من ذلك المجاهد صاحب حمص، وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق. فأوجس فى نفسه خيفة موسى، وأحضر بنى عمه وأقاربه من الملوك،

(١) الدهليز هنا الخيمة، التى ترافق السلطان فى الحرب. وتختلف عن غيرها — من الخيم والدهاليز الكبيرة، التى تقام للسلاطين فى الصيد والتنزه — بكونها خيمة قائمة بذاتها، ليس بجوانبها خيم صغيرة، كالتى تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان فى أيام السلم. (Dozy: Supp. Dict. Ar.)

(٢) جمع طُلْب، وهو لفظ كردى، معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال، و يطلق أيضا على قائد المائة أو السبعين. وكان أول ما استعمل هذا اللفظ بمصر والشام أيام السلطان صلاح الدين، ثم عدل مدلوله فأصبح يطلق على الكتيبة (battaillon) من الجيش (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٣) بغير ضبط فى س. وليس المراد هنا بلدة الدربند، المسماة أيضا باب الأبواب، والواقعة على الشاطئ الغربى لبحر قزوين، شمالى باكو، وقبالة تفليس. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٥٦٤؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦٤). إنما هى لفظ فارسى، معناه فى الأصل سنبلة من حديد، يقفل بها باب الدكان، ويقال لها دروند أيضا. (Dozy : Supp. Dict. Ar.). ثم استعملت كما هنا، بمعنى المضايق والطرقات (محيط المحيط)، وأراد المقريزى بها المعابر الضيقة، الواقعة شمالى البيرة والنهر الأزرق. (انظر الحاشية التالية).

(٤) أحد نهيرات الفرات الأعلى، ويجرى بين بهسنا وحصن منصور. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٤، ص ٨٣).

وأعلمهم ذلك . فاتفقوا على الملك الكامل،وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل . وسـيّروا الكتب [بذلك] ، فاتفق وقوعها فى يد الملك الكامل ، فكتمها ورحل راجعـا .

فأخذ [السلطان علاء الديـن كيقباد]، ملك الروم، قلعة خَرْتَبِرْت (١) ، وست قلاع أخر كانت مـع الملوك الأرتقية، فى ذى القعدة . فاشتد حنق (٢) [الملك الكامل]، لمـا حصل على أمرائه وعساكره من صاحب الروم فى قلاع خرتبرت ؛ ونسب ذلك إلى أهله من الملوك ، فتنكر ما بينه وبينهم .

وفيها مات الملك المفضل قطب الدين موسى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فى ذى الحجة . وفيها بعث المنصور [عمر بن على بن رسول] ، ملك اليمن، عسكرا وخزانة مال إلى الشريف راجح [بن قتادة] (٣)، فأخرج من بمكة من المصريين .

وفيها حضر الشيخ أبو عبـد الله محمد بن عمر القرطبي سَمَاعًا ، بزقاق الطباخ (٤) بمدينة مصر ، فى أول يوم من شهر رجب ،و[كان] هناك الشيخ أبو عبد الله القرشى (٥)، وأبو عباس القسطلانى ، وجماعة [غيرهما] . فلما أنشد القَوَّال صفَّق أبو يوسف الدهمانى بيديه، وارتفع عن الأرض متربعا ، إلى أن بلغ إلى أَنْبِدَارِيَةِ (٦) المجلس ، ودار ثلاث دورات ، ثم نزل إلى مكانه . فقـام الشيخ القرطبي ، وقدّر ارتفاع الأنبدارية ، فكان أطول من قامته رافعا يديه .

(١) فى س خوبرت ، فى الموضعين (سطر ٦) ، بغير ضبط ، و إسقاط التاء الوسطى هكذا جاء فى الشعر . وهو اسم أرمنى ، يطلق على حصن زياد ، من بلاد الروم ، فى أقصى ديار بكر . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤١٩) .

(٢) فى س حنقه .

(٣) انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٤٩ — ٥٠ ، ٥٤ — ٥٥ ، ٦١ — ٦٢) لمراجعة تفاصيل محاولات ابن رسول نحو مكة .

(٤) ليس بالمواعظ والاعتبار للقريزى ذكر لهذا الزقاق ، فى باب أزقة القاهرة ومصر ، غير أنه يوجد جامع الطباخ (نفس المرجع : ج ٢ ، ص ٣١٥) ، وقد جدّده الحاج على الطباخ ، قبيل سنة ٧٤٦ هـ ، وموقع هذا الجامع بخط باب اللوق ، بجوار بركة الشقاف .

(٥) فى س القرسى .

(٦) مضبوطة على منطوقها فى (Blochet: Op. cit. P. 404. N. 1.) ، حيث هى مترجمة إلى (lambris) ، أى السقف .

\+ + +

سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . فيها عاد الملك الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق — فى جمادى الأولى — ، وقد توحش ما بينه وبين أخيه الأشرف، صاحب دمشق، وغيره من الملوك. فقبض [الكامل] على المسعود صاحب آمد، واعتقله فى برج هو وأهله، يوم الاثنين سادس عشر جمادى الأولى، لممالأته لهم . فملك صاحب الروم الرها وحران بالسيف ، وعاد إلى بلاده، بعد مااستولى على ما كان بهما من الأموال . فلما بلغ الكامل ذلك أمر العساكر أن تتجهز للسير إلى الشرق، وأقطع ابن الأمير صلاح الدين الإربلى صَنَافِير(١) بالقليوبية ، وجعل أقارب والده ومماليكه معه، وعدّتهم سبعة عشر رجلا .

وفيها بعث ابن رسول إلى الشريف راجح [بن قتادة] بخزانة مال ، ليستخدم عسكرا . فلم يتمكن من ذلك، لأنه بلغه أن السلطان الملك الكامل بعث الأمير أسد الدين جَغْرِيل(٢)، أحد المماليك الكاملية، إلى مكة بسبعمائة فارس . [وحضر جغريل إلى مكة]، ففر منه الشريف راجح بن قتادة إلى اليمن ، وملك [جغريل مكة](٣) فى شهر رمضان، وأقام العسكر بها .

وفيها مات الملك الزاهر أبو سليمان مجير الدين داود بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، صاحب البيرة، فى سابع صفر . فاستولى العزيز، صاحب حلب، عليها من بعده . و [فيها] مات (٦٨ ا) الأمير شمس الدين صواب، الطواشى الكاملى، بحران فى أواخر شهر رمضان .

\+ + +

سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . فيها استمر وباء كثير بمصر مدة ثلاثة أشهر، فمات بالقاهرة ومصر خلق كثير، بلغت عدّتهم زيادة على اثنى عشر ألفا، سوى من مات بالريف .

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى بمركز قليوب، غربى ناحية بهادة، وشمالى كفر الحارث . وإليها ينسب الشيخ يحيى ابن على الصنافيرى، المتوفى سنة ٧٧٢ هـ . (على مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٣ ، ص ٢٤ — ٢٦) . هذا وبالقاهرة الحالية طريق اسمه شارع الصنافيرى . (٢) فى س جفريل، وبغير ضبط ؛ وفى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٢٧٣) جبريل ؛ وفى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٥٥) جبرئيل . انظر (Blochet : Op. cit. P. 405. N. 2.) . (٣) فى س "وملكها فى شهر رمضان"، وقد أضيف ما بين الأقواس، بعد مراجعة الخزرجى (نفس المرجع والجزء والصفحة) .

وفيها سار التتر إلى جهة الموصـــل ، فقتلوا ونهبوا وسبوا . وفيها سار النـــاصر داود ، صاحب الكرك ، إلى الخليفة [المستنصر بالله] ، خوفا من عمه الملك الكامل ، فإنه كان قد ألزمه حتى طلق ابنة الكامل ، فخشى أن ينتزع منه الكرك . فوصل إلى بغداد ، فأكرمه الخليفة ، ومنعه من الاجتماع به ، رعاية للملك الكامل . ثم اجتمع به سرا ، وخلع عليه ، وبعث معه رسولا مُشَرْبَشًا(١) من خواصه إلى الكامل ، يشفع فيه . فلما وصل [الرسول] إلى الكامل تلقاه ، وقبل الشـــفاعة .

وفيها سار الملك الكامل من القاهرة بعساكره يريد بلاد الشرق ، فنازل الرها حتى أخذها ، يوم الأربعاء ثالث عشر جمادى الأولى ؛ وأسر منهـــا زيادة على ثمانمائة من الأمراء ، وهدم قلعتها . ونازل حران ، وأخذها بعد حصار وقتال ، فى رابع عشر جمادى(٢) الآخر ؛ وأسر من كان بهـــا من أجناد السلطان علاء الدين ، وأمرائه ومُقَدَّميه الصُّوْباشِـيَّة(٣) ، وكانوا سبعمائة وخمسة وعشرين رجلا ، فمات كثير منهم فى الطرقات . ثم نزل [الكامل] على دُنَيْسِر(٤) ، وخرَّبها . فورد عليه الخبر بأن التتر قد وصلوا إلى سنجار ، فى مائة طُلْب ، كل طُلْب خمسمائة فارس . وأخذ [الكامل] قلعة السُّوَيْداء(٥) عنوة ، وأسر من بها فى سابع عشر جمادى [الآخر] ، وهدمها ؛ وأخذ قَطِيْنا(٦) ، وأسر من بها فى رجب . وفى تاسع عشره بعث [الكامل] جميع الأسرى إلى ديار مصر ، وعدتهم تزيد على الثلاثة آلاف ، وعاد إلى دمشق ، وسلم الشرق لابنه الملك الصالح [أيوب] .

(١) الشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، (محيط المحيط) ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء ، فلا يلبسها رجال العلم ، كالقضاة والكتاب وغيرهم . وقد ألغى استعمالها بمصر زمن المماليك البرجية . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى س "ربيع" ، وهفوة المقريزى هنا ظاهرة . (٣) فى س السوباسية ، بغير ضبط . والصوباشى لفظ فارسى ، معناه "الوكيل فى الضيعة ، من قبـــل صاحبها" ؛ وفى اصطلاح أرباب السياسة الأمين الذى يحبس النساء فى بيتـــه" . والعامة تقول الشوباصى ، (محيط المحيط ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، ولعل رسم المقريزى نطق عامى آخر . (٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة كبيرة من نواحى الجـــزيرة ، بينها وبين ماردين فرسخان ، ويقال لها قوج حصار . (ياقوت معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٦١٢) . (٥) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة قرب حران . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٩٧) . (٦) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٩٠٢) ، وهى بلدة على نهر الزاب الأعلى ، شمالى الموصل . انظر (Blochet : Op. cit. p. 408)

وفيها هدمت دنيسر ، وعدة بلاد كثيرة من بلاد صاحب ماردين . وفيها خرج عسكر الروم، بعد عود الكامل، وحاصر آمد وأخرب دارا[١]، فى خامس ذى القعدة .

وفيها استولى الفرنج على مدينة قرطبة بالأندلس . وفيها قُدِّم أنبا كيرلس داود بن لقلق بطركا على الإسكندرية لليعاقبة[٢] ، فى يوم الأحد ثالث عشرى بؤونة، سنة إحدى وخمسين وتسعمائة للشهداء، الموافق لتاسع عشرى رمضان . فأقام [فى البطركية] سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أعوام؛ وكان عالما، محبا للرياسة، وجمع المال، وأخذ الشرطونية . وكانت أرض مصر قد خلت من الأساقفة ، [قبيل اعتلائه كرسى البطركية][٣]، فقدّم جماعة من الأساقفة بمال كبير . ومرّت به شدائد كثيرة ، فإن الراهب عماد[٤] المرشار كان قد سعى فى ولايته البطركية ، وشرط عليه ألا يقدّم أسقفا إلا برأيه ، فلم يف له ، ولا التفت إليه . فانحرف عنه ورافعه ، فوكل عليه وعلى علّة من أقاربه وألزامه . وقام أيضا عليه الشيخ السنى[٥] بن التعبان الراهب ، وعانده وذكر مثالبه، وأنه إنما تقدم بالرشوة، وأنه أخذ الشرطونية ، فلا تصح له كهنوتية، على حكم القوانين . ومال معه جماعة، وعقدوا له مجلسا بحضور الصاحب (٦٨ ب) معين الدين ابن شيخ الشيوخ، فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأثبتوا عليه أمورا شُنْعَة، وعزموا على خلعه . فقام معه الكتّاب المستوفون بديار مصر، وتحدّثوا مع الصاحب معين الدين، فقرّر مالا حمله [البطريك] إلى السلطان[٦] ، واستمر [أنبا كيرلس] على بطركيته حتى مات ، يوم

---

(١) بلدة فى لحف جبل ، بين نصيبين وماردين . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥١٦ — ٥١٧) .

(٢) انظر ص ١٨٣ — ١٨٤ . (٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Butcher : Op. cit II. p. 139.)

(٤) كذا فى س ، بغير ضبط ، وفى (Ibid: Op. cit. II. P. 142.) ، راهب اسمه (Hamid) ، وكان زعيم الثورة ضد البطريق . وقد يكون لفظ المرشار تعريبا لاسم دير (Macarius) بوادى النطرون ، وهو أحد الأديرة الكبيرة بمصر ، فى القرون الوسطى ، وعماد هذا — أو حامد — راهبا به . وكان هذا الدير تابعا للبطريك مباشرة ، فلعل طمعه فى أموال الدير أحفظ الراهب عماد — أو حامد — وأثاره ، على الوجه المذكور بالمتن . (Ibid: Op. cit. II. P. 140.)

(٥) مضبوط هكذا فى س . ولعله سنى الدولة . انظر (Blochet : Op. cit. P. 409) .

(٦) تفاصيل هذه الحوادث موجودة فى (Butcher : Op. cit. II. pp. 140-151.)

الثلاثاء رابع عشر برمهات، سنة تسعمائة وتسع وخمسين للشهداء ، الموافق لسابع رمضان سنة أربعين وستمائة، وخلا الكرسى بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوما .

وفيها بعث الملك المنصـــور عمر بن علىّ بن رســـول، ملك اليمن، عسكرا إلى مكة، مع الشهاب بن عبد الله، ومعه خزانة مال، فقاتله المصريون وأسروه، وحملوه إلى القاهرة مقيدا .

* * *

سنة أربع وثلاثين وستمائة . فيها سار الملك الكامل من دمشـــق يريد القاهرة، فوصل إليها، وصعد قلعة الجبل فى ... ...(١) ثم خرج إلى دمياط، فقدم عليه محيى الدين يوسف ابن الجوزى رسولا من الخليفة ، وهو بها . وسافر [محيى الدين ؟] إلى [السلطان علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان](٢)، صاحب الروم ، ومعه الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى، رسولا من جهة الملك الكامل .

وفيها مات الملك العـــزيز غياث الدين محمـــد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب، صاحب حلب، يوم الأربعاء رابع عشرى شهر ربيع الأول، عن ثلاث وعشرين سنة وأشهر . وقام من بعده ابنه الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف، وعمره نحو السبع سنين. وقام بتدبير أمره الأميران لؤلؤ الأمينى، وعز الدين عمـــر بن مُجَلِّى(٣)؛ وبينهما وزير الدولة جمال الدين الأكرم، يراجع الستر الرفيع صفية(٤) خاتون ابنة الملك العادل، على لسان جمال الدولة إقبال . وحضر الأمـــير بدر الدين بدر بن أبى الهيجاء، وزين الدين قاضى حلب، إلى الملك الكامل، بزردية العزيز وكُزَاغَنْده(٥)، وخوذته ومركوبه . فأظهر [الكامل] الألم لموته ، وقصّر

(١) بياض فى س .   (٢) انظر الصفحة التالية، (سطر ١٢) .

(٣) فى س مجلى، بغير ضبط، وقد تقدّم مثل هذا الاسم، (ص ٢٤٥ ، سطر ٤) وصحح هناك كما هنا بالمتن . انظر أيضا (Blochet : Op. cit. P. 411.) .

(٤) فى س ضيفة . راجع ص ١٧٤ (سطر ٩) .

(٥) الكزاغنـــد المعطف القصير ، يلبس فوق الزردية ، ويصنع من القطن — أو الحرير — المبطن المنجد (rembourrée et piquée)، والجمع كزاغنديات . وهو لفظ فارسى (محيط المحيط، Dozy: Supp. Dict. Ar.)، ويقابله فى الإنجليزية لفظ (Surcoat)، انظر (Scott : Talisman. P. 3)، وفى الفرنسية (Jacquette) .

فى إكرامهما، وحلف للناصر، وشرط أشياء، وأعاد الرسولين. ثم أرسل خلعة للناصر بغير مركوب، ومعها عدّة خلع للأمراء الحلبيين، وخلعة للصالح صلاح الدين أحمد بن الظاهر غازى، صاحب عينتاب. فاستوحشت أم الظاهر من أخيها الكامل، ولم توافق على لبس أحد من الأمراء الخلع. فلبس الناصر وحده خلعة الكامل، ورُدَّ الرّسول الوارد إلى الصالح [صلاح الدين] بخلعته.

وفيها تنكر الأشرف، صاحب دمشق، على الملك الكامل؛ وراسل أهل حلب، فوافقوه على منع الكامل من بلاد الشام، ومكاتبة السلطان علاء الدين، صاحب الروم، ليكون معهم. فانتظمت كلمة ملوك الشام على مخالفة الملك الكامل، فانزعج الملك الكامل، وعزّ ذلك عليه. وكان حين بلغه الخبر بالإسكندرية، خرج منها ليلا، وسار إلى قلعة الجبل، وشرع فى تدبير أمره.

فاتفق موت السلطان علاء الدين كيقباد(١) بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان، ملك الروم، وقيام ولده غياث الدين كيخسرو بن [علاء الدين] كيقباد من بعده، فى سابع شوّال، قبل اجتماعه بالحافظ زكى الدين عبد العظيم [المنذرى](٢)، رسول السلطان. (١٦٩ ا) فبعث ملوك الشام رسلهم إلى السلطان غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد(٣) بن كيخسرو بن قلج بن أرسلان السلجوقى، صاحب الروم، يعزّونه فى أبيه، ويحلّفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الملك الكامل. وسير الكامل أفضل الدين محمد الخونجى يعزى غياث الدين بأبيه، ومعه ذهب برسم الصدقة عنه، وثياب أطلس برسم أغشية القبر. وفيها كان الوباء أشد من السنة الماضية. وفيها ضرب الملك الكامل الفلوس.

وفيها بعث [الملك الكامل] القاضى الأشرف بن [القاضى] الفاضل(٤) إلى الملك الناصر داود، صاحب الكرك، يدعوه إلى موافقته. فرحل [الملك الناصر] إلى القاهرة، مع القاضى الأشرف؛

(١) عبارة س كالآتى: "فاتفق موت السلطان علا الدين وقيام ولده من بعده ..."، وقبالتها هامش نصه: "كى قباذ (كذا) بن غياث الدين كيخسرو قلج ارسلان ملك الروم، وملك بعده ابنه عاث الدين كيخسرو بن كى قباذ". وقد أدمج هذا الهامش على النحو الوارد بالمتن. (٢) انظر ص ٢٥٣ (سطر ٩). (٣) فى س كيقباذ.

(٤) معظم عبارة المقريزى، من هنا إلى آخر أخبار هذه السنة، مشابهة فى أسلوبها وألفاظها، لما فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٢ — ١١٣، فى Rec. Hist. Or. 1.). وقد أضيف ما بين الأقواس من ذلك المرجع.

فسر الكامل بقدومه ، وركب إلى لقائه ، وأنزله بدار الوزارة ، وقدّم له أشياء كثيرة ، وخلَع عليه . وقلّده [الكامل] دمشق ، وأمَر من عنده من الأمراء والملوك الأيوبية ، فحملوا الغاشية بين يديه بالنوبة ، فكان أول من حملها الملك العادل أبو بكر بن الكامل ، ثم البقية واحدا بعد واحد ، إلى أن صعد قلعة الجبل . وجدّد [الناصر] عقده على مطلقته عاشوراء خاتون ابنة الكامل ، فى تاسع عشر ذى الحجة . فلما بلغ الأشرف ذلك أوقع الحوطة على نابلس ، وأخذ ما كان فيها للناصر داود .

و [فيها] سير الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، صاحب حصن كيفا ، يستأذن أباه فى استخدام من خالف [السلطان غياث الدين كيخسرو] ، صاحب الروم ، من الخوارزمية . فأذن له فى ذلك ، واستخدمهم عنده بالبلاد الجزرية ، فتقوّى بهم .

وفيها استولى التتار على إربل ، وقتلوا كل من فيها ، وسبوا ونهبوا ، حتى نتنت من كثرة القتلى ؛ ثم رحلوا عنها .

وفيها قدم من جهة ملوك الشام إلى الملك الكامل رسول ، فبلّغه عنهم أنهم قالوا : "إنا اتفقت كلمتنا عليك ، فلا تخرج من مصر إلى الشام ، واحلف لنا على ذلك" . فاتفق مرض الأشرف بالذَّرَب[1] ، فكان لا يستقر بباطنه طعام ألبتة ، حتى انقضت السنة وهو مريض ، من شهر رجب .

وفيها قدم عسكر من اليمن إلى مكة ، فحاربهم الأمير أسد الدين جغريل[2] ، وكسرهم . فقدم الملك المنصور عمر بن رسول ، وملك مكة بغير قتال ، وتصدّق بمال ، وترك بها جماعة . فقدم الشريف شيحة[3] بن قاسم ، أمير المدينة ، وملك مكة منهم ، ونهبهم ، ولم يقتل أحدا .

(١) فى س بالدرب . والذرب عند الأطباء مرض استطلاق البطن المتصل ، والفرق بينه وبين الهيضة أن الذرب لا يكون معه قىء ، وهو من الأمراض المزمنة . أما الهيضة فيكون معها قىء ، وهى من الأمراض الحادة . (محيط المحيط) . (٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . انظر ص ٢٥٠ ، حاشية ٢ . (٣) فى س شحه . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٠٠) .

* * *

سنة خمس وثلاثين وستمائة . فيها مات الأشرف موسى بن العادل أبي بكر ابن أيوب، صاحب دمشق بها، يوم الخميس رابع المحرم ؛ وعمره نحو من ستين سنة ؛ ومدة ملكه بدمشق ثمانى سنين وأشهر . ولم يترك سوى ابنة، [تزوجها الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل][1] . فقام من بعده بدمشق أخوه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، صاحب بصرى، بعهد من أخيه له[2] . فاستولى [الملك الصالح عماد الدين] على دمشق وبعلبك؛ وبعث ابنه الملك المنصور محمودا[3] إلى الشرق، ليتسلم سنجار ونصيبين والخابور[4] من نواب الأشرف؛ وبعث إلى المجاهد صاحب حمص، وإلى المظفر صاحب حماة، وإلى الحلبيين [أيضا]، ليحلفوا له ويتفقوا معه — على القاعدة التى تقررت بينهم (٦٩ ب) وبين الأشرف — على مخالفة الكامل . فأجابوا إلا صاحب حماة، فإنه مال مع الكامل، وبعث إليه يعلمه بميله إليه ؛ فسر الكامل بذلك . ثم إن [الملك] الصالح [عماد الدين] صادر جماعة من الدماشقة، الذين قيل عنهم إنهم مع الملك الكامل، منهم العلم[5] تعاسيف، وأولاد مزهر ؛ وحبسهم فى بصرى .

فتجهز الكامل، وخرج من قلعة الجبل بعساكره، بكرة يوم الخميس ثالث عشرى صفر، واستناب على مصر ابنه الملك العادل . وأخذ معه الناصر داود، وهو لا يشك أن[6] الملك الكامل يسلم إليه دمشق، لما[7] كان قد تقرر بينهما . فكاتب [الكامل][8] نائب قلعة عجلون

(١) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٣ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) قبالة هذه العبارة، بالهامش فى س، فقرة بمعناها تقريبا، ونصها : "واستحلف بعده اخاه الملك الصالح عماد الدين اسمعيل، وحلف له الامرا، واركبه فى حياته بالسنجق" . (٣) فى س محمود . (٤) بغير ضبط فى س، والخابور اسم لنهر كبير، منبعه عند رأس عين، ومصبه فى الفرات، بعد أن يلتق بنهر نصيبين وغيره . وتقع على نهر الخابور بلدان جمة، غلب على كثير منها اسمه، (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٣٨٣)، فيكون البلد الوارد بالمتن أحدها .

(٥) أى علم الدين . انظر ص ٢٣٢ ، سطر ٣ . (٦) ، (٧) العبارة بين الرقمين، منقولة بنصها من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٣ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، وقد وضعت بدل ما ورد فى السلوك، لوضوحها عنه، وهذا نصه : "... وهو لايشك انه يتسلم دمشق لما تقرر" . (٨) فى س : "فكاتب نائب قلعة عجلون، حتى سلمها . ونزل الكامل على دمشق، بمسجد القدم" . انظر (Blochet: Op. cit. p. 417. N. 2.) .

حتى سلمها ، ونزل على دمشق بمسجد القـدم ، فى ثالث عشرى ربيع الاول ، وقد تحصنت وأتتها النجدات . فحاصرها وقطع عنها المياه ، وضايقها حتى غلت بها الأسعار ، وأحرق العُقَيْبة[1] والطَّوَاحين[2] ، وألح على أهلها بالقتال . وكان الوقت شـتاء ، فأذعن الصالح [إسماعيل] ، وسلم دمشق لأخيه الكامل ، فعوضه عنها بعلبك والبقاع ، وبصرى والسواد . وكان السفيرَ بينهما الصاحب محيي الدين أبو المظفر يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزى ، رسـول الخليفة ، الوارد ليوقع الصلح بين ملوك بنى أيوب .

فتسلم الكامل دمشق فى عاشر جمادى الأولى ، وسار الصالح [إسمـاعيل] إلى بعلبك ، لإحدى عشرة بقيت من جمادى الأولى . فنزل الملك الكامل بالقلعة ، وأمر بنصب الدهليز بظاهر دمشق ، وسير المظفر صاحب حماة إلى حمص ، وأطلق الفلك[3] المسيرى من سجن قلعة دمشق — وكان قد سجنه الملك الأشرف — ، ونَقَل الأشرف إلى تربته .

وأمر [الكامل] فى يوم الإثنين سادس جمـادى الآخرة ألا يصلى أحد من أئمـة الجامع المغربَ ، سوى الإمام الكبير فقط ، لأنه كان يقع بصلاتهم تشويش كبير على المصلين .

وورد الخبر باستيلاء الصالح [نجم الدين أيوب][4] بن الكامل على سنجار ونصيبين والخابور . وقَدِم رسول الخليفة بمال إلى الملك الكامل ، ليستخدم به عسكرا للخليفة ، فإنه بلغه توجه التتر إلى بغداد . فقام الملك الكامل لما سُلِّم إليه كتاب الخليفة ، ووضعه على رأسه ؛ وكان جملة ما حضر من المـال مائة ألف دينار مصرية . فأمر الملك الكامل أن يُخرَج من بيت المـال مائتا ألف دينار ، ليستخدم بها العساكر ، وأن يُجرَّد من عساكر مصر والشام عشرة آلاف ، نجدة للخليفة ؛

(١) بغير ضبط فى س ، وتسمى أيضا العَقِيبَة ، وهى قرية من ضواحى دمشق . G.— Demombynes : Op. cit. pp. 26, 36.) ؛ وياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٥٧) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٤٤) موضـع قرب الرملة ، غير أن القرائن تدل على أنها موضع قرب العقيبة ، من ضواحى دمشق .

(٣) فى س الملك . انظر (Blochet : Op. cit. P. 418.) حيث عدل هذا الاسم ، وترجم إلى (Falak-ad-Din) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١١٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.).

وأن يكون مقدّم العساكر الناصر داود ؛ وألا يُصْرَف مما حضر من المال شيء ، بل يعاد بكماله إلى خزانة الخليفة . فتولى استخدام الأجناد الأميران ركن الدين الهيجاوى، وعماد الدين ابن موسك، وأن يكونا مع الناصر [داود] فى خدمته . فاستخدم [الناصر] العسكر، وسار إلى بغداد، وهم نحو ثلاثة آلاف فارس .

وشرع الكامل يتجهز لأخذ حلب ، فخاف المجاهد صاحب حمص ، وبعث ابنه [المنصور[1] إبراهيم]، فتقرر الأمر على أن يحمل [المجاهد] كل سنة للملك الكامل ألفى ألف درهم، فعفا عنه .

وكان منذ دخل الكامل إلى قلعة دمشق قد حدث له زكام، فدخل فى ابتدائه إلى الحمام، وصُبَّ على رأسه الماء الحار . فاندفعت المواد إلى معدته، فتورم وعرضت له حمى، فنهاه الأطباء عن القيء، وحذروه منه . فاتفق أنه تقيأ (١٧٠ ا) لوقته، فى آخر نهار الأربعاء حادى عشرى شهر رجب، بقاعة الفضة من قلعة دمشق ، فدفن بها بكرة الغد، وعمره نحو من ستين سنة ؛ وذلك بعد موت أخيه الأشرف بنحو ستة أشهر . فكانت مدّة ملكه دمشق هذه المرة أحدا[2] وسبعين يوما ؛ ومدّة مملكته بمصر، بعد موت أبيه، عشرين سنة وثلاثة وأربعين يوما — وقيل وخمسة وأربعين يوما — ، و[كانت] فى أيام أبيه نحوها. فحكم مصر قريبا من أربعين سنة؛ ومولده فى الخامس والعشرين من ربيع الأول، سنة ست وسبعين وخمسمائة .

وكان يحب أهل العلم ، ويؤثر مجالستهم ؛ وشغف بسماع الحديث النبوى ، وحدّث بالإجازة من أبى محمد بن برى، وأبى القاسم البوصيرى، وعدة من المصريين، وغيرهم . وتقدّم عنده أبو الخطاب بن دحية ، وبنى له دار الحديث الكاملية[3] بالقاهرة ، وجعل عليها أوقافا .

---

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Lane - Poole : Saladin. Table II. in pocket.) . هذا وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٤ ، فى Rec. Hist. Or. I.) أن المجاهد أرسل نساءه إلى الملك الكامل ، ليشفعن له عنده، "فدخلن على الملك الكامل ، فلم يلتفت إلى ذلك" . (٢) فى س احد .

(٣) كانت تلك المدرسة ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٣٧٥)، أول بيت للحديث بالقاهرة، وفيها يقول : "هذه المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، وتعرف بدار الحديث الكاملية ، أنشأها السلطان =

وكان يناظر العلماء ، وعنده مسائل غريبة من فقه ونحو يمتحن بهـا ، فمن أجاب عنها قدّمه وحظى عنده . و[كانت] تبيت عنده بالقلعة جماعة من أهل العلم : كالجمال اليمنى النحوى ، والفقيه عبد الظاهر ، وابن دحية ، والأمير صلاح الدين الإربلى — وكان أحد الفضلاء — فينصب لهم أسرة ينامون عليهـا بجانب سريره ، ليسامروه[1] . فنفقت العلوم والآداب عنده ، وقصده أرباب الفضائل ، فكان يطلق لمن يأتيه منهم الأرزاق الوافرة الدارّة . فمن قصده التاج بن الأرموى ، وأفضل الدين الخونجى ، والقاضى الشريف شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر ؛ وهؤلاء أئمة وقتهم فى المنقول والمعقول .

وكان مهيبا[2] ، حازما سـديد الاراء ، حسن التدبير لممالكه ، عفيفا عن الدماء . وبلغ من مهابته أن الرمل — فيما بين العريش ومصر — كان يمر فيـه الواحد ، بالذهب الكثير والأحمال [من] الثياب ، من غير خوف . وسُرق مرة فيه بساط ، فأحضر [الكامل] العربان الذين يخفرون الطريق ، وألزمهم بإحضاره و إحضـار سارقه . فبذلوا عوضـه شيئا كثيرا ، وهو يأبى إلا إحضار السارق ، أو إتلاف أنفسهم وأموالهم بدله ، فلم يجدوا بدا من إحضار السارق والبساط .

وكان يباشر أمور الملك بنفسه ، من غير اعتماد على وزير ولا غيره . واسـتوزر أولا الصاحب صفى الدين بن شكر ، ست سنين ، وانكف بصره وهو يباشر الوزارة حتى مات ،

= الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان ، فى سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أوّل من بنى دارا [للحديث] على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق . ثم بنى الكامل هذه الدار ، ووقفها على المشتغلين بالحديث النبوى ، ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية . ووقف عليها الربع الذى بجوارها ، على باب الخـرنفش ، ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر . وهذا الربع من إنشاء الملك الكامل ، وكان موضعه من جملة القصر الغربى ، ثم صار موضعا يسكنه القماحون . وكان موضع المدرسة سوقا للرقيق ، ودارا تعرف بابن كستول . وأول من ولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن دحيـة ، ثم أخوه أبو عمرو عثمان بن الحسن بن على بن دحية ، ثم الحافظ عبد العظيم المنذرى ، ثم الرشيد العطار . وما برحت بيد أعيان الفقهاء ، إلى أن كانت الحوادث والمحن ، منذ سنة ست وثمانمائة ، فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وولى تدريسها صبى ، لا يشارك الأناسى إلا بالصورة ، ولا يمتاز عن البهيمة إلا بالنطق ؛ واستمر فيهـا دهرا لا يدرس بها ، حتى نسيت أو كادت تنسى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله " .

(١) فى س ليسامرونه .

(٢) فى س مهابا .

وكان الأمير فخر الدين عثمان الأستادار يتردد إليه فى الأشغال . فلما مات الصاحب [صفى الدين] لم يستوزر [الكامل] بعده أحدا ، بل كان يستنهض من يختار فى تدبير الأشغال (٧٠ ب) : فأقام[1] معين الدين بن شيخ الشيوخ مدّة ، وسماه نائب الوزارة ؛ ومرة أقام تاج الدين يوسف بن الصاحب صفى الدين، ومرة جمال الدين بن البورى . وصار يباشر أمور الدولة بنفسه، ويُحضِر عنده الدواوين، فيحاققهم ويحاسبهم . وإذا ابتدأت زيادة النيل خرج بنفسه وكشف الجسور، ورتّب فى كل جسر من الأمراء من يتولاه، ويجمع الرجال لعمله . ثم يشرف على الجسور بعد ذلك، فمتى اختل جسر عاقب متوليه أشدّ العقوبة؛ فعمرت أرض مصر فى أيامه عمارة زائدة .

وأخرج [الكامل] من زكوات الأموال ، التى كانت تُجْبَى ، سهمى الفقراء والمساكين ، وجعلهما مصروفين فى مصارفهما ، ورتب عليهما جامكيات الفقهاء والفقراء والصلحاء . و[كان] يجعل فى كل ليلة جمعة مجلسا لأهل العلم عنده ، ويجلس معهم للباحثة . وكان كثير السياسة ، وأقام [فى][2] كل طريق خفراء تحفظ المسافرين . إلا أنه كان مُغْرًى بجمع المال ، مجتهدا فى تحصيله : وأحدث فى البلاد حوادث سماها الحقوق، لم تكن فى أيام من تقدمه . وله شعر، منه قوله :

إذا تحققتُم ما عند صاحبكم ... من الغرام فذاك القدر يكفيه
أنتم سكنتم فؤادى وهو منزلكم ... وصاحب البيت أدرى بالذى فيه

وفيه يقول البهاء زهير بن محمد، من قصيدة عند فتح دمياط : —

هو الكامل المولى الذى إن ذكرته ... فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتُجعت دمياط قهرا من العدى ... وطهّرها بالسيف والملة الطهر
لك الله من ملك إذا جاد أو سطا ... فناهيك من عرف وناهيك من نكر
يقصّر عنه المدح من كل مادح ... ولو جاء بالشمس المنيرة والبدر

(١) فى س "واقام" . (٢) هذا اللفظ مكرر فى س .

وكان أولاد الشيخ صدر الدين بن حمويه هم أكابر دولته وأعيانها ، وهم الأمير فخر الدين يوسف ، وعماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد ، ومعين الدين حسن . وكان فخر الدين [قد] ترك لبس العمامة ، ولبس الشربوش والقباء ، ونادم السلطان . وكان فاضلا أديبا ، يشارك فى فنون ، وأخوته لهم فضائل ، و إليهم مشيخة الخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، وتدريس المدرسة الناصرية [1] ، بجوار قبر الشافعى من القرافة ، وتدريس المشهد الحسينى بالقاهرة . وما منهم إلا من تقدّم على الجيوش ، وباشر الحرب . وأرضعت أمهم — [وهى] ابنة القاضى شهاب الدين ابن عصرون — الملك الكامل ، فصاروا إخوته من الرضاع .

فلما مات السلطان [الكامل] اتفق أولاد الشيخ ، والأمير سيف الدين على بن قلج ، وأخوه الأمير عماد الدين ، والملك الناصر داود ، وأرباب الدولة ، على تحليف الأجناد للملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل — وهو يومئذ يخلف أباه بقلعة الجبل — على ديار مصر ؛ وأنْ يُرتِّب الملك الجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى نيابة دمشق . وكتموا ذلك [الأمر الثانى] عن الناصر داود ، وحلفوا [على ذلك] فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب . و بعثوا الأمير نور الدين علىّ بن (٧١ ا) الأمير فخر الدين عثمان الأستادار إلى الناصر داود ، فأخرجه من دمشق إلى الكرك ، واستقر الجواد بدمشق ، نائبا لابن عمه الملك العادل . وسار العسكر من دمشق إلى مصر ، وتأخر بدمشق أمراء [عدة] — فى جمع من عسكر مصر ومماليك الأشرف — لحفظها ، ومقدّمهم عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ . فبذل الجواد الأموال ، وطمع فى الاستبداد بملك دمشق ، وألزم الخطيب بذكره فى الخطبة بعد العادل .

(١) المدرسة الناصرية أول مدرسة بديار مصر . أنشأها السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى ، سنة ٥٦٦هـ ، برسم الفقهاء الشافعية ، وكان حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد الفاطمى . وأول من ولى التدريس بها ابن زين التجار ، فعرفت به . ثم عرفت بالمدرسة الشريفية ، نسبة إلى الشريف القاضى شمس الدين الأرموى ، قاضى العسكر ، وكان قد درس بها أيضا . واشتهرت بهذه التسمية الثانية إلى زمن المقريزى ، أى حتى القرن التاسع الهجرى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٦) .

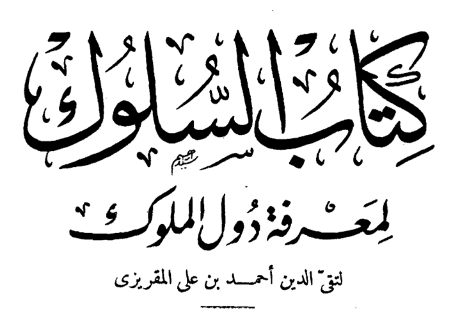
كَمُلَ طبع كتاب "السلوك للمقريزى" بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الأربعاء ٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٢ (٢١ مارس سنة ١٩٣٤) م

محمد نديم

ملاحظ المطبعة بدار الكتب المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٢/٥٣/١٥٠٠)

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤



كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

لتقيّ الدين أحمد بن على المقريزى

قام بنشره

محمد مصطفى زيادة (Ph. D.)
مدرّس بقسم التاريخ بكلية الآداب بالجامعة المصرية

الجزء الأوّل ـ القسم الثانى

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٣٦

تصــــدير

للقسم الثـانى من الجزء الأوّل من كتاب السلوك للقريزى

يشمل هـذا القسم بقية ما كتب المقريزى فى الدولة الأيوبية بمصر، وشطرا من تاريخ دولة المماليك الأولى حتى آخر عهد السلطان سلامش ثانى أولاد السلطان الظاهر بيبرس . وهذا يقابل ما كان قد بقى مما ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك فى (Blochet : Histoire d'Egypte de Makrizi)، والجزء الأوّل مما ترجمه منه (Quatremère : Histoire des Sultans Mamlouks de l'Egypte, 2 Volumes) (1) .

* * *

ولقد أتى على ظهور القسم الأوّل من الجزء الأوّل من هذا المؤلف الطويل نحو سنتين، عثرتُ فى أثنائها ، بالبحث فى المتحف البريطانى بلندن صيف ١٩٣٤ ، على بعض معلومات مكملة لما قد كنت ناقشته فى تصدير القسم الأوّل المذكور من حيث النسخ الخطية المعروفة من كتاب السلوك، وما طبع منها بلغته أو مترجما أو ملخصا، ومن حيث الرسم الإملائى الذى نحاه المقريزى فى الكتابة . ولما كان غرضى فى تصدير هذا القسم الثانى لايعدو ما كان من غرضى عند تصدير القسم الأوّل، وهو مجرّد التعريف بكتاب السلوك ومؤلفه، وبالنحو الذى سرتُ عليه فى نشره وتحريره ووضع حواشيه، فإنى لهذا مقتصر هنا على إضافة تلك المعلومات التكميلية المشار إليها ، على أنْ أرجئ كتابة مقدّمة شاملة وافية للجزء الأوّل كله عند تمامه .

ولذا فإنى أضيف هنا الى قائمة النسـخ الخطية المذكورة فى تصدير القسم الأوّل نسخة موجودة فى مكتبة الجامعة بكامبردج بإنجلترة ، تحت رقمى ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، وهى مكوّنة من الجزءين الأوّل والرابع . انظر (Browne : A Handlist of the Muhammadan Manuscripts in the library of the University of Cambridge p. 97. Cambridge University Press, 1900) . وهناك نسخة أخرى يملكها (Mr. A. G. Ellis)،

(١) انظر هنا ص ٣٦٨ (حاشية ١) .

الأمين المساعد للقسم الشرقى بالمتحف البريطانى سابقا ، وقد تفضّــل حين وجودى بلندن فى الصيف المذكور فسمح لى بالاطلاع عليها، وهى مكوّنة من الجزء الثالث فقط . وهاتان النسختان ، وغيرهما ممــا هو مقطوع بوجوده فى شتّى المكاتب والمتاحف من كتاب السلوك كما تقدّم بتصدير القسم الأوّل ، ستكون كلها موضع مقارنة ومفاضلة، لابدّ منها قبل اختيار أحسن النسخ من الناحية العلمية، لتهيئة الأجزاء الباقية للطبع .

* * *

أما ما طبع من كتاب الســلوك بلغته العربيــة الأصلية ، أو مترجما أو ملخصا ، فيوجد فى (W. D. Tiesenhausen : Recueil de Materiaux Relatifs à l'Histoire de la Horde d'Or, Tome I. pp. 417-442). كل ما أورده المقريزى فى كتابه خاصــا بمغول القفجاق المعروفين باسم القبيلة الذهبية ، مــن سنة ٦٥٢ هـ الى ســنة ٨١٩ هـ ، مجموعا على هيئــة متن متّصل مرتّب على حسب السنين . وتوجد أيضا فى مجموعة المستشرق (Sylvestre de Sacy) المعروفة باسم كتاب الأنيس المفيد للطالب المستفيد وجامع الشذور من منظوم ومنثور (ج ١، ص ١٧٠ — ١٧٦)، قطعة من الســلوك خاصة بسنة ٧٩٦ هـ، وهى مترجمة إلى الفرنسية فى نفس المرجع المسمى فى تلك اللغة باسم : (Sylvestre de Sacy : Chrestomathie Arabe, 3 Tomes. Paris, 1824-1826)، حيث توجــد القطعــة المشار إليها فى (Tome 1. pp. 484-498) . ويوجد أيضا فى (Petitots: Collection des Mémoires sur l'Histoire de France, Série I, Tome III. pp. 3-37, Paris 1824) تلخيص لمــا جاء فى كتاب السلوك من حكم العادل الثانى إلى سنة ٦٤٨ هـ [(١)] .

* * *

أما عن الرسم الإملائى فقد أشرت فى تصدير القسم الأوّل إلى طريقة المقريزى فى نسخته التى كتبها بيده، وهى المسماة هنا س، إذ دأب على إهمال الهمزات بأنواعها إهمالا تاما فى سائر المخطوطة، وتهاون فى النقط حتى إن كثيرا من الألفاظ وارد بغير نقط البتة ، ووقع فى بعض أخطاء نحوية ، كما ضبط بعض الألفاظ ضبطا خطأ . ولا عيب فى شىء من هــذا كله على المقريزى، فإنه سار على أنماط الكتابة والإنشاء الشائعة فى عصره ؛ ومخطوطته هذه فى الواقع

(١) انظر هنا ص ٢٦٧ — ٢٨٢

ذخيرة لدراســة دور من أدوار تطوّر الكتابة العربيــة ، فضلا عن أن غلطاته النحوية نفسها دليل على حال اللغة فى العصر الذى عاش فيه .

ذلك أن الخط العربى، كما نعرفه فى العصر الحاضر، نتيجة سلسلة طبيعية من التطوّرات والتغيّر، وخاصّة فى مسألة نقط الحروف . وقد كان الكتّاب فى عصر المقريزى ، وما سبقه من العصور أيضا ، يكرهون كثرة النقط ، ويعتبرونها إما تنطّعا أو جهلا من الكاتب ، أو سوء ظن بالمكتوب إليه . وقد أوضح ذلك القلقشندى (صبح الأعشى، ج٣، ص ١٥٤)، وهو من معاصرى المقريزى ومن كتّاب ديوان الإنشاء، فى العبارة التاليــة : "النقط مطلوب عند خوف اللّبس [فقط]، لأنه إنما وُضع لذلك؛ أما مع أمْنِ اللّبس فالأَوْلى تركه، لئلا يُظْلِم الخط من غير فائدة ... . أما كتّاب الأموال فإنهـم لا يرون النقط بحال، بل تعاطيه عنـدهم عيب فى الكتابة" .

\+ + +

وبعـد فأريد أن أختم هذا التصدير القصير بكلمات شكرٍ قيمةٍ بمن عاوننى فى إخراج هذا القسم الثانى من الجزء الأوّل من كتاب السلوك . وأوّلهم الأستاذ أحمد أمين، الأسـتاذ بكلية الآداب، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فقد أولانى بمثل ما أولانى به أثناء إخراج القسم الأوّل من دائب العناية والتشجيع ، وقرأ جميع هذه الصفحات قبل أن أعتمدها نهائيا للطبع، وإنى أشكره مرة أخرى لتفضّله بكتابة حاشية رقم ١ فى صفحة ٥٥٧ . وأبدى شكرى أيضا لصديق محمد نديم افندى، ملاحظ مطبعة دار الكتب المصرية ، فقد تعهّد إخراج هذا القسم بفنّه وإتقانه، فجاء فى مستوى المطبوعات الكبرى التى اشتهرت مطبعة تلك الدار بإخراجها. وآخر قولى هنـا أن أقـدم شكرى لمن تولّانى من أصدقائى، داخل كلية الآداب وخارجها، بالنقد العلمى وبالتشجيع والتمنيات الطيبة .

محمد مصطفى زيادة

مصر الجديدة، فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٥
٢٩ أغسطس سـنة ١٩٣٦

أسماء المراجع المذكورة فى حواشى القسم الثانى

تحتوى القائمة التالية على أسماء المراجع الإضافية التى استلزمها هذا القسم
من الجزء الأوّل من كتاب السلوك

مراجع عربية مخطوطة ومطبوعة

ابن أبى الفضائل (مفضل ...) : كتاب النهج السديد والدرّ الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد.

(Texte Arabe publié et traduit en français par E. Blochet. Patrologia Orientalis T. XII. Fasc. 3, T. XIV. Fasc. 3. Firmin Didot, Paris. 1911, 1920).

ابن شاكر (فخر الدين محمد ... بن أحمد الكتبى) : فوات الوفيات . (بولاق، ١٢٩٩هـ) .

ابن واصل (جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم) : مفرّج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جزءان . صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٥٣١٩ تاريخ ، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد) : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة . (إدارة الطباعة المنيرية، ١٣٥١ هـ) .

النويرى[1] (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب، ٣٢ جزءا . صور شمسية بدار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة، مأخوذة من النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .

---

(١) تطبع دار الكتب المصرية هذا المؤلف الكبير، وقد أنجزت منه أحد عشر جزءا .

مراجـع أوربيـة

BOUQUET (MARTIN): Recueil des Historiens des Gaules et de la France. Tome 20. (Imprimerie Royale, Paris 1840).

BROWNE (E. G.): A Literary History of Persia. 4 vols. (Cambridge University Press, 1909-1930).

D'OHSSON (LE BARON C.): Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan etc. 4 Tomes. (Les Frères Van Cleef, La Haye, 1834-1835).

G. - DEMOMBYNES: Masālik el-Abṣar fi Mamālik el-Amṣār, d'Ibn Faḍl Allah al-Omari. Tome I. L'Afrique, Moins L'Egypte. Traduit et annoté avec une Introduction et 5 cartes. (Bibliothèque des Geographes Arabes T. II. Geutner, Paris, 1927).

JOINVILLE (SIRE DE): Saint Louis, King of France. Translated by James Hutton. 7th ed. (Sampson Low, London, 1910).

MAYER (L. A.): Saracenic Heraldry. (Clarendon Press, Oxford, 1933).

OMAN (SIR CHARLES): A History of the Art of War in the Middle Ages; 2 vols. (Methuen, London, 1924).

ZETTERSTÉEN (K. V.): Beiträge zur Geschichte der Mamlūkensultane. (Brill, Leiden, 1919).

تصحيحات

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٢٨٨	١٤	المخامر
٢٨٩	٢٢	يوجد
٢٩٤	٢٥	بإقطاع
٣٠٧	٢٣	؛ ومثل ذلك عند الفرس،
٣٢٣	١٨	آخر
٣٣٣	٨	طنّاح
٣٣٦	٢١	فإنه
٣٣٩	١١	بديار
٣٤٧	٤	العلائى
٣٤٨	١٥	فإنه
٣٥٠	١٩	لفظ
٣٥٦	٢٠	غيرهما
٣٥٨	١٢	عُدَّة
٣٦٥	١	وجماعة أخر من ملوك النصارى
٣٨٩	١٦	(انظر ص ٣٩٣، سطر ١٠، ومايليه)

صفحة	سطر	الصيغة المراد إثباتها
٣٩٤	١٤	السعيديه
٤٠٢	٢٢	تحبس
٤٠٣	١٧	الأحمر (٤)
٤٠٨	١٠	الأمر
٤٠٨	١٧	عز الدين
٤٤٧	٢٢	الصقلى
٤٤٨	٢١	وترجمه إلى
٤٥٣	٢١	والأقلام
٤٦١	١٠	(ص ٤٣٩، حاشية ٣)
٥٠٢	٢٣	Op. Cit. I. 1.
٥١٠	١٦	رتّب
٥١٦	٢٠	Quatremère
٥٣١	٢٢	وتجمع
٥٦٧	٢٢	Quatremère

المقريزى

كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك

الجزء الأول – القسم الثانى

(٢-١)

السلطان الملك العادل [الثانى](١)

سيف الدين أبو بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب . أمه الست السوداء، المعروفة ببنت الفقيه نصر ، ومولده فى سنة سبع عشرة وستمائة . استقر الأمر له بسلطنة مصر ودمشق، فى يوم الخميس ثانى عشرى رجب ، سنة خمس وثلاثين وستمائة ، الموافق لسادس عشر برمهات . وخُطِب له بالقاهرة ومصر فى رابع شعبان ، وهو السلطان السابع من بنى أيوب بديار مصر . فقدمت عليه القصاد من دمشق بوفاة أبيه واستقراره من بعده ؛ فشرع الأمير سيف الدين قلج(٢) فى تحليف الأمراء للملك العادل فى داره . وحط [الملك العادل](٣) المكوس(٤) ، ووسع فى العطاء وفى الأرزاق على كل أحد .

---

(١) أضيف الوصف للتمييز بين هذا السلطان وجده الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

(٢) لما توفى الملك الكامل بدمشق ، واتفق الأمراء وأرباب الدولة الذين كانوا برفقته على سلطنة ابنه الملك العادل بعده ، وتولية ابن عمه الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن أيوب نائبا للسلطنة بدمشق ، رجع معظم الأمراء والجيوش المصرية إلى القاهرة ، لإقامة سلطنة العادل بها ، وبقى بعضهم بدمشق لمؤازرة الجواد فى نيابة السلطنة هناك . (انظر ص ٢٦١) . وكان من الراجعين إلى القاهرة ، حسبما جاء فى ابن واصل (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ص ٣١٤ أ) الأمير سيف الدين قلج ، وثلاثة من أولاد شيخ الشيوخ ابن حمويه ، وهم مجير الدين وكمال الدين ومعين الدين . وكان من الباقين بدمشق عماد الدين عمر رابع أولاد شيخ الشيوخ ، وكذلك الأمير عز الدين قلج أخو الأمير سيف الدين قلج المذكور هنا ، وقد سماه المقريزى (ص ٢٦١ ، سطر ٩) باسم عماد الدين .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب) .

(٤) المكوس جمع مكس ، ومن معانيه فى اللغة الضريبة التى "كانت تؤخذ من بائعى السلع فى الأسواق فى الجاهلية" . (محيط المحيط) . والمكوس فى مصطلح مؤرخى مصر الإسلامية كل ما تحصل من الأموال لديوان السلطان ، أو لأصحاب الإقطاعات ، أو لموظفى الدولة ، خارجا عن الخراج الشرعى ؛ وتسمى أيضا المال الهلالى ، (انظر ص ٥٨ ، حاشية ٣) ، وقد عرفت هذه الأموال فى مصر باسم المكوس ، منذ الدولة الفاطمية . ومن أنواعها ما كان يؤخذ فى الثغور البحرية والبرية على المتاجر الواصلة من الخارج ، وما كان مقررا بالقاهرة والفسطاط على مختلف المحاصيل والمصنوعات والأماكن ، مثل مكس القوافل ، ومكس البهار ، ومكس فندق القطن ، ومكس معدية الجسر بالجيزة ، وغيرها . وكانت المكوس السلطانية تبلغ فى زمن المقريزى بضعا وسبعين ألف دينار . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٣ — ١١١ ج ٢ ، ص ١٢١ — ١٢٤ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٦٨ — ٤٧١) .

وفى رابع شعبان خُطب له بمصر، وأعلن بموت الملك الكامل . وفى رابع عشر شعبان ضُربت السكة باسمه .

وفى ثامن عشر رمضان نقش الدينار والدرهم باسمه . وفى عشريه قرئ توقيعه على المنبر، بإبطال جميع المكوس .

وفى سابع عشرى شوال وصل محيي الدين [أبو محمد] يوسف بن الجوزى[1]، رسولا من بغداد، بتعزية الملك العادل، وهنأه بالملك من قبل الخليفة . وكان [العادل] قد بعث إلى دمشق بالخلع والسنجق، فركب الجواد بالخلع فى تاسع عشر رمضان . وفيها أنفق العادل على العساكر .

وفى ثانى ذى القعدة استحلف ابن الجوزى الملك العادل للخليفة المستنصر . وفيه ورد الخبر بأن الناصر داود تحالف هو والجواد، وقد اتفقا وخرجا عن طاعة العادل . ووصل الناصر [داود] إلى غزة، وخطب بها لنفسه . ثم وقع بينه وبين الجواد خلف، فأظهر الجواد أنه عاد إلى طاعة الملك العادل .

ولما قربت العساكر الواردة من دمشق إلى القاهرة ركب العادل إلى لقائهم وأكرمهم، وسير إليهم فى منازلهم الأموال والخلع والخيول، فجددوا له الأيمان والعهود، فاستقر أمره . وأخرج [العادل] الأموال، وبذلها فى الأجناد، وأكثر من العطاء والبذل، حتى بدد فى مدة يسيرة ما جمعه أبوه فى مدد متطاولة . وأخذ فى إبعاد أمراء الدولة عنه، وقطع رواتب أرباب

(١) تقدّم ذكر محيي الدين أبي محمد يوسف بن الجوزى رسولا من الخليفة العباسى ببغداد إلى بنى أيوب أكثر من مرة، (انظر ص ٢١٩، ٢٥٧) . وهو ابن أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزى الفقيه الحنبلى المؤرخ، صاحب كتاب المنتظم والملتقط الملتزم فى التاريخ، وخال شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قزوغلو، المعروف بسبط ابن الجوزى، صاحب كتاب مرآة الزمان . ولد محيي الدين هذا ببغداد سنة ٥٨٠ هـ، وتقلب فى عدة وظائف بها، فتولى الحسبة، ودرّس بالمدرسة المستنصرية لطائفة الحنابلة؛ وسفر للخليفة العباسى فى الرسائل الى الملوك، ثم صار أستادارا ببغداد . وكانت وفاته بها، قتيلا فى وقعة التتر، سنة ٦٥٣ هـ . (ابن خلكان : وفيات الأعيان (Wüstenfeld)، ج ٤، ص ٦٧ — ٦٩) . انظر أيضا (ابن واصل : مفرج الكروب، ص ٣٢٤ ب) .

الدولة ، واختص بمن أنشاه . فنفرت قلوب الأكابر منه ، واشتغل [هو] عنهم بالانهماك فى شرب الخمر، وكثرة اللهو والفساد .

وسار(١) الناصر داود من الكرك ، واستولى على غزة والسواحل . واستجد عسكرا كبيرا ، وبرز عن غزة . وبعث إلى الملك العادل يريد منه المساعدة على أخذ(٢) دمشق .

وقوى المجاهد [أسد الدين](٣) صاحب حمص بعد موت الكامل، وأغار على حماة وحصرها. واستعدّ أهل حلب ، واستجدوا عسكرا من الخوارزمية ، وعسكرا من التركمان؛ و [كان قد صار اليهم عدّة من أصحاب الملك [الكامل](٤) ، فأكرموهم؛ و بعثوا إلى السلطان غياث الدين [كيخسرو بن كيقباد](٥) ، ملك الروم ، يسألونه إرسال نجدة ، فأمدّهم بخيار عسكره؛ وخرجوا فملكوا المعرّة ، ونازلوا حماة ، وقاتلوا المظفر صاحبها ، فثبت لهم ، وامتنع عليهم وقاتلهم .

وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل على الرّحبة(٦) ، منازلا لها؛ فلما بلغه موت

---

(١) و (٢) العبارة الواردة بين الرقين مشطوبة فى س ، ويظهر أن المقريزى عمد الى شطبها لسبق ذكر بعض أخبار الناصر داود (ص ٢٦٨ سطر ٩) ، وقد أثبتت هنا لعدم تعارضها مع تلك الأخبار . وفى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٣١٤ ب) أن الملك العادل لم يجب الناصر داود الى ما أراد ، "فأرسل الناصر اليه ثانيا : إن أباك السلطان الملك الكامل كان قد التزم أن يعيد الىّ مملكة والدى (انظر ص ٢٥٦ ، سطر ١٤) ، و [أما] أنا فقد وليت على البلاد الساحلية لأنها من جملتها ، فتساعدنى على تسليم دمشق و باقى البلاد ، وأكون من قبلك ، ومن طاعتك ، كما كنت مع أبيك . وترددت بينه و بين الملك العادل الرسائل فى هذا المعنى" .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٤ ب — ٣١٥ أ) ، حيث توجد معلومات أوفى عن حركات المجاهد صاحب حمص ، بعد وفاة الملك الكامل .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ أ) .

(٥) انظر ص ١٥٤ ، سطر ١٠ ، وابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ أ) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وتقع الرحبة على شاطىء نهر الفرات ، جنوبى قرقيسيا ، وهى على مسافة مائة فرسخ من بغداد ، ونيف وعشرين فرسخا من الرقة . وتسمى رحبة مالك بن طوق ، نسبة الى مالك بن طوق بن عتاب التغلبى ، الذى أسسها فى خلافة المأمون . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤ — ٧٦٧) . وكانت الرحبة من أملاك المجاهد صاحب حمص ، وحاصرها الصالح نجم الدين أيوب تنفيذا لتعليمات أبيه الملك الكامل إليه . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣١٥ ب) .

أبيه الملك (٧١ب) الكامل رحل عنها، فطمع فيها من معه من الخوارزمية[1]، وخرجوا عن طاعته، وهموا بالقبض عليه؛ فقصد سنجار، وامتنع بها مدة، وترك خزائنه واثقاله، فانتهبها الخوارزمية، وتحكموا فى البلاد الجزرية . وطمع فيه السلطان غياث الدين [كيخسرو بن كيقباد] ، ملك الرومية، و بعث إلى الناصر [صلاح الدين[2] أبى المظفر يوسف]، صاحب حلب، توقيعا بالرها وسروج، وكانا مع الصالح [نجم الدين[3] أيوب] ؛ وأقطع المنصور ناصر الدين الأرتقى، صاحب ماردين، مدينة سنجار ومدينة نصيبين، [وهما] من بلاد الصالح [أيضا]؛ وأقطع المجاهد [أسد الدين شيركوه] ، صاحب حمص[4] [بلدة] عانة[5] وغيرها من بلاد الخابور ؛ وعزم[6] السلطان غياث الدين كيخسرو على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضا آمد وسميساط[7] .

وصار [الملك الصالح] محصورا بسنجار، فطمع فيه الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ — صاحب الموصل — ، وحصره بسنجار فى ذى القعدة، وأراد حمله إلى بغداد فى قفص حديد، كراهة فيه، لما كان عنده من التجبر والظلم والتكبر . فلما أشرف [بدر الدين لؤلؤ] على أخذ سنجار بعث الصالح [إليه] القاضى بدر الدين يوسف بن الحسن الزّرزارى[8] قاضى سنجار، بعد ما حلق لحيته، ودلّاه من السور . [وكان القاضى الزرزارى] متقدما فى الدولة الأشرفية، ولّاه [الملك] الأشرف [موسى[9]] — لما ملك[10] دمشق — قضاء بعلبك . ثم [بعد موت الملك الأشرف]،

(١) انظر ص ٢٥٥ ، سطر ٨ . (٢) انظر ص ٢٥٣ ، سطر ١٢ . (٣) انظر ص ٢٥٧ ، سطر ١٣ .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٧ ب) ، انظر أيضا ص ٢٢٣ . سطر ١٤ .

(٥) بلدة على نهر الفرات ، وموقعها بين الرقة وهيت . و إلى هذه البلدة لجأ الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، هاربا من بغداد ، حينما ثار عليه أرسلان البساسيرى ، سنة ٤٥٠ هـ ، (١٠٥٨ م) . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٩٤ — ٥٩٥ ؛ و .Muir : The Caliphate, p. 580 et seq) .

(٦) و (٧) عبارة السلوك هنا مقتضبة ، وضع بدلها الجملة الواردة بين الرقين ، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٧ ب) . ونص عبارة السلوك كالآتى : "وعزم على ان ياخذ منه ايضا امد وسميساط" .

(٨) بغير ضبط فى س ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ أ) . (٩) انظر ص ٢٥٦ ، سطر .

(١٠) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٨ أ) . و يلاحظ أن عبارة السلوك فى سائر ترجمة القاضى الزرزارى ، وما يليها من أخبار سفارته ، وما وقع للملك الصالح نجم الدين أيوب ، تشبه كثيرا فى أسلوبها وألفاظها ما يقابلها فى ابن واصل ، ومنه أضيف ما بين الأقواس فيما يلى بصدد هذه الأخبار .

ولاه الصالح نجم الدين [أيوب] قضاء سنجار . وكان كثير التجمل[١] جدا واسع البر والمعروف، وله مماليك وغلمان وحواشى، لهم من التجمل ما ليس لغيرهم . فصار كأحد الأمراء الأكابر، وصار يقعد لسائر من يرد عليه من أهل العلم وذوى البيوتات .

فتوجه [القاضى] فى خفية الى الخوارزمية، واستمالهم وطيب خواطرهم، بكثرة ما وعدهم به . فمالوا إليه، بعد ما كانوا قد اتفقوا مع صاحب ماردين، وقصدوا بلاد [الملك] الصالح [نجم الدين أيوب]، واستولوا على الأعمال، ونازلوا حران . — [وكان الملك الصالح قد ترك] بها [ولده] المغيث فتح الدين عمر بن الصالح، [فخاف من الخوارزمية، وسار مختفيا] حتى فر الى قلعة جعبر . فساروا خلفه، ونهبوا ما كان معه، وأفلت منهم فى شرذمة يسيرة الى منبج . فاستجار بعمة[٢] [أبيه، الصاحبة ضيفة خاتون]، أم الملك العزيز، صاحب حلب، فلم تقبله . فردّ الى حران، وفيها أتاه كتاب أبيه يأمره بموافقة الخوارزمية، والوصول بهم إليه، لدفع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . فاجتمع [المغيث عمر، والقاضى بدر الدين قاضى سنجار،] بالخوارزمية، والتزم لهم القاضى أن يقطعوا سنجار وحران والرها . فطابت قلوبهم، وحلفوا للملك الصالح، وقاموا فى خدمة ابنه الملك المغيث، وساروا معه الى سنجار، فأفرج[٣] عنها عسكر الموصل، يريدون بلادهم . وأدركهم الخوارزمية، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة، فر فيها بدر الدين لؤلؤ بمفرده على فرس سابق، ثم تلاحق به عسكره . واحتوت الخوارزمية على سائر ما كان معه، فاستغنوا بذلك . — وقوى الملك الصالح [بالخوارزمية وبهذا الفتح] قوة زائدة، وعظم شأنه ؛ وسير الخوارزمية الى آمد، وعليها عسكر [السلطان غياث الدين كيخسرو]،

(١) فى س التحمل، وهى مكررة بالحاء فى سياق العبارة نفسها . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ أ) .

(٢) فى س "معمه"، وهـذا خطأ، يدل عليه ما سبق ذكره بالقسم الأول من الجزء الأول من السلوك، (انظر ص ١٧٤ سطر ٩ ؛ ص ١٧٦ سطر ٦ ؛ ص ٢٥٣، سطر ١٤) ؛ راجع أيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣١٨ ب) . هذا وقد سبق ورود اسم الصاحبة ضيفة مصحفا بلفظ "صفية"، بالصفحات المشار إليها من السلوك، ويريد الناشر أن يتدارك هنا ذلك الخطأ الذى وقع فيه سابقا . أما أصل تسميتها بهذا الاسم فهو أنه كان عند أبيها الملك العادل بن أيوب يوم مولدها بحلب ضيف، فأسماها ضيفة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I) .

(٣) أفرج الناس عن الطريق أى انكشفوا عنه ؛ وأفرج الجند عن المكان أى تركوه . (محيط المحيط) .

صاحب الروم، وبها (٧٢ أ) المعظم غياث الدين توارنشاه بن الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، وهو محصور منهم ، فأوقعوا بهم ورحَّلوهم عن آمد ؛ فخرج الصالح من سنجار الى حصن كيفا .

وبعث الملك العادل من مصر الى أهل حلب يريد منهم أن يجروا معه على ما كانوا عليه مع أبيه الملك الكامل — من إقامة الخطبة له على منابر حلب ، وأن تضرب له السكة — فلم يجب الى ذلك .

وقدم رسول [غياث الدين كيخسرو] ملك الروم، فزوج غازية خاتون ابنة العزيز للسلطان غياث الدين (١) ، وأنكح الملك الناصر — صاحب حلب — أختَ السلطان غياث الدين ؛ وتولى العقد الصاحب كمال الدين [بن أبى جرادة] بن العديم (٢) ، وخرج فى الرسالة الى بلاد الروم ، وعقد للملك الناصر صاحب حلب على ملكة خاتون أخت (٣) السلطان غياث الدين . فبعث غياث الدين رسولا الى حلب، فأقيمت له بها الخطبة .

وخرج الملك الجواد من دمشق فى أول ذى الحجة (٤) ، يريد محاربة الناصر داود صاحب كرك ،

---

(١) أصل هاتين الزيجتين، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٦ ب — ٣١٧ ب) أن غياث الدين كيخسرو بعث الى حلب ، بعد إنفاذ النجدة العسكرية التى طلبتها منه الصاحبة ضيفة خاتون ، يطلب من الصاحبة أن تزوجه بنت ابنها الملك العزيز، وأن يتزوج السلطان الملك الناصر، صاحب حلب، أخت غياث الدين .

(٢) اشتهر ابن العديم فى عالم التأليف بكتابه المسمى بغية الطلب فى تاريخ حلب، و بمختصر لهذا الكتاب اسمه زبدة الحلب فى تاريخ حلب . وكان مولده بحلب، سنة ٥٨٨ هـ ، (١١٩٢ م)، ومارس التدريس وتولى القضاء بها . وقد وزر أيضا للملك العزيز صاحب حلب، ولابنه الملك الناصر بعده، وسفر بأمرهما عدة مرات الى بغداد والقاهرة . ولما انثال التيار التترى الى حلب، سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)، هرب ابن العديم مع الملك الناصر الى القاهرة . ثم استدعاه اليه هولاكو التترى، ليوليه منصب قاضى قضاة الشام، لكنه مات بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) . انظر (Enc. Isl. Art. Kamal Al-Dīn) .

(٣) فى س "ابنه"، انظر سطر ٨ .

(٤) كذا فى س .

فالتقيا بالقـرب من نابُلُس[1] . فانكسر الناصر كسرة قبيحة ، فى يوم الأربعاء رابع عشر ذى الحجة ، وانهزم الى الكرك . فغنم الجواد ما كان معه ، وعاد الى دمشق ، وفرّق ستمائة ألف دينار وخمسة آلاف خلعة ، وأبطل المكوس والخمور ، ونفى المغانى . وعاد من كان فى دمشق من عسكر مصر — ومعهم الأمير عماد الدين بن شـيخ الشيوخ — الى القـاهرة ، بسناجق النـاصر ، فى سادس عشرى ذى الحجـة . فلم يعجب الملك العادل ذلك ، وخاف من تمكن الملك الجواد .

و [فيهـا] قصد التتار بغـداد ، فبعث اليهم الخليفة جيشا ، قُتل كثير منه ، وفرّ من بقى .

وفيها مات قاضى القضاة بدمشق ، [وهو] شمس الدين أبو البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن ابن سنى الدولة[2] الشافعى ، فى خامس ذى القعدة . فأعيد فى سابعه قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخُوَيِّى[3] ، ورتب مراكز الشهود — وكانوا أولا بدمشق ورّاقين يورقون المكاتيب وغيرها ، فإذا فرغوا من الوراقة مشوا الى بيوت العدول ، فيشهدونهم على ما يريدون ؛ واقتدى بعد ذلك أهل القاهرة ومصر بهم .

وفيها تولى الشريف شمس الدين محمد بن الحسين الأرموى قضاء العسكر ونقابة الأشراف بديار مصر ، وقرئ سجله بجامع مصر ، بحضرة الأمير جمال الدين [موسى] بن يَغْمُور[4] والفلك

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بأرض فلسطين ، بينها و بين بيت المقدس عشرة فراسخ . وهى بلدة رومانية الأصل ، بنيت لذكرى الإمبراطـور (Vespasian) ، وأطلق عليهـا اسم (Flavia Neapolis) ، ومنـه اشتقت التسمية العربية (Enc. Isl. Art. Nablus) . وفى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٧٢٣ — ٧٢٤) قصة لطيفة فى أصل اسم نابلس ، ونصها : "(ص ٧٢٣) وسئل شيخ من أهل المعرفة ، من أهل نابلس ، لم سميت بذلك ، فقال إنه كان هاهنا واد فيه حية ، قد امتنعت فيه ، وكانت عظيمة جدا ، وكانوا يسمونها بلغتهم لس . فاحتالوا عليها حتى (ص ٧٢٤) قتلوها وانتزعوا نابها ، وجاءوا بهـا فعلقوها على باب هـذه المدينة ، فقيل هـذا ناب لس ، أى ناب الحية . ثم كثر استعمالها حتى كتبوها متصلة ، نابلس هكذا ، وغلب هذا الاسم عليها ... " .

(٢) كذا فى س ، وبغير ضبط . وقد ترجم هذا الاسم فى (Blochet : Op. cit. p. 431) الى (Sáni) .

(٣) كذا فى س ، بضم الخاء وفتح الواو فقط ، ولعل النسبة الى خوى ، وهى بلد من أعمال آذربيجان ، ينسب اليه الثياب الخوية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠١ ، ومابعدها) .

(٤) ضبط هـذا الاسم ، وأضيف ما بين القوسين ، بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، ص ٢١١ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ؛ وأبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٩٥ ، فى Rec. Hist. Or. V.)

المسيرى[١] . وفيها بطلت الفلوس . وفيها سار الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن يريد مكة ؛ فأحرق الأمير أسد الدين جغريل[٢] ما كان معه من الأثقال ، وخرج هو ومن معه من مكة فى سابع شهر رجب ، قبل وصول ملك اليمن بيومين . فالتقوا بين مكة والسرين ، فانهزم العرب أصحاب الشريف راجح ، وأُسر الأمير شهاب الدين بن عَبْدان[٣] من أمراء اليمن . فقيده الأمير جغريل ، وبعث به الى القاهرة ؛ وسار هو الى المدينة النبوية . فبلغه موت السلطان الملك الكامل ، فسار بمن معه الى القاهرة ، فدخلوها فى أثناء شهر شعبان متفرقين . وأقام عسكر اليمن بمكة .

+ + +

سنة ست وثلاثين وستمائة . فيها قبض الملك الجواد على صفى الدين بن مرزوق ، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار ، وسجنه بقلعة حمص ، فمكث ثلاث سنين لا يرى الضوء . وأقام الجواد بدمشق خادما لزوجته يقال له الناصح[٤] ؛ فصادر الناس ، وأخذ منهم مالا كبيرا .

وقبض [الملك الجواد] على عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ[٥] ، ثم خاف من أخيه فخر الدين . وقلق من ملك دمشق ، وقال : " إيش أعمل بالملك ؟ باز وكلب أحب الىّ من هذا " . ثم خرج الى الصيد ، وكاتب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، على أن يعوضه عن دمشق بحصن كيفا وسنجار . فسر الصالح بذلك وتحرك للسير الى دمشق .

(١) كان الفلك هذا وزيرا للملك العادل ، واسمه فلك الدين عبد الرحمن المسيرى ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٥١) ، وقد تقدم ذكر هذا الوزير بالقسم الأول من هذا الجزء . انظر الفهرس .

(٢) فى س "جفريل" ، هنا وفى سطر ٥ أيضا . (انظر ص ٢٥٠ ، حاشية ٢) .

(٣) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 432) .

(٤) فى س "لروحته" .

(٥) كان عماد الدين بن الشيخ قد رجع من دمشق إلى القاهرة (انظر ص ٢٧٣ ، سطر ٤) ؛ ويتضح مما هو وارد هنا ، ومما جاء فى ص ٢٧٦ ، سطر ٧ ، أنه ظل متنقلا بين العاصمتين الشامية والمصرية ، ثم سافر أخيرا الى دمشق ، وبقى بها حتى وفاته . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣١٩ ب) .

وفيها قدم رسول ملك الروم الى القاهرة بالعزاء للملك العــادل . وفيها أفرج أهل حلب عن حصار حماة، بعــد ما ضاق الأمر على المظفر صاحب حماة ؛ فلما رحلوا عنــه هدم قلعة بارين وكانت حصينة .

وفيها استوحش الأمراء الأكابر من الملك العادل، لتقريبه الشباب والترابى[١]، وإعطائهم الأموال والإقطاعات، والاقتداء (٧٢ب) بآرائهم، ولكثرة[٢] تحجبه، واشتغاله باللهو عن مصالح الدولة . فطمع النــاصر داود صاحب الكرك فى ملك مصر، فسار اليها ومعــه تقادم فاخرة: ما بين جوارى جنكيات[٣]، وعوديات ورقاصات، وأوانى للشرب بديعــة . فخرج العادل الى لقائه فى ثامن شوّال، وأكرمه . وقدّم له الناصر ما انتخبه له من الجوارى والأوانى وغيرها، فصادف منه[٤] الغرض، وعوّضه عنه بأمثاله . ولازم الناصر القيام بخدمة العادل والإقامة فى بابه: فتارة يعمــل حاجب الباب، وتارة أستادارا، وتارة دوادارا، ليدخل فى كل وقت عليــه، ويتوصل متى شاء اليــه، وهو يظن أنه يستميل الأمراء عن العادل الى جهته . فلمــا تمكن [الناصر داود] منه أوهمه من الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، بأنه قد اتفق مع الملك المعز

(١) أطلق هــذا اللفظ أيام الدولة الفاطمية بمصر على الأطفال من أسرى الحروب، إذ كان يدفع بهم "الى الأستاذين فيربونهم، ويتعلمون الكتابة والرماية، ويقال لهم الترابى، وفيهم من صار أميرا من صبيان خاص الخليفة...". (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٩٤) .

(٢) فى س "وكثره" .

(٣) فى س "خىكىات"، وبغير ضبط . والجنكيات الجوارى اللاتى يلعبن على الجنك، وهو من آلات الطرب، وأصــل اللفظ فارسى معرب . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 433) لفظ الجنكيات وما يتلوه بالآتى: "des jeunes esclaves joueuses de harpe et de luth, et des danseuses" . والجنكى بكسر الجيم، لاعب آلة الجنك أو غيرها من آلات الموسيق ؛ وقد أطلق لفظ الجنكى أيضا، فى عصر المماليك بمصر، على رقاص المنتديات والأفراح، وجمعه جنك . وكان أولئك الرقاصون من غلمان وشبان الأرمن، واليهود واليونان والترك، وبعض ثيابهم من لبوس الرجال، وبعضها من لبس النساء؛ وكانوا يرسلون شعورهم ويضفرونها . وفى عصر الحملة الفرنسية على مصر كان لفظ الجنك يطلق على بنــات اليهود اللائى احترفن تعليم الرقص، وكن يخرجن فى زفات العرس أحيانا، راكبات ظهور الحمير، ويلعبن على الرباب والدف . (Dozy. Supp. Dict. Ar.) .

(٤) الهاء هنا عائدة على الملك العادل .

مجير الدين [يعقوب](١)، وأمال اليه عدّة من الأمراء . وحسّن له القبض عليه ، فانخدع له [الملك العادل]، وقبض على فخر الدين واعتقله بقلعة الجبل(٢) ، وأخرج عمه الملك المعز من أرض مصر، ومعه أخوه الأمجد تقى الدين عباس .

فلما تم للناصر ما أراد خيّل(٣) العادلَ من الملك الجواد نائبه على دمشق ، بأن الأمراء قد مالت اليه، وقام بأمره الأمير عماد الدين عمر بن شيخ الشيوخ . فبلغ ذلك العماد ، فخاف أن يتفق عليه ما اتفق على أخيه؛ واجتمع بالملك العادل، والتزم له بإحضار الملك الجواد إلى طاعته بمصر . فسيره [العادل] من القاهرة، ليحضر الملك الجواد من دمشق؛ فأكرمه الجواد . وأخذ العماد فى التحدث معه فى المسير إلى الملك العادل، فسوّف به وماطله، حتى فطن العماد بامتناعه؛ فأحضر حينئذ الولاة والمشدين والنوّاب والدواوين(٤) بدمشق وأعمالها ، وقال لهم : " قد عزل السلطانُ الملك العادل الجوادَ عن نيابة دمشق ، فلا تدفعوا إليه مالا ، ولا تقبلوا له قولا " . فعز ذلك على الملك الجواد ، ووكل بعماد الدين ، وسجنه بقلعة دمشق . وتقرر الأمر بين الملك الجواد و بين المجاهد ، صاحب حمص(٥)، أن يكونا يدا واحدة؛ ووافقهما الأمير عماد الدين بن قلج، نائب الملك الجواد بدمشق . فرأوا أن أمرهم لا يتم إلا بقتل العماد

---

(١) كان المعز مجير الدين يعقوب ، وهو أحد أخوة الملك الكامل ، وعم الملك العادل ، مقيما بمصر منذ قدم اليها ، هو وأخوه تقى الدين عباس سنة ٦٢٨ هـ ، فى عهد الملك الكامل . (انظر ص ١٩١ ، سطر ١٩ ؛ ص ١٩٢ ، سطر ١ ؛ ص ٢٤١ ، سطر ٧ ؛ وما يلى هنا أيضا ، سطر ٣) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٤ ب) إن العادل قبض على مجير الدين بن شيخ الشيوخ ، لا فخر الدين ، وأن جريمته كانت حسبما أخبر بها الناصر داود ، مكاتبة الصالح نجم الدين أيوب ، واستحثاثه إياه على سرعة القدوم بعساكره الى الديار المصرية .

(٣) بغير ضبط فى س . وفى محيط المحيط خيل فلان عن القوم ، أى كعّ عنهم ، ومعناه جبن وتخوّف .

(٤) الدواوين جمع ديوان ، وكان يطلق على موظفى الدواوين الحكومية عامة ، من باب إطلاق اسم المكان على القائم بأعماله ، انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أن استعمال المقريزى لهذا اللفظ هنا يدل على أن "الدواوين" كانوا من كبار الموظفين ، كالولاة والنوّاب والمشدّين .

(٥) فى س "دمشق" ، وخطأ المقريزى هنا ظاهر .

ابن شيخ الشيوخ : فبعثوا إلى نواب الإسماعيلية[(١)] فى ذلك، ودفعوا إليهم مالا وقرية[(٢)]، فسيروا فدائيين[(٣)] قتلاه على باب الجامع، فى سادس عشرى جمادى الأولى . وأشيع أنهما غلطا فى قتله، وإنما كانا يريدان قتل الملك الجواد، فإنه كان كثير الشبه به . فبلغ ذلك الملك العادل فشق عليه[(٤)] .

---

(١) الإسماعيلية فى الأصل فرقة من الشيعة، سميت بذلك الاسم كما عرفت أيضا بالسبعية، لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عند الإمام السابع، وهو إسماعيل بن جعفر الصادق، المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ، فى حياة أبيه . نال أتباع تلك الفرقة الدينية السياسية، كما نال أتباع نظائرها من فرق الشيعة، كثير من الضر والأذى، على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية . فاستعانوا بالتقية، وتلمسوا فى الجهات البعيدة عن مركز الخلافة ملجأ، مثل ذلك لجوء أصغر ولدى الإمام إسماعيل، واسمه على، الى الشام ثم بلاد المغرب . وكان أكبر ولدى الإمام إسماعيل، واسمه محمد، قد لجأ أيضا الى جهة دماوند قرب الرى، وتنقلت سلالته وأتباعهم بين بلاد خراسان، ثم كندهار، ثم الهند، حيث توجد حتى الآن بقايا إسماعيلية، يرأسها الزعيم الهندى أغا خان .

ومن النابهين فى تاريخ الإسماعيلية الأول عبدالله بن ميمون القداح الأهوازى، المتوفى سنة ٢٦١ هـ، وهو الذى من سلالته مؤسسو الدولة الفاطمية بالمغرب، ثم بمصر . ومن المشهورين أيضا حسن بن الصباح، المتوفى سنة ٥١٨ هـ، وهو مؤسس شعبة الإسماعيلية، المعروف أتباعها باسم الحشيشيين (Assassins) . وقد تفرع عن هذه الشعبة، التى أسسها ابن الصباح فى قلعة أَلَمُوت (Alamut)، فى الشمال الغربى من بلاد فارس، فرع بالشام مركزه الأول حلب، وهذا الفرع الشامى هو الذى يقصد المقريزى هنا . وتختلف شعبة ابن الصباح عن الإسماعيلية الأولى فى نظامها وأساليبها، فقد كانت تلك الشعبة الجديدة عبارة عن جمعية سرية، على أعضائها الطاعة العمياء للرئيس الأكبر، والاغتيال والقتل أهم أساليبها . راجع (Enc. Isl. Arts. Assassins & Ismailiya) .

(٢) كذا فى س، بنقط كاملة، وبغير ضبط .

(٣) فى س "فداوين"، والفداوى فى نظام جماعة الحشيشيين هو الشخص الذى يناط به اغتيال من تقرر الجماعة قتله من أعدائها (Enc. Isl. Art. Fida'i) . هذا والمفهوم من عبارة المقريزى هنا أن تلك الجماعة كانت تؤجر أحيانا للقتل، فى مقابل مبلغ من المال، دون أن تكون لها مصلحة أخرى .

(٤) تختلف عبارة المقريزى هنا، بصدد ما حدث لعماد الدين بن شيخ الشيوخ، عما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٠ ب، وما بعدها)، فى كثير من التفاصيل . وهذا ما جاء فى ابن واصل، للمقابلة بين الروايتين، والمقارنة بين المرجعين، ونصه مصححا : "(٣٢٠ ب) ... ولما تحقق الملك العادل بن الملك الكامل، صاحب مصر، استقلال ابن عمه الملك الجواد بن مودود بملك دمشق، وعصيانه بها، أحضر أولاد شيخ الشيوخ الأربعة، وهم مجير الدين وعماد الدين ومعين الدين وكمال الدين، وقال [لهم] : أنتم ضيعتم على ملك دمشق، فان أبى الملك الكامل فتحها، وتوفى وهو مالكها . فسلمتم دمشق وخزائنها الى الملك الجواد، فتغلب على (٣٢١ أ) دمشق، وضيع =

وفى العشرين من شوال ورد الخبر بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب، صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر، إلى جينين (١) . فجمع الملك العادل والملك الناصر الأمراء وحالفوا على قتال الصالح : وخرج الناصر داود من القاهرة، فى تاسع ذى القعدة، لقتال الصالح، وجهز العادل جماعة من الأمراء، وعدّة من العساكر بديار مصر، لتأخذ دمشق . وقدّم [الملك العادل] إلى الملك الجواد رسولا بكتاب فيه أنه (٧٣ ا) يعطيه قلعة الشوبك وبلادها، وثغر الإسكندرية، وأعمال البحيرة وقليوب، وعشر قرى من بلاد الجيزة بديار مصر، لينزل عن نيابة السلطنة بدمشق، ويحضر إلى قلعة الجبل، ليعمل برأيه فى أمور الدولة . فلما ورد

= الخزائن ، وما أعرف عود دمشق الىّ، وانتزاعها من يد الملك الجواد، إلا منكم ... فضمن عماد الدين بن شيخ الشيوخ رجوعها للملك العادل ... فسير الملك العادل عماد الدين بن شيخ الشيوخ لهذا الأمر اليهم (كذا) ... ولما وصل عماد الدين الى دمشق، التقاه الملك الجواد، فأنزله عنده فى القلعة . فطالبه عماد الدين بتسليم دمشق الى السلطان الملك العادل، وأعلمه أنه إن لم يسلم دمشق اليه، نزلت العساكر المصرية اليه، وملكوها منه عنوة، وقبض عليه واعتقل . وإن سلمها قبل أن تنزل العساكر اليه أعطى عوضا عنها خبزا جيدا كثيرا، بالديار المصرية، وأحسن اليه . فأجابه الملك الجواد بجواب مغلط (كذا) . وكانت المماليك الأشرفية ، ومقدمهم عز الدين أيبك الأسمر، قد رحلوا من دمشق على حمية ، بعد رجوع الملك الجواد الى دمشق، وساروا الى الملك العادل، وخدموا عنده . ولما علم الملك الجواد تصميم الملك العادل على انتزاع دمشق منه، وعلم أنه لا طاقة له بقتاله ، وأنه إن سلم دمشق الى الملك العادل لم يعطه إلا خبزا بالديار المصرية ... فعند ذلك سير [الملك الجواد] الشيخ كمال الدين بن طلحة الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، يطلب منه أن يعوضه عن مدينة دمشق بسنجار والرقة وعانة، ويسلم هو دمشق اليه ... فمضى كمال الدين بن طلحة بذلك الى الملك الصالح، فأجاب الملك الصالح الى ذلك ، وحلف لابن عمه الملك الجواد على العوض المذكور، وزاده الحديثة (انظر الصفحة التالية، سطر ٧)، وجعلها باسم مملوك من مماليك الملك الجواد، يقال له رزيق (فى الأصل ررىق)، وكان أخص مماليكه به . ولما وقع الاتفاق بينهما على ذلك، توجه الملك الصالح الى دمشق . فلما علم الملك الجواد تقربه (كذا) منه ، خاف الملك الجواد من عماد الدين بن الشيخ أن يفسد ما بينه وبين الملك الصالح، فلا يحصل على ما وقع التقرير (٣٢١ ب) عليه، من العوض الذى طلبه منه . فدس [الملك الجواد] على عماد الدين رجلا وقف (فى الأصل وفق) له بقصة متظلما ، فمدّ يده عماد الدين الى القصة ليأخذها من ذلك الرجل ، فضربه ذلك الرجل بسكين فقتله . ثم قبض [الملك الجواد] على ذلك الرجل ، واعتقله مدة، ثم أطلقه . وأظهر الملك الجواد الحزن الكثير على قتل عماد الدين ... وجهز الملك الجواد عماد الدين، وحملت جنازته الى الجامع بدمشق، وصلى عليه فيه . وتأسف الناس وحزنوا لقتله، رحمه الله" .

(١) تقع هذه البليدة بين نابلس وبيسان، وهى من أرض الأردن . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٠) .

عليه ذلك أوهمـــه نائبه عماد الدين قلج من أنه متى دخل مصر ، قبض عليه الملك العـادل، وطالبه أولاد عماد الدين ابن شيخ الشيوخ بدمه؛ فامتنع من تسليم دمشق .

فبرز الملك العادل من القاهرة يريد دمشق، يوم الثلاثاء سـلخ ذى الحجة، ونزل ببلبيس . فخاف الجواد، وعلم عجزه عن مقاومة العادل؛ فبعث كمال الدين عمر بن أحمد بن هبةالله بن طلحة[1] خطيب جامع دمشق، إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب، صـاحب حصن كيفا وديار بكر وغيرها من بلاد الشرق، يطلب منه أن يتسلم دمشق ، ويعوضه عنهـا سنجار والرقة وعانة . فوقع ذلك من الملك الصالح أحسن موقع، وأجابه إليه، وزاده الجُدَيْدَة[2]، وحلف له على الوفاء .

ورتب [الملك الصالح] ابنـــه الملك المعظم توران شاه على بلاد الشرق، وألزمه الإقامـة بحصن كيفا ؛ وأقام نوابا بآمد وديار بكر؛ وسلم حران والرها وجميع البلاد الجزرية للخوارزمية، الذين فى خدمتـــه ؛ وطلب نجدة من الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصـــل — وكان قد صالحه — ، فبعث إليه [بدر الدين] نجدة .

وسار [الملك الصالح] من الشرق يريد دمشق، فقطع الجوادُ اسمَ الملك العادل من الخطبة، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل، وضرب السكة باسمه . ودخل الصالح إلى دمشق، فى مستهل جمادى الأولى، ومعه الجواد بين يديه بالغاشية. وقد ندم [الجواد] على ما كان منه ، وأراد أن يستدرك الفائت فلم يقدر؛ وخرج من دمشق والناس تلعنه فى وجهه، لسوء أثره فيهم . وبعث الصالح إليه برد أموال الناس إليهم، فأبى وسار . و[كان قد] وصـــل مع

(١) بغير ضبط أو نقط فى س، وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 43f) هذا اللفظ الى (Talaha) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى اسم لقلعة فى كورة بين النهرين ، التى بين نصيبين والموصل ، وأعمالها متصلة بأعمال حصن كيفا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٤٢) . هذا وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢١ أ) أن البلدة التى زادها الملك الصالح أيوب هى الحديثة ، وهى واردة هناك بغير نقط البتة . والحديثة اسم يطلق على مواضع عدة : منها حديثة الموصل ، وتقع على نهر دجلة، قرب الزاب الأعلى؛ وحديثة الفرات ، وتعرف بحديثة النورة، وهى على بضعة فراسخ من الأنبار؛ والحديثة أيضا من قرى غوطة دمشق ، ويقال لها حديثة جرش . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ — ٢٣٦) .

الصالح أيضا الملك المظفر صاحب حماة ، وقد تلقاه الجواد ، فكان دخوله يوما مشهودا ، فاستقر بقلعة دمشق .

وخرج الجواد إلى بلاده، فكانت مدة نيابته دمشق عشرة أشهر وستة عشر يوما، صرف فيها الأموال التي كانت في خزائن الملك الكامل كلها، وكانت تزيد على ستمائة ألف دينار مصرية، سوى القماش وغيره، وسوى ما ظلم فيه الناس من التجار والكتاب، وسوى ما أخذه من صفي الدين بن مرزوق لما صادره، وكان ينيف على خمسمائة ألف دينار .

فلما استقر الملك الصالح بدمشق سار المظفر إلى حماة ؛ وقدمت الخوارزمية، فنازلوا مدينة حمص[1] — وهو معهم — مدة، ثم فارقوها بغير طائل ؛ وعادوا إلى بلادهم بالشرق . وقد زوج الملك الصالح أخته من أمه، وأبوها الفارس قُلَيْب[2] مملوك أبيه الملك الكامل، لمقدم الخوارزمية (٧٣ ب) الأمير حسام الدين بركه خان .

وفي أثناء ذلك تواترت رسل المظفر صاحب حماة إلى الملك الصالح يستحثه على قصد حمص؛ وكتب الأمراء من مصر تستدعيه الى القاهرة، وتعده بالقيام بنصرته . فبرز [الملك الصالح] من دمشق الى البَثَنية[3] .

وكانت الخوارزمية، وصاحب حماة ، على حصار حمص؛ فأرسل [المجاهد أسد[4] الدين] شيركوه مالا كثيرا فرّقه في الخوارزمية ، فرحلوا عنه الى الشرق ؛ ورحل صاحب حماة الى حماة .

---

(١) الضمير عائد على الملك المظفر، صاحب حماة . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٢ ب)؛ وأيضا سطر ١٤ هنا .

(٢) في س "قلب" ، وبغير ضبط ؛ انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٠ ب) ، و (Blochet: Op. cit. p. 437) .

(٣) بغير ضبط في س، واسمها أيضا البثنة ، وهي إحدى نواحي دمشق ، بينها وبين أذرعات . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص، ٤٩٣) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٢ ب) .

وعاد الملك الصالح الى دمشق طالبا مصر، وخرج منها الى الخَرِبَة[(١)] وعيّد بها عيد الفطر، وعسكر تحت ثَنِيَّــة العُقاب[(٢)]؛ وقد تحير فلا يدرى أيذهب الى حمص أم الى مصر، وما زال بمعسكره الى أول شهر رمضان. فعاد الى دمشق، وتقدم الى الأمير حسام الدين أبى على ابن محمد بن أبى على [الهذبانى][(٣)]، أستاداره بدمشق، أن يرحل بطائفة من العسكر الى جينين، فرحل؛ ولم يزل [هو] تحت عقبة الكرسى، على بحيرة طبرية، الى آخر رمضان.

فلما وردت الأخبار بحركة الملك الصالح الى القاهرة، خرج من أمراء مصر سبعة عشر أميرا — منهم الأمير نور الدين على بن فخر الدين عثمان الأستادار، والأمير علاء الدين بن الشهاب أحمد، والأمير عز الدين أيبك الكريدى العادلى، والأمير عز الدين بلبان المجاهدى، والأمير حسام الدين لؤلؤ السعودى، والأمير سيف الدين بشطر الخوارزمى، والأمير عز الدين قضيب البان العادلى، والأمير شمس الدين سنقر الدنيسرى[(٤)] — فى عدّة كثيرة من أتباعهم وأجنادهم، وخلق من مقدّمى الحلقــة[(٥)] والممــاليك السلطانية[(٥)]. وساروا يريدون الملك الصالح بدمشق.

(١) بغير ضبط فى س، ويقصد المقريزى هنا خربة اللصوص (انظر ما يلى، ص ٢٨٢، سطر ١١)، وهى واقعة على الطريق بين دمشق وبيسان. (أبو شامة: كتاب الروضتين، ص ١٦٢، فى Rec. Hist. Or. V.).

(٢) بغير ضبط فى س، وهى ممر فى طريق المسافر من دمشق الى حمص. (ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٩٣٦).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٣ أ). وكان الملك الصالح قد عين هذا الأمير أتابكا لولده الملك المعظم توران شاه، فلما عزم على الذهاب الى الديار المصرية، استدعاه اليه بدمشق، وأعاده الى أستادار يته، كما كان من قبل، ووثق به فى كل الأمور. هذا وكان من رجال الملك الصالح فى ذلك الوقت أيضا جمال الدين بن واصل، صاحب كتاب مفرج الكروب، وقد رافق العسكر الصلاحى الى مصر؛ وكذلك بهاء الدين زهير، الشاعر المشهور، وكان يتقلد عند الملك الصالح منصب كاتب الإنشاء. (ابن واصل: نفس المرجع والصفحة، وأيضا ص ٣٢٣ ب).

(٤) صححت هذه الأسماء، وكمل نقط بعضها، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٣ ب)، وكذلك (Blochet : Op. cit. pp. 438-439). ويلاحظ أن الأسماء الواردة هنا تزيد بكثير عما ورد فى ابن واصل، وربما استق المقريزى هنا من كتاب ســير الآباء البطارقة. راجع (Blochet : Op. cit. p. 438. N. 5.).

(٥) كانت الجنود السلطانية، زمن الأيوبيين والمماليك بمصر، مكونة من طبقتين: وهما المماليك السلطانية وأجناد الحلقة. وقد وصفهما القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥ — ١٦)، فقال إن المماليك السلطانية كانت عند السلطان "أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدهم الى السلطان قربا، وأوفرهم إقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة". =

وذلك أن الملك العادل تقدّم بتوجه العسكر الى الساحل، وقدّم عليهم الركن الهيجاوى ، وأنفق فيهم . فلما نزلوا بلبيس اختلفوا، وخامر جماعة من الأمراء على العادل، وعزموا على المسير الى الملك الصالح. فبعث العادل إليهم الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وبهاء الدين مَلكيشو[1] ، ليطيب خواطرهم، فلم يجيبوا . وخرج من القاهرة عدّة من الحلقة، ومعهم طائفة، ومنعوا من غلق باب النصر، وساروا طائفة بعد طائفة على حَمِيّة .

فَبَطَّق[2] العادل الى من بقى معه من الأمراء الأكراد بمحاربة من خامر عليه ببلبيس ، قبل قدوم هؤلاء عليهم . فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس ، [و] انكسر الأتراك المخامرون[3]، وأُخذ منهم أمير، وانهزم باقيهم وهم فى طلبهم الى ناحية سُنَيْكَة[4] . فلحق بهم من خرج من الحلقة ومضوا جميعا إلى تل العجول، وعادت الخزانة التى كانت معهم سالمة إلى القاهرة . ثم بعثوا يطلبون من العادل العفو، فأمّنهم وحلف لهم، فلم يرجعوا، وساروا إلى الملك الصالح . فلما بلغوا غزة أمر الملك الصالح أستاداره بالعود إلى خربة اللصوص، وخرج [هو] ببقية عسكره من دمشق، لليلتين بقيتا من شهر رمضان .

= أما أجناد الحلقة فهم "عدد جم ، وخلق كثير ، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند ، من المتعممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ... ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر [فى الحرب] ، كانت مواقفه معهم ، وترتيبهم فى موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة ، يقال لهم البحرية ، يبيتون بالقلعة ، وحول دهاليز السلطان فى السفر ، كالحرس . وأول من رتبهم ، وسماهم بهذا الاسم ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب..." .

(١) كذا فى س ، بفتحة على الميم فقط . وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 440) هذا الاسم الى (Malkishou) .

(٢) فى س "فبطق" ، والمقصود أن العادل أرسل بطاقة — أى رسالة ، الى الأمراء . ولفظ بطاقة ، وجمعه بطائق ، معرب الكلمة اليونانية بتاكيون . (محيط المحيط) . انظر أيضا القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٢٣١ ، وما بعدها) .

(٣) فى س "المخامرين" .

(٤) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٧١) . وهى قرية بالشرقية ، بين بلبيس والعباسة ، على الشاطئ القبلى لترعة بحطيط ؛ واليها ينسب شيخ الإسلام زكريا الأنصارى ، قاضى قضاة الشافعية فى دولة السلطان الأشرف قايتباى ، ومؤلف كتاب المنهج وشرح المنهاج فى مذهب الإمام الشافعى . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٢ ، ص ٦٢ — ٦٣) .

ونزل [الملك الصالح] الخربة، ووصل الأمير نور الدين بن فخر الدين بمن معه، فسر بهم سرورا كثيرا . وأخذوا فى تقوية عزمه على قصد مصر، فرحل واستولى على نابلس والأغوار، وأعمال القدس والسواحل؛ وبعث ابنــه الملك المغيث فتح الدين عمــر إلى دمشق؛ وأقطع من قدم عليه من أمراء مصر نابلس وأعمالها، ليتقووا بمَغَلّها (١) . فخرج الناصر داود من مصر، وصار إلى الكرك .

فانزعج الملك العادل وأمه لقــدوم الصالح انزعاجا عظيما، وخافاه (٢) خوفا كبيرا، واضطربت مصر اضطرابا زائدا . وخرج فخر القضاة نجم الدين بن بصاقة (٣) فى الرسالة إلى الملك الصالح من الكرك عن الناصر داود : بأنه فى نصرة الملك الصالح ومعاونته، ويسأله دمشق وجميع ما كان لأبيــه . فلم تقع موافقة على ذلك، فسار [الناصر] إلى الملك العادل، ونزل بدار الوزارة من القاهرة، ليعينه على محاربة أخيه الملك الصالح .

فقدم فى ذى الحجــة الصاحب محيي الدين بن الجوزى، برسالة الخليفة إلى الملك الصالح، ليصالح أخاه الملك العــادل ؛ فأجَلّ [الملك الصالح] قدومه إجلالا (١٧٤ ا) كثيرا . ومع ذلك فإن كتب الأمراء — وغيرهم — ترد فى كل قليل على الملك الصالح من مصر، تعــده بالقيام معه، وأن البلاد فى يده، لاتفاق الكلمة على سلطنته .

وفيها مات المنصور ناصر الدين أرتق بن أرسلان التركمانى الأرتقى، صاحب ماردين، — قتله ابنه وهو سكران، واستولى بعده على ماردين .

وفيها وقعت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية حروب قُتِل فيها كثير منهم ، وقتل شيخهم شمخ بن نجم (٤) . فجرد الملك العــادل إليهم الأمير بهاء الدين بن ملكيشو، ليصلح بينهم . وكان السلطان فى بلبيس، قد خرج فى سلخ ذى الحجة من قلعة الجبل، بعساكر مصر .

(١) ليس فيما سبق هنا، أو فى ابن واصل، أو غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى، مايدل على أن الناصر داود ذهب الى القاهرة، قبل مفاوضة الملك الصالح أولا، كما يستنتج مما يلى، سطر ٩ . (٢) فى س "وخافوه".

(٣) بغير ضبط فى س، واسمه فى ابن واصل (نفس المرجع، س ٣٢٣ أ) فخر الدين نصر الله بن بزاقة .

(٤) فى س "شمخ بن نحم"، وبغير ضبط . وقد أحصى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٧، وما بعدها) القبائل العربية بنواحى الديار المصرية، غير أنه ليس بين أسماء أمراء القبائل التى أوردها ما يساعد على ضبط هــذا الاسم، أو تعيين القبيلة التى كان منها .

* * *

سنة سبع وثلاثين وستمائة . أهلت والملك العادل على بلبيس بعساكره يريد الشام، لمحاربة أخيه الملك الصالح . فأقام على بلبيس،(١) فقصد الأمراء القبض عليه، وعمل بعضهم دعوة، وحضر إليه العادل . ففطن بما هم عليه، فقام [و] دخل الخَرْكَاشْته(٢) لقضاء الحاجة، وخرج من ظهر الخركشته، وركب فرسا وساق إلى القلعة . فبعث إليه الأمراء يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل القاهرة إلا لكسرة الخليج،(٣) وأنه سيعود إليهم .(٤) ثم ألجأته الضرورة حتى خرج إلى العباسة، فى رابع عشرى المحرم، وقبض على جماعة من الأمراء .

وفى نصف صفر توجه الناصر داود من العباسة إلى الكرك، وصحبته [الأمير سيف(٥) الدين على] بن قلج، وجماعة من أمراء مصر . فبلغ العادل عن فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ أنه يكاتب الصالح، فقبض عليه واعتقله . هذا ومحيى الدين أبو المظفر يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى آخذ فى الإصلاح بين الملوك، على أن تكون دمشق للصالح [نجم الدين أيوب]، ومصر للعادل، وأن يُرَدَّ إلى الناصر داود ما أُخذ من بلاده . وكان [محيى الدين(٦) بن الجوزى] مقيما عند الصالح، وابنه شرف الدين يتردد من نابلس إلى مصر فى السفارة، حتى تقارب الأمر . ثم قدم [محيى الدين] إلى مصر، ومعه جمال الدين يحيى بن مطروح، ناظر ديوان الجيوش للملك الصالح، فأديا الرسالة، وأقاما عند الملك العادل .

---

(١) يلى هذا فى س عبارة مشطوبة بخط مستقيم، ونصها : "وقدم طايفه الى طرف الرمل، ومعه الناصر داود" . ويوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٥ ب) ما يقابل هذه العبارة، غير أنها لم تثبت هنا فى المتن، احتراما لإرادة المقريزى .

(٢) فى س "الخرشت" بغير ضبط، وهو لفظ فارسى، ومعناه هنا الخيمة . (Steingass: Pers.-Eng. Dict.).

(٣) كتب المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٧٠ — ٤٧٩) . (انظر أيضا المقريزى نفس المرجع والجزء، ص ٤٩٣؛ ج ٢، ص ١٨٥) فصلا مطولا ذكر فيه ما كان يعمل بالقاهرة ومصر يوم كسر الخليج أيام الفاطميين .

(٤) فى س "ويعود اليهم" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٠ ب) .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٥ ب) .

وكان قد أخذ الصالح يكاتب عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فى الوصول إليه بنابلس، وبعث إليه الطبيب سعد الدين الدمشقى، ومعه حمام ليسرح إليه بالبطائق على جناحها ما يتجدّد. فاتفق أمر عجيب: وهو أنه لما وصل [سعد الدين] إلى قلعة بعلبك أنزله الصالح عماد الدين إسماعيل بدار، وبدّل عوض الحمام [الذى فى قفص سعد الدين] بحمام آخر من حمام القلعة ببعلبك. وأخذ [الصالح عماد الدين] فى التدبير على أخذ دمشق، وانتزاعها من يد ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب؛ وأرسل جواسيسه سرا إلى ابن أخيه الملك العادل، بما عزم عليه من أخذ دمشق، وأنه منتم إليه وفى طاعته، وإذا ملك دمشق خطب له على منابرها، وضرب السكة باسمه. وكتب [الصالح عماد الدين إسماعيل] أيضا إلى المجاهد — صاحب حمص — فى معاونته؛ وهو يواصل كتبه مع ذلك إلى الملك الصالح نجم الدين، يعده بالوصول الى نصرته. وشرع [الصالح عماد الدين] فى جمع الرجال، ففطن بذلك الطبيب سعد الدين، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى الملك الصالح نجم الدين. فكان كلما سرح [سعد الدين] منها طائرا وقع فى برجه بقلعة بعلبك، فيأتى به البرّاج إلى الملك الصالح عماد الدين. ثم إن الصالح عماد الدين زوّر بطاقة عن الطبيب سعد الدين: فيها "إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الاهتمام للسير إلى المعسكر المنصور، وإنه باق على الطاعة"؛ وسرح هذه البطاقة (٧٤ ب) المزورة على جناح طائر من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين. فلما وقف عليها الملك الصالح نجم الدين، ظن أنها من عند رسوله، فطاب قلبه. ووالى الصالح عماد الدين إرسال البطائق المزورة؛ وكلما سرح الطبيب طائرا ببطاقة وقع فى قلعة بعلبك، فيصل إلى الصالح عماد الدين.

واتفق مع ذلك أمر آخر من عجيب ما يجرى: وهو أن المظفر صاحب حماة كان متميا الى الصالح نجم الدين، ومهتما بنصرته، ويخطب له فى بلاده؛ [وكان] الحلبيون

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٦ أ)، هذا وعبارة السلوك هنا تشبه ما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ٣٢٥ ب — ٣٢٦ أ)، فى ترتيب الحقائق والتفاصيل. والراجح أن المقريزى استق هنا من ابن واصل، غير أنه تعمل تغيير بعض الألفاظ، وتعديل بعض الجمل.

والمجاهد صاحب حمص معاندين له ، ومساعدين عليه[1] . فعلم المظفر صاحب حماة ما عليه خاله الصالح عماد الدين صاحب بعلبك، من قصد دمشق ، وموافقة المجاهد صاحب حمص له . وكانت عساكر دمشق مع الصالح نجم الدين [أيوب] على نابلس ، وهم خمسة آلاف ، وليس بدمشق من يحفظها ؛ فخاف الملك المظفر صاحب حماة على دمشق، وباطن الأمير سيف الدين [علي] بن أبي علي[2] [الهذباني] على أنه يظهر الحرد[3] [عليه] ويفارقه، ويوهم أكابر البلد بأن المظفر قد عزم على تسليم حماة إلى الفرنج، لما حصل عنده من الغبن من المجاورين له[4] ، وأخذ بلاده منه . وقصد المظفر بهذه الحيلة مكيدة صاحب حمص، وأن الأمير سيف الدين إذا ذهب بالعسكر وأكابر الرعية إلى دمشق أقاموا بها وحفظوها ، حتى يتوجه الملك الصالح الى مصر ، أو يعود الى دمشق[5] . فأظهر سيف الدين

---

(١) فى س "معاندون له ومساعدون" ، وإنما تطلب التغيير الوارد بالمتن ، إضافة فعل "كان" بين القوسين ، بالصفحة التالية سطر ٣ ، وذلك لانسجام العبارة كلها .

(٢) فى س "بو على" ، انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ أ)، وأضيف ما بين القوسين من نفس المرجع والصفحة . وهذا الأمير سيف الدين هو أخو الأمير حسام الدين بن أبي على ، أو ابنه ؛ وقد تقدم ذكره هنا . (انظر ص ٢٨١ سطر ٤ ؛ وكذلك ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٢٨ أ) .

(٣) معنى الحرد هنا الغضب ، والفعل حرد ، وهو لازم و يتعدى بحرف الجر "على" . (محيط المحيط) .

(٤) فى س "الصالح" انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٧ أ) .

(٥) عبارة المقريزى هنا ليست واضحة تماما ، وهذا لأنه قصد اختصار ما جاء فى الأصل الذى يرجح أنه نقل منه ، وهو ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٦ ب — ٣٢٧ أ)، فغير المعنى قليلا . وهذا نص ما ورد فى مفرج الكروب ، مصححا : " قال جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ : ومن الغرائب التى وقعت فى هذه السنة ما نذكره الآن ، وهو أنا كنا قد ذكرنا انتماء الملك المظفر ، صاحب حماة ، الى ابن خاله السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأنه عادى جيرانه كلهم بسبب الانتماء اليه ، والى والده من قبله . وبلغه أن الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب بعلبك ، قد اتفق هو والملك المجاهد صاحب حمص ، على قصد دمشق وأخذها من الملك الصالح نجم الدين أيوب . وتحقق [المظفر] أن الملك الصالح مقيم بنابلس فى العساكر كلها ، وأنه لم يترك بدمشق مع ولده الملك المغيث [عمر] عسكرا يحفظها ، وأنه متى قصدها صاحب حمص وصاحب بعلبك (٣٢٧ أ) أخذت لا محالة ، فرأى [المظفر] من المصلحة أن يسير جماعة من عسكره وأهل بلده يحفظونها . وكان الأمير سيف الدين على بن أبى على الهذبانى غالبا على أمره كله ... فاتفق الملك المظفر مع سيف الدين على بن أبى على ، أن يظهر سيف الدين الحرد على الملك المظفر=

الغضب على المظفر، وأخذ قطعـة من العسكر، ومن أكابر حماة؛ وخرج فسار حتى نزل على حمص، عند بحيرة قدس . فلم يخف على المجاهد صاحب حمص ما دبره المظفر من مكيدته، وخرج من حمص، و بعث الى الأمير سيف الدين يريد الاجتماع به . فأتاه [سيف الدين] منفردا، وأعلمه بأنه كره مجاورة المظفر، لمـا هو عليـه من الميل للفرنج، والعزم على تسليمهم حماة . فأظهر له [الملك المجاهد] البشر ولاطفه، واستدعاه الى ضيافته بداخل حمص . فلما صار به إلى القلعـة ، استدعى أصحابه لينزلوا فى البلد ، فدخل بعضهم وامتنع بعضهم من الدخول إلى حمص . فلـما تمكن المجاهد من الأمير سيف الدين قبض عليه ، واعتقله هو ومن دخل من أصحابه، وفرّ الباقون . فعاقب [المجاهد] من صار فى قبضته أشدّ العقوبة، واستصفى أموالهم، وما زال بسيف الدين حتى هلك[1] . فضعف المظفر لتلف[2] رجال عسكره .

وسار الصالح عمـاد الدين — ومعه المجاهد — الى دمشق فى جمع كبير، وأخذاها وأظهرا طاعة الملك العادل (١٧٥) صاحب مصر؛ وكان ذلك فى سابع عشرى صفر . ثم ملكا قلعـة دمشق، واعتقلا المغيث بن الصالح نجم الدين .

فبلغ ذلك الملك الصالح وهو بنابلس ، فكتم الخبر ، وقدّم الأمير حسام الدين محمـد بن أبى على[3] الهذبانى[4] أستاداره فى جماعة، وسار بعده يريد دمشق . فلما وصـل ابن أبى على الى الكسوة علم بأخذ دمشق من يدهم[5]، فرجع الى الصالح — وقد نزل بيسان — فأعلمه الخبر،

= ومفارقته ، ويوهم سيف الدين أكابر حماة بأن الملك المظفر قد عزم على تسليم حماة للفرنج ، لـما قد حصل عنده من الغبن من إساءة المجاورين له ، وقصدهم أخذ بلده منه . وقصد الملك المظفر وسيف الدين ، بهذا الذى اتفقا عليه ، أن تتم هذه الحيلة على الملك المجاهد صاحب حمص ، فلا يتعرض لسيف الدين ، ولا للعسكر الذى معه ، ولا لأكابر حماة ، الذى (كذا) معه أيضا ، حتى يمضوا إلى دمشـق ، فيحفظوها للملك الصالح نجم الدين أيوب الى أن يملك الديار المصرية ، ويرجع الى دمشق " .

(١) كان ممن وقع فى قبضة الملك المجاهد أيضا الحكيم زين الدين سعد الله بن سعد الله بن واصل ، وهو ابن عم مؤلف مفرج الكروب . (انظر ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٢٨ أ) .

(٢) فى س "اتلاف" . (٣) و (٤) فى س "بوعلى" .

(٥) كذا فى س ، وعبارة "من يدهم" ، غير لازمة ، على أنها أبقيت محافظة على المتن .

وسار معه حتى وصل القصير المعيني[1] من الغور . فاشتهر عند العسكر أخذ دمشق، لورود مكاتبات الصالح عماد الدين إليهم، باستمالتهم إليه . ففسدت نياتهم ، وطمعوا فى الملك الصالح نجم الدين، لتلاشى أمره، وفارقوه . فبقى [الصالح نجم الدين] فى دون المائة من أمرائه وأجناده؛ وتركه من كان معه من أهل بيته وأقاربه ؛ وتركه أيضا بدر الدين قاضى سنجار — وكان أخص أصحابه . وصاروا كلهم الى دمشق، وقد أيسوا من أن يقوم بعدها للصالح [نجم الدين] قائمة[2] . وثبت معه الأمير حسام الدين بن أبى على[3] أستاداره ، وزين الدين أمير جانداره ، وشهاب الدين بن سعد الدين كُوْجِبا[4] — وكان أبوه سعد الدين ابن عمة الملك الكامل — ، والأمير شهاب الدين البَوَاشِقى[5] ، ونحو الثمانين من مماليكه ؛ وثبت معه أيضا كاتبه بهاء الدين زهير . وهرب الطواشى شهاب الدين فاخر، وأخذ معه شيئا كثيرا من قماش الصالح ، وعدّة من مماليكه الصغار وغلمانه، وصار مع من لحق بدمشق .

ففتّ فى عضد الصالح مفارقة العسكر له ، وأيقن بزوال أمره . و رحل فى الليل ، فلقيه طائفة من العربان يريدون أخذه ، فحاربهم بمن معه ، حتى خلص منهم الى نابلس ، فنزل بظاهرها .

ولما وصل العسكر المحامر على الصالح [نجم الدين] الى دمشق ، قبض الملك الصالح عماد الدين على أخويه [الملك المعز] مجير الدين [يعقوب]، و [الملك الأمجد] تقى الدين

---

(١) القصير المعينى هو قصر معين الدين ، راجع ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ أ) .

(٢) كان ابن واصل ، مولف كتاب مفرج الكروب ، (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) ممن فارقوا الى دمشق مع عساكر الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد أشار الى هذا بعبارة لطيفة نصها : "وكنت أنا مع العسكر الذين دخلوا الى دمشق ، فتواريت ، ولم أظهر خوفا من صاحب حمص" .

(٣) فى س "بوعلى" .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449)، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٢٩ ب) شهاب الدين بن سعد الدين بن كى (؟)" .

(٥) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 449) ، و يظهر أن النسبة الى البواشق ، وهو جمع باشق ، والباشق طائر حسن الصورة صغير الجثة ، تصطاد به العصافير ، وهو معرب اللفظ الفارسى باشه . (محيط المحيط) .

[عباس(١)]، واعتقل الأمراء المصريين [أيضا] : وهم عز الدين أيبك الكردى(٢)، وعز الدين قضيب البان، وسنقر الدنيسرى ، و بلبان المجاهدى ؛ وتوجه نور الدين بن فخر الدين عثمان إلى بغداد .

واتفق تغير الملك العادل على الناصر داود ، ففارقه من بلبيس — وصحبته الأمير [سيف الدين] على بن قلج — ، وسار الى الكرك، وكاتب الصالح نجم الدين ووعده النصرة ، [وكان(٣) ذلك خدعة منه] . ثم سار [الناصر] الى نابلس بعساكره ، وقبض على الملك الصالح نجم الدين، و يقال بل بعث إليه من أخذه، بعد ما صار وحده، وأركبه على بغلة فى إهانة(٤) ، بغير مهماز ولا مقرعة، فى ليلة السبت ثانى عشر ربيع الأول .

و بعث [النـاصر] به الى الكرك ، ولم يترك معـه غير مملوك واحد ، يقال له ركن الدين بيبرس ؛ و بعث معه جاريته شجر الدر، أم ولده خليل؛ وأنزله بالقلعة ، وقام له بجميع ما يحتاج اليه، بحيث لم يختل من حاله سوى أنه فقد الملك فقط(٥) .

وأقام بهاء الدين زهير عنـد الناصر داود، هو وجماعة المماليك، بعد ما خيرهم فاختاروا (٧٥ ب) الإقامة عنده . وطلب الأمير حسام الدين بن أبى على(٦) ، وزين الدين أمير جاندار، [من الناصر] المسير الى دمشق فسيرهما ؛ وعند ما قدما دمشق اعتقلهما الصالح عماد الدين .

وفى سابع عشر ربيع الأول عاد الملك العادل الى القاهرة ، بعـد ما بعث الركن ... ...(٧) الهيجاوى على جماعة، لحفظ الساحل . فلما بلغ الملك العادل ماجرى على أخيه — من أخذه

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٢٩ أ)، وكان الملكان ممن فارق الصالح نجم الدين أيوب الى دمشق .

(٢) تقدم اسم هذا الأمير، فى ص ٢٨١ ، سطر ٨ ، حيث كتبه المقريزى " الكريدى " .

(٣) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٠ ب — ٣٣١ أ).

(٤) فى س "اهنه" .

(٥) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة بهامش الصفحة ، وليس ثمت ما تدل عليه هذه الإشارة سوى كلمة " الناصر "، وهى مشطوبة .

(٦) فى س "بوعلى" .

(٧) بياض فى س .

ذليلا، ونهب أمواله، وسجنه بالكرك — سَرَّه ذلك سرورا كثيرا، وظن أنه قد أمن . ونودى بزينة القاهرة ومصر فزينتا؛ وعَمِل سماطا عظيما فى الميدان الأسود تحت قلعة الجبل؛ وعمل قصورا من حلوى، وأحواضا من سكر وليمون، وألفا وخمسمائة رأس شـواء، ومثلها طعاما؛ فكان ما عمـل من السكر ألف وخمسمائة أبلوجة . ونادى [الملك العادل] فى العامة بالحضور إلى السماط، فحضر الجليل والحقير . وبلغ ذلك الصالح نجم الدين، وهو معتقل بالكرك[1] .

ولم يقنع الملك العادل بسجن أخيه، حتى [أنه] بعث الأمير علاء الدين بن النابلسى إلى الناصر داود، يطلب منه أن يبعث إليه بأخيه الصالح فى قفص حديد تحت الاحتفاظ، ويبذل له فى مقابلة إرساله أربعمائة ألف دينار ودمشق؛ وحلف على ذلك أيمـانا عظيمة . فلما وصل الكتاب إلى الناصر أوقف عليه الملك الصالح، وأدخل إليه بالقاصد الذى أحضره . ثم كتب [الناصر] إلى الملك العادل : " وصل كتاب السلطان، وهو يطلب أخاه إلى عنده فى قفص حديد، وأنك تعطينى أربعمائة ألف دينـار مصرية، وتأخذ دمشق ممن هى بيده، وتعطينى إياها . فأما الذهب فهو عنـدك كثير، وأما دمشق فإذا أخذتها ممن هى معه، وسلمتها إلىّ، سلمت[2] أخاك إليك . وهذا جوابى والسلام"[3] .

فلما ورد هذا الجواب على الملك العادل أمر بتجهيز العساكر، ليخرج إلى الشام؛ وخرج محيى الدين بن الجوزى من القاهرة، ومعه جمال الدين بن مطروح رسول الصالح نجم الدين، و[كان] قد استجار به[4]، بعد ما قبض على الصالح نجم الدين وسجن بالكرك .

وكتب الناصر داود إلى ابن عمـه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو محبوس عنـده بالكرك :

(١) ليس فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ أ) شىء من تفاصيل هذا التفريج؛ ويستدل من أمثال هذه الزيادات، التى انفرد بها السلوك عن مفرج الكروب، أن المقريزى — بفرض اعتماده على كتاب ابن واصل أحيانا — لم يكتف بذلك المرجع وحده .

(٢) فى س " سملت " . (٣) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ أ) شىء من نص هذا الجواب، أو أى إشارة الى ارساله من عند الناصر، وهـذا مثل آخر للقارنة بين محتويات السلوك ومفرج الكروب .

(٤) ضمير الهاء هنا عائد على محيى الدين بن الجوزى . راجع ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ ب) .

وإذا مَسَّــك الزمانــ بضر   عظمت عنده الخطوب وجلّتْ
وتوالت منـــهُ نوائبُ أخرى   سئمت عنـدها النفوس وملّتْ
فاصطبر وانتـظر بلوغ الأمانى   فالرزايا إذا توالت تولّتْ

وهذه الأبيات لغيره . فكتب إليه الصالح [نجم الدين أيوب] يشكره، وكتب فيما كتب إليه أبيات شمس المعالى قابوس وشمكير[1] :

قل للـــذى بصروف الدهر عيّرنا   هل حارب الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر تطفو فوقــه جيف   ويـســتقر بأقصى قعره الدرر
وإن تكن عبثت أيدى الزمان بنا   وما لنا من تمـادى بؤســـه ضرر
ففى السماء نجـــوم لا عداد لهـــا   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وزاد فيها الرشيد النابلسى :

وكم على الأرض من خضراء مورقة   وليس يرجـــم إلا ما لـــه ثمـــر

وفى أثناء هذا الأختلاف بين الملوك عَمَّر الفرنج فى القدس قلعة، وجعلوا برج داود أحد أبراجها، وكان قد تُرِك لمـا خَرَّب الملك المعظم أسوار القدس . فلما بلغ الناصر داود عمارة هذه القلعة سار إلى القدس، ورمى عليها بالمجانيق حتى أخذها، بعد أحد وعشرين يوما — فى يوم تاسع جمادى الأولى — عنوة، بمن معه من عسكر مصر . وتأخر أخذ برج داود إلى خامس عشره، فأُخذ [من الفرنج][2] صلحا على أنفسهم دون أموالهم . وهـدم [الناصر] برج داود، واستولى على القدس، وأخرج منه الفرنج، فساروا إلى بلادهم .

واتفق يوم فتح القــدس وصول محيى الدين بن الجوزى إلى[3] [الملك الناصر داود]، ومعه جمال الدين [بن] مطروح . فقال [جمال الدين بن مطروح، يمدح الملك الناصر داود، ويذكر

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٢ ب) .

(٣) فى س "اليه"، وقد حذف الضمير وأثبت عائده للتوضيح، وذلك بعد مراجعة ابن واصـل (نفس المرجع والصفحة) .

مضاهاته لعمه الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فى فتح القدس، مع اشتراكهما فى اللقب والفعل، وهو معنى لطيف مليح] [(١)]:

المســـجد الأقصى له عادة سارت فصارت مثلا سائرا
إذا غدا بالكفر مســـتوطَنا أن يبعث الله له ناصرا
فنـاصر طهّـــره أوّلا وناصر طهّـــره آخـــرا

وفى يوم الأحد رابع عشر ربيع الأول، وقع بين الفرنج وبين العسكر المصرى المقيم بالساحل حرب، انكسر فيها الفرنج، وأُخذ [من الفرنج] ملوكهم [(٢)] وأكادهم [(٣)]، وثمـانون فارسا، ومائتان وخمسون راجلا — وصلوا الى القاهرة؛ وقُتـل منهم ألف وثمانمائة، ولم يقتل من المسلمين غير عشرة.

ثم سار ابن الجوزى الى دمشق، وحاول إصلاح الحال بين الصالح عمـاد الدين، وبين الناصر داود، وبين الملك العادل. فلم يتأتّ له ذلك، فعاد الى القـاهرة فى رمضان، وقد وصل الملك ابن سنقر بخلعة الملك العادل وابنه، وأمه وامرأته وكاتبه.

ونزل ابن مطروح عند المظفر بحماة، فبعثه فى الرسالة إلى الخوارزمية بالشرق، يستحثهم على القيام بنصرة الملك الصالح نجم الدين، واستصحب معه أيضا رسالة الناصر داود، [ومنها]: "إنى [(٤)] لم أترك الملك الصالح بالكرك إلا صيانة لمهجته، خوفا عليه من أخيه الملك العادل، ومن

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٢ب — ٣٣٣ أ) وقد قوبلت الأبيات التالية على نصها فى مفرج الكروب أيضا. (٢) فى س "للوكهم". (٣) لا يوجد فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى، ما يدل على أسماء الملوك والأكاد (جمع كند، وهو معرب لفظ comte)، الذين يخبر المقريزى هنا عنهم. أما أصل هذا النشاط الحربى فهو أن الهدنة بين المسلمين والصليبيين، منذ أيام السلطان الملك الكامل والإمبراطور فردريك الثانى، كانت قد انتهت. وقد وصلت حملة صليبية الى الشام، سنة ٦٣٧هـ (١٢٣٩ م)، وكان أهم قوادها (Theobald Count of Champagne and King of Navarre) راجع (Stevenson: Crusaders In The East, p. 713). هـذا وفى (Blochet: Op. cit. p. 453-454) أخبار مطولة عن حركات الفرنج تلك السنة، وعما وقع لأسراهم بالقاهرة، وهى مترجمة من كتاب سير الآباء البطارقة.

(٤) فى س "بانى".

عمه الملك الصالح عمـاد الدين ؛ وسأخرجه وأملكه البلاد ، فتحركوا على بلاد حلب، وبلاد حمص" . فسار إليهم [ابن مطروح] [1] وقضى الأمر معهم، وعاد الى حماة .

فاتفق موت الملك المجاهد أسـد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه، صاحب حمص ، يوم التاسع عشر من شهر رجب ، فكانت مدة ملكه بحمص نحوا من ست وخمسين سنة . وقام من بعده ابنه الملك المنصور ناصر الدين إبراهيم، واتفق مع الصالح عمـاد الدين على المعاضدة .

فصار الناصر داود مواحشا للملك العادل، بسبب أنه لم يوافقه على أخذ دمشق ؛ والملك العادل مواحشه، لأنه لم يسلمه الملك الصالح نجم الدين ؛ والناصر أيضا مواحش للصالح عماد الدين، ويهدده بأنه يطلق الملك الصالح نجم الدين، ويقوم معه فى أخذ البلاد؛ والمظفر صاحب حماة لا يخطب للعادل من حين قطع الخطبة للصالح نجم الدين، لميـله الى الصالح نجم الدين.

فلما دخل شهر رمضان، سير المظفرُ القاضيَ شهاب الدين ابراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم ابن أبى الدم — قاضى حماة — رسولا إلى الملك العادل بمصر، وحمله فى الباطن رسالة إلى الناصر داود بالكرك، أن يطلق الصالح نجم الدين، ويساعده على أخذ البلاد . فبلغ [القاضى شهاب الدين الملك] [2] الناصر ذلك، وتوجه إلى مصر .

فأفرج الناصر داود عن الملك الصالح نجم الدين ، فى سابع عشر من رمضان ، واستدعاه إليه ، وهو بنابلس . فلمـا قدم عليه التقاه وأجله ، وضرب له دهليز السلطنة، واجتمع عليه ممـاليكه وأصحابه، الذين كانوا عند النـاصر : منهم الأمير شهاب الدين بن كوجبا، وشهاب الدين بن الغرس [3]، وكاتبه بهاء الدين زهير. وتقدم الناصر للخطيب بنابلس فى يوم عيد الفطر، فدعا للملك الصالح، وأشاع (٧٦ ب) ذكره . وسار [4] [الناصر داود والصالح نجم الدين] [5] إلى القدس،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٣ب) .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٤ أ) .

(٣) فى س "العرس"، انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٦ أ) . (٤) فى س "وساروا".

(٥) كان الغرض من ذهاب الصالح والناصر الى القدس، أن يحلف كل منهما لصاحبه على الصخرة المقدسـة . ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٦ أ) .

وتحالفا على أن تكون ديار مصر للصالح، والشام والشرق للناصر، وأن يعطيه[1] مائتى ألف دينار . فكانت مدّة اعتقال الملك الصالح سبعة أشهر وأياما .

ثم سارا إلى غزة، فورد الخبر بذلك على الملك العادل بمصر، فانزعج وأمر بخروج الدهليز السلطانى والعساكر، وبرز إلى بلبيس فى نصف ذى القعدة، وكتب الى الصالح عماد الدين أن يخرج بعساكر دمشق؛ فخرج الصالح عماد الدين بعساكره إلى الفَوّار . فخاف الملك الصالح والملك الناصر من التقاء عساكر مصر والشام عليهما ، ورجعا من غزة الى نابلس، ليتحصنا بالكرك .

وكان الملك العادل قد شره فى اللعب، وأكثر من تقديم الصبيان والمساخر[2] وأهل اللهو، حتى حسبت نفقاته فى هـذا الوجه خاصة ، فكانت ستة آلاف ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم؛ وأعطى [العادل] عبدا أسود، عمله طشت داره[3]، يعرف بابن كرسون[4]، منشورا[5]

(١) لم يرد هذا الشرط الأخير فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٦ أ)، والراجح أن الصالح هو الذى وعد الناصر بمائتى ألف دينار .

(٢) جمع مسخرة، وهو الشخص الذى تسخر الناس منه ، أو البهلول الذى يلعب لإضحاك النظارة (personne dont on ce moque, dont on se joue, marmouset, petit garçon, petit homme mal fait, .. buffon, baladin) انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) كانت وظيفة الطشت دار من الوظائف الصغرى، وصاحبها تابع للطشت خاناه السلطانية، وهى حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤، ص ١٠ — ١١) "بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون الطشت الذى تغسل فيه الأيدى ، والطشت الذى يغسل فيه القماش [السلطانى] ... وفى الطشت خاناه يكون ما يلبسه السلطان، من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب ، والسيف والخف والسرموزة ، وغير ذلك . وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان، من المقاعد والمخاد والسجادات التى يصلى عليها ، وما شاكل ذلك . ولها أيضا مهتار من كبار المهتارية ، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدة غلمان، بعضهم يعرفون بالطشت دارية، وبعضهم يعرف بالرختوانية". انظر أيضا (نفس المرجع، ج ٥، ص ٤٦٩). هذا والطشت لفظ عامى، وصوابه الطست، أو الطس، وكلاهما معرب اللفظ الفارسى تست، وهو إناء غسل اليد . (محيط المحيط) .

(٤) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 458) .

(٥) المنشور فى مصطلح الدولتين الأيوبية والمماليك بمصر، عبارة عن أمر سلطانى مكتوب باقطاع من أرض أو مال، أو غير ذلك . وكانت المناشير على أربعة أصناف، يكتب كل صنف منها فى قطع معين من الورق، يختلف باختلاف طوائف رجال الدولة . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٥٨، وما بعدها) .

بخمسين فارسا ؛ فلما خرج به من باب القلّة(١) بقلعة الجبل وجده الأمير ركن الدين الهيجاوى ، أحد الأمراء الأكابر ؛ فأراه المنشور، فخنق وصكه فى وجهه، وأخذ منــه المنشور . وصار بين الأمراء و بين الملك العادل وحشة شديدة، ونفرة عظيمة .

واتفق ما تقدّم ذكره إلى أن نزل [العادل] ببلبيس، فقام الأمير عز الدين أيبك الأسمر — مقــدّم الأشرفية، و باطن عدّة من الأمراء والممــاليك الأشرفية على خلع العادل والقبض عليه . ووافقهم على هــذا جوهر النوبى وشمس الخواص(٢) — وهما من الخدام الكاملية، وجماعة أخر من الكاملية : وهم مسرور الكاملى ، وكافور الفائزى . وركبوا ليــلا وأحاطوا بدهليز الملك العــادل ، ورموه وقبضوا عليــه ، ووكلوا به من يحفظه فى خيمة . فلم يتحرّك أحد لنصرته، إلا أن الأكراد اهتموا بالقيام له ، فمــال عليهم الأتراك والخدام ونهبوهم، فانهزم الأكراد إلى القــاهرة . ويقال إنه بلغ أيبك الأسمر أن الملك العادل سكر مع شبابه وخواصه، وقال لهم : "عن قليل تشربون(٣) من دم أيبك الأسمر، وهؤلاء العبيد السوء(٤) فــلان وفلان، وسمّاهم" . فاجتمعوا على خلعه، لا سيما لمــا طلب ابن كرسون منه أن يسلمه الأمير شجاع الدين بن بزغش(٥) — والى قوص، فأمكنه منــه وعاقبه أشد عقوبة، وتنوّع فى عذابه، ولم يقبل فيــه شفاعة أحد من الأمراء . وكان الملك العادل قد قرّبه تقريبا زائدا، حتى كان يقضى عنده الحوائج الجليلة، فأنفت الأنفس من ذلك .

وخلع [العادل] فى يوم الجمعة تاسع شوّال، فكانت مدّة ملكه سنتين وشهرين وثمــانية

(١) كان هذا الباب أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعــة الجبل ، ويتوصل إليه من الباب المدرج ، وهو أعظم أبواب القلعة ، وموقعه فى أوّل الجانب الشرقى منهـا تجاه القاهرة . وكان بين هذين البابين ساحة مستطيلة ، ينتهى منها الى دركاه واسعة ، يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول . وقد سمى باب القلة بهذا الاسم فى زمن المماليك ، وذلك أنه كانت هنــاك قلة بناها الملك الظاهر بيبرس . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ ، وما بعــدها ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٠٤ ، وما بعدها) .

(٢) كذا فى س ، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٧ أ) الخواص ، بفتحة على الواو .

(٣) فى س "تشربوا" . (٤) فى س "السو" .

(٥) كذا فى س ، وبغير ضبط . وقد ترجمه (Blochet : Op. cit. p. 459) الى (Barghash) .

عشر يوما ، أولها يوم الخميس، وآخرها يوم الخميس تاسع شوّال سنة سبع وثلاثين وستمائة ، أسرف فيها إسرافا أفرط فيه ، (٧٧ ا) بحيث أن أباه الملك الكامل ترك ما ينيف على ستة آلاف ألف دينار مصرية، وعشرين ألف ألف درهم، فَرّقها كلها . وكان [العادل] يحمل المال إلى الأمراء وغيرهم على أقفاص الحمالين، ولم يبق أحد فى دولته إلا وشمله إنعامه . فكانت أيامه بمصر كلها أفراح ومسرات ، لِلين جانبه ، وكثرة إحسانه . قال الأديب أبو الحسين الجزار فى الملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب : —

هو الليث يخشى بأسه كل مجترٍ   هو الغيث يرجو جوده كل مجتدى
لقد شاد ملكا أسسته جدوده   فأصبح ذا ملك أثيل مشيد
وصح به الإسلام حتى لقد غدت   بسلطانه أهل الحقائق تقتدى
فقل للذى قد شك فى الحق إنما   أطعنا أبا بكر بأمر محمد

يشير بذلك إلى أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب، فإن أباهما الكامل محمدا أقام العادل هذا بمصر، وبعث الصالح أيوب إلى الشرق .

وقال البرهان بن الفقيه نصر، لما استقر العادل فى السلطنة بعد أبيه : —

قل للذى خاف من مصر وقد أمنت   ماذا يؤمله منها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمدها   فقد أقام أبا بكر خليفته

السلطان الملك الصالح

أبو الفتوح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

لما قُبض على أخيه الملك العادل ، كان الأمير عز الدين أيبك الأسمر يميل إلى الملك الصالح عماد الدين اسماعيل، صاحب دمشق ؛ وكانت الخدام والمماليك الكاملية تميل إلى الملك الصالح نجم الدين، وهم الأكثر . فلم يطِق [عز الدين][1] مخالفتهم، فاتفقوا كلهم، وكتبوا إلى

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٧ آ) .

الملك الصالح نجم الدين يستدعونه[1] . فأتته كتبهم ، وقد بلغ هو والناصر داود الغاية من الخوف، وزُلزلا زلزالا شديدا[2]، لضعفهما عن مقاومة عساكر مصر والشام . فأتاهما من الفرج مالم يسمع بمثله ، وقاما لوقتهما ، وسارا إلى مصر . فلما دخلا الرَّمل[3] لم ينزلا منزلة إلا وقدم عليهما من أمراء مصر طائفة ، حتى نزلا بلبيس، يوم الاثنين تاسع ......[4] ، بعد ما خطب له بالقاهرة ومصر يوم الجمعة خامس عشره .

ومنذ فارقا غزة تغير الناصر داود على الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، وتحدث فى قتله . فلما نزلا[5] بلبيس، سكر الملك الناصر، ومضى إلى العادل، وقال له : "كيف رأيت ما أشرت به عليك، ولم تقبل منى ؟" فقال له [العادل]: "ياخوند ! التوبة" . فقال [الناصر] : "طيِّب قلبك ، الساعة أطلقك" . ثم جاء [الناصر] ، ودخل على الملك الصالح، ووقف . فقال له الصالح : "بسم الله اجلس" . قال : "ما أجلس حتى تطلق العادل" . فقال له : "اقعد"، وهو يكرر الحديث، فما زال به حتى نام. فقام من فوره الملك الصالح، وسار فى الليل ومعه العادل فى محفة ، ودخل به إلى القاهرة ، واستولى على قلعة الجبل، يوم الجمعة ثالث عشرى شوّال، بغير تعب .

وجلس [الملك الصالح نجم الدين أيوب] على سرير الملك ، واعتقل أخاه العادل ببعض دوره، واستحلف الأمراء، وزينت القاهرة ومصر وظواهرهما وقلعة الجبل زينة عظيمة، وسر الناس به سرورا كثيرا ، لنجابته وشهامته . ونزل الناصر داود بدار الوزارة[6] من القاهرة، ولم يركب الملك الصالح يوم عيد النحر، لما بلغه من خلف العسكر .

---

(١) فى س "استدعوه" . (٢) فى س "الفرح" .

(٣) أطلق هذا الاسم على الجهة الواقعة بين العريش والعباسة ، وساحل البحر الأبيض المتوسط . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٨٢ — ١٨٣) . (٤) بياض فى س، به آثار كتابة ممحوة .

(٥) فى س "نزل" .

(٦) كانت هذه الدار بقلعة الجبل ، وقد عرفت أيضا بقاعة الصاحب ، لإطلاق لقب الصاحب أحيانا على الوزير بمصر، أيام الأيوبيين والمماليك . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٠٥ ، ٢٢٣) .

وفى ذى الحجة أحضر الملكُ الصالح إليه الملكَ العادل، وسأله عن أشياء، ثم كشف بيت المـال والخزانة السلطانية، فلم يجد سوى دينار واحد وألف درهم. وقيل له عما أتلفه أخوه، فطلب القضاة والأمراء الذين قاموا فى القبض على أخيه، وقال لهم: "لأى شىء قبضتم على (٧٧ ب) سلطانكم؟" فقالوا: "لأنه كان سفيها". فقال: "يا قضاة! السفيه يجوز تصرفه فى بيت مال المسلمين؟" قالوا: "لا". قال: "أقسم بالله متى لم تحضروا ما أخذتم من المـال، كانت أرواحكم عوضه". فخرجوا وأحضروا إليه سبعمائة ألف وخمسة وثمانين ألف دينـار، وألفى ألف وثلاثمـائة ألف درهم. ثم أمهلهـم قليلا[(١)]، وقبض عليهـم واحدا بعد واحد.

واستدعى [الملك الصالح] بالقاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله بن عبد المنعم بن على ابن محمـد، المعروف بابن أبى الدم — وكان بمصر منذ قدم من عنـد المظفر صاحب حماة، وبعث به مكرما إلى حماة؛ وخلع على ابن الجوزى رسول الخليفة، وكتب معه إلى الديوان العزيز يشكرمنه. وكانت الخلع الخليفتية قـد وصلت إلى القاهرة، فلبسها الملك الصالح، ونصب منبرا صعد عليه ابن الجوزى، وقرأ تقليد الملك الصالح، والملك الصالح قائم بين يدى المنبر على قدميـه، حتى فرغ من قراءته. وشيع [الملك الصالح] أيضا الصاحب[(٢)] كمال الدين بن العديم رسول حلب.

وتخوف السلطان من الناصر داود، لكثرة ما بلغه عنه من اجتماعه بالأمراء سرا، ولأنه

---

(١) لا يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٧ ب) شىء من أخبار ذلك المجلس.

(٢) كان الصاحب كمال الدين بن أبى جرادة، المعروف بابن العديم، قد حضر إلى القاهرة رسـولا إلى الملك العادل، من عند الصاحبة ضيفة خاتون، والدة الملك العزيز، صاحب حلب. (انظر ص ٢٧١، سطر ٩). وكانت الصاحبة قد أرسلته، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٨ أ، وما بعدها)، ليطلب من العادل أن يسير إليها عماته، بنات الملك العادل الأول، فأجابها إلى ذلك. ثم حدث أن صار الملك الصالح أيوب سلطانا على مصر، قبل رحيل ابن العديم من القاهرة، فاستحضره الصالح وأكرمه، وزوده برسالة إلى الصاحبة ضيفة خاتون، منها "يقبل [الملك الصالح أيوب] الأرض بين يدى الستر العالى، ويعرفها أنى مملوكها، وأنى عبـد بمحل الملك الكامل، وأنا أعرض نفسى لخدمتها (ص ٣٣٨ ب) وامتثال ما ترسم به ... ...".

سأله أن يعطيه قلعة الشوبك، فامتنع السلطان من ذلك . واستوحش [الناصر] فطلب الإذن بالرحيل الى الكرك، فخرج من القاهرة وهو متغيظ، وقد بلغه أن الصالح إسماعيل خرج من دمشق، ووافق الفرنج على أن يسلمهم الساحل؛ ووصل الفرنج إلى نابلس . وتأول السلطان أنه ما حلف للناصر بالقدس إلا مكرها(١)، لأنه كان إذ ذاك تحت حكمه وفى طاعته . فلما وصل الناصر إلى الكرك طلب من السلطان ما التزم له به من المال، فحمله إليه، وماطله بتجريد العساكر معه لفتح دمشق، مستندا لما تأوله .

وفى أثناء ذلك تحدث الأشرفية بالوثوب على السلطان ، فخافهم وامتنع من الركوب فى الموكب مدة . واستوزر [السلطانُ] الصاحبَ معين الدين الحسن بن الشيخ ، وسلم إليه أمور المملكة كلها، وهو ببركة الحاج، فى يوم الخميس حادى عشر ذى القعدة قبل الظهر . فشرع [الصاحب معين الدين] فى تدبير المملكة، والنظر فى مصالح البلاد . وولدت شجر الدر من الملك الصالح ولدا سماه خليلا(٢)، ولقبه بالملك المنصور . وعند ما نزل الملك الصالح العباسة، فى يوم الأحد سابع عشر ذى القعدة، قبض على الركن الهيجاوى [العادلى(٣)] فى يوم الاثنين ثامن عشره، وبعثه إلى القاهرة .

وفيها ولى الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم خطابة دمشق ، فى يوم الأربعاء ثالث ربيع الآخر، ولاه الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل، وخطب لصاحب الروم .

وفيها قتل عثمان بن عبد الحق بن مَحْيُو(٤) بن أبى بكر بن حمامة، أمير بنى مرين ، وهو أول من عظم أمره منهم، وغلب على ريف المغرب، ووضع على أهله المغارم، فبايعه أكثر القبائل.

---

(١) انظر ص ٢٩٣، سطر ١٥، وما يليه .

(٢) فى س " خليل " .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٨ ا) .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

وامتدت يده إلى أمصار المغرب، مثل فاس وتازا (١) ومكناسة (٢)، وفرض عليها ضرائب تحمل إليه . وقام بعد عثمان أخوه محمد بن عبد الحق .

وفيها قدم الشريف شيحة (٣) بن قاسم أمير المدينة إلى مكة ، فى ألف فارس من عسكر مصر؛ فبعث ابن رسول ملك اليمن بالشريف راجح وعسكر، ففر شيحة (٤) من مكة، وملكها عسكر اليمن .

+ + +

سنة ثمان وثلاثين وستمائة . فيها شرع السلطان الملك الصالح [أيوب] فى النظر فى مصالح دولته، وتمهيد قواعد مملكته؛ ونظر فى عمارة أرض مصر، وبعث زين الدين بن أبى زكرى على عسكر إلى الصعيد، لقتال العرب . وتتبع من قام فى قبض أخيه الملك العادل، فقبض عليهم، واستصفى أموالهم وقتل عدة منهم . وفر عدة من الأشرفية، وقبض على الأمير عز الدين أيبك الأسمر الأشرفى بالإسكندرية، ونودى بالقاهرة وظواهرها من أخفى أحدا من الأشرفية نهب ماله؛ وأغلقت أبواب القاهرة كلها ثلاثة أيام، ماخلا باب زويلة، حرصا على أخذ الأشرفية؛ (٧٨ ا) فأخذوا وأودعوا السجون . وقبض على جوهر النوبى، وشمس الخواص مسرور، بدمياط — وكانا من الخدام الكاملية، وممن أعان على خلع العادل . وقبض على شبل الدولة كافور الفائزى بالشرقية، وسجن بقلعة الجبل . وقبض على جماعة من الأتراك، ومن أجناد الحلقة، وعلى عدة من الأمراء الكاملية . وصار [السلطان الملك الصالح أيوب] كلما قبض على أمير أعطى خبزه لمملوك من مماليكه وقدمه ، فبقى معظم أمراء الدولة مماليكه ، لثقته بهم، واعتماده عليهم؛ فتمكن أمره وقوى جأشه .

---

(١) فى س "تازى"، وبغير ضبط . وهى بلدة بشرق المغرب الأقصى . (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٥٢؛ Al-'Omari: Masalik el-Absar, pp. 141, 164, 165, 171, 220, et carte III.) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى مدينة بالمغرب الأقصى أيضا ، بينها وبين مراكش أربع عشرة مرحلة، وتبعد عن فاس مرحلة واحدة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦١٥) .

(٣) كذا فى س، وبغير ضبط، وهو وارد فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٦٤) "سنجة" .

(٤) بغير نقط البتة فى س .

وفى تاسع ربيع الآخر، وهو يوم السبت، ولد للملك الصالح نجم الدين أيوب من حظيته ولد ذكر. وأحب [الصالح] أن يبقى له ذِكرا، فأمر ببناء قلعة الجزيرة — المعروفة بالروضة — قبالة مصر الفسطاط. وشرع فى حفر أساسها يوم الأربعاء خامس شعبان، وابتدئ بنائها فى آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة سادس عشره. وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بجزيرة الروضة، وتحوّل الناس من مساكنهم التى كانت بها. وبنى [الملك الصالح] فيها الدور السلطانية، وشيد أسوارها، وأنفق فيها أموالا تتجاوز الوصف. فلما تكامل بناؤها تحوّل السلطان من قلعة الجبل إليها، وسكنها بأهله وحرمه ومماليكه، وكان مغرى بالعمائر(١).

وفيها عاد العسكر الذى قصد المسير إلى اليمن فى رمضان، خوفا من المماليك الأشرفية وأتباعهم، وذلك أنهم [كانوا قد] عزموا على الخروج من القاهرة، ونهب العسكر بركة

(١) يقـول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٤٠ أ) إن الملك الصالح أيوب ابتنى قلعـة جزيرة الروضـة لتكون مركزا لمماليكه وأمرائه، وإن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنين. وقد أفاض المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج٢، ص ١٧٧ — ١٨٥) فى وصف هذه الجزيرة وأبنيتها، من أول الإسلام إلى زمنه، وخلاصته أن اسم الروضة كان يطلق فى زمنـه على الجزيرة التى بين مدينة مصر ومدينـة الجيزة، وقد عرفت فى أول الإسـلام بالجزيرة، وبجزيرة مصر. ثم قيل لها جزيرة الحصن، بعد ما بنى بها أحمد بن طولون حصنا، سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ م)، ليحرز فيه حرمه وماله. ولم يزل هذا الحصن عامرا أيام بنى طولون، وأقيمت به دار الصناعة، التى تنشأ فيها المراكب الحربية. واستمر الحصن دارا للصناعة حتى تولى محمد بن طغج الأخشيد مصر، ٣٢٣ — ٣٣٤ هـ (٩٣٤ — ٩٤٥ م)، فنقل دار الصناعة إلى ساحل النيل بمصر، وجعـل موضعها بالجزيرة بستانا سماه المختار. وكان ذلك سنة ٣٢٥ هـ، وظل هذا البستان متنزه الأخشيدين. وفى زمن الفاطميين بمصر (٣٥٨ — ٥٦٧ هـ، ٩٦٩ — ١١٧١م) صارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس، لها وال وقاض. وأنشأ الأفضـل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الدين الجمالى بساحلها البحرى مكانا نزها سماه الروضة، وتردّد اليه كثيرا، ومن حينئذ صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة. ومن مخلفات الفاطميين بتلك الجزيرة أيضا قصر الهودج، الذى بناه الخليفة المستعلى بالله لمحبوبته البدوية، بجوار البستان المختار. وما برحت جزيرة الروضـة متنزها ملكيا، وسكنا للنـاس، إلى أن ولى الديار المصرية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. فأنشأ القلعة بالروضة، فعرفت بقلعة المقياس، وبقلعة الروضة، وبقلعة الجزيرة، وبالقلعة الصالحية. انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١١٩، فى .Rec. Hist. Or. I)، إذ يسميها قلعة الجيزة؛ وقد سماها أيضا المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٧) قلعة جزيرة الفسطاط.

الجب . فبطل سفرهم ، وبعث السلطان منهم ثلاثمائة مملوك إلى مكة ، لأخذها من أهل اليمن ، وعليهم [الأمير مجد الدين] أحمد بن التركمانى و [الأمير مبارز الدين على بن الحسين] بن بِرْطاس[١] . وذلك أن الخبر ورد بأن ملك اليمن بعث جيشا لأخذ مكة ، فساروا آخر شهر رمضان ، ودخلوا مكة فى أثناء ذى القعدة ، ففر من كان بها من أهل اليمن .

وفيها عاد القاضى بدر الدين قاضى سنجار من بلاد الروم ، وكان قد توجه إليها برسالة الملك الصالح عماد الدين صاحب دمشق . فبلغه أن الملك الصالح نجم الدين مَلَك مصر ، فخرج من بلاد الروم ، وقد عزم ألا يدخل دمشق ، فمضى الى مَصْيَاف[٣] من بلاد الإسماعيلية ، وأخذ يتحيَّل فى الوصول إلى مصر . فبلغ ذلك الصالح إسماعيل ، فأرسل إليه ليحضر ، فامتنع من الحضور . واستجار بالإسماعيلية ، فأجاروه ومنعوا الصالح [إسماعيل] منه ، وأوصلوه إلى حماة ، فأكرمه المظفر ، وأنزله عنده . وكان قد نزل عنده أيضا جمال الدين بن مطروح ، فصارت حماة ملجأ لكل من انتمى للسلطان الملك الصالح نجم الدين ، ومنها يرد إليه بمصر كل ما يتجدّد بالشام والشرق .

وفيها أيس (٧٨ ب) الناصر داود من إعطاء الملك الصالح نجم الدين له دمشق ، فانحرف عنه ، ومال إلى الصالح إسماعيل والمنصور صاحب حمص ، واتفقوا جميعا على الصالح نجم الدين .

وفيها أغار الخوارزمية على بلاد قلعة جعبر وبَالِس[٤] ونهبوها ، وقتلوا كثيرا من الناس ؛ ففر من بقى إلى حلب ومنبج . واستولى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل على سنجار ، وأخرج

(١) بغير ضبط فى س ، انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٩٩ ، من الترجمة الإنجليزية) . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس مما يلى ص ٣١٣ سطر ١ ، ومن المتن العربى فى الخزرجى (نفس المرجع ، ج ١ ، ص ٦٨) .

(٢) فى س " ابن " .

(٣) بغير ضبط فى س ، ومصياف — أو مصياب — (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٦) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام ، وهى واقعة على الساحل ، قرب طرابلس ، وعلى مسيرة يوم من حمص ، وفرسخ من بارين . (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 507.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالشام ، بين حلب والرقة . وكانت أصلا على ضفة الفرات الغربية ، ثم تحول عنها مجرى النهر ، حتى صار بينهما فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٤٧٧ — ٤٧٩) مسافة أربعة أميال .

منها الملك الجواد يونس بن مودود بن العـادل نجم الدين أيوب[(١)] . فسار [الجواد] إلى الشام، حتى صار فى يد الناصر داود ، فقبض عليه بغزّة يوم الأحد ثامن عشر ذى الحجة ، وبعث به إلى الكرك . وانضمت الخوارزمية على صاحب الموصل ، فصاروا نحو الاثنى عشر ألفـا ، وقصدوا حلب . فخرج إليهم العسكر من حلب ، فانكسر وقتل أكثره ، وغنم الخوارزمية ما معهم . فامتنع الناس بمدينة حلب ، وانتهبت أعمال حلب ، وفعل فيها كل قبيح من السبى والقتل والتخريب . ووضعوا السيف فى أهل منبج ، وقتلوا فيها مالا يحصى عدده من الناس ، وخربوا وارتكبوا الفواحش بالنساء فى الجـامع علانية ، وقتلوا الأطفال . وعادوا وقد خرب ما حول حلب .

وكان الخوارزمية يظهرون للنـاس أنهم يفعلون ما يفعلون خدمة لصاحب مصر ، فإن أهل حلب وحمـص ودمشق كانوا حزبا على الصالح صاحب مصر . فسار المنصور [إبراهيم ابن الملك المجاهد][(٢)] صاحب حمص ، بعساكره وعساكر حلب ودمشـق ، وقطع الفرات إلى سروج والرها ، وأوقع بالخوارزميـة ، وكسرهم واسـتولى على ما معهـم ؛ ومضوا هاربين إلى عانة .

وفيها خاف الصالح عماد الدين من الملك الصالح نجم الدين ؛ فكاتب الفرنج ، واتفق معهم على معاضـدته ومساعدته ، ومحاربة صاحب مصر ؛ وأعطاهم قلعة صـفد و بلادها ، وقلعة الشقيف[(٣)] و بلادها ، ومناصفة صـيدا وطبرية وأعمالها ، وجبل عاملة[(٤)] وسائر بلاد الساحل . وعزم [الصالح عمـاد الدين] على قصد مصر ، لمـا بلغه من القبض على الممـاليك الأشرفية والخدام ومقدمى الحلقة و بعض الأمراء ، وأن من بقى من أمراء مصر خائف على نفسه من

(١) كذا فى س، والراجح أن المقريزى هفا هنا ، فخلط بين اسم الملك الجواد يونس بن مودود بن العـادل، واسم أخيه الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن العادل، وقد مات الثانى فى حياة أبيه . انظر ص ١٩١ ، سطر ٩ .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٣٥ ب) .

(٣) فى س "السقيف" .

(٤) يطلق هـــذا الاسم على جهة جبليـــة قرب السـاحل ، فى إقليم صـــفد ، و يوجد بهـا حصن الشقيف . (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 75-76).

السلطان . فتجهز و بعث الى المنصور صاحب حمص، والى الحلبيين، و إلى الفرنج، يطلب منهم النجدات .

وأذن [الصالح إسماعيل] للفرنج فى دخول دمشق وشراء السلاح، فأكثروا من ابتياع الأسلحة وآلات الحرب من أهل دمشق . فأنكر المسلمون ذلك ، ومشى أهل الدين منهم الى العلماء واستفتوهم، فأفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بتحريم بيع السلاح للفرنج ، وقطع من الخطبة بجامع (٧٩ ا) دمشق الدعاء للصالح إسماعيل ، وصار يدعو فى الخطبة بدعاء منه : " اللهم أبرم لهذه الأمة إبرام رشد، تعز فيه أولياءك، وتذل فيه أعداءك، و يعمل فيه بطاعتك، و ينهى فيه عن معصيتك"، والناس يضجون بالدعاء .

وكان الصالح غائبا عن دمشق، فكوتب بذلك ، فورد كتابه بعزل ابن عبد السلام عن الخطابة، واعتقاله هو والشيخ أبى عمرو بن الحاجب ، لأنه كان قد أنكر، فاعتقلا . ثم لما قدم الصالح أفرج عنهما ، وألزم ابن عبد السلام بملازمة داره ، وألا يفتى، ولا يجتمع بأحد ألبتة . فاستأذنه فى صلاة الجمعة، وأن يعبر اليه طبيب أو مزين، إذا احتاج اليهما، وأن يعبر الحمام، فأذن له فى ذلك . وولى خطابة دمشق، بعد عز الدين بن عبد السلام، علم الدين داود بن عمر بن يوسف بن خطيب بيت الآبار[١] .

وبرز الصالح من دمشق، ومعه عساكر حمص وحلب وغيرها ، وسار حتى نزل بنهر العوجاء . فبلغه أن الناصر داود قد خيم على البلقاء، فسار إليه، وأوقع به . فانكسر الناصر، وانهزم إلى الكرك . وأخذ الصالح أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه، وعاد الى العوجاء، وقد قوى ساعده، واشتدت شوكته . فبعث يطلب نجدات الفرنج، على أنه يعطيهم جميع ما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف . و رحل من العوجاء، ونزل تل العجول فأقام أياما، ولم يستطع عبور مصر، فعاد إلى دمشق .

(١) يطلق هذا الاسم على جهة من غوطة دمشق، و بها عدة قرى، إسم إحداها بيت الآبار أيضا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٥) .

وذلك أن الملك الصالح نجم الدين ، لمـا بلغه حركة الصالح إسماعيـل من دمشق ومعـه الفرنج ، جرد العساكر إلى لقائه ، فالتقاهم . وعنـد ما تقابل العسكران ساقت عساكر الشام إلى عساكر مصر طائعة ، ومالوا جميعا على الفرنج ، فهزموهم وأسروا منهم خلقا لا يحصون . و بهؤلاء الأسرى عمر السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعـة الروضة ، والمدارس الصالحيـة بالقاهرة .

وفيهـا[1] تم الصلح مع الفرنج ، وأطلق الملك الصالح الأسرى بمصر من الكنود والفرسان والرجالة . وفى ذى القعدة كانت وقعـة بين أمراء الملك الصالح أيوب المقيمين بغزة ، وبين الجواد والناصر؛ وكسر[2] أصحاب الملك الصالح، وكسر[3] كمال الدين بن الشيخ . وفيها استقر الصلح بين الملك الصالح والناصر، ورحل [الناصر][4] عن غزة بعد قبضه على الجواد . وفى ذى القعدة وصـل الجواد إلى العباسة، ومعه [الصالح][5] ابن صاحب حمص؛ فأنعم عليهما الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولم يمكنهما من دخول القاهرة . فعاد [الجوّاد ؟] ، ولجأ إلى الناصر، فقبض عليه[6] .

وفيها عزل القاضى عبد المهيمن عن حسبة القاهرة، فى تاسع المحرّم ؛ واستقر فيهـا القاضى شرف الدين محمد بن الفقيه عباس، خطيب القلعـة . وفى رابع عشره شرع السلطان الملك الصالح نجم الدين فى بنـاء القنطرة التى على الخليج الكبير، المجـاور لبستان الخشاب ، التى تعرف اليوم بقنطرة السد، خارج مدينة مصر .

---

(١) انظر حاشية ٦ .

(٢) ، (٣) فى س "كسروا" . راجع (Blochet : Op. cit. p. 472) .

(٤) انظر ص ٣٠٣، سطر ٢ .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٤١ أ ، ب) .

(٦) العبارة التى تنتهى هنا ، وتبتدئ عنـد حاشية ١ ، واردة بهامش الصفحة فى س ، وليس بالمتن إشارة الى مكانها المناسب، وقد أدرجت هنا على ترتيب ورودها فى ب (ص ١٩٦ أ) . هـذا و يوجد فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٠ ، فى Rec. Hist. Or. I.) أنه لما أيس الملك الجواد من السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، سار مباشرة الى عكا، وأقام مع الفرنج . فأرسل الملك الصالح إسماعيل الى عكا، وبذل للفرنج مالا حتى سلموه الجواد، فاعتقله ثم خنقه . انظر ما يلى ص ٣١٠ سطر ٩ .

وفى سادس عشره أمر [السلطان الملك الصالح أيوب] بتجهيز زَرْدخاناه[1] (٧٩ ب) وشَوانى[2] وحَراريق[3] إلى بحر القلزم لقصد اليمن، وجرد جماعة من الأمراء والأجناد بسبب ذلك .

وفى خامس عشريه نزل خمس نفر فى الليـل من الطاقات الزجاج إلى المشهد النفيسىّ ، وأخذوا من فوق القبر ستة عشر قنديلا من فضة؛ فقبض عليهم من الفيوم، وأحضروا فى رابع صفر . فاعترف أحدهم بأنه هو الذى نزل من طاقات القبة الزجاج وأخذ القناديل، و برأبقية أصحابه ؛ فشنق تجاه المشهد فى عاشره، وترك مدّة متطاولة على الخشب، حتى صار عظاما .

وفى سابع عشرى ربيع الأوّل ولّى الملك الصـالح الأمير بدر الدين باخل الإسكندرية، نقله إليها من ولاية مصر .

وفى شهر ربيع الآخر رتب السلطان نوابا عنه بدار العدل، يجلسون لإزالة المظالم. فجلس لذلك افتخار الدين ياقوت الجمالى، وشاهدان عدلان ، وجماعة من الفقهاء : منهم الشريف

---

(١) الزردخاناه دار السـلاح، وهى كلمة فارسية مركبة، وقد أطلقها المقريزى على السلاح نفسه . ومن معانى الزردخاناه أيضا ، السجن المخصص للجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) جمع شينى — أوشينية — وهى نوع من السفن الحربية فى مصر، يقابلها فى اللغة الفرنسية لفظ "galère" (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ويظهر أن الشوانى كانت أكبر السفن الحربيـة فى مصر ، وأكثرها استعمالا . راجع المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) .

(٣) جمع حراقة ، وهى نوع مـن السفن الحربية ، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية ، كالنار الأغريقية ، وكان بهـا مرام تلق منها النيران على العـدو . (محيط المحيط) . وكان فى مصر نوع آخر من الحراقات ، استخدم فى النيل لحمـل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية ، والحفـلات الرسمية . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥) ما يدل على أن معظم الحراريق كانت لتلك الأغراض المحليـة : من ذلك أنه لمـا شرع السلطان الظاهر بيبرس فى إحياء البحرية المصرية ، بعد إهمالها فى عهد سلفه من المماليك ، "استدعى برجال الأسطول ، وكان الأمراء قد استعملوهم فى الحراريق وغيرها ... ... واستدعى بشوانى الثغور الى مصر ، فبلغت زيادة على أربعين قطعة ، سوى الحراريق والطرائد ، فانها كانت عدة كثيرة ، وذلك فى شوال سنة تسع وستين وستمائة ... " . وفى المقريزى أيضا (نفس المرجع والجزء ، ص ١٩٥) أنه فى سـنة ٧٠٢ هـ ، أعد السلطان الناصر محمد بن قلاون حملة بحرية لغزو جزيرة أرواد (رودس) ، وجهزت الشوانى بالعدد والسلاح والنفطية والأزودة ، "وزينت الشوانى أحسن زينة ، فخرج معظم الناس لرؤيتها ... ... وعدى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة " . انظر أيضا ابن إياس (بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٥٢) ؛ وكذلك (Quatremère : Maml. I. 1, p. 143, N. 17) .

شمس الدين الأرموى، نقيب الأشراف وقاضى العسكر ومدرس المدرسة الناصرية بمصر، والقاضى فخر الدين بن السكرى، [١] والفقيه عز الدين عباس . فهرع الناس لدار العدل من كل جانب، ورفعوا ظلاماتهم، فكشفت . واستراح السلطان من وقوف الناس إليه، واستمر هذا بمصر.

وفى ذى الحجة سار القاضى بدر الدين [أبو المحاسن يوسف] [٢] السنجارى على الساحل إلى مصر، فلما قدم على السلطان أكرمه غاية الإكرام . وكان قضاء ديار مصر بيد القاضى شرف الدين ابن عين الدولة الإسكندرى، فصرفه السلطان عن قضاء مصر والوجه القبلى، وفوّض ذلك للقاضى بدر الدين السنجارى، وأبقى مع ابن عين الدولة قضاء القاهرة والوجه البحرى .

وفيها ظهر ببلاد الروم رجل ادّعى النبوّة، يقـال له البابا من التركمان . وصار له أتباع، وحمل أتباعه على أن يقولوا: "لا إله إلا الله، البابا رسول الله" . فخرج إليه جيش صاحب الروم، فقاتلهم، وقتل بينه و بينهم أربعة آلاف نفس؛ ثم قتل البابا، فانحل أمره [٣] .

وفيها وصل رســول التتار من ملكهم خاقان [٤] إلى [الملك المظفر شهـاب الدين [٥] غازى بن

(١) كذا فى س، و بغير ضبط؛ وقد ترجم (Blochet : Op. cit. p. 473) هذا الاسم الى (Ibn as-Sakrî).

(٢) انظر ما يلى ص ٣٠٩، سطر ٣ .

(٣) اسم هذا المتنبى التركمانى، حسبما ورد فى (Enc. Isl. Art. Kaikhusraw I) بابا إسحاق، وكان يدعو إلى الزهـد والتقشف، ويقدح فى السلطان غياث الدين كيخسرو وحاشيته، لانغماسهم فى الترف . وقد انتشر مذهبه فى أنحاء بلاد السلاجقة الروم، وتطلبت مناهضته مجهودا حربيا طويلا، حتى بعـد مقتل صاحبه . هـذا و يرى (Blochet : Op. cit. p. 474, N. 3)، أن البابا إسحاق كان من بقايا أتباع القرامطة والفاطميين .

(٤) هـذا اللفظ هو الصورة العربيـة للقب التركى قاغان (Ḳaghan)، الذى كان يطلق على رؤساء الترك فى القرن السابع الميلادى، ومعناه رئيس الرؤساء . وقد استعمل أولئك الترك المتقدمون لقب قان — أو خان — أيضا بمعنى قاغان، ور بمـا كان اختصارا له . ولبث هذا الاستعمال شائعا بين الترك حتى أيام ملوك المغول، فصارت كلمـة قاغان — أو قان — تطلق على ملك المغول الأعظم، وقصر لفظ خان على المـلوك الذين يتولون جزءا من الإمبراطورية المغولية . ومثل ذلك التميز موجود فى الاستعمال الاصطلاحى لكلمتى سلطان وملك: فالسلطان هو الملك الأعظم، كالسلطان صـلاح الدين الأيوبى؛ والملك هو أحد ولاة السلطان من أبناء بيتـه، كالملك العادل حينما كان صاحب دمشق، من قبل أخيه صلاح الدين ومثل ذلك عند الفرس، فإن لقب شاهنشاه مختص بملك الملوك عندهم، تمييزا له عن لقب شاه فقط، وهو الملك الصغير . انظر (Enc. Isl. Arts. Khāḳān, Khān) . هذا والراجح أن الخاقان المقصود هنا هو أوغطاى بن جنكزخان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 215) .

(٥) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I)، وأيضا ص ١٩١، سطر ١٨ .

العادل، صاحب] ميافارقين، ومعه كتّاب إليه، و إلى ملوك الإسلام، عنوانه : " من نائب رب السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشرق والغرب، قاقان". فقال الرسول لشهاب الدين صاحب ميا فارقين : " قد جعلك قاقانُ سلاحَ داره ، وأمرك أن تخرب أســوار بلدك" . فقال له [شهاب الدين]: "أنا من جملة الملوك (١٠٨)، وبلادى حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر، فتوجه إليهم، وما فعلوه فعلتُه" .

وفى يوم الجمعة حادى عشر ذى القعدة رسم الصالح إسماعيل أن يُخْطَب على منبر دمشق للسلطان غيــاث الدين كيخسرو بن كيقُباد(١) بن كيخسرو ، ملك الروم ؛ فخطب له ، ونثر على ذلك الدنانير والدراهم ، وكان يوما مشهودا . وحضر رسل الروم وأعيــان الدولة ، وخطب بذلك فى جوامع البلد، وأنعم على الرسول وخلع عليه .

+ + +

ســـنة تسع وثلاثين(٢) وستمائة . فيها شرع الملك الصالح فى عمارة المدارس الصالحية بين القصرين . وفيها غلت الأسعار بمصر، وأبيع القمح كل أردب بدينارين ونصف . وقدم جمال الدين بن مطروح من طرابلس — فى البحر — إلى القــاهرة . وكثرت قصاد المظفر صاحب حماة إلى مصر .

وفى يوم الأحد تاسع عشرى ربيع الأول كسف جميع جرم الشمس، وأظلم الجو، وظهرت الكواكب، وشعل الناس السرج بالنهار .

وفيها قدم الشيخ عز الدين بن عبد السلام إلى مصر ، وقد أخرجه الصالح إسماعيل من دمشق . فأكرمه الملك الصالح نجم الدين، وولاه خطابة جامع عمرو بن العاص بمصر، وقلده قضاء مصر والوجه القبلى — يوم عرفة ، عوضا عن قاضى القضاة شرف الدين بن عين الدولة ، بعــد ما كتب السلطان بخطه إلى ابن عين الدولة، فى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر [ما نصه :]

(١) فى س "كيقباذ" .

(٢) ليس فى مخطوطة مفرج الكروب لابن واصل المستعملة هنا، ذكر لهذه السنة أو التى تليها، حتى سنة ٦٤٤ هـ.

" إن القاهرة لما كانت دار المملكة، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها، وحاكمها مختص بحضور دار العدل، تقدمنا أن يتوفر القاضى على القاهرة وعملها لا غير" . وفوض السلطان قضاء القضاة بمصر وعملها — وهو الوجه القبلى — لبدر الدين أبى المحاسن يوسف السنجارى، المعروف بقاضى سنجار . فلما مات ابن عين الدولة استقر البدر السنجارى فى قضاء القاهرة، وفُوض قضاء مصر والوجه القبلى لابن عبد السلام .

وفيها كثر تردد الناس إلى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بعد ما أطلقه السلطان من السجن . فكره السلطان ذلك، وأمره أن يلازم داره .

وفيها بلغ السلطان أن الناصر داود صاحب الكرك ، قد وافق الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والمنصور إبراهيم صاحب حمص ، وأهل حلب ، على محاربته . فسير [السلطان] كمال الدين بن شيخ الشيوخ على عسكر [إلى الشام]، فخرج إليه الناصر وقاتله ببلاد القدس ، وأسره فى عدة من أصحابه، ثم أطلقهم ، وعادوا إلى القاهرة . وكان من خبر ذلك أنه(١) فى يوم الأربعاء ثانى عشر صفر ، وقع عسكر الناصر داود على الأمير عز الدين أيبك صاحب صرخد، وقد نزل على الفوار، فكسره وأخذ الأثقال . وكان معه الأمير شمس الدين شرف — المعروف بالسبع مجانين(٢) ، وشمس الدين أبو العلاء الكردياني(٣) ، وشرف الدين بن الصارم صاحب تبنين . وكان مقدّم عسكر الناصر سيفُ الدين بن قلج، وجماعة من الأيوبية من عسكر مصر .

وفيها سار الخوارزمية إلى الموصل، فسالمهم [صاحبها بدر الدين] لؤلؤ، وسلمهم نصيبين، ووافقهم المظفر [شهاب الدين] غازى بن العادل، صاحب ميافارقين. ثم ساروا إلى آمد، فخرج إليهم عسكر حلب، عليه (٨٠ ب) المعظم فخر الدين توران شاه(٤) بن صلاح الدين، فدفعوهم عنها،

(١) فى س "ان" .

(٢) فى ب (٩٧ ا) " شمس الدين شروه المعروف بالسبع محاسن " .

(٣) كذا فى س ، وهو فى ب (٩٧ ا) " الكردياني "، ومترجم فى (Blochet : Op. cit. p. 477) إلى (Kirdiani).

(٤) فى س " تورنشاه " .

ونهبوا بلاد ميافارقين، وجرت بينهم وبين الخوارزمية وقائع . ثم عاد العسكر إلى حلب، فغار[1] الخوارزمية على رساتيق[2] الموصل .

وفيها فلج المظفر صاحب حماة فى شعبان ، وهو جالس بغتة، فأقام أياما ملق لا يتحرك ولا يتكلم، ثم أفاق، وبطل شقه الأيمن . فسير إليه الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من مصر بطبيب يعرف بالنفيس بن طليب النصرانى ، فلم ينجع فيه دواء ، واستمر كذلك سنين وشهورا حتى مات .

وفى خامس عشر ذى القعدة قدم الأمير ركن الدين الطونبا الهيجاوى[3]، من القاهرة الى دمشق، وكان الملك الصالح نجم الدين قد بعثه فى شهر رمضان الى الناصر داود ، ليصلح بينه وبين الملك الجواد، حتى يبقى على طاعة الملك الصالح نجم الدين[4] . فلما وصل الى غزة هرب الى دمشق، وأخذ معه جماعة من العسكر، ولحق الجواد بالفرنج[5]، وأقام عندهم .

وفيها وصل الملك المنصور [نور الدين عمر بن على رسول][6] من اليمن فى عسكر كبير الى مكة، فى شهر رمضان، ففر المصريون بعد ما أحرقوا دار الإمارة بمكة ، حتى تلف ما كان بها من سلاح وغيره .

* * *

سنة أربعين وستمائة . فى ربيع الأول أبطلت خطبة ملك الروم من دمشق ، وخطب للملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وفى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل الفرنج

---

(١) فى س " فغار " .

(٢) جمع رستاق ، وهو لفظ فارسى ، معناه القرية أو محلة العسكر ، أو البلد التجارى ، ومنه الكلمة العربية الرزداق، وجمعها الرزداقات والرزاديق . (محيط المحيط ؛ و Steingass. Pers.—Eng. Dict.) .

(٣) كذا فى س، بغير ضبط. وفى (Blochet : Op. cit. p. 478. N. 4) أن إيراد هذا الاسم هكذا خطأ ، وأنه يجب أن يكتب الطون بغا ، (Altoun bogha) . انظر ص ١٧٥ ، سطر ٦، وحاشية ٢ بنفس الصفحة .

(٤) ، (٥) العبارة الواردة بين الرقمين ليست واضحة تماما ، وقد لاحظ (Blochet : Op. cit. p. 478, N. 5) نفس الملاحظة .

(٦) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٤٤) .

من عكا الى نابلس، ونهبوا وقتلوا وأسروا، وأخذوا منبر الخطيب؛ وخرجوا يوم الأحد بعد ما أفسدوا أموالا كثيرة. وفى يوم السبت ثامن عشر المحرم وصل الى القاهرة الشريف علاء الدين هاشم بن أمير سيد، من الدِّيوان (١). وفى عاشر ربيع الآخر مات الشريف علاء الدين هاشم بن أمير سيد.

وفيها وصل التتار إلى أرزن الروم، وأوقع [الملك] المظفر غازى، [صاحب ميافارقين] (٢)، بالخوارزمية. وفيها ماتت ضيفة خاتون ابنة العادل أبى بكر بن أيوب، ليلة الجمعة لإحدى عشرة خلت من جمادى الأولى. فاستبد ابن ابنها الناصر يوسف بن الظاهر غازى (٣) بمملكة حلب بعدها، وقام بتدبيره بعد جدته الأمير شمس الدين لؤلؤ الأتابك، والأمير جمال الدين إقبال [الأسود الخصى] (٤) الخاتونى، والوزير الأكرم جمال الدين بن القفطى. وخرج إقبال من حلب بعسكر، وحارب الخوارزمية، ثم عاد.

وفيها مات الخليفة المستنصر بالله أبو جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد ابن الناصر لدين الله أحمد العباسى أمير المؤمنين، بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة؛ وكان سبب موته أنه فصد بمبضع مسموم. فكانت خلافته سبع عشرة سنة غير شهر، وقيل مات فى ثانى عشريه. وكانت مدّته خمس عشرة سنة، وأحد عشر شهرا وخمسة أيام؛ وله

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى سكة بمرو. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٧١٥).

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء. (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist, Or. I.). ويلاحظ أنه يوجد خلاف جوهرى بين ما هو وارد هنا، فى الخوارزمية والمظفر غازى، وبين ما جاء عنهما فى أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة)، ونصه: "وفى هذه السنة كان بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازى صاحب ميافارقين، وبين عسكر حلب ومعهم المنصور إبراهيم صاحب حمص، مصاف قريب الخابور.. فولى المظفر غازى والخوارزمية منهزمين أقبح هزيمة ... ونهبت وطاقات الخوارزمية ونساؤهم ... ووصل عسكر حلب وصاحب حمص إلى حلب ... مؤيدين منصورين ...".

(٣) يوجد هنا أيضا فرق جوهرى بين رواية المقريزى، وما يقابلها فى أبى الفداء. (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I.)، فهناك أن الملك العزيز، وليس الظاهر غازى، هو أبو الملك الناصر يوسف.

(٤) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (نفس المرجع والصفحة).

من العمر إحدى وخمسون[1] سنة، وأربعة أشهر وسبعة أيام . وكان حازما عادلا ، وفى أيامه عمرت بغداد عمارة عظيمة، وبنى بها المدرسة المستنصرية . وفى أيامه قصد التتار بغداد، فاستخدم العساكر حتى قيل إنها زادت عدتها على مائة ألف إنسان. فقام من بعده فى الخلافة ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله، وقام بأمره أهل الدولة ، وحسنوا له جمع الأموال، وإسقاط أكثر الأجناد . فقطع كثيرا من العساكر، وسالم التتر، وحمل إليهم المال .

وفيها بنى بعض غلمان الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، وزير الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، بناءً بأمر مخدومه على سطح مسجد بمصر، وجعل فيه طبلخاناه عماد الدين [ابن شيخ الشيوخ] . فأنكر ذلك قاضى القضاة عز الدين بن عبد السلام، ومضى بنفسه وأولاده، حتى هدم البناء، ونقل ما على السطح . ثم أشهد [قاضى القضاة] على نفسه (٨١ أ) أنه قد أسقط شهادة الوزير معين الدين، وأنه قد عزل نفسه من القضاء . فلما فعل ذلك ولى الملك الصالح عوضه قضاء مصر صدر الدين أبا منصور موهوب بن عمر بن موهوب ابن إبراهيم الجزرى، الفقيه الشافعى — وكان ينوب عن ابن عبد السلام فى الحكم، فى ثالث عشرى ذى القعدة .

وفيها قدم مكة الحاج من بغداد، بعد ما انقطع ركب العراق سبع سنين عن مكة[2] . وكان من خبر مكة، شرفها الله تعالى، أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بعث ألف فارس عليهم الشريف شيحة بن قاسم أمير المدينة ، فى سنة سبع وثلاثين . فبعث الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول من اليمن بابن النصيرى، و[معه] الشريف راجح، إلى مكة فى عسكر كبير . ففر الشريف شيحة بمن معه، وقدم القاهرة . فجهز السلطان الملك الصالح معه عسكرا قدم بهم مكة، فى سنة ثمان وثلاثين، وحجوا بالناس . فبعث ابن رسول من اليمن عسكرا كبيرا ، فطلب عسكر مصر من السلطان الملك الصالح نجدة ، فبعث إليهم بالأمير

(١) فى س "خمسين" .

(٢) ما يلى هذا الى آخر الوارد تحت هذه السنة ، مكتوب على ورقة منفصلة فى س ، بين صفحتى ٨٠ ب ، ٨١ أ ، وليس من إشارة إلى الموضع الذى أراد المقريزى وصله به ، وليست العبارة مذكورة فى ب (٩٨ أ) البتة .

مبارز الدين على بن الحسين بن برطاس، والأمير مجد الدين أحمد بن التركمانى، فى مائة وخمسين فارسا . فلما بلغ ذلك عسكر اليمن أقاموا على السرين ، وكتبوا إلى ابن رسول بذلك، فخرج بنفسه فى جمع كبير يريد مكة، ففر المصريون على وجوههم، وأحرقوا ما فى دار السلطان بمكة من سلاح وغيره . فقدم الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول مكة، وصام بها شهر رمضان، سنة تسع وثلاثين، واستناب بمكة مملوكه فخر الدين الشلاح[1] .

+ + +

سنة إحدى وأربعين وستمائة . فيها قدم التتر بلاد الروم ، وأوقعوا بالسلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان ، وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمد . فدخل غياث الدين فى طاعتهم، على مال يحمله إليهم . وملكوا أيضا سِيوَاس[2] وقَيْسَارِيَة[3] بالسيف، وقرروا على صاحبهما[4] فى كل سنة أربعمائة ألف دينار . ففر غياث الدين منهم إلى القسطنطينية، وقام من بعده ركن الدين ابنه — وهو صغير — إلى أن قُتِل[5] .

---

(١) كذا فى س، وبغير ضبط . واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٦٩، ٧٧) فخر الدين السلاخ .

(٢) بغير ضبط فى س، وسيواس بلد بآسيا الصغرى، يمر بواديها نهر قزل إرمك، وهى واقعة على مسافة ستين ميلا من قيسارية، وعلى مسيرة يومين من توقات . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٩٥؛ ج ٢، ص ٨٦٥؛ ج ٥، ص ٢٢؛ وأيضا (Blochet: Op. Cit. p. 483, N. 1 .

(٣) بغير ضبط فى س، وقيسارية — أو قيصرية — اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد إمبراطوريتهم بالشرق، وبشمالى إفريقية وإسبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين، الواقعة على الشاطىء، على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبى حيفا . ومنها قيصرية الروم، وهى المقصودة هنا بالمتن، وتقع على نهير قاراصو، إحدى فروع نهر قزل إرمك . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٤)، وأيضا (Enc. Isl. Art. Kaisariya) .

(٤) فى س "صاحبها" . والمعروف أن سيواس وقيسارية، وملطية أيضا، كانت قد آلت ثلاثتها منذ سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) إلى سلطان السلاجقة الروم، بعد وفاة صاحبها ذى النون بن دانشمند . راجع (Lane-Poole: Muh. Dyns. p. 156 ; Enc. Isl. Arts. Kaisariya & Danishinandiya) .

(٥) يوجد خلاف جوهرى بين الوارد هنا، عن غياث الدين كيخسرو، وبين ما يقابله فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١ – ١٢٢، فى Rec. Hist. Or. I.) ونصه : "... وهرب غياث الدين كيخسرو الى بعض المعاقل . ثم أرسل الى التتر، وطلب الأمان، ودخل فى طاعتهم، ثم توفى ... سنة ٦٥٤ ... وخلف [ولدين] =

وفيها تكررت المراسلة بين الصالح نجم الدين أيوب، و بين عمه الصالح إسماعيل صاحب دمشق ، و بين المنصور صاحب حمص : على أن تكون دمشق وأعمالهـا للصالح إسماعيل ، ومصر للصالح أيوب ، وكل من صاحب حمص وحمـاة وحلب على ما هو عليه ؛ وأن تكون الخطبة والسكة فى جميع هذه البلاد للملك الصالح نجم الدين أيوب، وأن يطلق الصالح إسماعيل الملك المغيث فتح الدين عمـر بن الملك الصالح نجم الدين من الاعتقال، و [أن] يخرج الأمير حسام الدين أبو على بن محمد بن أبى على بن باشاك(١) الهذبانى، المعروف بابن أبى على، من اعتقاله ببعلبك، وأن ينتزع الصالح إسماعيل الكرك من الملك الناصر داود .

فلما تقرر هذا خرج من القاهرة الخطيب أصيل الدين الإِسْعِردِى(٢) — إمام السلطان — فى جماعة، وسار إلى دمشق . فخُطِب للسلطان [الملك الصالح نجم الدين أيوب] بجامع دمشق وبحمص ؛ وأُفْرِج عن المغيث ابن السلطان، وأركب ثم أعيد إلى القلعة، حتى يتم بينهما الحلف؛ وأُفرِج عن الأمير حسام الدين ، وكان قد ضيق عليـه وجعل فى جب مظلم . فلما وصل [حسام الدين] إلى دمشق خلع عليـه الصالح إسماعيل؛ وسار إلى مصر ، ومعه رسول الصالح إسماعيل، ورسول صاحب حمص — وهو القاضى عماد الدين بن القطب قاضى حماة، ورسول صاحب حلب . فقدموا على الملك الصالح نجم الدين، ولم يقع اتفاق، وعادت الفتنة بين الملوك .

فاتفق الناصر داود صاحب الكرك، مع الصالح إسماعيل صاحب دمشق، على محاربة الملك الصالح نجم الدين . وعاد رســول حلب، وتأخر ابن القطب بالقاهرة . فبعث الناصر داود

= صغيرين ، وهما ركن الدين وعز الدين . ثم هرب عز الدين الى قسطنطينية ، و بقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر ، والحاكم البرواناه معين الدين سليمان . والبرواناه لقبـه ، (١٢٢) وهو اسم الحاجب بالعجمى . ثم إن البرواناه قتل ركن الدين ، وأقام فى الملك ولدا له صغيرا ... " . هـذا وفى (Enc.Isl. Art. Kaikhusraw II.) أن غياث الدين حاول الهرب فعلا الى بلاد الإغريق ، وسيأتى كل ذلك مفصلا بالمتن هنا .

(١) فى س "ما شاك"، انظر (Blochet : Op. cit, p. 484) .

(٢) بغيـر ضبط فى س ، والإسعردى نسـبة الى إسـعرد ، وهى بلدة بين دجلة وميا فارقين . انظـر (Rec. Hist. Or. I. Index.) .

والصالح إسماعيل ، ووافقا الفرنج على أنهم يكونون(١) عونا لهم على الملك الصالح نجم الدين، ووعداهم أن يسلما إليهم القدس . وسلماهم (٨١ ب) طبرية وعسقلان [أيضا]، فعمّر الفرنج قلعتيهما وحصونهما ، وتمكن الفرنج من الصخرة بالقــدس، وجلسوا فوقها بالخمـر، وعلّقوا الجرس على المسجد(٢) الأقصى .

فبرز الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من القاهرة ، ونزل بركة الجب وأقام عليهـا . وكتب إلى الخوارزمية يستدعيهم إلى ديار مصر ، لمحاربة أهــل الشام ؛ فخرجوا من بلاد الشـــرق .

وفى يوم عيــد النحر صرف الملك الصالح نجم الدين قاضى القضاة صــدر الدين موهوب الجزرى ، وقلد الأفضــل الخُوَنْجِى(٣) قضاء مصر والوجه القبــلى . وفيها هرب الصارم ...(٤) المسعودى من قلعة الجبــل ، وقد صبغ نفسه حتى صار أسود ، على صورة عبد كان يدخل إليه بالطعام؛ فأُخِذ من بلبيس، وأعيد إلى معتقله . وفيها أنشأ شهاب الدين ريحان ــ خادم الخليفة ــ رباط الشرابى بمكة، وعمر بعرفة أيضا .

* * *

سـنة اثنتين وأربعين وستّمائة . فيها ورد إلى دمشــق كتاب بدر الدين لؤلؤ ، صاحب الموصــل ، [وفيه يقول] : " إنى قد قرّرت على أهــل الشام قطيعة للتتر فى كل سنة، من الغنى عشرة دراهم، ومن المتوسط خمسة دراهم ،ومن الفقير درهم" . فقرأ القاضى محيى الدين بن زكى الدين الكتّاب على الناس، ووقع الشروع فى جباية المــال .

(١) فى س " يكونوا " .

(٢) شاهد جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، ما أحدثه الفرنج ببيت المقدس . انظر (العينى : عقد الجمان، ص ١٩٧ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) فى س " الحونجى "، و بغير ضبط ، والنسبة الى خونج ــ أو خونا ، وهى بلدة من أعمال آذربيجان ، بين مراغة و زنجان ، فى طريق الرى ، وسميت فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ ــ ٥٠٠) كاغدكنان ، أى بلد صناع الكاغد .

(٤) بياض فى س .

وفيها قطع الخوارزمية الفرات، ومقدموهم الأمير حسام الدين بركه خان(١)، وخان بردى، وصاروخان، وكشلوخان، وهم زيادة على عشرة آلاف مقاتل. فسارت [منهم] فرقة على بقاع بعلبك، وفرقة على غوطة دمشق، وهم ينهبون ويقتلون ويسبون. فانجفل الناس من بين أيديهم، وتحصن الصالح إسماعيل بدمشق، وضم عساكره إليه، بعد ما كانت قد وصلت غزة. وهجم الخوارزمية [على] القدس، وبذلوا السيف فى من كان به من النصارى، حتى أفنوا الرجال، وسبوا النساء والأولاد، وهدموا المبانى التى فى قمامة، ونبشوا قبور النصارى، وأحرقوا رممهم. وساروا إلى غزة فنزلوها، وسيروا إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب — فى صفر — يخبرونه(٢) بقدومهم. فأمرهم بالإقامة فى غزة، ووعدهم ببلاد الشام، بعد ما خلع على رسلهم، وسير إليهم الخلع والخيل والأموال. وتوجه فى الرسالة إليهم جمال الدين أقوش النَّجِيبى(٣)، وجمال الدين بن مطروح.

وجهز [الملك الصالح نجم الدين أيوب] عسكرا من القاهرة عليه الأمير ركن الدين بيبرس، أحد مماليكه الأخصاء الذين كانوا معه وهو محبوس بالكرك. فسار إلى غزة، وانضم إلى الخوارزمية جماعةٌ من القَيْمَرِيّة(٤)، [كانوا قد] قدموا معهم من الشرق. ثم خرج الأمير حسام الدين أبو على(٥) بن محمد بن أبى على الهذبانى بعسكر، ليقيم على نابلس.

---

(١) روجعت هذه الأسماء على منطوقها فى (Blochet : Op. cit. p. 487). راجع أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٤، فى .Rec. Hist. Or. I).

(٢) فى س "يخبروه".

(٣) فى س "النبجى"، وقد ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Blochet : Op. Cit. P. 488).

(٤) بغير ضبط فى س، والقيمرية نسبة الى قيمر، وهى قلعة فى الجبال بين الموصل وخلاط، كان أهلها فى زمن ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٨) من الأكراد. انظر أيضا أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٣٠، فى .Rec. Hist. Or. I).

(٥) فى س "بوعلى".

وجهز الصالح إسماعيـل عسكرا من دمشق، عليه الملك المنصور صاحب حمص . فسار المنصور جريدة إلى عكا، وأخذ الفرنج ليحاربوا معه عساكر مصر؛ وساروا إلى نحو غزة، وأتتهم نجدة الناصر داود صاحب الكرك (١٨٢ ا) مع الظهير بن سنقر الحلبي والوزيرى .

فالتقى القوم مع الخوارزمية بظاهر غزة ، وقد رفع الفرنج الصلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصور صاحب حمص؛ والأقسة تُصَلِّب (١)، وبأيديهم أوانى الخمر تسق الفرسان. وكان فى الميمنة الفرنج، وفى الميسرة عسكر الكرك، وفى القلب المنصور صاحب حماة . فساق الخوارزمية وعساكر مصر، ودارت بين الفريقين حرب شـديدة . فانكسر الملك المنصور، وفرّ الوزيرى، وقُبض على الظهير وجُرح . وأحاط الخوارزميـة بالفرنج ، ووضـعوا فيهم السيف حتى أتوا عليهم قتلا وأسرا ، ولم يفلت منهم إلا من شرد . فكان عدّة من أسر منهم ثمـانمائة رجل، وقتـل منهم ومن أهل الشام زيادة على ثلاثين ألفا (٢) . وحاز الخوارزمية من الأموال ما يجل وصفه، ولحق المنصور بدمشق فى نفر يسير .

وقدمت البشارة إلى الملك الصالح نجم الدين بذلك فى خامس عشر جمادى الأولى، فأمر بزينة القاهرة ومصر وظواهرهما، وقلعتى الجبل والروضة . فبالغ الناس فى الزينة، وضربت البشـائر عدّة أيام . وقدمت أسرى الفرنج ورءوس القتلى ، ومعهـم الظهير بن سنقر وعدة من الأمراء والأعيان ؛ وقد أُركب الفرنج الجمـال، ومن معهـم من المقدمين على الخيول. وشقوا القاهرة، فكان دخولهم يوما مشهودا . وعلقت الرءوس على أبواب القاهرة، وملئت الحبوس بالأسرى .

---

(١) فى س " الاقسا " بغير ضبط ، والأقسة إحدى صيغ جمع لفظ قس — أو قسيس ، ويجمع أيضا على قسان وقساوسة ، وقسيسين وقسوس . (محيط المحيط) .

(٢) لم يذكر المقريزى هنا أقصى ما أحدث الخوارزمية فى تلك الحرب ، وهو حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ١٩٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) أنهم تعقبوا فلول الفرنج إلى القدس ، وهاجموهم به " .. ... وبذلوا فى أهله السيف ، وسـبوا ذراريهم ونساءهم ، ودخلوا كنيستهم المعروفة بقمامة ، فهدموا المقبرة التى يعتقد النصارى أنها مقبرة المسيح عليه السلام ... ... " .

وسار الأمير بيبرس، والأمير ابن أبى[1] على بعساكرهما إلى عسقلان ، ونازلاها فامتنعت عليهم لحصانتها . فسار ابن أبى[2] على إلى نابلس، وأقام بيبرس على عسقلان. واستولت نواب الملك الصالح نجم الدين على غزة والسواحل، والقدس والخليل، و بيت جبريل والأغوار؛ ولم يبق بيد الناصر داود سوى الكرك والبلقاء، والصلت وعجلون .

فورد الخبر بموت الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب — صاحب حماة، فى يوم السبت ثامن جمادى الأولى ؛ فاشتد حزن الملك الصالح [نجم الدين أيوب] عليه[3] . ثم ورد الخبر بموت ابنه[4] الملك المغيث عمر بقلعة دمشق، فزاد حزنه ، وقوى غضبه على عمه الصالح إسماعيل . وقدم إلى القاهرة الخطيب زين الدين أبو البركات عبد الرحمن بن موهوب من حماة ، بسيف الملك المظفر، ومعه تقدمة من عند ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ، لتسع مضين من شوال .

وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على (٨٢ ب) العساكر من القاهرة، ومعه الدهليز السلطانى والخزائن . وأقامه السلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على رأس

---

(١) فى س "ابو" . (٢) فى س "بو" .

(٣) الملك المظفر هذا جد المؤرخ أبى الفداء إسماعيل ، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر . وقد ترجم له أبو الفداء فى مؤلفه هذا (ص ١٢٢ — ١٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. I.)، وذكر ما حدث فى حماة بعده ، ونصه : "وفى هذه السنة توفى جدى الملك المظفر تقى الدين محمود ... وكانت مدة مملكته بحماة خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وعشرة أيام ... وكان عمره ثلاثا وأربعين سنة ... وكان شهما شجاعا، فطنا ذكيا . وكان يحب أهل الفضائل والعلوم، واستخدم الشيخ علم (١٢٣) الدين قيصر، المعروف بتعاسيف ، وكان مهندسا فاضلا فى العلوم الرياضية ، فبنى للملك المظفر المذكور أبراجا بحماة ، وطاحونا على النهر العاصى ؛ وعمل كرة من الخشب مدهونة ، رسم فيها جميع الكواكب المرصودة ، وعملت هذه الكرة بحماة . قال القاضى جمال الدين بن واصل ، وساعدت الشيخ علم الدين على عملها ، وكان الملك المظفر يحضر ونحن نرسمها ، ويسألنا عن مواضع دقيقة فيها . ولما مات الملك المظفر ... ملك بعده ولده الملك المنصور محمد ... وعمره حينئذ عشر سنين وشهر ... والقائم بتدبير المملكة سيف الدين طغريل مملوك الملك المظفر، وشاركه الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد المعروف بشيخ الشيوخ ، والطواشى مرشد ، والوزير بهاء الدين بن التاج ؛ ومرجع الجميع الى والدة المنصور غازية خاتون ، بنت الملك الكامل" .

(٤) ضمير الهاء هنا عائد على الملك الصالح نجم الدين أيوب .

السماط[1]، ويركب كما هي عادة الملوك، وأن يقف الطواشي شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه، كعادتهم فى خدمة السلطان ؛ وكتب إلى الخوارزميــة أن يسيروا فى خدمته . فسار [الصاحب معين الدين] من القاهرة بالعساكر إلى غزة، وانضاف إليه الخوارزمية والعسكر . وسار إلى بيسان، فأقام بها مدّة، ثم سار إلى دمشق فنازلهــا ، وقد امتنع بها الصالح إسماعيــل والمنصور إبراهيم صاحب حمص . وعاثت الخوارزمية فى أعمال دمشق، فبعث الصالح إسماعيــل إلى ابن شيخ الشيوخ بسجادة وإبريق وعكاز، وقال له : "اشتغالك بهــذا أولى من اشتغالك بقتال الملوك" . فلما وصل ذلك إليه جهز إلى الصالح إسماعيل جَنكا وزَمْرا وغِلالة حرير، وقال : " السجادة والإبريق والعكاز يليقون بى، وأنت أولى بالجنك والزمر والغــلالة" ؛ واستمر [الصاحب معين الدين] على محاصرة دمشق . فبعث الخليفة المستعصم بمحيي الدين بن الجوزى إلى الملك الصالح نجم الدين ومعه خلعة : وهى عمامة سوداء، وفَرَجية مذهبة، وثوبان[2] ذهب، وسيف بذهب، وطوق ذهب، وعلمان حرير، وحصان وترس ذهب ؛ فلبس [الملك الصالح نجم الدين] الخلعة على العادة . وكانت الأقاويل بمصر قد كثرت لمجيئه[3]، وتأخر قدومه . فقال الصــلاح ...[4] ... بن شعبان الإربلى : —

---

(١) السماط هنا المائدة السلطانية، أو ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين . (محيط المحيط ؛ و Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وفى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٠ — ٢١١) وصف للأسمطة السلطانية، زمن الأيوبيين والمماليك، ونصه : "وكانت العادة أن يمد بالقصر، فى طرفى النهار من كل يوم، أسمطة جليلة لعامة الأمراء، خلا البرانيين وقليل ماهم . فبكرة يمد سماط أول لا يأكل منه السلطان ؛ ثم ثان بعده يسمى الخاص، قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ؛ ثم ثالث بعده، ويسمى الطارئ، ومنه مأكول السلطان . وأما فى آخر النهار فيمتد سماطان، الأول والثانى [وهو] المسمى بالخاص ... وفى كل هذه الأسمطة، يؤكل ما عليها ويفرق نوالات (كذا) ؛ ثم يسق بعدها الأقسماء المعمولة من السكر، والأفاويه المطيبة بماء الورد المبردة ... وبلغ مصروف السماط فى كل يوم عيد الفطر من كل سنة خمسين ألف درهم، عنها (لعله منها) نحو ألفين وخمسمائة دينار تنهبه الغلمان والعامة ..." .

(٢) فى س "سيق" .

(٣) ضمير الهاء هنا عائد على محيي الدين بن الجوزى، ويريد المقريزى بهذه العبارة أن يشير الى إبطاء الخليفة المستعصم بالله، فى الاعتراف بسلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى هذه السنة . راجع (Blochet: Op. cit. p. 492) .

(٤) بياض فى س .

قالوا الرســول أتى وقالوا إنه ما رام يوما عن دمشــق نزوحا
ذهب الزمان وما ظفرت بمسلم يروى الحديث عن الرسول صحيحا

وفيها قُتل أميرُ بنى مَرِين محمد بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة، فى حربه مع عسكر الموحدين(١) . وولى بعده أخوه أبو يحيى بن عبد الحق .

و[فيها] ورد كتاب [بدر الدين] لؤلؤ من الموصـل بجباية قطيعة(٢) التتر من دمشق، فقرأ كتابَه القاضى محيى الدين بن الزكى على العادة .

وفيها استوزر الخليفة أسـتاداره مؤيد الدين محمد بن العلقمى، فى ثامن ربيـع الأول، عوضا عن نصـير الدين أبى الأزهر أحمـد بن محمد بن على بن الناقد . وفيها استولى التتر على شَهْرَزُور(٣) . وفيها بلغ الأردب القمح بمصر أربعمائة درهم نُقْرَة .

+ + +

سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فيها كثرت محاربة ابن شيخ الشيوخ لأهل دمشق ومضايقته للبلد، إلى أن أحرق قَصْر حَجَّاج(٤) فى ثانى محـرم، ورَمَى بالمجـانيق وألح بالقتال . فأحرق الصالح إسماعيل فى ثالثه عدّة مواضع، ونُهبت أموال الناس، وجرت شدائد، إلى أن

(١) مؤسس دولة الموحدين بالمغرب هو أبو عبد الله محمد بن تومرت، المتوفى سنة ٥٢٢ هـ (١١٢٨ م) . وقد دال المغرب كله، وإسبانيا الإسلامية أيضا، لملوك تلك الدولة منذ سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) . ثم حدث فى سنة ٦٣٢ هـ (١٢٣٥ م) أن أوقعت الدول المسيحية باسبانيا هزيمة منكرة بجيوش الموحدين، فى وقعـة (Las Navas) . وبهذه الوقعة يبتدئ انكماش دولة الموحدين، وتألب أعدائها من المسلمين والمسيحيين باسبانيا والمغرب، ومن أولئك أمراء بنى مرين بمراكش . وانقضت دولة الموحدين سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٥ م)، بعد وفاة آخر ملوكها أبى العلاء الواثق . (Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 45-47; Enc. Isl. Art. Almohades) .

(٢) القطيعة هنا ما يفرض من المـال على بلد أو إقليم، للانفاق على الاستعدادات الحربية الدفاعيـة . (محيط المحيط، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى كورة واسعة فى الجبال الواقعة بين إربل وهمذان، وتبعد عن ديلمستان سبعة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٤٠ — ٣٤٢) .

(٤) بغير ضبط فى س، وهو محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابيـة من مدينة دمشق، وترجع نسبتها الى حجـاج ابن الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١١٠) .

أهلّ شهر ربيع الأول . ففيه خرج المنصور صاحب حمص من دمشق، وتحدث مع بركه خان مقدم الخوارزمية فى الصلح، وعاد إلى دمشــق . فأرســل الوزير أميـــن الدولة كمال الدين أبو الحسن ...... [1] بن غزال المعروف بالسامرى إلى الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، يسأله الأمان ليجتمع به ، فبعث إليه بقميص وفرجية وعمامة ومنديل ، فلبس ذلك وخرج ليلا، لأيام مضت من جمادى الأولى؛ (٨٣ أ) فتحادثا ورجع إلى دمشق . ثم خرج فى ليــلة أخرى ، وقُرِّرَ أن الصالح إسماعيل يسـلم دمشق، على أن يخرج منها هو والمنصور بأموالهم، ولا يُعترض لأحد من أصحابهم ولا لشىء ممــا معهم؛ وأن يُعوض الصالح عن دمشق ببعلبك وبصرى وأعمالها، وجميع بلاد السواد؛ وأن يكون للمنصور حمص وتدمر والرحبة . فأجاب [أمين الدولة] الى ذلك، وحلف الصاحب معين الدين لهم؛ فخرج الصالح اسماعيل والمنصور من دمشق .

ودخل الصاحب معين الدين فى يوم الاثنين ثامن جمادى الأولى، ومنع الخوارزمية من دخول دمشــق . ودبّر الأمر أحسن تدبير، وأقطع الخوارزمية الساحل بمناشـير كتبها لهم، ونزل فى البلد . وتسلم الطواشى شهاب الدين رشيد القلعة، وخطب بها وبجامع دمشق وعامة أعمالها للملك الصالح نجم الدين؛ وسلم أيضا الأمير سيف الدين على بن قلج قلعة عجلون لأصحاب الملك الصالح، وقدم إلى دمشق .

فلما وردت الأخبار بذلك على السلطان أنكر على الطواشى شهاب الدين والأمراء كيف مكنوا الصالح إسماعيل من بعلبك، وقال: "إن معين الدين حلف له، و[أما] أنتم فما حلفتم". وأمر [الملك الصــالح نجم الدين] أن يسير الركن الهيجاوى ، والوزير أمين الدولة السامرى، تحت الحوطة الى قلعة الروضة؛ فَسُيِّرا من دمشــق إلى مصر، واعتقلا بقلعة الجبل . فاتفق مرض الصاحب معين الدين ووفاته بدمشق، فى ثانى عشرى شهر رمضان، فكتب السلطان إلى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى، وهو بنابلس، أن يسـير إلى دمشق ويتسلمها؛

(١) بياض فى س .

فسار إليها وصار نائبا بدمشق، والطواشى رشيد بالقلعة . وأفرج السلطان عن الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ — وكان قد لزم بيته — وخلع عليه وأمّره وقدّمه، وبالغ فى الإحسان اليه، و[كان] لم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره .

وأما الخوارزمية ، فإنهم ظنوا أن السلطان إذا انتصر على عمه الملك الصالح إسماعيل يقاسمهم البلاد؛ فلما مُنعوا من دمشق، وصاروا فى الساحل وغيره من بلاد الشام، تغيرت نياتهم، واتفقوا على الخروج عن طاعة السلطان . وساروا إلى داريّا(١) وانتهبوها ، وكاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس وهو على غزة بعسكر جيد من عساكر مصر، وحسنوا له أن يكون معهم يدا واحدة ويزوّجوه منهم، فمال إليهم؛ وكاتبوا (٨٣ ب) الناصر داود صاحب الكرك، فوافقهم ونزل إليهم واجتمع بهم وتزوّج منهم، وعاد إلى الكرك واستولى على ما كان بيد الأمير حسام الدين بن أبى على، من نابلس والقدس والخليل، وبيت جبريل والأغوار .

وخاف الصالح إسماعيل، فكاتب الخوارزمية وقدم إليهم؛ فحلفوا له على القيام بنصرته، ونازلوا دمشق . فقام الأمير حسام الدين بن أبى على بحفظ البلد أحسن قيام، وألح الخوارزمية — ومعهم الصالح إسماعيل — فى القتال ونهب الأعمال ، وضايقوا دمشق، وقطعوا عنها الميرة . فاشتد الغلاء بها ، وبلغت الغرارة القمح إلى ألف وثمانمائة درهم فضة، ومات كثير من الناس جوعا؛ وباع شخص دارا قيمتها عشرة آلاف درهم، بألف وخمسمائة درهم اشترى بها غرارة قمح، فقامت عليه فى الحقيقة بعشرة آلاف درهم؛ وأبيع الخبز كل أوقية وربع بدرهم، واللحم كل رطل بسبعة دراهم . ثم عدمت الأقوات بالجملة ، وأكل الناس القطاط والكلاب والميتات؛ ومات شخص بالسجن، فأكله أهل السجن . وهلك عالم عظيم من الجوع والوباء، واستمر هذا البلاء ثلاثة أشهر . وصار من يمر من الجبل يشتم ريح نتن الموتى، لعجز الناس عن مواراة موتاهم؛ ولم تنقطع مع هذا الخمور والفسوق من بين الناس .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة بالغوطة من قرى دمشق ، والنسبة اليها دارانى، على غير قياس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٥٣٦) .

و [أخذ] الملك الصالح نجم الدين مع ذلك فى إعمال الحيـل والتدبير، وما زال بالمنصور إبراهيم صاحب حمص حتى مال إليـه، واتفق [أيضا] مع الحلبيين على محاربة الخوارزمية. فخرج الملك الصالح نجم الدين من القاهرة بعساكر مصر، ونزل العباسة؛ فوافاه بها رسل الخليفة، وهما الملك ....[1] ابن وجه السبع، وجمال الدين عبد الرحمن بن محيي الدين [أبي محمد يوسف][2] ابن الجوزى فى آخر شوّال، ومعهما التقليد والتشريف الأسـود: وهو عمامة سوداء، وجبة وطوق ذهب، وفرس بمركوب بحليـة ذهب. فنُصِب المنبر، وصعـد عليه [جمـال الدين عبد الرحمن بن] محيي الدين بن الجوزى الرسول، وقرأ التقليـد بالدهليز السلطانى، والسلطان قائم على قدميه، حتى فرغ من القراءة. ثم ركب السـلطان بالتشريف الخليفتى، فكان يوما مشهودا. وكان قد حضر أيضا من [عند] الخليفة تشريف باسم الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ، فوجد [أنه] قد مات؛ فأمر السلطان أن يفاض على أخيه الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، فلبسه.

فلما بلغ الخوارزمية مسير السلطان من مصر، ومسير [الملك] المنصور [إبراهيم] صاحب حمص[3] بعساكر حلب، رحلوا عن دمشق يريدون لقاء المنصور. فوجد (٨٤ أ) أهل دمشق برحيلهم فَرَجا، ووصلت إليهم الميرة، وانحل السعر.

* * *

سنة أربع وأربعين وستّمائة. فيها أرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب القاضى نجم الدين محمد بن سالم النابلسى، المعروف بابن قاضى نابلس — وكان متقدّما عنده — إلى مملوكه الأمير ركن الدين بيبرس. فمـا زال يخدعه ويُمَنِّيه، حتى فارق الخوارزمية؛ وقدم معه إلى ديار مصر، فاعتقل بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

(١) بياض فى س. (٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س. (انظر ص ٢٦٨، سطر ٥).

(٣) فى س "حماه"، وقـد غيرت إلى "حمص" بعـد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٣٥ ب، ٣٤٦ أ – ب، ٣٤٩ أ). هذا ولا عبرة بوجود ملك اسمه المنصور محمد بحماة تلك السنة، فإنه كان إبان تلك الحوادث لا يعدو إحدى عشرة سنة، وليس من المحتمل أن يقود مثله جيشا ضد الخوارزمية. انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٣، ١٢٤، فى Rec. Hist. Or. I)؛ راجع أيضا ما يلى، ص ٣٢٤، سطر ١٧.

وفيها عظمت مضرة الخوارزمية ببلاد الشام ، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء وانتهاكهم للحرمات . والتقوا مع [الملك] المنصور [إبراهيم صاحب حمص] وعساكر حلب، وقد انضم إليهم عرب كثير وتركمان، نصرة للملك الصالح نجم الدين، وذلك بظاهر حمص أول يوم من المحرم، وقيل ثامنه . فكانت بينهم وقعة عظيمة انهزم فيها الخوارزمية هزيمة قبيحة، تبدد منها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة . وقُتل مقدمهم بركه خان وهو سكران، وأُسر كثير منهم. واتصل من فرّ منهم بالتتار ؛ وفيهم من مضى إلى البلقاء، وخدم الملك الناصر داود صاحب الكرك ؛ فتزوج [الناصر] منهم، واختص بهم، وقويت شوكته . وسار بعضهم إلى نابلس، فاستولوا عليها ؛ ووصل بعض من كان معهم ممن انهزم إلى حران ؛ ولحق أيبك المعظمى بقلعة صرخد، وامتنع بها . وسار الصالح إسماعيل إلى حلب فى عدّة من الخوارزمية ، فأنزله الملك الناصر صاحب حلب وأكرمه، وقبض على من قدم معه من الخوارزمية . ووردت البشرى بهذه الهزيمة إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى المحرم، فزينت القاهرة ومصر والقلعتان.

وسار الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى من دمشق، واستولى على بعلبك بغير حرب فى رجب ؛ وحُمل منها الملك المنصور نور الدين محمود بن الصالح إسماعيل، وأخوه الملك السعيد عبد الملك، إلى الديار المصرية تحت الاحتياط، فاعتقلوا . وزينت القاهرة لفتح بعلبك زينة عظيمة، هى ومصر . وكان أخذ بعلبك عند السلطان أحسن موقعا من أخذه لدمشق، حنقا منه على عمه الصالح إسماعيل .

وانصلحت الحال بين السلطان وبين المنصور صاحب حمص والناصر صاحب حلب[2]، واتفقت الكلمة . وبعث السلطان إلى حلب يطلب تسليم الصالح إسماعيل ، فلم يُجَب إلى تسليمه[3] . وأخرج السلطان عسكرا كبيرا، قدّم عليه الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ،

---

(١) الضمير هنا عائد على المنصور ابراهيم وعساكر حلب .

(٢) فى س "الناصر داود صاحب الكرك"، وخطأ المقريزى واضح من السطور التالية ، ومن ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٤٦ ب) .

(٣) كان بهاء الدين زهير الكاتب الشاعر المشهور، هو الذى سار بتلك الرسالة إلى الناصر صاحب حلب . =

وسـيره لمحاربة الكرك . فسار (٨٤ ب) إلى غزة، وأوقع بالخوارزمية، ومعهـم الناصر داود صاحب الكرك فى ناحيـة الصلت ، وكسرهم وبدّد شملهم، وفرّ الناصر إلى الكرك فى عدّة .

وكانت الكسرة على الصلت فى سابع عشرى ربيع الآخر، وسار [فخر الدين] عنها بعـد ما حرقها، واحتاط على سائر بلاد الناصر، وولى عليها النوّاب . ونازل [فخر الدين] الكرك ، وخرب ماحولها، واستولى على البلقاء، وأضعف الناصرَ حتى سأله الأمان. فبعث [فخر الدين] يطلب منـه من عنـده من الخوارزمية ، فسـيرهم [الناصر] إليه ، فسار عن الكرك وهم فى خدمتـه . ثم نازل(١) [فخر الدين] بصرى ، حتى أشرف على أخذها؛ فنزل به مرض أشفى منه على الموت، وحمل فى محفة إلى القاهرة؛ وبقى العسكر حتى استولوا عليها .

وقدم المنصور [إبراهيم] صاحب حمص إلى دمشـق متميا إلى السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب]، فنزل به مرض مات به فى(٢) صفر. فحزن عليه السلطان حزنا كثيرا، لأنه كان يتوقع وصوله إليه . فقام من بعده بحمص ابنه الأشرف مظفر الدين موسى .

= وقد امتنع الناصر من تسليم الصالح إسماعيل ، لاستجارته به . وهذا نص ماجاء فى ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٣٤٦ب) عما حدث : "وأما الملك الصالح عماد الدين إسماعيل فانه بعد الكسرة سار الى حلب ، فأقام بها ملتجئا الى الملك الناصر بن الملك العزيز . وأرسل بعـد ذلك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك الناصر كاتبه بهاء الدين زهيرا ، يطلب منه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل . فلما ذكر بهاء الدين زهـير للملك الناصر صاحب حلب ذلك شق عليه ، وقال كيف يحسن أن يلتجيء الىّ خال أبى ، وهو كبير البيت ، وأسيره الى من يقتله . وليس من المروءة إذا استجار [إنسان] بانسان أن يخفر ذمته و يسلمه الى عدوه ، هـذا شيء لا يكون أبدا . فرجع بهاء الدين زهير الى السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بهذا الجواب ، فتألم لذلك وسكت عنه ، وكان فى غاية الحنق عليه" .

(١) فى س "فنازل" .

(٢) كان الملك المنصور إبراهيم مسلولا ، واشتد به ذلك المرض بدمشق ، فمات منـه . وقد ترجم له ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٤٩ ب) بالآتى : "كان الملك المنصـور صاحب حمص ملكا جليلا شجاعا ، مقداما ذا همة عالية . وكان له أمر عظيم فى عسكر السلطان جلال الدين خوارزمشاه ، فى سـنة سبع وعشرين وستمائة ، مع الملك الأشرف ، فان والده كان سيره نجدة له . وكسر الخوارزمية مرتين فى الشرق ، وأضعف ركنهم ؛ ثم كسرهم الكسرة العظمى بعيون القصب ، وقتـل ملكهم وفرق جمعهم . وكان على خلاف طريقة أبيه فى سياسة الرعية ، فان أباه كان عنده حيف كثير وعسف ، فخرب بذلك حمص و بلادها ، وتفرق أهلها فى البلاد . فلما ولى المنصور إبراهيم أحسن =

وفيها تسلم الملك الصالح نجم الدين عجلون، بوصية صاحبها سيف الدين بن قلج عند موته. وفيها سير الصاحب جمال الدين أبو الحسن [يحيى](١) بن عيسى [بن](٢) إبراهيم بن مطروح إلى دمشق وزيرا وأميرا، وأنعم عليه بسبعين فارسا بدمشق. وصرف الأمير حسام الدين بن أبي على الهذبانى عن نيابة دمشق، وولى مكانه الأمير مجاهد الدين إبراهيم، وأقر الطواشى شهاب الدين رشيد بالقلعة على حاله. فلما دخل ابن مطروح إلى دمشق خرج منها الأمير حسام الدين، وسار إلى القاهرة. فلما قدم على السلطان، وهو بقلعة الجبل، أقره فى نيابة السلطنة بديار مصر، وأنزله بدار الوزارة من القاهرة.

وخرج السلطان بالعساكر فى شوّال يريد دمشق من قلعة الجبل، واستناب بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبي على. فدخل إلى دمشق فى سابع عشر ذى القعدة، وكان دخوله يوما مشهودا. فأحسن إلى الناس، وخلع على الأعيان، وتصدق على أهل المدارس والرُّبُط وأرباب البيوت بأربعين ألف درهم. وسار بعد خمسة عشر يوما إلى بعلبك، فرتب أحوالها، وأعطى لأهل المدارس والربط وأرباب البيوت عشرين ألف درهم. وسار إلى بصرى، وقد تسلمها نوّاب السلطان من الأمير شهاب الدين غازى، نائب الملك الصالح إسماعيل، فتصدق على مدارس بصرى وربطها وأرباب البيوت بعشرين ألف درهم. وجهز [السلطانُ] الأميرَ ناصر الدين القيمرى، والصاحب جمال الدين بن مطروح، إلى صَلْخَد(٣) — وبها الأمير عز الدين أيبك المعظمى، فما زالا به حتى سلم صلخد، وسار (٨٥ ا) إلى مصر. وتصدق السلطان

= الى الرعية، ولطف بهم. وكانت عنده سماحة كف وحسن تأنى، فعمرت حمص فى أيامه، وتراجع اليها من أهلها من كان برح عنها؛ وبث فيهم العدل، وأطلق كثيرا ممن كان حبسه أبوه وأطال سجنه. وكان له أخ يقال له الملك المسعود، فخاف منه وحبسه بقلعة الرحبة، فلم يزل فى حبسه الى أن مات. وكان الملك المسعود رحمه الله ذا حزم ورأى، إلا [أنه] كان قليل السعادة".

(١)، (٢) ليس لما بين الأقواس وجود ظاهر فى س، وذلك لورود الاسم كله بطرف الهامش، عند ملتق صفحتى ٨٤ ب، ٨٥ أ، ولكنه وارد فى ب (١٠٢ أ).

(٣) كذا فى س بغير ضبط، وهى صرخد المتقدم ذكرها مرارا، وكتابتها باللام أقرب الى اسمها الأصلى (Salchah). انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 529).

فى القــدس بألفى دينار مصرية، وأمر بذَرْع سور القــدس، فكان ذرعه ستة آلاف ذراع بالهاشمى، فأمر بصرف مغل القدس فى عمارته، و إن احتاج إلى زيادة حملت[1] من مصر .

و[فيها] سار الأمير فخر الدين بن شيخ الشــيوخ بعسكر إلى طبرية، فنازلها حتى أخذها من يد الفرنج، وهدم ما استجده الفرنج من القلاع . وسار[أيضا] إلى عسقلان، فحاصرها حتى أخذها من الفرنج، وهدم الحصون .

وفيها مات الملك العادل أبو بكر بن الكامل محمد خنقا ، بقلعة الجبل . وقيل كان خنقه قبل هذه السنة، وقيل بل كان فى ســنة خمس وأربعين، [والقول[2] الثــانى] أثبت . وسبب قتله أنه كان معتقلا فى برج العافية من قلعة الجبل، فلما عزم السلطان على المسير إلى الشام ، بعث يأمره أن يتوجه إلى قلعة الشوبك ليعتقل بهــا، فامتنع من ذلك . فبعث[السلطان] إليــه من خنقه ، وأشاع أنه مات ، ثم ظهر أمره . وأُخرج ابنه المغيث عمر إلى الشوبك، فاعتقل بها . ولمــا مات العادل دفن خارج باب النصر،ولم يجسر أحد يبكى عليه ولا يذكره. وترك[العادل] ولدا يقال له الملك المغيث عمر، أُنزل إلى القاهرة عنــد عماته، ثم أخرج إلى الشوبك[3] . وكان عمر[العادل[4]] يوم مات نحو ثلاثين سنة، وأقام مسجونا نحو ثمانى سنين .

وفيها وقع الاختلاف بين الفرنج[5] .

(١) فى س "حمل" .

(٢) موضع ما بين القوسين بياض فى س، وقد أضيف ما بينهما بعد مراجعة(Enc. Isl. Art. Adil. II)، وما يذيل تلك المقالة من المراجع، وأيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب ــ ٣٥٢ أ) .

(٣) كان للمغيث عمر هذا شأن كبير فيما بعد . (انظر تحت سنة ٦٤٨) .

(٤) فى س "عمره"، وقد حذف الضمير وأثبت عائده بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب ــ ١٣٥٢ أ) . و يوجد فى نفس المرجع (ص ٣٥٢ أ) ترجمة قصيرة للملك العادل نصها : "كان جوادا كثير البذل، وأنفق الخزائن الذى (كذا) جمعها والده الملك الكامل فى المدة اليسيرة، وكان قد جمعها [الكامل] فى المدة الطويلة . وكانت أيامه زاهية زاهرة ، والأسعار فى غاية الرخص . إلا أنه لم يكن فيه صرامة وحسن سياســة يضبط بها الجند ، وقدم الأرذال وأخر الأكابر، ولم يكن له سعادة مع تقدير الله تعالى، فجرى عليه ما جرى" .

(٥) الراجح أن المقريزى يشير هنــا الى ما وقع إبانــ تلك السنة (١٢٤٦ م) من أدوار النزاع بين البابا (Innocent IV) والإمبراطور (Frederic II)، والذى انتهى بوفاة الإمبراطور سنة ١٢٥٠م . و يقوى هذا =

* * *

سـنة خمس وأربعين وستمائة . فيها عاد [السلطان] الملك الصالح من دمشق إلى ديار مصر، بعـد ما أخذ عسقلان وخربها فى جمادى الآخرة، و[بعد أن] تسلم أيضا قلعة بارزِين(١) من عمـل حماة ، فى رمضان . وفى عوده إلى مصر عرض له — وهو بالرمل — وجع فى حلقه، أشفى منـه على الموت ؛ ثم عوفى ودخل إلى قلعته سالمـا، وزينت البـلدان والقلعتان(٢) فرحا به . وكتب [السلطان] إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يسير من بلاد الفرنج بالساحل إلى دمشق، فسار إليها بمن معه من العسكر، وأنعم على من بهـا من الأمراء وغيرهم، وخلع عليهم . وأخذت عسـقلان عنوة ، يوم الخميس ثانى عشرى جمادى الآخرة ، بعساكر السلطان .

= الترجيح أنه لم يقع اختلاف ظاهر بين الفرنج ، بالشام أو فلسطين ، تلك السنة . انظر (Stevenson: Crusaders In The East. pp. 322-324) . هـذا وقد أفاض العيـنى (عقـد الجمان ، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) فى وصف ما حدث بين الإمبراطور والبابا ، وذكر حقائق ثابتة من تاريخ أوربا فى القرون الوسطى ، ومثل ذلك قليل نادر فى المراجع العربية . انظر (Camb. Med. Hist. VI. pp. I57-165) . وهذا نص ماجاء فى العينى : " ومنها ، وهى سنة أربع وأربعين وستمائة ، أنه وصلت الأخبار من البحر، صحبة مركب وصل من صقلية الى الإسكندرية ، أن البابا غضب على الأنبرور، وعامل خواصه الملازمين له على قتله وكانوا ثلاثة ، وقال [لهم] قد خرج الأنبرور عن دين النصرانية ، ومال الى المسـلمين ، فاقتلوه وخذوا بلاده لكم . وأقطع [البابا] كل واحد مملكة : فأعطى واحدا صقلية ، والآخر تصقانة (Tuscany)، والآخر بولية (Apulia) ، وهذه ممـالك الأنبرور . وكتب أصحاب الأخبار الى الأنبرور بذلك ، فعمد الى مملوك له فجعله فى مكانه على التخت ، وأظهر أنه قد شرب دواء . وأرسل الى الثلاثة ، فجاءوا والمملوك نائم على التخت ، فظنوه الأنبرور ؛ وقد اختفى الأنبرور فى مجلس ، ومعه ماية فارس . فلما دخلوا على المملوك مالوا عليه بالسكاكين فقتلوه ، فخرج عليهم الأنبرور فذبحهم فى يده ، وسلخهم وحشا جلودهم تبنا ، وعلقهـم على باب القصر . وبلغ البابا ، فبعث الى قتاله جيشا ، والخلف واقع بينهم . وهـذا الانبرور هو الذى أعطاه الملك الكامل القدس . قال السبط ، ذكر ألقابه الملك الكبير الأجل ، الخطير الأعز الأثير ، قيصر المعظم ، انبرطور المقتدر بقدرة الله ، المتعلى بعزته ، مالك الـمانية (Allemania) والانبردية (Lombardy) وصقلية ، وحافظ بيت (ص ٢٠٠) المقدس ، معز إمام رومية ، مالك ملوك النصرانية ، حامى الممالك الفرنجية ، قايد الجيوش الصليبية " .

(١) بغير ضبط فى س ، وكانت تلك البلدة وكفرطاب أيضا فى يد عز الدين بن المقدم ، سنة ٥٨٦ ﻫ (١١٩٠م). انظر أبا شامة (كتاب الروضتين ، ص ٤٦١ ، فى Rec. Hist. Or. IV.) .

(٢) فى س "البلدين والقلعتين" .

وفيها تسلم نواب السلطان قلعة الصُّبَيْبَة[1] . وحضر إلى حلب من حماة الطواشى شجاع الدين مرشد المنصورى ، والأمير مجاهد الدين أمير جاندار ، لإحضار سيدة الخواتين عصمة الدنيا والدين عائشة خاتون ، ابنة الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب . فسارت ومعها أمها الستر الرفيع فاطمة خاتون ، ابنة الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، فى رمضان — ، وهى فى تجمل زائد ، ومحفتها ملبسة ثوب حرير بذهب مكلل بالجواهر . فتلقاها زوجها الملك المنصور صاحب حماة .

وفيها حكر الناس البستان[2] الكافورى بالقاهرة ، وعمروا فيه الدور . وفيها قبض على الأمير عز الدين أيبك المعظمى بدمشق ، وحمل إلى القاهرة تحت الحوطة ، فاعتقل بها فى دار صواب . ورافعه ولده بأن ماله الذى حمله من صلخد ، كان مبلغ ثمانين خُرْجا[3] أودعها ، فلما بلغه ذلك سقط إلى الأرض ، وقال : "هذا آخر العهد بالدنيا" (٨٥ ب) ، ولم يتكلم بعدها حتى مات . وفيها سار السلطان من قلعة الجبل ، ونزل بقصره فى أشموم طناح[4] . وفيها خُنق الملك العادل أبو بكر بن محمد الكامل ، فى ثانى عشر شوّال[5] .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة بانياس .(Le Strange : Palest. Under Moslems, p. 419) انظر أيضا (.Blochet : Op. cit. p. 503. N. 3) .

(٢) كان هذا البستان مطلا على الخليج ، وقد أنشأه محمد بن طغج الإخشيد أمير مصر ، واعتنى به وجعل له أبوابا من حديد ، وكان ينزل به ويقيم فيه الأيام . واهتم بشأن هذا البستان من بعد الإخشيد ابناه ، أبو القاسم أونوجور وأبو الحسن على ، فى أيام إمارتهما على مصر بعد أبيهما . فلما استبدّ بعدهما أبو المسك كافور الإخشيدى بامارة مصر ، كان كثيرا ما يتنزه به ، ويواصل الركوب إلى الميدان الذى كان فيه ، وكانت خيوله بهذا الميدان . فلما قدم جوهر الصقلى بجيوش الفاطميين لأخذ مصر ، أناخ بجوار هذا البستان ، وجعله من جملة القاهرة ، فصار متنزها للخلفاء الفاطميين مدة أيامهم . وكانوا يتوصلون إليه من سراديب وأقباء مبنية تحت الأرض ، ينزلون إليها من القصر الكبير الشرقى ، ويسيرون فيها بالدواب . وما زال هذا البستان عامرا الى أن زالت الدولة ، فحكر وبنى فيه كما هو مذكور بالمتن هنا ، وعملت السراديب والأقباء أسربة ومجار تصب فى الخليج ، وبقيت كذلك إلى أيام المقريزى ، أى القرن التاسع الهجرى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٥٧) .

(٣) الخرج كيس من الجلد أو الشعر ، ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة ، وجمعه خرجة وأخراج وخراج . (محيط المحيط) .

(٤) ليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يفسر سبب خروج الملك الصالح نجم الدين الى أشموم طناح تلك السنة ، والراجح أنه خرج اليها للاستشفاء والترويح من مرضه السابق . (انظر ص ٣٢٨ ، سطر ٣) .

(٥) فى هذا الشهر من تلك السنة ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٢ أ — ب) ، "توفى بقلعة =

+ + +

سـنة ست وأربعين وستمائة . فيها كتب السلطان من أشموم طناح إلى نائبه بديار مصر الأمير حسام الدين بن أبى على ، أن يرحل بالحلقة السلطانيـة والدهليز السلطانى إلى دمشق؛ وأقام [السلطان] بدله فى نيابة السلطنة بالقـاهرة الأمير الجـواد جمال الدين،[1] وأبا الفتح موسى بن يغمور بن جلدك . فسار [الأمير حسام الدين]، ونزل بالقصور التى أنشأها[2] السلطان الملك الصالح [أيوب]، وجعلها مدينـة بالسانح فى أوّل الرمل ، [وجعل فيها سوقا جامعا، ليكون مركز العساكر عند خروجهم من الرمل]،[3] وسماها الصالحية . وأقام [حسام الدين بالصالحية] مقام السلطان، [وطال مقامه بها نحو أربعة أشهر. ثم سار] ليدرك الملك الأشرف صاحب حمص، فإن الأخبار وردت بمسير عساكر حلب مع الأمير شمس الدين لؤلؤ [الأمينى]، والملك الصالح إسماعيل ، لأخذ حمص . فلم يدركه [حسام الدين]، وسلّم الأشرفُ حمص، وصارت للناصر صاحب حلب، وتعوض [الأشرفُ] عن حمص تل باشر.[4]

فلما بلغ السلطان ذلك عاد من أشموم طناح إلى القـاهرة ، وخرج منها إلى عسكره

= الجبل أيضا بدر الدين سليمان بن داود بن العاضد ، الذى كان آخر الخلفاء المصريين . وكان [رئيس] بيت الشيعة الإسماعيلية ببغداد، وعادتهم يعتقدون الإمامة بعد موت العـاضد فى ابنه داود بن العاضد . و[كان هو] وإخوته محبوسين بقلعة الجبل ، وقد منعوا من النساء لينقطع نسلهم . فدس بعض الشيعة جارية الى داود بن العاضد، فوطئها فولدت له سليمان ، بعد أن أخرجها الشيعة من القلعة سرا ، وتركوا ولدها فى بعض النواحى . فظفر الملك الكامل به ، فاعتقله فى القلعة وبقى فيها معتقلا، والشيعة ودعاتهم يجتمعون به ، و يعتقدون الإمامة فيـه بعـد أبيه داود . ولما توفى فى هـذه السنة ، ما بقى لهم من يعتقدون إمامته ، (٣٥٢ ب) إلا أنه بلغنى أن فيهم من يعتقدون أن لسليمان هذا ولدا (فى الأصل بهذا ولد) مختفيا بالصعيد، والله أعلم" .

(١) كان الأمير جمال الدين بن يغمور، قبل تعيينه لنيابة السـلطنة بالقاهرة، متوليا لدار الصناعة بها ، فأصبح متوليا الوظيفتين . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٥٢ ب، ٣٥٥ أ) .

(٢) فى س "انشا" .

(٣) فى س " قام "، وقد عدل هذا الفعل ، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هـذه الفقرة، بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥١ ب، ٣٥٢ب ، ٣٥٣ ب) .

(٤) أطلق هذا الاسم على قلعة حصينة ،وكورة واسعة أيضا ، فى شمالى حلب، بينها و بين حلب يومان . (ياقوت : معجم البلدان، ج١ ، ص ٧٦٤) .

بالصالحية؛ وسار فى محفة لما به من المرض ، بسبب ورم مأبضه[١] . [وكان قد] اشتدّ [به] حتى حصل منه ناصور، وحدث معه قرحة فى الصدر؛ إلا أن همته كانت قوية ، فلم يُلْقِ نفسه[٢] . وسار [السلطان] إلى دمشق، ونزل بقلعتها .

وبعث [السلطان] بالأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، ومعه الأمراء والعساكر ، وفيهم الأمير ابن أبى على الهذبانى، إلى حمص . فنازلها ورمى عليها بمنجنيق زنة حجره مائة وأربعون رطلا، ومعه ثلاثة عشر منجنيقا أخر . وسخر الناس فى حمل هذه المجانيق من دمشق، حتى كان يحمل كل عود ثمنه نحو عشرين درهما بألف درهم، فإن الوقت كان شتاء صعبا . وألح [الأمير فخر الدين] فى الحصار ، إلى أن قدم من بغداد الشيخ نجم الدين البادرائى ، رسولا من الخليفة [المستعصم بالله]، بالصلح بين الحلبيين وبين السلطان. فتقرر الصلح، ورحل العسكر عن حمص ، بعد ما أشرف على أخذها[٣] .

---

(١) المأبض — أو الأبض ، باطن الركبة أو المرق ، وجمعهما مآبض وآباض . (محيط المحيط) .

(٢) ألم كل ذلك بالسلطان الملك الصالح أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٣ أ)، وهو مقيم بأشموم طناح . وهذا نص عبارة ابن واصل : "وكان الملك الصالح نجم الدين وهو باشموم طناج (كذا) قد عرض له ورم فى مخاصيه ، ثم فتح وحصل له منه تعسر بول . وبعد ذلك حصلت له قرحة ، تيقنت الأطباء أنه لاخلاص له منها ، لكنه لم يشعر بذلك . وكان من كبر نفسه يحمل ذلك ، وكان له همة عالية تحمله على النهضة والحركة ، ومرضه وضعفه يوجب (كذا) تراخيه على الإنجاد للملك الأشرف ..." .

(٣) أجاب السلطان الملك الصالح الى الصلح ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٤ ب)، "لأمرين : أحدهما ما كان به من المرض ، والثانى أنه بلغه حركة الفرنج وقصدهم الديار المصرية ، فى جموع عظيمة من داخل البحر" . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٥٦ أ)، و (Stevenson: Crusaders In The East. p. 325) . هذا وقد كانت أخبار الفرنج ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. II.I.) تتواتر إلى الملك الصالح ... من جهة الانبرور ... فانه كان مصافيا للملك الكامل أبيه ، وكذلك له ..." . ويشير ابن واصل هنا الى فزع بعض ملوك أوربا ، وأولهم (Louis IX) ملك فرنسا ، من هزيمة الصليبيين عند غزة (انظر ص ٣١٧ ، سطر ٤) ، وتسليمهم بيت المقدس (انظر ص ٣١٨ ، سطر ٣) . وقد قام ملك فرنسا على رأس حملة معظم جنودها من الفرنسيين ، وهى المعروفة فى تاريخ الحروب الصليبية بالسابعة . ووصلت تلك الحملة جزيرة قبرص فى سبتمبر سنة ١٢٤٨ م (رجب سنة ٦٤٦ هـ) ، وقصدت مصر بعد انقضاء شتاء تلك السنة ، وأخبارها واردة هنا فيما يلى . راجع أيضا (Stevenson: Op. cit. pp. 324-326) .

وقدم من حلب الشيخ شمس الدين الخُسْرُوشاهى(١)، فسأل السلطانَ على لسان الملك الناصر داود صاحب الكرك، أن يسلم الكرك إلى السلطان، ويعتاض عنها بالشوبك . فأجيب [الناصر دواود] إلى ذلك، وتوجه من يتسلم منه الكرك . ثم رجع(٢) [الناصر] عن ذلك، لما بلغه من شدّة مرض السلطان، وتحرك الفرنج لأخذ ديار مصر . فخرج السلطان من دمشق فى محفة، وسار إلى الغور؛ وقدم الأمير حسام الدين بن أبى على(٣) إلى القاهرة، لينوب عنه بها؛ واستُدعى بالأمير جمال الدين بن (٨٦ أ) يغمور من القاهرة، لينوب بدمشق؛ وعُزِل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق، وعزل الطواشى شهاب الدين رشيد عن قلعة دمشق، وفوّض ما كان بيدهما للأمير جمال الدين بن يغمور .

وفيها احترق المشهد الحسينى بالقاهرة، واحترقت المنارة الشرقية بجامع دمشق . [وفيها] مات قاضى القضاة أفضل الدين الخونجى، فى شهر رمضان؛ فولى من بعده ابنه قاضى القضاة جمال الدين يحيى .

وفيها مات الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل أبى بكر بن أيوب، صاحب الرها؛ وقام من بعده ابنه الكامل محمد فى سلطنة الرها وميافارقين .

وفيها عزل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن الأمير فخر الدين ابن الشلاح عن مكة وأعمالها؛ وولى عوضه محمد بن أحمد بن المسيب(٤)، على مال يقوم به، وقَوْد [عدده] مائة فرس، كل سنة . فقدم [ابن المسيب] مكة، وخرج الأمير فخر الدين.

(١) بغير ضبط فى س، والنسبة الى خسروشاه، وهى قرية بينها وبين مرو فرسخان . وخسروشاه أيضا بليدة فى فارس، بينها وبين تبريز ستة فراسخ . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٤٣) .

(٢) فى س "فرجع" .

(٣) فى س "بو على"، وقد جمع الأمير حسام الدين بين وظيفتى نيابة السلطنة وتولية دار الصناعة، كما اتفق قبلا لابن يغمور . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥٥ أ) .

(٤) كذا فى س بغير ضبط، واسمه فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ٧٧) ابن المسيب . ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة فى لفظها وترتيبها لما يقابلها فى الخزرجى، ويظهر أن المقريزى اعتمد هنا على ذلك المرجع . هذا وقد أضيف ما بين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من نفس المرجع والصفحة .

فساءت سيرة ابن المسيب، وأعاد الجبايات والمكوس بمكة، وأخذ الصدقة الواردة من اليمن، وأخذ ما كان بمكة من مال السلطان، وبنى حصنا بنخلة [يسمى العطشان] ، وحلَّف هذيلا[1] لنفسه، ومنع الجند النفقة . فوثب عليه الشريف أبو سـعد بن على بن قتادة، وقيَّده وأخذ ماله، وقال لأهـل الحرم : " إنمـا فعلت به هذا لأنى تحققت أنه يريد الفرار بالمـال إلى العراق . وأنا غلام مولانا السلطان، والمـال عندى محفوظ والخيل والعـدد، إلى أن يصل مرسومه " . فلم يكن غير أيام، وورد الخبر بموت السلطان نور الدين عمر بن رسول .

\+ + +

سـنة سبع وأربعين وستمـائة . فيهـا قدم السلطان من دمشق، وهو مريض فى محفة، لمـا بلغه من حركة الفرنج . فنزل بأشمـوم طناح فى المحرم ، وجمـع فى دمياط من الأقوات والأسلحة شيئا كثيرا، وبعث إلى الأمير حسام الدين بن أبى على نائبه بالقاهرة، أن يجهز الشوانى من صناعة مصر؛ فشرع فى تجهيزها، وسيرها شيئا بعد شىء . وأمر [السلطان] الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن ينزل على جيزة[2] دمياط بالعساكر، ليصير فى مقابلة الفرنج إذا قدموا . فتحول [الأمير فخر الدين] بالعساكر، فنزل بالجيزة تجاه دمياط، وصار النيل بينه وبينها . ولم يقدر السلطان على الحركة لمرضه ، ونودى فى مصر : " من كان له على السلطان أو عنده [له] شىء، فليحضر ليأخذ حقه " ؛ فطلع الناس وأخذوا ما كان لهم .

وفى الساعة الثانية من يوم الجمعة لتسع بقين من صفر، وصلت مراكب الفرنج البحرية، وفيهـا جموعهم العظيمة صحبة ريدَافْرنس — ويقال له الفرنسيس، واسمه لُوِيْس بن لُوِيْس، وريدَافْرنس لقب بلغة الفرنج، معناه ملك اَفْرنس[3] — وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله، فأرسوا

(١) كانت هـذيل هذه قبيلة صغيرة ، مساكنها شرق مكة . (الخزرجى : العقود اللؤلؤية، ج ٣ من الترجمة الإنجليزية ، ص ٦٤، حاشية رقم ٣٧٤) .

(٢) يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٠٦ أ) إن الأمير فخر الدين نزل على "بحيرة دمياط"، وفى العينى (عقد الجمان، ص ٢٠١، فى .Rec. Hist. Or. II. 1) "جزيرة دمياط" .

(٣) ضـبط المقريزى بعض ألفاظ هذه العبارة على النحو المثبوت هنا ، وقد رؤى عدم إضافة علامات ضـبط أخرى، لبيان مدى حاجة عصر المقريزى لضبط الألفاظ الأجنبية، ولوضوح العبارة نفسها . وفى ابن واصل (نفس =

فى البحر بإزاء المسلمين . وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابا، نصه بعد كلمة كفرهم : " أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية ، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية . وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون[1] إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية . فلو حلفت لى بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان ، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان ، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك، وقتالك (٨٦ ب) فى أعز البقاع عليك . فإن كانت البلاد لى، فيا هدية حصلت فى يدى؛ وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلىّ . وقد عرفتك وحذرتك، من عساكر قد حضرت فى طاعتى، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا . "

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرئ عليه ، اغرورقت عيناه بالدموع واسترجع[2] . فكتب الجواب بخط القاضى بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين : " أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك . فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمّرناه . فلو رأت عيناك — أيها المغرور ! — حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والأوائل،

= المرجع ، ص ٣٥٥ ب) عدا الأسماء والألقاب الواردة هنا، حقائق عن الملك الفرنسى (Louis IX)، تشهد بسعة دراية المؤرخين المسلمين بأحوال الدول المجاورة، ونصها : "وكان هذا اريد افرنس من أعظم ملوك الفرنجية ، وأشدّهم بأسا . وافرنس هى أمة من الفرنج، ومعنى ريد افرنس ملك افرنس، فان ريد فى لغتهم معناها الملك . وكان متدينا بدين النصرانية مرتبطا به ، فحدثته نفسه بأن يستعيد البيت المقدس الى الفرنج ، إذ هو بيت معبودهم على مايزعمون ، وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية . وذكر أن جمعه كان ما بين فارس وراجل خمسين ألفا وأكثر ، وكان خروجه وحركته فى السنة الماضية ، وقصد أوّلا جزيرة قبرص" .

(١) فى س : " يحملوا " .

(٢) معنى استرجع هنا أنه قال، " إنا لله وإنا إليه راجعون " . (محيط المحيط) .

لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزِلّ بك القـدم، فى يوم أوله لنـا وآخره عليـك . فهنالك تسىء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون . فإذا قرأت كتابى هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ؛ وكن على آخر سورة ص : " وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ . ونعود الى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : كَمْ مِنْ فِئَـةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَـةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ؛ و[إلى] قول الحكماء : إن الباغى له مصرع؛ و بغيك يصرعك، و إلى البلاء يقلبك، والسلام " .

وفى يوم السبت نزل الفرنج فى البر الذى عساكر المسلمين فيـه ، وضُربت للملك رَيْدا(١) فرنس خيمة حمراء . فناوشهم المسلمون الحرب، واستشهد يومئذ الأمير نجم الدين ...(٢) بن شيخ الإسلام — وكان رجلا صالحا، ورتبه الملك الناصر داود مع الملك الصالح نجم الدين، لمـا سجن بالكرك، لمؤانسـته . وممن استشهد أيضا الأمير صارم الدين إزبك الوزيرى . فلمـا أمسى الليل رحل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بمن معـه من عساكر المسلمين ، وقطع بهـم الجسر إلى الجانب الشرقى ، الذى فيـه مدينة دمياط . وخلا البر الغربى للفرنج، وسار [فخر الدين] بالعسكر يريد أشموم طناح .

فلما رأى أهل دمياط رحيل العسكر، خرجوا كأنمـا يسحبون على وجوههم طول الليل، ولم يبق بالمدينة أحد ألبتة، وصارت [دمياط] فارغة من الناس جملة . وفروا (٨٧ ا) الى أشموم مع العسكر، وهم حفاة عراة جياع فقراء ، حيارى بمن معهم من الأطفال والنساء . وساروا إلى القاهرة، فنهبهم الناس فى الطريق، ولم يبق لهم ما يعيشون به . فعُدَّت هـذه الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به . وقد كانت دمياط فى أيام الملك الكامل ، لمـا نازلها الفرنج، أقل ذخائر وعددا منها فى هذه النوبة ؛ ومع ذلك لم يقدر الفرنج على أخذها إلا بعد سنة، عندما فنى أهلها بالوباء والجوع، وكان فيها هذه المرة أيضا جماعة من شجعان بنى كنانة، فلم يغن ذلك شيئا .

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) بياض فى س .

وأصبح الفرنج يوم الأحد، لسبع بقين من صـفر، سائرين إلى مدينة دمياط . فعندما رأوا أبوابها مفتحة ولا أحدَ يحميها، خشوا أن تكون مكيـدة، فتمهلوا حتى ظهر أن الناس قد فروا وتركوها . فدخلوا المدينة بغير كلفة ولا مؤنة حصار، واستولوا على مافيها من الآلات الحربية، والأسلحة العظيمة والعدد الكثيرة، والأقوات والأزواد والذخائر، والأموال والأمتعة وغير ذلك، صفوًا عفوًا .

وبلغ ذلك أهـل القاهرة ومصر، فانزعج النـاس انزعاجا عظيما، ويئسوا من بقاء كلمة الإسلام بديار مصر، لتملك الفرنج مدينة دمياط، وهزيمة العساكر، وقوة الفرنج بمـا صار إليهم من الأموال والأزواد والأسلحة، والحصن الجليل الذى لا يُقدر على أخذه بقوة، — مع شدّة مرض السلطان، وعدم حركته .

وعند ما وصلت العساكر إلى أشموم [طناح]، ومعهم أهل دمياط، اشتدّ حنق السلطان على الكنانيين، وأمر بشنقهم، فقالوا : "وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، وأحرقوا الزردخاناه، فأى شيء نعمل نحن؟" فشنقوا لكونهم[(1)] خرجوا من المدينـة بغير إذن، حتى تسلمها الفرنج، فكانت عدّة من شنق زيادة على خمسين أميرا من الكنانيـة . [وكان] فيهم أمير حَشِيم، وله ابن جميل الصورة، فقال أبوه : "بالله اشنقونى قبل ابنى" . فقال السلطان : "لا ! بل اشنقوه قبل أبيه" . فشنق الابن، ثم شنق الأب من بعده، بعد أن استفتى السلطان الفقهاء فأفتوا بقتلهم .

وتغير السلطان على الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وقال : "أما قدرتم تقفون[(2)] ساعة بين يدى الفرنج؟ هذا وما قتل منكم إلا هذا الضيف الشيخ نجم الدين". وكان الوقت لا يسع إلا الصبر والتغاضى، (٨٧ ب) وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين، فخاف كثير من الأمراء وغيرهم سطوة السلطان، وهموا بقتله . فأشار عليهم فخر الدين بالصبر، حتى يتبين أمر السلطان : "فإنه على خُطّة[(1)]، وإن مات كانت الراحة منه، وإلا فهو بين أيديكم" .

(١) فى س "كونهم" . (٢) فى س "تقفوا" .

(١) معنى "على خطة" أنه قد برح به المرض، وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل لهذا المعنى، وهو "أمك على خطة"، وترجمته الى الفرنسية "ta mère est dangereusement malade" .

ولمـا وقع ما ذُكر أَمَر السلطان بالرحيل إلى المنصورة، وحمل فى حراقة حتى أنزل بقصر المنصورة على بحر النيـل ، فى يوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر . فشرع كل أحد من العسكر فى تجديد الأبنيـة للسكنى بالمنصورة، ونصبت بها الأسواق، وأصلح السور الذى على البحر وستر بالستائر . وقدمت الشوانى المصرية بالعـدد الكاملة والرجالة ، وجاءت الغزاة والرجال من عوام النـاس الذين يريدون الجهاد ، من كل النـواحى ؛ ووصلت عربان كثيرة جدا ، وأخذوا فى الغارة على الفرنج ومناوشتهم. وحصن الفرنج أسوار دمياط، وشحنوها بالمقاتلة .

فلما كان يوم الاثنين سلخ شهر ربيع الأوّل، وصل إلى القاهرة من أسرى الفرنج الذين تخطفهم العرب سـتة وثلاثون أسـيرا، منهم فارسان . وفى خامس شهر ربيع الآخر وصـل سبعة وثلاثون أسـيرا ؛ وفى سابعه وصل اثنان وعشرون أسـيرا ؛ وفى سادس عشره وصل خمسة وأربعون أسيرا، منهم ثلاثة من الخيالة .

ولمـا بلغ أهل دمشق أخذ الفرنج لمدينة دمياط ساروا منها، وأخذوا صيداء من الفرنج، بعد حصار وقتال . فورد الخبر بذلك لخمس بقين من شهر ربيع الآخر، فسر الناس بذلك .

هذا والأسرى من الفرنج تصـل فى كل قليل إلى القاهرة ، ووصل فى ثامن عشر جمادى الأولى خمسون أسيرا . ومع ذلك والمرض يتزايد بالسلطان، وقواه تنحط، حتى وقع يأس الأطباء من برئه وعافيته، لاجتماع مرضين عظيمين، هما الجراحة الناصورية فى مأبضه والسـل .

وأما الناصر داود صاحب الكرك، فإنه لمـا ضاقت به الأمور استخلف[1] ابنه الملك المعظم [شرف الدين][2] عيسى، وأخذ معه جواهره، وسار فى البر إلى حلب، مستجيرا بالملك الناصر يوسف بن الملك العزيز؛ فأنزله وأكرمه . وسيَّر الناصرُ بجواهره إلى الخليفة المستعصم بالله، لتكون عنده وديعة؛ فقبض [الخليفة] ذلك، وسـير إليه الخط بقبضه . وأراد الناصر بذلك

(١) فى س "استحلف" .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥٧ ب) .

أن يكون الجوهر فى مأمن ، فإذا احتاج إليه طلبه ؛ وكانت (٨٨ ا) قيمته ما ينيف على مائة ألف دينار[(١)] . لخنق ولدا الناصر — [وهما الملك الظاهر شادى[(٢)]، والملك الأمجد حسن] — ، على أبيهما ، لكونه قدم عليهما المعظم ، وقبضا على المعظم ، واستوليا على الكرك . وأقام الملك الظاهر شادى — وهو أسنّ إخوته — بالكرك . وسار الملك الأمجد حسن إلى الملك الصالح نجم الدين ، فوصل إلى المعسكر بالمنصورة ، يوم السبت لتسع مضين من جمادى الآخرة ، و بشّره بأنه هو وأخوه الظاهر أخذا الكرك له ، وسأله فى خبز بديار مصر يقوم بهما . فأكرمه السلطان ، وأعطاه مالا كثيرا ؛ وسير الطواشى بدر الدين الصوابى إلى الكرك نائبا بها و بالشوبك . فتسلمها [بدر الدين] ، وسير أولاد الناصر داود جميعهم ، وأخويه الملك [الملك] القاهر [عبد الملك] ، والملك المغيث [عبد العزيز][(٣)] ، ونساءهم وعيالاتهم كلها ، إلى المعسكر [بالمنصورة] . فأقطعهم السلطان إقطاعا جليلا ، ورتب لهم الرواتب ، وأنزل أولاد الناصر فى الجانب الغربى قبالة المنصورة . وكان استيلاء نائب السلطان على الكرك يوم الاثنين ، لاثنتى عشرة بقيت من جمادى الآخرة ؛ وسر السلطان بأخذ الكرك سرورا عظيما ، وأمر فزينت القاهرة ومصر ، وضربت البشائر بالقلعتين . وجهز [السلطان] إلى الكرك ألف ألف دينار مصرية ، وجواهر وذخائر وأسلحة ، وشيئا كثيرا مما يعز عليه .

وفى ثالث عشر شهر رجب وصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيرا من الفرنج ، وأحد

---

(١) لم تقع عين الناصر على تلك الجواهر بعد إيداعها عند الخليفة ، ذلك أن التتر استولوا عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، عند ما أخذوا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم بالله . (ابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٥٧ ا) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ أ) . وفى نفس المرجع والصفحة أن الملك الناصر داود فضل ولده المعظم شرف الدين عيسى على سائر إخوته ، وأقامه مقام نفسه بالكرك ، لأن والدته أم ولد تركية ، كان يميل اليها الملك الناصر داود ميلا كثيرا ، ويحب ابنها أكثر من محبته لإخوته الباقين . وكان للناصر ولدان من ابنة عمه الملك الأمجد ابن الملك العادل ، وهما الملك الظاهر شادى ، والملك الأمجد حسن . وكان الملك الظاهر أكبر أولاده ، وقد ولد بقلعة دمشق ، قبل أن تؤخذ دمشق منه . وكان الملك الأمجد نبيها فاضلا ، مشاركا فى علوم شتى . هذا وقد كان للناصر أولاد عدا هؤلاء ، من أمهات أخرى .

(٣) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٨ ب) .

عشر فارسا منهم؛ وظفر المسلمون بعد أيام بمُسَطَّح[(١)] للفرنج فى البحر، فيه مقاتلة، بالقرب من نَسْـــتَرَاوة[(٢)] .

فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة، [وهو] فى مقابلة الفرنج، عن أربع وأربعين ســنة، بعد ما عهــد لولده [الملك المعظم] تورانشاه، وحلّف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به؛ وبعــد ما علّم قبل موته عشرةَ آلاف علامة، يستعان بها فى المكاتبات على كتمان موته، حتى يقدم ابنه تورانشاه من حصن كيفا. وكانت أم [الســلطان الملك الصالح][(٣)] أم ولد، اسمها ورد المنى؛ وكانت مدة ملكه بمصر عشر سنين إلا خمسين يوما[(٤)] . فغســله أحد الحكماء الذين تولوا علاجه، لكى يخفى موته. وحمل فى تابوت إلى قلعة الروضة، وأخفى موته، فلم يشتهر إلى ثانى عشرى رمضان؛ ثم نقل بعــد ذلك بمدة إلى تربته بجوار المدارس الصالحية بالقاهرة.

والملك الصالح هو الذى أنشأ المماليك البحرية بديار مصر: وذلك أنه لمّــا مَرّ به ماتقدّم ذكره، فى الليلة التى زال عنه ملكه، بتفرق الأكراد وغيرهم من العسكر عنه، حتى لم يثبت معــه سوى مماليكه، رعى لهم ذلك. فلمــا استولى على مملكة مصر أكثر من شراء المماليك،

(١) نوع من السفن، جمعــه مسطحات، والغالب أنه سمى بذلك لأنه كان له سطح. وقد وصــفه Dozy (Supp. Dict.Ar.) بالآتى: "sorte de navire, peut-être un navire qui a un pont, un tillac."

(٢) بغير ضبط فى س، وتسمى أيضا نسترو، وكانت تطلق فى تلك العصور على بلدة البرلس الحالية، وعلى بحيرة البرلس أيضا. وكانت بلدة نستراوة إذ ذاك، حسبما جاء فى ياقوت (معجم البــلدان، ج ٤، ص ٧٨٠؛ انظر أيضا ج ١، ص ٥٩٣)، جزيرة يصاد فيها السمك، وعلى أهلها ضمان خمسين ألف دينار. ولم يكن عنــدهم ماء عذب، وإنما يأتيهم فى المراكب، فاذا لاحت لهم مراكب المــاء ضربوا بوق البشارة سرورا، ثم يأتى كل رجل بجرته يأخذ فيها المــاء، ويحملها إلى بيته. راجع أيضا (Enc. Isl. Art. Burullus).

(٣) فى س "امه".

(٤) كانت وفاة الســلطان الملك الصالح أيوب، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٥٩ أ) "ليلة الأحد لأربع عشر ليلة مضت من شــعبان ... ... فكانت مدة ملكه للديار المصرية تسع سنين وثمــانية أشهر وعشرين يوما. وكان عمره نحو أربعين سنة، لأن مولده سنة ثمــان (ثمــانية فى الأصل) وستمائة".

وجعلهم معظم عسكره ؛ وقبض على الأمراء [الذين(١) كانوا عند أبيه وأخيه ، واعتقلهم وقطع أخبازهم] ؛ وأعطى [مماليكه](٢) الإمريات ، فصاروا بطانته والمحيطين بدهليزه (٨٨ ب) ، وسماهم بالبحرية لسكناهم معه فى قلعة الروضة على بحر النيل .

وكان ملكا شجاعا حازما مهيبا(١) ، لشدة سطوته وفخامة ناموسه ، مع عزة النفس وعلو الهمة ، وكثرة الحياء والعفة وطهارة الذيل عن الخنا ، وصيانة اللسان من الفحش فى القول ، والإعراض عن الهزل والعبث بالكلية ، وشدة الوقار ولزوم الصمت ، حتى إنه كان إذا خرج من عند حرمه إلى مماليكه ، أخذتهم الرعدة عند مايشاهدونه — خوفا منه — ، ولا يبقى أحد منهم مع أحد . و[كان] إذا جلس مع ندمائه كان صامتا ، لا يستفزه الطرب ولا يتحرك ، وجلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا تكلم مع أحد من خواصه ، كان ما يقوله كلمات نزرة وهو فى غاية الوقار ، وتلك الكلمات لا تكون إلا فى مهم عظيم ، من استشارة أو تقدم بأمر من الأمور المهمة ؛ لا يعدو حديثه قط هذا النحو ، ولا يجسر أحد يتكلم بين يديه إلا جوابا . وما عُرف أبدا عن أحد من خواصه أن تكلم فى مجلسه ابتداء البتة ، ولا أنه جسر على شفاعة ولا مشورة ولا ذكر نصيحة ، ما لم يكن ذلك بابتداء من السلطان ؛ فإذا انفرد بنفسه لا يدنو منه أحد . وكانت القصص ترد اليه مع الخدام فيوقع عليها ، ويخرج بها الخدام إلى كاتب الإنشاء ؛ ولا يستقل أحد من أرباب الدولة بانفراد بأمر ، بل يراجع بالقصص مع الخدام . ومع هذه الشهامة والمهابة لا يرفع بصره إلى من يحادثه ، حياء منه وخفرا ؛ ولم يُسمع منه قط فى حق أحد من خدمه لفظة فحش ، وأكثر ما يقول إذا شتم أحدا : "متخلف" ، لا يزيد على هذه الكلمة ؛ ولا عَرف قط من النكاح سوى زوجته وجواريه .

وكانت البلاد فى أيامه آمنة مطمئنة والطرق سابلة ، إلا أنه كان عظيم الكبر زائد الترفع ، بلغ من كبره وترفعه أن ابنه الملك المغيث عمر ، لما حبسه الملك الصالح إسماعيل عنده ،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٥٩ أ) .

(٢) فى س "اعطاهم" .

(١) من س "مهابا" .

لم يسأله فيه ولا طلبه منه، حتى مات فى حبسه . وكان يحب جمع المـال، بحيث أنه عاقب عليه أم أخيه الملك العادل ، إلى أن أخذ منها مالا عظيما وجواهر نفيسة .

وقتَل [السلطان الملك الصـالح أيوب] أخاه الملك العادل، ومن حين قتـله ما انتفع بالحياة ولا تهنّى بها : فنزل به المرض، وطرقه الفرنج، وقبض على جميع أمراء الدولة، وأخذ أموالهم وذخائرهم . ومات فى حبوســه ما ينيف على خمسة آلاف نفس ، ســوى من قتل وغرق من الأشرفيــة فى البحر . ولم يكن له مع (١٨٩) ذلك ميل إلى العـلم ولا مطالعــة الكتب، إلا أنه كان يجرى على أهل العلم والصلاح المعاليم والجرايات، من غير أن يخالطهم. ولم[(١)] يخالط غيرهــم، لمحبته فى العزلة ورغبته فى الانفـراد ، وملازمتــه للصمت ومداومته على الوقار والسكون .

وكان يحب العمارة ويباشر الأبنية بنفسه، وعمر بمصر مالم يعمره أحد من ملوك بنى أيوب : فأنشأ قلعة الروضة تجاه مدينــة فسطاط مصر، وأنفق فيها أموالا جمــة، وهدم كنيسة كانت هناك لليعاقبة من النصارى . وأسكن بهذه القلعة ألف مملوك من الترك — وقيل ثمانمائة — سماهم البحرية . وكان المـاء حينئذ لا يحيط بهـا ، فلم يزل يُغَرِّقُ السفن ، ويرمى الحجارة فيما بين الجيزة والروضة ، إلى أن صار المـاء فى طول الســنة محيطا بالروضة . وأقام جسرا من مصر الى الروضة ، يمرّ عليه الأمراء وغيرهم إذا جاءوا الى الخدمة؛ ولم يكن أحد يمرّ على هذا الجسر راكبا، احتراما للسلطان . فجاءت هــذه القلعة من أجلّ مبـانى الملوك . وبنى أيضا على النيــل بناحية اللوق[(٢)] قصورا بلغت الغـاية فى الحسن ، جعلها الى جانب ميــدانه الذى يلعب فيــه بالكرة، وكان مغرى بلعبها . وبنى قصرا عظيما فيما بين القاهرة ومصر، سمــاه

---

(١) فى س "ولا" .

(٢) أطلق اسم ناحية اللوق فى الأصل — ومعنى اللوق الأرض اللينة — على الجهة التى انحسر عنها ماء النيل، من ساحل المقس الى منشأة المهـرانى بالقاهرة . وعرفت تلك الناحية باسم باب اللوق، وهو باب الميدان الصالحى المذكور هنا؛ وقد بقى ذلك الباب الى مابعد سنة ٧٤٠ هـ . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١١٧ — ١١٨، ١٩٨) .

الكبش ، على الجبل بجوار جامع ابن طولون . وبنى قصرا بالقرب من العَلَاقِمة[1] فى أرض السانح ، وجعل حوله مدينة سماها الصالحية ، فيها جامع وسوق ، لتكون مركزا للعساكر بأول الرمل الذى بين الشام ومصر .

وكان له من الأولاد الملك المغيث [فتح الدين[2]] عمر ، وهو أكبر أولاده ، مات فى سجن قلعة دمشق ؛ والملك المعظم [غياث الدين] تورانشاه ، وملك مصر بعده ؛ والملك القاهر ، ومات فى حياته أيضا . وولد له أيضا من شجر الدر ولد سماه خليلا[3] ، مات صغيرا .

ولما طال مرضه من الجراحة الناصورية — وفسد مخرجه ، وامتد الجرح الى فخذه اليمين ، وأكل جسمه — اجتهد فى مداواتها ، وحدث له مرض السل من غير أن يفطن به . فورد كتابه الى الأمير حسام الدين بن أبى على بالقاهرة : "إنّ[4] الجراحة قد صلحت وجفت رطوباتها ، [ولم يبق إلا ركوبى ولعبى بالصولجة] ، فتأخذ حَظَّك من هذه البشرى " . وفى الحقيقة لم تجف الجراحة إلا لفراغ المواد ، وتزايد عليه بعد ذلك المرض حتى مات .

وقيل إنه لم يعهد الى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين بن أبى على : "إذا مت لا تسلم (٨٩ ب) البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه" ؛ فإنه كان يعرف ما فى ولده [المعظم توران شاه[5]] من الهوج . فلما مات السلطان أحضرت زوجته شجَرُ الدر الأميرَ فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، والطواشى جمال الدين محسن — وكان أقرب الناس الى السلطان ،

(١) بغير ضبط فى س ، أو فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٠) . وهى "بليدة ... ... دون بلبيس ، فيها أسواق وبازار (كذا) يقوم للعرب" . وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٥٣ — ٥٤) ، أن هذه البلدة كانت فى زمنه إحدى مراكز مديرية الشرقية .

(٢) أضيف مابين الأقواس ، بسائر هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) .

(٣) فى س " خليل " .

(٤) فى س " ان الحراحه قد صلحت وحفت رطو باتها فاحد حطك من هذه البشرى " ، وقد أصلحت العبارة ، وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦١ أ - ب) .

(٥) كان الملك المعظم ، نقلا عن ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٠ ب) "عنده هوج واضطراب ، وكان أبوه الملك الصالح نجم الدين أيوب يكرهه لذلك " .

و إليه القيام بأمر ممـاليكه وحاشيته — وأعلمتهما بموت السلطان ، ووصتهما بكتمان موته ، خوفا من الفرنج . وكان الأمير فخر الدين عاقلا مدبرا ، خليقا بالملك ، جوادا محبوبا الى الناس . فاتفقا مع شجر الدر على القيام بتدبير المملكة ، الى أن يقدم الملك المعظم تورانشاه . فأحضرت [شجر الدر] الأمراء الذين بالمعسكر ، وقالت لهم : "إن السلطان قـد رسم بأن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم غياث الدين تورانشاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانا بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة" . فقالوا كلهم سمعا وطاعة ، ظنا منهم أن السلطان حى ، وحلَفوا بأسرهم ، وحلَّفوا سائر الأجناد والممـاليك السلطانية .

وكُتب على لســان السلطان الى الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى بالقاهرة ، أن يحلِّف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة . فحضر الى دار الوزارة[1] قاضى القضـاة بدر الدين يوسف بن الحسن قاضى سنجار ، والقاضى بهاء الدين زهير بن محمد كاتب الإنشاء — وكان الملك الصالح قد أبعده لأمر نقمه عليه — ، وحلَّفا من حضر من الأعيان على ما تقدّم ذكره ؛ وكان ذلك فى يوم الخميس ثامن عشر شعبان . واستدعى القاضى بهاء الدين زهير من القاهرة الى المعسكر بالمنصورة .

وقام الأمير فخر الدين بتـدبير المملكة ، وأقطع البلاد بمناشيره ، وأعاد البهـاء زهيرا[2] الى

(١) تقدّم ذكر موضع هـذه الدار فى ص ٢٩٧ (حاشية ٦) ، وفى ص ٣٢٦ أيضا (سـطر ٧) ، والراجح أن المقريزى قصـد دار الوزارة الكبرى بالقاهرة الفاطمية ، وليس دار الوزارة التى كانت بالقلعة فى عهـد الأيوبيين والممـاليك . (انظر الحاشية رقم ٦ ، المشار اليها) . وكانت دار الوزارة الكبرى من منشآت العهد الفاطمى ، بنـاها الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمـالى ، بجوار القصر الكبير الشرقى ، لتكون مسكنا لمن يلى إمرة الجيوش . واستمرت تلك الدار الكبرى كذلك سكنا زمن الفاطميين ، ثم سكنها سلاطين الأيوبيين أنفسهم ، من عهد السلطان صلاح الدين إلى زمن السلطان الملك الكامل ، وصارت تسمى بالدار السلطانية . وأول من انتقل عنها من الملوك الأيوبيين السلطان الملك الكامل نفسه ، فإنه سكن قلعـة الجبل ، وجعل هذه الدار منزلا لمن يرد الى مصر من الملوك والرسـل ، وبقيت لذلك الغرض زمنا طويلا . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٣٨ — ٤٣٩) .

(٢) فى س "زهير" .

منصبه . فكانت الكتب ترد من المعسكر وعليها علامة[1] السلطان الملك الصالح [نجم الدين أيوب] ، فقيل إنها كانت بخط خادم يقال له سهيل[2] ، لا يشك من رآه أنه خط السلطان . ومشى هذا على الأمير حسام الدين نائب السلطنة مدة ، إلى أن أوقفه بعض أصحابه على اضطراب فى العلامة ، يخالف علامة السلطان[3] . ففحص عن خبر السلطان من بعض خواصه الذين بالمعسكر ، حتى عرف موته . فاشتد خوفه من الأمير فخر الدين ، وخشى أن يتغلب على الملك ، فاحتاط لنفسه .

وأخذ الأمير فخر الدين يطلق المسجونين (١٩٠ أ) ، و يتصرف فى إطلاق الأموال والخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان الى الشام . فعلم الناس بموت السلطان من حينئذ ، غير أن أحدا لا يجسر أن يتفوه به .

---

(١) العلامة السلطانية هى ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة ، وكانت صورة علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ أ – ب) "أيوب بن محمد بن أبى بكر بن أيوب". وكان لكل سلطان علامة وتوقيع ، وقد ذكر المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١١) صور كل منهما من عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون (٦٩٣ — ٧٠٩ هـ ، ١٢٩٣ — ١٣٠٩ م) الى زمنه ، ونصه : " قد جرت العادة أن السلطان يكتب خطه على كل ما يأمر به ، فأما مناشير الأمراء والجند وكل من له إقطاع ، فانه يكتب عليه علامته . وكتبها الملك الناصر محمد بن قلاون " الله أملى " ، وعمل ذلك الملوك بعده الى اليوم . وأما تقاليد النواب ، وتواقيع أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف ، وتواقيع أرباب الرواتب والإطلاقات ، فانه يكتب عليها اسمه واسم أبيه إن كان أبوه ملكا ؛ فيكتب مثلا محمد بن قلاون ، أو شعبان بن حسين ، أو فرج بن برقوق . و إن لم يكن أبوه ممن تسلطن ، كبرقوق أو شيخ ، فانه يكتب اسمه فقط ، ومثاله برقوق أو شيخ . وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات ، فانه يكتب أيضا عليها اسمه ، وربما كتب الى المكتوب اليه ، فكتب اليه : أخوه فلان ، أو والده فلان" ، وأخوه يكتب للأكابر من أرباب الرتب . والذى يعلم عليه السلطان إما إقطاع ، فالرسم فيه أن يقال خرج الأمر الشريف ؛ و إما وظائف ورواتب و إطلاقات ، فالرسم فى ذلك أن يقال رسم بالأمر الشريف . وأعلى ما يعلم عليه [السلطان] ما افتتح بخطبة أولها الحمد لله ، ثم ما افتتح بخطبة أولها أما بعد حمد الله ... ... وتمتاز المناشير المفتتح فيها بالحمد لله أول الخطبة أن تطغر بالسواد ، وتتضمن اسم السلطان وألقابه . وقد بطلت الطغراء فى وقتنا هذا " .

(٢) اسم هذا الخادم "السهيلى" ، فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٢ ب) .

(٣) كان جمال الدين بن واصل ، صاحب كتاب مفرج الكروب (انظر ص ٣٦٣ أ) هو الذى نبه الأمير حسام الدين الى اختلاف العلامة السلطانية .

وسار من المعسكر الفارس أَقْطَاى[(1)]، وهو يومئذ[(2)] رأس المماليك البحرية، لإحضار الملك المعظم من حصن كيفا . وبعث الأمير حسام الدين [محمد بن أبى على، نائب السلطنة بالقاهرة، من عنده] [(3)] قاصدا من قبله أيضا . فلما كان يوم الاثنين لثمان بقين من شعبان، أمر [الأميرُ حسام الدين] الخطباءَ بأن يدعوا يوم الجمعة للملك المعظم، بعد الدعاء لأبيه؛ وأن ينقش اسمه على السكة، بعد اسم أبيه . وتوهم الأمير حسام الدين من الأمير فخر الدين أن يقيم الملك المغيث[(4)] عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل، ويستولى على الأمر؛ فنقله من عند عمات أبيه بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب، من القاهرة الى قلعة الجبل؛ ووكل به من يحتاط عليه، ولا يسلمه لأحد .

هذا والمكاتبات ترد من الأمير فخر الدين، وعنوانها " من فخر الدين الخادم يوسف "؛ فيجيب عنها الأمير حسام الدين، ويجعل العنوان "المملوك أبو على" ، فيتجاملان فى ظاهر الأمر . وأما فى الباطن فإن الأمير فخر الدين أخذ فى الاستبداد والاستقلال بالمملكة، واختص بالصاحب جمال بن مطروح، وبالقاضى بهاء الدين زهير؛ وصار يركب فى موكب عظيم، وجميع الأمراء فى خدمته، ويترجلون له عند النزول، ويحضرون سماطه[(5)] .

ووصل قاصد الأمير حسام الدين إلى حصن كيفا، وطالع الملك المعظم بأن المصلحة فى السرعة، ومتى تأخر فات الفوت، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد؛ ثم وصل إليه بعد

(1) مضبوط على منطوقه فى (Blochet : Op. cit. p. 521, N. 4)، وهذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب) " اقطايا " .

(2) هذا اللفظ محجوب بورقة ملصقة فوقه فى س، ولكنه فى ب (١٠٨ أ) .

(3) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب)، وكان القاصد الذى أرسله الأمير حسام الدين أحد مماليكه الخواص، يعرف بزين الدين العاشق .

(4) كان الملك المغيث هذا عند عماته منذ وفاة أبيه، (انظر ص ٣٢٧، سطر ١٠، وما يليه)، وكان عمره لما اعتقل بالقلعة حوالى أربع عشرة سنة . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٦٣ ب) .

(5) يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدّث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت، فانه حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٦ أ)، "كان قد انتهى الى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكانت همته تترقى الى الملك ... ... " .

ذلك قُصَّادُ فخر الدين وشجر الدر . فخرج [المعظم] من حصن كيفا ليلة السبت لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان ، فى خمسين فارسا من ألزامه . وقصد عانة ليعدى الفرات ، وقد أقام له بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل جماعة ، وأقام له الحلبيون أيضا جماعة ، يقبضون عليه . فنجاه الله منهم وعدى الفرات من عانة ، وسلك البرية ، فخاطر بنفسه وكاد يهلك من العطش .

هذا وشجر الدر تدبر الأمور حتى لم يتغير شىء ، وصار الدهليز السلطانى على حاله ، والسماط فى كل [يوم](1) يمد ، والأمراء تحضر الخدمة ، وهى تقول : "السلطان مريض ، ما يصل إليه أحد" .

وأما الفرنج فما هو إلا أن فهموا أن السلطان قد مات [حتى] خرجوا من دمياط ، فارسهم وراجلهم ؛ ونزلوا على فارس كور(2) ، وشوانيهم فى بحر النيل تحاذيهم ؛ ورحلوا من فارس كور يوم الخميس لخمس بقين من شعبان . فورد فى يوم الجمعة إلى القاهرة من المعسكر كتاب ؛ فيه حض (٩٠ ب) الناس على الجهاد ، أوله : انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وكان كتابا بليغا فيه مواعظ جمة(3) ، فقرئ على الناس فوق منبر جامع(4) القاهرة ، وحصل عند قراءته من البكاء

(١) ليس لهذا اللفظ وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٠٨ أ) .

(٢) كذا فى س ، وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) ، و يسميها ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٣٨) "الفارسكر" ، وكانت فى زمنه قرية من كورة الدقهلية . وهى الآن من مراكز مديرية الدقهلية ، وكانت كذلك أيام مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١٤ ، ص ٦٤ — ٦٦) .

(٣) يرجح ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) أن هذا الكتاب كان من إنشاء بهاء الدين زهير .

(٤) لعل المقريزى يريد هنا الجامع الأزهر ، ويميل الى هذا الرأى (Blochet : Op. cit. p. 525) ، إذ ترجم العبارة الى (la grande mosquée du Caire) . على أنه لا يوجد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢٢٢) ، أو فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٦٤ ، وما بعدها) ، أو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٤ ب) ما يساعد على تعيين الجامع المقصود هنا ، ونص المرجع الثالث كالآتى : " فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة " .

والنحيب وارتفاع الأصوات بالضجيج ما لا يوصف . وارتجت القـاهرة ومصر، لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للسير ؛ فخرج من البلاد والنواحى لجهاد الفرنج عالم عظيم، وقد اشتدّ كرب الخلائق من تمكن الفرنج وقوتهم وأَخْذهم البلاد، مع موت السلطان .

فلمـا كان يوم الثلاثاء أول يوم من شهر رمضان واقع الفرنج المسلمين، فاستشهد العلائى أمير مجلس ، وجمـاعة [من الأجناد](1) ؛ وقتـل من الفرنج عدّة . ونزل(2) الفرنج بشارمساح ، وفى يوم الاثنين سابعـه نزلوا البَرَمُون ؛ فاشتدّ الكرب وعظم الخطب ، لدنوهم وقربهـم من المعسكر . وفى يوم الأحد ثالث عشره وصلوا إلى طرف بر دمياط ، ونزلوا تجاه المنصـورة ، وصار بينهـم وبين المسـلمين بحر أشموم . [وكان معظم عسكر المسـلمين فى المنصـورة بالبر الشرقى](3) ، وفى البر الغربى أولاد الملك النـاصر داود صاحب الكرك :. [وهم الملك الأمجد ، والملك الناصر ، والملك المعظم ، والملك الأوحد] ، فى عدّة من العسكر — [وكان أولاد الملك الناصر داود ، الأكابر منهـم والأصاغر الذين قدموا القاهرة، اثنى عشر ولدا ذكرا . وكان بالبر الغربى أيضا أخوا الملك الناصر داود : وهمـا الملك القاهر عبد الملك ، والملك المغيث عبد العزيز] . فاستقر الفرنج بمنزلتهم هـذه، وخندقوا عليهم خندقا ، وأداروا سورا وستروه بالستائر ، ونصبوا المجـانيق(4) ليرموا بهـا على معسكر المسلمين . ونزلت شوانيهم بإزائهم فى بحر النيل، ووقفت شوانى المسلمين بإزاء المنصورة؛ ووقع القتال بين الفريقين برا وبحرا .

وفى يوم الأربعاء سادس عشره قفز إلى عند المسلمين سـتة خيالة ، وأخبروا بضائقـة

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٤ ب) .

(٢) فى س "ونزلوا"، راجع ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٤ ب) . ومما تجب ملاحظته هنا أن الفرنج زحفوا تلك المرة على نفس الطريق الذى اتبعوه سنة ٦١٥ هـ، (انظر ص ١٨٨، ١٩٤ — ١٩٥، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠١ — ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٦ — ٢٠٩)، وحوادث هذه الحملة مشابهة فى كثير من التفصيلات لسابقتها . راجع .(Joinville : St. Louis. pp. 40 et seq.)

(٣) أضيف ما بين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٤ ب — ٣٦٥ أ ، وكذلك ص ٣٣٨، سطر ٢ ، وما يليه .

(٤) فى س "المناجنيق" .

الفرنج . وفى يوم عيد الفطر أسر كُنْدٌ(١) كبير من الفرنج، له قرابة من الملك ريدا فرنس . واستمر القتال، وما من يوم إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر، [وقد] لقوا من عامة المسلمين وسوّالهم(٢) نكاية عظيمة، وتخطفوا منهم وقتلوا كثيرا . وكانوا إذا شعروا بالفرنج ألقوا أنفسهم فى الماء، وسبحوا الى أن يصيروا فى بر المسلمين . و[كانوا] يتحيلون(٣) فى خطفهم بكل حيلة : حتى أن شخصا أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه ، وغطس فى الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة، فما هو إلا أن نزل [أحدهم] فى الماء ليتناولها إذ اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم به إلى المسلمين . وفى يوم الأربعاء سابع شوال ، أخذ المسلمون شينيا(٤)، فيه نحو مائتى رجل من الفرنج وكند كبير . وفى يوم الخميس النصف منه (١٩١) ركب الفرنج [والمسلمون](٥)، فدخل المسلمون إليهم البر الذى هم فيه، وقاتلوهم قتالا شديدا، قتل فيه من الفرنج أربعون فارسا، وقتلت خيولهم . وفى يوم الجمعة تاليه وصل إلى القاهرة سبعة وستون أسيرا من الفرنج، منهم ثلاثة من أكابر الداوية . وفى يوم الخميس ثانى عشريه أحرقت للفرنج مَرَمَّة(٦) عظيمة فى البحر، واستظهر المسلمون عليهم استظهارا عظيما .

---

(١) لا يوجد فى (Joinville : Op. cit. p. 50 et seq.) ، أو فى غيره من المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ، ما يدل على اسم هذا الكند الذى أسر ذاك اليوم . على أنه من الراجح أن المقريزى يقصد هنا (Count of Anjou) ، أحد إخوة ملك فرنسا الذين كانوا معه فى تلك الحملة ، وإنه كاد يقع فى أيدى المسلمين مرة ، حوالى التاريخ الوارد هنا . انظر (Joinville : Op. cit. p. 50) .

(٢) يقابل هذا اللفظ كلمة " الحرافشة " فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ أ) ، وكذلك فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٠٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وهم أتباع المعسكرات ، الذين لا ينتمون لفرقة معينة أو لقائد خاص .

(٣) فى س " يحيلوا " .

(٤) فى س " شينى " ، وفوق يائها المتوسطة علامة السكون .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٥ ب) .

(٦) يشير المقريزى هنا إلى البرجين المتحركين اللذين ابتناهما ملك فرنسا حين ذاك على الضفة الشمالية لبحر أشموم ، لوقاية الجنود والعمال المستخدمين فى إقامة جسر هناك عبر المجرى . وقد سلط المسلمون عليهما النار الإغريقية ، وألحوا فى الرمى حتى أحرقوهما . (Joinville : Op. cit. pp. 47, 52) .

[ومازال الأمر على ذلك](١)، إلى أن كان يوم الثلاثاء خامس ذى القعدة، دَلّ بعض منافق أهل الإسلام الفرنج على مخائض فى بحر أشمون، فلم يشعر الناس إلا والفرنج معهم فى المعسكر. وكان الأمــير فخر الدين فى الحمـام، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قــد هجموا على العسكر، فخرج مدهوشا وركب فرسه من غير اعتداد ولا تحفظ، وساق لينظر الخبر ويأمر الناس بالركوب، وليس معــه سوى بعض مماليكه وأجناده. فلقيه طُلْبُ الفرنج الداوية(٢) وحملوا عليه، ففر من كان معه وتركوه وهو يدافع عن نفسه، فطعنه واحد برمح فى جنبــه، واعتورته(٣) السيوف من كل ناحية، فمات رحمه الله. ونزل الفرنج على جَدِيلَة(٤)، وكانوا ألفا وأربعمائة فارس، ومقدمهم أخو(٥) الملك ريد افرنس.

---

(١) المراجع العربية مختلفة فى تعيين من دل الفرنج على هذه المخائض، ففى ابن واصل (نفس المرجع، ص٣٦٦أ) أن بعض المسلمين دلوا الفرنج على مخاضة بسلمون؛ وفى العينى (عقد الجمان، ص٢٠٨، فى (Rec. Hist. Or. II. 1.)، أن الفرنج خاضوا من مخاضة فى بحر أشموم يقال لهـا مخاضة سلمون، دلهم عليها قوم من سلمون ليسوا بمسلمين. هـــذا وفى (Joinville: Op. cit. p. 53)، أن بدويا عرض أن يدل الفرنج على مخاضة، فى مقابل خمسين قطعــة من نقودهم (500 bezants).

(٢) كان ملك فرنسا قد رتب الجيوش على أن تكون فئـــة الداوية طليعة، وأن تليها الفرقة التى يقودها أخوه (Count of Artois). انظر (Oman : Art of War In The Middle Ages. Vol. I. p. 345).

(٣) فى س "اعتورته".

(٤) بغير ضبط فى س، وهى تل مطل على الشاطئ الجنوبى لبحر أشموم، كان المسلمون قــد نصبوا مجانيقهم وأبراجهم عليه، قبالة معسكر الفرنج والبرجين المتحركين على الشاطئ الآخر. انظر (Rec. Hist. Or. II. I. Index)، وكذلك (Oman : Op. Cit. I. p. 347).

(٥) يقصد المقريزى (Count of Artois) المتقدم ذكره فى الحاشية رقم ٢، وكان قد غلبت عليه الحماسة وحب السبق، فاندفع بمجرد عبوره المخاضة بفرقتــه نحو كوكبة مقاربة من خيالة المسلمين، فطاردها وتعقبها الى المعسكر؛ وعلى يد رجاله ورجال فرقة الداوية التى لحقتــه، كان حتف الأمير فخر الدين. ثم تقدم (Count of Artois) الى معسكر المسلمين، واستولى على الجهة التى كانت بها آلاتهم الحربيــة (انظر الحاشية السابقة). ويظهر أنه كان قد تغيى الانفراد بظفر ذاك اليوم، من دون بقيــة الجيوش الفرنجيــة، فلم يقف منتظرا وصولهم الى حيث وصـــل، بل تقدم مسرعا نحو المنصورة ودخلها منصـــورا، كما هو مذكور فيما يلى. انظر (Joinville : Op. cit. pp. 54 et seq. ; Oman : Op. cit. I. pp. 346 et seq.).

وما هو إلا أن قتل الأمير فخر الدين ، و إذا بالفرنج اقتحموا على المنصورة . فتفرق الناس وانهزموا يمينا وشمالا ، وكادت الكسرة أن تكون ، فإن الملك ريد افرنس وصل بنفسه [(١)] إلى باب قصر السلطان . إلا أن الله تدارك بلطفه ، وأخرج إلى الفرنج الطائفة التركية ، التى تعرف بالبحرية والجمدارية ، وفيهم [ركن الدين] بيبرس البُنْدُقْدارى [(٢)] الذى تسلطن بعد هذه الأيام . فحملوا على الفرنج حملة زعزعوهم بها ، وأزاحوهم عن باب القصر . فلما ولوا أخذتهم السيوف والدبابيس ، حتى قتل منهم فى هذه النوبة نحو ألف وخمسمائة من أعيانهم وشجعانهم . وكانت رجالة [(٣)] الفرنج قد أتوا الجسر ليعدوا منه ، فلولا لطف الله لكان الأمر يتم لهم بتعديتهم الجسر.

---

(١) لم يكن ملك فرنسا قد زحف بعد نحو المنصورة ، و إنما المقصود هنا (Counts of Artois) ، فانه تقدم نحو قصر السلطان ، وانتشرت جنوده فى أزقة المنصورة ، حيث أمطرهم السكان وابلا من الأحجار والطوب والسهام . و بينما الكل على ذلك ، كان المسلمون قد استجمعوا بعض قواهم خارج المدينة ، فدخلت منهم طائفة المنصورة ، وهاجموا الفرنج وقتلوا فيهم وأهلكوهم عن آخرهم تقريبا ، وكان (Count of Artois) ممن قتلوا فى هذه المعمعة ، كما هو وارد فيما يلى . هذا والسبب فى تسميته هنا باسم ملك الفرنسيين ، أنه لما وقع صريعا وأخذ كراغنده لعرضه على المسلمين ، وهو مطرز بزهرة الزنبق (Fleur - de - lis) شعار أبناء البيت المالك فى فرنسا ، ظن المتفرجون أن ملك فرنسا كان بين القتلى . (Joinville : Op. cit. p. 69; Oman : Op. cit. pp. 348-349) . و بعد نزول تلك الطامة اللامة بساعة تقريبا ، وصل ملك فرنسا الى ميدان القتال ، وحاول الاستيلاء على " جديلة " التى كان عليها آلات المسلمين . وكان غرض الملك من ذلك أن يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية لتعبر الرجالة اليه ، وقد نجح فى ذلك كله ، غير أن الروح المعنوية الجديدة فى صفوف المسلمين أذهبت ذلك سدى ، وخيم الليل فحجز بين الفريقين ، كما هو وارد بالمتن فيما يلى . انظر أيضا (Oman : Op. cit. I. pp. 348 et seq.) .

(٢) البندقدارى نسبة إلى البندقدار ، وهو لفظ فارسى مركب ، معناه حامل جراوة — أى كيس — البندق ، خلف السلطان أو الأمير . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٧ ؛ ج ٥ ، ص ٤٥٨) . وقد سمى بيبرس هذا باسم البندقدارى ، لأنه كان فى أول أمره مملوكا للأمير أيدكين البندقدار ، ثم انتقل الى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وصار من مماليكه البحرية ، (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 263) . وكان فى خدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب أمير اسمه ركن الدين بيبرس أيضا ؛ وأصله من مماليك الملك الكامل ، وهو الذى انتصر بالخوارزمية وعساكر مصر على الفرنج ، ثم انقلب مع الخوارزمية ضد السلطان ، فما زال به حتى اعتقله وأعدمه كما سبق وروده بالمتن . (انظر ص ٣١٦ ، سطر ١١ ؛ ص ٣١٨ ، سطر ١ ؛ ص ٣٢٢ ، سطر ٧ ؛ وأيضا ابن واصل ، نفس المرجع ، ص ٣٥٩ أ) . وقد أدى هذا الشبه بين الاسمين الى نسبة وقعة غزة خطأ الى بيبرس البندقدارى ، كما يفهم من (Barker : The Crusades. pp. 82, 84) ، وكما هو منصوص فى (Stevenson : Op. Cit. Index) .

(٣) فى س " رجال " . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٦٦ أ ، ب) .

وكانت المعركة بين أزقة المنصورة ، فانهزموا إلى جديلة منزلتهم ، وقد حال بين الفريقين الليل ، وأداروا عليهم ســورا وخندقوا خنــدقا . وصارت منهــم طائفة فى الــبر الشرقى ، ومعظمهم فى الجزيرة المتصلة بدمياط . فكانت هذه الواقعة أول ابتداء النصر على الفرنج [(١)] .

وعند ما هجم الفرنج على المعسكر سرح الطائر بذلك إلى القاهرة (٩١ ب) ، فانزعج الناس انزعاجا عظيما . وقدم المنهزمون من السوقة والعسكر ، فلم تغلق أبواب القاهرة فى ليلة الأربعاء لتوارد المنهزمين . وفى صبيحة يوم الأربعاء وقعت البطاقة تبشر بالنصرة على الفرنج ، فزينت القاهرة وضربت البشائر بقلعة الجبــل ، وكثر فرح الناس وسرورهم . وبقى العسكر يدبر أمره شجر الدر ، فكانت مدّة تدبير الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، بعــد موت الملك الصالح ، لمملكة مصر ، خمسة وسبعين يوما . وفى يوم قتله نهب مماليكه و بعض الأمراء داره ، وكسروا صناديقه وخزائنه ، وأخذوا أمواله وخيوله وأحرقوا داره .

السلطان الملك المعظم غياث الدين تورانشاه

ابن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان . سار من حصن كيفا إلى دمشق ، لإحدى عشرة [ليلة] مضت من شهر رمضان ؛ فنزل عانة فى خمسين فارسا من أصحابه ، يوم الخميس النصف من شهر رمضان سنة سبع وأربعين ؛ وخرج منهــا يوم الأحد يريد دمشق على طريق السَّماوة [(٢)] فى الــبرية ، فنزل القُصَــيْر فى دهليز ضربه له الأمير جمــال الدين موسى بن يغمور نائب دمشق ، يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر رمضان . ودخل [المعظم توران شاه] من الغد — وهو يوم السبت سلخه — إلى دمشق ،

---

(١) يعزو (Oman : Op. cit. pp. 350-352) ، وغيره من المؤرخين الحديثين ؛ هزيمة الصليبيين عند المنصورة الى تسرع (Count of Artois) ، ومخالفته تعليمات أخيه ملك فرنسا . هذا وقد فصل المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٢١٩ — ٢٢٢) وقعة المنصورة ، وأضاف هناك بعض معلومات ليست هنا .

(٢) بغــير ضبط فى س ، وهى الصحراء الممتدّة بين الكوفة والشام ، واسمها أيضا بادية السماوة . انظــر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٣١ ؛ و Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 530) .

ونزل بقلعتها ، فكان يوما مشهودا . وقام الأمير جمـال الدين بخدمته ، وحلف له الأمراء ، وتسلطن فى يومئذ . وخلع [المعظم] على الأمراء وأعطاهم أموالا جزيلة ، بحيث أنه أنفق ما كان فى قلعة دمشق، وهو ثلاثمائة ألف دينار . واستدعى من الكرك مالا آخر حتى أنفقه، وأفرج عمن كان بدمشق فى حبس أبيه، وأتته الرسل من حماة وحلب تهنئه بالقدوم . ولأربع مضين من شوّال سقطت البطائق إلى المعسكر والقاهرة، بوصول الملك المعظم إلى دمشـق وسلطنته بها، فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة .

وسار السلطان من دمشق يوم الأربعاء سابع عشريه يريد مصر، بعـد ما خلع على الأمير جمـال الدين، وأقرّه على نيـابة السلطنة بدمشق . وقدم معه القاضى الأسـعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى، وكان مقيما بدمشق عند الأمير جمال الدين . وقدم معه أيضا هبة الله ابن أبى الزهر بن حشيش الكاتب النصرانى ، وقـد وعده [السلطان] بوزارة مصر، فأسـلم وتلقب بالقـاضى معين الدين (١٩٢) . وسيره [السلطان] أول يوم من ذى القعدة الى قلعة الكرك، ليحتاط على خزائنها، فأنهى أشغاله بها ولحقه فى الرمل، [وأسلم على[1] يده هناك] .

وعند ما تواترت الأخبار فى القاهرة بقـدوم السلطان ، خرج قاضى القضاة بدر الدين السنجارى ، فلقيه بغزة وقدم معه . وخرج الأمير حسام الدين [بن] أبى[2] على نائب السلطان الى الصالحية، فلقيه بها يوم السبت لأربع عشرة [ليلة] بقيت من ذى القعدة[3] .

ونزل [السلطان المعظم تورانشاه] فى قصر أبيه، ومن يومئذ أعلن بموت الملك الصالح [نجم الدين أيوب] . ولم يكن أحد قبل هذا اليوم ينطق بموته ، بل كانت الأمور على حالها — والدهليز الصالحى والسماط ومجىء الأمراء للخدمة، على ما كان عليـه الحال فى أيام حيـاته؛

(١) أضيف مابين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٥ أ)، واسم هذا الكاتب هناك "النشو بن حشيش النصرانى، ولقبه معين الدين" .

(٢) فى س "ابو" .

(٣) كان جمال الدين بن واصـل ، صاحب كتاب مفرج الكروب ، مقيما بالقاهرة وقت ذاك ، فخرج صحبـة الأمير حسام الدين الى الصالحية ، لاستقبال السلطان المعظم . (انظر نفس المرجع، ص ٣٦٦ ب — ٣٦٧ أ) .

وشجر الدر تدبر أمور الدولة كلها، وتقول : "السلطان مريض، ما إليه وصول" — فلم يتغير عليها شيء، الى أن استقر الملك المعظم بالصالحية .

فتسلم [السلطان المعظم] مملكة مصر، وخلع على الأمير حسام الدين [بن] أبى على خلعة سنية، ومنطقة وسيفا فيهما ثلاثة آلاف دينار مصرية . وأنشده الشعراء عدّة تهان، وجرت بين يديه مباحثات ومناظرات فى أنواع من العلوم . وكان [السلطان المعظم] قد مهر فى العلوم، وعرف الخلاف والفقه والأصول؛ وكان جدّه الملك الكامل يحبه لميله الى العلم، ويلقى عليه من صغره المسائل المشكلة، ويأمره بعرضها وامتحان الفقهاء بها فى مجلسه . ولازم [المعظم] الاشتغال الى أن برع، إلا أنه فيه هوج وخفة، مع غرامه بمجالسة أهل العلم من الفقهاء والشعراء .

ثم إنه رحل من الصالحية ونزل تِلْبَانَة[1]، ثم نزل بعدها منزلة ثالثة، وسار منها الى المنصورة . وقد تلقاه الأمراء المماليك، فنزل فى قصر أبيه وجده، يوم الخميس لتسع بقين من ذى القعدة . فأول ما بدأ به أن أخذ مماليك الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ الصغار، وكثيرا من مُخَلَّفه، بدون القيمة، ولم يعط ورثته شيئا، وكان ذلك بنحو الخمسة عشرة ألف دينار . وأخذ يسب فخر الدين ويقول : "أطلق السكر والكتان، وأنفق المال وأطلق المحابيس. إيش ترك لى ؟" .

وكانت الميرة ترد إلى الفرنج فى منزلتهم من دمياط فى بحر النيل ، فصنع المسلمون عدة مراكب ، وحملوها وهى مفصلة على الجمال الى بحر المحلة ، وطرحوها فيه وشحنوها بالمقاتلة ؛ وكانت أيام زيادة النيل . فلما جاءت مراكب الفرنج لبحر المحلة ، وهذه المراكب مكمنة فيه ، خرجت عليها بغتة وقاتلتها . وللحال قدم أسطول (٩٢ ب) المسلمين من جهة المنصورة، فأُخِذَتْ مراكب الفرنج أخذا وبيلا ، وكانت اثنتين وخمسين مركبا ، وقتل منها وأسر نحو ألف

(١) بغير ضبط فى س ، وهى قرية صغيرة بمركز منية القمح من مديرية الشرقية ، واسمها أيضا تلبانة ديرى ، تمييزا لها من تلبانة عدى من ناحية المرتاحية ، وتلبانة عدى أخرى من ناحية حوف رمسيس ، وتلبانة الأبراج من ناحية حوف رمسيس أيضا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٩ ، ص ٤٠ — ٤١) .

إفرنجى، وغنم سائر مافيهـا من الأزواد والأقوات، وحملت الأسرى على الجمال الى العسكر . فانقطع المدد من دمياط عن الفرنج، ووقع الغلاء عندهم، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ولا يقدرون على الذهاب، واستضرى المسلمون عليهم وطمعوا فيهم .

وفى أول ذى الحجة ، أخذ الفرنج من المراكب التى فى بحر المحلة سبع حراريق ، ونجا من كان فيهـا من المسـلمين . وفى ثانى ذى الحجة تقـدّم أمر السلطان إلى الأمير حسام الدين [بن] أبى على بالمسـير الى القاهرة ، والإقامة بدار الوزارة على عادته فى نيابة السلطنة . وفيه وصل الى السلطان جماعة من الفقهاء : منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبهـاء الدين ابن الجميزى، والشريف عماد الدين، والقاضى عمـاد الدين القاسم بن إبراهيم بن هبة الله بن إسماعيل بن نبهان بن محمد بن المقنشع[1] الحموى – قاضى مصر، وكان قد ولى القضاء بعد موت الجمال يحيى، فى جمادى الأولى –، وسراج الدين الأرموى . بجلس [السلطان المعظم] معهم وناظرهم[2] .

وفى يوم عرفة وصلت مراكب فيهـا الميرة للفرنج، [فالتقت بها شوانى المسـلمين عند مسجد[3] النصر]، فأخذت شوانى المسلمين منها اثنتين وثلاثين مركبا، منها تسع شوانى. فاشتد الغلاء عند الفرنج، وشرعوا فى مراسلة السلطان يطلبون منه الهدنة . فاجتمع برسـلهم الأمير زين الدين بن أمير جاندار، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارى؛ فسألوا أن يسلموا دمياط، ويأخذوا عوضا عنها مدينة القدس وبعض الساحل، فلم يجابوا الى ذلك .

وفى يوم الجمعة، لثلاث بقين من ذى الحجة، أحرق الفرنج ما عندهم من الخشب، وأتلفوا مراكبهم ليفروا إلى دمياط، وخرجت السنة وهم فى منزلتهم .

(١) كذا فى س بغير ضبط .

(٢) حضر ابن واصل، صاحب كتاب مفرج الكروب (نفس المرجع، ص ٣٦٧ ب) أحد هـذه المجالس، وكان موضوع النقاش فى الحـديث النبوى " نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه" .

(٣) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٦٨ ب) . انظر أيضا العينى (عقد الجمان، ص ٢٠٩، فى Rec. Hist. Or. II. 1) .

وفى هذه الســـنة قدم الى بغداد طائفة من التتر على حين غفلة ، فقتلوا ونهبوا وجفـــل منهم الناس . وفيها استولى على بن قتادة على مكة ، فى ذى القعدة . وفيها قتل الشريف شيحة أمير المدينة النبوية ، وقام من بعده ابنه عيسى . وفيها قتل الملك المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول صاحب اليمن ، وملك بعـــده ابنـــه المنصور شمس الدين يوسف . وفيها مات متملك تونس أبو زكريا يحيى بن عبـــد الواحد ابن أبى حفص ، فى آخر جمادى الآخرة ، عن تسع وأربعين ســـنة . وكان [أبو زكريا يحيى] قد قام وملك تونس ، واســـتبد بأمرها ودعا لنفسه ، وقد ضعف أمر ملوك الموحدين من بنى عبد المؤمن بن على . فأقام [أبو زكريا يحيى] على مملكة إفريقية ثلاثا وعشرين سنة ، وامتدت مملكته الى تلمسان وسجلماسة وسبته ، وبايعه أهل إشبيلية وشاطبـــة[1] والمرية[2] ومالقة وغرناطة ، وخلف مالا جما . فبويع بعده ابنـــه محمد المستنصر . وأبو زكريا هذا هو أول من ملك تونس من الملوك الحفصيين ، و[أما] من كان قبله منهم فإنمـــا كانوا عمالا لبنى عبد المؤمن . وفيها قبض الشريف أبو سعد بن على بن قتادة على الأمير أحمـــد بن محمد بن المسيب بمكة فى آخر شوال ، كما تقـــدم فى السنة الخالية ، وقام [هو] بإمرة مكة .

+ + +

سنة ثمـــان وأربعين وستمائة . فى ليـــلة الأربعاء ثالث المحـــرم ، رحل الفرنج بأسرهم من منزلتهم يريدون مدينـــة دمياط ، وانحدرت مراكبهم فى (١٩٣ أ) البحر قبالتهم . فركب المسلمون أقفيتهم ، بعد أن عدوا إلى برهم واتبعوهم . فطلع صباح نهار يوم الأربعاء ، وقد أحاط بهم المسلمون ، وبذلوا فيهم سيوفهم ، واستولوا عليهم قتلا وأسرا . وكان معظم الحرب فى فارس كور ، فبلغت عدة القتلى عشرة آلاف فى قول المقل ، وثلاثين ألفا فى قول المكثر . وأسر من خيالة الفرنج ورجالتهم[3] المقاتلة ، وصناعهم وسوقتهم ، ما يناهز مائة ألف

(١) أسماء هذه المدن ومواقعها معروفة جيـــدا ، ويكتفى هنا بضبطها والتعـــريف فقط بغير المشهور منها ، مثل شاطبة ، وموقعها شرق قرطبة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٥) .

(٢) تقع هذه البلدة ، واسمها (Almeria) فى الأطالس الحديثة ، على شاطئ إســـبانيا الجنوبى ، شرق مالقة (Malaga) .

(٣) فى س "رجالهم" .

إنسان، وغنم المسلمون من الخيل والبغال والأموال ما لا يحصى كثرة . واستشهد من المسلمين نحو مائة رجل، وأبلت الطائفة البحرية — لا سيما بيبرس البندقدارى — فى هذه النوبة بلاء حسنا، وبان لهم أثر جميل .

والتجأ الملك ريدافرنس — وعدة من أكابر قومه — إلى تل [المُنْيَة](١) ، وطلبوا الأمان فأمنهم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى، ونزلوا على أمانه . وأُخذوا إلى المنصورة، فقيد الملك ريدافرنس بقيد من حديد، واعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان — كاتب الإنشاء ، التى كان ينزل بها من المنصورة ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى . واعتقل معه أخوه(٢) ، وأجرى عليه راتب فى كل يوم . وتقدّم أمر الملك المعظم لسيف الدين يوسف بن الطودى(٣) — أحد من وصل معه من بلاد الشرق — بقتل الأسرى من الفرنج، وكان [سيف الدين] يُخرج كل ليلة منهم ما بين الثلثمائة والأربعمائة، ويضرب أعناقهم ويرميهم فى البحر، حتى فنوا بأجمعهم .

ورحل السلطان من المنصورة ، ونزل بفارس كور وضرب بها الدهليز السلطانى، وعمل فيه برجا من خشب ، وأقام على لهوه . وكتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصه : "[من] ولده تورانشاه . الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا

(١) انظر ص ٣٥٧ سطر ٩، والمقصود هنا منية عبد الله، القريبة من ناحية شرمساح . انظر العينى (عقد الجمان، ص ٢١٠، فى Rec. Hist. Or. II. I.) .

(٢) كان لملك فرنسا ثلاثة إخوة، وهم (Robert, Count of Artois) الذى وقع قتيلا بالمنصورة ، و(Alphonse of Poitou)، و(Charles of Anjou)، راجع (Camb. Med. Hist. VI. p. 338). وقد أسر المسلمون الأخوين الثانى والثالث، وأبقوهما فى الأسر مع غيرهم ، حتى تمت مفاوضات الصلح والفدية . وبعد ذلك رأى أمراء المسلمين حفظ أحد الأخوين، وهو (Count of Poitou) رهينة عندهم ، حتى تدفع الفدية المقررة . (Joinville : Op. cit. pp. 102-108) .

(٣) كذا فى س ، واسمه الطورى فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٠ ب) .

نعمة الله لا تحصوها . نبشر المَجْلِس السَّامِيَ(١) الجَمَالِي ، بل نبشر المسلمين كافة ، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين . فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره ، و يئس العباد من البلاد والأهل والأولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله . ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة ، تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن و بذلنا الأموال وفرّقنا (٩٣ ب) السلاح ، و جمعنا العربان والمطوعة وخلقا لا يعلمهم إلا الله ، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق . فلما كان ليلة الأربعاء تركوا(٢) خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين . وما زال السيف يعمل فى أدبارهم عامة الليل ، وقد حلّ بهم الخزى والويل . فلما أصبحنا يوم الأربعاء ، قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه فى اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج . والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته " ؛ وذكر كلاما طويلا .

وبعث [المعظم] مع الكتاب غِفَارَة(٣) الملك الفرنسيس ، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور ، وهى أَشْكَرْلاط(٤) أحمر بفرو سنجاب ، [فيها بُكْلَة(٥) ذهب] . فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل :

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٩١ ، ومابعدها) فصل طويل فى أصل الألقاب ، وأنواعها المستعملة فى المكاتبات السلطانية . ويتضح منه أن لقب " المجلس السامى " ، كان فى أوائل الدولة الأيوبية بمصر مقصورا على السلطان فقط ، فلا يكتب به إلى أحد سواه . ثم استقر اصطلاح الدواوين على كتابة هذا اللقب فى المكاتبات الصادرة إلى الملوك ومن فى معناهم ، مثل كبار الأمراء والوزراء وولاة العهد بالسلطنة . وفى عصر دولة المماليك انحط هذا اللقب درجة أخرى ، فصار من ألقاب أرباب السيوف والأقلام عامة ، وجعلت ألقاب أخرى كالجناب والمقر والمقام لمن فوقهم فى الدولة .

(٢) واو الجماعة هنا عائدة على الفرنج .

(٣) الغفارة المعطف ، وجمعها غفائر . وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) عدة أمثلة لاستعمال هذا اللفظ ، منها : "ثم أنعم عليهم بالكسوة التامة ، من العمائم والغفائر والبرانس والأكسية" . راجع أيضا محيط المحيط .

(٤) نوع من القماش ، كان يرد من بلاد إيرلندة ، لونه قرمزى (écarlate) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ١٩٦ ، فى Rec. Hist. Or. V.) ، وكان أبو شامة حاضرا ، عند ما لبس الأمير جمال الدين بن يغمور الغفارة المذكورة . هذا والبكلة معرب اللفظ الفرنسى (boucle) ، ومعناه المشبك . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

إن غفارة الفرنسيس التى * جاءت حِباء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن * صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال [آخر][(١)] :

أَسَيِّدَ أملاك الزمان بأسرهم * تنجزت من نصر الإله وُعُودَه
فلا زال مولانا يبيح حمى العدى * ويُلبس أسلابَ الملوك عبيدَه

وأخذ الملك المعظم فى إبعاد رجال الدولة، فأخرج الملكَ المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل من قلعة الجبل الى الشوبك، واعتقله بها . وأخرج الملك السعيد فخر الدين حسن بن الملك العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب من مصر [الى دمشق]، فلما وصل دمشق قبض عليه ابن يغمور واعتقله . وفى يوم الجمعة لخمس مضين من المحرم ، ورد الى القاهرة كتاب السلطان الى الأمير حسام الدين أبى على نائب السلطنة بالقدوم عليه ، وأقام بدله فى نيابة السلطنة بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجيبى . ووصل الأمير أبو على الى المعسكر، فنزل به مُطَّرَحَ الجانب، بعد ما كان عُدَّة الملك الصالح وعمدته . وبعث المعظم الى شجر الدر يتهددها ، ويطالبها بمال أبيه وما تحت يدها من الجواهر . فداخلها منه خوف كثير، لما بدا منه من الهوج والخفة ؛ وكاتبت المماليك البحرية بما فعلته فى حقه، من تمهيد الدولة وضبط الأمور حتى حضر وتسلم المملكة، وما جازاها به من التهديد والمطالبة بما ليس عندها . فأنفوا لها، وحنقوا من أفعال السلطان . وكان [السلطان المعظم] قد وعد الفارس أقطاى لما أتاه فى حصن كيفا بأن يُؤَمِّره، فلم يف له بذلك؛ فتنكر له [أقطاى] وكتم (٩٤ ا) الشر، لحرك كتاب شجر الدر منه ساكنا .

وانضاف الى هذه الأمور، أن[(٢)] [السلطان المعظم] أعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، واطَّرح الأمراء والأكابر أهل الحل والعقد، وأبعد غلمان أبيه وترابيه ،

(١) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٢٢) .
(٢) فى س "انه" .

واختص بجماعتــه الذين قدموا معه، وولّاهم الوظائف السلطانية . وقــدّم الأراذل : وجعل الطواشي مسرورا[(١)] — [وهو] خادمه — أسـتادار السلطان؛ وأقام صبيحا — وكان عبدا حبشيا فَحْلًا — أمير جاندار، وأنعم عليه بأموال كثيرة وإقطاعات جليلة، وأمر أن يُصاغ له عصا من ذهب . وأساء [السلطان] الى المـماليك وتوعّدهم، وصار إذا سكر فى الليــل جمع ما بين يديه من الشــمع، وضرب رءوسها بالسيف حتى تتقطع، ويقول : " هكذا أفعــل بالبحرية "، ويسمى كل واحد منهم باسمه . واحتجب أكثرَ من أبيــه، مع الانهماك على الفساد بمماليك أبيه، ولم يكونوا يألفون[(٢)] هذا الفعل من أبيه . وكذلك فعل بخطايا أبيه .

وصار مع هــذا جميعُ الحــل والعقد، والأمر والنهى، لأصحـابه الذين قدموا معه . فنفرت قــلوب البحرية منــه، واتفقوا على قتــله . وما هو إلا أن مدّ السماط [بعــد نزوله بفارس كور[(٣)]]، فى يوم الاثنين سادس عشرى المحرم، وجلس السلطان على عادته، تقدم إليه واحد من البحرية — وهو بيبرس البندقدارى، الذى صار إليه مُلك مصر — وضربه بالسيف . فتلقاه[(٤)] [المعظم] بيده فبانت أصابعه، والتجأ الى البرج الخشب [الذى نصب له بفارس كور[(٥)]]، وهو يصيح : " من جرحنى ؟ " قالوا : " الحشيشة[(٦)] "، فقال : " لا والله إلّا البحرية ! والله لا أبقيتُ منهــم بقية ! "، واستدعى المزين [ليداوى[(٧)] يده] . فقال البحرية بعضهــم

(١) فى س "مسرور" .   (٢) فى س "يالفوا" .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٩، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) فى س " فلقا " .

(٥) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٩، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٦) المعنى المقصود بهــذا اللفظ، أن الذى جرحه أحد الحشيشيين الباطنية . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧١ ب) .

(٧) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هذا وعبارة مفرج الكروب أحسن وصفا لما حدث للسلطان المعظم، ونصها : "(٣٧١ أ) ولما جرى ما ذكرنا من تغير قلوب العسكر منه، خصوصا مماليك أبيه البحرية، اتفق جماعة من مماليك أبيه على قتله . فلما كان بكرة الاثنين لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة، أعنى سنة ثمان وأربعين وستمائة، مدّ الملك المعظم السماط فى دهليزه، وجلس على طراحته، وأكل الناس بين يديه وأكل معهم على ماجرت عادته . ثم فرغت الناس من الأكل، وتفرقت الأمراء إلى وطاقاتهم، وقام [المعظم] من مجلسه فطلب الدخول =

لبعض : „ تمّموه و إلّا أباد كم “، فدخلوا عليه بالسيوف . ففر [المعظم] الى أعلى البرج وأغلق بابه ، والدم يسيل من يده . فأضرموا النار فى البرج ، ورموه بالنشاب ، فألقى نفسه من البرج ، وتعلق بأذيال الفارس أقطاى ، واستجار به فلم يجره . ومر [المعظم] هاربا الى البحر ، وهو يقول „ ما أريد ملكا ، دعونى أرجع الى الحصن . يامسلمين ! ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ؟ “ . [هذا] وجميع العسكر واقفون ، فلم يجبه أحد ، والنشاب يأخذه من كل ناحية . وسبحوا خلفه فى الماء ، وقطعوه بالسيوف قطعا ، حتى مات جريحا حريقا غريقا[1] ؛ وفر أصحابه واختفوا .

وتُرِك [المعظم] على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ، لا يقدر أحد أن يتجاسر على دفنه ، إلى أن شفع فيه رسول الخليفة ؛ فحمل إلى ذلك الجانب ودفن ، فكانت (٩٤ ب) مدّة ملكه أحداً[2] وسبعين يوما . وقيل مرة لأبيه فى الإرسال إليه ، ليحضر من حصن كيفا إلى مصر ، فأبى . وألح عليه الأمير حسام الدين أبو على فى طلب حضوره ، فقال : „ متى حضر إلى هنا قتلتهُ “ . وكان المباشر لقتله أربعة من مماليك أبيه ، وكان [الملك الصالح نجم الدين] لما أراد أن يقتل أخاه العادل ، قال للطواشى محسن : „ اذهب إلى أخى العادل فى الحبس ، وخذ معك من المماليك من يخنقه “ ؛ فعرض محسن ذلك على جماعة من المماليك ، وكلهم يمتنع إلّا أربعة منهم ، فمضى بهم حتى خنقوا العادل . فقدر الله أن هؤلاء الأربعة هم الذين باشروا قتل ابنه

= إلى خيمة له صغيرة . فدخل عليه ركن الدين بيبرس ، وكان أحد جمدارية أبيه وكان يعرف بالبندقدارى ، وهو الذى ملك مصر بعد ذلك . . . فضرب (٣٧١ ب) الملك المعظم بسيف فجرحه فى كتفه ، ورمى ركن الدين السيف من يده . ورجع الملك المعظم ... الى مجلسه ، واجتمع حوله الناس وأصحابه و بعض مماليك أبيه . فقالوا له : أى شىء جرى ؟ فقال : جرحنى أحد البحرية . وكان ركن الدين بيبرس واقفا ، فقال : ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية ، فقال [المعظم] : ما فعل بى هذا إلا البحرية ؛ فخافت البحرية حينئذ ، واستشعروا منه “ .

(١) رواية ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧١ ب) مختلفة هنا أيضا ، ونصها : „ وأحضرت نار ليحرق بها البرج ، فنزل [المعظم] من البرج ، فحمل عليه البندقدارى الذى كان جرحه . فهرب [المعظم] الى جهة البحر ، وكانت فيه حراريق له ، فأراد أن يسبق اليها و يعتصم بها ، فأدركه فارس الدين اقطايا (كذا) ، وضربه بالسيف فقتله ... “

(٢) فى س „ احد “ .

المعظم أقبح قتلة . ورؤى فى النوم الملكُ الصالح [نجم الدين] بعد قتل ابنه الملك المعظم تورانشاه ، وهو يقول :

قتلوه شر قتله * صار للعالم مُثله
لم يراعوا فيه إِلّا * لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب * لأقل الناس أُكْلَه

فكان[1] ما يأتى ذكره من الوقعة بين المصريين والشاميين ، بين المعز أيبك والناصر [صلاح الدين] يوسف [بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف ، وهو صاحب حلب] وعدم فيها عدة من الأعيان[2] . وبقتل المعظم انقرضت دولة بنى أيوب من أرض مصر ، وكانت مدتهم إحدى وثمانين سنة ، وعدة ملوكهم ثمانية ، كما مرَّ ذكرهم . فسبحان الباقى ، وما سواه يزول .

الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر

كانت تركية الجنس ، وقيل بل أرمنية ، اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وحظيت عنده بحيث كان لا يفارقها سفرا ولا حضرا . وولدت منه ابنا اسمه خليل[3] ، مات وهو صغير[4] . وهذه المرأة شجر الدر ، هى أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك ، وذلك أنه لما قتل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب ، كما تقدم ذكره ، اجتمع الأمراء المماليك البحرية ، وأعيان الدولة وأهل المشورة ، بالدهليز السلطانى ؛ واتفقوا على إقامة شجر الدر أم خليل زوجة الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مملكة مصر ، وأن تكون العلامات

(١ و ٢) هذه العبارة واردة فى س كالآتى : " فكان ما ياتى ذكره من الوقعة بين المصريين والساميين وعدم فيها عدة من الاعيان بين المعز ايبك والناصر يوسف " ، وهى مكتوبة على هامش الصفحة ، ما عدا ما بين الأقواس فانه أضيف من أبى شامة (كتاب الروضتين ، ص ٢٠١ ، فى Rec. Hist. Or. V. ؛ وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٧٤ أ) .

(٣ و ٤) اعترى بعض حروف الكلمات الواردة بين الرقين هنا ما محاها تقريبا ، على أنها واردة فى ب (١١٣ أ) .

السلطانية على التواقيع[١] تبرز من قبلها، وأن يكون مقدّم العسكر الأمير عز الدين أيبك التركمانى الصالحى أحد البحرية[٢] . وحلفوا على ذلك فى عاشر صفر، وخرج عز الدين الرومى من المعسكر إلى قلعة الجبل، وأنهى إلى شجر الدر ما جرى من الاتفاق، فأعجبها . وصارت الأمور كلها معدوقة[٣] بها، والتواقيع تبرز من قلعة الجبل، وعلامتها عليها "والدة خليل" . وخطب لها على منابر مصر والقاهرة ، ونقش اسمها على السكة ، ومثاله "المستعصمية[٤] الصالحية ، ملكة المسلمين، والدة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين" . وكان الخطباء يقولون فى الدعاء : "اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين، والدة الملك خليل" ؛ و بعضهم يقول، بعد الدعاء للخليفة : "واحفظ اللهم الجهة الصالحية، ملكة المسلمين، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح" .

و[لما حلف الأمراء والأجناد واستقرت القاعدة][٥] ، نُدب الأمير [حسام الدين محمد ابن] أبى[٦] على للكلام مع الملك ريد افرنس فى تسليم دمياط ، فجرى بينه و بين الملك مفاوضات

(١) التواقيع جمع توقيع ، ومعناه هنا نسخة الأمر بتعيين شخص على إقطاع . (راجع ص ٣٤٤ ، حاشية ١ ، والقلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص ١٤٤) . انظر أيضا (G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. p. LVIII) ، حيث ترجم لفظ تواقيع إلى "actes de nomination" .

(٢) كان منصب مقدّم العساكر قد عرض ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٢ ب) ، أوّلا على حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، ثم على الطواشى شهاب الدين رشيد ، فامتنعا .

(٣) كذا فى س ، وهو اسم مفعول من فعل عدق ، ومعناه جمع . (لسان العرب) .

(٤) تدل هذه النسبة على أن شجر الدر كانت جارية للخليفة المستعصم ، قبل أن يشتريها الملك الصالح نجم الدين أيوب . (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 525) . غير أن صمت جميع المراجع العربية المتداولة فى هذه الحواشى عن هذه المسألة ، يحمل على الاعتقاد أن شجر الدر ربما أقرت هذه النسبة فى سكتها وخطبتها ، ترضية للخليفة فى بغداد ، ولأولى الأمر فى القاهرة . و يقوى هذا الفرض أن الملك الصالح نجم الدين أيوب كان قد أوصى بتسليم مملكته الى الخليفة المستعصم "ليرى فيها رأيه" ، (انظر ص ٣٤٢ ، سطر ١٣) ، فلا أقل من انتماء شجر الدر — وهى المرأة القادرة ، الى الخليفة المستعصم على هذا النحو .

(٥) أضيف ما بين الأقواس ، ككل هذه الفقرة ، من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٢ ب — ٣٧٣ أ) .

(٦) فى س "أبو" .

ومحاورات[١] ومراجعات، آلت إلى أن وقع (٩٥ ا) الاتفاق[٢] على تسليمها من الفرنج، وأن يُخَـلَّى عنه ليذهب إلى بلاده، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من المـال المقرر . فبعث [الملك ريد افرنس] الى من بها من الفرنج يأمرهم بتسليمها، فأبوا وعاودهم مرارا، الى [أن] دخل العلم الإسلامى إليهـا، فى يوم الجمعة لثلاث مضين [من] صفر، ورفع على السور وأعلن بكلمة الإسلام وشهادة الحق . فكانت مدة اسـتيلاء الفرنج عليها أحد عشر شهرا وتسـعة أيام .

وأفرج عن الملك ريد افرنس، بعد ما فدى نفسـه بأربعمائة ألف دينـار، وأفرج عن أخيه وزوجته[٣] ومن بقى من أصحابه، وسائر الأسرى الذين بمصر والقاهرة، ممن أسر فى هذه الواقعة، ومن أيام العادل والكامل والصالح . وكانت عدتهم اثنى عشر ألف أسير ومائة أسير وعشرة أسارى . وساروا الى البر الغـربى، ثم ركبوا البحر فى يوم السبت تاليه، وأقلعوا الى جهة عكا . فقال الصاحب جمال الدين بن مطروح فى ذلك :

قـــل للفرنسيس إذا جئته * مقال نصح من قؤول فصيح
آجـــرك الله على ما جرى * من قتل عُبَّاد[٤] يسوع المسيح

---

(١) أورد ابن واصل (نفس المرجع، ص ١٣٧٣) قصة إحدى تلك المحاورات، وليس لهـا علاقة جوهرية بموضوع تسليم دمياط أو الفدية المطلوبة، ونصها : ”حكى لى الأمير حسام الدين، قال : كان ريد افرنس ملك الإفرنج عاقلا فطنا الى الغاية . قال قلت له فى بعض محاورتى ما معناه : كيف خطر للملك، مع ما أرى فيـه من فضله وعقـله وصحة ذهنـه، أن يقدم على خشب ويركب متن هذا البحر، ويأتى الى هذه البلاد المملوءة خلقا من المسلمين والعساكر، ويعتقد أنها تحصل له ويملكها ؛ و[قلت له إن] فيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته . قال فضحك ولم يرد جوابا . فقلت له إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى، مغرى بنفسه وماله، لا تقبل شهادته إذا شهد . فقـال الملك : ولم ذلك ؟ قال فقلت إنا نستدل بذلك على نقصان عقله، ومن كان ناقص العقل لا ينبغى قبول شهادته . قال فضحك وقال، والله لقد صدق هذا القائل وما قصر فيما حكم به“ .

(٢) يوجد بين الصفحتين ٩٤ ب، ٩٥ ا فى س، ورقة منفصلة بها عدة وفيات، وضعت هناك خطأ، وقد أوردت فى مكانها المناسب تحت سنة ٦٥٣ هـ .

(٣) المعروف أن ملكة فرنسا (Margaret of Provence) رافقت زوجها فى تلك الحملة، وبقيت بدمياط طول مدة وجود الصليبيين بالديار المصرية، وهى التى جمعت المبلغ المطلوب لدفع نصف الفدية المقررة (Lane-Poole: A Hist. of Egypt. p. 250) ولكن ليس من المعروف فى غير كتاب السلوك أنها أسرت ألبتة .

(٤) يوجد فوق هذا اللفظ فى س كلمة ” نصارى “ .

أتيتَ مصرًا تبتغى ملكها * تحسب أن الزمر ياطبل ريح
فساقك الحين الى أدْهَم * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يُرى منهمُ * إلا قتيل أو أسير جريح[(١)]
ألهمك الله إلى مثلها * لعل عيسى منكمُ يستريح
إن يكن البابُ[(٢)] بذا راضيا * فرب غش قد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا إنه * أنصح من شِقٍّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عودة * لأخذ ثار أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشى صبيح

واتفق أن الفرنسيس هذا، بعد خلاصه من أيدى المسلمين، عزم على الحركة[(٣)] الى تونس من بلاد إفريقية، لما كان فيها من المجاعة والموتان. وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث الى البابه[(٤)] خليفة المسيح بزعمهم. فكتب [البابه] الى ملوك النصارى بالمسير معه، وأطلق يده فى أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء. فأتاه من الملوك ملك الإنكتار[(٥)]، وملك

(١) فى س "اسير او جريح". انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١٢٩، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٢) أى البابا.

(٣) وقعت حركة الملك (Louis IX) على تونس فى آخر سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م)، وسيأتى ذكرها هنا فيما يلى.

(٤) كذا فى س، والمقصود البابا واسمه (Clement IV). انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 189).

(٥) أطلق مؤرخو المسلمين هذا الاسم على ملك إنجلترة فى العصور الوسطى، ويوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٧٥) وصف لإنجلترة وملوكها فى تلك الأزمنة، ونصه: "جزيرة انكلطرة ... ويقال انكلترة ...، وطول هذه الجزيرة من الجنوب الى الشمال بانحراف قليل أربعمائة وثلاثون ميلا، واتساعها فى الوسط نحو مائتى ميل، وفيها معدن الذهب والفضة والنحاس والقصدير، وليس فيها كروم لشدة البرد بها؛ وأهلها يحملون الذهب إلى بلاد الفرنج، ويتعاضون عنه بالخمر لعدمه عندهم. وقاعدتها مدينة لندرس .. وصاحب هذه الجزيرة يسمى الانكتار ...". هذا ويلاحظ أن "الانكتار" المذكور هنا لم يكن ملكا على إنجلترة فى وقت الحملة المشار اليها، بل كان ولى العهد فقط واسمه (Edward). أما ملك انجلترة إذ ذاك فكان اسمه (Henry III)، وهو أبو ولى العهد المذكور.

اسكوسنا(١)، وملك تَوَرِل(٢)، وملك برشلونة واسمه ريداركون(٣)، وجماعة أخر ملوك النصارى . فاستعد له السلطان أبوعبد الله محمد المستنصر بالله ابن الأمير أبى زكريا يحيى ابن الشيخ أبى محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص عمر، ملك تونس، وبعث إليه رسله فى طلب الصلح، ومعهم ثمــانون(٤) ألف دينار . فأخذها [الفرنسيس] ولم يصالحهــم ، وسار الى تونس آخر ذى القعدة سنة ثمــان وستين وستمائة ، ونزل بساحل قُرْطَاجَنَّة(٥) فى ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل . وأقام [الفرنسيس هناك] ستة أشهر، فقاتله المسلمون — للنصف من محرم سنة تسع وستين — قتالا شديدا(٦) ، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم . وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجــة ميتا ، فجرت أمور آلت الى عقــد الصلح ومسـير النصارى . ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات(٧)، قال :

يا فرنسيس هذه أخت مصر * فتأهّب لمــا إليـــه تصـــير

لك فيهــا دار ابن لقمان قــبرا(٨) * وطواشـــيك منـــكر ونكير

فكان هذا فألا عليه ومات......(٩)، وكان ريدا فرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكّرًا .

(١ و ٢) كذا فى س ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يساعد على تعيين المقصود بهذين الاسمين ، ما عدا أنه يوجد فى (Bouquet: Rec. Des Hist. Des Gaules, Tome 20, p. 447) ، ضمن عبارة طويلة ، أن ملك فرنسا أبحر إلى تونس برفقة الملوك الآتية أسماؤهم ، وهذا هو نص العبارة المذكورة ، وهى مكتوبة بالفرنسية القديمة :

"Quant li roys Loys attendoit ainsi en sa nef au port de Chatiau Castre, le vendredi après ensivant vindrent aussi come ensemble toutes les autres nez qui estoient meues dou port de Marseille et dou port d'Aiguemorte. Lors vindrent li roys de Navarre et li cuens de Poitiers, li conte de Flandres, messire Jehanne de Bretaigne, et pluseurs autres desquelz trop long chose seroit lors de nombrer."

انظر أيضا (Ibid. Op. Cit. pp. 21, 305 et seq., 440) .

(٣) اسم هذا الملك (James VIII. of Aragon) ، انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 415) .

(٤) فى س " ثمانين " .

(٥) بغير ضبط فى س ، وقرطاجنة الحاليــة إحدى بلاد تونس بإفريقيــة ، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٥٧ — ٥٨) .

(٦) فى س "محاربه سدىده" .

(٧) فى س "الرىاب" ، انظر المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ وص ٢٢٢) .

(٨) فى س " قبر" .

(٩) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، قدر سطر تقريبا .

ولما استولى المسلمون على دمياط ، سارت البشائر الى القاهرة ومصر وسائر الأعمال ، فضربت البشائر وأعلن الناس بالسرور والفرح ، (٩٥ ب) وعادت العساكر الى القاهرة فى يوم الخميس تاسع صفر . فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره خلعت شجر الدر على الأمراء وأرباب الدولة ، وأنفقت فيهم الأموال وفى سائر العسكر .

ووصل خبر قتل الملك المعظم و إقامة شجر الدر [فى السلطنة] الى دمشق ،(١) بمسير الخطيب أصيل الدين محمد بن إبراهيم بن عمر الإسعردى ، لاستحلاف الأمراء [بها] . [وكان] فيها الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة ، والأمراء القيمرية ؛ فلم يجيبوه وأخذوا فى مغالطته . واستولى الملك السعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب على مال مدينة غزة ، وصار إلى قلعة الصُّبَيْبَة فملكها . فلما ورد الخبر بذلك إلى قلعة الجبل ، [فى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت(٢) من صفر] ، أُحيط بداره من القاهرة ، وأُخذ ما كان له بها(٣) . وثار الطواشى بدر الدين لؤلؤ الصوابى الصالحى — نائب الكرك والشوبك ، وركب إلى الشوبك ، وأخرج الملكَ المغيث عمر بن العادلِ(٤) [بن الكامل] الصغيرِ من الحبس ، وملَّكه الكرك والشوبك وأعمالها ، وحلَّف له الناس ، وقام يدبر أمره لصغر سنه .

وكتب الأمراء القيمرية من دمشق إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب — صاحب حلب ، يخبرونه(٥)

(١) فى س " ووصل خبر قتل الملك المعظم الى دمشق واقامة شجر الدر" .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٤ أ) .

(٣) كانت قلعة الصبيبة ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) بيد الملك السعيد هذا منذ مات أخوه الملك الظاهر بن العزيز عثمان . ثم أعطاها الملك السعيد لابن عمه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعوضه السلطان عنها خبزا بالديار المصرية . فلما قتل السلطان الملك المعظم توراناشاه بن الصالح نجم الدين أيوب ، هرب الملك السعيد الى غزة ، وفعل ما فعل على الصورة الواردة فى المتن .

(٤) كان السلطان الملك المعظم توران شاه قد أخرج المغيث هذا من محبسه بقلعة الجبل ، ثم أبعده الى الشوبك خوفا منه . (انظر ص ٣٥٨ ، سطر ٧ ؛ وابن واصل : نفس المرجع ، ص ٣٧٤ ب) .

(٥) فى س "يخبروه" .

بامتناعهم من الحلف لشجر الدر، ويحثونه[1] على المسير إليهم حتى يملك دمشق . فخرج من حلب فى عساكره مستهل شهر ربيع الآخر، ووصل إلى دمشق يوم السبت ثامنه، ونازلها إلى أن كان يوم الاثنين عاشره زحف [عليها] . ففتح الأمراء القيمرية له أبواب البلد، وكان القائم بذلك من القيمرية[2] الأمير ناصر الدين أبو المعالى حسين بن عزيز بن أبى الفوارس القيمرى الكردى . فدخلها [الناصر صلاح الدين] هو وأصحابه بغير قتال، وخلع على الأمراء القيمرية، وعلى الأمير جمال الدين بن يغمور، وقبض على عدّة من الأمراء المماليك الصالحية وسجنهم . وملك [الناصر صلاح الدين] قلعة دمشق، وكان بها مجاهد الدين إبراهيم أخو زين الدين أمير جندار، فسلمها إلى الناصر، وبها من المال مائة ألف دينار وأربعمائة ألف درهم سوى الأثاث . ففرق الناصر جميع ذلك على الملوك والأمراء، وأعطى شمس الدين لؤلؤ من خزائنه عشرة آلاف دينار، وخلعة وفرسا وثلثمائة ثوب؛ فرد [شمس الدين] ذلك، إلا الخلعة والفـــرس .

وكان الخبر قد ورد الى قلعة الجبل — فى سادس ربيع الآخر — بخروج الناصر من حلب، فجدّد الأمراء والمماليك وغيرهم الأيمان لشجر الدر، ولعز الدين أيبك بالتقدمة على العساكر . ودارت النقباء على الأجناد، وأمروهم بالسفر الى الشام . وفى يوم الأربعاء ثانى عشره رُسم أن يسير الأمير أبو على بالعسكر . وفى رابع عشره ورد الخبر بمنازلة الناصر لدمشق، فوقع الحث على خروج العسكر . وفى حادى عشريه ورد الخبر بأن الناصر مَلَك دمشق، بتسليم القيمرية البلد له . فقُبض على عدّة من أمراء مصر [الذين ليسوا من الترك][3]، ووقع اضطراب كثير فى القاهرة؛ وقبض على القاضى نجم الدين ابن قاضى نابلس، وعدة (٩٦ أ) ممن يتهم بالميل الى الناصر. وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر، فى تاسع عشرى

(١) فى س "يحثوه" .

(٢) بعض حروف هذه العبارة محجوب بورقة ملصوقة فوقها فى س، ولكنها واضحة تماما فى ب (١١٤ ب) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٥ أ) .

شهر ربيع الآخر، وخلعت [شجر الدر] نفسها من مملكة مصر، ونزلت له عن الملك، فكانت مدة دولتها ثمانين يوما[١] .

الملك المعز عز الدين أيبك[٢] الجاشنكير التركمانى الصالحى

كان تركى الأصل والجنس ، فانتقل الى ملك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركمانى[٣] ، فعرف بين البحرية بأيبك التركمانى ؛ وترقى عنده فى الخدم ، حتى صار أحد الأمراء الصالحية ، وعمله جاشنكيرا[٤] ، الى أن مات الملك الصالح، وقتل بعده ابنه الملك المعظم . فصار [أيبك] أتابك العساكر ، مع شجر الدر ؛ ووصل الخبر بذلك الى بغداد، فبعث الخليفة المستعصم بالله من بغداد كتابا الى مصر ، وهو ينكر على الأمراء ويقول لهم : ”إن كانت الرجال قد عدمت عندكم، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا “ .

---

(١) ينتهى هنا القسم الذى ترجمه (Blochet) من كتاب السلوك الى الفرنسية ، ويليه القسم الذى ترجمه منه الى الفرنسية أيضا (Quatremère) . انظر تصدير القسم الأول من الجزء الأول ، صفحة ى — ك .

(٢) هذا الاسم مركب من لفظين تركيين ، وهما آى بك . ومعنى أولهما القمر ، ومرادف ثانيهما فى العربية لفظ الأمير . (Quatremère : Hist. des Sultans Mamlouks I. 1. p. 1. n. 2) . ويلاحظ أن أسماء معظم سلاطين المماليك ، وأسماء كل أمراء دولتهم تقريبا ، عبارة عن أسماء أشياء أو حيوانات فى اللغات التركية والفارسية والتترية ، مثل ذلك بيبرس ومعناه الأمير فهد ، وقلاون ومعناه البطة ، وطوغان ومعناه الصقر ، وبكتمر ومعناه الأمير حديد . ومن أسمائهم أيضا ما يدل على صفات فى إحدى اللغات المتقدمة ، ومنها سلار ومعناه الهاجم ، وإزبك ومعناه النبيل . راجع (Lane-Poole : Saracenic Art. p. 4. Note) .

(٣) أولاد التركمانى هم بنو رسول الذين استقلوا باليمن (Quatremère : Op. cit. I. 1. P. 1. N. 3) ، انظر أيضا (ص ١٨١ ، ٢١٣ ، ٢٣٧) . وأصل نسبتهم الى التركمان ، مع أنهم عرب غسانية ، حسبما جاء فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٢٧ – ٢٨) ، أتوا من بلاد التركمان الى بغداد ، فى خلافة المستنجد (٥٥٥ — ٥٦٦ هـ ، ١١٦٠ — ١١٧٠ م) ، فنسبهم من يعرفهم الى غسان ، ونسبهم من لا يعرفهم الى التركمان ، ”وكانوا بيت شجاعة ورئاسة ، وكان محمد بن هارون جليل القدر فيهم ، فأدناه الخليفة العباسى واختصه برسالته الى الشام والى مصر ... ، فانطلق عليه اسم رسول وشهر به ... . ثم (ص ٢٨) انتقل [محمد بن هارون] من العراق الى الشام ، ومن الشام الى مصر ، فيمن معه من أولاده ... فلما استوثق الملك لبنى أيوب فى مصر ، لم يزل معهم عصبة من بنى رسول ... فأجمع رأيهم على تسييرهم الى اليمن صحبة الملك المعظم توران شاه بن أيوب ، فخرجوا صحبته ... ... “ ، ومن هنا بدأت علاقة بنى رسول باليمن .

(٤) فى س ”جاشنكير“ .

واتفق ورود الخبر باستيلاء الملك الناصر على دمشق، فاجتمع الأمراء والبحرية للمَشُور[(١)]، واتفقوا على إقامة الأمير عز الدين أيبك مقدم العسكر فى السلطنة، ولقبوه بالملك المعز؛ وكان مشهورا بينهم بدين وكرم وجودة رأى . فأركبوه فى يوم السبت آخر شهر ربيع الآخر، وحمل الأمراء بين يديه الغاشـية نوبا واحدا بعد آخر الى قلعـة الجبل، وجلسوا معـه على السماط؛ ونودى بالزينة فزينت القاهرة ومصر .

فورد الخبر فى يوم الأحد تاليه بتسلم الملك المغيث عمر الكرك والشوبك ، وبتسلم الملك السعيد قلعة الصبيبة . فلما كان بعد ذلك تجمع الأمراء، وقالوا : "لابد من إقامة شخص من بيت المُلْك مع المعز أيبك، ليجتمع الكل على طاعته، ويطيعه الملوك من أهله[(٢)]" . فاتفقوا على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك [المسـعود — ويقال له[(٣)]] الناصر [صـلاح الدين] — يوسف بن الملك المسعود يوسف — [المعروف باسم] اقسيس[(٤)] — بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب[(٥)]، وله من العمر نحو ست سـنين، شريكا للملك المعز أيبـك، وأن يقوم الملك المعز بتدبير الدولة . فأقاموه سلطانا فى ثالث جمادى الأولى، وجلس على السماط وحضر الأمراء فى خدمتـه يوم الخميس خامس جمادى الأولى . فكانت المراسيم والمناشـير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز، إلا أن الأشرف ليس له سوى الاسم فى الشركة لا غير ذلك، وجميع الأمور بيد المعز أيبك . وكان بغزة جمـاعة من العسكر، عليهم

(١) كذا فى س، وهى بغير ضبط . والمشور صيغة عامية للفظ " المشورة " . (محيط المحيط) .

(٢) تدل عبـارة ابن واصل فى هــذا الصدد (نفس المرجع، ص ٣٧٦ أ) على أن سبب اجتماع الأمراء على إقامة واحد من بنى أيوب ليشارك فى السلطنة، هو أنفتهم وخوفهم من المعز أيبك التركمانى . ونصها : " أنفوا من أن يكون عز الدين التركمانى سـلطانا، فاختاروا أن يقيموا صبيا من بنى أيوب، يكون له اسم الملك، ويكون هم الذين يدبرون الملك، ويأكلون الدنيا باسمه ... ." (انظر أيضا ص ٣٧٨، سطر ٦) .

(٣) عبارة س كالآتى : " فاجمعوا على اقامه الملك الاشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر يوسف بن الملك المسعود يوسف بن الملك المسعود قسيس بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب"، وقد صححت الى الترتيب الوارد هنا، وأضيف ما بين الأقواس، بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٣٠، فى Rec. Hist. Or. I؛ والمقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٣٧، وابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧٦ أ) .

(٤ و٥) العبارة الواردة بين الرقين ليست مترجمـة فى (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 8) . هـذا وأقسيس — أو اطسز، أو طسز — اسم عرف به الملك المسـعود يوسف المذكور، وهو الذى كان آخر ملوك بنى أيوب باليمن . راجع ص ٢٣٧، سطر ١ — ٦؛ وكذلك القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٠) .

الأمير ركن الدين خاص ترك ، فرجعوا الى الصالحيــة (٩٦ ب) واتفقوا مع عدّة من الأمراء على إقامة الملك المغيث عمر بن العادل الصــغير، صاحب الكرك ؛ وخطبوا له بالصالحيــة ، يوم الجمعــة رابع جمادى الآخرة . فلمــا ورد الخبر بذلك نودى فى القاهرة ومصر أن البــلاد للخليفــة المستعصم بالله العباسى، وأن الملك المعز عز الدين أيبــك نائبه بهــا، وذلك فى يوم الأحد سادســه . ووقع الحث فى يوم الاثنين على خروج العساكر ، وجُدِّدت الأيمــان للملك الأشرف موسى والملك المعز أيبك ، وأن يبرز اسمهما على التواقيع والمراسيم، وينقش اسمهما على السكة ، ويخطب لهما على المنابر ، وأقيم شرف الدين أبو سعيد هبة الله بن صاعد الفائزى المنعوت بالأسعد فى الوزارة[١] .

وتسحب من الصالحية الطواشيان شهاب الدين رشيد الكبير، وشهاب الدين الصــغير، وركن الدين خاص ترك، وأَقش[٢] المُشْرِف[٣] . فقبض على الطواشى شهاب الدين رشيد الصغير، وأحضر الى القاهرة فاعتقل بهــا ، ونجا الباقون . وسارت الخلع لمن بقى بالصالحيــة ، وعفى عنهم وأُمِّنُوا، وأرسل إليهم بنفقة .

و فى يوم الخميس عاشره ركب الملكان الأشرف والمعز بالصــناجق السلطانية ، وشَــقَّا القاهرة، والمعز يحجب[٤] الأشرف، والأمراء تتناوب فى حمل الغاشية واحدا بعد واحد .

وقدمت عساكر الملك النــاصر إلى غزة ، فخرج الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار — وكانت إليــه تقدمة المــاليك البحرية — من القاهرة، فى يوم الخميس خامس شهر رجب، بألفى فارس . وسار إلى غزة، وقاتل أصحاب الناصر وهزمهم .

(١) كان شرف الدين أبو سعيد هذا قبطيا ، وهو أوّل قبطى ولى الوزارة بمصر الإسلامية ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢٣٧) .

(٢) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. l. P. 10) .

(٣) تقدّم وصف وظيفة المشرف فى ص ١٢٧ ، حاشية ١ ، و يوجد فى Quatremère : Op. cit. I. l. P. 10, N. 9.) أمثلة تدل على ماهية تلك الوظيفة بالضبط ، ومنها : "مشرف المالك مرتبته دون الوزارة" .

(٤) المقصود هنا أن المعز أيبك كان يؤدّى وظيفة الحاجب فى ذلك الموكب ، أى أنه كان راكبا أمامه بعصا فى يده . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٥١) . و يؤيد ذلك ما ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٧٦ ب

وفى يوم الخميس لخمس بقين من رجب، اتفق أهـل الدولة على نقـل [تابوت] الملك الصالح [نجم الدين أيوب] من قلعـة جزيرة الروضة، إلى تربتـه التى بنيت له بجوار مدارسه الصالحية من بين القصرين . فخرج الناس يوم الجمعة إلى قلعة الروضة، وحملوا السلطان منها، وصلوا عليه بعـد صلاة الجمعة . وجميع العسكر قد لبسوا البياض، وقطّع المماليك شعورهم، وأقيم عزاؤه ودفن ليـلا . ونزل الملكان الأشرف والمعز من قلعة الجبل إلى التربة الصالحية فى يوم السبت، ومعهما سائر المماليك البحرية والجمـدارية، والأمراء والقضاة والأعيان . وغلقت الأسواق بالقاهرة ومصر، وأقيم المأتم بالدفوف بين القصرين، واستمر الحضور للعزاء إلى يوم الاثنين . وجعل عند القـبر سناجق السلطان (١٩٧ أ) وبُقَجُه[(١)] وقوسه وتَرْكاشُـه[(٢)]، وترتبت القراء يقرءون عند قبره .

وفى هذه السـنة عزل بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن السنجارى عن قضاء القاهرة، وولى بعـده عماد الدين أبو القاسم ابن المقنشع بن القطب الحموى . فلما مات أفضـل الدين الخونجى، ولى [ابن القطب الحموى] بعده قضاء مصر . ثم ولى صـدر الدين موهوب الجزرى قضاء مصر، عنـد انتقال ابن القطب الى قضاء القـاهرة . وفى آخر شهر رجب أعيد البـدر السنجارى الى قضاء القـاهرة، وابن القطب الى قضاء مصر . ثم جُمع

= ٣٧٧ أ)، فى وصف ذلك الموكب . ونصـه : "ولما كان يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الأولى، ركب السلطان الملك الأشرف مظفر الدين موسى بالسناجق السلطانية، (٣٧٧ أ) والملك المعز عزالدين أيبك التركمانى راكب قدامه... ..."على أنه من المعروف أيضا، حسبما جاء فى (Quatremére : Op. cit. I. 1. p. 10. N. 10)، أن المعز أيبك كان قد قرر احتجاب الأشرف موسى عن الناس، واستدل على ذلك بعبارات من مراجع كثيرة، ومنها : "وزاد [المعز] على ذلك بأن حجبه ومنعه من الظهور الى الناس إلا معه" .

(١) البقجة الصرة من القماش، توضع بهـا الثياب أو النقـود أو الأوراق الخاصـة، وهى فارسية الأصـل، وتجمع على بقج . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. l. p. 12. N. 13) هذا اللفظ الى (coffre)، أى صندوق أو خزانة، على أنه لا يوجد بين الأمثـلة الواردة هناك للتدليل على ذلك المعنى مايشير الى أن البقجة كانت تصنع من مادة غير القماش .

(٢) التركاش لفظ فارسى الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب . (Quatremère : Op. cit. I l. p. 13. N. 14 و ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قضاء مصر والقاهرة للسنجارى ، وصرف ابن القطب عن مصر . وعاد الفارس أقطاى من غزة الى القاهرة ، فى رابع شعبان . وفى خامسه قبض على الأمير زين الدين أمير جاندار الصالحى ، وعلى القاضى صدر الدين قاضى آمد — وكان من كبراء الدولة الصلاحية ، واعتقلا .

ولاثنتى عشرة بقيت من شعبان وقع الهدم فى مدينة دمياط ، باتفاق أهل الدولة على ذلك ؛ وخرج الحجارون والصناع والفعلة من القاهرة ، فأزيلت أسوارها ومحيت آثارها ، ولم يبق منها سوى الجامع . وسكن طائفة من ضعفاء الناس فى أخصاص على شاطئ النيل من قبليها ، وسموها المنشية وهى موضع دمياط الآن . ولِستٍّ بقين منه قُبض على الأمير جمال الدين النجيبى واعتقل ، وبعده بيوم قبض على أقش العجمى .

وأخذ الملك الناصر صاحب الشام فى الحركة لأخذ مصر ، بتحريض الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينى له على ذلك . وخرج [الناصر] من دمشق بعساكره ، يوم الأحد النصف من شهر رمضان : ومعه الملك الصالح [عماد الدين](١) إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب ، والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن شيركوه ، والملك المعظم تورانشاه ابن السلطان صلاح الدين الكبير وأخوه نصرة الدين ، والملك الظاهر شادى بن الناصر داود وأخوه الملك الأمجد حسن(٢) ، والملك الأمجد [تقى الدين] عباس بن العادل ، وعدة ملوك .

فلما ورد الخبر بذلك اضطربت الدولة ، ورُسم بجمع العربان من الصعيد ، وقبض على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل مع الملك الناصر فى ثانى شوال ، عند ما ورد الخبر بوصوله

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ ا) .

(٢) كان أولاد الناصر داود وأخوته قد انتقلوا الى القاهرة ، فى أواخر أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب ، (انظر ص ٣٣٨ ، سطر ٢ ، وما يليه) ، وقد بقوا بها حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٧٩ أ) ، الى أيام المعز أيبك والأشرف موسى . فلما استولى الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب على دمشق ، أمر الملك المعز إخوة الملك الناصر داود وأولاده وأهله بالخروج من الديار المصرية ، فرحلوا وانضم منهم إلى الناصر صاحب حلب الملك الظاهر شادى وأخوه الملك الأمجد حسن ، كما هو وارد فى المتن .

الى غزة . وفى غَدِه كثر الإرجاف ووقع التهيؤ للحـرب ، وأحضرت الخيول من الربيـع[1] . وفى يوم الاثنين ثامنه برز الأمير حسام الدين أبو على من القاهرة ، وكان الوقت شتاء . وفى تاسعه (٩٧ ب) برز الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار — مقدم البحرية — فى جمهور العسكر من الترك . وسارت العساكر فى حادى عشره، واجتمعت بالصالحية .

وفى يوم السبت ثالث عشره استناب الملك المعز أيبك بديار مصر الأمير علاء الدين البندقدار، فواظب الجلوس بالمدارس الصالحية مع نواب دار العدل ، لترتيب الأمور وكشف المظالم . ونودى يوم السبت العشرين منه بإبطال الخمور، والجهة المفردة[2] .

وفيـه كثر الإرجاف بوصول الناصر إلى الدَّارُوْم . وفى تاسع عشريه خلع الملك المعز على الملك المنصور محمود، و[على] أخيـه الملك السعيد عبد الملك ، ولدى الملك الصالح إسماعيل [عماد الدين] — وكانا فى حبس الملك الصالح نجم الدين [أيوب] — وأركبهما فى القاهرة، ليوهم الناس أن الملك الصالح أباهما مباطن له على الملك الناصر، حتى يقع بينهما .

وفى يوم الثلاثاء أوّل ذى القعـدة نودى بالقاهرة أن الصلح انتظم بين الملك المعز والبحـرية ، وبين الملك المغيث عمر بن العـادل صاحب الكرك . ولم يكن لما نودى به حقيقة، وإنما قصد بذلك أن يقف الملك الناصر عن الحركة .

وفى يوم الخميس ثالثه نزل الملك المعز من قلعـة الجبل فيمن بقى عنـده من العساكر ، وسار إلى الصالحية وبها العساكر التى خرجت قبله ؛ وترك بقلعة الجبل الملك الأشرف موسى . فاستقرت عساكر مصر بالصالحية إلى يوم الاثنين سابعه ، فوصل الملك الناصر بعساكره إلى

---

(١) الربيـع هنا مكان الرعى ، وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 16, N. 16) أمثلة عدة للدلالة على هذا المعنى، ومنها : "توجه الى الربيع وأقام به أياما" .

(٢) الجهة هنا الضريبة ، وفى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 17, N. 17) أمثلة كثيرة لتقرير هـذا المعنى ، ومنها : " نظر الجهات موضوعه التحدث فيما يتحصـل من التجار برا وبحرا " . وعلى ذلك فالجهة المفردة هى الضريبة المقررة لديوان المفرد، وهو الديوان الذى يتولى نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة ، وإيراده من البلاد المفردة له . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣، ص ٤٥٧) .

كُراع[١] — وهى قريبـة من العباسة ، فتقارب ما بين العسكرين . و[كان] فى ظن كل أحد أن النصرة إنما تكون للملك الناصر على البحرية ، لكثرة عساكره ولميل أكثر عسكر مصر إليه . فاتفق أنه كان مع الناصر جمع كبير من مماليك أبيه الملك العزيز ، وهم أتراك يميلون إلى البحرية لعلة الجنسية ، ولكراهتهم فى الأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة .

فعنـد ما نزل الناصر بمنزلة الكراع ، قريبا من الخَشَبِىّ[٢] بالرمل ، رحل المعز أيبك بعساكر مصر من الصالحيـة ، ونزل تجاهه بِسَمُّوط[٣] إلى يوم الخميس عاشره . فركب الملك النـاصر فى العساكر ، ورتب ميمنة وميسرة وقلبا . وركب الملك المعز ، ورتب أيضا عساكره . وكانت الوقعة فى الساعة الرابعة ، فاتفق فيها أمر عجيب قلَّ ما اتفق مثـله ، فإن الكسرة كانت أولا على عساكر مصر ، ثم صارت على الشاميين : (٩٨ ا) وذلك أن ميمنة عسكر الشام حملت هى والميسرة على من بإزائها حملة شديدة ، فانكسرت ميسرة المصريين وولوا منهزمين ، وزحف أبطال الشاميين وراءهم ، وما لهم علم بما جرى خلفهم . وانكسرت ميمنة أهل الشام ، وثبت كل من القلبين واقتتلوا . ومر المنهزمون من عسكر مصر إلى بلاد الصعيد ، وقد نهبت أثقالهم . وعند ما مروا على القاهرة خطب بها للملك الناصر ، وخطب له بقلعة الجبل ومصر ، وبات الأمير جمـال الدين بن يغمور بالعباسة ، وأحمى الحمـام للملك الناصر وجهز له الإقامة . هذا والناصر على منزلة كراع ليس عنده خبر ، وإنما هو واقف بسناجقه وخزائنه وأصحابه . وأما ميمنة أهل الشام ، فإنها لمـا كُسرت قَتل منهم عسكر مصر خلقا كثيرا فى الرمل ، وأسروا أكثرمما قتلوا .

(١) بغير ضبط فى س ، وقد حدّد المقريزى موضعها فيما يلى ، كما ذكر (Quatremère : Op. Cit. I. l. P. 19. N. 18) أنها واقعة بين العباسة والسدير . هذا والكراع فى اللغة طرف الشىء ، وكراع الأرض طرفها البعيد . (محيط المحيط) .

(٢) يوجد بهامش الصـفحة فى س ، قبالة اسم هذا البلد العبارة الآتية ، وهى بخط يشبه خط المتن تمـاما ، ونصها : " الخشبى يعرف اليوم بالسعيدية ، فيما بين بلبيس وبين الصالحية " . ويقع هذا البلد على مسافة ثلاث مراحل من الفسـطاط ، وكان به خان ، وهو أول الجفار من ناحيـة مصر ، وآخرها من ناحية الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٤٥) .

(٣) بغير ف س ، وهى موضع بين الخشبى والعباسـة . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٢٠١ ، فى (Rec. Hist. Or. V. .

وتعين الظفر للناصر وهو ثابت فى القلب، وتجاهه المعز أيبـك أيضا فى القلب . فخاف أمراء الناصر منه أن يفنيهم إذا تم له الأمر، وخامروا عليه وفروا بأطلابهم إلى الملك المعز : وهم الأمير جمـال الدين أيدغدى العزيزى ، والأمير جمـال الدين أقوش الحسامى ، والأمير بدر الدين بكتوت الظاهرى، والأمير سليمان العزيزى، وجماعة [غيرهم] . فخارت قوى الناصر من ذهاب المذكورين إلى الملك المعز ، فحمل المعز بمن معه على سناجق الناصر، ظنا منـه أن الناصر تحتها . وكان الناصر — لما فارقه الأمراء إلى عند المعز — [قد] خرج من تحت السناجق فى شرذمة قليـلة، فخاب ما أمّله المعز أيبك ، وعاد إلى مركزه خائبـا . وقد قوى الشاميون بذلك، وتبعوه يقتلون منـه وينهبون .

وسُرّ الأمراء القيمرية بذلك، وقصـدوا الحملة على المعز ليأخذوه ، فوجدوا أصحابهم قد تفرقوا فى طلب الكسب والنهب . فحمل المعزعليهم وثبتوا له ، ثم انحاز إلى جانب يريد الفرار إلى جهة الشوبك . ووقف الناصر فى جمع من العزيزية وغيرهم تحت سناجقه وقد اطمأن ، فخرج عليهم المعز — ومعـه الفارس أقطاى — فى نحو ثلثمائة من البحرية، وقرب منـه . فخامر عدّة ممن كان مع الناصر عليه، ومالوا مع المعز والبحرية ، فولى الناصر فارا يريد الشام فى خاصته وغلمانه . واستولى البحرية على سناجقه، وكسروا صناديقه ونهبو (٩٨ ب) أمواله .

وساق المعز يريد الأطلاب، فوقع بطلب الأمير شمس الدين لؤلؤ ، والأمير حسام الدين القيمرى، والأمير ضياء الدين القيمرى، وتاج الملوك ابن المعظم، والأمير شمس الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى ، وجماعة [غيرهم] . فبـدّد [الملك المعز] شملهم، وأَسَر المعظمَ تورانشاه بن صـلاح الدين، وأخاه نصُرة الدين محمد، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العـادل، والملك الأشرف صاحب حمص، والملك الزاهر، والأمير شهاب الدين القيمرى، والأمير حسام الدين طرنطاى العزيزى، والأمير ضـياء الدين القيمرى ، والأمير شمس الدين لؤلؤ مدبر المملكة الحلبية، وأعيان الحلبيين وخلقا كثيرا . وقُتِـل الأمير شمس الدين الحميدى، والأمير بدر الدين الزرزارى، وجماعة [غيرهما] .

وكان الأمير حسام الدين أبو على الهذبانى على ميسرة عسكر المصريين، فلما وقعت الكسرة على الميسرة تفرق عنه أصحابه، وتقنطر(١) عن فرسه وكاد يؤخذ، لولا [أنه] وقف معه من أركبه، فلحق بالمعز أبيك. فأمر الملك المعز بضرب عنق الأمير شمس الدين لؤلؤ، فأخذته السيوف حتى قطع؛ وضُربت عنق الأمير ضياء الدين القيمرى. وأُتِى بالملك الصالح إسماعيل وهو راكب، فسلم عليه الملك المعز وأوقفه إلى جانبه، وقال للأمير حسام الدين أبى على: "ما تُسَلِّم على المولى الملك الصالح"، فدنا منه [الأمير حسام الدين] وعانقه وسلم عليه. وجُرح الملك المعظم، وابنه تاج الملوك؛ وضُرب الشريف المرتضى فى وجهه ضربة عظيمة، وهموا بقتله ثم تركوه.

وتمزق أهل الشام كل ممزق، ومشوا فى الرمل أياما. وسار الملك الناصر ومعه نوفل الزبيدى وعلىّ السعدى إلى دمشق. وأما العسكر الشامى الذى كَسَر ميسرة المصريين، فإنه وصل إلى العباسة ونزل بها، وضرب الدهليز الناصرى هناك، وفيهم الأمير جمال الدين بن يغمور نائب السلطنة بدمشق وعدة من أمراء الناصر، وهم لايشكُّون أن أمر المصريين قد بطل وزال، وأن الملك الناصر مُقْدِم عليهم ليسيروا فى خدمته إلى القاهرة. فبيناهم كذلك إذ وصل اليهم الخبر بهروب الملك الناصر، وقَتْل الأمراء وأسر الملوك وغيرهم. فهمَّ طائفة منهم أن يسيروا إلى القاهرة ويستولوا عليها، ومنهم من رأى الرجوع إلى الشام؛ ثم اتفقوا على الرجوع.

وأما من انهزم من (١٩٩ ا) عسكر مصر أولا، فإنهم وصلوا إلى القاهرة فى يوم الجمعة حادى عشره، غدِ يوم الوقعة. فما شك الناس فى أن الأمر تم للملك الناصر، وأن أمر البحرية قد زال. وكان بقلعة الجبل الأمير ناصر الدين إسماعيل ...(٢) بن يغمور، أستادار الملك الصالح [عماد الدين] إسماعيل، فى جب هو وأمين الدولة أبو الحسن بن غزال — المتطبب المعروف بالسامرى وزير الصالح المذكور، والأمير سيف الدين القيمرى، وجماعة [غيرهم أيضا]، لهم

(١) فى س "تقطر".   (٢) بياض فى س، يسع لفظا واحدا.

من أيام الملك الصـالح نجم الدين أيوب فى الاعتقال . فلما بلغهم ذلك خرجوا من الجب ، وأظهروا الفرح والاستبشار، وأرادوا أخذ القلعة . فلم يوافق الأمير سيف الدين القيمرى على ذلك ، وتركهم وقعد على باب دار الملك المعـز أيبك التى فيها عياله ، وحمـاها وصدّ الناس عنها . وصاح البقية : "الملك الناصر يا منصور!" .

وخُطب للناصر بالقلعة ومصر ، وسائر البلادالتى بلغها خبر نصرته . وكان بجامع القاهرة الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين ، وصلى بجماعة الجمعـة ، وصلى قوم صـلاة الظهر . فمـا هو إلا أن انقضت صلاة الجمعة ، [حتى] وردت البشارة بانتصار الملك المعز وهزيمة الناصر ، فدُقَّت البشائر . وقدم جماعة ومعهم نصرة الدين ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فاعتقلوه بقلعة الجبل . وقُبض على الأمير ناصر الدين ابن يغمور ، والوزير أمين الدولة [أبى الحسن بن غزال](١) ، ومن كان معهما ، وأعيـدوا الى الجب . ونودى آخر النهار فى القاهرة ومصر بالزينة .

وأما الملك المعز فإنه ساق — بعد ما تقدم ذكره من قتله الأمراء — إلى العباسة ، فلما رأى دهليز الملك الناصر(٢) توهم ، وعرج عن الطريق على العلاقمة إلى بلبيس ، ظنا أن واقعـة وقعت بالقاهرة . فبلغ من كان بالدهليز الخبر فهدموه فى الليل ، وساروا الى الشـام . فبلغ ذلك الملك المعز وهو فى بلبيس ، فرحل يريد القـاهرة وقد اطمأن ؛ ودخلها يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة بالأسرى بين يديه ، وسناجقهم مقلبـة وطبولهم مشققة(٣) ، وخيولهم وأموالهم بين يديه ، إلى أن وصـل إلى بين القصرين . فلعبت الممـالك بالرماح وتطاردوا ، والملك المعز فى الموكب ، وإلى جانبه الأمير حسـام الدين أبى على ، وقدامه الملك الصالح

(١) فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى هامش غير موجود بالصفحة ، ولعل المقريزى قصـد أن يكمل الاسم على الصورة الواردة بالصفحة السابقة ، ثم أغفل ذلك أو نسيه .

(٢) كان العسكر الشامى الذى كسر ميسرة المصريين ، وتقدم الى العباسة فنزل بها ، قد ضرب الدهليز الناصرى هناك استعدادا لوصول الناصر . (انظر ص ٣٧٦ ، سطر ١٠) .

(٣) فى س "مشقعة" .

إسماعيل تحت الاحتياط . فعند ما (٩٩ ب) وصــل إلى تربة الملك الصالح نجم الدين أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل، وصاحوا : "ياخوند ! أين عينك ترى عدوك إسماعيل؟" ثم ساروا إلى قلعة الجبــل، واعتقل الصالح إسماعيل بهــا وبقية الملوك ؛ وألقى الأسرى من الشاميين فى الجباب . وعند ما دخل الملك المعز[1] [إلى القلعة]، تلقاه الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر ؛ فقال الأمير فارس الدين أقطاى للأشرف : "كلما حصل بسعادتك ، وما سعينا إلا فى تقرير ملكك"، وكان يؤثر بقاء الأشرف خوفا من استبداد المعز أيبك . وكان هــذا اليوم من أعظم أيام القــاهرة ، واستمرت الزينة بالقاهرة ومصر وقلعة الجبل وقلعة الروضة عدّة أيام .

وفى يوم الاثنين رابع عشره شُنق الأمير ناصر الدين إسماعيل بن يغمور، أستادار الصالح إسماعيل؛ وشنق بكجا[2] ملك الخوارزمى[3] ، وأمين الدولة أبو الحسن السامرى الوزير، على باب قلعة الجبــل، ومعهم المجير بن حمــدان من أهــل دمشق . وظهر لأمين الدولة من الأموال والتحف والجوهر ما لا يوجد مثله إلا عند الخلفاء، بلغت قيمة ما ظهر له ســوى ما كان مودوعا ثلاثة آلاف ألف دينــار؛ ووجد له عشرة آلاف مجــلدة، كلها بخطوط منسوبة، وكتب نفيسة .

وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة، قُتل الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بقلعة الجبل؛ وعمره نحو الخمسين سنة . قال ابن واصل : من أعجب ما مَرّ بى أن الملك الجواد موودودا[4]، لمــا كان فى حبس الملك الصالح إسماعيل، سير إليه [الملك الصالح إسماعيل] من خنقه ، وفارقه ظنا أنه قد مات، فأفاق فرأته امرأة هناك،

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٤ أ) .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وهو فى ب (١١٨ أ) "بكجا" ، وقد ترجمه (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 30) إلى (Bekdjesa) .

(٣) كذا فى س .

(٤) فى س "مودود" .

فأخبرتهم أنه قد أفاق ، فعادوا إليـه وخنقوه حتى مات . وفى هذه الليلة لما أخرجوا الملك الصالح إسماعيـل بأمر المعز أيبـك إلى ظاهر القلعة ، وكان معهم ضـوء فأطفأوه ، وخنقوه وفارقوه ظنا أنه قـد مات ، فأفاق فرأته امرأة هنـاك ، فأخبرتهـم أنه أفاق ، فعادوا اليـه وخنقوه حتى مات . فانظر ما أعجب هذه الواقعة! ودفن هناك[١] ، وكانت أمه رومية ، وكان رئيس[٢] (؟) النفس نبيل القدر ، مطاعا له حرمة وافرة ، وفيه شجاعة .

وفى ثامن عشريه أخرج الملك المعز كل من دخل القاهرة من عسكر الملك الناصر ، الى دمشق على حمير ، هُمْ وأتباعهم ، ولم يمكن أحدا منهـم أن يركب فرسا ، إلا نحو الستة أنفس فقط ، وكانوا نحو الثلاثة آلاف رجل .

وفيهـا وصل الى الملك الناصر من قبل القان[٣] ملك التتر طَمْغَا[٤] صورة أمان ، فصار يحملها فى حياصته[٥] ، وسير الى القان هدايا كثيرة . فلما خرج هولاكو واستولى على الممـالك ، تغافل الناصر عنه ولم يبعث إليه شيئا ، فعز ذلك عليه ، وصار فى كل قليل ينكر تأخر تقدمة الناصر الهدايا والتحف اليه .

---

(١) قصـة خنق الملك الصالح إسماعيل مرتين ، وموافقتها فى التفاصـيل لما حدث فى خنـق الملك الجواد ، واردة بألفاظها وترتيبها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٤ ب) . و يلاحظ أن هذه أوّل مرة فى كتاب السلوك ، يشير فيها المقريزى لابن واصل .

(٢) فى س " رييس " .

(٣) كان قان — أوخاقان — التـتر فى تلك السـنة كيـوك (٦٤٤ — ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٦ — ١٢٤٨ م) . انظر (Lane-Poole : Muh. Dyns. P. 215) . وهو ابن أوغطاى بن جنكزخان ، واسمـه فى المراجع الإنجليزية (Kuyuk) ، وفى الفرنسـية (Couyouk)) . وقد أرسـل ذلك الخان ، حسبما جاء فى (D'Ohsson : Hist. Des Mongols, III. p. 91) الى الملك الناصر صـاحب دمشـق صورة أمان ، صار الناصر يحملها فى حياصته ، كما فى المتن هنا .

(٤) الطمغا كلمة تركية ، معناها هنا البراءة (diploma) التى تصدر من قبل السلطان أو الملك ، بالعفو عن مجرم ، أو تأمين خائف . والطمغا أيضا شعار السلطان أو الأمير (blazon) . انظر (Steingass : Pers. - Eng. Dict.) ، وأيضا (Mayer : Saracenic Heraldry, pp.18,33,53,206) .

(٥) الحياصة هنا الحزام أو المنطقة ، (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 31, N. 31)) ، وهى فى الأصل السير الذى يشد به حزام سرج الحصان . (محيط المحيط) .

وفيها كثر ضرر المماليك البحرية بمصر ، ومالوا على الناس وقتلوا ونهبوا الأموال ، وسبوا الحريم وبالغوا فى الفساد ، حتى لو ملك الفرنج ما فَعَلوا فِعْلهم .

وفى سابع عشرى ذى الحجة ، سار الأمير فارس الدين أقطاى من القاهرة فى ثلاثة آلاف الى غزة، واستولى (١١٠٠) عليها .

وفى هذه السنة قُدِّم البطرك أثناسيوس[١] ابن القس أبى المكارم ، فى يوم الأحد رابع شهر رجب، الموافق لخامس بابه سنة سبع [وستين][٢] وتسعمائة للشهداء . فأقام فى البطركية إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوما ، ومات يوم الأحد أوّل كيهك سنة ثمان وسبعين وتسعمائة للشهداء، الموافق لثالث المحرم سنة ستين وستمائة هجرية ؛ وخلا الكرسى بعده خمسة وثلاثين يوما . وفيها مات الإمبراطور[٣] ملك الفرنج الألمانية بصقلية[٤] ، وقام من بعده ابنه .

وخرجت هذه السنة والناصر يوسف بدمشق ، وبيده ملك الشام والشرق ؛ ومملكة مصر بيد الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، ويخطب معه للأشرف موسى ، والمعتمد عليه فى أمور الدولة من البحرية ثلاثة أمراء : وهم الأمير فارس الدين أقطاى ، وركن الدين بيبرس البندقدارى ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم غياث الدين توارنشاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى يوم الاثنين تاسع عشرى المحرم . ومات الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، قتيلا فى ليلة الأحد سابع عشرى ذى القعدة ، عن نحو خمسين سنة . ومات الأمير شمس لؤلؤ الأمينى ، مقدم عسكر حلب ، قتيلا فى يوم الخميس عاشر

(١) اسم هذا البطريق (Athanasius III) ، وهو السادس والسبعون من بطارقة الأقباط بالإسكندرية (Butcher : Op. cit. I. p. XIV ; II. pp. 163-165).

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 31) .

(٣) فى س " الانبرطوز " .

(٤) الإمبراطور المقصود هنا هو (Frederic II) ، وقد توفى بحصن (Fiorentino)، الواقع بين بلدتى (Foggia & Lucera)، بإقليم (Apulia) بإيطاليا نفسها . (Camb. Med. Hist. VI. p. 164) .

ذى القعدة . وتوفى رشيد الدين أبو محمـد عبد الوهاب بن طاهر بن على بن فتوح[1] بن رواج[2] الإسكندرى المـالكى، عن أربع وتسعين سـنة، فى ... ...[3] . وتوفى الحافظ شمس الدين أبو الحجاج يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله الدمشقى بحلب ، عن ثلاث وتسعين سنة .

+ + +

سنة تسع وأربعين وستمائة . فيها استولى الأمير فارس الدين أقطاى على الساحل ونابلس الى [نهر] الشَّرِيعَة[4]، وعاد الى القاهرة . فسير الملك الناصر عسكرا من دمشق الى غزة ليكون بهـا ، فأقاموا على تل العجول . فخرج المعز أيبك ، ومعه الأشرف موسى والفارس أقطاى وسائر البحرية ، ونزل بالصالحية . فأقام العسكر المصرى بأرض السانح قريبا من العباسة ، والعسكر الشامى قريبا من سنتين[5] ، وترددت بينهما الرسل . وأحدث الوزير الأسعد الفائزى ظلامات عديدة على الرعية .

وفيهـا أمر الملك المعز أيبك بإخلاء قلعة الروضـة ، فتحول من كان فيها من المـاليك والحَرِسيَّة[6] وغيرهم . وفيها عزل قاضى القضاة عماد الدين أبو القاسم بن أبى إسحاق ابن المقنشع — المعروف بابن القطب الحموى، عن قضاء مصر، وأضيف [ذلك] الى قاضى القضاة بدر الدين السنجارى . وسافر الأمير حسام الدين أبو على الى الحجاز — وترك طلبه بالسانح وفيه من ينوب عنه — من البحر الى قوص ، ثم ركب البحر الملح الى مكة . وفيها أشيع وصول البادرائى رسول الخليفة، ليصلح بين الناصر والمعز . فلما أبطأ قدومه، وكثرت الأقاويل، قال الأمير

---

(١) كذا فى ب (١١٩ أ)، وهو فى س "فوح" . (٢) كذا فى س . (٣) بياض فى س .

(٤) أطلق هذا الاسم على نهر الأردن، بعد زمن الحروب الصليبية ، وخصوصا جزؤه الواقع بين بحيرة طبرية الى مصبه فى البحر الميت ، ويعرفه البدو بهـذا الاسم حتى الآن . (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 32. N. 37) ؛ و (Le Strange: Palest. Under Moslems, p. 52) .

(٥) كذا فى س ، وقد أوردها (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 33) على أنها موضع اسمه "ستين" ، وترجمها إلى (Sattin) . هـذا وفيما يلى تحت سـنة ٦٥٤ ، أن السلطان الملك المعز أقام بعساكره بأرض السانح ثلاث سنين ، فلعل المقصود هنا بلفظ "سنتين" مدة زمنية ، وليس موضعا لإقامة العساكر . (٦) جمع حرسى ، وهـو الجندى الموكل بحراسة مكان من الأمكنة ، (un soldat destiné à garder une place) . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 33. N. 40) .

شهاب الدين غازى بن أَيَاز[1] المعروف بابن المعار — أحد المجردين صحبة الأمير جمال الدين موسى بن يغمور : —

يُذَكِّرنا زمانُ الزهد ذكرى * زمانِ اللهو فى تَلِّ العجول

ونطلب مسلما يروى حديثا * صحيحا من أحاديث الرسول

وفيها وقع بمكة غلاء عظيم . ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة ببغداد، [واسمه] كمال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن إبراهيم الدامغانى الحنفى . و [فيها] توفى بهاء الدين أبو الحسن على بن هبة الله بن سلامة الجميزى الشافعى ، خطيب القاهرة — وقد انتهت اليه مشيخة العلم — عن تسعين سنة ، فى يوم ...[3] . و [فيها] توفى الصاحب جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن مطروح — الوزير بالشام، [و] الشاعر [أيضا] — عن سبع وخمسين سنة، فى ...[4] . و [فيها] توفى رشيد الدين أبو محمد عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر السعدى شيخ القراآت ...[5] و [فيها] توفى علم الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر — المعروف بتعاسيف، الفقيه الحنفى ، بدمشق فى ...[6] رجب ؛ ومولده بأَصْفُون[7] من صعيد مصر سنة أربع وسبعين وخمسمائة، وهو أحد الأئمة فى العلوم الرياضية .

* * *

سنة خمسين وستمائة . فيها قدم الأمير حسام الدين أبو على من الحجاز، فنزل فى المعسكر من أرض السانح بالصالحية . وقدم من بغداد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد

---

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 35) .

(٢) الوفيات الواردة هنا، مكتوبة على ورقة منفصلة فى س، بين الصفحتين ٩٩ ب ، ١٠٠ أ ، ولم يشر المقريزى كعادته الى مكانها المناسب، على أنها وقعت فى سنة ٦٤٩ هـ . انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 35-36, et notes)

(٣) و(٤) و(٥) و(٦) بياض فى س .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى إحدى قرى المطاعنة بالوجه القبلى، وتقع على الشاطىء الغربى للنيل ، وتسمى أسفون أيضا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٧، ص ٥٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ١ ، ص ٣٠٠) .

ابن الحسن بن أبى سعد البادرائى، رسولا من الخليفة للإصلاح بين الملك المعز أيبك والملك (١٠٠ ب) الناصر . فتلقاه القاضى بدر الدين الخضر بن الحسن السنجارى من قطيا ، ومعـه جماعة، وتحدّث [معـه] فى ذلك . فأراد النـاصر أن تقام له الخطبة بديار مصر، فلم يرض الملك المعز، و[زاد بأن] طلب أن يكون بيده — مع مصر — من غزة الى عقبة فيق[١] .

و[فيها] وردت الأخبار بأن منكوخان[٢] ملك التر سير أخاه هولاكو لأخذ العراق[٣] . فسار وأباد أهل بلاد الإسماعيلية قتلا ونهبا وأسرا وسبيا[٤]، ووصلت غاراته إلى ديار بكر وميافارقين؛ وجاءوا إلى رأس عين وسروج ، وقتـلوا ما ينيف على عشرة آلاف ، وأسروا مثـل ذلك ؛ وصادفوا قافلة سارت من حران تريد بغـداد، فأخذوا منها أموالا عظيمة، من جملتها ستمائة

---

(١) فى س " فق " .

(٢) اسم هـذا الخـان فى المراجع الأوربية الحديثة (Mangu) ، وهو ابن تولوى بن جنكزخان ، وقد وقع تتويجه وإعلانه خانا أعظم سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م)، فى مجمع رؤساء التتر (Kuriltay) تلك السنة ، أى بعد ثلاث سـنين من وفاة كيوك . وفى ذلك المجمع قرّ الرأى على تجهيز حملتـين حربيتين ، تقصد إحداهما الصين ويكون قائدها قوبيلاى ، وتذهب الأخرى الى بلاد فارس بقيادة هولاكو، وكلاهما أخ لمنكوخان (Browne : A Lit. Hist. Of Persia, II. p. 452).

(٣) وصل هولاكو إلى بلاد الاسماعيلية الفرس بقوهستان ، وهى جهات الجبال الواقعة بين هرات ونيسابور، بعد السنة المذكورة هنا بكثير . فقد سار من قراقوم (Karakorum) عاصمة التتر العظمى، سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٠ م)، بتعليمات مشدّدة فحواها محق الإسماعيلية بفارس ، وهـدم الخلافة العباسية ببغداد . ووصل هولاكو بلاد الإسماعيلية سـنة ٦٥٤ هـ (١٣٥٦ م) ، وكان عنـد التعليمات التى لديه : فأتى عليهم وعلى جميع معاقلهم بما فى ذلك ألموت ، وأسر آخر رؤسائهم وهو شيخ الجبل ركن الدين خورشاه ، وأرسله الى (Karakorum) حيث أمر منكوخان بقتله . (Browne: A Lit. Hist. of Persia, II. pp. 452-460) .

(٤) أحس الإسماعيليـة بخطر المغول قبـل ذلك بعدة سنين، كما أحست به جميع دول أوربا أيضا ، وذهب رسول من الإسماعيلية إلى إنجلترة وفرنسة ، سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م)، يرجوهما الغوث على المغـول ، ولكنه لم يلق مجيبا . يشهد بذلك ما قاله أسقف مدينـة (Winchester) بإنجلترة، حسـبما جاء فى (Browne : Op. cit. III. p. 6) ، وهذا نصه :

"Let these dogs devour each other and be utterly wiped out, and then we shall see, founded on their ruins, the Universal Catholic Church, and then shall truly be one shepherd and one flock."

حمل سكر من عمـل مصر، وستمائة ألف دينار؛ وقتلوا الشـيوخ والعجائز، وساقوا النسـاء والصبيان معهم . فقطع أهل الشرق الفرات، وفرّوا خائفين .

فعند ذلك أزال الملك المعز اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة، وانفرد باسم السلطنة، وسجن الأشرف، واستولى على الخزائن . وشرع فى تحصيل الأموال : فأحدث الوزير الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد بن وهيب الفـائزى حوادث ، وقرر على التجار وعلى أصحاب العقار أموالا ، ورتب مكوسا وضمانات سمّاها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية، وأخذ الجوالى[١] من الذمة مضاعفـة، وأحدث التصقيع والتقويم[٢] وعدّة أنواع من المظـالم . ورتب الملك المعز مملوكه الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة بديار مصر، وأمّر عدة من مماليكه . فقويت شوكة البحرية وزاد شرهم، وصار كبيرهم الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى ملجأ لهم، يسألونه فى حوائجهم، ويكون هو المتحدّث مع الملك المعز . وفيهـا أقطع الفارس أقطاى ثغر الإسكندرية، وكُتب له به منشـور . وتعدى شر البحرية ، وكثر تمردهم وطغيانهـم .

وخرجت السنة والملك المعز والعساكر بالسانح، وعساكر الشام بغزة، والملك الناصر مقيم بدمشق، والملك المغيث عمر بالكرك . وكان النيل عاليا : بلغ ثمانية عشر ذراعا وسبعة عشر إصبعا، وسدّ باب البحر عند المقس .

وفيها وقع بمدينة حلب حريق عظيم ظهر أنه من الفرنج، [و]تلف فيه أموال لا تحصى، واحترقت ستمائة دار . وحج فى هذه السنة ركب العراق .

(١) تقدم شرح لفظ الجوالى فى ص ٨٦ (حاشية ٤) ، ويزاد عليـه هنا أن الجوالى جمع جالية، وأن لفـظ جالية مطلق على أهل الذمة ، وقد "قيل لهم ذلك لأن الامام عمر أجلاهم عن جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة ... وإن لم يجلوا من أوطانهم" . (محيط المحيط) . انظر أيضا .
(Quatremére: Op. Cit. II. 1, p. 132. N. 16).

(٢) التصقيع هنا إحصاء البيوت والعقارات ، لأجل فرض ضريبة عليها . والتقويم تقـدير قيمة كل من البيوت المحصاة ، من أجل الفرض نفسه . (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 37, et p. 89. N. 124) .

ومات فى هذه السنة من الأعيان العلامة رضى الدين أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر[1] العمرى الهندى الصنعانى الحنفى اللغوى، [مات] ببغداد، ودفن بمكة عن ثلاث وسبعين سنة. وتوفى فخر القضاة أبو الفتح نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى بن هبة الله ابن الحسين بن يحيى بن بصاقة الكنانى، الكاتب الوزير للناصر داود، [و]الأديب المنشئ، فى ...[2] .
وتوفى شمس الدين أبو عبد الله محمد بن سعد بن عبد الله بن سعد الأنصارى القدسى، الفقيه الشافعى المحدّث المقرئ، النحوى الأديب الكاتب المجوّد، [مات] بدمشق عن تسع وسبعين سنة. وتوفى مُسْنَد العراق المؤتمن أبو القاسم يحيى بن نصر بن أبى القاسم بن الحسن بن قميرة[3] التيمى، التاجر السفار، عن خمس وثمانين سنة، حدّث بمصر وغيرها. وتوفى نقيب الأشراف — وقاضى العسكر، ومدرّس المدرسة الشريفية بمصر — الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد العلوى الحسينى الأرموى، [على ما] حدّثنا[4] الأشراف، فى ثالث عشر شوّال سنة خمسين وستمائة. وكان إماما فى الفقه والأصول مناظرا، تفقّه على الصدر ابن حمويه، وشرح المحصول، ومات عن نيف وسبعين سنة.

* * *

سنة إحدى وخمسين وستمائة. فيها تقرّر الصلح بين الملك المعز أيبك و بين الملك الناصر صاحب دمشق، بسفارة نجم الدين البادرائى. وقد قدم [نجم الدين] إلى القاهرة، وصحبته عز الدين أزدمر، وكاتب الإنشاء ببغداد نظام الدين أبو عبدالله محمد بن المولى الحلبى، لتمهيد القواعد. فلم يبرحا إلى أن انفصلت القضية: على أن يكون للمصريين إلى الأردن، وللناصر ما وراء ذلك؛ وأن يدخل فيها للمصريين غزة والقدس ونابلس والساحل كله؛

---

(١) اسم هذا العلامة فى بعض المراجع العربية، (انظر Quatremère: Op. cit. I. 1. p.38. Ns. 50, 51)، حسن بن عمر، ومولده بمدينة لاهور بالهند، سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١م)، ومن مؤلفاته فى النحو كتاب مجمع البحرين فى اثنى عشر مجلدا، وكتاب العباب الزاخر فى عشرين مجلدا، وكانت وفاته ببغداد فى يوم الجمعة تاسع عشر شعبان.

(٢) بياض فى س.

(٣) كذا فى س، وهو فى ب (١٢٠ ب) "قيمرة".

(٤) فى س "حدسا". انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 38. N. 53).

وأن المعز يطلق جميع من أسره من (١٠١ ا) أصحاب الملك الناصر . وحلف كل منهما على ذلك ، وكتبت به العهود . وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سابع صفر، ونزل البادرائى بالقاهرة . وأطلق الملك المعز الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخاه نصرة الدين ، وسائر أولاد الملوك والأمراء ؛ وأحضرهم دار الوزارة ليشهدوا حلفه للملك الناصر . ثم قدّم [الملك المعز أيبك] للملك المعظم تقدمة سنية ؛ وأعطى نظام الدين بن المولى ، ورفيقه عز الدين أزدمر ، عشرة آلاف دينار .

وفيها قويت البحرية — وكبيرهم فارس الدين أقطاى — على المعز ، وكثر تعنتهم واستطالتهم وتوثبهم على الملك المعز ، وهمّوا بقتله . وفيها تسلم المصريون قلعة الشوبك ، فلم يبق مع الملك المغيث سوى الكرك والبلقاء وبعض الغور . وفيها قطع المعز خبز الأمير حسام الدين ابن أبى على ، فلزم داره ، ثم خرج الى بلاد الشام بإذن الملك المعز له ، فأكرمه الملك الناصر وأقامه فى خدمته بمائة فارس .

وفيها ثارت العربان ببلاد الصعيد وأرض بحرى ، وقطعوا الطريق برا وبحرا ، فامتنع التجار وغيرهم من السفر . وقام الشريف حصن الدين ثعلب بن الأمير الكبير نجم الدين على ابن الأمير الشريف فخر الدين إسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب ثعلب بن يعقوب بن مسلِم[1] بن أبى جميل[2] الجعدى ، وقال : "نحن أصحاب البلاد" ومنَع[3] الأجناد من تناول الخراج ، وصرّح هو وأصحابه : " بأنا أحق بالملك من المماليك ، وقد كفى أنا خدمنا بنى أيوب ، وهم خوارج خرجوا على البلاد" . وأنفوا من خدمة الترك ، وقالوا إنما هم عبيد للخوارج ؛ وكتبوا الى الملك الناصر صاحب دمشق يستحثونه[4] على القدوم الى مصر .

---

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) فى هامش الصفحة فى س تكلة لهذا النسب ، نصها : "أبو جميل دحية بن جعفر بن موسى بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن على بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب " ، وفى هامش ملاصق قبالة لفظ دحية ، ضبط لهذا الاسم أيضا ، نصه : " بضم الدال المهملة ، وفتح الحاء المهملة ، وتشديد الياء آخر الحروف " .

(٣) فى س " منعوا " .

(٤) فى س " يستحثوه " .

واجتمع العرب — وهم يومئذ فى كثرة من المـال والخيل والرجال، الى الأمير حصن الدين ثعلب، وهو بنـاحية دَهْرُوطْ[(١)] صَرَبان ؛ وأتوه من أقصى الصـعيد ، وأطراف بلاد البحيرة والجيزة والفيوم، وحلفوا له كلهم . فبلغ عدّة الفرسان اثنى عشر ألف فارس، وتجاوزت عدّة الرجالة الإحصـاء لكثرتهم . فجهز إليهم الملك المعز أيبك الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار، والأمير فارس الدين أقطاى المستعرب، فى خمسة آلاف فارس . فساروا الى ناحيـة ذَرْوة[(٢)]، وبرز إليهم الأمير حصن الدين ثعلب ، فاقتتل الفريقان من بكرة النهار الى الظهر . فقدر الله أن الأمير حصن الدين تقنطر[(٣)] عن فرسه، فأحاط به أصحابه ، وأتت الأتراك إليـه ، فقتـل حوله من العرب والعبيد أربعمائة رجل ، حتى أركبوه . فوجد العرب قد تفرقوا عنه ، فولى منهزما . وركب الترك أدبارهم، يقتلون ويأسرون حتى حال بينهم الليل، فحَوَوا (١٠١ب) من الأسلاب والنسوان والأولاد والخيول والجمال والمواشى ، ما عجزوا عن ضبطه ، وعادوا الى المخيم ببلبيس . ثم عدوا الى عرب الغربية والمنوفية من [قبيلتى] سِنْبِس[(٤)] ولَوَاتة[(٥)]، وقد تجمعوا بناحية سخا وسـنهور ؛ فأوقعوا بهـم وسبوا حريمهم وقتلوا الرجال ، وتبـدد شمل عرب مصر وخمدت جَمْرتُهم من حينئذ .

(١) بغير ضبط فى س . وتسمى تلك الناحيـة دروت سربام ، ودروط صر يان ، وذروة سر يام ، ودروط الشريف ، وديروط الشريف ، والتسمية الأخيرة عائدة على صاحب تلك الناحيـة ، وهو الشريف بن ثعلب . وكان وقع تلك الناحيـة بين النيل وترعة المنهى ، التى هى الآن بحر يوسف . وقد حولت تلك الترعة الى جنـوبى دروط صربان ، فصارت الترعة فى غربيها . هذا ودهروط هى ديروط الحالية ، إحدى مراكز مديرية أسيوط . (مبارك : الخطط التوفيقيـة ، ج ١١ ، ص ٣ — ٦ ؛ ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١١٨) . انظر أيضا القسم الأوّل من هذا الجزء، ص ١٣٠ ، حاشية ٤ .

(٢) بغـير ضبط فى س ، وفى مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٧٣) قريتان بهـذا الاسم ، إحداهما بمديرية المنوفية ، والثانية فى المرتاحية ، من قسم نوسة الغيط . والراجح أن الثانية هى المقصودة هنا ، بدليل أن معسكر جيش الملك المعز كان فى بلبيس . (انظر ما يلى ، سطر ١١) .

(٣) فى س " تقطر " .

(٤) بغير ضبط فى س ، وكان مقر تلك القبيلة مدينة سخا بالغربية ، حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧١) . انظر أيضا مبارك (الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٤) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وكانت لواتة بالمنوفية . (انظر المرجعين السابقين) .

ولحق الشريف حصن الدين من بقى من أصحابه، وبعث يطلب من الملك المعز الأمان، فأمنه ووعده بإقطاعات له ولأصحابه، ليصيروا من جملة العسكر وعونا له على أعدائه . فانخدع [الشريف حصن الدين]، وظن أن الترك لا تستغنى عنه فى محاربة الملك الناصر، وقدم فى أصحابه وهو مطمئن إلى بلبيس . فلما قرب من الدهليز نزل عن فرسه ليحضر مجلس السلطان، فقبض عليه وعلى سائر من حضر معه، وكانت عدتهم نحو ألفى فارس وستمائة راجل . وأمر [الملك المعز] فنُصبت الأخشاب من بلبيس إلى القاهرة وشُنق الجميع؛ وبعث بالشريف حصن الدين إلى ثغر الإسكندرية، فحبس بها وسلّم لواليها الأمير شمس الدين محمد بن باخل. وأمر المعز بزيادة القطيعة(١) على العرب، وبزيادة القَوْد(٢) المأخوذ منهم، ومعاملتهم بالعسف والقهر . فذلّوا وقلّوا، حتى صار أمرهم على ما هو عليه الحال فى وقتنا .

وفيها صاهر الأمير فارس الدين أقطاى الملك المظفر صاحب حماة، وسير إليه فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن حنا — قبل أن يتقلد أبوه الوزارة، وإنما كان قد ترشح لها — لإحضار ابنة المظفر من حماة؛ فحملها إلى دمشق فى تجمل عظيم . فطلب أقطاى من الملك المعز أن يسكن قلعة الجبل بالعروس، فشق ذلك عليه وأخذ يتحيل فى قتله . وكان قد ثقل عليه، وصار ليس له مع البحرية أمر ولا نهى ولا حل ولا عقد، ولا يسمع أحد منهم له قولا : فإن رسم لأحد بشىء لا يُمَكّن من إعطائه، وإن أمر لأحد منهم بشىء أخذ أضعاف مارسم له به . واجتمع الكل على باب الأمير فارس الدين أقطاى، و[قد] استولى على الأمور كلها . وبقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه، ولا يقدر أحد يفتح كتابا، ولا يتكلم بشىء ولا يبرم أمرا، إلا بحضور أقطاى لكثرة خُشْدَاشيته(٣) .

(١) القطيعة ما يفرضه السلطان على ولاية أو ناحية من المال سنويا، أو ما يقرره فى أحوال غير عادية كالغرامة الحربية (Quatremère : Op. cit. I. 1. p,14. N, 85,) .

(٢) [القو]د ما يبعث به قبائل العرب إلى السلاطين من الهدايا، من نحو الخيل والإبل والحيوانات العزيزة . (Ibid : Op. cit I. 1. P. 42. N. 59) .

(٣) جمع "خشداش"، وهو معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش، أى الزميل فى الخدمة . (Steingass : Pers.- Eng. Dict.) . والخشداشية - أو الخوشداشية أو الخجداشية أو الخوجداشية =

وفى هذه السنة حج من البر والبحر عالم كبير، فإنها كانت وقفة الجمعة. وفيها أخذ الشريف جماز بن حسن مكة، وأقام بها إلى آخر ذى الحجة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الشريف أبو سعد الحسن بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة، واستقر بعده فى الإمارة ابنه أبو نمىّ ، وأخوه إدريس بن على . ومات الملك الصالح أحمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شادى بن مروان، صاحب عينتاب ، عن إحدى وخمسين سنة . وتوفى كمال الدين أبو محمد عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزَّمْلَكانى (١) الدمشقى الشافعى، بدمشق . وتوفى جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الإسكندرى ، سبط الحافظ ابى الطاهر السلفى ، وقد انتهى إليه علو الإسناد .

* * *

سنة اثنتين وخمسين وستمائة . فيها استفحل أمر الفارس أقطاى الجمدار وانحازت اليه البحرية، بحيث كان أقطاى إذا ركب من داره إلى القلعة شَعَل (٢) بين يديه جماعة بأمره ،

= فى اصطلاح عصر المماليك بمصر ، الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فنبتت بينهم رابطة الزمالة القديمة ، ويقابلها فى الفرنسية (camarades) . ويوضح هذا المعنى تماما العبارة الآتية ، وهى من الأمثلة الواردة فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 43. N. 61)، ونصها : "كان يعد نفسه غريبا فى بيت السلطان ، لكونه لم يكن له خجداش" . ولهذه الرابطة أثر ظاهر فى حوادث تاريخ المماليك بمصر، ومثلها فى الأهمية التاريخية علاقة الأستاذ — أو السيد — بمماليكه الذين شراهم لنفسه . (انظر ص ٤٩٣ سطر ١٠) . ولعل ذلك راجع الى قلة الروابط الأخرى بين الأمراء ، إذ كانوا يجلبون من مختلف أسواق النخاسة ، وليس بينهم من الروابط سوى ماجدّ عليهم بمصر .

(١) بغير ضبط فى س ، والنسبة الى زملكان ، وهى قرية بغوطة دمشق ، يقال لها زملكا أيضا . (ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٩٤٤ — ٩٥٥) . هذا وفى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 45, N. 63) أن كمال الدين هذا كان مبرزا فى علم المعانى والبيان ، وأنه تولى التدريس فى بعلبك والقضاء فى صرخد ، وأنه كان شاعرا مجيدا .

(٢) فى س "سعمل" ، أو ما يقرب من ذلك . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 47) العبارة كلها إلى "Toutes les fois que cet officier montait à cheval pour se rendre de sa maison au château, il avait devant lui une troupe de Mamlouks tout prêts à exécuter ses ordres....."

ولا يُنْكِر [هو] ذلك [منهم] . وكانت أصحابه تأخذ أموال الناس ونساءهم وأولادهم بأيديهم، فلا يقدر أحد على منعهم . وكانوا يدخلون الحمامات ويأخذون النساء منها غصبا ، وكثر ضررهم .

[هذا] والمعز يحصل الأموال، وقد ثقل عليه أقطاى، فواعد طائفة من مماليكه على قتله : وبعث [المعز] إليه وقت القائلة من يوم الأربعاء ثالث شعبان، ليحضر إليه بقلعة الجبل فى مَشْوَر (١٠٢ ا) يأخذ رأيه فيه. فركب [أقطاى] على غير أهبة ولا اكتراث، فعند ما دخل من باب القلعة، وصار إلى قاعة العواميد(١)، أغلق باب القلعة، ومُنِع مماليكه من العبور معه . فخرج عليه جماعة بالدهليز قد أعِدّوا لقتله : وهم قُطُز وبَهَادُر وسَنْجَر(٢) الغَتْمِى، فَهَبَروه(٣) بالسيوف حتى مات . فوقع الصريخ فى القلعة والقاهرة بقتله ، فركب فى الحال من أصحابه نحو السبعمائة فارس ووقفوا تحت القلعة ، وفى ظنهم أنه لم يقتل وإنما قبض عليه ، وأنهم يأخذونه(٤) من المعز . وكان أعيانهم بيبرس البندقدارى، وقلاون الألفى، وسنقر الأشقر، وبَيْسَرى، وسِكِز، وبِرامِق(٥) . فلم يشعروا إلا ورأس أقطاى قد رَمَى بها المعز إليهم، فسُقِط فى أيديهم وتفرقوا بأجمعهم . وخرجوا فى الليل من القاهرة، وحرقوا باب القراطين فعرف

(١) كان بالقلعة عدة قاعات، وكلها مخصصة لحاجات السلطان المنزلية ، حسبما جاء فى ابن شاهين (زبدة كشف الممالك، ص ٢٦ — ٢٧)، "ومنها القاعة اليسرية ...، ومنها القاعة الكبرى وتعرف بالعواميد برسم خوند الكبرى، ومنها قاعة رمضان [و] بها خوند الثانية ، ومنها قاعة المظفرية [و] بها خوند الثالثة ، ومنها القاعة المعلقة وبها خوند الرابعة، ومنها قاعة البربرية برسم السرارى، و [كان بها] غير ذلك من القباع (كذا) والمعازل والأماكن المتسعة مما يطول شرحها" .

(٢) ضبطت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) . هذا وليس فى نية الناشر أن يدأب على ضبط جميع أسماء الأمراء المماليك لكثرتها ، وهو يحيل القارىء فى ضبطها الى (Mayer:Saracenic Heraldry) وإلى (Zetterstéen : Beitrage zur Geschichte Mamlūkensultane) .

(٣) فى س "فهبروه" ، والمعنى أنهم قطعوه بالسيوف .(محيط المحيط) .

(٤) فى س "ياخذوه" .

(٥) ضبطت هـذه الأعلام على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) ، وكل نقطها منه أيضا .

بعد ذلك بالباب المحروق إلى اليوم[١] . فمنهم من قصـد الملك المغيث بالكرك ، ومنهم من سار إلى الملك النـاصر بدمشق ، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والكرك والشوبك والقدس ، يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه .

واتفق أن اثنى عشر من البحرية مرّوا فى تيه بنى إسرائيل ، فأقاموا به خمسة أيام حائرين ، فلاح لهم فى اليوم السادس سواد على بعد فقصدوه : فإذا مدينة عظيمة ، ذات أسوار وأبواب حصينة ، كلها من رخام أخضر . فطافوا بداخل المدينة ، وقد غلب عليهـا الرمل فى أسواقها ودورها ، وصارت أوانيهم وملابسهم إذا أخذت تتفتت وتبقى هبـاء . فوجدوا فى صوانى بعض البزازين تسعة دنانير ، قد نقش عليها صورة غزال حوله كتابة عبرانية . وحفروا مكانا ، فإذا بلاطة ، فلما رفعوها وجدوا صهريجا فيه ماءً أبرد من الثلج ، فشربوا وساروا ليلتهم . فإذا بفريق عرب فحملوهم إلى الكرج ، فعرضوا تلك الدنانير على الصيارف ، فقال بعضهم هذه ضربت فى أيام موسى عليه السلام . وسألوا عن المدينة ، فقيل هذه المدينة الخضراء ، بنيت لمـا كان بنو إسرائيل فى التيه ، ولها طوفان من رمل يزيد تارة وينقص أخرى ، ولا يقع عليها إلا تائه . وصرفوا كل دينار بمائة درهم[٢] .

وسار منهم[٣] قشتمر العجمى ، وشار باش العجمى ، وسنجر الحاوىك ، والركن الفارقانى وسنقر الجبيلى ، وسنقر الحُبَيْشى[٤] الكبير ، والحبيشى الصـغير الحاجب ، والصقيلى ، والفتمى ، وبلبان النجمى ، وبكمش المسعودى ، وأبوعبية ، والنميسى ، وفخر الدين ماما ، وأيدمر الجمدار الرومى ، وسنقر الركنى ، والحسام قريب سكز ، وإيدغدى الفارسى ، وبلبان الزُهَيْرى[٥] ، وسنجر

(١) ليس فى المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣٨٣) ما يزيد هذه المعلومات ، كأن يعين موضع باب القراطين أو يوضح أصل تسميته . هـذا والباب المحروق ، وهو باب القراطين قبـلا كما بالمتن ، هو باب القاهرة الشرقى . (Lane-Poole : Cairo, p. 129) .

(٢) يرى (Quatremère :Op. cit. I.1. p. 49. N. 71) ، أن المدينة التى عثر عليها هؤلاء المماليك هى البـتراء .

(٣) الضمير هنا عائد على الأمراء الذين خرجوا من القاهرة بعد مقتل أقطاى .

(٤) مضبوط هكذا فى س . (٥) مضبوط هكذا فى س .

البدرى، وإزدمر السيفى، وإزدمر البواشق مملوك الرشيدى الكبير، والعنتابى، والمستعربى، وسنقر البُدَيْوِى[(١)]، وأيبك الشقارى، وإيدغدى فتنة، وسيف الدين الأشل، والخولانى، وسنجر الشكارى، والمطروحى، وأيبك الفارسى، وأياس المقرى[(٢)]، فى جماعة كبيرة من المماليك الصغار الجمدارية الصالحيــة . وكان الحاكم المقدم على هؤلاء الأمير علم الدين سنجر الباشقردى — وهو أعقلهم وأعرفهم — ، والأمير شمس الدين سنقر الجبيلى — وهو أفرسهم وأشهرهم بالشطارة[(٣)]. فمضى هؤلاء إلى السلطان علاء الدين ملك [السلاجقة] الروم .

فلما أصبح الملك المعز أيبك، وعلم بخروج الجماعة من القاهرة، قبض على من بقى منهم، وقتــل بعضهم وحبس باقيهم ، وأوقع الحوطة على أملاكهم وأموالهم ونسـائهم وأتباعهم ، واستصفى أموالهم وذخائرهم وشـونهم . وظفر للفـارس أقطاى بأموال عظيمــة . ونودى فى القاهرة (١٠٢ ب) ومصر بتهديد من أخفى أحدا من البحرية ، وتمـكن عند ذلك الملك المعز، وارتجع الإسكندرية إلى الخاص السلطانى، وخفف بعض ما أحدث من المصادرات والجبـايات .

فلما وصل البحرية الى غزة: وفيهم ركن الدين بيبرس البندقدارى، وسيف الدين بلبان الرشــيدى ، وعز الدين أزدمر السيفى ، وشمس الدين سنقر الأشقر ، وسيف الدين سكز[(٤)] ، وسيف الدين قلاون ، وبدر الدين بيسرى — كتبوا إلى الملك الناصر بأنهم قد وصــلوا إلى خدمته ، فأذن لهم . وعَرَوا[(٥)] على بلاد الفرنج بالساحل ، فقتلوا ونهبوا حتى قاربوا دمشــق .

(١) مضبوط هكذا فى س .

(٢) قوبلت هذه الأسماء على منطوقها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 50) ، وكل نقطها منه .

(٣) الشطارة هنا المهارة والقدرة ؛ ويجىء لفظ الشاطر أيضا، فى العربية والفارسية ، بمعنى اللص قاطع الطريق ، وبمعنى ساعى المراسلات . (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 50. N. 72) . انظر أيضا محيط المحيط .

(٤) فى س " سكر " . انظر ص ٣٩٠ سطر ١٢ .

(٥) عراه يعروه ، أى ألم به وأتاه طالبا معروفا ، وهو فعــل متعد . (محيط المحيط) . غير أنه يتضح من بقيــة الجملة أن المقريزى تجوز فى استعمال هذا الفعل .

فخرج إلى لقائهم الملك الناصر، وخلع عليهم وأعطاهم . [هذا] وهم يحثونه على قصد مصر ، وهو يدافعهم .

فخاف المعز غائلتهم ، وكتب الى الناصر يوهمه منهم ، و يخوفه عاقبة شرهم . وطلب منه الناصر البلاد التى كان قد أخذها بالساحل لأجل البحرية ، وأنها فى إقطاعاتهم . فأعادها المعز إلى الملك الناصر، فأقر كل إقطاع منها بيد من كان له ، وكتب مناشيرها عنه للبحرية .

وكتب المعز إلى سلطان الروم بأن : "البحرية قوم مناحيس أطراف[1]، لا يقفون[2] عند الأيمان، ولا يرجعون[3] إلى كلام من هو أكبر منهم، وإن استأمنتهم خانوا، وإن استحلفتهم كذبوا، وإن وثقت بهم غدروا . فتحرّز منهم على نفسك، فإنهم غدّارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك" . فخاف سلطان الروم منهم، وكانوا مائة وثلاثين فارسا، فاستدعاهم وقال : " يا أمراء ! مالكم ولأستاذكم ؟ " فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى ، وقال : "يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ " قال : "الملك المعز صاحب مصر" . فقال الباشقردى : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال فى كتابه إنه أستاذنا فقد أخطأ ، إنما هو خوشداشنا ونحن وإياه علينا ، وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرا وأفرس وأحق بالمملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا، فهربنا منه وتشتتنا فى البلاد، ونحن التجأنا إليك" . فأعجب سلطان الروم بهم، واستخدمهم عنده .

وفيها وقع الصلح بين الملك الناصر وبين الفرنج أصحاب عكا، لمدة عشر سنين وستة أشهر وأربعين يوما أولها مستهل المحرم، على أن يكون للفرنج من نهر الشريعة مغربا، وحلف الفريقان على ذلك[4] .

(١) جمع طرف ، وهو هنا الرجل الذى لا يثبت على صحبة أحد . (محيط المحيط) . وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 51. N. 75) لفظ الأطراف إلى "des hommes vils, ou des hommes d'une condition inferieure".

(٢) فى س " لا يقفوا " . (٣) فى س " لا يرجعوا " .

(٤) كان مما دعى الفرنج إلى الصلح تلك السنة ، اضطرار لويس التاسع ملك فرنسا ، الذى كان مقيما بالشام منذ رحيله عن دمياط ، الى السفر الى مملكته . (Stevenson : Crusaders In The East. p. 331) .

وفيها أقطع الملك المعـز أيبك الأمـير علاء الدين إيد غدى العزيزى دمياط، زيادة على إقطاعه، وارتفاعها يومئذ ثلاثون ألف دينار . وفيها خرج الملك المعز من قلعةالجبل بالعساكر وخيم بالبـارِدَة(١) قرب العباسة (١٠٣ ا) ، خوفا من البحرية لنزولهم بالعوجاء .

وفيها سَفَّر الملك المعز أيبك الأشرف موسى بن الناصر يوسف بن الملك المسعود إلى بلاد الأشكرى منفيا . وفيها دَرّس الشيخ عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بالمدرسة(٢) الصالحية بين القصرين . وفيها وصل الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن محمد بن جعفر الحسينى إلى دمشق، ومعه الخوندة ملكة خاتون بنت السلطان علاء الدين كيقباد(٣) ملك [السلاجقة] الروم، وزوجة الملك الناصر يوسف . فزفت إليه، وقد احتفل بقدومها، وبالغ فى عمل الوليمة لها .

وفيها ظهرت نار بعـدن روّعت القلوب . وفيها ولّى المنصورُ [قضاء] حماة شمسَ الدين إبراهيم بن هبة الله البارزى، بعد المحيى حمزة بن محمد .

وفيها مات ملك التتر طَرْطَق(٤) خان بن دوشى خان بن جنكزخان، فكانت مدّته سنة وشهورا .

(١) بغير ضـبط فى س ، ويوجد قبالة السطر بهامش الصفحة العبارة التفسيرية الآتيـة : "البارِدة يقال لها السعدية"، وعلى هذا تكون بلدة البارِدة هى التى سميت فيما بعد باسم الخشبى . (انظر ص ٣٧٤، حاشية ٢) .

(٢) بدأ الملك الصالح نجم الدين أيوب بناء تلك المدرسة ، على قطعة من موضع القصر الفاطمى المعروف بالكبير شرقى، سـنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) ، وهى أول مدرسة بمصر رتبت بها دروس للمذاهب الأربعة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٣٧٤) .

(٣) فى س "كيقباذ" .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسمه فى المراجع الأوربيـة الحديثة (Sartak)، وهو ابن باطوخان بن جوشى خان (دوشى هنا فى المتن) بن جنكزخان . (Lane-Poole : Muh. Dyns. p. 230) . لكن تلقيب طرطق هذا بملك التتر، من غير تعيين الفرع التترى الذى حكمه فعلا، خطأ مضلل يتطلب توضيحه الرجوع الى معرفة تقسيم الإمبراطورية التترية بين أولاد مؤسسها جنكزخان . ذلك أنه لمـا قسم جنكزخان إمبراطوريته وأملاكه بين أولاده الأربعة، (انظر ص ٢٢٨، حاشـية ٢)، كان نصيب جوشى وهو أكبر أبنائه ، البلاد الواقعة بين نهر إرتش والسواحل الجنوبيـة لبحر قزوين . وكان اسم تلك البـلاد عامة القبشاق ، ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde)، نسبة الى خيم معسكراتها ذوات اللون الذهبى (Sir Orda, i. e. Golden Camp) وكان غالب أهلها ترك وتركمان . =

فقام من بعده بركه[(١)] خان بن جوشى خان بن جنكز خان ، وأسلم وأظهر شعائر الإسلام فى مملكته ، واتخذ المدارس وأكرم الفقهاء[(٢)] . وأسلمت زوجته ججك[(٣)] ، واتخذت لها مسجدا من الخيم ، وذلك على يد الشيخ نجم الدين كبرا[(٤)] .

و[فيها] توفى مجد الدين أبو البركات عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد بن

= مات جوشى قبيل وفاة أبيه جنكز خان بستة شهور ، سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) ، واقتسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) ، وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة فى أول الأمر ؛ وثانيهم باطو (Bātū) الذى فضله قبائل القسم الغربى من المملكة وأعلنته ملكا عليها ، واعترف بذلك جنكز خان نفسه قبل مماته . لهذا انكمش سلطان أوردا الى القسم الشرقى فقط ، وعرف باسم القبشاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (Āḳ Orda, i.e. White Horde) ، كما عرفت بلاد باطو باسم القبشاق الغربى أو القبيلة الزرقاء (Koḳ Orda, i.e. Blue Horde) .

وكان مركز مملكة باطو — وهو الشخصية التى تهم هذه الحاشية — الجهات الواقعة على الشاطىء الأيسر لنهر الفولجا ، وقد اتخذ بها عاصمة سماها (Sarāi) . وهو الذى غزا أوربا : فتوغل فى الروسيا و بولندا والمجر ودلماشيا (٦٣٥ — ٦٤٠ هـ ؛ ١٢٣٧ — ١٢٤٠ م) ، وطغت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القبشاق أحق أبناء جوشى خان بالملك ، برغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية ، وهو لقب شامل لجميع بلاد القبشاق شرقيها وغربيها ، فأصبح يعدل فى السلطان والعظمة الخان الأعظم منكوخان ، الذى خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) .

مات باطوخان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، وتولى بعده مباشرة ولده طرطق المذكور هنا ، ولكنه توفى فى نفس السنة المذكورة ، وظلت سلالة باطو من بعده حافظة للقب خان القبيلة الذهبية ، حتى سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) . راجع (Howorth: Op. cit. II. 1. pp. 36-132 ; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 222-231 ; Enc. Isl. Art. Bātū Khān) .

(١) فى س "بركه خان بن باطوا خان بن دوشى خان بن جنكز خان" ، وهذا الخطأ متواتر فى مؤلفات كثير من المؤرخين ، والصواب أن بركه خان ثالث أبناء جوشى خان (Enc. Isl. Art. Bereke) .

(٢) تختلف الروايات فى إسلام بركه ، وأرجحها ما يقول إنه اعتنق الإسلام وتعلم القرآن فى حداثته ، حين كان ببلدة خوقند (Khodjand) ، على يد أحد فقهائها ، وذلك قبل أن يصير ملكا على القبيلة الذهبية . ويظهر أن بركه كان مهتمًا بنشر الإسلام فى بلاده ، بدليل إنه أمر بأن يكون فى حاشية كل واحدة من زوجاته ، وكل أمير من أمرائه أيضا ، إمام ومؤذن لإقامة شعائر الدين . على أنه لم يكن متعصبا تعصبا أعمى ، يشهد بذلك إن عاصمته صراى كانت منذ سنة ٦٦٠ (١٢٦١ م) ، كرسيا لأسقفية مسيحية . (Enc. Isl. Art. Bereke) .

(٣ ، ٤) ضبط كل من هذين اللفظين على منطوقه فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. pp. 56, 57) .

تيمية[(١)] الحرانى الحنبلى، عن اثنتين وستين سنة . وتوفى كمال الدين أبو سالم محمد بن أحمد بن هبة الله ابن طلحة النصيبينى الشافعى خطيب دمشق بحلب، وقد قدم القاهرة .

وفيها أخذ مكة الشريف راجح [بن قتادة][(٢)] من الشريف جماز بن حسن، بغير قتال؛ ثم أخذها ابنه غانم بن راجح فى ربيع الأول بغير قتال؛ فقام عليه الشريف أبو نمى [بن أبى سعيد ابن على بن قتادة] فى شوّال ومعه الشريف إدريس[(٣)]، وحارباه وملكا مكة . فقدم فى خامس عشرى ذى القعدة مبارز الدين الحسين[(٤)] بن على بن برطاس من اليمن، وقاتلهما وغلبهما، وحج بالنـاس .

\+ + +

سنة ثلاث وخمسين وستمائة . فيها سار الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى إلى بلاد الصعيد، وأظهر الخروج عن طاعة الملك المعز، وجمع العربان . فسير إليه الملك المعز الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين الفائزى، ومعه طائفة من العسكر، حتى سكّن الأمور . وأخرج الملك الناصر عسكرا إلى جهة ديار مصر، ومعهم البحرية : وهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، وعز الدين أزدمر، وشمس الدين سنقر الرومى، وشمس الدين سنقر الأشقر، وبدر الدين بيسرى، وسيف الدين قلاون، وسيف الدين بلبان المسعودى، وركن الدين بيبرس البندقدارى، وعدة من مماليك الفارس أقطاى .

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهو جدّ تقى الدين أبى العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ... بن تيمية، الفقيه الحنبلى الشهير، صاحب الآراء الجريئة فى أصول الدين . (Enc. Isl. Art. Ibn Taimiya) .

(٢) انظر الحاشية التالية .

(٣) العبارة التالية، الى آخر الوارد هنا تحت هذه السنة، موجودة فى ب (١٢٣ ب) فقط، وليس منها فى س سوى بقايا كتابة خافية تماما، لورودها بطرف هامش الصفحة، حيث اعتراها ما محاها تقريبا . هذا وقد قورنت العبارة كلها على ما يقابلها فى الخزرجى (العقود اللؤلؤية، ج ١، ص ١١٥)، وأضيف ما بين الأقواس بسائر هذه الفقرة، وضبطت بعض الأسماء أيضا، بعد مراجعة الترجمة الإنجليزية لنفس المرجع . انظر (Ibid : Op. Cit. III. Ns. 535-537) .

(٤) فى ب "البارز بن على بن برطاش" . انظر ص ٣٠٢، سطر ٢، وكذلك الترجمة الإنجليزية لكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى . (Ibid : Op. Cit.I. p. 146.) .

وفيها قتَل الملكُ المعز الأميرَ علاء الدين إيدغدى العزيزى، بعد ما قبض عليه؛ و[كان قد قبض أيضا] على الفارس أقطاى العزيزى، والفارس أقطاى الأتابك؛ وهرب [منـه] أقش الركنى. وأمر الملك المعز ألا تخرج امرأة من بيتها، ولا يمشى رجل بلا سراويل. فقال أبو الحسين الجزار فى ذلك:

حَنَـا الملك المعـز على الرعايا * وألزمهم قوانين المُـروّة
وصان حريمهـم من كل عار * وألبسهم سراويل الفتـوّة

وفيهـا توجه الناصر داود بن المعظم عيسى إلى بغداد، يطلب ما أودعه عند الخليفة من الجوهر، وقيمته مائة ألف دينار. فمُطِل مدة، فتوجه إلى الحجاز، واستشفع إلى الخليفة فى ردّ وداعته، وعاد إلى العراق. فعوض عن جوهره بما لا يذكر، ورُدّ إلى الشام. وفيها قدم مكة أبو نُمِىّ وإدريس، ومعهما جماز بن شيحة(1) أمير المدينة، فقاتلوا المبارز بن برطاس، وأخذوا مكة.(2)

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير شرف الدين يوسف بن أبى الفوارس بن موسك القيمرى بنابلس، ودفن بدمشق. وتوفى نقيب الأشراف بحلب، [وهو] الشريف عز الدين أبو الفتوح مرتضى بن أبى طالب أحمد بن أحمد بن أبى الحسن محمـد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن أبى إبراهيم محمـد بن ممدوح أبى العلاء، عن أربع وسبعين سـنة بحلب. وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمـد بن محمد بن عثمان البلخى الحنفى البغدادى، بحلب عن تسع وسبعين سـنة. وتوفى ضياء الدين أبو محمد جعفر بن يحيى بن سالم بن يحيى بن عيسى بن صقر المحلى الشافعى، عن نيف وتسعين سنة بحلب، قدِم مصر وحدّث بها.

* * *

سنة أربع وخمسين وستمائة. فيها ورد الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد بن الحسن البادرائى، من قبل الخليفة المستعصم بالله، ليجدد الصلح الأوّل بين الملك الناصر والملك المعز.

---

(١) فى س "سبحه".

(٢) هنا تنتهى أخبار هذه السنة فى س، على أن الوفيات التالية واردة فى ب (١٢٤ أ)، وقد وردت فى س خطأ على ورقة منفصلة بين الصفحتين ٩٤ ب، ٩٥ أ، (انظر ص ٣٦٣، حاشية ٢). ولا شك فى صحة وضعها هنا، ففى (Quatremère : Op. cit. I. 1, p. 60. Ns. 85-88) دلائل مادية كافية للبرهان على ذلك.

فبعث السلطان إلى القائد برهان الدين خضر السنجارى ، فسار إلى قَطْيَا[1] ، ومعه جماعة من أعيان الفقهاء، حتى قدم به. فقرِّر الصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب من الساحل ببلاد الشام، مع مُلك مصر؛ وأن الملك الناصر لا يأوى عنده أحدا من البحرية، فمضوا إلى الملك المغيث بالكرك. وتولى الصلح قاضى القضاة بدر الدين السنجارى؛ فلما تم الصلح عاد البادرائى، و رحل الملك الناصر عن تل العجول الى دمشق، وعاد المعز من العباسة — بعد إقامته عليها ثلاث سنين — الى قلعة الجبل .

وسار الأمير شمس الدين سنقر الأقرع رسولا إلى الخليفة ببغداد ، صحبة الشيخ نجم الدين البادرائى ، يلتمس تشريفه بالتقليد والخلع والألوية للملك المعز ، أسوة من تقدمه من ملوك مصر؛ فسار إلى بغداد . وبعث [الملك المعز] إلى الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة، و إلى الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، يخطب ابنتيهما[2] لنفسه . فشق ذلك على زوجته شجر الدر وتغيرت عليه، فتنكر لها وفسد ما بينهما ، فأخذت تدبر فى قتله .

وفى خامس جمادى الآخرة ظهرت نار بأرض الحجاز، واستمرت شهرا فى شرقى المدينة النبوية ، بناحية وادى شَظَّا[3] تلقاء جبل أُحُد[4]، حتى امتلأت تلك الأودية (١٠٣ ب) منها . وصار يخرج منها شرر يأكل الحجارة ، وزلزلت المدينة بسببها . وسمع الناس أصواتا مزعجة قبل ظهورها بخمسة أيام، أولها يوم الاثنين أول الشهر، فلم تزل الأصوات ليلا ونهارا، حتى ظهرت [النار] يوم الجمعة . وقد انبجست الأرض عن نار عظيمة عند وادى شظا، وامتدت أربعة فراسخ فى عرض أربعة أميال وعمق قامة ونصف ، وسال الصخر منها ، ثم صار فحما

(١) فى س "قطيا" .

(٢) كذا فى س ، و يمكن قراءة هذا اللفظ أيضا "اختيهما"، على أن الوارد بالمتن هنا هو الراجح، و يؤيده أبو الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ١٣٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، وكذلك ما يلى، ص ٤٠٢ ، سطر ٣ .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو جبل بمكة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٢٩٢) .

(٤) بغير ضبط فى س، وهو جبل بشمالى المدينة بينه و بينها قرابة ميل ، وعنده كانت الواقعة الإسلامية المشهورة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٤٤) .

أسود . وأضاءت بيوت المدينة منها فى الليل، حتى كأن فى كل بيت مصباحا[1]، ورأى الناس سناها بمكة . فالتجأ أهـل المدينة إلى قبر رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، ودَعوا واستغفروا الله تعالى، واعتقوا عبيدهم وتصدقوا، وقال بعضهم :

يا كاشف الضر صفحا عن جرائمنـا * لقـد أحاطت بنـا يارب بأساءُ
نشكو إليـك خطوبا لا نطيق لهـا * حَمْـلا ونحن لهـا حقا أحقَّاء
زلازلا تخشع الصم الصلاب لهـا * وكيف يقوى على الزلزال شمـاء
بحرا من النار تجرى فوقه سفن * من الهضاب لها فى الأرض إرساء
ترى لهـا شررا كالقصر طائشة * كأنهـا دِيْمَـــة تنصبُّ هطلاء
تُحَـدِّث النـــيراتِ السبعَ ألسنُها * بمـا تلاقى[2] بهـا تحت الثرى المـاء
منهـا تكاثف فى الجـو الدخان إلى * أن عادت الشمس منه وهى دهماء
فيالهـا آية من معجـزات رسول الل * ـه يعقلهـا القـــوم الألبـاء
فاسمحْ وهبْ وتفضلْ وامْحُ واعفُ وجُد * واصـفح فكل لفـرط الحلم خُطَّاء

وذكر غير واحد من الأعراب الذين كانوا بحاضرة بلد بُصْرى من أرض الشام، أنهـم رأوا صفحات أعناق إبلهم فى ضوء هذه النار[3] . وفى ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان، احترق مسجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من مَسْرَجة القيِّم ، وذهبت سائر سقوفه و بعض عمده، واحترق سقف الحجرة الشريفة .

وفيهـا غرقت بغداد وهلك بها عالم عظيم ، وسارت السفن فى أزقتها . وفيها قوى أمر هولاكو[4] بن طولوخان بن جنكزخان، وظهر اسمه، وفتح عدّة قلاع بالشرق . وفيها دخل مُقَدَّم

(١) فى س "مصباح" .
(٢) فى س "ملاق" .
(٣) يتضح من هذه العبارة، أن أهل الحجاز رأوا فى تلك الظاهرة البركانية علامة لانتهاء الدنيا واقتراب الآخرة .
(٤) كان هولاكو تلك السنة يقوم بالشطر الأول من تعلياته (انظر ص ٣٨٣ ، حاشية ٣)، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس، وأوشك أن ينتهى منهم فى أواخر تلك السنة ، وذلك حينما سلم إليه شيخهم ركن الدين خورشاه ، ووقعت =

من التتار إلى أرض الروم [السلاجقة]، ففر منه السلطان غياث الدين كيخسرو[(١)] ومات فى فراره، فقام من بعده أولاده الثلاثة . وأخذ التتار قيسارية وما حولها، فصار لهم من بلاد الروم مسافة شهر. وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ببغداد، وتحدثوا معه ووعدوا جماعة من أمراء بغداد بعدة مواعيد، والخليفة فى لهوه لا يعبأ بشىء من ذلك[(٢)] .

وفيها ولى تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز قضاء القضاة، عوضا عن بدر الدين يوسف السنجارى . وفيها سار إدريس إلى راجح، وأخذ مكة

= ألَموت نفسها فى أيدى التتر . على أنه بقى بعد ذلك من حصون الإسماعيلية اثنان، استولى التتر على أحدهما وهو حصن لامسار (Lamsar) فى ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ، وامتنع عليهم ثانيهما عدة سنين واسمه حصن جردى كوه (Gird-i-Kuh). راجع (Enc. Isl. Art. Hulagu ؛ Browne. Op. Cit. II. P. 459) .

(١) فى س "كيخسروا" . وقد أخطأ المقريزى فى إيراد ذلك الحادث تحت هذه السنة، إذ المعروف أن التتر غزوا بلاد الروم السلاجقة قبل ذلك بعدة سنين — ٦٣٩ هـ، ١٢٤١ م — بقيادة أحد مقدميهم المسمى (Baidju Noyon). وقد انهزم أمامهم السلطان غياث الدين كيخسرو المذكور هنا، عند بلدة (Kōzädagh) فى سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م)، وفر الى قونية . ثم خضع للتتر من بلاد السلاجقة الروم مدينة سيواس، وامتنعت قيسارية وتوقات من التسليم اليهم، فدخلوهما عنوة ونهبوهما . ومات غياث الدين كيخسرو سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٥ م)، وخلفه فى السلطنة ابنه الأكبر عز الدين كيكاوس، فأشرك معه فى الحكم أخويه ركن الدين قلج أرسلان، وعلاء الدين كيقباد . هذا ويظهر أن منشأ خطأ المقريزى أن القائد (Baidju Noyon) غزا بلاد الروم السلاجقة مرة أخرى سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م)، فى عهد السلطان عز الدين كيكاوس المتقدم ذكره، فهزم السلطان المذكور عند أقصرا، وألجأه الى الفرار مدة، كما بالمتن . انظر (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 73 et seq., esp. N. 1. en p. 82 ؛ Enc. Isl. Arts. Kaikhusrau II. & Kaikā'ūs II).

(٢) يفهم من هذه العبارة، أن هولاكو أخذ فى التمهيد للشطر الثانى من تعلياته، وهو الاستيلاء على بغداد، ولما ينتهى تماما من أمر الشطر الأول منها، وهو استئصال الإسماعيلية الفرس . وتثور هنا مسألة موقف ابن العلقمى من مشروع التتر على بغداد، وهل كان خائنا للخليفة المستعصم، غير أن آراء المعاصرين أنفسهم متضاربة فى هذه النقطة . انظر (Browne : Op. cit. II. pp. 464-465). ومن أمثال تلك الآراء ما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٦ أ)، ونصه : "وكان الوزير مؤيد الدين قد أطمع نفسه بأن الأمور تكون مفوضة فى العراق اليه، وكان قد عزم على أن يحسن لهولاكو ملك التتر أن يقيم ببغداد خليفة من الشرفاء الفاطميين، فلم يتم له ذلك واطرحه التتر وبقى معهم على صورة بعض الغلمان، فمات بعد قرب كمدا، وندم على ما فعل حيث لم ينفعه الندم" .

أبو نمى، لجاء راجح مع إدريس وأصلح بينه وبين أبى نمى . وفيها قدم مكة ركب الحاج من العراق، ولم يحج بعدها ركب من العراق .

ومات فى هذه السنة من الأعيان شمس الدين يوسف(١) بن قزغلى بن عبد الله أبو المظفر، [وهو] سبط الحافظ أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى الفقيه الحنفى الواعظ. وتوفى شرف الدين أبو محمـد عبد العزيز بن عبد الرحمن بن هبـة الله بن قرناص الخزاعى الحموى الفقيه الشافعى الأديب . [وتوفى] زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد الواحد بن ظافر بن أبى الأصبع الفقيه الشافعى النحوى الأديب، عن خمس وستين سنة . [وتوفى] الشيخ أبو الروح عيسى بن أحمد ابن إليـاس البونينى(٢) ببعلبك . ومات ملك الروم غياث الدين كيخسرو بن علاء الدين كيقباد ابن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وقد ملك الططر قيصرية ومسيرة شهر معها، فقام بعده ابنه عز الدين(٣) كيقباد بن كيخسرو .

* * *

سنة خمس وخمسين وستمائة . فيهـا تزايدت الوحشة بين الملك المعز أيبك وبين شجر الدر، فعزم على قتلها . وكان له منجم قد أخبره أن سبب قتلته امرأة، فكانت هى شجر الدر. وذلك أنه كان قد تغير عليها، وبعث يخطب ابنة صاحب الموصل .

واتفق أن(٤) [المعز] قبض على عدة من البحرية، وهو على أم البـارد(٥)، وسيرهم ليعتقلوا

---

(١) فى س " سمس الدس س يوسف "، وخطأ المقـريزى هنا واضح . انظـر (Enc. Isl. Art. Ibn al-Djawzī, Sibt)، وقد لاحظ بعض من اطلع على هذه النسخة من السلوك هـذا الخطأ، فعقب عليـه بالآتى، وهو وارد قبالة وفيات تلك السنة، بخط مخالف طبعا، ونصه : " وهم المؤرخ فى هذا، إنمـا هو يوسف ولكن لقبه شمس الدين، ومن هنا أتاه الوهم والله أعلم " .

(٢) كذا فى س، بغير ضبط .

(٣) فى س "علا الدين" . (انظر ص ٤٠٠، حاشية ١) . ويلاحظ أن ورود هذه الوفاة الأخيرة هنا خطأ، وقد تقدم التنبيه الى منشأه بالحاشية المشار إليها، أما بقية الوفيات فليس من سبب يدعو الى التشكك فى وقوعها تلك السنة .

(٤) فى س " انه " .

(٥) لعلها " الباردة "، المذكور فى ص ٣٩٤، سطر ٣

بقلعة الجبل، وفيهم أيدكين[1] الصالحى . فلما وصلوا تحت الشباك الذى تجلس فيه شجر الدر، علم [أيدكين] أنها هناك ، فخدم[2] برأسه وقال بالتركى : " المملوك أيدكين بشمقدار[3] . والله ياخوند ما عملنا ذنبا يوجب مسكنا ! إلا أنه لما سير يخطب بنت صاحب الموصل، ماهان علينا لأجلك ، فإنا تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم[4] ، فلما عتبناه تغير علينا وفعل بنا ما ترين[5] " . فأومأت[6] [شجر الدر] إليه بمنديل، يعنى : " قد سمعت كلامك " . فلما نزلوا بهم الى الجب[7] قال أيدكين : " إن كان حبسنا فقد قتلناه " .

وكانت شجر الدر قد بعثت نصرا[8] العزيزى بهدية الى الملك الناصر يوسف، وأعلمته أنها قد عزمت على قتل المعز ، والتزوج[9] به وتمليكه مصر . فخشى [الملك الناصر يوسف] أن يكون هذا خديعة، فلم يجبها بشىء .

وبعث بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل يحذر[10] [الملك المعز] من شجر الدر، وأنها باطنت الملك الناصر [يوسف]، فتباعد ما بينهما، وعزم على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة . وكانت

(١) مضبوط على منطوقه فى (Zettersteen : Op. cit. pp. 188, 189) .

(٢) معنى هذا أن إيدكين حنى رأسه تحية وإجلالا ، انظر (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 64. N. 95) .

(٣) البشمقدار — أو البجمقدار — هو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير ، و يتركب هذا الاسم من لفظين ، أحدهما من اللغة التركية وهو بشمق ومعناه النعل ، والثانى من اللغة الفارسية وهو دار ومعناه ممسك ، و يكون المعنى ممسك النعل . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٩) . انظر أيضا تحديد معنى لفظ بشمق فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) المقصود هنا الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٥) فى س " ما ترى " .

(٦) فى س " فاومت " .

(٧) وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٣) جب القلعة بالآتى : "كان بالقلعة جب يحبس فيه الأمراء ، وكان مهولا مظلما كثير الوطاو يط كريه الرائحة ، يقاسى المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد . عمره الملك المنصور قلاون فى سنة إحدى وثمانين وستمائة ، فلم يزل الى أن قام الأمير بكتمر الساقى فى أمره مع الملك الناصر محمد بن قلاون ، حتى أخرج من كان فيه من المحابيس ونقلهم الى الأبراج ، و ردمه وعمر فوق الردم طباقا ، فى سنة تسع وعشرين وسبعمائة " .

(٨) فى س "نصر" .

(٩) فى س " التزويج " .

(١٠) فى س " يحذره " .

[شجر الدر] قد استبدت بأمور المملكة ولا تطلعه عليها، وتمنعه من الاجتماع بأم ابنـه علىّ وألزمته بطلاقها، ولم تطلعه على ذخائر الملك الصالح .

فأقام [الملك المعز] بمناظر اللوق أياما، حتى بعثت [شجر الدر] من حلف عليه . فطلع القلعة وقد أعدت له [شجر الدر] خمسة ليقتلوه : منهم محسن الجَوْجَرِى[1]، وخادم[2] (١٠٤ أ) يعرف بنصر العزيزى، ومملوك يسمى سـنجر . فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشرى شهر ربيع الأول، ركب [الملك المعز] من الميدان بأرض اللوق، وصـعد الى قلعة الجبل آخر النهار . ودخل الى الحمام ليلا، فأغلق عليه الباب محسن الجوجرى، وغلام كان عنده شديد القوة، ومعهما جماعة . وقتلوه بأن أخذ بعضهم بأنثييه وبعضهم بخناقه، فاستغاث [المعـز] بشجر الدر فقالت اتركوه، فأغلظ لها محسن الجوجرى فى القول، وقال لها : " متى تركناه لا يبقى علينا ولا عليك " ؛ ثم قتلوه .

وبعثت شجر الدر فى تلك الليـلة أصبع المعز وخاتمه إلى الأمير عز الدين أيبـك الحلبى الكبير، وقالت له : " قم بالأمر "؛ فلم يجسر . وأشيع أن[3] [المعز] مات فجأة فى الليل، وأقاموا الصائح فى القلعة، فلم تصـدق مماليكه بذلك : وقام الأمير علم الدين سنجر الغتمى — وهو يومئذ شوكة البحرية وشديدهم —، وبادر هو والمماليك إلى الدور السلطانية، وقبضوا على الخدام والحريم وعاقبوهم، فأقروا بما جرى . وعنـد ذلك قبضوا على شجر الدر، ومحسن الجوجرى، وناصر الدين حلاوة، وصدر الباز، وفرّ نصر العزيزى إلى الشام .

فأراد مماليك المعز قتل شجر الدر، فحماها الصالحية، ونُقلت إلى البرج الأحمر[4] [بالقلعة] . ثم

---

(١) بغير ضبط فى س، والنسبة الى قرية جوجر، بمركز سمنود من مديرية الغربية . وهى واقعة على الشاطئ الغربى لفرع دمياط، وقبالتها على الشاطئ الشرقى منيـة بدر خميس . (ياقوت : معجم البـلدان، ج ٢، ص ١٤٣ ؛ مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٠، ص ٧٠ — ٧١) .

(٢) فى س " وحادما " . (٣) فى س "انه" .

(٤) كان بقلعة الجبل عدة أبراج، ومنها هذا البرج الذى بناه السلطان الملك الكامل بن العادل أبى بكر بن أيوب . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٧٢) .

لما أقيم ابن المعز في السلطنة ، حُمِلت [شجر الدر] إلى أمه في يوم الجمعة سابع عشريه ، فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت في يوم السبت . وألقوها من سور القلعة إلى الخندق ، وليس عليها سوى سراويل وقميص، فبقيت في الخندق أياما ، وأخذ بعض أراذل العامة تكتة سراويلها . ثم دفنت بعد أيام — وقد نتنت، وحملت في قفة — بتربتها قريب المشهد النفيسى . وكانت من قوة نفسها ، لما علمت أنها قد أحيط بها ، أتلفت شيئا كثيرا من الجواهر واللآلئ، كَسَّرته في الهاون .

وصُلب محسن الجوجرى على باب القلعة، ووُسِّط(١) تحت القلعة أربعون طواشيا، وصلبوا من القلعة إلى باب زويلة . وقبض على الصاحب بهاء الدين بن حنا، لكونه وزير شجرالدر، وأخذ خطه بستين ألف دينار .

فكانت مدّة سلطنة الملك المعز سبع سنين تنقص ثلاثة وثلاثين يوما، وعمره نحو ستين سنة . وكان ملكا حازما شجاعا سفاكا للدماء : قتل خلقا كثيرا ، وشنق عالما من الناس بغير ذنب، ليوقع في القلوب مهابته، وأحدث مظالم ومصادرات عمل بها من بعده . ووزر له الصاحب تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ثم صرفه، واستوزر القاضى الأسعد شرف الدين هبة الله بن صاعد الفائزى، فتمكن منه تمكنا زائدا . وأحدث [القاضى الأسعد] حوادث شنيعة من المظالم، واستناب في الوزارة القاضى زين الدين يعقوب ابن الزبير — كان يعرف اللسان التركى — ، ليحفظ له مجالس أمراء الدولة ويطالعه بما يقال عنه .

---

(١) معنى وسط هنا "قطع نصفين" ، وفي (Quatremère : Op. cit. I. l. p. 72. N. 103) أمثلة عديدة للدلالة على استعمال هذا الفعل بذلك المعنى، ومنها : "وسطه بالسيف نصفين" . وكان هذا النوع من القتل شائعا في مصر زمن المماليك وفي غيرها من بلاد الشرق أيضا ، وطريقته أن يعرى المحكوم عليه من الثياب ، ثم يربط إلى خشبتين على شكل صليب ويطرح على ظهر جمل ، وتسمى هذه العملية بالتسمير ، وربما طيف بالمحكوم عليه شوارع القاهرة على هذه الحال . ثم يأتى السياف فيضرب المحكوم عليه ضربة بقوة تحت السرة ، تقسم الجسم نصفين من وسطه فتنهار أمعاؤه الى الأرض .

الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك

أقامه أمراء الدولة سـلطانا بقلعة الجبل، يوم الخميس سادس عشرى شهر ربيع الأول، سـنة خمس وخمسين وستمائة، وعمره خمس عشرة سنة تقريبا. وحلفوا له واستحلفوا العسكر، ما خلا الأمير عز الدين أيبك الحلبى المعروف بأيبك الكبير، فإنه توقَّف وأراد الأمر لنفسه، ثم وافق خوفا على نفسه. فركب الأمير قطز — هو والأمراء —، وقبض على الأمير سنجر الحلبى، يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر، واعتقله. فركب الأمير أيبك [الحلبى] الكبير فى الأمراء الصالحية فلم يُوَفَّق[1]، وتقنطر عن فرسه خارج باب زويلة، فأُدخل إلى القاهرة ميتا.

وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة على عادته، و[صار] مدبر دولة[2] [الملك المنصور على]. و[أقيم] الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب الصالحى أتابك العساكر، عوضا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبى (١٠٤ ب). واستمر الوزير شرف الدين الفائزى على عادته، فَنَقَل عنـه الأمير سابق الدين بوزنا[3] الصيرفى، والأمير ناصر الدين محمـد بن الأطروش الكردى أمير جاندار، أنه قال: "المملكة ما تمشى بالصبيان، والرأى أن يكون الملكُ الناصرَ". فتوهَّمت أم المنصور من أنه يرسل إلى الملك الناصر، وقبضت عليـه وأدخلته إلى الدور، وأُخذ خطه بمـائة ألف دينار. واستقر فى الوزارة بعـده قاضى القضاة بدر الدين يوسـف بن الحسن السنجارى، مضافا إلى القضاء وقد أعيد إليـه. وأحيط بأموال الفائزى، وقبض على جماعة بسببه. ثم إن السنجارى استعفى من الوزارة وتركها فى ربيع الآخر، فتقلد الوزارة قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن خلف العلائى، المعروف بابن بنت الأعز، بعد السنجارى.

وفى ليـلة الخامس عشر من جمـادى الاخرة، خسف القمر بحمرة شـديدة، وأصبحت الشمس حمراء، فأقامت كذلك أياما وهى ضعيفة اللون متغيرة.

---

(١) فى س " تقطر ". (٢) فى س " دوله ". (٣) فى س "بوز ما "، والصيغة المثبوتة هنا من ب (١٢٦ أ)، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 74) هذا الاسم الى (Bourna).

وفيها بلغ البحرية الذين كانوا ببلاد [السلاجقة] الروم موت الملك المعز، فساروا فى البر والبحر، ووصلوا إلى القاهرة . فلم تطل مدتهم حتى كرهوا المنصور بن المعز، لكثرة لعبه بالحمام ومناقرته بالديوك، ومعالجته بالحجارة وركوبه الحمير الفُرْه فى القلعة، ومناطحته بالكباش .

وفيها دخل الصارم أحمر[1] عينه الصالحى بجماعة، فقتلوا الوزير الفائزى فى جمادى الأولى، وأخرج فى نخ[2] . قال ابن واصل[3] : حكى القاضى برهان الدين أخو الصاحب بهاء الدين بن حنا قال : "دخلتُ على شرف الدين الفائزى وهو معتقل، فسألنى أن أتحدّث فى إطلاقه، بحكم أنه يحمل فى كل يوم ألف دينار عينا . فقلت له : وكيف تقدر على ذلك؟ فقال : أقدر عليه إلى تمام السنة، وإلى أن تمضى سنة يفرج الله تعالى" . فلم يلتفت مماليك الملك المعز إلى ذلك، وعجلوا بهلاكه وخنقوه، وحمل إلى القرافة ودفن بها .

وفيها وقعت الوحشة بين الملك الناصر وبين من عنده من البحرية، ففارقوه فى شوّال، وقصدوا الملك المغيث صاحب الكرك . فأخرج الأمير سيف الدين قطز العسكر إلى الصالحية، فواقعوهم فى يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، وأسروا الأمير سيف الدين قلاون، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، وقُتِل الأمير سيف الدين بلغان[4] الأشرفى . وانهزم عسكر الكرك، وفيهم بيبرس البندقدارى الذى[5] ملك مصر . وعاد العسكر إلى القاهرة، فَضَمِن الأميرُ شرف الدين قيران[6] المعزى — [وهو] أستادار السلطان — الأميرَ قلاون وأطلقه . فأقام [قلاون] بالقاهرة قليلا، ثم اختفى بالحسينية عند سيف الدين قطليجا[7] الرومى، فزوّده وسار إلى الكرك .

(١) كذا فى س .

(٢) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 75) هذا اللفظ إلى (couverture) أى غطاء، ولعل لفظ "النخ" هو المقصود، ومعناه "الزق أو ما كان للسمن خاصة، وجرة فخار يجعل فيها لبن يمخض" (محيط المحيط) .

(٣) هذه المرة هى الثانية، التى يشير المقريزى فيها الى ابن واصل . (انظر ص ٣٧٩، حاشية ١) .

(٤) كذا فى س، وبغير ضبط، وهو مترجم الى (Belban)، فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76) .

(٥) نصف هذا اللفظ زائل تقريبا فى س، وهو وارد كما هنا فى ب (١٢٦ ب) .

(٦) فى س "قيران"، وقد نقل نقطه من (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 76) .

(٧) فى س "قطليجا"، وقد أصلح هذا الاسم على منطوقه فى (Ibid : Op. cit. I. 1. p. 76) .

وفيها بعث الخليفة إلى الناصر يوسف بدمشق خلعة وتقليدا وطوقا . وفيها حسّن البحرية للملك المغيث أخذ ملك مصر، فكاتب عدّة من الأمراء ووعدهم . وفيها قوى هولاكو بن تولى ابن جنكزخان، وقصد بغـداد و بعث يطلب الضيافة من الخليفة[1] . فكثر الإرجاف ببغداد، وخرج الناس منهـا إلى (١٠٥ ا) الأقطار . ونزل هولاكو تجـاه دار الخلافة[2] وملك ظاهر بغداد، وقَتَل من الناس عالمـا كبيرا[3] .

وفيهـا قدم إلى دمشق الفقراء الحَيْدَرِيّة[4] ، وعلى رءوسهم طراطير، ولحاهم مقصوصـة وشواربهم بغير قص . وذلك أنـ شيخهم حيدر، لمـا أسره الملاحدة قصوا لحيته وتركوا شاربه، فاقتدوا به فى ذلك، وبنوا لهم زاوية خارج دمشق، ومنها وصلوا إلى مصر .

ومات فى هـذه السنة من الأعيـان نجم الدين أبو محمد عبد الله بن محمـد بن الحسن بن أبى سعد البادرائى[5] البغدادى الشافعى، رسول الخلافة وقاضى بغداد، عن إحدى وستين سنة . وتوفى الوزير الصاحب الأسعد شرف الدين أبو سـعيد هبة الله بن صاعد الفـائزى . وتوفى

---

(١) يوجد فى (D'Ohsson : Op. cit. III. p. 215 et seq.) ترجمة فرنسية لهـذا الكتاب الذى بعثـه هولاكو الى الخليفة المستعصم ، ومحواه دعوة الخليفة الى تسليم نفسه وعاصمته بغـداد الى التتر ، أو الويل والثبور ؛ وكان جواب المستعصم على هذا سخرية من هولاكو ومطلبه ، وقد حمله الى هولاكو شرف الدين عبد الله بن الجوزى . (Browne : Op. cit. II. p. 461) .

(٢) ينتهى هنا النقص الموجود بنسـخة مفرج الكروب لابن واصل المذكورة فى هذه الحواشى . انظر (نفس المرجع، ص ٣٨٥ ا) .

(٣) تحـرك هولاكو من همـدان ، حيث كان معسكرا منذ الانتهاء من حرب الإسماعيلية ، الى بغداد مباشرة فى ذى القعدة سنة ٦٥٥ ﻫ (نوفبر ١٢٥٧ م) ؛ وأرسـل فى نفس الوقت جيشا بقيادة (Baidju Noyon) ، للزحف على بغداد أيضا من طريق تكريت والموصل . وكان عدد الجيش الذى بقيادة هولاكو ثلاثين ألفا على حسب تقرير المؤرخين المعاصرين ، وكانت عدة الجيش الذى جهزه الخليفة المستعصم عشرين ألفا . وتقدمت الجيوش التترية ، فتناوبت النصر والهزيمة هى وجيوش الخليفة ، حتى حاصرت بغداد نفسها فى المحرم سنة ٦٥٦ ﻫ (يناير ١٢٥٨ م) (Browne : Op. cit. II. p. 460 et seq.) . انظر أيضا ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٥ ا) .

(٤) ترجم (Quatremère : OP. Cit. T. I. P 76) هذا اللفظ الى (Haidaris) ، بغير تعليق .

(٥) فى س "الباذراى" .

عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبى الحديد المدائنى ، مؤلف كتاب الفلك الدائر على المثل السائر . ومات متملك الروم علاء الدين كيقباد بن غياث الدين كيخسرو ابن علاء الدين[(١)] كيقباد بن غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان . وقام بعده أخوه عز الدين كيكاوس ابن غياث الدين كيخسرو ، فملك الططر قونية منه ، ففر منها إلى العلايا[(٢)] .

---

(١) كان علاء الدين كيقباد أصغر الأخوة الثلاثة ، الذين تشاركوا فى حكم بلاد السلاجقة الروم (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . ومات علاء الدين كيقباد هذا مقتولا ، وهو فى الطريق الى منكوخان إمبراطور التتر . ولما كان أخوه الثانى ، وهو ركن الدين قلج أرسلان ، مسجونا بأمر عز الدين كيكاوس وهو الأخ الثالث ، فإن الجو خلا لعز الدين هذا بعد وفاة علاء الدين كيقباد . وعز الدين كيكاوس هو الذى انهزم على يد القائد التترى (Baidju Noyon) سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، ولجأ بعد هزيمته الى الأشكرى (Theodore II Lascaris) ، إمبراطور الدولة البيزنطية فى نيقية . وهذه الأخبار هى التى قصد المقريزى إيرادها تحت سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) ، فاختلط عليه الأمر وأخطأ ، على الصورة التى سبق ورودها . (انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ١) . وكان التتر قد أخرجوا ركن الدين قلج أرسلان من السجن ، وأقاموه مقام أخيه سلطانا على السلاجقة الروم . ثم حدث بمجرد رحيل الجيوش التترية عن البلاد ، أن رجع عز الدين الى قونية ، وكان أخوه ركن الدين قد استقر بقيصرية ، فاتفق الأخوان فيما بينهما على اقتسام البلاد ، وجعل نهر قزل إرمك حدا بين القسمين . ثم ذهب الأخوان الى حضرة هولاكو وكان وقتئذ بتبريز ، للتصديق على ذلك الاتفاق ، وتم الأمر . بعد ذلك غضب هولاكو على عز الدين ، لمفاوضته سلطان المماليك بمصر وهو عدو التتر ، فعزله هولاكو وألجأه إلى الفرار إلى العلايا سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) ، وهى إحدى الثغور الجنوبية فى آسيا الصغرى . (انظر الحاشية التالية) . وسافر علاء الدين بعد ذلك الى القسطنطينية ، وكان قد رجع إليها سلطان البيزنطيين ، فأقام بها حتى سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) . واتهم عز الدين تلك السنة بالاشتراك فى مؤامرة على حياة الامبراطور (Michael Palaeologus) ، غرضها إقامة عز الدين نفسه أمبراطورا . لذلك أخرج عز الدين منفيا الى بلدة (Ainos) ، وبقى هناك حتى أرسل إليها منكوتيمور خان القبشاق جيشا سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٨ م) فاحتلها ، وأطلق سراح عز الدين وأحضره الى بلاد القرم حيث تزوج من إحدى بنات بركة خان ، وبقى بها حتى وفاته سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) . انظر (Enc. Isl. Art. Kaika'us II.) . وقد انفرد ركن الدين قلج أرسلان بالملك منذ لجوء أخيه الى البيزنطيين ، على أن مقاليد الحكم كانت فى يد الوزير معين الدين سليمان ، وعلى يد هذا الوزير كان مقتل ركن الدين سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) . (Enc. Isl. Art. Kilidj Arslan IV) . (Cam. Med. Hist. IV. pp. 503 et seq., 510)

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو ثغر بجنوبى آسيا الصغرى على شاطئ البحر الأبيض المتوسط ، واسمه الأصلى (Galonoros) أى الثغر الجميل باللغة اليونانية ، وكان يحكمه أمير (baron) أرمنى مستقل بنفسه . ثم استولى السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى على هذا الثغر حوالى سنة ١٢٢٠ م ، وبنى به الأسوار والعمائر وجعله مشتى لبلاطه ، وسماه العلايا نسبة إليه . فلما انتهت دولة الروم السلاجقة من آسيا الصغرى ، ظل ثغر العلايا بيد أبناء تلك الدولة ، وعاشوا به حتى استولى عليه منهم الأتراك العثمانيون ، سنة ١٤٧١ م . (Enc. Isl. Art. Alāya) .

* * *

سنة ست وخمسين وستمائة . فيها وقع الغلاء بسائر البلاد، وارتفعت الأسعار بدمشق وحلب وأرض مصر، وأبيع المكوك[1] القمح بحلب بمائة درهم، والشعير بستين درهما، والبطيخة الخضراء بثلاثين درهما، وبقية الأسعار من هذه النسبة[2] .

وفى رابع شهر رمضان سقطت إحدى مسالّ فرعون التى بعين شمس، فوُجِد فيها نحو المائتى قنطار نحاس، وأخذ من رأسها عشرة آلاف دينار .

وفيها ملك هولاكو بغداد، وقتل الخليفة المستعصم بالله عبد الله[4] فى سادس صفر، فكانت خلافته خمس عشرة سنة وسبعة أشهر وستة أيام . وانقرضت بمهلكه دولة بنى العباس [من بغداد]، وصار الناس بغير خليفة إلى سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فصحّ حديث حبيب ابن أبى ثابت، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن رسول الله قام فقال : "يامعشر قريش !

---

(١) المكوك هنا — وجمعه مكاكيك — مكيال للحبوب يسع صاعا ونصفا، والصاع قدر نصف وبية، والوبية ثلاث كيلات . (محيط المحيط) . على أن هذه المكاييل ليست ذات سعة واحدة فى أنحاء البلاد الإسلامية، كما يتضح من (Enc. Isl. Art. Kaila) .

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س، قدر نصف سطر تقريبا .

(٣) جمع مسلة، وكان بيلدة عين شمس، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٢٢٨ — ٢٣١) مسلتان فقط، سقطت إحداهما فى رمضان من تلك السنة، وبقيت الثانية أو جزء منها الى الآن .

(٤) أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد، فى أوّل يوم من تلك السنة (٣٠ يناير سنة ١٢٥٨ م)، ودحر جيوش الخليفة المستعصم بعد ذلك بتسعة أيام، ولم يبق فى طريقه الى أبواب بغداد مقاومة . وفى يوم ٤ صفر (١٠ فبراير سنة ١٢٥٨ م)، سلم الخليفة نفسه وعاصمته بلا قيد ولا شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان . وبعد ذلك بعشرة أيام قتل الخليفة وولداه أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن، وممن قتل أيضا محيي الدين بن الجوزى، وأولاده جمال الدين وتاج الدين وشرف الدين، وغيرهم كثير . على أن الروايات تختلف فى كيفية قتل التتر للخليفة المستعصم، وفى هذا يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٥ ب) : "وأما الخليفة رحمه الله فانهم قتلوه، لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان، فقيل إنه خنق، وقيل وضع فى عدل ورفس حتى مات، وقيل غرق فى الدجلة، والله أعلم بحقيقة ذلك" . هذا وقد كان من تقاليد التتر ألا يريقوا دما ملكيا، فالغالب أن المستعصم لقى حتفه بإحدى الوسائل المتقدمة، وليس بالسيف . راجع (Browne : Op. cit. II. p. 463)، وانظر أيضا (Enc. Isl. Arts. Baghdad & Hulagu) .

إن هذا الأمر لا يزال فيكم، وأنتم ولاته حتى تحدثوا أعمالا تخرجكم منه . فإذا فعلتم ذلك سلط الله عليكم شر خلقه ، فالتحوكم كما يلتحى القضيب[1] .

وقُتِل الناس ببغـداد وتمزقوا فى الأقطار ، وخرب[2] [التتر] الجوامع والمساجد والمشاهد[3]، وسفكوا الدماء حتى جرت فى الطرقات، واستمروا على ذلك أربعين يوما . وأمر هولاكو بعَدِّ القتلى، فبلغت نحو الألفى ألف قتيل، وتلاشت الأحوال بهـا . وملك التتار إربل[4] ، ودخل بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فى طاعتهم .

وفيهـا كثر الوباء[5] ببلاد الشام ، فكان يموت من حلب فى كل يوم ألف ومائتا إنسان . ومات من أهل دمشق خلق كثير، وبلغ الرطل التمر هندى ستين درهما .

وفيها أنفذ الملك الناصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هولاكو، ومعه تقادم وعدة من الأمراء . فلما وصل [الملك العزيز] إلى هولاكو قدم إليه ما معه، وسأله على لسان أبيه

(١) تقدم ذكر هذا الحديث، على هامش العبارات الافتتاحية من هذا الكتاب . انظر ص ٨ ، حاشية ٢ .

(٢) فى س "خربوا" .

(٣) يفهم من (Enc. Isl. Art. Baghdad) ، أن بغداد — مع فداحة الكارثة التى حلت بهـا — لم تلق على يد التتر مثـل الذى لقيته بلاد أخرى على يدهم . والسبب فى ذلك أن هولاكو كان يريد أن يحتفظ ببغداد لنفسه ، وقد أمر فيما بعد باصلاح بعض ما أفسدت جيوشه ، مثل إعادة بناء جامع القصر الذى كان من أكبر جوامع بغداد .

(٤) كان هولاكو إبان شروعه فى الزحف على بغداد ، قـد أرسل جيشا بقيـادة (Oroctou Noyon) للاستيلاء على إربل . وكان بها منذ سنة ٥٦٣ ﻫ (١١٦٧م) قوم من الكرد، استطاعوا أن يقاوموا جيوش هولاكو مقاومة عنيـدة مدة، وذلك رغم ذهاب قائدهم الشريف ابن صـلايا إلى جيوش التـتر، ورجوعه الى إربل لينصح النـاس بالتسليم . ثم حدث أن أنجـد بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصـل جيوش التتر على إربل ، فانكسرت المقاومة الكردية وسلمت المدينة . وكان القائد التترى قد أرسل الشريف ابن صلايا الى حضرة هولاكو بهمدان ، بعد ما تبين عجزه عن إقنـاع الأكراد بالتسليم ، فأمر هولاكو بقتـله عملا بمشورة بدر الدين لؤلؤ . وفى هـذا يقول ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٨٦ ا) : "وأما الشريف ابن صلايا فقتل، وقد ذكر والله أعلم أن بدر الدين لؤلؤ هو [الذى] كان السبب فى قتله ، وأنه قال لهولاكو هـذا شريف علوى ، وربما يطاول أن يكون خليفة ، وتبايعه على ذلك خلق عظيم، فتقدم بقتله" . انظر أيضا (D'Ohsson : Op. cit. III. p. 256-257 ; Enc. Isl. Art. Irbil).

(٥) فى س "ماتى" .

فى نجدة ليأخذ مصر من المماليك ، فأمر [هولاكو] أن يُتَوَجَّه إليه بعسكر فيه قدر العشرين ألف فارس . فطار هذا الخبر إلى دمشق ، فرحل من كان بها من المماليك البحرية ، وصاروا إلى الملك المغيث عمر بالكرك وحرّضوه على أخذ مصر ، فجمع الملكُ المغيث وسار .

فتجهز الأمير قطز ، وخرج من القلعة بالعساكر فى ... ...[1] . فلما وصل الى الصالحية تسلل الى الملك المغيث من كان كاتبه من الأمراء وصاروا اليه ، فلقيهم قطز وقاتلهم . فانهزم الملك المغيث فى شرذمة الى الكرك ، ومضى البحرية نحو الطور[2] واتفقوا مع الشَّهْرَزُورِيَّة[3] من الشرق . واستولى المصريون على من بقى من عساكر[4] [المغيث] وأثقاله ، وأسروا جماعة ، وعادوا الى قلعة الجبل . وقد تغير قطز على عدّة من الأمراء ، لميلهم الى الملك المغيث : فقبض على الأمير عز الدين أيبك الرومى الصالحى ، والأمير سيف الدين بلبان الكافورى الصالحى الأشرفى ، والأمير بدر الدين بكتوت الأشرفى ، والأمير بدر الدين بلغان الأشرفى ، وجماعة غيرهم ؛ وضرب أعناقهم فى سادس عشرى ربيع الأول (١٠٥ ب) ، وأخذ أموالهم كلها .

وفيها فر طائفة من [الأكراد من وجه] عسكر هولاكو ، يقال لهم الشهرزورية ، وقدموا دمشق وعدّتهم نحو الثلاثة آلاف ، ومعهم أولادهم ونساؤهم . فسر بهم الملك الناصر واستخدمهم ليتقوى بهم ، فزاد عنتهم وكثر طلبهم حتى خافهم ، وأخذ يداريهم وما يزيدهم ذلك إلا تمردا عليه ، إلى أن تركوه وساروا إلى الملك المغيث بالكرك ، فسر بهم وتاقت

---

(١) بياض فى س .

(٢) الراجح أن الطور المقصود هنا هو طور سيناء ، وليس الطور المذكور بالقسم الأول ، ص ٩٥ ، حاشية ١ .

(٣) فى س " السهرز " فقط ، و بقيــة اللفظ زائل ، على أنه فى ب (١٢٧ ب) . والشهرزورية نسبة إلى شهرزور ، وهى إحدى جهات كردستان ، حيث توجد مدينة بهذا الاسم أيضا . وكان بتلك الجهــة جماعة الأكراد الكوسية (Kusa Kurds) ، وقد ظلوا بها حتى استولى هولاكو على بغداد ، وتقدّمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر ، كما بالمتن . (Enc. Isl.Art. Shehrizur).

(٤) فى س "عساكره" .

نفسه إلى أخذ دمشق . فخاف الناصر وتخيل من الأمراء القيمرية الذين فى دمشق ، فاضطرب وتحير .

وفيها مات أمير بنى مَرِين أبو يحيى بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة ، فى رجب . وقام من بعده ابنه عمر ، ونازعه عمه يعقوب بن عبد الحق . وأبو يحيى هو الذى فتح الأمصار ، وأقام رسوم المملكة ، وقسم بلاد المغرب بين عشائر بنى مرين ، وقام بدعوة الأمير أبى زكريا ابن أبى حفص صاحب تونس . وأبو يحيى أول من اتخذ الموكب الملكى[1] منهم ، وملك مدينة فاس . وقد استبد [أبو يحيى] بملك المغرب الأقصى ، وبنو عبد الواحد بملك المغرب الأوسط ، وبنو أبى حفص بإفريقية . هذا وقد أشرفت دولة الموحدين بنى عبد المؤمن على الزوال .

وفى سنة ست وخمسين [هذه] قدم أولاد حسن مكة ، وقبضوا على إدريس وأقاموا ستة أيام ، فجاء أبو نمىّ وأخرجهم ولم يُقتل بينهم أحد .

. ومات فى هذه السنة من الأعيان[2] ... المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبى جعفر منصور بن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد ، آخر خلائف بنى العباس ، مقتولا فى سادس صفر ، بعد ما أتلف عساكر بغداد لنهمته فى جمع المال . فَدُهِى الإسلام وأهله بلينه ، وإسناده الأمر إلى وزيره ابن العلقمى ، فإنه قطع أرزاق الأجناد ، واستجرّ[3] التتار حتى كان ما كان . ومات الملك الناصر داود بن المعظم عيسى ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى ، صاحب دمشق والكرك ، بعد ما مرّت به خطوب كثيرة ، عن ثلاث وخمسين سنة خارج دمشق ؛ وله شعر بديع . وتوفى الحافظ ركن الدين أبو عبد الله عبد العظيم بن عبد القوى بن عبد الله بن سلامة المنذرى الشافعى الإمام الحجة ، عن خمس وسبعين سنة . ومات محيى الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبى الفرج

(١) فى س " الملوكى " .

(٢) النصف الثانى من كلمة الأعيان محجوب بورقة ملصوقة فوقه فى س ، وكذلك بقية السطر أيضا . ولعل تلك البقية ، وهى المشار اليها هنا بنقط ، عبارة عن لفظى " الخليفة العباسى " ، أو شىء مثل ذلك .

(٣) انظر ص ٤٠٠ ، حاشية ٢ .

عبد الرحمن بن على بن محمـد بن على بن محمد بن جعفر بن الجوزى البكرى البغدادى الحنبلى، محتسب بغداد ورسول الخلافة، عن[1] ست وسبعين سـنة . وتوفى الصاحب محيى الدين أبو عبد الله محمـد بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زيد بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عامر أبى جرادة العقيلى بن العديم الحنفى، عن ست وستين سنة بحلب . وتوفى نظام الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عبد المجيد بن المولى الأنصارى الحلبى، صاحب الإنشاء بحلب . وتوفى ناظر الجيش بحلب، [واسمه] عون الدين أبو المظفر سليمان بن البهاء أبى القاسم عبد المجيد بن الحسن بن عبـد الله بن الحسن بن العجمى الحلبى، عن خمسين سنة . وتوفى الصاحب عز الدين أبو حامد محمد بن محمد بن خالد بن محمد بن نصر بن القيسرانى الحلبى، ناظر الدواوين بدمشق . وتوفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد بن على بن يحيى الأزدى المكى، الكاتب الشاعر الماهر، صاحب الإنشاء بديار مصر، عن خمس وسبعين سـنة . وتوفى الأمير سـيف[2] الدين على بن سابق الدين عمر بن قزل — المعروف بالمشدّ، عن أربع وخمسين سنة؛ وشعره الغاية فى الجودة . وتوفى شاعر بغداد جمال الدين أبو زكريا يحـيى بن يوسف بن يحيى بن منصور الصَّرصرى[3] الحنبلى شهيدا، عن ثمـان وستين سنة . وتوفى الأديب شرف الدين أبو الطيب أحمد بن محمد ابن أبى الوفاء بن الحُلَاوِى[4] الموصلى، عن ثلاث وخمسين سـنة بالموصل . و[توفى] الأديب سعد الدين أبو سعد محمد بن محيى الدين محمـد بن على بن عربى، بدمشق . و[توفى] الأديب

(١) توفى فى تلك السنة أيضا، حسبما جاء فى ابن واصـل (نفس المرجع، ص ٣٨٧ ب)، الشيخ شمس الدين يوسف سبط ابن الجوزى، مؤلف كتاب مرآة الزمان .

(٢) كان هـذا الأمير قريب جمال الدين بن يغمور، وابن أخ الأمير فخر الدين عثمان أستادار الملك الكامل . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٨٩ أ) .

(٣) بغير ضبط فى س، والنسـبة الى صرصر، وهو اسم يطلق على قريتين من سواد بغـداد، وهما صرصر العليا وصرصر السفلى، وكلتاهما على ضفة نهر عيسى الذى يسمى أحيانا نهر صرصر . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨١) .

(٤) بغـير ضبط فى س، والنسـبة الى بلدة حلاوة . انظر ياقوت (معجم البلدان : ج ٢، ص ٣٠٣) .

نور الدين أبو بكر محمد عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم الإسعردى ، بدمشق . و[توفى] الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن عبد الحق بن يوسف الشاذلى الزاهد، بصحراء عيذاب . و[توفى] أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفتح، خطيب مَرَدا (١)، التركى الحنبلى، عن سبعين سنة، بمردا من عمل دمشق، [وكان قد] حدّث بالقاهرة .

* * *

سنة سبع وخمسين وستمائة . فيها نازل التتار ماردين فلم ينالوا منها شيئا، فرحلوا عنها (٢) إلى ميافارقين وحاصروا أهلها، حتى أكلوا من عدم الأقوات جلود النعال التى تلبس فى الرجلين .

وفيها خرج الملك المغيث من الكرك بعساكره يريد دمشق، فخرج الملك الناصر من دمشق إلى محاربتــه ، ولقيه بأَرِيحَا (٣) وحاربه، فانهزم المغيث إلى الكرك . وسار الناصر إلى القدس فأقام به أياما، ثم رحل إلى زَيْزاء (٤) نخيم على بركتها . وأقام [هناك] مدّة ستة أشهر، والرسل تتردّد بينه وبين المغيث إلى أن وقع الاتفاق بينهما، على أن الناصر يتسلم من المغيث الطائفة البحرية جميعهم، وأن المغيث يبعد عنه الشهزورية؛ فسارت الشهزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية .

---

(١) بغير ضبط فى س، وهى قرية قرب نابلس ، تنطق بألف مقصورة دائما . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٩٣) .

(٢) كان هولاكو قد عزم إبان تلك السنة على غزو الشام، ووقعت محاولاته على ماردين وميافارقين فى الطريق اليها . وكان من ضمن قواده إذ ذاك ولده يشموط (Yschmout)، وقد ناط به أخذ مدينة ميافارقين : (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 306-308) . وكان صاحب ميافارقين الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازى ابن العادل أبى بكر بن أيوب، وقد صابر حصار التتر واستمر على المقاومة مدة سنتين، حتى نفدت عنده الأزواد، وفنى أهل ميافارقين بالوباء والقتل، وضعف من بقى منهم لديه عن القتال . عند ذلك استولى التتر عليها، وقتلوا صاحبها الملك الكامل المذكور، كما سيلى بالمتن .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة بالغور من أرض الأردن بالشام، بينها وبين بيت المقدس يوم للفارس ، وتسمى أيضا أريحا وأريحاء . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٢٢٧ — ٢٢٨) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قرية كبيرة تابعة للبلقاء، وتطل على بركة واسعة . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢ ، ص ٩٦٦) .

وسَـيّر الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى الملك الناصر يلتمس منه الأمان، فحلف له وحضر [ركن الدين بيــبرس] إليــه على بركة زيزاء : ومعه بدر الدين بيسرى ، وإيتمش المسعودى، وطيبرس الوزيرى، وبلبــان الرومى الدوادار، وأقوش الرومى، ولاجين الدرفيل الدوادار، وكشتغدى المشرف، وإيدغمش [الشيخى ؟]، وأيبك الشيخى، وبلبان المهرانى، وخاص ترك الكبير، وسنجر المسعودى، وأياز الناصرى، وســنجر الهمامى، وأيبك العلائى، وطمان [الشقيرى ؟] ، ولا جين الشقيرى، وســلطان الإلدكزى، وبلبــان الأقسيسى، وعز الدين بيبرس (١) . فأكرمه [الملك الناصر]، وأقطعه نصف نابلس وجينين وأعمالها، بمائة وعشرين فارسا . وبعث المغيث سائر البحرية إلى الملك الناصر، فرحل عن زيزاء إلى دمشق، وقبض على البحرية واعتقلهم .

وفيها قدم الملك العزيز بن الملك الناصر من عند هولاكو، وعلى يده كتابه ونصه : "الذى يعلم به الملك الناصر صاحب حلب، أنا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى، وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز : قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . واستحضرنا خيلفهـا (٢)، وسألناه (٣) عن كلمات فكذب، فواقعه النــدم واستوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة، وكانت نفسه خسيسة، فجمع المــال (١٠٦ ا) ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من التمام والكمال .

إذا تم أمر دنا نقصـــه * توقَّ زوالا إذا قيــل تم

إذا كنت فى نعمة فارعها * فإن المعاصى تزيل النعم

وكم من فتى بات فى نعمة * فلم يدر بالموت حتى هجم

---

(١) قوبلت جميع هذه الأسماء على ترجمتها فى (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 83) .

(٢) كذا فى س ، ولعلها صيغة تحقير وتصغير على غير قياس، فان مصغر خليفة يكون خُلَيْفَة .

(٣) فى س "سالنا" .

إذا وقفت على كتابى هذا، فسارع برجالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض شاهنشاه رُوىْ زَمِين[1]، تأمن شره وتنل[2] خيره، كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز: وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَاسَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى. ولا تعوّق رسلنا عندك كما عوّقت رسلنا من قبل، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان. وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بأموالهم وحريمهم إلى كروان[3] سراى، فإن كانوا فى الجبال نسفناها، وإن كانوا فى الأرض خسفناها.

أين النجاة ولا مناص لهارب * ولى البسيطان الثرى والماء
ذلّت لهيبتنا الأسود وأصبحت * فى قبضتى الأمراء والوزراء

فانزعج الناصر وسيّر حريمه إلى الكرك، وخاف الناس بدمشق خوفا كثيرا لعلمهم أن التتر قد قطعوا الفرات[4]، وسار كثير منهم[5] إلى جهة مصر، وكان الوقت شتاء فمات خلائق بالطريق، ونُهب أكثرهم. وبعث الناصر، عند ما بلغه توجه هولاكو نحو الشام، بالصاحب كمال الدين عمر بن العديم إلى مصر، يستنجد بعسكرها.

فلما قدم [ابن العديم] إلى القاهرة، فى يوم ...،[6] عُقد مجلس بالقلعة عند الملك المنصور، وحضر قاضى القضاة بدر الدين حسن السنجارى، والشيخ عز الدين بن عبد السلام، وسُئلا فى أخذ أموال العامة ونفقتها فى العساكر، فقال ابن عبد السلام: "إذا لم يبق فى بيت المال

(١) فى س "روازمين"، ومعنى شاهنشاه روى زمين، ملك الملوك على وجه الأرض. (Quatremère : Op.cit. I. 1. p. 84. N. 119 & Richardson : A Dict. Pers. Ar. Eng.)

(٢) فى س "تنال".

(٣) ترجم (Quatremère : Op. cit. I. 1. p. 48) هذا اللفظ ترجمة حرفية الى (Karavanserai)، أى محط الرحال أو فندق المسافرين. غير أنه توجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة بهامش الصفحة، ونصها: "يعنى مصر"، وهى بخط المتن. ويفهم من هذا أن مصر كانت تعرف فى بلاد التتر باسم كروان سراى، وربما نشأت تلك التسمية من انتهاء معظم الطرق التجارية اليها من سائر جهات الشرق والغرب، فى القرون الوسطى.

(٤) كان هذا الخبر مفعما بالمبالغة، فالمعروف أن هولاكو لم يعبر الفرات إلا بعد الاستيلاء على آمد وغيرها، وسيأتى ذكر ذلك كله فيما يلى. (انظر ص ٤١٩، سطر ١).

(٥) الضمير هنا عائد على أهل دمشق.

(٦) بياض فى س.

شيء، وأنفقتم الحوائص الذهب ونحوها من الزينة، وساويتم العامة فى الملابس سوى آلات الحـرب، ولم يبق للجنـدى إلا فرسه التى يركبها، ساغ أَخْذ شيء من أموال النـاس فى دفع الأعداء. إلا أنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دَفْعُه بأموالهم وأنفسهم(١)"؛ وانفضوا. فوجد الأمير سيف الدين قطز سبيلا إلى القول، وأخذ ينكر على الملك المنصـور، وقال: "لابد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو، والملك المنصور صبى صغير لا يعرف تدبير المملكة". وكانت قد كثرت مفاسد الملك المنصور علىّ بن المعز أيبك، واستهتر فى اللعب، وتحكّمت أمه فاضطربت الأمور. وطمع الأمير سيف الدين قطز فى أخذ السلطنة لنفسه، وانتظر خروج الأمراء للصيد: فلمـا خرج الأمير علم الدين سنجر الغتمى، والأمير سيف الدين بهادر، وغيره من المعـزية لرمى البندق — وكان يوم السبت رابع عشرى ذى القعدة — قبض [قطز] على المنصور وعلى أخيه قاقان وعلى أمهما، واعتقلهم فى برج بقلعة الجبل. فكانت مدّة المنصور سنتين وثمانية أشهر وثلاثة أيام.

الملك المظفر سيف الدين قُطُز(٢)

جلس على سرير الملك بقلعة الجبـل يوم السبت، الرابع والعشرين من ذى القعدة، سنة سبع وخمسين وستمائة. وهو ثالث ملوك الترك بمصر. وفى خامسه وَلِى الوزارة زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، وصُرِف تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز. فبلغ ذلك الأمراء فقدموا إلى قلعة الجبل، وأنكروا ما كان من قَبْض(٣) [قطز] على الملك المنصور، وتوثبه على المُلْك. فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر، والتخوف مع هذا من الملك الناصر صاحب دمشـق، [وقال]: " وإنى ما قصـدت إلّا أن نجتمع على قتال

(١) كان من بين الحاضرين هذا المجلس ابن واصل. انظر (نفس المرجع، ص ٣٩١ ب).

(٢) ضبط اسم هذا السلطان على منطوقه فى (Enc. Isl. Art. Ḳuṭuz)، وفى هذا المرجع أن اسم قطز الأصلى محمود بن ممدود، وأنه كان قريب (nephew) الملك جلال الدين خوارزمشاه، وقد أسر فى حروب التـتر، وبيع بدمشق للسلطان الملك المعز أيبك.

(٣) فى س "قبضه".

التتر، ولا يتأتّى ذلك بغير مَلِك. فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدوّ فالأمر لكم، أقيموا فى السلطنة من شئتم ". فتفرقوا عنه، وأخذ يرضيهم حتى (١٠٦ ب) تمكّن. فبعث بالمنصور وأخيه وأمه الى دمياط، واعتقلهم فى برج عمره وسماه برج السلسلة، ثم سيرهم الى بلاد الأشكرى(١). وقبض على الأمير علم الدين سنجر الغتمى المعظمى، والأمير عز الدين أيدمر النجيبى الصغير، والأمير شرف الدين قيران المعزى، والأمير سيف الدين بهادر، والأمير شمس الدين قرا سنقر، والأمير عز الدين أيبك النجمى الصغير، والأمير سيف الدين الدود(٢) خال الملك المنصور على بن المعز، والطواشى شبل الدولة كافور لالا(٣) الملك المنصور، والطواشى حسام الدين بلال المغيثى الجمدار. واعتقلهم، وحلّف الأمراء والعسكر لنفسه، واستوزر الصاحب زين الدين يعقوب بن عبد الرفيع بن الزبير فى خامس ذى القعدة، واستمر بالأمير فارس الدين أقطاى الصغير الصالحى المعروف بالمستعرب أتابكا(٤). وفوض إليه والى الصاحب [زين الدين؟] تدبير العساكر واستخدام الأجناد وسائر أمور الدولة، واحتفل باستخدام الجنود والاستعداد للجهاد.

وورد الخبر بقدوم نجدة من عند هولاكو إلى الملك الناصر بدمشق، فكتب إليه الملك المظفر قطز وقد خافه كتابا يترقق فيه، ويقسم بالأيمان أنه لا ينازعه فى الملك ولا يقاومه، وأنه نائب عنه بديار مصر، ومتى حلّ بها أقعده على الكرسى، [وقال فيه أيضا]: "وإن اخترتنى خَدَمْتُك، وإن اخترتَ قدمتُ ومن معى من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضورى سيرت إليك العساكر صحبة من تختاره". فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز اطمأن.

---

(١) المقصود ببلاد الأشكرى هى الإمبراطورية البيزنطية بنيقية، وصاحبها تلك السنة (Theodore Lascaris II.). انظر (Camb. Med. Hist. III. pp. 501-506).

(٢) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 86) هذا الاسم الى (Addoud).

(٣) اللالا لفظ فارسى، معناه هنا الشخص المكلف بالعناية بالأطفال (Steingass: A Pers.Eng. Dict.).

(٤) فى س "اتابك".

وفيها سار هولاكو من بغداد بنفســه إلى ديار بكر، ونزل على آمد يريد حلب، ونازل حران ونصب عليها المجـانيق — وكانت فى مملكة النـاصر يوسف — حتى أخذها . وقطع بعضُ جيشه الفرات وعاثوا فى البلاد[1]، فأجمع أهل حلب على الرحلة منها، وخرجوا جافلين . فاحترز نائبها المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف، وجمع أهل الأطراف . وتقدم التتار حتى دنوا من حلب، فقتلوا كثيرا من عسكرها الذين خرجوا إليهم، ثم رحلوا عنها عاجلا .

فاضــطرب الناصر وعزم على لقاء هولاكو، وخيَّم على بَرْزَة[2] . وكتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك، وإلى الملك المظفر قطز، يطلب منهما نجدة . ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت، وعظم خوف الأمراء والعساكر من هولاكو : فأخذ الأمير زين الدين الحافظى يعظم شأن هولاكو، ويشير بأن لا يقاتَل وأن يدارَى بالدخول فى طاعتــه . فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البنــدقدارى، وضربه وسـبه وقال : " أنتم سبب هــلاك المسلمين "، وفارقه إلى خيمته . فمضى الزين الحافظى إلى الملك الناصر، وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس . فلما كان الليل (١٠٧ ا) هجم طائفــة من المماليك على الملك الناصر، ليقتلوه ويملّكوا غيره، وكان فى بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق . فبادر الأمراء القيمرية والأمير جمال الدين بن يغمور والأكابر إلى القلعة، وأشاروا على الناصر بأن يخرج إلى المخيم، فخرج . وعند ماخرج ركب بيبرس وسار إلى غزة، وبها الأمير نور الدين

(١) سار هولاكو بعد حصار ماردين وميافارقين الى آمد، وترك على حصارها الصالح إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل . (انظر ص ٤٢١، سطر ٧) . ثم زحف هو على نصيبين واستولى عليها، وتقدم حتى عسكر قرب حران فأسرع أهلهـا الى التسليم، وحذا حذوهم أهل الرها، وشــذ أهل سروج فلم يرسـلوا فى طلب الأمان، فكفاهم هولاكو بسيوف عسكره مؤونة التسليم . (D'Ohsson : Op. cit. III. pp. 308-313) . لم يبق بعد ذلك بين جيوش التتر ونهر الفرات سوى مسافة قصيرة، فأنفذ هولاكو جزءا من الجيش بقيادة ولده يشموط، فسبق الجيش الرئيسى الى عبوره والتقـدّم نحو حلب عن طريق ناحيـة تل باشر وبلدة نهر الجوز . وهذه المحـاولة على حلب هى التى أسماها ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٣ أ) المنازلة الأولى" . (انظر ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ١٥١) .

(٢) بغير ضـبط فى س، وهى قرية بالغوطة شمـالى دمشق . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٥٦٣؛ ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٩٢ أ) .

بدلان كبير الشهرزورية، فتلقاه وأنزله . وسيّر [بيبرس](١) إلى الملك المظفر قطز علاءَ الدين طيبرس الوزيرى ليحلّفه ؛ [فكتب إليه الملك المظفر أن يقدم عليه . ووعده الوعود الجميلة . ففارق بيبرس الناصرية، ووصل فى جماعة إلى مصر، فأنزله الملك المظفر بدار الوزارة، وأقبل عليه وأقطعه قليوب وأعمالها(٢)] .

وبلغ الناصر أن هولاكو أخذ قلعة حران وسائر تلك النواحى، وأنه عزم على أخذ حلب، فاشتد جزعه وسيّر زوجته وولده وأمواله إلى مصر ، وخرج معهم نساء الأمراء وجمهور الناس . فتفرقت العساكر، وبقى [الناصر] فى طائفة من الأمراء . ونزل هولاكو على البيرة وأخذ قلعتها — وأخذ منها الملك السعيد بن العزيز [عثمان بن العادل](٣)، وله بها تسع سنين فى الاعتقال، وولاه الصبيبة وبانياس — ، ونزل على حلب .

ففر أهل دمشق وغيرها ، وباعوا أموالهم بأبخس ثمن، وساروا وكان الوقت شتاء، فهلك منهم خلق كثير . وسير الملك المغيث من بقى عنده من البحرية مقيدين على الجمال، وهم نحو الخمسين : منهم الأمير سنقر الأشقر . وسار أربعة من البحرية إلى مصر : وهم قلاون الألفى، وبكتاش الفخرى أمير سلاح، وبكتاش النجمى، والحاج طيبرس الوزيرى .

وفيها كثرت الزلازل بأرض مصر . وفى ثانى عشر جمادى الآخرة جُبى التصقيع من أملاك القاهرة ومصر . وفى شعبان قُبض على رجل يعرف بالكورانى، وضرب ضربا مبرحا بسبب بدع ظهرت منه؛ وجَدّد إسلامه الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأُطلق من الاعتقال فأقام بالجبل الأحمر .

وفيها بنى [هولاكو] الرَّصَد بمدينة مَراغة(٤)، بإشارة الخَوَاجا(٥) نصير الدين محمد الطوسى،

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٤ أ) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢٩، ١٤٣، ١٤٤، فى (Rec. Hist. Or. I. .

(٤) بغير ضبط فى س، وهى من بلاد آذربيجان . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٧٦) .

(٥) الخواجا هنا أو الخواجه — المعلم، ومن معانيه الكاتب والتاجر. (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . =

وهو دار للفقهاء والفلاسـفة والأطباء ، بها من كتب بغـداد شيء كثير ، وعليها أوقاف لخـــدامها .

وفيها[1] اسـتقل يعقوب بن عبـد الحق بن محيو بن أبي بكر بن حمامة ، ملك بني مرين ، بملك فاس وعامة المغرب الأقصى . وفيها سار عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان ابنا كيخسرو بن كيقباد من قونية إلى هولاكو ، فأقاما عنده مدّة ثم عادا إلى بلادهما[2] .

ومات في هذه السنة من الأعيان الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ الأتابكي صاحب الموصل ، في ثالث عشر شعبان عن ثمانين سنة ، دبّر[3] فيها الموصل نحو خمسين سنة . وقام من بعده ابنه الصالح إسماعيل ، وسار ابنه علاء الدين عليّ مفارقا لأخيـه إسماعيل إلى الشام . وتوفى الشريف منيف بن شيحة الحسيني أمير المدينة النبوية . وتوفى صدر الدين أبو الفتح أسعد ابن المنجا التنوخى الدمشقي الحنبلي ، ناظر الجامع الأموى ، عن ستين سنة بها . وتوفى نجم الدين أبو الفتح مظفر بن محمد بن إلياس بن السريجى الأنصارى الدمشقي الشافعي ، محتسب دمشق ووكيل بيت المـال بها . وتوفى الأديب بهاء الدين أبو عبـد الله محمد بن مكي بن محمـد بن الحسين بن الدجاجية القرشي الدمشقي بها ، عن ست وستين سنة .

= أما نصير الدين الطوسى ، المولود بطوس سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠م) ، فكان من البارزين في شتى العلوم في عصره ، واشتهر خاصة بالاشتغال بالفلك . وقد أقام نصير الدين عند الإسماعيلية ببلدة أَلَمُوت مدة ، وهو الذى أغرى ركن الدين خورشاه رئيس الإسماعيلية بالتسليم الى هولاكو . ودخل نصير الدين بعد ذلك فى خدمة هولاكو ، وكان مسموع الكلمة عنده ، وهو الذى أقنعه حينما كان يفكر فى مصير الخليفة المستعصم ، أن إعدام الخليفة لن يستجلب غضب أحد فى السماء أو الأرض . (Browne : Op. Cit. II. pp. 456-457, 460, 465, 484-486) .

(١) انظر الحاشية التالية .

(٢) العبارة المبتدئة من رقم الحاشية السابقة والمنتهية هنا ، مكتوبة بقلم مخالف لقـلم المتن المعتاد ، على أنها بخط المقريزى ، والراجح أن مكانها كان بياضا ملأه المقريزى فيابعد ، بعد أن اعترى خطه شيء من الهزة . هذا وقد تقدم ذكر أخبار هذين الملكين السلجوقيين فى ص ٤٠٠ ، حاشية ١ .

(٣) يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٨٦ أ ـــ ب) فقرة طويلة فى تاريخ أعمال بدر الدين لؤلؤ . انظر أيضا (نفس المرجع ، ص ٣٩١ أ ـــ ب) ، حيث توجد له ترجمة قصيرة .

* * *

سنة ثمان وخمسين وستمائة . فى المحرم نزل هولاكو على مدينة[1] حلب ، وراسل متوليها الملك المعظم تورانشاه بن الملك الناصر يوسف ، على أن يسلمه البلد ويؤمنه ورعيته ، فلم يجبه [إلى طلبه][2] وأبى إلا محاربتـه . فحصرها التتار سـبعة أيام وأخذوها بالسيف ، وقتلوا خلقا كثيرا وأسروا النسـاء والذرية ونهبوا الأموال مدّة خمسـة أيام ، استباحوا فيهـا دماء الخلق حتى امتلأت الطرقات من القتلى . وصارت عساكر التتر تمشى على جيف من قُتِل ، فيقال (١٠٧ ب) إنه أسر منها زيادة على مائة ألف من النسـاء والصبيان . وامتنعت قلعـة حلب ، فنازلهـا [هولاكـو] حتى أخذها فى عاشر صفر ، وخربها وخرب جميع سور البـلد وجوامعها ومساجدها وبساتينها ، حتى عادت موحشة . وخرج اليه الملك المعظم توارن شاه ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فلم يعترضه بسوء لكبر سنه ، فمات بعد أيام[3] . ووجد [هولاكو] من البحرية تسـعة أنفس فى حبس الملك الناصر ، فأطلقهم وأكرمهم :

(١) يوجد فوق هذا اللفظ عبارة "فى ثالث صفر" ، ولما كان من المعروف ، حسبما جاء فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٥ أ — ب) ، أن هولاكو نزل على نواحى حلب مثل جبرين والملاحة فى المحرم ، وأنه لم يزحف على مدينة حلب نفسها حتى ثانى صفر ، وذلك بعد رجوع رسوله من عندصاحبها الملك المعظم ، (انظر الحاشية التالية) ، فيظهر أن المقريزى كتب العبارة المشار اليها لمجرد الاختصار .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٤ ب) . وكان مضمون الرسالة الى الملك المعظم نائب حلب : "إن هولاكو يقول لكم إنكم تضعفون عن لقاء المغـل ، ومالكم قـدرة بهم ، ونحن نقصد الملك الناصر ومن معـه من العساكر . فتجعلون لنا عندكم شحنة بالقلعـة وشحنة بالمدينـة ، ونتوجه نحن الى الملك الناصر . فان كانت الكسرة علينا فالأمر اليكم ، إن شئتم أبقيتم على الشحنتين وطردتموهما عنكم ، وإن شئتم قتلتموهما . وإن كانت النصرة لنا ، فحلب وغيرها لنا وتكونون آمنـين على أنفسكم . فلما أدى الرسول الرسالة على (كذا) الملك المعظم ، قال الملك المعظم نحن لانجيب (فى الأصل نجب) إلى هذا أبدا ، وما بيننا وبينه إلا السيف . فانصرف الرسول متعجبا من هذا الجواب ومتألما ، لما يعلم أن من هذا الجواب يكون وباله (كذا) على أهل حلب والمسلمين . ولما بلغ هولاكو ما أجاب به الملك المعظم ، ركب فى جحافـله وعساكره الكثيرة ورحل الى حلب ، وأحاط بها ثانى صفر من هذه السنة" .

(٣) لا يوجد فى نسخة ابن واصل المتداولة هنا (نفس المرجع ، ص ٣٩٤ ب — ٣٩٥ أ) ، سوى أول أخبار هذا الحصار ، وذلك لفقد الصفحات التى بها بقية أخبار تلك السنة ، وجزء من أخبار السنة التالية أيضا .

منهــم ســنقر الأشقر، وسيف الدين سكز، وسيف الديــن برامق، وبدر الدين بكمش المسعودى، ولاجين الجمدار الصالحى، وكندغدى[(١)] الصغير.

فلما وصــل الخبر الى دمشق بأخْذ قلعة حلب اضطربت بأهلها؛ وكان الملك الناصر قد صادر الناس، واســتخدم لقتال التتر، فاجتمع معه ماينا هز مائة ألف ما بين عرب وعجم. فتمزق حينئذ الناس، وزهدوا فى أمتعتهم وباعوها بأبخس الأثمان، وخرجوا على وجوههم. ورحل الملك الناصر عن برزة، يوم الجمعــة منتصف صفر، بمن بقى معــه يريد غزة، وترك دمشق خاليــة، وبها عامتها قد أحاطت بالأسوار، وبلغت[(٢)] أجرة الجمل سبعمائة درهم فضة، وكان الوقت شــتاء. فلم يثبت الناس عنــد خروج الناصر، ووقعت فيهــم الجفلات حتى كأن القيامة قامت، وكانت مدّة مملكة الناصر بحلب ودمشق ثلاثا وعشرين سنة وسبعة أشهر، منها مدّة تملكه لدمشق عشر سنين تنقص خمسين يوما.

ولحق الملك الأشرف موسى بن المنصور صاحب حمص بهولاكو، وسار الملك المنصور ابن المظفر صاحب حماة إلى مصر بحريمه وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة.

وسار هولاكو[(٣)] إلى دمشق، بعــد أخْذ حلب بستة عشر يوما، فقام الأمير زين الدين سليمان بن المؤيد على بن عامر العَقْرَبانى[(٤)] المعروف بالزين الحافظى، وأغلق أبواب دمشــق،

---

(١) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremére: Op. Cit. I. 1. p. 90.) هذا الاسم الى (Kidgadi).

(٢) فى س "بلغ".

(٣) يفهم مما يلى، ومن (Enc. Isl. Art. Hulagu ; D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 323)، أن هولاكو لم يزحف بنفسه على دمشق.

(٤) بغير ضبط فى س، ويوجد بين صفحتى ١٠٧ ب ــ ١٠٨ أ هامش على ورقة منفصلة، فيه تعريف بهذا الأمير وتوضيح لنسبته الى عقرباء، التى هى إحدى قرى دمشق. انظر (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٩٥). وهذا نص الهامش مصححا: "سليمان بن على بن عامر الأمير زين الدين بن المؤيد المعروف بالزين الحافظى، وكان أبوه خطيب عقربا (كذا) من قرى دمشق، واشتغل هو بالطب حتى مهر فيه، وخدم به الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه ابن [العادل] أبى بكر بن أيوب صاحب جعبر، نخوّله فى دولته (فى الأصل لخوله فى دوليه) وداخل أولاده. ثم انتقل الى خدمة الملك الناصر يوسف بحلب، فصارت له عنده يد ورفعة، وكثرت أمواله وصار مكينا فى دولته، ويرسل عنه الى هولاكو. فازج (فى الأصل فازح) التتار وأطمعهم فى البلاد، وعاد فهول بهم على الناصر حتى هرب. فقام بأمر دمشق للتتار، ودعوه بالملك زين الدين وسار معهم خوفا من الملك المظفر قطز، فقتله وقتل أولاده".

وجمع من بقى بها وقرر معهم تسليم المدينة الى هولاكو . فتسلمها منه نخر الدين المردغانى[١]، وابن صاحب أرزن، والشريف على — وكان هؤلاء قد بعث بهـم هولاكو الى الملك الناصر وهو على برزة . فكتبوا بذلك الى هولاكو ، فسير طائفة من التتر وأوصاهم بأهل دمشق ، ونهاهم أن يأخذوا لأحد درهما فما فوقه .

فلما كان ليلة الاثنين تاسع عشر صفر، وصل رسل هولاكو صحبة القاضى محيى الدين ابن الزكى، — وكان قد توجه من دمشق الى هولاكو بحلب،نخلع عليه وولّاه قضاء الشام، وسيره الى دمشق ومعه الوالى . فسكن الناس، وجُمعوا من الغد بالجامع، فلبس ابن الزكى خلعة هولاكو ، وجَمع الفقهاء وغيرهم وقرأ عليهم تقليد هولاكو . وقُرِئت فرمانات هولاكو بأمان أهل دمشق، فكثر (١٠٨ ا) اضطراب الناس واشتدّ خوفهم .

وفى سادس عشر شهر ربيع الأوّل وصل نوّاب هولاكو ، فى جمع من التتر صحبة كَتْبُغا[٢] نُوِين[٣]، فقرئ فرمان بالأمان . وورد فرمان على القاضى كمال الدين عمر التفليسى، نائب الحكم عن قاضى القضاة صدر الدين أحمد بن سنى الدولة، بأن يكون قاضى القضاة بمدائن الشام والموصل وماردين وميافارقين ، وفيه تفويض نظر الأوقاف اليه من جامع وغيره، فقرئ بالميدان الأخضر .

---

(١) فى س " المردغاى " ، وقد ترجم (Quatremère ; Op. cit. I. 1. p. 97) هذا الاسم الى (Merdegaï) .

(٢) فى س " كتبغا " بغير ضبط . انظر (Zetterstéen : Op. Cit. P. 33.). ويرد اسم هذا القائد ، وهو صهر هولاكو ، على صيغ مختلفة مثل كتبوغا وكتبوقا وكيتبوقا وكيتو بوقا . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 97. N. 129) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو لفظ فارسى ، كثير الورود فى (D'Ohsson : Op. cit.) مقرونا بأسماء قواد التتر، ومعناه مقدّم ألف ، وهو حسبما جاء بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٦ ،ص ٣٣) "من ألقاب كفال الممالك بالممالك القانية، كنائب السلطنة وأمراء الألوس والوزير ونحوهم ، ... ... والنوينى نسبة اليه للمبالغة ... ... وهو بمثابة الكافل فى ألقاب النواب ... ." راجع أيضا (Richardson : Dict. Ar. Pers. Eng.)

وغارت جمائع التتر على بلاد الشام، حتى وصلت إلى أطراف بلاد غزة وبيت جبريل والخليل وبركة زيزاء والصلت ، فقتلوا وسبوا وأخذوا ما قدروا عليه ، وعادوا الى دمشق فباعوا بها المواشى وغيرها .

واستطال النصارى بدمشق على المسلمين ، وأحضروا فرمانا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم : فتظاهروا بالخمر فى نهار رمضان ، ورشّوه على ثياب المسلمين فى الطرقات ، وصبّوه على أبواب المساجد . وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مروا بالصليب عليهم، وأهانوا من امتنع من القيام للصليب، وصاروا يمرون (١) به فى الشوارع الى كنيسة مريم (٢)، ويقفون به ويخطبون فى الثناء على دينهم ، وقالوا جهرا " ظهر الدين (٣) الصحيح دين المسيح " . فقلق المسلمون من ذلك ، وشكوا أمرهم لنائب هولاكو [وهو كُتبُغا (٤)] ، فأهانهم وضرب بعضهم (٥) ، وعظّم قدر قسوس النصارى ، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم . وجمع الزين الحافظى من الناس أموالا جزيلة، واشترى بها ثيابا وقدّمها لكتبغا نائب هولاكو ، ولبَيْدَرا (٦) وسائر الأمراء والمقدمين من التتر؛ وواصل حمل الضيافات اليهم فى كل يوم . ثم خرج كتبغا وبيدرا الى مَرْج بُرْغُوث (٧) .

ووصل الملك الأشرف صاحب حمص من عند هولاكو، وبيده مرسوم أن يكون نائب السلطنة (٨) بدمشق والشام . فامتثل ذلك كتبغا ، وصارت الدواوين وغيرها تحضر الى

(١) فى س " يمروا " .

(٢) كانت تلك الكنيسة تابعة للطوائف اليونانية المسيحية ، ولا يعدلها عندهم سوى كنيسة القيامة ببيت المقدس . (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 254, 264).

(٣) فى س "الرب" ، وهو فى ب (١٣١ ب) كما بالمتن هنا .

(٤) انظر ما يلى ، سطر ١١ .

(٥) كان كتبغا ، نقلا عن (D'Ohsson : Op. Cit. III. P. 325. N. l.) ، من قبيلة تترية اعتنقت الدين المسيحى منذ قرون .

(٦) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit I. l. p. 99) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهو على مسافة يوم من دمشق . (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ص ٣٨٤ ، ٤٩٥ ، فى (Rec. Hist. .Or. IV.

(٨) فى س " اليه " .

[الأشرف] . ثم بعد أيام ثار الأمير بدر الدين محمد بن قَرَنْجاه(١) والى قلعة دمشق ، هو والأمير جمال الدين بن الصيرفى ، وأغلقا أبوابها . فحضر كتبغا بمن معه من عساكر التتار، وحصروا القلعة فى ليلة السادس من ربيع الآخر . فبعث الله مطرا وبردا، مع ريح شديدة ورعود وبروق وزلزلة، سقط منها عدّة أماكن ، وبات الناس بين خوف أرضى وخوف سمائى . فلم ينالوا من القلعة شيئا ، واستمرّ الحصار عليها (١٠٨ ب) بالمجانيق — وكانت تزيد على عشرين منجنيقا — إلى ثانى عشرى جمادى الأولى . [عند ذلك] اشتدّ الرمى، وخرب من القلعة مواضع، فطلب من فيها الأمان . ودخلها التتر فنهبوا سائر ما كان فيها، وحرقوا مواضع كثيرة، وهدموا من أبراجها عدّة، وأتلفوا سائر ما كان فيها من الآلات والعدد . وساروا الى بعلبك فخربوا قلعتها، وسارت طائفة منهم إلى غزة ، وخربوا بانياس وأسعروا البلاد حربا وملأوها قتلا ونهبا .

وفى يوم السبت ثانى عشرى شهر ربيع الأول قدم الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى إلى القاهرة ، فركب الملك المظفر قطز إلى لقائه ، وأنزله فى دار الوزارة بالقاهرة، وأقطعه قصبة قليوب الخاصة .

وفيها ملك هولاكو ماردين، وقتل أمراءها وخرب أسوار قلعتها . وفيها وصل الملك الناصر إلى قطيا ، فخافه قطز وبرز بالعسكر إلى الصالحية . ففارق الناصر عدة من أمرائه ومن الشهرزورية، ولحقوا بقطز وأقاموا ببلبيس : منهم حسام الدين طرنطاى ، وبدر الدين طيدمر الأخوث، وبدر الدين أيدمر الدوادار، وإيدغدى الحاجى . فعاد الناصر من قطيا، وقد تمزق ملكه وتفرق الناس عنه، فنزل البلقاء .

ورجع قطز إلى قلعة الجبل ، وقبض على الأمير جمال الدين موسى بن يغمور، واعتقله بقلعة الجبل . وصادر كل من وصل اليه من غلمان الملك الناصر وكُتّابه وأخَذ أموالهم، وألزم زوجة الملك الناصر بإحضار ما عندها من الجواهر، فأخذ منها جوهرا كثيرا ؛ وأخذ من

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit I. l. p. 99) .

نساء الأمراء القيمرية أموالا جمة، وعاقب بعضهن . وأما الملك الناصر، فإن شخصا من غلمانه — يعرف بحسين الكردى الطَّبَرْدار(١) — قبض عليه وعلى ولده الملك العزيز، وعلى أخيه غازى، وإسماعيل بن شادى ومن معه، وبعث بهم إلى هولاكو .

وفيها رحل هولاكو عن حلب يريد الرجوع إلى الشرق(٢)، وجعل كتبغا نوين نائبا عنه بحلب، وبيدرا نائبا بدمشق . وأخذ [هولاكو] معه من البحرية سبعة : منهم سنقر الأشقر، وسكز، وبرامق، وبكمش المسعودى .

وفيها وصلت رسـل هولاكو إلى مصر بكتاب نصه : "من ملك الملوك شرقا وغربا، القان الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز، الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا(٣) إلى هذا الإقليم، يتنعمون(٤) بأنعامه، ويقتلون(٥) من كان بسلطانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز، وسائر أمراء دولته وأهل مملكته، بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، أنا نحن جند الله فى (١٠٩ ا) أرضـه، خَلقنا من سخطه،

---

(١) بغير ضبط فى س، والطبردار هو الذى يحمل طبر — أى فأس — السلطان، عند ركوبه فى المواكب وغيرها؛ وأمير طبر هـو الذى يتحـدث على الطـبردارية الذين يحملون الأطبار . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٨، ٤٦٢) . انظر أيضا (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 100. N. 131.)، حيث توجد معلومات أوفى عن أصحاب تلك الوظيفة .

(٢) سبب رجوع هولاكو الى الشرق — والمقصود بذلك بلاد فارس — أن أخبارا وصلت إليه بوفاة أخيه منكوخان الخان الأعظم على جميع التتر، سنة ٦٥٥هـ . وكان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاى، وكان واليا على الصين من قبل أخيه، وهو الذى خلف منكوخان على جميع بلاد التـتر، بعد أن تغلب على الطامعين فى الملك من أبناء بيت جنكزخان، سنة ٦٥٩هـ (١٢٦٠م) . وقد حكم قوبيلاى حتى سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤ م)، واستولى فى أثناء حكمه على البقية الباقية من بلاد الصين، ونقل عاصمة التتر من قراقوم (Karakorum) إلى خانبالق (Khan Balik)، وهى بكين الحالية . وانصبغت دولة قوبيلاى من ذلك الوقت بصـبغة صينية من دون سائر دول التـتر، وعرفت الأسرة الحاكمة بها باسم (Yuen Dynasty) . انظر (Enc.Isl. Art. Kubilai;Lane-Poole:Muh. Dyns. pp. 212-512) .

(٣) هنا إشارة مبهمة إلى أصل قطز، وقد تقدّم القول (ص ٤١٧، حاشية ٢) بأنه كان من الخوارزمية .

(٤) فى س " تمعوا" .

(٥) فى س " يقتلوا " .

وسلطنا على من حل به غضبه. فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا الينا أمركم ، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا و يعود عليكم الخطأ . فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد . فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب . فأى أرض تأويكم، وأى طريق تنجيكم، وأى بلاد تحميكم ؟ فما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص . فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال . فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع ، ودعاؤكم علينا لايُسمع . فإنكم أكلتم الحرام ، ولا تعفُون(١) عند كلام ،وخُنتم العهود والأيمان ، وفشا فيكم العقوق والعصيان . فابشروا بالمذلة والهوان، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ . وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ . فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم . فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم . فقد حذر من أنذر ، وقد ثبت عندكم أَنْ نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ، وقد سَلَّطنا عليكم من له الأمور المقدرة والأحكام المدبرة . فكثيركم عندنا قليل ، وعزيزكم عندنا ذليل ، و بغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل . فلا تطيلوا الخطاب ، وأسرعوا برد الجواب ، قبل أن تضرم الحرب نارها ، وترمى نحوكم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزا ، ولا كافيا ولا حرزا، وتُدْهون منا بأعظم داهية ، وتصبح بلادكم منكم خالية . فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقى لنا مقصد سواكم . والسلام علينا وعليكم ، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى .

ألا قل لمصرٍ ها هُلاوُن(٢) قد أتى بحدّ سيوف تُنتضى و بواتر

---

(١) فى س " يعفوا " .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وهى صيغة لاسم هولاكو، ترد كثيرا فى كتب المؤرخين المعاصرين . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 102. N. 132)، وقد ضبطت تلك الصيغة على منطوقها فى هذا المرجع . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٧٢، حاشية ٧) .

يَصــير أعز القوم منهـا أذلة   ويُلحــق أطفالا لهم بالأكابر

فجمع قطز الأمراء، واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية: فقبض (١٠٩ب) على الرســل واعتقلوا ، وشرع فى تحليف من تخــيَّره من الأمراء ، وأمر بالمسير، والأمراء غير راضين بالخروج كراهــة فى لقاء التتر . فلما كان يوم الاثنين خامس عشر شعبان، خرج الملك المظفــر قطز بجميع عسكر مصر ، ومن انضم اليــه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم، من قلعة الجبل يريد الصالحية .

وفيه أحضر [قطز] رسل التتر، وكانوا أربعة : فوسط واحدا بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووســط الرابع بالريدانية . وعلقت رءوسهم على باب زويلة ، وهــذه الرءوس أوّل رءوس علّقت على باب زويلة من التتار . وأبقى الملك المظفر على صبى من الرسل، وجعله من جملة مماليكه .

ونودى فى القاهرة ومصر، وسائر إقليم مصر، بالخروج الى الجهاد فى سبيل الله، ونصرة لدين رسول الله صلى الله عليــه وسلم . وتقدّم [الملك المظفر] لسائر الولاة بإزعاج الأجناد فى الخروج للسفر، ومن وُجد منهــم قد اختفى يضرب بالمقارع . وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنــده العسكر، فطلب الأمراءَ وتكلم معهــم فى الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل . فقال لهم : " يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون(١) أموال بيت المــال، وأنتم للغزاة كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصــحبنى، ومن لم يختر(٢) ذلك يرجع إلى بيته . فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين" . فتكلم الأمراء الذين تخيّرهم وحلّفهم فى موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفضّ الجمع .

فلمــا كان فى الليل ركب السلطان ، وحرك كوساته وقال : " أنا ألقى التتار(٣) بنفسى" ، فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره . وأمر [الملك قطز] الأميرَ ركن الدين بيبرس

(١) فى س " ما كلوا " .   (٢) فى س " يختار " .

(٣) فى س " التتا " .

البنـدقدارى أن يتقـدّم فى عسكر ليعرف أخبار التتر ، فسار [بيبرس] إلى غزة وبها جموع التتر، فرحلوا عند نزوله ، وملك [هو] غزة .

ثم نزل السلطان بالعساكر إلى غزة وأقام بهـا يوما ، ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا وبها يومئـذ الفرنج ، فخرجوا إليه بتقادم وأرادوا أن يسيروا معه نجدة . فشكرهم وأخلع عليهم ، واستحلفهم أن يكونوا لاله ولا عليـه ، وأقسم لهم أنه متى تبعـه منهم فارس أو راجل يريد أذى عسكر المسلمين رَجَع وقاتلهم قبل أن يلقى التتر .

وأمر [الملك قطز] (١١٠ ا) بالأمراء فجمعوا، وحضّهم على قتال التتر، وذكّرهم بمـا وقع بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوّفهم وقوع مثل ذلك، وحثّهم على استنقاذ الشام من التتر ونصرة الإسـلام والمسلمين، وحذّرهم عقوبة الله . فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد فى قتال التـتر ودفْعهم عن البـلاد . فأمر [السلطان] حينئذ أن يسـير الأمير [ركن الدين] بيبرس [البندقدارى] بقطعة(١) من العسكر، فسار حتى لقى طليعة التتر . فكتب إلى السلطان يعلمـه بذلك ، وأخذ فى مناوشتهم ، فتارة يقـدم وتارة يحجم ، إلى أن وافاه(٢) السلطان على عين جالُوت(٣) .

وكان كتبغا وبيدرا نائبا(٤) هولاكو، لمـا بلغهما مسير العساكر [المصرية]، جمعا من تفرق من التتر فى بلاد الشام، وسارا يريدان(٥) محاربة المسلمين؛ فالتقت طليعة عسكر المسلمين بطليعة التتر وكسرتها . فلما كان يوم الجمعة خامس عشرى شهر رمضان التقى الجمعـان ، وفى قلوب المسلمين وهْمٌ عظيم من التتر، وذلك بعد طلوع الشمس . وقد امتلأ الوادى، وكثر صياح

---

(١) ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. I04) هـذا اللفظ إلى (un corps de troupes) ، ولم يزد (Dozy: Supp. Dict. Ar.) على هذا كثيرا ، إذ ترجمه إلى (corps d'infantrie, de cavalrie) .

(٢) فى س "وفاه" .

(٣) بغير ضبط فى س ، واسمها فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٦٠) عين الجالوت ، وهى بليـدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين .

(٤) فى س "نواب" .

(٥) فى س "ساروا يريدون" .

أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء؛ فتحيز التتر إلى الجبل. فعند ما اصطدم العسكران اضطرب جناح عسكر السلطان وانتقض طرف منــه، فألقى الملك المظفر عند ذلك خوذته عن رأســه الى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: "وا إسلاماه[١]!"، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، فأيده الله بنصره. وقُتل كتبغا مقدم التتر، وقُتل بعده الملك السعيد حسن بن العزيز — وكان مع التتر. وانهزم باقيهم، ومنح الله ظهورهم المسلمين يقتلون ويأسرون، وأبلى الأمير بيبرس أيضا بلاء حسنا بين يدى السلطان.

ومـــا اتفق فى هـــذه الوقعة، أن الصبى الذى أبقاه الســـلطان من رســـل التتر وأضافه إلى مماليكه، كان راكبا وراءه حال اللقاء. فلما التحم القتال فوّق سهمه نحو السلطان، فبصر به بعض من كان حوله فأُمْسِـــك وقُتل مكانه. وقيـــل بل رَمى [الصبى] السلطانَ بسهمه فلم يخطئ[٢] فرســـه وصرعه إلى الأرض، وصار الســـلطان على قدميه، فنزل اليـــه فخر الدين ماما وأركبه فرسه، حتى حضرت الجنائب[٣] فركب فخر الدين منها.

ومر العسكر فى أثر التتر الى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافا ثانيا أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهـــم. وكان قد تزلزل المســـلمون زلزالا شـــديدا، فصرخ السلطان صرخة عظيمة، سمعه معظم العسكر وهو يقول: "وا إسلاماه[٤]!" ثلاث مرات، "يا الله! انصر عبدك قطز على التتار". فلما انكسر التتار الكسرة الثانية، نزل السلطان عن فرســـه ومرغ وجهـــه على الأرض وقبلها، وصلى ركعتين شـــكراً لله تعـــالى ثم ركب، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم.

(١) فى س "واسلاماه".

(٢) فى س "يخط".

(٣) الجنائب جمع جنب، وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة اليها، وقد ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. l. p. 106.) هذا اللفظ الى (des cheveux de main). انظـــر أيضا (محيط المحيط؛ و Dozy: Supp. Dict. Ar.).

(٤) فى س "واسلاماه".

. فورد الخبر بانهزام التتر إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشريه ، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار الى القاهرة ، ففرّ الزين الحافظى ونوّاب التتار من دمشق ، وتبعهم أصحابهم . فامتدّت (١١٠ ب) أيدى أهل الضياع إليهم ونهبوهم ، فكانت مدة استيلاء التتر على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام .

وفى يوم الأحد المذكور نزل السلطان على طبرية ، وكتب الى دمشق يبشّر الناس بفتح الله له وخذلانه التتر ، وهو أوّل كتاب ورد منه الى دمشق . فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورا كثيرا ، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوها وأخربوا ما قدروا على تخريبه ، وهدموا كنيسة اليعاقبة وكنيسة مريم وأحرقوهما حتى بقيتا كوما [1] ، وقتلوا عدّة من النصارى ، واستتر باقيهم . وذلك أنهم فى مدّة استيلاء التتر هموا مرارا بالثورة على المسلمين ، وخربوا مساجد ومآذن [2] كانت بجوار كنائسهم ، وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا بالصليب ، وشربوا الخمر فى الطرقات ورشوه على المسلمين .

وفى ثامن عشريه نهب المسلمون اليهود بدمشق حتى لم يتركوا لهم شيئا ، وأصبحت حوانيتهم بالأسواق دكا ، فقام طائفة من الأجناد حتى كفوا الناس عن حريق كنائسهم وبيوتهم . وفيه ثار أهل دمشق بجماعة من المسلمين كانوا من أعوان التتار وقتلوهم ، وخربوا الدور المجاورة للكنائس ، وقتلوا جماعة من المُغُل ، فكان أمرا مهولا .

وفى تاسع عشريه وصل بكرة النهار الأمير جمال الدين المحمدى الصالحى بمرسوم الملك المظفر قطز ، فنزل بدار السعادة ، وأمن الناس ووطنهم .

وفى يوم الأربعاء آخر شهر رمضان وصل الملك المظفر بعساكره إلى ظاهر دمشق ، فخيم هناك وأقام الى ثانى شوال ، فدخل الى دمشق ونزل بالقلعة . وجرد الأمير ركن الدين بيبرس إلى حمص ، فقتل من التتر وأسر كثيرا ، وعاد الى دمشق .

(١) فى س " احرقوها حتى هيب " .

(٢) فى س " مواذن " .

واســتولى الملك المظفر على سائر بلاد الشــام كلها من الفرات إلى حد مصر ، وأقطــع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه إقطاعات الشام ، واستناب الأمير علم الدين سنجر الحلبى فى دمشق ، ومعه الأمير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشتر الأزكشى[1] الكردى . وبعث [اليــه] الملك الأشرف موسى — صاحب حمص ، ونائب هولاكو ببلاد الشــام — يطلب الأمان فأمّنه . وبعث [السلطان أيضــا] بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار الى حلب نائبا بها ، وأقطع أعمالهــا بمناشيره . وأقر الملك المنصور على حمــاة وبارين ، وأعاد عليــه المعرة — وكانت بيد الحلبيين من ســنة خمس وثلاثين وستمــائة ؛ وأخذ سلمية منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العــرب . ورتّب الأميرَ شمسَ الدين أقوش البُرْلِى[2] العزيزى أميرا بالساحل وغزة ، ومعه عدة من العزيزية — وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه السلطان ، وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت . وأمر بشنق حسين الكردى الطبردار ، فشنق من أجل أنه دل على الملك الناصر .

(١١١ أ) وثار عدة من الأَوْشَاقِيَّة[3] ممــاليك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم ، [وكان] معهم عدة من عوام دمشق ، فشنق منهم[4] نحو الثلاثين نفسا . وأمر [السلطان] أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون[5] ألف درهم ، فجمعوها وحملت إلى السلطانــ ، بسفارة الأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابك العسكر .

---

(١) كذا فى س ، ويوجد فى أبى شــامة (كتاب الروضتين ، ص ١٧٦ ، فى Rec. Hist. Or. V) أمير اسمه ابن خشتر بن الأزكى ، وقد توفى بحران سنة ٦١٦ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، ولفظ البرلى محرف من الكلمة التركية بُرُنْلُو ، ومعناها ذو الأنف الكبير . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . انظر أيضــا ص ٧٦٩ فى نفس المجلد .

(٣) بغير ضبط فى س ، والواحد أوشاقى — ويقال أوجاقى أيضا — وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٥٤) .

(٤) لعلّ الضمير هنا عائد على النصارى ، انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 108) .

(٥) فى س "خمسين" .

وأما التتر فإنهم لـما لحقهم الطلب إلى أرض حمص، ألقوا ما كان معهم من متاع وغيره وأطلقوا الأسرى، وعرجوا نحو طريق الساحل . فتخطف المسلمون منهم وقتلوا خلقا كثيرا، وأسروا أكثر . فلما بلغ هولاكو كسرة عسكره وقتل نائبه كتبغا عظم عليـه، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ورحل من يومه .

وكان [هولاكو] لـما قـدم عليه الملك الناصر صـلاح الدين يوسف بن الملك العزيز صاحب الشام أكرمه وأجرى له راتبا، واختص به وأجلسه على كرسى قريبا منه، وشرب معه. ثم كتب له فرمانا[1] وقلده مملكتى الشام ومصر، وأخلع عليـه وأعطاه خيـولا كثيرة[2] وأموالا، وسيّره الى جهة الشام . فأمر [هولاكو] لـما ورد عليه خبر الكسرة برده، فأحضر وقُتل بجبال سَلَماس[3] فى ثامن عشر شـوّال؛ وقتل معه أخـوه الملك الظاهر غازى، والملك الصـالح ابن شيركوه، وعدة من أولاد الملوك . وشفعت طُقُز[4] خاتون زوجة هولاكو فى الملك العـزيز ابن الناصر، فلم يسلم من القتل غيره ؛ ورجع هولاكو الى بلاده .

وتراجع الناس الى دمشق، وصارت الأسعار بهـا غالية جدا لقـلة الأقوات . وعدمت الفلوس فيها، وتضرر الناس فى المعاملة بسبب الدراهم، وعزّ كل ما كان قد هان .

فلما رتب السلطان أحوال النوّاب والولاة والشادين ببلاد الشام، خرج من دمشق يوم الثـلاثاء سادس عشرى شوّال يريد مصر بعـد ما كان قد عزم على المسير الى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغـه من تنكر الأمير بيبرس وتغيره عليـه، وأنه قد عزم على القيام بمحاربته : وسبب ذلك أنّ[5] [الأمير بيبرس] سأل السلطان أن يوليه نيابة حلب[6]، فلم يرض فتنكر عليـه،

(١) فى س "فرمان" .

(٢) فى س "كثيرا" .

(٣) بغير ضبط فى س، وسلما س مدينـة فى آذربيجان، بينها وبين أُرمية يومان، وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ١٢٠) .

(٤) مضبوط على منطوقه فى (Quatremére: Op. Cit. I. 1. P. 109) .

(٥) فى س "انه" .

(٦) كان قطز قد أعطى قبل ذلك نيابة حلب إلى علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ . انظر ص ٤٣٣، سطر ٥ .

ليقضى الله أمرا كان مفعولا . فخافه [السلطان] وأضمر له السوء، وسار إلى جهة مصر. وبلغ ذلك بيبرس، فاحترس كل منهما من الآخر، وعمل فى القبض عليه . وحدّث بيبرس جماعة من الأمراء فى قتل السلطان : منهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير سيف الدين بهادر المعزى، والأمير بدر الدين بكتوت الجُوكَنْدار(١) المعزى ، والأمير بيدغان الركنى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير (١١١ ب) بدر الدين أنس الأصبهانى .

فلم يزل السلطان سائرا إلى أن خرج من الغرابى وقارب الصالحية ، فانحرف(٢) فى مسيره عن الدرب للصيد ومعه الأمراء . فلما فرغ من صيده وعاد يريد الدهليز السلطانى، طلب منه الأمير بيبرس امرأة من سبى التتر، فأنعم بها عليه . فأخذ [بيبرس] يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه و بين الأمراء : فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف [و] ضرب به عاتقه، واختطفه الأمير أنس وألقاه عن فرسه، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه؛ وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة، ودفن بالقُصَير(٣)، فكانت مدّة ملكه أحد عشر شهرا وسبعة عشر يوما .

وحمل [قطز بعد ذلك] إلى القاهرة، فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقى الدين قبل أن تعمر؛ ثم نقله الحاج قطز الظاهرى الى القرافة، ودفن قريبا من زاوية ابن عبود. ويقال إن اسمه محمود بن ممدود، وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين؛ وإنما سبى عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل الى القاهرة(٤) .

(١) بغير ضبط فى س، والجوكندار — والعامة تقول جكندار — هو الذى يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة والصوالجة التى تعرف الآن باسم (polo)؛ والجوكان المحجن الذى تضرب به الكرة، ويعبر عنه بالصولجان أيضا . (القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥ ص ٤٥٨) . وكانت الجوكان عصى مدهونة طولها نحو من أربعة أذرع، وبرأسها خشبة مخروطة معقوفة تزيد عن نصف ذراع . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 122) .

(٢) فى س " انحرف " .

(٣) فى س "بالقصير"، بغير ضبط، وهو بلد بمصر بطريق الرمل، بينه و بين الصالحية مرحلة . (أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٤، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) يلى هذا فى ب (١٣٥ أ – ب) وفيات، هى فى الواقع تابعة لسنة ٦٥٦ هـ، وقد وردت هناك فى موضعها

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى

كان [بيبرس] تركى الجنس ، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وترقى فى خدمته واستفاد من أخلاقه . فلما مات [الملك الصالح]، قام [بيبرس] فى خدمة [ابنه] الملك المعظم [تورانشاه] الى أن قُتل ، فلم يزل يترقى إلى أن قُتل الفارس أقطاى ، فخرج[1] من القاهرةوتنقل فى بلاد الشام . ثم عاد الى مصر، وخرج مع الملك المظفر قطز الى قتال التتر. فلما قتل قطز ، سار الأمراء الذين قتلوه الى الدهليز السلطانى [بالصالحية[2]]، واتفقوا على سلطنة الأمير بيبرس. فقام الأمير أقطاى المستعرب الأتابك — وكان بالدهليز — وقال للأمراء عند حضورهم : " من قتله منكم ؟ " فقال الأمير بيبرس : " أنا قتلته " . فقال [الأمير أقطاى] : " يا خوند ! اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه " . فجلس [بيبرس] ، و بايعه [أقطاى] وحلف له ، ثم تلاه الأمير بلبان الرشيدى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير سيف الدين قلاون، والأمير بِيلِيْك[3] الخازندار، ثم بقية الأمراء على طبقاتهم .

وتلقب [بيبرس] بالملك القاهر،وذلك فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة المذكور . فقال له الأمير أقطاى الأتابك:"لا تتم السلطنة إلا بدخولك إلى قلعة الجبل". فركب [بيبرس] لوقته، ومعه الأمير أقطاى، والأمير قلاون، والأمير بيسرى، والأمير بلبان، والأمير بِيلِيْك،

= المناسب ، وذلك حسبما جاء فى س ، فضلا عن دلائل مادية (انظر ص ٤١٣ حاشية ١)، تثبت وقوعها حيث أوردت . ولما كان (Quatremère : Op. Cit. I. 1. PP. 113 - 115) قد اعتمد فى ترجمته على نسخة ب ، فانه انزلق الى خطئها ، وأثبت تلك الوفيات تحت هذه السنة التى لم تنته بعد .

(١) فى س "خرج" .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) فى س " بيليك " ، بغير ضبط . و يتكرر و رود هذا الاسم ، بالصفحات التالية فى س ، على ذلك الرسم الناقص أو ما يشبهه ، وسيصلح فيما يلى الى الصيغة المثبوتة هنا بالمتن، من غير تعليق . انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

هذا وقد دأب (Quatremére: Op. Cit. I. 1. p. 116, et seq.) على ترجمة هذا الاسم الى (Bilbek) .

ومماليكه . وتوجه الى قلعـة الجبل، فلقيـه الأمير عز الدين أيدمر الحلى نائب السلطنة بديار مصر، و[كان] قد خرج الى لقاء الملك المظفر قطز . فأعلمه [بيبرس] بما جرى لخلف له الحلى وتقدّمه إلى القلعـة، ووعد من فيها من الأمراء بمواعيد جيدة عن بيبرس، فلم يخالف منهم أحد . وجلس [الأمير عز الدين أيدمر الحلى] على باب القلعة حتى قدم بيبرس والأمراء فى الليل، فتسلم القلعة ليلة الاثنين تاسع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة(١)، وحضر اليه الصاحب الوزير زين الدين يعقوب بن الزبير، وأشار عليه أن يغير اللقب بالملك القاهر، فإنه ما تلقب به أحد فأفلح، فاستقر لقبه الملك الظاهر .

وكانت القاهرة قد زُيّنت لقدوم الملك المظفر قطز، والناس فى (١١٢ أ) فرح ومسرات بقتـل التتر . فلما طلع النهار نادى المنادى فى النـاس : "ترحموا على الملك المظفر، وادعوا لسلطانكم الملك القاهر ركن الدين بيبرس" ؛ ثم فى آخر النهار أمر بالدعاء للملك الظاهر . فغمّ(٢) [الناس] ذلك، وخافوا من عودة دولة المماليك البحرية(٣)، وسوء مملكتهم(٤) وجورهم .

وكان قطز قد أحدث فى هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر : منها تصقيع الأملاك وتقويمها، وأخذ زكاتها من أربابها، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا، وأخذ من الترك الأهلية(٥) ثلثها . فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قطز،

---

(١) فى س "ولمان" .

(٢) فى س "فغمهم" .

(٣) يستنتج من هـذه الجملة أن السلطان قطز لم يكن من المماليك البحرية ، وهو استنتاج صحيح يدعمه الواقع التاريخى ، إذ ليس قطز من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب حتى تصح له هـذه النسبة ، بل كان مملوكا للسلطان الملك المعز أيبك التركمانى . (انظر ص ٤١٧ ، حاشية ٢ ، وابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٩١ أ ، ب). وعلى هـذا فليست تسمية دولة سلاطين المماليك : الذين تداولوا الحكم حتى سنة ١٣٨٢ م ، باسم دولة المماليك البحرية متفقة مع الحقائق التاريخية ، بل هى تسمية اصطلح عليها المؤرخون الحديثون من باب التعميم .

(٤) فى س "ملكتهم" .

(٥) المقصود بهؤلاء، حسبما جاء فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. l. p.117)، عناصر الترك المقيمة بمصر من زمن طويل (Turcs domiciles) .

وكتب به توقيعا قرئ على المنابر، فكان جملة ما أبطله ستمائة ألف دينار. فسر الناس ذلك، وزادوا فى الزينة .

وفى يوم الاثنين صبيحة قدوم السلطان، جلس [الملك الظاهر بيبرس] بالإيوان من القلعة، وحلّف العساكر، واستناب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار، واستقر بالأمير فارس الدين أقطاى المستعرب أتابكا[١] على عادته، والأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى أستادارا[٢]، والأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى أمير جاندار، والأمير صيام الدين لاجين الدرفيل والأمير سيف الدين بلبان الرومى دوادارية، والأمير بهاء الدين أميرآخور[٣] على عادته . ورتب فى الوزارة الصاحب زين الدين يعقوب ابن الزبير، والأمير ركن الدين إياجى والأمير سيف الدين بكجرى حاجبين[٤] . وكتب بإحضار البحرية البطالين من[٥] البلاد؛ وكتب إلى الملوك والنواب يخبرهم بسلطنته، فأجابوا كلهم بالسمع والطاعة، خلا الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق: فإنه لما استقر فى نيابة دمشق [كان قد] عمر سورها وحصنها، فورد عليه الخبر بقتل قطز وسلطنة بيبرس فى أوائل ذى الحجة، فامتعض لذلك وأنف من طاعة بيبرس . ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتلقب بالملك المجاهد، وخُطب له يوم الجمعة سادس ذى الحجة، فدعا الخطيب للملك الظاهر أولا ثم للملك المجاهد ثانيا؛ وضُربت السكة باسمهما . ثم ارتفع المجاهد عن هذا،

(١) فى س "اابك" . (٢) فى س "اسادار" .

(٣) تقدمت الإشارة الى ماهية الوظائف المذكورة هنا ما عدا وظيفة أميرآخور، وهى التى يتحدث متوليها على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل فى حكم الإصطبلات . هذا وأمير آخور مركب من لفظين، أحدهما عربى وهو أمير، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه المعلف، فيكون معنى أميرآخور أمير المعلف، لأنه المتولى لأمر الدواب . وهناك أيضا وظيفة السراخور — والعامة تقول سراخورى، ويقال أيضا سلاخورى — ، وهى مركبة من لفظين فارسيين، أحدهما سرا ومعناه الكبير، والثانى خور ومعناه العلف، والمراد كبير الجماعة الذين يتولون علف الدواب . (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٠ — ٤٦١). انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 119. N. 3) .

(٤) فى س "حجابا" .

(٥) يوجد بهامش الصفحة فى س، قبالة هذا السطر تقريبا، عبارة مكتوبة هكذا ٣٣ . ولعل المقريزى أراد بهذا أن يشير إلى السنة التى وصل فيها إلى ذلك الحد من مؤلفه، أى سنة ٨٣٣ هـ .

وركب بشعار السلطنة والغاشية بين يديه ؛ وشرع فى عمارة قلعة دمشق ، وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس ، وعملوا فيها حتى عملت النساء أيضا ، وكان عند الناس بذلك سرور كبير . فقدم رسول الملك الظاهر [بيبرس] بكتابه بعد يومين ، فوجد الأمير سنجر قد تسلطن ، فعاد إلى مصر . فكتب الملك الظاهر إليه يعنفه ويقبح فعله ، فغالطه فى الجواب .

فولى دمشق فى هذه السنة — من أولها الى نصف صفر — الملك الناصر؛ ثم ملكها هولاكو إلى أن سار إلى الشرق ، فاستناب بها كتبغا و بيدرا ، فحكم فيها التتر الى خامس عشرى رمضان؛ ثم صارت فى مملكة قطز الى (١١٢ ب) أن قتل فى خامس عشرى ذى القعدة ، فملكها الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى (١) بقية السنة . وكان القضاء بها أولا بيد القاضى صدر الدين أحمد بن يحيى بن هبة الله بن سنى الدولة ؛ ثم ولى التتر القاضى كمال الدين عمر ابن بندار التفليسى ، ثم بعده القاضى محيى الدين بن الزكى ، ثم القاضى صدر الدين أبو القاسم (٢) . ثم ولى القاضى صدر الدين بعلبك ، فاستقل ابن الزكى بالقضاء [بدمشق] إلى أن صرفه قطز بنجم الدين أبى بكر محمد بن صدر الدين أحمد بن سنى الدولة .

وفيها ثار بحلب العزيزية والناصرية على الملك السعيد (٣) علاء الدين بن [بدر الدين] صاحب الموصل ، وقبضوا عليه ونهبوا وطاقه ، وقدّموا عليهم الأمير حسام الدين لاجين العزيزى

---

(١) فى س "الحلى" ، وقد صححت الى الحلبى لسبق ورودها بهذه الصيغة الثانية فى س (ص٤٣٨ ، سطر ١٠) ، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص٦٨) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 121).

(٢) س "القسم" .

(٣) كان الملك السعيد علاء الدين هذا نائبا على حلب منذ ولاه السلطان قطز عليها ، (انظر ص ٤٣٣ ، سطر ٥) غير أنه أساء السيرة وظلم وعسف ، وجلب من الحلبيين خمسين ألف دينار ، فأغضب بذلك عامة الناس والعسكر . ثم حدث بعد ذلك بقليل أن أغار القائد بيدرا التترى على البيرة ، فجرد الملك السعيد لصده شرذمة قليلة من عسكر حلب ، ولم يأبه لرأى كبار العزيزية والناصرية الذى كانوا قد أشاروا عليه بعدم التعرض للتترالبتة . فلما انهزمت تلك الشرذمة على يد بيدرا قرب البيرة ، ازداد غيظ الأمراء العزيزية والناصرية على الملك السعيد ، وثاروا به وقبضوا عليه ، ثم حملوه الى قلعة الشغر و بكاس واعتقلوه بها ، وأقاموا مكانه الأمير حسام الدين لاجين كما بالمتن . وفى أثناء ذلك كان التتار قد قاربوا حلب ، فأفرج التوار عن الملك السعيد ، وجلوا جميعا عن حلب الى حماة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٠ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٤٥ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . أنظر أيضا (D'Ohsson: Op. Cit. III. PP. 358-359) .

الجوكندار . [وكان الأمير حسام(١) الدين المذكور قد أخذ إذنا من الملك المظفر قطز، رحمه الله تعالى، وتوجّه لاستخلاص مابقى له من الإقطاع والودائع التى كانت له من أيام الملك الناصر. فلما اتفق ما اتفق وهو بحَلب أجمع الحلبيون على تقديمه ، فكتب إليه الملك المجاهد علم الدين سنجر الحلبى بأن يخطب له فى حلب وأن يكون نائبا له ، وأن يزيده على إقطاعه زيادات كثيرة]. فامتنع [لاجين] من إجابة الملك المجاهد سنجر، [وقال: "أنا نائب لمن ملك مصر"]، وأقام على طاعة الظاهر بيبرس؛ فبعث إليه الظاهر بالتقليد بنيابة حلب .

وفيها ثار جماعة من السودان والرُّكْبِدارية(٢) والغلمان(٣) ، وشقوا القاهرة وهم ينادون " يا آل على ! " ، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين القصرين وأخذوا ما فيها من السلاح، واقتحموا إصطبلات الأجناد وأخذوا منها الخيول . وكان الحامل لهم على هذا رجل يعرف بالكورانى ، أظهر الزهد وحمل بيده سبحة وسكن قبة بالجبل ، وتردد اليه الغلمان لحدثهم فى القيام على أهل الدولة ، وأقطعهم الإقطاعات وكتب لهم بها رقاعا . فلما ثاروا فى الليل ركب العسكر وأحاطوا بهم وربطوهم ، فأصبحوا مصلبين خارج باب زويلة، وسكنت الثائرة. وخرجت السنة ولم يركب الملك الظاهر [بيبرس] بشعار السلطنة على العادة.

ومات(٤) فى هذه السنة من الأعيان الملك المعظم تورانشاه بن الناصر يوسف بن العزيز

(١) أضيف مابين الأقواس، بسائر هذه الفقرة، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٧٠ — ٧١).

(٢) الركبدارية — أو الركابدارية — هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب الحفلة، كوكب العيدونحوه. وهم تابعون للركاب خاناه، وهو بيت الركاب الذى تكون به السروج والجم والكابيش ، وله موظف موكل بحواصله يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٧ ، ١٢) .

(٣) أطلق هذا اللفظ — ومفرده غلام — على من يقوم بخدمة الخيل ، وفى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧١) أن لفظ غلام "فى أصل اللغة مخصوص بالصبى الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم ، وكأنهم سموه بذلك لصغره فى النفوس ، وربما أطلق على غيره من رجال الطست خاناه (كذا) ونحوهم" .

(٤) الوفيات الآتية واردة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ١١٢ ب ، ١١٣ أ ، وهى غير واردة فى ب (١٣٧ أ) ، أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 129) . على أنه لاشك فى مناسبة وقوعها هنا ، ويستدل على ذلك بمراجعة تواريخ وفاة الملوك الأيوبيين المذكورين ضمن هذه الوفيات . انظر (Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids.) .

شادى بن [الظاهر غازى بن(1) صلاح الدين يوسف بن أيوب] كبير البيت الأيوبى، ونائب حلب، عن ثمـانين سـنة . ومات الملك الكامل محمد بن المظفـر غازى بن العادل أبى بكر ابن أيوب بن شادى صاحب ميا فارقين ، وكان عالمـا عادلا محسـنا ، قتـله التتار وحمـلوا رأسه إلى دمشق(2) . وتوفى الملك السـعيد حسن بن العزيز عثمان بن العادل أبى بكر بن أيوب ابن شادى ، صاحب قلعـة الصبيبة و بانياس ، بعـد ما أخذتا منه وسار الى البيرة، فأعاده التتار الى ولايتهما، وحضر معهـم عين جالوت ، فأُمِر(3) وضُرب عنقه . ومات الملك السعيد إيلغازى بن المنصور أرتق بن إيلغازى بن ألبى بن تمـرتاش بن إيلغازى بن أرتق، صـاحب ماردين بها؛ وقام من بعده ابنه المظفر قرا أرسلان. وتوفى قاضى القضاة بدمشق صدر الدين أبو العباس أحمد بن أبى البركات يحيى بن هبة الله بن الحسن بن يحيى بن سنى الدولة التغلبى الدمشقى الشافعى ببعلبك، عن ثمان وستين سنة . وتوفى شيخ الإسلام تقى الدين أبو عبد الله محمد بن أبى الحسين أحمـد بن عبد الله بن عيسى اليونينى الحنبلى ، عن ست وثمـانين سنة ببعلبك . وتوفى الصـاحب مؤيد الدين أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن القفطى الشيبانى، وزير حلب، بها عن أربع وستين سنة . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو عبـد الله

(١) موضع ما بين القوسين بيـاض فى س ، وقد أضيفت هـذه الأسماء بعد مراجعـة : Lane - Poole) Saladin, Table II; Enc. Isl. Supp. Art. Aiyubids) على أنه ليس فى هذين المرجعين ما يشير الى أن العزيز ابن الظاهر غازى كان يسمى شادى، بل كان اسمه محمدا .

(٢) حمـل التتر رأس الملك الكامل محمد هذا على رمح، ومروا به على البلاد التى استولوا عليها بالشام مثـل حلب وحمـاة ، وطافوا به دمشق بالمغانى والطبول، وهناك علقوه فى شبكة بسور باب الفراديس ، حيث ظل الرأس معلقا حتى عادت دمشـق الى المسلمين، فدفن بمشهد الحسين . (أبو الفداء : المختصر فى أخبـار البشر ، ص ١٤٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٣) انضم الملك السعيد هذا الى التتر سـنة ٦٥٧ هـ، بعد أن خلصه هولاكو من سجنه بالبيرة وولاه على الصبيبة وبانياس . (انظر ص ٤٢٠ ، سطر ٨) . وقد أغرق هذا الملك بعد ذلك فى النكر والفساد، فأعلن بالفسق والفجور وسـفك دماء المسـلمين ، وحارب فى صفوف التتر فى وقعة عين جالوت، وهناك وقع أسـيرا فى يد المظفر قطز فأمر بضرب عنقه ، جزاء على ما كان قد اعتمده من السفك والفتن . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٣ ، ١٤٤، فى Rec. Hist. Or. I) .

المبارك بن يحيى بن المبارك بن فضيل الغسانى الحمصى ، بها فى الجفلة . و [توفى] الأديب جلال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن محمد بن عبد الله الصفار الماردينى الشاعر ، بها قتيلا عن ثلاث وثمانين سنة . وتوفى الشيخ أبو بكر بن قوام بن على بن قوام البالسى الصالحى الزاهد ، ببلاد حلب عن أربع وسبعين سنة .

* * *

سنة تسع وخمسين وستمائة . فيها عظم الفار فى أرض حوران (١) أيام البيادر (٢) حتى أكل معظم الغلال ، فيقال إنه أكل ثلاثمائة ألف غرارة قمح .

وفيها اجتمع من التتار ستة آلاف فارس ، وقاموا بحمص (٣) . فبرز اليهم الملك الأشرف موسى بن شيركوه صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماة ، واجتمع اليهما قدر ألف وأربعمائة فارس ؛ وقدم زامل بن على أمير العرب فى عدة من العربان . وواقعوا التتر يوم الجمعة خامس المحرم على الرستن (٤) ، فأفنوهم قتلا وأسرا ، ووردت البشارة الى مصر بذلك . وكانت التتار فى ستة آلاف ، والمسلمون ألف وأربعمائة ؛ وحملت رءوس القتلى الى دمشق . وفيها اشتد الغلاء بدمشق .

(١) بغير ضبط فى س ، وهى كورة واسعة من أعمال دمشق ، وبها قرى كثيرة ومزارع ؛ وقد صارت حوران فى زمن سلاطين المماليك نيابة قائمة بذاتها وسميت باسم القبلية ، وكان مقر نائبها بلدة أذرعات . هذا وسلسلة جبال حوران هى جبل الدروز الحالى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٥٧ — ٣٥٨ ؛ Enc. Isl. Art. Hawrān).

(٢) جمع بيدر ، وهو الموضع الذى تدرس فيه الغلال . (محيط المحيط) .

(٣) كان معظم ذلك الجيش التترى مكونا من فلول الكتائب التى بقيت بعد وقعة عين جالوت ، وقد جمعها القائد بيدرا من أطراف الشام والعراق ، وذلك بعد ذيوع خبر وفاة السلطان قطز . و زحف بيدرا بهذا الجيش أولا على البيرة ، وهزم الفئة القليلة التى أرسلها لصده الملك السعيد علاء الدين نائب حلب . وكانت تلك الهزيمة من أسباب ثورة المماليك العزيزية والناصرية على الملك السعيد . وتقدم التتر بعد ذلك الى حلب واحتلوها ، بعد أن بادر بالجلاء عنها الى حماة نائبها الجديد حسام الدين لاجين العزيزى (انظر ص ٤٣٩ ، حاشية ٣) . ثم سار التتر الى حماة ، فتقهقر عنها الى حمص صاحبها الملك المنصور محمد ، والأمير حسام الدين لاجين العزيزى أيضا ، وقصد التتر بعد ذلك حمص ، والتقوا قبل وصولهم اليها بجيوش صاحب حمص وحلفائه كما بالمتن . (D' Ohsson : Op. Cit. III. pp. 358 et seq.)

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى فى نصف الطريق بين حماة وحمص . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٧٨) .

وفى يوم الاثنين سابع صفر ركب الملك الظاهر [بيبرس] من قلعة الجبل بشعار السلطنة(١) الى خارج القـاهرة، ودخل من باب النصر. فترجل(٢) الأمراء والعسكر ومشوا بين يديه إلى

(١) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات، التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحفلة، مثل موكب السلطنة وموكب الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل وموكب صلاة العيدين، ونحوها. ومن هذه الملابس والأدوات، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، وذلك حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٧ – ٨)، "الغاشية وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب، تحـمل بين يديه [أى السلطان] عند الركوب فى المواكب الحفلة، كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها [أحد] الركاب دارية رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا، وهى من خواص هذه المملكة. ومنها المظلة ويعبر عنها بالجتر، ... وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضـة (ص ٨) مطلية بالذهب، تحـمل على رأسه فى العيدين، وهى من بقايا الدولة الفاطمية ... . ومنها الرقبة وهى رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب، بحيث لا يرى الأطلس لتراكم الذهب عليها، [و] تجعـل على رقبة الفرس فى العيدين والميادين، من تحت إذنى الفرس الى نهاية عرفه، وهى من خواص هذه المملكة. ومنها الجفتة وهما اثنان من أوشاقية إصطبله قريبان فى السن، عليهما قباءان أصـفران من حرير بطراز من زركش، وعلى رأسهما قبعتان من زركش، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعدة نظير ما السلطان راكب به، كأنهما معـدان لأن يركبهما، [و] يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة فى الميدان الكبير ونحو ذلك، وهما من خواص هذه المملكة. ومنها الأعلام وهى عدة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسـمى العصابة، وراية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر تسمى الجاليش، ورايات صفر صغار تسمى السناجق .. ... ".

ويلاحظ مما تقدم أنه كان لكل موكب ترتيب معين، وأن بعض ما كان يستخدم من الأدوات فى العيدين غير موجود فى بعض المواكب الأخرى. انظر القلقشندى (نفس المرجع والجزء، ص ٤٤ – ٤٩). هذا ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٠٩) وصف لموكب السـلطنة، وهو إن كان غير شامل لمواكب السـلطنة فى سائر الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، فإنه يعطى فكرة لما كان عليه ترتيب تلك المواكب فى زمن معين، ونصه: "وكانت العادة أيضا أنه إذا ولى أحد المملكة من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاون، فإنه عند ولايته يحضر الأمراء إلى داره بالقلعة، وتفاض عليه الخلعة الخليفية السوداء، ومن تحتها فرجية خضراء، وعمامة سوداء مدورة. ويقلد بالسيف العربى المذهب، ويركب فرس النوبة، ويسير الأمراء بين يديه والغاشية قدامه، والجاويشـية تصيح والشبابة السلطانيـة ينفخ بها والطبردارية حواليـه، الى أن يعبر من باب النحاس الى درج ... الإيوان [المعروف بدار العدل]. فينزل عن الفرس ويصـعد إلى التخت فيجلس عليه، ويقبل الأمراء الأرض بين يديه، ثم يتقدمون اليه ويقبلون يده على قدر رتبهم، ثم [يؤدى ذلك] مقدمو الحلقـة. فإذا فرغوا حضر القضاة والخليفة، فتفاض التشاريف على الخليفة ويجلس مع السلطان على التخت، ويقلد السلطان المملكة بحضور القضاة والأمراء، ويشهد عليه بذلك، ثم ينصرف ومعه القضاة. فيمد السماط للأمراء، فإذا انقضى أكلهم قام السلطان ودخل المقصورة، وانصرف الأمراء".

(٢) فى س "مرجل".

باب زويلة ، (١١٣ ا) ثم ركبوا إلى القلعة . وقد زينت القاهرة ، ونثرت الدنانير والدراهم على السلطان، وخلع على الأمراء والمقدمين وسائر أرباب الدولة . وكان هـذا أول ركوبه، ومن حينئذ تابع الركوب الى اللعب بالأُكَرَة[1] . وكتب الى ملوك الغرب واليمن والشام والثغور بقيامه فى سلطنة مصر والشام .

وفيها بعث [السلطان] الملك الظاهر [بيبرس] الأمير جمال الدين المحمدى الى دمشـق، ومعه مائة ألف درهم وحوائص وخلع بألفى دينار عينا، ليستميل الناس على المجاهد سنجر . فقدم دمشق ثالث صفر وعَمِل ما أمر به ، فأجابه الأمراء القيمرية وخرجوا عن دمشق : ومعهم الأمير علاء الدين إيدكين البندقدار[2] الصالحى ، والأمير بهـاء الدين بُغُـدى[3] الأشرفى ، والأمير قرا سنقر الوزيرى ، وعدّة من الأمراء . ونادوا باسم الملك الظاهر بيبرس، فارتجت دمشـــق .

وبعث المجاهد [سنجر] اليهم بعسكر فانهزم ، فخرج بنفسه وحمل بأصحابه ، ففروا عنـه ثم عادوا عليـه، بجرح وقتـل عدّة من جماعته ، والتجأ [هو] إلى القلعة فامتنع بهـا فى يوم

---

(١) الأكرة لُغَيَّـة فى الكرة (محيط المحيط) ، والمراد بلعب الأكرة اللعبة المعروفة الآن باسم (polo) ، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك فى ص ٤٣٥ ، حاشية ١ . هذا و يوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٤٧) وصف لهيئة ركوب السلطان للعب الكرة بالميدان الأكبر زمن الأيوبيين والمماليك بمصر، ونصه : " عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاث مرات متوالية فى كل سبت ، [و] ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل وهو راكب على الهيئة المذكورة فى العيد (انظر نفس المرجع والجزء، ص ٤٦)، ماعدا الجتر فانه لا يحمل على رأسه . وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره ، ويصير الى الميـدان فينزل فى قصوره ، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهـم . ثم يركب للعب الكرة بعـد صلاة الظهر والأمراء معه ، ثم ينزل فيسـتريح ، ويستمر الأمراء فى لعب الكرة الى أذان العصر ، فيصـلى العصر ويركب على الهيئة التى كان عليها فى أول النهار ، ويطلع الى قصره" . أما الميـدان الأكبر فهو الميـدان السلطانى، الذى بناه الملك الصالح نجم الدين أيوب بخط باب اللوق . (انظر ص ٣٤١ ، سطر ١٧ ؛ القلقشندى : نفس المرجع : ج ٣ ، ص ٣٧٨) .

(٢) فى س " البندقدارى " .

(٣) فى س " بغدى " ، وبغير ضبط . انظر (Zetterstéen: Op. Cit. P. 24) . ويرد هذا الاسم كثيرا بالصفحات التالية فى س ، على هذا الرسم الناقص أو مايشبهه ، وسيصلح الى الصيغة المثبوتة هنا بغير تعليق .

السبت حادى عشر صفر . فدخل الأمير إيدكين البندقدار — أستاذ[1] الملك الظاهر — إلى المدينـة وملكها ، وحلّف النـاس للملك الظاهر وقام بأمرها . وخاف المجاهد على نفسـه ففر من قلعة دمشق الى بعلبك ، فأرسل اليه الأمير إيدكين وأحضره محتفظا به . فلمـا بلغ الملك الظاهر [بيبرس] ذلك قرر الأمير علاء الدين طيبرس الحاج الوزيرى فى القلعة ،وجعل إليـه التحدث فى الأموال ، واستدعى الأمير سنجر الحلبى ، وأقام إيدكين مدّة شهر فى نيابة دمشق ، ثم صرفه عنها بالأمير طيبرس الوزيرى . وسار الأمير سنجر مع الأمير بدر الدين بن رحال[2] ، وأُحضر فى سادس عشر صفر وهو مقيـد إلى مصر . فندب الملك الظاهر إلى لقائه الأمير بيسرى ، وأدخله ليـلا من باب القرافة على خفية واعتقله بالقلعة ، من غير أن يعلم به أحد من الناس .

وفيهـا جهـز الملك الظاهر [بيـبرس] الأموال والأصـناف صحبة الأمـير علم الدين اليغمورى لعمارة الحرم النبوى بالمدينة ، وبعث الصناع والآلات لعمارة قبة الصخرة بالقدس ، وكانت قد وَهَت . وأخرج ما كان فى إقطاعات الأمراء من أوقاف الخليـل[3] عليه السـلام[4] ، ووقف عليـه قرية تعرف باذْنا[5] . ورسم للأمير جمال الدين بن يغمور بعمارة ما تهدم من قلعة الروضة ، فرمّ مافسد منها ورتب بها الجندارية وأعاد لها حرمتها ، وفرق أبراجها على الأمراء : وهم الأمير قلاون ، والأمير عز الدين الحـلى ، والأمير عز الدين أوغان ، والأمير بيسرى ،

(١) كذا فى س ، وقد ورد فى ب (١٣٧ ب) "اسادار" ، وترجمه فى (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 139) إلى (Majordome) .

(٢) كذا فى س بغـير ضبط ، وهو مترجم فى (Ibid : Op. Cit. I. l. p. 139) الى (Radjal) ، اعتمادا على الرسم الوارد فى ب (١٣٧ ب) .

(٣) الخليل اسم لبلدة بفلسطين بها قبر سيدنا الخليل إبراهيم ، واسمها الأصلى حبرون ، وهى بقرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٦٨) .

(٤) فوق هذه الكلمة بالمتن فى س ، إشارة الى هامش ذهب كل ألفاظه سوى الأخير منها ، وهو لفظ "نوقف" .

(٥) فى س " باذنا " بغير ضبط ، وليس فى المراجع المتداولة فى هذه الحواشى ما يدل على قرية بفلسطين بهذا الاســم .

وغيرهم — لكل أمير منهم برج . وأمرهم أن تكون إصطبلاتهم وبيوتهم فيها ، وسلمهم مفاتيح القلعة . وأمر بعمارة القناطر بجسر شبرامنت[١] من الجيزية، لكثرة ما كان يشرق من الأراضى فى كل سنة (١١٣ ب)، فانتفعت البلاد بهذه القناطر. وأمر بعمارة أسوار الإسكندرية، ورتب لذلك جملة من المال فى كل شهر . وبنى بثغر رشيد مرقبا لكشف البحر . وأمر بردم فم بحر دمياط، فخرج جماعة الحجارين وألقوا فيه القَرَابِيص[٢] ، حتى يضيق وتمتنع السفن الكبار من دخوله، واستمر ذلك الى اليوم .

وأمر [السلطان] بإخراج الأمير سيف الدين الرشيدى إلى بحر أشموم، فتوجه إليه وأحضر الولاة وحفر هذا البحر، وأزال منه ما تربّى به من الأطيان، وغرّق عدة مراكب حتى ردّ إليه الماء . وأمر بعمارة ما خربه التتر من قلاع الشام : وهى قلعة دمشق، وقلعت الصلت، وقلعة عجلون، وقلعة صرخد ، وقلعة بصرى ، وقلعة بعلبك، وقلعة شيزر ، وقلعة الصبيبة ، وقلعة شُمَيْمِيش[٣]، وقلعة حمص . فعمرت كلها ونظفت خنادقها، ووسعت أبراجها وشحنت بالعدد، وجرد إليها المماليك والأجناد ، وخزنت بها الغلات والأزواد . وحملت غلال كثيرة إلى دمشق، وفرقت فى البلاد لتصير تقاوى الفلاحين . ورتب [السلطان] بدمشق دار العدل، وبنى مشهدا فى عين جالوت عرف بمشهد النصر .

ورتب [السلطان] البريد[٤] فى سائر الطرقات ، حتى صار الخبر يصل من قلعة الجبل إلى دمشق فى أربعة أيام ويعود فى مثلها . فصارت أخبار الممالك ترد إليه فى كل جمعة مرتين، ويتحكم فى سائر الممالك من العزل والولاية وهو مقيم بقلعة الجبل ، وأنفق فى ذلك

(١) فى س "شبرمنت" بغير ضبط . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 140. N. 9.) . وهى قرية من مديرية الجيزة، تعرف أيضا باسم شبرامنت وبنى يوسف ، وتقع فى شمالى بوصير، وفى قبليها جسر ممتد من النيل الى الجبل . (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٢، ص ١٣٤ — ١٣٥) .

(٢) القرابيص هى الحجارة ، ومفردها قرباص، ويظهر أن أصل اللفظ يونانى (Dozy : Supp. Dict. Ar.)

(٣) بغير ضبط فى س، وهى إحدى بلاد كورة حمص. (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 42).

(٤) قبالة هذا اللفظ فى بهامش الصفحة فى س كلمة "البريد" ، بخط يشبه خط المتن .

مالا عظيما حتى تمّ ترتيبه. ونظر فى أمر الشوانى الحربية، وكان قد أهمل أمر الأسطول بمصر وأخذ الأمراء رجاله واستعملوهم فى الحراريق وغيرها، فأعادهم إلى ماكانوا عليه فى أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأنشأ عدة شوانى بثغرى دمياط والإسكندرية، ونزل بنفسه إلى [دار] الصناعة ورتّب ما يجب ترتيبه، وتكامل عنده ببرّ مصر ما ينيف على أربعين قطعة وعدة كثيرة من الحراريق والطرائد ونحوها .

فلمّا كان ذات يوم حضر إليه رجل من أجناد الأمير الصيقلى(١)، وأخبره أن أستاذه فرق مالا على جماعة من المعزية وقرر معهم قتل السلطان : منهم الأمير علم الدين الغتمى، والأمير بهادر المعزى، والأمير شجاع الدين بكتوت؛ فقبض على الجميع فى ثامن ربيع الأوّل .

[و] فيها قُبض على الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير ، وعوق فى قاعة الوزارة ؛ فشفع فيه الأمير سيف الدين أنس، فخلع عليه فى يومه . ولم يقم سوى أيام وقبض السلطان على الأمير أنس، فقبض على الصاحب زين الدين [بن الزبير] فى صبيحة مسكه . ثم طلب قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ليلى الوزارة فأبى ، وأقام الأمير فارس الدين أتابك يراوده زمانا وهو لا يقبل ، ثم نزل الى داره . فطلب [السلطان] بهاء الدين على بن سديد الدين محمد بن سليم بن حنا ، فولى الوزارة، (١١٤ ا) وفُوّض اليه تدبير المملكة وأمور الدولة بأسرها ، وخلع عليه . فركب معه جميع الأعيان والاكابر، وعدّة من الأمراء منهم الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار .

وورد الخبر من عكا أن سبع جزائر من جزائر الفرنج فى البحر خسف بها وبأهلها ، بعد ما نزل عليهم دم عشرة أيام، فهلك بها خلق كثير، وصار أهل عكا فى خوف واستغفار وبكاء .

وجهز السلطان الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى فى جماعة، ولم يعرف مقصده فى ذلك أحد من جرده ولا غيرهم، فساروا الى الشوبك وتسلموها من نواب الملك المغيث فتح الدين عمر فى سادس عشرى ربيع الآخر . واستقر فى نيابتها الأمير سيف الدين بلبان المختصى(٢)

(١) فى س "الصقلى"، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. p. 144) هذا الاسم الى (Saikal).

(٢) كذا فى س بغير ضبط، وقد ترجم (Ibid : Op. Cit. I. l. p. 145) هذا اللفظ الى (Mokhtassi) .

واستخدم فيها النقباء والجنادرة ، وأفرد بخاص القلعة ما كان فى الأيام الصالحية . وفيه قبض على الأمير بهاء الدين بغدى (١) ، وحبس بقلعة الجبل حتى مات .

وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى فُوِّض قضاء القضاة بديار مصر للقاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن القاضى الأعز خلف ، المعروف بابن بنت الأعز ، عوضا عن بدر الدين السنجارى ، بعد عدّة شروط اشترطها على السلطان أغلظ فيها . وقصد [القاضى تاج الدين] بكثرة الشروط أن يعفى من ولاية القضاء ، فأجاب السلطان الى قبول ما اشترط عليه رغبة فيه وثقة به ، وصلى بالسلطان صلاة الظهر وحكم بعد ذلك . وقبض السلطان على البدر السنجارى وعوقه عشرة أيام ، ثم أفرج عنه .

وفيها سار الأمير أبو القاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بالله العباسى — الذى يقال له الزراتيتى (٢) لقب لقبه به العامة — ، مع جماعة من العرب بنى مهنا ، يريد دمشق . وكان قد فرّ من بغداد لما قتل هولاكو الخليفة المستعصم بالله ، ونزل عند عرب العراق فى هذه المدة ، ثم أراد أن يلحق بالملك الظاهر [بيبرس] بمصر . فوردت مكاتبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، والأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى نائب دمشق : "بأنه ورد الى الغوطة رجل ادعى أنه أبو القاسم أحمد الأسمر ابن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر ، وهو عم المستعصم وأخو المستنصر ، ومعه جماعة من عرب خفاجة فى قريب الخمسين فارسا ، وأن الأمير سيف الدين قلج البغدادى عَرف أمراء العرب المذكورين ، وقال بهؤلاء يحصل المقصود" . فكتب [السلطان] الى النواب بالقيام فى خدمته وتعظيم حرمته ، وأن يسير معه حجاب من دمشق ، (١١٤ ب) فسار من دمشق بأوفر حرمة الى جهة مصر . فخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس تاسع شهر رجب

(١) كذا فى س ، وقد صحح (Blochet) ، ناشر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٧٩) ، هذا الاسم الى يغدى ، وترجمه (Yaghoudaï) . انظر ص ٤٤٤ ، حاشية ٣ .

(٢) كذا فى س بغير ضبط ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. l. p. 146) هذا اللفظ الى (Zerâtini) . ويوجد أيضا فى ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٧٧٧) شخص اسمه شمس الدين محمد الزراتينى ، فلعل هذه النسبة راجعة الى بلد بهذا الاسم .

الى لقائه، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز، وسائر الأمراء وجميع العسكر، وجمهور أعيان القاهرة ومصر، ومعظم الناس من الشهود والمؤذنين . وخرجت اليهود بالتوراة، والنصارى بالإنجيل. فسار [السلطان] به إلى باب النصر، ودخل إلى القاهرة وقد لبس الشعار العباسى؛ وخرج الناس إلى رؤيته، وكان من أعظم أيام القاهرة . وشق القصبة الى باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل وهو راكب؛ فأنزل فى مكان جليل قد هيئ له بها، وبالغ السلطان فى إكرامه وإقامة ناموسه .

فلما كان يوم الاثنين ثالث عشره حضر قاضى القضاة ونوّاب الحكم، وعلماء البلد وفقهاؤها وأكابر المشايخ وأعيان الصوفية ، والأمراء ومقدّمو العساكر ، والتجار ووجوه الناس؛ وحضر [أيضا] الشيخ عز الدين بن عبد السلام(١) . فمثلوا كلهم بحضرة الأمير أحمد، وجلس السلطان متأدبا معه بغير كرسى(٢) ولا طَرّاحة(٣) ولا مسند . وشهد العربان وخادم من البغاددة بأن الأمير أحمد هو ابن الإمام الظاهر أمير المؤمنين ابن الإمام الناصر أمير المؤمنين، وشهد بالاستفاضة القاضى جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن المعروف بالجمال يحيى نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق ، والقاضى صدر الدين موهوب الجزرى، ونجيب(٤) الدين الحرّانى ، وسديد الدين عثمان بن

(١) فوق هذا اللفظ، بين سطور المتن، ثلاثة ألفاظ بخط دقيق تعذرت قراءتها .

(٢) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤ ، ص ٦ – ٧) وصف لأنواع المقاعد الذى يجلس عليها السلطان فى أوقات مختلفة ، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية بمصر، ونصه : "سرير الملك، ويقال له تخت الملك ... وهو منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه، وهو على هيئة منابر (ص ٧) الجوامع إلا انه مستند الى الحائط، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان فى يوم مهم كقدوم رسل عليه ونحو ذلك ، وفى سائر الأيام يجلس على كرسى من خشب مغشى بالحرير، إذا أرخى رجليه كادتا أن تلحق الأرض . وفى داخل قصوره يجلس على كرسى صغير من حديد، يحمل معه الى حيث يجلس" .

(٣) الطراحة – وجمعها طراريح – مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.؛ ابن واصل : نفس المرجع، ص ٣٧١ أ) .

(٤) فى س "محب" . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 1. P. 148)، حيث ترجم هذا الاسم إلى (Mouhibb) .

عبدالكريم بن أحمد بن خليفة، [و] أبو عمرو بن أبي محمد الصنهاجي التَّزْمَنْتي[١]، أنه أحمد بن الإمام الظاهر بن الإمام الناصر . فقبل قاضي القضاة تاج الدين شهادات القوم، وأسجل على نفسه بالثبوت ، وهو قائم على قدميه في ذلك المحفل العظيم حتى تم الإسجال والحكم .

فلما تم ذلك كان أول من بايعه القاضي تاج الدين ، ثم بعده قام السلطان و بايع أميرَ المؤمنين المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، على العمل بكتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله ، وأخذ اموال الله بحقها وصرفها في مستحقها . ثم بايعه بعد السلطان الشيخ عز الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء وكبار الدولة[٢] . فلما تمت البيعة قلد الإمامُ المستنصر [بالله] السلطانَ الملك الظاهر البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار. ثم قام الناس فبايعوا الخليفة المستنصر [بالله] على اختلاف طبقاتهم . وكتب في الوقت إلى الملوك والنواب بسائر الممالك أن يأخذوا البيعة على من قبلهم للخليفة المستنصر بالله أبي القاسم أحمد بن الإمام الظاهر ، وأنْ يُدعى له (١١١٥) على المنابر ثم يدعى للسلطان بعده، [وأن] تنقش السكة باسمهما .

---

(١) بغير ضبط في س ، والنسبة الى قرية تزمنت التابعة لعمل البهنسي بصعيد مصر ، وتقع على غربي النيل . (يا قوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٤٨) .

(٢) يفهم من عبارة أبي الفداء (المختصر في أخبار البشر ، ص ١٤٧ ، في Rec. Hist. Or. I.) في هذا الصدد ، أنه كان شاكا في نسبة الخليفة الجديد الى العباسيين، وهذا نصها : "وفي هذه السنة في رجب قدم إلى مصر جماعة من العرب ، ومعهم شخص أسود اللون اسمه أحمد، وزعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله ابن الإمام الناصر، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر . فعقد الملك الظاهر بيبرس مجلسا حضر فيه جماعة من الأكابر... ، فشهد أولئك العرب أن الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الإمام الناصر، فيكون عم المستعصم وأقام القاضي [ابن بنت الأعز] جماعة من الشهود ... ، فأثبت ... نسب أحمد المذكور، ولقب المستنصر بالله أبا القاسم ... وبايعه الملك والناس بالخلافة . واهتم الملك الظاهر بأمره ، وعمل له الدهاليز والجمدارية وآلات الخلافة ، واستخدم له عسكرا، وغرم على تجهيزه جملا طايلة، قيل إن مقدار ماغرمه عليه كان ألف ألف دينار ... وبرز الملك الظاهر والخليفة الأسود... وتوجها الى دمشق... ". انظر أيضا ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٠٥)، حيث سمي هذا الخليفة باسم "المستنصر بالله الأسود" .

فلما كان يوم الجمعة سابع عشره خطب الخليفة المستنصر بالله فى جامع القلعة ، فاستفتح بقراءة صــدر سورة الأنعــام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليــه وسلم ، وترضى عن الصحابة وذكر شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر ، وقضى الخطبة ؛ فاستحسن الناس ذلك منه . واهتم السلطان بأمره ، ونثر عليه جملا مستكثرة من الذهب والفضة . فلما شرع فى الخطبــة تلكأ فيها ، ثم نزل بعد تمامها وصلى بالناس الجمعة[(١)] .

وكان منصب الخلافة شاغرا ثلاث سنين ونصف[(٢)] [سنة] ، منذ قتل الخليفة المستعصم فى صــفر سنة ست وخمسين ، فكان الخليفة المستنصر بالله هو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، و بينه و بين العباس أربعة وعشرون أبا . وكان أسمر اللون وسيما ، شديد القوى عالى الهمة ، له شجاعة و إقــدام . واتفق له مالم يتفق لغيره ، وهو أنه لقب بالمستنصر لقب أخيه بانى المدرسة [المستنصرية] ببغداد ، ولم يقع لغيره أنّ خليفة لقب بلقب أخيه سواه .

وفى يوم الأحد تاسع عشره ركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل الى مدينة مصر، وركبا فى الحراريق وسارا فى النيل إلى قلعــة الجزيرة ، وجلسا فيها . وأحضرت الشوانى الحربية ، فلعبت فى النيــل على هيئة محاربتها العــدو فى البحر . ثم ركبا إلى البر وسارا إلى قلعة الجبل ، وقد خرج الناس لمشاهدتهما ، فكان من الأيام المشهودة[(٣)] .

وفيه قلد السلطان الأمير علم الدين سنجر الحلبى — [الذى ثار قبلا[(٤)]] بدمشق — نيابة حلب ، وجهز معه أمراء لكل منهم وظيفة : وهم الأمير شرف الدين قيران الفخرى أستادار ، والأمير

(١) الفقرة التالية واردة بهامش الصفحة فى س ، وقد أشار المقريزى الى مكانها المناسب من المتن ، على أنها غير واردة فى ب (١٤٠ ا) ، أو فى ترجمة (Quatremère : Op .Cit.I. 1. p. 149) .

(٢) فى س " ونصفا " .

(٣) الفقرة التالية ، حتى نهاية سطر ٤ بالصفحة التالية ، غير واردة فى ترجمة (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 149) ، على أنها موجودة فى ب (١٤٠ ا) .

(٤) فى س " علم الدين سنجر الحلبى الثائر بدمشق " ، وكان السلطان بيبرس قد عفا عن هــذا الأمير قبــل ذلك بمدة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٧٨) .

بدر الدين جماق(١) أمير جاندار ، والأمير علاء الدين أيدكين الشهابى شاد الدواوين . وسار [الأمير علم الدين] من القاهرة كما تسافر الملوك ، فدخل حلب فى ثالث شعبان ، فحضر اليه جماعة من العزيزية والناصرية وسألوا الأمان — وكانت العزيزية والناصرية قد اختلفوا وخرجوا إلى الساحل ، فأقطعهم السلطان إقطاعات ، وأحضر منهم عدة إلى مصر .

وفى يوم الاثنين رابع شعبان ركب السلطان الى خيمة ضربت له فى البستان الكبير خارج القاهرة ، ومعه أهل الدولة . وحُملت الخلع صحبة الأمير مظهر الدين وشاح الخفاجى ، وخادم الخليفة المستنصر بالله . فدخل السلطان الى خيمة أخرى ، وأفيضت عليه الخلع الخليفتية وخَرَج بها : وهى عمامة سوداء مذهبة مزركشة ، ودُرّاعة(٢) بنفسجية اللون ، وطوق ذهب ، وقيد من ذهب عُمل(٣) فى رجليه ، وعدة سيوف تقلد منها واحدا — وحُملت البقية خلفه ، ولواءان منشوران على رأسه ، وسهمان كبيران وترس . فقُدّم له فرس أشهب ، فى عنقه مِشَدّة(٤) سوداء وعليه كُنبُوش(٥) أسود . وطلب الأمراء واحدا بعد واحد وخلع عليهم ؛ وخلع على

---

(١) كذا فى س .

(٢) الدراعة جبة مشقوقة المقدم ، ولا تكون إلا من صوف ، والجمع دراريع . (محيط المحيط) . والدراعة أيضا صدرية تلبسها البنات . (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٣) فى س " وعمل قيد من ذهب فى رجليه " ، وقد غير ترتيب الجملة للانسجام مع أسلوب بقية العبارة .

(٤) ترجم (Dozy : Supp. Dict. Ar.) هذا اللفظ الى (écharpe au cou d'un cheval) ، وعلى هذا تكون المشدة مرادفة للفظ " الرقبة " المذكورة فى القلقشندى (صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ٨) ، فى باب رسوم الملك وآلاته . (انظر ص ٤٤٣ ، حاشية ١) . هذا وفى محيط المحيط أن الشد عند العامة شال من الحرير يعتم به أو يتمنطق ، والمشد نطاق تشد المرأة به نفسها . أما كون المشدة هنا — أو الرقبة — سوداء فراجع إلى رغبة السلطان بيبرس فى إحياء شعار العباسيين وهو السواد .

(٥) فى س " كنفوش " بغير ضبط ، ولعل هذا هجاء ثان لكلمة كنبوش ، وهى البرذعة تجعل تحت سرج الفرس . (محيط المحيط) . وإنما يقابل هذه الكلمة فى (Dozy: Supp. Dict.Ar.) اللفظ الفرنسى (housse) ، الذى من معانيه غاشية الفرس ، وقد تقدم شرحها . (انظر ص ٢١٤ ، حاشية ٥) . هذا والكنبوش — بفتح الكاف — اللثام الذى يستعمله أهل بلاد المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم ، اتقاء لبرودة هواء الصباح ورطوبته . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

قاضى القضاة تاج الدين، وعلى الصاحب بهاء الدين، وعلى فخر الدين بن لقمان صاحب ديوان الإنشاء . ونُصب منبر، فصعد عليه ابن لقمان بعد ما جلل بثوب حرير أطلس أصفر، وقرأ تقليد الخليفة للسلطان، وهو من إنشائه، ونصه بعد البسملة : "الحمد لله الذى (١١٥ ب) اصطفى الإسلام بملابس الشرف، وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحكم عليها من الصدف، وشيّد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف، وقيّض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلف . أحمده على نعمه التى رتعت الأعين منها فى الروض الأُنُف، وألطافه التى وقف الشكر عليها فليس له عنها منصرف . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة توجب من المخاوف أمنا، وتسهل من الأمور ماكان حزنا . وأشهد أن محمدا عبده الذى جبر من الدين وهنا، ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فنا، صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحت مناقبهم باقية لا تفنى، وأصحابه الذين أحسنوا فى الدنيا فاستحقوا الزيادة من الحسنى" .

" وبعد فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا فى تسطير مناقبه وبره، من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدّما، ودعا الى طاعته فأجاب من كان مُنجِدا ومُتْهِما، وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصما، ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى[1] شرفه الله وأعلاه، ذَكَره الديوان

(١) تقدمت الإشارة (ص ٣٥٧ ، حاشية ١) إلى بعض ما جاء فى الألقاب وأنواعها بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ٤٩١ ، وما بعدها ؛ ج ٦، ص ٥ ، وما بعدها)، ومنه يتضح أن لفظ المقام كان من الألقاب الخاصة بالملوك والسلاطين، وأنه كان يستعمل فى المكاتبات السلطانية للكناية عن السلطان تعظيما له عن التفوه باسمه، فيقال المقام الأشرف أو المقام الشريف العالى أو المقام العالى ؛ وكان لفظ العالى فقط من الألقاب التى يشترك فيها أيضا أرباب السيوف والإقلام . أما لفظ المولوى فنسبة للبالغة من كلمة مولى، ويظهر أنه كان من الألقاب المتجنبة، لأن المولى لفظ مشترك يقع فى اللغة على السيد وعلى الملوك والعتيق . أما السلطانى فهو السلطان، وقد أدخلت عليه ياء النسب للبالغة، وكذلك الحال فى لفظ الملكى أيضا ، على أن لفظ الملكى كان من الألقاب المشتركة بين الملك نفسه وأتباعه المنسوبين إليه، من الأمراء والوزراء ومن فى معناهم .

العزيز[١] النبوى الإمامى[٢] المستنصرى أعز الله سلطانه، تنويها بشريف قدره، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية ، بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهبت[٣] ما كان من محاسن وإحسان ، وأعتب دهرها المسىء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمنها وقد كان صال عليها صولة مغضب . فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا ، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق من أمورها واسعا رحبا؛ ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ، وأظهر من الولاء رغبة فى ثواب الله ما لا يخفى؛ وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك بحبله متمسك لا نقطع به قبل الوصول إليه . لكن الله تعالى ادخر هذه الحسنة ليثقل بها ميزان ثوابه ، ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف من حسابه . فهذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة صنعه ، ومكرمة قضت لهذا البيت الشريف بجمعه بعد أن (١١٦ ا) حصل الإياس من جمعه " .

" وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ، ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الخرق على الراقع . وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا فى الأدنى " .

" فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ، وخلص نفسك من التبعات اليوم ففى غد تكون مسئولا لا سائلا ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا ،

---

(١) كان هذا اللفظ من ألقاب ديوان الخلافة خاصة ، فيقال الديوان العزيز كما بالمتن هنا ، وقد جرى المصطلح على عدم إضافة ياء النسب إلى هذا اللفظ . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٢٠) .

(٢) كان لفظ الإمام من القاب الخلفاء أنفسهم ، على أنه كان يقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء ، وقد تضاف إليه ياء النسبة أحيانا للمبالغة . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٦ ، ص ٩) .

(٣) فى س " وأذهب " .

وما رآها أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا . فالسعيد من قطع منها آماله الموصولة، وقدّم لنفسه زاد التقوى فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة . وابسط يدك بالإحسان والعدل ، فقد أمر الله بالعــدل وحثّ على الإحسان، وكرّر ذكره فى مواضع من القرآن، وكَفّر به عن المرء ذنوبا كتبت عليه وآثاما ، وجعل يوما واحدا منها كعبادة العابد ستين عاما . وما سلك أحد سبيل العــدل إلا واجتنيت ثمــاره من أفنان ، ورجع الأمر به بعد بُعْد تداعى أركانه وهو مشيد الأركان، وتحصن به من حوادث زمانه والسعيد من تحصن من حوادث الزمان، وكانت أيامه فى الأيام أبهى من الأعياد، وأحسن فى العيون من الغرر فى أوجه الجياد، وأحلى من العقود إذا حلى بها عاطل الأجياد" .

" وهــذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج الى نواب وحكام ، وأصحــاب رأى من أصحاب السـيوف والأقلام . فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك فنقّب عليه تنقيبا، واجعل عليــه فى تصرفاته رقيبا . وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا وبما أجرم مطلوبا ، ولا تول منهم إلا من تكون مساعيه حسنات لك لا ذنوبا . وأْمُرْهم بالأناة فى الأمور والرفق، ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم والوجه الطلق،وألا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق؛ وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعايا إخوانا، وأن يوسعوهم برا و إحسانا، وألا يستحلوا حرماتهم (١١٦ ب) إذا استحل الزمان لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم ولو كان أميرا عليــه وسلطانا . والسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله ، واستَنّوا بسنتــه فى تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنــه ما تعجز قــدرته عن حمل أثقاله" .

"ومما تؤمرون به أن يُمْحَى ما أُحدث من سيئ السنن، وجُدّد من المظالم التى هى من أعظم المحن، وأن يُشترى بإبطالها المحامد فإن المحامد رخيصة بأغلى ثمن. ومهما جبى منها[1] من الأموال فإنما هى باقية فى الذمم حاصلة، وأجياد الخزائن و إن أضحت بها حالية فإنما هى على الحقيقة منها

(١) ضمير الهاء هنا عائد على المظالم .

عاطلة . وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذمّا ، وجعل السواد الأعظم له يوم القيامة خصما ، وتحمل ظلم الناس فيما صدر عنــه من أعماله وقــد خاب من حمل ظلما . وحقيق بالمقام الشريف المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف ثقلا لا طاقة لهم بحمله . فقــد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لغيره ممن تقــدّم من الملوك و إن جاء آخرا . فاحمدِ الله على أن وصل إلى جانبك إمامُ هدى أوجب لك مزية التعظيم ، ونبّــه الخلائق على ما خصّك الله به من هذا الفضل العظيم . وهذه أمور يجب أن تُلاحَظ وترعى ، وأن توالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت فى الأمور أصلا وصار غيرك فرعا " .

" ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا . وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصّهم بالجنــة التى لا لغو فيها ولا تأثيم . وقــد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرعت (١) فى سواد الحُسّاد ، وعرفت منك عزمة هى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد ، وأشهى إلى القلوب من الأعياد . و بك صان الله حمى الإسلام من أن يتبذّل ، و بعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ، وسيفُك أثّر فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل ، و بك يرجى أن يرجــع مقــر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأُول . فأيقظ لنصرة الإســلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكن فى مجاهــدة أعداء الله إماما متبــوعا لا تابعا ، وأيِّد كلمة التوحيد فــا تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا " .

" ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له (١١١٧) الثغور ، واحتفال يبدِّل ما دجى من ظلماتها بالنور . واجعل أمرها على الأمور مقــدما ، وشيِّد منها كل ما غادره العدو منهدما ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع . وأولاها بالاهتمام

(١) كذا فى س ، ولعلها أشرعت أو أشرقت أو أشرفت ، وقــد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I.1. P. 156) هذه العبارة الى كلها (faits éclatants, qui ont fait pâlir les envieux) .

ما كان البحر له مجاورا، والعدو له ملتفتا ناظرا، لاسيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل اليها رابحا وراح خاسرا، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا" .

"وكذلك أمر الأسطول[1] الذى ترجى[2] خيله كالأهلة، وركائبه سابقة بغير سائق[3] مستقلة . وهو أخو الجيش السليمانى: فإن ذاك غدت الرياح له حاملة، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة . وإذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام، وإذا شبهها قال هذه ليال تقلع بالأيام" .

" وقد سنى الله لك من السعادة كل مطلب، وأتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيّب؛ وبسط بعد القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل ؛ وهداك إلى مناهج الحق وما زلت مهتديا إليها، وألزمك المراشد ولا تحتاجٌ الى تنبيه عليها . والله يمدك بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة ستتم بشكره " .

ولما فرغ من قراءته، ركب السلطان بالخلعة والطوق الذهب والقيد الذهب ، وكان الطالع برج السنبلة . وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى أستادار السلطان، ثم حمله الصاحب بهاء الدين وسار به بين يدى السلطان ، وسائر الأمراء ومن دونهم مشاة سوى الوزير . ودخل [السلطان] من باب النصر وشق القاهرة ، وقد زُينت وبُسط أكثر الطريق بثياب فاخرة مشى عليها فرس السلطان . وضج الخلق بالدعاء بخلود أيامه وإعزاز نصره وأن يُخْلَعها خلع الرضى ، إلى أن خرج من باب زويلة وسار إلى القلعة ، فكان يوما مشهودا تقصر الألسنة عن وصفه .

وشرع السلطان فى تجهيز الخليفة للسفر، واستخدم له عساكر ، وكتب للأمير سابق الدين

(١) تقدم ذكر كلمة أسطول أكثر من مرة، ولم ينبه إلى أصلها أو أنواع استعمالها فى كتب المؤلفين بالعربية . وأسطول لفظ يونانى الأصل ، يطلق فى العربية أحيانا على المراكب الحربية المجتمعة ، وأحيانا على مركب حربى واحد فقط ؛ والأسطولى هو العسكرى الذى يعمل فى البحر، أما الذى ينتظم فى سلك الجيوش البرية فهو الجندى . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 157 N. 33).

(٢) فى س " نرجى " .

(٣) فى س " سابقه بغير سايق " .

بوزبا[(١)] أتابك العسكر الخليفتي[(٢)] بألف فارس، وجعل الطواشي بهاء الدين صندل الشرابي[(٣)] الصالحي شرابيا بخمسمائة فارس، والأمير ناصر الدين بن صيرم خازندارا[(٤)] بمائتي فارس، والأمير الشريف نجم الدين جعفر أستادارا[(٥)] بخمسمائة فارس، وسيف الدين بلبان الشمسي دوادارا[(٦)] (١١٧ ب) بخمسمائة فارس، والأمير فارس الدين أحمد بن أزدمر اليغموري دوادارا[(٧)] أيضا، والقاضي كمال الدين محمد بن عز الدين السنجاري وزيرا، وشرف الدين أبا حامد كاتبا[(٨)]؛ وأقام عدة من العربان أمراء . وحمل [السلطان] إلى الجميع الخزائن والسلاح وغيره من الصناجق والطبلخاناه، وأنفق فيهم أموالا كثيرة . واشترى مائة مملوك كبارا وصغارا ، ورتّبهم سلاح دارية وجامدارية ، وأعطى كلا منهم ثلاثة أرؤس من الخيل وجملا لعدته . ورتّب سائر ما يحتاج إليه الخليفة : من صاحب ديوان وكاتب إنشاء ودواوين وأئمة، وغلمان

---

(١) كذا في س ، وقد تقدم ورود هذا الاسم (ص ٤٠٥ ، سطر ١١) على أنه "بوزنا" ، اعتمادا على رسم وروده في ب(١٢٦ أ) . انظر ص ٤٠٥ ، حاشية ٣ . هذا وفي ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص٨٣) ، أن اسم هذا الأمير ابورتا ، وهو في ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٥ أ) "روما" ، بغير نقط البتة .

(٢) هذا اللفظ وارد بهامش الصفحة في س ، بدون إشارة كالمعتاد الى موضعه المقصود، وقد وضع هنا لمناسبته المعنى .

(٣) الغالب أن الشرابي هو الذي يصنع الأشربة والأدوية ، وأنه كان أحد رجال الشراب خاناه ، مثل الشربدار . انظر القلقشندي (صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٦٩) . ويقوى هذا الفرض أن صانع الأدوية يسمى شرائبي وشرباتي في (Dozy : Supp. Dict. Ar)، وأنه يوجد بالمقريزي (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١٦) حارة تسمى بحارة الشرابية ، وقد "عرفت بذلك لأنها كانت موضع سكن الغلمان الشرابية ، [وهم] إحدى طوائف العسكر..." . هذا وقد ترجم (Blochet)، ناشر ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٨٣) هذا اللفظ إلى (échanson)، ويقابل ذلك في مصطلح دولة المماليك كلمة الساقي (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) في س "خازندار" .

(٥) في س "استادار" .

(٦ و ٧) في س "دوادار" .

(٨) الكاتب في العرف العام بالديار المصرية، زمن الدولتين الأيوبية والمملوكية ، هو كاتب المال ومن في معناه . (القلقشندي : صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٥٢) .

وجرائحية(١) وحكماء وبيوتات(٢)، وكلها كلها مما تحتاج إليه . ورتّب الجنائب وخيول الإصطبلات، واستخدم الأجناد، وعيّن لخاص الخليفـة مائة فرس وعشر قُطُر(٣) بغال وعشر قُطُر جمـال، وطشت خاناه وشراب خاناه وحـوائج خاناه(٤)، وكتب لمن وفد معه من العراق تواقيع ومناشير بالإقطاعات .

فلمـا تهيأ ذلك كله برز الدهليز الخليفتي والدهليز السـلطاني إلى البركة ظاهر القاهرة، وركب الخليفة والسلطان من قلعة الجبل في السادسة من نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رمضان، وسارا إلى البركة فنزل كل منهما في دهليزه، واستمرت النفقـة في أجناد الخليفـة . وفي يوم عيـد الفطر ركب السـلطان مع الخليفة تحت المظلة، وصليا صـلاة العيد، وحضر الخليفة إلى خيمة السـلطان بالمنزلة وألبسـه سراويل الفتوة(٥) بحضرة الأكابر . ورتب السلطان الأمير عز الدين أيدمر الحلي نائب السلطنة بديار مصر، وأقام معه الصاحب بهاء الدين بن حنا .

---

(١) الجرائحية جمع جرائحي، وهذا الجمع ومفرده صيغة عامية للفظي جراحيون وجواحي، والجراحي — ويقال الجزاح أيضا — الطبيب الذى يعالج الجراح . (محيط المحيط) .

(٢) ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. I. P. 160) هذا اللفظ الى (des maisons garnies de toutes sortes d'accessoires utiles) ويفهـم من ذلك أن السلطان أعطى الخليفة بيوتا مفروشـة بكامل الأثاث والمفروشات .

(٣) جمع قِطار، وهو عدد من البغال أو غيرها من الماشية، تكون على نسق واحد . (محيط المحيط) .

(٤) الحوائج خاناه بيت الحوائج، وهى حسبما جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص١٢ — ١٣)، "جهـة تحت يد الوزير، منها يصرف اللحم الراتب للطبخ السـلطاني والدور السلطانية، ورواتب الأمراء والمماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ (ص ١٣) أسماؤهم الدفاتر؛ وكذلك توابل الطعام للطبخ السـلطاني والدور السلطانية، ومن له توابل مرتبـة من الأمراء وغيرهم؛ و[كذلك] الزيت للوقود، والحبوب وغير ذلك من الأصـناف المتعددة . ولها مباشرون منفردون بهـا، يضبطون أسمـاء المستحقات ومقادير استحقاقهم؛ وهى من أوسـع جهات الصرف، حتى أن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل يوم، خارجا عما عداه من الأصناف، وربمـا زاد على ذلك" .

(٥) تقـدمت الإشارة الى الفتوة وسراويلها (انظر ص ١٧٢، حاشية ١، ٢)، وقد أورد ابن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٨٤ — ٨٥) فقرة طويلة فى هذا الصدد، ونصها : "ثم تجهز السلطان [بيبرس] إلى الشام فى تاسع عشر رمضان، ورغب فى لباس الفتوة فألبسه [الخليفة] قبل سفره . ونسبة الفتوة من الإمام على بن أبي طالب =

وفى يوم السبت سادس شوّال رحل الخليفة وصحبته الملك الظاهر بجميع العساكر، فساروا إلى الكسوة ظاهر دمشق، وخرج إلى لقائهم عسكر دمشق فى يوم الاثنين سابع ذى القعدة. فنزل الخليفة بالتربة الصالحية فى سفح قاسِيُون[1]، ونزل السلطان بقلعة دمشق. وفى يوم الجمعة عاشره دخل الخليفة [الجامع الأموى بدمشق] من باب البريد[2]، وجاء السلطان من باب الزيادة، واجتمعا بمقصورة الجامع حتى فرغا من صلاة الجمعة، وخرجا إلى باب الزيادة فمضى الخليفة وعاد السلطان.

وكان قد قدم إلى السلطان وهو بقلعة الجبل الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، وولده [الملك[3] السعيد] علاء المُلْك[4] وأهله، فى شعبان إلى القاهرة. فأقبل السلطان عليه وأحسن إليه، وأمر له ولمن معه بالإقامات والأموال من دمشق إلى القاهرة، وتلقاه وأنزله بدار تليق به. ثم وصل أخوه الملك المجاهد سيف الدين (١١٨ ا) إسحاق صاحب الجزيرة، فتلقاه [السلطان] كما تلقى أخاه. وكان أخوهما الملك المظفر

= كرّم الله وجهه، لسلمان الفارسى، لعلى التونى، للحافظ الكندى، لعوف الغسانى، لأبى (ص ٨٥) العز النقيب، لأبى مسلم الخراسانى، لهلال النبهانى، لجوشن الفزارى، للأمير حسان، لأبى الفضل القرشى، لأبى الحسن النجار، للملك أبى كلنجار، لروزبه الفارسى، للأمير وهزان، للقائد عيسى، لمهنا العلوى، لعلى الصوفى، لمعز بن أنس، لأبى القاسم بن حنا، لنفيس العلوى، لبقا بن الطباخ، لحسن بن الشرابدار، لأبى بكر بن الجيش، لعمر بن الرصاص، لعبد الله بن العين، لعلى بن زعيم، لعبد الجبار، للإمام الناصر، لجده".

(١) بغير ضبط فى س، وهو جبل مطل على الشمال الغربى من دمشق، ويقال إنه (Mons Casius) الرومانى. راجع (Le Strange : Palest. Under Moslems, pp. 240. Note *, 482؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣).

(٢) باب البريد أحد الأبواب الأربعة التى لجامع دمشق، وهى : باب البريد، وباب جيرون ويسمى أيضا باب الساعات، وباب الزيادة ويعرف هذا بباب الصرماياتية وباب الساعات أيضا، وباب العمرة وكان معروفا قديما باسم باب الفراديس وباسم باب الناطفيين أو الناطفانيين (Le Strange : Palest.Under Moslems, p 226).

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٣٩٦ آ).

(٤) يلى هذا بياض فى س يسع لفظا تقريبا.

علاء الدين علىّ صاحب سنجار قد رتبــه الملك المظفر قطز فى نيابة حلب[١] ، فقبضه العزيزية واعتقلوه، فسأل إخوتُه الملكَ الظاهرفيه فأفرج عنه، وبالغ فى إكرامهم وعطائهم . و[كان السلطان] لمــا نزل بالبركة خارج القاهرة، [قد] جهز إليهم خيل النوبة[٢] والعصائب[٣] والجمدارية والخلع، وكتب لهم تقاليد ببلادهم التى فوضت إليه من الخليفة: فكتب للملك الصالح بالموصل ونصيبين وعقر[٤] [و]شُوش[٥] ودارا والقلاع العمادية[٦] ، وكتب للمجاهد بالجزيرة ، وكتب للمظفر بســنجار . فقبلوا الأرض عنــد لبس الخلع ، وســير [السلطان] إليهم الكوسات والسناجق والأموال، وأعفوا من الحضور والخدمة . فساروا إلى دمشق، وحضروا مجلس الشام بقلعة دمشق، ولبسوا الخلع وقبلوا الأرض، وخرجوا والأتابك فى خدمتهم بشعار السلطنة، وأعطاهم [السلطان] فى لعب الكرة شيئا كثيرا .

(١) تقدمت الاشارة الى هذا الملك ، وما حدث له منذ تولى نيابة حلب ، ص ٤٣٩ ، حاشية ٣)، واسمه هناك الملك السعيد ، وكان السلطان قطز قد لقبه بذلك اللقب . (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 359. N. 1) .

(٢) خيـــل النوبة هى التى تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب ، وتسمى أيضا فرس النوبة . وللفظ النوبة فقط معان اصطلاحية أخرى ، أحدها فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس نوبات و يكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . والنوبة عند المغنين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معا ، و يقابلها فى الفرنسية (aubade, concert, fanfares, musique symphonie, orchestre) ، وربما أطلقت على المطربين بها إذا اجتمعوا ، و يقال لهم النوبجية عند الأتراك . هذا و يقال ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر ، والنوبة أيضا الوقعة الحربية . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) جمع عصابة ، وقد تقدّم وصفها فى ص ٤٤٣ ، حاشية ١ .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى الجبال الواقعة شرق الموصل ، وتعرف بعقر الحميدية نسبة الى أهلها الأكراد المعروفين بهذا الاسم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩٦) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة عالية جدا قرب عقر الحميدية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٣٤) . و يلاحظ أن المقريزى اعتبر هــذه القلعة والتى قبلها كأنهما موضع واحد ، غير أنه ليس فى المراجع المتداولة فى هــذه الحواشى ما يسند هذا التركيب المزجى . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 166. N. 49) .

(٦) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة فى شمالى الموصـــل ، عمرها عماد الدين زنكى ســنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) ونسبت اليــه ، وكانــ اسمها قبل ذلك آشب . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١٧) . و يتضح من (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 166. N. 49) أن قلعتى عقر وشوش كانتا تدخلان فى عمل القلاع العمادية ، وهذا يفسر تسمية المقريزى لها جميعا باسم القلاع العمادية .

ووصل إلى دمشق الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص ، والملك المنصور صاحب حماة . فوصل [السلطان] كلا منهما بثمانين ألف درهم وحملين من الثياب وخيول ، وركب كل منهما بدمشق والأمراء مشاة فى خدمته بشعار السلطنة . وكتب [السلطان] لهما التقاليد باستقرارهما على ما بأيديهما وزادهما، ثم عادا إلى بلادهما .

وكان السلطان قد عزم أن يبعث مع الخليفة عشرة آلاف فارس حتى يستقر ببغداد ، ويكونَ أولاد صاحب الموصل فى خدمته . فخلا أحدهم بالسلطان وأشار عليه ألا يفعل : "فإن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر" . فرجع إليه [الوسواس] ، ولم يبعث مع الخليفة سوى ثلثمائة فارس. وجرّد [السلطان] الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين سنقر الرومى الى حلب ، وأمرهما بالمسير الى الفرات ، و إذا ورد عليهما كتاب الخليفة بأن يسير أحدهما إليه سار .

وركب السلطان لوداع الخليفة ، وسافر [الخليفة(١)] فى ثالث عشر ذى القعدة ، ومعه أولاد صاحب الموصل الثلاثة . ففارقوه فى أثناء الطريق وتوجه كل منهم(٢) الى مملكته . فوصل الخليفة الى الرحبة(٣) ، وأتاه الأمير على بن حذيفة من آل فضل بأربعمائة فارس من العرب ، وانضاف إليه من مماليك المواصلة نحو الستين مملوكا ، ولحق به الأمير عز الدين بركه من حماة فى ثلاثين فارسا. ورحل [الخليفة] من الرحبة الى مشهد على ، فوجد رجلا(٤) ادعى

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٦ أ) .

(٢) فى س "منهما" .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى رحبة مالك بن طوق ، وموقعها على شاطىء الفرات جنوبى قرقيسيا ، وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٧٦٤) .

(٤) يقصد المقريزى بهذا الرجل الأمير أبا العباس أحمد ، الذى أتى مصر فيما بعد وصار خليفة بها وتلقب بالحاكم بأمر الله . (انظر ص ٤٦٧ ، سطر ٦) . وقد ترجم السيوطى (تاريخ الخلفاء ، ص ٣١٧ ، وما بعدها) لهذا الأمير العباسى ، وفصل ما حدث له منذ نجاته من أيدى التتر بعد وقعة بغداد ، وهذا نص ما جاء به مصححا ، ومضافا إليه زيادات توضيحية بين الأقواس من نفس المرجع (ص ٣١٦ - ٣١٧) : "الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن أبى علىّ الحسن القبّي - بضم القاف وتشديد الباء الموحدة - ابن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد بن المستظهر بالله ، =

أنه من بنى العباس قد اجتمع اليه سبعمائة فارس من التركمان ، كان الأمير شمس الدين أقوش البرلى قـد جهزهم من حلب . فبعث الخليفـة الى التركمان واستمالهم ففارقوه وأتوا الخليفـة ، فبعث اليه الخليفة يستدعيه (١١٨ب) وأمّنه ورغّبه فى اجتماع الكلمة على إقامة الدولة العباسية ، ولاطفه حتى أجاب وقـدم اليه ، فوفى له وأنزله معـه . وسار [الخليفـة] الى عانة ثم الى الحديثة ، وخرج يريد هيت ، وكتب الى الملك الظاهر [بيبرس] بذلك .

وأما حلب فإن الأمير سـنجر الحلبى فارقها وسار الى دمشق ، فاستولى عليهـا الأمير شمس الدين أقوش البرلى و بعث بالطاعة الى السلطان ، فأبى إلا حضوره . فلمـا سار الأمير سيف الدين الرشـيدى والأمير سـنقر الرومى من دمشق رحل أقوش عن حلب ، فدخلاها وسارا منها الى الفرات ، وأغارا على بلاد أنطاكية ، وكسب العسكر وغنم ، وحرق غلال الفرنج ومراكبهـم وعاد . فولى السلطان الأمير علاء الدين بندقدار[(١)] نيابة حلب ، فأقام بها فى شدّة من غلاء الأسعار وعدم القوت ، ثم رحل عنها .

وقدمت الإقامات من الفرنج[(٢)] الى السلطان ، وسألوا الصلح فتوقف وطلب منهـم أمورا

= كان اختفى وقت أخذ بغداد ونجا ، ثم خرج منها و فى صحبته جماعة ، فقصد حسين بن فلاح أمير بنى خفاجة فأقام عنده مدّة . ثم توصل مع العرب إلى دمشق ، وأقام عند الأمير عيسى (ص ٣١٨) بن مهنا مدة ، فطالع [ابن مهنا] به الناصر صاحب دمشق فأرسل يطلبه ، فبغته مجىء التتار . فلمـا جاء الملك المظفر [قطز] دمشق سير فى طلبه الأمير قلج البغدادى ، فاجتمع به و بايعه بالخلافة ، وتوجه فى خدمته جماعة من العرب ، فافتتح الحاكم [بأمر الله] عانة بهم والحديثة وهيت والأنبار ، وصاف التتار وانتصر عليهـم . ثم كاتبه علاء الدين طيبرس نائب دمشـق يومئـذ والملك الظاهر يستدعيه (كذا) ، فقدم دمشق فى صفر ، فبعثه الى السلطان . وكان المسـتنصر بالله قد سبقه بثلاثة أيام الى القاهرة ، فما رأى أن يدخل إليها خوفا من أن يمسـك فرجع الى حلب . فبايعه بها صاحبها [شمس الدين أقوش] ورؤساؤها [و] منهم عبد الحليم بن تيمية ، وجمع خلقا كثيرا وقصد عانة . فلما رجع المسـتنصر وافاه بعانة ، فانقاد الحاكم [بأمر الله] له ودخل تحت طاعتـه ... " ، كما بالمتن . ويتضح من هذا أن سلاطين المماليك قبـل بيبرس فكروا فى اجتذاب الخلافة العباسية الى القاهرة ، وأن أبناء البيت العباسى كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أمينا لإيوائهم وحمايتهم .

(١) كذا فى س .

(٢) من أخبار السلطان بيبرس والفرنج تلك السنة ، وهذا نقلا عن العينى (عقد الجمان ، ص ٢١٦ ، فى =

لم يجيبوا اليها ، فأهانهم . وكان العسكر قد خرج للغارة على بلادهم من جهـة بعلبك ، فسألوا رجوعه . واتفق الغلاء ببلاد الشام ، فتقرر الصلح على ما كان الأمر عليه الى آخر أيام الملك الناصر[(١)] ، وإطلاق الأسارى من حين انقضت الأيام الناصرية . فسارت رسل الفرنج لأخذ العهود وتقرير الهـدنة لصاحب[(٢)] يافا ومتملك بيروت ، فكاسر الفرنج فى أمر الأسارى ، فأمر السلطان بنقل أسرى الفرنج من نابلس الى دمشق واستعملهم فى العمائر. فتعلل الفرنج بالعوض عن زرعين ، فأجيبوا : "بأنكم أخذتم العوض عنها فى الأيام الناصرية مرج عيون ، وقايضتم صاحب تبنين[(٣)] والمقايضة فى أيديكم . فكيف تطلبون العوض مرتين ؟ فإن بقيتم على العهـد وإلا فما لنا شغل إلا الجهاد" . وخرج الأمير جمال الدين المحمدى فى عسكر ، وأغار على بلاد الفرنج وعاد غانما سالمـا .

وسارت عدة من العسكر فأوقعوا بعرب زُبيد[(٤)] لكثرة فسادهم ، وقتـلوا منهم جماعة وعادوا

= Rec. Hist. Or. II. 1) أن السلطان جهز الى إمبراطور الدولة الغربية ، وهو مانفرد بن فردريك الثانى (Manfred, son Of Frederic II) هـدية من جملتها عدد من الزراف ، وجماعة من أسرى التتار المأخوذين فى نوبة عين جالوت ، بخيولهم التترية وعدتهم . انظر (Camb. Med. Hist. VI. p. 177) . على أن الفرنج المقصـودين هنا بالمتن هم ملوك وأمراء الصليبيين بالشام ، ومنهم صاحب يافا ومتملك بيروت ، واسم كل منهما (John of Ibelin) . انظر (Stevenson: The Crusaders In The East. p. 336; King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 258)

(١) المقصود بالملك الناصر هنا السلطان الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق ، وكان بينه وبين (John of Ibelin) صاحب يافا معاهـدة قديمة . راجع (Lane-Poole: A Hist. of. Egypt In The Middle Ages. P. 268. N. I.)

(٢) اسم هذا الأمير فيما يلى كند يافا ، أى (Count of Jaffa) .

(٣) فى س ، ب (١٤٤ أ) سيس ، وقد ترجمها (Quatremère: Op. Cit. I. 1. p. 169) على هذا الاعتبار . انظر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٣٩٨ ب) .

(٤) بغير ضبط فى س ، وزبيـد اسم لقبيلة كانت مساكنها حول دمشق ، وقد عرف كل فرع من فروعها باسم نواحى دمشق التى سكنتها ، وهذه الفروع هى زبيد الغوطة ، وزبيد المرج ، وزبيد صرخد ، وزبيد حوران ، وزبيد الأحلاف الذين كانت مساكنهم قرب الرحبـة بجوار منازل آل فضل . (القلقشندى : صـبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ — ٢١٤) .

غانمين . وأحضر السلطان أمراء العربان ، وأعطاهم وأقطعهم الإقطاعات، وسلمهم دَرَكَ[1] البــلاد وألزمهم حفظ الدروب إلى حدود العراق ؛ وكتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وفوّض [السلطان] إلى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نيابة دمشق،وفوّض قضاءها للقاضى شمس الدين أبى[2] العباس أحمــد بن محمد بن إبراهيم بن أبى بكر بن خلكان ــ وكان قد خرج معه من مصر ــ ، عوضا عن نجم الدين أبى بكر محمد بن احمد بن يحيى بن السنى، و وكل به وسـفّره إلى (١١١٩؟) القاهرة . وقرئ تقليد ابن خلكان يوم الجمعة تاسع ذى الحجــة، وفُوّض إليه الحكم من العريش إلى الفرات، والنظر فى جميع أوقاف الشام من الجامع والمــارستان والمدارس والأحباس وتدريس سبع مدارس .

وخرج السلطان من دمشق يوم السبت سابع عشره يريد مصر . وصُرف قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز فى سلخ شوّال عن قضاء مصر والقبلى، واستقر مكانه قاضى القضاة برهان الدين السنجارى، و بقى قضاء القــاهرة والوجه البحرى بيد ابن بنت الأعز . وأمر السلطان ببناء مشهد على عين جالوت .

وفيهــا كتب السلطان إلى الملك بركه [خان] يغريه بقتال هولاكو و يرغبــه فى ذلك، وسببه تواتر الأخبار بإسلام بركه . و فيهــا أغار التتار الذين تخلّفوا على أعمال حلب وعاثوا، ونزل مقدمهم بيــدرا على حلب، وضايقها حتى غلت أسعارها وتعــذّر وجود القوت ، فلما بلغهم توجه عسكر السلطان إليهــم رحلوا . وفيهــا استولى الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى[3] العزيزى على حلب، و جمع معــه التركمان والعرب، فأقام نحو أربعة أشهر . ثم توجه إلى البيرة

(١) الدرك التبعة ، فيقال درّك السلطان أمراء العربان بالبلاد أى جعلها تحت دركهم وتبعتهم وخفارتهم ، وهو فعل مولد . انظر (محيط المحيط ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar) . هذا وعبارة ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع ، ص ٣٩٨ ب) توضح هــذا المعنى تمــاما ، ونصها : "وعمهم السلطان بفضــله ، وأطلق رسومهم وكتب مناشيرهم ، وسلم اليهم خفر البلاد وألزمهم حفظها إلى حدود العراق" .

(٢) فى س " ابو " .

(٣) هذا اللفظ مضبوط فى س بسكون على الراء فقط .

وأخذها، ومضى إلى حران فأقام بها، وصار يقرب من حلب ويبعد عنها خوفا من السلطان. وفيها عدى بنو مرين العدوة[1] لقتال الفرنج فظفروا. وفيها حج الملك المظفر يوسف بن عمر بن رسول ملك اليمن، وكسا الكعبة وتصدق بمال.

ومات فى هـذه السنة من الأعيان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادى، صاحب حلب [و] دمشق —و[هو] آخر ملوك بنى أيوب—، بعد أربعة وعشرين عاما من ملكه، واثنتين وثلاثين سنة من عمره، مقتولا بأمر هولاكو[2]. ومات الملك الصالح إسماعيل بن المجاهد شيركوه ابن القاهر محمد بن المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى، صاحب حمص، مقتولا [بأمر هولاكو[3] أيضا]. وتوفى الأديب مخلص الدين أبو العرب إسماعيل بن عمر بن يوسف بن قرناص الحموى.

✦

سنة ستين وستمائة. فى ثانى المحرم وصل السلطان من دمشق. واشتد الغلاء بدمشق، فبلغت الغرارة القمح أربعمائة وخمسين درهما فضة، وهلك خلق كثير من الجوع.

(١) بغير ضبط فى س، وقد أطلق المؤرخون هذا الاسم — ويقال بر العدوة أيضا — على الشاطئ المراكشى لبوغاز جبل طارق، ويستعمل لفظ عدوة فى مراكش الحالية بمعنى شاطئ نهر، ويسمى قسما مدينة فاس القديمة باسم العدوتين. انظر (G. - Demombynes : Masalik el Abṣār, p. 137. N. 1.).

(٢) تقـدم ذكر وقوع الملك الناصر هـذا وأخيه الملك الظاهر غازى وغيرهما فى يد التتر، وإرسالهم جميعا الى هولاكو بتـبريز. (انظر ص ٤٢٧، سطر ١). ويفهم مما يلى هنا سطر ٢٠، أن الناصر رأى وقت ذاك أن السـلامة لا تكون إلا باظهار الميل الى التتر، فأعلن أنه لاجىء بحمى هولاكو ورحمته، ولذا أقبل عليه هولاكو وعلى من معـه، ووعده برده الى مملكته. أما سبب قتـله، نقلا عن أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٧، فى Rec. Hist. Or. I.)، فهو أنه "لما بلغ هولاكو كسرة عسكره بعين جالوت وقتـل كتبغا، ثم كسرة عسـكره على حمص ثانيا، غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر يوسف، الذى كان قد التجأ اليه ... وأحضر معه أخاه الملك الظاهر غازى، وقال له: أنت قلت إن عسكر الشام فى طاعتك، فغدرت بى وقتلت المغـل. فقال له الملك الناصر: لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك بالسيف، ومن يكون بتوريز كيف يحكم على من بالشام؟ فاسـتوفى (كذا) هولاكو لعنه الله ياجيا (une flèche أى سهم أو نبـلة أو رمح) وضربه به. فقال له الناصر: يا خوند! الصنيعة! فنهاه أخوه الظاهر وقال: قد حضرت. ثم رماه [هولاكو] بفردة ثانيـة فقتله، ثم أمر بضرب رقاب الباقين، فقتلوا الظاهر أخا الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص، والجماعة الذين كانوا معهم".

(٣) انظر الحاشية السابقة.

و[فيه] سار قرابغا[(١)] مقــدم التتار من بغــداد — وكان قد استخلفه هولاكو عليها عند عوده إلى بلاد الشرق — يريد لقاء الخليفــة المســتنصر بالله ومحاربته[(٢)]، فنهب الأنبار وقتل جميع من فيها ، وتلاحقت به بقية التتار من بغداد . ولقيهم الخليفــة وقد رتّب عسكره : فجعل التركمان والعرب فى جناحى العسكر ، واختص جماعة جعلهم فى القلب ، وحمل بنفسه على التتار فكسر مقدّمتهــم ، وخذله العــرب والتركمان فلم يقاتلوا . وخرج كمين للتتار ففــر العرب والتركمان ، وأحاط التتار بمن بقى معه فلم يفلت منهــم سوى الأمير أبى العباس أحمد الذى قدم الى مصر وتلقب بالحاكم بالله ، والأمير ناصر الدين بن مهنا ، والأمير ناصر الدين ابن صيرم، والأمير سابق الدين بوزبا الصيرفى[(٣)] ، والأمير أسد الدين محمود، فى نحو الخمســين من الأجناد . ولم يعرف للخليفــة خبر : فيقال قتل بالمعركة فى ثالث المحرم ، ويقال بل نجا مجروحا فى طائفة من العرب فــات عندهم . وكانت هذه الواقعة فى العشر الأول من المحرم، فكانت خلافته دون السنة . وبلغت نفقة الملك الظاهر على الخليفــة والملوك المواصلة ألف ألف دينار وستين ألف دينار عينا .

واستقر الملك الصالح عماد الدين اسماعيل[بن بدر الدين لؤلؤ] فى مملكته بالموصل، وسار أخواه إسحاق وعلىّ إلى الشام خوفا من التتار،وقدما على السلطان بقلعة الجبل فأبرّ مقدمهما، وسألاه فى تجهيز نجدة لأخيهما[(٤)] . فرسم [السلطان] بتجريد الأمير شمس الدين ســنقر الرومى

(١) مضبوط على منطوقه فى (Quatremére : Op. Cit . I. l. p. 17I) .

(٢) كان قرابغا ، نقــلا عن (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 368)، قائدا عاما على الجيوش التترية بسائر العراق العــربى ؛ أما القائد الذى اســتخلفه هولاكو على بغداد فاسمــه بهادرعلى (Bahdir Ali) ، وقد سار القائدان معا لملاقاة الخليفة المستنصر على الأنبار ، كما يلى بالمتن .

(٣) فى س "الصيرمى" .

(٤) كان رحيل الملك الصالح هذا قبلا الى حضرة السلطان بيبرس (انظر ص ٤٦٠ ، سطر ٧) قد أغضب أهل الموصــل والمندوب التترى المقيم بها . وكان ممن خرج من الموصل لتوديع الملك الصالح وقت ذاك أحد قواده واسمه علم الدين سنجر، فلما رجع هذا القائد الى الموصل منعه المندوب التترى من دخول المدينة . ثم استطاع علم الدين أن يدخلها مع رجاله خفية ، واضطر المندوب التترى الى الجوء الى القلعة ، وتلا ذلك إيقاع علم الدين بالمسيحيين و بكنائسهم =

فى جماعة من البحرية والحلقة ، وساروا من القاهرة فى (١١٩ ب) رابع جمادى الأولى . وكتب إلى دمشق بخروج عسكرها صحبة الأمير علاء الدين الحاج طيبرس، فسار العسكران من دمشق فى عاشر جمادى الآخرة .

وفوض السلطان وزارة دمشق لعز الدين عبد العزيز بن وداعة . وتسلم نواب السلطان قلعة البيرة . ووقع الصلح بين السلطان وبين الملك المغيث صاحب الكرك . وباشر السلطان عرض عساكر مصر بنفسه ، وحلفهم لولى عهده الملك السعيد ناصر الدين خاقان بركه خان .

وفى يوم الأحد ثانى عشرى صفر، وصل الأمير أبو العباس أحمد الذى تلقب بالحاكم بأمر الله إلى دمشق، وخرج منها يريد مصر فى يوم الخميس سادس عشريه ، فوصل الى ظاهر القاهرة فى سابع عشرى شهر ربيع الأول . فاحتفل السلطان للقائه، وأنزله فى البرج الكبير داخل قلعة الجبل (١) ، ورتب له ما يحتاج اليه . وفى نصف رجب قدم جماعة من البغاددة مماليك الخليفة [المستعصم] (٢)، الذين تأخروا بالعراق بعد قتل الخليفة ، ومقدمهم الأمير سيف الدين سلار (٣) . فأكرمهم السلطان ، وأعطى الأمير سلار إمرة خمسين فى الشام ونصف مدينة نابلس، ثم نقله إلى إمرة طبلخاناه بمصر . وفيها أطلق السلطان الأمير

= وأديرتهم . وبينما الموصل ماثجة بتلك الحركة الانتقامية ، وصلها جيش تترى على رأسه قائد مسيحى اسمه صندغون (Sandaghoun)، فحاصرها وأخذ يعدّ العدّة لهدم الثورة بها . ثم جاء الى ذلك القائد أن الملك الصالح قد عاد من مصر وأنه على مقربة من الموصل يريد الدخول إليها ، فرفع الحصار عنها وانتحى موضعا خفيا حتى دخلها الملك الصالح ، وعاد بعدئذ الى حصارها ونصب عليها خمسة وعشرين منجنيقا . عند ذلك أرسل الملك الصالح يطلب نجدة السلطان بيبرس ، كما بالمتن هنا وفى ص ٤٧٥ . راجع (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٩٤ ، وما بعدها ؛ . (D'Ohsson : Op. Cit. pp. 370 et seq.

(١) انظر ص ٤٦٢ ، حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء. (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٨ ، فى .Rec. Hist. Or. I) .

(٣) أصل هذا الأمير مملوك قبشاق من قبيلة دوروت (Dourout)، وقد اشتراه الخليفة الظاهر العباسى (٦٢٢ — ٦٢٣ هـ)، وترقى فى خدمته حتى أصبح فى عهده واليا على واسط والكوفة والحلة، وظل كذلك حتى آخر عهد المستعصم ووقوع بغداد فى يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ. عندذلك انضم الأمير سلار بما كان لديه من العسكر الى =

سيف الدين قلج البغدادى المستنصرى من الاعتقال ، وكان قد اعتقله ، فمنّ عليه وأذن له فى لعب الكرة معه[(١)] .

وفى شعبان قدم الأمير سيف الدين الكرزى[(٢)] ، والقاضى أصيل الدين خواجا إمام ، من عند الأنبرور ملك الفرنج بكتابه[(٣)] . ثم قدم رسوله بهدية ومعه نفران من البحرية[(٤)] ، فاعتقلا بقلعة الجزيرة تجاه مصر . وقدم الأمير شرف الدين الجاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى ، من عند صاحب الروم — وهو السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ومعهما رسل المذكور [وهما الأمير ناصر الدين نصر الله بن كوح رسلان[(٥)] أمير حاجب والصدر صدر الدين الأخلاطى] ، وكتابه المتضمن أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان ، وسيّر

= جيش والى شستر ، وظن أنه يستطيع معه محاربة التتر . فخاب ظنه ولجأ الى بلاد الحجاز ، وامتنع من الذهاب الى حضرة هولاكو رغم الوعود التى وصلته منه بارجاعه الى ولاياته بالعراق ، ثم جاء الى مصر بناء على طلب السلطان بيبرس وإلحاحه . (D'Ohsson : Op. Cit. III. pp. 375-377) .

(١) قبالة هذه العبارة فى س أرقام مرسومة هكذا $\frac{٣}{٣٣}$ ، ويظهر أن المقريزى قصد بهذه الأرقام أن يشير الى الشهر والسنة التى وصل فيها الى هذا الشطر من كتاب السلوك ، أى ربيع الأول سنة ٨٣٣ هـ .

(٢) كذا فى س ، بنقطة تحت الكاف لعلها إشارة الى وجوب ضبط هذا الحرف بالكسر ، وقد ورد هذا الاسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) برسم "الكردى" .

(٣) هذان الرسولان هما اللذان كانا قد ذهبا قبلا الى الإمبراطور بهدية السلطان بيبرس ، التى كان من محتوياتها زراف (انظر ص ٤٦٣ ، حاشية ٢) ، وقد ذكر ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب) أخبار ما حدث للرسولين فى بلاد الإمبراطور ، ونصه مصححا : "أن الأنبرور اهتم بهما اهتماما عظيما وتجمل لهما تجملا عظيما ، وأعرضت (كذا) عليه الهدية فأعجبته الزرافة إعجابا عظيما ، ورأى من التحف ما أذهله وملأ عينه . وقرىء عليه كتاب السلطان إحدى عشرة مرة وهو يردده ويتفهمه ، وأحسن الى الرسل غاية الإحسان ، وجهز رسولا وهدية فيما بعد ، وكانت هدية لاتحصى" .

(٤) يفهم مما جاء فى ابن واصل فى هذا الصدد (نفس المرجع والصفحة) أن هذين البحريين كانا ممن ذهب مع الهدية التى أرسلها بيبرس إلى الإمبراطور ، وأنهما أساءا الأدب هناك ، فأعادهما الإمبراطور مع رسول من عنده إلى مصر ، كما بالمتن . "فلما شاهدهما السلطان أمر بتأديبهما ، لأنه بلغه سوء اعتمادهما ، فسيرهما الى قلعة الجزيرة يعملان فيها مقيدين" . وقد علق ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) على تلك العقوبة بالآتى : "وفى ذلك تأديب وحسن سياسة وردع للمتعدى ، وحفظ (فى الأصل وحفظا) لناموس السلطنة وإقامة لحرمة المملكة" .

(٥) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠٠ ب — ٤٠١ أ) .

دُرُوجًا[1] فيها علائم[2] بما يُقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمّره، وسأل أن يكتب له [السلطان] منشورا[3] [قرين منشوره][4]. فأكرمهم السلطان، وشرع فى تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم، و[أمر] بكتابة[5] المناشير[6] . وعين [السلطان] الأمير ناصر الدين أعلمش[7] السلاح دار الصالحى لتقدمة العسكر ومعه ثلثمائة فارس ، وأقطعه إقطاعا ببلاد الروم منه آمد وبلادها .

و[فى شهر رجب][8] قدم الأمير عماد الدين بن مظفر الدين صاحب صهيون، رسولا من جهة أخيه الأمير سيف الدين، وصحبته هدية . (١٢٠ أ) فأكرمه السلطان وكتب له منشورا بإمرة ثلاثين فى حلب، ومنشورا آخر بإمرة مائة فى بلاد الروم. و[فى هذا التاريخ][9] ورد كتاب ملك الروم ، بأن العدو هولاكو لما بلغه اتفاق الروم مع السلطان خاف من هيبته وولى هاربا، وأنه سيّر إلى قونية يحاصرها ليأخذها[10] من أخيه . و[فى هذا التاريخ][11]

(١) الدروج جمع درج ، وهو كما عرفه القلقشندى (صبح الأعشى، ج١ ، ص١٣٨) "الورق المستطيل المركب من عدّة أوصال، وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير" ، وكان يكتب فيه و يلف . (محيط المحيط) .

(٢) العلائم جمع علامة ، وقد تقدّم شرحها فى ص ٣٤٤ ، حاشية ١ .

(٣) فى س "منشور" . والراجح أن المقصود بلفظ المنشور هنا كل ما يصدر عن سلطان أو ملك من المكاتبات ، مما لا يحتاج إلى ختم ، كالمكتوب بالولاية والمكتوب بالحماية والمكتوب بالإقطاع أيضا . انظر القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١٥٧) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠١ أ) .

(٥) فى س "كتابه" وقد أضيف حرف الجر ، وما بين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠١ أ) .

(٦) المناشير جمع منشور ، ومعنى المنشور هنا ما يكتب فى الإقطاعات خاصة ، وقد جرى الاصطلاح بهذا التخصيص فى عهد دولة المماليك بمصر ، وقبلها كان المكتوب بالإقطاع معروفا بالتوقيع فى أيام الأيوبيين ، وبالسجل فى أيام الفاطميين ، وبالمقاطعة فى الدولة الإسلامية زمن العباسيين ، وبالقطيعة فيما سبق ذلك . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٣ ، ص ١١٨ — ١٥٧) .

(٧) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 176.) هذا الاسم الى (Ogulmusch) ، وهو فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠١ أ) "اعلمس" .

(٨ و ٩) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠١ أ — ب) .

(١٠) انظر ص ٤٠٨ ، سطر ٣ .

(١١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٠١ ب) .

قدم كتّاب الملك المنصور صاحب حماة، وصحبته قصاد من التتار معهم فرمان(١) له ، فشكره السلطان على ذلك، واعتقل التتار . وفى(٢) [هذا التاريخ] سار الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار بعسكر الى بلاد الصعيد، وأوقع بالعربان و بدّد شملهم ، وذلك أنهم كثر طمعهم وهمّوا بتغيير الممالك، و وثبوا على الأمير عز الدين الهواش والى قوص وقتلوه .

و [فى شـعبان](٣) كثر قدوم العزيزية والناصرية الذين كانوا صحبة الأمير البرلى، فأكرمهم السلطان وعفا عنهـم . و(٤) [فى هذه المدّة وصل الأمير فارس الدين أقوش المسعودى ، الذى كان قد توجه رسولا الى الأشكرى . وكان] الأشكرى قد بعث يطلب(٥) من السلطان بطركا للنصارى الملكية، فعين الرشيد الكحال لذلك، وسيّره اليه مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودى فى عدّة من الأساقفة . فلما وصلوا اليه أكرمهم وأعطاهم، وأوقف الأمير أقوش على جامع بناه بالقسطنطينية ليكون فى صحيفة السلطان ثوابه . وعاد الأمير أقوش وصحبته البطرك المذكور، فقدّم البطرك ما ورد على يده من هـدية الأشكرى للسلطان ، وقدّم أيضا ما حصـل له من المـال، فرد السلطان ذلك عليـه . وجهز السلطان برسم جامع قسطنطينية الحصر العَبَّدَانى(٦)،

(١) الفرمان فى اللغة ما يصـدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء والقصاد ، يعلن فيـها تنصيبهـم ومأمور يتهم، والجمع فرمانات وفرامين وفرامة . (Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ محيط المحيط) . ويظهر أن هؤلاء القصاد كانوا قد حضروا الى الملك المنصور من قبل التتار ليرسلهم الى السلطان بيبرس، وأن فرمانه كان لتعريف السلطان بيبرس بهم .

(٢) فى س "وفيها"، وقد أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٢ أ) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) .

(٤، ٥) فى س "و بعث الاشكرى يطلب ..."، وقد عدلت الجملة وأضيف مابين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) . هذا والأشكرى المقصود هنا هو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus)، وهو الذى أعاد الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية تلك السنة (Camb. Med. Hist. IV. pp. 507 et seq.)، وقد صادف وصول الأمير فارس الدين الى حضرته بعد ذلك بقليل . (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٤٠٢ أ) .

(٦) بغـير ضبط فى س، والنسبة الى عبادان — فيقال عبادانى وعبدانى وعبادى أيضا ، وهى بلد جنوبى البصرة قرب الخليج الفارسى، وتقع فى جزيرة محاطة بمياه مصبات دجلة والفرات، وكانت مشهورة بصنع الحصر . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٩٧ وما بعدها، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

والقناديل المذهبة والستور المرقومة، والمباخر والسجادات [إلى غير ذلك من البسط الرومية][1]، والعود والعنبر والمسك وماء الورد. وفيها أغار الأمير شمس الدين سنقر الرومى على أنطاكية، ونازل صاحبها البرنس[2] وأحرق الميناء بما فيها من المراكب، وكان معه [الملك الأشرف موسى] صاحب حمص، [والملك المنصور][3] صاحب حماة. ثم حاصر السويداء، واستولى عليها وقتل وأسر وعاد، فوصل إلى القاهرة يوم الخميس لليلة بقيت من شهر رمضان، وصحبته من الأسرى نحو مائتين وخمسين أسيرا. فأكرمه السلطان، وأحسن إلى الأمراء، وسير الخلع إلى الملكين المذكورين.

وفى ثالث شهر رمضان عزل السلطان قاضى القضاة برهان الدين السنجارى عن قضاء مصر والوجه القبلى، وأعاد قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، فصار بيده قضاء القضاة بديار مصر كلها. وكان متشددا فى أحكامه، فرسم له فى ذى القعدة أن يستنيب عنه مدرسى المدرسة الصالحية من الحنفية والمالكية (١٢٠ ب) والحنابلة، فاستنابهم فى الحكم عنه، ولم يعرف ذلك بمصر قبل هذا الوقت: فجلس القاضى صدر الدين سليمان الحنفى، والقاضى شرف الدين عمر السبكى المالكى، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى، فى أول ذى القعدة وحكموا بين الناس بمذاهبهم. وفى رابعه قبض على الأمير علاء الدين الحاج طيبرس الوزيرى نائب الشام، وحمل إلى مصر فاعتقل بقلعة الجبل، وكانت مدة نيابته سنة وشهرا. وحكم فى دمشق بعده الأمير علاء الدين أيدغدى الحاج الركنى إلى أن يحضر نائب.

---

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٢ ب). (٢) هذا تعريب واضح للفظ (prince) أى أمير، وكان أمير أنطاكية تلك السنة بوهمند السادس (Bohemond VI of Antioch)، وهو من أولئك الصليبيين الذين رأوا أن مصادقة التتر هى الوسيلة الباقية لمناوأة القوى الإسلامية بالشام، ولذلك كان بيبرس يتحين الفرص لمحاربته. فلما هدأت أمور حلب على يد الأمير شمس الدين سنقر الرومى المذكور، أمره السلطان بالإغارة على أنطاكية، وقد رافقه الى تلك الغارة الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص، كما بالمتن. (ابن واصل: نفس المرجع، ص ٤٠٣ أ؛ أبو الفداء: المختصر فى أخبار البشر، ص ١٤٨، فى Rec. Hist. Or. I).

(٣) انظر الحاشية السابقة.

وفيها كثر الإرجاف فى دمشق بحركة التتار، فكتب السلطان برحيل أهل الشام بأهاليهم الى مصر . فحضر من تلك البـلاد خلق كثير، بعد ما كتب [السلطان] إلى الولاة بتخفيرهم(١)، وألا يؤخذ منهـم مكس ولا زكاة، ولا يُتعرض لمـا معهم من متجر ولا غيره، ولا تُفش تجارة(٢)، فاعتمد ذلك . وكتب [السلطان] إلى حلب بتحريق الأعشاب، فسيرت(٣) جماعة إلى بلاد آمد وغيرها وحرقت الأعشاب التى كانت بالمروج التى [جرت] عادة هولاكو أن ينزلها . فعمّت النـار مسيرة عشرة أيام حتى صارت كلها رمادا، وعمّ الحـريق بلاد خلاط، وقُطع السنبل وهو أخضر .

و[فيها] خرجت الكشّافة(٤) من دمشق وغيرها، فظفروا بكثير من التتار يريدون القـدوم الى مصر مستأمنين . وقـد كان الملك بركه بعثهم نجـدة الى هولاكو، فلما وقع بينهما كتب يستدعيهم إليه، ويأمرهم إن تعذّر عليهم اللحاق به أن يصيروا إلى عساكر مصر . وكان سبب عداوة بركه وهولاكو أن وقعة كانت بينهما(٥)، قُتل فيهـا ولد هولاكو وكُسر عسـكره وتمزقوا

(١) فى س "لتحفيرهم" .

(٢) فى س "نفش محاره" .

(٣) فى س "فسير" .

(٤) الكشافة جمع كشاف، ومعناها هنـا فئة معينة من العسكر، وكان عملها الخـروج لكشف أخبار العدو . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 180. N. 61).

(٥) توجد أقوال كثيرة فى تعليل سبب العداوة بين هولاكو و بركه، ومنها عدا ما ورد بالمتن أن بركه لم يرض عما فعله هولاكو ببلاد المسلمين وأنه عنفه لقتله الخليفة المستعصم، ومنها أن تأسيس دولة هولاكو بفارس لم يرق فى عين بركه ولاسيما بعد إدماج بلاد أرّان وآذربيجان داخل حدودها، مع أنهما كانتا من إرث جوشى أبى بركه حسب وصية جنكزخان . (Enc. Isl. Art. Berke) . هذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص١٠١، وما بعدها) أن العداوة بين هولاكو و بركه نشأت من عدم مظاهرة بركه للخان الأعظم قوبيلاى، وانتصاره لأخ صغير اسمه (Arigha-Buga) . ولهـذا القول نصيب من الاعتبار، لأن المعروف أن بركه اعترف بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر . انظـر (Enc. Isl. Art. Berke) ; (D'Ohsson ; Op. Cit. III. pp. 377 et seq. . وقـد ذكر ابن أبى الفضائل (نفس المرجع، ص ١٠٢، وما بعـدها) سببا ثانيا لتلك العداوة قد لا يقل عن سابقه فى القيمة، وهو أن هولاكو كان منـذ صار بركه ملكا على مغول القبشاق قـد منع عن ذلك الفرع المغولى نصيبه المعتاد من مغانم الحروب، وهـذا نص ما جاء فى المرجع المـذكور : " ومما نقله الصاحب عز الدين بن شدّاد فى سيرة الملك =

فى البلاد، وصار هولاكو إلى قلعة بوسط بحيرة آذربيجان محصورا بها . فلما بلغ ذلك السلطان سُرّ به، وفرح الناس باشتغال هولاكو عن قصد بلاد الشام . وكتب [السلطان] إلى النوّاب بإكرام الوافدية من التتار، والإقامة لهم بما يحتاجون اليه من العليق والغنم وغيره؛ وسيرت اليهم الخلع والإنعامات والسكر ونحوه. وساروا الى القاهرة، فخرج السلطان الى لقائهم فى سادس عشرى ذى الحجة ولم يتأخر أحد عن مشاهدتهم، فتلقاهم وأنزلهم فى دور بنيت لهم فى اللوق(1) ظاهر القاهرة، وعمل لهم دعوة عظيمة هناك، وبعث اليهم الخلع والخيول والأموال. وأمّر [السلطان] أكابرهم، ونزل باقيهم فى جملة البحرية؛ وكانوا مائتى فارس بأهاليهم، فحسنت حالهم، ودخلوا فى الإسلام(2).

= الظاهر [بيبرس] لما نقل هذه السنة، وسبب الخلف الذى وقع بين التتار، قال حكى لى علاء الدين بن عبد الله البغدادى أحد أصحاب الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدوادار، قال أخذونى (كذا) التتار أسيرا من بغداد لما (١٠٣) أخذوها (كذا) التتار، وكنت قد عدت عندهم مختلطا بهم ومتطلعا على أخبارهم . فلما كانت سنة ستين وستمائة ورد من عند بركه [خان] رسولان ، أحدهما يسمى بلاغيا والآخر ططرشاه ، برسالة ضمنها ما جرت به العادة ، ومن جملتها حمل ما جرت به العادة الى بيت باتو [خان]، مما كانوا يحملونه من فتوح البلاد . وكانت العادة أن يجمع [التتر] ما يحصل فى البلاد التى يملكونها ويستولون (فى الأصل يستولوا) عليها من نهر جيحون مغرّبا فيقسم خمسة أقسام، قسمان للقان الكبير وقسمان للعسكر وقسم لبيت باتو [خان] . فلما مات باتو وجلس بركه على التخت منع هولاوون (كذا) قسمه ، فبعث بركه رسله إلى هولاوون وبعث فيهم سحرة يفسدون (فى الأصل يفسدوا) سحرة هولاوون . وكان عند هولاوون ساحر يسمى (١٠٤) يكشا ، فأعطوه هدية بعثها بركه اليه ، وسألوه أن يوافقهم على غرضهم فاتفق معهم . وكان هولاوون [قد] جعل لهؤلاء الرسل من يخدمهم ، وجعل فى الجملة ساحرة تسمى كمشا لتطلعه على أخبارهم . فلما علمت أخبارهم أخبرته بذلك ، فأمر بالقبض عليهم فى قلعة تلا ، ثم قتلهم بعد خمسة عشر يوما من قبضهم ، وقتل الساحر الذى كان له المسمى يكشا . فلما بلغ بركه قتل رسله وسحرته أظهر العداوة لهولاوون ، وبعث رسله إلى الملك الظاهر [بيبرس] يحرضه على اجتماع الكلمة على بيت هولاوون...» .

(١) كانت أراضى اللوق هذا ، حسبما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١١٧) بساتين ومزروعات، ليس فيها من الأبنية سوى ماكان قد عمره بها القاضى الفاضل لنفسه ، فكان مجىء أولئك التتار سببا لبناء دور للسكن بها لأول مرة . وقد تكاثر الوافدون من التتر بعد ذلك على مصر، نتيجة حسن معاملة السلطان بيبرس لإخوانهم السابقين ، فأدى تكاثرهم الى زيادة العمارة بأرض اللوق . (انظر الحاشية التالية) .

(٢) توجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١١٧ — ١١٨) تفصيلات أوفى عما اتفق لهؤلاء التتر ومن جاء بعدهم الى مصر، ومنها يتبين أن أعدادا كثيرة منهم اندمجت فى سلك المماليك وحييت حياتهم الحربية، وهذا نصها : «فأعطى [السلطان] كبراءهم إمريات ، فمنهم من عمله أمير مائة ومنهم دون ذلك ، ونزل بقيتهم من جملة =

وكتب [السلطان] الى الملك بركه كتابا ، وسيره مع الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كسريك[(١)] .

وفيها (١٢١ أ) سار صَندغُون[(٢)] مقدم التتار الى الموصل ، ونصب عليها خمســة وعشرين منجنيقا ، ولم يكن بها ســلاح ولا قوت فاشــتد الغلاء . وحاصرها [صندغون] حتى خرج اليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك الرحيم [بدر الدين] لؤلؤ الأتابكى ، فى يوم الجمعة النصف من شعبان ، فقبض عليه وعلى من معه . ووقع التخريب فى سور المدينة وقد اطمأن أهلها ، ثم اقتحموها ووضعوا السيف فى الناس تسعة أيام ، ووسّطوا علاء الدين[(٣)] بن الملك الصالح ، ونهبوا المدينة وقتــلوا الرجال وأسروا النساء والذرية ، وهدموا المبانى وتركوها بلاقع ، ورحلوا بالملك الصالح إسماعيل ، ثم قتلوه [(٤)وهم فى طريقهم الى هولاكو] .

وفيها خرج الأمير شمس الدين أقوش البُرْلى[(٥)] من حلب نجــدة للملك الصالح ، فأدركه التتار بسنجار وواقعوه ، فانهزم منهم الى البيرة فى رابع عشر جمــادى الآخرة . ثم اســتأذن[(٦)] [الأميرُ

= البحرية ، وصار كل منهم من سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان ، وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم ، وكثرت نعمهــم وتظاهروا بدين الإسلام . فلما (١١٨) بلغ التتار ما فعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه منهم جماعة ، وهو يقابلهم بمــزيد الإحسان ، فتكاثروا بديار مصر ، وتزايدت العمائر باللوق وما حوله . وفى سادس ذى الحجة من ســنة إحدى وستين [وستمائة] قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلاثمائة فارس ، فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهاليهم وأولادهم " .

(١) كذا فى س . انظــر ما يلى (ص ٤٧٩ ، سطر ١٤) ، حيث سمى المقريزى هذا الأمير باسم سيف الدين كشتك ، وهو مترجم الى (Keschtek) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 181) .

(٢) فى س "صدغون" بنقط الغين من تحتها ، وبغير ضبط . راجع ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٩٤) . وقد تقدمت الإشارة الى سبب مسير هذا القائد التترى الى الموصل تلك السنة . انظر ص ٤٦٧ ، حاشية ٤

(٣) كان عمر علاء الدين هذا تلك السنة ثلاث سنين ، وقد ســقاه التتر خمرا قبل قتله ، ثم وســطوه بحبل قوس شدّوه حول وسطه حتى انقطع جسمه نصفين . (D'Ohsson. Op. Cit. III. p. 374) .

(٤) أضيف ما بين القوســين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ، ص ٩٤) ، وهناك رواية أخرى فى مصرع الملك الصــالح ، وهى أنه وصل فعلا الى حضرة هولاكو فأمر بوضعه فى جلدشاة ، وتركه فيها معرضا لحرارة الشمس مدّة شهر كامل ، حتى مات . (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 374) .

(٥) مضبوط هكذا فى س . (٦) فى س "واستاذن".

شمس الدين السلطانَ] فى العبور إلى مصر، فأذن له وسار الى القاهرة فدخلها أوّل ذى القعدة، فأنعم عليه السلطان وأقطعه إمرة سبعين فارسا . وولى [السلطان] بعده نيابة حلب الأمير عزالدين أيدمر الشهابى، فواقع أهل سيس وأخذ منهم جماعة، و بعثهم إلى مصر فوُسِّطوا.

وفيها وفد على السلطان بعيد كسرة المستنصر شيوخ عبادة وخفاجة، من هيت والأنبار إلى الحلة والكوفة(١)، وكبيرهم خضر بن بدران بن مقلد بن سليمان بن مهارش العبادى، وشهرى(٢) ابن أحمد الخفاجى، ومقبل بن سالم، وعياش بن حديثة، ووشاح، وغيرهم . فأنعم السلطان عليهم وكانوا له عينا على التتار .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبى نصر محمد بن الناصر لدين الله أبى العباس أحمد العباسى، قتيلا فى المعركة قريبا من هيت . وتوفى شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم بن الحسن المهذب السلمى الشافعى، عن اثنتين وستين سنة، فى......(٣) . وتوفى الصاحب كمال الدين أبو القاسم عمر بن نجم الدين أبى الحسن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن العديم الحنفى بالقاهرة(٤)، عن نيف وستين سنة . وتوفى الأديب محيى الدين أبو العز يوسف بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن زبلاق الهاشمى الموصلى الأديب الشاعر الكاتب، قتيلا بالموصل، عن سبع وخمسين سنة .

(١) يلاحظ أن هذه البلاد كانت حتى مقتل الخليفة المستعصم بيد الأمير شمس الدين سلار، وهو الذى جاء الى السلطان بيبرس قبلا فأكرمه وأحسن اليه . (انظر ص ٤٦٨، حاشية ٣) . وقد كتب الأمير شمس الدين بعد ذلك الى من تأخر من خشداشيته والى أصحابه من خفاجة، وأخبرهم بما ناله من الإحسان على يد السلطان (ابن واصل : نفس المرجع، ص ٤٠٠ ا)، فلحقوا به كما بالمتن .

(٢) كذا فى س .

(٣) بياض فى س، وقد ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٨ ب) أنه توفى بمصر .

(٤) جاء فى (Enc. Isl. Art. Kamal al Din) أن الصاحب كمال الدين ابن العديم، وهو مؤلف كتاب تاريخ حلب المشهور، كان قد هرب مع الناصر صاحب حلب من وجه التتر إلى القاهرة . ثم استدعاه هولاكو إلى الشام ليوليه قضاء القضاة بها، غير أن ظل مقيما بالقاهرة حتى مات .

* * *

سنة إحدى وستين وستمائة . فى الخميس ثامن المحرم جلس الملك الظاهر مجلسا عاما جمع فيــه الناس، وحضره التتار الذين وفدوا من العراق والرسل المتوجهون الى الملك بركه . وجاء الأمير أبو العباس أحمد بن أبى بكر على بن أبى بكر بن أحمد بن المسترشد بالله العباسى، وهو راكب ، الى الإيوان الكبير بقلعــة الجبل . وجلس الى جانب السلطان ، وقُرئ نسبه على النـــاس بعد ما ثبت على قاضى القضـــاة تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، ولُقِّب بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين[1] ، وتولى قراءة نسبه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر كاتب السر . فلمــا ثبت ذلك مدّ السلطان يده و بايعه على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وجهــاد أعداء الله، وأخذ أموال الله بحقهــا وصرفها فى مستحقها ، والوفاء بالعهود و إقامة الحــدود، وما يجب على الأئمة فعــله فى أمور الدين وحراسة المسلمين . فلما تمت البيعة أقبل [الخليفة] على السلطان وقلده أمور البلاد والعباد، وجعــل إليه تدبير الخلق ، وأقامه قَسيمه فى القيام بالحق ، وفوض اليه سائر الأمور ، وعدق[2] به صلاح الجمهور . ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم فى مبايعتــه ، فلم يبق ملك ولا أمير ولا وزير ولا قاض ولا (١٢١ ب) مشير ولا جندى ولا فقيــه إلا و بايعه . فلما تمت البيعة تحدث السلطان معه فى إنفاذ الرسل الى الملك بركه، وانفض الناس .

فلما كان يوم الجمعــة ثانى هذا اليوم، اجتمع النـــاس وحضر الرسل المذكورون، و برز الخليفة الحاكم بأمر الله وعليه سواده، وصعد المنبر لخطبة الجمعة فقال : "الحمد لله الذى أقام لآل العباس ركنا وظهيرا ، وجعل لهم من لديه سلطانا نصيرا . أحمده على السراء والضراء ، وأستنصره على دفع الأعداء . وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمــدا

(١) ليس فى ما يقابل هذه العبارة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص١٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. I.)، تشكيك فى صحة نسبة هذا الخليفة كتشكيكه السابق بصدد الخليفة المستنصر، (انظر ص ٤٥٠ ، حاشية ٢)، على أن عبارته لم تخل من الغمز، وهذا نصها "وفى أواخر ذى الحجــة من هذه السنة جلس الملك الظاهر مجلسا عاما، وأحضر شخصا... من نسل بنى العباس يسمى أحمد، بعــد أن أثبت نسبه، و بايعه بالخلافة . ولقب أحمــد المذكور الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ..." .

(٢) كذا فى س .

عبده ورسوله صلى الله عليه، وعلى آله وصحبه نجوم الاهتداء وأئمة الاقتداء الأربعة الخلفاء، وعلى العباس عمه وكاشف غمه أبى السادة الخلفاء الراشدين[1] والأئمة المهذبين، وعلى بقية الصحابة التابعين لهم بإحسان الى يوم الدين . أيها الناس! اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام، والجهاد محتوم على جميع الأنام، ولا يقوم عَلَم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد، ولا سُبيت الحُرَم إلا بانتهاك المحارم، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم . فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين دخلوا دار السلام[2] ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأبطال والأطفال ، وهتكوا حرم الخليفة والحريم، وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل، وعَلَت الضجّات من هول ذلك اليوم الطويل . فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه، وكم طفل بكا فلم يرحم لبكائه . فشمِّروا عن ساق الاجتهاد فى إحياء فرض الجهاد ﴿وَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ . فلم تبق معذرة عن القعود عن أعداء الدين، والمحاماة عن المسلمين" .

"وهذا السلطان الملك الظاهر ، السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط ركن الدنيا والدين ، قد قام بنصر الإمامة عند قلة الأنصار ، وشرّد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار . فأصبحت البيعة باهتمامه منتظمة العقود ، والدولة العباسية به متكاثرة الجنود . فبادِروا عباد الله الى شكر هذه النعمة ، وأخلِصوا نياتكم تُنصروا ، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا . ولا يُرَوِّعنكم ما جرى ، (١٢٢ ا)[3] فالحرب سجال والعاقبة للتقين ، والدهر يومان والأخرى للمؤمنين . جمع الله على التقوى أمركم، وأعزّ بالإيمان نصركم، وأستغفرُ الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم " .

وجلس [الخليفة] جلسة الاستراحة، ثم قام للخطبة الثانية وقال : "الحمد لله حمدا يقوم

(١) كذا فى س، ، والمقصود بالسادة الخلفاء الراشدين هنا بنو العباس .

(٢) المقصود بهذا بغداد، والإشارة الى سقوطها فى يد التتار .

(٣) يوجد بهامش هذه الصفحة فى س ، علامة مكتوبة هكذا ٣٣ ، ولعلها إشارة أخرى الى السنة التى وصل المقريزى فيها الى هذا الشطر من السلوك، أى سنة ٨٣٣ هـ . (انظر ص ٤٣٨ ، حاشية ٥ ؛ ص ٤٦٩ ، حاشية ١) .

بشكر نعمائه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له عدة للقائه، وأشهد أن محمدا سيد رسله وأنبيائه، صلى الله عليــه وعلى آله وصحبــه عدد ما خلق فى أرضه وسمائه . أوصيكم عباد الله بتقوى الله، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديّان : يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فى شَيْءٍ فَرُدُّوه الى اللهِ والرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا . نفعنا الله وإياكم بكتابه، وأجزل لنا ولكم من ثوابه، وغفر لى ولكم وللمسلمين أجمعين، والحمــد لله رب العالمين(١) " . ثم نزل [الخليفــة] وصلى بالناس صلاة الجمعة، وانصرف .

وفى هــذا اليوم خُطب على منابر القاهرة ومصر بالدعاء للخليفة الحاكم بأمر الله، وكُتب الى الأعمال بذلك، فخطب له بدمشق فى يوم الجمعة سادس عشره . وقد قيل فى نسبه إنه أبو العباس أحمــد بن الأمير محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحســن بن على القُبّى(٢) بن الحسن ابن أمير المؤمنين الراشد بن المسترشد ؛ وهو الخليفة التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، وليس فيهم بعد السفاح والمنصور من ليس أبوه وجده خليفة غيره، وأما من ليس أبوه خليفة فكثير .

وتجهز الفقيه مجد الدين والأمير سيف الدين كشْ تك(٣) ، وكُتب على يدهما كتب بأحوال الإسلام ومبايعة الخليفة، واستمالة الملك بركه وحثــه على الجهاد ، ووصف عساكر المسلمين وكثرتهم وعدة أجناسهم ، وما فيها من خيــل(٤) وتركمان وعشائر وأكراد ، ومن وافقها وهاداها

---

(١) يوجد نص هذين الخطبتين فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٠ أ — ب) .

(٢) كذا فى س، بضم القاف فقط . ولعل هذه النسبة مأخوذة من قبة الحمار، وهى دار أنشأها الخليفة المكتفى بالله فى بغداد ، وقــد سميت بذلك الاسم لأنه كان يصعد إليها على حمار له . هذا وقــد كانت بلدة الرحبة تعرف باسم قبة الكوفة ، ومن هذه التسمية خرّج ياقوت (معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٣٣) تلك النسبة .

(٣) كذا فى س، وقد تقدّم ذكر هذا الأمير باسم "كسر يك"، (انظر ص ٤٧٥ ، سطر ٢)، وهو وارد بهذا الرسم المتقدّم من غير نقط فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٠٩ أ)، وأصله حسبما جاء فى نفس المرجع والصفحة، "رجل تركى كان جدار خوارزم شاه، له معرفة بالبلاد وخبرة بالألسنة" .

(٤) فى س "حيل"، وفى ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) "خيل تركمان"، بغير واو بين اللفظين أو نقط البتة .

وهادنها، وأنها كلها[١] سامعة مطيعة [لإشارته، إلى غير ذلك من] الإغراء بهلاون وتهوين أمره والإشلاء عليه وتقبيح فعله، ونحو ذلك. وجهز [السلطان] معهما أيضا نسخة نسبة الخليفة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُذْهِبَت وكتب فيها الإسجال بثبوتها. وجُمعت الأمراء والمفاردة[٢] وغيرهم وقرئت عليهم الكتب، وسلمت الى الرسل. وسُير معهما نفران من التتر أصحاب الملك بركه ليعرفاهما[٣] بالطرق، وساروا فى الطرائد ومعهم زوادة أشهر. فوصلوا الى الأشكرى فقام بخدمتهم، واتفق وصول رسل[٤] الملك بركه اليه (١٢٢ ب) فسيّرهم صحبته. وعاد الفقيه مجد الدين لمرض نزل به، ومعه كتاب الأشكرى بمسير الأمير سيف الدين ورفقته. وسار الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى الى نيابة دمشق، ومعه الصاحب عز الدين عبد العزيز بن وداعة وزير دمشق، وعلى يده تذاكر[٥] شريفة بعد ما خلع عليهما.

وفى سابع ربيع الآخر سار السلطان من قلعة الجبل إلى بلاد الشام، ونزل خارج القاهرة. ورحل فى حادى عشره، ودام الصيد إلى أن دخل غزة، بعد ما ضرب حلقة بثلاثة آلاف

---

(١) عبارة المقريزى هنا غير مستقيمة، ونصها: "وانها كلها سامعه مطيعه واغرائه بهلاورن ..."، وقد عدلت وأضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة).

(٢) جمع مفردى، والمفاردة نوع من عساكر حلقة السلطان. ويظهر أنهم أفردوا بهذه التسمية لتبعيتهم مباشرة لديوان المفرد، وهو ديوان يرجع تأسيسه الى أيام الفاطميين، وكانت تخرج منه فى زمن الدولة المملوكية نفقة المماليك السلطانية من جامكيات وعليق وكسوة. (انظر القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٧؛ ابن شاهين: زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧؛ Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 187. n. 66; G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. P. XXXIII).

(٣) فى س "ليعرفهما".

(٤) الرسل، كما هو مضبوط بالمتن، الجماعة والقطيع من كل شىء، وجمعه أرسال. (محيط المحيط).

(٥) التذاكر جمع تذكرة، وهى كما يدل عليها معناها اللفظى كل مكتوب يصدر من السلطان الى نوابه بالأقاليم المصرية ونيابات الشام، أو إلى قصاده الذين يرسلهم فى مهام الدولة، لتذكرتهم بتفاصيل مايوكل إليهم، وليكون بمثابة ورقة اعتماد وحجة عند الجهات التى يقصدونها. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ١٣، ص ٧٩ — ١٠٤). انظر أيضا (G.-Demombynes : Op. Cit. Introd. P. LXX)، حيث ترجم لفظ تذكرة الى (note résumée)؛ وقد ترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 188. N. 68) الى (un acte, un rescrit émané du prince).

فارس فى العريش، فوقع فيها صـيد كثير جدا . وتقطّر(١) الأمير شمس الدين سنقر الرومى [عن فرسه]، فسار السلطان اليه ونزل عنده، وجعل رأسه على ركبته وأخرج من خريطتـه مُومِيا(٢) وسقاه، وأخذه معه الى خيمته . وتقطر الأمير سيف الدين قلاون، فاعتمد [السلطان] معه مثل ذلك .

وقدم عليه فى غزة جماعة منهم أم الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب صاحب الكرك ، فانعم عليها إنعـاما كثيرا وأعطى سائر من كان معها، [وحصـل الحديث فى حضور ولدها(٣) إلى السلطان]، وعادت إلى ابنها بالكرك . ومن جمـلة ما زوّدها به [السلطان] من صـيده خمسة عشر حملا ، وسار معها الأمير شرف الدين الجـاكى المهنمدار، برسم تجهـيز الإقامات للملك المغيث إذا حضر . ونظر السلطان فى أمر التركمان، وخلع على أمرائهم وعلى أمراء [العربان من](٤) العابد(٥) وجرم وثعلبة، وضمّنهم البلاد وألزمهم القيام بالعِداد(٦)، وشرط عليهم خدمة البريد وإحضار الخيل برسمه . وكتب إلى ملك شـيراز وأهـل تلك الديار، وإلى عرب خفاجة، يسـتحثهم على قتال هولاكو ملك التتار، وأن الأخبار قد وردت من البحر بكسر الملك بركه له غير مرة .

(١) كذا فى س، وقد دأب الناشر على إصلاح هذا الفعل الى "تقنطر" فيما سبق من الصفحات، على أن الصيغة الموجودة بالمتن هنا واردة فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، مقرونة باستشهاد على صحتها فى اللغة العربية الفصحى .

(٢) الموميا — وهى لفظة يونانية الأصل — مادة دواء يسـتعمل شربا ومروخا وضمادا، ويستخدم كثيرا لجبر العظام المكسورة . وهى مادة تنحـدر من بعض الجبال مع المـاء، وتفوح منها وهى جامدة رائحة مثل رائحة الزفت . وتطلق الموميا أيضا على الدواء المعروف بقفر اليهود، وعلى حجارة سود فيها تجويف توجد فى صنعاء اليمن، وتكسر هذه الحجارة فيوجد فى تجويفها ماء سائل أسـود، فتغلى الحجـارة والسائل فى الزيت لتقذف جميع ما فيها من تلك الرطوبة السوداء السيالة . (محيط المحيط، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٢ ب) .

(٤) أضيف ما بين الأقواس من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٢ ب) .

(٥) فى س "العابد" . راجع القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٥، ٢١١) .

(٦) العداد هنا زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية، وفى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 189. N. 69) أمثلة لتوضيح هـذه الزكاة، منها أنه كان يحصل من التركمان "فى كل سـنة عشرات آلاف من الغنم، تؤخذ منهم عن زكاة أغنامهم، يقال لها العداد" . (انظر أيضا محيط المحيط) .

ثم رحل [السلطان] من غزة [إلى جهة الساحل]، ونزل الطور فى ثانى عشر جمادى الأولى، وقدم [اليه هناك] الملك الأشرف صاحب حمص فى خامس عشره بإذن [منه] (١). فتلقاه السلطان وأكرمه، وبعث إليه سبعين غزالا فى دفعة واحدة، وقال : "هذا صيد يومنا هذا، جعلته لك". وخرج [إليه] الملك المغيث من الكرك، بعد ما كاتبه الملك الظاهر يستدعيه وهو يسوّف به. فأظهر السلطان من الاحتفال به شيئا كثيرا، وخدعه أعظم خديعة، وكتم أمره عن كل أحد. فلما وصل [المغيث] بيسان ركب السلطان إلى لقائه فى سادس عشرى جمادى الأولى، ووافاه فى أحسن زىّ. فعندما التقيا ساق الملك المغيث إلى جانب السلطان، فسار به إلى (١٢٣ ا) الدهليز السلطانى، ودخلا إلى خركاه، وللوقت قَبض عليه. وأحضر [السلطانُ] الملوكَ والأمراء، وقاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان — وكان قد استدعاه من دمشق، والشهود والأجناد ورسل الفرنج. وأخرج [السلطان] إليهم كُتُب الملك المغيث إلى التتار وكُتُب التتار اليه، وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله، وأحضر أيضا القصاد الذين كانوا يسفرون بينه وبين هولاكو. ثم قال (٢) الأميرُ الأتابكُ لمن حضر : "السلطان الملك الظاهر (٣) يسلم عليكم، ويقول ما أخذتُ الملك المغيث إلا بهذا السبب"، وقرئت الكتب المذكورة عليهم. فكُتب (٤) بصورة الحال، وأثبت القضاة خطوطهم فى المكتوب، وانفض الجمع. وجلس السلطان وأمر فكتب إلى من بالكرك يعدهم ويحذرهم، وسير الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير عز الدين الأستادار، بالكتب والخلع والأموال إلى الكرك. وأرسل الملك المغيث عِشاءً الى مصر مع الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى السلاح دار،

(١) أضيف ما بين الأقواس فى هذه الفقرة كلها من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ ا).

(٢) فى س "وقال".

(٣) فى س "الملك الظاهر السلطان".

(٤) كانت هذه الكتب حسبما ورد فى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٣ ب) أجوبة كتب من الملك المغيث "مضمونها شكر هلاوون ملك التتر منه، واعتداده باعتزايه (كذا) إليه، ويعده بوعود حسنة، ويقول فى أمور منها قد أقطعتك من بصرى إلى غزة، ويقول قد عرفت ما أشار إليه من طلب عشرين ألف فارس يسيرها إليه يفتح بها مصر، ويعده بارسالها ويوصيه على أمور جمة".

فسار به الى قلعة الجبل وسجنه بها، وأطلق [السلطان] حواشـيه، وبعث بحريمه إلى مصر، وأطلق لهم الرواتب .

ولما خلا بال السلطان من همّ الملك المغيث، توجه بكليّته إلى الفرنج: فإنهم [كانوا قد] شرعوا فى التعلل وطلبوا زرعين، فأجابهم السـلطان " بأنكم تعوضتم عنهـا فى الأيام الناصرية ضياعا من مرج عيون "[1]، [وهم لا يزدادون إلّا شكوى . وآخر الحال طلب الفرنج من والى غزة كتابا بتمكين رسـلهم إذا حضروا[2]، فكتب لهم الكتاب، وتواصلت بعد ذلك كتبهم]. ووردت كتب النواب بشكواهم، وأنهم قد اعتمدوا أمورا تفسخ الهدنة . فلما صار السلطان فى وسط بلادهم وردت عليه[3] كتبهم، وفيها: " ماعرفنا بوصول السلطان ". فكتب[4] إليهم: "من يريد [أن] يتولى أمرا ينبغى أن يكون فيه يقظة، ومن خفى عنه خروج هذه العساكر، وجهل ما علمته الوحوش فى الفلاة والحيتان فى الميـاه، من كثرتها التى [لعل] بيوتكم ما فيها موضع إلا ويُكْنَسُ منه التراب الذى أثارته خيل هذه العساكر، ولعلّ وقع سنابكها قد أصمّ أسماع من وراء البحر من الفرنج، ومن فى مُوقان[5] من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها الى أبواب بيـوتكم ولا تدرون، فأى شيء تعلمون؟ [وماذا تحيطون به علمـا؟ ولِمَ لا أعطيتم لوالى غزة الكتاب الذى كنا سيرناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر؟" فقال الرسول:

---

(١) وقعت تلك المفاوضات الأولى، حسبما سبق وروده هنا، سنة ٦٥٩ هـ . (انظر ص ٤٤٦، سطر ٥) .

(٢) عبارة السلوك هنا مختصرة جدا، وتنقصها بعض حقائق لازمة لفهم تسلسل الحوادث، وقـد أضيف مابين الأقواس فى هذه الفقرة وما يليها من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٤ أ — ب) .

(٣) فى س " عليهم " .

(٤) يفهـم من ابن واصل (نفس المرجع والصفحة) أنه لمـا وصلت كتب شكاوى النواب من تعـدى الفرنج ومن عدم احترامهم للهدنة القائمة، أجاب السلطان الظاهر بأنه سيحقق تلك الأمور جميعا عند مجيئه الى الشام، وأشار بدعوة الفرنج الى حضرته من أجل ذلك . فلمـا جاء الى الشام ورد إليه رسـول من الفرنج وهنأه بسـلامة الوصول، وقال له بأن الفرنج لم يعرفوا بمجيئه، وكان جواب السلطان للرسـول كما يلى بالمتن . و يلاحظ أن المفهوم من عبارة المقريزى هنا أن ذلك كله حدث بالمكاتبة .

(٥) بغير ضبط فى س، وهى إحدى أقسام آذربيجان، و يطلق عليها أهلها موغان أيضا، و بها مروج كثيرة تحتلها التركمان للرعى . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٦٨٦) .

" نسينا ، وما علمنا كيف عُدِم . فكان الجواب : " إذا نسيتم هـذا فأى شىء تذكرون ؟ وإذا ضيّعتموه فأى شىء تحفظون؟" وانفصل الحال على هذا] . ووصلت نوّاب يافا ونوّاب أرسوف بهدية ، فأخذت منهم [تطمينا لقلوبهم ، وتسكينا لهم . هذا] و[قد] أمر السلطان ألا ينزل أحد فى زرع الفـرنج ولا يسيب فرسا ، ولا يؤذى لهم ورقة خضراء، ولا يتعـرض إلى شىء من مواشيهم ولا إلى (١٢٣ ب) أحد من فلاحيهم .

وكانت كتبهم أولا ترد بندمهـم على الهدنة وطلبهم فسخها ، فلمـا قرب السلطان منهم صارت ترد بأنهم باقون على العهد متمسكون بأذيال المواثيق (١) .

وفى اليوم الذى قُبض فيه على الملك المغيث، أمر السلطان بإحضار بيوت (٢) الفرنجية وقال: " ما تقولون؟ " قالوا : " نتمسك بالهدنة التى بيننا" . فقال [السلطان] : " لمَ لا كان هـذا قبـل حضورنا الى هذا المكان ، وإنفاق الأموال التى لو جرت لكانت بحارا ؟ ونحن [لمـا حضرنا الى هاهنا] ما آذينا لكم زرعا ولا غيره ، [ولا نَهب لكم مال ولا ماشية ، ولا أسر لكم (٣)

(١) انظر ملحق رقم ١ فى آخر هذا الجـزء ، وهو نص لمضمون كتب وردت الى السلطان بيبرس من عند مقدم هيئة الفرسان الاسبتارية تلك السنة ، وجواب السلطان عليها .

(٢) المقصود بالبيوت هنـا الدويلات الصليبية الباقية بالشام ، مثـل بيت الاسبتار وبيت الداوية وإمارة يافا وإمارة أنطاكية . وفى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٤ أ) مثل على هـذا الاستعمال ، ونصه : " ولمـا استقل ركاب الملك الظاهر وسار الى وسـط بلاد الفرنج ، ورد رسول منهـم يذكرون أن البيوت يقبلون الأرض ويهنون بالسـلامة ... " . على أن تسمية الدويلات الصليبية باسم " البيوت " له معناه ، فإن بيتى الإسبتارية والداوية كانا قـد أصبحا — فى تلك الأيام الباقية للصليبيين بالشرق — القوة الحربية التى يعتد بهـا هناك . ولقد كان من بين الرسـل الفرنج الذين جاءوا لحضرة السلطان تلك السنة ، واحد من قبـل (Hugh Revel) رئيس الاسبتار ، وآخر من عند (Thomas Bernard) رئيس الداوية . انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. pp. 258-259) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٥ أ) . وسيلاحظ القارئ كثرة الإضافات بالصفحات التاليـة ، وكلها من نفس المرجع (ص ٤١٥ أ — ٤١٦ ب) ، وسبب كثرة هـذه الإضافات أن المقريزى اختصر ما أورده هنا من هذه الوثائق اختصارا مخلا ، مع أن المقام كان يقتضى منه النقل الحرفى . على أنه ليس مفهوما تمـاما سبب اختصار المقريزى لهذه الوثائق ، وقد يكون ذلك راجع الى أن بعض الحقائق المتعلقة بهـا غير موجودة فى صلب كتاب السلوك ، أو لأن المقريزى نقل هنا من مرجع مختصر .

أسير] . وأنتم منعتم الجلب[1] والميرة عن العسكر، [وحرمتم خروج شيء من الغلات والأغنام وغير ذلك، ومن انفرد من غلمـان العسكر أسرتموه] . وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها، وسيرنا نسخة يمين [من عنـدنا] لم تحلفوا عليها، وعملتم أنتم نسخة حلفتم عليها، وشرط اليمين الأولى تتعلق بالثانيـة . وسيرنا الأسارى إلى نابلس ومنها إلى دمشق، وما سـيرتم أنتم أحدا، وكل بيت يحيل على الآخر؛ [وما سيرنا الأسارى إلا وفاء بالعهد و إقامة الحجة عليكم]. وسيرنا كمال الدين بن شيث رسولا يعلمكم بوصول الأسرى ، فلم تبعثوا أحدا، ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصـلوا الى أبواب بيوتكم ، كل ذلك حتى لا تبطل أشـغالكم من أسرى المسلمين عندكم . وأموال التجار شرطتم القيام بما أخذتموه منها، ثم قلتم ما أخذت من بلادنا وإنمـا أخذت فى أنطرسوس ، وحمـل المـال إلى خزانة [بيت] الديوية[2] والأسرى فى بيت الديوية ، فإن كانت أنطرسوس ما هى لكم فالله يحقق ذلك . ثم إنا سـيرنا رسلا الى [بلاد السلاجقة] الروم ، وكتبنا إليكم بتسفيرهم فى البحر، فأشرتم عليهم بالسفر الى قبرس [فسافروا بكتابكم وأمانكم]، فأخذوا وقيدوا وضيق عليهم، وأتلف أحدهم [على ما ذكر . فإن كان هذا برضاكم فقبيح أن يعتمدوا هذا الاعتماد] . هذا مع إحساننا إلى رسلكم [وتجاركم، والوفاء أحد أركان الملك] . وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى، وما زالت الحرب قائمة والرسل تتردد، [وما القدرة على الرسـول بشيء يسكن غيظا] . فإن كان هـذا بغير رضاكم فإنه نقص فى حرمتكم ، [وإذا كان صاحب جزيرة قبرس من أهـل ملتكم ، يخرق حرمتكم ولا يفى بعهدكم ولا يحفظ ذمامكم ولا يقبل شفاعتكم، فأى حرمة تبقى لكم وأى ذمام يوثق به منكم، وأى شفاعة تقبل عند المسلمين والفرنجية ؟] . وهل كانت الملوك [المـاضية] تقى النفوس [والرجال] والأموال إلا بحفظ الحرمة ؟ و [ما] صاحب [جزيرة] قبرس [ملك عظيم، ولا صاحب حصن منيع،

(١) الجلب هنا ما تجلبه البلاد من الأطعمة للجيوش النازلة بقربها ، ويتضح هذا المعنى من العبارة الآتية وهى من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٠٨)، ونصها : "فأرسل الله سبحانه [من]الأمطار مامنعت الجلب، فغلت الأسعار ولحق العسكر مشقة عظيمة" .

(٢) هذه صيغة أخرى للفظ الداوية . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٥ ب) .

ولا قائد جيش كثير ، ولا هو خارج عنكم . بل] أكثر تعلقاته فى عكا والساحل ، وله عندكم المراكب والتجار [والأموال والرسل]، وليس هو منفرد بنفسه، وعنده الديوية وجميع البيوت والنواب مقيمون عنده، وعنده كُنْد يافا [وغيره] . فلو كنتم لا تؤثرون ذلك كنتم قمتم جميعكم عليه، وأحطتم على كل ما يتعلق به [وأصحابه، واسترحتم من هذه الفضيحة] ، وكتبتم إلى ملوك الفرنجية وإلى البابا بما فعله . [وإذا قلتم صاحب قبرس لا يسمع منكم ولا يطيعكم، فإذا لم يسمع منكم صاحب قبرس وهو من أهل ملتكم ، فمن يسمع منكم ؟ وهل لهذه التقدمة إلا الأمر والنهى ؟ ولا سيما أنتم تقولون إن أموركم دينية، ومن ردّها عصى المعبود، ويغضب عليه المسيح . فكيف لا يعصى المعبود ويغضب المسيح على صاحب قبرس ، وهو قد ردّ أمركم وأغرى بكم وقبّح قولكم؟ وكنا لو اشتهينا أخذنا حقنا منه، وإنما الحق عندكم نحن نطلب منكم، وأنتم تطلبون منه] . وأنتم فى أيام [الملك] الصالح إسماعيل أخذتم صفد والشقيف ، على أنكم تجدونه[1] على السلطان الشهيد الملك الصالح نجم الدين [أيوب] . وخرجتم (١٢٤ أ)[2] جميعكم فى خدمته ونجدته، وجرى ماجرى من خذلانه، وقتلكم وأسركم [وأسر ملوككم وأسر مقدّميكم؛ وكل أحد يتحقق ما جرى عليكم من ذهاب الأرواح والأموال] . و[قد] انقضت تلك الدولة، ولم يؤاخذكم السلطان الشهيد عند فتوحه البلاد، وأحسن إليكم فقابلتم ذلك بأن رحتم إلى الريدا[3] فرنس، وساعدتموه وأتيتم صحبته إلى مصر، حتى جرى ما جرى من القتل والأسر. فأى مرة وفيتم فيها لمملكة مصر، أم أى حركة أفلحتم [فيها] ؟ وبالجملة فأنتم أخذتم هذه البلاد من [الملك] الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام، وطاعة ملكها ونصرته [والخروج فى خدمته، وإنفاق الأموال فى نجدته] . وقد صارت [بحمد الله] مملكة الشام وغيرها لى، وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجدتكم ، [ولم يبق لى عدو أخافه] . فردّوا ما أخذتموه من البلاد، وفكّوا أسرى المسلمين جميعهم، فإنى لا أقبل غير ذلك " .

(١) فى س "تجدوه" . (٢) يوجد بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ أ فى س ورقة ملصوقة ، فيها وفيات تابعة لسنة ٦٦١ هـ، وستورد فى مكانها المناسب فى ذيل هذه السنة .

(٣) انظر ص ٣٣٢، سطر ١٧ .

[فلمـا سمع رسل الفرنج هذه المقالة بهتوا]، وقالوا(١) : "نحن لا ننقض الهدنة، و إنمـا نطلب مراحم السلطان فى استدامتها، [ونحن] نزيل شكوى النواب، ونخرج من جميع الدعاوى] ونفك الأسرى، [ونستأنف الخدمة]" . فقال السلطان : "كان هذا قبل خروجى من مصر، فى هذا الشتاء وهذه الأمطار، ووصول العساكر [إلى هنا]" . وانفصلوا على هــذه الأمور] ، فأمر [السلطان] بإخراجهم وألا يبيتوا فى الوطاق. ووجّه الأميرَ علاء الدين طيبرس إلى كنيسة الناصرة، وكانت أجل مواطن عباداتهم و يزعمون أن دين النصرانية ظهر منها، فسار إليها وهدمها ، فلم يتجاسر أحد من الفرنج [أن] يتحـرك . ثم وجه [السلطان] الأمير بدر الدين الأيدمرى فى عسكر إلى عكا، فساروا إليها واقتحموا أبوابها وعادوا . ثم ساروا ثانيا، وأغاروا على مواشى الفرنج، وأحضروا منها شيئا كثيرا الى المخيم .

واستمر جلوس السـلطان كل يوم على باب الدهليز بصُفَّة(٢) عمرها ، من غير احتجاب عن أحد ؛ [فمن وقف له أحضره وأخذ قِصته(٣) وأنصفه(٤)] ، وهو فى أمر ونهى وعطاء وتدبير ، واستجلاب [قلوب] أهل الكرك . وقدمت رسل دار(٥) الدعوة بالهدايا، فأحسن اليهم وعادوا .

---

(١) فى س "فعالوا" .

(٢) الصفة هنا مسطبة مرتفعة تستعمل للجلوس عليها (محيط المحيط)، ومن معانيها فى (Dozy: Supp. Dict. Ar.) اللفظ الإنجليزى (sofa) أى الأريكة أو المقعد، وفى الشبه بين منطوق اللفظين العربى والإنجليزى ما يوجب الالتفات . وفى ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٦ ب) أن هذه الصفة التى عمرها السلطان بيبرس كانت مبنية بالحجر المنحوت، وعليها اسم السلطان .

(٣) القصة هى الطلب أو الالتماس (requête, placet) ، ويرفعها صاحب الحاجة أو الشكوى الى حضرة السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصة دار. وقد تكون القصة خاصة بطلب تحديد إقطاع انتهى عقده، أو بارتجاع إقطاع انتقل عن صاحبه لسبب من الأسباب، وفى مثل هذه الحالة تعرض القصة أولا على ناظر الجيش، ليكشف عنها قبل عرضها على السلطان . انظر (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٥٤، Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤١٦ ب) .

(٥) المقصــود بدار الدعوة هنـا مركز الإسماعيلية بالشـام (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 198)، وهو ثغر مصياف (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 352)، واسمه مصياب أيضا، وموقعه بالساحل قرب طرابلس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٥٦) .

وأمّر جماعة فى الشام والساحل ، وأعطى الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إقطاعا جيدا بمصر . وطلب أهلَ بلاد الساحل من الفلاحين ، وقرر عليهم أموالا سمّاها جنَايات[١] ، وألزمهم بحملها الى بيت المال ، عن ديات من قتل وليس له وارث وعما نهبوه من مال جهل مالكه . فحملت من ذلك أموال كثيرة جدا من بلاد نابلس و بلاد الساحل ، وانكسرت شوكة أهل العيث والفساد بذلك بعد ما كان الضرر عظيما بهم ، من تسلطهم على الرعية (١٢٤ ب) ونقلهم الأخبار للفرنج . فرأى [السلطان] عقوبتهم بهذا الفعل أولى من قتلهم ، فإنهم أصحاب زرع وضرع .

ولما كان ليلة السبت رابع جمادى الآخرة ، ركب السلطان وجرّد من كل عشرة فارسا ، واستناب الأمير شجاع الدين الشبلى المهمندار فى الدهليز السلطانى ، وساق من منزلة الطور نصف الليل . فصبح عكا وأطاف بها من جهة البر ، وندب جماعة لحصار برج كان قريبا منه فشرعوا فى نقبه ، وأقام [السلطان] على ذلك الى قريب المغرب وعاد . وكان قصده بذلك كشف مدينة عكا ، فإن الفرنج كانوا يزعمون أن أحدا لا يجسر أن يقرب منها ، فصاروا ينظرون من أبواب المدينة ولا يستطيعون حركة . ولما عاد السلطان الى الدهليز ركب لما أصبح ، وأركب الناس معه ، وساق الى عكا . فإذا الفرنج قد حفروا خندقا حول تل الفضول ، وجعلوا مَعاثِر[٢] فى الطريق ، ووقفوا صفوفا على التل . فلما أشرف [السلطان] عليهم رتب العسكر بنفسه ، وشرع الجميع فى ذكر الله وتهليله وتكبيره ، والسلطان يحثهم على ذلك حتى ارتفعت أصواتهم . وللوقت رُدمت الخنادق بأيدى غلمان العساكر و بمن حضر من الفقراء المجاهدين ، وصعد المسلمون فوق تل الفضول ، وقد انهزم الفرنج الى المدينة .

---

(١) الجنايات جمع جناية ، ومعناها فى الاصطلاح التاريخى ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته . (Quatremère: Op. Cit.I. 1. p. 199. N.79) . انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar.) .

(٢) ترجم (Quatremére : Op. Cit. I. 1. p. 200) هذا اللفظ الى (chausse - trapes) ، ولعل المعاثر جمع العاثور ، وهو ما يعدّ فى الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيه أحد ، وتأتى أيضا بمعنى المهلكة من الأرض ، و بمعنى البئر . (محيط المحيط) .

وامتدت الأيدى إلى ماحول عكا من الأبراج فهدمت، وحرقت الأشجار حتى انعقد الجو من دخانها . وساق العسكر إلى أبواب عكا، وقتلوا وأسروا عدّة من الفرنج فى ساعة واحدة، والسلطان قائم على رأس التل يعمل الرأى فى أخذ المدينة، والأمراء تحمل على الأبواب واحدا بعد واحد . ثم حملوا حملة واحدة ألقوا فيها الفرنج فى الخنادق، وهلك منهم جماعة فى الأبواب . فلما كان آخر النهار ساق السلطان إلى البرج الذى نُقب، وقد تَعَلّق حتى رُمى بين يديه، وأُخذ(1) منه أربعــة من الفرسان ونيف وثلاثون راجلا، وبات [السلطان على ذلك] . فلما أصبح عاد على بلاد الفرنج وكشـفها مكانا مكانا، وعبر على الناصرة حتى شاهد خراب كنيستها وقد سُوِّى بها الأرض، وصار إلى الصفة التى بناها قبالة الطور، فوافاها ليلا وجلس عليها . وأحضر الشموع(2) [التى] بالمنجنيقات ونصب عليهـا خيمة ، وأحضر الصاحب فخر الدين محمـد بن حنا وزير الصحبة ، وجماعة كتّاب الدَّرْج(3) وهم (١٢٥ أ) سـبعة : الصاحب فخر الدين بن

(١) هذا اللفظ مضبوط فى س بضم الألف فقط .

(٢) الشموع جمع شمعة ، ومعنى الشموع هنا الأعمدة الخشبية الدقيقة (mince pilier) . انظر (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) كان كتّاب الدرج من موظفى ديوان الإنشاء، وكذلك كتّاب الدست، وقد شرح القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ١٣٧ وما بعدها) عمل كل من هاتين الطبقتين من الكتّاب وعددهما فى زمنه وقبله ، و بين أصل تسميتهما أيضا، ونصه : "وأما ما استقر عليه الحال فى زماننا فكتّاب الديوان على طبقتين : الطبقة الأولى كتّاب الدست، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب، على ترتيب منازلهم بالقدمة ، و يقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم، و يوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسموا كتّاب الدست إضافة الى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه ، لجلوسهم للكتابة بين يديه . وهؤلاء هم أحق كتّاب ديوان الإنشاء باسم الموقعين لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم . و ... كانوا فى أوائل الدولة التركية ، فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها ، قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر، ثلاثة كتّاب ... ... ثم زادوا بعد ذلك قليلا الى أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا ، خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج، حتى جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد ... . (ص ١٣) الطبقة الثانية كتّاب الدرج، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتّاب الدست، أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار، ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات، ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وسموا كتّاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دروج الورق، والمراد بالدرج فى العرف =

لقمان، والصدر بدر الدين حسن الموصلى، والصدر كمال الدين أحمد بن العجمى، والصدر فتح الدين بن القيسرانى، والصدر شهاب الدين أحمد بن عبيد الله، والصدر برهان الدين. و[أحضر] كتاب الجيش، وأمر الأمير سيف الدين الزينى أمير علم[(١)] أن يجلس مع كتاب الجيش، لأجل كتابة المناشير وتجهيز الطبلخاناه، وأن يكون الأتابك بين يدى السلطان. واستدعى من الجُشارات[(٢)] بخمسمائة فرس لأجل الطبلخاناه وخيول الأمراء، وأحضرت خلع كثيرة، وأمر السلاح دارية أن يستريحوا بالنوبة ويحضروا. فلم تزل المِثالات[(٣)] والمناشير[(٤)]

= العام الورق المستطيل المركب من عدة أوصال، وهو فى عرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير ... . ويجوز أن يطلق عليهم [أى كتاب الدرج] كتاب الإنشاء، لأنهم يكتبون ما ينشأ من المكاتبات وغيرها مما تقدم ذكره، ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين، لما تقدم أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها. وكما زاد عدد كتاب الدست فى العدد زاد كتاب الدرج حتى خرجوا عن الحد، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبا ... . على أن كتاب الدست الآن هم المتصدرون لكتابة المهم من كتابة الدرج، كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير. وصار كتاب الدرج مخصوصين بالمكاتبات فى خلاص الحقوق وما فى معناها، وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب فى القطع الصغير. وربما شارك أعلاهم كتاب الدست فى التقاليد وكبار التواقيع وما فى معناهما، إذا كان حسن الخط ...". انظر أيضا القلقشندى (نفس المرجع، ج ٥، ص ٤٦٤ — ٤٦٥؛ (G.- Demombynes : Op. Cit. Index.

(١) كان صاحب هذه الوظيفة هو الذى يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبلخاناه، وسرت العادة فى أيام المماليك أن يكون المتحدث عليها من طبقة أمير عشرة. وكان هناك أيضا وظيفة علم دار، وصاحبها هو الذى يحمل العلم فى ركاب السلطان. (القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢؛ ج ٥، ص ٤٥٦، ٤٦٣).

(٢) الجشارات جمع جشار، وهو مكان رعى الماشية من خيل وغيرها. وفى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) مثل لتوضيح هذا المعنى، ونصه: "... ... وهجم على جشارهم، فأخذ منهم من الخيل أربعمائة رأس ومائة من البقر".

(٣) المثالات جمع مثال، وهو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذانا باعطاء أحد المماليك إقطاعا من الإقطاعات الخالية. وكان المثال يخرج من ديوان الجيش، ويقدمه ناظر هذا الديوان الى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان الجيش الى ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك "مربعة" فيها اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة الى ديوان الإنشاء، فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع، والمنشور آخر أدوار تلك العملية. (القلقشندى: صبح الأعشى ج ١٣، ص ١٥٣، وما بعدها؛ .(G. — Demombynes : Op. Cit. Introd. p. XLIII et seq.

(٤) انظر الحاشية السابقة، وكذلك ص ٤٧٠، حاشية ٦.

تكتب وهو يعلّم، فكُتب بين يديه تلك الليـلة ستة وخمســون منشورا كبارا بخطب لأمراء كبار . و[ظل] الصاحب فخر الدين يعلّم، وفتح الدين بن سناء الملك صاحب ديوان الجيش وصاحب ديوان الخزائن يعـلّم ، والأمير بدر الدين الخازندار واقف، والمســتوفى ينزّل، حتى كملت بين يديه . وأصبح [السلطان] فخلا بنفســه ، وجهز الطبلخاناه والســناجق والخيل والخلع الى الأمراء، وجعل الأمير ناصر الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

ورحل [السلطان] من الطور يوم الاثنين ثالث عشر جمادى الآخرة ، وسار الى القدس فوافاه يوم الجمعة سابع عشره : وكشف أحوال البلد وما يحتاج اليه المسجد من العمارة، ونظر فى الأوقاف وكتب بحمايتها ، ورتّب برسم مصالح المسجد فى كل ســنة خمسة آلاف درهم ، وأمر ببناء خان خارج البـلد ، ونقل إليه من القاهرة باب القصر المعروف بباب العيـد(١) ، ونادى بالقدس ألا ينزل أحد فى زرع .

ثم سار [الســلطان] الى الكرك فنزله يوم الخميس ثالث عشريه بعساكره ، وأحضر السلالم الخشب من الصلت وغيره، والحجارين والبنائين والنجارين والصناع من مصر ودمشق. وكتب إلى من فى الكرك فخافوا ، وترددت الرســل بينهم و بينه ، حتى اســتقر الحال على أنه يعطى الملك العزيز عثمان بن الملك المغيث إمرة مائة فارس، فأنعم بذلك . ونزل أولاد المغيث ، وقاضى المدينة وخطيبها وعدة من أهلها، ومعهم مفاتيح المدينة والقلعة ، فخلف لهم السلطان وأرضاهم؛ وسير الأمير عز الدين أيدمر الأستادار، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا، فى (١٢٥ ب) ليلة الجمعة رابع عشريه، فتسلما القلعة. وفى بكرة الجمعة دُعى للسلطان على الأسوار، ونُصبت سناجقه على الأبراج، وركب فى الساعة الثالثــة وطلع الى القلعــة ورتب أمر جيش الكرك ، وأنفق(٢) فيهم ثلاثة أشهر من خزائنه .

(١) كان ذلك الباب أحد أبواب القصر الكبير الفاطمى ، وقيل له باب العيد لأن الخليفة كان يخرج منه فى يومى العيدين إلى الصلاة . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٤٣٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥٠) .

(٢) فى س " نفق " .

واهتم [السلطان] ببلادها وعين لهـا خاصا، وزاد جماعة، وأنعم على أولاد الملك المغيث بجميع ما كان فى القلعـة من مال وقماش وأثاث . وصلى بهـا صلاة الجمعة ، ونزل قريب المغرب ، ولم يتعرض أحد من العسكر لأهلها بسـوء . وأصبح [السلطان] فبعث الى العزيز بن المغيث الخلع والقماش، وإلى الطواشى بهـاء الدين صندل، والأمير شهاب الدين صـعلوك أتابكه . وكُتب بالبشارة الى مصر والشام بأخذ الكرك ، وأن تُحمل إليه الغلات والأصـناف . وطلع [السلطان] إليها يوم الاثنين، وأحضر الدواوين ورتب الإقطاعات للعربان والأجناد، فكتب بين يديه زيادة على ثلاثمائة منشور،وسلمت لأربابها بعدما حلفوا بين يدى السلطان،وكُتبت أيضا تواقيع لأهل الكرك بمناصب دينية وديوانية . وجرّد [السلطان] بهـا عدة من البحرية والظاهرية، وحلّف مقدمى الكرك ونصاراها، وقال لأهل الكرك :" اعلموا أنكم قد أسأتم إلىّ فى الأيام المـاضية،وقد اغتفرت لكم ذلك لكونكم ماخامرتم على صاحبكم . وقد ازددت فيكم محبـة، فتناسوا الحقود" . وأحضر الأمير عبية[1] وغيره من عرب بنى مهدى[2]، وألزمهـم أدراك البـلاد وخَفّرهم إلى أرض الحجـاز . وأمر بعمارة ما يحتاج إليـه فى السور وحصّنه، وحفـر الخنـدق وأحاطه بالحصن، ولم يكن قبـل ذلك كذلك . وأشحن الحصن بالأسلحة والغلال وآلات الحرب والأقوات، ووضع فيـه مبلغ سبعين ألف دينار عينا ومائة وخمسين ألف درهم نقرة . واسـتناب بالكرك الأمير عز الدين أيدمر من ممـاليكه ، وأضاف إليـه الشوبك وأعطاه ثلاثين ألف درهم وكثيرا من القماش .

ورحل [السلطـان] الى مصر، ومعه أولاد الملك المغيث[3] وحريمه، فى يوم الأربعاء تاسع عشريه . فدخل القـاهرة فى سابع عشر رجب وقد زينت أحسن زينـة ، فشـق

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 207) هـذا الاسم إلى (Otba) ، ويعزز هذه الصيغة الثانية ابن واصـل (نفس المرجع ، ص ٤١٩ ب) ، حيث اسم هذا الأمير العربى "عتبه من بنى عقبه" . (انظر الحاشية التالية) .

(٢) المقصود هنا عرب بنى عقبة الذين كانت مسا كنهم حول الكرك، وهم أحد فروع بنى مهدى . (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٢ — ٢١٣، ٢٤٢ — ٢٤٣) .

(٣) يوجد فوق هذا اللفظ فى س إشارة إلى سقطة موجودة بهامش الصفحة، وهى "وسرف الدين" .

القصـــبة الى قلعـــة الجبـــل على شقق الحرير الأطلس والعتابى؛ وخلع على الأمراء والمقاردة والمقدمين وجميع حاشيته (١٢٦ أ) وغلمانه ومباشريه، وأعطى العزيز بن الملك المغيث إمرة مائة فارس وخلع عليه وأعطاه طبلخاناه، وأطلق لأخويه وحرم أبيـــه سائر ما يحتاجون اليه هم وغلمانهم، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين من القاهرة .

وأصبح [السلطان] فقبض على الأمير سيف الدين الرشـــيدى واعتقله . وفى تاسع عشره قبض على الأمير عز الدين أيبـــك الدمياطى والأمير شمس الدين أقوش البرلى واعتقلهـــما، فكان آخر العهد بأقوش البرلى . ولمـــا قبض [السلطان] عليهما أحسن الى مماليكهما وحواشيهما، ولم يغيّر على أحد منهـــم ولا تعرض الى بيوت الأمراء . وكان سبب تنكره على هذه الأمراء أنه [كان قد] فوّض الى الرشيدى أمر المملكة حتى تصرفت يده فى كل شىء، وأطلق له فى كل جمعة خِوَانين [من عنده] يُمدّان له حتى ماء الورد، ورتّب له فى كل شهر كَلّوتَتَين(1)

(١) هذا اللفظ مثنى كلوتة، وهى غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة، وتجمع على كلوتات وكلاوات، وتسمى أيضا كلفة وكلفتاة وكلفتة، و يقابلها فى الفرنسية لفظ (calotte) . وقد اختلف الأصوليون فى أصل هذا الاسم، فيقول بعضهم إنه من اللفظ اللاتينى (calva) أى غطاء أعلى الرأس (superior pars capitis)، و يقول آخرون إنه من لفظ لا تينى آخر هو (calautica)، كما يقول فريق ثالث إنه معرّب اللفظ الفارسى "كلوته" . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . وقد اســـتحدث سلاطين الأيو بيين لبس الكلوتة بمصر، فكانوا يلبسون الكلوتات الجوخ الصفر على رءوسهم بغـــير عمائم، وذوائب شعورهم مرخاة تحتها، وكذلك كان يفعل أمراؤهم وجندهم ومماليكهم . ولم يزل السلاطين والجند يلبسون الكلوتات الصفراء بغير عمامة الى أواسط دولة المماليك البحرية، فلما ولى السلطان المنصور قلاون السلطنة غير هذا الزى، إذ أضاف لبس الشاش على الكلوتة . وفى عهد ابنه الأشرف خليل رسم لجميع الأمراء أن يركبوا بين مماليكهم بالكلوتات الزركش، وتركت الكلوتات الجوخ الصـــفر لمن دونهم، على أنها ظلت تلبس فوق ذوائب الشـــعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولا . فلمـــا ملك السلطان النـــاصر محمد بن قلاون اســـتجد العمائم الناصرية وهى صـــغار، وحلق رأسه وحلق الأمراء رءوسهم، وتركت ذوائب الشعر . ثم حلت الكلوتات اليلبغاوية المنسوبة إلى الأمير يلبغا الخاصكى العمرى محل العمائم الناصرية، وظل الأمر على ذلك حتى عهد السلطان الظاهر برقوق أول سلاطين دولة المماليك الجراكسة، فأحدث هذا السلطان الكلوتات الجركســـية، وهى أكبر من اليلبغاوية . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥ – ٦) . ومن أغطية الرأس أيضا فى تلك الأزمنة الشربوش والطاقية، وقد تقدم وصف أولها فى ص ٢٥١، حاشية ١، و يضاف اليه هنا أن الشربوش كان يلبس عادة مع الخلع السلطانية، وفى ذلك يقول المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، =

زركش قيمة كل منهما مبلغ خمسين دينارا عينا وقيمة كلبندها[١] مبلغ أربعين دينارا ، [ورتب له برسم مشروبه اثنى عشر ألف دينار فى كل سنة[٢] . هذا] سوى ما له من الإقطاعات الجليلة والمرتبات الكثيرة ، وسوى الإنعامات وجوامك البزدارية[٣] والفهادة[٤] وعليق الخيل . فأقبل [الرشيدى] على اللهو وشرب الخمر ، وحمت حواشيه عدة بلاد ، وحدثت منه أمور لا تسر ، فأغضى عنه السلطان . فلما كان بالطور بلغه أن الرشيدى قد فسدت نيته ، فأقام عليه عيونا تحفظ كل ما يجرى منه : فبلغه عنه أنه كان يكاتب المغيث بالكرك ويحذره من القدوم على السلطان ويشير عليه ألا يسلم نفسه ، وأنه كتب الى أهل الكرك أيضا بعد القبض على المغيث يأمرهم بألا يسلموا الكرك ؛ فأسرّ [السلطان] ذلك فى نفسه إلى أن سار الى الكرك ، فبلغه عنه أنه يريد المبادرة إلى أخذ الكرك ، فسارع إليه ولاطفه

= ص ٩٩) : " وأما الخلع فإن السلطان كان إذا أمّر أحدا من الأتراك ألبسه الشربوش ، وهو شىء يشبه التاج كأنه شكل مثلث ، يجعل على الرأس بغير عمامة ... وقد بطل الشربوش فى الدولة الجركسية " . أما الطاقية فالمفهوم من المقريزى (نفس المرجع والجزء ، ص ١٠٤) أنها كانت أولا للصبيان والبنات ، ثم " كثر لبس رجال الدولة من الأمراء والمماليك والأجناد ومن يتشبه بهم للطواقى فى الدولة الجركسية ، وصاروا يلبسون الطاقية على رءوسهم بغير عمامة ، ويمرون كذلك فى الشوارع والأسواق والمواكب ، لا يرون بذلك بأسا ، بعد ما كان نزع العمامة عن الرأس عارا وفضيحة . وتنوعوا هذه الطواقى ما بين أخضر وأحمر وأزرق وغيره من الألوان ، وكانت أولا ترتفع نحو سدس ذراع ، ويعمل أعلاها مدورا مسطحا . فحدث فى أيام الملك الناصر فرج شىء عرف بالطواقى الجركسية ، يكون ارتفاع عصابة الطاقية منها نحو ثلثى ذراع ، وأعلاها مدور مقبب . وبالغوا فى تبطين الطاقية بالورق والكثيرة (كذا) ، فيما بين البطانة المباشرة للرأس والوجه الظاهر للناس ، وجعلوا من أسفل العصابة المذكورة زيقا من فرو القرض الأسود يقال له القندس ، فى عرض نحو ثمن ذراع ، يصير دائرا بجبهة الرجل وأعلى عنقه . وهم على استعمال هذا الزى الى اليوم (أى زمن المقريزى) ، وهو من أسمج ما عانوه ، ويشبه الرجال فى ذلك بالنساء " .

(١) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 211.) هذا اللفظ الى (turban) أى عمامة . غير أن المفهوم من سياق العبارة أن الكلبند هذا كان جزءا من غطاء الرأس ، سواء أكان عمامة أو كلوتة . (انظر الحاشية السابقة) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٠ ب) .

(٣) البزدارية جمع بزدار — أو بازدار — ، وقد تقدم شرح هذا اللفظ . (انظر ص ٣٦ ، حاشية ٦) .

(٤) الفهادة هم الأشخاص الموكول إليهم حراسة الفهود .

وركب[1] معه إلى الكرك وأخذها . و [بلغ السلطان[2] عنه أيضا] عدّة أمور من هـذا النحو .

وقدمت رسـل الملك بركه تطلب[3] النجدة على هولاكو — وهم الأمير جلال الدين ابن القاضى، والشيخ نور الدين[4] على، فى عدة — ، [و] يخبرون بإسلامه وإسـلام قومه، وعلى يدهم كتاب مؤرخ بأول رجب سنة إحدى وستين [وستمـائة[5]] . وقدم أيضا رسول الأشكرى ، [ورسول مقدم الجَنوية[6]، ورسل صاحب الروم السلاجقة]؛فأحسن [السلطان] الى الرسل وعمل لهم دعوة بأراضى اللوق ، وواصـل الإنعام عليهم فى يومى الثلاثاء والسبت عند اللعب فى الميدان .

وفى يوم الجمعة ثامن عشرى شعبان خطب الخليفة الحاكم بأمر الله بحضور رسل الملك بركه ، ودعا للسلطان وللملك بركه فى الخطبة، وصلى بالناس صـلاة الجمعة ، واجتمع بالسلطان وبالرسل فى مهمات أمور الإسلام .

وفى ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان سأل [السلطانُ] الملكُ الظاهر الخليفةَ الحاكم

(١) فى س " وركب به معه " .

(٢) أضيف مابين القوسين بعد مراجعة ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٢٠ ا — ٤٢٢ ا) حيث هذه الأخبار واردة بتفصيل أكثر، ومن ضمنها شرح سبب غضب السلطان على البرلى والدمياطى .

(٣) فى س " بطلب " .

(٤) اسم هذين الأميرين فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٠) جلال الدين ابن قاضى توقات، وعز الدين التركانى .

(٥) أورد ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ا — ب) مضمون هذا الكتاب ، وهـذا نص عبارته : " وقرىء كتاب الملك بركه ، [و] مضمونه الشكر والحمـد وطلب الإنجاد على هلاوون ، وإنى قدمت أنا وإخوتى لحربه من سائر الجهات ، لإقامة منار الإسلام، وإعادة مواطن الهدى الى ما كانت عليه من العمارة وذكر الله والأذان والقراءة والصـلاة ، وأخذ ثأر الأئمة والأمة . ويلتمس إنفاذ جماعة من العسكر الى جهة الفرات لمسك الطريق على هلاوون (٤٢٢ ب) ، ويوصى على صاحب الروم " . هـذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السـديد ، ص ١١٠ ، وما بعدها) مضمون لتلك الرسالة أيضا ، وهو لايخرج فى معناه عن ملخص ابن واصل .

(٦) أضيف ما بين القوسين من ابن واصـل (نفس المرجع، ص ٤٢٢ ا)، والجنوية أهل مدينة جنوة . انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٠٥).

(١٢٦ ب) بأمر الله : " هل لبس الفتوة من أحد من أهل بيته الطاهرين أو من أوليائهم المتقين ؟ " فقال : " لا " ، والتمس من السلطان أن يصل سببه[1] بهذا المقصود . فلم يمكن السلطان إلا طاعته المفترضة ، وأن يمنحه ما كان ابن عمه رضى الله عنه [قد] افترضه . ولبس [الخليفة] فى الليلة المذكورة بحضور من يُعتبر حضوره فى مثل ذلك ، و باشر اللبس الأتابك فارس الدين أقطاى بطريق الوكالة عن السلطان ، بحق لبسه[2] عن الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ولدِ الإمام الظاهرِ — وأبوه لجده الناصر [لدين الله] — والناصر لعبد الجبار ، لعلى ابن دُغيم[3] ، لعبد الله بن الفير[4] ، لعمر بن الرصاص ، لأبى بكر بن الجحيش ، لحسن بن الساربار[5] ، لبقاء بن الطباخ ، لنفيس العلوى ، لأبى هاشم بن أبى حية ، لعمر بن ألبس ، لأبى على الصوفى ، لمهنا العلوى ، للقائد عيسى ، لأمير وهران ، لرؤبة الفارسى ، للملك أبى كاليجار ، لأبى الحسن النجار ، لفضل الفرقاشى ، للقائد شبل بن المكدم ، لأبى الفضل القرشى ، للأمير حسان ، لجوشن الفزارى ، للأمير هلال النبهانى ، لأبى مسلم الخراسانى ، لأبى العز النقيب ، لعوف الغسانى[6] ، لحافظ الكندى ، لأبى على النوبى ، لسلمان الفارسى ، للإمام الطاهر النقى التقى على بن

---

(١) كذا فى س ، و يقابل هذه العبارة فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ما نصه : " والتمس من السلطان أن يصل نسبته هذا المقصود " .

(٢) الضمير هنا عائد على السلطان ، وقد تقدمت الإشارة الى لبس السلطان بيبرس لباس الفتوة على يد الخليفة المستنصر بالله (انظر ص ٤٥٩ ، حاشية ٥) ، والمفهوم من سياق العبارة هنا أن بيبرس أصبح رئيس الفتوة بعد موت الخليفة المذكور عند هيت . (راجع ص ٤٦٧ ، سطر ٩) .

(٣) كذا فى س بضم الدال فقط . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) ، حيث صحح هذا الاسم من مثل الصيغة الواردة هنا بالمتن الى " زعيم " .

(٤) كذا فى س . انظر نفس المؤلف والمرجع والصفحة ، حيث صحح هذا الاسم من " القير " الى " العين " .

(٥) كذا فى س ، وهو وارد بمثل هذا الرسم فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ، بغير نقط البتة ، وقد أورده بن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٥) " الشرابدار " .

(٦) فى س " العانى " ، وقد نقطه كاتب نسخة ب (١٥٢ ب) وصيره " القبانى " ، والصيغة المثبتة هنا من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤) ، أما فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) فقد ورد هذا اللفظ برسم " العسانى " .

أبى طالب رضى الله عنـه[١] . وحمـل السلطان[٢] إلى الخليفـة من الملابس لأجل ذلك ما يليق بجــــلاله .

وفى الليــلة الثانية حضر رسل الملك بركه إلى قلعة الجبــل ، وألبسهم الخليفة بتفويض الوكالة للأتابك ، وحمــل اليهم من الملابس ما يليق بمثلهم . وجهز السلطان هدية[٣] جليلة للملك بركه ، وكتب جواب كتابه[٤] فى قَطْع النصف فى سبعين ورقة بغدادية[٥] بخط محيي الدين بن

---

(١) سيلاحظ القارئ تجنب الضبط بسائر هذه الفقرة ، والسبب هو أنه يوجد خلاف واضح بين صيغ معظم الأسماء والأنساب كما هى واردة هنا ، و بين كل مما يقابلها فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤١٢ أ) ، وابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٨٤ — ٨٥) .

(٢) فى س : " وحمل اله السلطان من الملابس " .

(٣) احتوت هــذه الهدية ، على حدّ تعبير ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ، " من كل شىء على اختلافه " ، وكان من جملتها " ختمة شريفة يذكر أنها خط عثمان بن عفان رضى الله عنه ، بغلاف أطلس مزركش ، ضمن درج أحمر أدم مبطن بعتابى ، وكرسى لها أبنوس وعاج مخرم بسقط فضة ، ومعها هدية عظيمة مالا توصف (كذا) . ومن جمــلة الهدية سيوف وملحور يه (كذا) باسقاط ذهب وفضة وهى عدد كثير ، ومن الدبابيس والقسى الحلق (كذا) الدمشقية جملة كثيرة ، ومن قسى البندق بأوتارها عدة كثيرة . ومن جملة الهــدية قناديل كبار مذهبة شىء كثير ، ومن الجوارى الطباخات جماعة ، ومن الخيل الجياد الســبق عدد كثير ، ومن الدواب الفره التى لا تلحق عدد كثير ، وأصناف كثيرة ما ذكرناها لطول شرحها " . والغالب ان الأصناف التى لم يذكرها ابن واصــل "لطول شرحها" ، هى المذكورة فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ، ص ١١١ ، وما بعدها) ، وهذا نص عبارته : " وكان من جملة الهدية ، من الوحوش الغريبة فى تلك الأرض : فيــل و زرافة وقرود ، وحمير وحشــية عتابية وهجن وحمير مصرية ، و جملة كثيرة من ملبوس ومصاغ وشمعدانات فضة وحصر عبدانية ، وأمتعة وأوانى صينى ، وثياب سكندرية (ص ١١٢) ومن عمل دار الطراز ، وسكرنبات وسكر بياض شيئا كثيرا " .

(٤) يوجد فى ابن واصــل (نفس المرجع ، ص ٤٢٢ ب) ملخص لجواب السلطان بيبرس ، وهذا نص العبارة كلها : " وكتب الملك الظاهر جواب الملك بركه فى ســبعين و رقة بغــدادية ، من الأحاديث النبوية والآيات من القرآن الكريم ، فى الترغيب فى الجهاد وفى مصر وما ورد فيها من الأحاديث النبوية والآيات ، وقتال المشركين ، وفيه من ذكر مواطن العبادات ومواضع الزيارات فى سائر الشام . وجمع فى هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والإغراء على هلاون ، و إظهار الميل اليــه ، و وصف جنود الديار المصرية وماهى عليــه وأهلها من حب الجهاد فى سبيل الله تعالى ، وأنها موافقة له فى نصرة الإسلام ، الى غير ذلك من الأمور الملوكية والأحوال الجهادية ، ما لا جمع فى كتاب " .

(٥) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة ، وكان مخصوصا لكتابة المصاحف ، ولا يستعمل فيما عدا ذلك من أغراض الكتابة سوى مكاتبة كبار الملوك . و يوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٤٧٦ ، =

عبد الظاهر، و[هو الذى] قرأه على السلطان بحضور الأمراء . وسُلِّمت الهدية للأمير فارس الدين أقوش المسعودى، والشريف عماد الدين الهاشمى؛ فسارا فى طريدة بحرية فيها عدة رماة وجَرْخية(١) وزراقين(٢)، وأشحنت بالأزودة لمدة سنة، وسارا فى سابع عشره . وخرجت النجابة الى مكة والمدينة بأن يدعى للملك بركه ويعتمر عنه، وأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر بمكة والمدينة والقدس وبمصر والقاهرة، بعد الدعاء للسلطان الملك الظاهر .

(١٢٧ ا) وفى سادس شوال توجه السلطان إلى جهة الإسكندرية، فأقام بتَرُوجة(٣) أياما، ودخل البرّية وضرب حلقة فوقع فيها كثير من الصيد . واهتمّ [السلطان] بأمر المياه، وولى أمرها الأمير شجاع الدين الزاهدى أحد الحجاب، وأحضر من الإسكندرية الرجال لحفر الآبار

= وما بعدها) فصل فى أسماء وأجناس الورق المستعمل للكتابة فى الدول الإسلامية، ونصه : " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى، وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة، وربما استعمله كتاب الإنشاء فى مكاتبات القانات ونحوها ... . ودونه فى الرتبة الشامى وهو على نوعين، نوع يعرف بالحموى وهو دون القطع البغدادى، و[نوع] دونه فى القدر وهو المعروف بالشامى وقطعه دون القطع الحموى . ودونهما فى الرتبة الورق المصرى وهو أيضا على قطعين، القطع المنصورى وقطع العادة، والمنصورى أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا، أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمى فى عرف الوراقين المصلوح ... " . هذا وقد كان هناك نوعان من الورق البغدادى : أحدهما " قطع البغدادى الكامل، وعرض درجه ... ذراع واحد بذراع القماش المصرى، وطول كل وصل من الدرج المذكور ذراع ونصف بالذراع المذكور. وفيه كان (كذا) تكتب عهود الخلفاء وبيعاتهم، وفيه تكتب الآن عهود أكابر الملوك والمكاتبات الى الطبقة العليا من الملوك، كأكابر القانات من ملوك الشرق"، فيكون هذا النوع هو البغدادى المذكور هنا . أما النوع الثانى فاسمه "قطع البغدادى الناقص، وعرض درجه دون عرض البغدادى الكامل بأربعة أصابع مطبوقة، وفيه يكتب للطبقة الثانية من الملوك، وربما كتب فيه للطبقة العليا لإعواز البغدادى الكامل " . (نفس المؤلف والمرجع، ج ٦، ص ١٩٠، وما بعدها) .

(١) الجرخية جمع جرخى أى رامى الجرخ، ويقابل الجرخ فى الفرنسية لفظ (arbaléte) أى البندق . انظر (Dozy Supp. Dict. Ar.)

(٢) جمع زراق، ومعناه هنا رامى النفط من الزراقة، ويقابل لفظ الزراقة فى (Ibid : Op. Cit) العبارة التفسيرية الآتية : (le tube avec lequelle on lançait le naphte)، أى الأنبوبة التى يزرق بها النفط .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى قرية من كورة البحيرة (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٤٥)، وهى الآن موضع خرب فى الجنوب الغربى من دمنهور . (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٠ ص ٢٢) .

ونزحها . ثم سار [السـلطان] من تروجة إلى الإسكندرية ، وكان الصـاحب بهـاء الدين ابن حنا قد سبق إليها وحصل جملا كثيرة من المـال : منها حمل بلغ خمسة وتسعين لفة من القماش السكندرى ، [ولم يعامل أحدا من أهلها بغير العدل]، ولم يضرب بها أحدا [بمقرعة] (١). فضرب السلطان خيامه (٢) ظاهر المدينة ، ونادى ألا يقيم بالثغر جندى ولا ينزل أحد فى دار .

وفى يوم الخميس مستهل ذى القعدة دخل [السلطان] إلى المدينة من باب رشيد ، فتلقاه الناس [بالسرور والفرح والدعاء] (٣) . واستدعى [السلطان] بالخزائن والأمتعة ، وشرع فى تعبئـة ما يعبيه للأمراء على قدر مراتبهم ، ورسم بمكتوب بردّ مال السهمين (٤) وصـلة أرزاق الفقراء ، وسامح بمـا كان يؤخذ من أهل الإسكندرية وهو ربع دينار عن كل قنطار يباع من ... ... (٥) . ولعب بالكرة وخلع على الأمراء ، وأعطى الأتابك ثلاثة آلاف دينـار ، وأعطى الأمراء على [حسب] مراتبهم ؛ وركب لزيارة الشـيخ المعتقـد محمد بن منصور ابن يحيى أبى القاسم القَبّارى (٦) ، فلم يمكنه من الطلوع اليه ولم يكلمه إلا وهو فى البسـتان والشيخ فى عِلّيته ؛ ثم مضى لزيارة الشيخ الشاطبى .

وحضر الى السلطان رجلان من أهل الثغر : أحدهما يقال له ابن البورى والآخر يعـرف بالمكرم بن الزيات ، ومعهما أوراق تتضمن استخراج أموال ضائعة . فاسـتدعى السلطان فى يوم الثلاثاء سادسه الأتابك والصاحب والقضاة والفقهاء ، وأمر فقرئت الأوراق وصار

---

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٢) فى س " خامه " .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٢٤ أ) ، وقد كان ابن واصل حاضرا ذلك كله ، وعبارته فى هذا الصدد أكثر تفصيلا مما هنا . انظر (نفس المرجع ، ص ٤٢٣ ب) .

(٤) كذا فى س .

(٥) بياض فى ص يسع كلمة واحدة لعلها "البهار" ، فإنه كان أهم متاجر أهل الإسكندرية فى تلك العصور .

(٦) مضبوط هكذا فى س ، ويظهر أن النسبة الى قبار (fossoyeur) ، وهو الرجل الذى يتولى حفر القبور ودفن الأموات . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . هذا وفى محيط المحيط أن القبار هم عمال الصـيد الذين يجتمعون "لجرّ ما فى الشباك من الصيد " .

كلما ذكر له باب مظلمة سدّه ويعود على المذكورين بالإنكار، حتى انتهت القراءة . فقال : "اعلموا أنى تركت لله تعالى ستمائة ألف دينار، من التصقيع[1] والتقويم والراجل والعبد والجارية وتقـويم النخل[2] ، فعوضنى الله من الحلال أكثر من ذلك؛ وطلبت جرائد الحساب فزادت بعد حط المظالم جملة ، ومن ترك شيئا لله عوّضه الله خيرا" ؛ وأمر بإشهار ابن البورى .

وفى سابعه قدم البريد من البيرة وحلب بأن جماعة مستأمنـة وردت الى الباب العزيز ، [عدّتها] فوق الألف وثلثمائة فارس (١٢٧ ب) من المغل والبهادرية ، فكُتب بالإحسان اليهم . وفى يوم الخميس ثامنه جلس السلطان بدار العدل ، وأمر بتطهير الثغر من الخواطى[3] الفرنجيات .

وفى ثامن عشره سار [السلطان] من الإسكندرية يريد القاهرة ، فنزل تروجة وأمر عربانها بالسباق بين يديه ، فاجتمع ألف فارس من عرب تروجة ، وانضم اليها جمـلة من خيل العسكر . وعيّن [السـلطان] لهم المدى ، و وقف على تل ، وأوقف الرماح وعليها الثياب الأطلس والعتابى وفيها المـال . فأقبلت الخيل فى الحلبـة ، وأخذ كل راكب سَبْق ما فرض له . ثم سار [السلطان] الى قلعة الجبـل ، فلما وصـل فوّض قضاء الثغر للفقيه برهان الدين إبراهيم بن محمد بن على البوشى المـالكى ، وكان زاهدا عابدا يأوى الى مسجد بمصر ؛ وفوّض الخطابة للقاضى زين الدين أبى الفرج محمد بن القاضى الموفق بن أبى الفرج الإسكندرانى ، الذى كان حاكما بالثغر .

وفى آخر ذى القعدة نزل السلطان الى القاهرة ، وعاد الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير علاء الدين الحاج أيدغدى الركنى ، والأمير حسام الدين بن بركه خان[4] . وفى ليلة الأربعاء خامس ذى الحجة توفى الأمير حسام الدين بن بركه خان ، فحضر السلطان جنازته ومشى فيهـا مع الناس .

(١) فى س "التسقيع" ، بثلاث نقط تحت السين .

(٢) فى س "النحل" .

(٣) الخواطى جمع خاطية ، وهى المـرأة الداعرة ، وتسـمى أيضا مخطية ، والجمع مخطيات . (Dozy: Supp. Dict.Ar.) .

(٤) تقدم ذكر ما حدث لبعض هؤلاء الأمراء فى الصيد عند العريش . (انظر ص ٤٨١ ، سطر ١) .

وفى سادســه وصلت التتار المستأمنة، وأعيانهم كَرَمُون[1] وامطغية ونُوكَيه وجَبْرك وقيــان وناصعيه وطيشور ونبتو وصحبى[2] وجوجلان واجقــرقا وارقرق وكراى وصلاغيه ومتقــدم وصراغان . فركب السلطان الى تلقيهـم ، فنزلوا عنـد مشاهدته عن خيولهم وقبلوا الأرض وهو راكب، فأكرمهم وعاد الى القلعة .

وفى ثامنه خلع عليهم [السـلطان] ، ونزل الى تربة ابن بركه خان . ثم وردت الكتب بقدوم طائفة أخرى ، فاحتفل بهـم وركب لتلقيهم . ثم وردت طائفة ثالثة ، فاعتمد معهم مثل ذلك وأمّر أكابرهم ، وعرض عليهم الإسلام فأسلموا وختنوا بأجمعهم .

واتفق أن الأمير بهـاء الدين أمير آخور ضرب بعض دلالى سـوق الخيل ، فمـات بعد ما حمل الى داره ، فغضب السلطان غضبا شديدا خاف منه ، فهرب الى بيت الأمير قلاون واستتر عنده . فدخل [قلاون] على الأتابك فى أمره ، وأخرج لأولاد الميت من ماله خمسة آلاف درهم ومائة أردب غلة وكسـوة ، فأبرءوه وأقروا أن أباهم مات بقضاء الله وقـدره . ودخل الأتابك الى السلطان وحدّثه فى ذلك ، فاشتد غضبه ، فقال له الأتابك : " تغضب والشرع معنا ؟ فإن كان قد قتـله عمـدا أو خطأ فقد أبرأ الأولياء " . وتحدث الأمراء فى العفو عنه فَعُفِى ، وأُمر (١٢٨ ا) بعمل جامع من الثياب المفصلة يضرب على يمنة الخيمة السلطانيــة ، فعمل ونصبت محاريبه وأبوابه وعملت فيه مقصورة برسم السلطان .

وفى هذه السنة جدّدت دار العدل تحت قلعة الجبل ، وجلس بها السلطان فى يومى الخميس والاثنين لعرض العساكر . وفيهـا وردت هدية من بلاد اليمن . وفيهـا أُمر بتنصيب أربعة قضاة نوابا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ، فاستناب حنفيا ومالكيا [وشافعيا] ، ولم يجد من يستنيبه من الحنـابلة فولى عاقـداً[3] حنبليا . وفيهـا جهز السلطان عرب خفاجة

(١) مضـبوط هكذا فى س ، وقد رجعت الأسماء التاليـة على منطوقها فى (Quatremère: Op. Cit. I. 1. P. 222.) ، واكتفى بإثبات ضبط ما هو مضبوط منها فى س .

(٢) فى س "صحى" ، وهذا الاسم مترجم فى (Ibid : Op. Cit. I. 1. p. 222) الى (Sobhi) .

(٣) العاقد هو الذى يتولى تحرير العقود وكتابتها ، كعقود البيع والزواج ، وهو دون القاضى فى الرتبة . انظر=

بالخلع إلى أكابر أهل العراق، وكتب إلى صاحب شيراز وغيره يغريهم بهولاكو، وألبس عدة من أمراء خفاجة الفتوة، وجهز معهم الأمير عز الدين إلى شيراز . وفيها جهز السلطان فى البحر جماعة من البنائين والنجارين والنشارين والعتالين، وعدة أخشاب وغيرها من الآلات، برسم عمارة الحرم النبوى . وعُملت كسوة الكعبة على العادة، وحملت على البغال وطيف بها فى القاهرة ومصر، وركب معها الخواص وأرباب الدولة والقضاة، والفقهاء والقراء والصوفية والخطباء والأئمة . وسُفّرت إلى مكة فى العشر الأوسط من شوال، وفُوّضت عمارة الحرم لزين الدين بن البورى .

وفيها جمع الفرنسيس ملك الفرنج عساكره يريد أخذ دمياط، فأشار عليه أصحابه بقصد تونس أولا، ليسهل أخذ دمياط بعدها . فسار إلى تونس ونازلها حتى أشرف على أخذها، فبعث الله فى عسكره وباءً[1] هلك فيه هو وعدة من أكابر أصحابه، وعاد من بقى منهم .

ومات فى هذه السنة الأمير الكبير مجير الدين أبو الهيجاء بن عيسى بن خشترين الأزكشى[2] الكردى بدمشق . وتوفى[3] عز الدين أبو محمد عبد الرزاق بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف الرسعنى الحنبلى، شيخ البلاد الجزرية، بسنجار عن اثنتين وسبعين سنة . وتوفى علم الدين

= (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . على أنه لا يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٣، ومابعدها)، فى باب ألقاب أرباب الأقلام، موظف بهذا اللقب . راجع أيضا نفس المؤلف والمرجع (ج ٤، ص ٣٤، وما بعدها) .

(١) تعرف هذه الحملة باسم الحملة الصليبية الثامنة، وقد تقدمت إشارة المقريزى لها عرضا فى ص ٣٦٤، وهى آخر الحملات الكبرى التى أرسلتها أوربا لتنفيذ أغراض الحروب الصليبية . وقد أدركت الوفاة قائدها (Louis IX) ملك فرنسا بعيد نزول جنودها قرب تونس، وذلك قبل أن تقوم الحملة بشئ مذكور . فقام على قيادتها أخوه (Charles of Anjou) ملك صقلية، غير أن القائد الجديد انصرف عن غرض الحملة الى ما تطلبته مصالح مملكته الصقلية، فاستدفع ملك تونس وهو المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب مبلغا من المال كغرامة حربية، واستأداه جزية سنوية تدفع الى خزانة مملكته . (Barker : The Crusades, pp. 87-89 ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٢١) .

(٢) كذا فى س، وقد تقدم ورود هذا الاسم هنا برسم مخالف (انظر ص ٤٣٣، سطر ٣)، وهو فى ب (١٥٤ ا) "... عيسى بن جشقن بن الازكشى ..."، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. II. p. 224.) الى (Isâ ben-khaschken le curde) .

(٣) الوفيات التالية مكتوبة فى قاعدة الصفحة فى س، بدون أى إشارة الى الموضع المناسب لإثباتها بالمتن، على أنها واردة كما هنا فى ب (١٥٤ ا)، وأيضا فى (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 224)، وليس ثمت شك فى وقوعها هذه السنة . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٠٥ ـ ٣٠٧) .

أبو محمد القاسم بن أحمد بن موفق بن جعفر المرسى اللورى بدمشق، وقد انتهت إليه مشيخة الإقراء، عن ستين[(١)] سنة .

+ + +

سنة اثنتين وستين وستمائة : استفتح السلطان هذه السنة بالجلوس فى دار العدل ، فأحضرت إليه ورقة مختومة مع خادم أسود تتضمن مرافعــة فى شمس الدين شيخ الحنابلة ، أنه يبغض السلطان و يتمنى زوال دولته، لأنه ما جعــل للحنابلة نصيبا فى المدرسة التى أنشأها بجوار قبة الملك الصالح، ولا ولى حنبليا قاضيا، وذكر أشياء قادحة فيه . فبعث [السلطان] بها الى الشيخ، فأقسم أنه ماجرى منه شىء، "و إنما هذا الخادم طردته من خدمتى" . فقال السلطان : "ولو شتمتنى (١٢٨ ب) أنت فى حلّ"، وأمر فضرب الخادم مائة عصا .

وفى المحــرّم نودى بالقاهرة ومصر أن امرأة لا تتعمم بعمامة ولا تتزيّا بزى الرجال، ومَنْ فعلت[(٢)] ذلك بعد ثلاثة أيام سلبت ما عليها من الكسوة . وطُلب الطواشى شجــاع الدين مرشــد الحموى الى قلعة الجبل ، وأنكر عليه السلطان اشتغال مخــدومه صاحب حماة باللهو، وقرر معه إلزام الأجناد باقامة اليزك وتكميل العدد ، وكتب له تقليدا[(٣)] وسافر الى حماة . وقدم

---

(١) يظهر من العبارة التالية ، وهى من مخطوطة ابن واصل المتداولة فى هذه الحواشى (نفس المرجع ، ص ٤٢٥ أ) أن مؤلف مفرج الكروب وقف عن الكتابة أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م)، وأن بقية هذه المخطوطة التى تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١م) من تلخيص الكاتب الذى استملاه ، وذلك من كتاب آخر لابن واصل أو غيره اسمه التاريخ . أما سبب انقطاع ابن واصل عن الإملاء، فالراجح أنه راجع الى ذهابه الى صقلية حوالى ذلك الوقت رسولا من عند السلطان بيبرس الى صاحبها الملك ما نفرد (Manfred)، و إقامته هناك عدة سنين . (انظر Enc. Isl. Art. Ibn Wāsil) .
وهذا نص العبارة : " قال الفقير الى رحمة الله تعــالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى ، انتهى الى هاهنا إملاء القاضى الإمام العالم العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى (فى الأصل أحد) وستين وستمائة . وجرت أمور كثيرة، ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصرا من تمام التاريخ على حسب الطاقة ، ونسأل الله تعالى المعونة فى ذلك ، إنه على كل شىء قدير و إليه المصير" .

(٢) فى س " فعل "، هذا وليس من المفهوم سبب تقليد النساء للرجال فى الملابس ، فى هذا العصر الأول من تاريخ المماليك ، إلا إذا كان ما أشار اليه المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١٠٤) بخصوص عصر المماليك الجراكسة ، موجودا أيضا فى عصر بيبرس .

(٣) فى س "تقليد" .

الأمير جمال الدين يشكر بن الدوادار المجاهد دوادار الخليفة ببغداد — وكان قد تأخر حضوره — ، فأحسن اليه السلطان وأعطاه إمرة طبلخاناه .

وفى يوم الأحد الخامس من صفر اجتمع أهل العلم بالمدرسة الظاهرية بين القصرين عند تمام عمارتها [١] ، وحضر القراء وجلس أهل كل مذهب فى إيوانهم . وفُوِّض تدريس الحنفية للصدر مجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين بن العديم ، وتدريس الشافعية للشيخ تقى الدين محمد بن الحسن بن رزين ، والتصدير لإقراء القرآن للفقيه كمال الدين المحلى ، والتصدير لإفادة الحديث النبوى للشيخ شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الدمياطى . وذكروا الدروس ومدّت الأسمطة ، وأنشد جمال الدين أبو الحسين الجزار يومئذ : —

ألا هكذا يبنى المدارس من بنى ومن يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر المَلْك [٢] همة بها اليوم فى الدارين قد بلغ المنى
تجمع فيها كل حسن مفرّق فراقت قلوبا للأنام وأعينا
ومذ جاورت قبر الشهيد فنفسه النـ ـفيسة منها فى سرور وفى هنا
وما هى إلا جنة الخلد أزلفت له فى غد فاختار تعجيلها هنا

وأنشد عدّة من الشعراء أيضا [ومنهم السراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب] [٣]، فخلع عليهم وكان يوما مشهودا . وجعل [السلطان] بهذه المدرسة خزانة كتب جليلة ، و بنى بجانبها مكتبا للسبيل ، وقرّر لمن فيه من أيتام المسلمين الخبز فى كل يوم والكسوة فى فصلى الشتاء والصيف .

وفيه ورد الخبر مع الحاج بأنه خُطب للسلطان بمكة ، وأن الصدر جمال الدين حسين بن

(١) بدأ السلطان بيبرس بناء هذه المدرسة فى ربيع الآخر سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، على أنقاض قاعة الخيم ، وهى إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ — ٣٧٩) .

(٢) فى س "السلطان" . انظر (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٩) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من المقريزى (نفس المرجع والصفحة) ، حيث يوجد أيضا نص الأشعار التى أنشدت فى ذلك الحفل الافتتاحى .

الموصـلى ، كاتب الإنشاء المتوجه إلى مكة، تسلم مفتاح الكعبة وقَفَله بالقفل المسير صحبته، وأباح الكعبة للناس مدّة ثلاثة (١٢٩ ا) أيام بغير شيء يؤخذ منهم . وفيه قرئ كتاب وقف الخان بمدينة القدس فى مجلس السلطان بقلعة الجبل،وحضر قاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز قراءته، وكتب به عدة نسخ . ووقف [السلطان] أيضا إصطبلين تحت القلعة، يعرف أحدهما بجوهر النوبى(١)، على وجوه البر . وفيه ورد الخبر بأنه رُتّب بمدينة الخليل السماط والرواتب للقيمين والواردين، وكان قد بطل ذلك من مدّة أعوام كثيرة .

وفيه سار السلطان إلى وَسِيم(٢) ومضى إلى الغربية، فصار يسير منفردا فى خفية ويسأل عن والى الغربيــة الأمير بن الهمام وعن سـيرة نوابه وغلمانه ومباشريه، فذكرت له عنه سيرة سيئة، فقبض عليه وأدّبه وأقام غيره؛ وشُكى إليــه من ظلم بعض المباشرين النصارى، فأمر به فشُنِق من أجل أنه تكلم بما يوجب ذلك . ودخل [السلطان] دمياط، ثم عاد إلى أشموم، وسار من المنزلة إلى الشرقية . وفيه سأل الفرنج أن يؤذن لهم فى زراعة ما بيدهم من بلاد الشام وتقويتها بجملة من الغلال، فتقرّرت الهدنة معهم إلى أيام، وأُذن لهم فى ذلك فزرعوا .

وفى يوم الجمعة حادى عشريه مات الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شـيركوه بن الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى ابن مروان صاحب حمص، عن غير ولد ولا أخ ولا ولى عهد . فبعث [السلطان] إلى الأمير بدر الدين بيليك العـلائى أحد الأمراء، فتسـلّمها فى سابع عشريه وحلّف الناس بهـا للملك الظاهر، وتسلّم الرحبة أيضا، وبعث السلطان إليها عشرين ألف دينار عينا؛ وولّى مدينة

(١) فى س "النوبى" ، ولعل هـذا الإصطبل كان مبنيا على جزء من الموضع المسمى فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ١١٩) باسم "حكر جوهر النوبى" ، وموضعـه تجاه حارة الوزيرية فى شرقى بستان العـدة بالقاهرة .وكان ذلك الحكر بستانا إلى نحو سنة ٦٦٠هـ (١٢٦١م)، ثم حكر و بنيت فيه الدور . أما جوهر النوبى فأمير خصى من أمراء الملك الكامل ، وهو أحد الذين ثاروا بالملك العادل الثانى وخلعـوه ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أخيه العادل قبض على جوهر المذكور فى سنة ٦٣٨ هـ .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الجيزة، غربى ناحية إنبابه . (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٧ ، ص ٥٧ — ٦١؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٩٢٩) .

حران الأمير جمال الدين الحاكى، وولى مدينة الرقة أميرا آخر . وورد الخبر بأن متملك جزيرة دَهْلَك[(١)]، ومتملك جزيرة سَواكِن[(٢)]، يتعرضان إلى أموال من مات من التجار . فسير [السلطان] إليهما أحد رجال الحلقة رسولا، ينكر عليهما .

وفى هذه السنة[(٣)] بلغ ثمن القُرْط[(٤)] الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المُناخات[(٥)] بأرض مصر، ما مبلغه خمسون ألف دينار . وفى هذه السنة ارتفعت الأسعار بمصر، فبلغ الأردب القمح نحو المائة درهم نقرة، فأمر السلطان بالتسعير فاشتدّ الحال وعدم الخبز . وبلغ القمح مائة درهم وخمسة دراهم (١٢٩ ب) الأردب، والشعير إلى سبعين درهما الأردب، والخبز ثلاثة أرطال بدرهم، واللحم كل رطل بدرهم وثلث؛ وبلغ بالإسكندرية الأردب القمح ثلاثمائة وعشرين درهما من الوَرْق[(٦)] . ثم اشتد الحال بالناس حتى أكلوا ورق اللفت والكرنب

(١) بغير ضبط فى س، وهى أكبر الجزر المعروفة باسم أرخبيل دهلك بالبحر الأحمر، وموقعها قبالة مصوّع . ولقد امتدّ سلطان الإسلام الى هذه الجزيرة إبان الفتوح العربية الأولى، واستخدمها خلفاء الأمويين والعباسيين منفى للبعدين، ثم انسلخت من الخلافة العباسية وصارت تابعة لأمراء زبيد باليمن، وظلت كذلك حتى زالت تلك الدولة . ثم استقلت بشؤونها مدة طويلة حتى كان زمن المماليك بمصر، فعمل متملكوها على نموّ العلاقات الحسنة بينهم وبين سلاطين المماليك، وذلك ردّا لعادية الدولة الرسولية باليمن . (Enc. Isl. Art. Dahlak) .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى سواكن الحالية وتقع على ساحل البحر الأحمر، وقد وصفت بأنها جزيرة لقيامها فعلا فى وسط جزيرة يوصلها بالشاطىء لسان ضيق من الأرض . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ١٨٢؛ (Enc. Isl. Art. Sawākin .

(٣) عبارة س كالآتى : " وبلغ ثمن القرط الذى قضمته الخيول السلطانية وجمال المناخات فى هذه السنة بأرض مصر ... " .

(٤) القرط هو البرسيم (محيط المحيط)، وهو مترجم فى (Dozy : Supp. Dict Ar.) الى الألفاظ الفرنسية (luzerne, foin, fourrage) .

(٥) المناخات جمع مناخ، وهى هنا الأمكنة المخصصة لأنواع الجمال السلطانية، كالإصطبلات لأصناف الخيل (Dozy : Supp. Dict. Ar.)، ومنها مناخ الجمال البخاتى ومناخ الجمال النفر ومناخ الهجن والنياق . وكانت هذه المناخات، وكذلك إصطبلات الخيل وغيرها من أنواع الحيوان كالفيلة والسباع والفهود، تابعة لإدارة الإصطبلات السلطانية . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك، ص ١٢٥؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٢٤ — ٢٢٥) .

(٦) بغير ضبط فى س، والدراهم الورق بضبط المتن — ويقال أيضا الوُرْق والوِرْق والوَرَق — هى الدراهم المضروبة، وتجمع على أوراق ووِرَاق؛ ويقال لهذه الدارهم أيضا الرِّقة . (محيط المحيط) .

ونحوه ، وخرجوا إلى الريف فأكلوا عروق الفول الأخضر . فلمـا كان يوم الخميس سابع ربيع الآخر نزل السـلطان الى دار العـدل وأبطل التسعير، وكتب الى الأهراء[(1)] ببيع خمسمائة أردب كل يوم لضـعفاء الناس ، ويكون البيع من ويبتين إلى ما دون ذلك حتى لا يشترى من يخزن . ونودى للفقراء فاجتمعوا تحت القلعـة ، ونزل الحجـاب اليهم فكتبوا أسماءهم، ومضى إلى كل جهة حاجب فكتب ما بقى فى القاهرة ومصر من الفقراء ، وأحضروا عدّتهم فبلغت ألوفا . فقال [السلطان] : "والله لو كانت عنـدى غلة تكفى هـذا العالم لفرّقتها" . ثم أخذ ألوفا منهم، وأعطى لنوّاب ابنه الملك السعيد مثل ذلك، وأمر ديوان الجيش فكتب باسم كل أمير جماعة على قدر عدته، وأعطى الأجناد والمفاردة من الحلقة والمقدمين والبحرية، وعزل التركمان ناحية والأكراد ناحيـة . وأمر أن يُعطى كل فقـير كفايته مدّة ثلاثة أشهر،

(1) الأهراء السلطانية هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان، احتياطا لأمثال الطوارئ الاقتصادية الواردة بالمتن ، وكانت لا تفتح إلا عنـد الضرورة . وكان لخاص السلطان أيضا شون، وهذه يوضع بها ما يسـتهلك طول السـنة من الغلال والأحطاب والأتبان وما أشـبه ذلك . (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ — ١٢٣) . ويوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص٤٦٤ ، وما بعدها) وصف للأهراء السلطانية فى زمن الخلفاء الفاطميين، ونصـه : " وكانت أهراء الغلال السلطانيـة فى دولة الخلفاء الفاطميين حيث المواضع التى فيها الآن خزانة شمائل ، وما وراءها الى قرب حارة الوزيرية . قال ابن الطوير، وأما الأهراء فإنها كانت فى عدة (ص ٤٦٥) أماكن بالقاهرة ، هى اليوم إصطبلات ومناخات . وكانت تحتـوى على ثلاثمائة ألف أردب من الغلات وأكثر من ذلك ، وكان فيها مخازن يسمى أحدهما بغدادى ، وآخر القول ، وآخر القرافة . ولها الحماة من الأمراء والمشارفين من العـدول ، والمراكب واصلة اليها بأصناف الغـلات الى ساحل مصر وساحل المقس ، والحمالون يحملون ذلك اليهـا بالرسائل على يد رؤساء المراكب وأمنائها من كل ناحية سلطانيـة ، وأكثر ذلك من الوجه القبلى . ومنهـا إطلاق الأقوات لأرباب الرتب والخدم وأرباب الصـدقات وأرباب الجوامع والمساجد، وجرايات العبيد السودان بتعريفات . و[منها] ما ينفق فى الطواحين برسم خاص الخليفـة ، وهى طواحين مدارها سفل وطواحينها علو، حتى لا تقارب زبل الدواب ، ويحمـل دقيقها للخاص وما يختص بالجهات فى خرائط من شقق حلبية . ومن الأهراء تخرج جرايات رجال الأسطول وجرايات السودان ، ومنهـا ما يستدعى بدار الضـيافة لأخباز الرسـل ومن يتبعهم ، وما يعمل من القمح برسم الكعك لزاد الأسطول ... " . وكان فى زمن القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص٣٣) وظيفة تسمى " نظر الأهراء بمصر بالصناعة ، وهى شونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصـل اليها من النواحى من الغـلال وغيرها ، وما يصرف منها على الإصطبلات الشريفـة والمناخات السلطانية ، وغير ذلك " .

وأعطى للتجار طائفة من الفقراء، وأعطى الأغنياء على اختلاف طبقاتهم كل أحد بقدر حاله . وأمر أن يُفرّق من الشون السلطانية على أرباب الزوايا فى كل يوم مائة أردب ، بعد ما يعمل خبزا بجامع ابن طولون . ثم قال [السلطان] : "هؤلاء المساكين قد جمعناهم اليوم وانقضى نصف النهار، فادفعوا لكل منهم نصف درهم يتقوت به خبزا ، ومن غدٍ يتقرر الحال" ؛ ففرّق فيهم جملة كبيرة . وأخذ الصاحب بهاء الدين طائفة العميان ، وأخذ الأتابك جماعة التركمان، فلم يبق أحد من الخواص ولا من الحواشى ولا من الحجاب، ولا من الولاة وأرباب المناصب وذوى المراتب وأصحاب المال، حتى أخذ جماعة من المساكين . وقال السلطان للأمير صارم الدين المسعودى والى القاهرة : "خذ مائة فقير أطعمهم لله" . فقال [الأمير]: "قد فعلتُ ذلك، وأخذتُهم دائما" . فقال [السلطان] : "ذلك فعلتَه ابتداء من نفسك، وهذه المائة خذها لأجلى"، فأخذ مائة مسكين أخرى . وشرع الناس فى فتح المخازن وتفرقة الصدقات، فانحط السعر عشرين درهما الأردب ، وقلّت الفقراء . واستمر الحال الى شهر رمضان، فدخل المغل الجديد وانحل (١٣٠ ا) السعر فى يوم واحد أربعين درهما الأردب.

وفى اليوم الذى جلس فيه السلطان بدار العدل، رُفعت إليه قصة ضُمّان دار الضرب فيها بوقف الدراهم (١) ، وسألوا إبطال الدراهم الناصرية ، وأن ضَمَانهم مبلغ مائتى ألف وخمسين ألف درهم . فأمر [السلطان] أن يحط من ضمانهم مبلغ خمسين ألف درهم، وقال : "لا نؤذى الناس فى أموالهم" .

وفى العشرين من ربيع الآخر كانت زلزلة عظيمة هدمت عدّة أماكن . وفى ثالث عشريه رُسم بمسامحة بنات الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزى بما وجب للديوان

(١) فى س "رفعت اليه مصه ضمان دار الضرب مها بوقف الدراهم" ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 233) العبارة كلها الى "on lui apporta un placet addressé par les fermiers de l'hôtel de la monnaie ; ils représentaient que la fabrication du dirhem était arrêtée...." هذا وقد كانت دار الضرب من منشآت الفاطميين، وقد بنيت سنة ٦١٥ بجهة القشاشين، وسميت بالدار الآمرية نسبة الى الخليفة الآمر بالله . ومازالت دار الضرب هذه باقية حتى أيام السلطان صلاح الدين الأيوبى، فنقلت الى الموضع الذى عرف فيما بعد باسم درب الشمسى . (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١١ ص ٤٠٦، ٤٤٥).

فى تركة أيبهن[(١)] — وكان قد مات بدمشق فى رابع عشر المحرم — وهو مبلغ أربعمائة ألف درهم نقرة، خارجا عن ماله من الأملاك والغـلال والخيل . وكتب [السلطان] بذلك الى الشام، وقصـد بذلك أن يفهم أمراءه أن من مات فى خدمته وحفظ يمينه، ينظر فى أمر ورثتـه ويبقى عليهم ما يخلفه . ومات الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية، فأعطى ابنـه إقطاعه وهو مائة طواش . ولمـا أسر الفرنج الأمير شجاع الدين والى سَرْمِين[(٢)]، أبقى [السلطان] إقطاعه بيد إخوته وغلمانه، كل ذلك استجلابا للقلوب[(٣)] .

(١) فى س "ابيهم" .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى بلدة من أعمال حلب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٣) .

(٣) يفهم من كل هـذا أن الإقطاع فى العرف المملوكى — وفى عرف الدول الإسلامية جميعا — كان أمرا شخصيا بحتا، لادخل لحقوق الملكية أو لأحكام الوراثة فيه، فكان المقطع يحل فى الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته و إيراداته فحسب، ثم يؤول جميعه الى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها، أو بسبب وفاة المقطع إذا كان الإقطاع لمدة الحياة، أو بسبب إخلال المقطع بشروط العقد القائم، وسواء فى ذلك ما يسمى باسم إقطاع التمليك وهو الإقطاع العادى، أو إقطاع الاسـتغلال وهو إقطاع شخص خراج جهة معينة . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٠٤ — ١١٧) . وقد بين (G. Demombynes: La Syrie, Introd. p. CXIV.) ذلك كله بوضوح فى العبارة الآتية : ‘‘La dotation foncière (iqtâ) ne donne ni la propriété, ni la possession, ni la jouissance du fonds; elle fait seulement participer le titulaire au revenus du sol, dont elle lui confère l'impôt ; le mouqta' est substitué au souverain pour la perception de celui-ci’’ وهذه الصفة الشخصية فقط تجعل الإقطاع فى البلاد الإسلامية مشابها للإقطاع الأوربى فى أوائل القرون الوسطى، أى حتى القرن العاشر الميـلادى (القرن الرابع الهجرى تقريبا)، إذ كان الإقطاع هبـة من الملك لأتباعه، وليس ثمت حدود مقررة تعين حقوق كل من الطرفين سوى مشـيئة الملك (precariae verbo regis) . انظـر (Camb. Med. Hist. II. p. 646 et seq.) . غير أن الإقطاع الأوربى تطور فيا بعد القرن العاشر، فصار للقطع ملكية انتفاع أو ارتفاق واستغلال معينة (dominium utile)، وصار بينه وبين المـالك الأصلى أو الأول (dominium eminens) عقد شامل لالتزامات كل من الطرفين . ومع أن توريث الخلف الشرعى للقطع لم يكن من شروط العقد الإقطاعى فى أوربا، فإن العادة كانت أن يخلف الوارث سلفه بإذن المـالك الأصلى، بعد تأدية مبلغ معين من المـال (relevium) بمثابة رسم دخول الى الإقطاع . انظر (Camb. Med. Hist. III. p. 458 et seq.) وفى هذه الظاهرة الأخيرة وحدها أحد الأشياء التى تجعل الإقطاع زمن المماليك مختلفا فى صميمه عن الإقطاع الأوربى المعاصر له، مع ما بينهما من الشبه العام . و يتضح من هذا أن ما أراد به السلطان بيبرس " استجلاب القلوب "، كان محاولة غير مقصودة للتقريب بين النظام الإقطاعى فى الدولة المملوكية ونظيره =

وفيه ورد الخبر أن هيتوم ملك الأرمن (١) جمع وسار الى هرقلة، ونزل على قلعة صرفند (٢). فخرج البريد من قلعة الجبل الى حماة وحمص بالمسير الى حلب، فخرجوا وأغاروا على عسكر الأرمن، وقتلوا منهم وأسروا. فانهزم الأرمن واستنجدوا بالتتار، فقدم منهم من كان فى بلاد الروم – وهم سبعمائة فارس –، فلما وصلوا الى حارم رجعوا من كثرة الثلج، وقد هلك منهم كثير.

وورد الخبر بأن خليج الإسكندرية قد انسد وامتلأت فوهته بالطين، وقل الماء فى ثغر الإسكندرية بهذا السبب. فسيّر السلطان الأمير عز الدين أمير جاندار لحفره، وبعث الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الأستادار لحفر بحر جزيرة بنى نصر عند قلة ريها.

وفى جمادى الأولى سافر الأمير سيف الدين بلبان الزينى أمير علم الى الشام برسم تجهيز مهمات القلاع، وعَرْض عساكر حماة وحلب ورجال الثغور، وإلزام الأمراء بتكميل العَدة والعُدة (٣)، وإزاحة الأعذار (٤) بسبب الجهاد. وكتب على يده عدة تذاكر بما يعتمده، وأن يحمل من دمشق خزانة كبيرة إلى البيرة برسم نفقاتها. ورحلت جماعة من (١٣٠ ب) عرب خفاجة كانوا قد وردوا بكتب من جماعتهم بالعراق، يخبرون فيها بأنهم أغاروا على التتار حتى وصلت

= فى أوربا. على أن ذلك التطور فى الإقطاع الإسلامى لم يكن الأول من نوعه، فقد كانت العادة زمن السلطان نور الدين محمود بن زنكى، حسبما ورد فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٦)، أنه "إذا مات الجندى [من أجناده] أعطى [السلطان] إقطاعه لولده، فان كان صغيرا وتب معه من يلى أمره حتى يكبر. فكان أجناده يقولون الإقطاعات أملاكنا يرثها أولادنا الولد عن الوالد، فنحن نقاتل عليها، وبه اقتدى كثير من ملوك مصر ...". وراجع أيضا (المقريزى: نفس المرجع، ج ١، ص ٩٥ – ٩٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٠ – ٥١).

(١) المقصود بمملكة الأرمن هنا بلاد قليقية، وهى أرمينية الصغرى، وكان ملكها هيتوم (Hethum I, 1226-1270) قد انضم الى هولاكو، رغبة منه فى حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك بالجنوب، وصارت تلك المملكة بذلك ولاية تابعة لدولة التتر بفارس. (Camb. Med. Hist. IV. p. 175, & Enc. Isl. Art. Armenia)

(٢) بغير ضبط فى س. انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ٦٩٢، فى Rec. Hist. Or. I).

(٣) كذا فى س، بضم العين فقط، وقد ضبط لفظ العدة الأول بفتح العين.

(٤) فى س "اراحة الاعدار"، وقد صححت من ب (ص ١٥٧ أ).

غاراتهم باب مدينة بغداد ، ويخبرون بأحوال مدينة شيراز ، فأجيبوا وأحسن إليهم . وفيـه توجه قصادٌ إلى الملك بركه ؛ وأَسْلَم عالم كبير على يد السلطان من التتار الواصلين ومن الفرنج المستأمنين والأسرى ومن النوبة القادمين من عند ملكها ، ففرّق فيهم فى يوم واحد الأمير بدر الدين الخازندار مائة وثمانين فرسا .

وفى جمادى الآخرة قبض على جاسوسين من التتار . وتنجّـز البرج الذى بناه السـلطان فى قارة[1]، وشرع فى بناء برج أكبر منه لحفظ الطرقات من عادية الفرنج . واهتمّ ملك الأرمن بالمسـير الى بلاد الشام، وأعدّ ألف قباء تترى[2] وألف سراقوج[3]، ألبسها الأرمن ليوهم أنهـم نجدة من التتر . فلمـا ورد الخبر بذلك خرج البريد إلى دمشق بخروج عسكرها إلى حمص، وخروج عسكر حماة، وألا يخرج عربان الشام فى هذه السنة إلى البرية . فخرجت العساكر، ووالت الغارات من كل جهــة، فانهزم الأرمن . ونزل العسكر على أنطاكية فقتل وأسر وغنم، وأغار العسكر أيضا ببـلاد الساحل على الفرنج حتى وصـل إلى أبواب عكا . وشرع [السـلطان] البناء فى شقيف تيرون، وكان قد خرب من سنة ثمان وخمسين وستمائة، فلما تم بناؤه حَمل إليه زردخاناه وذخائر، وبعث إلى عسـكر الساحل مائتى ألف درهم فرّقت فيهم . وورد البريد بأن جمـاعة من شـيراز، ومن أمراء العراق وأمراء خفاجة، وصـلوا وافدين إلى الأبواب السلطانيـــة .

وفى أوّل رجب رفعت قصة بأن على باب المشهد الحسينى مسجدا[4]، إلى جانبـه موضع من حقوق القصر قد بيع بسـتة آلاف درهم حملت إلى الديوان . فأمر [السلطان] ردّها

(١) فى س "قارا" بغير ضـبط ، وهى قرية جنوبى حمص ، على مسافة سـتة وثلاثين ميلا منها ، وتقع على الطريق بين حمص ودمشق . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢ — ١٣ ؛ أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٢) فى س "قماترى" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 1. P. 235) .

(٣) فى س "سراكوح"، وهى قلنسوة تترية، وتجمع على سراقوجات . (Dozy: Supp. Dict Ar.) .

(٤) فى س "مسجد" .

وعَمَـِل الجميع مسجدا، وأمر بعمارته . ووقف أحد الجنـد بيتيم معه ذكر أنه وصيه، فقال السلطان لقاضى القضاة : " إن الأجناد إذا مات أحدهم استولى خشداشيته على موجوده ، ويُجعل اليتيم من الأوشاقية . فإذا مات اليتيم أخذ الوصى موجوده ، أو يكبر اليتيم[(١)] فلا يجـد شيئا ولا تقوم له حجة على موجوده ، أو يموت الوصى فيـذهب مال اليتيم فى ماله . والرأى أن أحدا من الأوصياء لا ينفرد بوصية، وليكن نظر الشرع (١٣١ ا) شاملا، وأموال اليتامى مضبوطة، وأمناء الحكم يحاققون على المصروف" . وطلب [السلطان] نوّاب الأمراء ونقباء العساكر وأمرهم بذلك، فاستمر الحال عليه .

وفى ثالثـه قدم الوافدون من شيراز ، ومقدمهم الأمير سيف الدين بكلك[(٢)]، ومعهم سيف الدين اقتبار الخوارزمى جمـدار جلال الدين خوارزم شاه، وغلمـان أتابك سعد وهم شمس الدين سـنقرجاه ورفقته . ووصـل صحبتهم مظهر الدين وشاح بن شهرى ، والأمير حسام الدين حسين بن ملاح أمير العراق،وكثير من أمراء خفاجة . فتلقاهم السلطان بنفسه، وأعطى سيف الدين بكلك إمرة طبلخاناه، وأحسن الى سائرهم .

وفى شعبان أمر السلطان الأمراء والأجناد والمماليك بعمل العدد الكاملة، فوقع الاهتمام من كل أحد بعمل ذلك،وكثر الازدحام بسوق السلاح، وارتفع سعر الحديد وأُجر الحدادين وصناع آلات السلاح . ولم يبق لأحد شـغل إلا ذلك، حتى صار العسكر لا ينفق متحصله فى شى سوى السـلاح ، ولا يشـتغل أحد منهم إلا بنوع من أنواع الحرب كالرمح ونحوه ، وتفننوا فى أنواع الفروسية . وورد كتاب أمير المدينة النبوية أنه سار مع كسوة الكعبة حتى علّقها على البيت .

وفى شهر رمضان تجزت كسوة قبر النبى صلى الله عليه وسلم ، وتعيّن سفرها مع الطواشى جمـال الدين محسن الصالحى . ووقع الشروع فى تجهيز الشمع والبخور وَالزَّيْت[(٣)] وَالطِّيب .

(١) فى س " تكبر " .

(٢) كذا فى س ، وقد ترجم (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 238) هذا الاسم إلى (Beklemek).

(٣) هذا اللفظان مضبوطان هكذا فى س .

وخرج البريد إلى الأمير ناصر الدين القيمرى بالغـارة على قَيْسَارِيَّة[١] وعَثْلِيث[٢]، فساق إلى باب عثليث ونهب وقتل وأسر، ثم ساق إلى قيسارية ففعل مثل ذلك بالفرنج . وكان الفرنج قد قصدوا يافا، فخافوا ورجعوا عنها . وفيه جرى السلطان على عادته فى إجراء الصدقات بمطابخ القاهرة ومصر برسم الفقراء، فكان يصرف فى كل ليلة من ليالى رمضان جملة كبيرة من الخبز واللحم المطبوخ؛ وجرى أيضا على عادته فى عتق ثلاثين نســمة على عادة الملوك المـاضين[٣] ، سوى من أعتقه من ممـاليكه . وورد الخبر بأن الفرنج أخذوا أخيذة كبيرة للسلمين، فكتب إلى نوّاب الشام بالاجتهاد فى ردّها؛ فورد كتاب الأمير ناصر الدين القيمرى بأن الفرنج ردّوها، وكانت تشتمل على عالم كبير من الناس وجملة من المواشى . فسمع فى ساعة ردها ، من اختلاف الأصوات بدعاء (١٣١ ب) الرجال والنساء وبكاء الأطفال، ماتكاد ترق له الحجارة . وقـدم البريد من البيرة بأن صارم الدين بكتاش الزاهدى أغار على باب قلعـة الروم مرارا . وورد كتاب الملك شارل[٤] أخى الفرنسيس ملك الفرنج، ومعه هدية وكتاب أستاداره : " بأن مخـدومه أَمَرَه أن يكون أَمْرُ الملك الظاهر نافـذا فى بلاده ، وأن أكون نائبَ الملك الظاهر كما أنا نائبه " .

(١) بغير ضبط فى س، وقيسارية المقصودة هنا بلد على ساحل فلسطين قبالة طبرية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٢١٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهو حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية ، وكان يعرف بالحصن الأحمر ، واسمه فى الحوليات الصليبية (Castellum Peregrinorum) أى حصن الحجاج ، وقد زادت هيئـة الفرسان الداوية فى تحصينه فى أواخر أيام الحروب الصليبية ، وجعلتـه المركز الرئيسى لقواتها بالشام ، (Le Strange : Palest. Under Moslems. P. 403 ; Stevenson : Crusaders In The East .P. 303) . انظـــر أيضا (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣، ص ٦١٦) .

(٣) يفهم من هذه العبارة أن عتق هذا العدد كان عادة سنوية منتظمة فى الدولة المملوكية .

(٤) فى س " شارك " . والملك شارل المقصود هنـا هو (Charles d' Anjou) ملك صقلية، وقد تقدمت الاشارة اليه والى أخيه لويس التاسع (Louis IX) ملك فرنسا المتوفى فى تونس . (انظر ص ٥٠٢، حاشية ١) . أما الكتاب المشار اليه فكان الغرض منه عقد معاهدة تجارية بين دولة المماليك ومملكة صقلية . (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 266)

وفى يوم الجمعة خامس عشريه قرئ مكتوب فى جامع مصر بإبطال ما قرر على ولاية مصر من الرسوم، وهى مائة ألف درهم وأربعة آلاف درهم نقرة. وورد الخبر بأن الأشكرى(١) عوق الرسل إلى الملك بركه بالهدية عن المسير إليه، حتى هلك أكثر ما معهم [من الحيوان](٢). فأحضر السلطان البطاركة والأساقفة، وسألهم عمن خالف الأيمان وما كتب به الأشكرى، فأجابوا بأنه يستحق أن يحرم من دينه. فأخذ [السلطان] خطوطهم بذلك، وأخرج لهم حينئذ نسخ أيمان الأشكرى، وقال: "إنه قد نكث بإمساك رسلى، ومال إلى جهة هولاكو". ثم جهز إليه الراهب الفيلسوف اليونانى(٣)، ومعه قسيس وأسقف، بحرمانه من دينه؛ وكتب له كتابا أغلظ فيه. وكتب [السلطان] أيضا إلى الملك بركه [كتابا]، وسيّره إلى الأمير فارس الدين أقوش المسعودى المتوجه بالهدية إلى الملك بركه. فلما وصلوا إلى الأشكرى أطلقهم(٤) لوقته، فساروا إلى الملك بركه(٥).

(١) سمى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٢) هذا الأشكرى باسم "الباسلوس كر ميخائيل"، وهو الإمبراطور (Michael VIII Palaeologus, 1259-1282)، والباسلوس معرب اللفظ اللاتينى (Basileus) ومعناه الإمبراطور، وقد تلقب به أباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الميلادى. راجع (Camb. Med .Hist.IV. pp . 726 et seq., 905).

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٣)، وقد تقدم ذكر ما احتوته تلك الهدية من أنواع الحيوان. (انظر ص ٤٩٧، حاشية ٣). هذا ويوجد فى نفس المرجع (ص ١١٣ — ١١٤) تفصيلات كثيرة فيما حدث لرسل السلطان فى هذا السفر، ومنها أن سبب تعويقهم أنه كان عند الإمبراطور وقت وصولهم رسول "من جهة هولاوون، فاعتذر اليهم [الإمبراطور] عن تأخير مسيرهم، لخوفه لئلا يطلع هلاوون على ذلك...".

(٣) ليس فى المراجع المتداولة فى الحواشى، ما يساعد على التعريف بالراهب المذكور، وقد ترجم (Quatremère : Op. cit. I. l.p. 240) العبارة الى " un moine philosophe grec . ". "..

(٤) الضمير عائد على الرسل الذين كانوا قد عوقوا قبلا.

(٥) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٦، وما بعدها) وصف لوصول السفارة المملوكية الى حضرة بركه خان، وقد ضمنه كثيرا من عادات التتر وتقاليدهم، وصورة دقيقة لشخص بركه خان، ونصه مصححا من الحواشى المتعلقة به: "فلما قاربوا [معسكر بركه خان] التقاهم الوزير شرف الدين القزوينى، وهو يتحدث بالعربية والتركية، فأنزلهم فى منزلة حسنة وحمل اليهم الضيافة من اللحم والسمك واللبن وغير ذلك. وأصبح الملك بركه نزل (كذا) فى منزلة قريبة، واستحضر الرسل. وكانوا قد عرفوهم ما يفعلونه عند دخولهم: وهو الدخول من جهة اليسار، وإذا =

وقدم البريد من البـلاد الشامية بأن عدّة من التتار ومن الأتراك والبغاددة قـد قصدوا البلاد مستأمنين، فأمر [السلطان] بجمع الأمراء وأعلمهم بذلك، وقال : " أخشى أن يكون فى مجيئهم من كل جهـة ما يستراب منه، والرأى أن نخرج إليهم، فإن كانوا طائعين عاملناهم بمـا ينبغى ، وإلا فنكون على أهبـة . ومن احتاج من العسكر إلى شيء أعطيته ، وما أنا إلا كأحدكم يكفينى فرس واحد، وجميع ما عنـدى من خيل وجمال ومال كله لكم ولمن يجاهد فى سبيل الله" .

= أخذ (كذا) الكتب منهم ينقلون الى جهة اليمين ، ويكون الجلوس على الركبتين ، وأن لا يدخل أحد الى خركاته بسيف ولا سكين ولا (ص ١١٧) عدة ، ولا يدوس برجله عتبة الخركاه ، وإذا قلع أحد عدّته يقلعها على الجانب الأيسر ، وينزع قوسه من القربان ويفك وتره ، ولا يدع فى تركاشه نشابا ، ولا يأكل ثلجا ، ولا يغسل ثوبه فى الأردو ، وإن اتفق غسله ينشره خفية . ثم إنهم وجدوا الملك بركه فى خركاه كبيرة تسع خمسمائة فارس ، وهى مكسوة لباد أبيض ، ومن داخلها مسترة بصنداب وخطائى ، مكللة بجواهر ولؤلؤ . وهو جالس على تخت مرخى الرجلين على كرمى ، وعلى الكرمى مخدة ، فإنه (فى الأصل فان) كان به وجع النقرش (كذا) ؛ وإلى جانبه الخاتون الكبرى واسمها طغطغاى خاتون ، وله امرأتان غيرها وهما ججك خاتون وكهارخاتون ... (ص١١٨) وكان عمر الملك بركه الى ذلك التاريخ ستا وخمسين سنة ، وصفته خفيف اللحية كبير الوجه فى لونه صفرة ، يلف شعره عنـد أذنيه ، فى أذنه حلقة ذهب فيها جوهرة مثمنة ، عليه قباء خطائى ، وعلى رأسه سراقوج ، وحياصة ذهب مجوهرة بسولو بلغارى أخضر ، وفى رجليه خف كيمخت أحمر . ويلبس فى (ص ١١٩) وسطه سيفا ، وفى حياصته قرون سود معوجة مقمعة بذهب ، وعنده خمسون أميرا على كراسى فى خركاته . فلما دخلوا عليه وأدوا الرسالة ، أعجبه ذلك عجبا عظيما ، وأخذ الكتاب وأمر الوزير بقراءته . ثم نقلهم عن يمينه ، وأسندهم مع جنب الخركاه خلف الأمراء بين يديه ، وأحضر لهم القمز وبعده العسل المطبوخ ، ثم أحضر لهم لحما وسمكا فأكلوا . ثم أمر بإنزالهم عند زوجته ججك خاتون ، ولمـا أصبحوا ضيفتهم الخاتون فى خركاتها ، ثم انصرفوا آخر النهار الى منـازلهم . وصار السلطان بركه يطلبهم فى سائر أوقاته ، ويسألهم عن الفيل والزرافة ، وسأل عن النيل وعن مطر مصر ، وقال سمعت أن عظما لابن آدم ممتد على النيل ، يعبروا (كذا) (ص ١٢٠) الناس عليه ، فقالوا هذا ما رأيناه ولا هو عندنا . وأقاموا عنده ستة وعشرين يوما ، وأعطاهم شيئا من الذهب الذى يتعاملون به فى بلاد الأشكرى . ثم خلعت عليهـم زوجته المذكورة ، وأعطاهم جوابهم . وسيرهم ومعهم الرسل ، وهم أربوقا وأزتيمور وتيمورتاش . وكان عنـد الملك بركه رجل فقير من أهـل الفيوم ، اسمه الشيخ أحمد المصرى ، له عندنا حرمة كبيرة . وكل أمير عنده له مؤذن وإمام ، ولكل خاتون مؤذن وإمام ، والصغار الذين عندهم لهم مكاتب ويتلون القرآن . وأقاموا (كذا) الرسـل مدة غيبتهم الى سنة خمس وستين وستمائة " . انظر الترجمة الفرنسية لهذا النص فى نفس المرجع والصفحات ، لتفسير ما به من الألفاظ الغريبة أو الغامضة .

فأشار الأمراء حينئذ بسلطنة ولده، ليكون مقيما بديار مصر فى غيبته . فلما كان يوم الخميس ثالث عشر شوّال، أركب السلطان ابنه الملك السعيد بشعار السلطنة، وخرج بنفسه فى ركابه وحمل الغاشية راجلا بين يديه، فأخذها منه الأمراء، ورجع إلى مقر ملكه . ولم تزل الأمراء والعساكر فى خدمته إلى باب النصر، ودخلوا به من (١٣٢ ا) القاهرة رجالة يحملون الغاشية ، وقد زينت [المدينة] أحسن زينة ، واهتم الأمراء بنصب القباب . فسار [الملك السعيد]، والأمير عز الدين أيدمر الحلى راكب إلى جانبه وقد تقرّر أن يكون أتابكه ، والثياب الأطلس والعتابى تفرش تحت فرسه، حتى عاد إلى قلعة الجبل . ولم يبق أمير حتى فرش من جهته الثياب الحرير، فاجتمع من ذلك أحمال تفرّقها المماليك السلطانية . وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر تقليد الملك السعيد، بتفويض عهد السلطنة له .

وفى يوم الاثنين سابع عشره اجتمع الأمراء والقضاة والفقهاء ، وقرئ التقليد المذكور، وشُرع فى ختان الملك السعيد، فأمر [السلطان] الناس بالتأهب للعرض عليه بالأسلحة وآلات الحرب . وقدمت(١) طائفة من جهة التتار المستأمنة ، فكتب [السلطان] إلى أمراء خفاجة بخدمتهم . وظهر كوكب الذؤابة(٢) بالشرق وذؤابته نحو الغرب ، وصار يطلع قبيل الفجر، ويتقدّم قليلا قليلا حتى صار يطلع مرتفعا ، وأضاء ذنبه كثيرا . ولم يتغير عن منزلة الهَقْعة(٣)، وبعده منها إلى جهة المشرق نحو رمح طويل . واستمّر من آخر رمضان إلى أوّل ذى القعدة، وكان يظهر له قبل بروزه شعاع عظيم فى الجو . وظهر أيضا فى الغرب مما يلى الشمال ، بعد عشاء الآخرة فى ليال(٤) عديدة من أخريات رمضان وأوائل شوّال، خطوط مضيئة شبه الأصابع مرتفعة فى جو السماء . واحمرّت الشمس فى رابع شوّال قبيل الغروب، وذهب ضوءها حتى

(١) فى س "قدم" .

(٢) ترجم (Qnatremère : Op. Cit I. 1. p. 241) هـذا اللفظ الى (comète) أى النجم المذنب، بغير تعليق .

(٣) ضبط هذا اللفظ على منطوقه فى (Ibid. Op. Cit. I. 1. p. 241) .

(٤) فى س "ليالى" .

صارت كأنها منكسفة إلى أن غربت؛ فلما كان بعـد عشاء الآخرة أصاب القمر مثل[1] ذلك . وأحضر من المقس ظـاهر القاهرة طفـل ميت ، له رأسان وأربع[2] أعين وأربع أرجل وأربع أيدى ، وُجِد بساحل المقس . وفيه قتل الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل صاحب الكرك . وورد الخبر بوصول الرسل الى الملك بركه، وإكرامه إياهم[3] وتجهيزه لهم .

وفى أوّل ذى القعدة جلس السلطان لعرض العساكر عنـد طلوع الشمس، وقد ملأوا الدنيا : فساق كل أمير فى طُلْبه وهو لابس لامة حربه، وجرّوا الجنائب وعليها عُدد الحرب؛ وأمر السلطان ألا يلبس أحد فى هـذا اليوم إلا شعار الحرب . فما زال السلطان جالسا على الصُّفَّة التى بجانب دار العـدل، والعساكر تسوق وهى لابسة، وديوان الجيش (١٣٢ ب) بين يديه ، والعساكر تعبر خمسة خمسة، ثم عبرت عشرة عشرة . وكاد الناس يهلكون من الزحام وحُمُوّ الحديد، فعبروا بغـير حساب . وهلك عدة من النـاس فى الزحام ، منهم أيبك مملوك الأمير عز الدين أيدمر الحـلى ، فدفن ثم نبش ودفن فى قبر آخر . فقال فى ذلك القـاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : —

ما نقـلوا أيبـك من قبره لحـادثٍ كلّا ولا عن ثبور
لكنه فى يوم عرض قضى والعرض لا بد له من نشور

وأراد السلطان ركوب العسكر فى يوم واحد حتى لا يقال إن أحدا استعار شيئا ، فكان من يعرض يدخل من باب القـرافة، ويخرج من جهة الجبـل الى باب النصر إلى الدهلـيز المضروب هناك . فلمـا قرب غروب الشمس ركب السلطان بقباء أبيض لا غير ، وساق فى وسط العساكر اللابسة — ومعه يسيرٌ من سلاح داريته وخواصه — إلى الدهليز ، فنزل به ورتب المنازل، ثم عاد إلى القلعـة وقت المغرب . ثم إن الناس اهتموا باللعب ، ولبسوا

(١) أفزعت تلك الظواهر السماوية جميع من شاهدوها ، وقالوا إنها من علامات قرب اجتياح التتر لبلاد المسلمين مرة أخرى . انظر ابن واصل (نفس المرجع، ص ٤٢٧ أ) .

(٢) فى س "اربعه"، فى العبارة كلها .

(٣) انظر ص ٥١٤، حاشية ٥ .

خيولهم التشاهير(١) والبراسم(٢) البحرية، والمراوات(٣) والأهلة الذهب والفضة، والأطلس الخطائى(٤). ونزل السلطان، وجنائبه تجر، فكان منظرا يبهر العيون حسنه. وكان الذى دخل فى المراوات من البنود الأطلس الأصفر قيمته عشرة آلاف دينار، وما تجدّد بعد ذلك لا يحصى. وساق السلطان إلى ميدان العيد وقُدّامه جنائبه(٥)، وشَرَط لكل أمير يصيب القَبَق(٦) فرسا من الجنائب بما عليه من التشاهير، وخلعة لكل مفردى أو مملوك أو جندى. وساق هو والأمراء، ثم المفاردة والبحرية والظاهرية والحلقة والأجناد، ودخل الناس بالرماح بكرة النهار. ونزل السلطان وقت الصلاة للصلاة و إطعام الطعام، ثم ركب الناس ولبسوا، وركب السلطان لرمى النشاب وأعطى وخلع.

(١) التشاهير هى الأشرطة التى توضع حول صدر الحصان، وقد شرحها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "les bandes plus ou moins large, qui serrent la poitrine du cheval."

(٢) كذا فى س، وقد قرأها (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 243) "البراسم الحربية"، وترجمها الى (de caparaçons de guerre) أى السروج الحربية.

(٣) المراوات قطع من المعدن أوغيره، يزان بها سرج الحصان، وقد فسرها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) بالعبارة الفرنسية التالية "des plaques de métal ou autres, qui décoraient le harnais du cheval" و يظهر مما يلى (سطر ٣) أن المراوات كانت تخاط بقماش السرج.

(٤) الأطلس الخطائى نوع من الحرير، وأصل صناعته فى بلاد الخطا أى شمالى الصين، وكان فى زمن ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٨١٢) من مصنوعات تبريز أيضا. راجع (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٥) انظر الحاشية التالية.

(٦) القبق — أو القباق — لفظ تركى معناه نبات القرعة العسلية (une courgette)، وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى لعب الرماية المعروف باسم القبق أيضا. وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صارٍ طويل من خشب، يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف، و يكون فى القرعة طير حمام. ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل، فمن أصاب منهم القرعة وأطار الحمام حاز السباق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة. (Quatremère: Op. cit. I. 1. p. 243. N. 118; Dozy: Supp. Dict. Ar.). وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١١١) لعب القبق وصفا يختلف قليلا عن الوصف المتقدم، ونصه: "والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا، تنصب فى براح من الأرض، و يعمل بأعلاها دائرة من خشب، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة، لكى تمر من داخلها الى غرض هناك، تمرينا لهم على إحكام الرمى، و يعبر عن هذا بالقبق فى لغة الترك". وكان لرمى القبق ميدان خاص خارج القاهرة، وكان موضعه حسبما جاء بالمقريزى =

وفى هـذا اليـوم حضر رسل الملك بركه ، فشاهـدوا من كثرة العساكر وحسن زيهـم واهتمام السـلطان وبهجة الخيول وجلالة الفرسان ما بهر عقولهم ، ووقفوا بجانب السـلطان يشاهدون حركات العساكر وإصابة رميها . واستمر ذلك أياما .

وفى تاسعه خلع السـلطان على الملوك والأمراء والبحرية والحجاب والحلقـة ، وأرباب العمائم والوزراء والقضاة وذوى البيـوت ، وحضروا بالخلع ، واستمر اللعب بقيـة النهـار . فسألت الرسل عن العساكر ، هل هى عساكر مصر والشام ، فقيل لهم : " هذا عسكر مصر فقط ، غير من فى الثغور مثـل إسكندرية ودمياط ورشيد وقوص ، (١٣٣ ا) والمجردين والذين سافروا فى إقطاعاتهم " . فكثر تعجّبهم من ذلك .

وفى عاشره عُمل السماط بقلعـة الجبل ، وحضر الملك السعيد وفى خدمته أولاد الملوك وأولاد الأمراء . فختن الملك السـعيد ، ثم ختن ابن الأمير عز الدين الحلى الأتابك ، وابن

= (المواعظ والاعتبار، ج٢ ، ص ١١١ ، ومابعدها) " فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبـة النصر التى تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق ، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . [وقد] بنى به مصطبة فى المحرم من سنة ست وستين وستمائة ، عنـدما احتفل برمى النشاب وأمور الحرب وحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب ونحو ذلك ، وصار ينزل كل يوم الى هذه المصطبة فلا يركب منها الى العشاء الآخرة ، وهو يرمى ويحرّض الناس على الرمى والنضال والرهان ، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهـذا شغله ، وتوفر الناس على الرمح ورمى النشاب . وما برح من بعده من أولاده ، والملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى الصالحى النجمى ، والملك الأشرف خليـل بن قلاون ، يركبون فى الموكب لهـذا الميدان ، وتقف الأمراء والمماليك السلطانية تسابق بالخيل فيه قدامهم ، وتنزل العساكر فيه لرمى القبق ... ... (ص١١٣)... وما برح هذا الميدان فضاء من قلعة الجبل الى قبة النصر ليس فيه بنيان ، وللملوك فيه من الأعمال ما تقدّم ذكره ، الى أن كانت سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون . فترك النزول اليه ، وبنى مصطبة برسم طعم طيور الصيد بالقرب من بركة الحبش ، وصار ينزل هناك . ثم ترك [الناصر] تلك المصطبة فى سنة عشرين وسبعمائة ، وعاد الى ميدان القبق هذا وركب اليه على عادة من تقدمه من الملوك ، الى أن بنيت فيه الترب شيئا بعد شىء حتى انسدّت طريقه ، واتصلت المبانى من ميدان القبق الى تربة الروضة خارج باب البرقية ، وبطل السباق به ورمى القبق فيه من آخر أيام الملك الناصر محمد بن قلاون ... . وأنا أدركت هناك عواميد من رخام قائمة بهذا الفضاء ، تعرف بين الناس بعواميد السـباق ، بين كل عمودين مسافة بعيدة ، وما برحت قائمة هناك الى ما بعد سنة ثمانين وسبعمائة ... " . راجع أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٠٤ ا) .

الأمير شمس الدين سنقر الأشقر الرومى، وابن الأمير سيف الدين سكز[١]، وابن حسام الدين ابن بركه خان، وابن الملك المجاهد ابن صاحب الموصل، ثم أولاد الملك المغيث صاحب الكرك الثلاثة، وابن فخر الدين الحمصى، وعدّة من أولاد الأمراء . و [كان] ذلك بعدما عمل لعدّة من الأيتام وأبناء الفقراء بمصر والقاهرة كسوة، فأحضروا فى هذا اليوم وختنوا . ومنع السلطان الأمراء والخواص من التقدمة التى جرت العادة بها للملوك فى مثل هذا المهم ، فلم يقدّم أحد من الخاصة شيئا البتة .

ولما انقضى هذا المهم خرج السلطان الى الطّرّانة[٢]، وسار إلى وادى هُبَيْب[٣] ونزل الأديرة [التى هناك] ، ومضى الى تروجة وسار منها إلى الحمامات ، وسلك إلى العقبة وضرب الحلقة برسم الصيد، وأدركه عيد النحر هناك. وجرد جماعة لأخذ عربان بلغه كثرة فسادهم، وأحضر هوارة وعرب سليم ، وألزمهم بإشهاد كتب عليهم بعمارة البلاد ، وألا يؤوا أحدا من أهل الفساد . ثم عاد الى ثغر الإسكندرية، وعمّ المفاردة والأمراء والخواص بتفرقة المال والقماش؛ ولعب الكرة بالميدان، وزار الشاطبى . ثم سار الى القاهرة، فنزل تروجة؛ ورسم بتقديم سيف الدين عطا الله بن عزاز على عرب برقة ، وألزمه بجباية زكاة المواشى وأخذ عُشر الزروع والثمار بفريضة الله ، فالتزم بذلك . وأنعم عليه بسنجق ونقارات ، وتوجه لحفظ البلاد واستخراج الزكاة والعشور من العربان ببرقة .

ووصل السلطان إلى قلعة الجبل، فقدم شِحْنة[٤] تكريت بجماعة . وجهز [السلطان] الأمير أمين الدين موسى بن التركمانى، ومعه عدة من الرماة والمقاتلة، وخزانة مال وعدة خلع، وكثير

(١) كذا فى س .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعة على الشاطىء الغربى لفرع رشيد، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلا . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٣ ، ص ٣٤ ، وما بعدها) . انظر أيضا : P. Omar Toussoun :
La Geographie de L'Egypte A L'Epoque Arabe I. 2. Planche 1).

(٣) بغير ضبط فى س، وهو وادى النطرون. (مبارك : الخطط التوفيقية، ج ١٧، ص ٤٨ ، وما بعدها).

(٤) الشحنة اسم وظيفة ، وقد تقدّمت الإشارة اليها . (انظر ص ٤٠، حاشية ٥) .

من أمراء عربان الكرك وبحريتها ، ومبلغ من الغلال والذخائر . فساروا الى خيبر[١] واستولوا على قلعتهـا .

وكثر فى هذه الســنة قتل الناس فى الخليج ، وفُقِــد جماعة ؛ والتبس الأمر (١٣٣ ب) فى ذلك . ثم ظهر بعــد شهر أن امرأة جميلة يقال لهـا غازية كانت تخرج بزينتها ومعها عجوز ، فإذا تعـرض لهـا أحد قالت له العجوز : " لا يمكنها المصير الى أحد ، ولكن من أرادها فليأت منزلنا " ؛ فإذا وافى الرجل إليهـا خرج إليــه رجال فقتلوه وأخذوا ما معــه . و[كانت المرأة] فى كل قليل تنتقل من منزل إلى منزل ، حتى سكنت خارج باب الشعرية على الخليج . فأتت العجوز إلى ماشــطة مشهورة بالقاهرة واســتدعتها إلى فرح ، فسارت [المـاشطة] معها بالحـلى على العادة ومعها جاريتها ، ودخلت المـاشطة وانصرفت جاريتها، فقتل الجماعة المـاشطة وأخذوا ما كان معها . وجاءت جاريتها الى الدار تطلب مولاتها فأنكروها ، فمضت إلى الوالى وعرّفتــه الخبر ، فركب الى الدار وهجمها فإذا بالصبية والعجوز ، فقبض عليهما وعرضهما على العــذاب ، فأقرتا لحبسهما . واتفق أن رجلا جاءهما لتفقد أحوالها، فقُبِض عليه وعوقب فدلّ على رفيقه ، فإذا هو صاحب أقمنة طوب فعوقب [أيضا] . فوجد أنهم كانوا إذا قتلوا أحدا ألقوه فى القمين حتى تحترق عظامه ، وأظهروا من الدار حفائر قد ملئت بالقتلى ، فسُمِّروا جميعا . ثم أطلقت المرأة بعــد يومين ، فأقامت قليلا وماتت . [ثم عملت الدار التى كانوا بها مسجدا ، وهو المعروف بمسجد الخنّاقة[٢]] .

وفى هذه الســنة وقف السلطان عدّة قرى بأعمال الشام والقدس ، لصرف ريعها فى ثمن خبز ونعال لمن يرد إلى القدس من المشاة ، ومبلغ فلوس . وأنشأ خانا وفرنا وطاحونا بالقدس ، وجعل النظر فى ذلك للأمير جمال الدين محمد بن نهار .

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعــد مراجعــة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ص ١٢٦) ، والقصة كلها واردة بذلك المرجع (ص ١٢٤ — ١٢٦) ، وهى هناك أكثر تفصيلا .

وفيها قبض الأشكرى صاحب قسطنطينية على عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن كيقباد صاحب بلاد الروم : وسبب [وجود عز الدين عند الأشكرى هو](١) اختلافه مع أخيه [ركن الدين قلج أرسلان] ، حتى غلبه أخوه ففر منه ، وملك أخوه ركن الدين قلج أرسلان بلاد الروم . فمضى عز الدين إلى الأشكرى ، فآواه وأنزله ومن معه من الأمراء ، وقام بأمرهم مدة ، حتى بلغه أنهم قصدوا قتله وأخذ المملكة منه ، فقبض عليهم واعتقل عز الدين ، وكحل أصحابه كلهم فأعماهم .

[وفيها(٢)] ولى محيي الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن الأستاذ الأسدى الشافعى قضاء حلب ، عوضا عن ابن عمه كمال الدين أبى بكر أحمد(٣) [المتوفى(٤)] .

ومات(٥) فى هـذه السنة من الأعيان الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى صاحب الكرك ، مقتولا بقلعة الجبل ، عن ثلاثين سنة . ومات الملك الأشرف موسى بن المنصور بن إبراهيم بن المجاهد شيركوه بن القاهر محمد بن المنصور ابن شيركوه بن شادى صاحب حمص ، عن خمس وثلاثين سنة بها ، وهو آخر من ملك حمص من أولاد شيركوه . ومات الأمير حسام الدين لاجين العزيزى الجوكندار بدمشق ، عن نحو خمسين سنة . وتوفى قاضى قضاة دمشق عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم بن جمال الدين

(١) فى س "وسببه" ، وقد تقـدمت الإشارة إلى ما حدث لعز الدين المذكور على يد الأشكرى (Theodore II Lascaris) إمبراطور الدولة البيزنطية . انظر ص ٤٠٨ ، حاشية ١ ، وهى التى منها أضيف ما بين الأقواس للتوضيح .

(٢ و ٣) العبارة الواردة هنا بين الرقمين موجودة بهامش صفحة ١٣٢ ب فى س .

(٤) انظر الصفحة التالية ، سطر ٣ .

(٥) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٢٣ ب ، ١٢٤ أ فى س ، (انظر ص ٤٨٦ ، حاشية ٢) ، ولا شك فى مناسبة وضعها هنا تحت سنة ٦٦٢ هـ ، فقد سبق ورود خبر وفاة كل من الملك المغيث عمر ، والملك الأشرف موسى ، بين أخبار تلك السنة . (انظر ص ٥٠٥ ، سطر ١٣ ؛ ص ٥١٧ ، سطر ٣ ؛ وكذلك أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٠ ، فى Rec. Hist. Or. I ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٠٥ — ٣٠٧ ، ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٠٣) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود فى ب (١٥٩ ب) ما عدا واحدة ، وهى وفاة قاضى قضاة دمشق عماد الدين الحرستانى . (انظر سطر ١٤) .

أبى القاسم عبـد الصمد بن محمـد بن الفضل بن الحرستانى الدمشقى الشافعى ، وهو معزول وبيده خطابة الجامع وتدريس الحديث بالأشرفية ، عن خمس وخمسين سنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة بحلب كمال الدين أبو بكر أحمد بن زين الدين أبى محمـد عبد الله بن عبد الرحمن ابن علوان الأسدى الشافعى ، المعروف بابن الأستاذ ، عن إحدى وخمسين سنة . وتوفى شيخ الشيوخ بحماة شرف الدين أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن الأنصارى ، عن ست وسبعين سـنة ، فى ثامن رمضان ، ومولده فى جمادى الأولى سنة ست وثمـانين وخمسمائة . وتوفى الرجل الصالح أبو القاسم بن منصور بن يحيى القبارى بالإسكندرية ، عن خمس وسبعين سنة .

* * *

سنة ثلاث وستين وستمائة . فى المحرم توجه الملك الظاهر من قلعة الجبل الى الصيد فأقام بوسيم ، ثم سار إلى العباسة ورمى البندق ، وادّعى له[1] جماعة منهم الأمير فخر الدين عثمان ابن الملك المغيث صاحب الكرك . فورد الخبر بنزول التتر على البيرة ، فجهز [السلطان] من فوره الأمير بدر الدين الخازندار على البريد ، ليخرج أربعة آلاف فارس من بلاد الشام . وركب السلطان من موضعه وساق إلى القلعـة ، وكانت الخيول على الربيع ، فلم يقم بقلعة الجبل بعد عوده من الصيد غير ليلة . وعين الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت[2] لتقدمة العساكر ، ومعـه من الأمراء الأمير فخر الدين الحمصى ، والأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، والأمير علاء الدين كشتغدى الشمسى ، وعدّة من الأمراء والحلقة تبلغ أربعة آلاف فارس (١٣٤ أ) ،

---

(١) المعنى المقصود هنا بفعـل " ادعى له " — وضمير الهاء عائد على السلطان بيبرس — أن الأمير فخر الدين عثمان المذكور انتسب اليـه واعتبره أستاذه فى الصيد . ذلك أن العادة فى دوائر الصيد كانت فى تلك الأزمنـة أن المبتدئ لا يصير فى زمرة هواة هذا الفن إلا بعـد الانتساب لأحد رماة الصيد القدماء ، فإذا تم له ذلك قيل إنه ادعى لفلان ، أى انتسب اليـه . وكانت وسيلة "الادعاء" هذه أن ينجح المبتدئ فى إصابة رميته من طير أو غيره ، وعند ذلك يختـار الانتساب الى من يشاء من رجال الصـيد المعروفين ، سلطانا كان أو أميرا أو فقيها أو عاميا . انظر (Quatremère : Op. Cit. II. 1. P. 75. N. 83).

(٢) فى س " سم الموب " ، وقد صحح الاسم كله من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣١) .

فخرجوا من القاهرة جرائد فى رابع شهر ربيع الأول . ثم عين الأمير جمال الدين المحمدى ، والأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى، ومعهما أربعة آلاف أخرى؛ فبرزوا ثانى يوم خروج الأمير عز الدين إيغان الى ظاهر القاهرة، وساروا فى عاشره .

[و فى يوم السبت رابع ربيع الآخر] شرع(١) السلطان فى السفر، وخرج بنفسه فى خامس شهر ربيع الآخر ومعـه عساكر كثيرة . فوقع فنـاء فى الدواب هلك منها عدد كثير، وصارت الأموال(٢) مطروحة، والسلطان لا يقصر فى المسير . فلمـا شُكى اليه قـلة الظَّهر قال : " ما أنا فى قيد الجمال، أنا فى قيـد نصرة الإسلام" . ونزل [السلطان] غزة فى العشرين منه، فورد الخبر بأن العـدو نصب على البيرة سـبعة عشر منجنيقا، فكتم ذلك ولم يعلم به سـوى الأمير شمس الدين سنقر الرومى والأمير سيف الدين قلاون فقط . وكتب [السلطان] للأمير إيغان : "متى لم تدركوا قلعة البيرة؟ وإلا سقت إليها بنفسى جريدة"، فساق [الأمير إيغان] العسكر . ورحل السلطان من غزة ، ونزل قريبا من صيداء، فركب للصيد فتقطّر عن فرسه وانهشم وجهه، فتجلد ورحل . وأتاه قَسْطِلان(٣) يافا بتقادم .

ونزل السلطان بِيبْنى(٤) فى سادس عشريه، فورد البريد من دمشق وهو فى الحمام بالدهليز، فلم يمهل وقرئ عليـه الكتاب وهو عريان : فإذا هو يتضمن بأن بطاقة الملك المنصور صاحب حماة سقطت بأنه وصل إلى البيرة بالعساكر، صحبة الأمير عز الدين إيغان وجماعة الأمراء — يوم الاثنين ، وأن التتار عند ما شاهدوهم هربوا ، ورموا مجانيقهم وغرّقوا مراكبهم؛ وكان من حين كتابتها بالبيرة إلى حين وصولها يبنى أربعـة أيام . ثم توالت كتب الأمراء بالبشارة، فكتب بذلك إلى القاهرة وغيرها . واستشهد على البيرة الأمير صارم الدين

(١) فى س " فشرع "، وقد أضيفت العبارة الافتتاحية لهذه الجملة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٣٢) . (٢) المقصود هنا الأموال التى ستحملها الدواب مع جيش السلطان .

(٣) معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ، ومعناه مستحفظ القلعـة ، (انظر ص ٣٥ ، حاشـية ٥ ؛ ص ٤٠ ، حاشية ٦) ، ويقابله فى الفرنسية (Châtelain)، راجع (Dozy. Supp. Dict. Ar.) . هـذا ولعل المقصود بقسطلان يافا فى تلك السنة هو صاحبها ومتملكها (John II d'Ibelin)، وقد تقدّمت الإشارة إليه فى ص ٤٦٤، سطر ٤ . (٤) فى س " بينا " .

بكاش الزاهدى، وترك موجودا كبيرا وبنتا واحدة؛ فرسم [السلطان] أن يكون جميع الإرث لها لا يشاركها فيه أحد . وكتب [السلطان] بعمارة ماخرب من البيرة، وحمل آلات القتال والأسلحة اليها من مصر والشام، وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج اليـه أهلها فى الحصار لمدّة عشر سـنين . وكتب للأمراء ولصاحب حماة بالإقامة على البيرة، حتى ينظف الخندق من الحجارة التى ردمها العدو فيه؛ فكانت الأمراء تنقل الحجارة على أكتافها مدّة . وبعثوا بخبر ذلك إلى السلطان، وهو واقف على سور قيسارية ليهدمه بنفسـه، وفى يده القَطّاعة[1] وقد تجرّحت يده . فكتب جوابهم : "إنا بحمد الله ما تخصّصنا عنكم براحة ولا دعة، ولا أنتم فى ضيق ونحن فى سـعة . ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل (١٣٤ ب) والنهار، وناقل الأحجار ومُرابط الكفار . وقد تساوينا فى هذه الأمور، وما ثمّ ما تضيق به الصدور". وكتب [السلطان] إلى القاهرة باسـتدعاء مائتى ألف درهم ومائتى تشريف، وإلى دمشق بتجهـيز مائة ألف درهم ومائة تشريف، وحمل جميع ذلك إلى البيرة . وكتب إلى الأمير إيغان بأن يحضر أهل قلعـة البيرة ويخلع على سائر من فيها من أمير ومأمور وجنـدى وعامى، وينفق فيهم المـال حتى الحرّاس وأرباب الضوء[2]؛ فاعتمد ذلك كله. وكتب إلى الديار المصرية بتبطيل المِزْر، وأن تعفّى آثاره وتخرب بيوته وتكسر مواعينه، و[أن] يسقط ارتفاعه من الديوان، "ومن كان له على هذه الجهة شيء نعوّضه من مال الله الحلال"؛ فاعتمد ذلك، وعوّض المقطعون بدل ما كان لهم على جهة المزر .

ثم ركب [السـلطان] من العوجاء بعـد ركوب الأطلاب للتصيد فى غابة أرسـوف، ورسم للأمراء من أراد منهم الصيد فليحضر، فإن الغابة كثيرة السباع . وساق إلى أرسوف

---

(١) القطاعة هى المطـرقة، تسـتعمل لقطع الصـخر أو هـدم البناء، وجمعهـا قطاطيع . (محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) فى س "ارباب الضو"، وقد زيدت الهمزة على اللفظ الثانى بعـد مراجعة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 4. N. 5) حيث ترجمت العبارة الى الآتى : (les hommes prèposès a l' éclairage)، أى الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة، ويقال لهم الضوية والمشاعلية أيضا . (Dozy ; Supp. Dict. Ar.) .

وقيسارية ، فشاهدهما وعاد إلى الدهليز ، فوجد أخشاب المنجنيقات قد أحضرت صحبة زردخاناه ، فأمر بنصب عدّة مجانيق وعملها . وجلس [السلطان] مع الصناع يستحثهم ، فعمل فى يوم واحد أربع منجنيقات كبار سوى الصغار . وكتب إلى القلاع بطلب المجانيق والصناع والحجارين ، ورسم للعسكر بعمل سلالم . ورحل [السلطان] إلى قريب عيون الأساور (١) من وادى عارَة وعَرعَرة (٢) ، فلما كان بعد عشاء الآخرة أمر العسكر كله فلبسوا آلة الحرب ، وركب آخر الليل وساق إلى قيسارية ، فوافاها بكرة نهار الخميس تاسع جمادى الأولى على حين غفلة من أهلها ، وضرب عليها بعساكره . وللوقت ألقى الناس أنفسهم فى خندقها ، وأخذوا السِّكَك (٣) الحديد التى برسم الخيول — مع المَقاوِد والشُّبُح (٤) ، وتعلقوا فيها من كل جانب حتى صعدوا ، وقد نُصبت المجانيق ورمى بها . فحرقوا أبواب المدينة واقتحموها ، ففر أهلها إلى قلعتها ، وكانت من أحصن القلاع وأحسنها وتعرف بالخضراء . وكان قد حمل عليها الفرنج العُمُد الصوّان ، وأتقنوها بتصليب العمد فى بنيانها ، حتى لا تعمل فيها النقوب ولا تقع إذا عُلِّقَت . فاستمر الزحف والقتال عليها بالمجانيق والدبابات والزحافات (٥) ورمى

(١) بغير ضبط فى س ، وهى منزلة قرب قيمون والرملة من أعمال فلسطين . (ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ٤٧ ، حاشية ١ ، ٢ ، فى Rec. Hist. Or. III ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢١٨) .

(٢) ضبط هذين الاسمين على منطوقهما فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 6) ، حيث ترجما الى (Arah et Ararah) .

(٣) السكك جمع سكة ، وهى الوتد الذى يربط به مقود الحصان . (محيط المحيط Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٤) هذا اللفظ مضبوط بضم الشين فقط فى س ، وهو جمع شبحة ، وهى السلسلة التى يربط بها قدم الحصان ، فى أحد طرفيها عروة تزرر فى القدم ، وفى طرفها الآخر رزة تدق فى الأرض . (محيط المحيط Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٥) فى س "الرجافات" ، والصيغة المثبتة هنا من ب (١٥٩ ب) ، والزحافات مشروحة ضمنا فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى العبارة التالية : "... برج الزحف ou آلة الزحف est une sorte de tour dans laquelle se trouvent des soldats munis d'arbalète et de machines de guerre, et qui est placée sur un chariot que l'on pousse contre les murailles d'une place forte, que l'on assiege." . هذا وليس فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٦ ، وما بعدها) فى باب آلات الحصار ذكر للزحافات ، على أنه أورد المجانيق ومكاحل البارود وقوارير النفط والستائر .

النشاب . وخرجت تجـريدة من عسكر السلطان إلى بيسان مع الأمير شهاب الدين القيمرى، فسيّر جماعة من التركمان والعربان (١٣٥أ)[1] إلى أبواب عكا، فأسروا جماعة من الفرنج .

[هذا] والقتال مُلِحٌّ على قلعة قيسارية، والسلطان مقيم بأعلى كنيسة تجاه القلعة ليمنع الفرنج من الصـعود إلى علو القلعـة، وتارة يركب فى بعض الدبابات ذوات العجل التى تجرى حتى يصل إلى السور ليرى النقوب بنفسه . وأخذ [السلطان] فى يده يوما من الأيام ترسا وقاتل، فلم يرجع إلا وفى ترسه عدة سهام .

فلما كان فى ليـلة الخميس النصف من جمادى الأولى سلّم الفرنج القلعة بما فيها، فتسلّق المسلمون من الأسوار، وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها، وأذّن بالصبح عليها . وطلع السلطان ومعــه الأمراء إليها، وقسّم المدينـة على الأمراء والمماليك والحلقـة، وشَرع فى الهـدم ونزل وأخذ بيـده قطّاعة وهدم بنفســه . فلما قارب الفـراغ من هدم قيسارية بعث [السلطانُ] الأميرَ سنقر الرومى والأمير سيف الدين المستعرب فى جماعة، فهدموا قلعـة كانت للفرنج عند المَلُّوحَة[2] قريب دمشق — وكانت عاتية[3] — حتى دكّوها دكّا .

وفى سادس عشريه سار السلطان جريدة إلى عثليث؛ وسيّر الأمير سـنقرا السلاح دار، والأمير عز الدين الحموى، والأمير سنقرا الألفى، إلى حيفا . فوصلوا إليها، ففر الفرنج إلى المراكب وتركوا قلعتها، فدخلها الأمراء بعد ما قتلوا عدّة من الفرنج وبعد ما أسروا كثيرا، وخربوا المدينـة والقلعـة وأحرقوا أبوابها فى يوم واحد، وعادوا بالأسرى والرؤوس والغنائم

(١) توجد بين الصفحتين ١٣٤ب، ١٣٥أ فى س، ورقة منفصلة بها وفيات تابعة لسـنة ٦٦٤ هـ، وستورد فى موضعها .

(٢) بغير ضبط فى س، وهى حسبما ورد فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٦٨) قرية كبيرة من قرى حلب، وتقع فى الجنوب الشرقى منها، على مسافة ثمانية عشر ميلا تقريبا . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٣) فى س "عاتبه"، وهى فى ب (١٦١أ) "عالية"، وقد غيرها (Quatremère : Op. Cit. I.2. p. 8. N.9) الى "عاصية"، وترجمها على هـذا المعنى . على أنه يحتمل أن تكون الصيغة الواردة فى س هى المقصودة بالذات، إذ يوجد فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) فى مادة عتب ما يفيد أن التعتيب هو التسقيف (toiture)، ولعل المراد بلفظ عاتبة هنا مأخوذ من هذا المعنى .

سالمين . ووصل السلطان إلى عثليث فأمر بتشعيثها وقطع أشجارها ، فقطعت كلها وخربت أبنيتها فى يوم واحد . وعاد الى الدهليز بقيسارية ، وكمّل هدمها حتى لم يدع لها أثرا . وقدمت منجنيقات من الصبيبة وزرد خاناه من دمشق . وورد عدّة من الفرنج للخدمة ، فأكرمهم السلطان وأقطعهم الإقطاعات .

وفى تاسع عشريه رحل السلطان من قيسارية ، وسار من غير أن يعرف أحد قصده . فنزل على أرسوف مستهل جمادى الآخرة ، ونقل إليها من الأحطاب ما صارت حول المدينة كالجبال الشاهقة وعمل منها ستائر ، وحفر سربين[1] من خندق المدينة إلى خندق القلعة وسقّفه بالأخشاب . وسلّم أحدهما للأمير سنقر الرومى ، والأمير بدر الدين بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، والأمير شمس الدين الذكر[2] الكركى (١٣٥ ب) ، وجماعة [غيرهم] . وسلّم الآخر للأمير سيف الدين قلاون ، والأمير علم الدين الحلبى الكبير ، والأمير سيف الدين كرمون ، وجماعة [غيرهم] . وعمل [السلطان] طريقا من الخندقين الى القلعة ، وردمت الأحطاب فى الخندق ، فتحيّل الفرنج وأحرقوها كلها . فأمر السلطان بالحفر من باب السربين إلى البحر ، وعمل سروبا تحت الأرض يكون حائط خندق العدو ساترا لها ، وعمل فى الحائط أبوابا يرمى التراب منها وينزل فى السروب حتى تساوى أرضها أرض الخندق . وأحضر المهندسين حتى تقرر ذلك ، وولى أمره للأمير عز الدين أيبك الفخرى . فاستمر العمل ، والسلطان بنفسه ملازم العمل بيده فى الحفر وفى جرّ المنجنيقات ورمى التراب ونقل الأحجار ، أسوة غيره من الناس . و[كان] يمشى بمفرده وفى يده ترس ، تارة فى السرب وتارة فى الأبواب التى تفتح ، وتارة على حافة

(١) يوجد فى محيط المحيط فى مادة ذنب ، وصف لنوع من أنواع الأسربة التى تحتفر فى حصار المدن ، واسمه طريق ذنب الفار ، وهو " سرب كثير التعاريج يحتفر فى حصار المدن والحصون ، ليتوصل به اليها من غير أن يصيب السالكين فيه ما يرشقهم به أهلها " .

(٢) فى س "الذكر" ، انظر (Zetterstéen : Op. Cit. p. 141) . هذا وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 8) هـذا الاسم الى (Aldekiz) ، ونحا (Blochet) هذا النحو فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٩) .

البحر يرامى مراكب الفرنج . و[كان] يحتز فى المجانيق ، و يطلع فوق الستائر يرمى من فوقها ، ورمى فى يوم واحد ثلاثمـائة سهم بيـده . وحضر فى يوم إلى السرب وقعـد فى رأسـه خلف طاقة يرمى منها ، فخرج الفرنج بالرماح وفيهـا خطاطيف ليجبذُوه (١) ، فقام وقاتلهم يدا بيد — وكان معه الأمير سنقر الرومى ، والأمير بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، فكان سنقر يناوله الحجارة — حتى قتل فارسين من الفرنج ، ورجعوا على أسوأ حال . وكان يطوف بين العساكر فى الحصار بمفرده ، ولا يجسر أحد ينظر إليه ولا يشير إليه بأصبعه .

وحضر فى هذه الغزاة جمع كبير من العباد والزهاد والفقهاء وأصناف الناس ، ولم يعهد فيها خمر ولا شىء من الفواحش ، بل كانت النساء الصالحات يسقين المـاء فى وسط القتال ، و يعملن فى جَرِّ المجانيق . وأطلق السلطان الرواتب من الأغنام وغيرها لجماعة من الصلحاء ، وأعطى الشيخ على البكا (٢) جملة مال . ولا سُمِـع عن أحد من خواص السلطان أنه اشتغل عن الجهاد فى نو بته بشغل ، ولا سيّر أمير غلمانَه فى نو بته واستراح . بل كان النـاس فيها سواء فى العمل ، حتى أثّرت (٣) المجانيق فى هـدم الأسوار ، وفرغ من عمل الأسربة التى بجانبى الخندق ، وفتحت فيها أبواب متسعة .

فلمـا تهيأ ذلك وقع الزحف على أرسوف فى يوم الخميس ثامن رجب ، ففتحها الله فى ذلك اليوم عنـد ما وقعت الباشورة (٤) . فلم يشعر الفرنج إلا بالمسلمين قد تسلّقوا وطلعوا الى (١٣٦ ا) القلعـة ، ورُفعت الأعلام الإسلامية على الباشورة ، وحَفّت (٥) بهـا المقاتلة وطَرحت النـيران فى أبوابها . هـذا والفرنج تقاتل ، فدفع السلطان سنجقه للأمير سنقر الرومى وأمره أن يؤمن الفرنج من القتل ، فلمـا رآه الفرنج تركوا القتال . وسُـلِّم السنجق للأمير علم الدين

---

(١) فى س " ليجبدوه " ، والجبذ فى اللغة الجذب ، وفعل جبذ مرادف لفعل جذب . (محيط المحيط) .

(٢) كذا فى س ، وهو مترجم الى (Bakka) فى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 9) .

(٣) فى س " ارت " . انظر (Ibid : Op. Cit. I. 2. p. 10. n. 10) .

(٤) تقدم شرح هذا اللفظ فى ص ٥١٠ ، حاشية ٤ .

(٥) المعنى أن المقاتلة من المسلمين أطافوا بالقلعة وأحدقوا بها . (محيط المحيط) .

سنجر المسرورى المعروف بالخياط الحاجب، ودُلّيت له الحبال من القلعة فربطها فى وسطه والسنجق معه، ورُفع إليها فدخلها وأخذ جميع سيوف الفرنج وربطهم بالحبال وساقهم إلى السلطان، والأمراء صفوف وهم ألوف.

وأباح السلطان القلعة للناس، وكان بها من الغلال والذخائر والمال شىء كثير، وكان فيها جملة من الخيول والبغال لم يتعرض [السلطان] لشىء منه، إلا مااشتراه ممن أخذه بالمال. ووجد فيها عدّة من أسرى المسلمين فى القيود فأطلقوا، وقيد الفرنج بقيودهم. وعين [السلطان] جماعة مع الأسرى من الفرنج ليسيروا بهم، وقسم أبراج أرسوف على الأمراء، وأمر أن يكون أسرى الفرنج يتولون هدم السور؛ فهدمت بأيديهم.

وأمر [السلطان] بكشف بلاد قيسارية وعَمَل متحصلها، فعملت بذلك أوراق؛ وطَلَب قاضى دمشق وعدوله ووكيل بيت المال بها، وتقدم بأن يُمَلَّك الأمراء المجاهدون من البلاد التى فتحها الله عليه ما يأتى ذكره. وكتبت تواقيع كل منهم من غير أن يطلعوا على ذلك، فلما فَرَغت التواقيع فُرِّقت على أربابها، وكتب بذلك مكتوب جامع بالتمليك، ونسخته: "أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود، وتمكينه الذى (١) رفلت به الملة الإسلامية فى أصفى البرود، وفتحه الذى إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه علمت لأمرٍ مّا يسود من يسود. والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار بالسيف البتار، وأعلمهم لمن عقبى الدار، وعلى آله وصحبه صلاة تتواصل بالعشىّ والإبكار. فإن خير النعمة نعمة وردت بعد اليأس، وأقبلت على فترة من تخاذل الملوك وتهاون الناس؛ فأكرم بها نعمة وصلت للأمة المحمدية أسبابا، وفتحت للفتوحات الإسلامية أبوابا، وهزمت من التتار والفرنج العدوين، ورابطت من الملح الأجاج والعذب الفرات بالبرين والبحرين، وجعلت عساكر الإسلام تذلّ الفرنج بغزوهم فى (١٣٦ ب) عقر الدار، وتجوس من حصونهم المانعة خلال الديار والأمصار، وتقود مَنْ فَضَلَ عن شَبَع السيف الساغب إلى حلقات الإسار.

(١) فى س "التى".

ففرقة منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حصونا ، وفرقة تبنى ما هدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينا ، وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعا شاهقة وتتسنّم هضابا سامقة . فهى بحمد الله البانية الهادمة ، والقاسمة الراحمـة . كل ذلك بمن أقامه الله وجرّده سيفا قَفَرَى ، وحملت رياح النصرة ركابه تسخيرا فسار إلى مواطن الظفر وَسَرَى ، وكوّنته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت تعظيما له ما هذا بَشَرا . وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس ، جعل الله سيوفه مفاتح للبلاد ، وأعلامه أعلاما من الأسنة على رأسها نار بهداية العباد ، فإنه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بمـا فيها . وإذا عامله الله بلطفه شكَرَ ، وإذا قدر عفى وأصلح فوافقه القدر ، وإذا أهدت إليـه النصرة فتوحات قسمها فى حاضريها لديه متكرما وقال الهدية لمن حضر ، وإذا خـوّله الله تخويلا وفتـح على يديه قلاعا جعل الهـدم للأسوار ، والدماء للبتـار ، والرقاب للإسار ، والبلاد المزروعة للأولياء والأنصـار . ولم يجعل لنفسه إلا ما تسطره الملائكة فى الصحائف لصِفَاحِه (١) من الأجور ، و [ما] تطوى عليه طويات السير التى غدت بمـا فتحه الله من الثغور باسمه باسمةَ الثغور .

فتى جعـل البـــلاد من العطايا * فأعطى المدْن واحتقر الضياعا
سمعنـا بالكـرام وقــد أرانا * عيـانا ضعف ما فعـــلوا سمـاعا
إذا فعـــل الكـرام على قيـاس * جميلا كان ما فعـــل ابتـداعا

" ولمـا كان بهذه المثابة ، وقد فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره وضاعف ثوابه ، وله أولياء كالنجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوَبْل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا ، رأى ألا ينفرد عنهم بنعمة ، ولا يتخصص ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقذ ، وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم عليهـم الأشعة من أنوار شمسه ، ويبقى للولد منهـم وولد الولد ، ما يدوم إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد ، ويعيش الأبنـاء فى نعمته

(١) الصفاح جمع صفح ، وهو عرض السيف ، وربما أريد هنا به السيف كله . هذا ويقال للسيف أيضا الصفيحة وهى السيف العريض ، وكذلك المصفحة ويجمع على مصفحات . (محيط المحيط) .

كما عاش الآباء، وخير الإحسان ما شمل وأحسنه ما خلد . فخرج الأمر (١٣٧ ا) العالى لا زال يشمل الأعقاب والذرارى، وينير إنارة الأنجم الدرارى، أن يُمَلَّك أمراؤه وخواصه الذين يُذكرون، وفى هـذا المكتوب يُسطرون، ما يُعيَّن من البـلاد والضياع، على ما يُشرح ويبين من الأوضاع : وهو الأتابك فارس الدين أقطاى الصالحى عَتِّيل[1] بكمالها ، الأمير جمال الدين إيدغدى العزيزى النصف من زِيتَا[2] ، الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى الصالحى نصف طُوْركَرَم، [الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نصف طوركرم[3]]، الأمير شمس الدين الذ[4]كز الكركى ربع زيتا، الأمير سيف الدين قلج البغـدادى ربع زيتا، الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير الصالحى أَفْرَاسِينْ بكمالها ، الأمير علاء الدين أيدكين البنـدقدار الصالحى باقة[5] [الشرقيـة] بكمالها ، الأمير عز الدين أيدمر الحلبى الصالحى نصف قَلَنْسُوَة، [الأمير شمس الدين سنقر الرومى نصف قلنسوة]، الأمير سيف الدين قلاون الألفى الصالحى نصف طَيِّبَة الاسم، الأمير عز الدين إيغان سم الموت نصف طيبة الاسم، الأمير جمال الدين [أقوش] النجيبى نائب سلطنة الشام أم الفَحْم بكمالها من قيسارية، الأمير علم الدين سـنجر الحلبى الصالحى بَتَّان[6] بكمالهـا ، الأمير جمال الدين أقوش المحمدى الصالحى نصف بُورِين ، الأمير فخر الدين الطنبا الحمصى نصف بورين، الأمير جمال الدين أيدغدى الحاجبى الناصرى نصف بيزّين[7]، الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى الصالحى نصف بيزّين، الأمير فخر الدين عثمان

(١) ضبط هذا الاسم من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٩) . وستلى هنا جملة أسماء الجهات التى أقطعها السلطان بيبرس لأمرائه ، وهى قرى وضـياع حول قيسارية وأرسوف ، وليس لأحدها تعريف فى معجم البلدان لياقوت ، وقد قوبلت جميعها وضبطت حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) ، كما صححت منه أيضا أسماء الأشخاص الواردة معها . انظر أيضا ;.Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 13 et seq) Smith : The Historical Geography Of The Holy Land. Index).

(٢) فى س "زيبا" .

(٣) أضيف ما بين الأقواس فى سائر هذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (نفس المرجع ، ص ١٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) كذا فى س . انظر ص ٥٢٨ ، حاشية ٢ . (٥) فى س "بامه". (٦) فى س "سان".

(٧) فى س "بيرين" .

ابن الملك المغيث ثلث حلْبة(١)، [الأمير شمس الدين سلار البغدادى ثلث حلبة]، الأمير صارم الدين صراغان ثلث حلبة(٢)، الأمير ناصر الدين القيمرى نصف البرج الأحمر، الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى نصف البرج الأحمر، الأمير سيف الدين إيتامش السعدى نصف يمّا(٣)، الأمير شمس الدين آقسنقر السلاح دار نصف يمّا، الملك المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة نصف دَنّابة(٤)، الملك المظفر صاحب سنجار نصف دنابة(٥)، الأمير بدر الدين محمد بن(٦) ولد الأمير حسام الدين بركه خان دير القُصُون(٧) بكمالها، الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار نصف الشُّوَيكة، الأمير سيف الدين كرمون أغا التترى نصف الشويكة، الأمير بدر الدين الوزيرى نصف طُبَرْس(٨)، الأمير ركن الدين منكورس الدويدارى(٩) نصف طبرس، الأمير سيف الدين قشتمر العجمى عَلّار(١٠) بكمالها، الأمير علاء الدين أخو الدويدار نصف عَرْعَرا، الأمير سيف الدين قَفْجق(١١) البغدادى نصف عرعرا، الأمير سيف الدين دكل(١٢) البغدادى نصف فَرْعُون، الأمير علم الدين (١٣٧ ب) سنجر الأزكشى نصف فرعون، الأمير علم الدين طرطج الأسدى(١٣) أَقْتابة(١٤) بكمالها، الأمير حسام الدين إيتمش بن أطلس خان سِيْدا بكمالها، الأمير علاء الدين كندغدى الظاهرى أمير مجلس الصُّفْرا(١٥) [بكمالها]، الأمير عز الدين أيبك الحموى الظاهرى نصف أَرْتاح، الأمير شمس الدين سنقر الألفى نصف أرتاح، الأمير علم الدين طيبرس الظاهرى نصف باقة الغربية، [الأمير علاء الدين التنكزى نصف باقة الغربية]، الأمير عز الدين الأتابك الفخرى القصير بكمالها، الأمير علم الدين سنجر الصيرفى الظاهرى أَخْصاص بكمالها، الأمير ركن الدين بيبرس المغربى نصف قَفّين، الأمير شجاع الدين طغريل الشبلى أمير مهمندار نصف كفر راعى، الأمير علاء الدين كندغدى الحُبَيشى مقدم الأمراء البحرية

(١ و ٢) فى س "جلمة". (٣) فى س "تما". (٤ و ٥) فى س "ذنابه"، بضم الذال فقط. (٦) كذا فى س، وقد أغفل (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 14) هذا اللفظ فى ترجمته، وأورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ١٤١) الاسم كله كالآتى: "الأمير ناصر الدين بن بركتخان". (٧) فى س "العصفور". (٨) فى س "طرس". (٩) كذا فى س. (١٠) كذا فى س. (١١) فى س "نجق". (١٢) فى س "بكل". (١٣) فى س "طردج الامدى". (١٤) فى س "سباهيا". (١٥) فى س "الصبر الفوقا".

نصف كفر راعى، الأمير شرف الدين بن أبى القاسم نصف كُسْتا[(١)]، الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى نصف كستا، الأمير جمال الدين موسى بن يغمور أستادار العالية نصف بَرْنِيكِيَّة[(٢)]، الأمير علم الدين سنجر الحلى الغزاوى نصف برنيكية[(٣)]، الأمير علم الدين سنجر نائب أمير جاندار نصف حانُوتا من أرسوف، الأمير سيف الدين بيدغان الركنى فَرْدِيْسِيَا[(٤)] بكمالها من قيسارية، الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الكرك ثلث حَبْـلَة من أرسوف، الأمير جمال الدين أقوش السـلاح دار الرومى ثلث حبلة، الأمير شمس الدين سنقر جاه الظاهرى ثلث حبلة، الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سـلاح ثلث جُلْجُولِيّـة، الأمير علاء الدين كشـتغدى الشمسى ثلث جلجولية، الأمير بدر الدين بكتوت بجكا الرومى ثلث جلجولية .

وكُتب من كتاب التمليك الشرعى الجـامع نسخ، وفُرِّقت على كل أمير نسخة، وخُلع على قاضى دمشق وعاد إلى بلده. ونُقلت المنجنيقات إلى القلاع، وهى الكرك وعجلون ونحوهما .

ورحل السلطان من أرسوف بعد استكمال هدمها فى يوم الثلاثاء ثالث عشرى شهر رجب إلى غزة . وسار منها إلى مصر، فخرج الملك السعيد والأتابك عز الدين الحلى نائب السلطنة إلى لقائه ببركة الحجـاج، فلقوه [هناك] . ودخل [السلطان] من القاهرة فى يوم الخميس حادى عشر شعبان والأسرى بين يديه حتى خرج من باب زويلة ، وصعد إلى قلعة الجبـل فاسـتراح . وعَرَض ما حصّـله الأمير عز الدين الحلى، والصاحب بهاء الدين بن حنا، من الخزائن . ولم يترك أحدا من أمير ولا وزير ولا مقدم ولا مفردى، ولا [أحدا من] خواصه ولا بَرْدَارِيته[(٥)]، وبَرْدِدَارِيّته[(٦)] وسائر حواشيه، (١٣٨ ا) حتى عمَّ الجميع بالخلع . وأحسن إلى رسل

---

(١) فى س "كسفا"، فى الحالتين . (٢ و ٣) فى س "برديكه" .

(٤) فى س "افراد نسيفا" .

(٥) فى س "بردارسه" . انظر ص ٤٩٤، حاشية ٣ .

(٦) جاء فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٦٨ وما بعدها)، فى باب ألقاب أرباب الوظائف من الأتباع والحواشى والخدم، أن البرددار "هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة، متحدثا على أعوانه والمتصرفين فيه ... وأصـله (٤٦٩) فردادار ... وهو مركب من لفظين فارسيين ، أحدهما فردا ومعناه الستارة ، والثانى دار ومعناه ممسك، والمراد ممسك الستار ؛ وكأنه فى أوّل الوضع كان يقف بباب الستارة، ثم نقل الى الديوان" .

الملك بركه ، وكتب إلى اليمن و إلى الأنبرور بالبشارة ، وأخرج جمـلة من الدراهم والغـلة والكساوى تصدّق بها على الفقراء .

وكان قد كثر الحـريق بالقاهرة ومصر فى مدّة سفر السلطان ، وأشـيع أن ذلك من النصارى . ونزل بالناس من الحريق فى كل مكان شـدّة عظيمة ، ووُجد فى بعض المواضع التى احترقت نفط وكبريت . فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود ، وأنكر عليهم هذه الأمور التى تفسخ عهـدهم وأَمَر بإحراقهم . فجُمع منهم عالم عظيم فى القلعة ، وأحضرت الأحطاب والحَلْفَاء ، وأمر بإلقائهم فى النـار ؛ فلاذوا بعفوه وسألوا المنّ عليهـم . وتقدم الأمير فارس الدين أقطاى أتابك العساكر فشفع فيهم ، على أن يلتزموا بالأموال التى احترقت ، وأن يحمـلوا إلى بيت المـال خمسين ألف دينار . فأفرج عنهم [السلطان] ، وتولى البطرك[1] توزيع المـال ، والتزموا أن لايعودوا إلى شيء من المنكرات ، ولايخرجوا عما هو مرتّب على أهل الذمة ، وأطلقوا.[2]

وكان الأمير زامل بن علىّ لا تزال الفتنة بينه وبين الأمير عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن فضـل بن ربيعـة . فلمـا طلعت العساكر إلى الشام مع الأمير طيبرس قبضوا على زامل بالبلاد الحلبية ، وحُمـل إلى قلعة عجلون . ثم نُقل إلى القاهرة واعتقل ، ثم أُفرج عنـه وصار يلعب مع السلطان فى الميـدان . وحضر الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا وأحمد بن حجى والأمير هارون ، وأصلح السلطان بينهم وبين زامل ، وردّ على زامل إقطاعه وإمرته ، وأذن لهم فى السفر . فساروا حتى دخلوا إلى الرمل ، فساق[3] زامل وهجم على بيوت عيسى وأفسد ، وقبض على قصّاد السلطان المتوجهين إلى شيراز ، وأخذ منهم الكتب وسار بهـا إلى هولاكو وأطمعه فى البـلاد ؛ فأعطاه [هولاكو] إقطاعا بالعراق . وسافر [زامل]

---

(١) اسم بطرك الأقباط تلك السـنة ، حسبما جاء فى (Butcher : The Story Of The Church Of Egypt. I. p. XIV, II. p. 165 et seq.) اثناسيوس الثالث .

(٢) أخبار هذه الحرائق واردة بتفصيل أكثر مما هنا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٣٣ وما بعدها) .

(٣) فى س " ساق " .

إلى الحجاز فنهب وقتل، وعاد إلى الشام . وكان السلطان قد أعطى إقطاعه لأخيه أبى بكر، فضاقت عليه الأرض، وكتب يطلب من السلطان العفو . فقرر [السلطان] معه الحضور إلى مدة عيّنها له، وأنه متى تأخر عنها فلا عهد له ولا أيمان؛ فلما تأخر عن المدة المعينة وحضر بعدها قبض عليه، واعتقل بقلعة الجبل .

وفى خامس عشريه جلس السلطان بدار العدل، وطلب تاج الدين بن[1] القرطى . فلما حضر قال [السلطان له] : " أضجرتنى مما تقول . عندى مصالح لبيت مال المسلمين، فتحدث الآن بما عندك " . فتكلم [القرطى] فى حق (١٣٨ ب) قاضى القضاة، وفى حق صاحب سواكن، و[قال] إن الأمراء الذين ماتوا أخذ ورثتهم أكثر من حقوقهم . فأمر السلطان بإحضار زِيَار[2]، وأراه لمن حضر وقال : " من يصبر على هذا الزيار[2] يُستَكثَر عليه إقطاع، أو يستكثر على ورثته موجود يخلفه لهم؟ "، وأنكر عليه وأمر به فحبس . وتحدث [السلطان] فى أمر الجند، وأنهم إذا كانوا فى البيكار[3] وفى مواطن الجهاد لا يصل إليهم شاهد، فيُشْهِد أحدهم أصحابه [عند موته][4]، فإذا حضروا لا تقبل شهاداتهم، وتضيع أموال الناس بهذا السبب . وقال : " الرأى أن كل أمير يعين من جماعته من فيه دين وخير ليسمع قوله، وكل[5] مقدم وكل جماعة من الجند يعين من فيها ممن هو من أهل الخير والصلاح، لتسمع أقوالهم، حتى تحفظ أموال الناس" . فسرّ الأمراء بذلك، وشرع قاضى القضاة فى اختيار الناس الجياد من الجند لذلك .

وجلس [السلطان] فى تاسع عشريه بدار العدل، فوقف شخص وشكا أن من سكن

---

(١) كذا فى س، وهو فى ب (١٦٤ ا) "تاج الدين القرطبى"، وقد ترجمه (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 17) على هذه الصيغة .

(٢) الزيار — أو الزيارة — وجمعه زيارات، آلة حربية كالقوس الذى يرمى به البندق، وهو مترجم الى (arbalète) فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. P. 17) . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) تقدّم شرح هذا اللفظ فى ص ١٠٥، حاشية ١ .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 18.) .

(٥) هذا اللفظ مكرر فى س .

فى شىء من الأملاك الديوانيــة لا يُمَكَّن من الخــلو ، فأنكر [السلطان] ذلك وأمر بتمكين الساكن من الخلو عند انقضاء الإجارة . ووردت رسل الأنبرور ، ورسل الملك الأشكرى ، بالهــــدايا .

وفى سابع شهر رمضان قدمت العساكر من البيرة ، مع الأمير جمال الدين المحمدى ، والأمير عز الدين إيغان . وقدمت هــدية ملك الكرج[1] . وورد الخــبر باستيلاء عز الدين السكندرى نائب الرحبــة على قرقيسياء[2] ، وقتلوا من كان فيها من التتر والكرج ، وأسروا نيفا وثمــانين رجلا فى نصف شهر رمضان .

وفيه رسم بتحصــيل المراكب لتغرق فى بحر أشموم ، فلما كان ثانى شوّال سار الســلطان إلى أشموم بنفسه ، وقسّم عمل البحر على الأمراء ، وعمل بنفســه وحمل القفة مملوءة بالتراب على كتفه ، والناس تشاهده . فوقع الاجتهاد فى الحفر ، واستمر السلطان على العمل بنفســه فى كل يوم ، و[صار] يركب فى المراكب وتُغَرّق المراكب قدامه . فتنجّز العمل فى ثمــانية أيام ، وتكامل الحفر فى بحر أشموم . وفى الجهة التى من ناحية جوجر[3] . وسار [الســلطان] إلى منزلة ابن حسون ، وعاد إلى قلعــة الجبل فى حادى عشريه . ورسم بإبطال حراســة

(١) كانت مملكة الكرج قد انضوت تحت حكم المغول منــذ سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، وكان ملكها صاحب الهدية الواصلة الى القاهرة هذه السنة داود أولو (David Ulu) ، أى داود الضخم . وقد اشترك داود هذا وجنوده الكرجية فى وقعة هولاكو على بغــداد ، ووقعة انهزام التــتر فى عين جالوت على يد السلطان قطز . ثم حدث أن ثار داود ضــدّ الحكم التترى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) ، فتخلى عنه معظم أمرائه وصالحوا التتر ، وهرب هو بعد هزيمته الى بلدة (Kutais) ، حيث كان ابن عمه داود نارين (David Narin) ، أى داود المــاهر . وحوالى ذلك الوقت نشبت الحرب بين هولاكو و بركه خان ، فرأى هولاكو ترضية داود الضخم و إعادته الى مملكته وتبعيتــه للمغول ، وقد ظل داود حتى وفاته ســنة ١٢٦٩ م راضيا بتلك التبعيــة فى الظاهر ، غير أنه كان فى نفس الوقت يكيد لهولاكو عنــد كل من الملك بركه خان والسلطان بيــبرس ، على النحو المشار اليــه بالمتن . (Allen: A Hist. Of The Georgian People. pp. 109 et seq).

(٢) فى س "قرقيسيا" بغير ضبط ، وكثيرا ما ترد هذه الصيغة المقصورة فى الشعر ، وتسمى أيضا قرقيساء ، وتقع عند ملتق نهير الخابور بالفرات . (ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ، ص ٦٦) . هذا و يوجد بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية : "قرقيسيا هى حصن الزبا التى اخذت جذيمه الابرش" .

(٣) انظر ص ٤٠٣ ، حاشية ١ .

النهار[١] بالقاهرة ومصر وكانت جملة كبيرة، وكُتب توقيع بإبطالها، وكُتب أيضا بمسامحة الأعمال الدقهلية والمرتاحية[٢] أربعة وعشرين ألف درهم نقرة[٣] عن رسوم[٤] الولاية والمال المستخرج برسم النقيدى[٥] . وتوجه شجاع الدين بن (١٣٩ ا) الداية الحاجب إلى الملك بركه رسولا ، ومعه ثلاث عُمَر اعتمر بها عنه بمكة، عُملت فى أوراق مذهبة، وشىء من ماء زمزم ودهن بلسان وغـيره .

وفى آخره نزل بالسلطان وعك، فتداوى بالصدقة وأعطى الفقراء مالا جزيلا .

وفى ذى القعدة قدم الراهب كرنانوس[٦] بكتاب الملك الأشكرى . وكان الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى يكره قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، ويضع من قدره ويحطّ عليه عند السلطان ، بسبب تشدّده فى الأحكام وتوقّفه فى القضايا التى لا توافق مذهبه . فاتفق جلوس السلطان بدار العدل فى يوم الاثنين ثانى عشر ذى الحجة، فرفع إليه بنات الملك الناصر قصة فيها أن ورثة الناصر اشتروا دار قاضى القضاة بدر الدين السنجارى فى حياته، فلما مات ذكر ورثته أنها وقف . فعند ما قُرئت أخذ الأمير أيدغدى يحطّ على الفقهاء وينقصهم، فقال السلطان للقاضى تاج الدين : "يا قاضى! هكذا تكون القضاة؟" . فقال [تاج الدين]: "يامولانا! كل شاة معلّقة بعُرقوبها" . قال "فكيف الحال فى هذا؟"

(١) أشار المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٠٦) الى "حراسة النهار" بما لا يزيد عما هو وارد هنا ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 19.) هذين اللفظين الى (La garde du jour) .

(٢) فى س "المرتا" ، وبقية اللفظ مطموس تماما فى س ، لكنه وارد فى ب (١٦٤ ب) .

(٣) معظم هذه الكلمة ضائع فى س ، وهى تامة فى ب (١٦٤ ب) .

(٤) عرّف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٨٩) رسوم الولاية المذكورة هنا ، بأنها "كانت جهة تتعلق بالولاة والمقدمين ، فيجبيها المذكورون من عرفاء الأسواق وبيوت الفواحش . ولهذه الجهة ضامن ، وتحت يده عدة صبيان ، وعليها جند مستقطعون وأمراء وغيرهم ، وكانت تشتمل على ظلم شنيع وفساد قبيح وهتك قوم مستورين وهجم بيوت أكثر الناس" .

(٥) كذا فى س ، ويفهم مما يلى ص ٥٤٣ ، سطر ١٤ ، أن النقيدى اسم موضع قرب فم خليج الإسكندرية .

(٦) فى س "كرنانوس" ، وقد صحح على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 19) ، حيث يوجد رسم آخر لهذا الاسم وهو (Germanos) ، وقد تقدمت الإشارة الى هذا الراهب فى ص ٥١٤ ، سطر ٧ .

قال : " إذا ثبت الوقف يعاد الثمن من الورثة" . فقال السلطان : " فإذا لم يكن مع الورثة شيء؟" قال [القاضى]: " يرجع الوقف إلى أصله ، ولا يستعاد الثمن" . فغضب السلطان من ذلك ، وما تمّ الكلام حتى تقدم رسول أمير المدينة النبوية وقال : "يا مولانا السلطان ! سألتُ هذا القاضى أن يسلم إلىّ مبلغ ريع الوقف الذى تحت يده ، لينفقه صاحب المدينة فى فقراء أهلها ، فلم يفعل" . فسأل السلطان القاضى عما قاله ، فقال : "نعم". قال السلطان: "أنا أمرتُه بذلك ، فكيف رددتَ أمرى؟" قال : "يا مولانا ! هذا المال أنا متسلمه ، وهذا الرجل لا أعرفه ، ولا يمكننى أن أسلمه لمن لا أعرفه ، ولا يتسلمه إلا من أعرف أنه موثوق بدينه وأمانته ، فإن كان السلطان يتسلمه منى أحضرته إليه" . فقال السلطان : " تنزعه من عنقك وتجعله فى عنقى؟ " قال : "نعم" . قال [السلطان] : " لا تدفعه إلا لمن نختاره[1] " . ثم تقدم بعض الأمراء وقال : " شهدتُ عند القاضى فلم تسمع شهادتى فى ثبوت الملك وصحته" ، فسأل السلطان القاضى عن ذلك فقال : "ما شهد أحد عندى حتى أثبته"، فقال الأمير : " إذا لم تسمع قولى فمن تريد؟ " قال السلطان : " لم لا سمعت قوله[2]؟ " فقال : "لا حاجة فى ذكر ذلك" . فقال الأمير أيدغدى : "ياقاضى! مذهب الشافعى لك ، ونولّى من كل مذهب قاضياً[3]" . فصغى السلطان لقول أيدغدى (١٣٩ ب) وانقضى المجلس ، إلى أن كان يوم الاثنين تاسع عشره ، ولّى السلطان القاضى صدر الدين سليمان بن أبى العز ابن وُهَيب[4] الأذرعى الحنفى مدرس المدرسة الصالحية ، والقاضى شرف الدين عمر بن عبد الله ابن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى المالكى ، والقاضى شمس الدين محمد بن إبراهيم الحنبلى ، [ليكونوا] قضاة القضاة بديار مصر . وجعل [السلطان] لهم أن يولّوا فى سائر الأعمال المصرية ، مضافا لقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز ؛ وأبقى على

---

(١) فى س " نختاره " .

(٢) بعض ألفاظ العبارات الواردة هنا بين الشولات المقلوبة زائل أو مطموس تماما فى س ، ولكنها كلها واضحة فى ب (١٦٥ أ) . (٣) فى س " قاضى " . (٤) مضبوط هكذا فى س .

ابن بنت الأعز النظر فى مال الأيتام والمحاكمات المختصة ببيت المال ، وكتب لكل منهم تقليدا وخلع عليهم . فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة ، يحكم كل منهم بمذهبه ، و يلبس كل منهم الطَّرْحات (١) فى أيام الخدمة السلطانية . ورسم [السلطان] أيضا لمجد الدين عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم بخطابة القاهرة .

وفى رابع عشرى ذى الحجة قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الرومى واعتقل ؛ وتقدم إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ألا يجتمع بأحد ، فاحتجب عن الاجتماع بالناس .

وفيها تولى الأمير نور الدين على بن مجلى الهكارى نيابة حلب ، عوضا عن أيدكين الشهابى .

وفيها نزل السلطان من قلعة الجبل بالليل متنكرا ، وطاف بالقاهرة ليعرف أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعرّاها سروالها بيده ، ولم يجسر أحد ينكر عليه . فلما أصبح [السلطان] قطع أيدى جماعة من نوّاب الولاة والمقدمين ، والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة .

---

(١) الطرحات جمع طرحة ، وهى من مميزات لباس قضاة القضاة فى عصر المماليك بمصر ، وقد وصفها القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤٢) فقال : "ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره" . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. P. 21. N. 23) ، حيث يفهم أن تلك الطرحة التى امتاز بها قضاة القضاة فى مصر ، وكذلك العمامة والشاش ، كانت كلها من قماش أسود . هذا و يوجد بالقلقشندى (نفس المرجع والجزء ، ص ٤١ — ٤٢) وصف دقيق لأزياء أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء فى تلك الأزمنة ، ونصه : "ويختلف ذلك (أى ملبوس رجال الدين) باختلاف مراتبهم ، فالقضاة والعلماء (ص ٤٢) منهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قربوس سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق ، و يلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكمام طويلها ، مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا على قدميه . ويتميز قضاة القضاة الشافعى والحنفى بلبس طرحة ، تستر عمامته وتنسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعى . ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، و يلبس بدل الدلق فرجية مفرجة من قدامه ، من أعلاها الى أسفلها مزرّرة بالأزرار . وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، و إن كان شتاء كان الفوقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملوّن إلا فى بيوتهم ، و ربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، و يلبسون الخفاف الأديم الطائفى بغير مهاميز" .

وفيها ولى السلطان إمرة عرب آل فضل لعيسى بن مهنا ، فسار وطرد التتار عن البيرة وحران[2] . وفيها هلك القان[1] هولاكو بن طولوخان بن جنكزخان — فى تاسع عشر شهر ربيع الأول ، بالقرب من كورة مراغة — بالصرع ، عن نيف وستين سنة ، منها مدة سلطنته عشر سنين[3] . وقام من بعده ابنه أباغا[4] ، وجهز جيشا لحرب الملك بركه خان ، فانهزم هزيمة قبيحة .

ومات[5] فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الياروقى ، نائب السلطنة بديار مصر ودمشق ، وهو معزول ، بالقصير من عمل مصر ، عن أربع وستين سنة . وتوفى قاضى القضاة بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن الحسن بن على السنجارى الشافعى ، وهو مصروف ،

---

(١) تقدمت الإشارة الى لفظ القان (ص ٣٠٧ ، حاشـية ٤) ، غير أن الصيغة الصحيحة لهـذا اللقب ، فيما يخص هولاكو وخلفاءه على المملكة المغولية بفارس ، أن يكتب إيلخان (Ilkhan) أى الخان التابع . وكان هولاكو قد اتخذ هـذا اللقب تعيينا لمركزه من مقام أخيه قوبيلاى خان الخان الأعظم على جميع الممالك المغولية بآسيا ، ولصق هـذا التلقيب بسلالة هولاكو ، وأطلق اسم دولة إيلخانات على البلاد التى حكموها . (Lane - Poole : Muh. Dyns. P. 217 et seq.).

(٢) يوجد بين المراجـع المتـداولة هنا خلاف طفيف على تاريخ موت هولاكو ، ففى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٤٥) أنه مات فى سابع ربيع الآخر ، وفى أبى الفـداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٠ ، فى Rec. Hist. Or. I.) تاسع ربيع الآخر ، وفى (Enc. Isl. Art. Hulagu) يوم الأحد تاسع عشر ربيع الآخر .

(٣) يوجد بهامش الصفحة فى س وصف لمملكة هولاكو ، ونصه مصححا : "كان بيد هولاكو إقليم خراسان وكرسيه نيسابور ، وعراق العجم — ويعرف ببلاد الجبل — وكرسيه أصفهان ، وعراق العرب وكرسيه بغداد ، وآذربيجان وكرسيه تبريز ، وخوزستان وكرسيه تستر — ويسميها العامة شستر ، وفارس وكرسيه شيراز ، وديار بكر وكرسيها الموصل ، والروم وكرسيه قونيـة " . ويظهر أن المقريزى نقل هـذه العبارة من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، أو من مرجع آخر مشابه له فى العبارة .

(٤) الصيغة المتواترة لهذا الاسم فى الكتب العربية هى الواردة بالمتن هنا ، غير أنه وارد فى المراجع الفرنجية مثل (Enc. Isl. Art. Abaka) بما يقابل القاف بدل الغين ، هـذا وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السـديد ، ص ١٤٧) أنه كان لهولاكو عدا أباغا هذا ستة عشر ولدا ذكورا .

(٥) الوفيات التالية إلى آخر السـنة واردة بورقة منفصلة بين الصفحتين ١٣٩ ب ، ١٤٠ أ فى س ، بغير إشارة إلى موضعها المناسب ، على أنه لا شك فى وقوعها هنا . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٣٧ — ٣٨) .

بالقاهرة عن نيف وستين سنة . وتوفى نجم الدين أبو المظفر فتح بن موسى بن حماد القصرى المغربى، قاضى سيوط بها .

\+ + +

سنة أربع وستين وستمائة . فى المحرم عقد الأمير سيف الدين قلاون عقده على ابنة الأمير سيف الدين كرمون التترى الوافد . فنزل السلطان من قلعة الجبـل ، وضرب الدهليز بسوق الخيل ، عند ما دخل الأمير قلاون عليها . وقام [السلطان] بكل ما يتعلق بالأسمطة، وجلس على الخوان ، ولم يبق أحد من الأمراء حتى بعث إلى قلاون الخيل و بقج الثياب . وأرسل إليه السلطان تعابى[1] قماش وخيلا وعشرة مماليك ، فقبل [قلاون] التقـدمة واستعفى من المماليك، وقال : "هؤلاء خوشداشيتى فى خدمة السلطان"، فأُعفى .

وفيه كتب إلى دمشق بثلاثة[2] تقاليد : أحدها بتقليد[3] شمس الدين عبد الله محمد بن عطا الحنفى قاضى القضاة، والآخر بتقليد زين الدين أبى محمد عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى قاضى القضاة المالكية ، والثالث بتقليد شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلى قاضى القضاة الحنابلة . فصار بدمشق أربعة[4] قضاة، وكان قاضى القضاة الشافعى شمس الدين أحمد بن خلكان ، فصار الحال كما هو بديار مصر، واستمر ذلك[5] . واتفق أنه لما قدمت عهود القضاة الثلاثة[6] لم يقبـل المالكى ولا الحنبلى ، وقبل الحنفى . فورد مرسوم السلطان بإلزامهما بذلك، وأخذ ما بأيديهما من الوظائف إن لم يفعلا، فأجابا . ثم أصبح المالكى وعزل نفسه عن القضاء والوظائف ، فورد المرسوم بإلزامه فأجاب، وامتنع هو والحنبلى من تناول جامكية على القضاء . وقال بعض أدباء دمشق لما رأى اجتماع قضاة كل واحد منهم لقبه شمس الدين :

---

(١) التعابى جمع تعبية ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 23) تعابى قماش إلى (des robes) أى ثياب ، وترجمها (Dozy : Supp. Dict. Ar.) إلى (pièces d'étoffe) أى قطع من قماش .

(٢) فى س "بثلاث" . (٣) فى س "تقليد" . (٤) فى س "اربع" .

(٥) العبارة الآتية ، الى آخر سطر ٦ بالصفحة التالية ، واردة على ورقة منفصلة بين صفحتى ١٣٧ ب ، ١٣٨ أ فى س ، وليس من سبب الى ذكر هذا سوى أن تلك الورقة موضوعة هناك خطأ . (٦) فى س "الثلاث" .

أهل دمشق استرابوا * من كثرة الحكام
إذ هم جميعـا شموس * وحالهم فى ظـلام

وقال آخـــر :

بدمشق آية قدظهرت * للنـاس عـاما
كلما وُلِّى شمس قاضيا * زادت ظـلاما

وكان استقلالهم بالقضاء فى سادس جمادى الأولى .

وفيه وردت رسل الأنبرور، ورسل الفنش[1]، [ورسل[2] ملوك الفرنج]،ورسل ملك اليمن[3]، ومعهم (١٤٠ ا) هدايا إلى صاحب قلاع الإسماعيلية . فأخذت منهم الحقوق [الديوانيـة] عن الهدية، [إفسادا لنواميس الإسماعيلية، وتعجيزا لمن اكتفى شرّهم بالهدية] .

وفى ثامن صفر كانت وقعـة بين الأمير علم الدين سنجر الباشقردى نائب حمص ، وبين البرنس [بيمند بن بيمند][4] ملك الفرنج بطرابلس، انهزم فيهـا الفرنج . وفيـه كُتب إلى دمشق بعمل مراكب ، فعُملت وحملت إلى البيرة . وفيه توجّه السلطان إلى الإسكندرية، واهتم بحفر خليجها و باشر الحفر بنفسـه ، فعمل فيه الأمراء وسائر الناس ، حتى زالت الرمال التى كانت على الساحل بين النقيدى وفم الخليج . ثم عدى [السلطان] إلى برأَبْيار[5]، وغرّق هناك

(١) كذا فى س ، ولعل المقصود بهذا الاسم هو (Alphonse of Seville)، الذى عقد مع بيبرس معاهدة تجارية سنة ٦٦٩ هـ ، (١٢٧٠ م) . انظر (Lane - Poole : A Hist. Of Egypt. p. 266) . هـذا وفى (Rec. Hist. Or. II. 1. p. 223. N. 1) أن لفظ الفنش خطأ قلمى ، وأن المقصود هو "البرنس" صاحب طرابلس . انظر حاشية ٤ .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) .

(٣) كان ملك اليمن فى تلك السنة السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول ، وقد امتد حكمه سنين كثيرة ، (٦٤٧ — ٦٩٩ هـ ، ١٢٥٠ — ١٢٩٥ م) . انظر الخزرجى (العقود اللؤلؤية ، ج ١ ، ص ٨٨ ، ٢٧٥) .

(٤) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٣ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، حيث توجد فى هذا الصدد معلومات أكثر تفصيلا . أما ملك الفرنج المقصود هنا فهو (Bohemond, Seigneur de Tripoli) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من مديرية الغربية بقسم محلة منوف ، وتقع على بحر سيف شرق كفر الزيات . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٨ ، ص ٢٨ ، وما بعـدها) . وكانت أبيار فى زمن ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٨) قرية بجزيرة اسمها بنو نصر . (انظر ص ٥١٠ ، سطر ٨) .

عدّة مراكب، وألقى فوقها الحجارة . ثم عاد الى قلعة الجبل؛ وحفر بحر مصر بنفسه وعسكره، ما بين الروضة والمنشاة بجوار جرف الروضة ؛ وجهز المحمل وخلع على المتوجّه به إلى الحجاز ، وهو الأمير جمال الدين ... ...(١) نائب دار العدل ، وسيّر معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسُيّرت الغلال لجرايات الصناع .

وفى جمادى الأولى قدم فخر الدين بن جلبان(٢) من بلاد الفرنج بعدة من الأسرى ، قد أفتكّهم بمال الوقف المسيّر من جهة الأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق . فحضر عدّة من النساء والأطفال ، فسيرت(٣) النساء إلى دمشق ليزوّجهن القاضى من أكفائهن . وفيه سافر الأمير جمال الدين بن نهار المهمندار الصالحى لبناء جسر على [نهر] الشّريعة(٤)، ورسم لنائب دمشق بحمل كل ما يحتاج إليه من الأصناف . وفيه كمل بناء الدار الجديدة عند باب السر المطل على سوق الخيل من قلعة الجبل، فعمل بها دعوة للأمراء .

وفى جمادى الآخرة سار الأمير أقوش السفيرى ، ومعه أربعون ديوانا لاستخراج زكاة عرب بلاد المغرب، فوصل إليهم وأخذ منهم الزكاة التى فرضها الله، وأخذ منهم الحقوق .

وفى ثالث رجب اهتم السلطان بأمر الغزو، وسير إلى أعمال مصر بإحضار الجند من إقطاعاتهم ، فتأخروا . فأرسل سلاح داريته إلى سائر الأعمال ، فعلّقوا الولاة بأيديهم ثلاثة أيام تأديبا، لكونهم ما سارعوا إلى إحضار الأجناد؛ فحضروا بأجمعهم .

وخرج السلطان فى مستهل شعبان ، ورحل فى ثالثه وسار إلى غزة . وقدم الأمير أيدغدى العزيزى ، والأمير قلاون ، فى عدّة من العسكر إلى العوجاء . ومضى السلطان إلى الخليل ثم إلى القدس، ومنع أهل الذمة من دخول مقام الخليل، وكانوا قبل ذلك يدخلون ويؤخذ منهم مال على ذلك ، فأبطله واستمر منعهم . وسار [السلطان] إلى عين جالوت .

(١) بياض فى س .

(٢) فى س " حلبان "، والرسم المثبت هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 25) .

(٣) فى س " فسير " .   (٤) انظر ص ٣٨١ ، حاشية ٤ .

ووصـل العسكر إلى حمص ، وأغاروا على الفرنج ونزلوا على حصن الأكراد، وأخذوا قلعـة عَرْقة[1] [وحَلْبَاء][2] والقُلَيْعات[3] وهدموها . (١٤٠ ب) فلما ورد الخـبر بذلك جرّد السلطان الأمير علاء الدين البندقدار، والأمير عز الدين أوغان[4] ، فى عدّة من العسكر إلى صور . فأغاروا على الفرنج، وغنموا وأسروا كثيرا . وتوجه الأمير إيتامش إلى صيداء، وسار السلطان إلى مدينة عكا ؛ وبعث الأمير بدر الدين الأيدمرى ، والأمير بدر الدين بيسرى، إلى جهـة القرْن[5]؛ و[أرسل] الأمير فخر الدين الحمصى إلى جبـل عاملة . فأغارت العساكر على الفرنج من كل جهة ، وكثرت المغانم بأيديهم حتى لم يوجد من يشترى البقر والجاموس . وصارت الغارات من بلاد طرابلس إلى أرسوف . ونزل عسكر السلطان على صور ، وأقام السلطان فى جهـة عكا ، والأمير ناصر الدين القيمرى فى عثليث ؛ فطلب أهـل عكا من الأتابك التحدث فى الصلح . فاهتمّ السلطان بأمر صـفد ، وأحضر العسـاكر المجردة ؛ ورحل الأمير بكتاش الفخرى أمير سـلاح بالدهليز السلطانى ونزل على صـفد ، وتبعه الأمير البنـدقدار والأمير عز الدين أوغان فى جماعة، وحاصروها .

[هـذا] والسلطان مقيم على عكا حتى وافتـه العساكر، وعمـل عدّة مجانيق . ثم رحل والعساكر لابسـة ، وساق إلى قرب باب عكا، ووقف على تل الفضول . ثم سار إلى عين جالوت ،ونزل على صفد[6] يوم الاثنين ثامن شهر رمضان وحاصرها . فقدم عليه رسول متملك صور،

(١) فى س "عرقا"، وهى فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٥٣) بكسر العين، وموقعها شرقى طرابلس على مسافة أربعة فراسخ، وتسمى فى الحوليات الصليبية بأسماء مختلفة مثل (Arca, Arcados, Archis) . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 397 et seq.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١، فى Rec. Hist. Or. I.).

(٣) بغير ضبط فى س، وهى اسم حصن قرب طرابلس . (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٤) كذا فى س، انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 27)، حيث ترجم هذا الاسم الى (Ighan).

(٥) بغـير ضبط فى س، ولعلها قرن الحـامرة إحدى قرى دمشق . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 481)

(٦) كانت صفد إحدى معاقل هيئـة الفرسان الداوية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land . p. 260 et seq)

ورسول الفداوية[1]، ورسول صاحب بيروت، ورسل صاحب يافا، ورسل صاحب صهيون. وصار [السلطان] يباشر الحصار بنفسه؛ وقدمت المجانيق[2] من دمشق إلى جسر يعقوب — وهو منزلة من صفد — وقد عجزت الجمال عن حملها، فسار إليها الرجال من الأجناد والأمراء لحملها على الرقاب من جسر يعقوب. وسار السلطان بنفسه وخواصه، وجَرّ الأخشاب مع البقر هو وخواصه، فكان غيره من الناس إذا تعب استراح ثم يعود إلى الجر، وهو[3] لا يسأم من الجر ولا يبطله، إلى أن نُصبت [المجانيق] ورُمى بها فى سادس عشريه؛ وصار [السلطان] يلازم الوقوف عندها وهى ترمى.

وأتت العساكر من مصر والشام، فنزلوا على منازلهم إلى أن كانت ليلة عيد الفطر. فخرج[4] الأمير بدر الدين الأيدمرى للتهنئة بالعيد، فوقع حجر على رأسه، فرسم السلطان بألا يجتمع أحد لسلام العيد، ولا يبرح [أحد] من مكانه خشية انتهاز العدو غِرّة العسكر. ونودى يوم عيد الفطر فى الناس: "من شرب خمرا أو جلبها شُنق".

وفى ثانيه وقع الزحف على (١٤١ أ) صفد، ودفع الزراقون النفط. ووعد السلطان الحجارين أنه من أخذ أول حجر كان له مائة دينار، وكذلك الثانى والثالث إلى العشرة. وأمر حاشيته بألا يشتغلوا بخدمته. فكان بين الفريقين قتال عظيم استشهد فيه جماعة، وكان الواحد من المسلمين إذا قُتل جَرّه رفيقه ووقف موضعه. وتكاثرت النقوب ودخل النقابون إليها، ودخل السلطان معهم. وبذل [السلطان] فى هذا اليوم من المال والخلع كثيرا، ونصب خيمة فيها حكماء وجرائحية وأشربة ومآكل[5]، فصار من يُجرح من العربان والفقهاء والفقراء وغيرهم يحضر إليها.

(١) كذا فى س، ولعل المقصود "الداوية"، على أن (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 28) اعتبر أن المقصود بهذه التسمية فرقة الإسماعيلية بالشام.

(٢) فى س "المناجنق".

(٣) الضمير عائد على السلطان.

(٤) فى س "نخرج". (٥) فى س "ما اكل".

وفى ثامنه كانت بين [الفريقين](١) أيضا مَقَاتِل(٢) . وفى ليـلة رابع عشره اشتد الزحف من الليل إلى وقت القائلة ، فتفرق الناس من شدة التعب . فغضب السلطان من ذلك، وأمر خواصـه بالسَّوْق إلى الصواوين و إقامة الأمراء والأجناد بالدبابيس ، وقال : "المسلمون على هذه الصورة، وأنتم تستريحون؟"،فأقيموا. وقبض [السلطان] على نيف وأربعين أميرا، وقيّدهم وسجنهم بالزردخاناه ؛ ثم شُفع فيهم فأطلقهم وأمرهم بملازمة مواضـعهم . وضُربت الطبلخاناه واشـتد الأمر إلى أن طلب الفرنج الأمان ، فأمّنهـم [السلطان] على ألا يخرجوا بسلاح ولا لامة حرب ولا شىء من الفِضّيات(٣)، ولا يتلفوا شيئا من ذخائر القلعة بنار ولا هدم؛ [وأن يُفتشوا عند خروجهم، فإن وُجد مع أحد منهم شىء من ذلك انتقض العهد](٤) .

ولم تزل الرسل تتردد بينهم إلى يوم الجمعة ثامن عشره، [ثم] طلعت السناجق الإسلامية، وكان لطلوعها ساعة مشهودة . [هـذا] والسلطان راكب على باب صـفد حتى نزل الفرنج كلهم ، و وقفـوا بين يديه فرسم بتفتيشهم : فوجد معهم ما ينـاقض الأمان من السـلاح والفضيات، ووجد معهم عدّة من أسرى مسلمين أخرجوهم على أنهم نصارى . فأخذ ما وُجد معهم وأُنزلوا عن خيـولهم، وجعلوا فى خيمة ومعهم من يحفظهم . وتسلم المسلمون صفد ، وولى السلطان قلعتها الأمير مجد الدين الطورى، وجعل الأمير عز الدين العلائى نائب صفد. فلمـا أصبح حضر إليه الناس ، فشكر اجتهادهم واعتذر إليهم مما كان منه إلى بعضهم ، وأنه ما قصد إلا حثّهم على هذا الفتح العظيم، وقال : "من هذا الوقت تحالل"، وأمرهم فركبوا. وأُحضرت خيالة الفرنج وجميع من أُخرج من صفـد، فضربت أعناقهم على تل قرب صفد حتى لم يبق منهم سوى نفرين : أحدهما الرسول ، فإنه اختار أن يقيم عند السلطان و يسلم ،

---

(١) فى س "بينهما" . (٢) فى س "معامل" .

(٣) فى س "الفضيات"، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 30) هذا اللفظ الى (ustensile d'argent) ، غير أنه يفهم من عبارة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٤٩) فى هذا الصدد أن المال هو المقصود بالفضيات هنا .

(٤) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٤٩) .

فأسلم وأقطعه السلطان إقطاعا وقرّبه ؛ والآخر (١٤١ ب) تُرِك حتى يخبر الفرنج بما شاهده.[(١)] وصعد السلطان إلى قلعة صفد ، وفرّق على الأمراء العدد الفرنجية والجوارى والمماليك ، ونقل إليها زردخاناه من عنده . وحمل [السلطان] على كتفه من السلاح إلى داخل القلعة ، فتشبّه به النـاس ونقلوا الزردخاناه فى ساعة واحدة . واستدعى [السلطان] الرجال من دمشق للإقامة بصفد ، وقرّر نفقة رجال القلعة فى الشهر مبلغ ثمانين ألف درهم نقرة . واستخدم على سائر بلاد صفد ، وعمل بها جامعا فى القلعة وجامعا بالربض ؛ ووقف على الشيخ على المجنون نصف وربع الحباب[(٢)] ، والربع الآخر على الشيخ إلياس . ووقف قرية منها على قبر خالد بن الوليد بحمص .

(١) كان الشخص الذى أسلم فارسا من الداوية ، وكان الثانى من فرسان الإسبتار . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) وفى نفس المرجع والصفحة أنه لم يكن هنـاك إخلال بشروط التسليم من جانب جنود حامية صفد ، وإنمـا السلطان بيبرس هو الذى نكث بعهده ، وأنه فعل ذلك طبقا للبدأ الصليبى القائل بأنه لا أمان لكافر . ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ١٤٨ ، وما بعدها) فى هذا الصدد روايتان ، تدل إحداهما على أن جنود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط ، وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان ، ونصه : " ثم نزل العسكر على صـفد فى ثامن رمضان ... ، وفتحها يوم الثلاثاء خامس عشر شوال ، بعد أن طلبوا الأمان . وشرط عليهم ألا يستصحبوا (١٤٩) معهم مالا ولا سـلاحا ، وأن يفتشوا عند خروجهم ، فإن وجد مع أحد منهم شىء من ذلك انتقض العهد ... ، ووقف السلطان على بابها فأخرج من كان بها من الداوية والإسبتار وغيرهم ... . ثم قيل إن جماعة من الفرنج فتشوا ، فوجد معهم أشياء من الأموال ، فأمر السلطان بضرب رقابهم ... (١٥٠) ... وحكى الأمير ركن الدين بيبرس العلائى أن السـلطان لم يحلف لأهل صفد ، وإنما أجلس مكانه كرمون أغا التترى ، وأوقف الأمراء فى خدمته . فحلف لهم كرمون ، وعمل عليهم الوزير الذى كان لهم (كذا) وكان نصرانيا ، فنزلوا عن يمين كرمون . فلمـا نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليـه اليمين ، فضربت رقابهـم عن آخرهم ، وكانوا نحوا من ألفى فارس . فلما قتلوا سير (فى الأصل سيروا) أهـل عكا رسولا يقول للسلطان تصدق علينا بنقل أجساد هؤلاء الشهداء الى عكا لأجل البركة ؛ فنزل السلطان الرسول عنده ، ثم إنه أخذ (١٥١) جماعة من العسكر وساق من أوّل الليل ، فـما أصبح الصبح إلا وهو على باب عكا . فلمـا فتحوا باب عكا وخرجوا لقضاء حوائجهـم ، ساق [السلطان] عليهم فقتل منهم خلقا كثيرا ، وعاد فى فوره . فلما وصل [الســلطان] الى الدهليز طلب الرسول وقال [له] ما تريد ، فأعاد الرسالة . فقال [له] عد اليهم فقد عملنا عندهم شهداء ، وكفينا كم مؤونة النقل وكلفته .

(٢) بغير ضبط فى س ، أو ياقوت (معجم البـلدان ، ج ٤ ، ص ٨١) . وهى إحدى بلاد وادى القرى ، بين دمشـق والمدينة ، ويمرّ بهـا حاج الشام . وقد ورد هذا اللفظ فى ب (١٦٧ ب) " الحساب " ، وترجمه (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 31) الى (revenus) أى الدخل . هـذا ويوجد فى س فوق لفظ الحباب حرفا " وا " ، ولعـل المقريزى كان يقصـد أن يضيف بعض أسماء بلاد أخرى قريبـة من الحباب مثل وادى القرى والحجر (ياقوت : نفس المرجع والصفحة) ، ثم أغفل ذلك أو نسيه ، ويقوّى هذا الفرض الجملة التالية .

وفى سابع عشريه رحل [السلطان] من صفد إلى دمشق، فنزل الجسورة(١) وأمر ألا يدخل أحد من العسكر إلى دمشق، بل يبقى العسكر على حاله حتى يسير إلى سِيس(٢). ودخل [السلطان] إلى دمشق جريدة، فبلغه أن جماعة من العسكر قد دخلوا إلى دمشق، فأخرجهم مُكَتَّفين بالحبال. وأقام الملك المنصور صاحب حماة مقدّما على العساكر وسيرهم معه، وفيهم الأمير عز الدين أوغان، و[الأمير] قلاون؛ فساروا فى خامس ذى القعدة إلى سيس.

وفى ثالث ذى القعدة مات كرمون أغا. وفى ثامنه أنعم السلطان على أمراء دمشق وقضاتها وأرباب مناصبها بالتشاريف، ونظر فى أمر جامع دمشق، ومنع الفقراء من المبيت فيه، وأخرج ما كان به من الصناديق التى كانت للناس.

وفى عاشره جلس الأتابك — هو والأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق — لكشف ظلامات الناس والتوقيع على القصص، بدار السعادة. وخرج السلطان للصيد فضرب عدّة حلق، وسار إلى جَرُود(٣) ثم إلى أَفَامِيَة(٤). وجهّز [السلطان] إلى مصر شخصا كان [قد] حضر إلى دمشق [و] ادّعى أنه مبارك بن الإمام المستعصم [وصحبته جماعة(٥) من أمراء العربان]، فلم يعرفه جلال الدين(٦) بن الدوادار ولا الطواشى مختار، وتبيّن كذبه [فسيّر إلى مصر تحت الاحتياط]. وجهّز [السلطان] بعده شخصا آخر أسود إلى مصر، ذكر أنه من أولاد الخلفاء، [فسُيّر(٧) إلى مصر أيضا، وكان قد وصل إلى دمشق فى ذى القعدة].

(١) فى س "الحسورة"، وقد صححت الى الرسم الوارد بالمتن من (Lane-Poole: A Hist. Of Egypt. p. 278; Quatremère. Op. Cit. I. 2. p. 13)

(٢) بغير ضبط فى س، وصحة هذا الاسم سيسية، غير أن عامة أهلها يقولون سيس، وهى عاصمة أرمينية الصغرى (قليقية)، وموقعها بين أنطاكية وطرسوس. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٣، ص ٢١٧).

(٣) فى س "حرود" بغير ضبط، وهى من إقليم معلولا من أعمال غوطة دمشق. (ياقوت: معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٥).

(٤) بغير ضبط فى س، وهى إحدى بلاد حمص، وتسمى أيضا فامية. (ياقوت: معجم البلدان، ج ١، ص ٣٢٣).

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٨ — ٣٩)

(٦) فى س "جلا الدين".

(٧) يتضح من العبارة كلها أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بإقامة الحاكم بأمر الله فى الخلافة بالقاهرة سنة ٦٦١ هـ. (انظر ص ٤٧٧، سطر ١ وما يليه).

وفيه استولى السلطان على هُونين(1) وتِبْنِين وعلى مدينة الرملة ، فعمرها وصيّر لها عملا وولّى فيها . وفيه أبطل السلطان ضمان الحشيشة الخبيثة ، وأمر بتأديب من أكلها . وقدم رسول الاسبتار ملك الفرنج ، يسأل استقرار الصلح على بلادهم من جهة حمص وبلاد الدعوة(2) . فقال السلطان : "لا أجيب إلا بشرط إبطال ما لكم من القطائع على مملكة حماة وهى أربعة آلاف دينار ، وما لكم من القطيعة على بلاد أبى قبيس(3) وهى ثمانمائة دينار ، وقطيعتكم على بلاد الدعوة وهى ألف ومائتا دينار ومائة مدّ حنطة وشعير نصفين" . فأجابوا إلى إبطال ذلك ، وكُتبت الهدنة وشُرط فيها الفسخ للسلطان متى أراد ، ويعلمهم قبلُ بمدّة . وورد الخبر بأن فرنج عكا وجدوا أربعة من المسلمين فى (١٤٢ ا) طين شيحا(4) فشنقوهم ، فرسم السلطان بالإغارة على بلاد الفرنج ، فقتلت العساكر منهم فوق المائتين ، وساقوا جملة من الأبقار والجواميس وعادوا(5) . وورد كتاب والى قوص أنه وصل إلى عيذاب ، وبعث عسكرا إلى سواكن ، ففرّ صاحب سواكن ، وعادوا إلى قوص وقد تمهدت البلاد ، وصارت رجال السلطان بسواكن .

وفى يوم الاثنين النصف من ذى الحجة جلس الأمير عز الدين الحلى نائب السلطنة بديار مصر ، ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة ، بدار العدل على العادة . وإذا بإنسان يخرق

(١) بغير ضبط فى س ، وهو بلد فى جبال عاملة قرب بانياس (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٩٩٦ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 456) ، وهو المسمى (Chateauneuf) فى المراجع الفرنجية . (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) .

(٢) المقصود بهذا بلاد فرقة الإسماعيلية بالشام . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 32) .

(٣) فى س "بو قبيس" بغير ضبط ، وهذه الصيغة المختصرة كثيرة الورود فى الحوليات الصليبية ، وأبو قبيس حصن فى مقابلة شيزر . (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 352 ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٠٣) .

(٤) لعل المقصود هنا الأرض الزراعية الواقعة قرب جبل شيحان ، وهو جبل مشرف على جميع المرتفعات التى حول بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٣٤٩) . انظر أيضا (Quatremère : Op Cit. I. 2. p. 32. N. 36) .

(٥) فى س "عادت" .

الصفوف — و بيده قصــة — حتى وقف قدام الأمير، ووثب عليــه بسكين أخرجها من تحت ثيابه، وطعنه فى حلقه . فأمسك الأمير بيده بخرجها ، ورفسه برجله ونام على ظهره . فوقع [المجرم] وقصد أن يضرب الأمير ضربة أخرى، أو يضرب الصاحب، فرجعت السكين فى فؤاد الأمير صارم الدين المسعودى ، فمات من ساعته . فقام الأمير فخــر الدين والى الجيزة وقبض عليــه و رماه، فوقع على قاضى القضاة ، وأخذته السيوف حتى هلك . وحُمل الأمير عز الدين الحلى إلى داره بالقلعة ، وحضر المزينون إليه فوجدوا الجرح بين البلعوم والمنحر . وكان الذى ضربه جندارٌ به شعبة من جنون، وتعاطى أكل الحشيشة فقوى جِنّــه . وكتب بهذا الحــادث إلى السلطان، فوافاه الخبر وهو راجع من أفامية، فشقّ عليه ذلك وقال : "والله يهون على موت ولدى بركه ، ولا يموت الحلى" . فقال له الأتابك : "ياخوند! والله طيّبتَ قلوبنا إذا كنت تشتهى لو فديتَ غلاما من غلمانك بولدك وولىّ عهدك". ثم ورد الخبر بعافية الحلى مع مملوكه، فخلع عليه السلطان وأعطاه ألف دينار، وأعطى رفيقه ثلاثة آلاف درهم نقرة، وأحسن إلى ورثة الصارم المسعودى .

وأما الملك المنصور ومن معه، فإنهم ساروا إلى [حصن] دَيْربَسّاك(١) ودخلوا الدَّرْبَنْد(٢)، وقد بنى التّكفُور(٣) هيتوم بن قسطنطين بن باساك(٤) ملك الأرمن على رءوس الجبــال أبراجا —

(١) فى س "درب بساك" بغير ضبط ، وهو وارد برسم "دربساك" فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٢١، فى Rec. Hist. Or. I)، وموقعه قرب أنطاكية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٦٤٦) .

(٢) الدربند — والجمع دربندات — لفظ فارسى، ومن معانيه المضايق والطرقات والمعابر الضيقة، وقد تقدمت الإشارة اليه فى ص ٢٤٨، حاشــية ٣ ، والمراد هنا الطرقات المؤدية إلى بلدة سيس ، وقد وصفه ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد، ص ٢٣١ — ٢٣٢) بالآتى : "وباب الدربند الذى بسيس يعرف بالدروب، و يعــرف (٢٣٢) بالعواصم ..." .

(٣) التكفور لفظ أرمنى معناه الملك المتوج (roi, celui qui porte la couronne)، وقد أطلقه الأرمن على ملوكهم ، كما أنه يطلق أحيانا على ملوك الدولة البيزنطية . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٣؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 153) .

(٤) كذا فى س، وهو فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١، فى Rec. Hist. Or. I) "هيتوم ابن قسطنطين بن باسيل" . هذا و يوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٦، فى Rec. Hiot. Or. II. 1) أخ لهذا الملك اسمه فاساك (Vassak)، ولعل هذه الصيغة الأخيرة هى الأقرب للصحيح .

وهو الذى تزهّد فيما بعد[1]، وترك الملك لولده ليفون[2] — فاستعدّ ووقف فى عسكره . فعند ما التقى الفريقان أسر ليفون [ابن][3] ملك سيس ، وقتل أخوه وعمه ، وانهزم عمه الآخر، وقتـل ابنه [الآخر][4]، وتمزّق الباقى من الملوك — وكانوا اثنى عشر ملكا — ، وقُتلت أبطالهم وجنودهم . وركب العسكر أقفيتهم وهو يقتل و يأسر ويحرق، وأخذ العسكر قلعة حصينة للديوية[5]، فقُتلت الرجال وسُبيت النساء وفرقت على العسكر، وحُرقت القلعة بمـا فيها من الحواصـل . ودخلوا سيس (١٤٢ ب) فأخربوها وجعلوا عاليها سافلها ، وأقاموا أياما يحرقون و يقتلون و يأسرون . وسار الأمير أوغان إلى جهة الروم ، والأمير قلاون إلى المصيصة وأذنة وأياس وطرسوس ، فقتلوا وأسروا وهـدموا عدّة قلاع وحرقوا؛ [هـذا] وصاحب حماة مقيم بسيس . ثم عادوا إليه و[قد] اجتمع معهم من الغنائم ما لا يعد ولا يحصى، حتى أبيع الرأس البقر بدرهمين ولم يوجد من يشتريه .

فورد الخبر بذلك والسلطان فى الصيد بجرود[6]، فأعطى المبشر ألف دينار وإمرة طبلخاناه. ودخل السلطان إلى دمشق، وتجهّز وخرج للقاء العسكر فى ثالث عشر ذى الحجة . فشُكى إليه

(١) عبارة س كالآتى : "وكان قد تزهد وترك الملك لولده ليفون فاستعد ووقف فى عسكره ... "، و يفهم من إيراد العبارة بهـذا الوضع الزمنى أن هيتوم ملك الأرمن كان قد تزهد وترك الحكم لولده قبـل مجىء جيوش بيبرس الى بلاده بعدّة سنين، مع أن المعروف أن هيتوم هو الذى وقف لجيوش المماليك، وقد وقع ابنه ليفون المذكور هنا أسيرا فى الموقعة التى وقعت بسيس . (انظر سطر ٢) . وقد ظل هيتوم ملكا على أرمينية الصغرى حتى سنة ١٢٧٠م (٦٦٩هـ)، وصالح السلطان بيبرس ١٢٦٨ م (٦٦٦ هـ) ، على شروط منها أن يسلم الى السلطان بلاد " بهسنا ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد "، وفى مقابلها يطلق السلطان سراح ليفون . وقد سلم هيتوم الحكم الى ولده العائد بعد ذلك ، وانزوى فى دير حيث عاش حتى سنة ١٢٧٥ م (٦٧٤ هـ) . (انظر أبا الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ Camb. Med. Hist. IV. p. 175) .

(٢) اسم هذا الابن لمـا ملك ليون الثالث (Leon III)، وقد امتد حكمه من ١٢٧٠ الى ١٢٨٩م (٦٦٩ — ٦٨٨ هـ) . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٥٢) .

(٤) فى س " امر "، انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٥) لعلها قلعة العامدين المذكورة فى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.)، وهى حصن بأرمينية الصغرى . (Ibid : Op. Cit. Index) .

(٦) فى س "بجرود"

وهو بقارا[1] من أهلها [وهم نصارى][2] : أنهم يتعدون على أهل الضياع ، و يبيعون من يقع إليهم إلى الفرنج بحصن عكا ، فأمر العسكر بنهبهم فنهبوا ، وقتـل كبارهم وسبى النساء والأولاد . وقدم عليـه العسكر المجهز إلى سيس ، وقدّموا له نصيبه من الغنائم ففرق الجميع على عساكره ، وأحسن إلى متملك سيس[3] ومن معه من الأسرى . وعاد [السلطان] إلى دمشق فى رابع عشريه — ومتملك سيس بين يديه — ، وخلع على الأمراء والملوك والأجناد ، فامتلأت دمشق بالمكاسب ، وأبيع من الجواهر والحلى والدقيق والحرير ما لا يحصى كثرة ، ولم يتعرض السلطان لشىء من ذلك . وعاد صاحب حماة إلى مملكته ، بعدما أنعم عليه السلطان بكثير من الخيول والأموال والخلع[4] .

و [فيها] قدمت رسل الملك أبغا بن هولاكو بهدايا وطلب الصلح . وفيها أمر [السلطان] بجمع أصحاب العاهات ، فجُمعوا بخان السبيل ظاهر باب الفتوح من القاهرة ، ونُقلوا إلى مدينة الفيوم وأُفرِدت لهم بلدة تغلّ عليهـم ما يكفيهم ، فلم يستقروا بها وتفرقوا ورجع كثير منهم إلى القاهرة . وفيها اشتد إنكار السلطان للمنكر ، وأراق الخمور وعفّى آثار المنكرات ، ومنع الخانات[5] والخواطئ بجميع أقطار مملكته بمصر والشـام ؛ فطهرت البقاع من ذلك . وقال القاضى ناصر الدين أحمد بن محمد بن منصور بن أبى بكر بن قاسم بن مختار بن المنير قاضى الإسكندرية ، لـمـا وردت إليه المراسيم بالإسكندرية وعفّى متوليها أثر المحرمات :

(١) تقع هذه البلدة ، وهى قارة المذكورة فى ياقوت (معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٢ — ١٣) ، على الطريق من دمشق الى حمص .

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥١ ، فى Rec. Hist. Or. I.) . انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٠ ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ١٥٢ ، وما بعدها) حيث توجد تفاصيل كثيرة فى هذا الصدد .

(٣) المقصود بمتملك سيس هنا ليفون (Leon III) ، المذكور فى ص ٢٥٢ ، سطر ١

(٤) فوق هـذا اللفظ فى س إشارة الى عبارة أراد المقريزى اسـتدراكها هنا ، غير أنه لا يوجد بين العبارات الواردة بهامش الصفحة ما يصح أن يثبت بعد اللفظ المشار اليه ، هذا فضلا عن أن كل العبارات المذكورة قد أدمجت فى مواضعها المناسبة .

(٥) الخانات — والمفرد خانة — أماكن العبث والاستهتار (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 36) إلى (les cabarets, les lieux de débauche) .

ليس لإبليس عندنا أرب * غــير بلاد الأمير مأواه
حَرَمْتَهُ الخمرَ والحشيشَ معا * حَرَمْتَــهُ ماءه ومرعاه

وقال أبو الحسين الجزار :

قد عُطِّل الكوب من حَبابه * وأُخْـلِيَ الثغر من رِضابه
وأصـبح الشـيخ وهو يبكى * على الذى فات من شبابه[1]

وفيها قدم علىّ بن الخليفة المستعصم من الأسر عند التتار[2] .

ومات فى هذه السنة من الأعيان[3] الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى، بعد فَتْح صفد.

وتوفى الصاحب شرف الدين أبو محمد عبد الرحمن بن أمين الدين أبى الغنائم[4] سالم بن الحسن ابن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى الدمشقى، ناظر الدواوين بها، عن تسع وستين سنة.

وتوفى جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الجليل بن عبد الكريم الموقانى المقدسى الشافعى، المحدث الأديب .

* * *

سنة خمس وستين وستمائة . فى المحرم بعث السلطان الأمير سيف الدين بكتمر الساقى، والأمير شهاب الدين بوزبا، فى عدّة من العسكر ورجال جَبَلِيَّــة[5] . فقطعوا أقصاب الفرنج، وعادوا إلى صفد . وفيه قدمت نجدة للفرنج من قبرس[6]، [وعدّتها] نحو ألف (١٤٣ ا) ومائة

---

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية، ونصها مصححا : " وفيها نزل السلطان الملك الظاهر إلى القاهرة فى الليل متنكرا، فرأى بعض الشرط وقد عرى امرأة مراو يلها ولم يقدر أحد ينهاه، فلما أصبح قبض جماعة من المقدمين والولاة وأصحاب الأرباع والخفراء، وقطع أيدى الجميع "، وقد تقدم هذا كله بلفظه وترتيب عبارته فى هامش ص ١٣٩ ب من س، وأثبت بالمتن فى موضعه (انظر ص ٥٤٠، سطر ٩، وما يليه) .

(٢) انظر ص ٥٤٩، حاشية ٧ .

(٣) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س بين الصفحتين ١٣٤ ب، ١٣٥ أ، وقد وضعت هناك خطأ . انظر (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٣٩؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٤، وما بعدها).

(٤) فى س "العنائم" .

(٥) المقصود بهذا الوصف أهــل البلاد الجبلية بالشام، مثل جبــل القدس وجبل الخليل وجبــل نابلس . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 38. n. 43) .

(٦) أرســل هذه النجدة تلك الســنة (Hugh of Antioch, Regent of Cyprus) . انظــر (King. The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 261) .

فارس ، وأغاروا على بلد طبرية . فخرج العسكر إلى عكا، وواقع الفرنج فقتلوا منهم كثيرا، وانهزم الباقى إلى عكا وحمل فيها عزاء من قتل[1] .

وفى ثانيه خرج السلطان من دمشق بعساكره إلى القوار [يريد الديار المصرية[2]]، وسار منه جريدة إلى [الكرك ونزل ببركة] زيزاء، [وركب ليتصيد] فتقطر عن فرسه فى ثامنه، وتأخر هناك أياما حتى صلح مزاجه ، وأكثر من الإنعام على جميع عساكره وأمرائه بجميع كلفهم من غلات الكرك، وعم بذلك الخواص والكتاب، وفرق فيهم جملا كثيرة من المال . واستدعى [السلطان] أمراء غزة وأحسن إليهم ، وطلب الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك وأعطاه ألف دينار وخلع عليه، وسير الخلع إلى أهل الكرك . ثم سار فى محفة على أعناق الأمراء والخواص إلى غزة، وسار منها إلى بلبيس ، فتلقاه ابنه بركه فى ثالث صفر ومعه الأمير عز الدين الحلى، وزينت القاهرة . فلم يزل [السلطان موعوكا] إلى غرة شهر ربيع الأول، فركب الفرس وضربت البشائر لعافيته، وسار إلى باب النصر فأقام هناك إلى خامسه . وصعد [السلطان إلى] القلعة ، وقدم عليه رسول التكفور[3] هيتوم صاحب سيس يشفع فى ولده للسلطان، ففك قيده فى ثانى عشريه وكتب له موادعة[4] على بلاده إلى سنة، وركب مع السلطان لرماية البندق فى بركة الجب[5] .

---

(١) بلغت خسارة الإسبتارية وحدهم فى تلك الوقعة ثلاثة وأربعين . انظر (King : Op. Cit. p. 262) .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٥٦، وما بعدها).

(٣) اسم رسول هيتوم الى السلطان بيبرس هذه السنة فاساك (Vassak) ، وهو أخو هيتوم المذكور . (العينى : عقد الجمان، ص ٢٣٥ — ٢٣٦، فى (Rec. Hist. Or. II. 1. .

(٤) المقصود بالموادعة المسالمة والمصالحة والمهادنة . (محيط المحيط) .

(٥) توجد قبالة هذه العبارة فى س ورقة ملصقة بين الصفحتين ١٤٢ ب ، ١٤٣ ا ، وبها فذلكة تفسيرية لتاريخ مملكة هيتوم المذكور، ونصها مصححا : "اترناحور (كذا) وناحور أخو إبراهيم الخليل عليه السلام ، دخلوا فى دين النصرانية قبل ظهور الملة الإسلامية . وكانت سكناهم بأرمينية ، وقاعدتها خلاط كرسى المملكة ، ويقال لملكهم تكفور . فلما ملك المسلمون أرمينية وضربوا عليهم الجزية ، ثم خربت خلاط ، انتقلوا الى سيس وأدوا الضريبة . وأول من أعلمه من ملوكهم مليح بن أليون فى زمن نور الدين الشهيد ، و[قد] ملك أذنة والمصيصة وطرسوس من الروم . ثم قام بعده جماعة الى أن ملك هيتوم هذا ، وترهب ونصب ابنه ليفون عوضه ، فكان من أمره ما ذكر ، وأسر وضربت سيس" . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٣٠، وما بعدها) .

وفى آخر ربيع الأوّل بعث السلطانُ الأتابكَ [فارس الدين أقطاى المستعرب](١)، والصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين بن حنا، لكشف مكان يعمله جامعا بالحسينية. فسارا واتفقا على مناخ الجمال السلطانية، فلما عادا قال السلطان: "[لا والله! لا جعلت الجامع مكان الجمال، و] أولى ما جعلت ميدانى الذى [ألعب فيه الكرة، — و] هو نزهتى — جامعا". وركب [السلطان] فى ثامن ربيع الآخر ومعه الصاحب بهاء الدين والقضاة إلى ميدان قراقوش، ورتّب بناءه جامعا، وأن يكون بقية الميدان وقفا عليه(٢). وعاد إلى المدرسة التى أنشأها بين القصرين، وقد اجتمع بها الفقهاء والقرّاء، فقال: "هذا مكان جعلته لله تعالى، فإذا مِتّ لا تدفنونى هنا، ولا تغيّروا معالم هذا المكان"، وصعد إلى القلعة.

وفيه وردت مكاتبة المنصور صاحب حماة، يستأذن فى الحضور إلى مصر ليشاهد عافية السلطان، فأجيب إلى ذلك وقدم فى سابع عشريه. فخرج السلطان إلى لقائه بالعباسة، وبعث إليه وإلى من معه التشاريف، وعاد إلى القلعة. فسأل المنصور الإذن بالمسير إلى الإسكندرية فأذن له، وسار معه الأمير سنقرجاه الظاهرى، وحملت له الإقامات حتى عاد.

(١٤٣ ب) وفى يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر أقيمت الجمعة بالجامع الأزهر من القاهرة، وكانت قد بطلت منه منذ ولى قضاء مصر صدر الدين عبد الملك بن درباس، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب(٣). [وقد ظل كذلك] إلى أن سكن الأمير عز الدين أيدمر الحلى بجواره، فانتزع كثيرا من أوقاف الجامع كانت مغصوبة بيد جماعة، وتبرّع له بمال جزيل، واستطلق له من السلطان مالا، وعمر الواهى من أركانه وجدرانه وبيّضه وبلطه ورمّ سقوفه، وفرشه واستجدّ به مقصورة وعمل فيه منبرا. فتنازع الناس فيه هل تصحّ

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢٩٩ — ٣٠٠).

(٢) الجامع المقصود هنا هو الجامع الظاهرى، و يوجد بالمقريزى (نفس المرجع والجزء، ض ٢٩٩ — ٣٠٠)، وكذلك ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٦٠ — ١٦١) تفصيلات بصدده أكثر مما هنا.

(٣) يرجع ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٥٦، وما بعدها) بتاريخ إبطال الجمعة من الجامع الأزهر إلى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م)، أى فى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى.

إقامة الجمعــة فيه أم لا ، فأجاز ذلك جمــاعة من الفقهاء ، ومنع منــه قاضى القضــاة تاج الدين ابن بنت الأعز وغيره . فشكى الحلىّ ذلك إلى السلطان ، فكلّم فيه قاضى القضاة فصمّم على المنع ، فعمل الحــلى بفتوى من أجاز ذلك وأقام فيه الجمعة . وسأل السلطان أن يحضر فامتنع من الحضــور ما لم يحضر قاضى القضــاة ، فحضر الأتابك والصاحب بهاء الدين وعدّة من الأمراء والفقهاء، ولم يحضر السلطان ولا قاضى القضــاة تاج الدين . وعمل الأمير بدر الدين بيليــك الخازندار بالجــامع مقصورة، ورتّب فيها مدرّسا وجمــاعة من الفقهاء على مذهب الشافعى ، ورتّب محدثا يسمع الحــديث النبوى والرقائق[1]، ورتب سبعة[2] لقراءة القرآن العظيم ، وعمل على ذلك أوقافا تكفيه .

وفى جمادى الآخرة وصلت رسل الدعوة بجملة من الذهب، وقالوا : "هذا المــال الذى كنا نحمــله قطيعــة للفرنج قد حملناه لبيت مال المسلمين، لينفق فى المجــاهدين" . وقد كان أصحاب بيت الدعوة فيما مضى من الزمان يَقْطَعُون مصانعات[3] الملوك ، ويجبون القطيعة من الخلفاء ، ويأخذون من مملكة مصر القطيعــة فى كل ســنة ، فصاروا يحمــلون القطيعة للملك الظاهر لقيامه بالجهاد فى سبيل الله .

وفيه عمرت قلعة قاقُون[4] عوضا عن قيسارية وأرسوف، وعمرت الكنيسة التى كانت للنصــارى هناك جامعا ، وسكن هناك جمــاعة فصارت بلدة عامرة بالأسواق . وفيــه اهتم

(١) الرقائق — والمفرد رقيقــة ، و يقال الرقاق أيضا ومفرده رقيق — لفظ اصطلاحى يطلق فى كتب الحديث الكبرى على باب خاص من أبواب الحديث النبوى ، وسميت أحاديث ذلك الباب بهذا الاسم لأن فيها من الوعظ والرحمة والتنبيه ما يجعل القلب رقيقا رحيما ؛ فيقال باب الرقائق ، و باب الرقاق ، والتسمية الثانية أكثر شيوعا . (أحمد أمين) .

(٢) فى س "سبعا" .

(٣) الراجح أن المقصود بالمصانعات هنا أموال الرشوة والمداراة ، ففى محيط المحيط "صانعــه مصانعة رشاه وداراه وداهنه" . انظر أيضا (Dozy: Supp. Dict. Ar.) ، حيث توجد عدّة أمثلة لاستعمال فعل "صانع" بهذا المعنى ، ومنها : "صانعهم أهلها بعشرين ألف دينار" .

(٤) بغير ضبط فى س ، وهى حصن بفلسطين قرب الرملة (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٨) ، واسمها فى الحوليات الصليبية (Caco, Chaco, Quaquo) . انظر (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 475) .

السلطان باستخراج الزكاة من سائر الجهات : فاستخرج من بلاد المغرب زكاة مواشيهم وزكاة زروعهم ، واستخرج من جهات سواكن وجزائرها الزكاة . وبعث [السلطان] إلى الحجاز الأمير شكال بن محمد، فطلب العِدّاد من الأمير جماز أمير المدينة النبوية، فدافعه فمضى إلى بنى خالد يستعين بهم على عرب جماز ، ثم (١٤٤ ا) خاف وبعث إلى السلطان يطلب إرسال من يستخلفه على استخراج حقوق الله .

وفى سابع عشريه توجه السلطان فى جماعة من أمرائه إلى الشام، وترك أكثر العساكر [بالديار المصرية] (١) . و[كان] معه المنصور صاحب حماة ، فنزل [السلطان] غزة، ومضى صاحب حماة إلى مملكته بعد زيارة القدس . فقدمت رسل الفرنج على السلطان بغزة ، ومعهم الهدايا وعدّة من أسرى المسلمين ، فكسا الأسرى وأطلقهم . ورحل [السلطان] إلى صفد، فورد الخبر [عليه هناك] بتوجه التتار إلى الرحبة ، فسار إلى دمشق [مسرعا] فدخلها فى رابع عشر رجب . وجاء الخبر بقدوم التتار إلى الرحبة، وأن أهلها قتلوا وأسروا منهم كثيرا وهزموهم، فأقام بدمشق خمسة أيام ، وعاد إلى صفد فى رابع عشريه . [ورتّب السلطان أمر عمارة صفد]، وقسّم خندقها على الأمراء، وأخذ لنفسه نصيبا وافرا عمل فيه بنفسه ، فتبعه الأمراء والناس فى العمل ونقل الحجارة ورمى التراب وصاروا يتسابقون . فوردت عليه رسل الفرنج يطلبون الصلح، فرأوا الاهتمام فى العمارة .

ثم إنه [بلغه فى بعض تلك الأيام أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتبق ظاهرها إلى ضحوة ، فَسَرَى ليلة ببعض عسكره، و] (٢) أمر بالركوب خفية فركب وقد اطمأن الفرنج ، فلم يشعروا به إلا وهو على باب عكا؛ ووضع السيف فى الفرنج ، وصارت الرءوس

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٤ ، فى .Rec. Hist Or. II. 1.)

(٢) كان مما فعله السلطان لإخفاء هذه السرية ، التى كانت مكونة من فرقتين من الخيالة ، أنه ألبس عسكر إحداها ملابس الفرسان الاسبتارية، والثانية ملابس فرسان الداوية (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land, p. 262).

تحمل إليه من كل جهة . وكان الحز ، فعملت عباءة على رمح ليستظل بها ؛ وبات تلك الليلة وأصـبح على حاله ، ثم عاد إلى صفد . وقدمت رسل سيس بالهـدنة ، فرأوا رسل الفرنج ورأوا رءوس القتلى على الرماح . وقدمت الأسرى من هذه الغارة فضربت أعناقهم ، وطلب [السلطان] رسل الفرنج وقال لهم: "هذه الغارة فى مقابلة غارتكم على بلاد الشقيف"، وردّهم من غير إجابتهم إلى الصلح .

ثم ركب [السلطان] فى حادى عشرى شعبان وساق من صفد إلى عكا ، فما علم به الفرنج حتى وقف على أبوابها : فقسّم البنائين والحجارين والناس على البساتين والأبنية والآبار لهدمها ، فاقتسموا ذلك وشرعوا فى الهـدم وقطع الأشجار . وعمـل [السلطان] اليزك بنفسه على باب عكا ، وصار واقفا على فرسه وبيده رمح مدّة أربعة أيام ، حتى تكامل الإحراق والهدم وقطع الأشجار . ثم رجع إلى صفد ، فوردت رسل سيس ورسل بيروت (١) ، فأجيبوا عن مقاصدهم .

وفى شهر رمضان وردت رسـل صور (٢) يطلبون استمرار الهـدنة ، فأجيبوا إلى الصلح ، وكُتبت هدنة لمدّة عشر سنين لصور وبلادها — وهى مائة قرية إلا قرية — ، بعد ما أحضروا دية السابق شاهين (٣) الذى قتلوه لأولاده ، — وهى خمسة عشر ألف دينار صورية ، قاموا بنصفها وأُمْهِلوا بالباقى — ، وأحضروا [أيضا] عدّة أسرى مغاربة (٤) . وقدمت (١٤٤ ب) رسـل بيت

(١) أتى رسـل بيروت تلك السنة من قبل صاحبتها الأميرة (Isabel d'Ibelin) ، وكان سبب مجيئهم حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٥ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، أن أخا هذه الأميرة كان "قد غدر بمركب للأتابك ، فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرس ، فطالبهم السلطان بمـال التجار ، فالتزموا به والتزموا إطلاق التجار ، وتقرر الصلح" . انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 262) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٢) كان صاحب صور تلك السنة (Philip de Montfort) . انظر (King: Op. Cit. p.262) .

(٣) كان السابق شاهين المذكور غلاما للسلطان بيبرس ، وكان قد قتل فى صور ، فاشترط السلطان لأجل استمرار الهدنة أن تدفع صوردية لأولاد القتيل ، كما ورد بالمتن . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٤) فى ص "مغارنة" ، والصيغة المثبتة هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 42) . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) ، حيث ورد هذا اللفظ برسم "المغازية" .

الإسبتار من الفرنج يطلبون الصلح على حصن الأكراد والمرقب ، فأجيبوا وتقررت الهدنة لعشر سنين وعشرة أشهر [وعشرة أيام][١] وعشر ساعات ، وبطلت القطائع عن بلاد الدعوة وعن حماة وشيزر وأفامية وعن أبي قبيس[٢] ، وقد تقدم ذلك ؛ وبطل أيضا ما كان على عيناب[٣] ، وهو خمسمائة دينار صورية وعن كل فدان مكوكان غلة وستة دراهم .

وقدم الشريف بدر الدين مالك بن منيف بن شيحة من المدينة النبوية يشكو من الشريف جماز أمير المدينة ، وأن الإمرة كانت نصفين بين أبيه ووالد جماز . فكُتب لجماز أن يسلمه نصف الإمرة ، وكُتب له تقليد بذلك وبنصف أوقاف المدينة النبوية التى بالشام ومصر وسُلّمت إليه ؛ فامتثل جماز ما رُسم به .

وفى ذى الحجة نَزَحت بئر السقاية التى بالقدس حتى اشتد عطش الناس بها ، فنزل شخص إلى البئر فإذا قناة مسدودة ، فأعلمَ الأميرَ علاء الدين الحاج الركنى نائب القدس . فأحضر [الأمير] بنائين وكشف البناء ، فأفضى بهم فى قناة إلى تحت الصخرة ، فوجدوا هناك بابا مقنطرا قد سُدّ ، ففتحوه فخرج منه ماء كاد يغرقهم . فكُتب بذلك إلى السلطان ، وأنه لما نقص ماء السقاية دخل الصناع فوجدوا سدّا نقب فيه الجارون قدر عشرين يوما ، ووُجد سقف مُقَلْفَط[٤] فنُقب فيه قدر مائة وعشرين ذراعا بالعَمَل[٥] ، فخرج الماء وملأ القناة .

(١) ليس لما بين القوسين وجود فى س ، ولكنه فى ب (١٧١ أ) ، وفى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) .

(٢) فى س "بوقبيس" .

(٣) كذا فى س بهذا الضبط والنقط ، وهى فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩١) "عاب" ، ولعلها عينتاب المعروفة ، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 42) إلى ذلك .

(٤) هذا اللفظ اسم مفعول من قلفط ، وهو تحريف فعل جلفط ، ومعناه سدّ دروز ألواح السفينة بالخيوط أو بالخرق والقير ، وتسمى المواد المستعملة لهذا الغرض باسم الجلفاط أو الجلنفاط . (محيط المحيط) . ومن فعل قلفط — أو جلفط — أخذ الفعل الفرنسى (calafter) ، ومعناه سدّ . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 43. n. 51).

(٥) المقصود بذلك الذراع المعمارى ، الذى تقاس به أرض البنيان من الدور وغيرها ، وقياسه ثلاثة أشبار بشبر الرجل المعتدل . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٤٦) .

وفى هـذه السنة أنشأ السلطان قنطرة على بحر أبى المنجا بناحية بيسوس(١)، وتولى عملها الأمير عز الدين أيبك الأفرم، فجاءت من أعظم القناطر . وفيها أنشأ السلطان القصر الأبلق بدمشق بالميـدان الأخضر [على نهـر بَرَدَى](٢)، فتولى عمل ذلك الأمير أقوش النجيبى نائب دمشق، فعمره بالرخام الأبيض والأسود، و[جعـل] جانبا عظيما [منـه] تحف به البساتين والأنهار من كل ناحيـة، ولم يعمل بدمشق قبله مثله . ومازال عامرا تنزله الملوك ، إلى أن هدمه تيمورلنك فى سنة ثلاث وثمانمائة، عند حريق دمشق وخرابها .

وفيهـا جلس منكوتمر(٣) بن طغان بن باتوقان بن دوشى خان بن جنكزخان على كرسى مملكة القفجاق بمدينة صَرَاى، عوضا عن الملك بركه(٤) خان بن دوشى خان بن جنكزخان، بعـد وفاته [هذه السنة](٥) . وكان بركه خان قد مال إلى دين الإسلام، وهو أعظم ملوك الططر، وكرسى مملكته مدينة صراى .

وفيها(٦) مات قاضى القضاة تاج الدين [أبو محمد] عبد الوهاب بن خلف [بن أبى القاسم] العلامى [الشـافعى]، المعروف بابن بنت الأعز، فى سابع عشرى شهر رجب، [عن إحدى

(١) كذا فى س ، وهى قرية صغيرة بمديرية القليوبية الحاليـة ، وموقعها على الشاطئ الشرقى لفـرع دمياط ، وكانت من مراكز الطير المرتبـة من القاهرة إلى دمياط ، واسمها الحالى باسوس . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٢٥) .

(٢) فى س "والميدان" ، وقد عدل هـذا اللفظ بحرف الجر ، وأضـيف ما بين الأقواس بعد مراجعـة Enc. Isl. Art. Damascus) ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٠) .

(٣) انظر الحاشية التالية .

(٤) فى س ، وفى أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ، ص ١٥٢ ، فى Rec. Hist. Or. I.) ، "بركه خان ابن صاين خان بن دوشى خان..." . انظر (Enc. Isl. Art. Berke) ، حيث جاء أيضا أن بركه خان توفى ولم يترك ولدا ، فآل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) المذكور هنا ، وهو ابن ابن أخيه باطوخان .

(٥) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة (Enc. Isl. Art. Berke) .

(٦) هـذه الوفاة مكررة فيما يلى ، (انظر الصفحة التالية ، حاشية ٣) ، وقـد أضيف ما بين الأقواس مما جاء بالرواية الثانية من الزيادات .

وخمسين سنة[1]] . فولى قضاء القاهرة والوجه البحرى تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين الشافعى، وولى قضاء مصر محيى الدين عبد الله بن شرف الدين محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن على بن صدقة بن حفص، المعروف بابن عين الدولة، فى يوم الخميس تاسع شعبان، بمرسوم ورد عليه عقيب وفاة تاج الدين ابن بنت الأعز، بأن يتولى قضاء مصر والوجه القبلى . وفيها حج الأمير الحلى ، وتصدّق بمال بعثه به السلطانُ الملك الظاهر، وحج الصاحب محيى الدين بن الصاحب بهاء الدين بن حنا .

ومات[2] فى هذه السنة الأمير ناصر الدين حسين بن عزيز القيمرى ، نائب السلطنة بالساحل[3] . وتوفى شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان — المعروف بأبى شامة — المقدسى الشافعى، بدمشق عن ست وستين سنة[4] .

* * *

(١٤٥ ا)سنة ست وستين وستمائة . فى صفر وردت الزكاة والعشر من المدينة النبوية، وعدّتها مائة وثمانون جملا ومبلغ عشرة آلاف درهم، فاستقل السلطان ذلك وأمر بردّه . فورد

---

(١) توجد بالنويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢، وما بعدها) ترجمة وافية للقاضى ابن بنت الأعز، ومنها أن "العلامى" نسبة الى قبيلة بنى علامة وهى بطن من لخم، وأنه اشتهر باسم "ابن بنت الأعز" نسبة الى جده لأمه، وهو الصاحب الأعز فخر الدين أبو الفوارس مقدام بن القاضى كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر، أحد وزراء السلطان الملك العادل أبى بكر محمد بن أيوب .

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٤٤ ب، ١٤٥ أ، وليس ثمت شك فى مناسبتها هنا . (انظر النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٢، وما بعدها ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣١٧، وما بعدها) .

(٣) يلى هذا فى س ذكر وفاة قاضى القضاة ابن بنت الأعز، التى سبق ذكرها أوّل وفيات هذه السنة، (انظر ص ٥٦١، سطر ١١)، ونص هذه الرواية الثانية مصححا كالآتى : "وتوفى قاضى القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب ابن خلف بن أبى القاسم ابن بنت الأعز العلامى الشافعى فى ليلة الأحد ثامن عشرى رجب عن إحدى وخمسين سنة".

(٤) توجد فى آخر (Rec Hist. Or. V. p. 207 et seq.) ترجمة طويلة لشهاب الدين أبى شامة، وهو مؤلف كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية المتداول هنا بالحواشى، وقد عرف بأبى شامة لأنه كان فوق حاجبه الأيسر شامة كبيرة .

بنو صخر و بنو لام وبنو[1] عنزة من عرب الحجاز ، والتزموا بزكاة الغنم والإبل ، فبعث السلطان معهم شادين لاستخراج ذلك . وفيه قُسّمت عمارة صفد على الأمراء ، وأخذ السلطان لنفسه نصيبا وافرا ، وأقيم فى عمارة القلعة وأبراجها الأمير سيف الدين الزينى . وعُمِل لها أبواب سرّ إلى الخندق ، فلما كملت كتب على أسوارها : "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ، أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللهِ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها ، وتكميل عمارتها وتحسينها ، بعد ما خلّصها من أسر الفرنج الملاعين ، و ردّها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أوّل مرّة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدّل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه و بخواصه على الرءوس ، السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس . فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الإسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من أجره ، ولا يُخْلِه من الترحّم فى سرّه وجهره . فقد صار يقال عمر الله صرحها ، بعد ما كان يقال عجّل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين" .

وفيه كتب [السلطان] إلى الملك منكوتمر القائم مقام الملك بركه ، بالتعزية والإغراء بولد هولاكو . وفيه رسم [السلطان] بعمارة مسجد الخليل عليه السلام ، فتوجه الأمير جمال الدين ابن نهار لعمل ذلك ، حتى أنهى عمارته . وفيه سار السلطان من صفد إلى القاهرة ، فدخل قلعة الجبل سالما فى... ...[2] . وقدمت رسل [السلطان المظفر شمس الدين يوسف بن[3] عمر بن رسول ملك] اليمن ، بعشرين فرسا عليها لامة الحرب ، وفيلة وحمارة وحش عتابية اللون وعدّة تحف وطرف . فجُهّزت له خلعة وسنجق ، وهدية فيها قميص من ملابس السلطان كان قد سأل فيه ليكون له أمانا ، وسُيّر [إليه] أيضا جوشن[4] وغيره من آلة الحرب ، وقيل

(١) فى س "بنوا" ، فى الأحوال الثلاث . (٢) بياض فى س . (٣) انظر ص ٥٤٣ ، حاشية ٣ .

(٤) الجوشن هنا الدرع (محيط المحيط) ، و يقابله فى الفرنسية لفظ (cuirasse) . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49) .

له : "قد سيّرنا إليك آلة السلم وآلة الحرب مما لاصق جسدنا فى مواطن الجهاد"، وكُتب له : "المقام العالى[1] المولوى السلطانى"، وكَتب له السلطان بخطه "المملوك"[2] .

وفيه اجتاز السلطان (١٤٥ ب) على السَّدير[3] قرب العباسة ، فأعجبه فاختار منه مكانا بنى فيه قرية سماها الظاهرية ، وعمر بها جامعا . و بينا هو فى الصيد [هناك] إذ بلغه حركة التتار على حلب ، فعاد إلى القلعة وأمر بخروج الخيام، فلم يعجبه خيام جماعة فأدّبهم وجرسهم . وخرج البريد إلى الشام بتجهيز العساكر ، فلما خرجوا وساروا إلى بانياس أخرج البريدى كتبا مختومة باسم الأمير علم الدين الحصنى والأمير بدر الدين الأتابكى ، وفيها منازلتهم للشقيف ؛ فلم يشعر الفرنج إلا بالعساكر على قلعة الشقيف .

وسار الساطان من مخيمه بباب النصر فى ثالث جمادى الآخرة إلى غزة ، فبلغه عن جماعة من الجمالين أنهم تعرّضوا إلى زرع فقطع أنوفهم ، و بلغه عن الأمير علم الدين سنجر الحموى أنه ساق فى زرع ، فأنزله عن فرسه وأعطاه بما عليه من السرج واللجام لصاحب الزرع . ثم رحل[4] [السلطان] إلى العوجاء .

فلما كان يوم العشرين منه ساق السلطان من العوجاء إلى يافا ، وحاصرها حتى ملكها من يومه ، وأخذ قلعتها وأخرج من كان فيها ، وهدمها كلها و جمع أخشابها و رخامها

(١) يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٤٥ — ٣٧٠) خمس صيغ لافتتاح المكاتبات الصادرة من سلاطين المماليك بمصر الى ملوك بنى رسول باليمن ، ومنها الصيغة الواردة هنا بالمتن ، وكلها تدل بوجه عام على أن ملوك بنى رسول كانوا غالبا فى المرتبة الثالثة من كبار ملوك الدول الإسلامية . ويوضح ذلك ما جاء فى القلقشندى (نفس المرجع ، ج ٦ ، ص ١٢٦) فى باب ألقاب المكتوب اليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية ، ونصه : " الطبقة الأولى ما يصدر بالمقام ، وأعلاها المقام الأشرف ... ... ، ودونه المقام الشريف ... ... ، ودونه المقام العالى .. .. " . انظر أيضا ص ٤٥٣ ، حاشية ١ .

(٢) جرى المصطلح فى دولة المماليك أن ينعت السلطان نفسه بهذا اللفظ فى المكاتبات الصادرة منه الى الملوك الكبار . انظر (القلقشندى : نفس المرجع ، ج ٧ ، ص ٣٥٤ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 49 n. 58) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهو وادبين العباسة والخشبي ، وكانت تنصب فيه فضلات مياه النيل إذا زاد ، فيصير غيضة ذات مستنقعات . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٦) .

(٤) فى س "ورحل" .

وحمله فى البحر إلى القاهرة . فعُمل من الخشب مقصورة الجامع الظاهرى بالحسينية، ومن الرخام محرابه . وأمر [السلطان] ببناء الجوامع بتلك البلاد، وأزال منها ومن [قرية] لُدّ(1) المنكرات، ورتّب الخفراء على السواحل وألزمهم بدركها. ورسم أن المال المتحصل من هذه البلاد لا يخلط بغيره، وجعله لمأكله ومشربه . وأعطى الأمير علاء الدين الحاج طيبرس منها قرية، وأعطى الأمير علم الدين سنجر الحموى قرية، [و] ملّكهما إياهما. وأنزل التركمان بالبلاد الساحلية لحمايتها، وقرر عليهم خيلا وعدة، فتجدّد له عسكر بغير كلفة . وفيه رسم بتجديد عمارة الخليل عليه السلام، و رسم أن يكون عمل الخوان الذى يُمَدّ(2) ناحيةً عن مسجد الخليل .

وجهز [السلطان] عسكرا إلى الشقيف، ثم سار إليها بنفسه فنزل عليها فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب(3)، وقدِم الفقهاء والفقراء للجهاد. و نصب [السلطان] عليها ستة وعشرين منجنيقا، وألحّ عليها حتى أخذها يوم الأحد سلخ رجب، وأخرج منها نساء الفرنج وأولادهم

---

(1) بغير ضبط فى س، وهى قرية قرب بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥٤) .

(2) فى س "يمد ناحيه"، والمقصود بذلك أن يكون مكان إقامة الخوان بعيدا عن الحرم . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٢)، حيث العبارة فى هذا الصدد كالآتى : "وعمل مكان الخوان ناحية عن الحرم" .

(3) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٦٤، وما بعدها) تفصيل لحيلة توسل بها السلطان للاستيلاء على الشقيف، ونصه : "رحل [السلطان] ...... طالبا للشقيف، فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامن عشر رجب، فوقع على كتاب من جهة الفرنج الذين بعكا يتضمن إعلام النواب بالشقيفين [أن] المسلمين لا يقدرون على أخذ الحصن إن احتفظتم به، بجدّوا فى أمركم . فلما اطلع السلطان على ذلك انفتح له باب فى أخذه، فاستدعى من يكتب بالفرنجى وأمره أن يكتب كتابا يذكر فيه أمارات بينهم و بين أهل عكا استفادها من الكتاب الذى وقع له، و يحذر المكمندور (كذا، والمتواتر لفظ الكمندور، وهو معرب اللفظ الفرنسى commandeur، أى المقدّم) المقيم بالشقيف من (١٦٥) الوزير [كليام] المقيم عنده ومن جماعة كانت أسماؤهم فى الكتاب، وكتابا آخر للوزير [كليام] يحذره من المكمندور، و يأمره إن احتاج إلى مال [أن] يأخذه من ملك كان اسمه فى الكتاب، وأوصل الكتب إليها بحيلة . فلما وقف أهل الشقيف على الكتب وقع الخلف بينهم مع شدة الحصار الذى كانوا فيه، فألجأهم الخلف بينهم إلى أن سيروا إلى السلطان الملك الظاهر وقرروا معه تسليم الحصن، على ألا يقتلوا من فيه . فتسلم [السلطان] الحصن فى تاسع وعشرين [من] رجب، وكان قد ملك الباشورة بالسيف، واصطنع المكمندور. وكان عدة من بالحصن أربعمائة وثمانين مقاتلا، فركبهم الجمال إلى صور، و بعث معهم من يحتفظ بهم" . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٢ — ٩٣) .

إلى صور، وقيّد الرجال كلهم وسلّمهم للعساكر . وهدم [السلطان] قلعة استجدّها الفرنج [هناك] ، واستناب على القلعة الأخرى الأمير صارم الدين قايماز الكافرى، ورتّب بها الأجناد والرجّالة ، وقرّر فيها قاضيا وخطيبا[1] ، وولى أمر عمارتها الأمير سيف الدين بلبان الزينى وفيه وردت كتب من (١٦٤ ا) الكرج[2] .

وفى شعبان وصل رسول صاحب بيروت بهدية وتجار كانوا قد أخذوهم فى البحر من سنين، فما زال السلطان حتى خلّصهم وخلّص أموالهم[3] .

وفى عاشره رحل السلطان من الشقيف الى قرب بانياس، وبعث الأثقال الى دمشق. وجهّز الأمير عز الدين أوغان بجماعة لجهة ، وجهز الأمير بدر الدين الأيدمرى فى جماعة الى جهة أخرى، فخفظت العساكر الطرقات .

ثم سار [السلطان] إلى طرابلس وخيّم عليها فى النصف منه، وناوش أهلها القتال وأخذ برجا كان هناك، وضرب أعناق من كان فيه من الفرنج[4] . وأغارت العساكر على من فى تلك الجبال ، وغنموا شيئا كثيرا وأخذوا عدة مغاير بالسيف، وأحضروا المغانم والأسرى الى السلطان فضرب أعناق الأسرى، وقطع الأشجار وهدم الكنائس، وقسّم الغنائم فى العسكر .

ورحل [السلطان عن طرابلس][5] فى رابع عشريه ، فتلقاه صاحب صافيتا وأنطرسوس بالخدمة ، وأحضر ثلاثمائة أسير كانوا عنده ، فشكره السلطان ولم يتعرض لبلاده . ونزل [السلطان] على حمص ، وأمر بإبطال الخمر والمنكرات . ثم دخل الى حماة ولا يعرف أحد

(١) فى س "قاضى" . (٢) انظر ص ٥٣٧ ، حاشية ١ . (٣) انظر ص ٥٥٩ ، حاشية ١ .

(٤) اقتصرت حركات جيوش السلطان هنا على مهاجمة البلاد المحيطة بطرابلس ، ولم يستطع الأمير بيموند السادس (Bohemond. VI) ، وهو صاحب طرابلس وأنطاكية ، أن يوجه أى مقاومة ضد السلطان الظاهر بيبرس . راجع (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 263) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٩٣ — ٩٤)، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة .

(٥) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ،ص ٩٤) . و يلاحظ أن عبارة السلوك هنا ، وفيما سبق من أخبار إغارات السلطان بيبرس على المدن الصليبية ، مشابه تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب .

أى جهة يقصــد ، فرتّب العســكر ثلاث فرق : فرقة صحبــة الأمير بدر الدين الخازندار ، وفرقة مع الأمير عز الدين إيغان ، وفرقة مع الســلطان . فتوجه الخازندار الى السُّـوَيْدِيّة [١] ، وتوجه إيغان الى درب بساك ، فقتلوا وأسروا . ونزل السلطان أفامية ، ووافاه الجميع على أنطاكية .

وأصبح أول شهر رمضان والسلطان مغير على أنطاكية [٢] ، وأطافت العساكر بهـا من كل جانب ، فتكملوا بخيامهــم فى ثالثه . و بعث [السلطان] الى الفرنج يدعوهم و ينذرهم بالزحف عليهــم ، [وفاوضهم فى ذلك] [٣] مدّة ثلاثة أيام وهم لا يجيبون ، فزحف عليها وقاتل أهلها قتالا شديدا . وتسوّر المسلمون الأسوار من جهة الجبل بالقرب من القلعة ، ونزلوا المدينة ففرّ أهلها الى القلعة ، ووقع النهب والقتل والأسر فى المدينة ، فلم يُرْفع السيف عن أحد من الرجال وكان بها فوق المـائة ألف . وأحاط الأمراء بأبواب المدينة حتى لا يفرّ منها أحد ، واجتمع بالقلعة من المقاتلة ثمانية آلاف سوى النساء والأولاد ، فبعثوا يطلبون الأمان فأمّنوا . وصعد السلطان اليهم ومعه الحبال ، فكُتِّفوا وفرّقوا على الأمراء ، والكُتّاب بين يدى السلطان يتزلون الأسماء .

وكانت أنطاكية للبرنس بيموند بن بيموند ، وله معها طرابلس ، وهو مقيم بطرابلس . وكتبت البشائر بالفتح الى الأقطار [الشامية والمصرية والفرنجية ، وفى الجملة كتاب [٤] الى صاحب أنطاكية — وهو يومئذ مقيم بطرابلس — وهو من إنشاء ابن عبد الظاهر رحمه الله تعالى] .

---

(١) بغــير ضبط فى س ، وهى حصن وميناء لأنطاكيــة ، واسمهـا فى الحوليات الصليبية (Port Simon, Le Soudin) . راجع (Le Strange : Palest. Under Moslems. p.540) .

(٢) فى س "واصبح اول رمضان مغيرا عليها" ، وقد عدلت الجملة على النحو المثبوت هنا من أجل البدء فى فقرة جديدة .

(٣) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤) ، حيث وردت تلك الأخبار بتفصيل .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل : (كتاب النهج السديد ، ص ١٦٧) . و يوجد بهذا المرجع (ص ١٦٧ ، وما بعدها) ، وكذلك بالعينى (عقد الجمان ، ص ٢٢٩ ، وما بعدها ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1. ، والنويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٤ ، وما بعدها) ، نص للكتاب المرسل الى صاحب أنطاكية ، ومن هذا المرجع الثالث نقله وترجمه الى الفرنسية (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 190 et seq) . ولهذا الكتاب ترجمة باللغة الألمانية فى (Weil: Geschichte der chaliphen. IV. pp. 63-67) ، وأخرى بالإنجليزية فى (Yule : Marco Polo. I. P. 2.5) راجع (Lane-Poole : A. Hist of Egypt In The Middle Ages. p. 269. n. I) ، وانظر النص العربى لهذا الكتاب فى ملحق رقم ٢ ، فى آخر هذا الجزء .

وسلم السلطان القلعة إلى (١٤٦ ب) الأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير [بدر الدين] بيسرى [الشمسى][١]، وأمر بإحضار المغانم لتقسّم، وركب وأبعدَ عن الخيام وحمل ما غنمه وما غنمته مماليكه وخواصه، وقال: "والله ما خبأت شيئا مما حمل إلىّ ولا خلّيت مماليكى يخبئون شيئا، ولقد بلغنى أن غلاما لأحد مماليكى خبأ شيئا لا قيمة له فأدّبته الأدب البالغ، وينبغى لكل أحد منكم أن يخلّص ذمته، وأنا أحلّف الأمراء والمقدمين، وهم يحلّفون أجنادهم ومضافيهم". فأحضر الناس الأموال والمصاغ الذهب والفضة حتى صارت تلاًّ بها، وقسّمت فى الناس، وطال الوزن فقسّمت النقود بالطاسات. وقسّمت الغلمان على الناس، فلم يبق غلام إلا وله غلام، وتقاسم النساء والبنات والأطفال، وأبيع الصغير باثنى عشر درهما والجارية بخمسة دراهم. وأقام السلطان يومين وهو يباشر القسمة بنفسه، وقصّر الناس فى إحضار الغنائم فعاد [السلطان] مغضبا، فلم تزل الأمراء به يلتزمون بالاجتهاد والاحتراز ويعتذرون اليه، حتى وقف على فرسه وماترك شيئا حتى قسّمه.

ثم ركب [السلطان] الى القلعة وأحرقها، وعمّ بالحريق أنطاكية، فأخذ الناس من حديد أبوابها ورصاص كنائسها ما لا يوصف كثرة. وأقيمت الأسواق خارج المدينة، فقدم التجار من كل جهة. وكان بالقرب من أنطاكية عدة حصون، فطلب أهلها الأمان، فتوجّه اليهم الأمير بيليك الأشرفى [و] تسلمها فى حادى عشره، وأسر من فيها من الرجال.

وكان التكفور[٢] [هيتوم] ملك سيس لم يزل يسأل فى إطلاق ولده ليفون، ويعرض فى فدائه الأموال والقلاع. وكان التتر قد أسروا الأمير شمس الدين سنقر الأشقر من حلب، لما ملكوها من الملك الناصر، فاقترح السلطان على ملك سيس إحضار سنقر عوضا عن ولده، وردّ القلاع التى أخذها من مملكة حلب، [وهى بَهَسْنا[٣] ودَرْبَسَاك ومَرْزَبان ورَعْبَان

(١) كمل هذا الاسم من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٩٦).

(٢) فى س "تكفور ملك سيس".

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.)، وضبط من ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٠؛ ج ٢، ص ٦٤٧، ٧٩١؛ ج ٣، ص ٩٥).

وشِيح الحـديد] [1]؛ فسأل [هيتوم] المهلة سنة إلى أن يبعث إلى الأُرْدُو [2]. فلما كان فى هـذه الأيام، بعث [هيتوم] إلى السلطان بأنه وجد سـنقر، و[أنه] أجيب إلى إطلاقه، فكتب إليه بإحضاره. فأَحْضَرَ [هيتوم] كتاب سنقر إلى السلطان بأمارٍ [3]، إلا أنه غيّر قوله فى تسليم القلاع، فكُتب إليه: "إذا كنت تقسو على ولدك وولىّ عهدك، فأنا أقسو على صـديق ما بينى وبينه نسب، ويكون الرجوع منك لا منى. ونحن خلفْ [4] كتابنا، فمهما شئتَ [5] افعل بسـنقر الأشقر". فلما وصلت إليـه الكتب من أنطاكية خاف، وتقرّر الصلح على تسليم قلعة بَهَسْنا [6] ودربساك (١٤٧ ا) وكلّ ما أخذه من بلاد الإسلام، وأن يردّ الجميع بحواصلها كما تسلمها، ويطلق سنقرَ الأشقر، ويطلق السلطانُ ولدَه وابن أخيه وغلمانهما، وأنه يحضر رهينة حتى يتسـلم السلطان القلاع؛ فكتبت الهـدنة بأنطاكية. وتوجه الأمير بلبان الرومى الدوادار، والصدر فتح الدين بن القيسرانى كاتب الدرج، لاستحلافه. وتوجه الأمير بدر الدين بجكا الرومى لإحضار الملك ليفون من مصر على البريد فى ليـلة الثالث عشر من رمضان؛ فوصـل إلى القاهرة وخرج منها ثانى يوم دخوله بالملك ليفون، فوصـل إلى دمشق ليـلة الاثنين سادس عشريه، فكان بين خروجه من أنطاكية وعوده إلى دمشق ثلاثة عشر يوما. وحلف التكفور هيتوم صاحب سيس فى سابع عشريه، فانتظم الصلح [7].

---

(١) سمى العينى (عقد الجمان، ج ٥ ، ٢٣٥ فى Rec Hist. Or. II. 1) هذا البلد باسم "شيخ الحديد".

(٢) الأردو لفظ مغولى معناه المعسكر، وقد استعمل فى المراجع العربية والفارسية فى هذا العصر للدلالة على معسكر إيلخان الدولة المغولية بفارس، (le campement impérial du souverain des Mongols de l'Iran)، انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١١٦ ، ١١٧ ، ٢٤٠ ، ٢٧٣).

(٣) هذه الجملة ليست واضحة تماما فى س، وقد ترجمها (Quatremère : Op. Cit. I. 2 P. 55) الى الصيغة التالية : (En même temps, Bibars reçut de cette écrite en chiffres).

(٤) فى س "حلف".

(٥) فى س "سيت".

(٦) بغير ضبط فى س، وهى قلعة بين مرعش وسميساط. (ياقوت، معجم البلدان، ج ١، ص ٧٧٠).

(٧) انظر ما يلى ص ٥٧٠، سطر ٥.

و رحل السلطان من أنطاكية إلى شيزر، وسار منها على البرّية إلى حمص وهو يتصيد ، فدخل حماة فى ثلاثة نفر : وهم الأمير بيسرى ، والأمير بدر الدين الخازندار ، والأمير حسام الدين الدوادار ؛ ونزل العسكر حماة . ثم سار السلطان من حمص إلى دمشق ، فدخلها فى سادس عشريه، والأسرى بين يديه و[ليفون ابن](١) صاحب سيس فى خدمته ، فأحسن إليه . وحلف [ليفون] للسلطان فى ثالث شوّال على النسخة التى حلف عليها أبوه ، وهو قائم مكشوف الرأس؛ وسار إلى بلاده فى حادى عشره صحبة الأمير بجكا على البريد ، حتى قرّره فى مملكته . ووصلت الرهائن فأحسن السلطان إليهم وأكرمهم ، وما زالوا إلى أن تسلم نوّاب السلطان القلاع من أهل سيس، فأعيدت الرهائن إليهم بما أنعم عليهم . وعند ما وصل ليفون إلى سيس أطلق سنقر الأشقر ، وبعث به إلى السلطان . فتلقّاه [السلطان] وهو فى الصيد من غير أن يعرف أحد بقدومه، وقدم به وهو مختف وأنزله عنده فى الدهليز، وبات معه . فلما أصبح [الصباح] واجتمع الناس فى الخدمة ، خرج السلطان ومعه سنقر الأشقر ، فبهت الناس لرؤيته . وأخرج له السلطان المال والخلع والحوائص، والخيل والبغال والجمال والمماليك ، وسائر ما يحتاج إليه . وحمل إليه الأمراء التقادم ، وبالغ [السلطان] فى الإحسان إليه ، وبنى له دارا بقلعة الجبل . ولما حضر [سنقر] إلى القاهرة أعطاه [السلطان] إمرة، وعمله من خواصه .

وفى ثالث عشره تسلّم الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى أستادار السلطان حصن بغراس من الفرنج [الداوية](٢)، و [كانوا] قد فرّوا عنها [وتركوا الحصن(٣) خاليا] حتى لم يبق بها سوى عجوز واحدة، فوجدها [الأمير شمس الدين] عامرة بالحواصل والذخائر .

(١) انظر ما يلى بالسطر التالى، وسطر ٩ أيضا .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (عقد الجمان، ص ٢٤٣، فى Rec. Hist.Or. II. 1.) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.) .

وفيه وردت رسل [صاحب][1] عكا بهدية ، فحصــل الاتفاق على أن تكون حيفا للفرنج ولهـا ثلاث ضـياع ، وأن تكون (١٤٧ب) مدينــة عكا وبقية بلادها مناصــفة هى وبلاد الكَرْمِل[2]، وأنّ بلاد صيدا الوطاة للفرنج والجبليات للســلطان، وأن الهدنة لعشر سنين، وأن الرهائن تطلق . وبعث السلطان لصاحب عكا هدية فيها عشرون[3] نفسا من أسرى أنطاكية، وتوجّه القاضى محيى الدين بن عبــد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث[4] لاستحلافه، فدخلا عكا فى عشرى شــوّال ، وقد وصّاهما الســلطان ألا يتواضــعا له فى جلوس ولا مخاطبــة . فلمـا دخلا كان الملك على كرسى ، فلم يجلسا حتى وضع لهما كرســيين جلسا عليهــما قبالته ؛ ومدّ الوزير يده ليأخذ الكتاب فلم يرضــيا حتى مدّ الملك يده وأخذه، ولم يوافق على أشــياء فتركوه ولم يحلف .

وفى ثامن عشر ذى القعدة خرج السلطان من دمشــق وسار إلى القاهرة ، فخرج الملك السعيد إلى أم الباردة وهى السعيدية[5] ، وعيّد مع السلطان بها . وسارا إلى قلعة الجبــل فى حادى عشر ذى الحجة، وحمل [السلطان] عن الناس كلفة الزينة .

وفيها مات السلطان ركن الدين قلج أرســلان بن كيخسرو بن قلج أرســلان بن مسعود ابن قلج أرســلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق، ملك الروم . وقام من بعده ابنه غياث الدين كيخسرو، وعمره أربع سنين؛ فقام بأمر المملكة معين الدين سليمان

(١) كان صاحب عكا تلك السنة ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٦ ، فى (Rec. Hist. Or. II. 1، " اوك بن هرى (كذا) ابن أخت صاحب قبرص" (Hugh III of Cyprus) ، وأبوه (Henry, Son of Bohemond IV of Antioch) ، وأمه (Isabella, daughter of Hugh I of Cyprus) . انظر (Stevenson : Crusaders In The East p. 342. n.9; King : The Knights Hospitallers In The Holy Land, pp.264 - 265).

(٢) بغير ضبط فى س، والكرمل حصن بالجبل المشرف على حيفا بسواحل الشام . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٦٧) .

(٣) فى س "عسرين" . (٤) فى س "شب" .

(٥) كذا فى س، انظر ص ٤٠١ ، حاشية ٥ .

البَرْوَاناه[1] . وكان موت ركن الدين خنقا بالوتر، وذلك أن[2] معين الدين البرواناه اتفق مع الططر المقيمين معه على قتل ركن الدين، فخنقوه[3] .

ومات[4] فى هذه السنة من الأعيان كمال الدين أبو العباس أحمد بن عبد العزيز بن محمد بن الشهيد أبى صالح عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى كاتب الإنشاء، ظاهر صور من الساحل . وتوفى الصاحب عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن منصور بن محمد بن وداعة الحلبى وزير دمشق، بالقاهرة . وتوفى الأديب عفيف الدين أبو الحسن على ابن عدلان بن حماد بن على الموصلى بدمشق، عن ثلاث وثمانين سنة . ومات الأمير عماد الدين أبو حفص عمر بن هبة الله بن صديق الخلاطى الأديب الفاضل بحماة، عن ثمان وستين سنة . وتوفى الشيخ المعتقد أبو داود مُسَلَّم السُلَمى[5] شيخ الطائفة المسلمية ، فى يوم الجمعة ثالث شهر ربيع الأول، ودفن بالقرافة؛ وكان فى ابتداء أمره قاطع طريق، وأخذ عن الشيخ مروان أحد أصحاب الشيخ مرزوق، وقدم القاهرة، وعنى به الصاحب بهاء الدين محمد بن على بن حنا .

---

(١) البرواناه لفظ فارسى معناه فى الأصل الحاجب (chambellan)، وقد أطلق فى دولة السلاجقة الروم بآسيا الصغرى على الوزير الأكبر (le principal ministre) . راجع (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 57. n. 69) وكان الوزير معين الدين المذكور هنا متسلطا فى الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلج أرسلان كما يلى هنا بالمتن . انظر أيضا ص ٤٠٨ ، حاشية ١، وكذلك (Enc. Isl. Arts. Ḳilidj Arslān IV; Mu'in al-Din Sulaimān Parwāna) .

(٢) فى س "ابن" .

(٣) يلى هذا فى س عبارة طويلة أولها : "وفيها تنكر الخان ..."، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ، ثم أدرك غلطته فكتب فوقها "ينقل الى سنة ثمان وسبعين [وستمائة]"، وهذا خطأ أيضا والصحيح ثمان وستين وستمائة، وقد أدمجت فى موضعها تحت تلك السنة . (انظر ص ٥٨٨، حاشية ١، ٢) .

(٤) الوفيات التالية الى آخر السنة واردة على ورقة لصقت خطأ بين الصفحتين ١٤٩ ب ، ١٥٠ أ فى س، وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٢٣؛ ابن شاكر : فوات الوفيات، ج ٢ ، ص ٥٩) . هذا وليس لهذه الوفيات وجود البتة فى ب (١٧٤ ب)، أو فى (Quatremère : Op. Cit I. 2. p. 58) .

(٥) هذان اللفظان مضبوطان هكذا فى س .

* * *

سنة سبع وستين وستمائة . فى أول المحرم ركب السلطان حتى شاهد جامعه بظاهر القاهرة، وسار لفتح بحر أبى المنجا، وعاد إلى القلعة . وفيــه احتفل السلطان برمى النشاب وأمور الحرب، وبنى مسطبة بميدان العيد خارج باب النصر من القاهرة؛ وصار ينزل كل يوم من الظهر ويرمى النشاب، فلا يعود من الميــدان إلى عشاء الآخرة . و[أخذ السلطان] يحرّض النــاس على الرمى والرهان، فما بقى أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله، وتوفّر الناس على لعب الرمح ورمى النشاب . وفيه قدمت الرسل من جميع الأقطار تهنئ السلطان بمـا فتحه الله عليـــه .

وفى يوم الخميس تاسع صفر جلس الملك السعيد بركه فى مرتبــة الملك، وحضر الأمراء فقبّـلوا الأرض، وجلس الأمير عز الدين الحلى و[الأمير فارس الدين][1] الأتابك بين يديه، والصاحب بهاء الدين وكتّاب الإنشاء والقضاة والشهود . وحلف له الأمراء وسائر العساكر .

وفى ثالث عشره ركب [الملك الســعيد] الموكب كما يركـب والده، (١٤٨ ا) وجلس فى الإيوان وقرئت عليه القصص . وفى العشرين منه قرئ بالإيوان تقليده[2] بتفويض السلطنة إليه، واستمر جلوسه فى الإيوان مكان والده لقضاء الأشغال، و[صار] يوقّع ويطلق ويركب فى الموكب . وأقام الســلطان الأمــير بدر الدين بيليك الخازندار نائبا عنه، عوضا عن الأمير عز الدين الحلى .

وفى ثانى عشر جمـادى الآخرة خرج السلطان، ومعه الأمير عز الديـن الحلى وأكابر الأمراء، فى عدّة من العسكر يريد بلاد الشام، وترك أكثر العسكر عند الملك الســعيد . فلما وصل إلى غزة أنفق فى العسكر، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها . فقدم [عليه] كتاب متملك سيس بأن رســول أبغا بن هولاكو قدم ليحضر إلى السلطان، فبعث إليه الأمير ناصر الدين

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٨).

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٦٨، وما بعــدها) نص هذا التقليد، وذكر أنه كان من إنشاء المولى فخر الدين بن لقمان . (انظر ملحق رقم ٣، فى آخر هذا الجزء) .

ابن صيرم مشدّ حلب ليتسلمه من سيس، ويحترز عليه بحيث لا يمكنه أن يتحدّث مع أحد. فسار به إلى دمشق، ولم يحتفل به عند وصوله إلى دمشق، وأُنزل فى قلعتها. فورد الخبر بذلك، فركب السلطان من أرسوف وترك الأثقال بها، وأخذ معه الأمراء ودخل إلى دمشق. وأُحضر الرسول [إليه]، فكان من جملة كتابه: "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد، ومن خالفه هلك وقتل. فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت الى الأرض ما تخلّصت منا، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا". وكان فى المشافهة: "أنت مملوك وأُبعتَ فى سيواس(١)، فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض؟" فأجيب وأعيد الرسول.

وفى أول شعبان مات الأمير عز الدين الحلى بدمشق. وفيه خرج السلطان من دمشق، وودّع الأمراء كلهم وسيرهم إلى مصر؛ ولم يتأخر عنده من الأمراء الكبار سوى الأمير الأتابك، والمحمدى، والأيدمرى، وابن أطلس خان، وأقوش الرومى. فسار بهم إلى قلعة الصبيبة ثم الى الشقيف وصفد، وكتب بحضور الأثقال الى خربة اللصوص من أرسوف، فأحضرها الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار، وقدم السلطان إليها فأقام بها أياما.

وخطر للسلطان أن يتوجه إلى ديار مصر [خفية](٢)، فكتم ذلك وكتب إلى النوّاب بمكاتبة الملك السعيد والاعتماد على أجوبته، ورتّب أنه كلما جاء بريد يقرأ عليه وتخرج علائم على بياض تكتب عليها الأجوبة. فلما كان فى رابع عشره أظهر [السلطان] أنه تشوّش فى بدنه، واستدعى الحكماء الى الخيمة، ووقع احتفال فى الظاهر (١٤٨ ب) بتوعكه، وأصبح الأمراء فدخلوا عليه وشاهدوه مجتمعا على هيئة متألم؛ وكتب الى دمشق باستدعاء الأشربة.

(١) يجب أن تسدّ هذه العبارة فراغا فى ترجمة السلطان الظاهر بيبرس، إذ أن كل المعروف عن أصله وحداثته لا يعدو أنه ولد فى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٣م) ببلاد القبشاق، وأنه بيع بدمشق للأمير علاء الدين أيدكين البندقدار. (انظر ص ٣٥٠، حاشية ٢؛ ص ٤٣٦؛ Enc. Isl. Art. Baibars I.).

(٢) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٢، فى Rec. Hist. Or. I.)، هذا وعبارة المقريزى هنا مشابهة فى ترتيبها ولفظها لما يقابلها فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٩، وما بعدها).

وتقدّم [السلطان] إلى الأمير بدر الدين الأيدمرى، والأمير سيف الدين بكتوت جرمك الناصرى، بالتوجه الى حلب على خيل البريد وصحبتهما بريدى، فتوجهوا ليلة السبت سادس عشره؛ و[كان السلطان قد] أوصاهم أنهم إذا ركبوا يأتوا خلف الدهليز، حتى يتحدّث معهم مشافهة. وجهز [السلطان] الأمير آقسنقر الساقى على البريد الى مصر، وأعطاه تركاشه وأمره أن يقف خلف خيمة الجمدارية من وراء الدهليز، فوقف حيث أُمِر. ولبس السلطان جوخة مقطّعة، وتعمّم بشاش دخانى عتيق، وقصد أن يخرج ولا يعلم به الحراس، فوجد قماش نوم لبعض المماليك، فاستدعى خادما من خواصه وقال له: "أنا خارج بهذا القماش، احمله وامش قدامى، فإن سألك أحد فقل هذا بعض البابية[1] معه قماش بعض الصبيان، حصل له مرض وما يقدر يحضر الخدمة الليلة، وهذا غلامه خارج اليه بقماشه". فخرج [السلطان] بهذه الحيلة ولم يفطن به أحد، وكان قد أسرّ الى الأمير شمس الدين الفارقانى أنه يغيب مدة أيام عيّنها.

ولما خرج[2] [السلطان] من الدهليز مشى الى الجهة التى واعد آقسنقر الساقى اليها، و[كان قبل ذلك] قد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيّرها مع الأمير بهاء الدين أمير آخور، [وأمره أن] يقف بها فى مكان. فأخذ آقسنقر الخيل، وسيّر بهاء الدين أمير آخور الى التل، فوجد الأيدمرى ورفقته. فصار اليهم السلطان، واختلط بهم فى السّوْق وهم لا يعرفونه[3]، فلما طال سَوْقهم قال السلطان للأيدمرى: "تعرفنى؟" فقال: "أى والله!"

(١) البابية جمع بابا، وهو حسبما ورد فى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٧٠) "لقب عام لجميع رجال الطست خاناه، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك. وهو لفظ رومى معناه أبو الآباء... وكأنه لقب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيه مخدومه، من تنظيف قماشه وتحسين هيئته، أشبه الأب الشفيق، فلقب بذلك". انظر أيضا (Quatremère : Op, Cit. I. 2. pp. 194-195).

(٢) عبارة المقريزى هنا مضطربة قليلا، ونصها: "ولما خرج من الدهليز مشى الى الجهة التى واعد آقسنقر اليها، وقد أقام هناك أربعة أرؤس من الخيل سيرها مع الأمير بهاء الدين أمير اخور وقف بها فى مكان فأخذ آقسنقر الخيل ثم سير اليه أمير آخر (كذا) سار به فوجد الأيدمرى و رفقته..."، وقد أصلحت العبارة وأضيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٠).

(٣) فى س "لا يعرفوه".

وأراد أن ينزل عن فرسه ليقبّل الأرض، فمنعه . وقال [السلطان] لجرمك : " تعرفنى ؟ " فقال : " إيش هـذا ياخوند ؟ " ، فقال له : " لا تتكلم " . وكان معهم الأمير علم الدين شُقير مقدّم البريدية ، فصارت جملتهم خمسة أنفس ، ومعهم أربعة جنائب من خيل السلطان الخاص .

فساقوا الى القصير المعينى ووافوه نصف الليل، فدخل السلطان الى الوالى ليأخذ فرسه، فقام اليه بنحو خمسين راجلا ليهاوشه وقال : " الضيعة ملك السلطان، مايقدر أحد يأخذ منها فرسا، تروحوا وإلا قتلناكم". فتركوه وساقوا الى بيسان، وأتوا دار الوالى وقالوا: "نريد خيلا للبريد "، فأنزلهم . وقعد السلطان عند رجلى الوالى وهو نائم ، ثم التفت الى الأيدمرى وقال : " الخلائق على بابى، وأنا على باب هذا الوالى لا يلتفت (١٤٩ ا) إلىّ ، ولكن الدنيا نوبات" . وطلب [السلطان] من الوالى كوزا، فقال : "ماعندنا كوز . إن كنت عطشان[1] اخرج واشرب من برّا "، فأحضر اليه الأيدمرى كُرَازا[2] شرب منه . وركبوا وصبحوا جينين، فوجدوا بها خيلا للبريد عرجاء مُعَقَّرة[3]، فركب السلطان منها فرسا لم يكد يثبت عليه من رائحة عقوره . وساروا فلما نزلوا تل العجول بقى كل منهم ماسكا فرسه، فلما وصلوا الى العريش قام السلطان والأمير جرمك وتَقَيا الشعير ، وقال السلطان لجرمك :" أين السلطنة والأستادار وأمير جاندار ؟ وأين الخلق الوقوف فى الخدمة ؟ هكذا تخرج الملوك من ملكهم، وما يدوم إلا الله سبحانه " . ولم يبق معهم من الجنائب الأربعة إلا الذى على يد السلطان يقوده، ووصل معه الى الصالحية .

---

(١) فى س " عطشانا " .

(٢) الكُرَاز — والكَرّاز أيضا — القارورة ، أو كوز ضيق الرأس، والجمع كرزان . (محيط المحيط) . ويستعمل الكراز لحفظ الماء صالحا للشرب (fraiche) ، وأصل اللفظ من لهجة العراق، وقد انتقل الى إسبانيا واللغة الإسبانية ، حيث يقال (alcarraza) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٣) المراد بوصف خيل البريد بهذا الوصف أنها كانت مجرحة الظهر، إذ يقال تعقّر ظهر الدابة أى دبر وتقرح ، وقد ترجم (Quatremère : Op. Cit: I. 2. p. 64) لفظ معقرة الى (couverts de plaies) .

وصعدوا الى القلعة ليلة الثلاثاء الثلث الأول من الليل ، فأوقفهم الحرّاس حتى شاوروا الوالى . ونزل السلطان فى باب الإسطبل وطلب أميرآخور، وكان قد رتّب مع زمام الأدر[1] أن لايبيت إلاخلف باب السر، فدقّ السلطان باب السر وذكر للزمام العلائم التى بينه و بينه، ففتح الباب ودخل السلطان ورفقته . وأقاموا يوم الثلاثاء والأربعاء، وليلة الخميس الحادى والعشرين من شعبان ، ولا يعــلم بالسلطان أحد إلا الزمام فقط . وصار [السلطان] يتفرّج فى الأمراء بسوق الخيل : فلما قُدِّم الفرس للملك السعيد يوم الخميس على العادة قَدَّم أميرآخور للسلطان فرسا آخر، وعند ما خرج الملك السعيد ليركب ما أحسّ إلا والسلطان قد خرج إليه، فرعب منه وقبّــل له الأرض . وركب الســلطان وخرج على غفلة والوقت بغلس ، فأنكر الأمراء ذلك وأمسكوا قبضات سيوفهم، ونظروا فى وجه السلطان حتى تحقّقوه، فقبّلوا له الأرض . وساق السلطان إلى ميدان العيــد ، وعاد الى القلعة وقضى أشغال النــاس . وأقام بقية يوم الخميس و يوم الجمعة، ولعب بالكرة يوم السبت . وتوجّه يوم الأحد الى مصر، ورمى الرجال بالشوانى قدامه، وركب فى الحراريق وعاد الى القلعة . فلما كان ليلة الاثنين خامس عشرى شعبان، ركب [السلطان خيل] البريد من القلعة، وعاد إلى معسكره بخربة اللصوص .

وأما ما جرى فى معسكر (١٤٩ب) السلطان بالخــربة ، فإن الأمير شمس الدين الفارقانى لمــا أصــبح ، وقد فارق الســلطان الدهليز ، أظهر للأمراء أن الســلطان منقطع لضــعف حصل له ، واستدعى الأطباء وسألهم عما يصلح للتوعك الذى يشكو صداعا وخَدَرا[2] وتكسّلا

(١) صحة هذا الاسم المركب بالإضافة "زمام‌دار"، وخطأ المقريزى وغيره من الكتّاب فى رسمه كما بالمتن راجع الى الاعتقاد بأن لفظ "دار" عربى، ولذا كان جمعــه على "ادر" (انظر ما يلى بنفس الحاشــية) . أما الزمام دار فتحريف من الزنان دار، "وهو لقب على الذى يتحدّث على باب ســتارة السلطان أو الأمير من الخدام والخصيان، وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما زنان ... ... ومعناه النساء، والثــانى دار ومعناه ممسك ... ، فيكون المعنى ممسك النساء بمعنى أنه الموكل بحفظ الحريم، إلا أن العــامة والخاصة قد قلبوا النونين فيــه بميمين ، فعبروا عنه بالزمام دار ... ... ظنا أن الدار على معناها العربى ، والزمام بمعنى القائد ... . " (القلقشندى : صــبح الأعشى، ج ٥ ، ٤٥٩ — ٤٦٠) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 65. n. 77) .

(٢) الخدر تشنج يعترى العضو فلا يطيق الحركة . (محيط المحيط) .

وعطشا ؛ وأوهمهم أن السلطان يشكو ذلك ، فوضعوا له ما يوافق . وأمر [الأميرُ شمس الدين] الشراب دارية فأحضروا الشراب، ودخل إلى الدهليز بنفسه ليوهم العسكر صحة ذلك، إلى أن وصل السلطان ليلة الجمعة تاسع عشريه الى قرب الدهليز .

فأمر [السلطان] الأيدمرى وجرمك بالتوجه الى خيامهما ، وأخذ على يده جراب البريد وفى كفّه فُوطة(١)، ومشى على قدميه الى جهة الحراس، فمانعه حارس وأمسك طوقه، فانجذب منه السلطان ودخل باب الدهليز . وبات [السلطان]، فلما أصبح أحضر الأمراء وأعلمهم أنه كان متغير المزاج؛ وركب فضربت البشائر لعافية السلطان . ومشى كل ما وقع على العسكر، ولم يعلم به سوى الأتابك والأستادار والدوادار وخواص الجامدارية .

وكانت فى هذه المدة ترد المكاتبات وتكتب أجوبتها كما رتّب السلطان ، والأحوال جميعها ماشية كأنه حاضر لم يختلّ شيء من الأمور، وقصد بما فعل أن يكشف حال مملكته، ويعرف أحوال ابنه الملك السعيد فى مصر، فتمّ له ما أراد .

وكتب [السلطان] بإزالة الخمور وإبطال الفساد والخواطئ من القاهرة ومصر وجميع أعمال مصر فطهّرت كلها من المنكر، ونهبت الخانات(٢) التى جرت عادة أهل الفساد الإقامة بها، وسلبت جميع أحْوال(٣) المفسدات وحبسن حتى يتزوجن، ونفى كثير من المفسدين . وكتب [السلطان] إلى جميع البلاد بمثل ذلك ، وحطّ المقرر على هذه الجهة من المال ، وعوّض المقطعين جهات(٤) حلالا .

وورد الخبر بحصول زلزلة فى بلاد سيس خرب منها قلعة سَرْفَنْد(٥) وعدّة قلاع، وهلك كثير من الناس حتى سال النهر دما ، وتلفت عدّة جهات . وورد الخبر بأن الفرنج شنعوا بموت

---

(١) الفوطة هنا مرادف البقجة، وهى قطعة من قاش من الحرير الإسكندرى ، تحمل فيها الأوراق الرسمية مرتبة الى حضرة السلطان . (Quatremère : Op. Cit. I. 1. p. 218. N. 98) .

(٢) فى س "الحانات" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 67. n. 79) .

(٣) الأحوال جمع حال، ومعناها هنا الأموال (argent, richesses). انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.).

(٤) فى س "جهاتا" . (٥) بغير ضبط فى س . انظر (Rec, Hist. Or. I. Iudex) .

السلطان، وحضر رسولهم يطلب المهادنة : وكان قـد هرب من المماليك السلطانية أربعة وصاروا إلى عكا، فبعث [السلطان] بإحضارهم فامتنع الفـرنج من إحضارهم إلا بعوض ؛ فأنكر السلطان ذلك وأغلظ عليهم، فسيروا المماليك وقد نَصّروهم . فعند ذلك قبض [السلطان] على رسل الفرنج وقيّدهم ، وكتب إلى النواب بوقوع الفسخ، وأغار عليهـم[1] (١٥٠ ا) الأمير أقوش الشمسى وقتـل وأسر منهم جماعة . وركب السلطان فى العشرين من رمضان وساق إلى صور، وقتل وأسر جماعة، وعاد الى المخيم وأمهل مدة، ثم جرد طائفة لأخذ المَغَلّ وقَطْع الميرة عن صور .

وفى سادس عشريه تسلّم نواب السلطان بَلَاطُنُس[2] [من عزالدين عثمان صاحب صهيون][3]، وهى حصن عظيم . وفيه سارت العساكر من البيرة إلى كُرْكَر[4] فأحرقوا وغنموا ، وأخذوا قلعة كانت بينها وبين كَخْتَا[5]، وقتلوا رجالها وغنموا كثيرا، وأخرجوا منه الخمس للديوان .

وفيه كان خلف فى مكة بين الشريف نجم الدين أبى نمى وبين عمه الشريف بهاء الدين إدريس[6] أميرى مكة، ثم اتفقا فرتّب لهما السلطان عشرين ألف درهم نقرة فى كل سـنة، على ألا يؤخذ بمكة من أحد مكس، ولا يمنع أحد من زيارة البيت ولا يتعرض لتاجر، وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر، وتضرب السكة باسمه . وكُتب لهما تقليد بالإمارة، وسُلمت أوقاف الحرم التى بمصر والشام لنوّابهما .

---

(١) توجد بين الصفحتين ١٤٩ ب، ١٥٠ ا فى س، ورقة منفصلة بهـا وفيات تابعة لسنة ٦٦٦ هـ ، وقـد أدرجت هناك . (انظر ص ٥٧٢، حاشية ٤) .

(٢) بغير ضبط فى س، و بلاطنس حصن بساحل الشام مقابل اللاذقية . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٧١٠) .

(٣) أضيف ما بين القوسين من أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٣، فى Rec. Hist. Or. I.) .

(٤) بغير ضبط فى س ، و يوجد فى ياقوت (معجم البلدان، ج ٤ ، ص ٢٦٢) عدة مواضع بهذا الاسم، وكركر المقصودة هنا حصن على الفرات بين آمد وملطية ، واسمها فى المراجع الفرنجية (Guerguer, Gargar) أى الحصن المنيع . انظر (Rec. Hist. Or. I. Index) .

(٥) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة قديمة على نهر كختاصو (Khiakhta—Su)، وتقع على مسافة أربعين ميلا تقريبا من الجنوب الشرقى من ملطية .(Enc. Isl.Art.Kiakhta) .

(٦) يلى هذا فى س لفظ "قبلا" ، وهو مشطوب .

وفيه سلم السلطان للشريف شمس الدين قاضى المدينــة النبوية وخطيبها ووزيرها — وقد حضر فى رسالة الأمير عز الدين جماز أمير المدينة — الجمـال التى نهبها أحمـد بن حجّى لأشراف المدينــة، وهى نحو الثلاثة آلاف جمل، وأمره أن يوصلها لأربابها . وفيهـا قدم الطواشى جمال الدين محسن الصالحى شيخ خدام الحجرة النبوية ، فأكرمه السلطان وضرب له خيمة بشقّة[1] على باب الدهليز ، وناله زيادة على مائتى ألف درهم نقرة ؛ وسافر صحبة القاضى والجمال مع الركب الشامى، وجهز من الكسوة لمكة والمدينة .

وفيــه قدم رسول الفرنج من بيروت بهـدية وأسارى مسلمين ، فأطلقوا بباب الدهليز ، وكتبت لهم هدنة . وفيه وصــل الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا إلى الدهليز ومعــه جماعة من أمراء العرب ، فأوهمــه السلطان أنه يريد الحركة إلى العــراق ، وأمره بالتأهب ليركب إذا دعى، وأمره فانصرف إلى بلاده؛ وكان السلطان فى الباطن إنمـا[2] يريد بحركته الحجاز .

وفيه أعطى [السلطانُ] ناصرَ الدين محمد ولد الأمير عز الدين أيدمر الحلى إمرة أربعين فارسا ؛ ورسم للأمير قلاون والأمير أوغان والأمير بيسرى والأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح أن يباشروا الحوطة على مال الحلى لورثته، ولم يتعرض السلطان لشيء من موجوده مع كثرته .

ودخل شوّال والسلطان على عزم الحركة للحجاز، فأنفق فى العساكر جميعها، وجرّد عدة مع الأمير (١٥٠ ب) أقوش الرومى السلاح دار ليسيروا مع السلطان . وجرّد البقية مع الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار إلى دمشق ، فنزلوا بظاهرها وأقاموا بها . ثم توجّه السلطان إلى الحج، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار[3]، وقاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى، وفخر الدين ابن لقمان ، وتاج الدين بن الأثير ، ونحو ثلاثمائة مملوك وأجناد من الحلقة . وسار [السلطان] بهم إلى الكرك كأنه يتصيّد، ولم يجسر أحد يتحدّث بأنه متوجه إلى الحجاز . وذلك أن الأمير

(١) الشقة هنا قطعة من قماش الكتان أو شعر الماعز ، توضع واحدة منها أو أكثر حول الخيمة أو على بابها لتميزها من سائر الخيم ، وجمعها شقاق وأشقاق . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) يلى هذا لفظ "كان"، وهو مشطوب .

(٣) فى س "الخزندار" .

جمال الدين ابن الداية الحاجب كتب إلى السلطان : "إنى أشتهى أتوجّه صحبة السلطان إلى الحجاز"، فأمر بقطع لسانه، فما تفوّه أحد بعدها بذلك .

وسار السلطان من القوار يوم الخميس خامس عشريه ، ووصل إلى الكرك مستهل ذى القعدة . وكان قد دبّر أموره خفية من غير أن يطلع أحد على ذلك ، حتى أنه جهز البشماط[1] والدقيق والروايا والقرب والأشربة ، والعربان المتوجهين معه والمرتبين فى المنازل، ولا يشعر الناس بشىء من ذلك . فلما وصل [الكرك] وجد الأمور كلها مجهزة، فأعطى المجردين معه الشعير بقدر كفايتهم . وسار الثقل فى رابعه ، وتبعهم [السلطان] فى سادسه ومعه المجردون، فنزل الشوبك و رسم بإخفاء خبره، وتوجه فى حادى عشره . وسار البريد إلى مصر، فجهزت الكتب إليه مع العربان من جهة الكرك، فكتبت أجوبتها من هناك .

ووصل [السلطان] إلى المدينة النبوية فى خامس عشريه، فلم يقابله جماز ولا مالك أميرا[2] المدينة، وفرّا منه . ورحل منها فى سابع عشريه، وأحرم فدخل مكة فى خامس ذى الحجة، وأعطى خواصه جملة من المال ليفرقوها سرّا ، وفرّق كساوى على أهل الحرمين . وصار كواحد من الناس، لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله، وهو منفرد يصلى و يطوف و يسعى . وغسل البيت، وصار فى وسط الخلائق، وكل من رمى إليه إحرامه غسله وناوله إياه . وجلس على باب البيت، وأخذ بأيدى الناس ليطلعهم إلى البيت ، فتعلق بعض العامة بإحرامه ليطلع فقطعه، وكاد يرمى السلطان إلى الأرض، وهو مستبشر بجميع ذلك . وعلق كسوة البيت بيده وخواصه، وتردد إلى من بالحرمين من الصالحين .

هذا وقاضى القضاة صدر الدين سليمان بن عبد الحق الحنفى مرافقه طول الطريق، يستفتيه ويتفهم منه أمر دينه . ولم يغفل [السلطان] مع ذلك تدبير الممالك، وكتّاب الإنشاء تكتب عنه فى المهمات ؛ وكتب إلى صاحب اليمن [كتابا] ينكر عليه أمورا، و يقول فيه : "سطرتها من مكة المشرفة، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة" — يعنى بالخطوة المنزلة ، ويقول

(١) البشماط هو البقسماط . (محيط المحيط) . (٢) فى س "امرى" .

له : ” الملك هو الذى يجاهد فى الله حق جهاده ، ويبذل نفسه فى الذبّ عن حوزة (١٥١ ا) الدين، فإن كنت ملكا فاخرج التق التتار “ .

وأحسن [السلطان] إلى أميرى مكة، [وهما الأمير نجم الدين[١] أبى نمى والأمير إدريس بن قتادة]، وإلى أمير ينبع وأمير خُلَيْص[٢] وأكابر الحجاز . وكتب منشورين لأميرى مكة ، فطلبا منه نائبا تقوى به أنفسهما ، فرتّب الأمير شمس الدين مروان نائب أمير جاندار بمكة، يرجع أمرهما إليه ويكون الحل والعقد على يديه . وزاد أميرى مكة مالا وغلالا فى كل سنة بسبب تسبيل البيت للناس، [وزاد أمراء الحجاز إلا جماز ومالك أميرا المدينة، فإنهما انتزحا من بين يديه] .

وقضى السلطان مناسك الحج وسار من مكة فى ثالث عشره ، فوصل الى المدينة فى العشرين منه، فبات بها وسار من الغد ، فجدّ فى السير ومعه عدّة يسيرة حتى وصل الى الكرك بكرة يوم الخميس سلخه . ولم يعلم أحد بوصوله إلا عند قبر جعفر الطيار بمؤتة، فالتقوه هناك . ودخل [السلطان] مدينة الكرك وهو لابس عباءة، وقد ركب راحلة ، فبات بها ورحل من الغد .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير عز الدين أيدمر الحلى الصالحى نائب السلطنة، عن نيف وستين سنة، بدمشق فى [أول شعبان][٣] . ومات الأمير أسد الدين سليمان بن داود ابن موسك الهذبانى، بعد ما ترك الخدمة تعففا ، وله فضل ونظم جيد . وتوفى مجد الدين أبو محمد عبد المجيد بن أبى الفرج بن محمد الرُّوذْرَاوَرِى[٤] بدمشق . وتوفى نور الدين أبو الحسن

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥١ — ٥٢)، ويلاحظ أن عبارة السلوك هنا مشابهة تماما لما يقابلها فى نهاية الأرب .

(٢) بغير ضبط فى س، وهو حصن بين مكة والمدينة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢، ص ٤٦٧) .

(٣) موضع ما بين القوسين بياض فى س، وقد أضيف التاريخ من ص ٥٧٤، سطر ٩ هنا . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٤) .

(٤) فى س ”الرودراوروى“ . انظر (ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢) .

على بن عبد الله بن إبراهيم، الشهير بسيبويه المغربى النحوى، عن سبع وستين سنة بالقاهرة، وله شعر جيد . وتوفى شيخ الأطباء بدمشق شرف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن حيدرة الرحبى، وله شعر جيد .

* * *

سنة ثمان وستين وستمائة . فيها صلى الملك الظاهر صلاة الجمعة غرة المحرم بالكرك، وركب فى مائة فرس و بيد كل فارس فرس، وساق الى دمشق . [هذا] والناس بمصر والشام لا يعرفون شيئا من خبر السلطان : هل هو فى الشام أو الحجاز أو غيره، ولا يستطيع من مهابته والخوف منه أحد يتكلم . فلما قارب السلطان دمشق سير(1) أحد خواصه على البريد بكتب إلى دمشق، وفيها البشارة بسلامته وقضاء الحج . فأحضر الأمير جمال الدين النجيبى نائب دمشق الناس لسماع كتب البشارة، فبينا هم فى القراءة إذ بلغهم أن السلطان فى الميدان، فساروا إليه فإذا هو بمفرده، وقد أعطى فرسه لبعض منادية سوق الخيل، فقبّل النائب له الأرض . وحضر الأمير آقسنقر الأستادار والأمراء المصريون، فأكل [السلطان] شيئا وقام يستريح، وانصرف الناس . فركب [السلطان] فى نفر يسير وتوجه الى حلب، وحضر أمراء دمشق للخدمة فلم يجدوا السلطان . ودخل السلطان الى حلب والأمراء فى الموكب، فساق اليهم وبقى ساعة ولا يعرفه أحد، حتى فطن به بعضهم فنزلوا وقبّلوا الأرض . ودخل [السلطان] دار نائب السلطنة وكشف القلعة، وخرج من حلب ولم يعرف به أحد . فوصل دمشق فى ثالث عشره، ولعب فيها بالكرة، وركب فى الليل وسار الى القدس، وزار الخليل وتصدّق. وكان العسكر المصرى قد سار به الأمير آقسنقر الفارقانى من دمشق ونزل بتل العجول، فخرج السلطان من القدس إلى تل العجول . وكل ذلك فى عشرين يوما (١٥١ ب)، ما غيّر [السلطان] فيها عباءته التى حج فيها .

ثم سار [السلطان] من تل العجول بالعساكر فى حادى عشريه إلى القاهرة، فخرج الملك السعيد إلى لقائه بالصالحية، وعاد معه إلى قلعة الجبل . فأقام [السلطان] بها إلى ثانى

(١) فى س "وسير" .

عشر صفر، ثم خرج منها ومعه الأمراء والمقدمون، فركب فى الحراريق إلى الطرّانة . ودخل [السلطان] البرية وضرب حلقة، فأحضر الى الدهليز ثلاثمائة غزال وخمسة عشرة نعامة: أعطى عن كل غزال بَغَلْطَاق (١) بسنجاب، وعن كل نعامة فرسا ثمينا بسرجه و لجامه .

ودخل [السلطان] إلى الإسكندرية فى حادى عشريه ،وكان الصاحب بهاء الدين بن حنا قد سبق إليها وحصل الأموال والقماش . فخلع السلطان على الأمراء ، وحمل إليهم التعابى والنفقة ، ولعب الكرة ظاهر الإسكندرية ، وتوجّه إلى الحمامات ونزل باللّيّونة (٢) وابتاعها من وكيل بيت المال .

فبلغه هناك حركة التتار، وأنهم واعدوا فرنج الساحل، فعاد إلى قلعة الجبل . فورد الخبر بغارة التتار على السَّاجُور (٣) بالقرب من حلب ، فجرّد [السلطان] الأمير علاء الدين البندقدار فى جماعة من العسكر، وأمره أن يقيم فى أوائل البلاد الشامية على أهبة . وسار [السلطان] من قلعة الجبل فى ليلة الاثنين حادى عشرى ربيع الأول ومعه نفر يسير ، فوصل إلى غزة، ثم دخل دمشق فى سابع ربيع الآخر، ولحق الناس فى الطريق مشقة عظيمة من البرد، فخيّم على ظاهر دمشق . ووردت الأخبار بانهزام التتار عند ما بلغهم حركة السلطان ، وكأنْ قد ألقى الله فى أنفس الناس أنّ (٤) [السلطان] وحده يقوم مقام العساكر الكثيرة فى هزيمة الأعداء، وأنّ اسمه يردّ الأعداء من كل جانب . فورد الخبر بأن جماعة من الفرنج خرجوا من الغرب (٥) ،

---

(١) البغلطاق — أو البغلوطاق — لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكمام — أو بأكمام قصيرة جدا — يلبس تحت الفرجية . وكان يصنع من القطن البعلبكى الأبيض، أو من السنجاب (petit - gris) كالمذكور هنا ، أو من الحرير اللامع (satin) ؛ وكثيرا ما يزين بجواهر ثمينة . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) . انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٩٩ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 75 n. 63) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة من أعمال مريوط . (ابن دقماق : كتاب الانتصار، ج ٥ ،ص ١٢٦) .

(٣) بغير ضبط فى س : وهو نهر بجهات منبج ،وتقع عليه عينتاب وتل باشر. (Le Strange : Palest. Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527 ؛ ياقوت : معجم البلدان، ج ٣ ، ص ٨) .

(٤) فى س "انه" .

(٥) يذكر النويرى (نهاية الأرب ج ٢٨ ،ص ١٠٠) أن الفرنج الذين وصلوا من الغرب تلك السنة كانوا من عند ملك أرجونة (Aragon) . ،وهذا نص ماورد به مصححا " فى هذه السنة بلغ السلطان أن الفرنج وصل اليهم سفائن من جهة الريدركون أحد ملوك الغرب ، فيها جماعة من أصحابه وأقاربه وكتبه ، يقول فيها إنه واعد أبغا بن هولاكو أنه يوافيه فى البلاد الإسلامية ، و إنه واصل لمواعدته ... ... " .

وبعثوا إلى أبغابن هولاكو بأنهم واصلون لمواعدته من جهة سيس فى سفن كثيرة، فبعث الله على تلك السـفن ريحا أتلفت عدّة منها، ولم يسمع بعـدها لمن بقى فى الأخرى خبر. وورد الخبر أنه قد خرج فرنج عكا وخيّموا بظاهرها، وركبوا وأعجبتهم أنفسهم بمن قدم إليهم من فرنج الغرب، وتوجهت(1) طائفة منهم إلى عسكر جينين(2) وعسكر صفد.

فخرج السلطان من دمشق على أنه يتصيّد فى مَرْج بُرْغُوث(3)، وبعث من أحضر إليه العدد ومن أخرج العساكر كلها من الشام، فتكاملوا عنده بكرة يوم الثلاثاء حادى عشريه بمرج برغوث. وساق بهم إلى جسر يعقوب فوصل آخر النهار، وساق بهم فى الليل فأصبح فى أول المرج. وكان [السلطان] قد سيّر (١٥٢ ا) إلى عساكر عين جالوت وعساكر صفد بالإغارة فى ثانى عشريه، فإذا خرج إليهم الفرنج انهزموا منهم، فاعتمدوا ذلك. ودخل السلطان الكمين، فعند ما خرج [جماعة من](4) الفرنج لقتال عسكر صفد تقدّم إليهم الأمير إيغان، ثم بعده الأمير جمال الدين الحاجبى، ومعهما أمراء الشام. ثم ساق الأمـير أيتمش السعدى، والأمير كند غدى أمـير مجلس، ومعهما مقدمو الحلقة؛ فقاتل الأمراء الشـاميون أحسن قتال. وتبـع السلطان مقدمى الحلقة، فما أدركهم إلا والعـدو قد انكسر، وصارت الخيـالة بخيلها مطرحة فى المرج. وأسر [السلطان] كثيرا من أكابرهم، ولم يعدم من المسلمين سوى الأمير فخر الدين الطونبا الفائزى؛ فسارت البشائر الى البلاد.

وعاد السلطان إلى صفد والرءوس بين يديه، وتوجّه منها إلى دمشـق فدخلها فى سادس عشريه، والأسرى ورءوس القتـلى قُدّامه. وخلع على الأمراء، ثم سار إلى حماة وخرج منها إلى كفر طاب، ولم يعلم أحد قصده. وفرّق العساكر وترك الثقل، وأخذ خِيَار عسكره وساق

(1) فى س "توجه".   (2) فى س "حنين".

(3) فى س "مرح بزغوث" بغـير ضبط، ومرج بزغوث جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب. (انظر ما يلى، سطر ٧، وأيضا أبا شامة، كتاب الروضتين، ص ٢٨٤، فى Rec. Hist. Or. IV).

(4) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٠)، وكان مقـدم تلك الجماعة من الفرنج، حسبما فى نفس المرجع والجزء والصفحة، "كندا وفير المسمى زيتون".

إلى جهـة المَرْقَب(١)، فأصابته مشـقة زائدة من كثرة الأمطار، فعاد إلى حماة وأقام بظاهرها تسعة عشر يوما . وتوجّه على جهـة المرقب، فانتهى إلى قريب بلاد الإسماعيلية، وعاقتـه الأمطار والثلوج فعاد .

ثم ركب [السلطان] فى ثالث جمادى الآخرة بمائتى فارس من غير سلاح، وأغار على حصن الأَكْرَاد(٢)، وصعد الجبـل الذى عليه حصن الأكراد ومعـه قدر أربعين فارسا . فخرج عليه عدّة من الفرنج ملبّسين، فحمل عليهم وقتل منهم جماعة، وكسر باقيهم وتبعهم حتى وصل إلى خنادقهم، وقال وهو يستخف بهم : "خلّوا الفرنج يخرجوا، فما نحن أكثر من أربعين فارسا بأقبية بيض"، وعاد إلى مخيمه، ورعى الخيول مروجها وزروعها .

[وفى أثناء ذلك حضر إلى خدمة(٣) السلطان كثير من أصحاب البـلاد المجاورة]، فلم يبق أحد إلا وقدم على السلطان : مثل صاحب حماة، وصاحب صهيون، إلا نجم الدين حسن بن الشعرانى صاحب قلاع الإسماعيلية، فإنه لم يحضر بل بعث يطلب تنقيص القطيعة التى حملوها لبيت المـال، بدلا ممـا كانوا يحمـلونه(٤) الى الفرنج . وكان صارم الدين(٥) مبارك بن الرضى — صاحب العُلَيْقَة(٦) — قد تغيّر السلطان عليه من مدّة، فدخل صاحب صهيون بينه وبين السلطان

---

(١) بغير ضبط فى س، وهو بلد — وحصن أيضا — بساحل الشام، بينه وبين أنطرسوس ثمـانية أميال، واسمه فى الحوليات الصليبية (Castrum Merghatum). انظر (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠٠ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 504 et seq.).

(٢) يقع هـذا الحصن على الجبل الذى يقابل حمص من جهـة الغرب، بين بعلبك وحمص . ويقال له قلعـة الحصن أيضا، وهو الذى اتخذته هيئة الفرسان الإسبتارية مركزا رئيسيا لهم بعد سـقوط بيت المقدس فى يد المسلمين، ومن هذا سمى (Krak de Chevaliers). انظر (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٧٦ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 414 et seq.).

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها والتى تليها بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٧٦).

(٤) فى س " يحلوه " .

(٥) كان صارم الدين هذا صهرا للشيخ نجم الدين حسن بن الشعرانى . (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٧٦).

(٦) بغير ضبط فى س، وهى إحدى حصون الإسماعيلية بالشام . انظر (Le Strange : Palest. Under Moslems, pp 352, 507.)، حيث توجد أسماء جميع حصون الإسماعيلية، وستضبط أسماء هذه الحصون فيما يلى من نفس المرجع بغير تعليق .

فى الصلح، وأحضره إلى الخدمة . فقلّده السلطان بلاد الدعوة استقلالا، وأعطاه طبلخاناه، وعزل نجم الدين [حسن بن الشعرانى] وولده (١٥٢ ب) من نيابة الدعوة؛ وتوجّه [صارم الدين إلى مَصْياف كرسى بلاد الإسماعيلية] فى سابع عشرى (١) [جمادى الآخرة]، وصحبته جماعة [لتقرير أمره] .

ويقال بل الذى قام فى حقه (٢) الملك المنصور صاحب حماة، و[إنه] شفع فيه إلى أن عفى عنه السلطان، وحضر بهدية فأكرمه السلطان؛ وكتب له منشورا بالحصون كلها: وهى قلعة الكَهْف وقلعة الخَوَابِى والمِيَنقَة (٣) والعُلَيْقَة والقُدْمُوس والرُّصافة، ليكون نائبا عن السلطان؛ وكتب له بأملاكه التى كانت بالشام، على أن تكون مَصْيَاف وبلادها خاصا للسلطان . وبعث [السلطان] معه نائبا بمصياف، [وهو] الأمير عز الدين العديمى [أحد مفاردة الشام؛ وجرّد معه جماعة من شيزر وغيرها]، فلما وصلوا إلى مصياف امتنع أهلها من تسليمها لصارم الدين، وقالوا: "لا نسلمها إلا لنائب السلطان"، فقال العديمى: "أنا نائب السلطان" . فلما فتحوا الباب هجم صارم الدين عليهم وقتل منهم جماعة، وتسلّم الحصن فى نصف رجب . فلم يجد نجم الدين وولده بدّا من الدخول فى الطاعة، فسألا فى الحضور فأجيبا، وحضر نجم الدين حسن وعمره تسعون سنة، فرقّ له السلطان وولّاه النيابة شريكا لصارم الدين بن الرضى، وقرّر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم نقرة فى كل سنة؛ وتوجه [نجم الدين] وترك ابنه شمس الدين فى الخدمة . وتقرّر على صارم الدين بن مبارك بن الرضى فى كل سنة ألفا (٤) دينار، فصارت الإسماعيلية يؤدّون المال بعد ما كانوا يجبون من ملوك الأرض القطائع .

ثم رحل السلطان من حصن الأكراد إلى دمشق، فدخلها فى ثامن عشريه . وقدم الخبر بأن الفرنسيس (٥) وعدّة من ملوك الفرنج قد ركبوا البحر ولا يُعلم قصدهم، فاهتمّ [السلطان]

(١) فى س "سابع عشره" . (٢) ضمير الهاء عائد هنا على صارم الدين بن الرضى .
(٣) فى س "المنيعة" . (٤) فى س "الفى" .
(٥) المقصود بالفرنسيس ملك فرنسا لويس التاسع (Louis IX)، وكان قد أعدّ لتلك السنة حملة أريد بها أولا معاودة الكرة على الديار المصرية، ثم حوّلت وجهتها إلى تونس حيث انتهت بموته دون أن تحقق أى غرض =

بالثغور والشوانى، وسار إلى مصر فدخلها فى ثانى شوّال . وفيه تمت عمارة الجامع الظاهرى بالحسينية خارج القاهرة، فرتّب السلطان أوقافه، وجعل خطيبه حنفى المذهب، ووقف عليه حكر ما بقى من الميدان . وفيه بعث [السلطان] عدة رسل بهدايا إلى بلاد الفرنج .

وفى هذه السنة قتل الشريف إدريس بن قتادة بخليص، بعد أن ولى مكة منفردا أربعين يوما، فاستبدّ ابن أخيه أبو نمى بإمرة مكة وحده . وفيها مات الطواشى جمال الدين محسن الصالحى النجمى، شيخ الخدام بالمسجد النبوى .

وفيها تنكّر[(١)] الخان منكو تمر بن طغان، ملك التتر ببلاد الشمال، على الأشكرى ملك قسطنطينية. فبعث [الخان] جيشا من التتر حتى أغاروا على بلاده، وحملوا عز الدين كيقباد بن كيخسرو — وكان محبوسا كما تقدّم فى قلعة — ، وساروا به و بأهله إلى منكو تمر ، فأكرمه وزوّجه وأقام معه حتى مات فى سنة سبع وسبعين . فسار ابنه مسعود بن عز الدين وملك بلاد الروم، كما يأتى ذكره إن شاء[(٢)] الله .

وفيها انقرضت دولة بنى عبد المؤمن[(٣)] بقتل الواثق أبى العلاء إدريسى — المعروف بأبى دبّوس — بن عبد الله بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، فى محرم على يد بنى مرين . وبنو مرين قبيلة من البربر — يقال لهم حمامة — كان مقامهم قبلى تازا[(٤)]، فخرجوا عن طاعة الموحدين بنى عبد المؤمن ، وتابعوا الغارات حتى ملكوا مدينة فاس ، سنة

= صلبى . وقد ذكر المقريزى هذه الحملة استطردا تلو أخبار الحملة الصليبية التى انتهت بوقعة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ، (انظر ص ٣٦٤، سطر ١٠، وما بعده) ، ثم أوردها مرة أخرى تحت سنة ٦٦١ هـ خطأ (انظر ص ٥٠٢، سطر ٨ - ١٠)، ولم يفطن الناشر إلى هذا الخطأ فأوردها هناك، مجاريا فى ذلك ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٢١—١٢٢ ؛ و(Quatremére : Op. Cit. I. 1.p. 224) .

(١ و ٢) الفقرة الواردة هنا بين الرقين موجودة فى س على هامش ص ١٤٧ ب ، وقد كتبها المقريزى هناك خطأ ، وأدرك هو ذلك فكتب فوقها "ينقل الى سنة ثمان وسبعين [وستمائة]"، وهذا خطأ أيضا والصحيح ثمان وستين وستمائة كما هنا . راجع (Enc. Isl. Arts. Kaika'us II, Mangū Timur.) ؛ وانظر أيضا (ص ٤٠٨، سطر ٢٠) .

(٣) فى س "المومنين" .

(٤) فى س "تازه" . (انظر ص ٣٠٠، حاشية ١) .

بضع[1] وثلاثين وستمائة : وأول من اشتهر منهم أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن حمامة، ومات سنة ثلاث وخمسين . فملك بعده يعقوب بن عبد الحق، وقوى أمره وحصر مراكش وبها أبو دبوس، وملكها وأزال ملك بنى عبد المؤمن فى أول سنة ثمان وستين هذه، وملك مراكش .

ومات فى هذه السنة من الأعيان قاضى القضاة بدمشق محيى الدين أبو الفضل يحيى بن محيى الدين أبى المعالى محمد بن زكى الدين أبى الحسن على بن المجد أبى المعـالى محمد بن زكى الدين أبى الفضل [يحيى بن[2]] على [بن عبد العزيز العثمانى] المعروف بابن الزكى القرشى الأموى الشافعى، عن اثنين وسبعين سنة بالقاهرة . وتوفى الوزير الصاحب زين الدين أبو يوسف يعقوب بن عبد الرفيع بن بكر بن مالك القرشى الزبيرى ، عن اثنتين وثمانين سنة بالقـاهرة، بعد عزله ومحنته، وله شعر جيد . وتوفى زين الدين أبو العباس أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى الحنبلى، وقد انتهى اليه علو الإسناد، عن ثلاث وتسعين سنة بدمشق . وتوفى الولى العارف داود الأعزب بناحية تَفَهْنا[3]، فى ليلة الجمعة سابع عشرى جمادى الآخرة، وبهـا دفن ؛ وقبره مشهور يتبرّك الناس بزيارته، ومناقبه كثيرة وكراماته شهيرة قد جُمعت فى مجلد . وتوفى الولى العارف تقى الدين أبو المكارم عبـد السلام بن سلطان بن ...[4] ... المـاجرى من هوارة، فى يوم الأحد ثامن ذى الحجـة بناحية قليب[5]؛ وله كرامات كثيرة، وأخذ الطريق

---

(١) كذا فى س ، والمعروف أن بنى مرين ملكوا مدينة فاس لأول مرة سنة ٦٤٦هـ ، (١٢٤٨ م) . انظر (Enc. Isl. Arts. Fās, Marinids ؛ القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٩٦) .

(٢) أضـيف ما بين الأقواس من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٣)، حيث ورد أن وفاة قاضى القضاة هذا كانت بفسطاط مصر فى رابع عشر شهر رجب من هذه السنة ، وأنه دفن بالقرافة ، وأن مولده كان بدمشق فى ليلة الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ست وتسعين وخمسمائة .

(٣) بغـير ضبط فى س ، وهى قرية بمركز زفتا من مديرية الغربيـة ، وتقع على طريق السكة الحـديدية بين بنهـا وزفتى ، وتسمى أيضا تفهنا العزب . (مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ١٠ ، ص ٣٩ ، وما بعدها) .

(٤) بياض فى س .

(٥) فى س "قليب" ، وقد ترجم (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 82) هذا اللفظ إلى (Kalib) و (Kalioub) مع التشكك .

عن الشيخ أبى الفتح الواسطى عن الشيخ أحمد بن أبى الحسن الرفاعى، وقبره يُزار بقليب ويتبرّك به .

* * *

سنة تسع وستين وسبعمائة . فى المحرم ورد كتاب بيسو نوغاى قريب الملك بركه ملك التتار، وهو أكبر مقدمى جيوشه، يخبر فيه أنه دخل فى دين الإسلام، فأجيب بالشكر والثناء عليه . وفيه (١٥٣ ا) ورد الخبر بمسير الفرنسيس(١) وملوك الفرنج إلى تونس ومحاربة أهلها ، فكتب السلطان إلى صاحب تونس بوصول العساكر إليه نجدة له على الفرنج ؛ وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته، وأمرهم حَفْرَ الآبار فى الطرقات برسم العساكر ؛ وشرع فى تجريد العساكر . فورد الخبر بموت الفرنسيس وابنه وجماعة من عسكره، ووصول نجدات العربان(٢) إلى تونس وحفر الآبار، وأن الفرنج رحلوا عن تونس فى خامس صفر .

وفى سابعه توجّه السلطان إلى عسقلان، ليهدم ما بقى منها خوفا من مجىء الفرنج إليها، فنزل عليها وهدم بنفسه ما تأخر من قلعتها وأسوار المدينة حتى سوّى بها الأرض ، وعاد إلى قلعة الجبل فى ثامن ربيع الأول . وفى حادى عشريه هلك الملك المجير هيتوم(٣) بن قنسطنطين متملك سيس .

وفى عاشر جمادى الآخرة سار السلطان من القاهرة — ومعه ابنه الملك السعيد — إلى الشام، فدخل دمشق فى ثامن رجب ، وخرج إلى طرابلَس فقتل وأسر . واتصلت الغارات إلى صافيتا، وتسلم [السلطان] صافيتا من الفرنج [الديوية](٤) وأنزلهم منها، وعدتهم سبعمائة رجل سوى النساء والأطفال ، وتسلّم الحصون والأبراج المجاورة لحصن الأكراد [مثل تل خليفة وغيره] .

(١) انظر ص ٥٨٧، حاشية ٥ .

(٢) فى "العرب" .

(٣) فى س "هيتوم" .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذا الفقرة من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٠)، حيث توجد فى هذا الصدد تفصيلات كثيرة .

وفى تاسع[(١)] [رجب] نازل السلطان حصن الأكراد، وقدم عليه صاحب حماة ، وصاحب صهيون ، وصاحب دعوة الإسماعيلية الصاحب نجم الدين . وفى آخره نصب [السلطان] عدة مجانيق على الحصن ، إلى أن أخذ القلعة عنوة فى سادس عشر[(٢)] شعبان . فطلب أهلها الأمان فأمّنهم [السلطان] على أن يتوجّهوا إلى بلادهم ، فخرج الفرنج منهـا فى رابع عشريه . ورتّب [السلطان] الأمير صارم الدين الكافورى نائبا بحصن الأكراد ، وأمر بعمارته[(٣)] .

وبعث صاحب أنطرسوس — [وهو مقـدّم[(٤)] بيت الداوية] — يطلب الصـلح [من السلطان] ، فصولح على أنطرسوس خاصة ، خارجا عن صافيتا وبلادها . واسترجع [السلطان] منهم[(٥)] جميع ما أخذوه فى الأيام الناصرية ، وعلى أن جميع مالهم من المناصفات والحقوق على بلاد الإسلام يتركونه ، وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين

(١) فى س "تاسعه" ، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠١) .

(٢) فى س " عشره " . وفوقها إشارة الى لفظ "شعبان" بهامش الصفحة ، وهو بخط المتن ، وواضح من هذا أن المقريزى أضاف الشهر ونسى حذف الهاء . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠١) .

(٣) كتب السلطان بيبرس بعد تسلم الحصن إلى رئيس فرسان الإسبتار ، وهو صاحب حصن الأكراد ، خطابا أورده العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وهذا نصه "إلى إفرير (frére) أول جعله الله ممن لا يعترض على القـدر ، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر ، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله بالقـدر ، ولا يحمى منه (٢٣٨) محجور البناء ولا مبنى الحجر . نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته ، وكنت الموفق لو أخليته . وتكلفت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك ، وضيعتهم بالإقامة فيـه فضيعوه وضيعوك . وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبق ، أو يخدم سعيدا ويشق" . هذا وفى الجملة الأخيرة من هذا الكتاب تورية ، فإن المقصود بلفظ "سعيدا" هنا ابن السلطان بيبرس وولى عهده ، وهو الذى حاصر الحصن فعلا . (نفس المرجع ، ص ٢٣٨) . أما رئيس هيئة الفرسان الإسبتار تلك السنة فهـو (Hugh Revel) ، انظر (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271) .

(٤) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) ، وكذلك (Stevenson: Crusaders In The East p. 343) .

(٥) الضمير هنا عائد على الداوية والإسبتارية معا . انظـر (Stevenson : Op. Cit. p. 343 ؛ وكذلك ما يلى ، ص ٥٩٥ ، حاشية ١) . هـذا وعبارة المقريزى هنا مشابهة فى ألفاظها وترتيبها لمـا يقابلها فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1) .

الإسبتار، وعلى ألا تجدّد عمارة فى المرقب . فتمّ الصلح، وأخلى الفرنج عدة حصون تسلمها السلطان .

وفى سابع عشر رمضان نازل السلطان حصن عَكّار(١) ونصب عليه المجانيق ، [وجدّ أهله(٢) فى المناضلة] (١٥٣ ب) وقاتلهم [السلطان قتالا شديدا] ، فقتل الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى وهو يصلّى فى خيمته بحجر منجنيق أصابه . ولما كان فى تاسع عشريه سأل الفرنج الأمان ، و رفعت السناجق السلطانية على الأبراج، وخرجوا منه فى سلخه . وعيّد السلطان بالحصن، ورحل إلى مخيمه بالمرج، وكتب إلى متملك طرابلس يحذره وينذره(٣) .

وفى رابع شوّال ركب السلطان بجميع عساكره جريدة من غير ثقل يريد طرابلس، وساق [إليها] . فبينا هو عازم [على ذلك]، إذ ورد عليه الخبر بأن ملك الإنكتار(٤) وصل إلى عكا فى أواخر رمضان، بثلاثمائة فارس وثمانى بطس وشوانى ومراكب تكملة ثلاثين مركبا، غير ما سبقه صحبة أستاداره(٥)، وأنه يقصد الحج إلى القدس . فغيّر [السلطان] عزمه ونزل قريبا من

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهو حصن مبنى على جبل يسمى بنفس الاسم ، وموقعه شمالى طرابلس . انظر (Le Strange:Palest. Under Moslems. pp. 80,390) . ويسمى هذا الحصن أيضا باسم حصن ابن عكار ، وقد أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٢ — ١٠٣) أن قيام صاحب طرابلس حديثا بعمارته كان السبب فى إغارة السلطان بيبرس عليه وأخذه .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بعد مراجعة العينى (عقد الجمان ، ص ٢٣٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1) .

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٣) نص كتاب التحذير والإنذار الذى أرسله السلطان بيبرس إلى صاحب طرابلس بعد الاستيلاء على حصن عكار، وهو منقول من هذا المرجع فى ملحق رقم ٤ بآخر هذا الجزء من كتاب السلوك .

(٤) فى س " الانكبار" ، والصيغة المثبتة هنا بالمتن أقرب الى الاسم الأصلى (Angleterre) ، وهى المتداولة فى مؤلفات المؤرخين المسلمين زمن الحروب الصليبية . (انظر ص ٣٦٤ ، حاشية ٥) . هذا و" ملك الانكتار" الذى وصل عكا تلك السنة هو الأمير (Edward) الذى صار فيما بعد ملكا على إنجلترة باسم (Edward I) ، وكان هذا الأمير قد انضم للحملة الصليبية التى توجهت إلى تونس ، وقد وصل إلى شواطىء تونس بعد وفاة (Louis IX) ملك فرنسا ، وبعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب الأمير الإنجليزى اختتام الحملة الصليبية على النحو الذى انتهت اليه ، فانصرف الى الشام ووصل عكا كما بالمتن . (King:The Knights Hospitallers. In The Holy Land. p.268) .

(٥) كان برفقة الأمير الإنجليزى أخوه (Prince Edmund) وأيضا (Count of Brittany) ، ولعل الثانى هو الذى كان يملأ الوظيفة المذكورة هنا . انظر (King : Op. Cit. p. 268) .

طرابلس ، وبعث اليهم[(١)] الأتابك والأمير الدوادار فاجتمعا بصـاحبها ، وجرت أمور آخرها أنهم سألوا السلطان الصلح فكتبت الهدنة لمدة عشر سنين؛ وجهز الأمير فخرالدين ابن جلبان، والقاضى شمس الدين الإخنائى[(٢)] شاهد الخزانة، بثلاثة آلاف دينار مصرية لفكاك الأسرى. وعاد السلطان إلى مخيمه، وسار إلى حصن الأكراد فدبر أمر عمارته؛ ورتب أحوال تلك الجهات .

وفى حادى عشره استولى السلطان على حصن العُلَيْقَة من حصون الإسماعيلية، واستخدم به الرجال . ورحل إلى دمشق فدخلها للنصف منـه ، ورحل منها فى رابع عشريه ، فنزل صفد وحمـل منها المجانيق إلى القُرَيْن[(٣)] ، وساق اليـه ونازله حتى أخذه فى ثانى ذى القعدة . وركب منه فما أصبح إلا على أبواب عكا مُطَّلبا ، فما تحرك أحد من الفرنج ، فعاد إلى مخيمه بالقرين، وهدم القلعة فى رابع عشرى ذى القعدة؛ ورحل منه إلى قريب عكا، ونزل اللَّجُّون[(٤)].

وكان [السلطان] قد كتب إلى مصر بتسفير الشوانى لقصـد قبرس[(٥)]، فسارت فى شوال حتى قاربت قبرس، فانكسرت كلها . وشـعر بهم أهل قبرس فأسروا جميع من كان فيهـا من الرجال، وبعث صاحب قبرس كتابا إلى السلطان يقرعه فيـه بأن شوانى مصر — وهى إحد

(١) الضمير هنا عائد على أهل طرابلس وصاحبها . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٣) .

(٢) فى س "الاختانى"، ولعل النسبة الى إخنا، وهى حسبما جاء فى ياقوت (معجم البلدان، ج ١، ص ١٦٦) مدينة قديمة قرب الإسكندرية .

(٣) بغير ضبط فى س، وهو حصن فى أرض معليا قرب صفد، (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 495) واسمه فى الحوليات الصليبية (Montfort) أو (Starkenburg)، وكان المركز الرئيسى لهيئة الفرسان التيوتون (Teutonic Knights) فى الشرق . انظر (King: The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 271) .

(٤) بغير ضبط فى س، ويوجد بالشام وفلسطين أكثر من بلد بهذا الاسم، (Le Strange: Palest. Under Moslems. Index) والمقصود هنا بلد بالأردن، بينه وبين طبرية عشرون ميلا، ويبعد عن الرملة أربعين ميلا . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٣٥١) .

(٥) أصل مشروع غزو قبرس ، حسبما جاء فى العينى (عقد الجمان، ص ٢٣٩، ومابعدها، فى .Rec. Hist. Or. II. 1)، أنه بلغ السلطان وهو مخيم على حصن الأكراد (انظر ص ٥٩١، سطر ١) أن صاحب جزيرة قبرص كان قد ركب بجيشه الى عكا نجدة لأهلها، فأراد السلطان أن يغتنم هـذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا فى ستة عشر شينيا ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ١٩٧، وما بعدها) .

عشر شينيا — خرجت إلى قبرس فكسرها الريح، وأخذتها [وأسرت من فيها] (١) . فلما قرأه السلطان قال : " الحمد لله ! منذ ملكنى الله تعالى الملك ماخُذلت لى راية، وكنت أخاف من إصابة عين، فبهذا ولا بغيره " وكتب إلى القاهرة بإنشاء عشرين شينيا ، و إحضار خمس شوانى كانت بقوص (٢)، وكتب إلى قبرس جوابا أرعد فيه وأبرق (٣) .

(١) أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٢) فى س "بعوص" . انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٥٥) .

(٣) يوجد فى العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٠ ، وما بعدها ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) رواية مفصلة لما حدث فى هذا الصدد، ونصها : " فلما وصلت [الشوانى] الى مرسى التمسون (Limassol) تحت قبرس جنّها الليل ، وتقدّم الشينى الأول داخلا على أنه يقصد الميناء ، فصادف الشعاب فى الظلماء فانكسر ، وتبعه الشوانى واحدا فواحدا ولم يعلم بما أصابه ، فانكسروا فى دجى الليل جميعا ، وأسرهم أهل قبرس . وكان ابن حسون المقدم قد أشار برأى تطير (فى الأصل نظير) الناس منه ، وهو أن يطلى [الشوانى] بالقار ، و يعمل عليها الصلبان ليشبه على الفرنج بشوانيهم ، فتُرَكَّنَ من مَوَانيهم (مضبوطة هكذا) ، فاقتضى تغيير (فى الأصل تعبير) شعارها ما أراد الله من انكسارها . وورد كتاب صاحب قبرص إلى السلطان ، يخبر بأن شوانى مصر وصلت الى قبرص ، وكسرها الريح وأخذتها (كذا) وهى أحد عشر شينيا . فأمر [السلطان] بأن يكتب إليه بجوابه ، فكتب إليه هذه المكاتبة :

الى حضرة الملك أوك ، ذكر بيالى (كذا ، انظر حاشية ١ بالأصل) جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده (٢٤١) بخير منه أو مثله . نعلمه أن الله إذا أسعد إنسانا دفع عنه الكثير من قضائه باليسير ، وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير . وقد كنت عرّفتنا أن الهوى (كذا) كسر عدة من شوانينا ، وصار بذلك يتجح و به يفرح . ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكا من العين . وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد ، وخشب الاستيلاء على الحصون الحصينة هو العجب . وقد قال وقلنا ، وعلم الله أن قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلنا ، وليس من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح . وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح . ونحن ننشىء فى يوم واحد عدة قطايع ، ولا ينشىء (كذا) لكم من حصن قطعة ؛ ونجهز ماية قلع ، ولا تجهز لكم فى ماية عام قلعة . وكل من أعطى مقدافا قدف (كذا) ، وما كل من أعطى سيفا أحسن الضرب به أو غرف (كذا ، ولعلها عرف) . و إن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ، وأين الذين يطعنون بالمقاديف فى صدر البحر من الذين يطعنون بالرماح فى صدر الصفوف ، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ، وفرق بين من يجريها كالبحار ومن يقف به فى الوصول ؛ وفرق بين من يتصيد على الضفور من الخيل العراب (كذا) ، وبين من إذا (٢٤٢) افتخر قال تصيدت بغراب . فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة ، فكم أخذنا لكم من قرية معمورة ؛ و إن استوليتم على سكان ، فكم أخلينا بلادكم من سكان ؛ وكم كسبت وكسبنا ، فيرى أينا أغنم ، ولو أن فى الملك سكوتا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم". انظر أيضا (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ١٩٩ — ٢٠٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٥٥ — ٥٦) .

وقدمت رسل صاحب[1] صور (١٥٤ ا) تطلب الصـلح ، فوقع الاتفاق على أن يكون للفرنج من بلاد صور عشرة بلاد فقط ، ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها، وبقية البـلاد تكون مناصفة؛ ووقع الحلف على ذلك .

وسار السلطان إلى القاهرة، ودخل قلعة الجبـل فى ثانى عشر ذى الحجة، فبلغه أن الشهرزورية قد عزموا على سلطنة الملك العزيز عثمان بن صاحب الكرك الملك المغيث عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان قد جعله أحد أمراء[2] مصر . فقبض عليه وعلى عدة أمراء منهم الأمير بهاء الدين يعقوبا[3]، وقبض أيضا على عدة أمراء كانوا قد اتفقوا على قتله[4] وهو بالشقيف : منهم الأمير علم الدين سنجر الحلبى، والأمير أقوش المحمدى، والأمير أيدغدى الحاجبى، والأمير إيغان سم الموت، والأمير سنقر المساح، والأمير بيدغان الركنى، والأمير طرطح الآمدى؛ وسجنهم بقلعة الجبل .

و[فيـه] جهز [السلطان] الأمير آقسنقر الفارقانى بعسكر الى الشام . وفيـه وردت هدية صاحب اليمن ، وفيها تحف ودبّ أسود وفيل . وفيه أكثر السلطان من الركوب إلى مصر لمباشرة عمل الشوانى ، حتى كانت ضعفى ما انكسر . وفى سابع عشريه أمر [السلطان] بإهراق الخمور ، وأبطل ضمانهـا وكان فى كل سنة ألف دينـار ، وكتب بذلك توقيعا قرئ على المنابر . وفيه خلع السلطان بالميدان، وفرق على ألف وسبعمائة شخص أثمـان خيل، وفرق ألفا وثمانمائة فرس ، كل ذلك وهو جالس حتى فرغ . وفيه لازم [السلطان] الصناعة بمصر

(١) كان صاحب صور تلك السنة (John de Montfort)، ويلاحظ أن السلطان كان قدعقد هدنة فى السنة الفائتة مع كل من هيئتى الإسبتار والداوية. (King: The Knights Hospitallers In the Holy Land, p. 272).

(٢) انظر ص ٤٩٣، سطر ٢ .

(٣) كذا فى س، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٤) .

(٤) الضمير هنا عائد على السلطان بيبرس. انظر النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٥٣ ، ٥٤، ٥٦)، حيث توجد تفصيلات وافية فى صدد كل هذه الحوادث .

عدة أيام لرمى النشاب . و [فيه] ورد الخبر بأن الفرنج أغاروا على جهة الشَّاغُور، وأخذوا غلة وخربوا وأحرقوا[1] غلالا .

وفيها عزل شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان عن قضاء الشافعية بدمشق ، وأعيد عز الدين أبو المفاخر محمد بن عبد القادر بن عبد الباقى بن خليل بن مقلد بن جابر، الشهير بابن الصائغ . وفيها وصل سيل عظيم إلى دمشق ، فأخذ كثيرا من الناس والدواب ، وقلع الأشجار وردم الأنهار، وخرب الدور وارتفع حتى نزل مرامى السور، وذلك زمن الصيف . وفيها ولى قضاء المالكية بمصر نفيس الدين أبو البركات محمد بن المخلص ضياء الدين أبى الفخر هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى . ولم يحج [أحد] فى هذا العام من مصر، لا فى البر ولا فى البحر. وهجم مكة سيل عظيم فى شعبان حتى دخل الكعبة .

[ومات[2] فى هذه السنة من الأعيان الأمير علم] الدين سنجر الصيرفى، فى سادس صفر بدمشق . وتوفى قاضى القضاة المالكى شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح بن عيسى بن عبد الملك بن موسى بن خالد بن على بن عمر بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن الحسن ابن الحسن بن على بن أبى طالب السبكى ، فى ليلة الخامس والعشرين من ذى القعدة، عن أربع وثمانين[3] سنة . وولى بعده قضاء المالكية بالقاهرة نفيس الدين أبو البركات محمد بن القاضى المخلص ضياء الدين هبة الله أبو الفخر بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر .

---

(١) كان فرنج عكا هم الذين قاموا بهذه الإغارة ، وقد حفزهم الى تلك الحركة وغيرها غياب السلطان بيبرس فى مصر . (Stevenson: Crusaders In The East. p. 344).

(٢) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٣ ب ، ١٥٤ أ فى س . والسطر الأول منها — وهو الوارد هنا بين القوسين — محجوب بين ملتصق الصفحتين ، لكنه فى ب (١٨١ ب) . هذا وليس ثمت شك فى وقوع هذه الوفيات تلك السنة ، انظر (النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ — ٣٣١) .

(٣) المقطع الثانى من هذا اللفظ محجوب فى س ، وكذلك كلمة سنة ، للسبب المذكور بالحاشية السابقة ، ولكنهما فى ب (نفس الصفحة) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٦ — ٥٧) .

وتوفى الشريف إدريس بن على بن قتادة بن إدريس الحسنى أمير مكة ، قتيـلا بظاهر مكة ؛ فانفرد بعده أبو نمى بن أبى سعد . وتوفى قاضى حماة شمس الدين أبو الظاهر إبراهيم بن المسلم ابن هبة الله بن حسان بن محمد بن منصور البارزى الجهنى الحموى الشافعى، عن تسع وثمانين سنة بحماة . وتوفى الأديب تاج الدين أبو المكارم محمد بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر ابن شـقير المغربى الحنفى بدمشق، عن ثلاث وستين سـنة . وتوفى قطب الدين أبو محمـد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر بن سبعين[١] المرسى الصوفى بمكة[٢]، عن نحو خمسين سنة .

* * *

سنة سبعين وستمائة . أهلّت والسلطان متشدّد فى إراقة الخمور و إزالة المنكرات ،فكان لذلك يوما مشهودا . وفيه أفرج [السلطان] عن الأمير سيف الدين بيدغان الركنى، وأعطاه إقطاعا بالشام . ثم أحضره بعـد قليل، هو وسيف الدين ملاجا الركنى، واشتراهما[٣] ورتّبهـا سلاح دارية . (١٥٤ ب) وورد الخـبر باختلاف الحـال بين عيسى بن مهنا و بين العربان،

(١) توجد فى ابن العماد (شـذرات الذهب، ج ٥ ، ص٣٢٩ — ٣٣٠) ترجمة طويلة لابن سبعين هـذا ، وهو الفيلسوف المعـروف ، وكانت بينـه و بين الإمبراطور فردريك الثـانى مراسلات فلسـفية مشهورة . انظـر (Lane-Poole : A Hist. Of Egypt. p. 226) .

(٢) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص٥٦ — ٥٧)، ضمن وفيات هذه السنة ، وفاة سليل من أبناء البيت الأيوبى اسمه الملك الأمجد تقى الدين عباس ، ونصه : " وفيها كانت وفاة الملك الأمجد تقى الدين أبى الفضائل عباس بن السـلطان العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وهو آخر من مات من أولاد الملك العادل . وكان محترما عند الملوك الأيوبية ، معظما عند السلطان الملك الظاهر ، لايرتفع عليه أحد فى المجلس ولا الموكب . وكان رحمـه الله تعالى دمث الأخلاق سمحا كريما عاقلا حازما ، وكانت وفاته بدمشق فى يوم الجمعة ثانى عشرى جمادى الآخرة (٥٧)، ودفن بسفح قاسيون، وليس له عقب " .

(٣) كذا فى س، وقد ترجم (Quatremére : Op. Cit I. 2. p. 92) هذه العبارة إلى (il les acheta tous deux, et leur donna le rang de Silah-dâr) ، وهذا لا يخرج عن المدلول الحرفى المفهوم . إنما الغريب هنا أن "يشترى" السلطان أميرين من أمراء المماليك كأنهما رقيقان، إذ المعروف فى تاريخ الدولة المملوكية أن المماليك كانوا يعتقون صغارا ، وأنهم كانوا لا يصلون إلى رتبة الإمارة — كأمير خمسـة أو عشرة أو خمسين أو مائة أو أكثر — إلا بعد تحريرهم وتنقلهم فى الوظائف والولايات والنيابات بمصر والشام .

وأنه يريد التوجه إلى التتـار . فخشى السلطان أنّه إن استدعاهم لا يحضروا، وإن توجّه إلى الشام تسحّبوا؛ فكتم أمره .

ونزل [السلطان] إلى الميدان فى سابعه، وفرّق فى خواصه مبلغ أربمائة ألف درهم نقرة، واثنى عشر ألف دينار عينا، ونيفا وستين حياصة . وأمر بتجهيز العساكر إلى عكا بعد الربيع، ولازم النزول إلى الصناعة فى كل يوم حتى تنجّزت الشـوانى . ونزل الأمير آقسنقر الفارقانى بمن معه من العسكر على جينين .

فلمـا كان ليلة السابع عشر منه توجّه السلطان بعـد المغرب ، ومعه جماعة يسـيرة من خواصه ، وأخفى حركته . ورسم بأن أحدا من المجردين معه لا يشـترى عليقا ولا مأكولا، وقرّر لهم ما يحتاجون اليه . وسار إلى الزَّعْقة(١)، ثم عرج منها فى البرية إلى الكرك، ودخلها من غير أن يعلم به أحد فى سادس صفر، ونزل بقلعتهـا . وقرّر [السلطان] فى نيابة الكرك علاء الدين أيدكين الفخرى، ونقل الأمير عز الدين أيدمر نائب الكرك إلى نيابة الشام . ولم يظهر [السلطان] ذلك حتى تسـلم أيدكين نيابة الكرك فى ثامنه ، واستدعى عز الدين أيدمر وأفهمه أنه طلبه لنيابة حصن الأكراد .

وسار [السلطان] إلى دمشـق، فدخلها فى ثالث عشره من غير أن يعلم أحد بحضوره، وكان قبل دخوله إلى دمشق قد كتب القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر بين يديه ثمانين كتابا فى يوم وليـلة، إلى النواب والأمراء : بتفويض نيابة الشام لعـز الدين أيدمر الظاهرى، عوضا عن أقوش النجيبى . وسيّر [السلطان] تشريفا للنجيبى نائب دمشق، وأمره أن يتوجه إلى مصر ويسلم الأمر لعز الدين أيدمر، فاعتمد ذلك .

وأنفق السلطان فيمن خرج معه مالا وافرا(٢) وخيولا، وركب بهم فى ليلة السادس عشر منه،

---

(١) بغير ضبط فى س ، وهى بلدة واقعة قرب الحدود بين مصر والشام ، يمر بهـا القاصد من مصر إلى الكرك (G.- Demombynes : La Syrie. p. 6. n. 2).

(٢) فى س "وفرا"، والصيغة الواردة هنا من ب (١٨٥ ب) .

ونزل خارج حماة بالجَوْسَق[١]؛ ونزل صاحب حماة فى خيمة . ورتب السلطان أستادارا[٢] وأمير جاندار وحاشية السلطنة، فإنه كان [قد] خرج من مصر جريدة، وقام[٣] له صاحب حماة بالأسمطة . وقدم عليه [وهو بحماة[٤]] جماعة من أكابر العرب فأكرمهم، وكتم عنهم أمره [وما أظهر لهم شيئا]؛ وكتب إلى عيسى بن مهنا يطلب منـه خيولا عيَّنها له ليطمّنه، وكتب إليـه : "إنك بعثتَ وأنا بمصر تطلب الحضـور، فكتبتُ إليك لا تحضر حتى أطلبك، وقـد حضرتُ إلى حماة فإن أردتَ الحضور فاحضر" . فحضر [عيسى] وسأله السلطان عمـا نقل عنه، فقال : "نعم! والصدق أنجى من الكذب"، فأحسن [السلطان] إليه و إلى أكابر (١١٥٥) العرب .

وفى سادس عشريه قدم شمس الدين بن نجم الدين صاحب الدعوة الإسماعيلية ، فقبض عليه وعلى أصحابه وسـيروا إلى مصر؛ واستمرت مضايقة حصونهم حتى تسلم نواب السلطان حصن الخَوَابِى وحصن العُلَيْقَة .

وفى أول شهر ربيع الأول ركب السلطان من ظاهر حماة بعد عشاء الاخرة ، من غير أن يعلم أحد قصـده، وسار على طريق حلب . ثم عرج من شيزر وأصبح على حمص، وتوجه إلى حصن الأكراد وحصن عكّار وكشف أمورهما . وسار إلى دمشق، وكتب إلى مصر كتابا يقول فيه لأكابر الأمراء : "ولدكم"، ولبقيتهم : "أخوكم ووالدكم يسلّم عليكم و يتشوق إليكم، و إيثاره ألا يفارقكم . و إنمـا قدّمنا راحتكم على راحتنا ، فطالمـا تعبوا واسـترحنا . ونعلمهم بالمتجدّدات ليكونوا لها كالمشاهدين، وكمشاركينا فى أكثر المجاهدين : فمنها حديث الإسماعيلية وحديث العربان، وقـد ورد الخبر بحركة التتار[٥]، ولو عدنا لخفلت أهل البلاد . وأما الفرنج

(١) الجوسق معرب اللفظ الفارسى كوسك ، ومعناه القصر ، ويجمع على جواسق ، و يجىء فى الشعر مجموعا على جواسيق أيضا . (محيط المحيط) .

(٢) فى س "استادار" . (٣) فى س "واقام" .

(٤) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٧ — ٥٨)، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٥) الإشارة هنا إلى إغارة التتر على عينتاب وعمق الحارم ، وكان السلطان حين ذاك مقيما بدمشق . (أبو الفـداء، المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٤ فى Rec. Hist. Or. I) .

فعملوا سلالم من حديد[١]، وعزموا على مهاجمة صفد ووردوا بيروت[٢]، فلما وصلنا البلاد انعكست آمالهم . ومما يدلّ على التمكين تارة بالسيف وتارة بالسكين، أن صاحب مَرَقِيَة[٣] الذى أخذنا بلاده توجه الى التتار مستصرخا، وسيرنا وراءه فداوية، وقد وصل أحدهم وذكر أنهم قد قفزوا عليه وقتلوه . وبلغتنا حركة التتار . وأنا والله لا أبيت إلا وخيلى مشدودة، وأنا لابس قماشى حتى المهماز " .

وورد الخبر بأن التتار أغاروا على عين تاب، وتوجهوا على العَمْق[٤] فى نصف ربيع الأوّل، فكُتب إلى مصر بتجريد الأمير بيسرى بثلاثة آلاف فارس . وخرج البريد من دمشق فى الثالثة من يوم الأحد ثامن عشره، فدخل القاهرة الثالثة من ليلة الأربعاء حادى عشريه، فخرج بيسرى والعسكر بكرة يوم الأربعاء المذكور . وقدم التتار إلى حارم وقتلوا جماعة، وتأخّر العسكر الحلبى إلى حماة، ووصل آقسنقر بالعسكر من جينين . فجفل أهل دمشق، وبلغ ثمن الجمل ألف درهم، وأجرته إلى مصر مائتى درهم . ودخل الأمير بيسرى بالعسكر المصرى إلى دمشق فى رابع ربيع الآخر، فخرج السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرّد الأمير آقسنقر ومعه عدة من العربان إلى مرعش، وجرّد الحاج طيبرس الوزيرى والأمير عيسى بن (١٥٥ ب) مهنا إلى حرّان والرّها . فوصل العسكر إلى حرّان وقتل من بها من التتار، وهزم باقيهم .

فورد الخبر بأن الفرنج قد أغاروا على قاقون بمواعدة التتار، وقتل الأمير حسام الدين أستادار، وجرح الأمير ركن الدين الجالق، ورحل بجكا العلائى والى قاقون . فخرج السلطان من حلب، ومنع أحدا أن يتقدّم حتى لا يعلم الفرنج خبره، ودخل إلى دمشق وبين يديه عدّة من التتار المأسورين من حران . وسار الأمير أقوش الشمسى بعسكر عين جالوت، فولى

(١) فى س " حرير " والصيغة المثبتة بالمتن منقولة من ب (١٨٠ ب) .

(٢) فى س "ووردوا بيروت"، وهى فى ب(١٨٠ ب)"ووردوا بيزوت"، ولم يستطع (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 100) أن يجد لها معنى أو اسما جغرافيا معقولا، فنقلها فى ترجمته بحروفها العربية .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى قلعة بساحل الشام قرب حمص . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٠١) .

(٤) المقصود هنا عمق الحارم . انظر العينى (عقد الجمان، ص ٢٤٥، فى Rec. Hist.Or. II. 1.) .

الفرنج منهزمين من قاقون، وتبعهـم العسكر فاسترجعوا منهـم عدّة من التركمان ، وقتلوا كثيرا حتى أنه عدّ ما تلف من خيل الفرنج و بغالهم فكان خمسمائة رأس .

وخرج السلطان من دمشق فى ثالث جمادى الأولى، ومعـه عساكر مصر والشام للغارة على عكا . فتكاثرت الأمطار عليه فى مرج برغوث ، وزاد الأمر عن الوصف، فكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلّون[1] به . فرد [السلطان] عسكر الشام وسار إلى مصر، فدخل قلعة الجبل فى ثالث عشريه .

وقدمت هدية صاحب تونس، وفى مكاتبته تقصير فى المخاطبة، ففرقت هديته على الأمراء، وكتب إليه بالإنكار عليـه فى التظاهر بالمنكرات واستخدام الفرنج، وكونه لم يخرج إلى الفرنج[2] لما نازلوه ، وكان مسـتخفيا ؛ وقيل له : " مثلك لا يصـلح أن يلى أمور المسـلمين " ، وخُوّف وأُنذر . وقدمت رسـل رجار[3] وهو يشفع فى صاحب عكا ، والسلطان فى الصناعة جالس بين الأخشاب والصناع ، والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشوانى وهى تمدّ ، فراعهم ما شـاهدوا .

وفى رجب خرج السلطان متصيّدا بجهـة الصالحية ، فورد الخبر بحركة التتار فعـاد إلى القلعة، وخرج فى ثالث شـعبان إلى الشام . وأتتـه رسل الفرنج بعكا — وهو بالسَّواد[4] — تطلب الهـدنة، فسار و بعث إليهـم الأمير فخر الدين أياز المقرى، والصـدر فتح الدين ابن القيسرانى كاتب الدرج ، فى حادى عشرى رمضان . ونزل السـلطان بمروج قيسارية، فعقد الهدنة مع الفرنج لمدّة عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات من التـاريخ المذكور . وخرج أهل عكا لمشاهدة العسكر، فركب السلطان ولعب هو و جميع العسكر بالرمح .

(١) فى س "يستظلوا" .

(٢) يشير المؤلف هنا إلى حوادث الحملة الصليبية التى تقدم ذكرها فى ص ٥٩٠ ، سطر ٥ ، وما بعده .

(٣) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 102) هذا الاسم الى (Roger)، بغير تعليق .

(٤) فى س "السواده"، والسواد المقصود هنا موضع بنواحى البلقاء . (ياقوت : معجم البـلدان ، ج ٣ ، ص ١٧٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 235) .

ورحل [السلطان] إلى دمشق فدخلها ثانى شوّال، وحضرت رسل التتار فى طلب الصلح، فجهّز [السلطان] إليهم الأمير مبارز الدين الطورى أمير طبر، والأمير فخرالدين المقرى الحاجب، ومعهما الرسل وهدية لأبغا بن هولاكو وغيره . فساروا فى خامس عشره ، فلما قدما على أبغا أكرمهما (١٠١٥٦) وأخلع عليهما وأعادهما .

وفيه كثر اشتغال السلطان بعمل النشّاب بيده ، فاقتدى به جميع الأمراء والخواص، وكتب إلى الملك السعيد وسائر النوّاب بذلك، فلم يبق أحد إلا وهو متوفّر على العمل . فعمل السلطان جملة نشّاب بيده ، نحتها وريّشها وفصّلها .

فلما ضحّى [السلطان] توجّه إلى حصن الأكراد، ووصل إليه فى حادى عشرى ذى الحجة، وشاهد العمارة [به]، وأمر جميع من معه من الأمراء بنقل حجارة المنجنيق إلى داخل القلعة، ونقل معهم بنفســه ؛ ثم نزل وعمل بيده فى مرمّة مكان بالخندق، وحفر [بنفسه] . ثم سار إلى حصن عكّار، وعمل فى عمارته بيده أيضا، وأمر برمى المنجنيقات ليعرف مواضع سقوط أحجارها . وعاد إلى حصن الأكراد، وخلع على من به من الأمراء وأرباب الوظائف ؛ وخرج يتصيّد، فكان الذى خلعه خمسمائة تشريف على من أحضر إليه الصيد .

وفى هذه السنة امتحن قاضى القضاة شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عبد الواحد بن على ابن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقــدسى الحنبلى : وذلك أن القضاة الأربعــة[(١)] الذين ولّاهم [السلطان] الملك الظاهر بديار مصر، كان كل منهم يستنيب قضــاة عنه فى النواحى، وكان لتقى الدين شبيب الحرّانى أخ ينوب عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى بالمحــلّة[(٢)]

(١) فى س "الاربع" .

(٢) بغير ضبط فى س، والمقصود بهذا الاسم هنا مدينة المحلة الكبرى التى كانت مقر ولاية الغربية ، وكان قد غلب عليها اسم المحلة فقط حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى . هذا وفى القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٠) أن هذه المدينــة كانت تعرف باسم محلة الدقلا ، وقد ذكر ياقوت (معجم البــلدان، ج ٤ ، ص ٢٤٨) أنها كانت تسمى أيضا باسم محلة شرقيون، وأن هذه التسمية الثانية ناشئة من تكوين المدينة نفسها ، لأنها "ذات جنبين، أحدهما سندفا والآخر شرقيون" .

فعزله . فغضب شبيب لذلك ، وكتب ورقة للسلطان بأن عنـد قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ودائع للتجار من أهل بغداد وحران والشام ، بجملة كبيرة وقد ماتوا . فاستدعاه السلطان وسأله عن ذلك ، فأنكر وحلف وورّى فى يمينه ، فأمر السلطان بالهجم على داره ، فوُجد فيهـا كثير مما ادّعاه شبيب : بعضه قـد مات أهله ، وبعضه لقوم أحياء . فأخذ [السلطان] ممـا وجد الزكاة لمدة سنين ، وسلّم لمن كان حيّا وداعته . وغضب السلطان عليه واعتقله ، وأوقع الحوطة على داره فى يوم الجمعة ثانى شعبان .

وسار [السلطان](1) إلى الشام [وقاضى القضاة شمس الدين الحنبـلى فى الاعتقال بمصر] ، فتسلّط شبيب عليه وادّعى أنّه حَشَوِىّ(2) ، وأنه يقدح فى السلطان ؛ وكتب بذلك محضرا . فأمر الأمير بدر الدين بيليـك نائب السلطنة بعقـد مجلس ، فعُقـد فى يوم الاثنين حادى عشره ؛ وحضر الشهود ، فنكل بعضهم وأقام بعضهم على شهادته . فأَخْرَقَ(3) النائب بمن شهد وجرّسهم(4) ، وذلك أنه تبيّن له تحامل تقى الدين شبيب على القاضى ؛ واعتُقل شبيب ووقعت الحوطة على موجوده ، وأعيد القاضى إلى (١٥٦ ب) اعتقاله بقلعة الجبل ، فأقام معتقلا سنتين ، ولم يولّ الساطان بعده قضاء الحنابلة أحدا .

---

(١) أضـيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٥٩) ، ويلاحظ أن عبارة المقريزى هنا مشابهة كثيرا لمـا يقابلها فى النويرى .

(٢) ترجم (Quatremère: Op.Cit. I. 2. p.105. n. 123) هذا اللفظ الى (parleur inconsidéré) أى شخص معدوم القيمة أو المنفعة ، وقد دلّل على هذا المعنى بأمثلة عديدة منها "الحشوية من العوام" . على أنه يوجد فى محيط المحيط ، مايفهم منه أن الحشوى نسبة الى مذهب معين ، ونصه : "الحَشْوِيَّة نسبة الى الحشو ... أو الحَشَوِيَّة نسبة الى الحشا ، [وهم] طائفة تمسكوا بالظواهر ، وذهبوا الى التجسيم وغيره" .

(٣) المعنى أن النـائب عاقب الشهـود بالضرب أو غيره ، وتوجد فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 105. n. 125) أمثلة عديدة لاستعمال فعل "أخرق" مقرونا بالباء بهذا المعنى ، ومنها : "كان قصد الوزير الإخراق به بالضرب" .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 105 et n. 126) هذا الفعل إلى (le naïb les fit promener ignominieusement) ، وهذا مطابق لمـا جاء فى محيط المحيط ، ونصـه : "جرّس بالقوم سمّع بهم وأشهر عيوبهم ونقائصهم ، والعامة تقول جرّصهم بالصاد" . هذا ويظن (Quatremère : Op. Cit.) أن استعمال هذا الفعل بمعنى التشهير راجع الى أن جرسا كان يدق على طول الطريق أمام المحكوم عليهم .

وفيها قدم الشريفان جماز وغانم بن إدريس مكة، وملكاها أربعين يوما، ثم قدم أبو نمى فملكها منهما . وفيها ولدت زرافة بقلعة الجبل فى جمادى الآخرة، فأرضعتها بقرة . و[فيها] ولدت امرأة بدمشق فى بطن واحد سبعة[1] بنين وأربع بنات ، وكانت مدة حملها أربعة أشهر وعشرة أيام، فماتوا كلهم وعاشت الأم .

ومات[2] فى هذه السنة من الأعيان تاج الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن رضى الدين أبى عبد الله محمد بن عماد الدين أبى حامد محمد بن يونس الموصلى الشافعى، عن اثنتين وسبعين سنة ببغداد. وتوفى كمال الدين أبو الفضل سلار بن الحسن بن عمر بن سعيد الإربلى الشافعى، بدمشق عن سبعين سنة . وتوفى عماد الدين أبو عبد الله محمد بن سنى الدين أبى الغنائم[3] سالم ابن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صصرى التغلبى[4] الدمشقى ، بها عن سبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو الحسن على بن عثمان بن على بن سليمان الإربلى الأديب الشاعر، وقد ترك الجندية وتنسك، عن ثمان وستين سنة، بطريق الفيوم . ومات ببلد الخليل عليه السلام الشيخ على البكا، الرجل الصالح، فى أول شهر رجب، وله كرامات كثيرة .

+ + +

سنة إحدى وسبعين وستمائة . فى خامس المحرم دخل السلطان إلى دمشق ، وقد تواترت الأخبار بحركة التتار . فركب خيل البريد من دمشق فى ليلة سادسه بعد عشاء الآخرة، ومعه الأمير بيسرى، والأمير أقوش الرومى، وجرمك السلاح دار، وجرمك الناصرى،

---

(١) فى س " سبع " .

(٢) ليس للوفيات الآتية وجود هنا فى س، بل هى واردة فى ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٠ب، ١٦١ أ، حيث وضعت خطأ . هذا وليس ثمت شك فى مناسبة هذه الوفيات هنا ، فبعضها مذكور تحت تلك السنة فى ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣١ — ٣٣٣) ، وهى واردة كما هنا فى ب (١٨٤ أ) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 108. n. 129) .

(٣) فى س " العامم " ، والصيغة المثبتة هنا من ب (١٨٤ أ) .

(٤) فى س " النغلبى " . انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٣٢) ، حيث ورد هذا اللفظ برسم " الثعلبى " .

وسنقر الألفى السـلاح دار، وعلم الدين شقير مقـدّم البريد . وساق فدخل قلعـة الجبـل فى يوم السبت ثالث عشره على حين غفـلة ، [و] لم يشعر الناس إلّا وقد دخل باب القلعة راكبا . ثم ركب إلى الميـدان ولعب بالأكرة ، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشـام . وكتب [السلطان] إلى الأمراء [المقيمين] (١) بدمشـق ، [وذكر فى الكتب] أنه سطرها من البـيرة بحكم أنه توجّه لتدبير أمورها ، وسـيّر علائم بخطه ليكتب عليهـا من دمشـق أجوبة البريد للأطراف؛ وكان الأمير سيف الدين الدوادار قد أقام بقلعـة دمشـق ليجهّز الكتب والبريدية .

و فى يوم الاثنـين خامس عشره ركب السـلطان إلى مصر ، و ركب فى البحـر ولعبت الشوانى قدّامه . وفى ليـلة الأربعاء سابع عشره جُهّز (٢) العسكر المجرد إلى الشـام . وفى ليـلة تاسع عشره توجّه السلطان إلى الشام بمن حضر معه على البريد ، فدخل قلعة دمشق ليلا .

وفى صفر قدمت رسل الملك أبغا و رسل الروم ، فلم يُحتفل بهـم ، وأُمِرُوا أن يضربوا جُوكا (٣) قـدّام نائب حلب وقدّام صاحب حماة . وكان مجيؤهم (٤) بأن يحضر سـنقر الأشقر حتى يمشى فى الصلح ، ثم غيّروا كلامهـم وقالوا : " يمشى السلطان أو من يكون بعـده فى المنزلة الى أبغا لأجل الصلح " ، فقال السلطان للرسل : " بل أبغا إذا قصـد الصلح يمشى هو فيه أو أحد من إخوته " . وأمر [السلطان] بلبس العساكر فلبسوا عُدَد الحرب ولعبوا فى الميدان خارج دمشق ، والرسل تشاهـد ذلك ؛ ثم سُفّروا فى رابع ربيع الأوّل . وفيـه تسلم السلطان

(١) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعـد مراجعة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 109. n. 131) .

(٢) فى س "عشرنه" ، وكذلك فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١) . انظر ما يلى بنفس السطر ، وكذلك (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 109) .

(٣) فى س "بجوك" بغـير ضبط ، وهو لفظ تترى معناه الجلوس على الركبتين كعادة المغول فى حضرة ملوكهم ، ومعنى العبارة كلها أنه طلب الى الرسل المذكورين أن يؤدّوا لنائب حلب وصاحب حماة مثـل ما يؤدّون لملوكهم من شـعائر الاحترام والخشـوع . انظر (Quatremère : Op. Cit I. 2. p. 109. n. 132; Dozy : Supp. Dict. Ar.) ؛ وكذلك ص ٥١٤ ، حاشية ٥) .

(٤) فى س "مجيهم" .

صهيون من سابق الدين وفخر الدين، ولدى سيف الدين أحمد بن مظفر الدين عثمان بن منكبرس بعد موته (١)؛ [وكان هذا] بوصيته (٢) لها بذلك. فأمّرهما [السلطان] وأحسن إليهما، وقدم أهلهما الى دمشق .

و[فى خامس (٣) جمادى الأولى] ورد الخبر بنزول التتار على البيرة ونصبهم (٤) المجانيق عليها، وأنهم قد حفظوا مخاوض (٥) الفرات ونزلوا عليها، ليعوقوا من يصل إليهم . فجهز السلطان الأمير فخر الدين الحمصى بعدّة من عسكر مصر والشام إلى جهة حارم، وجهّز الأمير علاء الدين الحاج طيبرس (١٥٧ ا) (٦) الوزيرى فى جماعة، ورحل [هو] من ظاهر دمشق [فى ثامن عشر جمادى الأولى]، ومعه مراكب مفصّلة (٧) محمولة . وجدّ [السلطان] فى المسير حتى وصل الى الفرات، فوجد التتار على الشط، فألقى المراكب التى حملها معه فى الفرات وأشحنها بالمقاتلة، فتراموا هم والتتار . واقتحم الأمير قلاوون (٨) [الألفى الصالحى] الفرات، فخاض ومعه عدّة وافرة، وصدم التتار صدمة فرّقهم بها ومزّقهم . فألقت الأطلاب أنفسها فى الفرات، وساقوا فيها عوما الفارس الى جانب الفارس، وهم متماسكون بالأعنة ومجاديفهم رماحهم، وعليهم وعلى

(١) كذا فى س، وقد توفى منكبرس هذا — واسمه منكورش أيضا — تلك السنة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٤، فى .Rec. Hist. Or. I) .

(٢) ضمير الهاء عائد على منكبرس .

(٣) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١١، وما بعدها)، حيث توجد تفصيلات وافية عما حدث للسلطان بيبرس مع التتر تلك المرة .

(٤) فى س "نصب" .

(٥) فى س "مخاض" . انظر محيط المحيط .

(٦) يوجد بين الصفحتين ١٥٦ ب، ١٥٧ ا فى س ورقة منفصلة، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٤ هـ، وقد أثبتت فى موضعها المناسب تحت تلك السنة . (انظر ص ٦٢٤، حاشية ٤) .

(٧) كانت تلك المراكب للصيادين ببحيرة قدس القريبة من حمص، وقد فصلت وحملت على ظهور الجمال الى نهر الفرات كما بالمتن . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٢١٢) .

(٨) كان الأمير قلاوون، حسبما جاء فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١٣)، "أول من أرمى نفسه من الفرات ...، ثم تبعه الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى، ثم تبعهما السلطان بنفسه مع العساكر..." .

خيولهم الحديد . وازدحموا فى المـاء ، فكان لقعقعـة السلاح وأمواج المـاء هول مفزع . وطلع السلطان فى أوّلهم ، وصـلّى فى منزلة العدوّ ركعتين شكرا لله تعـالى ؛ وبثّ العساكر يمينا وشمـالا ، فقتلوا وأسروا عددا كثيرا .

وبات العسكر ليـلة الاثنين ، فورد الخبر بهـزيمة التتار عن البيرة مع مقدمهـم دربای[3] ، وتركهم الأثقال والأزواد ، وأن أهل البيرة أخذوا ذلك فتقوّوا به . وأقام السلطان ينتظر من يلاقيه من التتار فلم يأت أحد ، فعدى بجميع عساكره فى الفرات كما فعلوا أول مرة ، ونزل بهم فى ذلك ما لا يوصف من كثرة المشقة ، وعَظُم الهول حتى طلعت العساكر الى البرّ . وسار [السلطان] الى البيرة ، وخلع على نائبها وأعطاه ألف دينار ، وعمّ بالتشاريف والإنعام أهـل البيرة ، وفرّق فيهم مائة ألف درهم فضـة ، وجرّد هناك عدّة من العسكر زيادة على من كان فيها ؛ وسار الى دمشق فدخلها فى ثالث جمادى الآخرة والأسرى بين يديه .

وخرج [السلطان] الى مصر ، فوصـل قلعة الجبل فى خامس عشريه ؛ وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطى ، وأنزله بدار الوزارة وأجرى عليـه الرواتب . ثم استدعاه وشرب معـه القِمِز[1] ، وقد حضر أكابر الأمراء لذلك ، فلمـا ناوله السلطان الهَنّاب[2] بيـده وهو مملوء قال [عز الدين] : "ياخوند ! قد شبنا وشاب نبيذنا" . وعمّ [السلطان] بالخلع الأمراء والوزراء والقضاة والمقدمين ؛ وجهّز رسـل الملك منكوتمر ورسـل الملك الأشـكرى ورسل الدعوة ، فساروا فى شعبان .

---

(١) كذا فى س ، بنقطتين تحت الياء ، وهو مترجم فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 111) إلى (Derbaï) ، ووارد فى (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 4 64) بصيغة (Deriaï) . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢١٥ ، حاشية ١) .

(٢) القمزّ نبيذ يعمل من لبن الخيل ، واللفظ تترى الأصل ، وقدكان السلطان بيبرس شغفا بهذا النوع من الشراب . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، ومابه من المراجع ؛ (Lane-Poole: A Hist. of Egypt. p. 273) .

(٣) فى س "الهاب" بغير ضبط ، والهناب قـدح الشراب ، ويقابله فى الفرنسـية (hanap) ، وفى الإيطالية (anappo) ، وفى الألمـانية (napf) . انظر (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، وما هناك من المراجع) .

وفى ثانى عشر شوّال قبض على الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى شيخ السلطان ، [وكان السلطان قد استدعاه الى القلعة ، وأحضر جماعة ليحاققوه[1] على أشياء كبيرة بدت منه كاللواط والزنا وغيره، فأمر السلطان باعتقاله]، وسجن بقلعة الجبل .

وفى ثانى عشرى ذى الحجة استولى السلطان على بقية حصون الدعوة الإسماعيلية : وهى المَيْنَقَة[2] والقُدْمُوس والكَهْف ؛ وأقيمت هناك الجمعة وتُرُضِّى عن الصحابة بها ، وعُفِيت المنكرات منها، وأظهرت شرائع الإسلام وشعائره .

وفى هذه السنة سار والى قوص من أسوان حتى قارب دمقلة من بلاد النوبة ، وقتل وأسر ثم عاد . وفيها استولى (١٥٧ ب) السلطان على عامة مدن برقة وحصونها . وفيها حصل الاحتفال بأمر الشوانى ونصب المجانيق على أسوار الإسكندرية ، فكمل هناك نصب مائة منجنيق ، وذلك لكثرة الإشاعة بحركة الفرنج لقصد ثغور ديار مصر . وفيها فتحت قلعة كَيْنُوك[3] من بلاد الأرمن ، على يد الأمير حسام الدين لاجين العتابى . وفيها تجّزت عمارة صخرة بيت المقدس . وفيها نزل السلطان يعوم فى النيل وهو لابس زردية مُسْبَلة[4] ، وعمل بسطا كبيرة ، وأركب فوقها الأمير حسام الدين الدوادار ، والأمير علاء الدين أيدغدى الأستادار ، وجرّها وجرّ فرسين — وهو يعوم لابس الزردية — من البرّ الى البرّ[5] .

(١) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١٧) . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤١ — ٤٢) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة فى هذا الصدد .

(٢) فى س " المنيعة " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وفى (Quatremère Op. Cit. I. 2. p. 113. n. 137) ، أن هذه البلدة هى بلدة الحدث ، وعلى هذا يكون موقعها بين ملطية وسميساط ، و يقال لها الحمراء أيضا . انظر (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢١٨) .

(٤) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 113) هذه العبارة الى "Il était revêtu d'une cuirasse flottante" ، أى أن زردية السلطان كانت واسعة مرخاة وتطفو على الماء .

(٥) قبالة هذه العبارة فى هامش الصفحة فى س إشارة الى هذه الحادثة ، وهى مكتوبة بخط مخالف ونصها : "عوم السلطان الطاهر (كذا) فى البحر" .

ومات[1] فى هذه السنة من الأعيان شهاب الدين أبو صالح عبيد الله بن الكمال أبى القاسم عمر بن الشهيد شهاب الدين أبى صالح عبـد الرحيم بن عبـد الرحمن بن الحسن بن العجمى الحلبى، بها عن اثنتين وستين سنة . وتوفى فخرالدين أبو محمد عبد القاهر بن عبد الغنى بن محمد ابن أبى القاسم بن محمد بن تيمية الحرانى الحنبلى، عن نحو ستين سنة بدمشق . وتوفى الأديب مخلص الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن هبة الله بن قرناص الحموى . وتوفى الشريف شرف الدين أبو عبد الله محمد بن رضوان الحسينى ، الناسخ الكاتب المجوّد المؤرخ ، عن تسع وستين سنة[2] .

* * *

سنة اثنتين وسبعين وستمائة . فى المحرم نُقض باب القصر المعـروف بباب البحر تجاه المدرسـة الكاملية بين القصرين، [لأجل نقل عمد منه لبعض العمائر السلطانية]، فوُجد فيه صندوق فى داخله صورة من نحاس أصفر، [مُفَرّغ] على كرسى شكل هرم ارتفاعه قدر شبر بأرجل نحـاس، والصنم جالس عليه ويداه مرتفعتان تحملان[3] صفيحة دورها ثلاثة أشـبار مكتوبة [بالقبطى، و إلى جانب الكتابة فى الصفيحة شكل له قرنان يشـبه شكل السنبلة ، و إلى الجـانب الآخر شكل ثانٍ وعلى رأسـه صليب، وشكل ثالث فى يده عكّاز وعلى رأسه صليب] . ووجد [مع هذا الصنم][4] فى الصندوق لوح من ألواح الصبيان ، قد تكشّط أكثر ما فيه من الكتابة وبقى فيه [3] بيبرس؛ فتعجّب من ذلك .

---

(١) ليس للوفيات الآتيـة وجود هنا فى س، على أنها واردة فى ورقة منفصـلة بين الصفحتين ١٥٩ ب ، ١٦٠ أ ، حيث لصقت خطأ . انظـر (ابن العماد شـذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ — ٣٣٥؛ وكذلك النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٢ — ٤٣) .

(٢) فى هـذه السنة أيضا ، حسبما ورد فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٢) كانت وفاة الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك الفائز إبراهيم بن الملك السلطان العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيوب، وقد توفى فى معتقله بجب خزانة البنود بالقاهرة، ودفن بالقرافة بجوار ضريح الإمام الشافعى .

(٣) فى س "مرتفعه بحمل" .

(٤) أضـيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة بعد مراجعة المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ١ ، ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٣)، حيث توجد تفصيلات وافية بصدد هذه الموجودات . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 114. n. 141).

(٥) فى س "بيبرس" . انظر المراجع المذكورة بالحاشية السابقة .

وفيه وردت الأخبار بحركة الملك أبغا، فخرج السلطان من قلعة الجبل فى ليلة سادس عشريه، ومعه الأمير سنقر الأشقر، والأمير بيسرى، والأمير أتامش السعدى. فلما وصل [السلطان] عسقلان كتب الى القاهرة بخروج العساكر جميعها والعربان من ديار مصر، صحبة الأمير بيليك الخازندار، ورسم بأن كل من فى سائر مملكته له فرس فإنه يخرج إلى الغزاة، وأن تخرج كل قرية من قرى الشام رجّالة يركبون الخيل على قدر حالهم، ويقوم من بالقرية بكلفة من يتوجّه. ودخل السلطان إلى دمشق فى سابع عشر صفر.

فخرج من عساكر مصر فى حادى عشره عدّة أربعة آلاف فارس، صحبة مقدميهم: وهم الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى، وجمال الدين أقوش الرومى، وعلاء الدين قطليجا[1]، وعلم الدين ططح[2]. ثمّ خرج فى ثامن عشره الأمير بيليك الخازندار بطائفة كبيرة، فورد مرسوم السلطان على الأمير بيليك بالنزول قريبا من يافا. وعند ما قارب عسكر مصر دمشقَ ركب السلطان من دمشق فى نحو أربعين نفسا جرائد بغير (١٥٨ ا) ركبدار، وقد طلب العسكر وقارب المنزلة. فاعترض السلطان العسكر، وكان قد تلثّم هو وجماعته، فظنّهم الحجاب من بعض التركمان، فأمروهم بالترجّل فأبوا. وساق السلطان بمفرده، وجاء خلف السناجق وحسر لثامه عن وجهه، فعرفه السلاح دارية. ودخل [السلطان] وساق فى موكبه، فنزل الناس وقبّلوا الأرض، وسار حتى نزل ورتّب العسكر. وأصبح [السلطان] فركب فى موكبه، وقضى أشغال الناس إلى أن أمسى، [ثم] ركب بمن حضر معه إلى دمشق، وأصبح راكبا فى موكبه. وفى مدّة غيبته كان الأمير سيف الدين الدوادار يرتب الأمور بدمشق، ويكتب الأجوبة على علائم فوق أوراق بيض.

---

(١) كذا فى س، واسمه "عز الدين قطليخا" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١٨)، وأورده النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٤) على أنه "شمس الدين أقش المعروف بقطليخا".

(٢) كذا فى س، وهو وارد "طرطج" فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع والصفحة)، "وطردح" فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة).

وفيه فر الأمير شمس الدين بهادر بن الملك فرج[١] [من التتار إلى السلطان بيبرس] . وكان [الملك] فرج [فى أول أمره] أمير طشت[٢] السـلطان جلال الدين خوارزم شاه ، وكان له سميساط ، و بعـد وفاة جلال الدين مَلَك قلعة كَبْران[٣] وعدّة قلاع بناحية نَقْجَوان[٤] . ثم وصل [الملك فرج هذا] إلى [بلاد السلاجقة] الروم ، فأُقْطِع بها ناحية أَقْصَرا[٥] . وكان بهادر قد كاتب السلطان [بيبرس وراسله وتقرب إليه بإعلامه بحقيقة أخبار العدق] ، فعلم به التتار فأمسكوه وحملوه إلى الأردو ، فهرب وحضر إلى البيرة ، ووصل إلى دمشق وبها الملك الظاهر ، فأكرمه وأعطاه بمصر إمرة عشرين فارسا .

وخرج السلطان من دمشق إلى مصر ، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشرى جمادى الآخرة . فتواترت الأخبار بحركة التتار ، فَرُسِم للأمير عيسى بن مهنا أمير العرب بالغارة ، فأغار ووصل إلى الأنبار فى ثامن عشر شـعبان . فظنّ التتار أن السلطان [قد] قدم ، فانهزموا إلى أبغا ، فرجع إلى بلاده .

وفى نصف شعبان أفرج عن قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى . وفى شهر رمضان رسم للعسكر بالتأهب للعب القبق ورمى النشاب ، فركب من كل عشرة فارسان فى أحسن زيّهم وقت الحرب ، وركب السلطان فى ممـاليكه ودخلوا فى الطعن بالرماح . ثم أخذ [السلطان] الحلقة ورمى النشاب ، وجعل لمن أصاب من الأمراء فرسا من خيله الخـاص بتشاهيره ،

---

(١) فى س " فرح " ، وقد صحح هـذا الاسم ، وأضيف ما بين الأقواس بهـذه الفقرة كلها ، بعد مراجعة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٤) ، حيث توجد تفصيلات كثيرة بصدد هـذا الملك الشريد . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 116. n. 143) .

(٢) فى س " اميرطست " .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهى مدينـة بآذربيجان بين تبريز و بيلقان . (ياقوت : معجم البـلدان ، ج ٤ ، ص ٣٣٢) .

(٤) بغـير ضبط فى س ، وهى بلدة من نواحى أرّان وتسـمى أيضـا نخجوان ، ويذكر ياقوت أيضا (نفس المرجع والجزء ، ص ٨٠٢) أن النسبة من نقجوان "نشـوى" ، وقد سأل فى آذربيجان عن سبب ذلك الاشتقاق الغريب فلم يستطع أحد أن يخبره بعلته .

(٥) فى س "اقصر" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 116) .

وللحلقـة والبحرية بغلطاق . فاستمر ذلك أياما ، تارة يكون اللعب فيها بالرمح وتارة بالنشاب وتارة بالدبابيس؛ وفرّق [السلطان] فيها من الخيل والبغالطيق جملة . وساق السلطان يوما على عادته فى اللعب ، وسلّ سيفه فسلّت مماليكه سيوفها ، وحمل هو ومماليكه الخواص حملة رجل واحد واصطدموا ، فكان منظرا مهولا . وأطلق [السلطان] من التشاريف ما عمّ به سائر من فى خدمته : من ملك وأمير ووزير ، ومقدمى الحلقة والبحرية ، ومقدمى المماليك والمفردية ، ومقدمى البيوتات السلطانية ، وكل صاحب شغل ، وجميع الكتّاب والقضاة ، وسائر أرباب الوظائف .

وفى يوم عيد الفطر خُتن الأمير نجم الدين خضر ابن السلطان وعدّة من أولاد الأمراء ؛ وجرى السلطان على عادته فى عدم تكليف النـاس ، فلم يقبل من أحد هـدية (٥٨ ا ب) ولا تقدمة ، ولم يبـق من لا شمله إحسانه من سائر الطوائف ، إلا المغانى وأرباب الملاهى فإنه لم تنفق لهم فى طول أيامه سلعة ، ولا نالهم منه رزق البتة .

وفى ثانى عشر شهر رمضان سار الملك السعيد من قلعة الجبل فى عدّة من الأمراء جريدة إلى الشام ، من غير أن يعـلم به أحد . فدخل دمشـق فى سادس عشريه على حين غفـلة من النـائب ، بحيث لم يشعر به العسكر إلا وهو بينهم فى سوق الخيـل ، فقبّلوا له الأرض . ودخل [الملك السعيد] إلى القلعـة وأراد لعب القبق خارج دمشق ، فمنعته كثرة الأمطار . وفى ليلة عيد الفطر خلع [الملك السعيد] على أمراء الشام والمقدمين والمفاردة والأكابر ، وخرج يتصـيّد بالمرج ، وسار الى الشقيف وصـفد ، وتوجّه الى القـاهرة فوصـل قلعة الجبـل فى حادى عشرى شوال .

وفى هذه السنة كان بمصر وأريافها وباء ، هلك فيه خلق كثير أكثرهم النساء والأطفال . وحصل فى بلاد الرملة وبلاد القدس مرض وحميات ، فقدم رجل نصرانى الى الأمير غرس الدين بن شاور والى الرملة ، وقال [له] : "هذه الآبار قد حاضت ، كما جرى فى السنة التى جاء التتار فيها الى الشام . وإن الفرنج بعثوا الى قرية عابود[(١)] فى الجبل ، [و] أخذوا من مائها وصبّوه

(١) فى س "عابور" بغير ضبط أو نقط ، وعابود قرية جبلية بنواحى بيت المقدس . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٥) .

فى الآبار فزال الوخم" ، وأشار بعمل ذلك . فبعث والى الرملة الى القرية المذكورة ، وأخذ من مائها وصبّه فى الآبار التى بيافا ، وكان المـاء قد كثر فيها فنقصت إلى حدّها المتعارف . وكُتب إلى السلطان بذلك ، وقيل [له] : "إن هذه الآبار إناث تحيض ، وآبار الجبل ذكور ومنها آبار قرية عابود[1] المذكورة" .

وفيها ولى تقى الدين أبو عبدالله محمد بن......[2] بن يحيي الرقى قضاء الشافعية بحلب ، بعد وفاة محيي الدين محمد بن الأستاذ .

ومات فى هذه السـنة من الأعيان الأمير فارس الدين أقطاى الصغير المستعرب الصالحى النجمى ، أتابك العساكر بديار مصر ، عن سبعين سـنة فى تاسع جمـادى الأولى . ومات الأمـير حسام الدين لاجين الأيدمرى المعـروف بالدرفيل ، دَاوَدَار السلطان . وتوفى قاضى حلب محيي الدين أبو المكارم محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن علوان بن الأسـتاذ الشافعى بها ، و[قد] قدم القاهرة ودرّس بالمَسْرُورِية[3] . وتوفى قاضى قضاة دمشق كمال الدين أبو الفتح عمر بن شدّاد بن عمر بن على التفليسى الشافعى ، عن سبعين سنة بالقاهرة . وتوفى مؤيد الدين أبو المعالى أسعد بن المظفر بن أسعد بن حمزة بن القلانسى التميمى ، خارج دمشق عن ثلاث وسبعين سنة ، بعد ما قدم القاهرة . وتوفى النحوى جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطـائى الجَيَّانِى[4] بدمشق ، عن بضع وسبعين سـنة . وتوفى تقى الدين أبو محمد إسماعيل بن إبراهيم بن شاكر بن أبى اليسر التنوخى المعرى ، المحـدث الأديب كاتب الإنشاء ، عن ثلاث وثمانين سنة بدمشق . وتوفى المسند نجيب الدين أبو الفرج عبد اللطيف

---

(١) فى س "عابور" . (٢) بياض فى س .

(٣) المسرورية اسم مدرسـة كانت فى الأصل دارا لشمس الخواص مسرور ، فجعلت مدرسة بعد وفاته . وكان مسرور هـذا ممن اختص بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، فقدّمه على حلقته ولم يزل مقـدّما الى الأيام الكاملية ، ثم انقطع الى الله ولزم داره حتى مات . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٧٨) .

(٤) فى س "الحيانى" ، والجيانى نسبة الى بلدة جيان التى تبعد سبعة عشر فرسخا عن قرطبة بالأندلس . (ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٣٩ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ١٦٩ — ١٧٠) .

بن عبد المنعم بن علي بن نصر الحرّانى ، مدرّس دار الحديث الكاملية ، عن خمس وثمانين سنة بالقاهرة . وتوفى جمال الدين أبو عيسى عبد الله بن عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد بن علاق الأنصارى ، عن ست وثمانين سنة . وتوفى أبو عبد الله محمد بن سليمان الشاطبي بالإسكندرية ، عن بضع وثمانين سنة . ومات ببغداد العلامة نصير الدين محمد بن محمد بن الحسن الطوسى الإمام المشهور ، فى [ذى الحجة](١) . و[قد] خدم أولا صاحب الألموت ؛ ثم خدم هولاكو وحظى عنده ، وعمل له رصدا بمراغة ، وصنّف كتبا عديدة ؛ وكان مولده فى جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

* * *

سنة ثلاث وسبعين وستمائة . فى المحرم قدم الملك المنصور [محمد] صاحب حماة إلى قلعة الجبل ، ومعه [إخوه](٢) الملك الأفضل على ، وولده المظفر تقى الدين محمود . فأنزل بمناظر الكبش ، وعندما حلّ بها وصل اليه الأمير آقسنقر الفارقانى الأستادار بالسماط ، فمدّه بين يديه ووقف كما يقف بين يدى السلطان . فلم يدعه الملك المنصور يقف وما زال به حتى جلس ، فلما فرغ السماط قُدِّمت الخلع والتعابى وغيرها .

وفى ثامن صفر توجّه السلطان من قلعة الجبل ، وسار (١١٥٩) إلى الكرك فأقام بها ثلاثة عشر يوما ، وكشف أحوال الشوبك ، وعاد إلى قلعة الجبل فى ثانى عشرى ربيع الأول .

---

(١) موضع ما بين القوسين بياض فى س ، وقد أضيفت "ذى الحجة" من ابن ابن العماد (شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٤٠) ، حيث توجد ترجمة أطول مما هنا لنصير الدين المذكور .

(٢) أضيف مابين الأقواس من (Lane-Poole : Saladin. Table II, in pocket) ، والمنصور محمد هذا سليل الملك المظفر تقى الدين عمر ، الذى أقطعه عمه صلاح الدين الأيوبى حماة سنة ٥٧٤ هـ (١١٨٧ م) . وقد ظلت حماة بيد أبناء هذا الفرع الأيوبى ، وكان صاحبها أيام غارات التتر على الشام المنصور محمد المذكور ، فخضع لهولاكو والتتر ، ثم انقلب بعد هزيمتهم الى مصادقة سلاطين المماليك والاعتراف بسيادتهم ، كما هو واضح من المتن . هذا والأفضل على هو أبو المؤيد أبى الفداء ، صاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر المتداول فى هذه الحواشى ؛ وقد ولد أبو الفداء هذا سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٢ م) بدمشق ، وتولى حماة بعد عدّة سنين من انتهاء ولاية المظفر تقى الدين محمود بن المنصور محمد عليها . (Enc. Isl. Arts. Ḥam¯h, & Abu-l-Fida') .

ثم توجّه الى العباسة ومعه الملك السعيد ، فصرع الملك السعيد أوزة خبية[١] . وقيل له : "لمن تدعى؟" فقال : "لمن أدعو بحياته ، ومن أتقرب الى الله بدعواته ، الذى حسبى افتخارا أن أقول والدى ، ومن يتزن لصرع أعدائه ساعدى" ؛ فقبّله السلطان ووهبه من كل شىء .

[وفيها تحيّل السلطان على استخلاص[٢] رؤساء الشوانى الذين أسروا بقبرس على ميناء نمسون]:
وكان الفرنج لمــا كسرت الشوانى على قبرس وأسروا من فيها ، بعث السلطان الأمير فخر الدين المقرى الحــاجب إلى صور لابتياع الأسرى ، فتغالى الفرنج فى الرؤساء و باعوا القوّاد والرماة لطائفة منهـــم . ففادوا بهم أسرى أطلقهم السلطان ، و بقى الاحتفاظ على الرؤساء وهم ستة : منهـــم رئيس الإسكندرية ورئيس دمياط ؛ فحبسوهم بعكا فى قلعتها . فبعث السلطان إلى الأمير سيف الدين خطلبا — وهو بصفد — يأمره بالتحيّــل فى سرقتهم ؛ فأرغب الموكلين بهم بالمــال حتى وصل اليهم ببارد[٣] ومناشير ، وسُرقوا من جبّ قلعة عكا ، وساروا فى مركب إلى خيل قد أعدّت لهم ، فركبوها و وصلوا إلى القــاهرة . ولم يشعر بهم الفرنج حتى قدموا على السلطان ، فكانت بعكا لأجلهم فتنة بين الفرنج .

وقدم كتاب متملك الحبشة وهو الحطّى[٤] يعنى الخليفة ، يخاطب السلطان فيــه [بعبارة] : "أقل الممــاليك يقبّل الأرض و ينهى" ؛ وسأل فيه أن يُجَهّزله مِطْران[٥] من عنــد البطرك ،

---

(١) كذا فى س بغير نقط على التاء ، وفى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٤٧) ، أن الملك السعيد صرع "اوزه جنيه" . انظر أيضا العينى (عقد الجمان ، ص ٢٤٨ ، فى Rec. Hist. Or. II. 1.) حيث ورد أن الملك السعيد صرع "طيرا من الطيور الواجبة" ، وهــذه العبارة الأخيرة مترجمــة بالفرنسية فى نفس المرجع والصفحة إلى "un des oiseaux fixés comme but" ، أى أحد الطيور المعينة للرماية .

(٢) أضيف ما بين القوسين من العينى (نفس المرجع والصفحة) .

(٣) فى س "بمارد" .

(٤) انظر ص ٦١٦ ، سطر ٢٨ .

(٥) يقابل هــذا اللفظ فى الفرنسية (métropolitain) ، ومرادفه فى اللغات الأوربية الأخرى قريب من هــذا ، وفى القلقشــندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٧٣) أن المطران كان فى عصره هو القاضى الذى يفصــل فى الخصومات بين أهل طائفته .

فأجيب[(١)]. وسار السلطان إلى الإسكندرية، وأمر ببناء ما تهدّم من المنار، وعاد إلى قلعته. وكتب [السلطان] بأن تخرج عساكر حلب للغارة، فخرجت وأغارت على بلاد سيس، وغنموا وقلعوا أبواب رَبَض مرعش.

وفي ثالث شعبان توجّه السلطان من قلعة الجبل إلى الشام، فدخل دمشق في سلخه، وخرج منها في سابع رمضان فدخل حماة، ثم صار منها بالعساكر والعربان. وجرّد [السلطان] الأمير

(١) يوجد في مفضل بن أبي الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢١٩، وما بعدها) تفصيلات كثيرة في هذا الصدد، وهي تحت سنة ٦٧٢هـ، ونصها : "وفيما ذكر [محيي الدين] بن عبد الظاهر [في كتابه السيرة الظاهرية] أن في هذه السنة ورد كتاب ملك الحبشة على السلطان الملك الظاهر، طيّ كتاب صاحب اليمن، وهو يقول إن سلطان الحبشة قد قصد الملوك في إيصال كتابه الى السلطان. وكان ضمن كتاب ملك الحبشة يقول أقل المماليك محرا ملالك (كذا) يقبل الأرض و ينهى بين يدى السلطان الملك الظاهر (٢٢٠) خلد الله ملكه، إن رسولا وصل من جهة والى قوص بسبب الراهب الذى جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده. فليرسم مولانا السلطان للبطرك أن يعمل لنا مطرانا يكون رجلا جيدا عالما، لا يحب ذهبا ولا فضة؛ ويسيره الى مدينة عوان (كذا ولعلها سوان أى أسوان، أو لعلها عدن، وهذا الفرض الثانى معتمد على الجملة التالية هنا). فأقل المماليك يسير الى نوّاب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره الى أبواب السلطان؛ وما أخّرت الرسل الى الأبواب، إلا أنى كنت في بيكار، فإن الملك داود قد توفى وقد ملك ولده. وعندى في عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين، وإنما (كذا) النصارى فكثير لا يعدّوا، كلهم غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك، وهذا الخلق كلهم (٢٢١) يقولون آمين. وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نحفظهم ونسفّرهم كما يحبون، والرسول الذى حضر إلينا من جهة والى قوص مريض، وبلادنا وخمة أى من مرض بها ما يقدر أحد يدخل اليه، ومن يشم رائحته يمرض ويموت. قال ابن عبد الظاهر، فرسم [السلطان] بكتب الجواب، فكتبت : ورد كتاب الملك الجليل الهمام العادل في مملكته حطى ملك أمحرة، أكبر ملوك الحبشان، الحاكم على مالهم من البلدان، نجاشى عصره وفريد مملكته في دهره، سيف الملة المسيحية، عضد دولة دين النصرانية، صديق الملوك والسلاطين، سلطان الامحرة، حرس الله نفسه، وبنى على الخير أسه —، فوقفنا عليه وفهمنا ما فيه. فأما طلب (٢٢٢) المطران، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا نعرف الغرض المطلوب، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل من جهته كتاب وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يعود اليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف مسلمين، فالله تعالى يكثر في عسكرنا المسلمين. وأما وخم بلاده، فالآجال مقدّرة من الله تعالى، وما يموت أحد إلا بأجله، ومن فرغ أجله مات. قال ابن عبد الظاهر، لما ذكرنا مكاتبة صاحب الحبشة أردنا أن نذكر شيئا من بلاده : أما أمحرا فإنه إقليم من أقاليم الحبشة، وهو الإقليم الأكبر وصاحبه يحكم على أكثر الحبشة، مثل بلاد الداموت والحرلى. وصاحب بلاد أمحرا يسمى حطى يعنى الخليفة، وكل من يملكها يلقب بهذا اللقب؛ ومن ملوك الحبشة (٢٢٣) يوسف بن ارسماية، وهو صاحب بلاد حداية وشوا وقلحور وأعمالها، وقومهم ملوك المسلمين. وأما الزيلع وقبائلها فما فيها ملوك، إلا أنهم سبع قبائل، وهم مسلمون وخطباؤهم يخطبون بأسماء مقدميهم السبعة". انظر أيضا (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٥ — ٤٦؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 122. n. 151).

عيسى بن مهنا ، والأمير حسام الدين العنتابى ، بعسكر إلى البيرة ؛ وجهّز الأمير قلاون الألفى ، والأمير بيليـك الخازندار ، [بعسكر إلى بلاد سيس](١) ؛ فساروا وهجموا المَصِّيصة(٢) على الأرمن ، وقتلوا من بها . وكانت المراكب قد حُملت معهم على البغال وهى مفصّلة ، ليعدوا فيهـا من [نهر] جَهَان(٣) والنهر الأسْوَد(٤) ، فلم يُحتج اليها .

(١) أضيف ما بين القوسين بعـد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٢٥ وما بعدها) ، وفى نفس المرجع تفسير لتولية السلطان اهتمامه هـذه السنة صوب هذه الجهات ، ونصه : "(٢٢٦) وكان سبب خروج السلطان هـذه المرة ما ذكره عز الدين ابن شداد ، فى الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ، وذلك أن معين الدين البرواناه كتب إلى السلطان الملك الظاهر يحرضه على الدخول إلى البلاد و يقصد (كذا) الروم . وذلك أنه لمـا ضاق ذرعه من (٢٢٧) من أجاى (Atchaï) بن هولاوون ، [وهو] أخو أبغا ، وعزم اجاى على قتله ، فحمله الخوف على مكاتبـة السلطان فى السنة الخالية . وسير [أيضا] إلى أبغا وذكر له أمورا توجب أن يستدعى أجاى إليه ، فسير أبغا وطلب أجاى فتوجه نحوه ، فوافق خروجه من البلاد دخول السلطان إلى الشام . فأفاق البرواناه على نفسه ، فسير يقول للسلطان اقصد هذه السنة سيس ، وفى السنة الآتية أملّكك البلاد . فقصد السلطان سيس" حسبما فى المتن . انظر أيضا (D'Ohsson : Op. Cit. III. p. 471 et seq.) ، حيث توجد أسباب أخرى .

(٢) بغير ضـبط فى س ، وهى مدينـة على شاطىء نهر جيحان ، وتسمى فى الحوليات الصليبيـة (Mamistra) (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124) ؛ وهى تقارب طرسوس ، و بينها و بين أذنة تسعة أميال . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٥٧ ، وما بعدها .Le Strange: Palest. Under Moslems, pp. 505 et seq) .

(٣) بغير ضبط فى س ، وهذه التسمية عامية ، والصحيحة نهر جيحان ، واسمه فى الخرائط الأوربية (Pyramus) . و يخرج هـذا النهر من بلاد الروم عند زبطرة (Zabatrah) ، وتقع عليه المصيصة و يصب فى البحر الأبيض المتوسط على مسافة قريبة منها . (ياقوت : معجم البـلدان ، ج ١ ، ص ١٧٠ ؛ (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 62) . انظر أيضا ابن أبى الفضائل (كتاب النهج الســديد ، ص ٢٢٩ ، وما بعدها) ، حيث يوجد الوصف التالى لهذا النهر ، ونصـه : "وأما نهر جاهان فهو نهر جيحان ، والأرمن تجعل الحاء هاء . وهـذا النهر أجل الأنهار الثلاثة ، وهم (كذا) شيحان وجيحان و بردان ، وهى أنهار طرسوس والمصيصة وأدنة ؛ [وقد] ذكر ذلك هبة الله ابن الإكليلى فى كتاب صفة الأرض ، قال و يخرج من بلاد الروم ثم يقصـد إلى البحر المـالح ، وأما نهر جيحون فهو النهر الذى يخدر متبحرا إلى خوارزم . وأول نهر جيحان جوفا (كذا) ينحدر نحو الجنوب حتى يمرّ بمدينة سيسمة من بلاد الروم ، و يمرّ بين جبلين منحرفا عن المغرب (٢٣٠) إلى أن يصير إلى مدينتين كانتا للروم يقال لهما ترسا و زبطرة ، فيمرّ فيهـا بينهما ، ثم يمرّ بين جبلين راجعا إلى البحر الشامى . وطول هـذا النهر من أوّله إلى مصبه سبعمائة وثلاثون ميلا ، والجبال المحيـطة بسيس و بلادها هو جبل اللكام ، طوله مائة ميل ، والميـل من الأرض منتهى مدّ البصر ، والفرسخ ثلاثة أميال" .

(٤) بغير ضبط فى س ، واسم هـذا النهر عند الترك ، وفى الخرائط الأوربية أيضا "قراصو" (Kara Sou) ، ومنبعه فى بلاد الروم ، ومجراه غربى بلاد المصيصة وطرسوس ، وهو أحد فروع الفرات الأعلى . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٨٣٤ ؛ Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 60) .

ووصل السلطان على الأثر، بعد ما قطع بعساكره النهر الأسود وقاسوا مشقة، وملكوا الجبال وغنموا منها ما لا يحصى كثرة، ما بين أبقار وجواميس وأغنام . فدخل [السلطان] إلى سيس (١٤٩ ب) وهو مُطّلب فى تاسع عشريه وعيّد بها ، وانتهبها وهدم قصور التكفور ومناظره و بساتينه . و بعث إلى دَرْبَنْد[١] الروم، فأحضر إليه من سبايا التتار عدّة نساء وأولاد. وسيّر إلى طرسوس ، فأحضر إليه منها ثلاثمائة رأس من الخيل والبغال . و بعث إلى البحر عسكرا فأخذ مراكب، وقتل من كان فيها . وانبثّت الغارات فى الجبال ، فقتلوا وأسروا وغنموا . و بعث [السلطان] إلى أَيَاس[٢] العساكر، و [كانت][٣] قد أخليت، فنهبوا وحرقوا وقتلوا جماعة ؛ وكان قد فرّ من أهلها نحو الألفين — ما بين فرنج وأرمن — فى مراكب ، فغرقوا بأجمعهم فى البحر . واجتمع من الغنائم ما لا يحصره قلم لكثرته ؛ ووصلت العربان والعسكر إلى البيرة وساروا إلى عين تاب وغنموا ، فانهزم التتار منهم وعادوا .

فرحل السلطان من سيس إلى المصيصة[٤] من الدربند ، فلما قطعه جعل الغنائم بمرج أنطاكية حتى ملأته طولا وعرضا . ووقف بنفسه حتى فرّقها، ولم يترك صاحب سيف ولا قلم حتى أعطاه، ولم يأخذ لنفسه منها شيئا . فلما فرغ من القسمة سار إلى دمشق ، فدخلها فى النصف من ذى الحجة .

وفيها ولى قضاء الحنفية بدمشق مجد الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن العديم، بعد وفاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الأذرعى .

---

(١) بغير ضبط فى س ، واسم هذا الموضع فى المراجع الأوربية (Passus Portellae) . انظر أيضا (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 124. n. 154) ؛ ابن أبى الفضائل ، كتاب النهج السديد ، ص ٢٣١) .

(٢) بغير ضبط فى س ، وهى ثغر بأرمينية الصغرى على شاطىء البحر الأبيض المتوسط (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 405) .

(٣) فى س " اخلت " .

(٤) يرى (Quatremère : Op. Cit. I. 2, p. 124, n. 154) أن هنا هفوة قلمية ، وأن المقريزى أراد أن يكتب "أنطاكية" فكتب المصيصة .

ومات[١] فيها من الأعيان قاضى القضاة الحنفى بدمشق شمس الدين أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عطاء بن الحسن بن عطاء الأذرعى، عن ثمـان وسبعين سنة . وتوفى أمين الدين أبو بكر محمد بن على بن موسى بن عبد الرحمن الخزرجى المحلى النحوى الأديب. وتوفى الحافظ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمـد بن محمود بن أحمد الأسـدى الدمشقى المعروف باليغمورى ، بالمحلة من أعمال القاهرة، عن نيف وسبعين سـنة . وتوفى الحافظ وجيه الدين أبو المظفر منصور بن مسلم بن منصور بن فتوح بن العماد الهَمْدَانى[٢]، الإسكندرى المـالكى المؤرخ، عن ست وستين سنة بالإسكندرية .

* * *

سنة أربع وسبعين وستمائة . فى ثامن المحرم وصل الأمير سيف الدين بلبان الدوادار إلى طرابلس فى تجمـل كبير، ومعه كتاب السلطان إلى متملكها ، فمـا زال حتى قرر عليه فى كل سنة عشرين ألف دينار صورية وعشرين أسيرا[٣] .

وفى رابع عشريه خرج الأمير بدر الدين الخازندار من دمشـق لإحضار الملك السعيد ، ومعه أولاد الأمراء ؛ فوصل الى قلعة الجبل وخرج بالملك السعيد على خيل البريد فى سلخه ، فوصل إلى دمشق فى سادس صفر، وتلقاه السلطان ودخل به إلى قلعة دمشق[٤] .

---

(١) الوفيات التالية واردة على ورقة منفصلة فى س ، بين الصفحتين ١٥٩ ب، ١٦٠ أ ، وهى من غير شك متعلقه بهذه السـنة . (انظر النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ٤٧) . هـذا و يوجد أيضا بيـن هاتين الصفحتين فى س ورقة منفصلة أخرى ، بها وفيات تابعة لسنة ٦٧١ هـ، وقد أوردت هناك . (انظر ص ٦٠٩) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والنسبة إلى همدان إحدى القبائل اليمنية الكبرى . (Enc. Isl. Art. Hamdān ؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤١) .

(٣) تقدم ذكر عقد معاهدة صلح بين السلطان بيبرس وصاحب طرابلس (Bohemond VI)، سنة ٦٦٩ هـ (انظر ص ٥٩٣)، وسبب هذه المعاهدة الجديدة المذكورة هنا أن صاحب طرابلس توفى سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٥م)، فاقتضى ذلك تجـديد الحلف مع الأمير الجـديد (Bohemond VII) . انظـر (Stevenson : Crusaders In The East. p. 345 ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٠٨) .

(٤) كان السبب فى استدعاء السلطان ولده الملك السعيد الى دمشق هو الشروع فى تزويجه بغازية خاتون ابنة الأمير سيف الدين قلاون الصالحى ، وقد تمّ الزواج تلك السنة . (أبو الفداء : المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٥ ، فى Rec. Hist. Or. I. ؛ النويرى : نهاية الأرب : ج ٢٨ ، ص ٤٧ — ٤٨) . انظر أيضا مايلى، ص ٦٢٢ .

وفى صفر هـذا توجه السلطان أبو يوسف بن عبد الحق ملك المغرب لجهـاد الفرنج ، فقتـل الطاغية (١) فى المعركة فى نحو ستة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين إلا نحو ثلاثين رجلا . و بلغت الغنائم من البقر مائة ألف وأربعة وعشرين (٢) ألفا ، و بلغ الأسرى سبعة آلاف أسير . وعجزت القـدرة عن إحصاء الغنم ، حتى أبيعت الشاة بدرهم ، وحمل الكراع (٣) على أربعة عشر ألف وستمائة جمل .

وفيها نبش عمال بنى مرين قبور خلفـاء الموحّدين ، وأخرجوا عبد المؤمن بن على وابنـه يعقوب المنصـور من قبريهما . وقطعت رأساهما (٤) ، وضربت أعناق من كان بجبل تينمل (٥) ، وصلبوا بمراكش وأخذت أموالهم . وفيها بنيت فاس الجديد (٦) ، وصارت دار ملك بنى مرين .

وفى ثالث عشرى جمـادى الأولى أخذ السلطان القُصَـيْر (٧) حصن أنطاكية ، وحمل أهله

---

(١) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p.125) هذا اللفظ الى (le prince des chrétiens) بغير تعليق ، على أنه يوجد بالقلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ١٩٦) ما يساعد على التعريف بهذا "الطاغية" ، إذ ورد به أن السلطان أبا يوسف حارب " النصارى بالأندلس أربع مرات حتى أذعن له شانجة بن أدفونش وسأله فى عقد السلم له ، فعقد له على شروط اشترطها عليه" .

(٢) فى س " عشرون " .

(٣) الكراع هنا ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤونة .(Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 126. n. 156) .

(٤) فى س " راسيهما " .

(٥) كذا فى س ، وهـو بلد بجبال مراكش فى الجنـوب الغربى من مدينة مراكش نفسها ، واسمـه (Timnlel, Tinamallal) فى (G.-Demombynes : Masālik El Absār, Index) .

(٦) تتكون مدينة فاس المعروفة بمراكش من بلدين ، وهمـا فاس البالى — أى القـديم ، ويسمى المدينة — وفاس الجديد ، وهو الذى بدأ بناءه يعقوب بن عبد الحق ، فى شوال سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٦ م) ، كما بالمتن . وقد أطلق على هذا البلد الجديد اسم المدينة البيضاء ، ثم غير إلى فاس الجديد تمييزا له من فاس البالى . (Enc. Isl. Art. Fās) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى قلعة جنوبى أنطاكية ، وكانت لهيئة الفرسان الداوية (Le Strange : Palest. Under Moslems. p. 489) انظر أيضا (Stevenson : Crusaders In The East. Map.) . هذا و يوجد فى ابن واصل (نفس المرجع ، ص ٤٣٦ أ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة متعلقة بتلك القلعة ، منها أنها كانت "للبطرك من داخل البحر ، وبها نائب من جهة البطرك اسمه سير كلتام (Sir William) ، وهو رجل جيد يحب الخير" . انظر أيضـا النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٧ — ١٠٨) . أما البطرك المذكور فهو بطريق أنطاكية (The Latin Patriarch of Antioch) ، وكان قد ترك ميدان النضال يأسا من مقاومة السلطان ، فلق حتفه فى تلك الموقعة . راجع (King : The Knights Hospitallers In The Holy Land. p. 274) .

الى الجهات التى قصـدوها . وقدم الخبر بورود التتار الى البـيرة ، بجمع [السلطان] العساكر وأنفق[1]، وخرج من دمشق إلى حمص، بجاء الخبر برجوع التتار فعاد إلى دمشق .

وفى هذه الأيام اختلفت أمراء الروم على البرواناه، ففارقه جماعة من قيسارية ؛ وقـدم منهم الى السلطان الأمير ضياء الدين محمود بن الخطير، والأمير سنان الدين موسى بن طرنطاى، ونظام الدين أخو مجد الدين الأتابك، بعيالاتهم يريدون الانتماء (١٦٠ ا) اليه ؛ فجهّزهم [السلطان] الى القاهرة . ثم إن محمود بن الخطير سعى بهم، فاعتقلوا بقلعة الجبل مدة ثم أطلقوا .

وفى مستهل رجب توجّه السلطان من دمشق إلى مصر، فدخل قلعة الجبل فى ثامن عشره . وقدمت هدية [صاحب] اليمن ، ومن جملتها كَرْكَدَن وفيل وحمار وحش عتابى ؛ فسيّر [السلطان] إليـه هدية مع رسله . وجهز [السلطان] هدية للملك منكوتمر مع الأمير عز الدين أيبك الفخرى، وجهز رسل الملك الأشكرى، ورسل الفنش[2]، ورسل جنوة[3] .

و [فيها] حضر ابن أخت ملك النوبة واسمه مشكد[4]، متظلّما من داود ملك النوبة . بجرّد السلطان معه الأمير آقسنقر الفارقانى، بعدة من العسكر وأجناد الولاة والعربان، ومعه الزرّاقون[5] والرماة ورجال الحراريق والزردخاناه . فخرج فى مستهلّ شعبان حتى عدى أسـوان ، وقاتل [الملك داود ومن معه من] السودان، فقاتلوه على النُجُب، وهزمهم وأسر منهم كثيرا . وبعث

(١) فى س " نفق " .

(٢) المقصود هنا (Alphonso of Seville) ملك أشبيلية ، وكان بينه وبين السلطان بيبرس معاهدة تجارية منذ ٦٦٩هـ(١٢٧٠ م) . انظر (Lane-Poole : A Hist. of Egypt, p. 266 ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٤٨ ، ٦٩)، حيث توجد تفاصيل كثيرة بشأن هذه السفارة .

(٣) ضبط هذا الاسم من القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥ ، ص ٤٠٥) .

(٤) كذا فى س ، واسم هذا الأمير "شكندة" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٣٤) . انظر أيضا (النويرى : نهاية الأرب، ج٢٨ ، ص١٠٨ — ١٠٩ ؛ Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 127. n. 157). هـذا ويوجد فى ابن أبى الفضائل (نفس المرجع، ص ٢١١، ٢٣٤ ، وما بعدها) تفصيلات كثيرة بصـدد علاقات السلطان بيبرس بملوك تلك البلاد وأمرائها ، وكل ما هنا بالمتن من الإضافات مأخوذ من هذا المرجع .

(٥) فى س "الزراقين" .

[الأمير آقسنقر] الأمير عز الدين الأفرم ، فأغار على قلعة الدو (١) وقتل وسبى ؛ ثم توجه [الأمير سنقر] فى أثره يقتل و يأسر حتى وصل إلى جزيرة ميكائيل — وهى رأس جنادل النوبة — فقتل وأسر . وأقر [الأمير آقسنقر] قمر الدولة صاحب الجبل (٢) — و بيده نصف بلاد النوبة — على ما بيده ، ثم واقع الملك داود حتى أفنى معظم رجاله قتلا وأسرا . وفر [داود] بنفسه فى البحر وأسر أخوه شنكو (٣) ، فساق العسكر خلفه ثلاثة أيام ، والسيف يعمل فيمن هناك حتى دخلوا كلهم فى الطاعة ، وأسرت أم الملك [داود] وأخته .

وأقيم مشكد فى المملكة ، و ألبس التاج وأجلس فى مكان داود ، وقررت عليه القطيعة فى كل سنة : وهى فيلة ثلاثة (٤) ، وزرافات ثلاث ، وفهود إناث خمس ، [و] صهب جياد مائة ، [و] أبقار جياد متخبة (٥) مائة . وقرر أن تكون البلاد مشاطرة : نصفها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ؛ وأن تكون بلاد العلى (٦) و بلاد الجبل للسلطان — وهى قدر ربع بلاد النوبة — لقربها من أسوان ؛ وأن يحمل القطن والتمر مع الحقوق الجارى بها العادة من القديم . وعرض عليهم الإسلام أو الجزية أو القتل فاختاروا الجزية ، وأن يقوم كل منهم بدينار عينا فى كل سنة . وعملت نسخة يمين بهذه الشروط ، وحلف عليها مشكد وأكابر النوبة ؛ وعملت [أيضا] نسخة للرعية بأنهم يطيعون (٧) نائب السلطان ما دام طائعا ، و يقومون (٨) بدينار عن كل (٩) بالغ . وخربت كنيسة

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128).

(٢) فى س "صاحب الخيل" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128 n. 158) ، وكذلك مايلى سطر ١٠ . (٣) كذا فى س ، واسم هذا الأمير "سنكوا" فى النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٨) .

(٤) فى س "ثلاث" . (٥) فى س "متحبه" . انظر (Quatremère : Op. Cit. I. 2 p. 128) .

(٦) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 128, et n. 159) . هذا وقد أورد ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٥) فى هذا الصدد ما يساعد على التعريف بهذه البلاد ، ونصه : "وقرروا أيضا أن تكون دو وابريم ، وهما قلعتان حصينتان قريبتان من أسوان بينهما سبعة أيام ، خاصا للسلطان" .

(٧) فى س "يطيعوا" . (٨) فى س "يقوموا" .

(٩) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) نص هذين اليمينين ، وهما منقولان من هذا المرجع فى ملحق رقم ٥ فى آخر هذا الجزء ، انظر أيضا (Quatremère ; Op. Cit. I. 2. 129. n. 160) . هذا ونص اليمين الأول فقط موجود فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٦ ، وما بعدها) .

سوس[١]، [التى كان يزعم داود أنها تحدّثه بمـا يؤدّيه] ، وأُخِذ[٢] ما فيها من الصلبان الذهب وغيرها ، فجاءت مبلغ أربعة آلاف وستمائة وأربعين دينارا ونصف ، وبلغت الأوانى الفضة ثمانية آلاف وستمائة وستين دينارا . وكان داود قد عمرها على أكتاف المسلمين الذين أسرهم من عيذاب وأسوان . وقُرِّر على أقارب (١٦٠ ب) داود حمل ما خلفه من رقيق وقمـاش الى السلطان ، وأطلقت الأسرى الذين كانوا بالنوبة من أهل عيذاب وأسـوان ، وردّوا الى أوطانهم . وغنم العسكر من الرقيق شيئا كثيرا ، حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم ، وفضل بعد القتل والبيـع عشرة آلاف نفس . وأقام العسكر بمدينة دمقلة سبعة عشر يوما ، وعادوا الى القاهرة فى خامس ذى الحجة بالأسرى والغنائم . فرسم [السلطان] للصاحب بهاء الدين بن حنا أن يستخدم عمالا على ما يستخرج من النوبة من الخراج والجزية بدمقلة وأعمـالها ، فعُمل لذلك ديوان .

وفى ثانى عشره اجتمع القضاة والأمراء والأعيان بقلعة الجبل ، وعُقد للملك السـعيد على غازية[٣] خاتون ابنة الأمير قلاون الألفى ، بوكالة الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة عن الملك السعيد . فقبل العقد عن الأمير قلاون الأميرُ آقسنقر الفارقانى ، على صداق مبلغه خمسة آلاف دينار ، المعجّل منهـا ألفا دينار . وكتب الصـداق بخط القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر وإنشائه ، ومن جملته : " هـذا كتاب تحاسدت رماح الخط وأقلام الخط على تحريره ، وتنافست مطالع الأنوار ومشارق الأنوار على تسطيره . وأضاء نوره بالجلالة وأشرق ، وهطل نوره بالإحسان وأغدق ، وتناسبت فيه أجناس تجنيس لفظ الفضل فقال الاعتراف هذا ما تصدّق ، وقال العرف هذا ما أصدق[٤] " .

وفيه شنق السلطان الطواشى شجاع الدين عنبر المعروف بصدر الباز — وكان قد تمكّن منه تمكنا عظيما — من أجل أنه شرب الخمر ، وعلّقه تحت قلعة الجبل .

(١) كذا فى س ، وقد أضيف ما بين القوسين من النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٠٩) .

(٢) فى س "واحدوا" . (٣) فى س " غاربه " . انظر ص ٦١٩ ، حاشية ٤ .

(٤) أورد النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٦٩ — ٧٠) هذا النص كاملا غير مجمل كما هنا .

وعند ما انقضى أمر العقد، ركب السلطان من يومه على الهجن فى نفر يسير، وسار إلى الكرك فدخلها فى ثالث عشريه ، وهو يريد القبض على الأمير سابق الدين عبية (١) . فلما بلغه حضور السلطان قدم عليه، فرعى له ذلك و زاد إقطاعه . ونظر [السلطان] فى أمر أهل الكرك، وقطع أيدى ستة منهم اتهموا بأنهم قد عزموا على إثارة فتنة ؛ ورتّب رجالا بها عوضا عمن كان فيها (٢) .

وفيها أقام حجاج مصر بمكة ثمانيــة عشر يوما، و بالمدينة النبوية عشرة أيام، وهــذا لم يعهد مثـــله .

ومات فى [هذه الســنة] (٣) من الأعيان الأمير ركن الدين خاص ترك الكبير، أحد الأمراء الأكابر بدمشق ، فى ثالث عشر ربيـع الأول . ومات الأمير حسام الدين قيماز الكافرى ، نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات . وتوفى (٤) سعد الدين أبو العباس الخضر بن التاج أبى محمد عبد الله بن العماد أبى الفتح عمر بن على بن محمــد بن حمويه الجوينى ، شيخ الشيوخ بدمشق ، بها عن نيف وثمانين سنة . وتوفى تاج الدين أبو الثناء (٥) محمود بن عابد (٦) بن الحسين ابن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى، بدمشق عن ست وتسعين سنة . وتوفى زين الدين أبو عبــد الله محمد بن عبــد الله بن جبريل ، كاتب الإنشاء بقلعة الجبــل فى ... ... (٧) . وتوفى

---

(١) فى س، "عبيه" وهو مترجم فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 134) الى (Aïbah) .

(٢) يلى هذا اللفظ بياض فى س ، يسع كلمتين تقريبا .

(٣) فى س "فيها" .

(٤) الوفيات التالية واردة هنا كما فى ب (١٨٩ ب — ١٩٠ أ)، وهى فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٥٦ ب، ١٥٧ أ ، وقد أشير الى ذلك فى موضعه . انظر (النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٧١ — ٧٢؛ ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٤٢ — ٣٤٤) .

(٥) فى س " الثنا " ، وفى ب (١٩٠ ب) " البقا " .

(٦) فى س "عايذ" ، وفى هامش الورقة عبارة تصحيحية لهذا الاسم ، وهى بخط مخالف، ونصها : إنما هو عابد بالباء الموحدة والدال المهملة" . انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٤٤) .

(٧) بياض فى س .

كمال الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الرحيم بن على بن إسحاق بن على بن شيث الأموى[1] . ...
وتوفى الأديب أبوالحسن على بن أحمد بن العُقَيب[2] العامرى ببعلبك .

* * *

سنة خمس وسبعين وستمائة . فى المحرّم سار السـلطان من الكرك، فدخل إلى دمشق فى رابع عشره . وقدم عليه عدّة من أمراء الروم مغاضبين للبرواناه، وهو معين الدين سليمان بن على بن محمـد بن حسن . [وكان] منهم الأمير حسام الدين بِيْنِجار[3] الرومى ، وبهادر ولده ، وأحمد بن بهادر ، واثنا عشر من أمراء الروم بأولادهم ونسائهـم ، من جملتهم قرمشى[4] وسكّاى[5] ابنا قراجين بن جيغان نوين . فأحسن السلطان إليهم ، وبعث حريمهم إلى القاهرة ، وأجرى عليهم الأرزاق . ثم وصل الأمير سيف الدين جندر[6] بك صاحب الأُبُلُسْتِين[7] ، والأمير مبارز الدين [سوار بن الحاشنكير][8] ، فى كثير من أمراء الروم ؛ فتلقّاهم السلطان بنفسه وأكرمهم . ثم كتب [السلطان] الى الأمراء بمصر يستشيرهم فى بعث عسكر الى الروم ، وأن يحضر الأمير بيسرى والأمير (١٦١ ا)[9] أقش بمـا يتفق الرأى عليه ، فحضرا على البريد ؛ ووصل [أيضـا]

(١) بياض فى س ، يسع ثلاثة ألفاظ تقريبا .

(٢) هذا الاسم مضبوط هكذا فى س .

(٣) فى س " بجار " . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٤) كذا فى س ، واسمه "جاورجى" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩) .

(٥) فى س "سكاى" ، واسمه "نيكاى" فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٣٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) فى س "حندر" . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) . هذا وفى : D'Ohsson) Op. Cit. III. p. 480) أن اسم هذا الأمير (Haïdar-Bey) .

(٧) بغير ضبط فى س ، وهى مدينـة ببلاد الروم اسمها الحالى البستان ، وهى قريبة من أفسوس (Ephesus) مدينـة أهل الكهف . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٩٤) . انظـر أيضا (Le Strange: Palest. Under Moslems. p. 277) .

(٨) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٤٣) .

(٩) يوجد بين الصفحتين ١٦٠ ب ، ١٦١ ا فى س ورقة بها وفيات تابعة لسنة ٦٧٠ هـ ، وقد أوردت فى موضعها المناسب هناك . (انظر ص ٦٠٤ ، حاشية ٢) .

الأمير سنقر الأشقر . وتتابع وصول حريم أمراء الروم ، فأكرمهم السلطان وجهّزهم الى القاهرة . وسار [السلطان] الى حلب ، وجرّد منها الأمير سيف الدين بلبان الزينى الصالحى فى عسكر، فوصلوا الى عين تاب .

وعاد السلطان من حلب الى مصر، فدخل قلعة الجبل فى رابع عشر ربيع الأول؛ ورسم بتجهيز مهمات العرض : فأخذ الناس فى التجهيز، وغلت الخيول والأسلحة، وعدم صنّاع صقل العدد من القاهرة لاشتغالهم بالعمل عند الأمراء ، وعزّ وجود صنّاع النشاب ومقوّمى الرماح .

وفى خامس جمادى الأولى وقع العرض، فركبت العساكر بكمالها فى يوم واحد وقد لبسوا أجمل العدد، وقصد السلطان بركوبهم فى يوم واحد حتى لا يستعير أحد من أحد شيئا . وفرّق السلطان على مماليكه العدد الجليلة، وركب الأمراء الروميون ومن حضر من الرسل، وعرض الجميع على السلطان. ونزلوا من الغد فى الوطاقات للعب، وقد لبس المماليك السلطانية الجواشن والخوذ، وعملت الأبرجة الخشب على الفيلة، ودخلوا فى الحلقة وساقوا . ثم نُصب القبق بالميدان الأسود [تحت القلعة](1) ورموا النشاب ، وأنعم السلطان على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس من الجنائب الخاص، بسرجه و لجامه وتشاهيره بالمراوات الفضة وغيرها؛ وأنعم على من أصاب من المماليك والأجناد بالخلع. [كل ذلك] والسلطان يسعى، وقد تنوّع فى لامات حربه ، وصار يأخذ بقلوب الناس ويحسن اليهم . وساق [السلطان] بالرمح أحسن سَوْق حتى تعجّبوا من فروسيته، الى أن انقضى النهار على هذا .

وفى اليوم الثالث ركب السلطان، ولعب الناس ورموا فى القبق، والسلطان يطاعن بالرمح . وفى الغد ترتّب العسكر من جهتين، واصطدما وتطاعنت الفرسان؛ [وكان] السلطان بينا يراه الناس آخرا قد شاهدوه أوّلا، [وهو] لا يسأم من الكرّ والفرّ، وشاهد الناس منه ومن الملك السعيد مايبهر العقول . وتواصل الطعن بغير جراح، والسلطان بين تلك الصفوف لا يخاف .

(١) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٧) .

وفى يوم الثـلاثاء أنعم [السلطان] على جميع الأمراء والمقدّمين والقضـاة والمتعمّمين بالتشاريف، ولبس السلطان تشريفا كاملا بشربوش، ثم أنعم به على الأمير سيف الدين قلاون الألفى؛ ولعبوا على عادتهم . وحصل الاهتمام (١٦١ ب) بأمر السماط، ونقل له من أصناف الحوائج ما لا يعدّ، وسيق من الأغنام ألوف كثيرة . ومُدّت الأسمطة، وحضر السلطان والناس فى خدمته إلى أن أخذوا حاجتهم من الطعام والحلاوات، ثم نُقـل جميع ذلك وأخذ . وحضرت التقادم، فقبل السـلطان منها اليسير مثل تفصيلة[(١)] أو رمح أو شىء لطيف، وما قام من مجلسه حتى أنعم بذلك فى وقته . ودخل الملك السعيد على ابنة الأمير قلاون .

وشرع السلطان فى السفر لأخذ بلاد الروم، وبعث إلى الأمراء الروميين الخيول والخيام وكل ما يصلح من أمور السـفر . وتقرّر الأمير آقسنقر الفارقانى نائب الغيبة بقلعة الجبـل، ومعه الصاحب بهـاء الدين بن حنا، ليكونا فى خدمة الملك السعيد . وتعين[(٢)] الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين لوزارة الصحبة .

وخرج السلطان من قلعة الجبل يوم الخميس العشرين من رمضان، ورحل فى يوم السبت ثانى عشريه ومعه الأمراء والعساكر الإسـلامية يريد البـلاد الشامية . فدخل دمشـق يوم الأربعاء سابع عشر شوّال، وخرج منها إلى حلب فى العشرين منه، فوصل إلى حلب مستهلّ ذى القعدة، وخرج منها يوم الخميس ثانيـه إلى حَيْلَان[(٣)] . وجرّد [السلطان] الأمير نور الدين

---

(١) ترجم (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 138) هـذا اللفظ إلى (robe) أى ثوب . انظر أيضا (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) يكون صاحب هـذا المنصب وزيرا متنقلا، يرافق السلطان فى أسـفاره وحروبه ليقوم بوظيفة الوزير ويصرف شؤونها معه، وذلك ليتسنى للوزير الأصلى أن يقيم بالقاهرة حيث مقرّ عمله . ويتضح هذا الترتيب من عبارة المتن، فإن الصاحب بهاء الدين بن حنـا هو الوزير وقد تركه السلطان بيـبرس بالقاهرة، وعين الصاحب زين الدين ليكون وزير الصحبة . ولهذا التقسيم أشباه فى كثير من الوظائف السلطانية، وقد نشأت من نفس السبب الذى اقتضى وجود وزيرين، ومن هذه وظيفة ناظر الصحبة، ومشدّ الصحبة، ومستوفى الصحبة . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 139. n. 171) .

(٣) بغير ضـبط فى س، وهى من قرى حلب، تخرج منها عين فوّارة كثيرة الماء، تسيح الى حلب وتدخل اليها من قناة، وتتفرق الى الجامع والى جميع مدينة حلب . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٢، ص ٣٨٢) .

على بن محلى[١] نائب حلب ليقيم على الفرات بعسكر حلب، ويحفظ معابر الفرات لئلا يدخل أحد من التتار إلى بلاد الشام؛ ووصل [إلى الأمير نور[٢] الدين] الامير شرف الدين عيسى بن مهنا .

وكان السلطان منذ خرج من مصر إلى أن وصل إلى حلب ، لم يمر بمملكة إلا أخذ معه عسكرها وخزائنها وأسلحتها . فترك بعض الثقل بجيلان ، وسار منها يوم الجمعة ثالثه إلى عين تاب، وقطع الدربند و بات فى وطاة[٣] . وتوجّهت العساكر جرائد على الأمر المعهود ، وخفّفوا كل شيء . وتقدّم الأمير سنقر الأشقر جاليشا[٤] فى عدة من العسكر، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار [ومقدمهم يسمى كراى[٥]] ، فانهزموا قدامه وأسر منهم جماعة ، [وكان ذلك يوم الخميس تاسع الشهر] . و بلغ ذلك الملك [أبغا] ، فجهّز جماعة من عرب خفاجة ليناز لوا عسكر حلب على غرّة . فبلغ ذلك نائب حلب وهو على الفرات، فركب إليهم وقاتلهم وهزمهم، وأخذ منهم ألفا ومائتى جمل .

وورد الخبر على السلطان بأن عسكر التتار [ومقدمهم تناوون] ، وعسكر الروم [ومقدمهم معين الدين البرواناه]، قد اتفقوا جميعا على لقائه . فرتّب عساكره وتأهّب للقاء ، وطلع بعساكره على جبال (١٦٢ ا) تشرف على صحراء هوتى[٦] من بلد أبلستين. وترتّب المغل أحد عشر طلبا، كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم عنهم وجعلوه طلبا بمفرده [لئلا يكون مخامرا عليهم] . وأقبلوا فانصبّت الخيول الإسلامية عليهم من الجبل انصباب السيل،

(١) كذا فى س ، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١١١)، وهو فى ب (١٩١ أ) "مجلى" .

(٢) أضيف ما بين القوسين بعد مراجعة ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٨) .

(٣) المقصود بالوطاة هنا الأرض السهلة (une plaine) غير الجبلية ، على أن الصحيح أن يقال "وطاء" . (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 140. n. 172 ؛ محيط المحيط؛ وكذلك ص ٥٧١ ، سطر ٣) .

(٤) فى س " جاليش "، ومعناها هنا حسب ترجمة (Quatremère : Op. Cit .I. 2. p. 140) (l'avant garde) أى الطليعة .

(٥) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة كلها والتى تليها من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٩ ، وما بعدها) .

(٦) فى س "صحرا هوتى"، وفى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١١١) "صحرا هونى"، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٥٩) "صحراة البلستين" .

ووقفوا وقفة رجل واحد . وقدّم السلطان عدة من مماليكه وخواصه، فقاتلوا قتالا شديدا؛ ثم ردفهم بنفسه، وحمل وحملت العساكر معه حملة شديدة . فترجّل التتار عن خيولهم، وقاتلوا قتال من يطلب الموت حتى عظم القتل فيهـم ، فولّى طائفة منهم وأدركهـم العسكر فأحاط بهم . ونجا معين الدين سليمان البرواناه زعيم الروم، فانهزم أصحابه، وصار [هو] إلى قيسارية [فوصلها] بكرة يوم الأحد ثانى عشر ذى القعدة، [وأشار على سلطانها غياث الدين كيكاوس بن كيخسرو وجماعة الأمراء بالخروج منها، فإن التتر المنهزمين متى دخلوا قيسارية قتلوا كل من فيهـا حنقا على المسلمين] . ثم أخذ [البرواناه](١) السلطانَ غيـاث الدين كيكاوس بن كيخسرو صاحب الروم، و [جماعة من] أعيان البلد، وسار [بهم] إلى تَوْقَات(٢)، [وبينها وبين قيسارية مسيرة ثلاثة أيام] .

وأما السلطان فإنه نزل بعد هزيمة التتار فى منزلتهم، وأحضر اليه من أسر من أمراء المغل، فعفى عنهم وأطلقهم . وقتل فى المعركة الأمير ضياء الدين بن الخطير، والأمير سيف الدين قيران العلائى أحد مقـدمى الحلقة ، وسيف الدين قفجاق(٣) الجاشنكير ، وعدة مَن العسكر ؛ وجرح جمـاعة . وقتل [تناوون](٤) مقدم التتار فى المعركة . وأمر السلطان بقتل من أسر من التتار، وأبقى من أسر من أمراء الروم وأعيانهم معه : وفيهم أم البرواناه، وابنه [مهذب الدين علىّ] وابن ابنته .

وجرّد [السلطان] الأمير سنقر الأشقر فى جماعة، لإدراك المنهزمين [من التـتر وللتوجّه إلى قيسارية] ، وكتب معـه كتابا الى أهل قيسارية بالأمان وإخراج الأسـواق والتعامل

---

(٢) فى س "واخد" .

(٣) بغير ضبط فى س، وهى بلدة واقعة بين قونية وسيواس . (ياقوت : معجم البلدان، ج ١، ص ٨٩٥) .

(١) فى س "قعجاق" ، وهو فى ب (١٩١ ب) "قنجاق"، وفى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ص ٢٦١) "قليج" .

(٢) انظر أبا الفداء (المختصر فى أخبار البشر، ص ١٥٥، فى Rec. Hist. Or. I.) ، حيث ورد هـذا الاسم "تناون" .

بالدراهم الظاهرية . فمرّ [الأمير سنقر] بفرقة من التتار معهم البيوت ، فأخذ منهم جانبا، وأدركه الليل فتفرق من بقى منهم .

ورحل السلطان فى يوم السبت حادى عشره يريد قيسارية الروم[(١)]، فاستولى فى طريقه على عدّة بلاد . وفى يوم الأربعاء خامس عشره تلقّاه أهل قيسارية من العلماء والأكابر والنساء والأطفال ، واحتفّ به الفقراء الصوفيـة وتواجدوا ، إلى أن قرب من دهليز السلطان غياث الدين[(٢)] صاحب الروم وخيامه، وقـد نصبت فى وطاة بالقرب من المناظر التى كانت لملوك الروم . فترجّل وجوه العساكر المصرية والشامية على طبقاتهم، ومشوا بين يديه إلى أن وصلها ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل . وأقبل الروم[(٣)] من كل جهة ، وضُربت نوبة آل سلجوق على عادتها ؛ وحضر أصحاب الملاهى كما هى عادة الروم، فنُهُوا عن الضرب بالآلات[(٤)] وعن الغناء [أيضا] ، وقيـل لهم : هذه الهيئة لا تتفق عنـدنا ، وما هذا موضـع (١٦٢ب) الغناء ، بل موضع الشـكر" . وشرع السلطان فى إنفاق المـال، وعيّن لكل جهة شخصا ؛ وكتب إلى أولاد قرمان[(٥)] أمراء التركمان ، وأكّد عليهـم فى الحضور، واستمال النازحين ، فما خرج البرواناه عن المطاولة إلى أن علم السلطان منه أنه لا يحضر .

(١) توجد قبالة هذا اللفظ بهامش الصفحة فى س العبارة الآتية ، ونصها مصححا : "قيصرية ويقال أقصرا، هى وقونية مدينتا بلاد الروم ، يقال إن عدد بلادهما وما يليهما ستمائة ألف وست وأربعون ضيعة ، من ذلك قلاع أربعمائة [و] أربع وخمسون قلعة ، ومدن كبيرة بأسوار ستة وأربعون مدينة" .

(٢) فى س "صا الدين" ، وهفوة المقريزى هنا قلمية . انظر (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 143).

(٣) يلى هذا اللفظ فى س عبارة "اهل بلاد الروم" ، وهى مشطوبة .

(٤) فى س "بالات" .

(٥) تأسست دولة بنى قرمان (Karaman Oghlu) بجهات أرمناك وقسطمونى بجنوبى آسـيا الصغرى ، فى أواسط القرن السابع الهجرى . وهى أهم الدول التركمانيـة التى نشأت زمن تفكك دولة الروم السلاجقة ، ومؤسسها قرمان بن نورا صوفى المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) ، وقد تولاها بعده ابنه محمد بن قرمان، وهو وعمه وإخوته هم المقصودون هنا بالمتن ، (Enc. Isl. Art. Karaman Oghlu ; Lane-Poole : Muh. Dyns. pp. 184-185) . انظر أيضا (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ٣٦٥ ؛ ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد، ص ٢٦٦) .

وركب [السلطان] فى يوم الجمعة سابع عشريه وعلى رأسه جِتْر بنى سلجوق، ودخل قيسارية دار السلطنة، وعبر القصور وجلس على تخت آل سلجوق. وأقبل الناس للهناء وقبّلوا الأرض، وحضر القضـاة والفقهاء والوعاظ والقرّاء والصـوفية وأعيان قيسارية وذوو المراتب، على عادة الملوك السلجوقية فى أيام الجمع. ووقف أمير المحفل — وهو عندهم ذو حرمة ومكانة، ويلبس أكبر ثوب وعمامة —، فرتّب المحفـل على قدر الأقدار، وانتصب قائمـا بين يدى السلطان منتظرا ما يشير به. وقرأ القرّاء أحسن قراءة، ورفعـوا أصواتهم بالتلحين العجيب إلى أن فرغوا، فأنشد أمير المحفل بالعربية والعجمية مدائح فى السلطان. ومُدّ سماط الطعام فأكل من حضر، ثم أحضرت دراهم عليها الصكة الظاهرية. وتهيّأ السلطان لصلاة الجمعة، وقام السلطان إلى الجـامع، وخطب الخطيب بنعوته وصلّى، وخطب له الخطباء بجـوامع قيسارية وهى سبعة.

فلما قضى السلطان صلاة الجمعة، حُمِـل اليه ما تركته كُرْجى[1] خاتون امرأة البرواناه من الأموال التى لم تقدر على حملها معها، وما خلّفه سـواها ممن انتزح معها. وظهر لها ولزوجها معين الدين سليمان البرواناه موجود نفيس، فأخذ السلطان ذلك.

وبعث البرواناه يهنىء السلطان [بيبرس][2] بجلوسه على تخت الملك، فكتب إليه أن يفـد عليه ليقرّه مكانه، فبعث يسأل النظرة إلى خمسة عشر يوما. ورجا [البرواناه] بذلك أن يصل الملك أبغا — وكان قد أرسل يستحثّه على القدوم بنفسه — ليدرك الملك الظاهر وهو ببلاد الروم. فلما بلغ السلطان ذلك خرج من قيسارية فى ثانى عشريه، بعد ما أعطى الأمراء والخواص الخيول والأموال. و[لمـا وصل السلطان إلى خان كيقباد] بعث إلى الأرمن [بجهة الرمانة] الأمير طيبرس الوزيرى، فحرق وقتل وسبي [من بها من الأرمن] وعاد؛ [وسبب ذلك أنهم كانوا قد أخفوا جماعة من التتر]. فسار السلطان إلى الأبلستين، ومرّ على مكان المعركة ليرى رمم القتلى من التتار، فذكر أهل الأبلسـتين أنهم عدّوا من القتلى سـتة آلاف وسبعمائة

(١) ضبط هذا الاسم على منطوقه فى ترجمة (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 144).

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٦٧ وما بعدها).

وستين، وضاع الحساب بعد ذلك . فأمر السلطان بجمع من قُتل من عساكره ودُفنوا ، وتَرَك منهم قليلا بغير دفن؛ وقصد بذلك نكاية التتار فى إظهار كثرة من قُتل منهم وقلة من قُتل من عسكره؛ ثم رحل (١) .

(١) توجد بين الصفحتين ١٦١ ب ، ١٦٢ أ فى س ورقة منفصلة ، بها ملخص لما وقع للسلطان بيبرس من يوم أن ترك حلب إلى أن دخل قيسارية بآسيا الصغرى ، وهو مكتوب على وجهى الورقة بخط صعب القراءة مع مشابهته لخط المتن ، وقد كتب فوقه على أحد الوجهين بقلم ثلث مخين العبارة الآتية : " يغنى عن الوصايا المجددة والاشارات " ، وفيما يلى نص الملخص المذكور مصححا ، ماعدا ما تعذرت قراءته فقد أشير إلى موضعه :

"رحل الملك الظاهر من حلب يريد بلاد الروم حتى خرج من الدربند ، وبات فى وطاة . فتقدم سنقر الأشقر فى الجاليش ، فوقع فى ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراى ، فانهزموا من بين يديه فأسر وقتل منهم جماعة ؛ وبات التتر على تعبئة . فلما كان يوم الجمعة عاشر ذى القعدة سنة [خمس وسبعين] تتابع الصخر (؟) بقربهم ، فعبأ السلطان عساكره وطلع بهم من جبال مشرفة على أبلستين . وكان التتر ليلتهم تلك باتين على نهر زبان ، وهو أصل نهر جهان وأصل اسمه جيحان . فترتب المغل أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس ، وعزلوا عسكر الروم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا بمفرده . فوقعت الحرب ، فقتل كثير من التتر وفر الباقون ، فأخذ أكبرهم (؟) ، وغنمت منهم عدة غنائم وأسر كثيرا (كذا) . ووصل البرواناه مدينة قيصرية سحر يوم الأحد ثانى عشره ، وأخذ زوجته وامها والسلطان غياث الدين صاحب الروم إلى أبغا بن هلاون وتوجهوا الى توقات ، وهو حصن [يبعد] عن قيصرية أربعة أيام ، وتبعه أمراء الروم إلا قليلا منهم . ورحل السلطان الملك الظاهر ، وكتب الى أصحاب حصن سمند وإلى قلعة درندة وإلى قلعة دالوا ، فكلهم أطاع . فلما كان يوم الأربعاء نصفه ركبت العساكر ، وقد خرج أهل قيصرية للقاء السلطان فأكرمهم . وكان شعار السلطان غياث الدين صاحب الروم وحزامه (؟) وشعار سلطنته قد بقى جميعه فى وطاة ، فرحل الناس بأجمعهم فى ركاب السلطان ، ونزل ملك (موضع هذا ألفاظ ممحوة محوا تاما) سلجوق على باب دهليزه ، وحضر أصحاب الملاهى فلم يمكنوا ومنعوا . وحكم السلطان ونفذ أشغال سلطنته ، ثم ركب يوم الجمعة سابع عشريه ، ونصب جتر بنى سلجوق على رأسه ، ودخل قيصرية بكرة النهار وقد فرشت دار السلطنة لدولته (؟) وهى تخت بنى سلجوق بجلوسه (؟) . فجلس السلطان فى مرتبة الملك ، وأتاه الناس يهنئون ، وأقبل القضاة والفقهاء والصوفية ، وذوو المراتب من أصحاب العمائم على عادة بنى سلجوق فى كل جمعة . ووقف أمير المحفل وهو كبير عندهم ، فرتب المحفل على قدر الأقدار ، ووقف ينتظر ما يرسم [السلطان] له به . وشرع القراء فى قراءة القرآن حتى فرغوا ، فصرخ أمير المحفل علو (؟) ثم أنشد بالفارسية طو يلا . ثم مد السماط وأكل الناس وقام السلطان الى موضع راحته ، فأقام قليلا وخرج الى مخيمه ، وتوجه لصلاة الجمعة بقيصرية ، حتى انقضت الصلاة . فدعى للسلطان (موضع ألفاظ تعذرت قراءتها) باسمه ، وأحضرت اليه الدراهم فى هذا اليوم . واستولى [السلطان] على موجود (؟) معين الدين سليمان وزوجته كرجى خاتون ، ثم رحل يوم الاثنين عشريه ، بعد ما أعطى الأمراء والخواص كلما جهز اليه . واستصحب [السلطان] معه أكابر الروميين حتى نزل أبلستين ، وعبر على مكان المعركة ، وأخبره رجل أنه عد من قتلى المغل ستة آلاف وسبعمائة وسبعين وضاع الحساب . ثم رحل [السلطان] بعد يومين" .

ودخل السلطان إلى الدربنــد فى رابع ذى الحجة، وأصاب الناس فيــه مشقّة (١٦٣ ا) عظيمة؛ ونزل بحارم فى سادسه وعيّد هناك. فورد كتاب الأمير شمس الدين محمد بن قرمان أمير التركمان، يتضمّن أنه جمع التركمان وحضر فى عشرين ألف فارس وثلاثين ألف راجل مُتَرْكَشــة[1] للخدمة، فوجد السلطان قد عاد؛ وحضر أيضا أمراء بنى كلاب، ووفود التركمان. [ثم رحل السلطان[2] طالبا دمشق].

وقدم الملك أبغا بن هولاكو بالتتار لمحاربة السلطان، فوافاه البرواناه [فى الطريق]. و[كان] السلطان قد[3] رحل فتبعه [أبغا]، وسار إلى الأبلستين حتى عاين القتلى بالمعركة، وليس فيهم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل، مع كثرة رمم التتار[4] التى هناك، فشقّ عليه ذلك. وكان قد وُشى إليه بالبرواناه أنه هو الذى كاتب الملك الظاهر حتى أقدمه إلى بلاد الروم، فحنق لقلة عدد قتلى الروم. وعاد [أبغا] إلى قيسارية، فنهبها وقتل من ببلاد الروم من المسلمين. وأغار التتار مسيرة سبعة أيام، فيقال إنه قتل من الفقهاء والقضاة والرعايا ما يزيد على مائتى ألف نفس، ولم يقتل أحد من النصارى. وشمل القتل من أرزن الروم إلى قيسارية، فيقال إن عدة القتلى كانت خمسمائة ألف. ثم سار أبغا ومعــه السلطان غياث الدين[5] صاحب الروم، ووكل بالبرواناه من يحفظه. وسار السلطان [بيبرس] من حارم إلى أنطاكية، ونزل بمروجها.

ومات فى[6] [هذه السنة] من الأعيان الأمير عز الدين إيغان المعروف بسم الموت، أحد أمراء مصر، وهو بقلعة الجبل مسجونا، فدفن خارج باب النصر. وفيها هلك الصاحب تاج الدين

---

(١) الجنــود المتركشة هى التى تكون حاملة تركاشها ، والتركاش جعبة النشاب ، ويقابله فى الفرنســية لفظ (carquois)، ويجمع على تراكيش ، وهو معرب من كلمة تركش الفارسية . (Dozy : Supp. Dict. Ar.) .

(٢) أضيف ما بين القوسين، وما يليه من الإضافات الفقرة التالية، من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٦٩، وما بعدها) . (٣) فى س "وقد رحل السلطان فتبعه وسار الى الابلستين ... ..." .

(٤) عبارة س كالآتى : "وسار الى الابلستين حتى عاين القتــلى بالمعركة وليس فيهــم من الروم ولا من عساكر السلطان إلا القليل فشق ذلك عليه مع كثرة رمم التتار التى هناك ... ..." .

(٥) فوق هذا اللفظ إشارة الى سقطة أراد المقريزى إثباتها بهامش الصفحة فى س ، ثم أغفل ذلك أو نسيه .

(٦) فى س "فيها" .

ابن حنا، وكان بمكة غلاء عظيم . وتوفى[١] شمس الدين أبو عبد الله محمد بن [عبد[٢] الوهاب بن] منصور الحرّانى الحنفى بدمشق ، بعد ما أقام بالقاهرة حينا ؛ و[كان قد] ولى قضاء بعض الأعمال . وتوفى بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد ابن القُوَيرة[٣]، الحنفى الفقيه الأديب، عن نحو أربعين سنة بدمشق . وتوفى فخر الدين أبو الوليد محمد بن سعيد بن محمد بن هشام بن عبد الحق الكنانى الشاطبى، الحنفى النحوى الأديب ، عن ستين سنة بدمشق . وتوفى قطب الدين أبو المعالى أحمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبى سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن المطهر بن أبى عُصْرون[٤] التميمى الموصلى الشافعى، عن ثلاث وثمانين سنة بحلب . وتوفى الأديب شهاب الدين أبو المكارم محمد بن يوسف بن مسعود بن بركة الشيبانى التَّلَّعْفَرِى[٥]، عن اثنتين وثمانين سنة بحماة . ومات الشيخ أبو العباس خضر بن أبى بكر بن موسى المهرانى العَدَوى[٦] الكردى ، فى محبسه بقلعة الجبل، فى يوم الخميس سادس المحرم عن نيف وخمسين سنة ، ودفن بزاويته خارج باب الفتوح . ومات متملك تونس أبو عبد الله محمد المستنصر بن السعيد أبى زكريا يحى بن عبد الواحد بن

---

(١) الوفيات التالية واردة فى س على ورقة منفصلة بين الصفحتين ١٦٢ ب ، ١٦٣ أ ، وهى واردة فى ب (١٩٢ ب) كما هنا ، ولا شك فى مناسبتها لهذه السنة . (انظر ابن العماد : شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٤٥ — ٣٤٩ ؛ النويرى : نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ٧٣) .

(٢) موضع ما بين القوسين ألفاظ ممحوة فى س ، وقد أضيفت من ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥ ، ص ٣٤٨) .

(٣) مضبوط هكذا فى س .

(٤) مضبوط هكذا فى س .

(٥) فى س "اللعفرى، والنسبة الى تل يعفر المعروف أيضا باسم تل أعفر ، وهو اسم قلعة وربض بين سنجار والموصل . وتل أعفر أيضا لبلدة بين حصن مسلمة بن عبد الملك والرقة ، من نواحى الجزيرة . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦٣ — ٨٦٤، ٨٧٣) .

(٦) مضبوط هكذا فى س ، ويوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١ ، وما بعدها) تحت سنة ٦٧٦ هـ، ترجمة طويلة لهذا الشيخ . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨ ، ص ١١٩ — ١٢١)، حيث ذكرت هذه الوفاة تحت سنة ٦٧٦ هـ أيضا .

أبي حفص، فى عاشر ذى الحجة، فكانت مدّته ثمانيا وعشرين سنة وخمسة أشهر وعشرة أيام؛ وبويع بعده ابنه أبو زكريا يحيى الواثق (١) .

* * *

سنة ست وسبعين وستمائة . فى خامس المحرّم دخل السلطان من أنطاكية إلى دمشق بعساكره، ونزل بالقصر الأبلق . فكثرت الأخبار بقدوم أبغا إلى الأبلستين وأنه يريد بلاد الشام، فضرب الدهليز على القصر ليخرج السلطان إلى لقائه، فورد الخبر برجوع أبغا إلى بلاده فردّ الدهليز إلى دمشق .

ولما كان فى يوم الخميس رابع عشره جلس السلطان لشرب القمزّ ، وقد عظم سروره وفرحه وتناهى سعده، فأكثر من الشرب . وانقضى المجلس فتوعّك بدنه، وأصبح يشكو فتقيّا، وركب بعد الصلاة إلى الميدان، ثم عاد إلى القصر الأبلق آخر النهار وبات فيه . فلما أصبح وهو يشكو حرارة فى باطنه، استعمل دواء [لم يكن عن رأى طبيب] (٢)، فلم ينجع وتزايد ألمه . فاستدعى الأطباء ، فأنكروا استعماله الدواء، واتفقوا على أخذ مسهل وسقوه فلم يفد، فحرّكوه بدواء آخر فأفرط به الإسهال ، وتضاعفت الحمى ورمى دما (٣) يقال إنه كبده ، فعولج بجواهر ومات .

وقال الشيخ قطب الدين (١٦٣ ب) اليونيني فى تاريخه : إن الظاهر كان مولعا بعلم النجوم، فقيل له إنه يموت بدمشق فى سنة ست وسبعين هذه ملك بالسمّ، فاهتمّ من ذلك . ويقال إنه كان فيه حسد ، فلما دخل معه إلى بلاد الروم الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ابن الملك المعظم عيسى بن العادل أبى بكر بن أيوب، أبلى فى المصاف بلاء عظيما أنكى (٤) به العدو،

---

(١) أورد ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٤٥ — ٣٤٦) تحت هذه السنة وفاة الشيخ السيد أحمد البدوى المشهور، صاحب المزار الكبير بمدينة طنطا الحالية .

(٢) أضيف ما بين القوسين من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٧٧) .

(٣) دال هذا اللفظ محجوبة بورقة ملصقة فوقها فى س، وهو كامل فى ب (١٩٣ أ) .

(٤) فى س "انكى" .

وتعجّب الناس لعظم شجاعته ؛ فأثّر ذلك عنـد السلطان . واتّفق أن السلطان كان منه ذلك اليوم فتور، وظهر عليه الخوف والندم على ما فعله من توريط نفسه وعساكره ببلاد الروم، فأنكر عليه الملك القاهر وقبّح فعله ، فأسرّ له [السلطان] ذلك الى أن قدم دمشق . فسمع [السلطان] الناس تلهج بمـا فعله الملك القاهر فى وقت المصاف ، فاشتدّ حنقـه وأخذ يتحيّل فى سمه ، ليصحّ فيه ما دلّت عليه النجوم من موت ملك بالشام ، فإنه يطلق عليـه اسم ملك . فعمل دعوة لشرب القمزّ حضرها الملك القاهر، وقد أعدّ السلطان سمّا من غير أن يشعر به أحد . وكان له ثلاث هنّابات تختص به مع ثلاثة سـقاة لا يشرب فيها غيره ، أو من يكرمه فيناوله أحدها بيده . فلمـا قام الملك القاهر لقضاء حاجته ، جعـل السلطان السمّ الذى أعدّه فى هنّاب وأمسكه بيده، فلما عاد الملك القاهر ناوله إياه، فقبّل الأرض وشرب جميع مافيه. وقام السلطان لقضاء الحاجة ، فأخذ الساقى الهناب من يد الملك القاهر ، وملأه على العـادة من غير أن يشعر بما عمله السلطان من السم فيه ، وأمسكه بيده ووقف مع السقاة . فلما عاد السلطان من الخلاء تناول ذلك الهناب بعينه، وشرب مافيه وهو لايعلم أنه الهناب المسموم. فعندما شربه أحس بالتغيّر، وعلم أنه قـد شرب بقايا السم الذى كان فى الهناب ، فتقيّأ فلم يفد، وما زال به حتى مات .

وذكر [ركن الدين] بيبرس [المنصورى المؤرخ](١) إن القمـر خسف جميـع جرمه ، ودلّ على موت رجل جليل القدر . فلمـا بلغ الملك الظاهر هذا خاف، وقصـد صَرْف ذلك إلى غيره، فسمّ الملك القاهر فى كأس قمزّ . وأحسّ [الملك القـاهر] بالشر فقام ، وغلط السـاقى فملأ الكأس وسقاه السلطان، فأحسّ بالنيران وأقام أياما يشكو ولا يُعْلم الأطباء، حتى تمكّن منه ومات .

وكانت وفاته يوم الخميس سابع عشرى المحرم بعد الزوال، فكانت مدّة مرضه ثلاثة عشر يوما ؛ وقد تجاوز الخمسين سـنة ، ومدّة ملكه سبع عشرة سـنة وشهران واثنا عشر يوما(٢) .

(١) أضيف ما بين الأقواس من (Enc. Isl. Art. Baibars al-Manṣūri)، و بيبرس هذا مؤلف كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، وكتاب التحفة الملوكية أيضا .

(٢) فى س " شهرين واثنى " .

وكان قفجاق الأصــل، طويل القامة أسمر اللون، فى عينيه زرقة وبإحدى عينيه نقطة صغيرة، صوته جهوريا، وكان شجاعا عسوفا عجولا. [وكان قد] حضر من البلاد[1] مع تاجر إلى حماة ومعه مملوك آخر، فلما عرضا على الملك المنصور محمــد صاحب حماة لم يعجبه[2]. وأبيع بدمشق بثمانمــائة درهم، فردّه مشــتريه لبياض فى إحدى عينيه، فاشــتراه الأمير علاء الدين (١٦٤ ا) أيدكين البندقــدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو بحماة معتقل بهــا، وأقام فى خدمته مدّة. ثم أخذه منه الملك الصالح، فترقّى فى الخدم، وتنقّلت به الأحوال إلى ملك مصر والشام.

وكانت الأمراء تخافه مخافة شــديدة، حتى إنه لمــا مرض لم يدخل أحد منهم عليه إلا بإذن. وكان مقداما خفيف الركاب طول أيامه، يسير على الهجن وخيول البريد لكشف القلاع والنظر فى الممــالك؛ فركب للعب الكرة فى الأســبوع يومين بمصر ويوما بدمشــق، وفى ذلك يقول سيف الدولة المَهْمَنْدار[3] من أبيات يمدحه بها :

---

(١) انظر ص ٥٧٤، سطر ٧، وحاشية ١.

(٢) أورد ابن واصل (مفرج الكروب، ص ٤٠٤ ب) فى هذا الصدد قصة ظريفة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس، وقد تلاها بما حدث لبيبرس بعد ذلك بتفصيل، ونصها مصححا : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك فى سن الصبا، وكان [من] عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر وتراه (كذا) الصاحبة والدته، ومن أشارت بابتياعه أخذ. وكان الملك المنصور لمــا بلغه وصول الملك الظاهر وهو مع التاجر تقدّم بإحضاره، فأحضر ومعه خشداش له. وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة، فلما استأذنها السلطان ولدها فى شرائهما قالت له خذ المملوك الأبيض، والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة — يعنى الملك الظاهر — فإن عينيه فيهما الشر لائح؛ فردّهما جميعا على التاجر، فسرّها ذلك. وبلغ الأمير علاء الدين البنــدقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا، فطلبهما الى عنده، فلما رآهما صلحا له، فاشــتراهما وهو فى الاعتقال الى أن أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب أستاذه عنــه، وتوجه بهما الى مصر فأخذهما الملك الصالح منه ...".

(٣) شرح القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٩) هذه الوظيفة فقال، إن صاحبها "هو الذى يتصدّى لتلقى الرســل والعربان الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة ويتحــدّث فى القيــام بأمرهم. وهو مركب من لفظين فارسيين، أحدهما مهمن بفتح الميمين ومعناه الضيف، والثانى دار ومعناه ممسك ...، ويكون بمعناه ممسك الضيف، والمراد المتصدّى لأمره".

يوما بمصرٍ ويوما بالحجاز وبالشّام* يوما ويوما فى قرى[(١)] حلب

وكانت عدّة عسكره اثنى عشر ألفا، ثلثها بمصر وثلثها بدمشق وثلثها بحلب . و[كان] هؤلاء خاصته، فإذا غزا خرج معه أربعة آلاف يقال لهم جيش الزحف، فإن احتاج استدعى أربعة أخرى، فإن اشتدّ به الأمر استدعى الأربعة آلاف الثالثة . وافتتح من البلاد قيسارية وأرسوف وهدمها، وفتح صفد وعمرها، وفتح طبرية ويافا والشقيف وأنطاكية وخربها . و[استولى على] بغراس والقُصَير وحصن الأكراد والقُرين وحصن عكّار وصافيتا ومرقية وحلبا، وناصَفَ الفرنج على المرقب وبانياس وأنطرسوس، وأَخَذَ من متملك سيس دربساك ودركوش وتلميش[(٢)] وكفردنين ورعبان ومرزبان . ومَلَكَ دمشق وعجلون وبصرى، وصرخد والّصلت وحمص، وتدمر والرحبة وتل باشر، وصهيون وبلاطنس، وقلعة الكهف والقدموس والمينقة والعليقة والخوابى والرصافة ومصياف، والكرك والشوبك، وبلاد حلب وشيزر والبيرة، وبلاد النوبة وبرقة، وسائر إقليم مصر والشام . ومَلَكَ قيسارية من بلاد الروم . وقد قال فيه بعض الأدباء :

تدبّر الملك من مصرٍ إلى يمنٍ * إلى العراق وأرض الروم والنوبى

وله عدة أوقاف بمصر : منها وقف الطرحاء لتغسيل فقراء المسلمين وتكفينهم ودفنهم، وهو من أكثر الأوقاف نفعا . ومنها تربة الظاهر بالقرافة، والمدرسة الظاهرية بخط بين القصرين من القاهرة، والجامع الظاهرى خارج باب الفتوح من القاهرة . وعمر [السلطان بيبرس] الجسر[(٣)] الذى يسلك عليه إلى دمياط، وأنشأ عليه ست عشرة قنطرة، وعمر قنطرة بحر

(١) هذا البيت وارد فى س كالآتى، بدون فاصلة : "يوما بمصر ويوما بالحجاز ويوما بالشام ويوما فى قرى حلب".

(٢) كذا فى س .

(٣) الجسر هنا الطريق المبنى على حافة النهر أو الترعة، لحفظ المياه وضبطها لأغراض الرى، ولوقاية البلاد المجاورة من الفيضان، وفى (Quatremère : Op Cit. I. 2. p. 142. n. 187) أمثلة كثيرة للدلالة على هذا المعنى، ومنها : "الجسور الممتدة التى يصرف عليها إذا عملت كما ينبغى ربع الخراج، ليحفظ عند ذلك ماء النيل حتى ينتهى رىّ كل مكان الى الحد المحتاج اليه ... " . وكانت الجسور فى مصر زمن المماليك على نوعين، سلطانية وبلدية : فالجسور السلطانية هى الجسور العامة الجامعة للبلاد الكثيرة، وكانت تعمر فى كل سنة من الديوان السلطانى =

أبى المنجا، وهى أجلّ قناطر أرض مصر . وعمل قناطر السباع بين القاهرة ومصر على الخليج الكبير، وحفر خليج الإسكندرية وبحر طناح وبحر الصماصم بالقليوبية، وحفر خليج سردوس (١)؛ وأصلح بحر دمياط وردم فمه بالصخور .

ومن غريب (١٦٤ ب) أمره أنه أوّل ما فتح من البلاد قيسارية من بلاد الساحل، وآخر ما فتح مدينـة قيسارية من بلاد الروم . وأول جلوسه على مرتبة الملك يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة، وآخر جلوسه على تخت الملك بسلطنة آل سلجوق فى قيسارية الروم يوم الجمعة سابع عشرى ذى القعدة . وأوّل من بنى مدينة أنطاكية اسمه بالعربية الملك الظاهر، والذى أخربهـا الملك الظاهر . وأوّل من قام بدولة الترك السلجوقية ركن الدين طغرلبك، والملك الظاهر ركن الدين بيبرس هو القائم فى الحقيقة بدولة الترك من يوم وقعة المنصورة . وركن الدين طغرلبك هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة البساسيرى، وركن الدين بيبرس هو الذى ردّ الخلافة على بنى العباس فى نوبة هولاكو . والخطبـة بديار مصر كانت بعد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى للظاهر لإعزاز دين الله، وكذا وقع [له، فقـد] كانت الخطبة بعد الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى للملك الظاهر بيبرس .

وكان راتب مخازنه (٢) وعليقه، لخاصة نفسه ومماليكه، فى كل سنة مائة ألف وعشرين ألف أردب . وكان يطعم فى كل ليلة من ليالى شهر رمضان خمسـة آلاف نفس، ويكسو (٣) فى كل

= بالوجهين القبلى والبحرى . وكان للجسور السلطانية فى كل عمل من أعمال مصر كاشف يرسل لعمارتها كل سـنة، ويعبر عنه بكاشف الجسور، وفى خدمته خولة ومهندسون لذلك الغرض . أما الجسور البلدية فهى الخاصة ببلد دون بلد، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد من الأمراء والأجناد وغيرهم، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعاتهم . راجع (القلقشندى : صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٤٨ — ٤٥٠ ؛ المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ١٦٥ — ١٧٢) .

(١) بغير ضبط فى س، وهو أحد فروع النيـل، ومخرجه من سردوس بين باسوس وقليوب، وكان يروى كثيرا من أراضى الشرقية . (P. Omar Toussoun : Anc. Branches Du Nil. pp. 72-76, et Pl. III.). انظر أيضا (المقريزى : المواعظ والاعتبار، ج ١، ص ٧) .

(٢) العبارة التالية الى حاشية رقم ٢ بالصفحة التالية واردة بهامش الصفحة فى س، وهى ليست فى ب (١٩٤ أ) أو فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 153) .

(٣) فى س "يسكو" .

سـنة ستمائة كسوة خارجا عما يطلقه[1] من يده من الكساوى ، وكان له من الخبز ألفا قنطار وخمسمائة فى كل [يوم][2] . إلا أنه كان كثير المصادرات للدواوين ، كثير الجباية للأموال من الرعية . وأحدث وزيره ابن حنا فى أيامه حوادث جليلة ، وقاس أملاك الناس بمصر والقاهرة ، وصادر أرباب الأموال حتى هلك كثير منهـم تحت العقوبة ؛ وأخذ جوالى الذمة مضاعفة ، وأمر بإحراقهم كلهم ، وجمع لهم الأحطاب وحفر لهم حفرة عظيمة قـدام دار النيابة بقلعـة الجبل ، ثم عفى عنهم وقرر عليهم أموالا أخذت منهم بالمقارع ، ومات أكثرهم فى العقوبة . ولما توجه [السلطان بيبرس] إلى بلاد الروم كلف أهل دمشق جباية مال لإقامة الخيـل ، وفرض عليهم ألف ألف درهم نقرة تجبى من المدينة ومن الضياع .

ولم يل الوزارة له سوى الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن حنا[3] ؛ وقضاته بمصر قاضى القضاة تاج الدين عبـد الوهاب ابن بنت الأعز الى أن أحدث القضاة الأربعـة ، واستمر ذلك من بعده . ورؤى [السلطان بيبرس] بعد موته فى النوم ، فقيل له : "ما فعل الله بك؟" فقال : "ما رأيت شيئا أشد علىّ من ولاة قضاة أربعة[4] ، وقيل لى فرّقت الكلمة" . و [كان] كل من ولاه [بيبرس] فى مملكة أو عمل أبقاه ، ولم يغـير عليه ولا عزله . وتزوج [بيبرس] من النساء — وهو ببلاد غزة ، قبـل أن يلى الملك — امرأة من طائفـة الشهرزورية ، ثم طلقها بالقاهرة . وتزوج ابنـة حسام الدين بركه خان بن دولة خان التترى[5] ، وابنـة الأمير سيف الدين نوكلى التترى ، وابنـة الأمير سيف الدين كراى بن تماجى التترى ، وابنـة الأمير

---

(١) فى ص "يطلمه" .

(٢) انظر حاشية ٢ بالصفحة السابقة .

(٣) عبارة النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) فى هذا الصدد كالآتى : "ووزراؤه الصاحب زين الدين ابن الزبير مدة يسيرة ، ثم استوزر بعده الصاحب بهاء الدين على بن محمد المعروف بابن حنا ..." .

(٤) فى ص "اربع" .

(٥) سيلاحظ القارئ أن المقريزى سمى هـذا الأمير فيما يلى بالصفحة التالية (سطر ٣) الخوارزمى بدل التترى ، وهذه التسمية باسم الخوارزمى واردة أيضا فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السـديد ، ص ٢٩١) ؛ والنويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) .

سيف الدين ...[1] التترى . وولد [له] من الأولاد (١٦٥ ا) عشرة : الذكور منهم ثلاثة — وهم الملك السعيد ناصر الدين محمــد بركه قان ، ووُلد فى صفر سنة ثمــان وخمسين وستمائة بمنزلة العُشّ[2] ، من بنت حسام الدين بركه خان الخوارزمى؛ والملك العــادل بدر الدين سلامش ؛ والملك المسعود نجم الدين خضر — ، والإناث سبع .

ولمــا مات [السلطان بيبرس] كتم الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة موته عن العسا كر ، وحَمَله فى محفــة من القصر الأبلق خارج دمشق إلى القلعة[4] فى الليل ، وجعله فى تابوت وعلّقه فى بيت، وأشــاع أنه مريض ورتّب الأطباء على العادة . ثم أخذ العسا كر والخزائن ، ومعه محفة محمولة وأوهم أن السلطان فيهــا مريض ؛ وخرج من دمشق يريد مصر، فلم يجسر أحد أن يتفوه بموت السلطان . واستمر الحال على ذلك حتى وصلت العسا كر الى القاهرة ، وصعدت الخزائن والمحفة إلى قلعة الجبل ، فأشيع حينئذ موته . و بالجملة فلقد كان من خير ملوك الإسلام[5] .

السلطان الملك السعيد ناصر الدين

محمد بركه قان بن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لمــا مات الملك الظاهر بدمشق ، كتب الأمير بدر الدين بيليك الخازندار إلى الملك السعيد وهو

(١) بياض فى س ، واسم هــذا الأمير فى النويرى (نفس المرجع والجزء والصفحة) " الأمير سيف الدين عماجى (كذا) التتارى " .

(٢) بغير ضبط فى س ، ومنزلة العش من ضواحى القاهرة . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٩١) .

(٣) انظر ص ٦٤٠ ، سطر ١٥ ، وحاشية ٥ .

(٤) المقصود هنا قلعة دمشق . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١١٦) .

(٥) يوجد فى ابن واصل (مفرج الكروب ، ص ٤٤٠ أ) جزء من وصية أرسلها السلطان بيبرس إلى ابنه الملك السعيد ، ونصها : " ولمــا أحس [الملك الظاهر] بالموت رحمــه الله كتب تذكرة إلى ولده الملك السعيد وهو بمصر ، ومن جملتها : إنك صبى ، وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبى . فمن بلغك عنه ما يشوّش عليك ملكك ، وتحققت ذلك عنه ، فاضرب عنقه فى وقتــه ولا تعتقله ، ولا تستشر (فى الأصل تستشير) أحدا فى هذا ؛ وافعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصلحتك .

بقلعة الجبل كتابا بموت أبيه . فأظهر [الملك السعيد] عند ورود الكتاب فرحا كبيرا ، وأخلع على من أحضره ، وأشاع أن الكتاب يتضمّن البشارة بعود الملك الظاهر إلى ديار مصر . وأصبح فركب الأمراء على العادة تحت القلعة ، من غير أن يظهر عليهم شيء من الحزن .

وسار الأمير بيليك بالمحفة والأطلاب ، حتى قدم إلى القاهرة يوم الخميس سادس عشرى صفر وهو تحت السناجق الظاهرية ، وصعد قلعة الجبل . وجلس الملك السعيد بالإيوان ، وسلّم إليه الأمير بيليك الخزائن والعساكر ووقف بين يديه ، فصاح الحجاب حينئذ : "يا أمراء ! ترحّموا على السلطان الملك الظاهر" . فارتفع الضجيج والعويل ، ووقع الأمراء إلى الأرض يقبّلونها للملك السعيد . فجددت الأيمان ، وحلف له سائر العسكر والقضاة والمدرسين والأعيان ، وتولى تحليفهم الأمير [بدر الدين] بيليك [الخازندار] بحضرة القضاة . فأقرّ الملك السعيد الأمير بدر الدين بيليك على نيابة السلطنة (1) ، وأقرّ الصاحب بهاء الدين بن حنا على وزارته ، وخلع عليهما وعلى الأمراء والمقدمين والقضاة وأرباب الوظائف .

---

(١) يوجد فى القلقشندى (صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ ، وما بعدها) فى باب الوظائف السلطانية الكبرى ، وصف لاختصاص نيابة السلطنة ، ونصه : "ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية ... وهو يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم فى التقاليد والتواقيع والمناشير ، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان ... ، (١٧) وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ، ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان . و[لنائب السلطنة] أن يستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقلّ ألا يجاب فيما يعينه . وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثانى ، وعادته أن يركب بالعسكر فى أيام المواكب ، وينزل الجميع فى خدمته . فإذا مثل فى حضرة السلطان وقف فى ركن الإيوان ، فإذا انقضت الخدمة خرج الى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويجلس جلوسا عاما للناس ، ويحضره أرباب الوظائف ، ويقف قدامه الحجاب ، وتقرأ عليه القصص ؛ ثم يمد السماط للأمراء كما يمد لهم السلطان ، فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدّى لقراءة القصص وسماع الشكاوى بنفسه ، ويأمر فى ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ؛ ولكنه لايستبدّ بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه ، بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك . أما ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ، ولا اجتماع لهم بالسلطان فى أمر من الأمور . و[أما] ما كان من الأمور المعضلة التى لا بدّ من إحاطة علم السلطان بها ، فإنه يعلمه بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله اليه . غير أن هذا النائب تارة ينصب ، وتارة يعطل جيد المملكة منه ... ، وإذا كان منتصبا اختص بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له ، وناظر الجيش ملازم للسلطان" . انظر أيضا (نفس المرجع ، ج ٥ ، ص ٤٥٣ — ٤٥٤ ؛ G.-Demombynes : La Syrie. Introd. p. LV et seq) .

وفى يوم الجمعة سابع عشريه (١٦٥ ب) دعا الخطباء على منابر الجوامع بمصر والقاهرة للملك السعيد، وصُلّى بها على الملك الظاهر صلاة الغائب . وخرج البريد إلى دمشق بموت الملك الظاهر، وتحليف العساكر للملك السعيد لحلفوا .

وفى يوم الأربعاء سادس عشر ربيع الأول ركب الملك السعيد بالعصائب على عادة أبيه، ومعه الأمراء والأعيان وعليهم الخلع ، وسيّر إلى تحت الجبل الأحمر ، وعاد إلى القلعة من غير أن يشقّ القاهرة؛ وكان يوما مشهودا .

وفى سادس ربيع الآخر مات الأمير بدر الدين بيليك النائب، واتُّهم أن الملك السعيد سمّه — وذلك أنه اختص بجماعة من المماليك الأحداث[1] ، فأوهموه من الأمير بيليك، وكانت جنازته حفلة[2] ؛ ومن بعده اضطربت أمور الملك السعيد . وأقام [الملك السعيد] بعده فى نيابة السلطنة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى، وكان حازما ، فضمّ إليه جماعة : منهم شمس الدين أقوش، وقطليجا الرومى، وسيف الدين قلج البغدادى ، وسيف الدين بيجو[3]

(١) وضع هـذا اللفظ يحتمل معنيين، وكلاهما فى (Dozy : Supp. Dict. Ar.) ، أحدهما حديثو العمر أو العهد بالخدمة (jeunes gens) ، والآخر الأراذل والسفلة (la canaille)، والمعنى الأول هو المقصود هنا . انظر ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٩٩)، حيث يقول إن الأمور كانت مفسودة فى عهد الملك السعيد "بحكم الصبيان الجهلة من الخاسكية (كذا)" .

(٢) يوجد فى ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٢٨٩ — ٢٩٠) تفصيلات كثيرة عن وفاة الأمير بدر الدين ، ونصها : "دخل [الأمير بدر الدين] الى الستارة عند والدة الملك السعيد، على أنه يعزيها بالسلطان ويهنئها بالملك السعيد ، فشكرت له فعله ودعت له ، وأخرجت له هنابا مملوءا سكرا وليمونا وحلفت عليه أن يشرب بعدها ، وأوهمت أنها شربت منه . فشرب جرعتين لاغير، وفى الثالثة من كثرة ما لجوا عليه تخيل ودفعه من يده، وكانت القاضية فيه . فتوجه إلى داره، فتوعك وحصل له تقطع المعاء (كذا)، وادّعى أنه قولنج . وكان طبيبه عماد الدين ابن النابلسى ، فسيروا إليه ثلاثة آلاف دينار ، وقالوا له خذ هذه وساعدنا فى هلاكه ، ولا تعرّفه أنه مسق . فأخذ الذهب (٢٩٠) وتغافل عنه ، ووصف له ما يقوّى سقيته فمات" . انظر أيضا النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٧ — ١١٨) حيث ذكرت هذه القصة ، يتلوها ترجمة قصيرة لهذا الأمير .

(٣) فى س "بجوا" وهو مترجم الى (Nadgou) فى (Quatremère: Op. Cit. I. 2. p. 158) .

البغـدادى ، وعز الدين ميغان(١) أمير شكار(٢) ، وسيف الدين بكتمر السـلاح دار . فثقل(٣) [الأمير آقسـنقر] على خاصكية(٤) السلطان ، وحدثوا السـلطان فى أمره ، واسـتعانوا بالأمير سيف الدين كُونُدُك(٥) الساقى — وكان الملك السـعيد قد قدمه وعظمه ، لأنه ربى معـه فى المكتب . فقبض على آقسنقر وهو جالس فى باب القُلَّة(٦) ، وسجن وأهين ونتفت لحيتـه وضرب ، ثم أخرج بعد أيام يسيرة وهو ميت . فاستقر بعده فى النيابة الأمير شمس الدين سنقر الألفى المظفرى ، فكرهه الخاصكية وقالوا : "هـذا ما هو من الظاهرية" ، وخيـلوا الملك السـعيد منه أنه يريد أن يثور بخشداشيته ممـاليك الملك المظفر قطز ، فعزله سريعا . وولى

(١) كذا فى س ، وهو مترجم فى (Quatremére : Op. Cit. I. 2. p. 158) إلى (Igan) .

(٢) يحدث صاحب هـذه الوظيفة على الجوارح السلطانيـة من الطيور وغيرها ، وعلى سائر أمور الصيد ؛ وشكار لفظ فارسى معناه الصيد ، فيكون المراد أمير الصيد . وهناك وظيفة أخرى متعلقة بالصيد وهى حراسة الطير ، وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسـة الطيور فى الأماكن والمزارع التى ينزل بها السلطان للصيد . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٢ ؛ ج ٥ ، ص ٤٦١) .

(٣) فى س "فنقل" .

(٤) الخاصكية قسم من المماليك السلطانية ، يختارهم السلطان من الأجلاب الذين دخلوا خدمته صغارا ، ويجعلهم حرسه الخاص (G.- Demombynes : La Syrie. Introd. pp. XXXIII, L, XCIX) . هذا وقد أورد (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 158. n. 3) تعريفين للخاصكية ، وقد نقل أولهما من (ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٥ ، ومابعدها) ، ونصه : "الخاصكية هم الذين يلازمون السلطان فى خلواته ، ويسوقون المحمل الشريف ، ويتعينون بكوامل الكفال ، ويجهزون فى المهمات الشريفـة . و[هم] المتعينون للإمرة (١١٦) والمتقربون فى المملكة... ... ، ومنهم من هو صاحب وظيفة ، ومنهم من ليس له وظيفة... ..." . أما النص الثانى فقد نقله (Quatremère) من كتاب المقصد الرفيع المنشا الهـادى الى صناعة الانشا للخالدى ، ونصه : "وقد جعل ذلك [الاسم] علما عليهم ، لأنهم يحضرون على الملك فى أوقات خلواته وفراغه ، وينالون من ذلك مالا يناله أكابر المقدمين ، ويحضرون طرفى كل نهار فى خدمة القصر والإسطبل ، ويركبون لركوب الملك ليلا ونهارا ، ولا يتخلفون فى قرب ولا بعد . ويتميزون من غيرهم فى الخدمة بحملهم سـيوفهم ، ولباسهم الطرز الزركش . ويدخلون على الملك فى خلوته بغير إذن ، ويتوجهون فى المهمات الشريفة ، ويتأنقون فى مركوبهم وملبوسهم" .

(٥) ضبط هذا الاسم من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٢٩٩ ، حاشية ٢ ، من الترجمة الفرنسية) .

(٦) كان هذا الباب أحد أبواب الدور السلطانية بالقلعة ، وعرف بهذا الاسم "من أجل أنه كان هناك قلة (؟) بناها الملك الظاهر بيبرس" . (المقريزى : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٢) .

الأمير سيف الدين كوندك الساقى نيابة السلطنة — وهو شاب ، فعضّده الأمير سيف الدين قلاون الألفى ومال اليه .

وكان من جملة المماليك السلطانية الخاصكية شخص يعرف بلاجين الزينى ، وقد غلب على الملك السعيد فى سائر أحواله ، وضمّ إليه عدّة من الخاصكية . وأخذ [لاجين] لهم الإقطاعات والأموال الجزيلة ، وصار كلما انحلّ خُبْز[1] أخذه لمن يختار . وتنافر النائب [والمذكور][2]، فتوغّرت بينهما الصدور ، ودبّت بينهما عقارب الشرور، وأعمل كل منهما مكره فى أذية الآخر . وضمّ النائب إليه جماعة من الأمراء الكبار ، وصار العسكر حزبين، فآل الأمر إلى ما آل إليه من الفساد .

وتغيّر السلطان على الأمراء، وقبض فى سابع عشره على الأمير جودى القيمرى الكردى، فنفرت منه قلوب الأمراء لا سيما الصالحية : مثل الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير علم الدين سنجر الحلبى، والأمير بدر الدين بيسرى، وأقرانهم . فإنهم كانوا يأنفون من تملك الملك الظاهر عليهم ، ويرون أنهم أحق منه بالملك ، فصار ابنه الملك (١٦٦ ا) السعيد يضع من أقدارهم ، ويقدّم عليهم مماليك الأصاغر، ويخلو[3] بهم وكانوا صباح الوجوه، ويعطيهم مع ذلك الأموال الكثيرة، ويسمع من رأيهم ويبعد الأمراء الكبار .

[واستمر الحال على هذا] إلى أن كان يوم الجمعة خامس عشريه، [وفيه] قبض [السلطان] على الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسرى، وسجنهما بالقلعة ثلاثة وعشرين يوما . فزادت الوحشة بينه وبين الأمراء ، ودخل خاله الأمير بدر الدين محمد بن بركه خان إلى أخته أم السلطان ، وقال لها : "قد أساء ابنك التدبير بقبضه على مثل هؤلاء الأمراء الأكابر، والمصلحة أن تردّيه إلى الصواب، لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه" . فلما بلغ الملك

(١) تقدّم شرح المعنى الاصطلاحى لهذا اللفظ فى ص ٦٥، حاشية ١ .

(٢) ليس لهذا اللفظ وجود فى س، ولكنه فى ب (١٩٥ ب) .

(٣) فى س "يخلوا" .

السعيد ذلك قبض عليه واعتقله، فلم تزل به أمه تعنّفه وتتلطّف به، حتى أطلقهم وخلع عليهم وأعادهم إلى ما كانوا عليه؛ وقد تمكّنت عداوته من قلوبهم .

وتوهّم منه بقية الأمراء، وخشوا أن يعاملهم كما عامل الأمير بيليك الخازندار، مع حفظه له الملك وتسليم الخزائن والعساكر إليه، فلم يكافئه إلا بأن قتله بالسم . فاجتمع الأمراء وهمّوا أن يخرجوا عنه إلى بلاد الشام، ثم اتّفقوا وصعدوا كلهم إلى قلعة الجبل، ومعهم مماليكهم وألزامهم وأجنادهم وأتباعهم، ومن انضمّ إليهم من العساكر؛ فامتلأ منهم الإيوان ورحبة القصر . وبعثوا إلى الملك السعيد : "بأنك قد أفسدت الخواطر، وتعرّضت إلى أكابر الأمراء، فإما أن ترجع عما أنت عليه، وإلا كان لنا ولك شأن". فلاطفهم فى الجواب، وتنصّل مما كان منه، وبعث إليهم التشاريف فلم يلبسوها . وتردّدت الأجوبة بينهم وبينه إلى أن تقرر الصلح، وحلف لهم أنه لا يريد بهم سوءا، وتولى تحليفه الأمير بدر الدين الأيدمرى، فرضوا وانصرفوا .

وكتب [السلطان الملك السعيد] إلى دمشق أن يدفن الملك الظاهر داخل المدينة، فاشترى الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام دار العقيقى(1) داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بستين ألف درهم، وجعلها مدرسة وبنى بها قبة، وابتدأ بالعمارة فى يوم الأربعاء خامس جمادى الأولى، وفرغ منها فى آخر جمادى الآخرة . وخرج من القاهرة الأمير علم الدين سنجر المعروف بأبى خرص، والطواشى صفى الدين جوهر الهندى؛ وسارا الى دمشق فدخلا[ها] فى ثالث رجب . فلما كان فى ليلة الجمعة خامسه، حمل الملك الظاهر من قلعة دمشق ليلا على أعناق الرجال، ووضع فى جامع بنى أمية وصُلّى عليه، (١٦٦ ب) وحمل حتى دفن بالقبة من المدرسة التى بنيت له، بحضور نائب الشام . وألحده قاضى القضاة عز الدين محمد بن عبد القادر ابن عبد الخالق بن خليل بن مقلد أبو المفاخر المعروف بابن الصائغ؛ وترتب القراء من ثانى يوم .

(١) كذا فى س، وفى ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٠)، وهو وارد برسم "العفيفى" فى النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١١٦) .

ثم وقف عز الدين بن شـداد وكيل الملك السعيد هـذه المدرسة ، ووقف عليهـا قرية من شعرا بانياس[١] ، وغير ذلك .

وفى ثامن عشر ذى القعدة صرف قاضى القضاة محيى الدين عبـد الله بن عين الدولة عن قضاء مصر والوجه القبلى ، وأضيف الى قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رزين ؛ فكمل له قضاء القضاة بديار مصر . وأعيد قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان إلى قضاء دمشق فى سابع عشرى ذى الحجة ، فكانت مدة عزله سبع سنين .

وفيهـا ولى شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن شمس الدين أبى المعالى أحمد بن الخليل بن سعادة الخوَيّ[٢] قضاء القضاة الشافعية بحلب ، بعد وفاة تقى الدين محمد بن حياة الرّقى .

وفى هذه السنة عمّ ماء النيل أرض مصر كلها ، ورخص سـعر الغلة حتى أبيع الأردب القمح بخمسة دراهم ، والأردب الشعير بثلاثة دراهم ، والأردب من بقية الحبوب بدرهمين .

وفيها قتل الملك أبغـا البرواناه فى صفر ، واسمـه معين الدين سليمان بن على بن محمـد بن حسن ، ومعنى البرواناه الحاجب ؛ وكان شجاعا حازما كريما عارفا ، فيه دهاء ومكر[٣] .

(١) كذا فى س . (٢) بغير ضبط فى س ، والخوى اسم لعدة أماكن ، ومنها بلد من أعمال آذربيجان ينسب اليه الثياب الخوية . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٥٠٠ — ٥٠٣) .

(٣) يوجد بين الصحفتين ١٦٦ ب ، ١٦٧ أ فى س ، ورقة عليها ترجمة للبرواناه ، وقد جاء فى سياقها سبب قتل الملك أبغا له ، ونصها : " سليمان بن على بن محمد الصاحب معين الدين برواناه بن مهذب الدين . قدم أبوه من بلاد العجم الى الروم ، وعلّم أولاد مستوفى الروم القرآن . ثم ناب عنه واستقر مكانه فى أيام السـلطان علاء الدين ، فظهرت كفائته فاستوزره . ثم وزر من بعده لابنه غياث الدين حتى سـنة اثنتين وأربعين [وستمائة] ، فوثب من بعده ابنـه سليمان هذا فى وزارته ، وعظم شأنه الى أن استولى على ممالك الروم ، وصانع التتار . فعمرت البـلاد على يده ، وكاتب السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ؛ فلما دخل السلطان [بيبرس] بلاد الروم ، وواقع التتار وباد ، قدم الملك أبغـا فنسب البرواناه الى أنه هو الذى جسر السـلطان على ذلك . وبكت خواتين أبغـا وشقت ثيابهنّ بين يديه ، وقلن البرواناه هو الذى قتل رجالنا ولا بد من قتـله . فقتله أبغا أشنع قتلة ، فإنه قطع يديه ورجليه وهو حىّ ، وألقاه فى قدر وصلقه (كذا) ، وأكل المغل لحمه غيظا وحنقا ؛ وقتلوا معه من الروم عدّة خلائق ، وذلك فى سنة ست وسبعين وستمائة . وكان من دهاة العالم وشجعانهم ، له إقدام على الأهوال وخبرة بجمع الأموال " . انظر (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٢٧٣ ، وما بعدها ؛ Enc. Isl. Art. Mu'in al-din Sulaimān Parwāna) .

وفيها عزل نفسه قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز الحنفى من القضاء فى سلخ المحرم، فشغر منصب قضاء الحنفية بعده .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير بدر الدين بيليك الخازندار نائب السلطنة، فى سادس شهر ربيع الآخر ؛ وكان جوادا عارفا بالتاريخ جيّد الكتابة . وتوفى قاضى القضاة شمس الدين أبو بكر محمد بن عماد الدين أبى إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى الحنبلى وهو مصروف، فى يوم السبت ثانى عشرى المحرم ؛ ودفن بالقرافة، وله من العمر ثلاث وسبعون سنة . وتوفى قاضى القضاة بحلب تقىّ الدين أبو عبد الله محمد بن حياة ابن يحيى بن محمد الرّقى الشافعى بتبوك، وهو عائد من الحج . وتوفى الشيخ محيى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرى[1] بن الحسن بن الحسين بن جمعة بن حرام النّووى[2] الشافعى، عن نيف وأربعين سنة ، بقرية نَوَى . وتوفى الواعظ نجم الدين أبو الحسن على بن على بن أسفنديار البغدادى بدمشق، عن ستين سنة . وتوفى الشريف شهاب الدين أحمد بن أبى محمد الحسينى الواسطى العراقى، بالإسكندرية . وتوفى الشيخ نظام الدين أبو عمرو عثمان بن أبى القاسم عبد الرحمن بن رشيق المالكى . وتوفى أبو الحسن على بن عدلان بن حماد بن على الربعى الموصلى النحوى المترجم، بالقاهرة .

\+ + +

سنة سبع وسبعين وستّمائة . فى سابع عشرى المحرم عمل عزاء الملك الظاهر، عند تمام سنة من وفاته ، بالأندلس[3] من قرافة مصر. ومدّت هناك الأسمطة فى الخيام للقرّاء والفقهاء، وفرّقت الأطعمة على أهل الزوايا ؛ وكان من الأوقات العظيمة، لكثرة من اجتمع فيه من

(١) فى س "مرا" . انظر ابن العماد (شذرات الذهب، ج ٥، ص ٣٥٤) .

(٢) بغير ضبط فى س ، والنسبة الى نوى المذكورة بالسطر التالى . ونوى اسم لبلدتين، إحداهما من أعمال حوران وبينها وبين دمشق منزلان ؛ والأخرى قرية من قرى سمرقند على بعد ثلاثة فراسخ منها . (ياقوت : معجم البلدان، ج ٤، ص ٨١٥) .

(٣) كذا فى س .

الناس على اختلاف طبقاتهم . وعُمِـل مجمع آخر بجامع ابن طولون ، وفى الجامع الظاهرى ، والمدرسة الظاهرية ، والمدرسة الصالحية ، ودار الحديث الكاملية ، والخانقاه الصلاحية سعيد السعداء ، والجامع الحاكمى . وعمل للتكاررة[1] والفقراء خوان حَضَره كثير من أهل الخير .

وفى عاشر جمادى الأولى ولى قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وهيب الحنفى قضاء الحنفية بدمشق ، عوضا عن مجد الدين عبد الرحمن بن عمر بن العديم بحكم وفاته . فلما مات [صدر الدين] بعد أربعة أشهر ، ولى عوضا عنه فى تاسع عشرى رمضان حسام الدين حسن ابن أحمد بن حسن الرازى ، قاضى الروم الواصل من قيسارية .

وفى ... ...[2] شوّال خرج الملك السعيد من قلعة الجبـل يريد التفرج فى دمشـق ، ومعه أخوه نجم الدين خضر ، وأمه وأمراؤه وعساكره ؛ فدخل إلى دمشق فى خامس ذى الحجة .

وفى سلخ ذى القعدة مات الصاحب بهاء الدين على بن محمـد بن سليم بن حنا ، فكُتِب من دمشق بالحوطة على موجوده . وقبض الملك السعيد على الصاحب زين الدين أحمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين ، وأخذ خطّه بمـائة ألف دينار ، (١٦٧ أ) وسـيّره على البريد إلى مصر ، ليستخرج منه ومن أخيه تاج الدين محمـد وابن عمه عز الدين محمد بن أحمد بن على تكلة ثلاثمائة ألف دينار . واستقر فى الوزارة — عوضا [عن] الصاحب بهـاء الدين بن حنا — قاضى القضاة برهان الدين الخضر بن الحسن السنجارى ، وكان بينـه وبين ابن حنا عداوة ظاهرة وحقود كامنة ، فبلغ من التمكّن فى أولاده وأمواله ما كان يؤمّله . وساعده على ذلك عدّة من الأمراء : منهم عز الدين الأفرم ، و بدر الدين بيسرى ، لـمـا فى نفوسهم من بهاء الدين بن حنا . وولى وزارة الصحبة فخر الدين بن لقمان ، عوضا عن تاج الدين محمد بن حنا .

(١) التكاررة أهل بلاد التكرور ، وهى أحد الأقاليم الإفريقية الواقعــة فى الجهة الجنوبية الغربيــة من مصر ، وقاعدتهـا مدينة تكرور ، وأهلها أشبه الناس بالزنوج . (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٢٨٦ — ٢٨٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٨٦١) .

(٢) بياض فى س ، يسع ثلاث كلمات تقريبا .

وفى سادس عشرى ذى الحجة جلس الملك السعيد بدار العـدل فى دمشق ، وأسقط عن أهل الشام ما كان قد قرّره الملك الظاهر عند سفره إلى بلاد الروم على البساتين فى كل سنة. وفيـه أشار خاصكية السلطان عليـه بإبعاد الأمراء الأكابر عنه، فجهّز الأمير قلاون الألفى بعسكر ، وجهز الأمير بيسرى بعسكر ، وأنفق فيهـم الأموال . فساروا إلى جهـة سيس ، وفى نفوسهم من ذلك إحن .

وفيها ولى الأمير علاء الدين أيدغدى الكبكى(١) نيـابة حلب ، عوضا عن الأمير نور الدين على بن مجلى(٢) الهكارى(٣) . وفيها كثر الرخاء بمصر حتى أبيع ثلاثمائة أردب فولا بمبلغ تسعمائة درهم، انصرف منها حمولة ومكوس ، بحيث لم يتأخر منها غير خمسة وثمـانين درهما . وفيهـا مات عز الدين كيكاوس ملك الروم، بعد ما جرت له خطوب . فملّك أبغا بن هولاكو من بعـده ابنـه مسعود بن كيكاوس سيواس وأرزن الروم وأرْزَنْكَان(٤) . وفيهـا حصلت زحمة عظيمة بباب العمرة من المسجد الحرام بين الحجاج عنـد خروجهم إلى العمرة بعد صـلاة الصبح ، فمات منهم ستة وثلاثون إنسانا، وذلك فى ثالث عشر ذى الحجة .

ومات فى هذه السنة من الأعيان الأمير جمال الدين أقوش النجيبى الصالحى نائب الشام، فى خامس ربيع الأوّل بالقاهرة، عن نحو سبعين سـنة(٥) . ومات الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى الصالحى نائب السلطنة، عن نحو خمسين سـنة . ومات الأمير علاء الدين أيدكين الشهابى نائب حلب، وهو مصروف، عن نحو خمسين سـنة بدمشق . وتوفى قاضى القضاة

(١) كذا فى س ، وهو مترجم الى (Kelbi) فى (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 161) .

(٢) كذا فى س .

(٣) يلى هـذا فى س عبارة ذهب معظم كلماتها ، وأوّلها لفظ "وولى" وهو مشطوب، وكأن المقريزى تعمّد إزالة العبارة كلها .

(٤) بغير ضـبط فى س ، واسم هـذا البلد أرزنجان بالجيم ، وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف كما هنا ، وهى بلدة من أرمينية ، قريبة من أرزن الروم . (ياقوت : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢٠٥) .

(٥) تلى هذه الكلمة وفاة مشطوبة ، ونصها : "ومات الامير بدر الدين محمد بن بركة خان بن دوله خان الططرى الخوارزمى ، خال السلطان الملك السعيد" .

الحنفية بدمشـق مجد الدين أبو محمد عبـد الرحمن بن الصاحب كمال الدين عمر بن أحمـد بن هبة الله بن محمد بن هبـة الله بن أحمـد بن يحيى بن العديم، عن أربع وستين سـنة . ومات قاضى القضاة الحنفية بدمشق صدر الدين أبو الفضل سليمان بن أبى العز بن وهيب الأذرعى، بعد ثلاثة أشهر من ولايتـه ، عن ثلاث وثمانين سـنة . ومات الوزير الصاحب بهاء الدين أبو الحسن على بن محمد بن سليم بن حنـا، سلخ ذى القعدة . وتوفى مجد الدين أبو عبـد الله محمد بن أحمد بن عمر بن أبى شاكر بن الظهير الإربلى الحنفى، عن خمس وسبعين سنة بدمشق. وتوفى نجم الدين أبو المعالى محمد بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل الشيبانى الدمشقى الصوفى الأديب، عن أربع وسبعين سنة بدمشق . وتوفى الأديب جمال الدين طه بن إبراهيم ابن أبى بكر الهذبانى الإربلى، بالقاهرة . وتوفى الأديب موفق الدين أبو محمد عبد الله بن عمر ابن نصر الله الأنصارى البعلبكى، بالقاهرة[(1)] .

✦

سنة ثمـان وسبعين وستّمائة . فى المحرم قرّر الخاصكية مع الملك السـعيد القبض على الأمراء عنـد عودهم من سيس، وعيّنوا إقطاعاتهم لأناس منهـم ؛ وكان الأمير كوندك النائب مطّلع على ذلك[(2)] . واسـتغرق السلطان فى لذّاته، و بسط يده بعطـاء الأموال الكثيرة لخاصكيته، وخرج عن طريقة أبيه . وفى أثنـاء ذلك حدث بين الأمير كوندك النائب و بين الخاصكية منافرة ، بسبب أن السلطـان أطلق لبعض مماليكه ألف دينار فتوقّف النـائب

(١) فى هذه السنة كان مولد النويرى مؤلف كتاب نهاية الأرب المتداول فى هذه الحواشى ، وهو شهاب الدين أحمـد بن عبـد الوهاب بن محمد بن عبـد الدائم بن منجا (كذا) بن على بن طراد بن خطاب بن نصر بن إسماعيل ابن إبراهيم بن جعفر بن هلال بن الحسين بن ليث بن طلحة بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، وكان مولده بأخميم من صعيد مصر . انظر النويرى (نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ١٢٣) .

(٢) تقدمت الإشارة الى مكانة الأمير كوندك هذا عند السلطان الملك السعيد ، بسبب صداقتهما منذ الصغر (انظر ص ٦٤٤ سـطر ٣) ، وقد حفظ السلطان الملك السعيد للأمير كوندك هذه الصداقة أيام سلطنته ، فسمح له "أن يجلس بين يديه ، ولا يوقع لأحد إلا بقلمه وعلمه ، ومكنه تمكينا لم يكن لأحد قبله ؛ وكان [كوندك] ذكيا فطنا" . (ابن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٠) .

فى إطلاقها . فاجتمع الخاصكية عند النائب وفاوضوه فى أمر المبلغ ، وأسمعوه ما يكره وقاموا على حَرَد ، وتكلموا مع السلطان فى عزله عن النيابة فامتنع . وأخذ الخاصكية فى الإلحاح عليه بعزل كوندك ، وعجز عن تلافى أمرهم معه .

وأما الأمراء فإنهم غزوا سيس وقتلوا وسبوا ، وسار الأمير بيسرى إلى قلعة الروم ، وعاد هو والأمراء إلى دمشق ونزلوا بالمرج . فخرج الأمير كوندك إلى لقائهم على العادة ، وأخبرهم بما وقع من الخاصكية فى حقّهم وحقّه ، فحرّك قوله ما عندهم من كوامن الغضب . وتحالفوا على الاتفاق والتعاون ، و بعثوا من المرج إلى السلطان يعلمونه(1) أنهم مقيمون بالمرج ، وأن الأمير كوندك شكى إليهم من لاجين (١٦٧ ب) الزينى شكاوى كثيرة ، "ولابد لنا من الكشف عنها" ؛ وسألوا [السلطان] أن يحضر إليهم حتى يسمعوا كلامه وكلام كوندك .

فلما بلغ ذلك السلطان لم يعبأ بقولهم ، وكتب إلى من معهم من الأمراء الظاهرية يأمرهم بمفارقة الصالحية ودخول دمشق . فوقع القاصد الذى معه الكتب فى يد أصحاب كوندك ، فأحضر إلى الأمراء ووقفوا على الكتب التى معه ، فرحلوا من فورهم ونزلوا على الجسورة من جهة داريا . وأظهروا الخلاف ، ورموا الملك السعيد بأنه قد أسرف ، وأفرط فى سوء الرأى وأفسد التدبير .

فخاف [السلطان] عند ذلك سوء العاقبة ، و بعث إليهم الأمير سنقر الأشقر ، والأمير سنقر التكريتى الأستادار ، ليلطفا بهم و يعملا الحيلة فى إحضارهم ؛ فلم يوافقوا على ذلك . وعادا إلى السلطان فزاد قلقه ، وتردّدت الرسل بينه و بين الأمراء ، فاقترحوا عليه إبعاد الخاصكية ، فلم يوافق . و بعث [السلطان] بوالدته مع الأمير سنقر الأشقر لتسترضيهم ، فخذّتهم وخضعت لهم فما أفاد فيهم ذلك شيئا ، وعادت بالخيبة .

فرحل الأمراء بمن معهم من العساكر إلى مصر ، وتبعهم الملك السعيد ليلحقهم و يتلافى أمرهم فلم يدركهم ، فعاد إلى دمشق و بات بها . وأصبح [الملك السعيد] يجهز أمه وخزائنه

(1) فى س "يعلموه" .

إلى الكرك، وجمع من بقى من عساكر مصر والشام ، واستدعى العربان وأنفق فيهم، وسار من دمشق بالعساكر يريد مصر، فنزل بلبيس فى نصف ربيع الأول . و[كان] قد سبقه الأمير قلاون بمن معه إلى القاهرة، ونزلوا تحت الجبل الأحمر .

فبلغ ذلك الأمراء الذين بقلعة الجبل، وهم الأمير عز الدين أيبك الأفرم أمير جاندار، والأمير أقطوان الساقى، والأمير بلبان الزُّرَيْقِى (١) ؛ فامتنعوا بها وحصّنوها، وتقدّموا إلى متولّى القاهرة فسدّ أبوابها . فراسلهم قلاون والأمراء فى فتح أبواب القاهرة ، ليدخل العسكر إلى بيوتهم ويُبْصِروا أولادهم ، فإن عهدهم بَعُد بهم . ونزل الأمير لاجين البركخاى (٢) وأيبك الأفرم وأقطوان إلى الأمراء لمعرفة الخبر، فقبضوا عليهم وبعثوا إلى القاهرة ففتحت أبوابها، ودخل كل أحد الى داره . وسجن الثلاثة الأمراء فى دار الأمير قلاون بالقاهرة، وزحفوا إلى القلعة وحاصروها، وقد امتنع بها بلبان الزريقى (٣) .

وأما السلطان فإنه لما نزل بلبيس وبلغه خبر الأمراء، خامر عليه من كان معه من عسكر الشام وتركوه فى بلبيس ، وعادوا إلى دمشق وبها الأمير عز الدين أيدمر نائب الشام ، فصاروا إليه . ولم يبق مع السلطان إلا مماليكه، ومنهم الأمير لاجين الزينى ، ومغلطاى الدمشقى، ومغلطاى الجاكى، وسنقر التكريتى، وأيدغدى الحرانى، والبكى الساقى، وبكتوت الحمصى، وصلاح الدين يوسف بن بركه خان، ومن يجرى مجراهم؛ ولم يبق معه من الأمراء الكبار إلا الأمير سنقر الأشقر فقط . فسار [السلطان] من بلبيس ، ففارقه سنقر الأشقر من المَطَرِيّة (٤)، وأقام بموضعه .

(١) فى س " الزر يق "، ولعل النسبة إلى قبيلة زريق إحدى قبائل الأنصار . انظر ياقوت (معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢٩) .

(٢) فى س "البركخاى"، وقد أثبت الرسم الوارد هنا من (Quatremère : Op. Cit. I. 2. p. 169)، حيث هذا الاسم مترجم إلى (Berekekhai) .

(٣) فى س "الزريق" .

(٤) بغير ضبط فى س، وهى قرية بقرب عين شمس القديمة بالشمال الشرق من القاهرة ، وكانت مشهورة فى عالم القرون الوسطى بالشرق والغرب بشجر البلسان، الذى يستخرج منه الدهن المعروف بذلك الاسم . انظر ياقوت (معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٦٤ — ٥٦٥) .

*

وبلغ الأمراء أن السلطان جاء من خلف الجبل الأحمر، فركبوا ليحولوا بينه وبين القلعة، وكان الضباب كثيرا فنجا منهم، واستتر عن رؤيتهم وطلع الى القلعة. فلما انكشف الضباب بلغ الأمراء أن السلطان بالقلعة، فعادوا الى حصارها. وعند ما استقر السلطان بالقلعة تشاجر لاجين الزيني مع الزريق[1]، فنزل [الزريق] إلى الأمراء وصار معهم، وتبعه المماليك شيئا بعد شيء. وصار السلطان يشرف من برج الزفرف[2] المطلّ على الإسطبل، ويصيح بهم: "يا أمراء! أرجعُ الى رأيكم، ولا أعملُ إلا ما تقولونه"[3]، فلم يجبه أحد منهم. وأظهروا كتبا عنه يطلب فيها جماعة من الفداوية لقتلهم، وأحاطوا بالقلعة وحصروه. وكان الأمير سنجر الحلبي معتقلا بالقلعة، فأخرجه السلطان وصار معه، فاستمر الحصار مدّة أسبوع.

وكان الذى قام فى خلع[4] [السلطان[5] جماعة كثيرة من الأمراء، وهم] الأمير بيسرى، والأمير قلاون، والأمير أيتمش السعدى، والأمير أيدكين البندقدار، والأمير بكتاش الفخرى أمير سلاح، والأمير بيليك الأيدمرى، والأمير سنقر البكتوتى، والأمير سنجر طردج، والأمير بلبان الحبيشى، والأمير بكتاش (١٦٨ ا) النجمى، والأمير كشتغدى الشمسى، والأمير بلبان الهارونى، والأمير بجكا العلائى، والأمير بيبرس الرشيدى، والأمير كندغدى الوزيرى، والأمير يعقوبا الشهرزورى، والأمير أيتمش بن أطلس خان، والأمير بيدغان الركنى، والأمير بكتوت بن أتابك، والأمير كندغدى أمير مجلس، والأمير بكتوت جرمك، والأمير بيبرس طقصو، والأمير كوندك النائب، والأمير أيبك الحموى، والأمير سنقر الألفى، والأمير سنقر جاه

(١) فى ص "الزريق".

(٢) أورد المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٢١٢ — ٢١٣) تاريخا لهذا البرج من عهد السلطان الملك الأشرف خليل (٦٨٩ — ٦٠٣ هـ، ١٢٩٠ — ١٢٩٣م)، ونصه "عمره الملك الأشرف خليل بن قلاون (٢١٣) وجعله عاليا ليشرف على الجيزة كلها، وبيّضه وصوّر فيه أمراء الدولة وخواصها، وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها. وكان مجلسا يجلس فيه السلطان، واستمر جلوس الملوك به حتى هدمه الملك الناصر محمد بن قلاون فى سنة اثنتى عشرة وسبعمائة، وعمل بجواره برجا بجوار الإصطبل، [و]نقل اليه المماليك".

(٣) فى س "ما تقولوه".   (٤) فى س "خلعه".

(٥) أضيف مابين الأقواس بهذه الفقرة والتى تليها من النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٦).

الظاهرى، والأمير قلنجق الظاهرى، والأمير ساطلمس[1]، والأمير بجقار الحموى؛ ومن انضاف اليهم من الأمراء الصغار ومقدمى الحلقة، وأعيان المفاردة والبحرية[2].

ولما طال الحصار بعث [السلطانُ] الخليفةَ الحاكم بأمر الله أحمد، يقول: "يا أمراء! إيش غرضكم؟" فقالوا: "يخلع الملك السعيد نفسه من الملك، ونعطيه الكرك[3]". فأذعن السعيد لذلك، وحلف له الأمراء، وحضر الخليفة والقضاة الأعيان، وأنزل بالملك السعيد، وأشهد عليه أنه لا يصلح للملك. وخلع [السعيد] نفسه، وحلف أنه لا يتطرق الى غير الكرك، ولا يكاتب أحدا من النواب، ولا يستميل أحدا من الجند. وسُفّر من وقته الى الكرك مع الأمير بيدغان الركنى، وذلك فى سابع شهر ربيع الآخر، فكانت مدّة ملكه من حين وفاة أبيه الى يوم خلعه سنتين وشهرين وثمانية أيام. فوصل الى الكرك وتسلّمها فى خامس عشرى جمادى الآخرة، واحتوى على ما فيها من الأموال وكانت شيئا كثيرا.

ولم يقتل فى هذه الحركة سوى سيف الدين بكتوت الحمصى، فإنه كان بينه وبين سنقرجاه الظاهرى مشاجرة، فلما طلع الملك السعيد إلى قلعة الجبل يوم وصوله من بلبيس صادفه سنقرجاه — وهو من حزب الأمير قلاون ومن معه —، فطعنه فى حلقه فحمل إلى قبة القَلَنْدَرِيّة[4]، فمات من يومه ودفن بها. وكانت أيامه رخيّة الأسعار.

---

(١) كذا فى س.

(٢) البحرية هنا طائفة من الأجناد السلطانية، وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان فى السفر كالحرس. انظر القلقشندى (صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦)، حيث ورد أيضا أن أوّل من رتّب هذه الطائفة وسماها بهذا الأسم هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

(٣) أورد النويرى (نهاية الأرب، ج ٢٨، ص ١٢٦) فى هذا الصدد أن السلطان الملك السعيد أرسل الى الأمراء أثناء الحصار، "وسألهم أن يكون الشام بكماله لهم، فأبوا ذلك إلا أن يخلع نفسه من الملك. فالتمس من سيف الدين قلاون والأمير بدر الدين بيسرى أن يعطوه قلعة الكرك فأجاباه الى ذلك، ونزل من القلعة ...".

(٤) يوجد بالمقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) مكان اسمه زاوية القلندرية، والراجح أنه المقصود هنا؛ وموضع هذه الزاوية خارج باب النصر من الجهة التى فيها الترب والمقابر بالقاهرة، وقد أنشأها الشيخ حسن القلندرى الجوالق، أحد فقراء العجم القلندرية. أما لفظ القلندرية فنسبة الى مؤسس هذه الفرقة الصوفية، =

السلطان الملك العادل بدر الدين سُلَامِش (١)

[وهو] ابن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى . لما تمّ خلع الملك السعيد وسافر إلى الكرك ، عرض الأمراء السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، فامتنع وقال : "أنا ما خلعتُ الملك السعيد طمعا فى السلطنة ، والأَولى ألا يخرج الأمر عن ذرّية الملك الظاهر" (٢) . فاستُحْسِن ذلك منه لأن الفتنة سكنت ، فإنّ الظاهرية كانوا معظم العسكر ، وكانت القلاع بيد نواب الملك السعيد ، وقصد قلاون بهذا القول أن يتحكّم حتى يغيّر النوّاب ويتمكّن مما يريد . فمال الجميع إلى قوله وصوّبوا رأيه ، واستدعوا سلامش ، واتّفقوا أن يكون الأمير قلاون أتابكه ، [وأن يكون] إليه أمر العساكر وتدبير الممالك . فحضر سلامش وله من العمر سبع سنين وأشهر ، وحلف العسكر جميعه على إقامته سلطانا ،

= وهو قلندر يوسف العربى الأصل الإسبانى الموطن ، (انظر Enc. Isl. Arts. Kalandar, Kalandari) . وقد وصف المقريزى (المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ — ٤٣٣) هذه الطائفة وصفا وافيا ، ونصه : "القلندرية طائفة تنتمى الى الصوفية ، وتارة تسمى أنفسها ملامتية . وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات ، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلا الفرائض ، ولم يبالوا بتناول شىء من اللذات (٤٣٣) المباحة ، واقتصروا على رعاية الرخصة ، ولم يطلبوا حقائق العزيمة ؛ والتزموا ألا يدخروا شيئا ، وتركوا الجمع والاستكثار من الدنيا ، ولم يتقشفوا ولا زهدوا ولا تعبدوا ، وزعموا أنهم قد قنعوا بطيب قلوبهم مع الله تعالى ، واقتصروا على ذلك . وليس عندهم تطلع الى طلب مزيد ، سوى ما هم عليه من طيب القلوب . والفرق بين الملامتى والقلندرى أن الملامتى يعمل فى كتم العبادات ، والقلندرى يعمل فى تخريب العادات . والملامتى يتمسك بكل أبواب البر والخير ، ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ، ويوقف نفسه موقف العوام فى هيئته وملبوسه تسترا للحال حتى لا يفطن له ، وهو مع ذلك متطلع الى المزيد من العبادات . والقلندرى لا يتقيد بهيئة ، ولا يبالى بما يعرف من حاله وما لا يعرف ، ولا ينعطف إلا على طيب القلوب ، وهو رأس ماله" .

(١) ضبط اسم هذا السلطان على منطوقه فى الترجمة الفرنسية لابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد ، ص ٣٠٧) .

(٢) لم يقصد الأمير قلاون بامتناعه وتفضيله المبدأ الوراثى أنه كان يحترم هذا المبدأ ، وقد وضح غرضه من هذه العبارة الداهية فيما بعد ، (انظر ما يلى ، سطر ٦) . والواقع أن مبدأ الوراثة لم يكن مقبولا أو معقولا لدى أمراء المماليك ، وقد حتمت عليهم نشأتهم أن تكون المؤهلات للسلطنة عندهم الأقدمية والمهارة الحربية والقدرة على الدس من وراء ستار ، وغير ذلك مما ليس له علاقة البتة بالمبدأ الوراثى ، وتطبيق هذه الضوابط فقط واضح فى تاريخ دولتى المماليك بمصر كله .

وإقامة الأمير قلاوون (١٦٨ ب) أتابك العساكر . ولقبوه الملك العادل بدر الدين ، فاستقر الأمر على ذلك . وأقيم الأمير عز الدين أيبك الأفرم فى نيابة السلطنة، واستقر قاضى القضاة برهان الدين خضر بن الحسن السنجارى فى الوزارة .

وأما عسكر الشام فإنه لما سار من بلبيس ودخل إلى دمشق، كان بحلب الأمير عز الدين إزدمر العلائى ، والأمير قراسنقر المعزى ، والأمير أقوش الشمسى، والأمير برلغوا (١) ، فى نحو ألفى فارس . فساروا إلى دمشق ولقوا العسكر القادم من بلبيس ، فاتفقوا (٢) [مع الأمراء الذين بدمشق] على إقامة الأمير أقوش الشمسى [مقدما على الجيوش]، والقبض على الأمير عز الدين أيدمر نائب دمشق، [لأنه ترك ابن أستاذه وخامر عليه ورجع من بلبيس] . فأخذه الأمير أقوش إلى داره، فجاء الأمير أزدمر العلائى وركن الدين الجالق إلى دار أقوش، وأخذا الأمير أيدمر وصعدا به إلى قلعة دمشق، وسلّماه إلى الأمير علم الدين سنجر الدوادارى نائب القلعة .

فلما تقرر الحال على إقامة الملك العادل سلامش والأمير قلاون كُتب إلى الشام بذلك، وسار الأمير جمال الدين أقوش الباخلى وشمس الدين سنقرجاه الكنجى بنسخة الأيمان ، لحلف الناس بدمشق كما وقع الحلف بمصر .

وفى النصف من جمادى الأولى، استقر قاضى القضاة صدر الدين عمر ابن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، فى قضاء القضاة بديار مصر، عوضا عن قاضى القضاة تقى الدين محمد بن رزين بحكم عزله . وصُرف أيضا قاضى القضاة معز الدين النعمان بن الحسن ابن يوسف الخطيبى الحنفى، وقاضى القضاة نفيس الدين أبو البركات محمد بن مخلص الدين هبة الله بن كمال الدين أبى السعادات أحمد بن شكر المالكى ؛ ثم أعيدا . وولى عز الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدس الحنبلى ، قاضى القضاة الحنابلة . واستقر الأمير شمس الدين سنقر الأشقر فى نيابة السلطنة بدمشق ، فدخلها فى ثامن جمادى الآخرة ومعه

(١) كذا فى س .

(٢) أضيف ما بين الأقواس بهذه الفقرة من ابن أبى الفضائل (كتاب النهج السديد، ص ٣٠٧ وما بعدها).

جماعة من الأمراء والعسكر، فعامله الناس معاملة الملوك . وأُنزل الأمير سنجر الدوادارى من القلعة لمباشرة الشدّ، وقُرئ تقليد النيابة يوم الجمعة بمقصورة الخطابة، ولم يحضر النائب قراءته .

وفى تاسع رجب قُبض على فتح الدين عبدالله بن محمد بن القيسرانى، وزير دمشق. وفيه استقر الأمير جمال الدين أقوش الشمسى فى نيابة السلطنة بحلب، عوضا عن أيدغدى الكبكى .

وشرع الأمير قلاون فى القبض على الأمراء الظاهرية ، فقبض على أعيانهم وبعثهم إلى الثغور فسجنوا بها ، وأمسك [أيضا] كثيرا من الظاهرية وملأ الحبوس بهم . وأعطى [قلاون] ومنع وقطع ، ووصل واستخدم وعزل ، فكان صورة أتابك وتصرّفه تصرّف الملوك . واشتغل الأمير بيسرى باللهو والشرب ، فانفرد الأتابك قلاون بالمملكة وأخذ فى تدبير أحواله . وفرّق [قلاون] الأموال على المماليك واستمالهم، وقرّب الصالحية وأعطاهم الإقطاعات (١٦٩ ا)، وكبّر منهم جماعة كانوا قد نُسُوا وأُهملوا ، وسيّر عدّة منهم الى البلاد الشامية واستنابهم فى القلاع ، وتتبع ذراريهم وأخذ كثيرا منهم كانوا قد تعلّقوا بالصنائع والحرف، فرتّب طائفة منهم فى البحرية (١)، وقرّر لجماعة منهم جامكية . فعادت لهم السعادة، وقوى بهم جانبه وتمكّنت أسبابه . ثم جمع [قلاون] الأمراء فى العشرين من رجب، وتحدّث معهم فى صغر سنّ الملك العادل، وقال لهم : " قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل"، إلى أن اتفقوا على خلع سلامش فخلعوه ، وبعثوا به الى الكرك . وكانت مدّة ملكه مائة يوم ، ولم يكن حظه من الملك سوى الاسم فقط، وجميع الأمور الى الأتابك قلاون .

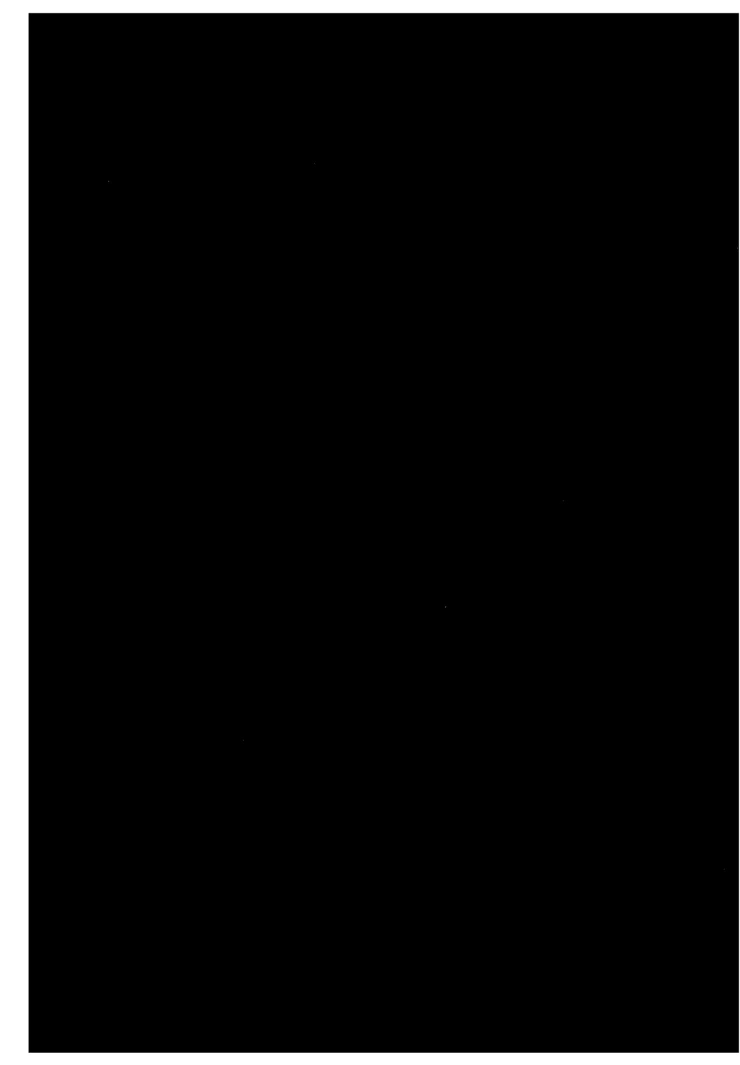
(١) لعل المقصود بهذه العبارة أن السلطان قلاون أدمج أفراد تلك الطائفة ، وهم ذرارى المماليك البحرية الصالحية ، ضمن فئة البحرية التى جدّدها فى أوائل سلطنته ، ويوضح ذلك ما جاء فى المقريزى (المواعظ والاعتبار، ج ٢ ، ص ٢١٧) فى هذا الصدد، ونصه : "واستجدّ السلطان الملك المنصور قلاون طائفة سماها البحرية ، وهى أن البحرية الصالحية لما تشتتوا عند قتل الفارس أقطاى فى أيام المعز أيبك ، بقيت أولادهم بمصر فى حالة رذيلة ، فعند ما أفضت السلطنة إلى قلاون جمعهم ورتب لهم الجوامك والعليق واللحم والكسوة ، ورسم أن يكونوا جالسين على باب القلعة وسماهم البحرية ، وإلى اليوم طائفة من الأجناد تعرف البحرية" . غير أنه قد تقدّمت الإشارة إلى استعمال لفظ البحرية للدلالة على طائفة الأجناد المكلفين بالمبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان (انظر ص ٦٥٥)، فلعل المقصود هنا أن السلطان قلاون رتّب ذرارى الصالحية المذكورين فى تلك الطائفة .

⁂

كَمُلَ طبع القسم الثانى من الجـزء الأوّل من كتاب
" السلوك للمقريزى " بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٥ (أوّل سبتمبر
سنة ١٩٣٦) م

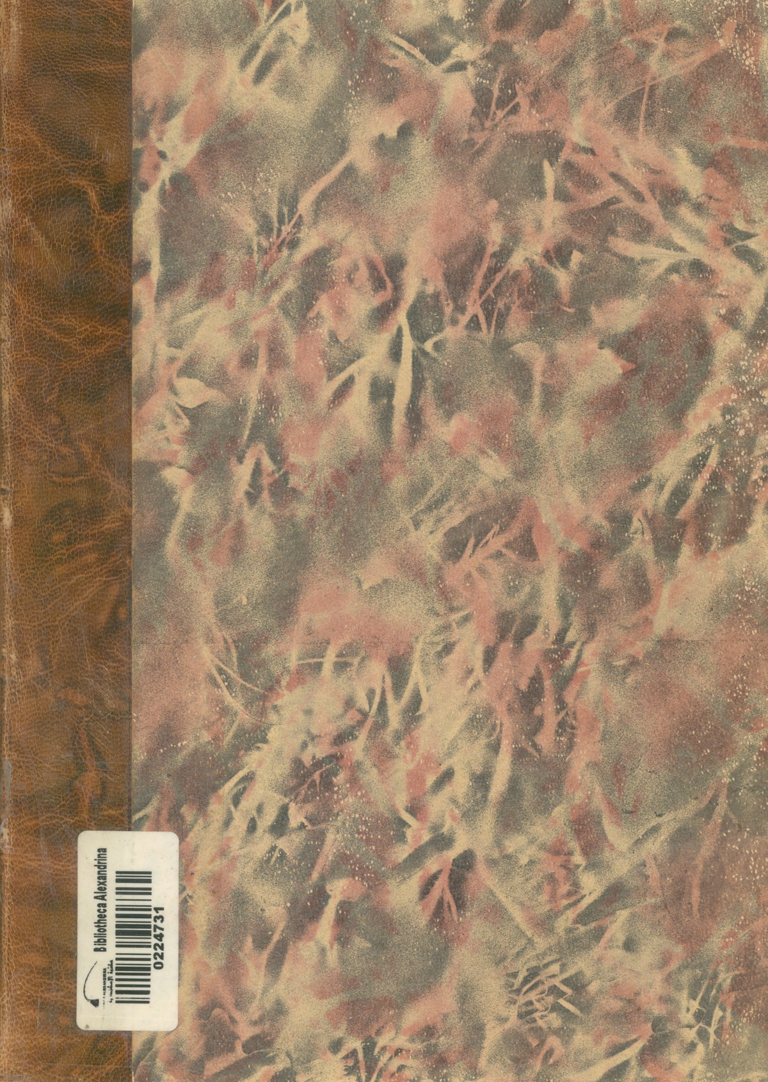
محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٢٠/١٩٣٥/١٥٠٠)








Bibliotheca Alexandrina
02224731